﴿سِلْسِلَةُ الرَّسَائِلِ المِقْدَادِيَّة فِي تَبْسِيْطِ العَقِيدَةِ الإِسْلَامِيَّة﴾
(١٠)

نُزْهَةُ النَّوَاظِرِ وَالبَصَائِرِ

فِي التَّعْرِيْفِ بِعَالَمِ اليَوْمِ الآخِرِ

(مِنْ أَشْرَاطُ السَّاعَة إِلَى الصِّرَاط وَالقُنْطَرَةِ الخَاصَّةِ بِمَنْ جَازَ الصِّرَاطَ مِنَ المُؤمِنِيْن)

الأُسْتَاذُ الدُّكْتُوْر

عَلِيْ المِقْدَادِيْ الحَاتِمِي الأَشْعَرِي

﴿ المُقَدِّمَة ﴾

إنَّ الحمد لله ، نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيِّئات أعمالنا ، من يَهده الله فلا مضلَّ له ، ومن يُضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلَّا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أنَّ محمَّداً عبده ورسوله ، وصفيُّه وخليله ، قال تعالىٰ : **﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾** [آل عمران : ١٠٢] ، وقال تعالىٰ : **﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾** [النساء:١] ، وقال تعالىٰ : **﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فازَ فَوْزاً عَظِيماً﴾** [الأحزاب: ٧٠-٧١] ، أمَّا بعد :

فالإيمان باليوم الآخر هو أحد أركان الإيمان التي لا يصحُّ إيمان العبد إلَّا بها ، وهو إيمانٌ بعالم غيبي لا يعرفه بالكليَّة إلَّا الله تعالىٰ وحده ، وما وصل إلينا من مفرداته لا سبيل إلىٰ الجزم بها إلَّا من خلال الوحي ، وهو يوم عظيم يمتدُّ من الموت إلىٰ أن يدخل أهل الجنَّة الجنَّة وأهل النَّار النَّار ... وقد دلَّت عليه آيات الكتاب العزيز وأحاديث الرَّسول صلىٰ الله عليه وسلم ...

قال تعالىٰ : **﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْناهُمْ يُنْفِقُونَ * وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِما أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَما أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾** [البقرة:٣-٤] ، وقال تعالىٰ : **﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هادُوا وَالنَّصارى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾** [البقرة:٦٢] ، وقال تعالىٰ : **﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمالَ عَلى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبى وَالْيَتامى وَالْمَساكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقابِ وَأَقامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذا عاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْساءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾** [البقرة:١٧٧] ، وقال تعالىٰ : **﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلى رَسُولِهِ وَالْكِتابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً بَعِيداً﴾** [النساء:١٣٦] ، وقال تعالىٰ : **﴿إِنَّما يَعْمُرُ مَساجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلاَّ اللَّهَ فَعَسى أُولئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾** [التوبة:١٨] ، **﴿وَيَقُولُونَ مَتى هذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ * قُلْ لا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلا نَفْعاً إِلاَّ ما شاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذا جاءَ أَجَلُهُمْ فَلا يَسْتَأْخِرُونَ ساعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ * قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتاكُمْ عَذابُهُ بَياتاً أَوْ نَهاراً ماذا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ * أَثُمَّ إِذا ما وَقَعَ آمَنْتُمْ بِهِ آلْآنَ وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ**

تَسْتَعْجِلُونَ * ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلاَّ بِما كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ * وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَما أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ * وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لافْتَدَتْ بِهِ وَأَسَرُّوا النَّدامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ * أَلا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ أَلا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ * هُوَ يُحيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [يونس:٤٨-٥٦] ، وقال تعالى : ﴿مَنْ كانَ يُرِيدُ الْعاجِلَةَ عَجَّلْنا لَهُ فِيها مَا نَشاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاها مَذْمُوماً مَدْحُوراً * وَمَنْ أَرادَ الْآخِرَةَ وَسَعى لَها سَعْيَها وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولئِكَ كانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُوراً﴾ [الإسراء:١٨-١٩] ، وقال تعالى : ﴿يا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ * يَوْمَ تَرَوْنَها تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذاتِ حَمْلٍ حَمْلَها وَتَرَى النَّاسَ سُكارى وَما هُمْ بِسُكارى وَلكِنَّ عَذابَ اللَّهِ شَدِيدٌ * وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطانٍ مَرِيدٍ * كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلاَّهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلى عَذابِ السَّعِيرِ * يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْناكُمْ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحامِ مَا نَشاءُ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً وَتَرَى الْأَرْضَ هامِدَةً فَإِذا أَنْزَلْنا عَلَيْهَا الْماءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ * ذلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِ الْمَوْتى وَأَنَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لا رَيْبَ فِيها وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾ [الحج:١-٧] ، وقال تعالى : ﴿طس تِلْكَ آياتُ الْقُرْآنِ وَكِتابٍ مُبِينٍ * هُدىً وَبُشْرى لِلْمُؤْمِنِينَ * الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ * إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ * أُولئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذابِ وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ﴾ [النمل:١-٥] ، وقال تعالى : ﴿اللَّهُ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ * وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ * وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ شُرَكائِهِمْ شُفَعاءُ وَكانُوا بِشُرَكائِهِمْ كافِرِينَ * وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ * فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ * وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآياتِنا وَلِقاءِ الْآخِرَةِ فَأُولئِكَ فِي الْعَذابِ مُحْضَرُونَ﴾ [الروم:١١-١٦] ، وقال تعالى : ﴿الم * تِلْكَ آياتُ الْكِتابِ الْحَكِيمِ * هُدىً وَرَحْمَةً لِلْمُحْسِنِينَ * الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ * أُولئِكَ عَلى هُدىً مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [لقمان:١-٥] ، وقال تعالى : ﴿وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عالِمِ الْغَيْبِ لا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقالُ ذَرَّةٍ فِي السَّماواتِ وَلا فِي الْأَرْضِ وَلا أَصْغَرُ مِنْ ذلِكَ وَلا أَكْبَرُ إِلاَّ فِي كِتابٍ مُبِينٍ * لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ أُولئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ * وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آياتِنا مُعاجِزِينَ

أُولئِكَ لَهُمْ عَذابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ﴾ [سبأ:٣-٥]، وقال تعالى: **﴿وَيَقُولُونَ مَتى هذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ * مَا يَنْظُرُونَ إِلاَّ صَيْحَةً واحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ * فَلا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلا إِلى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ * وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذا هُمْ مِنَ الْأَجْداثِ إِلى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ * قالُوا يا وَيْلَنا مَنْ بَعَثَنا مِنْ مَرْقَدِنا هَذا ما وَعَدَ الرَّحْمنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ * إِنْ كانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً واحِدَةً فَإِذا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنا مُحْضَرُونَ * فَالْيَوْمَ لا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَلا تُجْزَوْنَ إِلاَّ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ * إِنَّ أَصْحابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فاكِهُونَ * هُمْ وَأَزْواجُهُمْ فِي ظِلالٍ عَلَى الْأَرائِكِ مُتَّكِؤُنَ * لَهُمْ فِيها فاكِهَةٌ وَلَهُمْ ما يَدَّعُونَ * سَلامٌ قَوْلاً مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ * وَامْتازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ * أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يا بَنِي آدَمَ أَنْ لا تَعْبُدُوا الشَّيْطانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ * وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذا صِراطٌ مُسْتَقِيمٌ * وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلاًّ كَثِيراً أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ * هذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ * اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِما كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ * الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلى أَفْواهِهِمْ وَتُكَلِّمُنا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِما كانُوا يَكْسِبُونَ﴾** [يس:٤٨-٥٩].

وروى مسلم (١/ ٣٦ برقم٨) بسنده عَنْ يَحْيَى بْنِ يَعْمَرَ، قَالَ: كَانَ أَوَّلَ مَنْ قَالَ فِي الْقَدَرِ بِالْبَصْرَةِ مَعْبَدٌ الْجُهَنِيُّ، فَانْطَلَقْتُ أَنَا وَحُمَيْدُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْحِمْيَرِيُّ حَاجَّيْنِ - أَوْ مُعْتَمِرَيْنِ - فَقُلْنَا: لَوْ لَقِينَا أَحَدًا مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَسَأَلْنَاهُ عَمَّا يَقُولُ هَؤُلَاءِ فِي الْقَدَرِ، فَوُفِّقَ لَنَا عَبْدُ اللهِ بْنُ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ دَاخِلًا الْمَسْجِدَ، فَاكْتَنَفْتُهُ أَنَا وَصَاحِبِي أَحَدُنَا عَنْ يَمِينِهِ، وَالْآخَرُ عَنْ شِمَالِهِ، فَظَنَنْتُ أَنَّ صَاحِبِي سَيَكِلُ الْكَلَامَ إِلَيَّ، فَقُلْتُ: أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ إِنَّهُ قَدْ ظَهَرَ قِبَلَنَا نَاسٌ يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ، وَيَتَقَفَّرُونَ الْعِلْمَ، وَذَكَرَ مِنْ شَأْنِهِمْ، وَأَنَّهُمْ يَزْعُمُونَ أَنْ لَا قَدَرَ، وَأَنَّ الْأَمْرَ أُنُفٌ، قَالَ: «فَإِذَا لَقِيتَ أُولَئِكَ فَأَخْبِرْهُمْ أَنِّي بَرِيءٌ مِنْهُمْ، وَأَنَّهُمْ بُرَآءُ مِنِّي»، وَالَّذِي يَحْلِفُ بِهِ عَبْدُ اللهِ بْنُ عُمَرَ «لَوْ أَنَّ لِأَحَدِهِمْ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا، فَأَنْفَقَهُ مَا قَبِلَ اللهُ مِنْهُ حَتَّى يُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ» ثُمَّ قَالَ: حَدَّثَنِي أَبِي عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ قَالَ: بَيْنَمَا نَحْنُ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذَاتَ يَوْمٍ، إِذْ طَلَعَ عَلَيْنَا رَجُلٌ شَدِيدُ بَيَاضِ الثِّيَابِ، شَدِيدُ سَوَادِ الشَّعَرِ، لَا يُرَى عَلَيْهِ أَثَرُ السَّفَرِ، وَلَا يَعْرِفُهُ مِنَّا أَحَدٌ، حَتَّى جَلَسَ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَسْنَدَ رُكْبَتَيْهِ إِلَى رُكْبَتَيْهِ، وَوَضَعَ كَفَّيْهِ عَلَى فَخِذَيْهِ، وَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ أَخْبِرْنِي عَنِ الْإِسْلَامِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الْإِسْلَامُ أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ، وَتَحُجَّ الْبَيْتَ إِنِ اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلًا»، قَالَ: صَدَقْتَ، قَالَ: فَعَجِبْنَا لَهُ يَسْأَلُهُ، وَيُصَدِّقُهُ، قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ الْإِيمَانِ، قَالَ: «أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ»، قَالَ: صَدَقْتَ، قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ الْإِحْسَانِ، قَالَ: «أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ

يَرَاكَ»، قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ السَّاعَةِ، قَالَ: «مَا الْمَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ» قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنْ أَمَارَتِهَا، قَالَ: «أَنْ تَلِدَ الْأَمَةُ رَبَّتَهَا، وَأَنْ تَرَى الْحُفَاةَ الْعُرَاةَ الْعَالَةَ رِعَاءَ الشَّاءِ يَتَطَاوَلُونَ فِي الْبُنْيَانِ»، قَالَ: ثُمَّ انْطَلَقَ فَلَبِثْتُ مَلِيًّا، ثُمَّ قَالَ لِي: «يَا عُمَرُ أَتَدْرِي مَنِ السَّائِلُ؟» قُلْتُ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «فَإِنَّهُ جِبْرِيلُ أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ» .

وروى البخاري (٢/ ٤٣ برقم ١٠٨٨) بسنده عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لاَ يَحِلُّ لِامْرَأَةٍ تُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ أَنْ تُسَافِرَ مَسِيرَةَ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ لَيْسَ مَعَهَا حُرْمَةٌ» تَابَعَهُ يَحْيَى بْنُ أَبِي كَثِيرٍ، وَسُهَيْلٌ، وَمَالِكٌ، عَنِ المَقْبُرِيِّ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ .

وروى البخاري (٨/ ١١ برقم ٦٠١٨) بسنده عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ فَلاَ يُؤْذِ جَارَهُ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ» .

وروى البخاري (٨/ ٣٢ برقم ٦١٣٦) بسنده عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ فَلاَ يُؤْذِ جَارَهُ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ» .

وروى النَّسائيُّ في " السُّنن الكبرى" (٢/ ٤٣٣ برقم ٢٠٩١) بسنده عَنْ شَدَّادِ بْنِ الْهَادِ، أَنَّ رَجُلًا مِنَ الْأَعْرَابِ جَاءَ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَآمَنَ بِهِ وَاتَّبَعَهُ ثُمَّ قَالَ: أُهَاجِرُ مَعَكَ فَأَوْصَى بِهِ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَعْضَ أَصْحَابِهِ، فَلَمَّا كَانَتْ غَزْوَةٌ، غَنِمَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَبْيًا «فَقَسَمَ وَقَسَمَ لَهُ» فَأَعْطَى أَصْحَابَهُ مَا قَسَمَ لَهُ، وَكَانَ يَرْعَى ظَهْرَهُمْ فَلَمَّا جَاءَ دَفَعُوهُ إِلَيْهِ فَقَالَ: مَا هَذَا؟ قَالُوا: قِسْمٌ قَسَمَهُ لَكَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَخَذَهُ فَجَاءَ بِهِ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: مَا هَذَا فَقَالَ: «قَسَمْتُهُ لَكَ» قَالَ: مَا عَلَى هَذَا اتَّبَعْتُكَ، وَلَكِنِ اتَّبَعْتُكَ عَلَى أَنْ أُرْمَى هَاهُنَا وَأَشَارَ إِلَى حَلْقِهِ بِسَهْمٍ، فَأَمُوتَ فَأَدْخُلَ الْجَنَّةَ قَالَ: «إِنْ تَصْدُقِ اللهَ يَصْدُقْكَ فَلَبِثُوا قَلِيلًا» ثُمَّ نَهَضُوا فِي قِتَالِ الْعَدُوِّ فَأُتِيَ بِهِ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُحْمَلُ قَدْ أَصَابَهُ سَهْمٌ حَيْثُ أَشَارَ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَهُوَ هُوَ» فَقَالُوا نَعَمْ قَالَ: «صَدَقَ اللهَ فَصَدَّقَهُ» ثُمَّ كَفَّنَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي جُبَّةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثُمَّ قَدَّمَهُ فَصَلَّى عَلَيْهِ فَكَانَ مِمَّا ظَهَرَ مِنْ صَلَاتِهِ عَلَيْهِ «اللهُمَّ هَذَا عَبْدُكَ خَرَجَ مُهَاجِرًا فِي سَبِيلِكَ فَقُتِلَ شَهِيدًا أَنَا شَهِيدٌ عَلَيْهِ» قَالَ أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ: مَا نَعْلَمُ أَحَدًا تَابَعَ ابْنَ الْمُبَارَكِ عَلَى هَذَا وَالصَّوَابُ ابْنُ أَبِي عَمَّارٍ، عَنِ ابْنِ شَدَّادِ بْنِ الْهَادِ، وَابْنُ الْمُبَارَكِ أَحَدُ الْأَئِمَّةِ وَلَعَلَّ الْخَطَأَ مِنْ غَيْرِهِ وَاللهُ أَعْلَمُ" .

وقد جاء هذا الكتاب ضمن **﴿سِلْسِلَةُ الرَّسَائِلِ المِقْدَادِيَّة فِي تَبْسِيْطِ العَقِيدَةِ الإِسْلَامِيَّة﴾** ، والتي من خلالها سلَّطنا الضّوء على العديد من المسائل المتعلِّقة باليوم الآخر ... وقد اشتمل الكتاب على مقدِّمة وثمانية فصول ، هي :

الفَصْلُ الأَوَّل : أَشْرَاطُ السَّاعَة .

الفَصْلُ الثَّانِيّ : الصُّوُر وَمَا يَتَعَلَّقُ بِهِ مِنْ مِسائِل .

الفَصْلُ الثَّالِثُ : صُوَرٌ مِنْ مَشَاهِدِ الانْقِلَابِ الكَوْنِي عِنْدَ قِيَامِ السَّاعَة .

الفَصْلُ الرَّابِعُ : البَعْثُ وَالمَعَاد وَالحَشْرُ وَالنَّشْرِ.

الفَصْلُ الخَامِسُ : المِيْزَانُ وَمَا يَتَعَلَّقُ بِهِ مِنْ مَسَائِل .

الفَصْلُ السَّادِسُ : تَطَايُرُ الصُّحُف .

الفَصْلُ السَّابِعُ : الحَوْضُ وَمَا يَتَعَلَّقُ بِهِ مِنْ مَسَائِل .

الفَصْلُ الثَّامِنُ : الصِّرَاط وَالقُنْطَرَةِ الخَاصَّةِ بِمَنْ جَازَ الصِّرَاطَ مِنَ المُؤمِنِيْن .

والله تعالىٰ أسأل أن يرزقنا سُبُل الهُدىٰ ، وأن يُجنِّبنا موارد الهوىٰ والرَّدىٰ ، وسُبُل الغواية والعَمىٰ ، ونسأله تعالىٰ أن يعلِّمنا ما ينفعنا ، وأن ينفعنا بما علَّمنا ، وأن يزيدنا علماً ، وأن يرزقنا الإخلاص في القول والعمل ، في السرِّ والعلن ، إنَّه أهل ذلك والقادرُ عليه...

وَسُبْحَـــــــــانَكَ اللَهُمَّ وَبِحَمْدِكَ
نَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَـــــــــهَ إِلَّا أَنْتَ
نَسْتَغْفِرُكَ وَنَتُوْبُ إِلَيْكَ
وَالحَمْدُ لِله رَبِّ
العَالَمِيْن

﴿ الفَصْلُ الأَوَّلُ ﴾

۞۞۞ أَشْرَاطُ السَّاعَة ۞۞۞

العلم بوقت قيام السَّاعة غيبٌ من الغيب الذي لا يعلمه إلَّا الله تعالىٰ ، لا يعلمه نبيٌّ مرسلٌ ولا مَلَكٌ مقرَّب ، قال تعالىٰ : **﴿يَسْئَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْساها قُلْ إِنَّما عِلْمُها عِنْدَ رَبِّي لا يُجَلِّيها لِوَقْتِها إِلاَّ هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ لا تَأْتِيكُمْ إِلاَّ بَغْتَةً يَسْئَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْها قُلْ إِنَّما عِلْمُها عِنْدَ اللَّهِ وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾** [الأعراف:١٨٧] ، وقال تعالىٰ : **﴿يَسْئَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّما عِلْمُها عِنْدَ اللَّهِ وَما يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيباً﴾** [الأحزاب:٦٣] ، وقال تعالىٰ : **﴿يَسْئَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْساها * فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْراها * إِلى رَبِّكَ مُنْتَهاها * إِنَّما أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشاها * كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَها لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ عَشِيَّةً أَوْ ضُحاها﴾** [النازعات:٤٢-٤٦] .

وروىٰ البخاري (١/ ١٩ برقم ٥٠) ، مسلم (١/ ٣٩ برقم ٩) بسندهما عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَارِزًا يَوْمًا لِلنَّاسِ، فَأَتَاهُ جِبْرِيلُ فَقَالَ: مَا الإِيمَانُ؟ قَالَ: «الإِيمَانُ أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ وَمَلاَئِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَبِلِقَائِهِ، وَرُسُلِهِ وَتُؤْمِنَ بِالْبَعْثِ» . قَالَ: مَا الإِسْلاَمُ؟ قَالَ: " الإِسْلاَمُ: أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ، وَلاَ تُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا، وَتُقِيمَ الصَّلاَةَ، وَتُؤَدِّيَ الزَّكَاةَ المَفْرُوضَةَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ ". قَالَ: مَا الإِحْسَانُ؟ قَالَ: «أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ» ، قَالَ: مَتَىٰ السَّاعَةُ؟ قَالَ: " مَا المَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ، وَسَأُخْبِرُكَ عَنْ أَشْرَاطِهَا: إِذَا وَلَدَتِ الأَمَةُ رَبَّهَا، وَإِذَا تَطَاوَلَ رُعَاةُ الإِبِلِ البُهْمُ فِي البُنْيَانِ، فِي خَمْسٍ لاَ يَعْلَمُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ " ثُمَّ تَلاَ النَّبِيُّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾** [لقمان: ٣٤] الآيَةَ، ثُمَّ أَدْبَرَ فَقَالَ: «رُدُّوهُ» فَلَمْ يَرَوْا شَيْئًا، فَقَالَ: «هَذَا جِبْرِيلُ جَاءَ يُعَلِّمُ النَّاسَ دِينَهُمْ» قَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ: جَعَلَ ذَلِكَ كُلَّهُ مِنَ الإِيمَانِ " .

فالعلم بوقت قيام السَّاعة غيبٌ لا يعلمه إلَّا الله تعالىٰ ، وكلُّ من يتكلَّم بوقت قيامها كذَّاب أشر ومفتر علىٰ الله تعالىٰ وعلىٰ دينه القويم ، وكلُّ ما أوردوه في هذا الباب روايات منكرة شاذَّة باطلة لا زمام لها ولا خطام ، ولا تقوم بها حجَّة ...

قال الإمام القرطبي في " التَّذكرة بأحوال الموتىٰ وأمور الآخرة" (ص١٢٢٢-١٢٢٣) : " ... والذي ينبغي أن يقال به في هذا الباب أنَّ ما أخبر به النَّبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الفتن والكوائن أنَّ ذلك يكون ، وتعيين الزَّمان في ذلك من سنة كذا ويحتاج إلىٰ طريق صحيح يقطع العذر، وإنَّما ذلك كوقت قيام السَّاعة فلا يعلم أحد أيّ سنة هي ولا أي شهر ، أما أنَّها تكون في يوم جمعة في آخر ساعة منه وهي السَّاعة التي

خلق فيها آدم عليه السَّلام، ولكن أي جمعة لا يعلم تعيين ذلك اليوم إلَّا الله وحده لا شريك له، وكذلك ما يكون من الأشراط تعيين الزَّمان لها لا يعلم، والله أعلم" .

ومع هذا فإنَّ قيام السَّاعة قريب ... قال تعالىٰ : **﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ﴾** [الأنبياء :١]، وقال تعالىٰ : **﴿يَسْئَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّما عِلْمُها عِنْدَ اللَّهِ وَما يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيباً﴾** [الأحزاب:٦٣] ، وقال تعالىٰ : **﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ﴾** [القمر:١] .

قال الإمام ابن كثير في " البداية والنَّهاية" (١٩/ ٢٩٢-٢٩٣) : " ... مَا بَقِيَ مِنَ الدُّنْيَا بِالنِّسْبَةِ إِلَىٰ مَا مَضَىٰ مِنْهَا شَيْءٌ يَسِيرٌ، لَكِنْ لَا يَعْلَمُ مِقْدَارَ مَا مَضَىٰ مِنْهَا إِلَّا اللَّهُ تَعَالَىٰ، وَلَا مَا بَقِيَ إِلَّا اللَّهُ تَعَالَىٰ، وَلَكِنْ لَهَا أَشْرَاطٌ إِذَا وُجِدَتْ كَانَتْ قَرِيبَةً، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، وَلَمْ يَجِئْ فِي حَدِيثٍ تَحْدِيدٌ يَصِحُّ سَنَدُهُ عَنِ الْمَعْصُومِ، حَتَّىٰ يُصَارَ إِلَيْهِ، وَيُعْلَمَ نِسْبَةُ مَا بَقِيَ بِالنِّسْبَةِ إِلَيْهِ، وَلَكِنَّهُ قَلِيلٌ جِدًّا بِالنِّسْبَةِ إِلَىٰ الْمَاضِي، وَتَعْيِينُ وَقْتِ السَّاعَةِ لَمْ يَأْتِ بِهِ حَدِيثٌ صَحِيحٌ، بَلِ الْآيَاتُ وَالْأَحَادِيثُ دَالَّةٌ عَلَىٰ أَنَّ عِلْمَ ذَلِكَ مِمَّا اسْتَأْثَرَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بِهِ، دُونَ خَلْقِهِ" .

فها هي أشراطها الصُّغرىٰ جميعها قارب علىٰ الانتهاء ... ولم يبق إلَّا حصول الأشراط الكبرىٰ التي تكون السَّاعة علىٰ إثرها ، فقد روىٰ الحاكم في " المستدرك علىٰ الصَّحيحين " (٤/ ٥٨٩ برقم ٨٦٣٩ ، وقال : هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ عَلَىٰ شَرْطِ مُسْلِمٍ، وَلَمْ يُخْرِجَاهُ ، وقال الذَّهبي : علىٰ شرط مسلم) بسنده عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: «الْأَمَارَاتُ خَرَزَاتٌ مَنْظُومَاتٌ بِسِلْكٍ، فَإِذَا انْقَطَعَ السِّلْكُ تبِعَ بَعْضُهُ بَعْضًا» .

وأشراط السَّاعة هي مجموعة من الأحداث تحدث قُرب يوم القيامة ، والتي يعتبر وقوعها وحصولها مؤذنٌ بتغيُّر أحوال العالم العُلوي والسُّفلي ...

﴿سُؤالٌ﴾ : مَا المَقْصُوْدُ بِأَشْرَاطِ السَّاعَة ؟

الجواب : قال الإمام القرطبي في " الجامع لأحكام القرآن" (١٦/ ٢٤٠) : " أَيْ أَمَارَاتِهَا وَعَلَامَاتِهَا. وكانوا قد قرءوا في كتبهم أنَّ محمَّداً صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ آخِرُ الْأَنْبِيَاءِ، فَبَعْثُهُ مِنْ أَشْرَاطِهَا وَأَدِلَّتِهَا، قَالَهُ الضَّحَّاكُ وَالْحَسَنُ. وَفِي الصَّحِيحِ عَنْ أَنَسٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةِ كَهَاتَيْنِ وَضَمَّ السَّبَّابَةَ وَالْوُسْطَىٰ، لَفْظُ مُسْلِمٍ (٤/ ٢٢٦٩ برقم ٢٩٥١) . وَخَرَّجَهُ الْبُخَارِيُّ (٨/ ١٠٥ برقم ٦٥٠٤) ، وَالتِّرْمِذِيُّ (٤/ ٦٦ برقم ٢٢١٤) ، وَابْنُ مَاجَهْ (٢/ ١٣٤١ برقم ٤٠٤٠) .

وَيُرْوَىٰ : بُعِثْتُ وَالسَّاعَةُ كَفَرَسَيْ رِهَانٍ. وَقِيلَ: أَشْرَاطُ السَّاعَةِ أَسْبَابُهَا الَّتِي هِيَ دُونَ مُعْظَمِهَا. وَمِنْهُ يُقَالُ لِلدُّونِ مِنَ النَّاسِ: الشَّرَطُ " .

﴿سُؤالٌ﴾ : مَا مَعْنَى السَّاعَة ؟

الجواب : قال الإمام القرطبي في " التَّذكرة بأحوال الموتىٰ وأمور الآخرة " (ص٥٤٦) : " والسَّاعة كلمة يعبَّر بها في العربيَّة عن جزء من الزَّمان غير محدود ، وفي العُرف علىٰ جزء من أربعة وعشرين جزءاً من يوم وليلة ، اللذين هما أصل الأزمنة، وتقول العرب : أفعل كذا السَّاعة، وأنا السَّاعة في أمر كذا ، تريد الوقت الذي أنت فيه، والذي يليه تقريباً له ، وحقيقة الإطلاق فيها أنَّ السَّاعة بالألف واللام عبارة في الحقيقة عن الوقت الذي أنت فيه ، وهو المسمَّىٰ بالآن ، وسُمِّيت به القيامة إمَّا لقُربها ، فإنَّ كلَّ آت قريب، وإمَّا أن تكون سمِّيت بها تنبيهاً علىٰ ما فيها من الكائنات العِظام التي تصهر الجلود وتكسر العظام ، وقيل: إنَّما سُمِّيت بالسَّاعة لأنَّها تأتي بغتة في ساعة " .

وقال الإمام القرطبي في " الجامع لأحكام القرآن" (٦/ ٤١٢) : " سُمِّيَتِ الْقِيَامَةُ بِالسَّاعَةِ لِسُرْعَةِ الْحِسَابِ فِيهَا " .

﴿سُؤالٌ﴾ : مَا الحِكْمَةُ فِي تَقَدُّمِ أَشْرَاطِ السَّاعَة ؟

الجواب : قال الإمام القرطبي في " التَّذكرة بأحوال الموتىٰ وأمور الآخرة " (ص١٢١٧) : " قال العلماء رحمهم الله تعالىٰ: والحكمة في تقديم الأشراط ودلالة النَّاس عليها : تنبيه النَّاس من رقدتهم ، وحثّهم علىٰ الاحتياط لأنفسهم بالتَّوبة والإنابة كي لا يباغتوا بالحول بينهم وبين تدارك العوارض منهم، فينبغي للنَّاس أن يكونوا بعد ظهور أشراط السَّاعة قد نظروا لأنفسهم وانقطعوا عن الدُّنيا، واستعدُّوا للسَّاعة الموعود بها ، والله أعلم ".

﴿سُؤالٌ﴾ : مَا هِيَ أَقْسَامُ أَشْرَاطِ السَّاعَة ؟

الجواب : ورد في كتاب الله تعالىٰ وسنَّة المصطفىٰ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الكلام عن كثير من أشراط السَّاعة، وقد قسَّمها العلماء إلىٰ قسمين: أشراط صغرىٰ، وأشراط كبرىٰ.

وقد أشار الإمام القرطبي إلىٰ هذا التَّقسيم ، وسمَّىٰ الصُّغرىٰ بالأسباب الحادثة ، فقال في " التَّذكرة بأحوال الموتىٰ وأمور الآخرة "(ص١٢١٧) : " وتلك الأشراط علامة لانتهاء الدُّنيا وانقضائها.

فمنها: خروج الدَّجَّال، ونزول عيسىٰ، وقتله الدَّجَّال، وَمِنْهَا خروج يأجوج ومأجوج ودابَّة الأرض، وَمِنْهَا طلوع الشَّمس من مغربها هذه هي الآيات العِظام علىٰ ما يأتي بيانه . وأمَّا ما يتقدَّم

من هذه قبض العلم ، وغلبة الجهل ، واستيلاء أهله ، وبيع الحكم ، وظهور المعازف ، واستفاضة شرب الخمور ، واكتفاء النِّساء بالنِّساء والرِّجال بالرِّجال ، وإطالة البنيان ، وزخرفة المساجد ، وإمارة الصِّبيان ، ولعن آخر هذه الأمَّة أوَّلها ، وكثرة الهرج ، فإنَّها أسباب حادثة، ورواية الأخبار المنذرة بها بعدما صار الخبر بها عياناً تكلُّف، لكن لا بدَّ من ذكرها حتىٰ يوقف عليها ويتحقَّق بذلك معجزة النَّبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وصدقه في كلِّ ما أخبر به صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ " .

﴿سُؤالٌ﴾ : أُذْكُرْ لَنَا بَعْضَ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ الصُّغْرَى ؟

الجواب : للسَّاعة العديد من الأشراط الصُّغرىٰ ، منها :

أَوَّلاً : بعثة النَّبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

روىٰ البخاري (٨/ ١٠٥ برقم٦٥٠٣) بسنده عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ السَّاعِدِيِّ ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةَ هَكَذَا» وَيُشِيرُ بِإِصْبَعَيْهِ فَيَمُدُّ بِهِمَا .

ثَانِيَاً : مَوْتُ النَّبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

روىٰ البخاري (٤/ ١٠١ برقم ٣١٧٦) بسنده عَنْ سَمِعْتُ عَوْفَ بْنَ مَالِكٍ، قَالَ: أَتَيْتُ النَّبِيَّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ وَهُوَ فِي قُبَّةٍ مِنْ أَدَمٍ، فَقَالَ: " اعْدُدْ سِتًّا بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ: مَوْتِي، ثُمَّ فَتْحُ بَيْتِ المَقْدِسِ، ثُمَّ مُوْتَانٌ يَأْخُذُ فِيكُمْ كَقُعَاصِ الغَنَمِ، ثُمَّ اسْتِفَاضَةُ المَالِ حَتَّىٰ يُعْطَىٰ الرَّجُلُ مِائَةَ دِينَارٍ فَيَظَلُّ سَاخِطًا، ثُمَّ فِتْنَةٌ لاَ يَبْقَىٰ بَيْتٌ مِنَ العَرَبِ إِلَّا دَخَلَتْهُ، ثُمَّ هُدْنَةٌ تَكُونُ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ بَنِي الأَصْفَرِ، فَيَغْدِرُونَ فَيَأْتُونَكُمْ تَحْتَ ثَمَانِينَ غَايَةً، تَحْتَ كُلِّ غَايَةٍ اثْنَا عَشَرَ أَلْفًا " .

ثَالِثَاً : انْشِقَاقُ القَمَر :

قال الله تعالىٰ : **﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ * وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ﴾** [القمر:١-٢]

روىٰ مسلم (٤/ ٢١٥٨ برقم ٢٨٠٠) بسنده عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ، قَالَ: بَيْنَمَا نَحْنُ مَعَ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِمِنًىٰ إِذَا انْفَلَقَ الْقَمَرُ فِلْقَتَيْنِ، فَكَانَتْ فِلْقَةٌ وَرَاءَ الْجَبَلِ، وَفِلْقَةٌ دُونَهُ، فَقَالَ لَنَا رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اشْهَدُوا" .

قال الإمام ابن رجب الحنبلي في " الحكم الجديرة بالإذاعة من قول النَّبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بُعثت بالسَّيف بين يدي السَّاعة" (ص١٠) : " وقد جعل الله انشقاق القمر من علامات اقتراب السَّاعة ، كما يقول تعالىٰ: **﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ﴾** ، وكان انشقاقه بمكَّة قبل الهجرة" .

ومن المعلوم أنَّ انشقاق القمر قد وقع في زمان النَّبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وشهد به خلق عظيم ، ولم يُعرف مُنْكِرٌ له في زمان النَّبيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، ولم ينكره إلَّا الفلاسفة ومن لا خَلاقَ له من الملحدين والمشكِّكين...

قال الحافظ ابن حجر في " فتح الباري" (٧/ ١٨٥-١٨٦) : " وَقَدْ أَنْكَرَ جُمْهُورُ الْفَلَاسِفَةِ انْشِقَاقَ الْقَمَرِ مُتَمَسِّكِينَ بِأَنَّ الْآيَاتِ الْعُلْوِيَّةَ لَا يَتَهَيَّأُ فِيهَا الِانْخِرَاقُ وَالِالْتِئَامُ ، وَكَذَا قَالُوا فِي فَتْحِ أَبْوَابِ السَّمَاءِ لَيْلَةَ الْإِسْرَاءِ إِلَىٰ غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ إِنْكَارِهِمْ مَا يَكُونُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ تَكْوِيرِ الشَّمْسِ وَغَيْرِ ذَلِكَ.

وَجَوَابُ هَؤُلَاءِ إِنْ كَانُوا كُفَّارًا أَنْ يُنَاظَرُوا أَوَّلًا عَلَىٰ ثُبُوتِ دِينِ الْإِسْلَامِ ثُمَّ يُشْرَكُوا مَعَ غَيْرِهِمْ مِمَّنْ أَنْكَرَ ذَلِكَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَمَتَىٰ سَلَّمَ الْمُسْلِمُ بَعْضَ ذَلِكَ دُونَ بَعْضٍ أُلْزِمَ التَّنَاقُضَ ، وَلَا سَبِيلَ إِلَىٰ إِنْكَارِ مَا ثَبَتَ فِي الْقُرْآنِ مِنَ الِانْخِرَاقِ وَالِالْتِئَامِ فِي الْقِيَامَةِ ، فَيَسْتَلْزِمُ جَوَازَ وُقُوعِ ذَلِكَ مُعْجِزَةً لِنَبِيِّ اللَّهِ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وَقَدْ أَجَابَ الْقُدَمَاءُ عَنْ ذَلِكَ ، فَقَالَ أَبُو إِسْحَاقَ الزَّجَّاجُ فِي " مَعَانِي الْقُرْآنِ" : أَنْكَرَ بَعْضُ الْمُبْتَدِعَةِ الْمُوَافِقِينَ لِمُخَالِفِي الْمِلَّةِ انْشِقَاقَ الْقَمَرِ ، وَلَا إِنْكَارَ لِلْعَقْلِ فِيهِ ، لِأَنَّ الْقَمَرَ مَخْلُوقٌ لِلَّهِ يَفْعَلُ فِيهِ مَا يَشَاءُ كَمَا يُكَوِّرُهُ يَوْمَ الْبَعْثِ وَيُفْنِيهِ . وَأَمَّا قَوْلُ بَعْضِهِمْ : لَوْ وَقَعَ لَجَاءَ مُتَوَاتِرًا وَاشْتَرَكَ أَهْلُ الْأَرْضِ فِي مَعْرِفَتِهِ وَلَمَا اخْتُصَّ بِهَا أَهْلُ مَكَّةَ ، فَجَوَابُهُ : أَنَّ ذَلِكَ وَقَعَ لَيْلًا ، وَأَكْثَرُ النَّاسِ نِيَامٌ ، وَالْأَبْوَابُ مُغَلَّقَةٌ ، وَقَلَّ مَنْ يُرَاصِدُ السَّمَاءَ إِلَّا النَّادِرَ ، وَقَدْ يَقَعُ بِالْمُشَاهَدَةِ فِي الْعَادَةِ أَنْ يَنْكَسِفَ الْقَمَرُ وَتَبْدُو الْكَوَاكِبُ الْعِظَامُ وَغَيْرُ ذَلِكَ فِي اللَّيْلِ وَلَا يُشَاهِدُهَا إِلَّا الْآحَادُ ، فَكَذَلِكَ الِانْشِقَاقُ كَانَ آيَةً وَقَعَتْ فِي اللَّيْلِ لِقَوْمٍ سَأَلُوا وَاقْتَرَحُوا ، فَلَمْ يَتَأَهَّبْ غَيْرُهُمْ لَهَا ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الْقَمَرُ لَيْلَتَئِذٍ كَانَ فِي بَعْضِ الْمَنَازِلِ الَّتِي تَظْهَرُ لِبَعْضِ أَهْلِ الْآفَاقِ دُونَ بَعْضٍ، كَمَا يَظْهَرُ الْكُسُوفُ لِقَوْمٍ دُونَ قَوْمٍ.

وَقَالَ الْخَطَّابِيُّ : انْشِقَاقُ الْقَمَرِ آيَةٌ عَظِيمَةٌ لَا يَكَادُ يَعْدِلُهَا شَيْءٌ مِنْ آيَاتِ الْأَنْبِيَاءِ ، وَذَلِكَ أَنَّهُ ظَهَرَ فِي مَلَكُوتِ السَّمَاءِ خَارِجًا مِنْ جُمْلَةِ طِبَاعِ مَا فِي هَذَا الْعَالَمِ الْمُرَكَّبِ مِنَ الطَّبَائِعِ ، فَلَيْسَ مِمَّا يُطْمَعُ فِي الْوُصُولِ إِلَيْهِ بِحِيلَةٍ ، فَلِذَلِكَ صَارَ الْبُرْهَانُ بِهِ أَظْهَرَ . وَقَدْ أَنْكَرَ ذَلِكَ بَعْضُهُمْ ، فَقَالَ : لَوْ وَقَعَ ذَلِكَ لَمْ يَجُزْ أَنْ يَخْفَىٰ أَمْرُهُ عَلَىٰ عَوَامِّ النَّاسِ ، لِأَنَّهُ أَمْرٌ صَدَرَ عَنْ حِسٍّ وَمُشَاهَدَةٍ ، فَالنَّاسُ فِيهِ شُرَكَاءُ ، وَالدَّوَاعِي مُتَوَفِّرَةٌ عَلَىٰ رُؤْيَةِ كُلِّ غَرِيبٍ ، وَنَقْلِ مَا لَمْ يُعْهَدْ ، فَلَوْ كَانَ لِذَلِكَ أَصْلٌ لَخُلِّدَ فِي كُتُبِ أَهْلِ التَّسْيِيرِ وَالتَّنْجِيمِ ، إِذْ لَا يَجُوزُ إِطْبَاقُهُمْ عَلَىٰ تَرْكِهِ وَإِغْفَالِهِ مَعَ جَلَالَةِ شَأْنِهِ وَوُضُوحِ أَمْرِهِ .

وَالْجَوَابُ عَنْ ذَلِكَ : أَنَّ هَذِهِ الْقِصَّةَ خَرَجَتْ عَنْ بَقِيَّةِ الْأُمُورِ الَّتِي ذَكَرُوهَا ، لِأَنَّهُ شَيْءٌ طَلَبَهُ خَاصٌّ مِنَ النَّاسِ فَوَقَعَ لَيْلًا ، لِأَنَّ الْقَمَرَ لَا سُلْطَانَ لَهُ بِالنَّهَارِ ، وَمِنْ شَأْنِ اللَّيْلِ أَنْ يَكُونَ أَكْثَرُ النَّاسِ فِيهِ نِيَامًا وَمُسْتَكِنِّينَ بِالْأَبْنِيَةِ ، وَالْبَارِزُ بِالصَّحْرَاءِ مِنْهُمْ إِذَا كَانَ يَقْظَانَ يُحْتَمَلُ أَنَّهُ كَانَ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ مَشْغُولًا بِمَا يُلْهِيهِ مِنْ سَمَرٍ وَغَيْرِهِ ، وَمِنَ الْمُسْتَبْعَدِ أَنْ يَقْصِدُوا إِلَىٰ مَرَاصِدَ مَرْكَزِ الْقَمَرِ نَاظِرِينَ إِلَيْهِ لَا يَغْفُلُونَ عَنْهُ ، فَقَدْ يَجُوزُ أَنَّهُ وَقَعَ وَلَمْ يَشْعُرْ بِهِ أَكْثَرُ النَّاسِ ، وَإِنَّمَا رَآهُ مَنْ تَصَدَّىٰ لِرُؤْيَتِهِ مِمَّنِ اقْتَرَحَ وُقُوعَهُ ، وَلَعَلَّ ذَلِكَ إِنَّمَا كَانَ فِي قَدْرِ اللَّحْظَةِ الَّتِي هِيَ مَدَرَكُ الْبَصَرِ ، ثُمَّ أَبْدَىٰ حِكْمَةً بَالِغَةً فِي كَوْنِ الْمُعْجِزَاتِ الْمُحَمَّدِيَّةِ لَمْ يَبْلُغْ شَيْءٌ مِنْهَا مَبْلَغَ التَّوَاتُرِ الَّذِي لَا نِزَاعَ فِيهِ إِلَّا الْقُرْآنَ بِمَا حَاصِلُهُ إِنَّ مُعْجِزَةَ كُلِّ نَبِيٍّ كَانَتْ إِذَا وَقَعَتْ عَامَّةً أَعْقَبَتْ هَلَاكَ مَنْ كَذَّبَ بِهِ مِنْ قَوْمِهِ لِلِاشْتِرَاكِ فِي إِدْرَاكِهَا بِالْحِسِّ ، وَالنَّبِيُّ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بُعِثَ رَحْمَةً فَكَانَتْ مُعْجِزَتُهُ الَّتِي تَحَدَّىٰ بِهَا عَقْلِيَّةً ، فَاخْتُصَّ بِهَا الْقَوْمُ الَّذِينَ بُعِثَ مِنْهُمْ لِمَا أُوتُوهُ مِنْ فَضْلِ الْعُقُولِ وَزِيَادَةِ الْأَفْهَامِ ، وَلَوْ كَانَ إِدْرَاكُهَا عَامًّا لَعُوجِلَ مَنْ كَذَّبَ بِهِ كَمَا عُوجِلَ مَنْ قَبْلَهُمْ.

وَذَكَرَ أَبُو نُعَيْمٍ فِي الدَّلَائِلِ نَحْوَ مَا ذَكَرَهُ الْخَطَّابِيُّ وَزَادَ : وَلَا سِيَّمَا إِذَا وَقَعَتِ الْآيَةُ فِي بَلْدَةٍ كَانَ عَامَّةُ أَهْلِهَا يَوْمَئِذٍ الْكُفَّارَ الَّذِينَ يَعْتَقِدُونَ أَنَّهَا سِحْرٌ وَيَجْتَهِدُونَ فِي إِطْفَاءِ نُورِ اللَّهِ . قُلْتُ : وَهُوَ جَيِّدٌ بِالنِّسْبَةِ إِلَىٰ مَنْ سَأَلَ عَنِ الْحِكْمَةِ فِي قِلَّةِ مَنْ نَقَلَ ذَلِكَ مِنْ الصَّحَابَةِ ، وَأَمَّا مَنْ سَأَلَ عَنِ السَّبَبِ فِي كَوْنِ أَهْلِ التَّنْجِيمِ لَمْ يَذْكُرُوهُ فَجَوَابُهُ : أَنَّهُ لَمْ يُنْقَلْ عَنْ أَحَدٍ مِنْهُمْ أَنَّهُ نَفَاهُ ، وَهَذَا كَافٍ ، فَإِنَّ الْحُجَّةَ فِيمَنْ أَثْبَتَ لَا فِيمَنْ يُوجَدُ عَنْهُ صَرِيحُ النَّفْيِ حَتَّىٰ إِنَّ مَنْ وُجِدَ عَنْهُ صَرِيحُ النَّفْيِ يُقَدَّمُ عَلَيْهِ مَنْ وُجِدَ مِنْهُ صَرِيحُ الْإِثْبَاتِ.

وَقَالَ بن عَبْدِ الْبَرِّ : قَدْ رَوَىٰ هَذَا الْحَدِيثَ جَمَاعَةٌ كَثِيرَةٌ مِنَ الصَّحَابَةِ ، وَرَوَىٰ ذَلِكَ عَنْهُمْ أَمْثَالُهُمْ مِنَ التَّابِعِينَ ثُمَّ نَقَلَهُ عَنْهُمُ الْجَمُّ الْغَفِيرُ إِلَىٰ أَنِ انْتَهَىٰ إِلَيْنَا ، وَيُؤَيِّدُ ذَلِكَ بِالْآيَةِ الْكَرِيمَةِ ، فَلَمْ يَبْقَ لِاسْتِبْعَادِ مَنِ اسْتَبْعَدَ وُقُوعَهُ عُذْرٌ ، ثُمَّ أَجَابَ بِنَحْوِ جَوَابِ الْخَطَّابِيِّ ، وَقَالَ : وَقَدْ يَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ قَبْلَ طُلُوعِهِ عَلَىٰ آخَرِينَ وَأَيْضًا ، فَإِنَّ زَمَنَ الِانْشِقَاقِ لَمْ يَطُلْ وَلَمْ تَتَوَفَّرِ الدَّوَاعِي عَلَىٰ الِاعْتِنَاءِ بِالنَّظَرِ إِلَيْهِ ، وَمَعَ ذَلِكَ فَقَدْ بَعَثَ أَهْلُ مَكَّةَ إِلَىٰ آفَاقِ مَكَّةَ يَسْأَلُونَ عَنْ ذَلِكَ ، فَجَاءَتِ السِّفَارُ وَأَخْبَرُوا بِأَنَّهُمْ عَايَنُوا ذَلِكَ ، وَذَلِكَ لِأَنَّ الْمُسَافِرِينَ فِي اللَّيْلِ غَالِبًا يَكُونُونَ سَائِرِينَ فِي ضَوْءِ الْقَمَرِ وَلَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِمْ ذَلِكَ.

وَقَالَ الْقُرْطُبِيُّ : الْمَوَانِعُ مِنْ مُشَاهَدَةِ ذَلِكَ إِذَا لَمْ يَحْصُلِ الْقَصْدُ إِلَيْهِ غَيْرُ مُنْحَصِرَ ،ةٍ وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ اللَّهُ صَرَفَ جَمِيعَ أَهْلِ الْأَرْضِ غَيْرَ أَهْلِ مَكَّةَ وَمَا حَوْلَهَا عَنِ الِالْتِفَاتِ إِلَىٰ الْقَمَرِ فِي تِلْكَ السَّاعَةِ لِيَخْتَصَّ بِمُشَاهَدَتِهِ أَهْلَ مَكَّةَ كَمَا اخْتَصُّوا بِمُشَاهَدَةِ أَكْثَرِ الْآيَاتِ وَنَقَلُوهَا إِلَىٰ غَيْرِهِمْ اهـ.

وَفِي كَلَامِهِ نَظَرٌ ، لِأَنَّ أَحَدًا لَمْ يَنْقُلْ أَنَّ أَحَدًا مِنْ أَهْلِ الْآفَاقِ غَيْرِ أَهْلِ مَكَّةَ ذَكَرُوا أَنَّهُمْ رَصَدُوا الْقَمَرَ فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ الْمُعَيَّنَةِ ، فَلَمْ يُشَاهِدُوا انْشِقَاقَهُ ، فَلَوْ نُقِلَ ذَلِكَ لَكَانَ الْجَوَابُ الَّذِي أَبْدَاهُ الْقُرْطُبِيُّ جَيِّدًا ، وَلَكِنْ لَمْ يُنْقَلْ عَنْ أَحَدٍ مِنْ أَهْلِ الْأَرْضِ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ ، فَالِاقْتِصَارُ حِينَئِذٍ على الْجَوَابِ الَّذِي ذَكَرَهُ الْخَطَّابِيُّ وَمَنْ تَبِعَهُ أَوْضَحُ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ " .

رَابِعَاً : كَلَامُ السِّبَاعِ مَعَ الإِنْسَانِ:

روى أحمد في " المسند"(١٨/ ٣١٥ برقم ١١٧٩٢) بسنده عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ: عَدَا الذِّئْبُ عَلَى شَاةٍ، فَأَخَذَهَا فَطَلَبَهُ الرَّاعِي، فَانْتَزَعَهَا مِنْهُ، فَأَقْعَى الذِّئْبُ عَلَى ذَنَبِهِ، قَالَ: أَلَا تَتَّقِي اللهَ، تَنْزِعُ مِنِّي رِزْقًا سَاقَهُ اللهُ إِلَيَّ، فَقَالَ: يَا عَجَبِي ذِئْبٌ مُقْعٍ عَلَى ذَنَبِهِ، يُكَلِّمُنِي كَلَامَ الْإِنْسِ، فَقَالَ الذِّئْبُ: أَلَا أُخْبِرُكَ بِأَعْجَبَ مِنْ ذَلِكَ؟ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِيَثْرِبَ يُخْبِرُ النَّاسَ بِأَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ، قَالَ: فَأَقْبَلَ الرَّاعِي يَسُوقُ غَنَمَهُ، حَتَّى دَخَلَ الْمَدِينَةَ، فَزَوَاهَا إِلَى زَاوِيَةٍ مِنْ زَوَايَاهَا، ثُمَّ أَتَى رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَخْبَرَهُ، فَأَمَرَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَنُودِيَ الصَّلَاةُ جَامِعَةٌ، ثُمَّ خَرَجَ، فَقَالَ لِلرَّاعِي : " أَخْبِرْهُمْ " فَأَخْبَرَهُمْ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " صَدَقَ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يُكَلِّمَ السِّبَاعُ الْإِنْسَ، وَيُكَلِّمَ الرَّجُلَ عَذَبَةُ سَوْطِهِ، وَشِرَاكُ نَعْلِهِ، وَيُخْبِرَهُ فَخِذُهُ بِمَا أَحْدَثَ أَهْلُهُ بَعْدَهُ" . قال الأرنؤوط : " رجاله ثقات رجال الصحيح، القاسم بن الفضل الحُدَّاني، وأبو نضرة: وهو المنذر بن مالك العبدي، يزيد: هو ابن هارون. وأخرجه عبد بن حميد في "المنتخب" (٨٧٧) ، والبزار (٢٤٣١) "زوائد"، والترمذي (٢١٨١) -دون ذكر قصة الذئب-، والحاكم ٤/ ٤٦٧، ٤٦٧-٤٦٨، وأبو نعيم في "الدلائل" (٢٧٠) ، والبيهقي في "الدلائل" ٦/ ٤١-٤٢، والعقيلي في "الضعفاء" ٣/ ٤٧٨ من طرق، عن القاسم بن الفضل، بهذا الإسناد. وقال الترمذي: وهذا حديث حسن غريب! لا نعرفه إلا من حديث القاسم بن الفضل، والقاسم بن الفضل ثقة مأمون عند أهل الحديث، وثقه يحيى بن سعيد القطان، وعبد الرحمن بن مهدي. وقال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي. وقال البيهقي: هذا إسناد صحيح! وأخرجه ابن حبان (٦٤٩٤) ، وأبو نعيم في "الدلائل" (٢٧٠) من طريق هدبة بن خالد القيسي، عن القاسم بن الفضل الحداني، حدثنا أبو نضرة، به، مرفوعاً. وعند ابن حبان: زيادة الجُرَيري في الإسناد بين القاسم وأبي نضرة، وهو مقحم فيه. وأورده الهيثمي في "مجمع الزوائد" ٨/ ٢٩١، وقال: رواه أحمد، والبزار بنحوه باختصار، ورجال أحد إسنادي أحمد رجال الصحيح. وسيأتي بنحوه بالأرقام (١١٨٤١) و (١١٨٤٤) ، وفي سنده شهر بن حوشب، وهو ضعيف. وفي الباب عن أبي هريرة، سلف ٢/ ٣٠٦، وانظر حديث أبي هريرة السالف ٢/ ٣٨٢. قال السندي: قوله: فأقعى الذئب: من الإقعاء، وهو جلوس الكلب ونحوه. قوله: بأنباء ما قد سبق، أي: بأخبار الأمم السالفة مخبر بها عن الله تعالى من غير سبق تعلم منه لذلك، ففيه شهادة له صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالرسالة. قوله: فزواها -بزاي معجمة-، أي: جمعها وضمها إلى طرف من أطراف المدينة. قوله: الصلاة جامعة: بنصب الجزأين، أي: ائتوها جامعة. أو برفعهما. وفي نسخة السندي: فنودي بالصلاة جامعة بزيادة الباء " .

خَامِسَاً : فَتْحُ بَيْتِ المَقْدِسِ :

رویٰ البخاري (١٠١/٤ برقم ٣١٧٦) بسنده عَنْ سَمِعْتُ عَوْفَ بْنَ مَالِكٍ، قَالَ: أَتَيْتُ النَّبِيَّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ وَهُوَ فِي قُبَّةٍ مِنْ أَدَمٍ، فَقَالَ: " اعْدُدْ سِتًّا بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ: ... فَتْحُ بَيْتِ المَقْدِسِ، ثُمَّ مُوْتَانٌ يَأْخُذُ فِيكُمْ كَقُعَاصِ الغَنَمِ، ثُمَّ اسْتِفَاضَةُ المَالِ حَتَّىٰ يُعْطَىٰ الرَّجُلُ مِائَةَ دِينَارٍ فَيَظَلُّ سَاخِطًا، ثُمَّ فِتْنَةٌ لاَ يَبْقَىٰ بَيْتٌ مِنَ العَرَبِ إِلَّا دَخَلَتْهُ، ثُمَّ هُدْنَةٌ تَكُونُ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ بَنِي الأَصْفَرِ، فَيَغْدِرُونَ فَيَأْتُونَكُمْ تَحْتَ ثَمَانِينَ غَايَةً، تَحْتَ كُلِّ غَايَةٍ اثْنَا عَشَرَ أَلْفًا" .

سَادِسَاً : ظُهُوْرُ الطَّاعُوْنُ:

رویٰ البخاري (١٠١/٤ برقم ٣١٧٦) بسنده عَنْ سَمِعْتُ عَوْفَ بْنَ مَالِكٍ، قَالَ: أَتَيْتُ النَّبِيَّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ وَهُوَ فِي قُبَّةٍ مِنْ أَدَمٍ، فَقَالَ: " اعْدُدْ سِتًّا بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ: ... ثُمَّ مُوْتَانٌ يَأْخُذُ فِيكُمْ كَقُعَاصِ الغَنَمِ ... " .

سابِعَاً : اقْتِتَالُ فِئَتَيْنِ عَظِيمَتَيْنِ يَكُونُ بَيْنَهُمَا مَقْتَلَةٌ عَظِيمَةٌ، دَعْوَتُهُمَا وَاحِدَةٌ:

رویٰ البخاري (٥٩/٩ برقم ٧١٢١) بسنده عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: " لاَ تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّىٰ تَقْتَتِلَ فِئَتَانِ عَظِيمَتَانِ، يَكُونُ بَيْنَهُمَا مَقْتَلَةٌ عَظِيمَةٌ، دَعْوَتُهُمَا وَاحِدَةٌ، وَحَتَّىٰ يُبْعَثَ دَجَّالُونَ كَذَّابُونَ، قَرِيبٌ مِنْ ثَلاَثِينَ، كُلُّهُمْ يَزْعُمُ أَنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ، وَحَتَّىٰ يُقْبَضَ العِلْمُ وَتَكْثُرَ الزَّلاَزِلُ، وَيَتَقَارَبَ الزَّمَانُ، وَتَظْهَرَ الفِتَنُ، وَيَكْثُرَ الهَرْجُ: وَهُوَ القَتْلُ، وَحَتَّىٰ يَكْثُرَ فِيكُمُ المَالُ فَيَفِيضَ حَتَّىٰ يُهِمَّ رَبَّ المَالِ مَنْ يَقْبَلُ صَدَقَتَهُ، وَحَتَّىٰ يَعْرِضَهُ عَلَيْهِ، فَيَقُولَ الَّذِي يَعْرِضُهُ عَلَيْهِ: لاَ أَرَبَ لِي بِهِ، وَحَتَّىٰ يَتَطَاوَلَ النَّاسُ فِي البُنْيَانِ، وَحَتَّىٰ يَمُرَّ الرَّجُلُ بِقَبْرِ الرَّجُلِ فَيَقُولُ: يَا لَيْتَنِي مَكَانَهُ، وَحَتَّىٰ تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا، فَإِذَا طَلَعَتْ وَرَآهَا النَّاسُ - يَعْنِي آمَنُوا - أَجْمَعُونَ، فَذَلِكَ حِينَ لاَ يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ، أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا، وَلَتَقُومَنَّ السَّاعَةُ وَقَدْ نَشَرَ الرَّجُلاَنِ ثَوْبَهُمَا بَيْنَهُمَا، فَلاَ يَتَبَايَعَانِهِ وَلاَ يَطْوِيَانِهِ، وَلَتَقُومَنَّ السَّاعَةُ وَقَدِ انْصَرَفَ الرَّجُلُ بِلَبَنِ لِقْحَتِهِ فَلاَ يَطْعَمُهُ، وَلَتَقُومَنَّ السَّاعَةُ وَهُوَ يُلِيطُ حَوْضَهُ فَلاَ يَسْقِي فِيهِ، وَلَتَقُومَنَّ السَّاعَةُ وَقَدْ رَفَعَ أُكْلَتَهُ إِلَىٰ فِيهِ فَلاَ يَطْعَمُهَا" .

وروىٰ البخاري (٢٠٠/٤ برقم ٣٦٠٨) بسنده عَنْ أَبِيْ هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لاَ تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّىٰ يَقْتَتِلَ فِئَتَانِ دَعْوَاهُمَا وَاحِدَةٌ" .

وروىٰ البخاري (٢٠٠/٤ برقم ٣٦٠٩) ، مسلم (٢٢٣٩/٤ برقم ١٥٧) بسندهما عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: «لاَ تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّىٰ يَقْتَتِلَ فِئَتَانِ فَيَكُونَ بَيْنَهُمَا مَقْتَلَةٌ عَظِيمَةٌ،

دَعْوَاهُمَا وَاحِدَةٌ، وَلاَ تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّىٰ يُبْعَثَ دَجَّالُونَ كَذَّابُونَ، قَرِيبًا مِنْ ثَلاَثِينَ، كُلُّهُمْ يَزْعُمُ أَنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ ..." .

ثَامِناً : ظُهُوْرُ الدَّجَّالين الكذّابين الذين يدّعون النُّبوَّة:

روىٰ البخاري (٩/ ٥٩ برقم ٧١٢١) ، مسلم (٤/ ٢٢٣٩ برقم ١٥٧، واللفظ له) بسندهما عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: «لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّىٰ يُبْعَثَ دَجَّالُونَ كَذَّابُونَ قَرِيبٌ مِنْ ثَلَاثِينَ، كُلُّهُمْ يَزْعُمُ أَنَّهُ رَسُولُ اللهِ" .

وروىٰ البخاري (٩/ ٥٩ برقم ٧١٢١) بسنده عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: " لاَ تَقُومُ السَّاعَةُ ... حَتَّىٰ يُبْعَثَ دَجَّالُونَ كَذَّابُونَ، قَرِيبٌ مِنْ ثَلاَثِينَ، كُلُّهُمْ يَزْعُمُ أَنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ ... " .

تَاسِعَاً : كَثْرَةُ الفِتَن :

روىٰ أحمد في المسند (٣٢/ ٥٠٤ برقم ١٩٧٣٠) بسنده عَنْ أَبِي مُوسَىٰ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " إِنَّ بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ فِتَنًا كَقِطَعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ. يُصْبِحُ الرَّجُلُ فِيهَا مُؤْمِنًا وَيُمْسِي كَافِرًا، وَيُمْسِي مُؤْمِنًا وَيُصْبِحُ كَافِرًا. الْقَاعِدُ فِيهَا خَيْرٌ مِنَ الْقَائِمِ، وَالْقَائِمُ فِيهَا خَيْرٌ مِنَ الْمَاشِي، وَالْمَاشِي فِيهَا خَيْرٌ مِنَ السَّاعِي. فَاكْسِرُوا قِسِيَّكُمْ، وَقَطِّعُوا أَوْتَارَكُمْ، وَاضْرِبُوا بِسُيُوفِكُمُ الْحِجَارَةَ، فَإِنْ دُخِلَ عَلَىٰ أَحَدِكُمْ بَيْتَهُ، فَلْيَكُنْ كَخَيْرِ ابْنَيْ آدَمَ " . قال الأرنؤوط : "صحيح لغيره، وهذا إسناد حسن من أجل عبد الرحمن بن ثَروان، وبقية رجاله ثقات رجال الشيخين، غير الهُزَيْل بن شُرَحْبيل، فمن جال البخاري، وهو ثقة. عبد الصمد: هو ابن عبد الوارث بن سعيد العنبري. وأخرجه أبو داود (٤٢٥٩) ، وابن ماجه (٣٩٦١) ، وابن حبان (٥٩٦٢) ، والطبراني في "الأوسط" (٨٥٥٨) ، والبيهقي في "السنن" ٨/ ١٩١ من طرق عن عبد الوارث بن سعيد، به. قال الطبراني: لم يَرْوِ هذا الحديث عن محمد بن جُحادة إلا عبدُ الوارث" .

وروىٰ مسلم (١/ ١١٠ برقم ١١٨) بسنده عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ فِتَنًا كَقِطَعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ، يُصْبِحُ الرَّجُلُ مُؤْمِنًا وَيُمْسِي كَافِرًا، أَوْ يُمْسِي مُؤْمِنًا وَيُصْبِحُ كَافِرًا، يَبِيعُ دِينَهُ بِعَرَضٍ مِنَ الدُّنْيَا" .

عَاشِرَاً : كَثْرَةُ القَتْلِ :

روىٰ البخاري (٩/ ٥٩ برقم ٧١٢١) بسنده عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: " لاَ تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّىٰ .... يَكْثُرَ الهَرْجُ: وَهُوَ القَتْلُ ..." .

وروىٰ مسلم (٤/ ٢٢١٥ برقم ١٥٧) بسنده عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: «لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّىٰ يَكْثُرَ الْهَرْجُ» قَالُوا: وَمَا الْهَرْجُ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «الْقَتْلُ الْقَتْلُ" .

حَادِيْ عَشَر : كَثْرَةُ المَالِ وَاسْتِفَاضَتُه :

روىٰ البخاري (٤/ ١٠١ برقم ٣١٧٦) بسنده عَنْ سَمِعْتُ عَوْفَ بْنَ مَالِكٍ، قَالَ: أَتَيْتُ النَّبِيَّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ وَهُوَ فِي قُبَّةٍ مِنْ أَدَمٍ، فَقَالَ: " اعْدُدْ سِتًّا بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ: ... ثُمَّ اسْتِفَاضَةُ المَالِ حَتَّىٰ يُعْطَىٰ الرَّجُلُ مِائَةَ دِينَارٍ فَيَظَلُّ سَاخِطًا ... " .

وروىٰ البخاري (٢/ ١٠٨ برقم ١٤١٢) ، مسلم (٢/ ٧٠١ برقم ١٥٧) بسندهما عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " لاَ تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّىٰ يَكْثُرَ فِيكُمُ المَالُ، فَيَفِيضَ حَتَّىٰ يُهِمَّ رَبَّ المَالِ مَنْ يَقْبَلُ صَدَقَتَهُ، وَحَتَّىٰ يَعْرِضَهُ، فَيَقُولَ الَّذِي يَعْرِضُهُ عَلَيْهِ: لاَ أَرَبَ لِي " .

ثَانِيْ عَشَر : خُرُوْجُ نَارٌ مِنْ أَرْضِ الحِجَازِ تُضِيءُ أَعْنَاقَ الإِبِلِ بِبُصْرَى:

روىٰ البخاري (٩/ ٥٨ برقم ٧١١٨) ، مسلم (٤/ ٢٢٢٧ برقم ٢٩٠٢) بسندهما عن أَبِيْ هُرَيْرَةَ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: «لاَ تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّىٰ تَخْرُجَ نَارٌ مِنْ أَرْضِ الحِجَازِ تُضِيءُ أَعْنَاقَ الإِبِلِ بِبُصْرَىٰ"
.

قال الإمام ابن كثير في " البداية والنِّهاية" (١٩/ ٢٧-٢٨) : " وَقَدْ ذَكَرَ الشَّيْخُ شِهَابُ الدِّينِ أَبُو شَامَةَ – وَكَانَ شَيْخَ الْمُحَدِّثِينَ فِي زَمَانِهِ، وَأُسْتَاذَ الْمُؤَرِّخِينَ فِي أَوَانِهِ – أَنَّ فِي سَنَةِ أَرْبَعٍ وَخَمْسِينَ وَسِتِّمِائَةٍ فِي يَوْمِ الْجُمُعَةِ خَامِسِ جُمَادَىٰ الْآخِرَةِ مِنْهَا ظَهَرَتْ نَارٌ بِأَرْضِ الْحِجَازِ فِي أَرْضِ الْمَدِينَةِ النَّبَوِيَّةِ، فِي بَعْضِ تِلْكَ الْأَوْدِيَةِ، طُولَ أَرْبَعَةِ فَرَاسِخَ وَعَرْضَ أَرْبَعَةِ أَمْيَالٍ، تُسِيلُ الصَّخْرَ، حَتَّىٰ يَبْقَىٰ مِثْلَ الْآنُكِ، ثُمَّ يَصِيرُ مِثْلَ الْفَحْمِ الْأَسْوَدِ، وَأَنَّ النَّاسَ كَانُوا يَسِيرُونَ عَلَىٰ ضَوْئِهَا بِاللَّيْلِ إِلَىٰ تَيْمَاءَ، وَأَنَّهَا اسْتَمَرَّتْ شَهْرًا، وَقَدْ ضَبَطَ ذَلِكَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ، وَعَمِلُوا فِيهَا أَشْعَارًا، وَقَدْ ذَكَرْنَاهَا فِيمَا تَقَدَّمَ.

وَأَخْبَرَنِي قَاضِي الْقُضَاةِ صَدْرُ الدِّينِ عَلِيُّ بْنُ أَبِي الْقَاسِمِ الْحَنَفِيُّ، قَاضِيهِمْ بِدِمَشْقَ، عَنْ وَالِدِهِ الشَّيْخِ صَفِيِّ الدِّينِ مُدَرِّسِ الْحَنَفِيَّةِ بِبُصْرَىٰ، أَنَّهُ أَخْبَرَهُ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ الْأَعْرَابِ صَبِيحَةَ تِلْكَ اللَّيْلَةِ، مِمَّنْ كَانَ بِحَاضِرَةِ بَلَدِ بُصْرَىٰ، أَنَّهُمْ شَاهَدُوا أَعْنَاقَ الْإِبِلِ فِي ضَوْءِ هَذِهِ النَّارِ الَّتِي ظَهَرَتْ مِنْ أَرْضِ الْحِجَازِ، وَقَدْ تَقَدَّمَ بَسْطُ ذَلِكَ سَنَةَ أَرْبَعٍ وَخَمْسِينَ وَسِتِّمِائَةٍ بِمَا فِيهِ كِفَايَةٌ عَنْ إِعَادَتِهِ هُنَا" .

ثَالِثُ عَشَر : ظُهُوْرُ أَعْوَانِ الظَّلَمَةِ الذِيْنَ يَجْلِدُوْنَ النَّاس:

روىٰ أحمد في المسند" (٣٦/ ٤٦٧ برقم ٢٢١٥٠) بسنده عَنْ أَبِيْ أُمَامَةَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: " يَكُونُ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ فِي آخِرِ الزَّمَانِ رِجَالٌ، أَوْ قَالَ: يَخْرُجُ رِجَالٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ، فِي آخِرِ الزَّمَانِ مَعَهُمْ أَسْيَاطٌ كَأَنَّهَا أَذْنَابُ الْبَقَرِ يَغْدُونَ فِي سَخَطِ اللهِ وَيَرُوحُونَ فِي غَضَبِهِ " . قال الأرنؤوط : "صحيح لغيره، وهذا إسناد

حسن، سيار -وهو ابن عبد الله الأموي مولاهم الدمشقي- روىٰ عنه ثلاثة، وذكره ابن حبان وابن خلفون في "الثقات"، وحسّن حديثه الترمذي، وباقي رجاله ثقات. أبو سعيد: هو عبد الرحمن بن عبد الله مولىٰ بني هشام، وعبد الله بن بُجَير: هو ابن حُمْران التميمي، ويقال: التيمي، ويقال: القيسي البصري. وأخرجه ابن الأعرابي في "المعجم" (٢١٤٩) ، والطبراني في "الكبير" (٨٠٠٠) ، وفي "الأوسط" (٥٢٤٧) ، وأبو عمرو الداني في "الفتن" (٤٣٤) من طريق أبي الوليد هشام بن عبد الملك الطيالسي، والحاكم ٤/ ٤٣٦ من طريق بشر بن المفضل، والطبراني في "الكبير" (٨٠٠٠) من طريق علي بن عثمان اللاحقي، ثلاثتهم عن عبد الله بن بجير، بهذا الإسناد. وقال الحاكم: صحيح الإسناد، ووافقه الذهبي. ونسب الحاكم "سياراً"، فقال: "ابن سلامة" ووافقه الذهبي في "تلخيصه"، وهو خطأ. ووقع في مطبوع "الطبراني الكبير": "عبد الله ابن بحير القيس" وهو تحريف، صوابه: "عبد الله بن بجير القيسي". وأخرج الطبراني في "الكبير" (٧٦١٦) ، وفي "مسند الشاميين" (٥٤٢) من طريق شرحبيل بن مسلم، عن أبي أمامة، قال: سمعت رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: "سيكون في آخر الزمان شرطة يغدون في غضب الله، ويروحون في سخط الله، فإياك أن تكون من بطانتهم" وفي إسناده أحمد بن محمد بن يحيىٰ بن حمزة الدمشقي شيخ الطبراني فيه، وقد ضعَّفوه. وفي الباب عن أبي هريرة عند مسلم (٢٨٥٧) ، وسلف في "المسند" برقم (٨٠٧٣) . قلنا: غلط ابن الجوزي رحمه الله إذ أورد حديث أبي أمامة هذا في كتابه "الموضوعات" ٣/ ١٠١ من طريق "المسند"، ونقل عن ابن حبان في "المجروحين" ٢/ ٢٥ أنه قال: عبد الله بن بحير يروي العجائب التي كأنها معمولة، لا يحتج به. قال الحافظ ابن حجر في "القول المسدد" ص ٣٩-٤١: وهذا شاهد لحديث أبي هريرة المتقدم [هو في "المسند" (٨٠٧٣)] ، وقد غلط ابن الجوزي في تضعيفه لعبد الله بن بجير، فإن عبد الله بن بجير المذكور بضم الموحدة بعدها جيم بصيغة التصغير، يكنىٰ أبا حمران، بصري قيسي، ويقال: تميمي، وقد وقع في رواية الطبراني (٨٠٠٠) أنه قيسي، وثقه أحمد وابن معين وأبو داود وأبو حاتم، وروىٰ الآجري، عن أبي داود: أن أبا الوليد الطيالسي روىٰ عنه ووثقه، وذكره ابن حبان في "الثقات". وإنما قال ابن حبان ما نقله ابن الجوزي عنه في عبد الله بن بحير القاص الصنعاني الذي يكنىٰ أبا وائل، وأبوه بفتح الموحدة، وكسر الحاء المهملة، علىٰ أن المذكور قد وثقه غير ابن حبان، ولكن ليس هو راوي حديث أبي أمامة؛ لأنه صنعاني يروي عن أهل اليمن، وصاحب الحديث المذكور يروي عن البصريين، وسيار شيخه شامي نزل البصرة، فروىٰ عنه أهلها. وقد أخرج الضياء المقدسي حديث أبي أمامة من طريق "المسند" ومن طريق الطبراني في "الأحاديث المختارة"، ولم ينفرد به عبد الله بن بجير المذكور، فقد رويناه في "المعجم الكبير" للطبراني أيضاً (٧٦١٦) ، قال: حدثنا أحمد بن محمد بن يحيىٰ بن حمزة، حدثنا حيوة بن شريح، حدثنا إسماعيل ابن عياش، عن شرحبيل بن مسلم، عن أبي أمامة، قال: سمعت رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: "يكون في آخر الزمان شُرَط يغدون في غضب الله ويروحون في سخط الله، فإياك أن تكون منهم" وهذا إسناد صحيح؛ لأن رواية إسماعيل بن عياش عن الشاميين قوية، وشرحبيل شامي. قلنا: كذا صحح الحافظ إسناده مع أن فيه أحمد بن يحيىٰ بن حمزة الدمشقي شيخ الطبراني فيه، ترجم له هو نفسه في "لسان الميزان" ١/ ٢٩٥، فقال: له مناكير، قال أبو أحمد الحاكم: فيه نظر، وحدث عنه أبو الجهم المشغراني ببواطيل، وذكر منها حديثين، ثم قال: قال الحاكم أبو أحمد: الغالب عليَّ أنني سمعت أبا الجهم، وسألته عن حال أحمد بن محمد، فقال: قد كان كبر، فكان يلقن ما ليس من حديثه فيتلقن. وقال في ترجمة أبيه ٥/ ٤٢٣: قال ابن حبان في "الثقات": هو ثقة في نفسه يتقىٰ من حديثه ما رواه عنه أحمد بن محمد بن يحيىٰ بن حمزة وأخوه عبيد، فإنهما كانا يدخلان عليه كل شيء. ثم قال الحافظ: وله شاهد آخر من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص، قال ابن أبي شيبة (١٥/ ٢٤٢-٢٤٣) : حدثنا عبيد الله -هو ابن موسىٰ-، حدثنا شيبان، عن الأعمش، عن سالم بن أبي الجعد، عن عبد الله بن عمرو، قال: إنا لنجد في كتاب الله المنزل صنفين في النار: قوم يكونون في آخر الزمان معهم سياط كأنها أذناب البقر، يضربون بها الناس علىٰ غير جرم، لا يدخلون بطونهم إلا خبيثاً، ونساء كاسيات عاريات مائلات مميلات، لا يدخلن الجنة، ولا يجدن ريحها. وقوله: "معهم أَسْياطٌ" هكذا

رُوي بالياء، وهو شاذٌّ، والقياس: أَسواط، كما قالوا في جمع ريحٍ: أَرْياحٌ، شاذّاً، والقياس: أَرْواحٌ، وهو المُطَّرِدُ المستعمل، وإنما قُلبت الواو في سياط للكسرة قبلها، ولا كسرةَ في أَسْواطٍ، والسَّوْط: هو ما يُجلَدُ به" .

رَابعُ عَشَر : وُقُوْعُ التَّنَاكُرِ بَيْنَ النَّاس :

روىٰ أحمد في " المسند"(٣٨/ ٣٣٥ برقم ٢٣٣٠٦) بسنده عَنْ حُذَيْفَةَ قَالَ: سُئِلَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنِ السَّاعَةِ فَقَالَ: " عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ، وَلَكِنْ أُخْبِرُكُمْ بِمَشَارِيطِهَا وَمَا يَكُونُ بَيْنَ يَدَيْهَا، إِنَّ بَيْنَ يَدَيْهَا فِتْنَةً وَهَرْجًا "، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، الْفِتْنَةُ قَدْ عَرَفْنَاهَا فَالْهَرْجُ مَا هُوَ؟ قَالَ بِلِسَانِ الْحَبَشَةِ: " الْقَتْلُ، وَيُلْقَىٰ بَيْنَ النَّاسِ التَّنَاكُرُ فَلَا يَكَادُ أَحَدٌ أَنْ يَعْرِفَ أَحَدًا " . قال الأرنؤوط : "صحيح لغيره، وهذا إسناد رجاله ثقات رجال الصحيح لكن إياد بن لقيط لم يدرك حذيفة. ويشهد له حديث أبي موسىٰ الأشعري عند الطبراني كما في "مجمع الزوائد" ٧/ ٣٢٤، وقال الهيثمي: رواه الطبراني وفيه من لم يُسمَّ. وقوله: "علمها عند ربي لا يجليها لوقتها إلا هو" هي اقتباس من الآية ١٨٧ من سورة الأعراف. وفي باب الهرج الذي بين يدي الساعة عن عبد الله بن مسعود سلف برقم (٣٦٩٥) و (٤١٨٣) . وإسناده صحيح. وعن أبي هريرة سلف برقم (٧١٨٦) . وانظر شواهده عندهما " .

خَامِسُ عَشَر : فَتْحُ القَسْطَنْطِيْنِيَّة:

روىٰ مسـلم (٤/ ٢٢٣٨ برقم ٢٩٢٠) بسـنده عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ النَّبِيَّ صَـلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: «سَمِعْتُمْ بِمَدِينَةٍ جَانِبٌ مِنْهَا فِي الْبَرِّ وَجَانِبٌ مِنْهَا فِي الْبَحْرِ؟» قَالُوا: نَعَمْ، يَا رَسُولَ اللهِ قَالَ: " لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّىٰ يَغْزُوَهَا سَبْعُونَ أَلْفًا مِنْ بَنِي إِسْحَاقَ، فَإِذَا جَاءُوهَا نَزَلُوا، فَلَمْ يُقَاتِلُوا بِسِلَاحٍ وَلَمْ يَرْمُوا بِسَهْمٍ، قَالُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَاللهُ أَكْبَرُ، فَيَسْـقُطُ أَحَدُ جَانِبَيْهَا – قَالَ ثَوْرٌ: لَا أَعْلَمُهُ إِلَّا قَالَ – الَّذِي فِي الْبَحْرِ، ثُمَّ يَقُولُوا الثَّانِيَةَ: لَا إِلَـهَ إِلَّا اللـهُ وَاللهُ أَكْبَرُ، فَيَسْـقُطُ جَانِبُهَا الْآخَرُ، ثُمَّ يَقُولُوا الثَّالِثَةَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَاللهُ أَكْبَرُ، فَيُفَرَّجُ لَهُمْ، فَيَدْخُلُوهَا فَيَغْنَمُوا، فَبَيْنَمَا هُمْ يَقْتَسِمُونَ الْمَغَانِمَ، إِذْ جَاءَهُمُ الصَّرِيخُ، فَقَالَ: إِنَّ الدَّجَّالَ قَدْ خَرَجَ، فَيَتْرُكُونَ كُلَّ شَيْءٍ وَيَرْجِعُونَ " .

سَادِسُ عَشَر : : قَبْضُ العِلْمِ بِقَبْضِ أَهْلَ الخَيْرِ وَالدِّيْنِ وَفُشُوُّ الجَهْل :

روىٰ البخاري (٩/ ٥٩ برقم ٧١٢١) بسـنده عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ: أَنَّ رَسُـولَ اللَّهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: " لاَ تَقُومُ السَّاعَةُ ... حَتَّىٰ يُقْبَضَ العِلْمُ ... " .

وروىٰ البخـاري (١/ ٢٧ برقم ٨٠) ، مسـلم (٤/ ٢٠٥٦ برقم ٢٦٧١) بسـندهما عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " إِنَّ مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ: أَنْ يُرْفَعَ العِلْمُ وَيَثْبُتَ الجَهْلُ، وَيُشْرَبَ الخَمْرُ، وَيَظْهَرَ الزِّنَا " .

وروى أحمد في " المسند" (١١/ ٥٥١ برقم ٦٩٦٤) بسنده عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَأْخُذَ اللهُ شَرِيطَتَهُ مِنْ أَهْلِ الْأَرْضِ، فَيَبْقَى فِيهَا عَجَاجَةٌ، لَا يَعْرِفُونَ مَعْرُوفا، وَلَا يُنْكِرُونَ مُنْكَرًا " . قال الأرنؤوط : " رجاله ثقات رجال الشيخين إلا أن فيه عنعنة الحسن -وهو البصري- ، وقد رُوي مرفوعاً وموقوفاً، والأشبه وقفه. عبد الصمد: هو ابن عبد الوارث بن سعيد العنبري مولاهم، وهمام: هو ابن يحيى العوْذي، وقتادة: هو ابن دعامة السدوسي. وأخرجه الحاكم ٤/ ٤٣٥ من طريق عبد الصمد، شيخ أحمد، عن همام، بهذا الإسناد، وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين إن كان الحسن سمعه من عبد الله بن عمرو، ووافقه الذهبي! وأورده الهيثمي في "المجمع" ٨/ ١٣، وقال: رواه أحمد مرفوعاً وموقوفاً، ورجالهما رجال الصحيح وفي الباب عن ابن مسعود عند مسلم (٢٩٤٩) سلف برقم (٣٧٣٥) بلفظ: "لا تقوم الساعة إلا على شرار الناس". وآخر من حديث علباء التمملمي، سيرد ٣/ ٤٩٩ بلفظ: "لا تقوم الساعة إلا على حثالة الناس" . وثالث من حديث مرداس الأسلمي عند البخاري (٤١٥٦) و (٦٤٣٤) ، وسيرد ٤/ ١٩٣، ولفظه: "يقبض الصالحون الأول فالأول، وتبقى حُفالة كحفالة التمر أو الشعير لا يعبأ الله بهم شيئاً" . ورابع من حديث معاوية بن أبي سفيان عند الطبراني في "الكبير" ١٩/ (٨٣٥) ، قال الهيثمي في "المجمع" ٨/ ١٤، ورجاله رجال الصحيح، ولفظه: "ولا تقوم الساعة إلا على شرار الناس" . وخامس من حديث عقبة بن عامر عند ابن حبان (٦٨٣٦) ، وفيه: "ثم يبقى شرار الناس وعليهم تقوم الساعة" . قوله: "شريطته"، قال ابن الأثير: يعني أهل الخير والدين، والأشراط من الأضداد يقع على الأشراف والأرذال. قال الأزهري: أظنه شرطته، أي: الخيار. وقوله: "عجاجة": قال ابن الأثير: العجاج: الغوغاء والأراذل ومن لا خير فيه، واحدهم: عجاجة. قال السندي: والظاهر أن المراد بالعجاجة هاهُنا الجماعة، فلذلك زيدت التاء. والله تعالى أعلم" .

سَابِعُ عَشَر : تَقْلِيْدُ المُسْلِمِيْنَ لِغَيْرِ المُسْلِمِيْن:

روى البخاري (٩/ ١٠٢ برقم ٧٣١٩) بسنده عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: «لاَ تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَأْخُذَ أُمَّتِي بِأَخْذِ القُرُونِ قَبْلَهَا، شِبْرًا بِشِبْرٍ وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ» ، فَقِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، كَفَارِسَ وَالرُّومِ؟ فَقَالَ: «وَمَنِ النَّاسُ إِلَّا أُولَئِكَ" .

وروى البخاري (٤/ ١٦٩ برقم ٣٤٥٦) ، مسلم (٤/ ٢٠٥٤ برقم ٢٦٦٩) بسندهما عَنْ أَبِي سَعِيدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: «لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ مَنْ قَبْلَكُمْ شِبْرًا بِشِبْرٍ، وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ، حَتَّى لَوْ سَلَكُوا جُحْرَ ضَبٍّ لَسَلَكْتُمُوهُ» ، قُلْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ: اليَهُودَ، وَالنَّصَارَى قَالَ: «فَمَنْ" .

ثَامِنُ عَشَر : ظُهُوْرُ الْفُحْشُ وَالتَّفَاحُشُ:

روى أحمد في " المسند" (١١/ ٦٤ برقم ٦٥١٤) بسنده عَنْ عَبْدَ اللهِ بْنَ عَمْرٍو فَحَدَّثَنِي مِمَّا سَمِعَ مِنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَأَمْلَى عَلَيَّ، فَكَتَبْتُ بِيَدِي، فَلَمْ أَزِدْ حَرْفًا، وَلَمْ أَنْقُصْ حَرْفًا، حَدَّثَنِي أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: " إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْفُحْشَ أَوْ يُبْغِضُ الْفَاحِشَ وَالْمُتَفَحِّشَ " ، قَالَ: " وَلَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَظْهَرَ الْفُحْشُ وَالتَّفَاحُشُ، وَقَطِيعَةُ الرَّحِمِ، وَسُوءُ الْمُجَاوَرَةِ، وَحَتَّى يُؤْتَمَنَ الْخَائِنُ

وَيُخَوَّنَ الْأَمِينُ " . قال الأرنؤوط : " صحيح لغيره، وهذا إسناد ضعيف من أجل أبي سبرة، فإنه مجهول كما قال الذهبي في "الميزان"، وهو سالم بن سلمة الهذلي، هكذا سماه ابنُ سعد في "الطبقات" ٥/ ٣٠٠، والبخاري في "التاريخ الكبير" ٤/ ١١٣، وابنُ حبان في "الثقات" ٤/ ٣٠٨، وابنُ عساكر في "تاريخه" ٧/ ١٠/ أ (النسخة السليمانية) ، والذهبي في "الميزان" ٢/ ١١١، وقال في "الميزان" ٤/ ٥٢٧ في الكنىٰ: قيل: اسمه سالم بن سبرة الهذلي، قلنا: وبذلك سماه الهيثمي في "المجمع" ٧/ ٢٨٤، وجعله ابن أبي حاتم في "الجرح والتعديل" ٤/ ١٨٢ اثنين، فقال في الترجمة رقم (٧٨٨) : سالم بن سبرة، أبو سبِّرة الهُذلي، وقال في الترجمة (٧٨٩) : سالم بن سلمة الهذلي، أبو سبرة، وقال في الأول: مجهول، ولم يذكر في الثاني شيئاً. وذكره الحسيني في "الإكمال" ص ٥١٥، فقال: أبو سبرة، عن عبد الله بن عمرو، وعنه: عبد الله بن بريدة، قيل: هو سالم بن سبرة المدني. قلنا: وقد سها الحافظ ابنُ حجر، فلم يورده في "التعجيل" مع أنه من شرطه. ولم يذكر أحد ممن ترجمه أنه روىٰ عنه غير عبد الله بن بريدة، نعم، قال ابن حبان: روىٰ عنه أهل الكوفة، لكنه لم يذكر أحداً منهم. وباقي رجاله ثقات رجال الشيخين. يحيي: هو ابن سعيد القطان. وأخرجه الحاكم ١/ ٧٥ من طريق أبي أسامة، والبيهقي في "البعث والنشور" (١٧٢) من طريق روح بن عبادة، كلاهما عن حسين المعلم، بهذا الإسناد. وقال الحاكم: هذا حديث صحيح! قد اتفق الشيخان علىٰ الاحتجاج بجميع رواته، غير أبي سبرة الهذلي، وهو تابعي كبير، مبين ذكره في المسانيد والتواريخ، غير مطعون فيه، ووافقه الذهبي! وأخرجه الحاكم أيضاً ١/ ٧٥ من طريق أحمد بن حنبل، عن ابن أبي عدي، عن حسين المعلم، به. فأشار الذهبي في "تلخيصه" إلىٰ أنه أخرجه أحمد في "مسنده ." . ثم أخرجه الحاكم أيضاً من طريق عبد الله بن رجاء، عن همام، عن قتادة، عن ابن بُريدة، به. وذكره الهيثمي في "المجمع" ٧/ ٢٨٤، وقال: رواه أحمد في حديث طويل، وأبو سبِّرة هذا اسمه سالم بن سبِّرة، قال أبو حاتم: مجهول. قلنا: ستَرد الرواية المطولة برقم (٦٨٧٢) عن عبد الرزاق، عن معمر، عن مطر، عن ابن بريدة، به. وله شاهد مختصر من حديث أنس عند الحاكم ١/ ٧٨، وصححه علىٰ شرط الشيخين، ووافقه الذهبي، وهو عند البيهقي في "البعث والنشور" ص ١٠٩. وقوله عليه الصلاة والسلام: "إن الله لا يحب الفحش ... " سلف من حديث ابن عمرو برقم (٦٤٨٧) ، وتقدم هناك ذكر شواهده وقوله عليه الصلاة والسلام: "لا تقوم الساعة حتىٰ يظهر الفحش ... ": له شاهد من حديث أبي هريرة، سيرد عند أحمد (٨٤٥٩) ، وبنحوه عند ابن حبان (٦٨٤٤) . وآخر من حديث أنس، سيرد عند أحمد ٣/ ٢٢٠. وما أشار إليه أبو سبرة في روايته من حديث أبي برزة والبراء بن عازب، وعائذ بن عمرو ورجل آخر في شأن الحوض، سيرد عند أحمد كما يلي: أما حديث أبي برزة الأسلمي، فسيرد ٤/ ٤١٩، ٤٢٥، ٤٢٦. وحديث البراء بن عازب، سيرد ٤/ ٢٩٢. وحديث عائذ بن عمرو، سيرد ٥/ ٦٤، ٦٥، ويتضمن جدالاً شديداً بينه وبين عبيد الله بن زياد، لكن ليس فيه ذكر الحوض. والرجل الآخر هو زيد بن الأرقم كما صرح باسمه عبد الرزاق في "مصنفه" (٢٠٨٥٢) ، وسيرد حديثه عند أحمد ٤/ ٣٦٧. وأيلة: هي المدينة المعروفة الآن باسم العقبة، وهي مدينة معروفة في جنوب الأردن علىٰ شاطىء البحر الأحمر " .

تَاسِعُ عَشَر : قَطِيعَةُ الرَّحِمِ:

روىٰ أحمد في " المسند" (١١/ ٦٤ برقم ٦٥١٤) بسنده عَنْ عَبْدَ اللهِ بْنَ عَمْرٍو فَحَدَّثَنِي مِمَّا سَمِعَ مِنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَأَمْلَىٰ عَلَيَّ، فَكَتَبْتُ بِيَدِي، فَلَمْ أَزِدْ حَرْفًا، وَلَمْ أَنْقُصْ حَرْفًا، حَدَّثَنِي أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: " إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْفُحْشَ أَوْ يُبْغِضُ الْفَاحِشَ وَالْمُتَفَحِّشَ " ، قَالَ: " وَلَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّىٰ يَظْهَرَ ... وَقَطِيعَةُ الرَّحِمِ، وَسُوءُ الْمُجَاوَرَةِ، وَحَتَّىٰ يُؤْتَمَنَ الْخَائِنُ وَيُخَوَّنَ الْأَمِينُ " .

عِشْرُوْن :سُوءُ الْمُجَاوَرَةِ:

روىٰ أحمد في " المسند" (١١/ ٦٤ برقم ٦٥١٤) بسنده عَنْ عَبْدَ اللهِ بْنَ عَمْرٍو فَحَدَّثَنِي مِمَّا سَمِعَ مِنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَأَمْلَىٰ عَلَيَّ، فكَتَبْتُ بِيَدِي، فَلَمْ أَزِدْ حَرْفًا، وَلَمْ أَنْقُصْ حَرْفًا، حَدَّثَنِي أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: " إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْفُحْشَ أَوْ يُبْغِضُ الْفَاحِشَ وَالْمُتَفَحِّشَ " ، قَالَ: " وَلَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّىٰ يَظْهَرَ ... وَسُوءُ الْمُجَاوَرَةِ، وَحَتَّىٰ يُؤْتَمَنَ الْخَائِنُ وَيُخَوَّنَ الْأَمِينُ " .

حَادِيْ وَعِشْرُوْن: كَثْرَةُ الزَّلَازِل :

روىٰ البخاري (٩/ ٥٩ برقم ٧١٢١) بسنده عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: " لاَ تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّىٰ .... تَكْثُرَ الزَّلاَزِلُ ... " .

ثَانِيْ وَعِشْرُوْن: تَقَارُبُ الزَّمَان :

روىٰ البخاري (٩/ ٥٩ برقم ٧١٢١) بسنده عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: " لاَ تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّىٰ .... يَتَقَارَبَ الزَّمَانُ ... " .

ثَالِثُ وَعِشْرُوْن: كَثْرَةُ الشُّح:

روىٰ الطَّبراني في " المعجم الأوسط" (١/ ٢٢٨ برقم ٧٤٨) بسنده عَنْ أَبِيْ هُرَيْرَةَ، يَقُولُ: «إِنَّ مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ: أَنْ يَظْهَرَ الشُّحُّ، وَالْفُحْشُ، وَيُؤْتَمَنُ الْخَائِنُ، وَيُخَوَّنُ الْأَمِينُ، وَيَظْهَرُ ثِيَابٌ يَلْبَسُهَا نِسَاءٌ كَاسِيَاتٌ عَارِيَاتٌ، ويَعْلُو التُّحوتُ الْوُعُولَ» . أَكَذَاكَ يَا عَبْدَ اللَّهِ بْنَ مَسْعُودٍ سَمِعْتَهُ مِنْ حِبِّي؟ قَالَ: نَعَمْ، وَرَبِّ الْكَعْبَةِ. قُلْنَا: وَمَا التُّحوتُ؟ قَالَ: فُسُولُ الرِّجَالِ، وَأَهْلُ الْبُيُوتِ الْغَامِضَةِ، يُرْفَعُونَ فَوْقَ صَالِحِيهِمْ. وَالْوُعُولُ: أَهْلُ الْبُيُوتِ الصَّالِحَةِ . لَمْ يَرْوِ هَذَا الْحَدِيثَ عَنِ ابْنِ جُرَيجٍ إِلَّا حَجَّاجٌ" . قال الهيثمي في " مجمع الزوائد ومنبع الفوائد " (٧/ ٣٢٧ برقم ١٢٤٤٩) : " حَدِيثُ أَبِي هُرَيْرَةَ وَحْدَهُ فِي الصَّحِيحِ بَعْضُهُ، وَرِجَالُهُ رِجَالُ الصَّحِيحِ غَيْرَ مُحَمَّدِ بْنِ الْحَارِثِ بْنِ سُفْيَانَ وَهُوَ ثِقَةٌ" .

رَابِعُ وَعِشْرُوْن : تَطَاوُلُ النَّاسُ فِي الْبُنْيَانِ :

روىٰ البخاري (٩/ ٥٩ برقم ٧١٢١) بسنده عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: " لاَ تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّىٰ .... يَتَطَاوَلَ النَّاسُ فِي الْبُنْيَانِ ... " .

خَامِسُ وَعِشْرُوْن :: ضِيَاعُ الأَمَانَة:

رواه البخاري (٨/ ١٠٤ برقم ٦٤٩٦) بسنده عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِذَا ضُيِّعَتِ الأَمَانَةُ فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ» قَالَ: كَيْفَ إِضَاعَتُهَا يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «إِذَا أُسْنِدَ الأَمْرُ إِلَى غَيْرِ أَهْلِهِ فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ" .

سَادِسٌ وَعِشْرُوْن: شُرْبُ الخَمْر:

رواه البخاري (١/ ٢٧ برقم ٨٠) ، مسلم (٤/ ٢٠٥٦ برقم ٢٦٧١) بسندهما عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " إِنَّ مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ: أَنْ ... يُشْرَبَ الخَمْرُ ... " .

سَابِعٌ وَعِشْرُوْن : ظُهُوْرُ الزِّنَا:

رواه البخاري (١/ ٢٧ برقم ٨٠) ، مسلم (٤/ ٢٠٥٦ برقم ٢٦٧١) بسندهما عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " إِنَّ مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ: أَنْ ... يَظْهَرَ الزِّنَا" .

ثَامِنٌ وَعِشْرُوْن: كَثْرَةُ النِّسَاءِ وَقِلَّةِ الرِّجَال:

رواه البخاري (١/ ٢٧ برقم ٨١) بسنده عَنْ قَتَادَةَ، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، قَالَ: لَأُحَدِّثَنَّكُمْ حَدِيثًا لاَ يُحَدِّثُكُمْ أَحَدٌ بَعْدِي، سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: " مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ: أَنْ يَقِلَّ العِلْمُ، وَيَظْهَرَ الجَهْلُ، وَيَظْهَرَ الزِّنَا، وَتَكْثُرَ النِّسَاءُ، وَيَقِلَّ الرِّجَالُ، حَتَّى يَكُونَ لِخَمْسِينَ امْرَأَةً القَيِّمُ الوَاحِدُ " .

تَاسِعٌ وَعِشْرُوْن: وِلَادَةُ الْأَمَةُ رَبَّهَا، وَأَنْ يُصْبِحَ الْعُرَاةُ الْحُفَاةُ رُءُوسَ النَّاسِ:

رواه البخاري (١/ ١٩ برقم ٥٠) ، مسلم (١/ ٣٩ برقم ٩ ، واللفظ له) بسندهما عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمًا بَارِزًا لِلنَّاسِ، فَأَتَاهُ رَجُلٌ، فَقَالَ: يَا رَسُولُ اللهِ، مَا الْإِيمَانُ؟ قَالَ: «أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكِتَابِهِ، وَلِقَائِهِ، وَرُسُلِهِ، وَتُؤْمِنَ بِالْبَعْثِ الْآخِرِ»، قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، مَا الْإِسْلَامُ؟ قَالَ: «الْإِسْلَامُ أَنْ تَعْبُدَ اللهَ، وَلَا تُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا، وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ الْمَكْتُوبَةَ، وَتُؤَدِّيَ الزَّكَاةَ الْمَفْرُوضَةَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ» قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، مَا الْإِحْسَانُ؟ قَالَ: «أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنَّكَ إِنْ لَا تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ»، قَالَ: يَا رَسُولَ اللهَ، مَتَى السَّاعَةُ؟ قَالَ: " مَا الْمَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ، وَلَكِنْ سَأُحَدِّثُكَ عَنْ أَشْرَاطِهَا: إِذَا وَلَدَتِ الْأَمَةُ رَبَّهَا، فَذَاكَ مِنْ أَشْرَاطِهَا، وَإِذَا كَانَتِ الْعُرَاةُ الْحُفَاةُ رُءُوسَ النَّاسِ، فَذَاكَ مِنْ أَشْرَاطِهَا، وَإِذَا تَطَاوَلَ رِعَاءُ الْبَهْمِ فِي الْبُنْيَانِ، فَذَاكَ مِنْ أَشْرَاطِهَا فِي خَمْسٍ لَا يَعْلَمُهُنَّ إِلَّا اللهُ، ثُمَّ تَلَا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿**إِنَّ اللهِ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ**﴾ [لقمان: ٣٤]" قَالَ: ثُمَّ أَدْبَرَ الرَّجُلُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ

عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «رُدُّوا عَلَيَّ الرَّجُلَ»، فَأَخَذُوا لِيَرُدُّوهُ، فَلَمْ يَرَوْا شَيْئًا، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «هَذَا جِبْرِيلُ جَاءَ لِيُعَلِّمَ النَّاسَ دِينَهُمْ" .

ثَلَاثُوْن : كَثْرَةُ الكَذِب:

روىٰ مسلم (١/ ١٢ برقم ٦) بسنده عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَنَّهُ قَالَ: «سَيَكُونُ فِي آخِرِ أُمَّتِي أُنَاسٌ يُحَدِّثُونَكُمْ مَا لَمْ تَسْمَعُوا أَنْتُمْ، وَلَا آبَاؤُكُمْ، فَإِيَّاكُمْ وَإِيَّاهُمْ" .

وروىٰ أحمد في " المسند" (٦/ ٤١٥ برقم ٣٨٧٠) بسنده عِنْدَ عَبْدِ اللهِ بِنْ مِسْعُوْد عَنِ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " أَنَّ بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ ... شَهَادَةَ الزُّورِ وَكِتْمَانَ شَهَادَةِ الْحَقِّ ... " .

حَادِيْ وَثَلَاثُوْن : تَقَارُبُ الأَسْوَاق:

روىٰ أحمد في " المسند" (١٦/ ٤٢٢ برقم ١٠٧٢٤) بسنده عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: " لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّىٰ تَظْهَرَ الْفِتَنُ، وَيَكْثُرَ الْكَذِبُ، وَتَتَقَارَبَ الْأَسْوَاقُ، وَيَتَقَارَبَ الزَّمَانُ، وَيَكْثُرَ الْهَرْجُ " قِيلَ: وَمَا الْهَرْجُ؟ قَالَ: " الْقَتْلُ " .

ثَانِيْ وَثَلَاثُوْن : فُشُوُّ التِّجَارَةِ حَتَّى تُعِينَ الْمَرْأَةُ زَوْجَهَا عَلَى التِّجَارَةِ:

روىٰ أحمد في " المسند"(٦/ ٤١٦ برقم ٣٨٧٠) بسنده عِنْدَ عَبْدِ اللهِ بِن مَسْعُوْد عَنِ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " أَنَّ بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ ... فُشُوَّ التِّجَارَةِ، حَتَّىٰ تُعِينَ الْمَرْأَةُ زَوْجَهَا عَلَىٰ التِّجَارَةِ، وَقَطْعَ الْأَرْحَامِ، وَشَهَادَةَ الزُّورِ، وَكِتْمَانَ شَهَادَةِ الْحَقِّ، وَظُهُورَ الْقَلَمِ" .

ثَالِثُ وَثَلَاثُوْن : تَسْلِيمَ الْخَاصَّةِ :

روىٰ أحمد في " المسند" (٦/ ٤١٥ برقم ٣٨٧٠) بسنده عِنْدَ عَبْدِ اللهِ بِنْ مِسْعُوْد عَنِ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " أَنَّ بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ تَسْلِيمَ الْخَاصَّةِ ... " . قال الأرنؤوط : " إسناده حسن، سيار -وهو أبو حمزة الكوفي-، روىٰ عنه جمع، وذكره ابن حبان في "الثقات" ٦/ ٤٢١، وهو مذكور في بعض نسخ الكتاب دون بعض -كما ذكر محقق الكتاب-، ولم يرد ذكره في النسخة التي وقعت للحافظ ابن حجر، فقال في "تهذيب التهذيب" ٤/ ٢٩٢: ولم أجد لأبي حمزة ذكراً في "ثقات" ابن حبان، فينظر. وقد نقل المزي في "تهذيب الكمال" عن أحمد وأبي داود ويحيىٰ والدارقطني وغيرهم أنهم قالوا: قد أخطأ من قال: هو سيار أبو الحكم. وقد روىٰ له أصحاب السنن عدا النسائي، والبخاري في "الأدب المفرد"، وبقية رجاله ثقات رجال الصحيح. أبو أحمد الزبيري: هو محمد بن عبد الله بن الزبير. وأخرجه مختصراً البزار (٣٤٠٧) من طريق أبي أحمد -شيخ أحمد-، بهذا الإسناد، وقال: لا نعلمه يروىٰ من حديث طارق عن عبد الله إلا من هذا الوجه. وأخرجه البخاري بتمامه في "الأدب المفرد" (١٠٤٩) ، والطحاوي في "شرح مشكل الآثار" ٢/ ٤-٥ و٤/ ٣٨٥، والحاكم ٤/ ٤٤٥-٤٤٦، من طريق أبي نعيم، عن بشير بن سلمان، عن سيار أبي الحكم، عن طارق، به. وسيار هذا تقدم أنه أبو حمزة لا أبو الحكم. وسكت عنه الحاكم والذهبي. وأورده الهيثمي في "المجمع" ٧/ ٣٢٩، وقال: رواه كله أحمد، والبزار ببعضه، وزاد: "وأن يجتاز الرجل بالمسجد فلا يصلي فيه"، ورجال أحمد والبزار رجال الصحيح! وهذا وهم من الهيثمي

أيضاً ظن أن سياراً هو أبو الحكم، وإنما هو أبو حمزة الكوفي كما ذكرنا آنفاً، وليس هو من رجال الصحيح. ولبعضه شاهد من حديث عمرو بن تغلب عند الطيالسي في "مسنده" (١١٧١)، رواه عن ابن فضالة –وهو مبارك–، عن الحسن –وهو البصري–، قال: قال عمرو بن تغلب: سمعت رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: "إن من أشراط الساعة أن تقاتلوا قوماً نعالهم الشعر، وإن من أشراط الساعة أن تقاتلوا قوماً كأن وجوههم المجانّ المطْرقة، وإن من أشراط الساعة أن يكثر التجار، ويظهر القلم"، وأخرج قسميه الأولين أحمد كما سيرد ٥/ ٧٠، وصرح الحسن عنده بالتحديث، وعنده جرير بن حازم بدل مبارك بن فضالة. قال السندي: قوله: تسليم الخاصة: أي: تسليم المعارف فقط. قال الطحاوي في "شرح مشكل الآثار" ٢/ ٧: اختصاصه ذلك الواحد بذلك السلام دون بقيتهم ظلم منه لبقيتهم".

رَابِعٌ وَثَلَاثُوْن : ظُهُورَ الْقَلَمِ :

روىٰ أحمد في " المسند" (٦/ ٤١٥ برقم ٣٨٧٠) بسنده عِنْدَ عَبْدِ اللهِ بِنْ مِسْعُوْد عَنِ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ علَيْهِ وَسَلَّمَ: " أَنَّ بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَة ... ظُهُورَ الْقَلَمِ " .

وروىٰ البخاري في " الأدب المفرد" (ص٤٧٤ برقم ١٠٤٩) بسنده عَنْ سَيَّارٍ أَبِي الْحَكَمِ، عَنْ طَارِقٍ قَالَ: كُنَّا عِنْدَ عَبْدِ اللهِ جُلُوسًا، فَجَاءَ آذِنُهُ فَقَالَ: قَدْ قَامَتِ الصَّلاَةُ، فَقَامَ وَقُمْنَا مَعَهُ، فَدَخَلْنَا الْمَسْجِدَ، فَرَأَىٰ النَّاسَ رُكُوعًا فِي مُقَدَّمِ الْمَسْجِدِ، فَكَبَّرَ وَرَكَعَ، وَمَشَيْنَا وَفَعَلْنَا مِثْلَ مَا فَعَلَ، فَمَرَّ رَجُلٌ مُسْرِعٌ فَقَالَ: عَلَيْكُمُ السَّلاَمُ يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ، فَقَالَ: صَدَقَ اللَّهُ، وَبَلَّغَ رَسُولُهُ، فَلَمَّا صَلَّيْنَا رَجَعَ، فَوَلَجَ عَلَىٰ أَهْلِهِ، وَجَلَسْنَا فِي مَكَانِنَا نَنْتَظِرُهُ حَتَّىٰ يَخْرُجَ، فَقَالَ بَعْضُنَا لِبَعْضٍ: أَيُّكُمْ يَسْأَلُهُ؟ قَالَ طَارِقٌ: أَنَا أَسْأَلُهُ، فَسَأَلَهُ، فَقَالَ: عَنِ النَّبِيِّ صَلىٰ الله عَلَيهِ وسَلم قَالَ: بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ: تَسْلِيمُ الْخَاصَّةِ، وَفُشُوُّ التِّجَارَةِ حَتَّىٰ تُعِينَ الْمَرْأَةُ زَوْجَهَا عَلَىٰ التِّجَارَةِ، وَقَطْعُ الأَرْحَامِ، وَفُشُوُّ الْقَلَمِ، وَظُهُورُ الشَّهَادَةِ بِالزُّورِ، وَكِتْمَانُ شَهَادَةِ الْحَقِّ" .

قال الإمام ابن عبد البر في " التَّمهيد لما في الموطَّأ من المعاني والأسانيد" (١٧/ ٢٩٧-٢٩٨) في تعليقه علىٰ الحديث : " أَمَّا قَوْلُهُ فِي هَذَا الْحَدِيثِ : " وَفُشُوَّ الْقَلَم " فَإِنَّهُ أراد ظهور الكتاب وكثرة الكتاب رَوَىٰ الْمُبَارَكُ بْنُ فُضَالَةَ عَنِ الْحَسَنِ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّىٰ يُرْفَعَ الْعِلْمُ وَيَفِيضَ الْمَالُ وَيَظْهَرَ الْقَلَمُ وَيَكْثُرَ التُّجَّارُ قَالَ الْحَسَنُ لَقَدْ أَتَىٰ عَلَيْنَا زَمَانٌ إِنَّمَا يُقَالُ تَاجِرُ بَنِي فُلَانٍ وَكَاتِبُ بَنِي فُلَانٍ مَا يَكُونُ فِي الْحَيِّ إِلَّا التَّاجِرُ الْوَاحِدُ وَالْكَــاتِبُ الْوَاحِدُ قَالَ الْحَسَنُ وَاللَّهِ إِنْ كَانَ الرَّجُلُ لَيَأْتِي الْحَيَّ الْعَظِيمَ فَمَا يَجِدُ بِهِ كَاتِبًا" .

خَامِسُ وَثَلَاثُوْن : تَسْلِيْمُ الْخَاصَّةِ:

روىٰ أحمد في " المسند"(٦/ ٤١٦ برقم ٣٨٧٠) بسنده عِنْدَ عَبْدِ اللهِ بِن مَسْعُوْد عَنِ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " أَنَّ بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ تَسْلِيمَ الْخَاصَّةِ، وَفُشُوَّ التِّجَارَةِ، حَتَّىٰ تُعِينَ الْمَرْأَةُ زَوْجَهَا عَلَىٰ التِّجَارَةِ، وَقَطْعَ الْأَرْحَامِ، وَشَهَادَةَ الزُّورِ، وَكِتْمَانَ شَهَادَةِ الْحَقِّ، وَظُهُورَ الْقَلَمِ ". قال الأرنؤوط : " إسناده حسن، سيار –وهو أبو حمزة

الكوفي-، روىٰ عنه جمع، وذكره ابن حبان في "الثقات" ٦/ ٤٢١، وهو مذكور في بعض نسخ الكتاب دون بعض -كما ذكر محقق الكتاب-، ولم يرد ذكره في النسخة التي وقعت للحافظ ابن حجر، فقال في "تهذيب التهذيب" ٤/ ٢٩٢: ولم أجد لأبي حمزة ذكراً في "ثقات" ابن حبان، فينظر. وقد نقل المزي في "تهذيب الكمال" عن أحمد وأبي داود ويحيىٰ والدارقطني وغيرهم أنهم قالوا: قد أخطأ من قال: هو سيار أبو الحكم. وقد روىٰ له أصحاب السنن عدا النسائي، والبخاري في "الأدب المفرد"، وبقية رجاله ثقات رجال الصحيح. أبو أحمد الزبيري: هو محمد بن عبد الله بن الزبير. وأخرجه مختصراً البزار (٣٤٠٧) من طريق أبي أحمد -شيخ أحمد-، بهذا الإسناد، وقال: لا نعلمه يروىٰ من حديث طارق عن عبد الله إلا من هذا الوجه. وأخرجه البخاري بتمامه في "الأدب المفرد" (١٠٤٩) ، والطحاوي في "شرح مشكل الآثار" ٢/ ٤-٥ و٤/ ٣٨٥، والحاكم ٤/ ٤٤٥-٤٤٦، من طريق أبي نعيم، عن بشير بن سلمان، عن سيار أبي الحكم، عن طارق، به. وسيار هذا تقدم أنه أبو حمزة لا أبو الحكم. وسكت عنه الحاكم والذهبي. وأورده الهيثمي في "المجمع" ٧/ ٣٢٩، وقال: رواه كله أحمد، والبزار ببعضه، وزاد: "وأن يجتاز الرجل بالمسجد فلا يصلي فيه"، ورجال أحمد والبزار رجال الصحيح! وهذا وهم من الهيثمي أيضاً ظن أن سياراً هو أبو الحكم، وإنما هو أبو حمزة الكوفي كما ذكرنا آنفاً، وليس هو من رجال الصحيح. ولبعضه شاهد من حديث عمرو بن تغلب عند الطيالسي في "مسنده" (١١٧١) ، رواه عن ابن فضالة -وهو مبارك-، عن الحسن -وهو البصري-، قال: قال عمرو بن تغلب: سمعت رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: "إن من أشراط الساعة أن تقاتلوا قوماً نعالهم الشعر، وإن من أشراط الساعة أن تقاتلوا قوماً كأن وجوههم المجانّ المطْرقة، وإن من أشراط الساعة أن يكثر التجار، ويظهر القلم"، وأخرج قسميه الأولين أحمد كما سيرد ٥/ ٧٠، وصرح الحسن عنده بالتحديث، وعنده جرير بن حازم بدل مبارك بن فضالة. قال السندي: قوله: تسليم الخاصة: أي: تسليم المعارف فقط. قال الطحاوي في "شرح مشكل الآثار" ٢/ ٧: اختصاصه ذلك الواحد بذلك السلام دون بقيتهم ظلم منه لبقيتهم " .

سَادِسٌ وَثَلَاثُوْن: صِدْقُ رُؤيَا المُؤمِن:

روىٰ البخاري (٩/ ٣٧ برقم ٧٠١٧) ، مسلم (٤/ ١٧٧٣ برقم ٢٢٦٣) بسندهما عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: " أَبَا هُرَيْرَةَ، يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِذَا اقْتَرَبَ الزَّمَانُ لَمْ تَكَدْ تَكْذِبُ، رُؤْيَا المُؤْمِنِ وَرُؤْيَا المُؤْمِنِ جُزْءٌ مِنْ سِتَّةٍ وَأَرْبَعِينَ جُزْءًا مِنَ النُّبُوَّةِ» وَمَا كَانَ مِنَ النُّبُوَّةِ فَإِنَّهُ لاَ يَكْذِبُ قَالَ مُحَمَّدٌ: - وَأَنَا أَقُولُ هَذِهِ - قَالَ: وَكَانَ يُقَالُ: " الرُّؤْيَا ثَلاَثٌ: حَدِيثُ النَّفْسِ، وَتَخْوِيفُ الشَّيْطَانِ، وَبُشْرَىٰ مِنَ اللَّهِ، فَمَنْ رَأَىٰ شَيْئًا يَكْرَهُهُ فَلاَ يَقُصَّهُ عَلَىٰ أَحَدٍ وَلْيَقُمْ فَلْيُصَلِّ " قَالَ: " وَكَانَ يُكْرَهُ الغُلُّ فِي النَّوْمِ، وَكَانَ يُعْجِبُهُمُ القَيْدُ، وَيُقَالُ: القَيْدُ ثَبَاتٌ فِي الدِّينِ " وَرَوَىٰ قَتَادَةُ، وَيُونُسُ، وَهِشَامٌ، وَأَبُو هِلاَلٍ، عَنْ ابْنِ سِيرِينَ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَدْرَجَهُ بَعْضُهُمْ كُلَّهُ فِي الحَدِيثِ، وَحَدِيثُ عَوْفٍ أَبْيَنُ وَقَالَ يُونُسُ: لاَ أَحْسِبُهُ إِلَّا عَنِ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي القَيْدِ. قَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ: «لاَ تَكُونُ الأَغْلاَلُ إِلَّا فِي الأَعْنَاقِ" .

سَابِعٌ وَثَلَاثُوْن: تَدَاعِي الْأُمَمُ عَلَى أُمَّةِ الإِسْلَام مِنْ كُلِّ أُفُقٍ كَمَا تَدَاعَى الْأَكَلَةُ عَلَى قَصْعَتِهَا:

روى أحمد في " المسند "(٣٧/ ٨٢ برقم ٢٢٣٩٧) بسنده عَنْ ثَوْبَانَ مَوْلَى رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " يُوشِكُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمُ الْأُمَمُ مِنْ كُلِّ أُفُقٍ كَمَا تَدَاعَى الْأَكَلَةُ عَلَى قَصْعَتِهَا ، قَالَ: قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ، أَمِنْ قِلَّةٍ بِنَا يَوْمَئِذٍ؟ قَالَ: " أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ، وَلَكِنْ تَكُونُونَ غُثَاءً كَغُثَاءِ السَّيْلِ، تُنْتَزَعُ الْمَهَابَةُ مِنْ قُلُوبِ عَدُوِّكُمْ، وَيَجْعَلُ فِي قُلُوبِكُمُ الْوَهْنَ ". قَالَ: قُلْنَا: وَمَا الْوَهْنُ؟ قَالَ: " حُبُّ الْحَيَاةِ وَكَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ " . قال الأرنؤوط : " إسناده حسن. أبو النضر: هو هاشم بن القاسم الليثي مولاهم. ومبارك: هو ابن فضالة، وأبو أسماء الرحبي: هو عمرو بن مرثد. وأخرجه ابن أبي الدنيا في " العقوبات " (٥) ، والطبراني في "الكبير" (١٤٥٢) ، وأبو نعيم في "الحلية" ١/ ١٨٢ من طريق سعيد بن سليمان الضبي الواسطي، عن مبارك بن فضالة، به. ولم يسق الطبراني لفظه. وأخرجه أبو داود (٤٢٩٧) ، والطبراني في "الشاميين" (٦٠٠) ، والبيهقي في "الدلائل" ٦/ ٥٣٤، والبغوي (٤٢٢٤) ، وابن عساكر في ترجمة صالح بن رستم من "تاريخ دمشق" ٨/ ١٩٣ من طريق عبد الرحمن بن يزيد بن جابر، عن أبي عبد السلام صالح بن رستم، عن ثوبان. وأبو عبد السلام مجهول. وأخرجه ابن الأعرابي (٢٢٢٨) من طريق سالم بن أبي الجعد، عن ثوبان. وإسناده ضعيف ثم سالم لم يسمع من ثوبان. وأخرجه الطيالسي (٩٩٢) ، وابن أبي شيبة ١٥/ ٥٣، والبخاري في "التاريخ الكبير" ٦/ ٣٥٢، والبيهقي في "الشعب" (١٠٣٧٢) من طريق عمرو بن عبيد العبشمي، عن ثوبان موقوفاً. قلنا: عمرو بن عبيد هذا مجهول. وفي الباب عن أبي هريرة، سلف برقم (٨٧١٣) ، وإسناده ضعيف. قال السندي: قوله: "الأكلة" بفتحتين: جمع آكِل. "غثاء" بضم الغين المعجمة ومثلثة: ما يحمله السيل من زبد ووسخ وغيره" .

ثَامِنُ وَثَلَاثُوْن: كَثْرَةُ المَطَرِ وَقِلَّة النَّبَات:

روى أحمد في " المسند"(١٣/ ١١ برقم ٧٥٦٤) بسنده عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يُمْطَرَ النَّاسُ مَطَرًا لَا تُكِنُّ مِنْهُ بُيُوتُ الْمَدَرِ، وَلَا تُكِنُّ مِنْهُ إِلَّا بُيُوتُ الشَّعَرِ "

. قال الأرنؤوط : " إسناده صحيح على شرط مسلم من جهة عفان بن مسلم الباهلي، وأبو كامل متابعه -وهو مظفر بن مدرك الخراساني- ثقة من رجال أبي داود في "التفرد" والنسائي. وأخرجه ابن حبان (٦٧٧٠) من طريق بسام بن يزيد النقال، عن حماد بن سلمة، بهذا الإسناد. قوله: "لا تُكنُّ" قال السندي: أي: لا تستر منه شيئاً، أي: أن ذلك المطر ينزل من بيوت المدر، ولا تمنع بيوت المدر من نزوله، ولا ينزل من بيوت الشعر، وهو تعالى قادر على كل شيء " .

تَاسِعُ وَثَلَاثُوْن: الفرار بالدين إلى رؤوس الجبال من شدَّة الفتن:

روى البخاري (١/ ١٣ برقم ١٩) بسنده عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يُوشِكُ أَنْ يَكُونَ خَيْرَ مَالِ المُسْلِمِ غَنَمٌ يَتْبَعُ بِهَا شَعَفَ الجِبَالِ وَمَوَاقِعَ القَطْرِ، يَفِرُّ بِدِينِهِ مِنَ الفِتَنِ" .

أَرْبَعُوْن : مُرُوْرُ الرَّجُلِ بِقَبْرِ الرَّجُلِ وَقَوْلِه : يَا لَيْتَنِي مَكَانَهُ :

رویٰ البخاري (٩/ ٥٩ برقم ٧١٢١) بسنده عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: " لاَ تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّىٰ .... حَتَّىٰ يَمُرَّ الرَّجُلُ بِقَبْرِ الرَّجُلِ فَيَقُولُ: يَا لَيْتَنِي مَكَانَهُ ... " .

حَادِيْ وَأَرْبَعُوْن : عودة الشِّرك إلى جزيرة العرب :

رویٰ البخاري (٩/ ٥٨ برقم ٧١١٦) ، مسلم (٤/ ٢٢٣٠ برقم ٢٩٠٦) بسندهما عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: «لاَ تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّىٰ تَضْطَرِبَ أَلَيَاتُ نِسَاءِ دَوْسٍ عَلَىٰ ذِي الخَلَصَةِ» وَذُو الخَلَصَةِ طَاغِيَةُ دَوْسٍ الَّتِي كَانُوا يَعْبُدُونَ فِي الجَاهِلِيَّةِ " .

ثَانِيْ وَأَرْبَعُوْن : حُصُوْلُ فِتْنَةٌ لاَ يَبْقَى بَيْتٌ مِنَ العَرَبِ إِلَّا دَخَلَتْهُ :

رویٰ البخاري (٤/ ١٠١ برقم ٣١٧٦) بسنده عَنْ سَمِعْتُ عَوْفَ بْنَ مَالِكٍ، قَالَ: أَتَيْتُ النَّبِيَّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ وَهُوَ فِي قُبَّةٍ مِنْ أَدَمٍ، فَقَالَ: " اعْدُدْ سِتًّا بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ: ... فِتْنَةٌ لاَ يَبْقَىٰ بَيْتٌ مِنَ العَرَبِ إِلَّا دَخَلَتْهُ ... " .

ثَالِثُ وَأَرْبَعُوْن : كَثْرَةُ الرُّوْمِ وقِتَالُهم المُسْلِمِيْن:

رویٰ مسلم (٤/ ٢٢٢٢ برقم ٢٨٩٨) بسنده عَنْ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ قَال : قَالَ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَقُولُ: «تَقُومُ السَّاعَةُ وَالرُّومُ أَكْثَرُ النَّاسِ» فَقَالَ لَهُ عَمْرٌو: أَبْصِرْ مَا تَقُولُ، قَالَ: أَقُولُ مَا سَمِعْتُ مِنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: لَئِنْ قُلْتَ ذَلِكَ، إِنَّ فِيهِمْ لَخِصَالًا أَرْبَعًا: إِنَّهُمْ لَأَحْلَمُ النَّاسِ عِنْدَ فِتْنَةٍ، وَأَسْرَعُهُمْ إِفَاقَةً بَعْدَ مُصِيبَةٍ، وَأَوْشَكُهُمْ كَرَّةً بَعْدَ فَرَّةٍ وَخَيْرُهُمْ لِمِسْكِينٍ وَيَتِيمٍ وَضَعِيفٍ، وَخَامِسَةٌ حَسَنَةٌ جَمِيلَةٌ: وَأَمْنَعُهُمْ مِنْ ظُلْمِ الْمُلُوكِ " .

رَابِعُ وَأَرْبَعُوْن : حُصُوْلُ هُدْنَةٌ بَيْنَ وَبَيْنَ بَنِي الأَصْفَرِ ثُمَّ يَغْدِرُونَ:

رویٰ البخاري (٤/ ١٠١ برقم ٣١٧٦) بسنده عَنْ سَمِعْتُ عَوْفَ بْنَ مَالِكٍ، قَالَ: أَتَيْتُ النَّبِيَّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ وَهُوَ فِي قُبَّةٍ مِنْ أَدَمٍ، فَقَالَ: " اعْدُدْ سِتًّا بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ: ... هُدْنَةٌ تَكُونُ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ بَنِي الأَصْفَرِ، فَيَغْدِرُونَ فَيَأْتُونَكُمْ تَحْتَ ثَمَانِينَ غَايَةً، تَحْتَ كُلِّ غَايَةٍ اثْنَا عَشَرَ أَلْفًا" .

خَامِسُ وَأَرْبَعُوْن : قِتَالُ التُّرْك:

رویٰ مسلم (٤/ ٢٢٣٣ برقم٢٩١٢) بسنده عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: «لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّىٰ يُقَاتِلَ الْمُسْلِمُونَ التُّرْكَ، قَوْمًا وُجُوهُهُمْ كَالْمَجَانِّ الْمُطْرَقَةِ يَلْبَسُونَ الشَّعَرَ، وَيَمْشُونَ فِي الشَّعَرِ" .

سَادِسُ وَأَرْبَعُوْن : قَتَالُ الأَعَاجِم:

روىٰ البخاري (٤/ ١٩٦ برقم ٣٥٩٠) بسنده عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: " لا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّىٰ تُقَاتِلُوا خُوزًا، وَكَرْمَانَ مِنَ الأَعَاجِمِ حُمْرَ الوُجُوهِ، فُطْسَ الأُنُوفِ، صِغَارَ الأَعْيُنِ وُجُوهُهُمُ المَجَانُّ المُطْرَقَةُ، نِعَالُهُمُ الشَّعَرُ ".

سَابِعُ وَأَرْبَعُوْن : قِتَالُ اليَهُوْد:

روىٰ البخاري (٤/ ٤٢ برقم ٢٩٢٦) بسنده عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: " لا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّىٰ تُقَاتِلُوا اليَهُودَ، حَتَّىٰ يَقُولَ الحَجَرُ وَرَاءَهُ اليَهُودِيُّ: يَا مُسْلِمُ، هَذَا يَهُودِيٌّ وَرَائِي فَاقْتُلْهُ " .

وروىٰ مسلم (٤/ ٢٢٣٩ برقم ٢٩٢٢) بسنده عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: " لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّىٰ يُقَاتِلَ الْمُسْلِمُونَ الْيَهُودَ، فَيَقْتُلُهُمُ الْمُسْلِمُونَ حَتَّىٰ يَخْتَبِئَ الْيَهُودِيُّ مِنْ وَرَاءِ الْحَجَرِ وَالشَّجَرِ، فَيَقُولُ الْحَجَرُ أَوِ الشَّجَرُ: يَا مُسْلِمُ يَا عَبْدَ اللهِ هَذَا يَهُودِيٌّ خَلْفِي، فَتَعَالَ فَاقْتُلْهُ، إِلَّا الْغَرْقَدَ، فَإِنَّهُ مِنْ شَجَرِ الْيَهُودِ " .

ثَامِنُ وَأَرْبَعُوْن : انْحِسَارُ الفُرَاتِ عَنْ جَبَلٍ مِنَ الذَّهَب:

روىٰ مسلم (٤/ ٢٢١٩ برقم ٢٨٩٤) بسنده عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: " لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّىٰ يَحْسِرَ الْفُرَاتُ عَنْ جَبَلٍ مِنْ ذَهَبٍ، يَقْتَتِلُ النَّاسُ عَلَيْهِ، فَيُقْتَلُ مِنْ كُلِّ مِائَةٍ، تِسْعَةٌ وَتِسْعُونَ، وَيَقُولُ كُلُّ رَجُلٍ مِنْهُمْ: لَعَلِّي أَكُونُ أَنَا الَّذِي أَنْجُو " .

تَاسِعُ وَأَرْبَعُوْن : عَوْدَةُ أَرْضِ الْعَرَبِ مُرُوجًا وَأَنْهَارًا:

روىٰ مسلم (٢/ ٧٠١ برقم ١٥٧) بسنده عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّىٰ يَكْثُرَ الْمَالُ وَيَفِيضَ، حَتَّىٰ يَخْرُجَ الرَّجُلُ بِزَكَاةِ مَالِهِ فَلَا يَجِدُ أَحَدًا يَقْبَلُهَا مِنْهُ، وَحَتَّىٰ تَعُودَ أَرْضُ الْعَرَبِ مُرُوجًا وَأَنْهَارًا" .

وروىٰ أحمد في المسند (١٤/ ٤٢٧ برقم ٨٨٣٣) بسنده عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّىٰ تَعُودَ أَرْضُ الْعَرَبِ مُرُوجًا وَأَنْهَارًا ... " . قال الأرنؤوط : " إسناده صحيح علىٰ شرط مسلم، رجاله ثقات رجال الشيخين غير سهيل -وهو ابن أبي صالح-، فمن رجال مسلم. محمد بن الصباح: هو الدولابي أبو جعفر البغدادي. وأخرج القطعة الأولىٰ فيما يتعلق بأرض العرب: الحاكم ٤/ ٤٧٧ من طريق سفيان عن سهيل بن أبي صالح، بهذا الإسناد. وصححه علىٰ شرط مسلم، ووافقه الذهبي. وسيأتي الحديث بنحوه برقم (٩٣٩٥) من طريق يعقوب بن عبد الرحمن الإسكندراني، عن سهيل بن أبي صالح. وانظر قصة الهرج فيما سلف برقم (٧١٨٦) . المروج: الرياض والمزارع، والمرج: أرض واسعة ذات نبات كثير " .

خَمْسُوْن : انْتِشَارُ الأَمْن:

روىٰ أحمد في المسند (٤٢٧/١٤ برقم ٨٨٣٣) بسنده عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " لَا تَقُومُ السَّاعَةُ ... حَتَّىٰ يَسِيرَ الرَّاكِبُ بَيْنَ الْعِرَاقِ وَمَكَّةَ، لَا يَخَافُ إِلَّا ضَلَالَ الطَّرِيقِ، وَحَتَّىٰ يَكْثُرَ الْهَرْجُ "، قَالُوا: وَمَا الْهَرْجُ؟ يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: " الْقَتْلُ " .

حَادِيْ وَخَمْسُوْن : خَرَابُ الكَعْبَة :

روىٰ البخاري (١٤٩/٢ برقم ١٥٩٦) بسنده عَنْ أَبِيْ هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يُخَرِّبُ الكَعْبَةَ ذُو السُّوَيْقَتَيْنِ مِنَ الحَبَشَةِ» .

وروىٰ البخاري (١٤٩/٢ برقم ١٥٩٥) بسنده عَنِ ع ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «كَأَنِّي بِهِ أَسْوَدَ أَفْحَجَ، يَقْلَعُهَا حَجَرًا حَجَرًا» .

وروىٰ أحمد في " المسند" (٦٢٨/١١ برقم ٧٠٥٣) بسنده عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: " يُخَرِّبُ الْكَعْبَةَ ذُو السُّوَيْقَتَيْنِ مِنَ الْحَبَشَةِ، وَيَسْلُبُهَا حِلْيَتَهَا، وَيُجَرِّدُهَا مِنْ كِسْوَتِهَا، وَلَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَيْهِ أُصَيْلِعَ أُفَيْدِعَ، يَضْرِبُ عَلَيْهَا بِمِسْحَاتِهِ وَمِعْوَلِهِ " . قال الأرنؤوط : "بعضه مرفوع صحيح، وبعضه يروىٰ مرفوعاً وموقوفاً، والموقوف أصح، وهذا إسناد ضعيف. محمد بن إسحاق: مدلس، وقد عنعن، لكنه توبع، وباقي رجاله ثقات رجال الصحيح. محمد بن سلمة: هو الباهلي الحراني، وابنُ أبي نجيح: هو عبد الله. وأخرجه الفاكهي في "أخبار مكة" (٧٤٣) من طريق محمد بن مهران الرازي، عن محمد بن سلمة، بهذا الإسناد. وأخرجه الفاكهي أيضاً (٧٤٤) عن محمد بن أبي عمر (وهو العدني) ، عن سفيان بن عيينة، عن ابن أبي نجيح، به، نحوه مرفوعاً. وزاد فيه: قال مجاهد: فلما هدم ابنُ الزبير الكعبة، جئتُ أنظر إليه، هل أرىٰ الصفة التي قال عبد الله بن عمرو، فلم أرها. وأخرجه بنحوه أبو داود (٤٣٠٩) عن القاسم بن أحمد البغدادي، والحاكم ٤/ ٤٥٣ من طريق أحمد بن حبان بن ملاعب، كلاهما عن أبي عامر (يعني العقدي) ، عن زهير بن محمد (هو التميمي العنبري) ، عن موسىٰ بن جبير، عن أبي أمامة بن سهل بن حنيف، عن عبد الله بن عمرو، عن النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال: "اتركوا الحبشة ما تركوكم، فإنه لا يستخرج كنْز الكعبة إلا ذو السويقتين من الحبشة" وصححه الحاكم، ووافقه الذهبي. قلنا: وبهذا الإسناد والمتن سيورده أحمد ٥/ ٣٧١ من حديث رجل من أصحاب النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وأورده الهيثمي في "المجمع" ٣/ ٢٩٨، وقال: رواه أحمد والطبراني في "الكبير"، وفيه ابنُ إسحاق، وهو ثقة، لكنه مدلس. ونصفه الثاني، وهو قوله: "لكأني أنظر إليه أصيلع ... ": أخرجه عبد الرزاق (٩١٨٠) ، وابن أبي شيبة ١٥/ ٤٧ كلاهما عن سفيان بن عيينة، عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد، عن ابن عمرو، موقوفاً، وهذا أصح من رواية منْ رفعه، وهو ابنُ أبي عمر العدني عند الفاكهي كما مر. وأخرجه عبد الرزاق (٩١٧٩) عن ابن جريج، قال: سمعت سليمان الأحول يحدث عن مجاهد وغيره، عن عبد الله بن عمرو موقوفاً أيضاً. وله شاهد موقوف أيضاً من حديث علي عند عبد الرزاق (٩١٧٨) ، وابن أبي شيبة ١٥/ ٤٨. لكن له شاهد بمعناه مرفوع من حديث ابن عباس عند البخاري (١٥٩٥) سلف برقم (٢٠١٠) ، ولفظه: "كأني به أسود أفحج، يقلعها حجراً حجرا" . وقوله: "يخرب الكعبة ذو السويقتين من الحبشة": له شاهد من حديث أبي هريرة عند البخاري (١٥٩١) و (١٥٩٦) ، ومسلم (٢٩٠٩) ، سيرد (٨٠٩٤) و (٩٤٠٥) . قال السندي: قوله: "يُخرب": من التخريب، وهذا عند قرب الساعة، حيث

لا يبقىٰ قائل: الله الله. وقيل: يخرب في زمان عيسىٰ. قال القرطبي: بعد رفع القرآن من الصدور، والمصحف بعد موت عيسىٰ، وهو الصحيح، ولا يعارضه: (حرماً آمناً) [القصص:٢٨] إذ معناه: أمنُهُ إلىٰ قرب القيامة. ذو السويقتين: هو تصغير الساق، وصُغر لأن الغالب علىٰ سوق الحبشة الدقة. حليتها: بكسر الحاء، ونصبه، علىٰ أنه مفعول ثان للسلب، وقيل: بدل من الأول بدل اشتمال. أصيلع: تصغير أصلع: وهو من انحسر شعر رأسه، وهو منصوب علىٰ الحال. أفيدع: مصغر أفدع، من الفدع، بفتحتين، وهو اعوجاج بين القدم وبين عظم الساق، وكذا في اليد، وهو أن تزول المفاصل عن أماكنها. بمِسْحاته: ضبط بكسر الميم، وهي آلةٌ رأسُها من حديد، وميمه زائدة، من السحْو، وهو الكشفُ والإزالة. ومِعْوله، ضبط بكسر الميم: هو الفأس العظيمة التي يُنْقرُ بها الصخر " .

وروىٰ أحمد في " المسند" (٣٨/ ٢٢٦ برقم ٢٣١٥٥) بسنده عَنْ أَبِي أُمَامَةَ بْنِ سَهْلِ بْنِ حُنَيْفٍ قَالَ: سَمِعْتُ رَجُلًا مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: " اتْرُكُوا الْحَبَشَةَ مَا تَرَكُوكُمْ، فَإِنَّهُ لَا يَسْتَخْرِجُ كَنْزَ الْكَعْبَةِ إِلَّا ذُو السُّوَيْقَتَيْنِ مِنَ الْحَبَشَةِ " . قال الأرنؤوط : " صحيح لغيره، وهذا إسناد حسن في الشواهد من أجل موسىٰ بن جبير، فقد روىٰ عنه جمع، وذكره ابن حبان في "الثقات" وقال: يخطىء ويخالف. أما الذهبي، فقال في "الكاشف": ثقة! وأخرجه أبو داود (٤٣٠٩) ، والحاكم ٤/ ٤٥٣، والبيهقي ٩/ ١٧٦ من طريق أبي عامر العقدي، عن زهير بن محمد، عن موسىٰ بن جبير، عن أبي أمامة بن سهل، عن عبد الله بن عمرو. مسمًّىٰ. وقد سلف حديث عبد الله بن عمرو في مسنده برقم (٧٠٥٣) من طريق مجاهد عنه، ولفظه: "يخرب الكعبة ذو السويقتين من الحبشة، ويسلبها حليتها، ويجردها من كسوتها، ولكأني أنظر إليه أُصَيلعَ أُفَيدِع، يضرب عليها بِمِسْحَاتِه ومِعوله." وفي باب قصة الحبشة عن أبي سُكينة رجل من المحرَّرين، عن رجل من أصحاب النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عند أبي داود (٤٣٠٢) ، والنسائي ضمن حديث ٦/ ٤٣-٤٤، والبيهقي ٩/ ١٧٦. ولفظه: "دعوا الحبشة ما ودعوكم، واتركوا الترك ما تركوكم" . وإسناده حسن. وعن عمرو بن عوف المزني عند ابن عدي في "الكامل" ٦/ ٢٠٨٢، وإسناده ضعيف. ولقصة ذي السويقتين انظر حديث أبي هريرة السالف برقمي (٨٠٩٤) و (٩٤٠) . قوله: "اتركوا الحبشة" أي: لا تتعرضوا لهم مدة تركهم لكم لما يُخاف من شرهم" .

فإن قال قائل : إنَّ هدم الكعبة يتعارض مع جعل الله تعالىٰ البيت الحرام حرماً آمناً ، قال تعالىٰ : **﴿وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذابٍ أَلِيمٍ﴾** [الحج:٢٥] ، وقوله تعالىٰ : **﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنا حَرَماً آمِناً﴾** [العنكبوت:٦٧] ، وقد أهلك الله تعالىٰ أصحاب الفيل يوم أن ساروا إليه لهدمه فجعلهم كعصفٍ مأكول ، قال تعالىٰ : **﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحابِ الْفِيلِ * أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ * وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْراً أَبابِيلَ * تَرْمِيهِمْ بِحِجارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ* فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ﴾** [الفيل:١-٥] . والجواب علىٰ ذلك هو أنَّ ما سيحصل لبيت الله الحرام من الهدم والسلب ... سيكون في آخر أيَّام الدُّنيا قُرب قيام السَّاعة حيث سيختلط الحابل بالنَّابل ، وسيكون المؤمنون قلَّة ، وسيُظهر الله الخوارق علىٰ يد الكذبة الفجرة كالدَّجَّال ... مع العلم أنَّ السَّاعة لن تقوم حتَّىٰ لا يبقىٰ علىٰ ظهر الأرض من يقول : الله الله ...

قال الحافظ ابن حجر في " فتح الباري" (٣/ ٤٦١-٤٦٢) : " قِيلَ : هَذَا الْحَدِيثُ يُخَالِفُ قَوْلَهُ تَعَالَىٰ : **﴿أَوَ لَم يروا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَماً آمِنَا﴾** [العنكبوت:٦٧] ، وَلِأَنَّ اللَّهَ حَبَسَ عَنْ مَكَّةَ الْفِيلَ وَلَمْ يُمَكِّنْ أَصْحَابَهُ مِنْ تَخْرِيبِ الْكَعْبَةِ وَلَمْ تَكُنْ إِذْ ذَاكَ قِبْلَةً ، فَكَيْفَ يُسَلِّطُ عَلَيْهَا الْحَبَشَةَ بَعْدَ أَنْ صَارَتْ قِبْلَةً لِلْمُسْلِمِينَ ؟

وَأُجِيبَ بِأَنَّ ذَلِكَ مَحْمُولٌ عَلَىٰ أَنَّهُ يَقَعُ فِي آخِرِ الزَّمَانِ قُرْبَ قِيَامِ السَّاعَةِ حَيْثُ لَا يَبْقَىٰ فِي الْأَرْضِ أَحَدٌ يَقُولُ اللَّهُ اللَّهُ ، كَمَا ثَبَتَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ : "لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّىٰ لَا يُقَالَ فِي الْأَرْضِ اللَّهُ اللَّهُ" ، وَلِهَذَا وَقَعَ فِي رِوَايَةِ سَعِيدِ بْنِ سَمْعَانَ : " لَا يَعْمُرُ بَعْدَهُ أَبَدًا " ، وَقَدْ وَقَعَ قَبْلَ ذَلِكَ فِيهِ مِنَ الْقِتَالِ وَغَزْوِ أَهْلِ الشَّامِ لَهُ فِي زَمَنِ يَزِيدَ بْنِ مُعَاوِيَةَ ثُمَّ مِنْ بَعْدِهِ فِي وَقَائِعَ كَثِيرَةٍ مِنْ أَعْظَمِهَا وَقْعَةُ الْقَرَامِطَةِ بَعْدَ الثَّلَاثِمِائَةِ فَقَتَلُوا مِنَ الْمُسْلِمِينَ فِي الْمَطَافِ مَنْ لَا يُحْصَىٰ كَثْرَةً ، وَقَلَعُوا الْحَجَرَ الْأَسْوَدَ فَحَوَّلُوهُ إِلَىٰ بِلَادِهِمْ ثُمَّ أَعَادُوهُ بَعْدَ مُدَّةٍ طَوِيلَةٍ ، ثُمَّ غزىٰ مرارًا بعد ذَلِك ، وكلُّ ذَلِك لَا يُعَارض قَوْله تَعَالَىٰ : **﴿أَوَ لَم يروا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَماً آمِنَا﴾** ، لِأَنَّ ذَلِكَ إِنَّمَا وَقَعَ بِأَيْدِي الْمُسْلِمِينَ ، فَهُوَ مُطَابِقٌ لِقَوْلِهِ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " وَلَنْ يَسْتَحِلَّ هَذَا الْبَيْتَ إِلَّا أَهْلُهُ" ، فَوَقَعَ مَا أَخْبَرَ بِهِ النَّبِيَّ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَهُوَ مِنْ عَلَامَاتِ نُبُوَّتِهِ ، وَلَيْسَ فِي الْآيَةِ مَا يَدُلُّ عَلَىٰ اسْتِمْرَارِ الْأَمْنِ الْمَذْكُورِ فِيهَا ، وَالله أعلم" .

﴿سُؤالٌ﴾ : تَكَلَّمْ لَنَا عَنْ أَشْرَاطِ السَّاعَة الكُبْرَى ؟

الجواب : للسَّاعة أشراط كبرىٰ عديدة ، منها : خروج المسيح الدَّجَّال ، نزول عيسىٰ بن مريم عليه السَّلام ، خروج يأجوج ومأجوج ، خسف بالمشرق وخسف بالمغرب وخسف بجزيرة العرب ، طلوع الشَّمس من مغربها ، الدُّخَانَ يأخذ المؤمن كالزّكمة، ويأخذ الكافر فينتفخ حتىٰ يخرج من كلِّ مسمع منه ، ظهور دابَّة تكلِّم الناس ، نار تخرج من اليمن تطرد النَّاس إلىٰ محشرهم .

﴿سُؤالٌ﴾ : تَكَلَّمْ لَنَا عَنْ تَرْتِيْبِ أَشْرَاطِ السَّاعَة الكُبْرَى ؟

الجواب : قال الإمام القرطبي في " التَّذكرة بأحوال الموتىٰ وأمور الآخرة " (ص١٢٦٤-١٢٦٥) : " أوَّل الآيات ظهور الدَّجَّال، ثمَّ نزول عيسىٰ عليه السَّلام، ثمَّ خروج يأجوج ومأجوج، فإذا قتلهم الله بالنَّغف في أعناقهم علىٰ ما يأتي، وقبض الله تعالىٰ نبيَّه عيسىٰ عليه السَّلام، وخلت الأرض منَّا، وتطاولت الأيَّام علىٰ النَّاس، وذهب معظم دين الإسلام أخذ النَّاس في الرُّجوع إلىٰ عاداتهم وأحدثوا الأحداث من الكفر والفسوق، كما أحدثوه بعد كلِّ قائم نصَّبه الله تعالىٰ بينه وبينهم حجَّة عليهم ثمَّ قبضه، فيخرج الله تعالىٰ لهم دابَّة من الأرض فتميِّز المؤمن من الكافر ليرتدع بذلك الكُفَّار عن كفرهم ، والفسَّاق عن فسقهم ، ويستبصروا وينزعوا عمَّا هم فيه من الفسوق والعصيان، ثَّم تغيب الدَّابَّة عنهم ويمهلون، فإذا أصرُّوا علىٰ

طغيانهم طلعت الشَّمس من مغربها ولم يقبل ببعد ذلك لكافر ولا فاسق توبة وأزيل الخطاب والتَّكليف عنهم، ثمَّ كان قيام السَّــــاعة علىٰ أثر ذلك قريباً ، لأنَّ الله تعالىٰ يقول: ﴿**وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ**﴾ [الذاريات:٥٦] ، فإذا قطع عنهم التَّعبُّد لم يقرهم بعد ذلك في الأرض زماناً طويلاً ، هكذا ذكره بعض العلماء " .

وقال الحافظ ابن حجر في " فتح الباري" (١١/ ٣٥٣) : " الَّذِي يَتَرَجَّحُ مِنْ مَجْمُوعِ الْأَخْبَارِ أَنَّ خُرُوجَ الدَّجَّالِ أَوَّلُ الْآيَاتِ الْعِظَامِ الْمُؤْذِنَةِ بِتَغَيُّرِ الْأَحْوَالِ الْعَامَّةِ فِي مُعظم الأَرْض ، وَيَنْتَهِي ذَلِك بِمَوْت عِيسَىٰ بن مَرْيَمَ، وَأَنَّ طُلُوعَ الشَّمْسِ مِنَ الْمُغْرِبِ هُوَ أَوَّلُ الْآيَاتِ الْعِظَامِ الْمُؤْذِنَةِ بِتَغَيُّرِ أَحْوَالِ الْعَالَمِ الْعَلَوِيِّ ، وَيَنْتَهِي ذَلِكَ بِقِيَامِ السَّاعَةِ ، وَلَعَلَّ خُرُوجَ الدَّابَّةِ يَقَعُ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ الَّذِي تَطْلُعُ فِيهِ الشَّمْسُ مِنَ الْمُغْرِبِ .

وَقَدْ أَخْرَجَ مُسْلِمٌ أَيْضًا مِنْ طَرِيقِ أَبِي زُرْعَةَ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ رَفَعَهُ أَوَّلُ الْآيَاتِ طُلُوعُ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا ، وَخُرُوجُ الدَّابَّةِ عَلَىٰ النَّاسِ ضُحًىٰ فَأَيُّهُمَا خَرَجَتْ قَبْلَ الْأُخْرَىٰ ، فَالْأُخْرَىٰ مِنْهَا قَرِيبٌ ، وَفِي الْحَدِيثِ قِصَّةٌ لِمَرْوَانَ بْنِ الْحَكَمِ ، وَأَنَّهُ كَـــانَ يَقُولُ أَوَّلُ الْآيَاتِ خُرُوجُ الدَّجَّـــالِ ، فَأَنْكَرَ عَلَيْهِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرٍو .

قُلْتُ : وَلِكَلَام مَرْوَانَ مَحْمَلٌ يُعْرَفُ مِمَّا ذَكَرْتُهُ ، قَالَ الْحَاكِمُ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ : الَّذِي يَظْهَرُ أَنَّ طُلُوعَ الشَّمْسِ يَسْبِقُ خُرُوجَ الدَّابَّةِ ثُمَّ تَخْرُجُ الدَّابَّةُ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ أَوِ الَّذِي يَقْرُبُ مِنْهُ .

قُلْتُ : وَالْحِكْمَةُ فِي ذَلِكَ أَنَّ عِنْدَ طُلُوعِ الشَّمْسِ مِنَ الْمُغْرِبِ يُغْلَقُ بَابُ التَّوْبَةِ ، فَتَخْرُجُ الدَّابَّةُ تُمَيِّزُ الْمُؤْمِنَ مِنَ الْكَـــافِرِ تَكْمِيلًا لِلْمَقْصُودِ مِنْ إِغْلَاقِ بَابِ التَّوْبَةِ ، وَأَوَّلُ الْآيَـــاتِ الْمُؤْذِنَةِ بِقِيَامِ السَّاعَةِ النَّارُ الَّتِي تَحْشُرُ النَّاسَ" .

وقال الإمام المباركفوري في " تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي " (٦/ ٣٤٦) : " اعْلَمْ أَنَّ الرِّوَايَاتِ قَدِ اختلفت في ترتيب الآيات العشر ولذ اخْتَلَفَ أَهْلُ الْعِلْمِ فِي تَرْتِيبِهَا فَقَدْ قِيلَ إِنَّ أَوَّلَ الْآيَاتِ الدُّخَانَ ثُمَّ خُرُوجُ الدَّجَّالِ ثُمَّ نُزُولُ عِيسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ ثُمَّ خُرُوجُ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ ثُمَّ خُرُوجُ الدَّابَّةِ ثُمَّ طُلُوعُ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا فَإِنَّ الْكُفَّارَ يُسْلِمُونَ فِي زَمَنِ عِيسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ حَتَّىٰ تَكُونَ الدَّعْوَةُ وَاحِدَةً ، وَلَوْ كَانَتِ الشَّمْسُ طَلَعَتْ مِنْ مَغْرِبِهَا قَبْلَ خُرُوجِ الدَّجَّالِ وَنُزُولِهِ لَمْ يَكُنِ الْإِيمَانُ مَقْبُولًا مِنَ الْكُفَّارِ فَالْوَاوُ لِمُطْلَقِ الْجَمْعِ فَلَا يَرِدُ أَنَّ نُزُولَهُ قَبْلَ طُلُوعِهَا وَلَا مَا وَرَدَ أَنَّ طُلُوعَ الشَّمْسِ أَوَّلُ الْآيَاتِ .

وَقَالَ فِي فَتْحِ الْوَدُودِ : قِيلَ أَوَّلُ الْآيَاتِ الْخَسُوفَاتُ ثُمَّ خُرُوجُ الدَّجَّالِ ثُمَّ نُزُولُ عِيسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ ثُمَّ خُرُوجُ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ ثُمَّ الرِّيحُ الَّتِي تُقْبَضُ عِنْدَهَا أَرْوَاحُ أَهْلِ الْإِيمَانِ ، فَعِنْدَ ذَلِكَ تَخْرُجُ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا ثُمَّ تَخْرُجُ دَابَّةُ الْأَرْضِ ثُمَّ يَأْتِي الدُّخَانَ .

قَالَ صَاحِبُ فَتْحِ الْوَدُودِ : وَالْأَقْرَبُ فِي مِثْلِهِ التَّوَقُّفُ وَالتَّفْوِيضُ إِلَىٰ عَالِمِهِ ، انْتَهَىٰ .

قُلْتُ : ذَكَرَ الْقُرْطُبِيُّ فِي تَذْكِرَتِهِ مِثْلَ هَذَا التَّرْتِيبِ إِلَّا أَنَّهُ جَعَلَ الدَّجَّالَ مَكَانَ الدُّخَانَ ، وَذَكَرَ الْبَيْهَقِيُّ عَنِ الْحَاكِمِ مِثْلَ تَرْتِيبِ الْقُرْطُبِيِّ وَجَعَلَ خُرُوجَ الدَّابَّةِ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا ، فَالظَّاهِرُ بَلِ الْمُتَعَيِّنُ هُوَ مَا قَالَ صَاحِبُ فَتْحِ الْوَدُودِ مِنْ أَنَّ الْأَقْرَبَ فِي مِثْلِهِ هُوَ التَّوَقُّفُ وَالتَّفْوِيضُ إِلَىٰ عَالِمِهِ " .

﴿سُؤالٌ﴾ : لِمَ أُطْلِقَ عَلَى الدَّجَّالِ اسْمَ المَسِيْحِ؟

الجواب : اختلف العلماء في السَّبب الذي لأجله أُطلق علىٰ الدَّجَّال اسم المسيح، وقد نقل الإمام القرطبي في " التَّذكرة بأحوال الموتىٰ وأمور الآخرة " (ص١٣٠٥-١٣٠٦) عن الحافظ ابن دحية في ذلك عدَّة أقوال، منها:

القَوْلُ الأَوَّلُ: المسيح الذي يمسح الأرض ، أي : يقطعها...

القَوْلُ الثَّانِي: سُمِّي الدَّجَّال بالمسيح لأنَّه مُسحت عينُه.

القَوْلُ الثَّالِثُ: المسيح الكذَّاب، وهذا يختصُّ به الدَّجَّال لأنَّه يكذب فيقول: أنا الله فهذا أكذب البشر، ولذلك خصَّه الله بالشَّوه والعار" .

﴿سُؤالٌ﴾ : مَا مَعْنَى الدَّجَّال ؟

الجواب : نقل القرطبي في " التَّذكرة بأحوال الموتىٰ وأمور الآخرة" (ص١٢٧١-١٢٧٢) عن ابن دحية وجوهاً عديدة في معنىٰ الدَّجَّال، من أهمِّها:

الأَوَّلُ: أنَّ الدَّجَّال الكذَّاب، قاله الخليل وغيره، وأنَّها دجْلة- بسكون الجيم- ودجَلة- بفتحها- كذبة لأنَّه يدجل الحق بالباطل، وجمعه دجَّالون ودجاجلة في التَّكسير" .

الوَجْهُ الثَّاني: أنَّ الدَّجَّال مأخوذ من الدّجل وهو طلاء البعير بالقطران، سُمِّي بذلك لأنَّه يغطِّي الحقَّ ويستره بسحره وكذبه كما يغطِّي الرَّجل جرب بعيره بالدّجالة وهي القطران يهنأُ به البعير، واسمه إذا فعل ذلك المدجِّل، قاله الأصمعي.

الوَجْهُ الثَّالِثُ: الدَّجَّال: الممخرق.

الوَجْهُ الرَّابعُ: الدَّجَّال: المموّه، ويقال: سيف مدجل إذا كان قد طُلي بالذَّهب" .

قلت: وجميع هذه الوجوه تنطبق على الدَّجَّال، فهو كذَّاب ومبطل يغطِّي الحق بباطله، ويغرّ النَّاس بشرِّه وتمويهه...

﴿سُؤالٌ﴾ : تَكَلَّمْ لنَا عَنْ صِفَاتِ المَسِيْحِ الدَّجَّال ؟

الجواب : للمسيح الدَّجَّال صفات عديدة يستطيع الإنسان المؤمن التَّعرُّف عليه من خلالها:

الصِّفَةُ الأُوْلَى : أنَّه شَابٌّ :

روى مسلم (٤/ ٢٢٥٠ برقم ٢٩٣٧) بسنده عَنِ النَّوَّاسِ بْنِ سَمْعَانَ، قَالَ: ذَكَرَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الدَّجَّالَ ذَاتَ غَدَاةٍ، فَخَفَّضَ فِيهِ وَرَفَّعَ، حَتَّى ظَنَنَّاهُ فِي طَائِفَةِ النَّخْلِ، فَلَمَّا رُحْنَا إِلَيْهِ عَرَفَ ذَلِكَ فِينَا، فَقَالَ: «مَا شَأْنُكُمْ؟» قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ ذَكَرْتَ الدَّجَّالَ غَدَاةً، فَخَفَّضْتَ فِيهِ وَرَفَّعْتَ، حَتَّى ظَنَنَّاهُ فِي طَائِفَةِ النَّخْلِ، فَقَالَ: «غَيْرُ الدَّجَّالِ أَخْوَفُنِي عَلَيْكُمْ، إِنْ يَخْرُجْ وَأَنَا فِيكُمْ، فَأَنَا حَجِيجُهُ دُونَكُمْ، وَإِنْ يَخْرُجْ وَلَسْتُ فِيكُمْ، فَامْرُؤٌ حَجِيجُ نَفْسِهِ وَاللهُ خَلِيفَتِي عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ ، إِنَّهُ شَــــابٌّ قَطَطٌ، عَيْنُهُ طَافِئَةٌ، كَأَنِّي أُشَبِّهُهُ بِعَبْدِ الْعُزَّى بْنِ قَطَنٍ ... " .

الصِّفَةُ الثَّانِيَة : أَنَّه أَحْمَر ضَخْم جَسِيْم:

روى البخاري (٩/ ٣٩ برقم ٧٠٢٦) بسنده عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " بَيْنَا أَنَا نَائِمٌ رَأَيْتُنِي أَطُوفُ بِالكَعْبَةِ، فَإِذَا رَجُلٌ آدَمُ، سَبْطُ الشَّعَرِ، بَيْنَ رَجُلَيْنِ، يَنْطُفُ رَأْسُهُ مَاءً، فَقُلْتُ: مَنْ هَذَا؟ قَالُوا: ابْنُ مَرْيَمَ، فَذَهَبْتُ أَلْتَفِتُ فَإِذَا رَجُلٌ أَحْمَرُ جَسِيمٌ، جَعْدُ الرَّأْسِ، أَعْوَرُ العَيْنِ اليُمْنَى، كَأَنَّ عَيْنَهُ عِنَبَةٌ طَافِيَةٌ، قُلْتُ: مَنْ هَذَا؟ قَالُوا: هَذَا الدَّجَّالُ، أَقْرَبُ النَّاسِ بِهِ شَبَهًا ابْنُ قَطَنٍ " وَابْنُ قَطَنٍ رَجُلٌ مِنْ بَنِي المُصْطَلِقِ مِنْ خُزَاعَةَ.

الصِّفَةُ الثَّالِثَةُ : أَنَّهُ مَمْسُوحُ العَيْنِ اليُمْنَى:

روى البخاري (٤/ ١٦٦ برقم ٣٤٣٩) بسنده عَنْ نَافِعٍ، قَالَ عَبْدُ اللَّهِ: ذَكَرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَوْمًا بَيْنَ ظَهْرَيِ النَّاسِ المَسِيحَ الدَّجَّالَ، فَقَالَ: " إِنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِأَعْوَرَ، أَلاَ إِنَّ المَسِيحَ الدَّجَّالَ أَعْوَرُ العَيْنِ اليُمْنَى، كَأَنَّ عَيْنَهُ عِنَبَةٌ طَافِيَةٌ" .

وروى البخاري (٤/ ١٣٤ برقم ٣٣٣٧) بسنده عَنِ الزُّهْرِيِّ، قَالَ سَالِمٌ:، وَقَالَ ابْنُ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: قَامَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي النَّاسِ فَأَثْنَى عَلَى اللَّهِ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ ثُمَّ ذَكَرَ الدَّجَّالَ فَقَالَ: " إِنِّي لَأُنْذِرُكُمُوهُ، وَمَا مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا أَنْذَرَهُ قَوْمَهُ، لَقَدْ أَنْذَرَ نُوحٌ قَوْمَهُ، وَلَكِنِّي أَقُولُ لَكُمْ فِيهِ قَوْلًا لَمْ يَقُلْهُ نَبِيٌّ لِقَوْمِهِ: تَعْلَمُونَ أَنَّهُ أَعْوَرُ، وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِأَعْوَرَ " .

وروى مسلم (٤/ ٢٢٤٨ برقم ٢٩٣٤) بسنده عَنْ حُذَيْفَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الدَّجَّالُ أَعْوَرُ الْعَيْنِ الْيُسْرَى، جُفَالُ الشَّعَرِ، مَعَهُ جَنَّةٌ وَنَارٌ، فَنَارُهُ جَنَّةٌ وَجَنَّتُهُ نَارٌ" .

قلت : جاء في رواية البخاري السَّابقة أنَّ الدجَّال أعور العين اليمنى ، وجاء في هذه الرِّواية عند مسلم أنَّه أعور العين اليسرى ... وهذا تعارض ظاهر بين الرِّوايتين ، جمع بينهما الإمام النَّووي في " المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجَّاج" (٢/ ٢٣٥) ، بقوله : " ثُمَّ إِنَّهُ جَاءَ هُنَا أَعْوَرُ الْعَيْنِ الْيُمْنَى ، وَجَاءَ فِي رِوَايَةٍ أُخْرَى أَعْوَرُ الْعَيْنِ الْيُسْرَى ، وَقَدْ ذَكَرَهُمَا جَمِيعًا مُسْلِمٌ فِي آخِرِ الْكِتَابِ ، وَكِلَاهُمَا صَحِيحٌ ، قَالَ الْقَاضِي عِيَاضٌ رَحِمَهُ اللَّهُ : رُوِّينَا هَذَا الْحَرْفَ عَنْ أَكْثَرِ شُيُوخِنَا بِغَيْرِ هَمْزٍ ، وَهُوَ الَّذِي صَحَّحَهُ أَكْثَرُهُمْ ، قَالَ : وَهُوَ الَّذِي ذَهَبَ إِلَيْهِ الْأَخْفَشُ ، وَمَعْنَاهُ : نَاتِئَةٌ كَنُتُوءِ حَبَّةِ الْعِنَبِ مِنْ بَيْنِ صَوَاحِبِهَا ، قَالَ : وَضَبَطَهُ بَعْضُ شُيُوخِنَا بِالْهَمْزِ ، وَأَنْكَرَهُ بَعْضُهُمْ ، وَلَا وَجْهَ لِإِنْكَارِهِ ، وَقَدْ وُصِفَ فِي الْحَدِيثِ بِأَنَّهُ مَمْسُوحُ الْعَيْنِ ، وَأَنَّهَا لَيْسَتْ جَحْرَاءَ وَلَا نَاتِئَةً بَلْ مَطْمُوسَةٌ ، وَهَذِهِ صِفَةُ حَبَّةِ الْعِنَبِ إِذَا سَالَ مَاؤُهَا ، وَهَذَا يُصَحِّحُ رِوَايَةَ الْهَمْزِ ، وَأَمَّا مَا جَاءَ فِي الْأَحَادِيثِ الْأُخَرِ جَاحِظُ الْعَيْنِ وَكَأَنَّهَا كَوْكَبٌ ، وَفِي رِوَايَةٍ : لَهَا حَدَقَةٌ جَاحِظَةٌ ، كَأَنَّهَا نُخَاعَةٌ فِي حَائِطٍ ، فَتُصَحِّحُ رِوَايَةَ تَرْكِ الْهَمْزَةِ ، وَلَكِنْ يُجْمَعُ بَيْنَ الْأَحَادِيثِ وَتُصَحَّحُ الرِّوَايَاتُ جَمِيعًا بِأَنْ تكون الْمَطْمُوسَةُ وَالْمَمْسُوحَةُ وَالَّتِي لَيْسَتْ بِجَحْرَاءَ وَلَا نَاتِئَةً هِيَ الْعَوْرَاءَ الطَّافِئَةَ بِالْهَمْزِ وَهِيَ الْعَيْنُ الْيُمْنَى ، كَمَا جَاءَ هُنَا وَتَكُونُ الْجَاحِظَةُ وَالَّتِي كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ وَكَأَنَّهَا نُخَاعَةٌ هِيَ الطَّافِيَةَ بِغَيْرِ هَمْزٍ وَهِيَ الْعَيْنُ الْيُسْرَى كَمَا جَاءَ فِي الرِّوَايَةِ الْأُخْرَى ، وَهَذَا جَمْعٌ بَيْنَ الْأَحَادِيثِ وَالرِّوَايَاتِ فِي الطَّافِيَةِ بِالْهَمْزِ وَبِتَرْكِهِ وَأَعْوَرَ الْعَيْنِ الْيُمْنَى وَالْيُسْرَى ، لِأَنَّ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا عَوْرَاءُ، فَإِنَّ الْأَعْوَرَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ الْمَعِيبُ لَا سِيَّمَا مَا يَخْتَصُّ بِالْعَيْنِ ، وَكِلَا عَيْنَيِ الدَّجَّالِ مَعِيبَةٌ عَوْرَاءُ إِحْدَاهُمَا بِذَهَابِهَا وَالْأُخْرَى بِعَيْبِهَا ، هَذَا آخِرُ كَلَامِ الْقَاضِي ، وَهُوَ فِي نِهَايَةٍ مِنَ الْحُسْنِ ، وَاللَّهُ أعلم " .

وروى أحمد في " المسند" (٣٥/ ٨٢ برقم ٢١١٤٥) بسنده عَنْ حَبِيبِ بْنِ الزُّبَيْرِ، قَالَ: سَمِعْتُ عَبْدَ اللهِ بْنَ أَبِي الْهُذَيْلِ، سَمِعَ ابْنَ أَبْزَى، سَمِعَ عَبْدَ اللهِ بْنَ خَبَّابٍ، سَمِعَ أُبَيًّا، يُحَدِّثُ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذَكَرَ الدَّجَّالَ، فَقَالَ: "إِحْدَى عَيْنَيْهِ، كَأَنَّهَا زُجَاجَةٌ خَضْرَاءُ، وَتَعَوَّذُوا بِاللهِ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ " . قال الأرنؤوط : " إسناده صحيح. سليمان بن داود: هو أبو داود الطيالسي البصري، وشعبة: هو ابن الحجاج العَتكي البصري، وحبيب بن الزبير: هو ابن مُشْكان الأصبهاني، وابن أبزى: هو عبد الرحمن بن أبزى الخُزاعي، وعبد الله بن خَبَّاب: هو ابن الأَرَتِّ المدني. وهو في "مسند الطيالسي" (٥٤٤) ، ومن طريقه أخرجه البخاري في "التاريخ الكبير" تعليقاً ٢/ ٣٩، والشاشي (١٤٥١) ، وأبو الشيخ في "طبقات المحدثين بأصبهان" (٥٥) ، وأبو نعيم في "حلية الأولياء" ٤/ ٢٦٣، وفي "تاريخ أصبهان" ١/ ٢٩٤-٢٩٥، والبيهقي في "إثبات عذاب القبر" (٢٠٥) ، والضياء المقدسي في "المختارة" (١٢٠٣) . وليس عند البخاري قوله: "تعوذوا من عذاب القبر"، ولم يقل البيهقي في

روايته: "إحدىٰ عينيه كأنها زجاجة خضراء" . وأخرجه الشاشي (١٤٥٣) ، وأبو نعيم في "تاريخ أصبهان" ١/ ٢٩٤-٢٩٥ من طريق حجاج بن نصير، وابن حبان (٦٧٩٥) من طريق معاذ بن معاذ العنبري، كلاهما عن شعبة بن الحجاج، به " .

وروىٰ أحمد في " المسند" (٣٥/ ٨٣ برقم ٢١١٤٦) بسنده عَنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَنَّهُ ذَكَرَ الدَّجَّالَ عِنْدَهُ، فَقَالَ: "عَيْنُهُ خَضْرَاءُ كَالزُّجَاجَةِ، فَتَعَوَّذُوا بِاللهِ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ " . قال الأرنؤوط : " إسناده صحيح. محمد بن جعفر: هو الهُذَلي البصري المعروف بغُنْدر، ورَوْح: هو ابن عُبادة القَيسي البصري. وأخرجه الضياء المقدسي في "المختارة" (١٢٠٥) من طريق عبد الله بن أحمد بن حنبل، عن أبيه. بهذا الإسناد. وأخرجه أبو الشيخ في "طبقات المحدثين بأصبهان" (٥٥) من طريق أبي موسىٰ محمد بن المثنىٰ، عن محمد بن جعفر وحده، به. وأخرجه البخاري في "التاريخ الكبير" ٥/ ٧٨-٧٩، والشاشي (١٤٥٢) ، والبيهقي في "إثبات عذاب القبر" (٢٠٥) ، والضياء المقدسي مفرقاً (١٢٠٢) و (١٢٠٤) من طريق روح بن عبادة وحده، به. وليس في رواية البخاري قوله: "تعوذوا من عذاب القبر"، ولم يقل البيهقي في روايته: "عينه خضراء كالزجاجة" .

الصِّفَةُ الرَّابِعَةُ : مَكْتُوْبٌ بَيْنَ عَيْنَيْهِ كَافِرٌ لَا يَقْرَؤهَا إِلَّا المُؤْمِنُوْن :

قد روىٰ البخاري (٩/ ١٢١ برقم ٧٤٠٨) بسنده عَنْ قَتَادَةُ، قَالَ: سَمِعْتُ أَنَسًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: «مَا بَعَثَ اللَّهُ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا أَنْذَرَ قَوْمَهُ الأَعْوَرَ الكَذَّابَ، إِنَّهُ أَعْوَرُ وَإِنَّ رَبَّكُمْ لَيْسَ بِأَعْوَرَ، مَكْتُوبٌ بَيْنَ عَيْنَيْهِ كَافِرٌ" .

وروىٰ مسلم (٤/ ٢٢٤٨ برقم ٢٩٣٣) بسنده عَنْ أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ، أَنَّ نَبِيَّ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: «الدَّجَّالُ مَكْتُوبٌ بَيْنَ عَيْنَيْهِ ك ف ر أَيْ كَافِرٌ" .

وروىٰ مسلم (٤/ ٢٢٤٩ برقم ٢٩٣٤) بسنده عَنْ حُذَيْفَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا مَعَ الدَّجَّالِ مِنْهُ، مَعَهُ نَهْرَانِ يَجْرِيَانِ، أَحَدُهُمَا رَأْيَ الْعَيْنِ، مَاءٌ أَبْيَضُ، وَالْآخَرُ رَأْيَ الْعَيْنِ، نَارٌ تَأَجَّجُ، فَإِمَّا أَدْرَكَنَّ أَحَدٌ، فَلْيَأْتِ النَّهْرَ الَّذِي يَرَاهُ نَارًا وَلْيُغَمِّضْ، ثُمَّ لْيُطَأْطِئْ رَأْسَهُ فَيَشْرَبَ مِنْهُ، فَإِنَّهُ مَاءٌ بَارِدٌ، وَإِنَّ الدَّجَّالَ مَمْسُوحُ الْعَيْنِ، عَلَيْهَا ظَفَرَةٌ غَلِيظَةٌ، مَكْتُوبٌ بَيْنَ عَيْنَيْهِ كَافِرٌ، يَقْرَؤُهُ كُلُّ مُؤْمِنٍ، كَاتِبٍ وَغَيْرِ كَاتِبٍ" .

قال الإمام النَّووي في " المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجَّاج " (١٨/ ٦٠) : " الصَّحِيحُ الَّذِي عَلَيْهِ الْمُحَقِّقُونَ أَنَّ هَذِهِ الْكِتَابَةَ عَلَىٰ ظَاهِرِهَا وَأَنَّهَا كِتَابَةٌ حَقِيقَةٌ جَعَلَهَا اللَّهُ آيَةً وَعَلَامَةً مِنْ جُمْلَةِ الْعَلَامَاتِ الْقَاطِعَةِ بِكُفْرِهِ وَكَذِبِهِ وَإِبْطَالِهِ وَيُظْهِرُهَا اللَّهُ تَعَالَىٰ لِكُلِّ مُسْلِمٍ كَاتِبٍ وَغَيْرِ كَاتِبٍ وَيُخْفِيهَا عَمَّنْ أَرَادَ شقاوته وفتنتة ولا امتناع فِي ذَلِكَ " .

الصِّفَةُ الخَامِسَةُ : خَفِيفَ شَعَرِ اللِّحْيَةِ مِنَ الصُّدْغَيْنِ ، عَرِيضُ النَّحْرِ، فِيهِ انْحِنَاءٌ:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " خَرَجْتُ إِلَيْكُمْ وَقَدْ بُيِّنَتْ لِي لَيْلَةُ الْقَدْرِ ومَسِيحُ الضَّلَالَةِ، فَكَانَ تَلَاحٍ بَيْنَ رَجُلَيْنِ بِسُدَّةِ الْمَسْجِدِ، فَأَتَيْتُهُمَا لِأَحْجِزَ بَيْنَهُمَا، فَأُنْسِيتُهُمَا، وَسَأَشْدُو لَكُمْ مِنْهُمَا شَدْوًا: أَمَّا لَيْلَةُ الْقَدْرِ، فَالْتَمِسُوهَا فِي الْعَشْرِ الْأَوَاخِرِ وِتْرًا، وَأَمَّا مَسِيحُ الضَّلَالَةِ، فَإِنَّهُ أَعْوَرُ الْعَيْنِ، أَجْلَىٰ الْجَبْهَةِ، عَرِيضُ النَّحْرِ، فِيهِ دَفَأٌ ، كَأَنَّهُ قَطَنُ بْنُ عَبْدِ الْعُزَّىٰ " قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، هَلْ يَضُرُّنِي شَبَهُهُ؟ قَالَ: " لَا، أَنْتَ امْرُؤٌ مُسْلِمٌ، وَهُوَ امْرُؤٌ كَافِرٌ" .

الصِّفَةُ السَّادِسَةُ : شَعْرُهُ كَثِيْرٌ جَعْد :

روىٰ البخاري (٤/ ١٦٧ برقم ٣٤٤١) بسنده عَنْ سَالِمٍ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: لاَ وَاللَّهِ مَا قَالَ النَّبِيُّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِعِيسَىٰ أَحْمَرُ، وَلَكِنْ قَالَ: " بَيْنَمَا أَنَا نَائِمٌ أَطُوفُ بِالكَعْبَةِ، فَإِذَا رَجُلٌ آدَمُ، سَبْطُ الشَّعَرِ، يُهَادَىٰ بَيْنَ رَجُلَيْنِ، يَنْطِفُ رَأْسُهُ مَاءً، أَوْ يُهَرَاقُ رَأْسُهُ مَاءً، فَقُلْتُ: مَنْ هَذَا؟ قَالُوا: ابْنُ مَرْيَمَ، فَذَهَبْتُ أَلْتَفِتُ، فَإِذَا رَجُلٌ أَحْمَرُ جَسِيمٌ، جَعْدُ الرَّأْسِ، أَعْوَرُ عَيْنِهِ اليُمْنَىٰ، كَأَنَّ عَيْنَهُ عِنَبَةٌ طَافِيَةٌ، قُلْتُ: مَنْ هَذَا؟ قَالُوا: هَذَا الدَّجَّالُ، وَأَقْرَبُ النَّاسِ بِهِ، شَبَهًا ابْنُ قَطَنٍ " قَالَ الزُّهْرِيُّ: رَجُلٌ مِنْ خُزَاعَةَ، هَلَكَ فِي الجَاهِلِيَّةِ.

وروىٰ مسلم (٤/ ٢٢٤٨ برقم ٢٩٣٤) بسنده عَنْ حُذَيْفَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الدَّجَّالُ أَعْوَرُ الْعَيْنِ الْيُسْرَىٰ، جُفَالُ الشَّعَرِ، مَعَهُ جَنَّةٌ وَنَارٌ، فَنَارُهُ جَنَّةٌ وَجَنَّتُهُ نَارٌ" .

الصِّفَةُ السَّابِعَةُ : لَيْسَ لَهُ عَقِب ، عَقِيْمٌ لا يُوْلَدُ لَهُ :

روىٰ مسلم (٤/ ٢٢٤٢ برقم ٢٩٢٧) بسنده عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ، قَالَ: صَحِبْتُ ابْنَ صَائِدٍ إِلَىٰ مَكَّةَ، فَقَالَ لِي: أَمَا قَدْ لَقِيتُ مِنَ النَّاسِ، يَزْعُمُونَ أَنِّي الدَّجَّالُ، أَلَسْتَ سَمِعْتَ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَقُولُ: «إِنَّهُ لَا يُولَدُ لَهُ» قَالَ: قُلْتُ: بَلَىٰ، قَالَ: فَقَدْ وُلِدَ لِي، أَوَلَيْسَ سَمِعْتَ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَقُولُ: «لَا يَدْخُلُ الْمَدِينَةَ وَلَا مَكَّةَ» قُلْتُ: بَلَىٰ، قَالَ: فَقَدْ وُلِدْتُ بِالْمَدِينَةِ، وَهَذَا أَنَا أُرِيدُ مَكَّةَ، قَالَ: ثُمَّ قَالَ لِي فِي آخِرِ قَوْلِهِ: أَمَا، وَاللهِ إِنِّي لَأَعْلَمُ مَوْلِدَهُ وَمَكَانَهُ وَأَيْنَ هُوَ، قَالَ: فَلَبَسَنِي.

﴿سُؤالٌ﴾ : هَلِ المَسِيْحُ الدَّجَّالُ مَوْجُودٌ الآنَ؟

الجواب : روىٰ مسلم (٤/ ٢٢٦١ برقم ٢٩٤٢) بسنده عَنْ عَامِرُ بْنُ شَرَاحِيلَ الشَّعْبِيُّ، شَعْبُ هَمْدَانَ، أَنَّهُ سَأَلَ فَاطِمَةَ بِنْتَ قَيْسٍ، أُخْتَ الضَّحَّاكِ بْنِ قَيْسٍ - وَكَانَتْ مِنَ الْمُهَاجِرَاتِ الْأُوَلِ - فَقَالَ: حَدِّثِينِي حَدِيثًا سَمِعْتِيهِ مِنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لَا تُسْنِدِيهِ إِلَىٰ أَحَدٍ غَيْرِهِ، فَقَالَتْ: لَئِنْ شِئْتَ لَأَفْعَلَنَّ، فَقَالَ لَهَا: أَجَلْ حَدِّثِينِي فَقَالَتْ: نَكَحْتُ ابْنَ الْمُغِيرَةِ، وَهُوَ مِنْ خِيَارِ شَبَابِ قُرَيْشٍ يَوْمَئِذٍ، فَأُصِيبَ فِي أَوَّلِ الْجِهَادِ مَعَ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَلَمَّا تَأَيَّمْتُ خَطَبَنِي عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ فِي نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ

اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَخَطَبَنِي رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَىٰ مَوْلَاهُ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ، وَكُنْتُ قَدْ حُدِّثْتُ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: «مَنْ أَحَبَّنِي فَلْيُحِبَّ أُسَامَةَ» فَلَمَّا كَلَّمَنِي رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قُلْتُ: أَمْرِي بِيَدِكَ، فَأَنْكِحْنِي مَنْ شِئْتَ، فَقَالَ: «انْتَقِلِي إِلَىٰ أُمِّ شَرِيكٍ» وَأُمُّ شَرِيكٍ امْرَأَةٌ غَنِيَّةٌ، مِنَ الْأَنْصَارِ، عَظِيمَةُ النَّفَقَةِ فِي سَبِيلِ اللهِ، يَنْزِلُ عَلَيْهَا الضِّيفَانُ، فَقُلْتُ: سَأَفْعَلُ، فَقَالَ: «لَا تَفْعَلِي، إِنَّ أُمَّ شَرِيكٍ امْرَأَةٌ كَثِيرَةُ الضِّيفَانِ، فَإِنِّي أَكْرَهُ أَنْ يَسْقُطَ عَنْكِ خِمَارُكِ أَوْ يَنْكَشِفَ الثَّوْبُ عَنْ سَاقَيْكِ، فَيَرَىٰ الْقَوْمُ مِنْكِ بَعْضَ مَا تَكْرَهِينَ وَلَكِنِ انْتَقِلِي إِلَىٰ ابْنِ عَمِّكِ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرِو ابْنِ أُمِّ مَكْتُومٍ» – وَهُوَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي فِهْرٍ، فِهْرِ قُرَيْشٍ وَهُوَ مِنَ الْبَطْنِ الَّذِي هِيَ مِنْهُ – فَانْتَقَلْتُ إِلَيْهِ، فَلَمَّا انْقَضَتْ عِدَّتِي سَمِعْتُ نِدَاءَ الْمُنَادِي، مُنَادِي رَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يُنَادِي: الصَّلَاةَ جَامِعَةً، فَخَرَجْتُ إِلَىٰ الْمَسْجِدِ، فَصَلَّيْتُ مَعَ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَكُنْتُ فِي صَفِّ النِّسَاءِ الَّتِي تَلِي ظُهُورَ الْقَوْمِ فَلَمَّا قَضَىٰ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صَلَاتَهُ جَلَسَ عَلَىٰ الْمِنْبَرِ، وَهُوَ يَضْحَكُ، فَقَالَ: «لِيَلْزَمْ كُلُّ إِنْسَانٍ مُصَلَّاهُ»، ثُمَّ قَالَ: «أَتَدْرُونَ لِمَ جَمَعْتُكُمْ؟» قَالُوا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: " إِنِّي وَاللهِ مَا جَمَعْتُكُمْ لِرَغْبَةٍ وَلَا لِرَهْبَةٍ، وَلَكِنْ جَمَعْتُكُمْ، لِأَنَّ تَمِيمًا الدَّارِيَّ كَانَ رَجُلًا نَصْرَانِيًّا، فَجَاءَ فَبَايَعَ وَأَسْلَمَ، وَحَدَّثَنِي حَدِيثًا وَافَقَ الَّذِي كُنْتُ أُحَدِّثُكُمْ عَنْ مَسِيحِ الدَّجَّالِ، حَدَّثَنِي أَنَّهُ رَكِبَ فِي سَفِينَةٍ بَحْرِيَّةٍ، مَعَ ثَلَاثِينَ رَجُلًا مِنْ لَخْمٍ وَجُذَامَ، فَلَعِبَ بِهِمِ الْمَوْجُ شَهْرًا فِي الْبَحْرِ، ثُمَّ أَرْفَئُوا إِلَىٰ جَزِيرَةٍ فِي الْبَحْرِ حَتَّىٰ مَغْرِبِ الشَّمْسِ، فَجَلَسُوا فِي أَقْرُبِ السَّفِينَةِ فَدَخَلُوا الْجَزِيرَةَ فَلَقِيَتْهُمْ دَابَّةٌ أَهْلَبُ كَثِيرُ الشَّعَرِ، لَا يَدْرُونَ مَا قُبُلُهُ مِنْ دُبُرِهِ، مِنْ كَثْرَةِ الشَّعَرِ، فَقَالُوا: وَيْلَكِ مَا أَنْتِ؟ فَقَالَتْ: أَنَا الْجَسَّاسَةُ، قَالُوا: وَمَا الْجَسَّاسَةُ؟ قَالَتْ : أَيُّهَا الْقَوْمُ انْطَلِقُوا إِلَىٰ هَذَا الرَّجُلِ فِي الدَّيْرِ، فَإِنَّهُ إِلَىٰ خَبَرِكُمْ بِالْأَشْوَاقِ، قَالَ: لَمَّا سَمَّتْ لَنَا رَجُلًا فَرِقْنَا مِنْهَا أَنْ تَكُونَ شَيْطَانَةً، قَالَ: فَانْطَلَقْنَا سِرَاعًا، حَتَّىٰ دَخَلْنَا الدَّيْرَ، فَإِذَا فِيهِ أَعْظَمُ إِنْسَانٍ رَأَيْنَاهُ قَطُّ خَلْقًا، وَأَشَدُّهُ وِثَاقًا، مَجْمُوعَةٌ يَدَاهُ إِلَىٰ عُنُقِهِ، مَا بَيْنَ رُكْبَتَيْهِ إِلَىٰ كَعْبَيْهِ بِالْحَدِيدِ، قُلْنَا: وَيْلَكَ مَا أَنْتَ؟ قَالَ: قَدْ قَدَرْتُمْ عَلَىٰ خَبَرِي، فَأَخْبِرُونِي مَا أَنْتُمْ؟ قَالُوا: نَحْنُ أُنَاسٌ مِنَ الْعَرَبِ رَكِبْنَا فِي سَفِينَةٍ بَحْرِيَّةٍ، فَصَادَفْنَا الْبَحْرَ حِينَ اغْتَلَمَ فَلَعِبَ بِنَا الْمَوْجُ شَهْرًا، ثُمَّ أَرْفَأْنَا إِلَىٰ جَزِيرَتِكَ هَذِهِ، فَجَلَسْنَا فِي أَقْرُبِهَا، فَدَخَلْنَا الْجَزِيرَةَ، فَلَقِيَتْنَا دَابَّةٌ أَهْلَبُ كَثِيرُ الشَّعَرِ، لَا يُدْرَىٰ مَا قُبُلُهُ مِنْ دُبُرِهِ مِنْ كَثْرَةِ الشَّعَرِ، فَقُلْنَا: وَيْلَكِ مَا أَنْتِ؟ فَقَالَتْ: أَنَا الْجَسَّاسَةُ، قُلْنَا: وَمَا الْجَسَّاسَةُ؟ قَالَتْ: اعْمِدُوا إِلَىٰ هَذَا الرَّجُلِ فِي الدَّيْرِ، فَإِنَّهُ إِلَىٰ خَبَرِكُمْ بِالْأَشْوَاقِ، فَأَقْبَلْنَا إِلَيْكَ سِرَاعًا، وَفَزِعْنَا مِنْهَا، وَلَمْ نَأْمَنْ أَنْ تَكُونَ شَيْطَانَةً، فَقَالَ: أَخْبِرُونِي عَنْ نَخْلِ بَيْسَانَ، قُلْنَا: عَنْ أَيِّ شَأْنِهَا تَسْتَخْبِرُ؟ قَالَ: أَسْأَلُكُمْ عَنْ نَخْلِهَا، هَلْ يُثْمِرُ؟ قُلْنَا لَهُ: نَعَمْ، قَالَ: أَمَا إِنَّهُ يُوشِكُ أَنْ لَا تُثْمِرَ، قَالَ: أَخْبِرُونِي عَنْ بُحَيْرَةِ الطَّبَرِيَّةِ، قُلْنَا: عَنْ أَيِّ شَأْنِهَا تَسْتَخْبِرُ؟ قَالَ: هَلْ فِيهَا مَاءٌ؟ قَالُوا:

هِيَ كَثِيرَةُ الْمَاءِ، قَالَ: أَمَا إِنَّ مَاءَهَا يُوشِكُ أَنْ يَذْهَبَ، قَالَ: أَخْبِرُونِي عَنْ عَيْنِ زُغَرَ، قَالُوا: عَنْ أَيِّ شَأْنِهَا تَسْتَخْبِرُ؟ قَالَ: هَلْ فِي الْعَيْنِ مَاءٌ؟ وَهَلْ يَزْرَعُ أَهْلُهَا بِمَاءِ الْعَيْنِ؟ قُلْنَا لَهُ: نَعَمْ، هِيَ كَثِيرَةُ الْمَاءِ، وَأَهْلُهَا يَزْرَعُونَ مِنْ مَائِهَا، قَالَ: أَخْبِرُونِي عَنْ نَبِيِّ الْأُمِّيِّينَ مَا فَعَلَ؟ قَالُوا: قَدْ خَرَجَ مِنْ مَكَّةَ وَنَزَلَ يَثْرِبَ، قَالَ: أَقَاتَلَهُ الْعَرَبُ؟ قُلْنَا: نَعَمْ، قَالَ: كَيْفَ صَنَعَ بِهِمْ؟ فَأَخْبَرْنَاهُ أَنَّهُ قَدْ ظَهَرَ عَلَىٰ مَنْ يَلِيهِ مِنَ الْعَرَبِ وَأَطَاعُوهُ، قَالَ لَهُمْ: قَدْ كَانَ ذَلِكَ؟ قُلْنَا: نَعَمْ، قَالَ: أَمَا إِنَّ ذَاكَ خَيْرٌ لَهُمْ أَنْ يُطِيعُوهُ، وَإِنِّي مُخْبِرُكُمْ عَنِّي، إِنِّي أَنَا الْمَسِيحُ، وَإِنِّي أُوشِكُ أَنْ يُؤْذَنَ لِي فِي الْخُرُوجِ، فَأَخْرُجَ فَأَسِيرَ فِي الْأَرْضِ فَلَا أَدَعَ قَرْيَةً إِلَّا هَبَطْتُهَا فِي أَرْبَعِينَ لَيْلَةً غَيْرَ مَكَّةَ وَطَيْبَةَ، فَهُمَا مُحَرَّمَتَانِ عَلَيَّ كِلْتَاهُمَا، كُلَّمَا أَرَدْتُ أَنْ أَدْخُلَ وَاحِدَةً - أَوْ وَاحِدًا - مِنْهُمَا اسْتَقْبَلَنِي مَلَكٌ بِيَدِهِ السَّيْفُ صَلْتًا، يَصُدُّنِي عَنْهَا، وَإِنَّ عَلَىٰ كُلِّ نَقْبٍ مِنْهَا مَلَائِكَةً يَحْرُسُونَهَا، قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَطَعَنَ بِمِخْصَرَتِهِ فِي الْمِنْبَرِ: «هَذِهِ طَيْبَةُ، هَذِهِ طَيْبَةُ، هَذِهِ طَيْبَةُ» - يَعْنِي الْمَدِينَةَ - «أَلَا هَلْ كُنْتُ حَدَّثْتُكُمْ ذَلِكَ؟» فَقَالَ النَّاسُ: نَعَمْ، «فَإِنَّهُ أَعْجَبَنِي حَدِيثُ تَمِيمٍ، أَنَّهُ وَافَقَ الَّذِي كُنْتُ أُحَدِّثُكُمْ عَنْهُ، وَعَنِ الْمَدِينَةِ وَمَكَّةَ، أَلَا إِنَّهُ فِي بَحْرِ الشَّأْمِ، أَوْ بَحْرِ الْيَمَنِ، لَا بَلْ مِنْ قِبَلِ الْمَشْرِقِ مَا هُوَ، مِنْ قِبَلِ الْمَشْرِقِ مَا هُوَ مِنْ قِبَلِ الْمَشْرِقِ، مَا هُوَ» وَأَوْمَأَ بِيَدِهِ إِلَىٰ الْمَشْرِقِ، قَالَتْ: فَحَفِظْتُ هَذَا مِنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ" .

﴿سُؤالٌ﴾ : مَا هُوَ المَكَانُ الذِيْ سَيَخْرُجُ مِنْهُ الدَّجَّالِ ؟

الجواب: روىٰ مسلم (٤/ ٢٢٥٠ برقم ٢٩٣٧) بسنده عَنِ النَّوَّاسِ بْنِ سَمْعَانَ، قَالَ: ذَكَرَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الدَّجَّالَ ذَاتَ غَدَاةٍ، فَخَفَّضَ فِيهِ وَرَفَّعَ، حَتَّىٰ ظَنَنَّاهُ فِي طَائِفَةِ النَّخْلِ، فَلَمَّا رُحْنَا إِلَيْهِ عَرَفَ ذَلِكَ فِينَا، فَقَالَ: «مَا شَأْنُكُمْ؟» قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ ذَكَرْتَ الدَّجَّالَ غَدَاةً، فَخَفَّضْتَ فِيهِ وَرَفَّعْتَ، حَتَّىٰ ظَنَنَّاهُ فِي طَائِفَةِ النَّخْلِ، فَقَالَ: «غَيْرُ الدَّجَّالِ أَخْوَفُنِي عَلَيْكُمْ، إِنْ يَخْرُجْ وَأَنَا فِيكُمْ، فَأَنَا حَجِيجُهُ دُونَكُمْ، وَإِنْ يَخْرُجْ وَلَسْتُ فِيكُمْ، فَامْرُؤٌ حَجِيجُ نَفْسِهِ وَاللهُ خَلِيفَتِي عَلَىٰ كُلِّ مُسْلِمٍ ، إِنَّهُ شَابٌّ قَطَطٌ، عَيْنُهُ طَافِئَةٌ، كَأَنِّي أُشَبِّهُهُ بِعَبْدِ الْعُزَّىٰ بْنِ قَطَنٍ، فَمَنْ أَدْرَكَهُ مِنْكُمْ، فَلْيَقْرَأْ عَلَيْهِ فَوَاتِحَ سُورَةِ الْكَهْفِ، إِنَّهُ خَارِجٌ خَلَّةً بَيْنَ الشَّأْمِ وَالْعِرَاقِ ..." .

قال الإمام النَّووي في " المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجَّاج " (١٨/ ٦٥) : " خَلَّةً بِالْخَاءِ الْمُعْجَمَةِ وَتَشْدِيدِ اللَّامِ الْمَفْتُوحَتَيْنِ ، وَفَسَّرَهُ بِأَنَّهُ مَا بَيْنَ البلدين . هذا آخر ما ذكره الْقَاضِي ، وَهَذَا الَّذِي ذَكَرَهُ عَنِ الْهَرَوِيِّ هُوَ الْمَوْجُودُ فِي نُسَخِ بِلَادِنَا وَفِي الْجَمْعِ بَيْنَ الصَّحِيحَيْنِ أَيْضًا بِبِلَادِنَا ، وَهُوَ الَّذِي رَجَّحَهُ صَاحِبُ نِهَايَةِ الْغَرِيبِ ، وَفَسَّرَهُ بِالطَّرِيقِ بَيْنَهُمَا" .

وروىٰ أحمد في " المسند" (١/ ١٩٠ برقم ١٢) بسنده عَنْ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ، قَالَ: حَدَّثَنَا رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " أَنَّ الدَّجَّالَ يَخْرُجُ مِنْ أَرْضٍ بِالْمَشْرِقِ يُقَالُ لَهَا: خُرَاسَانُ، يَتْبَعُهُ أَقْوَامٌ كَأَنَّ وُجُوهَهُمُ الْمَجَانُّ الْمُطْرَقَةُ " . قال الأرنؤوط : " إسناده صحيح، رجاله ثقات رجال الشيخين غير المغيرة بن سبيع، فقد روىٰ له الترمذي والنسائي وابن ماجه، وهو ثقة. روح: هو ابن عبادة، وابن أبي عروبة: هو سعيد، وحديث روح عنه صالح فيما نقله الحافظ ابن رجب في " شرح علل الترمذي " ٢ / ٥٦٦ عن الإمام أحمد، وقد روىٰ له الشيخان من طريق روح عنه في " صحيحيهما " وقد توبع، وأبو التياح: هو يزيد بن حميد الضبعي، وعمرو بن حريث: هو ابن عمرو القرشي المخزومي، صحابي صغير. وأخرجه عبد بن حميد (٤) ، والترمذي (٢٢٣٧) ، وابن ماجه (٤٠٧٢) ، والبزار (٤٨) ، والمروزي (٥٧) ، وأبو يعلىٰ (٣٣) من طرق عن روح، بهذا الإسناد. قال الترمذي: حسن غريب. وأخرجه البزار (٤٦) و (٤٧) ، والمروزي (٥٨) و (٥٩) ، وأبو يعلىٰ (٣٤) و (٣٥) و (٣٦) من طريق عبد الله بن شوذب، عن أبي التياح، به. وسيأتي برقم (٣٣) ، والمجانُّ المُطرَقة: هي التُّروس التي يُطرق بعضها علىٰ بعض، أي: يركَّب بعضها فوق بعض، يعني أنها عريضة، ورواه بعضهم بتشديد الرَّاء من " المطرقة " للتكثير، قال ابن الأثير في " النِّهاية " ٣ / ١٢٢: والأول أشهر " .

وروىٰ أحمد في " المسند" (٢١/ ٥٥ برقم ١٣٣٤٤) بسنده عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "يَخْرُجُ الدَّجَّالُ مِنْ يَهُودِيَّةِ أَصْبَهَانَ، مَعَهُ سَبْعُونَ أَلْفًا مِنَ الْيَهُودِ عَلَيْهِمُ السِّيجَانُ " . قال الأرنؤوط : " حديث حسن، وهذا إسناد قابل للتحسين من أجل محمد بن مصعب – وهو القرقسائي– فهو ضعيف يعتبر به في المتابعات والشواهد، ومن فوقه ثقات من رجال الشيخين. وأخرجه أبو يعلىٰ (٣٦٣٩) ، والطبراني في "الأوسط " (٤٩٢٧) من طريق محمد بن مصعب، بهذا الإسناد. وقال الطبراني: لم يرو هذا الحديث عن الأوزاعي عن ربيعة إلا محمد بن مصعب. وأخرجه مختصراً مسلم (٢٩٤٤) ، وأبو عمرو الداني في "الفتن وغوائلها" (٦٣١) من طريق إسحاق بن عبد الله عن أنس– ولفظه: "يتبع الدجال من يهود أصبهان سبعون الفا عليهم الطيالسة". وأخرجه أبو عمرو الداني (٦٣٠) من طريق إسحاق بن عبد الله عن أنس موقوفاً باللفظ السابق. ويشهد للشطر الأول حديث عائشة الآتي في مسندها ٦/ ٧٥، وإسناده جيد. وحديث عمران بن حصين عند الطبراني في "الكبير" ١٨/ (٣٣٨) ، وفي "الأوسط " (٧١٨٧) ، ولفظه: "يخرج الدجال من قبل أصبهان ". وفي إسناده ضعف. ويشهد للشطر الثاني حديث عثمان بن أبيٰ العاص، وسيأتي في مسنده ضمن حديث طويل ٤/ ٢١٦، وإسناده ضعيف. وأصبهان: مدينة في شمال غرب إيران، تقع علىٰ نهر زَنده رود، وهي جنوب طهران، بينها وبين شيراز " .

قال الإمام ابن كثير في " البداية والنِّهاية " (١٩/ ٢٠٥) : " فَيَكُونُ بُدُوُّ ظُهُورِهِ مِنْ أَصْبَهَانَ مِنْ حَارَةٍ بِهَا يُقَالُ لَهَا: الْيَهُودِيَّةُ. وَيَنْصُرُهُ مِنْ أَهْلِهَا سَبْعُونَ أَلْفَ يَهُودِيٍّ، عَلَيْهِمُ الْأَسْلِحَةُ وَالسِّيجَانُ، وَهِيَ الطَّيَالِسَةُ الْخُضْرُ، وَكَذَلِكَ يَنْصُرُهُ سَبْعُونَ أَلْفًا مِنَ التَّتَارِ، وَخَلْقٌ مِنْ أَهْلِ خُرَاسَانَ، فَيَظْهَرُ أَوَّلًا فِي صُورَةِ مَلِكٍ مِنَ الْمُلُوكِ الْجَبَابِرَةِ، ثُمَّ يَدَّعِي النُّبُوَّةَ، ثُمَّ يَدَّعِي الرُّبُوبِيَّةَ، فَيَتْبَعُهُ عَلَى ذَلِكَ الْجَهَلَةُ مِنْ بَنِي آدَمَ، وَالطَّغَامُ مِنَ الرَّعَاعِ وَالْعَوَام " .

﴿سُؤالٌ﴾ : مَا هِيَ الأَمَاكِنُ التِيْ يَحْرُمُ عَلَى الدَّجَّالِ دُخُوْلُهَا ؟

الجواب : جاء في حديث فاطمة بنت قيس عند مسلم (٤/ ٢٢٦١ برقم ٢٩٤٢) مرفوعاً : " ... وَإِنِّي مُخْبِرُكُمْ عَنِّي، إِنِّي أَنَا الْمَسِيحُ، وَإِنِّي أُوشِكُ أَنْ يُؤْذَنَ لِي فِي الْخُرُوجِ، فَأَخْرُجَ فَأَسِيرَ فِي الْأَرْضِ فَلَا أَدَعَ قَرْيَةً إِلَّا هَبَطْتُهَا فِي أَرْبَعِينَ لَيْلَةً غَيْرَ مَكَّةَ وَطَيْبَةَ، فَهُمَا مُحَرَّمَتَانِ عَلَيَّ كِلْتَاهُمَا، كُلَّمَا أَرَدْتُ أَنْ أَدْخُلَ وَاحِدَةً – أَوْ وَاحِدًا – مِنْهُمَا اسْتَقْبَلَنِي مَلَكٌ بِيَدِهِ السَّيْفُ صَلْتًا، يَصُدُّنِي عَنْهَا، وَإِنَّ عَلَى كُلِّ نَقْبٍ مِنْهَا مَلَائِكَةً يَحْرُسُونَهَا، قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَطَعَنَ بِمِخْصَرَتِهِ فِي الْمِنْبَرِ: «هَذِهِ طَيْبَةُ، هَذِهِ طَيْبَةُ، هَذِهِ طَيْبَةُ» – يَعْنِي الْمَدِينَةَ –" .

وروى أحمد في " المسند" (٣٨/ ١٨٠ برقم ٢٣٠٩٠) بسنده عَنْ مُجَاهِدٍ قَالَ: كُنَّا سِتَّ سِنِينَ عَلَيْنَا جُنَادَةُ بْنُ أَبِي أُمَيَّةَ فَقَامَ فَخَطَبَنَا فَقَالَ: أَتَيْنَا رَجُلًا مِنَ الْأَنْصَارِ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَدَخَلْنَا عَلَيْهِ فَقُلْنَا: حَدِّثْنَا مَا سَمِعْتَ مِنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَلَا تُحَدِّثْنَا مَا سَمِعْتَ مِنَ النَّاسِ، فَشَدَّدْنَا عَلَيْهِ، فَقَالَ: قَامَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِينَا فَقَالَ: " أَنْذَرْتُكُمُ الْمَسِيحَ وَهُوَ مَمْسُوحُ الْعَيْنِ ـ قَالَ: أَحْسِبُهُ قَالَ الْيُسْرَى ـ يَسِيرُ مَعَهُ جِبَالُ الْخُبْزِ وَأَنْهَارُ الْمَاءِ، عَلَامَتُهُ يَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ أَرْبَعِينَ صَبَاحًا، يَبْلُغُ سُلْطَانُهُ كُلَّ مَنْهَلٍ، لَا يَأْتِي أَرْبَعَةَ مَسَاجِدَ: الْكَعْبَةَ، وَمَسْجِدَ الرَّسُولِ، وَالْمَسْجِدَ الْأَقْصَى، وَالطُّورَ، وَمَهْمَا كَانَ مِنْ ذَلِكَ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ لَيْسَ بِأَعْوَرَ ـ قَالَ ابْنُ عَوْنٍ وَأَحْسِبُهُ قَدْ قَالَ ـ يُسَلَّطُ عَلَى رَجُلٍ فَيَقْتُلُهُ، ثُمَّ يُحْيِيهِ، وَلَا يُسَلَّطُ عَلَى غَيْرِهِ " . قال الأرنؤوط : " إسناده صحيح. يزيد: هو ابن هارون، وابن عون: هو عبد الله بن عون ابن أرطبان. وأخرجه بنحوه الطحاوي في "شرح مشكل الآثار" ١٤/ ٣٧٦ من طريق سعيد ابن سفيان الجحدري، عن ابن عون، بهذا الإسناد موقوفاً. وأخرجه الحارث في "مسنده – بغية الباحث" (٧٨٤) من طريق فطر بن خليفة، والطحاوي في "شرح مشكل الآثار" (٥٦٩٢) من طريق قيس بن مسلم المكي، كلاهما عن مجاهد، به مرفوعاً. قوله: "لا يأتي أربعة مساجد"، ذكر منها الأقصى والطور ولم يرد ذكرهما إلا في هذا الحديث فيما نعلم، وليس في الأحاديث الصحيحة إلا ذكر مكة والمدينة. قال السندي: قوله: "كل منهل" هو الذي يكون على الطرق، وما كان على غير الطريق لا يسمى منهلاً عُرفاً. وانظر "النهاية في الفتن" لابن كثير ١/ ١٦٤-١٦٥" .

﴿سُؤالٌ﴾ : مَا هِيَ المُدَّةُ التِيْ سَيَمْكُثُهَا الدَّجَّالُ بَعْدَ خُرُوْجِه ؟

الجواب : جاء في حديث فاطمة بنت قيس عند مسلم (٤/ ٢٢٦١ برقم ٢٩٤٢) مرفوعاً : " ... وَإِنِّي مُخْبِرُكُمْ عَنِّي، إِنِّي أَنَا الْمَسِيحُ، وَإِنِّي أُوشِكُ أَنْ يُؤْذَنَ لِي فِي الْخُرُوجِ، فَأَخْرُجَ فَأَسِيرَ فِي الْأَرْضِ فَلَا أَدَعَ قَرْيَةً إِلَّا هَبَطْتُهَا فِي أَرْبَعِينَ لَيْلَةً غَيْرَ مَكَّةَ وَطَيْبَةَ ... " .

وروى مسلم (٤/ ٢٢٥٠ برقم ٢٩٣٧) بسنده عَنِ النَّوَّاسِ بْنِ سَمْعَانَ، قَالَ: ذَكَرَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الدَّجَّالَ ذَاتَ غَدَاةٍ، فَخَفَّضَ فِيهِ وَرَفَّعَ، حَتَّى ظَنَنَّاهُ فِي طَائِفَةِ النَّخْلِ، فَلَمَّا رُحْنَا إِلَيْهِ عَرَفَ ذَلِكَ فِينَا،

فَقَالَ: «مَا شَأْنُكُمْ؟» قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ ذَكَرْتَ الدَّجَّالَ غَدَاةً، فَخَفَّضْتَ فِيهِ وَرَفَّعْتَ، حَتَّى ظَنَنَّاهُ فِي طَائِفَةِ النَّخْلِ، فَقَالَ: «غَيْرُ الدَّجَّالِ أَخْوَفُنِي عَلَيْكُمْ، إِنْ يَخْرُجْ وَأَنَا فِيكُمْ، فَأَنَا حَجِيجُهُ دُونَكُمْ، وَإِنْ يَخْرُجْ وَلَسْتُ فِيكُمْ، فَامْرُؤٌ حَجِيجُ نَفْسِهِ وَاللهُ خَلِيفَتِي عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ ، إِنَّهُ شَابٌّ قَطَطٌ، عَيْنُهُ طَافِئَةٌ، كَأَنِّي أُشَبِّهُهُ بِعَبْدِ الْعُزَّى بْنِ قَطَنٍ، فَمَنْ أَدْرَكَهُ مِنْكُمْ، فَلْيَقْرَأْ عَلَيْهِ فَوَاتِحَ سُورَةِ الْكَهْفِ، إِنَّهُ خَارِجٌ خَلَّةً بَيْنَ الشَّأْمِ وَالْعِرَاقِ، فَعَاثَ يَمِينًا وَعَاثَ شِمَالًا، يَا عِبَادَ اللهِ فَاثْبُتُوا» قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ وَمَا لَبْثُهُ فِي الْأَرْضِ؟ قَالَ: «أَرْبَعُونَ يَوْمًا، يَوْمٌ كَسَنَةٍ، وَيَوْمٌ كَشَهْرٍ، وَيَوْمٌ كَجُمُعَةٍ، وَسَائِرُ أَيَّامِهِ كَأَيَّامِكُمْ» قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ فَذَلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَسَنَةٍ، أَتَكْفِينَا فِيهِ صَلَاةُ يَوْمٍ؟ قَالَ: «لَا، اقْدُرُوا لَهُ قَدْرَهُ... " .

وروى أحمد في " المسند" (٣٨/ ١٨٠ برقم ٢٣٠٩٠) بسنده عَنْ مُجَاهِدٍ قَالَ: كُنَّا سِتَّ سِنِينَ عَلَيْنَا جُنَادَةُ بْنُ أَبِي أُمَيَّةَ فَقَامَ فَخَطَبَنَا فَقَالَ: أَتَيْنَا رَجُلًا مِنَ الْأَنْصَارِ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَدَخَلْنَا عَلَيْهِ فَقُلْنَا: حَدِّثْنَا مَا سَمِعْتَ مِنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَلَا تُحَدِّثْنَا مَا سَمِعْتَ مِنَ النَّاسِ، فَشَدَّدْنَا عَلَيْهِ، فَقَالَ: قَامَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِينَا فَقَالَ: " أَنْذَرْتُكُمُ الْمَسِيحَ وَهُوَ مَمْسُوحُ الْعَيْنِ ـ قَالَ: أَحْسِبُهُ قَالَ الْيُسْرَى ـ يَسِيرُ مَعَهُ جِبَالُ الْخُبْزِ وَأَنْهَارُ الْمَاءِ، عَلَامَتُهُ يَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ أَرْبَعِينَ صَبَاحًا، يَبْلُغُ سُلْطَانُهُ كُلَّ مَنْهَلٍ ... " .

﴿سُؤالٌ﴾ : مَنْ هُم أَكْثَرُ مَنْ سَيَتْبَعُوْنَ الدَّجَّال ؟

الجواب : روى مسلم (٤/ ٢٢٦٦ برقم ٢٩٤٤) بسنده عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «يَتْبَعُ الدَّجَّالَ مِنْ يَهُودِ أَصْبَهَانَ، سَبْعُونَ أَلْفًا عَلَيْهِمُ الطَّيَالِسَةُ" .

وروى أحمد في " المسند" (١/ ١٩٠ برقم ١٢) بسنده عَنْ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ، قَالَ: حَدَّثَنَا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " أَنَّ الدَّجَّالَ يَخْرُجُ مِنْ أَرْضٍ بِالْمَشْرِقِ يُقَالُ لَهَا: خُرَاسَانُ، يَتْبَعُهُ أَقْوَامٌ كَأَنَّ وُجُوهَهُمُ الْمَجَانُّ الْمُطْرَقَةُ " .

وروى الطَّبراني في " المعجم الأوسط " (٥/ ٣٣١ برقم ٥٤٦٥) بسنده عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا يَنْزِلُ الدَّجَّالُ الْمَدِينَةَ، وَلَكِنَّهُ يَنْزِلُ الْخَنْدَقَ، وَعَلَى كُلِّ نَقْبٍ مِنْهَا مَلَائِكَةٌ يَحْرُسُونَهَا، فَأَوَّلُ مَنْ يَتْبَعُهُ النِّسَاءُ وَالْإِمَاءُ، فَيَذْهَبُ فَيَتْبَعُهُ النَّاسُ فَيَرُدُّونَهُ، فَيَرْجِعُ غَضْبَانَ حَتَّى يَنْزِلَ الْخَنْدَقَ، فَيَنْزِلُ عِنْدَ ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ» . قال الإمام الهيثمي في " مجمع الزوائد ومنبع الفوائد " (٧/ ٣٤٩ برقم ١٢٥٤٥) : " رَوَاهُ الطَّبَرَانِيُّ فِي الْأَوْسَطِ، وَرِجَالُهُ رِجَالُ الصَّحِيحِ غَيْرَ عُقْبَةَ بْنِ مُكْرَمِ بْنِ عُقْبَةَ الضَّبِّيِّ وَهُوَ ثِقَةٌ " .

﴿سُؤالٌ﴾ : مَاذَا عَنْ هَلَاكِ الدَّجَّالِ ؟

الجواب : روىٰ مسلم (٤/ ٢٢٢١ برقم ٢٨٩٧) بسنده عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: " لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّىٰ يَنْزِلَ الرُّومُ بِالْأَعْمَاقِ أَوْ بِدَابِقٍ، فَيَخْرُجُ إِلَيْهِمْ جَيْشٌ مِنَ الْمَدِينَةِ، مِنْ خِيَارِ أَهْلِ الْأَرْضِ يَوْمَئِذٍ، فَإِذَا تَصَافُّوا، قَالَتِ الرُّومُ: خَلُّوا بَيْنَنَا وَبَيْنَ الَّذِينَ سَبَوْا مِنَّا نُقَاتِلْهُمْ، فَيَقُولُ الْمُسْلِمُونَ: لَا، وَاللهِ لَا نُخَلِّي بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ إِخْوَانِنَا، فَيُقَاتِلُونَهُمْ، فَيَنْهَزِمُ ثُلُثٌ لَا يَتُوبُ اللهُ عَلَيْهِمْ أَبَدًا، وَيُقْتَلُ ثُلُثُهُمْ، أَفْضَلُ الشُّهَدَاءِ عِنْدَ اللهِ، وَيَفْتَتِحُ الثُّلُثُ، لَا يُفْتَنُونَ أَبَدًا فَيَفْتَتِحُونَ قُسْطَنْطِينِيَّةَ، فَبَيْنَمَا هُمْ يَقْتَسِمُونَ الْغَنَائِمَ، قَدْ عَلَّقُوا سُيُوفَهُمْ بِالزَّيْتُونِ، إِذْ صَاحَ فِيهِمِ الشَّيْطَانُ: إِنَّ الْمَسِيحَ قَدْ خَلَفَكُمْ فِي أَهْلِيكُمْ، فَيَخْرُجُونَ، وَذَلِكَ بَاطِلٌ، فَإِذَا جَاءُوا الشَّأْمَ خَرَجَ، فَبَيْنَمَا هُمْ يُعِدُّونَ لِلْقِتَالِ، يُسَوُّونَ الصُّفُوفَ، إِذْ أُقِيمَتِ الصَّلَاةُ، فَيَنْزِلُ عِيسَىٰ ابْنُ مَرْيَمَ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَمَّهُمْ، فَإِذَا رَآهُ عَدُوُّ اللهِ، ذَابَ كَمَا يَذُوبُ الْمِلْحُ فِي الْمَاءِ، فَلَوْ تَرَكَهُ لَانْذَابَ حَتَّىٰ يَهْلِكَ، وَلَكِنْ يَقْتُلُهُ اللهُ بِيَدِهِ، فَيُرِيهِمْ دَمَهُ فِي حَرْبَتِهِ " .

وروىٰ مسلم (٤/ ٢٢٥٠ برقم ٢٩٣٧) بسنده عَنِ النَّوَّاسِ بْنِ سَمْعَانَ، قَالَ: ذَكَرَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الدَّجَّالَ ذَاتَ غَدَاةٍ، فَخَفَّضَ فِيهِ وَرَفَّعَ، حَتَّىٰ ظَنَنَّاهُ فِي طَائِفَةِ النَّخْلِ، فَلَمَّا رُحْنَا إِلَيْهِ عَرَفَ ذَلِكَ فِينَا، فَقَالَ: «مَا شَأْنُكُمْ؟» قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ ذَكَرْتَ الدَّجَّالَ غَدَاةً، فَخَفَّضْتَ فِيهِ وَرَفَّعْتَ، حَتَّىٰ ظَنَنَّاهُ فِي طَائِفَةِ النَّخْلِ، فَقَالَ: «غَيْرُ الدَّجَّالِ أَخْوَفُنِي عَلَيْكُمْ، إِنْ يَخْرُجْ وَأَنَا فِيكُمْ، فَأَنَا حَجِيجُهُ دُونَكُمْ، وَإِنْ يَخْرُجْ وَلَسْتُ فِيكُمْ، فَامْرُؤٌ حَجِيجُ نَفْسِهِ وَاللهُ خَلِيفَتِي عَلَىٰ كُلِّ مُسْلِمٍ ، إِنَّهُ شَابٌّ قَطَطٌ، عَيْنُهُ طَافِئَةٌ، كَأَنِّي أُشَبِّهُهُ بِعَبْدِ الْعُزَّىٰ بْنِ قَطَنٍ، فَمَنْ أَدْرَكَهُ مِنْكُمْ، فَلْيَقْرَأْ عَلَيْهِ فَوَاتِحَ سُورَةِ الْكَهْفِ، إِنَّهُ خَارِجٌ خَلَّةً بَيْنَ الشَّأْمِ وَالْعِرَاقِ، فَعَاثَ يَمِينًا وَعَاثَ شِمَالًا، يَا عِبَادَ اللهِ فَاثْبُتُوا» قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ وَمَا لَبْثُهُ فِي الْأَرْضِ؟ قَالَ: «أَرْبَعُونَ يَوْمًا، يَوْمٌ كَسَنَةٍ، وَيَوْمٌ كَشَهْرٍ، وَيَوْمٌ كَجُمُعَةٍ، وَسَائِرُ أَيَّامِهِ كَأَيَّامِكُمْ» قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ فَذَلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَسَنَةٍ، أَتَكْفِينَا فِيهِ صَلَاةُ يَوْمٍ؟ قَالَ: «لَا، اقْدُرُوا لَهُ قَدْرَهُ» قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ وَمَا إِسْرَاعُهُ فِي الْأَرْضِ؟ قَالَ: " كَالْغَيْثِ اسْتَدْبَرَتْهُ الرِّيحُ، فَيَأْتِي عَلَىٰ الْقَوْمِ فَيَدْعُوهُمْ، فَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَجِيبُونَ لَهُ، فَيَأْمُرُ السَّمَاءَ فَتُمْطِرُ، وَالْأَرْضَ فَتُنْبِتُ، فَتَرُوحُ عَلَيْهِمْ سَارِحَتُهُمْ، أَطْوَلَ مَا كَانَتْ ذُرًا، وَأَسْبَغَهُ ضُرُوعًا، وَأَمَدَّهُ خَوَاصِرَ، ثُمَّ يَأْتِي الْقَوْمَ، فَيَدْعُوهُمْ فَيَرُدُّونَ عَلَيْهِ قَوْلَهُ، فَيَنْصَرِفُ عَنْهُمْ، فَيُصْبِحُونَ مُمْحِلِينَ لَيْسَ بِأَيْدِيهِمْ شَيْءٌ مِنْ أَمْوَالِهِمْ، وَيَمُرُّ بِالْخَرِبَةِ، فَيَقُولُ لَهَا: أَخْرِجِي كُنُوزَكِ، فَتَتْبَعُهُ كُنُوزُهَا كَيَعَاسِيبِ النَّحْلِ، ثُمَّ يَدْعُو رَجُلًا مُمْتَلِئًا شَبَابًا، فَيَضْرِبُهُ بِالسَّيْفِ فَيَقْطَعُهُ جَزْلَتَيْنِ رَمْيَةَ الْغَرَضِ، ثُمَّ يَدْعُوهُ فَيُقْبِلُ وَيَتَهَلَّلُ وَجْهُهُ، يَضْحَكُ، فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ بَعَثَ اللهُ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ، فَيَنْزِلُ عِنْدَ الْمَنَارَةِ الْبَيْضَاءِ شَرْقِيَّ دِمَشْقَ، بَيْنَ مَهْرُودَتَيْنِ، وَاضِعًا كَفَّيْهِ عَلَىٰ

أَجْنِحَةِ مَلَكَيْنِ، إِذَا طَأْطَأَ رَأْسَهُ قَطَرَ، وَإِذَا رَفَعَهُ تَحَدَّرَ مِنْهُ جُمَانٌ كَاللُّؤْلُؤِ، فَلَا يَحِلُّ لِكَافِرٍ يَجِدُ رِيحَ نَفَسِهِ إِلَّا مَاتَ، وَنَفَسُهُ يَنْتَهِي حَيْثُ يَنْتَهِي طَرْفُهُ، فَيَطْلُبُهُ حَتَّىٰ يُدْرِكَهُ بِبَابِ لُدٍّ، فَيَقْتُلُهُ ... " .

﴿سُؤالٌ﴾ : مَا سَبَبُ افْتِتَانِ النَّاسِ بِالدَّجَّالِ ؟

الجواب : من المعلوم أنَّ فتنة الدَّجَّال فتنة عظيمة لا يثبت لها إلَّا من وفقه الله تعالىٰ وثبَّته علىٰ الإيمان ، وقد ذكرت لنا أحاديث الرَّسول صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنَّ الدَّجَّال يأتي بمخاريق لم يعتدها البشر ولا تدخل ضمن قدراتهم ، ولذلك حذَّر الأنبياء أقوامهم من فتنته ... ومن الأمور التي سيأتي بها:

أَوَّلًا : أَنَّه يَأتِيْ وَمَعَهُ مِثْل الجَنَّةِ وَالنَّار:

روىٰ البخاري (٤/ ١٣٤ برقم ٣٣٣٨) بسنده أَبِيْ هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " أَلاَ أُحَدِّثُكُمْ حَدِيثًا عَنِ الدَّجَّالِ، مَا حَدَّثَ بِهِ نَبِيٌّ قَوْمَهُ: إِنَّهُ أَعْوَرُ، وَإِنَّهُ يَجِيءُ مَعَهُ بِمِثَالِ الجَنَّةِ وَالنَّارِ، فَالَّتِي يَقُولُ إِنَّهَا الجَنَّةُ هِيَ النَّارُ، وَإِنِّي أُنْذِرُكُمْ كَمَا أَنْذَرَ بِهِ نُوحٌ قَوْمَهُ" .

ثَانِيًا : أَنَّه يَأتِيْ وَمَعَهُ نَهْرانِ يَجْرِيَان وَجَبَلَ خُبْزٍ وَالنَّاسُ فِيْ جهْدٍ شَدِيْد:

روىٰ مسلم (٤/ ٢٢٤٩ برقم ٢٩٣٤) بسنده عَنْ حُذَيْفَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا مَعَ الدَّجَّالِ مِنْهُ، مَعَهُ نَهْرَانِ يَجْرِيَانِ، أَحَدُهُمَا رَأْيَ الْعَيْنِ، مَاءٌ أَبْيَضُ، وَالْآخَرُ رَأْيَ الْعَيْنِ، نَارٌ تَأَجَّجُ، فَإِمَّا أَدْرَكَنَّ أَحَدٌ، فَلْيَأْتِ النَّهْرَ الَّذِي يَرَاهُ نَارًا وَلْيُغَمِّضْ، ثُمَّ لْيُطَأْطِئْ رَأْسَهُ فَيَشْرَبَ مِنْهُ، فَإِنَّهُ مَاءٌ بَارِدٌ، وَإِنَّ الدَّجَّالَ مَمْسُوحُ الْعَيْنِ، عَلَيْهَا ظَفَرَةٌ غَلِيظَةٌ، مَكْتُوبٌ بَيْنَ عَيْنَيْهِ كَافِرٌ، يَقْرَؤُهُ كُلُّ مُؤْمِنٍ، كَاتِبٍ وَغَيْرِ كَاتِبٍ"
.

وروىٰ البخاري (٩/ ٥٩ برقم٧١٢٢) بسنده عَنْ الْمُغِيرَةُ بْنُ شُعْبَةَ مَا سَأَلَ أَحَدٌ النَّبِيَّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ الدَّجَّالِ أَكْثَرَ مَا سَأَلْتُهُ، وَإِنَّهُ قَالَ لِي: «مَا يَضُرُّكَ مِنْهُ» ، قُلْتُ: لِأَنَّهُمْ يَقُولُونَ: إِنَّ مَعَهُ جَبَلَ خُبْزٍ، وَنَهَرَ مَاءٍ، قَالَ: «هُوَ أَهْوَنُ عَلَىٰ اللَّهِ مِنْ ذَلِكَ" .

ثَالِثًا : سُرْعَةُ انْتِقَالِهِ فِيْ الأَرْض:

روىٰ مسلم (٤/ ٢٢٥٠ برقم٢٩٣٧) بسنده عَنِ النَّوَّاسِ بْنِ سَمْعَانَ، قَالَ: ذَكَرَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الدَّجَّالَ ذَاتَ غَدَاةٍ، فَخَفَّضَ فِيهِ وَرَفَّعَ، حَتَّىٰ ظَنَنَّاهُ فِي طَائِفَةِ النَّخْلِ" ... وفيه : " قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ وَمَا إِسْرَاعُهُ فِي الْأَرْضِ؟ قَالَ: " كَالْغَيْثِ اسْتَدْبَرَتْهُ الرِّيحُ، فَيَأْتِي عَلَىٰ الْقَوْمِ فَيَدْعُوهُمْ، فَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَجِيبُونَ لَهُ، فَيَأْمُرُ السَّمَاءَ فَتُمْطِرُ، وَالْأَرْضَ فَتُنْبِتُ، فَتَرُوحُ عَلَيْهِمْ سَارِحَتُهُمْ، أَطْوَلَ مَا كَانَتْ ذُرًا، وَأَسْبَغَهُ ضُرُوعًا، وَأَمَدَّهُ خَوَاصِرَ، ثُمَّ يَأْتِي الْقَوْمَ، فَيَدْعُوهُمْ فَيَرُدُّونَ عَلَيْهِ قَوْلَهُ، فَيَنْصَرِفُ عَنْهُمْ، فَيُصْبِحُونَ

مُمْحِلِينَ لَيْسَ بِأَيْدِيهِمْ شَيْءٌ مِنْ أَمْوَالِهِمْ، وَيَمُرُّ بِالْخَرِبَةِ، فَيَقُولُ لَهَا: أَخْرِجِي كُنُوزَكِ، فَتَتْبَعُهُ كُنُوزُهَا كَيَعَاسِيبِ النَّحْلِ، ثُمَّ يَدْعُو رَجُلًا مُمْتَلِئًا شَبَابًا، فَيَضْرِبُهُ بِالسَّيْفِ فَيَقْطَعُهُ جَزْلَتَيْنِ رَمْيَةَ الْغَرَضِ، ثُمَّ يَدْعُوهُ فَيُقْبِلُ وَيَتَهَلَّلُ وَجْهُهُ، يَضْحَكُ ... " .

وروى مسلم (٤/ ٢٢٦٥ برقم ٢٩٤٣) بسنده عن أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ، قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَيْسَ مِنْ بَلَدٍ إِلَّا سَيَطَؤُهُ الدَّجَّالُ، إِلَّا مَكَّةَ وَالْمَدِينَةَ، وَلَيْسَ نَقْبٌ مِنْ أَنْقَابِهَا إِلَّا عَلَيْهِ الْمَلَائِكَةُ صَافِّينَ تَحْرُسُهَا، فَيَنْزِلُ بِالسِّبْخَةِ، فَتَرْجُفُ الْمَدِينَةُ ثَلَاثَ رَجَفَاتٍ، يَخْرُجُ إِلَيْهِ مِنْهَا كُلُّ كَافِرٍ وَمُنَافِقٍ" .

رَابِعاً : قَتْلهُ ثُمَّ إِحْيَاؤهُ لِلشَّابِ المُؤمن:

روى البخاري (٣/ ٢٢ برقم ١٨٨٢) عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيَّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: حَدَّثَنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَدِيثًا طَوِيلًا عَنِ الدَّجَّالِ فَكَانَ فِيمَا حَدَّثَنَا بِهِ أَنْ قَالَ: " يَأْتِي الدَّجَّالُ، وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْهِ أَنْ يَدْخُلَ نِقَابَ المَدِينَةِ، بَعْضَ السِّبَاخِ الَّتِي بِالْمَدِينَةِ، فَيَخْرُجُ إِلَيْهِ يَوْمَئِذٍ رَجُلٌ هُوَ خَيْرُ النَّاسِ، أَوْ مِنْ خَيْرِ النَّاسِ، فَيَقُولُ أَشْهَدُ أَنَّكَ الدَّجَّالُ، الَّذِي حَدَّثَنَا عَنْكَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَدِيثَهُ، فَيَقُولُ الدَّجَّالُ: أَرَأَيْتَ إِنْ قَتَلْتُ هَذَا، ثُمَّ أَحْيَيْتُهُ هَلْ تَشُكُّونَ فِي الأَمْرِ؟ فَيَقُولُونَ: لاَ، فَيَقْتُلُهُ ثُمَّ يُحْيِيهِ، فَيَقُولُ حِينَ يُحْيِيهِ: وَاللَّهِ مَا كُنْتُ قَطُّ أَشَدَّ بَصِيرَةً مِنِّي اليَوْمَ، فَيَقُولُ الدَّجَّالُ: أَقْتُلُهُ فَلاَ أُسَلَّطُ عَلَيْهِ " .

وروى مسلم (٤/ ٢٢٥٦ برقم ٢٩٣٨) بسنده عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " يَخْرُجُ الدَّجَّالُ فَيَتَوَجَّهُ قِبَلَهُ رَجُلٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، فَتَلْقَاهُ الْمَسَالِحُ - مَسَالِحُ الدَّجَّالِ - فَيَقُولُونَ لَهُ: أَيْنَ تَعْمِدُ؟ فَيَقُولُ: أَعْمِدُ إِلَى هَذَا الَّذِي خَرَجَ، قَالَ: فَيَقُولُونَ لَهُ: أَوَ مَا تُؤْمِنُ بِرَبِّنَا؟ فَيَقُولُ: مَا بِرَبِّنَا خَفَاءٌ، فَيَقُولُونَ: اقْتُلُوهُ، فَيَقُولُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: أَلَيْسَ قَدْ نَهَاكُمْ رَبُّكُمْ أَنْ تَقْتُلُوا أَحَدًا دُونَهُ، قَالَ: فَيَنْطَلِقُونَ بِهِ إِلَى الدَّجَّالِ، فَإِذَا رَآهُ الْمُؤْمِنُ، قَالَ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ هَذَا الدَّجَّالُ الَّذِي ذَكَرَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: فَيَأْمُرُ الدَّجَّالُ بِهِ فَيُشَبَّحُ، فَيَقُولُ: خُذُوهُ وَشُجُّوهُ، فَيُوسَعُ ظَهْرُهُ وَبَطْنُهُ ضَرْبًا، قَالَ: فَيَقُولُ: أَوَ مَا تُؤْمِنُ بِي؟ قَالَ: فَيَقُولُ: أَنْتَ الْمَسِيحُ الْكَذَّابُ، قَالَ: فَيُؤْمَرُ بِهِ فَيُؤْشَرُ بِالْمِئْشَارِ مِنْ مَفْرِقِهِ حَتَّى يُفَرَّقَ بَيْنَ رِجْلَيْهِ، قَالَ: ثُمَّ يَمْشِي الدَّجَّالُ بَيْنَ الْقِطْعَتَيْنِ، ثُمَّ يَقُولُ لَهُ: قُمْ، فَيَسْتَوِي قَائِمًا، قَالَ: ثُمَّ يَقُولُ لَهُ: أَتُؤْمِنُ بِي؟ فَيَقُولُ: مَا ازْدَدْتُ فِيكَ إِلَّا بَصِيرَةً، قَالَ: ثُمَّ يَقُولُ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّهُ لَا يَفْعَلُ بَعْدِي بِأَحَدٍ مِنَ النَّاسِ، قَالَ: فَيَأْخُذُهُ الدَّجَّالُ لِيَذْبَحَهُ، فَيُجْعَلَ مَا بَيْنَ رَقَبَتِهِ إِلَى تَرْقُوَتِهِ نُحَاسًا، فَلَا يَسْتَطِيعُ إِلَيْهِ سَبِيلًا، قَالَ: فَيَأْخُذُ بِيَدَيْهِ وَرِجْلَيْهِ فَيَقْذِفُ بِهِ، فَيَحْسِبُ النَّاسُ أَنَّمَا قَذَفَهُ إِلَى النَّارِ، وَإِنَّمَا أُلْقِيَ فِي الْجَنَّةِ " فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «هَذَا أَعْظَمُ النَّاسِ شَهَادَةً عِنْدَ رَبِّ الْعَالَمِينَ» ...

﴿سُؤالٌ﴾ : هَلِ ابْنُ صَيَّادٍ هُوَ الدَّجَّالِ الَّذِي سَيَخْرُجُ فِي آخِرِ الزَّمَانِ ؟

الجواب :قال الإمام ابن الأثير في " أسد الغابة " (٣/١٧٨-١٧٩) : " عَبْد اللَّهِ بْن صياد. أورده ابن شاهين وقال: هو ابن صائد، كان أبوه من اليهود، لا يدري ممَّن هو؟ وهو الذي يقول بعض النَّاس: إنَّه الدجَّال. ولد عليه عهد رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أعور مختونًا، من ولده: عمارة بْن عَبْد اللَّهِ بْن صياد، من خيار المسلمين، من أصحاب سعيد ابن المسيب. روىٰ عنه مالك وغيره...

قلت: الذي صحَّ عندنا أَنَّهُ ليس الدجَّال، لما ذكره في هذا الحديث، ولأنَّه توفِّي بالمدينة مسلمًا، ولحديث تميم الدَّاري في الدجَّال وغيره من أشراط السَّاعة، فإن كان إسلام ابن صيَّاد في حياة رَسُول اللَّهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فله صحبة، لأنَّه رآه وخاطبه، وَإِن كان أسلم بعد النَّبِيّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فلا صحبة له. والأصح أَنَّهُ أسلم بعد النَّبِيّ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لأنَّ جماعة من الصَّحابة منهم عمر وغيره كانوا يظنُّونه الدجَّال، فلو أسلم في حياة رَسُول اللَّهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لانتفىٰ هذا الظَّن، والله أعلم" .

قال الإمام النَّووي في " المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجَّاج " (١٨/٤٦-٤٨) : " قَالَ الْعُلَمَاءُ وَقِصَّتُهُ مُشْكِلَةٌ وَأَمْرُهُ مُشْتَبَهٌ فِي أَنَّهُ هَلْ هُوَ الْمَسِيحُ الدَّجَّالُ الْمَشْهُورُ أم غيره ولاشك فِي أَنَّهُ دَجَّالٌ مِنَ الدَّجَاجِلَةِ قَالَ الْعُلَمَاءُ وَظَاهِرُ الْأَحَادِيثِ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمْ يُوحَ إِلَيْهِ بِأَنَّهُ الْمَسِيحُ الدَّجَّالُ ولا غيره وَإِنَّمَا أُوحِيَ إِلَيْهِ بِصِفَاتِ الدَّجَّالِ وَكَانَ فِي بن صَيَّادٍ قَرَائِنُ مُحْتَمِلَةٌ فَلِذَلِكَ كَانَ النَّبِيُّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يقطع بأنه الدجال ولا غيره وَلِهَذَا قَالَ لِعُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إِنْ يَكُنْ هُوَ فَلَنْ تَسْتَطِيعَ قَتْلَهُ وَأَمَّا احْتِجَاجُهُ هو بأنه مسلم والدجال كافر وبأنه لا يولد للدجال وقد ولدله هو وأن لا يدخل مكة والمدينة وان بن صَيَّادٍ دَخَلَ الْمَدِينَةَ وَهُوَ مُتَوَجِّهٌ إِلَىٰ مَكَّةَ فَلَا دَلَالَةَ لَهُ فِيهِ لِأَنَّ النَّبِيَّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِنَّمَا أَخْبَرَ عَنْ صِفَاتِهِ وَقْتَ فِتْنَتِهِ وَخُرُوجِهِ فِي الْأَرْضِ وَمِنَ اشْتِبَاهِ قِصَّتِهِ وَكَوْنِهِ أَحَدَ الدَّجَاجِلَةِ الْكَذَّابِينَ قَوْلُهُ لِلنَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (أَتَشْهَدُ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ) وَدَعْوَاهُ أَنَّهُ يَأْتِيهِ صَادِقٌ وَكَاذِبٌ وَأَنَّهُ يَرَىٰ عَرْشًا فَوْقَ الماء وأنه لا يكره أَنْ يَكُونَ هُوَ الدَّجَّالُ وَأَنَّهُ يَعْرِفُ مَوْضِعَهُ وَقَوْلُهُ إِنِّي لَأَعْرِفُهُ وَأَعْرِفُ مَوْلِدَهُ وَأَيْنَ هُوَ الْآنَ وَانْتِفَاخُهُ حَتَّىٰ مَلَأَ السِّكَّةَ وَأَمَّا إِظْهَارُهُ الْإِسْلَامَ وَحَجُّهُ وَجِهَادُهُ وَإِقْلَاعُهُ عَمَّا كَانَ عَلَيْهِ فَلَيْسَ بِصَرِيحٍ فِي أَنَّهُ غَيْرَ الدَّجَّالِ قَالَ الْخَطَّابِيُّ وَاخْتَلَفَ السَّلَفُ فِي أَمْرِهِ بَعْدَ كِبَرِهِ فَرُوِيَ عَنْهُ أَنَّهُ تَابَ مِنْ ذَلِكَ الْقَوْلِ وَمَاتَ بِالْمَدِينَةِ وَأَنَّهُمْ لَمَّا أَرَادُوا الصَّلَاةَ عَلَيْهِ كَشَفُوا عَنْ وَجْهِهِ حَتَّىٰ رَآهُ النَّاسُ وَقِيلَ لهم اشهدوا قال وكان بن عُمَرَ وَجَابِرٌ فِيمَا رُوِيَ عَنْهُمَا يَحْلِفَانِ أَنَّ بن صياد هو الدجال لا يشكان فِيهِ فَقِيلَ لِجَابِرٍ إِنَّهُ أَسْلَمَ فَقَالَ وَإِنْ أَسْلَمَ فَقِيلَ إِنَّهُ دَخَلَ مَكَّةَ وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ فَقَالَ وَإِنْ دَخَلَ وَرَوَىٰ أَبُو دَاوُدَ فِي سُنَنِهِ بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ عَنْ جَابِرٍ قَالَ فقدنا بن صَيَّادٍ

يَوْمَ الْحَرَّةِ وَهَذَا يُعَطِّلُ رِوَايَةَ مَنْ رَوَى أَنَّهُ مَاتَ بِالْمَدِينَةِ وَصُلِّيَ عَلَيْهِ وَقَدْ رَوَى مُسْلِمٌ فِي هَذِهِ الْأَحَادِيثِ أَنَّ جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ حَلَفَ بِاللَّهِ تَعَالَى أَنَّ بن صَيَّادٍ هُوَ الدَّجَّالُ وَأَنَّهُ سَمِعَ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَحْلِفُ عَلَى ذَلِكَ عِنْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَلَمْ يُنْكِرْهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَرَوَى أَبُو دَاوُدَ بإسناد صحيح عن بن عمر أنه كان يقول والله ما أشك أن بن صَيَّادٍ هُوَ الْمَسِيحُ الدَّجَّالُ قَالَ الْبَيْهَقِيُّ فِي كِتَابِهِ الْبَعْثِ وَالنُّشُورِ اخْتَلَفَ النَّاسُ فِي أَمْرِ بن صياد اختلافا كثيرا هل هو الدجال قال وَمَنْ ذَهَبَ إِلَى أَنَّهُ غَيْرُهُ احْتَجَّ بِحَدِيثِ تَمِيمٍ الدَّارِيِّ فِي قِصَّةِ الْجَسَّاسَةِ الَّذِي ذَكَرَهُ مُسْلِمٌ بَعْدَ هَذَا قَالَ وَيَجُوزُ أَنْ تُوَافِقَ صفة بن صَيَّادٍ صِفَةَ الدَّجَّالِ كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ أَنَّ أَشْبَهَ النَّاسِ بِالدَّجَّالِ عَبْدُ الْعُزَّى بْنُ قطن وليس كما قال وكان أمر بن صَيَّادٍ فِتْنَةً ابْتَلَى اللَّهُ تَعَالَى بِهَا عِبَادَهُ فَعَصَمَ اللَّهُ تَعَالَى مِنْهَا الْمُسْلِمِينَ وَوَقَاهُمْ شَرَّهَا قَالَ وَلَيْسَ فِي حَدِيثِ جَابِرٍ أَكْثَرُ مِنْ سُكُوتِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِقَوْلِ عُمَرَ فَيَحْتَمِلُ أَنَّهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ كَالْمُتَوَقِّفِ فِي أَمْرِهِ ثُمَّ جَاءَهُ الْبَيَانُ أَنَّهُ غَيْرُهُ كَمَا صَرَّحَ بِهِ فِي حَدِيثِ تَمِيمٍ هَذَا كَلَامُ الْبَيْهَقِيِّ وَقَدِ اخْتَارَ أَنَّهُ غَيْرُهُ " .

وقال الإمام ابن كثير في " البداية والنهاية " (١٩/ ١٢٧) : " وَالْمَقْصُودُ أَنَّ ابْنَ صَيَّادٍ لَيْسَ بِالدَّجَّالِ الَّذِي يَخْرُجُ فِي آخِرِ الزَّمَانِ قَطْعًا؛ لِحَدِيثِ فَاطِمَةَ بِنْتِ قَيْسٍ الْفِهْرِيَّةِ، فَإِنَّهُ فَيْصَلٌ فِي هَذَا الْمَقَامِ. وَاللَّهُ أَعْلَمُ" .

وقال الحافظ ابن حجر في "فتح الباري " (١٣/ ٣٢٦) : " ... قَالَ الْبَيْهَقِيُّ فِيهِ أَنَّ الدَّجَّالَ الْأَكْبَرَ الَّذِي يَخْرُجُ فِي آخر الزَّمَان غير بن صياد وَكَانَ بن صَيَّادٍ أَحَدَ الدَّجَّالِينَ الْكَذَّابِينَ الَّذِينَ أَخْبَرَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِخُرُوجِهِمْ وَقَدْ خَرَجَ أَكْثَرُهُمْ وَكَانَ الَّذِينَ يَجْزِمُونَ بِابْنِ صَيَّادٍ هُوَ الدَّجَّالُ لَمْ يَسْمَعُوا بِقِصَّةِ تَمِيمٍ وَإِلَّا فَالْجَمْعُ بَيْنَهُمَا بَعِيدٌ جِدًّا إِذْ كَيْفَ يَلْتَئِمُ أَنْ يَكُونَ مَنْ كَانَ فِي أَثْنَاءِ الْحَيَاةِ النَّبَوِيَّةِ شِبْهَ المحتلم ويجتمع بِهِ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَيَسْأَلُهُ أَنْ يَكُونَ فِي آخِرِهَا شَيْخًا كَبِيرًا مَسْجُونًا فِي جَزِيرَةٍ مِنْ جَزَائِرِ الْبَحْرِ مُوثَقًا بِالْحَدِيدِ يَسْتَفْهِمُ عَنْ خَبَرِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هَلْ خَرَجَ أَوْ لَا فَالْأَوْلَى أَنْ يُحْمَلَ عَلَى عَدَمِ الِاطِّلَاعِ أَمَّا عُمَرُ فَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ مِنْهُ قَبْلَ أَنْ يَسْمَعَ قِصَّةَ تَمِيمٍ ثُمَّ لَمَّا سَمِعَهَا لَمْ يَعُدْ إِلَى الْحَلِفِ الْمَذْكُورِ وَأَمَّا جَابِرٌ فَشَهِدَ حَلِفَهُ عِنْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَاسْتَصْحَبَ مَا كَانَ اطَّلَعَ عَلَيْهِ مِنْ عُمَرَ بِحَضْرَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ" .

وبسبب ما ذكر في ابن صيَّاد ... فقد تضاربت الرِّوايات في شأنه ، وقد جمع ووفَّق بينها الحافظ ابن حجر في " فتح الباري" (١٣/ ٣٢٨) : " وَأَقْرَبُ مَا يُجْمَعُ بِهِ بَيْنَ مَا تَضَمَّنَهُ حَدِيثُ تَمِيم وَكَون بن صَيَّادٍ هُوَ الدَّجَّالُ أَنَّ الدَّجَّالَ بِعَيْنِهِ هُوَ الَّذِي شَاهده تَمِيم موثقًا وَأَن بن صَيَّادٍ شَيْطَانٌ تَبَدَّى فِي صُورَةِ الدَّجَّالِ فِي تِلْكَ الْمُدَّةِ إِلَى أَنْ تَوَجَّهَ إِلَى أَصْبَهَانَ فَاسْتَتَرَ مَعَ قَرِينِهِ إِلَى أَنْ تَجِيءَ الْمُدَّةُ الَّتِي قَدَّرَ اللَّهُ تَعَالَى خُرُوجَهُ فِيهَا وَلِشِدَّةِ

الْتِبَاسِ الْأَمْرِ فِي ذَلِكَ سَلَكَ الْبُخَارِيُّ مَسْلَكَ التَّرْجِيحِ فَاقْتَصَرَ عَلَى حَدِيثِ جَابِرٍ عَنْ عُمَرَ فِي بن صَيَّادٍ وَلَمْ يُخْرِجْ حَدِيثِ فَاطِمَةَ بِنْتِ قَيْسٍ فِي قِصَّةِ تَمِيمٍ " .

وقال الإمام البرزنجي في " الإشاعة لأشراط السَّاعة " (ص٢٦٥) : " الأصحُّ أنَّ الدجَّال غير ابن صيَّاد وإن شاركه ابن صيَّاد في كونه أعور ومن اليهود، وأنَّه ساكن في يهودية أصبهان ... إلىٰ غير ذلك. وذلك لأنَّ أحاديث ابن صيَّاد كلّها محتملة، وحديث الجسَّاسة نَصٌّ، فيقدَّم.

قُلْتُ: وممَّا يرجِّح أنَّه غيره أنَّ قصَّة تميم الدَّاري مُتأخرةٌ عن قصَّة ابن صيَّاد، فهو كالنَّاسخ له، ولأنَّه حين إخباره صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأنَّه في بحر الشَّام أو بحر اليمن، لا بل من قبل المشرق كان ابن الصيَّاد بالمدينة، فلو كان هو لقال: بل هو بالمدينة" ...

﴿سُؤالٌ﴾ : مَاذَا عَنْ نـُزُوْلِ عِيْسَى عَلَيْهِ السَّلَام ؟

الجواب : نـزولُ عيسىٰ ابن مريم في آخر الزَّمان ثابت ... روىٰ البخاري (١٦٨/٤ برقم ٣٤٤٨) ، مسلم (١/ ١٣٥ برقم١٥٥) بسندهما عَنْ أَبِيْ هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَيُوشِكَنَّ أَنْ يَنْزِلَ فِيكُمْ ابْنُ مَرْيَمَ حَكَمًا عَدْلًا، فَيَكْسِرَ الصَّلِيبَ، وَيَقْتُلَ الخِنْزِيرَ، وَيَضَعَ الجِزْيَةَ، وَيَفِيضَ المَالُ حَتَّىٰ لاَ يَقْبَلَهُ أَحَدٌ، حَتَّىٰ تَكُونَ السَّجْدَةُ الوَاحِدَةُ خَيْرًا مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا» ، ثُمَّ يَقُولُ أَبُو هُرَيْرَةَ: " وَاقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ: **﴿وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ، وَيَوْمَ القِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾** [النساء: ١٥٩] .

وروىٰ مسلم (١/ ١٣٦ برقم ١٥٥) بسنده عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَاللهِ، لَيَنْزِلَنَّ ابْنُ مَرْيَمَ حَكَمًا عَادِلًا، فَلَيَكْسِرَنَّ الصَّلِيبَ، وَلَيَقْتُلَنَّ الْخِنْزِيرَ، وَلَيَضَعَنَّ الْجِزْيَةَ، وَلَتُتْرَكَنَّ الْقِلَاصُ فَلَا يُسْعَىٰ عَلَيْهَا، وَلَتَذْهَبَنَّ الشَّحْنَاءُ وَالتَّبَاغُضُ وَالتَّحَاسُدُ، وَلَيَدْعُوَنَّ إِلَىٰ الْمَالِ فَلَا يَقْبَلُهُ أَحَدٌ" .

قال الإمام الطبري في التَّفسير (٥/ ٤٥٠) عند تفسير آية آل عمران حيث قال : بعد أن ذكر الخلاف في معنىٰ وفاة عيسىٰ ..... وَأَوْلَىٰ هَذِهِ الْأَقْوَالِ بِالصِّحَّةِ عِنْدَنَا قَوْلُ مَنْ قَالَ: مَعْنَىٰ ذَلِكَ: إِنِّي قَابِضُكَ مِنَ الْأَرْضِ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ؛ لِتَوَاتُرِ الْأَخْبَارِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: «يَنْزِلُ عِيسَىٰ ابْنُ مَرْيَمَ فَيَقْتُلُ الدَّجَّالَ» ثُمَّ يَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ مُدَّةً ذَكَرَهَا اخْتَلَفَتِ الرِّوَايَةُ فِي مَبْلَغِهَا، ثُمَّ يَمُوتُ، فَيُصَلِّي عَلَيْهِ الْمُسْلِمُونَ وَيَدْفِنُونَهُ". ثمَّ ساق بعض الأحاديث الواردة في نزوله ...

وقال الإمام ابن عطيَّة في" المحرَّر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز" (١/ ٤٥٧) : " وأجمعت الأمَّة علىٰ ما تضمَّنه الحديث المتواتر من أنَّ عيسىٰ عليه السَّلام في السَّماء حيّ ، وأنَّه ينزل في آخر الزَّمان ، فيقتل

الخنزير ، ويكسر الصَّليب ، ويقتل الدَّجَّال ، ويفيض العدل ، ويظهر هذه الملَّة ، ملَّة محمَّد ، ويحُّج البيت ، ويعتمر ، ويبقىٰ في الأرض أربعاً وعشرين سنة ، وقيل أربعين سنة ، ثمَّ يُميته الله تعالىٰ" .

وقال الإمام ابن كثير في " التَّفسير" (٢/ ٤٦٤) : " ... فَهَذِهِ أَحَادِيثُ مُتَوَاتِرَةٌ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ رِوَايَةِ أَبِي هُرَيْرَةَ، وَابْنِ مَسْعُودٍ، وَعُثْمَانَ بْنِ أَبِي الْعَاصِ، وَأَبِي أُمَامَةَ، وَالنَّوَّاسِ بْنِ سَمْعَانَ، وَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ، ومُجَمِّعِ بْنِ جَارِيَةَ وَأَبِي سَرِيحة وَحُذَيْفَةَ بْنِ أُسَيْد، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

وَفِيهَا دَلَالَةٌ عَلَىٰ صِفَةِ نُزُولِهِ وَمَكَانِهِ، مِنْ أَنَّهُ بِالشَّامِ، بَلْ بِدِمَشْقَ، عِنْدَ الْمَنَارَةِ الشَّرْقِيَّةِ، وَأَنَّ ذَلِكَ يَكُونُ عِنْدَ إِقَامَةِ الصَّلَاةِ لِلصُّبْحِ وَقَدْ بُنِيَتْ فِي هَذِهِ الْأَعْصَارِ، فِي سَنَةِ إِحْدَىٰ وَأَرْبَعِينَ وَسَبْعِمِائَةٍ مَنَارَةٌ لِلْجَامِعِ الأَمَوِيّ بَيْضَاءُ، مِنْ حِجَارَةٍ مَنْحُوتَةٍ، عِوَضا عَنِ الْمَنَارَةِ الَّتِي هُدِمَتْ بِسَبَبِ الْحَرِيقِ الْمَنْسُوبِ إِلَىٰ صَنِيعِ النَّصَارَىٰ -عَلَيْهِمْ لَعَائِنُ اللَّهِ الْمُتَتَابِعَةُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ- وكان أكثر عمارتها وَهَذِهِ الْآيَةُ كَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ : **﴿وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ﴾** [الزُّخْرُفِ: ٦١] ، وَقُرِئَ: "عَلَم" بِالتَّحْرِيكِ، أَيْ إِشَارَةٌ وَدَلِيلٌ عَلَىٰ اقْتِرَابِ السَّاعَةِ، وَذَلِكَ لِأَنَّهُ يَنْزِلُ بَعْدَ خُرُوجِ الْمَسِيحِ الدَّجَّالِ، فَيَقْتُلُهُ اللَّهُ عَلَىٰ يَدَيْهِ، كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ: "إِنَّ اللَّهَ لَمْ يَخْلُقْ دَاءً إِلَّا أَنْزَلَ لَهُ شِفَاءً" وَيَبْعَثُ اللَّهُ فِي أَيَّامِهِ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ، فَيُهْلِكُهُمُ اللَّهُ بِهِ بِبَرَكَةِ دُعَائِهِ، وَقَدْ قَالَ تَعَالَىٰ: **﴿حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ. وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ﴾** الْآيَةَ [الْأَنْبِيَاءِ: ٩٦- ٩٧] .

وقال الإمام ابن كثير في " التَّفسير" (٧/ ٢٣٦) : " وَقَدْ تَوَاتَرَتِ الْأَحَادِيثُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه أَخْبَرَ بِنُزُولِ عِيسَىٰ ابْنِ مَرْيَمَ ، عَلَيْهِ السَّلَامُ قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِمَامًا عَادِلًا وَحَكَمًا مُقْسِطًا " .

وقال الإمام المناوي في " فيض القدير شرح الجامع الصَّغير " (٢/ ٤٣٣) : " وأمَّا عيسىٰ عليه الصَّلاة والسَّلام فقد أجمعوا علىٰ نزوله نبيَّاً لكنَّه بشريعة نبيِّنا صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ " .

وقال الإمام المناوي في " فيض القدير شرح الجامع الصَّغير " (٥/ ٥٠٩) : " وقد حكىٰ في المطامح إجماع الأمَّة علىٰ نزوله وأنكر علىٰ ابن حزم ما حكاه في مراتب الإجماع من الخلاف في نزوله قبل يوم القيامة" .

وقال الإمام محمَّد بن أحمد بن سالم السَّفاريني الحنبلي في " لوامع الأنوار البهيَّة وسواطع الأسرار الأثريَّة لشرح الدرَّة المضيَّة في عقد الفرقة المرضيَّة" (٢/ ٩٤) : " مِنْ عَلَامَاتِ السَّاعَةِ الْعُظْمَىٰ الْعَلَامَةُ الثَّالِثَةُ أَنْ يَنْزِلَ مِنَ السَّمَاءِ السَّيِّدُ الْمَسِيحُ عِيسَىٰ ابْنُ مَرْيَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَنُزُولُهُ ثَابِتٌ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَإِجْمَاعِ الْأُمَّةِ أَمَّا الْكِتَابُ فَقَوْلُهُ **﴿وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ﴾** [النساء: ١٥٩] ، أَيْ لَيُؤْمِنَنَّ بِعِيسَىٰ قَبْلَ مَوْتِ عِيسَىٰ وَذَلِكَ عِنْدَ نُزُولِهِ مِنَ السَّمَاءِ آخِرَ الزَّمَانِ حَتَّىٰ تَكُونَ الْمِلَّةُ وَاحِدَةً مِلَّةُ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا مُسْلِمًا.

وَنُوزِعَ فِي الِاسْتِدْلَالِ بِهَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ وَأَنَّ الضَّمِيرَ فِي قَوْلِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ لِيَهُودَ وَيُؤَيِّدُهُ قِرَاءَةُ أُبَيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَبْلَ مَوْتِهِمْ " .

وقال الإمام الألوسي في " : روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسَّبع المثاني " (١١/٢١٣) : " ولا يقدح في ذلك ما أجمعت الأمَّة عليه واشتهرت فيه الأخبار ولعلَّها بلغت مبلغ التَّواتر المعنوي ونطق به الكتاب علىٰ قول ووجب الإيمان به وأكفر منكره كالفلاسفة من نزول عيسىٰ عليه السَّلام آخر الزَّمان" .

وقال الإمام الكتَّاني في " نظم المتناثر من الحديث المتواتر " (ص٢٢٩) : " قال الأبِّي في شرح مسلم في الكلام علىٰ أحاديث الأشراط ما نصّه : ... لا بدَّ من نزوله لتواتر الأحاديث بذلك اهـ . وقد ذكروا أنَّ نزوله ثابت بالكتاب والسُّنَّة والإجماع ، والأحاديث في نزوله كثيرة ، ذكر الشَّوكاني منها في " التَّوضيح " تسعة وعشرين حديثاً ما بين صحيح وحسن وضعيف منجبر ، منها ما هو مذكور في أحاديث الدجَّال ، وَمِنْهَا ما هو مذكور في أحاديث المنتظر ، وتنضم إلىٰ ذلك أيضاً الآثار الواردة عن الصَّحابة فلها حكم الرَّفع إلَّا لا مجال للاجتهاد في ذلك ، والحاصل أنَّ الأحاديث الواردة في المهدي المنتظر متواترة وكذا الواردة في الدجَّال وفي نزول سيِّدنا عيسىٰ ابن مريم عليهما السَّلام" .

وقال الإمام محمَّد أشرف بن أمير العظيم آبادي في " عون المعبود شرح سنن أبي داود، ومعه حاشية ابن القيِّم " (١١/٣٠٧-٣٠٨) : " تواترت الأخبار عن النَّبي في نزول عيسىٰ بن مريم مِنَ السَّمَاءِ بِجَسَدِهِ الْعُنْصُرِيِّ إِلَىٰ الْأَرْضِ عِنْدَ قُرْبِ السَّاعَةِ وَهَذَا هُوَ مَذْهَبُ أَهْلِ السُّنَّةِ.

قال النَّووي : قال القاضي نزول عيسىٰ عليه السَّلام وَقَتْلُهُ الدَّجَّالَ حَقٌّ وَصَحِيحٌ عِنْدَ أَهْلِ السُّنَّةِ لِلْأَحَادِيثِ الصَّحِيحَةِ فِي ذَلِكَ وَلَيْسَ فِي الْعَقْلِ وَلَا فِي الشَّرْعِ مَا يُبْطِلُهُ فَوَجَبَ إِثْبَاتُهُ ، وَأَنْكَرَ ذَلِكَ بَعْضُ الْمُعْتَزِلَةِ وَالْجَهْمِيَّةِ وَمَنْ وَافَقَهُمْ وَزَعَمُوا أَنَّ هَذِهِ الْأَحَادِيثَ مَرْدُودَةٌ بِقَوْلِهِ تَعَالَىٰ وخاتم النَّبيين وبقوله لَا نَبِيَّ بَعْدِي وَبِإِجْمَاعِ الْمُسْلِمِينَ أَنَّهُ لَا نبي بعد نبينا وَأَنَّ شَرِيعَتَهُ مُؤَبَّدَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا تُنْسَخُ ، وَهَذَا اسْتِدْلَالٌ فَاسِدٌ لِأَنَّهُ لَيْسَ الْمُرَادُ بِنُزُولِ عِيسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّهُ يَنْزِلُ نَبِيًّا بِشَرْعٍ يَنْسَخُ شَرْعَنَا وَلَا فِي هَذِهِ الْأَحَادِيثِ وَلَا فِي غَيْرِهَا شَيْءٌ مِنْ هَذَا بَلْ صَحَّتْ هَذِهِ الْأَحَادِيثُ هُنَا أَيْ فِي كِتَابِ الْفِتَنِ وَمَا سَبَقَ فِي كِتَابِ الْإِيمَانِ وَغَيْرِهَا أَنَّهُ يَنْزِلُ حَكَمًا مُقْسِطًا يَحْكُمُ بِشَرْعِنَا وَيُحْيِي مِنْ أُمُورِ شَرْعِنَا مَا هَجَرَهُ النَّاسُ ، انتهىٰ.

وَفِي فَتْحِ الْبَارِي : تَوَاتَرَتِ الْأَخْبَارُ بِأَنَّ الْمَهْدِيَّ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ وَأَنَّ عِيسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ يُصَلِّي خَلْفَهُ . وَقَالَ الْحَافِظُ أَيْضًا : الصَّحِيحُ أَنَّ عِيسَىٰ رُفِعَ وَهُوَ حَيٌّ ، انْتَهَىٰ.

وَقَالَ الشَّوْكَانِيُّ فِي رِسَالَتِهِ الْمُسَمَّاةِ بِـ "التَّوْضِيحِ فِي تَوَاتُرِ مَا جَاءَ فِي الْأَحَادِيثِ فِي الْمَهْدِيِّ وَالدَّجَّالِ وَالْمَسِيحِ " : وقد ورد في نزول عيسىٰ عليه السَّلام مِنَ الْأَحَادِيثِ تِسْعَةٌ وَعِشْرُونَ حَدِيثًا ثُمَّ سَرَدَهَا وَقَالَ بَعْدَ ذَلِكَ وَجَمِيعُ مَا سُقْنَاهُ بَالِغٌ حَدَّ التَّوَاتُرِ كَمَا لَا يَخْفَىٰ عَلَىٰ مَنْ لَهُ فَضْلُ اطِّلَاعٍ فَتَقَرَّرَ بِجَمِيعِ مَا سُقْنَاهُ أَنَّ الْأَحَادِيثَ الْوَارِدَةَ فِي الْمَهْدِيِّ الْمُنْتَظَرِ مُتَوَاتِرَةٌ وَالْأَحَادِيثُ الْوَارِدَةُ فِي الدَّجَّالِ مُتَوَاتِرَةٌ وَالْأَحَادِيثُ الْوَارِدَةُ فِي نُزُولِ عِيسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ مُتَوَاتِرَةٌ " .

وقال الإمام محمَّد زاهد الكوثري في " العقيدة وعلم الكلام" (ص٧٠) : " والتَّواتر في حديث نزول عيسىٰ عليه السَّلام تواتر معنوي حيث تشاركت أحاديث كثيرة جدًّاً ، بينها الصِّحاح والحسان بكثرة في التَّصريح بنزول عيسىٰ ، مع اشتمال كلّ حديث منها علىٰ معاني أخرىٰ ، وهذا ما لا يستطيع انكاره أحد ممَّن شمَّ رائحة علم الحديث" .

وقال الإمام عبد الله الغماري في " إقامة البرهان علىٰ نزول عيسىٰ في آخر الزَّمان" (ص٢٥) : " اعلم أنَّه تواتر عن النَّبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تواتراً لا خلاف فيه ولا نزاع أنَّه أخبر بنزول عيسىٰ عليه السَّلام في آخر الزَّمان ... " .

ومن أقوال العلماء في ثبوت ووجوب الإيمان بنزول عيسىٰ عليه السَّلام :

قال الإمام أبو حنيفة في الفقه الأكبر " (ص٧٢) : " وَخُرُوج الدَّجَّال ويأجوج ومأجوج وطلوع الشَّمْس من مغْربهَا ونزول عِيسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَام من السَّمَاء وَسَائِر عَلَامَات يَوْم الْقِيَامَة علىٰ مَا وَردت بِهِ الْأَخْبَار الصَّحِيحَة حق كَائِن وَالله تَعَالَىٰ يهدي من يَشَاء إِلَىٰ صِرَاط مُسْتَقِيم" .

وقال الإمام أحمد بن حنبل في " أصول السُّنَّة " (ص٣٣-٣٤) : " وَالْإِيمَان أَن الْمَسِيح الدَّجَّال خَارج مَكْتُوب بَين عَيْنَيْهِ كَافِر وَالْأَحَادِيث الَّتِي جَاءَت فِيهِ وَالْإِيمَان بِأَن ذَلِك كَائِن ، وَأَن عِيسَىٰ ابْن مَرْيَم عَلَيْهِ السَّلَام ينزل فيقتله بِبَاب لد " .

وقال الإمام الطَّحاوي في عقيدته : " وَنُؤْمِنُ بِأَشْرَاطِ السَّاعَةِ: مِنْ خُرُوجِ الدَّجَّالِ، وَنُزُولِ عِيسَىٰ ابْنِ مَرْيَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنَ السَّمَاءِ " .

وقال الإمام أبو الحسن الأشعري في " مقالات الإسلاميِّين واختلاف المصلِّين " (ص٢٩٥) : " ويصدِّقون بخروج الدجَّال ، وأنَّ عيسىٰ بن مريم يقتله" .

وقال الإمام ابن أبي زمنين في " أصول السُّنَّة، ومعه رياض الجنَّة بتخريج أصول السُّنَّة "(ص١٩٢) : " وَأَهْلُ اَلسُّنَّةِ يُؤْمِنُونَ بِنُزُولِ عِيسَىٰ وَقَتْلِهِ اَلدَّجَّالَ وَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ: وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ يَعْنِي عِيسَىٰ. وَقَالَ: وَإِن مِّنْ أَهْلِ اَلْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ يَعْنِي: قَبْلَ مَوْتِ عِيسَىٰ" .

وقال الإمام عثمان بن سعيد بن عثمان بن عمر أبو عمرو الدَّاني في " الرِّسالة الوافية لمذهب أهل السُّنَّة في الاعتقادات وأصول الدِّيانات" (ص٢٤٣) : " إنَّ الإيمان واجب بما جاء عن رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وثبت بالنَّقل الصَّحيح، وتداول حمله المسلمون من ذكر وعيد الآخرة، وذكر الطوام، وأشراط السَّاعة، وعلاماتها، واقترابها، فمن ذلك: خروج الكذَّاب الأعور الدَّجَّال، وفتنته، وأنَّ له جنَّة وناراً، فجنَّته نار، وناره جنَّة، وأنَّ عيسىٰ عليه السَّلام يقتله فيهلك ومن معه من أهل الكفر والضَّلال ... ومنه: نزول عيسىٰ عليه السَّلام، وكسره الصَّليب، وقتله الخنزير، والدَّجَّال، وتقع الأمنة في الأرض، وتكون الدَّعوة لله ربِّ العالمين.

وقال عزَّ من قائل **﴿وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ إِلاَّ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ﴾** يعني: قبل موت عيسىٰ عليه السَّلام إذا نزل، وقال: (وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ)، يعني: عيسىٰ عليه السَّلام " .

وقال الإمام ابن عبد البر في " الاستذكار" (٨/ ٣٣٤) : " وَأَهْلُ السُّنَّةِ مُصَدِّقُونَ بِنُزُولِ عِيسَىٰ فِي اَلْآثَارِ الثَّابِتَةِ بِذَلِكَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ نَقْلِ اَلْآحَادِ اَلْعُدُولِ" .

وقال الإمام إسماعيل بن محمَّد بن الفضل بن علي القرشي الطليحي التَّيمي الأصبهاني، أبو القاسم، الملقَّب بقوام السُّنَّة في " الحجَّة في بيان المحجَّة وشرح عقيدة أهل السُّنَّة" (٢/ ٢٨٢) : " وَخُرُوج الدَّجَّال، وَالدَّابَّة حقٌّ ، ونزول عِيسَىٰ عَلَيْهِ السَّلامُ حقٌّ " .

وقال القاضي عياض في " إِكمَالُ المُعْلِمِ بفَوَائِدِ مُسْلِم " (٨/ ٤٩٢-٤٩٣) : " ونزول عيسىٰ المسيح وقتله الدَّجَّال حقٌّ صحيح عند أهل السُّنَّة؛ لصحيح الآثار الواردة في ذلك؛ ولأنَّه لم يرد ما يبطله ويضعفه، خلافاً لبعض المعتزلة والجهميَّة، ومن رأىٰ رأيهم من إنكار ذلك، وزعمهم أنَّ قول الله تعالىٰ عن محمَّد صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **﴿خَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾** ، وقوله صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " لا نبيَّ بعدي " ، وإجماع المسلمين علىٰ ذلك ، وعلىٰ أنَّ شريعة الإسلام باقية غير منسوخة إلىٰ يوم القيامة – يردُّ هذه الأحاديث. وليس كما زعموه؛ فإنَّه لم يرد في هذه الأحاديث أنَّه يأتي بنسخ شريعة ولا تجديد أمر نبوَّة ورسالة، بل جاءت بأنَّه حكم مقسط، يجيء بما يجدِّد ما تغيَّر من الإسلام، وبصلاح الأمور والعدل، وكسر الصَّليب، وقتل الخنزير، أنَّ إمام المسلمين منهم كما قال عليه السَّلام " .

وقال الإمام ابن قدامة المقدسي في " لمعة الاعتقاد " (ص٢٨-٣٠ باختصار) : " ويجب الإيمان بكلِّ ما أخبر به النَّبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وصحَّ به النَّقل عنه فيما شاهدناه، أو غاب عنَّا، نعلم أنَّه حقٌّ، وصدقٌ، وسواء في ذلك ما عقلناه وجهلناه، ولم نطَّلع علىٰ حقيقة معناه، مثل ... خروج الدَّجَّال ونزول عيسىٰ ابن مريم عليه السَّلام فيقتله" .

وقال الإمام القرطبي في "التَّذكرة بأحوال الموتىٰ وأمور الآخرة" (ص١٢٨٢) : " الإيمان بالدَّجَّال وخروجه حقٌّ، وهذا مذهب أهل السُّنَّة وعامَّـــة أهل الفقه والحديث ، خلافاً لمن أنكر أمره من الخوارج وبعض المعتزلة."

وقال الإمام النَّووي في " المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجَّاج " (١٨/ ٧٥) : " قَوْلُهُ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (فيبعث الله عيسىٰ بن مريم) أي : ينزله من السماء حاكما بشر عنا وَقَدْ سَبَقَ بَيَانُ هَذَا فِي كِتَابِ الْإِيمَانِ . قَالَ الْقَاضِي رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ : نُزُولُ عِيسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَقَتْلُهُ الدَّجَّالَ حَقٌّ وَصَحِيحٌ عِنْدَ أَهْلِ السُّنَّةِ لِلْأَحَادِيثِ الصَّحِيحَةِ فِي ذَلِكَ ، وَلَيْسَ في العقل ولا في الشَّرْعِ مَا يُبْطِلُهُ ، فَوَجَبَ إِثْبَاتُهُ ، وَأَنْكَرَ ذَلِكَ بعض المعتزلة والجهميَّة وَمَنْ وَافَقَهُمْ ، وَزَعَمُوا أَنَّ هَذِهِ الْأَحَادِيثَ مَرْدُودَةٌ بقوله تعالىٰ : **﴿وَخَاتَمَ النَّبِيِّيْن﴾** ، وَبِقَوْلِهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " لَا نَبِيَّ بعدي" ، وبإجماع المسلمين أنَّه لا نبي بَعْدَ نَبِيِّنَا صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَأَنَّ شريعته مؤبَّدة إلىٰ يوم القيامة لا تنسخ ، وَهَذَا اسْتِدْلَالٌ فَاسِدٌ لِأَنَّهُ لَيْسَ الْمُرَادُ بِنُزُولِ عِيسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّهُ يَنْزِلُ نَبِيًّا بِشَرْعٍ ينسخ شرعنا ، ولا في هذه الأحاديث ولا في غَيْرِهَا شَيْءٌ مِنْ هَذَا ، بَلْ صَحَّتْ هَذِهِ الْأَحَادِيثُ هُنَا ، وَمَا سَبَقَ فِي كِتَابِ الْإِيمَانِ وَغَيْرِهَا أَنَّهُ يَنْزِلُ حَكَمًا مُقْسِطًا بِحُكْمِ شَرْعِنَا وَيُحْيِي مِنْ أُمُورِ شَرْعِنَا مَا هَجَرَهُ النَّاسُ" .

وقال الإمام ابن العطَّار في "الاعتقاد الخالص من الشَّكِّ والانتقاد" (ص٣٩٥) : " إذا علمتَ هذا فخروجُ الدَّجَّال اللعين، ونزول عيسىٰ ابن مريم صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من السَّماء، وطلوع الشَّمس من مغربها، وخروج دابَّة الأرض من موضعها ... وكونه ينزل تابعاً لشريعة محمَّد صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ واحداً من أمَّته، فيكسر الصَّليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية، ويزيل حكمها، ويريق الخمور، ولا يقبل من أهل الذمَّة وغيرهم إلَّا الإسلام، ممَّا يجبُ الإيمانُ به، واعتقاد حقيقته ... " .

وقال الإمام ابن قيِّم الجوزيَّة في " اجتماع الجيوش الإسلاميَّة" (٢/ ١٧٨) نقلاً عن الْإِمَامِ حُجَّةِ الْإِسْلَامِ أَبِي أَحْمَدَ بْنِ الْحُسَيْنِ الشَّافِعِيِّ الْمَعْرُوفِ بِابْنِ الْحَدَّادِ : " ... وَأَنَّ الْآيَاتِ الَّتِي تَظْهَرُ عِنْدَ قُرْبِ السَّاعَةِ مِنَ

الدَّجَّالِ وَنُزُولِ عِيسَىٰ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وَالدُّخَانِ وَالدَّابَّةِ وَطُلُوعِ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا وَغَيْرِهَا مِنَ الْآيَاتِ الَّتِي وَرَدَتْ بِهَا الْأَخْبَارُ الصِّحَاحُ حَقٌّ " .

وقال الإمام أحمد محمَّد شاكر في تعليقه على مسند الإمام أحمد (٧/ ٩٨ هامش) : " وقد لعب المجدِّدون، أو المجرّدون، في عصرنا الذي نحيا فيه، بهذه الأحاديث الدالَّة صراحة على نزول عيسى ابن مريم عليه السَّلام، في آخر الزَّمان، قبل انقضاء الحياة الدُّنيا -: بالتَّأويل المنطوي على الإنكار تارة، وبالإنكار الصَّريح أخرى!، ذلك أنَّهم – في حقيقة أمرهم – لا يؤمنون بالغيب، أو لا يكادون يؤمنون. وهي أحاديث متواترة المعنى في مجموعها، يعلم مضمون ما فيها من الدِّين بالضَّرورة. فلا يجديهم الإنكار ولا التَّأويل. وقد ذكر الحافظ ابن كثير طائفة طيِّبة جمَّة، من الأحاديث الصِّحاح الواردة في ذلك، في تفسيره (٣: ١٥ – ٢٣)، ثمَّ قال: "فهذه أحاديث متواترة عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، من رواية أبي هريرة، وابن مسعود، وعثمان بن أبي العاص، وأبي أمامة، والنَّوَّاس بن سمعان، وعبد الله بن عمرو بن العاص، ومجمع بن جارية، وحذيفة بن أسيد، رضي الله عنهم. وفيها دلالة على صفة نزوله، ومكانه، من أنَّه بالشَّام، بل بدمشق، عند المنارة الشَّرقيَّة، وأنَّ ذلك يكون عند إقامة صلاة الصُّبح. وقد بنيت في هذه الأعصار، في سنة (٧٤١هـ) إحدى وأربعين وسبعمائة. منارة للجامع الأموي، بيضاء، من حجارة منحوتة، عوضًا عن المنارة التي هدمت بسبب الحريق المنسوب إلى صنيع النَّصارى، عليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة. وكان أكثرُ عمارتها من أموالهم.

وقويت الظُّنون أنَّها هي التي ينزل عليها المسيح عيسى ابن مريم عليه الَّسلام، فيقتل الخنزير، ويكسر الصَّليب، ويضع الجزية، فلا يقبل إلَّا الإسلام، كما تقدَّم في الصَّحيحين. وهذا إخبار من النَّبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بذلك، وتقرير وتشريع وتسويغ له على ذلك، في ذلك الزَّمان، حيث تنزاح عللهم، وترتفع شبههم من أنفسهم. ولهذا كلّهم يدخلون في دين الإسلام، متابعين لعيسى عليه السَّلام، وعلى يديه. ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ﴾ الآية" .

﴿سُؤالٌ﴾ : لِمَاذَا سُمِّي عِيْسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَام بِالمَسِيْح؟

الجواب : من المعلوم أنَّ لقب المسيح في حقِّ الدَّجَّال ذم، وهو على عكسه تماماً في حقِّ عيسى عليه الصَّلاة والسَّلام فإنَّه مدح، وقد نقل القرطبي في " التَّذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة" (ص١٣٠٥-١٣٠٦ باختصار) أقوالاً عديدة في السَّبب الذي لأجله سُمِّي عيسى عليه الصَّلاة والسَّلام بالمسيح، من أهمِّها:

القَوْلُ الأَوَّلُ: قال ابن عبَّاس: كان لا يمسح ذا عاهة إلاّ بريء، ولا ميتاً إلَّا حَيِيَ، فهو هنا من أبنية الفاعلين مسيح بمعنىٰ الماسح .

القَوْلُ الثَّانِي: قال ابن عبَّاس- أيضاً- في رواية عطاء عنه: سُمِّي مسيحاً لأَنَّه كان أمسح الرِّجل، ليس لرجله أخمص، والأخمص ما لا يمسّ الأرض من باطن الرِّجْل، فإذا لم يكن للقدم أخمص قيل فيه قدم رحاء، ورِجْل رحاء، ورَجل أرح، وامرأة رِحاء .

القَوْلُ الثَّالِثُ: قيل: سُمِّي مسيحاً، لأَنَّه خرج من بطن أُمِّه كأَنَّه ممسوح بالدُّهن .

القَوْلُ الرَّابِعُ: المسيح في اللغة: قطع الفضَّة وكذلك المسيحة: القطعة من الفضَّة، وكذلك كان المسيح بن مريم أبيض مُشْرب حمرة، ربعة من الرِّجـــال، عريض الصَّدر، جعداً، والجعد هاهنا اجتماع الخلق وشدَّة الأسر " .

﴿سُؤالٌ﴾ : مَا المَقْصُوْدُ بِـ التَّوَفِّي الوَارِد فِيْ قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ إِذْ قالَ اللَّهُ يَا عِيسى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [آل عمران:٥٥] .

الجواب : قال الإمام القرطبي في " الجامع لأحكام القرآن" (٤/ ٩٩) عند شرحه لهذه الآية : " وَقَالَ جَمَاعَةٌ مِنْ أَهْلِ الْمَعَانِي مِنْهُمُ الضَّحَّاكُ وَالْفَرَّاءُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: **﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرافِعُكَ إِلَيَّ﴾** عَلَىٰ التَّقْدِيمِ وَالتَّأْخِيرِ، لِأَنَّ الْوَاوَ لَا تُوجِبُ الرُّتْبَةَ. وَالْمَعْنَىٰ: إِنَىٰ رَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمُتَوَفِّيكَ بَعْدَ أَنْ تَنْزِلَ مِنَ السَّمَاءِ، كقوله:" **﴿وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكانَ لِزاماً وَأَجَلٌ مُسَمًّى﴾** [طه: ١٢٩] ، وَالتَّقْدِيرُ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ وَأَجَلٌ مُسَمًّىٰ لكان لزاما. قال الشَّاعر:

أَلَا يَا نَخْلَةً مِنْ ذَاتِ عِرْقٍ   عَلَيْكِ وَرَحْمَةُ اللَّهِ السَّلَامُ

أَيْ : عَلَيْكِ السَّلَامُ وَرَحْمَةُ الله. وقال الحسن وابن جريح: مَعْنَىٰ مُتَوَفِّيكَ قَابِضُكَ وَرَافِعُكَ إِلَىٰ السَّمَاءِ مِنْ غَيْرِ مَوْتٍ، مِثْلَ تَوَفَّيْتُ مَالِي مِنْ فُلَانٍ أَيْ قَبَضْتُهُ. وَقَالَ وَهْبُ بْنُ مُنَبِّهٍ: تَوَفَّىٰ اللَّهُ عِيسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ ثَلَاثَ سَاعَاتٍ مِنْ نَهَارٍ ثُمَّ رَفَعَهُ إِلَىٰ السَّمَاءِ. وَهَذَا فِيهِ بُعْدٌ، فَإِنَّهُ صَحَّ فِي الْأَخْبَارِ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نُزُولُهُ وَقَتْلُهُ الدَّجَّالَ عَلَىٰ مَا بَيَّنَّاهُ فِي كِتَابِ التَّذْكِرَةِ، وَفِي هَذَا الْكِتَابِ حَسْبَ مَا تَقَدَّمَ، وَيَأْتِي. وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ: مُتَوَفِّيكَ قَابِضُكَ، وَمُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ وَاحِدٌ وَلَمْ يَمُتْ بَعْدُ. وَرَوَىٰ ابْنُ طَلْحَةَ عَنِ ابن عبَّاس معنىٰ متوفِّيك مميتك. الرَّبيع ابن أَنَسٍ: وَهِيَ وَفَاةُ نَوْمٍ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَىٰ: **﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ﴾** [الأنعام: ٦٠] ، أَيْ : يُنِيمُكُمْ لِأَنَّ النَّوْمَ أَخُو الْمَوْتِ، كَمَا قَالَ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمَّا سُئِلَ: أَفِي الْجَنَّةِ نَوْمٌ؟ قَالَ: (لَا، النَّوْمُ أَخُو الْمَوْتِ، وَالْجَنَّةُ لَا مَوْتَ فِيهَا). أَخْرَجَهُ الدَّارَقُطْنِيُّ. انظر : علل الدارقطني (١٣/ ٣٣٧ برقم ٣٢١٥) .

وَالصَّحِيحُ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَىٰ رَفَعَهُ إِلَىٰ السَّمَاءِ مِنْ غَيْرِ وَفَاةٍ وَلَا نَوْمٍ ، كَمَا قَالَ الْحَسَنُ وَابْنُ زَيْدٍ، وَهُوَ اخْتِيَارُ الطَّبَرِيِّ، وَهُوَ الصَّحِيحُ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، وَقَالَهُ الضَّحَّاكُ " .

﴿سُؤالٌ﴾ : مَا هِيَ أَدِلَّةُ نُـزُوْلِ عِيْسَى عَلَيْهِ السَّلَام فِي آخِرِ الزَّمَان ؟

الجواب : ذكر أهل العلم أنَّ نـزول عيسىٰ عليه السَّلام وقعت الإشارة إليه في قوله تعالىٰ : **﴿وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾** [آل عمران:٤٦] ، قال الإمام القرطبي في " الجامع لأحكام القرآن" (٤/ ٩٠) : " وأمَّا كلامه وهو كهل فإذا أنزل اللَّهُ تَعَالَى مِنَ السَّمَاءِ أَنْزَلَهُ عَلَىٰ صُورَةِ ابْنِ ثَلَاثٍ وَثَلَاثِينَ سَنَةً وَهُوَ الْكَهْلُ فَيَقُولُ لَهُمْ:" إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ" كَمَا قَالَ فِي الْمَهْدِ" .

وفي قوله تعالىٰ : **﴿وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ إِلاَّ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً﴾** [النساء:١٥٩] قال الإمام القرطبي في " الجامع لأحكام القرآن" (٦/ ١١) : " قِيلَ: إِنَّ الْهَاءَيْنِ جَمِيعًا لِعِيسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَالْمَعْنَىٰ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ مَنْ كَانَ حَيًّا حين نزوله يوم القيامة، قاله قَتَادَةُ وَابْنُ زَيْدٍ وَغَيْرُهُمَا وَاخْتَارَهُ الطَّبَرِيُّ. وَرَوَىٰ يَزِيدُ بْنُ زُرَيْعٍ عَنْ رَجُلٍ عَنِ الْحَسَنِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: **﴿وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ﴾** قَالَ: قَبْلَ مَوْتِ عِيسَىٰ، وَاللَّهِ إِنَّهُ لَحَيٌّ عِنْدَ اللَّهِ الْآنَ، وَلَكِنْ إِذَا نَزَلَ آمَنُوا بِهِ أَجْمَعُونَ، وَنَحْوَهُ عَنِ الضَّحَّاكِ وَسَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ " .

وجاء التَّصريح بنـزول عيسىٰ عليه السَّلام في السُّنَّة، فقد روىٰ البخاري (٤/ ١٦٨ برقم ٣٤٤٨) ، مسلم (١/ ١٣٥ برقم١٥٥) بسندهما عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَيُوشِكَنَّ أَنْ يَنْزِلَ فِيكُمْ ابْنُ مَرْيَمَ حَكَمًا عَدْلًا، فَيَكْسِرَ الصَّلِيبَ، وَيَقْتُلَ الخِنْزِيرَ، وَيَضَعَ الجِزْيَةَ، وَيَفِيضَ المَالُ حَتَّىٰ لاَ يَقْبَلَهُ أَحَدٌ، حَتَّىٰ تَكُونَ السَّجْدَةُ الوَاحِدَةُ خَيْرًا مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا» ، ثُمَّ يَقُولُ أَبُو هُرَيْرَةَ: " وَاقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ: **﴿وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ، وَيَوْمَ القِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾** [النساء: ١٥٩] .

﴿سُؤالٌ﴾ : مَا الحِكْمَةُ فِي نُـزُوْلِ عِيْسَى عَلَيْهِ السَّلَام ؟

الجواب : أجاب الإمام القرطبي في " التَّذكرة بأحوال الموتىٰ وأمور الآخرة " (ص١٣٠٢-١٣٠٣) عن ذلك بثلاثة أوجه هي:

أَحَدُهَا: يحتمل أن يكون ذلك لأنَّ اليهود هَمَّت بقتله وصلبه، وجرىٰ أمرهم معه علىٰ ما بيَّنه الله تعالىٰ في كتابه، وهم أبداً يدَّعون أنَّهم قتلوه وينسبونه إلىٰ السِّحر وغيره ممَّا كان الله برَّأه ونـزَّهه منه. ولقد ضرب الله عليهم الذِّلَّة فلم تقم لهم منذ أعزَّ الله الإسلام وأظهره راية، ولا كان لهم في بقعة من بقاع الأرض

سلطان ولا قوَّة ولا شوكة ولا يزالون كذلك حتىٰ تقرب السَّاعة ، فيظهر الدَّجَّال وهو أسحر السَّحرة ويبايعه اليهود فيكونون يومئذ جنده مقدِّرين أنهم ينتقمون به من المسلمين. فإذا صار أمرهم إلىٰ هذا أنـزل الله تعالىٰ الذي عندهم أنَّهم قد قتلوه وأبرزه لهم ولغيرهم من المنافقين والمخالفين حيَّاً، ونصره علىٰ رئيسهم وكبيرهم المدَّعي الرُّبوبيَّة، فقتله وهزم جنده من اليهود ...

وَالوَجْهُ الثَّانِي: وهو أنَّه يحتمل أن يكون إنـزاله مدَّة لدنوّ أجله لا لقتال الدَّجَّال، لأنَّه لا ينبغي لمخلوق من التُّراب أن يكون في السَّماء، لكن أمره يجري علىٰ ما قال الله تعالىٰ : **﴿مِنْها خَلَقْناكُمْ وَفِيها نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تارَةً أُخْرى﴾** [طه:٥٥] ، فينـزله الله تعالىٰ ليقبره في الأرض مدَّة يراه فيها من يقرب منه، ويسمع به من نأىٰ عنه، ثمَّ يقبضه فيتولَّىٰ المؤمنون أمره ... فإذا اتَّفق ذلك وكان الدَّجَّال قد بلغ من فتنته أن ادَّعىٰ الرُّبوبيَّة ولم ينتصب لقتاله أحد من المؤمنين لقلّتهم، كان هو أحقّ بالتَّوجُّه إليه ويجري قتله علىٰ يديه ...

وَالوَجْهُ الثَّالِثُ: أنَّه وجد في الإنجيل فضل أمَّة محمَّد صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حسب ما قال وقوله الحق : **﴿ذلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْراةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ﴾** [الفتح:٢٩] ، فدعا الله عزَّ وجلَّ أن يجعله من أمَّة محمَّد صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فاستجاب الله تعالىٰ دعاءَه ورفعه إلىٰ السَّماء إلىٰ أن ينـزله آخر الزَّمان مجدِّداً لما درس من دين الإسلام، دين محمَّد عليه الصَّلاة والسَّلام، فوافق خروج الدَّجَّال فيقتله " .

قلت: والوجه الأوَّل هو الصَّحيح، وهو ما تضافرت عليه الأدلَّة من أحاديث الرَّسول صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، والله أعلم.

﴿سُؤالٌ﴾ : مَا مُدَّةُ إقامَةِ عِيْسَى عَلَيْهِ السَّلَام فِي الأَرْضِ بَعْدَ نـزُوْلِه ؟

الجواب : روىٰ أحمد في " المسند" (١٥/٣٩٨ برقم ٩٦٣٢) بسنده عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: " ... أَنَا أَوْلَى النَّاسِ بِعِيسَىٰ ابْنِ مَرْيَمَ، لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ بَيْنِي وَبَيْنَهُ نَبِيٌّ، وَإِنَّهُ نَازِلٌ، فَإِذَا رَأَيْتُمُوهُ فَاعْرِفُوهُ، فَإِنَّهُ رَجُلٌ مَرْبُوعٌ إِلَىٰ الْحُمْرَةِ وَالْبَيَاضِ، سَبْطٌ كَأَنَّ رَأْسَهُ يَقْطُرُ، وَإِنْ لَمْ يُصِبْهُ بَلَلٌ، بَيْنَ مُمَصَّرَتَيْنِ، فَيَكْسِرُ الصَّلِيبَ، وَيَقْتُلُ الْخِنْزِيرَ، وَيَضَعُ الْجِزْيَةَ، وَيُعَطِّلُ الْمِلَلَ، حَتَّىٰ تَهْلِكَ فِي زَمَانِهِ الْمِلَلُ كُلُّهَا غَيْرَ الْإِسْلَامِ، وَيُهْلِكُ اللهُ فِي زَمَانِهِ الْمَسِيحَ الدَّجَّالَ الْكَذَّابَ، وَتَقَعُ الْأَمَنَةُ فِي الْأَرْضِ حَتَّىٰ تَرْتَعَ الْإِبِلُ مَعَ الْأُسْدِ جَمِيعًا، وَالنُّمُورُ مَعَ الْبَقَرِ، وَالذِّئَابُ مَعَ الْغَنَمِ، وَيَلْعَبَ الصِّبْيَانُ وَالْغِلْمَانُ بِالْحَيَّاتِ، لَا يَضُرُّ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، فَيَمْكُثُ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ يَمْكُثَ، ثُمَّ يُتَوَفَّىٰ فَيُصَلِّيَ عَلَيْهِ الْمُسْلِمُونَ وَيَدْفِنُونَهُ " . قال الأرنؤوط : " حديث صحيح، وفي هذا الإسناد انقطاع، فلم يثبت سماع قتادة من عبد الرحمن بن آدم، وهو مولىٰ أم بُرثُن. وابن أبي عروبة –واسمه سعيد– اختلط

بأخرة، لكن يحيىٰ القطان روىٰ عنه قبل الاختلاط، وكذا من تابعه في مصادر التخريج الآتية. وانظر (٩٢٧٠) . وأخرجه ابن أبي شيبة ١٥/ ١٥٨-١٥٩ عن محمد بن بِشر، والطبري في "تفسيره" ٦/ ٢٢ من طريق يزيدَ بن زريع، كلاهما عن سعيد بن أبي عروبة، بهذا الإسناد. السبِط، والسبَط، والسبْطُ: هو الشعر المسترسل، وهو نقيض الجَعْد " .

وروىٰ مسلم (٤/ ٢٢٥٨ برقم ٢٩٤٠) بسنده عَنِ النُّعْمَانِ بْنِ سَالِمٍ، قَالَ: سَمِعْتُ يَعْقُوبَ بْنَ عَاصِمِ بْنِ عُرْوَةَ بْنِ مَسْعُودٍ الثَّقَفِيَّ، يَقُولُ: سَمِعْتُ عَبْدَ اللهِ بْنَ عَمْرٍو، وَجَاءَهُ رَجُلٌ، فَقَالَ: مَا هَذَا الْحَدِيثُ الَّذِي تُحَدِّثُ بِهِ؟ تَقُولُ: إِنَّ السَّاعَةَ تَقُومُ إِلَىٰ كَذَا وَكَذَا، فَقَالَ: سُبْحَانَ اللهِ أَوْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ - أَوْ كَلِمَةً نَحْوَهُمَا - لَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ لَا أُحَدِّثَ أَحَدًا شَيْئًا أَبَدًا، إِنَّمَا قُلْتُ: إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ بَعْدَ قَلِيلٍ أَمْرًا عَظِيمًا، يُحَرَّقُ الْبَيْتُ، وَيَكُونُ وَيَكُونُ، ثُمَّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " ... ثُمَّ يَمْكُثُ النَّاسُ سَبْعَ سِنِينَ، لَيْسَ بَيْنَ اثْنَيْنِ عَدَاوَةٌ، ثُمَّ يُرْسِلُ اللهُ رِيحًا بَارِدَةً مِنْ قِبَلِ الشَّأْمِ، فَلَا يَبْقَىٰ عَلَىٰ وَجْهِ الْأَرْضِ أَحَدٌ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ خَيْرٍ أَوْ إِيمَانٍ إِلَّا قَبَضَتْهُ، حَتَّىٰ لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ دَخَلَ فِي كَبِدِ جَبَلٍ لَدَخَلَتْهُ عَلَيْهِ، حَتَّىٰ تَقْبِضَهُ ..." .

قلت: والجمع بين الحديثين هو أنَّ مدَّة مكوث عيسىٰ عليه السَّلام في الأرض أربعون عاماً، أمَّا السَّبعة أعوام التي جاءت في حديث ابن عمر فهي المدَّة الأخيرة من حياته بعد نزوله عليه السَّلام، والتي يمكث فيها النَّاس وليس بين اثنين عداوة، والله أعلم.

﴿سُؤالٌ﴾ : مَاذَا عَنْ خُرُوجِ يَأْجُوْج وَمَأْجُوْج ؟

الجواب : يأجوج ومأجوج خلقٌ من خلق الله تعالىٰ سيخرجون آخر الزَّمان ... جاء ذكرهم في القرآن الكريم والسُّنَّة المطهَّرة ... قال تعالىٰ : **﴿حَتَّى إِذا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ * وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذا هِيَ شاخِصَةٌ أَبْصارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يا وَيْلَنا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظالِمِينَ﴾** [الأنبياء:٩٦-٩٧] .

قال الإمام القرطبي في " الجامع لأحكام القرآن" (١١/ ٣٤١-٣٤٢) عند تفسيره لهذه الآية: " ثُمَّ قِيلَ فِي الَّذِينَ يَنْسِلُونَ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ: إِنَّهُمْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ، وَهُوَ الْأَظْهَرُ، وَهُوَ قَوْلُ ابْنِ مَسْعُودٍ وَابْنِ عَبَّاسٍ ... قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: **﴿وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ﴾** يَعْنِي الْقِيَامَةَ" .

وقال تعالىٰ حكاية عن ذي القرنين في حديثه عن السَّدِّ الذي أقامه لمنع يأجوج ومأجوج من الإفساد : **﴿فَإِذا جاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾** [الكهف:٩٨] .

قال الإمام القرطبي في " الجامع لأحكام القرآن" (١١/ ٦٣) : " قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: **﴿فَإِذا جاءَ وَعْدُ رَبِّي﴾** ، أَيْ : يَوْمُ الْقِيامَةِ. وَقِيلَ: وَقْتُ خُرُوجِهِمْ" .

وفي السُّنَّة وردت في ذلك أحاديث كثيرة ... منها ما رواه ابن ماجه (٢/ ١٣٦٤ برقم ٤٠٨٠) بسنده عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " إِنَّ يَأْجُوجَ، وَمَأْجُوجَ يَحْفِرُونَ كُلَّ يَوْمٍ، حَتَّى إِذَا كَادُوا يَرَوْنَ شُعَاعَ الشَّمْسِ، قَالَ الَّذِي عَلَيْهِمْ: ارْجِعُوا فَسَنَحْفِرُهُ غَدًا، فَيُعِيدُهُ اللَّهُ أَشَدَّ مَا كَانَ، حَتَّى إِذَا بَلَغَتْ مُدَّتُهُمْ، وَأَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَبْعَثَهُمْ عَلَى النَّاسِ، حَفَرُوا، حَتَّى إِذَا كَادُوا يَرَوْنَ شُعَاعَ الشَّمْسِ، قَالَ الَّذِي عَلَيْهِمْ: ارْجِعُوا، فَسَتَحْفِرُونَهُ غَدًا، إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى، وَاسْتَثْنَوْا، فَيَعُودُونَ إِلَيْهِ، وَهُوَ كَهَيْئَتِهِ حِينَ تَرَكُوهُ، فَيَحْفِرُونَهُ وَيَخْرُجُونَ عَلَى النَّاسِ فَيُنْشِفُونَ الْمَاءَ، وَيَتَحَصَّنُ النَّاسُ مِنْهُمْ فِي حُصُونِهِمْ، فَيَرْمُونَ بِسِهَامِهِمْ إِلَى السَّمَاءِ، فَتَرْجِعُ عَلَيْهَا الدَّمُ الَّذِي اجْفَظَّ، فَيَقُولُونَ: قَهَرْنَا أَهْلَ الْأَرْضِ، وَعَلَوْنَا أَهْلَ السَّمَاءِ، فَيَبْعَثُ اللَّهُ نَغَفًا فِي أَقْفَائِهِمْ، فَيَقْتُلُهُمْ بِهَا "، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّ دَوَابَّ الْأَرْضِ لَتَسْمَنُ، وَتَشْكَرُ شَكَرًا، مِنْ لُحُومِهِمْ» .

وروى ابن ماجة (٢/ ١٣٦٣ برقم ٤٠٧٩) بسنده عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: " تُفْتَحُ يَأْجُوجُ، وَمَأْجُوجُ فَيَخْرُجُونَ كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: **﴿وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ﴾** [الأنبياء: ٩٦] ، فَيَعُمُّونَ الْأَرْضَ، وَيَنْحَازُ مِنْهُمُ الْمُسْلِمُونَ، حَتَّى تَصِيرَ بَقِيَّةُ الْمُسْلِمِينَ فِي مَدَائِنِهِمْ وَحُصُونِهِمْ، وَيَضُمُّونَ إِلَيْهِمْ مَوَاشِيَهُمْ، حَتَّى أَنَّهُمْ لَيَمُرُّونَ بِالنَّهَرِ فَيَشْرَبُونَهُ، حَتَّى مَا يَذَرُونَ فِيهِ شَيْئًا، فَيَمُرُّ آخِرُهُمْ عَلَى أَثَرِهِمْ، فَيَقُولُ قَائِلُهُمْ: لَقَدْ كَانَ بِهَذَا الْمَكَانِ، مَرَّةً مَاءٌ، وَيَظْهَرُونَ عَلَى الْأَرْضِ فَيَقُولُ قَائِلُهُمْ: هَؤُلَاءِ أَهْلُ الْأَرْضِ، قَدْ فَرَغْنَا مِنْهُمْ، وَلَنُنَازِلَنَّ أَهْلَ السَّمَاءِ، حَتَّى إِنَّ أَحَدَهُمْ لَيَهُزُّ حَرْبَتَهُ إِلَى السَّمَاءِ، فَتَرْجِعُ مُخَضَّبَةً بِالدَّمِ، فَيَقُولُونَ: قَدْ قَتَلْنَا أَهْلَ السَّمَاءِ، فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ، إِذْ بَعَثَ اللَّهُ دَوَابَّ كَنَغَفِ الْجَرَادِ، فَتَأْخُذُ بِأَعْنَاقِهِمْ فَيَمُوتُونَ، مَوْتَ الْجَرَادِ، يَرْكَبُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، فَيُصْبِحُ الْمُسْلِمُونَ لَا يَسْمَعُونَ لَهُمْ حِسًّا، فَيَقُولُونَ: مَنْ رَجُلٌ يَشْرِي نَفْسَهُ، وَيَنْظُرُ مَا فَعَلُوا؟ فَيَنْزِلُ مِنْهُمْ رَجُلٌ قَدْ وَطَّنَ نَفْسَهُ عَلَى أَنْ يَقْتُلُوهُ، فَيَجِدُهُمْ مَوْتَى فَيُنَادِيهِمْ أَلَا أَبْشِرُوا فَقَدْ هَلَكَ عَدُوُّكُمْ، فَيَخْرُجُ النَّاسُ، وَيَخْلُونَ سَبِيلَ مَوَاشِيهِمْ، فَمَا يَكُونُ لَهُمْ رَعْيٌ إِلَّا لُحُومُهُمْ فَتَشْكَرُ عَلَيْهَا، كَأَحْسَنِ مَا شَكِرَتْ مِنْ نَبَاتٍ أَصَابَتْهُ قَطُّ " .

﴿سُؤالٌ﴾ : مَا هُوَ أَصْلُ يَأْجُوج وَمَأْجُوج ؟

الجواب : ذكر الإمام القرطبي في " التَّذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة " (ص١٣٢٨) : " وهما أمَّتان من ولد يافث بن نوح مدَّ الله لهما في العمر ، وأكثر لهما في النَّسل" ، وقال في " الجامع لأحكام القرآن" (١١/ ٥٦) : " وَقَالَ كَعْبُ الْأَحْبَارِ: احْتَلَمَ آدَمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَاخْتَلَطَ مَاؤُهُ بِالتُّرَابِ فَأَسِفَ فَخُلِقُوا مِنْ ذَلِكَ

الْمَاءِ، فَهُمْ مُتَّصِلُونَ بِنَا مِنْ جِهَةِ الْأَبِ لَا مِنْ جِهَةِ الْأُمِّ. وَهَذَا فِيهِ نَظَرٌ، لِأَنَّ الْأَنْبِيَاءَ صَلَوَاتُ اللَّهِ عليهم وسلامه لَا يَحْتَلِمُونَ، وَإِنَّمَا هُمْ مِنْ وَلَدِ يَافِثَ، وَكَذَلِكَ قَالَ مُقَاتِلٌ وَغَيْرُهُ " .

قال الحافظ ابن حجر في الفتح (٦/ ٣٨٦) عن كلام كعب الأحبار السَّابق : " وَهُوَ قَوْلٌ مُنْكَرٌ جِدًّا لَا أَصْلَ لَهُ إِلَّا عَنْ بَعْضِ أَهْلِ الْكتاب " .

وقال الحافظ ابن حجر أيضاً في " فتح الباري" (١٣/ ١٠٧) : " وَلَمْ نَرَ هَذَا عَنْ أَحَدٍ مِنَ السَّلَفِ إِلَّا عَنْ كَعْبِ الْأَحْبَارِ وَيَرُدُّهُ الْحَدِيثُ الْمَرْفُوعُ أَنَّهُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ نُوحٍ وَنُوحٌ مِنْ ذُرِّيَّةِ حَوَّاء قطعا " .

"وقال الضَّحَّاك: هم من التُّرك" . انظر : التَّذكرة بأحوال الموتىٰ وأمور الآخرة (ص١٣٣٠) .

قلت: والقول الأوَّل هو القول الرَّاجح، والله أعلم . انظر: النهاية في الفتن والملاحم (١/ ٢٠١) ، فتح الباري (١٣/ ١١٣)

﴿سُؤالٌ﴾ : مَا أَصْلُ التَّسْمِيَةِ بِـ يَأْجُوْج وَمَأْجُوْج ؟

الجواب : ذكر الإمام القرطبي في الجامع لأحكام القرآن" (١١/ ٥٥-٥٦) الخلاف في لفظي "يأجوج ومأجوج" هل هما أعجميَّان، أو عربيَّان، وعلىٰ الثَّاني فما أصل اشتقاقهما؟ فقال: " قَالَ الْأَخْفَشُ: مَنْ هَمَزَ" يَأْجُوجَ" فَجَعَلَ الْأَلِفَيْنِ مِنَ الْأَصْلِ يَقُولُ: يَأْجُوجَ يَفْعُولَ وَمَأْجُوجَ مَفْعُولَ كَأَنَّهُ مِنْ أَجِيجِ النَّارِ. قَالَ: وَمَنْ لَا يَهْمِزُ وَيَجْعَلُ الْأَلِفَيْنِ زَائِدَتَيْنِ يَقُولُ:" يَاجُوجَ" مِنْ يَجَجْتُ وَمَاجُوجَ مِنْ مَجَجْتَ وَهُمَا غَيْرُ مَصْرُوفَيْنِ، قَالَ رُؤْبَةُ:

لَوْ أَنَّ يَاجُوجَ وَمَاجُوجَ مَعًا　　وَعَادَ عَادٌ وَاسْتَجَاشُوا تُبَّعَا

ذَكَرَهُ الْجَوْهَرِيُّ. وَقِيلَ: إِنَّمَا لَمْ يَنْصَرِفَا لِأَنَّهُمَا اسْمَانِ أَعْجَمِيَّانِ، مِثْلُ طَالُوتَ وَجَالُوتَ غَيْرَ مُشْتَقَّيْنِ، عِلَّتَاهُمَا فِي مَنْعِ الصَّرْفِ الْعُجْمَةُ وَالتَّعْرِيفُ وَالتَّأْنِيثُ. وَقَالَتْ فِرْقَةٌ: هُوَ مُعَرَّبٌ مِنْ أَجَّ وَأَجَّجَ علتاه فِي مَنْعِ الصَّرْفِ التَّعْرِيفُ وَالتَّأْنِيثُ. وَقَالَ أَبُو عَلِيٍّ: يَجُوزُ أَنْ يَكُونَا عَرَبِيَّيْنِ، فَمَنْ هَمَزَ" يَأْجُوجَ" فَهُوَ عَلَىٰ وَزْنِ يَفْعُولَ مِثْلُ يَرْبُوعَ، مِنْ قَوْلِكَ أَجَّتِ النَّارُ أَيْ ضَوِيَتْ، وَمِنْهُ الْأَجِيجُ، وَمِنْهُ مِلْحٌ أُجَاجٌ، وَمَنْ لَمْ يَهْمِزْ أَمْكَنَ أَنْ يَكُونَ خَفَّفَ الْهَمْزَةَ فَقَلَبَهَا أَلِفًا مِثْلَ رَأْسٍ، وَأَمَّا" مَأْجُوجُ" فَهُوَ مَفْعُولٌ مِنْ أَجَّ، وَالْكَلِمَتَانِ مِنْ أَصْلٍ وَاحِدٍ فِي الِاشْتِقَاقِ وَمَنْ لَمْ يَهْمِزْ فَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ خَفَّفَ الْهَمْزَةَ، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ فَاعُولًا مِنْ مَجَّ، وَتَرْكُ الصَّرْفِ فِيهِمَا لِلتَّأْنِيثِ وَالتَّعْرِيفِ كَأَنَّهُ اسْمٌ للقبيلة" .

﴿سُؤالٌ﴾ : مَاذَا عَنْ صِفَةِ يَأْجُوْج وَمَأْجُوْج ؟

الجواب : ذكر أهل العلم في صفة يأجوج ومأجوج العديد من الآثار، كلُّها لا تثبت في ميزان التَّحقيق، ومن ذلك : أنَّهم ثلاثة أصنـاف: صنف منهم أمثال الأَرْز- شجر بالشَّام طول الشَّجرة عشـرون ومائة ذراع- وصنف عرضه وطوله سواء نحواً من الذِّراع، وصنف يفترش إذنه ويلتحف بالأخرىٰ ... وصنف منهم في طول شبر، لهم مخالب وأنياب السِّباع، وتداعي الحمام، وتسافد البهائم، وعواء الذِّئاب، وشعور تقيهم الحرَّ والبرد، وآذان عِظام، إحداها وبرة يشتّون فيها، والأخرىٰ جلدة يصيّفون فيها ...

﴿ سُؤالٌ ﴾ : مَاذَا عَنْ كَثْرَةِ يَأجُوْج وَمَأجُوْج ؟

الجواب : روىٰ البخاري (١٣٨/٤ برقم ٣٣٤٨) بسنده عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: "يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَىٰ: "يَا آدَمُ، فَيَقُولُ: لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ، وَالخَيْرُ فِي يَدَيْكَ، فَيَقُولُ: أَخْرِجْ بَعْثَ النَّارِ، قَالَ: وَمَا بَعْثُ النَّارِ؟، قَالَ: مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعَ مِائَةٍ وَتِسْعَةً وَتِسْعِينَ، فَعِنْدَهُ يَشِيبُ الصَّغِيرُ، وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا، وَتَرَىٰ النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَارَىٰ، وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ " قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَأَيُّنَا ذَلِكَ الوَاحِدُ؟ قَالَ : " أَبْشِرُوا، فَإِنَّ مِنْكُمْ رَجُلًا وَمِنْ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ أَلْفًا. ثُمَّ قَالَ: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إِنِّي أَرْجُو أَنْ تَكُونُوا رُبُعَ أَهْلِ الجَنَّةِ " فَكَبَّرْنَا، فَقَالَ: «أَرْجُو أَنْ تَكُونُوا ثُلُثَ أَهْلِ الجَنَّةِ» فَكَبَّرْنَا، فَقَالَ: «أَرْجُو أَنْ تَكُونُوا نِصْفَ أَهْلِ الجَنَّةِ» فَكَبَّرْنَا، فَقَالَ: «مَا أَنْتُمْ فِي النَّاسِ إِلَّا كَالشَّعَرَةِ السَّوْدَاءِ فِي جِلْدِ ثَوْرٍ أَبْيَضَ، أَوْ كَشَعَرَةٍ بَيْضَاءَ فِي جِلْدِ ثَوْرٍ أَسْوَدَ» .

﴿سُؤالٌ﴾ : مَاذَا عَنْ إِفْسَادِ يَأجُوْج وَمَأجُوْج ؟

الجواب : قال الإمام القرطبي في " الجامع لأحكام القرآن " (٥٦/١١) : " اختلف في إفسادهم، فقال سَعِيدُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ: إِفْسَادُهُمْ أَكْلُ بَنِي آدَمَ. وَقَالَتْ فِرْقَةٌ: إِفْسَادُهُمْ إِنَّمَا كَانَ مُتَوَقَّعًا، أَيْ سَيُفْسِدُونَ، فَطَلَبُوا وَجْهَ التَّحَرُّزِ مِنْهُمْ. وَقَالَتْ فِرْقَةٌ: إِفْسَادُهُمْ هُوَ الظُّلْمُ وَالْغَشْمُ وَالْقَتْلُ وَسَائِرُ وُجُوهِ الْإِفْسَادِ الْمَعْلُومِ مِنَ الْبَشَرِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ" .

﴿سُؤالٌ﴾ : مَاذَا عَنْ هَلَاكِ يَأجُوْج وَمَأجُوْج ؟

الجواب : ذكرت الأحاديثُ السَّبيل لهلاك يأجوج ومأجوج، منها ما رواه ابن ماجه (٢/ ١٣٦٥ برقم ٤٠٨١) بسنده عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ، قَالَ: " لَمَّا كَانَ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لَقِيَ إِبْرَاهِيمَ، وَمُوسَىٰ، وَعِيسَىٰ فَتَذَاكَرُوا السَّاعَةَ، فَبَدَءُوا بِإِبْرَاهِيمَ فَسَأَلُوهُ عَنْهَا، فَلَمْ يَكُنْ عِنْدَهُ مِنْهَا عِلْمٌ، ثُمَّ سَأَلُوا مُوسَىٰ، فَلَمْ يَكُنْ عِنْدَهُ مِنْهَا عِلْمٌ، فَرُدَّ الْحَدِيثُ إِلَىٰ عِيسَىٰ ابْنِ مَرْيَمَ، فَقَالَ: قَدْ عُهِدَ إِلَيَّ فِيمَا دُونَ وَجْبَتِهَا، فَأَمَّا وَجْبَتُهَا فَلَا يَعْلَمُهَا إِلَّا اللَّهُ، فَذَكَرَ خُرُوجَ الدَّجَّالِ، قَالَ: فَأَنْزِلُ، فَأَقْتُلُهُ فَيَرْجِعُ النَّاسُ إِلَىٰ بِلَادِهِمْ

فَيَسْتَقْبِلُهُمْ يَأْجُوجُ، وَمَأْجُوجُ وَهُمْ ﴿مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٦] ، فَلَا يَمُرُّونَ بِمَاءٍ إِلَّا شَرِبُوهُ، وَلَا بِشَيْءٍ إِلَّا أَفْسَدُوهُ، فَيَجْأَرُونَ إِلَى اللَّهِ، فَأَدْعُو اللَّهَ أَنْ يُمِيتَهُمْ، فَتَنْتُنُ الْأَرْضُ مِنْ رِيحِهِمْ، فَيَجْأَرُونَ إِلَى اللَّهِ، فَأَدْعُو اللَّهَ، فَيُرْسِلُ السَّمَاءَ بِالْمَاءِ، فَيَحْمِلُهُمْ فَيُلْقِيهِمْ فِي الْبَحْرِ، ثُمَّ تُنْسَفُ الْجِبَالُ، وَتُمَدُّ الْأَرْضُ مَدَّ الْأَدِيمِ، فَعُهِدَ إِلَيَّ مَتَى كَانَ ذَلِكَ، كَانَتِ السَّاعَةُ مِنَ النَّاسِ، كَالْحَامِلِ الَّتِي لَا يَدْرِي أَهْلُهَا مَتَى تَفْجَؤُهُمْ بِوِلَادَتِهَا " قَالَ الْعَوَّامُ: " وَوُجِدَ تَصْدِيقُ ذَلِكَ فِي كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى: حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ ﴿مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٦] . قال السندي في شرحه لسنن ابن ماجه ٤/ ٤١٠-٤١١: "هذا إسناد صحيح رجاله ثقات، مؤثر بن عفازة ذكره ابن حبّان في الثقات، وباقي رجال الإسناد ثقات. وقال العلامة حسان عبد المنان: قال البوصيري: هذا إسناد صحيح رجاله ثقات. مؤثر بن عفازة ذكره ابن حبّان في الثقات، وباقي رجال الإسناد ثقات. رواه أبو بكر أبي شيبة عن يزيد بن هارون بإسناده ومتنه. ورواه أبو يعلى الموصلي، والحاكم في المستدرك، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد".

﴿سُؤالٌ﴾ : مَاذَا عَنِ الخُسُوْفَاتِ الثَّلَاثَة ؟

الجواب : روى مسلم (٤/ ٢٢٢٥ برقم ٢٩٠١) بسنده عَنْ حُذَيْفَةَ بْنِ أَسِيدٍ الْغِفَارِيِّ، قَالَ: اطَّلَعَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَيْنَا وَنَحْنُ نَتَذَاكَرُ، فَقَالَ: «مَا تَذَاكَرُونَ؟» قَالُوا: نَذْكُرُ السَّاعَةَ، قَالَ: " إِنَّهَا لَنْ تَقُومَ حَتَّى تَرَوْنَ قَبْلَهَا عَشْرَ آيَاتٍ - فَذَكَرَ - الدُّخَانَ، وَالدَّجَّالَ، وَالدَّابَّةَ، وَطُلُوعَ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا، وَنُزُولَ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَيَأَجُوجَ وَمَأْجُوجَ، وَثَلَاثَةَ خُسُوفٍ: خَسْفٌ بِالْمَشْرِقِ، وَخَسْفٌ بِالْمَغْرِبِ، وَخَسْفٌ بِجَزِيرَةِ الْعَرَبِ، وَآخِرُ ذَلِكَ نَارٌ تَخْرُجُ مِنَ الْيَمَنِ، تَطْرُدُ النَّاسَ إِلَى مَحْشَرِهِمْ " .

وروى الطَّبراني في " المعجم الكبير" (٢٣/ ٢٧١ برقم ٥٨٠) ، " المعجم الأوسط" (٤/ ٧٤ برقم ٣٦٤٧) بسنده عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ، قَالَتْ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «سَيَكُونُ بَعْدِي خَسْفٌ بِالْمَشْرِقِ، وَخَسْفٌ بِالْمَغْرِبِ، وَخَسْفٌ فِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ» فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَيُخْسَفُ بِالْأَرْضِ وَفِيهِمُ الصَّالِحُونَ؟ قَالَ لَهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «نَعَمْ إِذَا كَانَ أَكْثَرُ أَهْلِهَا الْخَبَثِ» . قال الهيثمي في " مجمع الزّوائد ومنبع الفوائد " (٨/ ١١ برقم ١٢٥٩٥) : " فِي الصَّحِيحِ بَعْضُهُ. رَوَاهُ الطَّبَرَانِيُّ فِي الْأَوْسَطِ، وَفِيهِ حَكِيمُ بْنُ نَافِعٍ وَثَّقَهُ ابْنُ مَعِينٍ وَضَعَّفَهُ غَيْرُهُ، وَبَقِيَّةُ رِجَالِهِ ثِقَاتٌ " .

قال الحافظ ابن حجر في " فتح الباري" (١٣/ ٨٤) : " وَقَدْ وُجِدَ الْخَسْفُ فِي مَوَاضِعَ وَلَكِنْ يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ بِالْخُسُوفِ الثَّلَاثَةِ قَدْرًا زَائِدًا عَلَى مَا وُجِدَ كَأَنْ يَكُونَ أَعْظَمَ مِنْهُ مَكَانا أَو قدراً " .

فالخسوفات الثَّلاثة المذكورة في الأحاديث هي من ضمن أشراط السَّاعة الكبرىٰ التي ستظهر في آخر الزَّمان ، وهي غير الخسوف التي ظهرت وستظهر بين الفينة والأخرىٰ ... إذ الفارق بينها وبين الخسوف التي ظهرت يتمثَّل أوَّلاً في ضخامتها وعظمتها ، ويتمثَّل ثانياً في أنَّها ستظهر قريباً من قيام السَّاعة ...

﴿سُؤالٌ﴾ : مَاذَا عَنْ خُرُوْجِ الدَّابَّة التِي تُكَلِّمُ النَّاس ؟

الجواب : من أشراط السَّاعة الكبرىٰ خروج دابَّة من الأرض تكلّم النَّاس وتسمِّهم مؤمناً وكافراً، وذلك "عند تمادي النَّاس في العصيان والفسوق والطُّغيان وإعراضهم عن آيات الله وتركهم تدبّرها والنـزول علىٰ حكمها ... ومن الأدلَّة علىٰ هذه العلامة قوله تعالىٰ : **﴿وَإِذا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كانُوا بِآياتِنا لا يُوقِنُونَ﴾** [النمل:٨٢] .

وروىٰ مسلم (١/ ١٣٧ برقم ١٥٨) بسنده عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " ثَلَاثٌ إِذَا خَرَجْنَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ، أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا: طُلُوعُ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا، وَالدَّجَّالُ، وَدَابَّةُ الْأَرْضِ " .

﴿سُؤالٌ﴾ : مَا هِيَ أَقْوَالُ العُلَمَاءِ فِي الدَّابَّة ؟

الجواب : اختلف العلماء والمفسِّرون في دابَّة الأرض علىٰ أقوال، هي:

الأَوَّل : أنَّها فصيل ناقة صالح وهو أصحّها- والله أعلم- لما رواه أبو داود الطَّيالسي في المسند (٢/ ٣٩٥ برقم ١١٦٥) بسنده عَنْ حُذَيْفَةَ بْنِ أَسِيدٍ الْغِفَارِيِّ أَبِي سَرِيحَةَ، وَأَمَّا جَرِيرٌ، فَقَالَ: عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَيْرٍ، عَنْ رَجُلٍ مِنْ آلِ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ وَحَدِيثُ طَلْحَةَ أَتَمُّهُمَا وَأَحْسَنُ، قَالَ: ذَكَرَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الدَّابَّةَ، فَقَالَ: لَهَا ثَلاَثُ خَرَجَاتٍ مِنَ الدَّهْرِ فَتَخْرُجُ فِي أَقْصَىٰ الْبَادِيَةِ وَلاَ يَدْخُلُ ذِكْرُهَا الْقَرْيَةَ، يَعْنِي مَكَّةَ ثُمَّ تَكْمُنُ زَمَانًا طَوِيلاً، ثُمَّ تَخْرُجُ خَرْجَةً أُخْرَىٰ دُونَ ذَلِكَ فَيَعْلُو ذِكْرُهَا فِي أَهْلِ الْبَادِيَةِ وَيَدْخُلُ ذِكْرُهَا الْقَرْيَةَ، يَعْنِي مَكَّةَ، قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ثُمَّ بَيْنَمَا النَّاسُ فِي أَعْظَمِ الْمَسَاجِدِ عَلَىٰ اللهِ حُرْمَةً خَيْرِهَا وَأَكْرَمِهَا الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ لَمْ يَرُعْهُمْ إِلاَّ وَهِيَ تَرْغُو بَيْنَ الرُّكْنِ وَالْمَقَامِ تَنْفُضُ عَنْ رَأْسِهَا التُّرَابَ، فَارْفَضَّ النَّاسُ مَعَهَا شَتَّىٰ وَمَعًا، وَثَبَتَ عِصَابَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَعَرَفُوا أَنَّهُمْ لَنْ يُعْجِزُوا اللَّهَ، فَبَدَأَتْ بِهِمْ فَجَلَّتْ وُجُوهَهُمْ حَتَّىٰ تَجْعَلَهَا كَأَنَّهَا الْكَوْكَبُ الدُّرِّيُّ وَوَلَّتْ فِي الأَرْضِ لاَ يُدْرِكُهَا طَالِبٌ وَلاَ يَنْجُو مِنْهَا هَارِبٌ حَتَّىٰ إِنَّ الرَّجُلَ لِيَتَعَوَّذُ مِنْهَا بِالصَّلاَةِ فَتَأْتِيهِ مِنْ خَلْفِهِ فَتَقُولُ يَا فُلاَنُ، الآنَ تُصَلِّي فَيُقْبِلُ عَلَيْهَا فَتَسِمُهُ فِي وَجْهِهِ، ثُمَّ تَنْطَلِقُ وَيَشْتَرِكُ النَّاسُ فِي الأَمْوَالِ وَيَصْطَحِبُونَ فِي الأَمْصَارِ يُعْرَفُ الْمُؤْمِنُ مِنَ الْكَافِرِ حَتَّىٰ إِنَّ الْمُؤْمِنَ يَقُولُ: يَا كَافِرُ اقْضِنِي حَقِّي، وَحَتَّىٰ إِنَّ الْكَافِرَ يَقُولُ: يَا مُؤْمِنُ اقْضِنِي حَقِّي" .

قال الإمام القرطبي في " الجامع لأحكام القرآن" (٢/ ٢٩٥) : " وَمَوْضِعُ الدَّلِيلِ من هذا الحديث أنَّه الفصيل قول:" وَهِيَ تَرْغُو" وَالرُّغَاءُ إِنَّمَا هُوَ لِلْإِبِلِ" .

الثَّانِي : أَنَّهَا دَابَّةٌ مُزَغَّبَةٌ شَعْرَاءُ، ذَاتُ قَوَائِمَ طُولُهَا سِتُّونَ ذِرَاعًا، وَيُقَالُ إِنَّهَا الْجَسَّاسَةُ، وَهُوَ قَوْلُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ .

الثَّالِثُ : وَرُوِيَ عَنِ ابْنِ عُمَرَ أَنَّهَا عَلَى خِلْقَةِ الْآدَمِيِّينَ، وَهِيَ فِي السَّحَابِ وَقَوَائِمُهَا فِي الْأَرْضِ .

الرَّابِعُ : أنَّها دابَّة جمعت من خلق كلِّ حيوان. كُلِّ حَيَوَانٍ. وَذَكَرَ الْمَاوَرْدِيُّ وَالثَّعْلَبِيُّ رَأْسُهَا رَأْسُ ثَوْرٍ، وَعَيْنُهَا عَيْنُ خِنْزِيرٍ، وَأُذُنُهَا أُذُنُ فِيلٍ، وَقَرْنُهَا قَرْنُ أَيِّلٍ، وَعُنُقُهَا عُنُقُ نَعَامَةٍ، وَصَدْرُهَا صَدْرُ أَسَدٍ، وَلَوْنُهَا لَوْنُ نَمِرٍ، وَخَاصِرَتُهَا خَاصِرَةُ هِرٍّ، وَذَنَبُهَا ذَنَبُ كَبْشٍ، وَقَوَائِمُهَا قَوَائِمُ بَعِيرٍ بَيْنَ كُلِّ مِفْصَلٍ وَمِفْصَلٍ اثْنَا عَشَرَ ذِرَاعًا .

الخَامِسُ : أَنَّ الدَّابَّةَ الثُّعْبَـــــانُ الْمُشْرِفُ عَلَى جِدَارِ الْكَعْبَةِ الَّتِي اقْتَلَعَتْهَا الْعُقَابُ حِينَ أَرَادَتْ قُرَيْشُ بِنَاءَ الْكَعْبَةِ .

السَّادِسُ: أنَّها دابَّة مَا لَهَا ذَنَبٌ وَإِنَّ لَهَا لَلِحْيَةً .

السَّابِعُ : أَنَّها إِنْسَان مُتَكَلِّم يُنَاظِرُ أَهْلَ الْبِدَعِ وَالْكُفْرِ وَيُجَادِلُهُمْ لِيَنْقَطِعُوا، فَيَهْلِكُ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ: وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ .

قلت: والحقّ أنَّ هذه الأقوال لا تخلو من مقال، حيث لا دليل، والواجب علينا أن نؤمن بالدَّابَّة ونفوِّض حقيقتها إلى الله تعالى لأنَّ تكليمها النَّاس من خوارق العادة، كما أنَّ ما يأتي مع الدَّجَّال، وطلوع الشَّمس من مغربها من خوارق العادة... والله أعلم.

﴿سُؤالٌ﴾ : مِنْ أَيِّ مَوْضِعٍ سَتَخْرُجُ الدَّابَّة ؟

الجواب : قال القرطبي في " الجامع لأحكام القرآن " (١٣/ ٢٣٦) : " وَاخْتُلِفَ مِنْ أَيِّ مَوْضِعٍ تَخْرُجُ، فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ: تَخْرُجُ مِنْ جَبَلِ الصَّفَا بِمَكَّةَ، يَتَصَدَّعُ فَتَخْرُجُ مِنْهُ. قَالَ عَبْدُ اللَّهِ ابن عَمْرٍو نَحْوَهُ وَقَالَ: لَوْ شِئْتُ أَنْ أَضَعَ قَدَمِي عَلَى مَوْضِعِ خُرُوجِهَا لَفَعَلْتُ وَرُوِيَ فِي خَبَرٍ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:" أَنَّ الْأَرْضَ تَنْشَقُّ عَنِ الدَّابَّةِ وَعِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ يَطُوفُ بِالْبَيْتِ وَمَعَهُ الْمُسْلِمُونَ مِنْ نَاحِيَةِ الْمَسْعَى وَإِنَّهَا تَخْرُجُ مِنِ الصَّفَا فَتَسِمُ بَيْنَ عَيْنَيِ الْمُؤْمِنِ هُوَ مُؤْمِنٌ سِمَةً كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ وَتَسِمُ بَيْنَ عَيْنَيِ الْكَافِرِ نُكْتَةً سَوْدَاءَ كَافِرٌ" وَذُكِرَ فِي الْخَبَرِ أَنَّهَا ذَاتُ وَبَرٍ وَرِيشٍ، ذَكَرَهُ الْمَهْدَوِيُّ. وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهَا تَخْرُجُ مِنْ

شِعْبٍ فَتَمَسُّ رَأْسُهَا السَّحَابَ وَرِجْلَاهَا فِي الْأَرْضِ لَمْ تَخْرُجَا، وَتَخْرُجُ وَمَعَهَا عَصَا مُوسَىٰ وَخَاتَمُ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ.

وَعَنْ حُذَيْفَةَ: تَخْرُجُ ثَلَاثَ خَرْجَاتٍ، خَرْجَةً فِي بَعْضِ الْبَوَادِي ثُمَّ تَكْمُنُ، وَخَرْجَةً فِي الْقُرَىٰ يَتَقَاتَلُ فِيهَا الْأُمَرَاءُ حَتَّىٰ تَكْثُرَ الدِّمَاءُ، وَخَرْجَةً مِنْ أَعْظَمِ الْمَسَاجِدِ وَأَكْرَمِهَا وَأَشْرَفِهَا وَأَفْضَلِهَا الزَّمَخْشَرِيُّ: تَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الرُّكْنِ حِذَاءَ دَارِ بَنِي مَخْزُومٍ عَنْ يَمِينِ الْخَارِجِ مِنَ الْمَسْجِدِ، فَقَوْمٌ يَهْرُبُونَ، وَقَوْمٌ يَقِفُونَ نَظَّارَةً. وَرُوِيَ عَنْ قَتَادَةَ أَنَّهَا تَخْرُجُ فِي تِهَامَةَ. وَرُوِيَ أَنَّهَا تَخْرُجُ مِنْ مَسْجِدِ الْكُوفَةِ مِنْ حَيْثُ فَارَ تَنُّورُ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ. وَقِيلَ: مِنْ أَرْضِ الطَّائِفِ، قَالَ أَبُو قَبِيلٍ: ضَرَبَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرٍو أَرْضَ الطَّائِفِ بِرِجْلِهِ وَقَالَ: مِنْ هُنَا تَخْرُجُ الدَّابَّةُ الَّتِي تُكَلِّمُ النَّاسَ. وَقِيلَ: من بعض أودية تهامة، قال ابْنُ عَبَّاسٍ. وَقِيلَ: مِنْ صَخْرَةٍ مِنْ شِعْبِ أجياد، قال عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرٍو. وَقِيلَ: مِنْ بَحْرِ سَدُومَ، قَالَهُ وَهْبُ بْنُ مُنَبِّهٍ. ذَكَرَ هَذِهِ الْأَقْوَالَ الثَّلَاثَةَ الْأَخِيرَةَ الْمَاوَرْدِيُّ فِي كِتَابِهِ" .

روىٰ ابن ماجه (٢/ ١٣٥٢ برقم ٤٠٦٧) بسنده عَنْ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ بُرَيْدَةَ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: ذَهَبَ بِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إِلَىٰ مَوْضِعٍ بِالْبَادِيَةِ قَرِيبٍ مِنْ مَكَّةَ، فَإِذَا أَرْضٌ يَابِسَةٌ حَوْلَهَا رَمْلٌ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «تَخْرُجُ الدَّابَّةُ مِنْ هَذَا الْمَوْضِعِ، فَإِذَا فِتْرٌ فِي شِبْرٍ» قَالَ ابْنُ بُرَيْدَةَ: فَحَجَجْتُ بَعْدَ ذَلِكَ بِسِنِينَ، فَأَرَانَا عَصًا لَهُ فَإِذَا هُوَ بِعَصَايَ، هَذِهِ هَكَذَا، وَهَكَذَا .

وروىٰ ابن ماجه –أيضاً – (٢/ ١٣٥١ برقم ٤٠٦٦) بسنده عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: " تَخْرُجُ الدَّابَّةُ وَمَعَهَا خَاتَمُ سُلَيْمَانَ بْنِ دَاوُدَ، وَعَصَا مُوسَىٰ بْنِ عِمْرَانَ، عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، فَتَجْلُو وَجْهَ الْمُؤْمِنِ بِالْعَصَا، وَتَخْطِمُ أَنْفَ الْكَافِرِ بِالْخَاتِمِ، حَتَّىٰ أَنَّ أَهْلَ الْحِوَاءِ لَيَجْتَمِعُونَ، فَيَقُولُ: هَذَا يَا مُؤْمِنُ وَيَقُولُ هَذَا: يَا كَافِرُ " .

قلت: والصَّحيح في هذا الباب – والله أعلم – أنَّه لم يثبت عن رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في مكان خروجها خبر صحيح، ولذا فإنَّ الأسلم في هذا الأمر أن نفوّض ذلك إلىٰ الله تعالىٰ ...

﴿سُؤالٌ﴾ : بِمَاذَا سَتُكَلِّمُ الدَّابَّةُ النَّاس ؟

الجواب : كما اختلف أهلُ العلم في حقيقة الدَّابَّة وفي مكان خروجها ، اختلفوا في معنىٰ قوله تعالىٰ : **﴿تُكَلِّمُهُم﴾** ، وقد ذكر الإمام القرطبي في " " (١٣/ ٢٣٧-٢٣٨) الاختلاف في ذلك فقال: "... قَالَ السُّدِّيُّ: تُكَلِّمُهُمْ بِبُطْلَانِ الْأَدْيَانِ سِوَىٰ دِينِ الْإِسْلَامِ. وَقِيلَ: تُكَلِّمُهُمْ بِمَا يَسُوءُهُمْ. وَقِيلَ: تكلمهم بلسان ذلق فتقول بصوت يسمعه عن قُرْبٍ وَبُعْدٍ **﴿أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنا لَا يُوقِنُونَ﴾** ، أَيْ : بِخُرُوجِي، لِأَنَّ خُرُوجَهَا مِنَ

الْآيَاتِ. وَتَقُولُ: أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَىٰ الظَّالِمِينَ. وَقَرَأَ أَبُو زُرْعَةَ وَابْنُ عَبَّاسٍ وَالْحَسَنُ وَأَبُو رَجَاءٍ:" تَكْلِمُهُمْ" بِفَتْحِ التَّاءِ مِنَ الْكَلْمِ وَهُوَ الْجَرْحُ قَالَ عِكْرِمَةُ: أَيْ تَسِمُهُمْ. وَقَالَ أَبُو الْجَوْزَاءِ: سَأَلْتُ ابْنَ عَبَّاسٍ عَنْ هَذِهِ الْآيَةِ" تُكَلِّمُهُمْ" أو" تكلمهم"؟ فقال: هي والله تكلمهم وتكلمهم، تُكَلِّمُ الْمُؤْمِنَ وَتَكْلِمُ الْكَافِرَ وَالْفَاجِرَ أَيْ تَجْرَحُهُ. وَقَالَ أَبُو حَاتِمٍ:" تُكَلِّمُهُمْ" كَمَا تَقُولُ تُجَرِّحُهُمْ، يَذْهَبُ إِلَىٰ أَنَّهُ تَكْثِيرٌ مِنْ" تَكْلِمُهُمْ". **﴿أَنَّ النَّاسَ كانُوا بِآياتِنا لا يُوقِنُونَ﴾** وَقَرَأَ الْكُوفِيُّونَ وَابْنُ أَبِي إِسْحَاقَ وَيَحْيَىٰ:" أَنَّ" بِالْفَتْحِ. وَقَرَأَ أَهْلُ الْحَرَمَيْنِ وَأَهْلُ الشَّامِ وَأَهْلُ الْبَصْرَةِ:" إِنَّ" بِكَسْرِ الْهَمْزَةِ. قَالَ النَّحَّاسُ: فِي الْمَفْتُوحَةِ قَوْلَانِ وَكَذَا الْمَكْسُورَةُ، قَالَ الْأَخْفَشُ: الْمَعْنَىٰ بِأَنَّ وَكَذَا قَرَأَ ابْنُ مَسْعُودٍ" بِأَنَّ" وَقَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ: مَوْضِعُهَا نَصْبٌ بِوُقُوعِ الْفِعْلِ عَلَيْهَا، أَيْ تُخْبِرُهُمْ أَنَّ النَّاسَ. وَقَرَأَ الْكِسَائِيُّ وَالْفَرَّاءُ:" إِنَّ النَّاسَ" بِالْكَسْرِ عَلَىٰ الِاسْتِئْنَافِ وَقَالَ الْأَخْفَشُ: هِيَ بِمَعْنَىٰ تَقُولُ إِنَّ النَّاسَ، يَعْنِي الْكُفَّارَ." بِآيَاتِنا لَا يُوقِنُونَ" يَعْنِي بِالْقُرْآنِ وَبِمُحَمَّدٍ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَذَلِكَ حِينَ لَا يَقْبَلُ اللَّهُ مِنْ كَافِرٍ إِيمَانًا وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا مُؤْمِنُونَ وَكَافِرُونَ فِي عِلْمِ اللَّهِ قَبْلَ خُرُوجِهَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ" .

﴿سُؤالٌ﴾ : مَاذَا عَنْ الدُّخَانَ الذِيْ سَيَكُوْنُ فِي آخِرِ الزَّمَان ؟

الجواب : من أشراط السَّاعة الكبرىٰ ظهور دخان في آخر الزَّمان يملأ الأرض كلَّها فتصبح كبيت أُوقد فيه، فيأخذ بالمؤمنين كالزّكمة، ويدخل في منافذ الكفَّار والمنافقين فينـتفخون حتىٰ يخرج من كلِّ مسمع منهم.

ومن الأدلَّة علىٰ هذه العلامة قوله تعالىٰ : **﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّماءُ بِدُخانٍ مُبِينٍ * يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذابٌ أَلِيمٌ﴾** [الدخان:١٠-١١] ، والمعنىٰ أي: " ارْتَقِبْ مَعْنَاهُ انْتَظِرْ يَا مُحَمَّدُ بِهَؤُلَاءِ الْكُفَّارِ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ، قَالَهُ قَتَادَةُ. وَقِيلَ: مَعْنَاهُ احْفَظْ قَوْلَهُمْ هَذَا لِتَشْهَدَ عَلَيْهِمْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ " . انظر : الجامع لأحكام القرآن (١٦/ ١٣٠) .

﴿سُؤالٌ﴾ : مَا هِيَ أَقْوَالُ العُلَمَاءِ فِي حَقِيْقَةِ الدُّخَانَ ؟

الجواب : ذكر العلماء أقوالاً عديدة في حقيقة الدُّخَانَ ، منها ما ذكره القرطبي في " الجامع لأحكام القرآن" (١٦/ ١٣١-١٣٢) ، قال : وَفِي الدُّخَانَ أَقْوَالٌ ثَلَاثَةٌ:

الْأَوَّلُ : أَنَّهُ مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ لَمْ يَجِئْ بَعْدُ، وَأَنَّهُ يَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا يَمْلَأُ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، فَأَمَّا الْمُؤْمِنُ فَيُصِيبُهُ مِثْلُ الزُّكَامِ، وَأَمَّا الْكَافِرُ وَالْفَاجِرُ فَيَدْخُلُ فِي أُنُوفِهِمْ فَيَثْقُبُ مَسَامِعَهُمْ، وَيُضَيِّقُ أَنْفَاسَهُمْ، وَهُوَ مِنْ آثَارِ جَهَنَّمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ. وَمِمَّنْ قَالَ إِنَّ الدُّخَانَ لَمْ يَأْتِ بَعْدُ: عَلِيٌّ وَابْنُ عَبَّاسٍ وَابْنُ عَمْرٍو وَأَبُو هُرَيْرَةَ وَزَيْدُ بْنُ عَلِيٍّ وَالْحَسَنُ وَابْنُ أَبِي مُلَيْكَةَ وَغَيْرُهُمْ.

وَرَوَىٰ أَبُو سَعِيدٍ الْخُدْرِيُّ مَرْفُوعًا : أَنَّهُ دُخَانٌ يَهِيجُ بِالنَّاسِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، يَأْخُذُ الْمُؤْمِنُ مِنْهُ كَالزُّكْمَةِ. وَيَنْفُخُ الْكَافِرَ حَتَّىٰ يَخْرُجَ مِنْ كُلِّ مِسْمَعٍ مِنْهُ، ذَكَرَهُ الْمَاوَرْدِيُّ.

وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ (٤/ ٢٢٢٥ برقم ٢٩٠١) عَنْ أَبِي الطُّفَيْلِ عَنْ حُذَيْفَةَ بْنِ أُسَيْدٍ الْغِفَارِيِّ قَالَ: اطَّلَعَ النَّبِيُّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَيْنَا وَنَحْنُ نَتَذَاكَرُ فَقَالَ: (مَا تَذَّكُرُونَ)؟ قَالُوا: نَذْكُرُ السَّاعَةَ، قَالَ: " إِنَّهَا لَنْ تَقُومَ حَتَّىٰ تَرَوْا قَبْلَهَا عَشْرَ آيَاتٍ- فَذَكَرَ- الدُّخَانَ وَالدَّجَّالَ وَالدَّابَّةَ وَطُلُوعَ الشَّمْسِ من مغربها ونزول عيسىٰ بن مَرْيَمَ وَخُرُوجَ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ وَثَلَاثَةَ خُسُوفٍ خَسْفٌ بالمشرق وخسف بالمغرب وَخَسْفٌ بِجَزِيرَةِ الْعَرَبِ وَآخِرُ ذَلِكَ نَارٌ تَخْرُجُ مِنَ الْيَمَنِ تَطْرُدُ النَّاسَ إِلَىٰ مَحْشَرِهِمْ " .

فِي رِوَايَةٍ عَنْ حُذَيْفَةَ (٤/ ٢٢٢٦ برقم ٢٩٠١) رواها مسلم :" إِنَّ السَّاعَةَ لَا تَكُونُ حَتَّىٰ تَكُونَ عَشْرُ آيَاتٍ: خَسْفٌ بِالْمَشْرِقِ وَخَسْفٌ بِالْمَغْرِبِ وَخَسْفٌ فِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ وَالدُّخَانُ وَالدَّجَّالُ وَدَابَّةُ الْأَرْضِ وَيَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَطُلُوعُ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا وَنَارٌ تَخْرُجُ مِنْ قَعْرِ عَدْنٍ تُرَحِّلُ النَّاسَ. وَخَرَّجَهُ الثَّعْلَبِيُّ أَيْضًا عَنْ حُذَيْفَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:" أول الآيات خروجاً الدجَّال ، ونزول عيسىٰ بن مَرْيَمَ ، وَنَارٌ تَخْرُجُ مِنْ قَعْرِ عَدَنَ أَبْيَنَ تَسُوقُ النَّاسَ إِلَىٰ الْمَحْشَرِ ، تَبِيتُ مَعَهُمْ حَيْثُ بَاتُوا ، وَتَقِيلُ مَعَهُمْ إِذَا قَالُوا ، وَتُصْبِحُ مَعَهُمْ إِذَا أَصْبَحُوا ، وَتُمْسِي مَعَهُمْ إِذَا أَمْسَوْا " . قُلْتُ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، وَمَا الدُّخَانُ؟ قَالَ هَذِهِ الْآيَةُ: **﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّماءُ بِدُخانٍ مُبِينٍ﴾** يَمْلَأُ مَا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ يَمْكُثُ أَرْبَعِينَ يَوْمًا وَلَيْلَةً أَمَّا الْمُؤْمِنُ فَيُصِيبُهُ مِنْهُ شِبْهُ الزكام ، وأمَّا والكافر فَيَكُونُ بِمَنْزِلَةِ السَّكْرَانِ ، يَخْرُجُ الدُّخَانَ مِنْ فَمِهِ ومنخره وعينيه وأذنيه وَدُبُرِهِ ". فَهَذَا قَوْلٌ.

الْقَوْلُ الثَّانِي : أَنَّ الدُّخَانَ هُوَ مَا أَصَابَ قُرَيْشًا مِنَ الْجُوعِ بِدُعَاءِ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حَتَّىٰ كَانَ الرَّجُلُ يَرَىٰ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ دُخَانًا، قَالَهُ ابْنُ مَسْعُودٍ. قَالَ: وَقَدْ كَشَفَهُ اللَّهُ عَنْهُمْ، وَلَوْ كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ لَمْ يَكْشِفْهُ عَنْهُمْ . وَالْحَدِيثُ عَنْهُ بِهَذَا فِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ وَمُسْلِمٍ وَالتِّرْمِذِيِّ. قَالَ الْبُخَارِيُّ: حَدَّثَنِي يَحْيَىٰ قَالَ حَدَّثَنَا أَبُو مُعَاوِيَةَ عَنِ الْأَعْمَشِ عَنْ مُسْلِمٍ عَنْ مَسْرُوقٍ قَالَ : قَالَ عَبْدُ اللَّهِ: إِنَّمَا كَانَ هَذَا لِأَنَّ قُرَيْشًا لَمَّا اسْتَعْصَتْ عَلَىٰ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دَعَا عَلَيْهِمْ بِسِنِينَ كَسِنِي يُوسُفَ، فَأَصَابَهُمْ قَحْطٌ وَجَهْدٌ حَتَّىٰ أَكَلُوا الْعِظَامَ، فَجَعَلَ الرَّجُلَ يَنْظُرُ إِلَىٰ السَّمَاءِ فَيَرَىٰ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا كَهَيْئَةِ الدُّخَانِ مِنَ الْجَهْدِ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَىٰ: **﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّماءُ بِدُخانٍ مُبِينٍ. يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذابٌ أَلِيمٌ﴾** . قَالَ: فَأَتَىٰ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، اسْتَسْقِ اللَّهَ لِمُضَرَ فَإِنَّهَا قَدْ هَلَكَتْ. قَالَ: (لِمُضَرَ! إِنَّكَ لجرىٰ) فاستسقىٰ فسقوا، فنزلت: **﴿إِنَّكُمْ عائِدُونَ﴾** [الدخان: ١٥] . فَلَمَّا أَصَابَتْهُمُ الرَّفَاهِيَةُ عَادُوا إِلَىٰ حَالِهِمْ حِينَ أَصَابَتْهُمْ

الرَّفَاهِيَةُ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ "يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَىٰ إِنَّا مُنْتَقِمُونَ" . قَالَ: يَعْنِي يَوْمَ بَدْرٍ. قَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ: وَالدُّخَانُ الْجَدْبُ. الْقُتَبِيُّ: سُمِّيَ دُخَانًا لِيُبْسِ الْأَرْضِ مِنْهُ حِينَ يَرْتَفِعُ مِنْهَا كَالدُّخَانِ.

الْقَوْلُ الثَّالِثُ: إِنَّهُ يَوْمُ فَتْحِ مَكَّةَ لَمَّا حَجَبَتِ السَّمَاءَ الْغَبَرَةُ، قَالَهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ الْأَعْرَجُ" .

قلت: جاء في البخاري (٦/ ١٣١ برقم ٤٨٢٠) أَنَّ عَبْدِ اللَّهِ، قَالَ: " مَضَىٰ خَمْسٌ: الدُّخَانُ، وَالرُّومُ، وَالقَمَرُ، وَالبَطْشَةُ، وَاللِّزَامُ .

وقد أشار القرطبي إلىٰ ذلك في "التَّذكرة بأحوال الموتىٰ وأمور الآخرة" (ص١٢٦٦-١٢٦٧) ثمَّ نقل عن أبي الخطَّاب ابن دحية قوله: "والذي يقتضيه النَّظر الصَّحيح حمل ذلك علىٰ قضيتين ، إحداهما وقعت ، وكانت الأخرىٰ ستقع وستكون. فأمَّا التي كانت فالتي كانوا يرون فيها كهيأة دخان، وهذا الدُّخَانَ غير الدُّخَانَ الحقيقي الذي يكون عند ظهور الآيات التي هي من الأشراط والعلامات ، ولا يمتنع إذا ظهرت هذه العلامة أن يقولوا : ﴿رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ﴾ [الدخان:١٢] فيكشف عنهم ثمَّ يعودون لقُرب السَّاعة، وقول بن مسعود لم يسنده إلىٰ النَّبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إنَّما هو من تفسيره ، وقد جاء النَّصُّ عن رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بخلافه... وقد روي عن ابن مسعود أنَّهما دخانان، قال مجاهد: كان ابن مسعود يقول: هما دخانان قد مضىٰ أحدهما ، والذي بقي يملأ ما بين السَّماء والأرض ، ولا يجد المؤمن منه إلَّا كالزّكمة، وأمَّا الكافر فتثقب مسامعه ... " .

قلت: والنَّاظر المتفحِّص يجد أنَّ هذه العلامة لم تمض بعد ، وأنَّها من علامات الَّساعة الكبرىٰ التي ستكون قبل قيام السَّاعة وذلك لـ:

أَوَّلاً : الأحاديث الصَّحيحة الواردة في الموضوع، والتي دلَّت دلالة صريحة علىٰ أنَّ الآية لم تأت بعـد.

ثَانِيَاً : نصَّت الآية علىٰ أنَّ الدُّخَانَ يغشىٰ النَّاس بمعنىٰ أنَّه سيصل إليهم وسيتَّصل بهم، والذي حدث لقريش إنَّما هو أمر مجازي، ومن المعلوم أنَّ العدول عن الحقيقة إلىٰ المجاز لا يجوز إلَّا لدليل منفصل.

ثَالِثَاً : أنَّ الآية وصفت الدُّخَانَ بكونه مبيناً، والحالة التي عرضت لقريش قد تعرض لبعض النَّاس في أدمغتهم- عندما تضيق عليهم الأرض بما رحبت- ومثل هذا لا يوصف بكونه دخاناً مبيناً ... انظر للاستزادة: تفسير الرازي (٢٧/ ٢٤٢-٢٤٣) .

وهذا الرَّأي هو ما قال به الإمام علي ، وابن عبَّاس ، وابن عمر ، وأبو هريرة ، وزيد بن علي ، والحسن ، وغيرهم ... وقد رجَّح هذا الرأي ابن كثير في " التَّفسير" (٧/ ٢٤٨) مستدلَّاً بظاهر حديث حذيفة السَّابق، وبما في الصَّحيحين فِي الصَّحِيحَيْنِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لِابْنِ الصَّيَّادِ: "إِنِّي خَبَأْتُ

لَكَ خَبْأً" قَالَ: هُوَ الدُّخ. فَقَالَ لَهُ: "اخْسَأْ فَلَنْ تَعْدُوَ قَدْرَكَ" قَالَ: وخبأ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ﴾** .

وَهَذَا فِيهِ إِشْعَارٌ بِأَنَّهُ مِنَ الْمُنْتَظَرِ الْمُرْتَقَبِ، وَابْنُ صَيَّادٍ كَاشِفٌ عَلَىٰ طَرِيقَةِ الْكُهَّانِ بِلِسَانِ الْجَانِّ، وَهُمْ يُقَرطمون الْعِبَارَةَ؛ وَلِهَذَا قَالَ: "هُوَ الدُّخ" يَعْنِي: الدُّخَانَ. فَعِنْدَهَا عَرَفَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَادَّتَهُ وَأَنَّهَا شَيْطَانِيَّةٌ، فَقَالَ لَهُ: "اخْسَأْ فَلَنْ تَعْدُوَ قَدْرَكَ" ...

وَقَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: حَدَّثَنَا أَبُو زُرْعَةَ، حَدَّثَنَا صَفْوَانُ، حَدَّثَنَا الْوَلِيدُ، حَدَّثَنَا خَلِيلٌ، عَنِ الْحَسَنِ، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: "يَهِيجُ الدُّخَانُ بِالنَّاسِ، فَأَمَّا الْمُؤْمِنُ فَيَأْخُذُهُ كَالزُّكْمَةِ، وَأَمَّا الْكَافِرُ فَيَنْفُخُهُ حَتَّىٰ يَخْرُجَ مِنْ كُلِّ مسمع منه".

وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ أَيْضًا: حَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ عَوْفٍ، حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ بْنِ عَيَّاشٍ، حَدَّثَنِي أَبِي، حَدَّثَنِي ضَمْضَم بْنُ زُرعَة، عَنْ شُريح بْنِ عُبَيْدٍ، عَنْ أَبِي مَالِكٍ الْأَشْعَرِيِّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "إن رَبَّكُمْ أَنْذَرَكُمْ ثَلَاثًا: الدُّخَانَ يَأْخُذُ الْمُؤْمِنَ كَالزُّكْمَةِ، وَيَأْخُذُ الْكَافِرَ فَيَنْتَفِخُ حَتَّىٰ يَخْرُجَ مِنْ كُلِّ مَسْمَعٍ مِنْهُ وَالثَّانِيَةُ الدَّابَّةُ وَالثَّالِثَةُ الدَّجَّالُ" . وَرَوَاهُ الطَّبَرَانِيُّ عَنْ هَاشِمِ بْنِ يَزِيدَ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ إِسْمَاعِيلَ بْنِ عَيَّاشٍ، بِهِ وَهَذَا إِسْنَادٌ جَيِّدٌ.

وَقَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ صَالِحِ بْنِ مُسْلِمٍ، حَدَّثَنَا إِسْرَائِيلُ، عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ، عَنِ الْحَارِثِ، عَنْ عَلِيٍّ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: لَمْ تَمْضِ آيَةُ الدُّخَانِ بَعْدُ، يَأْخُذُ الْمُؤْمِنَ كَهَيْئَةِ الزكام، وتنفخ الكافر حتىٰ ينفذ.

وَرَوَىٰ ابْنُ جَرِيرٍ مِنْ حَدِيثِ الْوَلِيدِ بْنِ جُمَيْعٍ، عَنْ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ الْمُغِيرَةِ، عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ الْبَيْلَمَانِيِّ، عَنِ ابْنِ عُمَرَ قَالَ: يَخْرُجُ الدُّخَانُ فَيَأْخُذُ الْمُؤْمِنَ كَهَيْئَةِ الزُّكَامِ، وَيَدْخُلُ فِي مَسَامِعِ الْكَافِرِ وَالْمُنَافِقِ حَتَّىٰ يَكُونَ كَالرَّأْسِ الْحَنِيذِ، أَيِ: الْمَشْوِيِّ عَلَىٰ الرَّضف.

ثُمَّ قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: حَدَّثَنِي يَعْقُوبُ، حَدَّثَنَا ابْنُ عُلَيَّةَ عَنِ ابْنِ جُرَيْجٍ ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي مُلَيْكَةَ قَالَ: غَدَوْتُ عَلَىٰ ابْنِ عَبَّاسٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، ذَاتَ يَوْمٍ فَقَالَ: مَا نِمْتُ اللَّيْلَةَ حَتَّىٰ أَصْبَحْتُ. قُلْتُ: لِمَ؟ قَالَ: قَالُوا طَلَعَ الْكَوْكَبُ ذُو الذَّنَبِ، فَخَشِيتُ أَنْ يَكُونَ الدُّخَانُ قَدْ طَرَقَ، فَمَا نِمْتُ حَتَّىٰ أَصْبَحْتُ وَهَكَذَا رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ ابْنِ عُمَرَ، عَنْ سُفْيَانَ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي يَزِيدَ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي مُلَيْكَةَ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فَذَكَرَهُ. وَهَذَا إِسْنَادٌ صَحِيحٌ إِلَىٰ ابْنِ عَبَّاسٍ حَبْرِ الْأُمَّةِ وَتُرْجُمَانِ الْقُرْآنِ. وَهَكَذَا قَوْلُ مَنْ وَافَقَهُ مِنَ

الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ أَجْمَعِينَ، مَعَ الْأَحَادِيثِ الْمَرْفُوعَةِ مِنَ الصِّحَاحِ وَالْحِسَانِ وَغَيْرِهِمَا، الَّتِي أَوْرَدْنَاهَا مِمَّا فِيهِ مَقْنَعٌ وَدَلَالَةٌ ظَاهِرَةٌ عَلَى أَنَّ الدُّخَانَ مِنَ الْآيَاتِ الْمُنْتَظَرَةِ، مَعَ أَنَّهُ ظَاهِرُ الْقُرْآنِ.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: **﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ﴾** ، أَيْ: بَيِّنٍ وَاضِحٍ يَرَاهُ كُلُّ أَحَدٍ. وَعَلَى مَا فَسَّرَ بِهِ ابْنُ مَسْعُودٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إِنَّمَا هُوَ خَيَالٌ رَأَوْهُ فِي أَعْيُنِهِمْ مِنْ شِدَّةِ الْجُوعِ وَالْجَهْدِ. وَهَكَذَا قَوْلُهُ: **﴿يَغْشَى النَّاسَ﴾** أَيْ: يَتَغَشَّاهُمْ ويعُمهم ، وَلَوْ كَانَ أَمْرًا خَيَالِيًّا يَخُصُّ أَهْلَ مكة المشركين لما قِيلَ فِيهِ: **﴿يَغْشَى النَّاسَ﴾** " .

﴿سُؤالٌ﴾ : مَاذَا عَنْ طُلُوْعِ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا ؟

الجواب : طلوعُ الشَّمس من مغربها من علامات السَّاعة الكبرى ... ومن الأدلَّة على طلوع الشَّمس من مغربها قوله تعالى: **﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آياتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آياتِ رَبِّكَ لا يَنْفَعُ نَفْساً إِيمانُها لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمانِها خَيْراً﴾** [الأنعام:١٥٨] ، قال الإمام القرطبي في " الجامع لأحكام القرآن" (٧/ ١٤٥) : " قِيلَ: هُوَ طُلُوعُ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا. بَيَّنَ بِهَذَا أَنَّهُمْ يُمْهَلُونَ فِي الدُّنْيَا فَإِذَا ظَهَرَتِ السَّاعَةُ فَلَا إِمْهَالَ " .

وروى مسلم (١/ ١٣٧ برقم ١٥٨) بسنده عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " ثَلَاثٌ إِذَا خَرَجْنَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ، أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا: طُلُوعُ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا، وَالدَّجَّالُ، وَدَابَّةُ الْأَرْضِ " .

وروى التِّرمذي (٥/ ٤٣٧ برقم ٣٥٣٦ ، وقال : هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ) بسنده عَنْ زِرِّ بْنِ حُبَيْشٍ، قَالَ: أَتَيْتُ صَفْوَانَ بْنَ عَسَّالٍ الْمُرَادِيَّ، فَقَالَ لِي: مَا جَاءَ بِكَ؟ قُلْتُ: ابْتِغَاءَ العِلْمِ. قَالَ: بَلَغَنِي أَنَّ الْمَلَائِكَةَ تَضَعُ أَجْنِحَتَهَا لِطَالِبِ العِلْمِ رِضًا بِمَا يَفْعَلُ، قَالَ: قُلْتُ لَهُ: إِنَّهُ حَاكَ، أَوْ قَالَ: حَكَّ فِي نَفْسِي شَيْءٌ مِنَ الْمَسْحِ عَلَى الخُفَّيْنِ، فَهَلْ حَفِظْتَ مِنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيهِ شَيْئًا؟ قَالَ: نَعَمْ ... أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ جَعَلَ بِالمَغْرِبِ بَابًا عَرْضُهُ مَسِيرَةُ سَبْعِينَ عَامًا لِلتَّوْبَةِ لاَ يُغْلَقُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ قِبَلِهِ، وَذَلِكَ قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ **﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لاَ يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا﴾** الآيَةَ.

قلت: والقول بأنَّ المراد ببعض الآيات المذكورة في الآية هو طلوع الشَّمس من مغربها، هو قول جمهور المفسِّرين . انظر: تفسير الطبري (٨/ ١٢٦-١٣٦) ، تفسير البغوي (٢/ ١٤٤) ، زاد المسير (٣/ ١٥٦-١٥٧) ، تفسير ابن كثير (٢/ ١٩٣-١٩٥) ...

﴿سُؤالٌ﴾ : لِمَ لَا يَنْفَعُ نَفْسَاً إِيْمَانُهَا عِنْدَ طُلُوْعِ الشَّمْسِ مِنَ المَغْرِب؟

الجواب : قال الإمام القرطبي في " الجامع لأحكام القرآن" (٧/ ١٤٦-١٤٧) : " قَالَ الْعُلَمَاءُ: وَإِنَّمَا لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا عِنْدَ طُلُوعِهَا مِنْ مَغْرِبِهَا، لِأَنَّهُ خَلَصَ إِلَىٰ قُلُوبِهِمْ مِنَ الْفَزَعِ مَا تَخْمَدُ مَعَهُ كُلُّ شَهْوَةٍ مِنْ شَهَوَاتِ النَّفْسِ، وَتَفْتُرُ كُلُّ قُوَّةٍ مِنْ قُوَىٰ الْبَدَنِ، فَيَصِيرُ النَّاسُ كُلُّهُمْ لِإِيقَانِهِمْ بِدُنُوِّ الْقِيَامَةِ فِي حَالِ مَنْ حَضَرَهُ الْمَوْتُ فِي انْقِطَاعِ الدَّوَاعِي إِلَىٰ أَنْوَاعِ الْمَعَاصِي عَنْهُمْ، وَبُطْلَانِهَا مِنْ أَبْدَانِهِمْ، فَمَنْ تَابَ فِي مِثْلِ هَذِهِ الْحَالِ لَمْ تُقْبَلْ تَوْبَتُهُ، كَمَا لَا تُقْبَلُ تَوْبَةُ مَنْ حَضَرَهُ الْمَوْتُ. قَالَ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " إِنَّ اللَّهَ يقبل توبة الْعَبْدِ مَا لَمْ يُغَرْغِرْ" ، أَيْ : تَبْلُغْ رُوحُهُ رَأْسَ حَلْقِهِ وَذَلِكَ وَقْتَ الْمُعَايَنَةِ الَّذِي يَرَىٰ فِيهِ مَقْعَدَهُ مِنَ الْجَنَّةِ أَوْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ، فَالْمُشَاهِدُ لِطُلُوعِ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا مِثْلُهُ. وَعَلَىٰ هَذَا يَنْبَغِي أَنْ تَكُونَ تَوْبَةُ كُلِّ مَنْ شَاهَدَ ذَلِكَ أَوْ كَانَ كَالْمُشَاهِدِ لَهُ مَرْدُودَةً مَا عَاشَ، لِأَنَّ عِلْمَهُ بِاللَّهِ تَعَالَىٰ وَبِنَبِيِّهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَبِوَعْدِهِ قَدْ صَارَ ضَرُورَةً. فَإِنِ امْتَدَّتْ أَيَّامُ الدُّنْيَا إِلَىٰ أَنْ يَنْسَىٰ النَّاسُ مِنْ هَذَا الْأَمْرِ الْعَظِيمِ مَا كَانَ، وَلَا يَتَحَدَّثُوا عَنْهُ إِلَّا قَلِيلًا، فَيَصِيرُ الْخَبَرُ عَنْهُ خَاصًّا وَيَنْقَطِعُ التَّوَاتُرُ عَنْهُ، فَمَنْ أَسْلَمَ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ أَوْ تَابَ قُبِلَ مِنْهُ. وَاللَّهُ أَعْلَمُ" .

قلت: وخلاصة ما تقدَّم أنَّ من أحدث إيماناً أو توبة بعد أنْ عاين طلوع الشَّمس من مغربها فإنَّه لا يقبل منه ذلك، لأنَّ باب التَّوبة أُغلق دونه... وقد صرَّح بذلك العديد من العلماء، من ذلك ما ذكره الإمام ابن كثير في " البداية والنِّهاية"(١٩/ ٢٦٣) حيث قال بعد أن ساق بعض الأحاديث السَّابقة: " فَهَذِهِ الْأَحَادِيثُ الْمُتَوَاتِرَةُ، مَعَ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ دَلِيلٌ عَلَىٰ أَنَّ مَنْ أَحْدَثَ إِيمَانًا، أَوْ تَوْبَةً بَعْدَ طُلُوعِ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا لَا تُقْبَلُ مِنْهُ، وَإِنَّمَا كَانَ كَذَلِكَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ مِنْ أَكْبَرِ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ وَعَلَامَاتِهَا الدَّالَّةِ عَلَىٰ اقْتِرَابِهَا وَدُنُوِّهَا، فَعُومِلَ ذَلِكَ الْوَقْتُ مُعَامَلَةَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿**هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ**﴾ [الأنعام: ١٥٨] " .

﴿سُؤالٌ﴾ : مَا الحِكْمَةُ فِي طُلُوْعِ الشَّمْسِ مِنَ المَغْرِب؟

الجواب : قال الإمام القرطبي في " الجامع لأحكام القرآن" (٧/ ١٤٧-١٤٨) : " إِنَّ الحكم فِي طُلُوعِ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا أَنَّ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ لِنُمْرُوذَ: ﴿**فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بها مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَر**﴾ ، وَأَنَّ الْمُلْحِدَةَ وَالْمُنَجِّمَةَ عَنْ آخِرِهِمْ يُنْكِرُونَ ذَلِكَ وَيَقُولُونَ: هُوَ غَيْرُ كَائِنٍ، فَيُطْلِعُهَا اللَّهُ تَعَالَىٰ يَوْمًا مِنَ الْمَغْرِبِ لِيُرِيَ الْمُنْكِرِينَ قُدْرَتَهُ أَنَّ الشَّمْسَ فِي مُلْكِهِ، إِنْ شَاءَ أَطْلَعَهَا مِنَ الْمَشْرِقِ وَإِنْ شَاءَ أَطْلَعَهَا مِنَ الْمَغْرِبِ. وَعَلَىٰ هَذَا يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ رَدُّ التَّوْبَةِ وَالْإِيمَانِ عَلَىٰ مَنْ آمَنَ وَتَابَ

مِنَ الْمُنْكِرِينَ لِذَلِكَ الْمُكَذِّبِينَ لِخَبَرِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِطُلُوعِهَا، فَأَمَّا الْمُصَدِّقُونَ لِذَلِكَ فَإِنَّهُ تُقْبَلُ تَوْبَتُهُمْ وَيَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ قَبْلَ ذَلِكَ" .

﴿سُؤالٌ﴾ : مَاذَا عَنِ النَّارُ التِيْ سَتَخْرُجُ مِنَ اليَمَنِ تَحْشُرُ النَّاسَ إِلَى مَحْشَرِهِم ؟

الجواب : روى مسلم (٤/ ٢٢٢٥ برقم ٢٩٠١) بسنده عَنْ حُذَيْفَةَ بْنِ أَسِيدٍ الْغِفَارِيِّ، قَالَ: اطَّلَعَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَيْنَا وَنَحْنُ نَتَذَاكَرُ، فَقَالَ: «مَا تَذَاكَرُونَ؟» قَالُوا: نَذْكُرُ السَّاعَةَ، قَالَ: " إِنَّهَا لَنْ تَقُومَ حَتَّى تَرَوْنَ قَبْلَهَا عَشْرَ آيَاتٍ – فَذَكَرَ – الدُّخَانَ، وَالدَّجَّالَ، وَالدَّابَّةَ، وَطُلُوعَ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا، وَنُزُولَ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَيَأَجُوجَ وَمَأْجُوجَ، وَثَلَاثَةَ خُسُوفٍ: خَسْفٌ بِالْمَشْرِقِ، وَخَسْفٌ بِالْمَغْرِبِ، وَخَسْفٌ بِجَزِيرَةِ الْعَرَبِ، وَآخِرُ ذَلِكَ نَارٌ تَخْرُجُ مِنَ الْيَمَنِ، تَطْرُدُ النَّاسَ إِلَى مَحْشَرِهِمْ" .

وروى أحمد في " المسند" (٨/ ١٣٤ برقم ٤٥٣٦) بسنده عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ: قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: " تَخْرُجُ نَارٌ مِنْ حَضْرَمَوْتَ أَوْ بِحَضْرَمَوْتَ فَتَسُوقُ النَّاسَ ". قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ مَا تَأْمُرُنَا؟، قَالَ: " عَلَيْكُمْ بِالشَّامِ " . قال الأرنؤوط : " إسناده صحيح على شرط الشيخين. الوليد – وهو ابن مسلم الدمشقي –، ويحيى بن أبي كثير صرحا بالتحديث، فانتفت شبهةُ تدليسهما . الأوزاعي: هو عبد الرحمن بن عمرو، وأبو قلابة: هو عبد الله بن زيد الجرمي. وأخرجه يعقوب بن سفيان في "المعرفة والتاريخ " ٢/ ٣٠٣، وأبو يعلى (٥٥٥١) ، وابن حبان (٧٣٠٥) من طريق الوليد بن مسلم، به. وأخرجه يعقوب بن سفيان في "المعرفة والتاريخ" ٢/ ٣٠٢-٣٠٣ من طريق يحيى بن حمزه، والبغوي في "شرح السنة" (٤٠٠٧) من طريق بقية بن الوليد، كلاهما، عن الأوزاعي، به. وأخرجه ابن طهمان في "مشيخته" (٢٠١) عن الحجاج بن الحجاج الباهلي عن يحيي بن أبي كثير به. وأورده الهيثمي في "المجمع" ١٠/ ٦١ وقال: رواه أبو يعلي ورجاله رجال الصحيح. قلنا: فاته أن ينسبه لأحمد وقد رواه الترمذي أيضا كما سنذكر في تخريج الرواية (٥٣٧٦) ومن ثم فليس من شرطه " .

قال الإمام النَّوَوي في " المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجَّاج " (١٨/ ٢٨) : " قَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " وَآخِرُ ذَلِكَ نَارٌ تَخْرُجُ مِنَ الْيَمَنِ تَطْرُدُ النَّاسَ إِلَى مَحْشَرِهِم" ، وَفِي رِوَايَةٍ : " نَارٌ تَخْرُجُ مِنْ قُعْرَةِ عَدَنٍ " ، هَكَذَا هُوَ فِي الْأُصُولِ : "قُعْرَةِ " بِالْهَاءِ وَالْقَافُ مَضْمُومَةٌ ، وَمَعْنَاهُ : مِنْ أَقْصَى قَعْرِ أَرْضِ عَدَنٍ وَعَدَنُ مَدِينَةٌ مَعْرُوفَةٌ مَشْهُورَةٌ بِالْيَمَنِ . قَالَ الْمَاوَرْدِيُّ : سُمِّيَتْ عَدَنًا مِنَ الْعُدُونِ وَهِيَ الْإِقَامَةُ ، لِأَنَّ تُبَّعًا كَانَ يَحْبِسُ فِيهَا أَصْحَابَ الْجَرَائِمِ ، وَهَذِهِ النَّارُ الْخَارِجَةُ مِنْ قَعْرِ عَدَنٍ وَالْيَمَنِ هِيَ الْحَاشِرَةُ لِلنَّاسِ كَمَا صَرَّحَ بِهِ فِي الْحَدِيثِ . أَمَّا قَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْحَدِيثِ الذى بعده لا تقوم السَّاعَةُ حَتَّى تَخْرُجَ نَارٌ مِنْ أَرْضِ الْحِجَازِ تُضِيءُ أَعْنَاقَ الْإِبِلِ بِبُصْرَى ، فَقَدْ جَعَلَهَا الْقَاضِي عياض حاشرة ، قال : ولعلهما نَارَانِ يَجْتَمِعَانِ لِحَشْرِ النَّاسِ ، قَالَ : أَوْ يَكُونُ أبتداء خروجها مِنَ الْيَمَنِ وَيَكُونُ ظُهُورُهَا وَكَثْرَةُ قُوَّتِهَا بِالْحِجَازِ ، هَذَا كَلَامُ الْقَاضِي ، وَلَيْسَ فِي الْحَدِيثِ أَنَّ نَارَ الْحِجَازِ مُتَعَلِّقَةٌ بِالْحَشْرِ ، بَلْ هِيَ آيَةٌ مِنْ أَشْرَاطِ

السَّاعَةِ مُسْتَقِلَّةٌ ، وَقَدْ خَرَجَتْ فِي زَمَانِنَا نَارٌ بِالْمَدِينَةِ سَنَةَ أَرْبَعٍ وَخَمْسِينَ وَسِتِّمِائَةٍ وَكَانَتْ نَارًا عَظِيمَةً جِدًّا مِنْ جَنْبِ الْمَدِينَةِ الشَّرْقِيِّ وَرَاءَ الْحَرَّةِ تَوَاتَرَ الْعِلْمُ بِهَا عِنْدَ جَمِيعِ الشَّامِ وَسَائِرِ الْبُلْدَانِ ، وَأَخْبَرَنِي مَنْ حَضَرَهَا مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ" .

وروىٰ البخاري (٤/ ١٣٢ برقم ٣٣٢٩) بسنده عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: بَلَغَ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ سَلاَمٍ مَقْدَمُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المَدِينَةَ فَأَتَاهُ، فَقَالَ: إِنِّي سَائِلُكَ عَنْ ثَلاَثٍ لاَ يَعْلَمُهُنَّ إِلَّا نَبِيٌّ قَالَ: مَا أَوَّلُ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ؟ وَمَا أَوَّلُ طَعَامٍ يَأْكُلُهُ أَهْلُ الجَنَّةِ؟ وَمِنْ أَيِّ شَيْءٍ يَنْزِعُ الوَلَدُ إِلَىٰ أَبِيهِ؟ وَمِنْ أَيِّ شَيْءٍ يَنْزِعُ إِلَىٰ أَخْوَالِهِ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «خَبَّرَنِي بِهِنَّ آنِفًا جِبْرِيلُ» قَالَ: فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ ذَاكَ عَدُوُّ اليَهُودِ مِنَ المَلاَئِكَةِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " أَمَّا أَوَّلُ أَشْرَاطِ السَّـاعَةِ فَنَارٌ تَحْشُرُ النَّاسَ مِنَ المَشْرِقِ إِلَىٰ المَغْرِبِ ... " .

وما جاء في هذا الحديث من أَوَّلِيَّة خروج النَّار يتعارض مع ما جاء فيما رواه مسلم عن أنس في الحديث المتقدِّم من قوله : " وَآخِرُ ذَلِكَ نَارٌ تَخْرُجُ مِنَ الْيَمَنِ، تَطْرُدُ النَّاسَ إِلَىٰ مَحْشَرِهِمْ " . وقد جمع بينهما الحافظ ابن حجر في " فتح الباري" (١٣/ ٨٢) : " وَهَذَا فِي الظَّاهِرُ يُعَارِضُ حَدِيثَ أَنَسٍ الْمُشَارَ إِلَيْهِ فِي أَوَّلِ الْبَابِ ، فَإِنَّ فِيهِ أَنَّ أَوَّلَ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ نَارٌ تَحْشُرُهُمْ مِنَ الْمَشْرِقِ إِلَىٰ الْمَغْرِبِ ، وَفِي هَذَا أَنَّهَا آخِرُ الْأَشْرَاطِ ، وَيَجْمَعُ بَيْنَهُمَا بِأَن آخِرِيَّتُهَا بِاعْتِبَارِ مَا ذُكِرَ مَعَهَا مِنَ الْآيَاتِ ، وَأَوَّلِيَّتُهَا بِاعْتِبَارِ أَنَّهَا أَوَّلُ الْآيَاتِ الَّتِي لَا شَيْءَ بَعْدَهَا مِنْ أُمُورِ الدُّنْيَا أَصْلًا ، بَلْ يَقَعُ بِانْتِهَائِهَا النَّفْخُ فِي الصُّورِ بِخِلَافِ مَا ذُكِرَ مَعَهَا ، فَإِنَّهُ يَبْقَىٰ بَعْدَ كُلِّ آيَةٍ مِنْهَا أَشْيَاءُ مِنْ أُمُورِ الدُّنْيَا" .

كما ورد في بعض الأحاديث أنَّ خروجها يكون من اليمن ، وتحديداً من قعرة عدن ، وجاء في بعضها الآخر أنَّ النَّار ستحشر النَّاس من المشرق إلىٰ المغرب ... وهذا في ظاهره تعارض أجاب عنه الحافظ ابن حجر ، فقال في " فتح الباري" (١١/ ٣٧٨ - ٣٧٩) : " وَقَدْ أَشْكَلَ الْجَمْعُ بَيْنَ هَذِهِ الْأَخْبَارِ ، وَظَهَرَ لِي فِي وَجْهِ الْجَمْعِ أَنَّ كَوْنَهَا تَخْرُجُ مِنْ قَعْرِ عَدَنَ لَا يُنَافِي حَشْرَهَا النَّاسَ مِنَ الْمَشْرِقِ إِلَىٰ الْمُغْرِبِ ، وَذَلِكَ أَنَّ ابْتِدَاءَ خُرُوجِهَا مِنْ قَعْرِ عَدَنَ ، فَإِذَا خَرَجَتِ انْتَشَرَتْ فِي الْأَرْضِ كُلِّهَا ، وَالْمُرَادُ بِقَوْلِهِ : " تَحْشُرُ النَّاسَ مِنَ الْمَشْرِقِ إِلَىٰ الْمَغْرِبِ" إِرَادَةُ تَعْمِيمِ الْحَشْرِ لَا خُصُوصِ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ أَوْ أَنَّهَا بَعْدَ الِانْتِشَارِ أَوَّلَ مَا تَحْشُرُ أَهْلَ الْمَشْرِقِ ، وَيُؤَيِّدُ ذَلِكَ أَنَّ ابْتِدَاءَ الْفِتَنِ دَائِمًا مِنَ الْمَشْرِقِ ، كَمَا سَيَأْتِي تَقْرِيرُهُ فِي كِتَابِ الْفِتَنِ ، وَأَمَّا جَعْلُ الْغَايَةِ إِلَىٰ الْمَغْرِبِ فَلِأَنَّ الشَّامَ بِالنِّسْبَةِ إِلَىٰ الْمَشْرِقِ مَغْرِبٌ ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ تَكُونَ النَّارُ فِي حَدِيثِ أَنَسٍ كِنَايَةٌ عَنِ الْفِتَنِ الْمُنْتَشِرَةِ الَّتِي أَثَارَتِ الشَّرَّ الْعَظِيمَ وَالْتَهَبَتْ كَمَا تَلْتَهِبُ النَّارُ ، وَكَانَ ابْتِدَاؤُهَا مِنْ قِبَلِ

الْمَشْرِقِ حَتَّىٰ خَرِبَ مُعْظَمُهُ ، وَانْحَشَرَ النَّاسُ مِنْ جِهَةِ الْمَشْرِقِ إِلَىٰ الشَّامِ وَمِصْرَ وَهُمَا مِنْ جِهَةِ الْمَغْرِبِ"
.

وقد ذكرنا في الفصل الثَّالث كيفيَّة حشر النَّار للنَّاس ...

﴿ الفَصْلُ الثَّانِي ﴾

۞۞۞ الصُّوُر وَمَا يَتَعَلَّقُ بِهِ مِنْ مِسَائِل ۞۞۞

من أهوال يوم القيامة : النَّفخ في الصُّور، والنَّفخ في الصُّور يكون مرَّتين اثنتين : يحصل بالنَّفخة الأولىٰ الصَّعق فتموت جميع الخلائق الموجودة يومئذ ، ويحصل بالنَّفخة الثَّانية البعث فتحيا جميع الخلائق ،

قال تعالىٰ : **﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّماواتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلاَّ مَنْ شاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرى فَإِذا هُمْ قِيامٌ يَنْظُرُون﴾** [الزمر:٦٨] .

وحاصل الكلام عن الصُّوْر ينتظم في جواب الأسئلة التَّالية :

﴿سُؤالٌ﴾ : مَا هُوَ الصُّوْر ؟

الجواب : قال الإمام القرطبي في " التَّذكرة بأحوال الموتىٰ وأمور الآخرة" (ص٤٨٦) : " الصُّور: بالصَّاد قرن ينفخ فيه "، " النَّفْخَةُ الْأُولَىٰ لِلْفَنَاءِ وَالثَّانِيَةُ لِلْإِنْشَاءِ. وَلَيْسَ جَمْعُ صُورَةٍ كَمَا زَعَمَ بَعْضُهُمْ، أَيْ يُنْفَخُ فِي صُوَرِ الْمَوْتَىٰ عَلَىٰ مَا نُبَيِّنُهُ. رَوَىٰ مُسْلِمٌ (٤/ ٢٢٥٨ برقم ٢٩٤٠) مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو" .... ثُمَّ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَلَا يَسْمَعُهُ أَحَدٌ إِلَّا أَصْغَىٰ لِيتًا وَرَفَعَ لِيتًا – قَالَ– وَأَوَّلُ مَنْ يَسْمَعُهُ رَجُلٌ يَلُوطُ حَوْضَ إِبِلِهِ قال وَيُصْعَقُ النَّاسُ ثمَّ يُرْسِلُ اللَّهُ– أَوْ قَالَ يُنْزِلُ اللَّهُ– مَطَرًا كَأَنَّهُ الطَّلُّ فَتَنْبُتُ مِنْهُ أَجْسَادُ النَّاسِ ثمَّ يُنْفَخُ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ" وَذَكَرَ الْحَدِيثَ. وَكَذَا فِي التَّنْزِيلِ**﴿ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرى﴾** [الزمر:٦٨] ، وَلَمْ يَقُلْ فِيهَا، فَعُلِمَ أَنَّهُ لَيْسَ جَمْعَ الصُّورَةِ... قَالَ ابْنُ فَارِسٍ: الصُّورُ الَّذِي فِي الْحَدِيثِ كَالْقَرْنِ يُنْفَخُ فِيهِ، وَالصُّوَرُ جَمْعُ صُورَةٍ. وَقَالَ الْجَوْهَرِيُّ: الصُّورُ الْقَرْنُ...

وَمِمَّنْ قَالَ إِنَّ الْمُرَادَ بِالصُّورِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ جَمْعُ صُورَةٍ أَبُو عُبَيْدَةَ. وَهَذَا وَإِنْ كَانَ مُحْتَمِلًا فَهُوَ مَرْدُودٌ بِمَا ذَكَرْنَاهُ مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ. وَأَيْضًا لَا يُنْفَخُ فِي الصُّورِ لِلْبَعْثِ مَرَّتَيْنِ، بَلْ يُنْفَخُ فِيهِ مَرَّةً وَاحِدَةً، فَإِسْرَافِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَنْفُخُ فِي الصُّوَرِ الَّذِي هُوَ الْقَرْنُ وَاللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ يُحْيِي الصُّوَرَ" . انظر : الجامع لأحكام القرآن (٧/ ٢١) .

وقال الإمام القرطبي في " الجامع لأحكام القرآن" (١٣/ ٢٣٩) : " وَالصَّحِيحُ فِي الصُّورِ أَنَّهُ قَرْنٌ مِنْ نُورٍ يَنْفُخُ فِيهِ إِسْرَافِيلُ قَالَ مُجَاهِدٌ: كَهَيْئَةِ الْبُوقِ وَقِيلَ: هُوَ الْبُوقُ بِلُغَةِ أَهْلِ الْيَمَنِ" .

قلت : وصف الإمام القرطبي للصُّور بأنَّه من نور ممَّا لا سبيل إلىٰ إثباته ، حيث لم يرد عن الرَّسول صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما يدلُّ علىٰ ذلك.

وقال الإمام القرطبي في " التَّذكرة بأحوال الموتىٰ وأمور الآخرة " (ص٤٧٧) : " وسمَّاه الله تعالىٰ أيضاً بالنَّاقور في قولـــه تعالىٰ : **﴿فَإِذا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ﴾** [المدثر:٨] . قال المفسِّرون: الصُّور يُنقر فيه مع النَّفخ الأوَّل لموت الخلق" .

وأخرج أحمد في المسند (١١/ ٥٣ برقم ٦٥٠٧) بسنده عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو، قَالَ: قَالَ أَعْرَابِيٌّ: يَا رَسُولَ اللهِ، مَا الصُّورُ؟ " قَالَ قَرْنٌ يُنْفَخُ فِيهِ " . قال الأرنؤوط : " إسناده صحيح، رجاله ثقات. إسماعيل: هو ابن عُلية، وسليمان التيمي: هو ابن طَرْخان. وأخرجه الترمذي (٣٢٤٤) ، والنسائي في "الكبرىٰ" (١١٣١٢) من طريق إسماعيل ابن عُلية، بهذا الإسناد. قال

الترمذي: هذا حديث حسن، إنما نعرفه من حديث سليمان التيمي. وأخرجه ابن المبارك في "الزهد" (١٥٩٩) ، والدارمي ٢/ ٣٢٥، وأبو داود (٤٧٤٢) ، والترمذي (٢٤٣٠) ، والنسائي في "الكبرىٰ" (١١٤٥٦) ، وابن حبان (٧٣١٢) ، والطبري في "تفسيره" [الكهف: ٩٩] ١٦/ ٢٩، والحاكم ٢/ ٤٣٦ و٥٠٦ و٤/ ٥٦٠، وأبو نعيم في "الحلية" ٧/ ٢٤٣ من طرق عن سليمان التيمي، به. قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي " .

"وقد أنكر بعض أهل الزَّيغ أن يكون الصُّور قرناً. قال أبو الهيثم: من أنكر أن يكون الصُّور قرناً، فهو كمن ينكر العرش والصِّراط والميزان ، وطلب لها تأويلات" . انظر : التذكرة (ص٤٩٢) .

قلت : وبما أنَّه ثبت عن الرَّسول صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنَّ الصُّور قرنٌ – كما في الحديث السَّابق – فلا يلتفت لقول من خالف في ذلك . كما لا يلتفت إلىٰ ما جاء في صفة الصُّور من أنَّه خُلِقَ من لؤلؤة بيضاء في صفاء الزُّجاجة . ذكر هذا الحافظ ابن حجر في " الفتح" (١١/ ٣٦٧) ، وعزاه لأبي الشَّيخ في كتاب العظمة ، وقد بيَّن الحافظ ابن حجر أنَّه من قول وهب بن منبِّه ، ولذا فالأرجح أن يكون من روايات أهل الكتاب ... والأَوْلَىٰ في هذا وأمثاله أن نفوِّض العلم فيه إلىٰ الله تعالىٰ ، لأنَّه من الغيب الذي لا سبيل إلىٰ معرفة كُنْهِه...

﴿سُؤالٌ﴾ : مَنْ هُوَ المَلَك المُوَكَّلُ بِالنَّفْخِ فِي الصُّوْر ؟

الجواب : قال الإمام القرطبي في " الجامع لأحكام القرآن " (٧/ ٢٠) : " وَالْأُمَمُ مُجْمِعَةٌ عَلَىٰ أَنَّ الَّذِي يَنْفُخُ فِي الصُّورِ إِسْرَافِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ" .

وقال الحافظ ابن حجر في " الفتح " (١١/ ٣٦٨) : " اشْتُهِرَ أَنَّ صَاحِبَ الصُّورِ إِسْرَافِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَنَقَلَ فِيهِ الْحَلِيمِيُّ الْإِجْمَاعَ وَوَقَعَ التَّصْرِيحُ بِهِ فِي حَدِيثِ وَهْبِ بْنِ مُنَبِّهٍ " .

وقال الإمام ابن كثير في " البداية والنِّهاية" (١٩/ ٣٠٣-٣٠٤) : " أَوَّلُ شَيْءٍ يَطْرُقُ أَهْلَ الدُّنْيَا بَعْدَ وُقُوعِ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ نَفْخَةُ الْفَزَعِ ؛ وَذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ يَأْمُرُ إِسْرَافِيلَ فَيَنْفُخُ فِي الصُّورِ نَفْخَةَ الْفَزَعِ، فَيُطَوِّلُهَا، فَلَا يَبْقَىٰ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ الْأَرْضِ وَلَا السَّمَاوَاتِ إِلَّا فَزِعَ، إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ، وَلَا يَسْمَعُهَا أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ الْأَرْضِ إِلَّا أَصْغَىٰ لِيتًا وَرَفَعَ لِيتًا – أَيْ رَفَعَ صَفْحَةَ عُنُقِهِ وَأَمَالَ الْأُخْرَىٰ يَسْتَمِعُ هَذَا الْأَمْرَ الْعَظِيمَ الَّذِي قَدْ هَالَ النَّاسَ وَأَزْعَجَهُمْ عَمَّا كَانُوا فِيهِ مِنْ أَمْرِ الدُّنْيَا، وَشُغْلِهِمْ بِهَا، وَوُقُوعُ هَذَا الْأَمْرِ الْعَظِيمِ ، قَالَ تَعَالَىٰ : **﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ * وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾** [النمل: ٨٧ – ٨٨]

.

وذكر العلماء أنَّ المقصود بـ " المُنادي " في قوله تعالىٰ : **﴿وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِي الْمُنَادِي مِنْ مَكَانٍ قَرِيْبٍ﴾** [ق:٤١] ، أنَّه إسرافيل ، وقيل غيره ، قال الإمام أبو حيَّان في "البحر المحيط في التَّفسير " (٩/ ٥٤٣) : " قِيلَ: وَالْمُنَادِي إِسْرَافِيلُ، يَنْفُخُ فِي الصُّورِ وَيُنَادِي. وَقِيلَ: الْمُنَادِي جِبْرِيلُ" .

قلت : ممَّا سبق تبيَّن لنا أنَّ العلماء ذكروا أنَّ الإجماع انعقد علىٰ أنَّ المَلَك المُوكَّل بالنَّفخ في الصُّور هو جبريل وهو أمر ذكر في الكثير من كُتُب أهل العلم ... مع العلم أنَّ ذلك لم يثبت البتَّة في السُّنَّة المطهَّرة الصَّحيحة، وقد جاءت تسمية من سينفخُ في الصُّور بـ : صَاحب الصُّور ، وصَاحب القَرْن ، وقد روىٰ الحاكم في "المستدرك علىٰ الصَّحيحين" (٤/ ٦٠٣ برقم٨٦٧٦ ، وقال : هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحُ الْإِسْنَادِ، وَلَمْ يُخْرِجَاهُ ، وقال الذهبي في التَّلخيص : صحيح علىٰ شرط مسلم) بسنده عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ طَرْفَ صَاحِبِ الصُّورِ مُذْ وُكِّلَ بِهِ مُسْتَعِدٌّ يَنْظُرُ نَحْوَ الْعَرْشِ مَخَافَةَ أَنْ يُؤْمَرَ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْهِ طَرْفُهُ، كَأَنَّ عَيْنَيْهِ كَوْكَبَانِ دُرِّيَّانِ» . والحديث حسَّنه الحافظ ابن حجر في " الفتح " (١١/ ٣٦٨) .

﴿سُؤالٌ﴾ : كَمْ مَرَّة يُنفخُ فِي الصُّوْر ؟

الجواب : اختلف العلماء في عدد النَّفخات في الصُّور ، وقد وضَّح الحافظ ابن حجر في " الفتح " ذلك الخلاف ، ورجَّح أنَّهما نفختان فقط...

قال الحافظ ابن حجر في " الفتح" (٦/ ٤٤٦) : " زعم بن حَزْمٍ أَنَّ النَّفَخَاتِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَرْبَعٌ : الْأُولَىٰ نَفْخَةُ إِمَاتَةٍ يَمُوتُ فِيهَا مَنْ بَقِيَ حَيًّا فِي الْأَرْضِ ، وَالثَّانِيَةُ نَفْخَةُ إِحْيَاءٍ يَقُومُ بِهَا كُلُّ مَيِّتٍ وَيُنْشَرُونَ مِنَ الْقُبُورِ وَيُجْمَعُونَ لِلْحِسَابِ ، وَالثَّالِثَةُ نَفْخَةُ فَزَعٍ وَصَعْقٍ يُفِيقُونَ مِنْهَا كَالْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ لَا يَمُوتُ مِنْهَا أَحَدٌ ، وَالرَّابِعَةُ نَفْخَةُ إِفَاقَةٍ مِنْ ذَلِكَ الْغَشْيِ . وَهَذَا الَّذِي ذَكَرَهُ مِنْ كَوْنِ الثِّنْتَيْنِ أَرْبَعًا لَيْسَ بِوَاضِحٍ بَلْ هُمَا نَفْخَتَانِ فَقَطْ ، وَوَقَعَ التَّغَايُرُ فِي كُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا بِاعْتِبَار من يستمعها ، فَالْأول يَمُوتُ بِهَا كُلُّ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيُغْشَىٰ عَلَىٰ مَنْ لَمْ يَمُتْ مِمَّنِ اسْتَثْنَىٰ اللَّهُ ، وَالثَّانِيَةُ يَعِيشُ بِهَا مَنْ مَاتَ وَيُفِيقُ بِهَا مَنْ غُشِيَ عَلَيْهِ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ " .

وقال الحافظ في " الفتح " (١١/ ٣٦٩) : " رَأَيْتُ فِي كَلَام بن الْعَرَبِيِّ أَنَّهَا ثَلَاثٌ : نَفْخَةُ الْفَزَعِ كَمَا فِي النَّمْلِ ، وَنَفْخَةُ الصَّعْقِ كَمَا فِي الزُّمَرِ ، وَنَفْخَةُ الْبَعْثِ وَهِيَ الْمَذْكُورَةُ فِي الزُّمَرِ أَيْضًا . قَالَ الْقُرْطُبِيُّ : وَالصَّحِيحُ أَنَّهُمَا نَفْخَتَانِ فَقَطْ لِثُبُوتِ الِاسْتِثْنَاءِ بقوله تَعَالَىٰ : **﴿إِلَّا مَنْ شَاءَ اللهُ﴾** فِي كُلٍّ مِنَ الْآيَتَيْنِ ، وَلَا يَلْزَمُ مِنْ مُغَايَرَةِ الصَّعْقِ لِلْفَزَعِ أَنْ لَا يَحْصُلَا مَعًا من النَّفخة الأولىٰ . ثمَّ وجدت مُسْتَند بن الْعَرَبِيِّ فِي حَدِيثِ الصُّورِ الطَّوِيلِ فَقَالَ فِيهِ : ثمَّ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ ثَلَاثُ نَفَخَاتٍ : نَفْخَةِ الْفَزَعُ ، وَنَفْخَةِ الصَّعْقِ، وَنَفْخَةِ الْقِيَام لِرَبِّ الْعَالَمِينَ . أَخْرَجَهُ الطَّبَرِيُّ هَكَذَا مُخْتَصَرًا ، وَقَدْ ذَكَرْتُ أَنَّ سَنَدَهُ ضَعِيفٌ وَمُضْطَرِبٌ ، وَقَدْ ثَبَتَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٌ مِنْ

حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو أَنَّهُمَا نَفْخَتَانِ ، وَلَفْظُهُ فِي أَثْنَاءِ حَدِيثٍ مَرْفُوعٍ : " ثمَّ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَلَا يَسْمَعُهُ أَحَدٌ إِلَّا أَصْغَىٰ لِيتًا وَرَفَعَ لِيتًا ثمَ يُرْسِلُ اللَّهُ مَطَرًا كَأَنَّهُ الطَّلُّ فَتَنْبُتُ مِنْهُ أَجْسَادُ النَّاسِ ثمَّ يُنْفَخُ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ" .

﴿سُؤالٌ﴾ : أُذْكُرْ لَنَا بَعْضَ الأَحَادِيْثِ الوَارِدَةِ فِي النَّفخِ فِي الصُّوْرِ ؟

الجواب : روىٰ مسلم في الصَّحيح (٢٢٥٨/٤ برقم ٢٩٤٠) بسنده عَنِ النُّعْمَانِ بْنِ سَالِمٍ، قَالَ: سَمِعْتُ يَعْقُوبَ بْنَ عَاصِمِ بْنِ عُرْوَةَ بْنِ مَسْعُودٍ الثَّقَفِيَّ، يَقُولُ: سَمِعْتُ عَبْدَ اللهِ بْنَ عَمْرٍو، وَجَاءَهُ رَجُلٌ، فَقَالَ: مَا هَذَا الْحَدِيثُ الَّذِي تُحَدِّثُ بِهِ؟ تَقُولُ: إِنَّ السَّاعَةَ تَقُومُ إِلَىٰ كَذَا وَكَذَا، فَقَالَ: سُبْحَانَ اللهِ أَوْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ – أَوْ كَلِمَةً نَحْوَهُمَا – لَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ لَا أُحَدِّثَ أَحَدًا شَيْئًا أَبَدًا، إِنَّمَا قُلْتُ: إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ بَعْدَ قَلِيلٍ أَمْرًا عَظِيمًا، يُحَرَّقُ الْبَيْتُ، وَيَكُونُ وَيَكُونُ، ثمَّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " يَخْرُجُ الدَّجَّالُ فِي أُمَّتِي فَيَمْكُثُ أَرْبَعِينَ – لَا أَدْرِي: أَرْبَعِينَ يَوْمًا، أَوْ أَرْبَعِينَ شَهْرًا، أَوْ أَرْبَعِينَ عَامًا فَيَبْعَثُ اللهُ عِيسَىٰ ابْنَ مَرْيَمَ كَأَنَّهُ عُرْوَةُ بْنُ مَسْعُودٍ، فَيَطْلُبُهُ فَيُهْلِكُهُ، ثمَّ يَمْكُثُ النَّاسُ سَبْعَ سِنِينَ، لَيْسَ بَيْنَ اثْنَيْنِ عَدَاوَةٌ، ثمَّ يُرْسِلُ اللهُ رِيحًا بَارِدَةً مِنْ قِبَلِ الشَّأْمِ، فَلَا يَبْقَىٰ عَلَىٰ وَجْهِ الْأَرْضِ أَحَدٌ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ خَيْرٍ أَوْ إِيمَانٍ إِلَّا قَبَضَتْهُ، حَتَّىٰ لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ دَخَلَ فِي كَبِدِ جَبَلٍ لَدَخَلَتْهُ عَلَيْهِ، حَتَّىٰ تَقْبِضَهُ " قَالَ: سَمِعْتُهَا مِنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: " فَيَبْقَىٰ شِرَارُ النَّاسِ فِي خِفَّةِ الطَّيْرِ وَأَحْلَامِ السِّبَاعِ، لَا يَعْرِفُونَ مَعْرُوفًا وَلَا يُنْكِرُونَ مُنْكَرًا، فَيَتَمَثَّلُ لَهُمُ الشَّيْطَانُ، فَيَقُولُ: أَلَا تَسْتَجِيبُونَ؟ فَيَقُولُونَ: فَمَا تَأْمُرُنَا؟ فَيَأْمُرُهُمْ بِعِبَادَةِ الْأَوْثَانِ، وَهُمْ فِي ذَلِكَ دَارٌّ رِزْقُهُمْ، حَسَنٌ عَيْشُهُمْ، ثمَّ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ، فَلَا يَسْمَعُهُ أَحَدٌ إِلَّا أَصْغَىٰ لِيتًا وَرَفَعَ لِيتًا، قَالَ: وَأَوَّلُ مَنْ يَسْمَعُهُ رَجُلٌ يَلُوطُ حَوْضَ إِبِلِهِ، قَالَ: فَيَصْعَقُ، وَيَصْعَقُ النَّاسُ، ثمَّ يُرْسِلُ اللهُ – أَوْ قَالَ يُنْزِلُ اللهُ – مَطَرًا كَأَنَّهُ الطَّلُّ أَوِ الظِّلُّ – نُعْمَانُ الشَّاكُّ – فَتَنْبُتُ مِنْهُ أَجْسَادُ النَّاسِ، ثمَّ يُنْفَخُ فِيهِ أُخْرَىٰ، فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ، ثمَّ يُقَالُ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ هَلُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ، وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ، قَالَ: ثمَّ يُقَالُ: أَخْرِجُوا بَعْثَ النَّارِ، فَيُقَالُ: مِنْ كَمْ؟ فَيُقَالُ: مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعَمِائَةٍ وَتِسْعَةً وَتِسْعِينَ، قَالَ فَذَاكَ يَوْمَ يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا، وَذَلِكَ يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ " .

وروىٰ أحمد في "المسند" (٥٣/١١ برقم ٦٥٠٧) بسنده عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو، قَالَ: قَالَ أَعْرَابِيٌّ: يَا رَسُولَ اللهِ، مَا الصُّورُ؟ " قَالَ قَرْنٌ يُنْفَخُ فِيهِ " . قال الأرنؤوط : " إسناده صحيح، رجاله ثقات رجال الشيخين، غير أسلم –وهو العجلي البصري–، وبشر بن شغاف، روىٰ لهما أصحاب السنن عدا ابن ماجه، وهما ثقتان " .

وروىٰ أحمد في المسند (١٧/ ٨٩ برقم ١١٠٣٩) بسنده عَنْ أَبِي سَعِيدٍ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: " كَيْفَ أَنْعَمُ وَقَدِ الْتَقَمَ صَاحِبُ الْقَرْنِ الْقَرْنَ، وَحَنَىٰ جَبْهَتَهُ، وَأَصْغَىٰ سَمْعَهُ يَنْظُرُ مَتَىٰ يُؤْمَرُ " قَالَ الْمُسْلِمُونَ: يَا رَسُولَ اللهِ، فَمَا نَقُولُ؟ قَالَ: " قُولُوا: حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ عَلَىٰ اللهِ تَوَكَّلْنَا " . قال الأرنؤوط : " حديث صحيح " .

وروىٰ أحمد في المسند (٣٢/ ٩١ برقم ١٩٣٤٥) بسنده عَنْ زَيْدِ بْنِ أَرْقَمَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " كَيْفَ أَنْعَمُ وَصَاحِبُ الْقَرْنِ قَدِ الْتَقَمَ الْقَرْنَ وَحَنَىٰ جَبْهَتَهُ، وَأَصْغَىٰ السَّمْعَ مَتَىٰ يُؤْمَرُ "، قَالَ: فَسَمِعَ ذَلِكَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَشَقَّ عَلَيْهِمْ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: قُولُوا: " حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ " . قال الأرنؤوط : " حديث صحيح " .

وروىٰ أبو الشَّيخ في " العظمة " (٣/ ٨٤٣) ، وأبو نعيم الأصبهاني في " حلية الأولياء وطبقات الأصفياء " (٤/ ٩٩) بسندهما عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَا طَرَفَ صَاحِبُ الصُّورِ مُذْ وُكِّلَ بِهِ، مُسْتَعِدٌّ يَنْظُرُ نَحْوَ الْعَرْشِ مَخَافَةَ أَنْ يُؤْمَرَ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْهِ طَرْفُهُ، كَأَنَّ عَيْنَيْهِ كَوْكَبَانِ دُرِّيَّانِ.

﴿سُؤالٌ﴾ : كَيفَ سَيُنفخُ النَّفخَة الثَّانِيَة إذا كَانَ مَنْ سَيَنْفُخُ فِي الصُّوْرِ قَدْ مَات ؟

الجواب : قال الإمام ابن كثير في التَّفسير (٧/ ١١٦) عند تفسير قول الله تعالىٰ : **﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ إلا مَنْ شَاءَ اللَّهُ﴾**[الزمر:٦٨] : " هَذِهِ النَّفْخَةُ هِيَ الثَّانِيَةُ، وَهِيَ نَفْخَةُ الصَّعْقِ، وَهِيَ الَّتِي يموت بها الأحياء من أهل السموات وَالْأَرْضِ، إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ كَمَا هُوَ مُصَرَّحٌ بِهِ مُفَسَّرًا فِي حَدِيثِ الصُّورِ الْمَشْهُورِ. ثمَّ يَقْبِضُ أَرْوَاحَ الْبَاقِينَ حَتَّىٰ يَكُونَ آخِرُ مَنْ يَمُوتُ مَلَكَ الْمَوْتِ، وَيَنْفَرِدُ الْحَيُّ الْقَيُّومُ الَّذِي كَانَ أَوَّلًا وَهُوَ الْبَاقِي آخِرًا بِالدَّيْمُومَةِ وَالْبَقَاءِ، وَيَقُولُ : **﴿لِمَنِ المَلَك الْيَوْمَ﴾** [غَافِرٍ:١٦] ثَلَاثَ مَرَّاتٍ. ثمَّ يُجِيبُ نَفْسَهُ بِنَفْسِهِ فَيَقُولُ: ﴿لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ ، أَيِ: الَّذِي هُوَ وَاحِدٌ وَقَدْ قَهَرَ كُلَّ شَيْءٍ، وَحَكَمَ بِالْفَنَاءِ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ. ثمَّ يُحْيِي أَوَّلَ مَنْ يُحْيِي إِسْرَافِيلَ، وَيَأْمُرُهُ أَنْ يُنْفَخَ فِي الصُّورِ أُخْرَىٰ، وَهِيَ النَّفْخَةُ الثَّالِثَةُ نَفْخَةُ الْبَعْثِ، قَالَ تَعَالَىٰ: **﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ ﴾** ، أَيْ: أَحْيَاءٌ بَعْدَ مَا كَانُوا عِظَامًا وَرُفَاتًا، صَارُوا أَحْيَاءً يَنْظُرُونَ إِلَىٰ أَهْوَالِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ " .

﴿سُؤالٌ﴾ : مَا هِيَ المُدَّة بَيْنَ النَفْخَتَيْنِ ؟

الجواب : ذكر الحافظ ابن حجر أنَّه جاء في بعض الرِّوايات تحديد المدَّة الزَّمنيَّة بين النَّفختين ، حيث ذكرت بعض تلك الرِّوايات أنَّ لمُدَّة بينهما أربعين سنة ، وجاء في بعضها أنَّها أربعين جُمعة ، ولكنَّها

بمجموعها روايات ضعيفة لا يعوَّل عليها في هذا الباب ، ولا يصحُّ منها شيء ... لذا فالأسلم هو تفويض ذلك لمن يعلم السِّرَّ وأخفىٰ جلَّ جلاله...

قال الإمام القرطبي في " التَّذكرة بأحوال الموتىٰ وأمور الآخرة" (١/٤٥٢-٤٥٣) : " وقول أبي هريرة أبيت: فيه تأويلان:

الأَوَّلُ: أبيت ، أي : امتنعت من بيان ذلك وتفسيره ، وعلىٰ هذا كان عنده علم من ذلك ، أي : سمعه من النَّبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

الثَّاني: أبيْتُ ، أي : أبيْتُ أن أسأل عن ذلك النَّبيَّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وعلىٰ هذا لم يكن عنده علم من ذلك. والأَوَّلُ أظهر ، وإنَّما لم يبيِّنه لأنَّه لم ترهق لذلك حاجة، ولأنَّه ليس من البيِّنات والهدىٰ الذي أمر بتبليغه، وفي البخاري عنه أنَّه قال: حفظت وعاءين من علم السَّاعة : فأمَّا أحدهما فبثثته، وأمَّا الآخر فلو بثثته لقُطع منِّي هذا البلعوم، قال أبو عبد الله: البلعوم: مجرىٰ الطَّعام، وقد جاء أنَّ بين النَّفختين أربعين عاماً، والله أعلم .

وذكر هنَّاد بن السَّري قال: حدَّثنا وكيع عن سفيان، عن السدِّي سألت سعيد بن جبير عن هذه الآية : **﴿لَهُ مَا بَيْنَ أَيدِيْنَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِك﴾** [مريم:٦٤] فلم يجبني ، فسمعنا أنَّه ما بين النَّفختين، حدَّثنا وكيع عن أبي جعفر الرَّازي عن أبي العالية (وَمَا بَيْنَ ذَلِك) ، قال: ما بين النَّفختين ، والله أعلم " .

وقال الحافظ ابن حجر في " الفتح " (٨/٥٥٢) : " قَوْلُهُ : " أَبَيْتُ " بِمُوَحَّدَةٍ ، أَي : امْتَنَعْتُ عَنِ الْقَوْلِ بِتَعْيِينِ ذَلِكَ ، لِأَنَّهُ لَيْسَ عِنْدِي فِي ذَلِكَ تَوْقِيفٌ ،وَلِابْنِ مَرْدَوَيْهِ مِنْ طَرِيقِ أَبِي بَكْرِ بْنِ عَيَّاشٍ عَنْ الْأَعْمَشِ فِي هَذَا الْحَدِيثِ ، فَقَالَ : أَعْيَيْتُ مِنَ الْإِعْيَاءِ وَهُوَ التَّعَبُ ، وَكَأَنَّهُ أَشَارَ إِلَىٰ كَثْرَةِ مَنْ يَسْأَلُهُ عَنْ تَبْيِينِ ذَلِكَ فَلَا يُجِيبُهُ . وَزَعَمَ بَعْضُ الشُّرَّاحِ أَنَّهُ وَقَعَ عِنْدَ مُسْلِمٍ أَرْبَعِينَ سَنَةً وَلَا وجود لذَلِك ، نعم أخرج بن مَرْدَوَيْهِ مِنْ طَرِيقِ سَعِيدِ بْنِ الصَّلْتِ عَنِ الْأَعْمَشِ فِي هَذَا الْإِسْنَادِ أَرْبَعُونَ سَنَةً ، وَهُوَ شَاذٌّ ، وَمن وَجه ضَعِيف عَن بن عَبَّاسٍ قَالَ : مَا بَيْنَ النَّفْخَةِ وَالنَّفْخَةِ أَرْبَعُونَ سَنَةً ، ذَكَرَهُ فِي أَوَاخِرِ سُورَةِ ص ، وَكَأَنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ لَمْ يَسْمَعْهَا إِلَّا مُجْمَلَةً ، فَلِهَذَا قَالَ لِمَنْ عَيَّنَهَا لَهُ : " أَبَيْتُ " ، وَقَدْ أَخْرَجَ بن مَرْدَوَيْهِ مِنْ طَرِيقِ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : بَيْنَ النَّفْخَتَيْنِ أَرْبَعُونَ ، قَالُو : أَرْبَعُونَ مَاذَا ؟ قَالَ : هَكَذَا سَمِعت . وَقَالَ بن التِّينِ : وَيَحْتَمِلُ أَيْضًا أَنْ يَكُونَ عَلِمَ ذَلِكَ لَكِنْ سَكَتَ ل سُؤَالٌ : هَلِ المَلَائِكَة دَاخِلُوْنَ فِي المُسْتَثْنَىٰ فِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ : **﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّماواتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إلاَّ مَنْ شاءَ اللَّهُ﴾** [الزمر:٦٨] .

الجواب : قال الإمام الطَّبري في " التَّفسير " (٢٠/ ٢٥٤-٢٥٦ باختصار) : " اخْتَلَفَ أَهْلُ التَّأْوِيلِ فِي الَّذِي عَنَىٰ اللَّهُ بِالِاسْتِثْنَاءِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ عَنَىٰ بِهِ جِبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ وَإِسْرَافِيلَ وَمَلَكُ الْمَوْتِ .

ذِكْرُ مَنْ قَالَ ذَلِكَ: حَدَّثَنَا مُحَمَّدٌ، قَالَ: ثنا أَحْمَدُ، قَالَ: ثنا أَسْبَاطٌ، عَنِ السُّدِّيِّ، **﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ﴾** ، قَالَ «جِبْرِيلُ وَمِيكَائِيلُ وَإِسْرَافِيلُ وَمَلَكُ الْمَوْتِ " .

حَدَّثَنِي هَارُونُ بْنُ إِدْرِيسَ الْأَصَمُّ، قَالَ: ثنا عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ مُحَمَّدٍ الْمُحَارِبِيُّ، قَالَ: ثنا مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ، قَالَ: ثنا الْفَضْلُ بْنُ عِيسَىٰ، عَنْ عَمِّهِ يَزِيدَ الرَّقَاشِيِّ، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، قَالَ: قَرَأَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ﴿ :**وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ﴾** ، فَقِيلَ: مَنْ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ اسْتَثْنَىٰ اللَّهُ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: " جَبْرَائِيلُ وَمِيكَائِيلُ، وَمَلَكُ الْمَوْتِ، فَإِذَا قَبَض أَرْوَاحَ الْخَلَائِقِ قَالَ: يَا مَلَكُ الْمَوْتِ مَنْ بَقِيَ؟ وَهُوَ أَعْلَمُ؛ قَالَ: يَقُولُ: سُبْحَانَكَ تَبَارَكْتَ رَبِّي ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ، بَقِيَ جِبْرِيلُ وَمِيكَائِيلُ وَمَلَكُ الْمَوْتِ؛ قَالَ: يَقُولُ يَا مَلَكَ الْمَوْتِ خُذْ نَفْسَ مِيكَائِيلَ؛ قَالَ: فَيَقَعُ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ، قَالَ: ثُمَّ يَقُولُ: يَا مَلَكَ الْمَوْتِ مَنْ بَقِيَ؟ فَيَقُولُ: سُبْحَانَكَ رَبِّي يَا ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ، بَقِيَ جِبْرِيلُ وَمَلَكُ الْمَوْتِ، قَالَ: فَيَقُولُ: يَا مَلَكَ الْمَوْتِ مُتْ، قَالَ: فَيَمُوتُ؛ قَالَ: ثُمَّ يَقُولُ: يَا جِبْرِيلُ مَنْ بَقِيَ؟ قَالَ: فَيَقُولُ جِبْرِيلُ: سُبْحَانَكَ رَبِّي يَا ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ، بَقِيَ جِبْرِيلُ، وَهُوَ مِنَ اللَّهِ بِالْمَكَانِ الَّذِي هُوَ بِهِ؛ قَالَ: فَيَقُولُ يَا جِبْرِيلُ لَا بُدَّ مِنْ مَوْتَةٍ؛ قَالَ: فَيَقَعُ سَاجِدًا يَخْفِقُ بِجِنَاحَيْهِ يَقُولُ: سُبْحَانَكَ رَبِّي تَبَارَكْتَ وَتَعَالَيْتَ يَا ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ، أَنْتَ الْبَاقِي وَجِبْرِيلُ الْمَيِّتُ الْفَانِي: قَالَ: وَيَأْخُذُ رُوحَهُ فِي الْحَلْقَةِ الَّتِي خُلِقَ مِنْهَا، قَالَ: فَيَقَعُ عَلَىٰ مِيكَائِيلَ أَنَّ فَضْلَ خَلْقِهِ عَلَىٰ خَلْقِ مِيكَائِيلَ كَفَضْلِ الطَّوْدِ الْعَظِيمِ عَلَىٰ الظَّرْبِ مِنَ الظِّرَابِ...

وَقَالَ آخَرُونَ: عَنَىٰ بِالِاسْتِثْنَاءِ فِي الْفَزَعِ: الشُّهَدَاءَ، وَفِي الصَّعْقِ: جِبْرِيلَ، وَمَلَكَ الْمَوْتِ، وَحَمَلَةَ الْعَرْشِ

.

ذِكْرُ مَنْ قَالَ ذَلِكَ، وَالْخَبَرُ الَّذِي جَاءَ فِيهِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّىٰ اللَّهُ لَيْهِ وَسَلَّمَ: حَدَّثَنَا أَبُو كُرَيْبٍ، قَالَ: ثنا الْمُحَارِبِيُّ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ مُحَمَّدٍ، عَنْ إِسْمَاعِيلَ بْنِ رَافِعٍ الْمَدَنِيِّ، عَنْ يَزِيدَ، عَنْ رَجُلٍ مِنَ الْأَنْصَارِ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ كَعْبٍ الْقُرَظِيِّ، عَنْ رَجُلٍ، مِنَ الْأَنْصَارِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " يُنْفَخُ فِي الصُّورِ ثَلَاثَ نَفَخَاتٍ: الْأُولَىٰ: نَفْخَةُ الْفَزَعِ، وَالثَّانِيَةُ: نَفْخَةُ الصَّعْقِ ، وَالثَّالِثَةُ: نَفْخَةُ الْقِيَامِ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ؛ يَأْمُرُ اللَّهُ إِسْرَافِيلَ بِالنَّفْخَةِ الْأُولَىٰ، فَيَقُولُ: انْفُخْ نَفْخَةَ الْفَزَعِ، فَتَفْزَعُ أَهْلُ السَّمَوَاتِ وَأَهْلُ الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ "؛ قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَمَنِ اسْتَثْنَىٰ حِينَ يَقُولُ: **﴿فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ﴾** قَالَ: " أُولَئِكَ الشُّهَدَاءُ، وَإِنَّمَا يَصِلُ الْفَزَعُ إِلَىٰ الْأَحْيَاءِ،

أُولَئِكَ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ، وَقَاهُمُ اللَّهُ فَزَعَ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَأَمَّنَهُمْ، ثُمَّ يَأْمُرُ اللَّهُ إِسْرَافِيلَ بِنَفْخَةِ الصَّعْقِ، فَيَقُولُ: انْفُخْ نَفْخَةَ الصَّعْقِ، فَيُصْعَقُ أَهْلُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ، ثُمَّ يَأْتِي مَلَكُ الْمَوْتِ إِلَى الْجَبَّارِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فَيَقُولُ: يَا رَبِّ قَدْ مَاتَ أَهْلُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شِئْتَ، فَيَقُولُ لَهُ وَهُوَ أَعْلَمُ: فَمَنْ بَقِيَ؟ فَيَقُولُ: بَقِيتَ أَنْتَ الْحَيُّ الَّذِي لَا يَمُوتُ، وَبَقِيَ حَمَلَةُ عَرْشِكَ، وَبَقِيَ جِبْرِيلُ وَمِيكَائِيلُ؛ فَيَقُولُ اللَّهُ لَهُ: اسْكُتْ إِنِّي كَتَبْتُ الْمَوْتَ عَلَى مَنْ كَانَ تَحْتَ عَرْشِي؛ ثُمَّ يَأْتِي مَلَكُ الْمَوْتِ فَيَقُولُ: يَا رَبِّ قَدْ مَاتَ جِبْرِيلُ وَمِيكَائِيلُ؛ فَيَقُولُ اللَّهُ وَهُوَ أَعْلَمُ: فَمَنْ بَقِيَ؟ فَيَقُولُ بَقِيتُ أَنْتَ الْحَيُّ الَّذِي لَا يَمُوتُ، وَبَقِيَ حَمَلَةُ عَرْشِكَ، وَبَقِيتُ أَنَا، فَيَقُولُ اللَّهُ: فَلْيَمُتْ حَمَلَةُ الْعَرْشِ، فَيَمُوتُونَ؛ وَيَأْمُرُ اللَّهُ تَعَالَى الْعَرْشَ فَيَقْبِضُ الصُّورَ، فَيَقُولُ: أَيْ رَبِّ قَدْ مَاتَ حَمَلَةُ عَرْشِكَ؛ فَيَقُولُ: مَنْ بَقِيَ؟ وَهُوَ أَعْلَمُ، فَيَقُولُ: بَقِيتَ أَنْتَ الْحَيُّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَبَقِيتُ أَنَا قَالَ: فَيَقُولُ اللَّهُ: أَنْتَ مِنْ خَلْقِي خَلَقْتُكَ لِمَا رَأَيْتُ، فَمُتْ لَا تَحْيَى، فَيَمُوتُ " وَهَذَا الْقَوْلُ الَّذِي رُوِيَ فِي ذَلِكَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَوْلَى بِالصِّحَّةِ، لِأَنَّ الصَّعْقَةَ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ: الْمَوْتُ وَالشُّهَدَاءُ وَإِنْ كَانُوا عِنْدَ اللَّهِ أَحْيَاءً كَمَا أَخْبَرَ اللَّهُ تَعَالَى ذِكْرُهُ فَإِنَّهُمْ قَدْ ذَاقُوا الْمَوْتَ قَبْلَ ذَلِكَ وَإِنَّمَا عَنَى جَلَّ ثَنَاؤُهُ بِالِاسْتِثْنَاءِ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ الِاسْتِثْنَاءَ مِنَ الَّذِينَ صَعِقُوا عِنْدَ نَفْخَةِ الصَّعْقِ، لَا مِنَ الَّذِينَ قَدْ مَاتُوا قَبْلَ ذَلِكَ بِزَمَانٍ وَدَهْرٍ طَوِيلٍ؛ وَذَلِكَ أَنَّهُ لَوْ جَازَ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادَ بِذَلِكَ مَنْ قَدْ هَلَكَ، وَذَاقَ الْمَوْتَ قَبْلَ وَقْتِ نَفْخَةِ الصَّعْقِ، وَجَبَ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ بِذَلِكَ مَنْ قَدْ هَلَكَ، فَذَاقَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ ذَلِكَ، لِأَنَّهُ مِمَّنْ لَا يُصْعَقُ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ إِذَا كَانَ الْمَيِّتُ لَا يُجَدَّدُ لَهُ مَوْتٌ آخَرُ فِي تِلْكَ الْحَالِ" .

وقال الإمام القرطبي في " التّذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة " (١/ ٤٥٤-٤٦٢ باختصار) : " واختلف العلماء في المستثنى: من هو؟ فقيل المَلَائِكَة ، وقيل الأنبياء، وقيل الشُّهداء واختاره الحليمي ، قال: وهو مرويٌّ عن ابن عبَّاس رضي الله عنه أنَّ الاستثناء لأجل الشُّهداء ، فإنَّ الله تعالى يقول: **﴿أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِم يُرْزَقُوْن﴾** ، وضعَّفَ غيرُه من الأقوال على ما يأتي .

وقال شيخنا أبو العبَّاس: والصَّحيح أنَّه لم يرد في تعيينهم خبر صحيح، والكلُّ محتمل.

قلت: قد ورد حديث أبي هريرة بأنَّهم الشُّهداء وهو الصَّحيح على ما يأتي.

وأسند النَّحَّاس في كتاب " معاني القرآن " له حدَّثنا الحسين بن عمر الكوفي قال: حدثنا هنَّاد بن السَّري قال: حدَّثنا وكيع، عن شعبة عمارة ابن أبي حفصة، عن حجر الهجري، عن سعيد بن جبير في قول الله عزَّ وجلَّ **﴿إلَّا مَنْ شَاءَ الله﴾** ، قال: هم الشُّهداء هم ثنية الله عزَّ وجلَّ متقلِّدو السُّيوف حول العرش.

وقال الحسن: استثنى طوائف من المَلَائِكَة يموتون بين النَّفختين.

قال يحيىٰ بن سلام في تفسيره: بلغني أنَّ آخر من يبقىٰ منهم: جبريل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت، ثمَّ يموت جبريل وميكائيل وإسرافيل ثمَّ يقول الله عزَّ وجلَّ لملك الموت: مُتْ ، فيموت ، وقد جاء هذا مرفوعاً في حديث أبي هريرة الطَّويل علىٰ ما يأتي ، وقيل: هم حملة العرش وجبريل وميكائيل وملك الموت.

قال الحليمي: من زعم أنَّ الاستثناء لأجل حملة العرش أو جبريل وميكائيل وملك الموت أو زعم أنَّه لأجل الولدان والحور العين في الجنَّة أو زعم أنَّه لأجل موسىٰ فإنَّ النَّبيَّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «أنا أوَّل من تنشقُّ عنه الأرض فأرفع رأسي فإذا موسىٰ متعلِّق بقائمة من قوائم العرش، فلا أدري أفاق قبلي أو كان ممَّن استثنىٰ الله عزَّ وجلَّ» ؟ فإنَّه لم يصح شيء منها.

أمَّا الأوَّل: فإنَّ حملة العرش ليسوا من سكَّان السَّموات والأرض ، لأنَّ العرش فوق السَّموات كلّها، فكيف يكون حملته في السَّموات؟ وأمَّا جبريل وميكائيل وملك الموت فمن الصَّافِّين المسبِّحين حول العرش ، وإذا كان العرش فوق السَّموات لم يكن الاصطفاف حوله في السَّموات ، وكذلك القول الثَّاني ، لأنَّ الولدان والحور في الجنَّة ، والجنَّان وإن كان بعضها أرفع من بعض وأنَّ جميعها فوق السَّموات ودون العرش، وهي بانفرادها عالم مخلوق للبقاء فلا شكَّ أنَّها بمعزل عمَّا خلق الله تعالىٰ للفناء...

قال الحليمي: وأمَّا المَلَائِكَة الذين ذكرناهم صلوات الله عليهم فإنَّا لم ننف عنهم الموت ، ولا أحلناه، وإنَّما أبينا أن يكونوا هم المرادين بالاستثناء من الوجه الذين ذكرناه، ثمَّ قد وردت الأخبار بأنَّ الله تعالىٰ يُميت حملة العرش وملك الموت وميكائيل ، ثمَّ يُميت آخر من يُميت: جبريل ويحييه مكانه ويحيي هؤلاء المَلَائِكَة الذي ذكرناهم ، وأمَّا أهل الجنّة فلم يأت عنهم خبر والأظهر أنَّها دار الخلد فالذي يدخلها لا يموت فيها أبداً مع كونه قابلاً للموت، والذي خُلِقَ فيها أولىٰ ألا يموت فيها أبداً ، وأيضاً فإنَّ الموت لقهر المكلَّفين ، ونقلهم من دار إلىٰ دار، وأهل الجنَّة لم يبلغنا أنَّ عليهم تكليفاً، فإن أعفوا عن الموت كما أعفوا عن التَّكليف لم يكن بعيداً ، فإن قيل: فقد قال الله تعالىٰ : **﴿كُلُّ شَيءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَه﴾** ، وهو يدلُّ علىٰ أنَّ الجنَّة نفسها تفنىٰ ثمَّ تعاد ليوم الجزاء، فما أنكرتم أن يكون الولدان والحور يُماتون ثمَّ يحيون؟ قيل: يحتمل معنىٰ قوله: **﴿كُلُّ شَيءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَه﴾** : ما من شيء إلَّا وهو قابل للهلاك فيهلك إن أراد الله به ذلك إلَّا وجهه ، أي : إلَّا هو سبحانه، فإنَّه تعالىٰ قديم والقديم لا يمكن أن يفنىٰ وما عداه محدث، والمحدث إنَّما يبقىٰ قدر ما يبقيه مُحدِثه فإذا حبس البقاء عنه فني ، ولم يبلغنا في خبر صحيح ولا معلول

أَنَّه يهلك العرش فلتكن الجنة مثله" .يُخْبِرَهُمْ فِي وَقْتٍ أَوِ اشْتَغَلَ عَنِ الْإِعْلَامِ حِينَئِذٍ وَوَقَــعَ فِي جَامع بن وَهْبٍ أَرْبَعِينَ جُمْعَةً وَسَنَدُهُ مُنْقَطِعٌ " .

﴿ الفَصْلُ الثَّالِثُ ﴾

۞۞۞ صُورٌ مِنْ مَشَاهِدِ الانْقِلَابِ الكَوْنِي عِنْدَ قِيَامِ السَّاعَة ۞۞۞

اشتملت العديد من آيات القرآن الكريم علىٰ مشاهد من الانقلاب الكوني الذي سيطرأ مع قيام السَّاعة علىٰ العديد من مفردات الكون كالسَّماء ، والكواكب ، والنُّجوم ، والشَّمس والقمر ، والأرض ، والجبال ، والبحار ... من وضعها الحالي إلىٰ وضع آخر ...

وحاصل الكلام عن بعض الأمثلة علىٰ ذلكم الانقلاب الكوني ينتظم في جواب الأسئلة التَّالية :

﴿سُؤالٌ﴾ : مَا هِيَ التَّغَيُّرات وَالأَهْوَال التِي سَتَحْدُثُ لِلسَّمَاء مَعَ قِيَامِ السَّاعَةِ ؟

الجواب :

(١) **مَوَرَانُ السَّمَاءِ** : قال تعالىٰ : **﴿يَوْمَ تَمُورُ السَّماءُ مَوْراً﴾** [الطور:٩] .

قال الإمام الرَّازي في " التَّفسير" (٢٨/ ٢٠١-٢٠٢) : " الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ: مَا مَوْرُ السَّمَاءِ؟ نَقُولُ خُرُوجُهَا عَنْ مَكَانِهَا تَتَرَدَّدُ وَتَمُوجُ، وَالَّذِي تَقُولُهُ الْفَلَاسِفَةُ قَدْ عَلِمْتَ ضَعْفَهُ مِرَارًا وَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ: وَتَسِيرُ الْجِبالُ سَيْراً يَدُلُّ عَلَىٰ خِلَافِ قَوْلِهِمْ، وَذَلِكَ لِأَنَّهُمْ وَافَقُوا عَلَىٰ أَنَّ خُرُوجَ الْجَبَلِ الْعَظِيمِ مِنْ مَكَانِهِ جَائِزٌ وَكَيْفَ لَا وَهُمْ يَقُولُونَ بِأَنَّ زَلْزَلَةَ الْأَرْضِ مَعَ مَا فِيهَا مِنَ الْجِبَالِ بِبُخَارٍ يَجْتَمِعُ تَحْتَ الْأَرْضِ فَيُحَرِّكُهَا، وَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ فَنَقُولُ السَّمَاءُ قَابِلَةٌ لِلْحَرَكَةِ بِإِخْرَاجِهَا خَارِجَةً عَنِ السَّمْتِيَّاتِ وَالْجَبَلُ سَاكِنٌ يَقْتَضِي طَبْعُهُ السُّكُونَ، وَإِذَا قَبِلَ جِسْمُ الْحَرَكَةَ مَعَ أَنَّهَا عَلَىٰ خِلَافِ طَبْعِهِ، فَلَأَنْ يَقْبَلَهَا جِرْمٌ آخَرُ مَعَ أَنَّهَا عَلَىٰ مُوَافَقَتِهِ أَوْلَىٰ وَقَوْلُهُمُ الْقَابِلُ لِلْحَرَكَةِ الْمُسْتَدِيرَةِ لَا يَقْبَلُ الْحَرَكَةَ الْمُسْتَقِيمَةَ فِي غَايَةِ الضَّعْفِ، وَقَوْلُهُ مَوْراً يُفِيدُ فَائِدَةً جَلِيلَةً وَهِيَ أَنَّ قَوْلَهُ تَعَالَىٰ: وَتَسِيرُ الْجِبالُ يُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ بَيَانًا لِكَيْفِيَّةِ مَوْرِ السَّمَاءِ، وَذَلِكَ لِأَنَّ الْجِبَالَ إِذَا سَارَتْ وَسَيَّرَتْ مَعَهَا سُكَّانَهَا يَظْهَرُ أَنَّ السَّمَاءَ كَالسَّيَّارَةِ إِلَىٰ خِلَافِ تِلْكَ الْجِهَةِ كما يشاهده رَاكِبُ السَّفِينَةِ فَإِنَّهُ يَرَىٰ الْجَبَلَ السَّاكِنَ مُتَحَرِّكًا، فَكَانَ لِقَائِلٍ أَنْ يَقُولَ السَّمَاءُ تَمُورُ فِي رَأْيِ الْعَيْنِ بِسَبَبِ سَيْرِ الْجِبَالِ كَمَا يَرَىٰ الْقَمَرَ سَائِرًا رَاكِبُ السَّفِينَةِ، وَالسَّمَاءُ إِذَا مَارَتْ كَذَلِكَ فَلَا يَبْقَىٰ مَهْرَبٌ وَلَا مَفْزَعٌ لَا فِي السَّمَاءِ وَلَا فِي الْأَرْضِ.

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ: مَا السَّبَبُ فِي مَوْرِهَا وَسَيْرِهَا؟ قُلْنَا قُدْرَةُ اللَّهِ تَعَالَىٰ، وَأَمَّا الْحِكْمَةُ فَالْإِيذَانُ وَالْإِعْلَامُ بِأَنْ لَا عَوْدَ إِلَىٰ الدُّنْيَا، وَذَلِكَ لِأَنَّ الْأَرْضَ وَالْجِبَالَ وَالسَّمَاءَ وَالنُّجُومَ كُلَّهَا لِعِمَارَةِ الدُّنْيَا وَالِانْتِفَاعِ لِبَنِي آدَمَ بِهَا، فَإِنْ لَمْ يَتَّفِقْ لَهُمْ عَوْدٌ لَمْ يَبْقَ فِيهَا نَفْعٌ فَأَعْدَمَهَا اللَّهُ تَعَالَىٰ" .

(٢) **انفِطَارُ السَّمَاءِ** : قال تعالىٰ : **﴿إِذَا السَّماءُ انفَطَرَتْ﴾** [الانفطار:١] .

قال الإمام الرَّازي في " التَّفسير " (٣١/ ٧٢) : " اعْلَمْ أَنَّ الْمُرَادَ أَنَّهُ إِذَا وَقَعَتْ هَذِهِ الْأَشْيَاءُ الَّتِي هِيَ أَشْرَاطُ السَّاعَةِ، فَهُنَاكَ يَحْصُلُ الْحَشْرُ وَالنَّشْرُ، وَفِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَاتِ مَقَامَاتٌ الْأَوَّلُ: فِي تَفْسِيرِ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ الَّتِي هِيَ أَشْرَاطُ السَّاعَةِ وَهِيَ هَاهُنَا أَرْبَعَةٌ، اثْنَانِ مِنْهَا تَتَعَلَّقُ بِالْعُلْوِيَّاتِ، وَاثْنَانِ آخَرَانِ تَتَعَلَّقُ بِالسُّفْلِيَّاتِ الْأَوَّلُ: قَوْلُهُ: **﴿إِذَا السَّماءُ انفَطَرَتْ﴾** ، أَي : انْشَقَّتْ وَهُوَ كَقَوْلِهِ: **﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّماءُ بِالْغَمامِ﴾** [الْفُرْقَانِ: ٢٥] ، **﴿إِذَا السَّماءُ انْشَقَّتْ﴾** [الِانْشِقَاقِ: ١] ، **﴿فَإِذَا انْشَقَّتِ السَّماءُ فَكانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهانِ﴾** [الرَّحْمَنِ: ٣٧] ، **﴿وَفُتِحَتِ السَّماءُ فَكانَتْ أَبْواباً﴾** [النبأ: ١٩] ، **﴿والسَّماءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ﴾** [الْمُزَّمِّلِ: ١٨] قَالَ الْخَلِيلُ: وَلَمْ يَأْتِ هَذَا عَلَىٰ الْفِعْلِ، بَلْ هُوَ كَقَوْلِهِمْ: مُرْضِعٌ وَحَائِضٌ، وَلَوْ كَانَ عَلَىٰ الْفِعْلِ لَكَانَ مُنْفَطِرَةً كَمَا قَالَ: **﴿إِذَا السَّماءُ انْفَطَرَتْ﴾** ، أَمَّا الثَّانِي وَهُوَ قَوْلُهُ: **﴿وَإِذَا الْكَواكِبُ انْتَثَرَتْ﴾** ، فَالْمَعْنَىٰ ظَاهِرٌ لِأَنَّ عِنْدَ انْتِقَاضِ تَرْكِيبِ السَّمَاءِ لَا بُدَّ مِنَ انْتِثَارِ الْكَوَاكِبِ عَلَىٰ الْأَرْضِ " .

(٣) **تُبَدَّلُ السَّمَاء غَيْرَ السَّمَاء:** قال تعالىٰ : **﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّماواتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْواحِدِ الْقَهَّارِ﴾** [إبراهيم:٤٨] .

(٤) **انْشقَاقُ السَّمَاء** : قال تعالىٰ : **﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾** [] .

وقال تعالىٰ : **﴿وَانشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ﴾** [] .

وقال تعالىٰ : **﴿فَإِذَا انْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ﴾** [] .

(٥) قال تعالىٰ : **﴿يَوْمَ تَكُونُ السَّماءُ كَالْمُهْلِ﴾** [] .

قال الإمام الرَّازي في " التَّفسير " (١٨/ ٢٨٤) : " قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: **﴿يَوْمَ تَكُونُ السَّماءُ كَالْمُهْلِ﴾** الْعَامِلُ فِي يَوْمٍ واقِعٍ، تَقْدِيرُهُ يَقَعُ بِهِمُ الْعَذَابُ يَوْمَ. وَقِيلَ: نَراهُ أَوْ يُبَصَّرُونَهُمْ أَوْ يَكُونُ بَدَلًا مِنْ قَرِيبٍ. وَالْمُهْلُ: دُرْدِيُّ الزَّيْتِ وَعَكَرُهُ، فِي قَوْلِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَغَيْرِهِ. وَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ: مَا أُذِيبَ مِنَ الرَّصَاصِ وَالنُّحَاسِ وَالْفِضَّةِ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: كَالْمُهْلِ كَقَيْحٍ مِنْ دَمٍ وَصَدِيدٍ " .

(٦) **طَيُّ اللهِ لِلسَّمَاءِ بِيَمِيْنِه:** قال تعالىٰ : **﴿وَما قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَالسَّماواتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحانَهُ وَتَعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾** [الزمر:٦٧] .

وقال تعالىٰ : **﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّماءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَما بَدَأْنا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْداً عَلَيْنا إِنَّا كُنَّا فاعِلِينَ﴾** [الأنبياء:١٠٤] .

وروى البخاري (٨/ ١٠٨ برقم ٦٥١٩) ، مسلم (٤/ ٢١٤٨ برقم ٢٧٨٧) بسندهما عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: " يَقْبِضُ اللَّهُ الأَرْضَ، وَيَطْوِي السَّمَاءَ بِيَمِينِهِ، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا المَلِكُ، أَيْنَ مُلُوكُ الأَرْضِ " .

﴿سُؤالٌ﴾ : مَا هِيَ التَّغَيُّرات وَالأَهْوَال التِي سَتَحْدُثُ لِلنُجُوْمِ وَالكَوَاكِبِ مَعَ قِيَامِ السَّاعَةِ ؟

الجواب :

قال تعالى : **﴿وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ﴾** [التكوير:٢] . قال الإمام الرَّازي في " التَّفسير" (٣١/ ٦٣-٦٤) : " أَيْ : تَنَاثَرَتْ وَتَسَاقَطَتْ كَمَا قَالَ تَعَالَى: **﴿وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ﴾** [الإنفطار: ٢] ، وَالْأَصْلُ فِي الِانْكِدَارِ الِانْصِبَابُ، قَالَ الْخَلِيلُ: يُقَالُ انْكَدَرَ عَلَيْهِمُ الْقَوْمُ إِذَا جَاءُوا أَرْسَالًا فَانْصَبُّوا عَلَيْهِمْ، قال الكلبي: تمطر السَّماء يَوْمَئِذٍ نُجُومًا فَلَا يَبْقَى نَجْمٌ فِي السَّمَاءِ إِلَّا وَقَعَ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ، قَالَ عَطَاءٌ: وَذَلِكَ أَنَّهَا فِي قَنَادِيلَ مُعَلَّقَةٍ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ بِسَلَاسِلَ مِنَ النُّورِ، وَتِلْكَ السَّلَاسِلُ فِي أَيْدِي الْمَلَائِكَةِ، فَإِذَا مَاتَ مَنْ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ تَسَاقَطَتْ تِلْكَ السَّلَاسِلُ مِنْ أَيْدِي الْمَلَائِكَةِ" .

وقال الإمام القرطبي في " الجامع لأحكام القرآن" (١٩/ ٢٢٧-٢٢٨) : وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ ، أَيْ : تَهَافَتَتْ وَتَنَاثَرَتْ. وَقَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ: انْصَبَّتْ كَمَا تَنْصَبُّ الْعُقَابُ إِذَا انْكَسَرَتْ. قَالَ الْعَجَّاجُ يَصِفُ صَقْرًا:

أَبْصَرَ خِرْبَانَ فَضَاءَ فَانْكَدَرَ تَقَضِّي الْبَازِي إذا البازي كسر

وَرَوَى أَبُو صَالِحٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (لَا يَبْقَى فِي السَّمَاءِ يَوْمَئِذٍ نَجْمٌ إِلَّا سَقَطَ فِي الْأَرْضِ، حَتَّى يَفْزَعَ أَهْلُ الْأَرْضِ السَّابِعَةِ مِمَّا لَقِيَتْ وَأَصَابَ الْعُلْيَا)، يَعْنِي الْأَرْضَ. وَرَوَى الضَّحَّاكُ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: تَسَاقَطَتْ، وَذَلِكَ أَنَّهَا قَنَادِيلُ مُعَلَّقَةٌ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ بِسَلَاسِلَ مِنْ نُورٍ، وَتِلْكَ السَّلَاسِلُ بِأَيْدِي مَلَائِكَةٍ مِنْ نُورٍ، فَإِذَا جَاءَتِ النَّفْخَةُ الْأُولَى مَاتَ من في الأرض ومن في السموات، فَتَنَاثَرَتْ تِلْكَ الْكَوَاكِبُ وَتَسَاقَطَتِ السَّلَاسِلُ مِنْ أَيْدِي الْمَلَائِكَةِ، لِأَنَّهُ مَاتَ مَنْ كَانَ يُمْسِكُهَا. وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ انْكِدَارُهَا طَمْسَ آثَارِهَا. وَسُمِّيَتِ النُّجُومُ نُجُومًا لِظُهُورِهَا فِي السَّمَاءِ بِضَوْئِهَا. وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَيْضًا: انْكَدَرَتْ تَغَيَّرَتْ فَلَمْ يَبْقَ لَهَا ضَوْءٌ لِزَوَالِهَا عَنْ أَمَاكِنِهَا. وَالْمَعْنَى مُتَقَارِبٌ" .

وقال تعالى : **﴿وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ﴾** [الانفطار:٢] . قال الإمام الرَّازي في " التَّفسير" (٣١/ ٧٢) :" الْمَعْنَى ظَاهِرٌ لِأَنَّ عِنْدَ انْتِقَاضِ تَرْكِيبِ السَّمَاءِ لَا بُدَّ مِنَ انْتِثَارِ الْكَوَاكِبِ عَلَى الْأَرْضِ" .

﴿سُؤالٌ﴾ : مَا هِيَ التَّغَيُّرات وَالأَهْوَال التِي سَتَحْدُثُ لِلشَّمْس وَالقَمَر مَعَ قِيَامِ السَّاعَةِ ؟

الجواب :

قال تعالى : ﴿**إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ**﴾ [التكوير:١] .

قال الإمام الطَّاهر بن عاشور في "" (٣٠/ ١٤١-١٤٢) : " تَكْوِيرُ الشَّمْسِ: فَسَادُ جِرْمِهَا لِتَدَاخُلِ ظَاهِرِهَا فِي بَاطِنِهَا بِحَيْثُ يَخْتَلُّ تَرْكِيبُهَا فَيَخْتَلُّ لِاخْتِلَالِهِ نِظَامُ سَيْرِهَا، من قَوْلِهِمْ: كَوَّرَ الْعِمَامَةَ، إِذَا أَدْخَلَ بَعْضَهَا فِي بَعْضٍ وَلَفَّهَا، وَقَرِيبٌ مِنْ هَذَا الْإِطْلَاقِ إِطْلَاقُ الطَّيِّ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿**يَوْمَ نَطْوِي السَّماءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ**﴾ [الْأَنْبِيَاء: ١٠٤] .

وَفُسِّرَ كُوِّرَتْ بِمَعْنَى غُوِّرَتْ. رَوَاهُ الطَّبَرِيُّ عَنِ ابْنِ جُبَيْرٍ وَقَالَ: هِيَ كَلِمَةٌ مُعَرَّبَةٌ عَنِ الْفَارِسِيَّةِ وَأَنَّ أَصْلَهَا بِالْفَارِسِيَّةِ كُورُ بِكِرْ (بِضَمِّ الْكَافِ الْأُولَى وَسُكُونِ الرَّاءِ الْأَخِيرَةِ) وَعَلَى ذَلِكَ عُدَّتْ هَذِهِ الْكَلِمَةُ مِمَّا وَقَعَ فِي الْقُرْآنِ مِنَ الْمُعَرَّبِ. وَقَدْ عَدَّهَا ابْنُ السُّبْكِيِّ فِي نَظْمِهِ الْكَلِمَاتِ الْمُعَرَّبَةِ فِي الْقُرْآنِ.

وَإِذَا زَالَ ضَوْءُ الشَّمْسِ انْكَدَرَتِ النُّجُومُ لِأَنَّ مُعْظَمَهَا يَسْتَنِيرُ مِنَ انْعِكَاسِ نُورِ الشَّمْسِ عَلَيْهَا.

وَالِانْكِدَارُ: مُطَاوِعُ كَدَّرَهُ الْمُضَاعَفِ عَلَى غَيْرِ قِيَاسٍ، أَيْ حَصَلَ لِلنُّجُومِ انْكِدَارٌ مِنْ تَكْدِيرِ الشَّمْسِ لَهَا حِينَ زَالَ عَنْهَا انْعِكَاسُ نُورِهَا، فَلِذَلِكَ ذُكِرَ مُطَاوِعُ كَدَّرَ دُونَ ذِكْرِ فَاعِلِ التَّكْدِيرِ.

وَالْكُدْرَةُ: ضِدُّ الصَّفَاءِ كَتَغَيُّرِ لَوْنِ الْمَاءِ وَنَحْوِهِ.

وَفُسِّرَ الِانْكِدَارُ بِالتَّسَاقُطِ وَالِانْقِضَاضِ، وَأَنْشَدُوا قَوْلَ الْعَجَّاجِ يَصِفُ بَازِيًا:

أَبْصَرَ خِرْبَانَ فَضَاءً فَانْكَدَرْ وَمَعْنَى تَسَاقُطِهَا تَسَاقُطُ بَعْضِهَا عَلَى بَعْضٍ وَاصْطِدَامُهَا بِسَبَبِ اخْتِلَالِ نِظَامِ الْجَاذِبِيَّةِ الَّذِي جَعَلَهُ اللَّهُ لِإِمْسَاكِهَا إِلَى أَمَدٍ مَعْلُومٍ ".

وروى البخاري (٤/ ١٠٨ برقم ٣٢٠٠) بسنده عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «الشَّمْسُ وَالقَمَرُ مُكَوَّرَانِ يَوْمَ القِيَامَةِ» .

قال الإمام العيني في " عمدة القاري شرح صحيح البخاري " (١٥/ ١٢٠) : " قَوْله: (مكوران) أَي: مطويان ذَاهِبًا الضَّوْء، وَقَالَ ابْن الْأَثِير: أَي: يلفَّان ويجمعان ... وَذكر ابْن وهب فِي (كتاب الْأَمْوَال) : عَن عَطاء بن يسَار أَنَّه تَلا هَذِه الْآيَة: ﴿**وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَر**﴾ [إِبْرَاهِيم: ٣٣] . قَالَ: يجمعان يَوْم الْقِيَامَة ثمَّ يقذفان فِي النَّار فيكونان فِي نَار الله الْكُبْرَى، وَقَالَ الْخطابِيّ: لَيْسَ المُرَاد بكونهما فِي النَّار، تعذيبهما بذلك، وَلكنه تبكيت لمن لَكَانَ يعبدهما فِي الدُّنْيَا ليعلموا أَن عِبَادَتهم لَهما كَانَت بَاطِلَة. وَقيل: إنَّهُمَا خلقا من النَّار فأعيدا فِيهَ ... " .

وقال الإمام القاري في " مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح " (٨/ ٣٥٠٨) : " التَّكْوِيرُ مَعْنَاهُ اللَّفُّ، وَمِنْهُ تَكْوِيرُ الْعِمَامَةِ، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿**يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ**﴾ [الزمر: ٥] وَهُوَ مَعْنَى الْجَمْعِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى:

﴿وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾ [القيامة: ٩]، قَالَ التُّورِبِشْتِيُّ: يَحْتَمِلُ أَنَّهُ مِنَ التَّكْوِيرِ الَّذِي هُوَ بِمَعْنَىٰ اللَّفِّ الْجَمْعُ، أَيْ: يَلُفُّ صُورَهُمَا لَنَا ؛ فَيَذْهَبُ انْبِسَاطُهُمَا فِي الْآفَاقِ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يُرَادَ بِهِ رَفْعُهُمَا ؛ لِأَنَّ الثَّوْبَ إِذَا طُوِيَ رُفِعَ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ مِنْ قَوْلِهِمْ طَعْنَةٌ مُكَوَّرَةٌ مِنْ كَوَّرَهُ إِذَا أَلْقَاهُ، أَيْ: مُلْقَيَانِ مِنْ فَلَكِهِمَا، وَهَذَا التَّفْسِيرُ أَشْبَهُ بِنَسَقِ الْحَدِيثِ لِمَا فِي بَعْضِ طُرُقِهِ مُكَوَّرَانِ فِي النَّارِ، فَيَكُونُ تَكْوِيرُهَا فِيهَا لِيُعَذَّبَ بِهِمَا أَهْلُ النَّارِ، لَا سِيَّمَا عُبَّادَ الْأَنْوارِ، وَلَا يُعَذَّبَانِ فِي النَّارِ، فَإِنَّهُمَا بِمَعْزِلٍ عَنِ التَّكْلِيفِ، بَلْ سَبِيلُهُمَا فِي النَّارِ سَبِيلُ النَّارِ نَفْسِهَا، وَسَبِيلُ الْمَلَائِكَةِ الْمُوَكَّلِينَ بِهَا" .

وقال تعالىٰ : ﴿فَإِذا بَرِقَ الْبَصَرُ * وَخَسَفَ الْقَمَرُ * وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾ [القيامة:٧-٩] .

قال الإمام الرَّازي في " التَّفسير" (٣٠/ ٧٢٤) : " قَوْلُهُ: وَخَسَفَ الْقَمَرُ وَفِيهِ مَسْأَلَتَانِ:

الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى: يُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ مِنْ خُسُوفِ الْقَمَرِ ذَهَابَ ضَوْئِهِ كَمَا نَعْقِلُهُ مِنْ حَالِهِ إِذَا خَسَفَ فِي الدُّنْيَا، وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ ذَهَابَهُ بِنَفْسِهِ كَقَوْلِهِ: ﴿فَخَسَفْنا بِهِ وَبِدارِهِ الْأَرْضَ﴾ [الْقَصَصِ: ٨١] .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ: قُرِئَ: وَخَسَفَ الْقَمَرُ عَلَىٰ الْبِنَاءِ لِلْمَفْعُولِ وَثَالِثُهَا: قَوْلُهُ: وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَفِيهِ مَسَائِلُ:

الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى: ذَكَرُوا فِي كَيْفِيَّةِ الْجَمْعِ وُجُوهًا :

أَحَدُهَا: أَنَّهُ تَعَالَىٰ قَالَ: ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَها أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ﴾ [يس: ٤٠] فَإِذَا جَاءَ وَقْتُ الْقِيَامَةِ أَدْرَكَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا صَاحِبَهُ وَاجْتَمَعَا .

وَثَانِيهَا: جُمِعَا فِي ذَهَابِ الضَّوْءِ، فَهُوَ كَمَا يُقَالُ: الشَّافِعِيُّ يَجْمَعُ ما بين كذا وكذا في حكم كذا .

وَثَالِثُهَا: يُجْمَعَانِ أَسْوَدَيْنِ مُكَوَّرَيْنِ كَأَنَّهُمَا ثَوْرَانِ عَقِيرَانِ فِي النَّارِ، وَقِيلَ: يُجْمَعَانِ ثُمَّ يُقْذَفَانِ فِي الْبَحْرِ، فَهُنَاكَ نَارُ اللَّهِ الْكُبْرَىٰ وَاعْلَمْ أَنَّ هَذِهِ الْوُجُوهَ الَّتِي ذَكَرْنَاهَا فِي قَوْلِهِ، وَخَسَفَ الْقَمَرُ وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ إِنَّمَا تَسْتَقِيمُ عَلَىٰ مَذْهَبِ مَنْ يَجْعَلُ بَرْقَ الْبَصَرِ مِنْ عَلَامَاتِ الْقِيَامَةِ، فَأَمَّا مَنْ يَجْعَلُ بَرْقَ الْبَصَرِ مِنْ عَلَامَاتِ الْمَوْتِ قَالَ مَعْنَىٰ: وَخَسَفَ الْقَمَرُ أَيْ ذَهَبَ ضَوْءُ الْبَصَرِ عِنْدَ الْمَوْتِ، يُقَالُ عَيْنٌ خَاسِفَةٌ، إِذَا فُقِئَتْ حَتَّىٰ غَابَتْ حَدَقَتُهَا فِي الرَّأْسِ، وَأَصْلُهَا مِنْ خَسَفَتِ الْأَرْضُ إِذَا سَاخَتْ بِمَا عَلَيْهَا، وَقَوْلُهُ: وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ كِنَايَةٌ عَنْ ذَهَابِ الرُّوحِ إِلَىٰ عَالَمِ الْآخِرَةِ، كَأَنَّ الْآخِرَةَ كَالشَّمْسِ، فَإِنَّهُ يَظْهَرُ فِيهَا الْمُغَيَّبَاتُ وَتَتَّضِحُ فِيهَا الْمُبْهَمَاتُ، وَالرُّوحُ كَالْقَمَرِ فَإِنَّهُ كَمَا أَنَّ الْقَمَرَ يَقْبَلُ النُّورَ مِنَ الشَّمْسِ، فَكَذَا الرُّوحُ تَقْبَلُ نُورَ الْمَعَارِفِ

مِنْ عَالَمِ الْآخِرَةِ، وَلَا شَكَّ أَنَّ تَفْسِيرَ هَذِهِ الْآيَاتِ بِعَلَامَاتِ الْقِيَامَةِ أَوْلَىٰ مِنْ تَفْسِيرِهَا بِعَلَامَاتِ الْمَوْتِ وَأَشَدُّ مُطَابَقَةً لَهَا.

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ: قَالَ الْفَرَّاءُ: إِنَّمَا قَالَ جمعَ، وَلَمْ يَقُلْ: جُمِعَتْ لِأَنَّ الْمُرَادَ أَنَّهُ جُمِعَ بَيْنَهُمَا فِي زَوَالِ النُّورِ وَذَهَابِ الضَّوْءِ، وَقَالَ الْكِسَائِيُّ، الْمَعْنَىٰ جُمِعَ النُّورَانِ أَوِ الضِّيَاءَانِ، وَقَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ، الْقَمَرُ شَارَكَ الشَّمْسَ فِي الْجَمْعِ، وَهُوَ مُذَكَّرٌ، فَلَا جَرَمَ غَلَبَ جَانِبُ التَّذْكِيرِ فِي اللَّفْظِ، قَالَ الْفَرَّاءُ، قُلْتُ: لِمَنْ نَصَرَ هَذَا الْقَوْلَ: كَيْفَ تَقُولُونَ: الشَّمْسُ جُمِعَ وَالْقَمَرُ؟ فَقَالُوا: جُمِعَتْ، فَقُلْتُ مَا الْفَرْقُ بَيْنَ الْمَوْضِعَيْنِ؟ فَرَجَعَ عَنْ هَذَا الْقَوْلِ.

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ: طَعَنَتِ الْمَلَاحِدَةُ فِي الْآيَةِ، وَقَالُوا: خُسُوفُ الْقَمَرِ لَا يَحْصُلُ حَالَ اجْتِمَاعِ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ وَالْجَوَابُ: اللَّهُ تَعَالَىٰ قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يَجْعَلَ الْقَمَرَ مُنْخَسِفًا، سَوَاءٌ كَانَتِ الْأَرْضُ مُتَوَسِّطَةً بَيْنَهُ وَبَيْنَ الشَّمْسِ، أو لم

تَكُنْ، وَالدَّلِيلُ عَلَيْهِ أَنَّ الْأَجْسَامَ مُتَمَاثِلَةٌ، فَيَصِحُّ عَلَىٰ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهَا مَا يَصِحُّ عَلَىٰ الْآخَرِ، وَاللَّهُ قَادِرٌ عَلَىٰ كُلِّ الْمُمْكِنَاتِ، فَوَجَبَ أَنْ يَقْدِرَ عَلَىٰ إِزَالَةِ الضَّوْءِ عَنِ الْقَمَرِ فِي جَمِيعِ الْأَحْوَالِ" .

﴿سُؤالٌ﴾ : مَا هِيَ التَّغَيُّرات وَالأَهْوَال التِي سَتَحْدُثُ لِلْأَرْضِ مَعَ قِيَامِ السَّاعَةِ ؟

الجواب :

(١) تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الأَرْض : قال تعالىٰ : **﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّماواتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْواحِدِ الْقَهَّارِ﴾** [] .

قال الإمام الرَّازي في " التَّفسير" (١٩/ ١١٢) : " فِي الْآيَةِ قَوْلَانِ:

الْقَوْلُ الْأَوَّلُ: أَنَّ الْمُرَادَ تَبْدِيلُ الصِّفَةِ لَا تَبْدِيلُ الذَّاتِ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: هِيَ تِلْكَ الْأَرْضُ إِلَّا أَنَّهَا تَغَيَّرَتْ فِي صِفَاتِهَا، فَتَسِيرُ عَنِ الْأَرْضِ جِبَالُهَا وَتُفَجَّرُ بِحَارُهَا وَتُسَوَّىٰ، فَلَا يُرَىٰ فِيهَا عِوَجٌ وَلَا أَمْتٌ. وَرَوَىٰ أَبُو هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: «يُبَدِّلُ اللَّهُ الْأَرْضَ غَيْرَ الأرض فيبسطها ويمدها مد الأديم العاكظي فَلَا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا"

وَالْقَوْلُ الثَّانِي: أَنَّ الْمُرَادَ تَبْدِيلُ الذَّاتِ. قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ: تُبَدَّلُ بِأَرْضٍ كَالْفِضَّةِ الْبَيْضَاءِ النَّقِيَّةِ لَمْ يُسْفَكْ عَلَيْهَا دَمٌ وَلَمْ تُعْمَلْ عَلَيْهَا خَطِيئَةٌ، فَهَذَا شَرْحُ هَذَيْنِ الْقَوْلَيْنِ، وَمِنَ النَّاسِ مَنْ رَجَّحَ الْقَوْلَ الْأَوَّلَ قَالَ لِأَنَّ قَوْلَهُ: يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ الْمُرَادُ هَذِهِ الْأَرْضُ، وَالتَّبَدُّلُ صِفَةٌ مُضَافَةٌ إِلَيْهَا، وَعِنْدَ حُصُولِ الصِّفَةِ لَا بُدَّ وَأَنْ يَكُونَ الْمَوْصُوفُ مَوْجُودًا، فَلَمَّا كَانَ الْمَوْصُوفُ بِالتَّبَدُّلِ هُوَ هَذِهِ الْأَرْضَ وَجَبَ كَوْنُ هَذِهِ الْأَرْضِ بَاقِيَةً عِنْدَ

حُصُولِ ذَلِكَ التَّبَدُّلِ، وَلَا يُمْكِنُ أَنْ تَكُونَ هَذِهِ الْأَرْضُ بَاقِيَةً مَعَ صِفَاتِهَا عِنْدَ حُصُولِ ذَلِكَ التَّبَدُّلِ، وَإِلَّا لَامْتَنَعَ حُصُولُ التَّبَدُّلِ، فَوَجَبَ أَنْ يَكُونَ الْبَاقِي هُوَ الذَّاتَ. فَثَبَتَ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ تَقْتَضِي كَوْنَ الذَّاتِ بَاقِيَةً، وَالْقَائِلُونَ بِهَذَا الْقَوْلِ هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ: إِنَّ عِنْدَ قِيَامِ الْقِيَـــامَةِ لَا يُعْدِمُ اللَّهُ الذَّوَاتِ وَالْأَجْسَـــامَ، وَإِنَّمَا يُعْدِمُ صِفَاتِهَا وَأَحْوَالَهَا" .

وقال الإمام القرطبي في " الجامع لأحكام القرآن" (٩/ ٣٨٣-٣٨٤) : " واختلف في كيفيَّة تبديل الْأَرْضِ، فَقَالَ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ: إِنَّ تَبَدُّلَ الْأَرْضِ عِبَارَةٌ عَنْ تَغَيُّرِ صِفَاتِهَا، وَتَسْوِيَةِ آكَامِهَا، وَنَسْفِ جِبَالِهَا، وَمَدِّ أَرْضِهَا، وَرَوَاهُ ابْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، خَرَّجَهُ ابْنُ مَاجَهْ فِي سُنَنِهِ (٢/ ١٣٦٥برقم ٤٠٨١) وَذَكَرَهُ ابْنُ الْمُبَارَكِ مِنْ حَدِيثِ شَهْرِ بْنِ حَوْشَبٍ، قَالَ : حَدَّثَنِي ابْنُ عَبَّاسٍ قَالَ: إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ مُدَّتِ الْأَرْضُ مَدَّ الْأَدِيمِ وَزِيدَ فِي سَعَتِهَا كَذَا وَكَذَا، وَذَكَرَ الْحَدِيثَ. وَرُوِيَ مَرْفُوعًا مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال:" تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ فَيَبْسُطُهَا وَيَمُدُّهَا مَدَّ الأديم العكاظي لا ترى فيها عوجا وأمتا ثُمَّ يَزْجُرُ اللَّهُ الْخَلْقَ زَجْرَةً فَإِذَا هُمْ فِي الثَّانِيَةِ فِي مِثْلِ مَوَاضِعِهِمْ مِنَ الْأُولَى مَنْ كَانَ فِي بَطْنِهَا فَفِي بَطْنِهَا وَمَنْ كَانَ عَلَى ظَهْرِهَا كَانَ عَلَى ظَهْرِهَا " ذَكَرَهُ الْغَزْنَوِيُّ...

ذَكَرْنَا هَذَا الْبَابَ مُبَيَّنًا فِي كِتَابِ" التَّذْكِرَةِ" وَذَكَرْنَا مَا لِلْعُلَمَاءِ فِي ذَلِكَ، وَأَنَّ الصَّحِيحَ إِزَالَةُ هَذِهِ الْأَرْضِ حَسَبَ مَا ثَبَتَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

رَوَى مُسْلِمٌ (١/ ٢٥٢ برقم ٣١٥) عَنْ ثَوْبَانَ مَوْلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: كُنْتُ قَائِمًا عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَجَاءَهُ حَبْرٌ مِنْ أَحْبَارِ الْيَهُودِ فَقَالَ: السَّلَامُ عَلَيْكَ، وَذَكَرَ الْحَدِيثَ، وَفِيهِ، فَقَالَ الْيَهُودِيُّ أَيْنَ يَكُونُ النَّاسُ يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الأرض والسَّموات؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:" فِي الظُّلْمَةِ دُونَ الْجِسْرِ" . وَذَكَرَ الْحَدِيثَ.

وَخَرَّجَ (٤/ ٢١٥٠ برقم ٢٧٩١) عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: سُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ قَوْلِهِ:" يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّماواتُ" فَأَيْنَ يَكُونُ النَّاسُ يَوْمَئِذٍ؟ قَالَ" عَلَى الصِّرَاطِ". خَرَّجَهُ ابْنُ مَاجَهْ بِإِسْنَادِ مُسْلِمٍ سَوَاءً، وَخَرَّجَهُ التِّرْمِذِيُّ (٥/ ١٤٧ برقم ٣١٢١) عَنْ عَائِشَةَ وَأَنَّهَا هِيَ السَّائِلَةُ، قَالَ: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صحيح، فهذه الأحاديث تنص على أنَّ السَّموات وَالْأَرْضَ تُبَدَّلُ وَتُزَالُ، وَيَخْلُقُ اللَّهُ أَرْضًا أُخْرَى يَكُونُ النَّاسُ عَلَيْهَا بَعْدَ كَوْنِهِمْ عَلَى الْجِسْرِ. وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ (٤/ ٢١٥٠ برقم ٢٧٩٠) عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:" يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى أَرْضٍ بَيْضَاءَ عَفْرَاءَ كَقُرْصَةِ النَّقِيِّ لَيْسَ فِيهَا عَلَمٌ لِأَحَدٍ". وَقَالَ جَابِرٌ: سَأَلْتُ أَبَا جَعْفَرٍ مُحَمَّدَ بْنَ عَلِيٍّ عَنْ قَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ:" يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ

غَيْرَ الْأَرْضِ " قَالَ تُبَدَّلُ خُبْزَةً يَأْكُلُ مِنْهَا الْخَلْقُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، ثُمَّ قَرَأَ:" وما جَعَلْناهُمْ جَسَداً لا يَأْكُلُونَ الطَّعامَ ". وَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ: إِنَّهَا تُبَدَّلُ بِأَرْضٍ غَيْرِهَا بيضاء لَمْ يُعْمَلْ عَلَيْهَا خَطِيئَةٌ. وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: بِأَرْضٍ مِنْ فِضَّةٍ بَيْضَاءَ. وَقَالَ عَلِيٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: تُبَدَّلُ الْأَرْضُ يَوْمئِذٍ مِنْ فِضَّةٍ وَالسَّمَاءُ مِنْ ذَهَبٍ وَهَذَا تَبْدِيلٌ لِلْعَيْنِ، وَحَسْبُكَ."

(٢) دَكْدَكَةُ الأَرْض: قال تعالى : **﴿كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكّاً دَكّاً﴾** [] .

قال الإمام الرَّازي في "التَّفسير" (٣١/١٥٨-١٥٩) : " اعْلَمْ أَنَّ قَوْلَهُ: كَلَّا رَدْعٌ لَهُمْ عَنْ ذَلِكَ وَإِنْكَارٌ لِفِعْلِهِمْ أَيْ لَا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ الْأَمْرُ هَكَذَا فِي الْحِرْصِ عَلَى الدُّنْيَا وَقَصْرِ الْهِمَّةِ وَالْجِهَادِ عَلَى تَحْصِيلِهَا وَالِاتِّكَالِ عَلَيْهَا وَتَرْكِ الْمُوَاسَاةِ مِنْهَا وَجَمْعِهَا مِنْ حَيْثُ تَتَهَيَّأُ مِنْ حِلٍّ أَوْ حَرَامٍ، وَتَوَهَّمَ أَنْ لَا حِسَابَ وَلَا جَزَاءَ. فَإِنَّ مَنْ كَانَ هَذَا حَالَهُ يَنْدَمُ حِينَ لَا تَنْفَعُهُ النَّدَامَةُ وَيَتَمَنَّى أَنْ لَوْ كَانَ أَفْنَى عُمْرَهُ فِي التَّقَرُّبِ بِالْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ وَالْمُوَاسَاةِ مِنَ الْمَالِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، ثُمَّ بَيَّنَ أَنَّهُ إِذَا جَاءَ يَوْمٌ مَوْصُوفٌ بِصِفَاتٍ ثَلَاثَةٍ فَإِنَّهُ يَحْصُلُ ذَلِكَ التَّمَنِّي وَتِلْكَ النَّدَامَةُ.

الصِّفَةُ الْأُولَى: مِنْ صِفَاتِ ذَلِكَ الْيَوْمِ قَوْلُهُ: **﴿إِذا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا﴾** ، قَالَ الْخَلِيلُ: الدَّكُّ كَسْرُ الْحَائِطِ وَالْجَبَلِ وَالدَّكْدَاكُ رَمْلٌ مُتَلَبِّدٌ، وَرَجُلٌ مِدَكٌّ شَدِيدُ الْوَطْءِ عَلَى الْأَرْضِ، وَقَالَ الْمُبَرِّدُ: الدَّكُّ حَطُّ الْمُرْتَفِعِ بِالْبَسْطِ وَانْدَكَّ سَنَامُ الْبَعِيرِ إِذَا انْفَرَشَ فِي ظَهْرِهِ، وَنَاقَةٌ دَكَّاءُ إِذَا كَانَتْ كَذَلِكَ وَمِنْهُ الدُّكَّانُ لِاسْتِوَائِهِ فِي الِانْفِرَاشِ، فَمَعْنَى الدَّكِّ عَلَى قَوْلِ الْخَلِيلِ: كَسْرُ كُلِّ شَيْءٍ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ مِنْ جَبَلٍ أَوْ شَجَرٍ حِينَ زُلْزِلَتْ فَلَمْ يَبْقَ عَلَى ظَهْرِهَا شَيْءٌ، وَعَلَى قَوْلِ الْمُبَرِّدِ: مَعْنَاهُ أَنَّهَا اسْتَوَتْ فِي الِانْفِرَاشِ فَذَهَبَتْ دُورُهَا وَقُصُورُهَا وسائر أبنيتها حتى تصير كالصحرة الْمَلْسَاءِ، وَهَذَا مَعْنَى قَوْلِ ابْنِ عَبَّاسٍ: تُمَدُّ الْأَرْضُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

وَاعْلَمْ أَنَّ التَّكْرَارَ فِي قَوْلِهِ: **﴿دَكًّا دَكًّا﴾** ، مَعْنَاهُ دَكًّا بَعْدَ دَكٍّ كَقَوْلِكَ حَسِبْتُهُ بَابًا بَابًا وَعَلِمْتُهُ حَرْفًا حَرْفًا ، أَيْ : كُرِّرَ عَلَيْهَا الدَّكُّ حَتَّى صَارَتْ هَبَاءً مَنْثُورًا. وَاعْلَمْ أَنَّ هَذَا التَّدَكْدُكَ لَا بُدَّ وَأَنْ يَكُونَ مُتَأَخِّرًا عَنِ الزَّلْزَلَةِ، فَإِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زَلْزَلَةً بَعْدَ زَلْزَلَةٍ وَحُرِّكَتْ تَحْرِيكًا بَعْدَ تَحْرِيكٍ انْكَسَرَتِ الْجِبَالُ الَّتِي عَلَيْهَا وَانْهَدَمَتِ التِّلَالُ وَامْتَلَأَتِ الْأَغْوَارُ وَصَارَتْ مَلْسَاءَ، وَذَلِكَ عِنْدَ انْقِضَاضِ الدُّنْيَا ، وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: **﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ﴾** [النَّازِعَاتِ: ٦- ٧] ، وَقَالَ : **﴿وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبالُ فَدُكَّتا دَكَّةً واحِدَةً﴾** [الْحَاقَّةِ: ١٤] ، وَقَالَ: **﴿إِذا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا * وَبُسَّتِ الْجِبالُ بَسًّا﴾** [الْوَاقِعَةِ: ٤-٥] .

وقال الإمام القرطبي في " الجامع لأحكام القرآن" (٢٠/ ٥٤-٥٦) : " قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿كَلَّا﴾ ، أَيْ : مَا هَكَذَا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ الْأَمْرُ. فَهُوَ رَدٌّ لِانْكِبَابِهِمْ عَلَى الدُّنْيَا، وَجَمْعِهِمْ لَهَا، فَإِنَّ مَنْ فَعَلَ ذَلِكَ يَنْدَمُ يوم تدك الأرض، يَنْفَعُ النَّدَمُ. وَالدَّكُّ: الْكَسْرُ وَالدَّقُّ، وَقَدْ تَقَدَّمَ. أَيْ : زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ، وَحُرِّكَتْ تَحْرِيكًا بَعْدَ تَحْرِيكٍ. وَقَالَ الزَّجَّاجُ: أَيْ زُلْزِلَتْ فَدَكَّ بَعْضُهَا بَعْضًا. وَقَالَ الْمُبَرِّدُ: أَيْ أُلْصِقَتْ وَذَهَبَ ارْتِفَاعُهَا. يُقَالُ نَاقَةٌ: دَكَّاءُ، أَيْ لَا سَنَامَ لَهَا، وَالْجَمْعُ دُكٌّ. وَقَدْ مَضَىٰ فِي سُورَةِ" الْأَعْرَافِ" وَ" الْحَاقَّةِ" الْقَوْلُ فِي هَذَا. وَيَقُولُونَ: دَكَّ الشَّيْءَ أَيْ هَدَمَ. قَالَ:

هَلْ غَيْرُ غَارٍ دَكَّ غارا فانهدم

﴿دَكًّا دَكًّا﴾ ، أَيْ : مَرَّةً بَعْدَ مَرَّةٍ، زُلْزِلَتْ فكسر بعضها بعضاً، فتكسر كلُّ شيء عَلَىٰ ظَهْرِهَا. وَقِيلَ: دُكَّتْ جِبَالُهَا وَأَنْشَازُهَا حَتَّىٰ اسْتَوَتْ. وَقِيلَ: دُكَّتْ أَيِ اسْتَوَتْ فِي الِانْفِرَاشِ، فَذَهَبَ دُورُهَا وَقُصُورُهَا وَجِبَالُهَا وَسَائِرُ أَبْنِيَتِهَا. وَمِنْهُ سُمِّيَ الدُّكَّانُ، لِاسْتِوَائِهِ فِي الِانْفِرَاشِ. وَالدَّكُّ: حَطُّ المرتفع من الأرض بالبسط، وَهُوَ مَعْنَىٰ قَوْلِ ابْنِ مَسْعُودٍ وَابْنِ عَبَّاسٍ: تمد الأرض مد الأديم" .

(٣) رَجَفَانُ الأَرْض : قال تعالىٰ : ﴿**يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبالُ وَكانَتِ الْجِبالُ كَثِيباً مَهِيلاً**﴾ [] .

قال الإمام الرَّازي في " التَّفسير" (٣٠/ ٦٩٠) في كلامه علىٰ الآية الكريمة : " وَفِيهِ مَسَائِلُ:

الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى: قَالَ الزَّجَّاجُ: يَوْمَ مَنْصُوبٌ بِقَوْلِ: إِنَّ لَدَيْنا أَنْكالًا وَجَحِيماً [المزمل: ١٢] أَيْ نُنَكِّلُ بِالْكَافِرِينَ وَنُعَذِّبُهُمْ يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ.

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ: الرَّجْفَةُ الزَّلْزَلَةُ وَالزَّعْزَعَةُ الشَّدِيدَةُ، وَالْكَثِيبُ الْقِطْعَةُ الْعَظِيمَةُ مِنَ الرَّمْلِ تَجْتَمِعُ مُحْدَوْدِبَةً وَجَمْعُهُ الْكُثْبَانُ، وَفِي كَيْفِيَّةِ الِاشْتِقَاقِ قَوْلَانِ:

أَحَدُهُمَا: أَنَّهُ مِنْ كَثَبَ الشَّيْءَ إِذَا جَمَعَهُ كَأَنَّهُ فَعِيلٌ بِمَعْنَىٰ مَفْعُولٍ .

وَالثَّانِي: قَالَ اللَّيْثُ: الْكَثِيبُ نَثْرُ التُّرَابِ أَوِ الشَّيْءِ يُرْمَىٰ بِهِ، وَالْفِعْلُ اللَّازِمُ انْكَثَبَ يَنْكَثِبُ انْكِثَابًا، وَسُمِّيَ الْكَثِيبُ كَثِيبًا، لِأَنَّ تُرَابَهُ دِقَاقٌ، كَأَنَّهُ مَكْثُوبٌ مَنْثُورٌ بَعْضُهُ عَلَىٰ بَعْضٍ لِرَخَاوَتِهِ، وَقَوْلُهُ: مَهِيلًا أَيْ سَائِلًا قَدْ أُسِيلُ، يُقَالُ: تُرَابٌ مَهِيلٌ وَمَهْيُولٌ ، أَيْ : مَصْبُوبٌ وَمَسِيلٌ الْأَكْثَرُ فِي اللُّغَةِ مَهِيلٌ، وَهُوَ مِثْلُ قَوْلِكَ مَكِيلٌ وَمَكْيُولٌ، وَمَدِينٌ وَمَدْيُونٌ، وَذَلِكَ أَنَّ الْيَاءَ تُحْذَفُ مِنْهُ الضَّمَّةُ فَتَسْكُنُ، وَالْوَاوُ أَيْضًا سَاكِنَةٌ، فَتُحْذَفُ الْوَاوُ لِالْتِقَاءِ السَّاكِنَيْنِ ذَكَرَهُ الْفَرَّاءُ وَالزَّجَّاجُ، وَإِذَا عَرَفْتَ هَذَا فَنَقُولُ: إِنَّهُ تَعَالَى يُفَرِّقُ تَرْكِيبَ أَجْزَاءِ الْجِبَالِ وَيَنْسِفُهَا نَسْفًا وَيَجْعَلُهَا كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ، فَعِنْدَ ذَلِكَ تَصِيرُ كَالْكَثِيبِ، ثُمَّ إِنَّهُ تَعَالَى يُحَرِّكُهَا عَلَىٰ مَا قَالَ: ﴿**وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبالَ**﴾ [الْكَهْفِ: ٤٧] ، وَقَالَ: ﴿**وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحابِ**﴾ [النَّمْلِ: ٨٨] ، وَقَالَ: ﴿**وَسُيِّرَتِ الْجِبالُ**﴾

[النَّبَأ: ٢٠] فَعِنْدَ ذَلِكَ تَصِيرُ مَهِيلًا، فَإِنْ قِيلَ لِمَ لَمْ يَقُلْ: وَكَانَتِ الْجِبَالُ كُثْبَانًا مَهِيلَةً؟ قُلْنَا: لِأَنَّهَا بأسرها تجتمع فتصير كثيبا واحدا مهيلاً " .

وقال تعالىٰ : ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ * تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ﴾ [] .

قال الإمام الرَّازي في التَّفسير" (٣١/ ٣٤-٣٧) في كلامه علىٰ الآية الكريمة : " ... الرَّجْفَةُ فِي اللُّغَةِ تَحْتَمِلُ وَجْهَيْنِ :

أَحَدُهُمَا: الْحَرَكَةُ لِقَوْلِهِ: ﴿**يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبالُ**﴾ [الْمُزَّمِّل: ١٤] .

الثَّانِي: الْهَدَّةُ الْمُنْكَرَةُ وَالصَّوْتُ الْهَائِلُ مِنْ قَوْلِهِمْ: رَجَفَ الرَّعْدُ يَرْجُفُ رَجْفًا وَرَجِيفًا، وَذَلِكَ تَرَدُّدُ أَصْوَاتِهِ الْمُنْكَرَةِ وَهَدْهَدَتُهُ فِي السَّحَابِ، وَمِنْهُ قوله تعالىٰ: ﴿**فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ**﴾ [الأعراف: ٩١] فَعَلَىٰ هَذَا الْوَجْهِ الرَّاجِفَةُ صَيْحَةٌ عَظِيمَةٌ فِيهَا هَوْلٌ وَشِدَّةٌ كَالرَّعْدِ، وَأَمَّا الرَّادِفَةُ فَكُلُّ شَيْءٍ جَاءَ بَعْدَ شَيْءٍ آخَرَ يُقَالُ رَدِفَهُ، أَيْ جَاءَ بَعْدَهُ، وَأَمَّا الْقُلُوبُ الْوَاجِفَةُ فَهِيَ الْمُضْطَرِبَةُ الْخَائِفَةُ، يُقَالُ: وَجَفَ قَلْبُهُ يَجِفُ وِجَافًا إِذَا اضْطَرَبَ، وَمِنْهُ إِيجَافُ الدَّابَّةِ، وَحَمْلُهَا عَلَى السَّيْرِ الشَّدِيدِ، وَلِلْمُفَسِّرِينَ عِبَارَاتٌ كَثِيرَةٌ فِي تَفْسِيرِ الْوَاجِفَةِ وَمَعْنَاهَا وَاحِدٌ، قَالُوا: خَائِفَةٌ وَجِلَةٌ زَائِدَةٌ عَنْ أَمَاكِنِهَا قَلِقَةٌ مُسْتَوْفِزَةٌ مُرْتَكِضَةٌ شَدِيدَةُ الِاضْطِرَابِ غَيْرُ سَاكِنَةٍ، أَبْصارُ أَهْلِهَا خَاشِعَةٌ، وَهُوَ كَقَوْلِهِ: ﴿**خاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ**﴾ [الشُّورَىٰ: ٤٥] إِذَا عَرَفْتَ هَذَا فَنَقُولُ، اتَّفَقَ جُمْهُورُ الْمُفَسِّرِينَ عَلَىٰ أَنَّ هَذِهِ الْأُمُورَ أَحْوَالُ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَزَعَمَ أَبُو مُسْلِمٍ الْأَصْفَهَانِيُّ أَنَّهُ لَيْسَ كَذَلِكَ وَنَحْنُ نَذْكُرُ تَفَاسِيرَ الْمُفَسِّرِينَ ثُمَّ نَشْرَحُ قَوْلَ أَبِي مُسْلِمٍ.

أَمَّا الْقَوْلُ الْأَوَّلُ: وَهُوَ الْمَشْهُورُ بَيْنَ الْجُمْهُورِ، أَنَّ هَذِهِ الْأَحْوَالَ أَحْوَالُ يَوْمِ الْقِيَامَةِ فَهَؤُلَاءِ ذَكَرُوا وُجُوهًا : **أَحَدُهَا**: أَنَّ الرَّاجِفَةَ هِيَ النَّفْخَةُ الْأُولَىٰ، وَسُمِّيَتْ بِهِ إِمَّا لِأَنَّ الدُّنْيَا تَتَزَلْزَلُ وَتَضْطَرِبُ عِنْدَهَا، وَإِمَّا لِأَنَّ صَوْتَ تِلْكَ النَّفْخَةِ هِيَ الرَّاجِفَةُ، كَمَا بَيَّنَّا الْقَوْلَ فِيهِ، وَالرَّاجِفَةُ رَجْفَةٌ أُخْرَىٰ تَتْبَعُ الْأُولَىٰ فَتَضْطَرِبُ الْأَرْضُ لِإِحْيَاءِ الْمَوْتَىٰ كَمَا اضْطَرَبَتْ فِي الْأُولَىٰ لِمَوْتِ الْأَحْيَاءِ عَلَىٰ مَا ذَكَرَهُ تَعَالَىٰ فِي سُورَةِ الزُّمَرِ، ثُمَّ

يُرْوَىٰ عَنِ الرَّسُولِ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّ بَيْنَ النَّفْخَتَيْنِ أَرْبَعِينَ عَامًا، وَيُرْوَىٰ فِي هَذِهِ الْأَرْبَعِينَ يُمْطِرُ اللَّهُ الْأَرْضَ وَيَصِيرُ ذَلِكَ الْمَاءُ عَلَيْهَا كَالنُّطَفِ، وَأَنَّ ذَلِكَ كَالسَّبَبِ لِلْأَحْيَاءِ، وَهَذَا مِمَّا لَا حَاجَةَ إِلَيْهِ فِي الْإِعَادَةِ، وَلِلَّهِ أَنْ يَفْعَلَ مَا يَشَاءُ، وَيَحْكُمَ مَا يُرِيدُ

وَثَانِيهَا: الرَّاجِفَةُ هِيَ النَّفْخَةُ الْأُولَىٰ وَالرَّادِفَةُ هِيَ قِيَامُ السَّاعَةِ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿**عَسى أَنْ يَكُونَ رَدِفَ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ**﴾ [النَّمل: ٧٢] ، أَي : الْقِيَامَةُ الَّتِي يَسْتَعْجِلُهَا الْكَفَرَةُ اسْتِبْعَادًا لَهَا فَهِيَ رَادِفَةٌ لَهُمْ لِاقْتِرَابِهَا .

وَثَالِثُهَا: الرَّاجِفَةُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ مِنْ قَوْلِهِ: يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبالُ وَالرَّادِفَةُ السَّمَاءُ وَالْكَوَاكِبُ لِأَنَّهَا تَنْشَقُّ وَتَنْتَثِرُ كَوَاكِبُهَا عَلَىٰ أَثَرِ ذَلِكَ .

وَرَابِعُهَا: الرَّاجِفَةُ هِيَ الْأَرْضُ تَتَحَرَّكُ وَتَتَزَلْزَلُ وَالرَّادِفَةُ زَلْزَلَةٌ ثَانِيَةٌ تَتْبَعُ الْأُولَىٰ حَتَّىٰ تَنْقَطِعَ الْأَرْضُ وَتَفْنَىٰ ... " .

﴿سُؤالٌ﴾ : مَا هِيَ التَّغَيُّرات وَالأَهْوَال التِي سَتَحْدُثُ لِلْجِبَال مَعَ قِيَامِ السَّاعَةِ ؟

(١) **رَجَفَانُ الجِبَال**: قال تعالىٰ : **﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبالُ وَكانَتِ الْجِبالُ كَثِيباً مَهِيلاً﴾** [] .

(٢) **نَسْفُ الجِبَال** قال تعالىٰ : **﴿وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الْجِبالِ فَقُلْ يَنْسِفُها رَبِّي نَسْفاً * فَيَذَرُها قاعًا صَفْصَفاً * لا تَرى فِيها عِوَجاً وَلا أَمْتاً﴾** [طه:١٠٥-١٠٧] .

قال الإمام الرَّازي في " التَّفسير" (٢٢/ ١٠٠-١٠١) : " اعْلَمْ أَنَّهُ تَعَالَىٰ لَمَّا وَصَفَ أَمْرَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ حَكَىٰ سُؤَالَ مَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِالْحَشْرِ فقال: **﴿وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الْجِبالِ﴾** ، وَفِي تَقْرِيرِ هَذَا السُّؤَالِ وُجُوهٌ :

أَحَدُهَا: أَنَّ قوله: **﴿يَتَخافَتُونَ﴾** [طه: ١٠٣] وَصْفٌ مِنَ اللَّه تَعَالَىٰ لِكُلِّ الْمُجْرِمِينَ بِذَلِكَ، فَكَأَنَّهُمْ قَالُوا: كَيْفَ يَصِحُّ ذَلِكَ وَالْجِبَالُ حَائِلَةٌ وَمَانِعَةٌ مِنْ هَذَا التَّخَافُتِ .

وَثَانِيهَا: قَالَ الضَّحَّاكُ: نَزَلَتْ فِي مُشْرِكِي مَكَّةَ قَالُوا: يَا مُحَمَّدُ كَيْفَ تَكُونُ الْجِبَالُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ وَكَانَ سُؤَالُهُمْ عَلَىٰ سَبِيلِ الِاسْتِهْزَاءِ. وَثَالِثُهَا: لَعَلَّ قَوْمَهُ قَالُوا: يَا مُحَمَّدُ إِنَّكَ تَدَّعِي أَنَّ الدُّنْيَا سَتَنْقَضِي فَلَوْ صَحَّ مَا قُلْتَهُ لَوَجَبَ أَنْ تَبْتَدِئَ أَوَّلًا بِالنُّقْصَانِ ثُمَّ تَنْتَهِيَ إِلَىٰ الْبُطْلَانِ، لَكِنَّ أَحْوَالَ الْعَالَمِ بَاقِيَةٌ كَمَا كَانَتْ فِي أَوَّلِ الْأَمْرِ، فَكَيْفَ يَصِحُّ مَا قُلْتَهُ مِنْ خَرَابِ الدُّنْيَا؟ وَهَذِهِ شُبْهَةٌ تَمَسَّكَ بِهَا جَالِينُوسُ فِي أن السموات لا تفنىٰ، قال: لأنها لو فنيت لَابْتَدَأَتْ فِي النُّقْصَانِ أَوَّلًا حَتَّىٰ يَنْتَهِيَ نُقْصَانُهَا إِلَىٰ الْبُطْلَانِ، فَلَمَّا لَمْ يَظْهَرْ فِيهَا النُّقْصَانُ عَلِمْنَا أَنَّ الْقَوْلَ بِالْبُطْلَانِ بَاطِلٌ، ثُمَّ أَمَرَ اللَّه تَعَالَىٰ رَسُولَهُ بِالْجَوَابِ عَنْ هَذَا السُّؤَالِ وَضَمَّ إِلَىٰ الْجَوَابِ أُمُورًا أُخَرَ فِي شَرْحِ أَحْوَالِ الْقِيَامَةِ وَأَهْوَالِهَا.

الصِّفَةُ الْأُولَى: قَوْلُهُ: **﴿فَقُلْ يَنْسِفُها رَبِّي نَسْفاً﴾** ، وَفِيهِ مَسَائِلُ:

الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى: إِنَّمَا قَالَ: **﴿فَقُلْ﴾** مَعَ فَاءِ التَّعْقِيبِ لِأَنَّ مَقْصُودَهُمْ مِنْ هَذَا السُّؤَالِ الطَّعْنُ فِي الْحَشْرِ وَالنَّشْرِ، فَلَا جَرَمَ أَمَرَهُ بِالْجَوَابِ مَقْرُونًا بِفَاءِ التَّعْقِيبِ. لِأَنَّ تَأْخِيرَ الْبَيَانِ فِي مِثْلِ هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ الْأُصُولِيَّةِ غَيْرُ جَائِزٍ، أَمَّا فِي الْمَسَائِلِ الفروعية فجائزة، لِذَلِكَ ذَكَرَ هُنَاكَ قُلْ مِنْ غَيْرِ حَرْفِ التَّعْقِيبِ.

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ: الضَّمِيرُ فِي قَوْلِهِ: **﴿يَنْسِفُها﴾** عَائِدٌ إِلَىٰ الْجِبَالِ وَالنَّسْفُ التَّذْرِيَةُ، أَيْ تَصِيرُ الْجِبَالُ كَالْهَبَاءِ الْمَنْثُورِ تُذْرَىٰ تَذْرِيَةً فَإِذَا زَالَتِ الجبال الْحَوَائِلُ فَيُعْلَمُ صِدْقُ قَوْلِهِ: **﴿يَتَخافَتُونَ﴾** ، قَالَ الْخَلِيلُ: **﴿يَنْسِفُها﴾**

، أَيْ يُذْهِبُهَا وَيُطَيِّرُهَا، أَمَّا الضَّمِيرُ فِي قَوْلِهِ: **﴿فَيَذَرُها﴾** فَهُوَ عَائِدٌ إِلَىٰ الْأَرْضِ فَاسْتَغْنَىٰ عَنْ تَقْدِيمِ ذِكْرِهَا كَمَا فِي عَادَةِ النَّاسِ مِنَ الْإِخْبَارِ عَنْهَا بِالْإِضْمَارِ كَقَوْلِهِمْ: مَا عَلَيْهَا أَكْرَمُ مِنْ فُلَانٍ وَقَالَ تَعَالَىٰ: **﴿مَا تَرَكَ عَلى ظَهْرِها مِنْ دَابَّةٍ﴾**، وَإِنَّمَا قَالَ: **﴿فَيَذَرُها قَاعًا صَفْصَفاً﴾** لِيُبَيِّنَ أَنَّ ذَلِكَ النَّسْفَ لَا يُزِيلُ الِاسْتِوَاءَ لِئَلَّا يُقَدَّرَ أَنَّهَا لَمَّا زَالَتْ مِنْ مَوْضِعٍ إِلَىٰ مَوْضِعٍ آخَرَ صَارَتْ هُنَاكَ حَائِلَةً، هَذَا كُلُّهُ إِذَا كَانَ الْمَقْصُودُ مِنْ سُؤَالِهِمُ الِاعْتِرَاضَ عَلَىٰ كَيْفِيَّةِ الْمُخَافَتَةِ، أَمَّا لَوْ كَانَ الْغَرَضُ مِنَ السُّؤَالِ مَا ذَكَرْنَا مِنْ أَنَّهُ لَا نُقْصَانَ فِيهَا فِي الْحَالِ فَوَجَبَ أَنْ لَا يَنْتَهِيَ أَمْرُهَا إِلَىٰ الْبُطْلَانِ، كَانَ تَقْرِيرُ الْجَوَابِ: أَنَّ بُطْلَانَ الشَّيْءِ قَدْ يَكُونُ بُطْلَانًا يَقَعُ تَوْلِيدِيًّا، فَحِينَئِذٍ يَجِبُ تَقْدِيمُ النُّقْصَانِ عَلَىٰ الْبُطْلَانِ، وَقَدْ يَكُونُ بطلاناً يقع دفعة واحدة، وهاهنا لَا يَجِبُ تَقْدِيمُ النُّقْصَانِ عَلَىٰ الْبُطْلَانِ، فَبَيَّنَ اللَّه تَعَالَىٰ أَنَّهُ يُفَرِّقُ تَرْكِيبَاتِ هَذَا الْعَالَمِ الجسماني دفعة بقدرته ومشيئته فلا حاجة هاهنا إِلَىٰ تَقْدِيمِ النُّقْصَانِ عَلَىٰ الْبُطْلَانِ.

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ: أَنَّهُ تَعَالَىٰ وَصَفَ الْأَرْضَ ذَلِكَ الْوَقْتَ بِصِفَاتٍ :

أَحَدُهَا: كَوْنُهَا قَاعًا وَهُوَ الْمَكَانُ الْمُطْمَئِنُّ وَقِيلَ مُسْتَنْقَعُ الْمَاءِ.

وَثَانِيهَا: الصَّفْصَفُ وَهُوَ الَّذِي لَا نَبَاتَ عَلَيْهِ. وَقَالَ أَبُو مُسْلِمٍ: الْقَاعُ الْأَرْضُ الْمَلْسَاءُ الْمُسْتَوِيَةُ وَكَذَلِكَ الصَّفْصَفُ.

وَثَالِثُهَا: قَوْلِهِ: **﴿لا تَرى فِيها عِوَجاً وَلا أَمْتاً﴾**، وَقَالَ صَاحِبُ «الْكَشَّافِ» : قَدْ فَرَّقُوا بَيْنَ الْعِوَجِ وَالْعَوَجِ فَقَالُوا: الْعِوَجُ بِالْكَسْرِ فِي الْمَعَانِي وَالْعَوَجُ بِالْفَتْحِ فِي الْأَعْيَانِ، فَإِنْ قِيلَ: الْأَرْضُ عَيْنٌ فَكَيْفَ صَحَّ فِيهَا الْمَكْسُورُ الْعَيْنِ؟ قُلْنَا: اخْتِيَارُ هَذَا اللَّفْظِ لَهُ مَوْقِعٌ بَدِيعٌ فِي وَصْفِ الْأَرْضِ بِالِاسْتِوَاءِ وَنَفْيِ الِاعْوِجَاجِ، وَذَلِكَ لِأَنَّكَ لَوْ عَمَدْتَ إِلَىٰ قِطْعَةِ/ أَرْضٍ فَسَوَّيْتَهَا وَبَالَغْتَ فِي التَّسْوِيَةِ فَإِذَا قَابَلْتَهَا الْمَقَايِيسَ الْهَنْدَسِيَّةَ وَجَدْتَ فِيهَا أَنْوَاعًا مِنَ الْعِوَجِ خَارِجَةً عَنِ الْحِسِّ الْبَصَرِيِّ قَالَ فَذَاكَ الْقَدْرُ فِي الِاعْوِجَاجِ لَمَّا لَطُفَ جِدًّا أُلْحِقَ بِالْمَعَانِي فَقِيلَ فِيهِ: عِوَجٌ بِالْكَسْرِ، وَاعْلَمْ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ تَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّ الْأَرْضَ تَكُونُ ذَلِكَ الْيَوْمَ كُرَةً حَقِيقِيَّةً لِأَنَّ الْمُضَلَّعَ لَا بُدَّ وَأَنْ يَتَّصِلَ بَعْضُ سُطُوحِهِ بِالْبَعْضِ لَا عَلَىٰ الِاسْتِقَامَةِ بَلْ عَلَىٰ الِاعْوِجَاجِ وَذَلِكَ يُبْطِلُهُ ظَاهِرُ الْآيَةِ. وَرَابِعُهَا: الْأَمْتُ النُّتُوءُ الْيَسِيرُ، يُقَالُ: مَدَّ حَبْلَهُ حَتَّىٰ مَا فِيهِ أَمْتٌ وَتَحَصَّلَ مِنْ هَذِهِ الصِّفَاتِ الْأَرْبَعِ أَنَّ الْأَرْضَ تَكُونُ ذَلِكَ الْيَوْمَ مَلْسَاءَ خَالِيَةً عَنِ الِارْتِفَاعِ وَالِانْخِفَاضِ وَأَنْوَاعِ الِانْحِرَافِ وَالِاعْوِجَاجِ"

.

وقال الإمام القرطبي في " الجامع لأحكام القرآن " (١١/ ٢٤٥-٢٤٦) : " قوله تعالىٰ: **﴿وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الْجِبالِ﴾**، أَيْ : عَنْ حَالِ الْجِبَالِ يَوْمَ القيامة. **﴿فَقُلْ﴾** فقد جاءَ هَذَا بِفَاءٍ وَكُلُّ سُؤَالٍ فِي الْقُرْآنِ" قُلْ" بِغَيْرِ

فَاءٍ إِلَّا هَذَا، لِأَنَّ الْمَعْنَى إِنْ سَأَلُوكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ، فَتَضَمَّنَ الْكَلَامُ مَعْنَى الشَّرْطِ. وَقَدْ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّهُمْ يَسْأَلُونَهُ عَنْهَا، فَأَجَابَهُمْ قَبْلَ السُّؤَالِ، وَتِلْكَ أَسْئِلَةٌ تَقَدَّمَتْ سَأَلُوا عَنْهَا النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَجَاءَ الْجَوَابُ عَقِبَ السُّؤَالِ، فَلِذَلِكَ كَانَ بِغَيْرِ فَاءٍ، وَهَذَا سُؤَالٌ لَمْ يَسْأَلُوهُ عَنْهُ بَعْدُ، فَتَفَهَّمْهُ. **﴿نسِفُها﴾** يُطَيِّرُهَا. **﴿نَسْفاً﴾** ، قَالَ ابْنُ الْأَعْرَابِيِّ وَغَيْرُهُ: يَقْلَعُهَا قَلْعًا مِنْ أُصُولِهَا ثُمَّ يُصَيِّرُهَا رَمْلًا يَسِيلُ سَيْلًا، ثُمَّ يُصَيِّرُهَا كَالصُّوفِ الْمَنْفُوشِ تُطَيِّرُهَا الرِّيَاحُ هَكَذَا وَهَكَذَا. قَالَ: وَلَا يَكُونُ الْعِهْنُ مِنَ الصُّوفِ إِلَّا الْمَصْبُوغَ، ثُمَّ كَالْهَبَاءِ الْمَنْثُورِ. **﴿فَيَذَرُها﴾** : أَيْ يَذَرُ مَوَاضِعَهَا **﴿قاعًا صَفْصَفاً﴾** القاع الأرض الملساء بِلَا نَبَاتٍ وَلَا بِنَاءٍ ، قَالَهُ ابْنُ الْأَعْرَابِيِّ. وَقَالَ الْجَوْهَرِيُّ: وَالْقَاعُ الْمُسْتَوِي مِنَ الْأَرْضِ وَالْجَمْعُ أَقْوُعٌ وَأَقْوَاعٌ وَقِيعَانٌ صَارَتِ الْوَاوُ يَاءً لِكَسْرِ مَا قَبْلَهَا. وَقَالَ الْفَرَّاءُ: الْقَاعُ مُسْتَنْقَعُ الْمَاءِ وَالصَّفْصَفُ الْقَرْعَاءُ. الْكَلْبِيُّ: هُوَ الَّذِي لَا نَبَاتَ فِيهِ. وَقِيلَ: الْمُسْتَوِي مِنَ الْأَرْضِ كَأَنَّهُ عَلَى صَفٍّ وَاحِدٍ فِي اسْتِوَائِهِ، قَالَهُ مُجَاهِدٌ. وَالْمَعْنَى وَاحِدٌ فِي الْقَاعِ وَالصَّفْصَفِ، فَالْقَاعُ الْمَوْضِعُ الْمُنْكَشِفُ، والصفصف المستوي الأملس. وأنشد سيبويه :

وَكَمْ دُونَ بَيْتِكَ مِنْ صَفْصَفٍ وَدَكْدَاكِ رَمْلٍ وأعقادها

و**﴿قاعَاً﴾** نُصِبَ عَلَى الْحَالِ وَالصَّفْصَفُ. **﴿لا تَرَى﴾** فِي مَوْضِعِ الصِّفَةِ. **﴿فِيها عِوَجاً﴾** ، قَالَ ابْنُ الْأَعْرَابِيِّ: الْعِوَجُ التَّعَوُّجُ فِي الْفِجَاجِ. وَالْأَمْتُ النَّبَكُ. وَقَالَ أَبُو عَمْرٍو: الْأَمْتُ النِّبَاكُ وَهِيَ التِّلَالُ الصِّغَارُ وَاحِدُهَا نَبَكٌ، أَيْ هِيَ أَرْضٌ مُسْتَوِيَةٌ لَا انْخِفَاضَ فِيهَا وَلَا ارْتِفَاعَ. تَقُولُ: امْتَلَأَ فَمَا به أمت، وملأت القربة مليا لَا أَمْتَ فِيهِ، أَيْ لَا اسْتِرْخَاءَ فِيهِ. وَالْأَمْتُ فِي اللُّغَةِ الْمَكَانُ الْمُرْتَفِعُ. وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: **﴿عِوَجًا﴾** مَيْلًا. قَالَ: وَالْأَمْتُ الْأَثَرُ مِثْلُ الشراك. وعنه أَيْضًا **﴿عِوَجاً﴾** وَادِيًا **﴿وَلا أَمْتاً﴾** رَابِيَةً. وَعَنْهُ أيضاً: العوج الانخفاض وَالْأَمْتُ الِارْتِفَاعُ وَقَالَ قَتَادَةُ: **﴿عِوَجاً﴾** صَدْعًا. **﴿وَلا أَمْتاً﴾** ، أَيْ : أَكَمَةً. وَقَالَ يَمَانٌ: الْأَمْتُ الشُّقُوقُ فِي الْأَرْضِ. وَقِيلَ: الْأَمْتُ أَنْ يَغْلُظَ مَكَانٌ فِي الْفَضَاءِ أَوِ الْجَبَلِ وَيَدِقَّ فِي مَكَانٍ، حَكَاهُ الصُّولِيُّ. قُلْتُ: وَهَذِهِ الْآيَةُ تَدْخُلُ فِي بَابِ الرُّقَى، تُرْقَى بِهَا الثَّآلِيلُ وَهِيَ الَّتِي تُسَمَّى عِنْدَنَا" بِالْبَرَارِيقِ" وَاحِدُهَا" بُرُوقَةٌ"، تَطْلُعُ فِي الجسد وخاصة في اليد: تأخذ ثلاث أَعْوَادٍ مِنْ تِبْنِ الشَّعِيرِ، يَكُونُ فِي طَرَفِ كُلِّ عُودٍ عُقْدَةٌ، تُمِرُّ كُلَّ عُقْدَةٍ عَلَى الثَّآلِيلِ وَتَقْرَأُ الْآيَةَ مَرَّةً، ثُمَّ تَدْفِنُ الْأَعْوَادَ فِي مَكَانٍ نَدِيٍّ، تُعَفَّنُ وَتُعَفَّنُ الثَّآلِيلُ فَلَا يَبْقَى لَهَا أَثَرٌ، جَرَّبْتُ ذَلِكَ فِي نَفْسِي وَفِي غَيْرِي فَوَجَدْتُهُ نَافِعًا إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

قَوْلُهُ تَعَالَى: **﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ﴾** يُرِيدُ إِسْرَافِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِذَا نَفَخَ فِي الصُّورِ **﴿لا عِوَجَ لَهُ﴾** ، أَيْ : لَا مَعْدِلَ لَهُمْ عَنْهُ، أَيْ عَنْ دُعَائِهِ لَا يَزِيغُونَ وَلَا ينحرفون بل يسرعون إليه ولا يحيدون عَنْهُ. وَعَلَى هَذَا أَكْثَرُ الْعُلَمَاءِ. وَقِيلَ: **﴿لا عِوَجَ لَهُ﴾** ، أَيْ : لِدُعَائِهِ. وَقِيلَ: يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ اتِّبَاعًا لَا عِوَجَ لَهُ، فَالْمَصْدَرُ مُضْمَرٌ،

وَالْمَعْنَىٰ: يَتَّبِعُونَ صَوْتَ الدَّاعِي لِلْمَحْشَرِ، نَظِيرُهُ: **﴿وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِي مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ﴾** [ق: ٤١] الْآيَةَ. وَسَيَأْتِي. **﴿وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ﴾**، أَيْ : ذَلَّتْ وَسَكَنَتْ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: لَمَّا أَتَىٰ خَبَرُ الزُّبَيْرِ تَوَاضَعَتْ سُورُ الْمَدِينَةِ وَالْجِبَالُ الْخُشَّعُ، فَكُلُّ لِسَانٍ سَاكِتٍ هُنَاكَ لِلْهَيْبَةِ. **﴿لِلرَّحْمَنِ﴾**، أَيْ مِنْ أَجْلِهِ. **﴿فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْساً﴾** الْهَمْسُ الصَّوْتُ الْخَفِيُّ، قَالَهُ مُجَاهِدٌ. عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: الْحِسُّ الْخَفِيُّ. الْحَسَنُ وَابْنُ جُرَيْجٍ: هُوَ صَوْتُ وَقْعِ الْأَقْدَامِ بَعْضِهَا عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَىٰ الْمَحْشَرِ، وَمِنْهُ قَوْلُ الرَّاجِزِ:

وَهُنَّ يَمْشِينَ بِنَا هَمِيسَا

يَعْنِي صَوْتَ أَخْفَافِ الْإِبِلِ فِي سَيْرِهَا. وَيُقَالُ لِلْأَسَدِ الْهَمُوسُ، لِأَنَّهُ يَهْمِسُ فِي الظُّلْمَةِ، أَيْ يَطَأُ وَطْئًا خَفِيًّا. قَالَ رُؤْبَةُ يَصِفُ نَفْسَهُ بِالشِّدَّةِ:

لَيْثٌ يَدُقُّ الْأَسَدَ الْهَمُوسَا   وَالْأَقْهَبَيْنِ الْفِيلَ وَالْجَامُوسَا

وَهَمَسَ الطَّعَامَ، أَيْ مَضَغَهُ وَفُوهُ مُنْضَمٌّ، قَالَ الرَّاجِزُ:

لَقَدْ رَأَيْتُ عَجَبًا مُذْ أَمْسَا   عَجَائِزًا مِثْلَ السَّعَالِي خَمْسَا

يَأْكُلْنَ مَا أَصْنَعُ هَمْسًا هَمْسًا

وَقِيلَ: الْهَمْسُ تَحْرِيكُ الشَّفَةِ وَاللِّسَانِ. وَقَرَأَ أُبَيُّ بْنُ كَعْبٍ:" فَلَا يَنْطِقُونَ إِلَّا هَمْسًا". وَالْمَعْنَىٰ مُتَقَارِبٌ، أَيْ لَا يُسْمَعُ لَهُمْ نُطْقٌ وَلَا كَلَامٌ وَلَا صَوْتُ أَقْدَامٍ. وَبِنَاءُ" هـ م س" أَصْلُهُ الْخَفَاءُ كَيْفَمَا تَصَرَّفَ، وَمِنْهُ الْحُرُوفُ الْمَهْمُوسَةُ، وَهِيَ عَشَرَةٌ يَجْمَعُهَا قَوْلُكَ:" حَثَّهُ شَخْصٌ فَسَكَتَ" وَإِنَّمَا سُمِّيَ الْحَرْفُ مَهْمُوسًا لِأَنَّهُ ضَعُفَ الِاعْتِمَادُ مِنْ مَوْضِعِهِ حَتَّىٰ جَرَىٰ مَعَهُ النَّفَسُ" .

وقال الإمام الطَّاهر بن عاشور في " التَّحرير والتَّنوير" (١٦/٣٠٦-٣٠٨) : "لَمَّا جَرَىٰ ذِكْرُ الْبَعْثِ وَوُصِفَ مَا سَيَنْكَشِفُ لِلَّذِينَ أَنْكَرُوهُ مِنْ خَطَئِهِمْ فِي شُبْهَتِهِمْ بِتَعَذُّرِ إِعَادَةِ الْأَجْسَامِ بَعْدَ تَفَرُّقِ أَجْزَائِهَا ذُكِرَتْ أَيْضًا شُبْهَةٌ مِنْ شُبُهَاتِهِمْ كَانُوا يَسْأَلُونَ بِهَا النَّبِيءَ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سُؤَالَ تَعَنُّتٍ لَا سُؤَالَ اسْتِهْدَاءٍ، فَكَانُوا يُحِيلُونَ انْقِضَاءَ هَذَا الْعَالَمِ وَيَقُولُونَ:

فَأَيْنَ تَكُونُ هَذِهِ الْجِبَالُ الَّتِي نَرَاهَا. وَرُوِيَ أَنَّ رَجُلًا مِنْ ثَقِيفٍ سَأَلَ النَّبِيءَ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ ذَلِكَ، وَهُمْ أَهْلُ جِبَالٍ لِأَنَّ مَوْطِنَهُمُ الطَّائِفُ وَفِيهِ جَبَلُ كَرَىٰ. وَسَوَاءٌ كَانَ سُؤَالُهُمُ اسْتِهْزَاءً أَمِ اسْتِرْشَادًا، فَقَدْ أَنْبَأَهُمُ اللَّهُ بِمَصِيرِ الْجِبَالِ إِبْطَالًا لِشُبْهَتِهِمْ وَتَعْلِيمًا لِلْمُؤْمِنِينَ. قَالَ الْقُرْطُبِيُّ: «جَاءَ هُنَا (أَيْ قَوْلُهُ فَقُلْ يَنْسِفُهَا بِفَاءٍ وَكُلُّ سُؤَالٍ فِي الْقُرْآنِ «قُلْ» (أَيْ كُلُّ جَوَابٍ فِي لَفْظٍ مِنْهُ مَادَّةُ سُؤَالٍ) بِغَيْرِ فَاءٍ إِلَّا هَذَا، لِأَنَّ الْمَعْنَىٰ إِنْ سَأَلُوكَ

عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ، فَتَضَمَّنَ الْكَلَامُ مَعْنَىٰ الشَّرْطِ، وَقَدْ عَلِمَ أَنَّهُمْ يَسْأَلُونَهُ عَنْهَا فَأَجَابَهُمْ قَبْلَ السُّؤَالِ. وَتِلْكَ أَسْئِلَةٌ تَقَدَّمَتْ سَأَلُوا عَنْهَا النَّبِيءَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَجَاءَ الْجَوَابُ عقب السُّؤَال ا. هـ» .

وَأَكَّدَ يَنْسِفُهَا نَسْفًا لِإِثْبَاتِ أَنَّهُ حَقِيقَةٌ لَا اسْتِعَارَةٌ. فَتَقْدِيرُ الْكَلَامِ: وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ... إِلَىٰ آخِرِهِ، وَنَنْسِفُ الْجِبَالَ نَسْفًا، فَقُلْ ذَلِكَ لِلَّذِينَ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ.

وَالنَّسْفُ: تَفْرِيقٌ وَإِذْرَاءٌ، وَتَقَدَّمَ آنِفًا.

وَالْقَاعُ: الْأَرْضُ السَّهْلَةُ.

وَالصَّفْصَفُ: الْأَرْضُ الْمُسْتَوِيَةُ الَّتِي لَا نُتُوءَ فِيهَا.

وَمعنىٰ فَيَذَرُها قَاعًا صَفْصَفاً أَنَّهَا تَنْدَكُّ فِي مَوَاضِعِهَا وَتُسَوَّىٰ مَعَ الْأَرْضِ حَتَّىٰ تَصِيرَ فِي مُسْتَوَىٰ أَرْضِهَا، وَذَلِكَ يَحْصُلُ بِزِلْزَالٍ أَوْ نَحْوِهِ، قَالَ تَعَالَىٰ: **﴿إِذا رُجَّتِ الْأَرْضُ * رَجًّا وَبُسَّتِ الْجِبالُ بَسًّا * فَكانَتْ هَباءً مُنْبَثًّا﴾** [الْوَاقِعَة: ٤- ٦] .

وَجُمْلَةُ لَا تَرىٰ فِيها عِوَجاً وَلا أَمْتاً حَالٌ مُؤَكِّدَةٌ لِمَعْنَىٰ قَاعًا صَفْصَفاً لِزِيَادَةِ تَصْوِيرِ حَالَةٍ فَيَزِيدُ تَهْوِيلُهَا. وَالْخِطَابُ فِي لَا تَرىٰ فِيها عِوَجاً لِغَيْرِ مُعَيَّنٍ يُخَاطِبُ بِهِ الرَّسُولُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَائِلِيهِ.

وَالْعِوَجُ- بِكَسْرِ الْعَيْنِ وَفَتْحِ الْوَاوِ-: ضِدُّ الِاسْتِقَامَةِ، وَيُقَالُ:- بِفَتْحِ الْعَيْنِ وَالْوَاوِ- كَذَلِكَ فَهُمَا مُتَرَادِفَانِ عَلَىٰ الصَّحِيحِ من أَقْوَال أيمة اللُّغَةِ. وَهُوَ مَا جَزَمَ بِهِ عَمْرٌو وَاخْتَارَهُ الْمَرْزُوقِيُّ فِي «شَرْحِ الْفَصِيحِ» . وَقَالَ جَمَاعَةٌ:- مَكْسُورُ الْعَيْنِ- يَجْرِي عَلَىٰ الْأَجْسَامِ غَيْرِ الْمُنْتَصِبَةِ كَالْأَرْضِ وَعَلَىٰ الْأَشْيَاءِ الْمَعْنَوِيَّةِ كَالدِّينِ. وَمَفْتُوحُ الْعَيْنِ- يُوصَفُ بِهِ الْأَشْيَاءُ الْمُنْتَصِبَةُ كَالْحَائِطِ وَالْعَصَا، وَهُوَ ظَاهِرُ مَا فِي «لِسَانِ الْعَرَبِ» عَنِ الْأَزْهَرِيِّ. وَقَالَ فَرِيقٌ:- مَكْسُورُ الْعَيْنِ- تُوصَفُ بِهِ الْمَعَانِي، وَمَفْتُوحُ الْعَيْنِ- تُوصَفُ بِهِ الْأَعْيَانُ. وَهَذَا أَضْعَفُ الْأَقْوَالِ. وَهُوَ مَنْقُولٌ عَنِ ابْنِ دُرَيْدٍ فِي «الْجَمْهَرَةِ» وَتَبِعَهُ فِي «الْكَشَّافِ» هُنَا، وَكَأَنَّهُ مَالَ إِلَىٰ مَا فِيهِ مِنَ التَّفْرِقَةِ فِي الِاسْتِعْمَالِ، وَذَلِكَ مِنَ الدَّقَائِقِ الَّتِي يَمِيلُ إِلَيْهَا الْمُحَقِّقُونَ. وَلَمْ يُعَرِّجْ عَلَيْهِ صَاحِبُ «الْقَامُوسِ» ، وَتَعَسَّفَ صَاحِبُ «الْكَشَّافِ» تَأْوِيلَ الْآيَةِ عَلَىٰ اعْتِبَارِهِ خِلَافًا لِظَاهِرِهَا. وَهُوَ يَقْتَضِي عَدَمَ صِحَّةِ إِطْلَاقِهِ فِي كُلِّ مَوْضِعٍ. وَتَقَدَّمَ هَذَا اللَّفْظُ فِي أَوَّلِ سُورَةِ الْكَهْفِ فَانْظُرْهُ.

وَالْأَمْتُ: النُّتُوءُ الْيَسِيرُ، أَيْ لَا تَرىٰ فِيهَا وَهْدَةً وَلَا نُتُوءًا مَا ، وَالْمَعْنَىٰ: لَا تَرَىٰ فِي مَكَان فسقها عِوَجًا وَلَا أمتا" .

(٣) تَفْتِيْتُ الجِبَالُ : قال تعالىٰ : **﴿وَبُسَّتِ الْجِبالُ بَسًّا﴾** [الواقعة:٥] .

قال الإمام الرَّازي في " التَّفسير " (٢٩/ ٣٨٤) : " الْجِبَالَ تَتَفَتَّتُ، فَتَصِيرُ الْأَرْضُ الْمُنْخَفِضَةُ كَالْجِبَالِ الرَّاسِيَةِ، وَالْجِبَالُ الشَّامِخَةُ كَالْأَرْضِ السَّافِلَةِ، كَمَا يَفْعَلُ هُبُوبُ الرِّيحِ فِي الْأَرْضِ الْمُرْمِلَةِ " .

وقال الإمام القرطبي في " الجامع لأحكام القرآن" (١٧/ ١٩٦-١٩٧) : " قَوْلُهُ تَعَالَى: **﴿وَبُسَّتِ الْجِبالُ بَسًّا﴾** ، أَيْ : فُتِّتَتْ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ. مُجَاهِدٌ: كَمَا يُبَسُّ الدَّقِيقُ أَيْ يُلَتُّ. وَالْبَسِيسَةُ السَّوِيقُ أَوِ الدَّقِيقُ يُلَتُّ بِالسَّمْنِ أَوْ بِالزَّيْتِ ثُمَّ يُؤْكَلُ وَلَا يُطْبَخُ وَقَدْ يُتَّخَذُ زَادًا. قَالَ الرَّاجِزُ:

لَا تَخْبِزَا خُبْزًا وبسابسا ولا تطيلا بمناخ حبسا

وَذَكَرَ أَبُو عُبَيْدَةَ: أَنَّهُ لِصٌّ مِنْ غَطَفَانَ أَرَادَ أَنْ يَخْبِزَ فَخَافَ أَنْ يُعْجَلَ عَنْ ذَلِكَ فَأَكَلَهُ عَجِينًا. وَالْمَعْنَى أَنَّهَا خُلِطَتْ فَصَارَتْ كَالدَّقِيقِ الْمَلْتُوتِ بِشَيْءٍ مِنَ الْمَاءِ. أَيْ تَصِيرُ الْجِبَالُ تُرَابًا فَيَخْتَلِطُ الْبَعْضُ بِالْبَعْضِ. وَقَالَ الْحَسَنُ: وبست قُلِعَتْ مِنْ أَصْلِهَا فَذَهَبَتْ، نَظِيرُهُ: **﴿يَنْسِفُها رَبِّي نَسْفاً﴾** . وَقَالَ عَطِيَّةُ: بُسِطَتْ كَالرَّمْلِ وَالتُّرَابِ. وَقِيلَ: الْبَسُّ السُّوقُ أَيْ سِيقَتِ الْجِبَالُ. قَالَ أَبُو زَيْدٍ: الْبَسُّ السُّوقُ، وَقَدْ بَسَسْتُ الْإِبِلَ أَبُسُّهَا بِالضَّمِّ بَسًّا. وَقَالَ أَبُو عُبَيْدٍ: بَسَسْتَ الْإِبِلَ وَأَبْسَسْتَ لُغَتَانِ إِذَا زَجَرْتَهَا وَقُلْتَ لَهَا بِسْ بِسْ. وَفِي الْحَدِيثِ: (يَخْرُجُ قَوْمٌ مِنَ الْمَدِينَةِ إِلَى الْيَمَنِ وَالشَّامِ وَالْعِرَاقِ يَبُسُّونَ وَالْمَدِينَةُ خَيْرٌ لَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ) ، وَمِنْهُ الْحَدِيثُ الْآخَرُ: (جَاءَكُمْ أَهْلُ الْيَمَنِ يَبُسُّونَ عِيَالَهُمْ) ، وَالْعَرَبُ تَقُولُ: جِئْ بِهِ مِنْ حَسِّكَ وَبَسِّكَ. وَرَوَاهُمَا أَبُو زَيْدٍ بِالْكَسْرِ، فَمَعْنَى مِنْ حَسِّكَ مِنْ حَيْثُ أَحْسَسْتَهُ، وَبَسِّكَ مِنْ حَيْثُ بَلَغَهُ مَسِيرُكَ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: سَالَتْ سَيْلًا. عِكْرِمَةُ: هُدَّتْ هَدًّا. مُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ: سُيِّرَتْ سَيْرًا، وَمِنْهُ قَوْلُ الْأَغْلَبِ الْعِجْلِيِّ : وَقَالَ الْحَسَنُ: قُطِعَتْ قَطْعًا. وَالْمَعْنَى مُتَقَارِبٌ " .

﴿سُؤالٌ﴾ : مَا هِيَ التَّغَيُّرات وَالأَهْوَال التِي سَتَحْدُثُ لِلْبِحَارِ مَعَ قِيَامِ السَّاعَةِ ؟

الجواب :

(١) **تَسْجِيرُ البِحَار:** قال تعالى : **﴿وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾** [التكوير:٦] .

قال الإمام الرازي في " التفسير " (٣١/ ٦٥) : " وَفِيهِ وُجُوهٌ:

أَحَدُهَا: أَنَّ أَصْلَ الْكَلِمَةِ مِنْ سَجَرْتُ التَّنُّورَ إِذَا أَوْقَدْتَهَا، وَالشَّيْءُ إِذَا وُقِدَ فِيهِ نَشَفَ مَا فِيهِ مِنَ الرُّطُوبَةِ، فَحِينَئِذٍ لَا يَبْقَى فِي الْبِحَارِ شَيْءٌ مِنَ الْمِيَاهِ الْبَتَّةَ، ثُمَّ إِنَّ الْجِبَالَ قَدْ سُيِّرَتْ عَلَى مَا قال: **﴿وَسُيِّرَتِ الْجِبالُ﴾** [النبأ: ٢٠] وَحِينَئِذٍ تَصِيرُ الْبِحَارُ وَالْأَرْضُ شَيْئًا وَاحِدًا فِي غَايَةِ الْحَرَارَةِ وَالْإِحْرَاقِ، وَيُحْتَمَلُ أَنْ تَكُونَ الْأَرْضُ لَمَّا نَشَفَتْ مِيَاهُ الْبِحَارِ رَبَتْ فَارْتَفَعَتْ فَاسْتَوَتْ بِرُءُوسِ الْجِبَالِ، وَيُحْتَمَلُ أَنَّ الْجِبَالَ لَمَّا انْدَكَّتْ وَتَفَرَّقَتْ

أَجْزَاؤُهَا وَصَارَتْ كَالتُّرَابِ وَقَعَ ذَلِكَ التُّرَابُ فِي أَسْفَلِ الْجِبَالِ، فَصَارَ وَجْهُ الْأَرْضِ مُسْتَوِيًا مَعَ الْبِحَارِ، وَيَصِيرُ الْكُلُّ بَحْرًا مَسْجُورًا .

وَثَانِيهَا: أَنْ يَكُونَ سُجِّرَتْ بِمَعْنَى فُجِّرَتْ وَذَلِكَ لِأَنَّ بَيْنَ الْبِحَارِ حَاجِزًا عَلَى مَا قَالَ: **﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيانِ * بَيْنَهُما بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيانِ﴾** [الرَّحْمَنِ: ١٩- ٢٠] فَإِذَا رَفَعَ اللَّهُ ذَلِكَ الْحَاجِزَ فَاضَ الْبَعْضُ فِي الْبَعْضِ، وَصَارَتِ الْبِحَارُ بَحْرًا وَاحِدًا، وَهُوَ قَوْلُ الْكَلْبِيِّ .

وَثَالِثُهَا: سُجِّرَتْ أُوقِدَتْ، قَالَ الْقَفَّالُ: وَهَذَا التَّأْوِيلُ يَحْتَمِلُ وُجُوهًا :

الْأَوَّلُ: أَنْ تَكُونَ جَهَنَّمُ فِي قُعُورِ الْبِحَارِ، فَهِيَ الْآنَ غَيْرُ مَسْجُورَةٍ لِقِيَامِ الدُّنْيَا، فَإِذَا انْتَهَتْ مُدَّةُ الدُّنْيَا أَوْصَلَ اللَّهُ تَأْثِيرَ تِلْكَ النِّيرَانِ إِلَى الْبِحَارِ، فَصَارَتْ بِالْكُلِّيَّةِ مَسْجُورَةً بِسَبَبِ ذَلِكَ .

وَالثَّانِي: أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُلْقِي الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالْكَوَاكِبَ فِي الْبِحَارِ، فَتَصِيرُ الْبِحَارُ مَسْجُورَةً بِسَبَبِ ذَلِكَ

.

وَالثَّالِثُ: أَنْ يَخْلُقَ اللَّهُ تَعَالَى بِالْبِحَارِ نِيرَانًا عَظِيمَةً حَتَّى تَتَسَخَّنَ تِلْكَ الْمِيَاهُ، وَأَقُولُ هَذِهِ الْوُجُوهُ مُتَكَلَّفَةٌ لَا حَاجَةَ إِلَى شَيْءٍ مِنْهَا، لِأَنَّ الْقَادِرَ عَلَى تَخْرِيبِ الدُّنْيَا وَإِقَامَةِ الْقِيَامَةِ لَا بُدَّ وَأَنْ يَكُونَ قَادِرًا عَلَى أَنْ يَفْعَلَ بِالْبِحَارِ مَا شَاءَ مِنْ تَسْخِينٍ، وَمِنْ قَلْبِ مِيَاهِهَا نِيرَانًا مِنْ غَيْرِ حَاجَةٍ مِنْهُ إِلَى أن يلقى فيها الشمس والقمر، أو يَكُونَ تَحْتَهَا نَارُ جَهَنَّمَ.

وَاعْلَمْ أَنَّ هَذِهِ الْعَلَامَاتِ السِّتَّ يُمْكِنُ وُقُوعُهَا فِي أَوَّلِ زَمَانِ تَخْرِيبِ الدُّنْيَا، وَيُمْكِنُ وُقُوعُهَا أَيْضًا بَعْدَ قِيَامِ الْقِيَامَةِ، وَلَيْسَ فِي اللَّفْظِ مَا يَدُلُّ عَلَى أَحَدِ الِاحْتِمَالَيْنِ، أَمَّا السِّتَّةُ الْبَاقِيَةُ فَإِنَّهَا مُخْتَصَّةٌ بالقيامة" .

وقال الإمام القرطبي في " الجامع لأحكام القرآن" (١٩/ ٢٣٠-٢٣١) : " **﴿وَإِذَا الْبِحارُ سُجِّرَتْ﴾** ، أَيْ : مُلِئَتْ مِنَ الْمَاءِ، وَالْعَرَبُ تَقُولُ: سَجَرْتُ الْحَوْضَ أَسْجُرُهُ سَجْرًا: إِذَا مَلَأْتَهُ، وَهُوَ مَسْجُورٌ وَالْمَسْجُورُ وَالسَّاجِرُ فِي اللغة: الملآن. وروى الربيع بن خيثم: سُجِّرَتْ: فَاضَتْ وَمُلِئَتْ. وَقَالَهُ الْكَلْبِيُّ وَمُقَاتِلٌ وَالْحَسَنُ وَالضَّحَّاكُ. قَالَ ابْنُ أَبِي زَمَنِينَ: سُجِّرَتْ: حَقِيقَتُهُ مُلِئَتْ، فَيُفِيضُ بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ فَتَصِيرُ شَيْئًا وَاحِدًا. وَهُوَ مَعْنَى قَوْلِ الْحَسَنِ. وَقِيلَ: أَرْسَلَ عَذْبَهَا عَلَى مَالِحِهَا وَمَالِحَهَا عَلَى عَذْبِهَا، حَتَّى امْتَلَأَتْ. عَنِ الضَّحَّاكِ وَمُجَاهِدٍ: أَيْ فُجِّرَتْ فَصَارَتْ بَحْرًا وَاحِدًا. الْقُشَيْرِيُّ: وَذَلِكَ بِأَنْ يَرْفَعَ اللَّهُ الْحَاجِزَ الَّذِي ذَكَرَهُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: **﴿بَيْنَهُما بَرْزَخٌ لا يَبْغِيانِ﴾** [الرحمن: ٢٠] ، فَإِذَا رُفِعَ ذَلِكَ الْبَرْزَخُ تَفَجَّرَتْ مِيَاهُ الْبِحَارِ، فَعَمَّتِ الْأَرْضَ كُلَّهَا، وَصَارَتِ الْبِحَارُ بَحْرًا وَاحِدًا. وَقِيلَ: صَارَتْ بَحْرًا وَاحِدًا مِنَ الْحَمِيمِ لِأَهْلِ النَّارِ. وَعَنِ الْحَسَنِ أَيْضًا وَقَتَادَةَ وَابْنِ حَيَّانَ: تَيْبَسُ فَلَا يَبْقَى مِنْ مَائِهَا قَطْرَةٌ. الْقُشَيْرِيُّ: وَهُوَ مِنْ سَجَرْتُ التَّنُّورَ أَسْجُرُهُ

سَجْرًا: إِذَا أَحْمَيْتَهُ وَإِذَا سُلِّطَ عَلَيْهِ الْإِيقَادُ نَشِفَ مَا فِيهِ مِنَ الرُّطُوبَةِ وَتُسَيَّرُ الْجِبَالُ حِينَئِذٍ وَتَصِيرُ الْبِحَارُ وَالْأَرْض كُلُّهَا بِسَاطًا وَاحِدًا، بِأَنْ يُمْلَأَ مَكَانُ الْبِحَارِ بِتُرَابِ الْجِبَالِ. وَقَالَ النَّحَّاسُ: وَقَدْ تَكُونُ الْأَقْوَالُ مُتَّفِقَةً، يَكُونُ تَيْبَسُ مِنَ الْمَاءِ بَعْدَ أَنْ يَفِيضَ، بَعْضُهَا إِلَىٰ بَعْضٍ، فَتُقْلَبُ نَارًا. قُلْتُ: ثُمَّ تُسَيَّرُ الْجِبَالُ حِينَئِذٍ، كَمَا ذَكَرَ الْقُشَيْرِيُّ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ وَشِمْرٌ وَعَطِيَّةُ وَسُفْيَانُ وَوَهْبٌ وَأُبَيٌّ وَعَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ وَابْنُ عَبَّاسٍ فِي رِوَايَةِ الضَّحَّاكِ عَنْهُ: أُوقِدَتْ فَصَارَتْ نَارًا. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: يُكَوِّرُ اللَّهُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ فِي الْبَحْرِ، ثُمَّ يَبْعَثُ اللَّهُ عَلَيْهَا رِيحًا دَبُورًا، فَتَنْفُخُهُ حَتَّىٰ يَصِيرَ نَارًا. وَكَذَا فِي بَعْضِ الْحَدِيثِ: (يَأْمُرُ اللَّهُ جَلَّ ثَنَاؤُهُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ فَيَنْتَثِرُونَ فِي الْبَحْرِ، ثُمَّ يَبْعَثُ اللَّهُ جَلَّ ثَنَاؤُهُ الدَّبُورَ فَيُسَجِّرُهَا نَارًا، فَتِلْكَ نَارُ اللَّهِ الْكُبْرَىٰ، الَّتِي يُعَذِّبُ بِهَا الْكُفَّارَ (. قَالَ الْقُشَيْرِيُّ: قِيلَ فِي تَفْسِيرِ قَوْلِ ابْنِ عَبَّاسٍ سُجِّرَتْ أُوقِدَتْ، يَحْتَمِلُ أَنْ تَكُونَ جَهَنَّمُ فِي قُعُورٍ مِنَ الْبِحَارِ، فَهِيَ الْآنَ غَيْرُ مَسْجُورَةٍ لِقِوَامِ الدُّنْيَا، فَإِذَا انْقَضَتِ الدُّنْيَا سُجِّرَتْ، فَصَارَتْ كُلُّهَا نَارًا يُدْخِلُهَا اللَّهُ أَهْلَهَا. وَيَحْتَمِلُ أَنْ تَكُونَ تَحْتَ الْبَحْرِ نَارٌ، ثُمَّ يُوقِدُ اللَّهُ الْبَحْرَ كُلَّهُ فَيَصِيرُ نَارًا. وَفِي الْخَبَرِ: الْبَحْرُ نَارٌ في نار.

وَقَالَ مُعَاوِيَةُ بْنُ سَعِيدٍ: بَحْرُ الرُّومِ وَسَطَ الْأَرْضِ، أَسْفَلُهُ آبَارٌ مُطْبَقَةٌ بِنُحَاسٍ يُسَجَّرُ نَارًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ. وَقِيلَ: تَكُونُ الشَّمْسُ فِي الْبَحْرِ، فَيَكُونُ الْبَحْرُ نَارًا بِحَرِّ الشَّمْسِ. ثُمَّ جَمِيعُ مَا فِي هَذِهِ الْآيَاتِ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ فِي الدُّنْيَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَيَكُونَ مِنْ أَشْرَاطِهَا، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَمَا بَعْدَ هَذِهِ الْآيَاتِ فَيَكُونُ فِي يَوْمِ الْقِيَامَةِ.

قُلْتُ: رُوِيَ عَنْ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرٍو: لَا يُتَوَضَّأُ بِمَاءِ الْبَحْرِ لِأَنَّهُ طَبَقُ جَهَنَّمَ. وَقَالَ أُبَيُّ بْنُ كَعْبٍ: سِتُّ آيَاتٍ مِنْ قَبْلِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ: بَيْنَمَا النَّاسُ فِي أَسْوَاقِهِمْ ذَهَبَ ضَوْءُ الشَّمْسِ وَبَدَتِ النُّجُومُ فَتَحَيَّرُوا وَدُهِشُوا، فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ يَنْظُرُونَ إِذْ تَنَاثَرَتِ النُّجُومُ وَتَسَاقَطَتْ، فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ إِذْ وَقَعَتِ الْجِبَالُ عَلَىٰ وَجْهِ الْأَرْضِ، فَتَحَرَّكَتْ وَاضْطَرَبَتْ وَاحْتَرَقَتْ، فَصَارَتْ هَبَاءً مَنْثُورًا، فَفَزِعَتِ الْإِنْسُ إِلَىٰ الْجِنِّ وَالْجِنُّ إِلَىٰ الْإِنْسِ، وَاخْتَلَطَتِ الدَّوَابُّ وَالْوُحُوشُ وَالْهَوَامُّ وَالطَّيْرُ، وَمَاجَ بَعْضُهَا فِي بَعْضٍ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿**وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ**﴾ ثُمَّ قَالَتِ الْجِنُّ لِلْإِنْسِ: نَحْنُ نَأْتِيكُمْ بِالْخَبَرِ، فَانْطَلَقُوا إِلَىٰ الْبِحَارِ فَإِذَا هِيَ نَارٌ تَأَجَّجُ، فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ تَصَدَّعَتِ الْأَرْض صَدْعَةً وَاحِدَةً إِلَىٰ الْأَرْضِ السَّابِعَةِ السُّفْلَىٰ، وَإِلَىٰ السَّمَاءِ السَّابِعَةِ الْعُلْيَا، فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ إِذْ جَاءَتْهُمْ رِيحٌ فَأَمَاتَتْهُمْ. وَقِيلَ: مَعْنَىٰ سُجِّرَتْ: هُوَ حُمْرَةُ مَائِهَا، حَتَّىٰ تَصِيرَ كَالدَّمِ، مَأْخُوذٌ مِنْ

قَوْلِهِمْ: عَيْنٌ سَجْرَاءُ: أَيْ حَمْرَاءُ. وَقَرَأَ ابْنُ كَثِيرٍ سُجِّرَتْ وَأَبُو عَمْرٍو أَيْضًا، إِخْبَارًا عَنْ حَالِهَا مَرَّةً وَاحِدَةً. وَقَرَأَ الْبَاقُونَ بِالتَّشْدِيدِ إِخْبَارًا عَنْ حَالِهَا فِي تَكْرِيرِ ذَلِكَ مِنْهَا مَرَّةً بَعْدَ أُخْرَىٰ" .

وقال تعالىٰ : ﴿وَإِذَا الْبِحارُ فُجِّرَتْ﴾ [الإنفطار:٣] .

قال الإمام الرَّازي في " التَّفسير" (٣١/ ٧٢-٧٣) : " قَوْلُهُ: ﴿وَإِذَا الْبِحارُ فُجِّرَتْ﴾ ، وفيه وجوه :

أَحَدُهُمَا: أَنَّهُ يَنْفُذُ بَعْضُ الْبَحَّارِ فِي الْبَعْضِ بِارْتِفَاعِ الْحَاجِزِ الَّذِي جَعَلَهُ اللَّهُ بَرْزَخًا، وَحِينَئِذٍ يَصِيرُ الْكُلُّ بَحْرًا وَاحِدًا، وَإِنَّمَا يَرْتَفِعُ ذَلِكَ الْحَاجِزُ لِتَزَلْزُلِ الْأَرْضِ وَتَصَدُّعِهَا.

وَثَانِيهَا: أَنَّ مِيَاهَ الْبِحَارِ الْآنَ رَاكِدَةٌ مُجْتَمِعَةٌ، فَإِذَا فُجِّرَتْ تَفَرَّقَتْ وَذَهَبَ مَاؤُهَا .

وَثَالِثُهَا: قَالَ الْحَسَنُ: فُجِّرَتْ أَيْ يَبِسَتْ.

وَاعْلَمْ أَنَّ عَلَىٰ الْوُجُوهِ الثَّلَاثَةِ، فَالْمُرَادُ أَنَّهُ تَتَغَيَّرُ الْبِحَارُ عَنْ صُورَتِهَا الْأَصْلِيَّةِ وَصِفَتِهِ " .

وقال الإمام في " الجامع لأحكام القرآن" (١٩/ ٢٤٤) : ﴿وَإِذَا الْبِحارُ فُجِّرَتْ﴾ ، أَيْ : فُجِّرَ بَعْضُهَا فِي بَعْضٍ، فَصَارَتْ بَحْرًا وَاحِدًا، عَلَىٰ مَا تَقَدَّمَ. قَالَ الْحَسَنُ: ﴿فُجِّرَتْ﴾ : ذَهَبَ مَاؤُهَا وَيَبِسَتْ، وَذَلِكَ أَنَّهَا أَوَّلًا رَاكِدَةٌ مُجْتَمِعَةٌ، فَإِذَا فُجِّرَتْ تَفَرَّقَتْ، فَذَهَبَ مَاؤُهَا. وَهَذِهِ الْأَشْيَاءُ بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ".

﴿سُؤالٌ﴾ : مَا المَقْصُودُ بِالزَّلْزَلَةِ الوَارِدَةِ فِيْ قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿يا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ (١) يَوْمَ تَرَوْنَها تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذاتِ حَمْلٍ حَمْلَها وَتَرَى النَّاسَ سُكارى وَما هُمْ بِسُكارى وَلكِنَّ عَذابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾ [الحج:١-٢] ؟

الجواب : قال الإمام الرَّازي في " التَّفسير" (٢٣/ ١٩٩-٢٠١) : " قَوْلُهُ: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ ، فَفِيهِ مَسَائِلُ:

المسألة الْأُولَى: الزَّلْزَلَةُ شِدَّةُ حَرَكَةِ الشَّيْءِ، قَالَ صَاحِبُ «الْكَشَّافِ» وَلَا تَخْلُو السَّاعَةُ مِنْ أَنْ تَكُونَ عَلَىٰ تَقْدِيرِ الْفَاعِلَةِ لَهَا كَأَنَّهَا هِيَ الَّتِي تُزَلْزِلُ الْأَشْيَاءَ عَلَىٰ الْمَجَازِ الْحُكْمِيِّ فَتَكُونُ الزَّلْزَلَةُ مَصْدَرًا مُضَافًا إِلَىٰ فَاعِلِهِ أَوْ عَلَىٰ تَقْدِيرِ الْمَفْعُولِ فِيهَا عَلَىٰ طَرِيقَةِ الِاتِّسَاعِ فِي الظَّرْفِ وَإِجْرَائِهِ مَجْرَىٰ الْمَفْعُولِ بِهِ كَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهارِ﴾ [سَبَإٍ: ٣٣] وَهِيَ الزَّلْزَلَةُ الْمَذْكُورَةُ فِي قَوْلِهِ: ﴿إِذا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزالَها﴾ [الزَّلْزَلَةِ: ١] .

المسألة الثَّانِيَةُ: اخْتَلَفُوا فِي وَقْتِهَا فَعَنْ عَلْقَمَةَ وَالشَّعْبِيِّ أَنَّ هَذِهِ الزَّلْزَلَةَ تَكُونُ فِي الدُّنْيَا وَهِيَ الَّتِي يَكُونُ مَعَهَا طُلُوعُ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا. وَقِيلَ هِيَ الَّتِي تَكُونُ مَعَهَا السَّاعَةُ.

وَرُوِيَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي حَدِيثِ الصُّورِ «إِنَّهُ قَرْنٌ عَظِيمٌ يُنْفَخُ فِيهِ ثَلَاثُ نَفَخَاتٍ: نَفْخَةُ الْفَزَعِ، وَنَفْخَةُ الصَّعْقَةِ، وَنَفْخَةُ الْقِيَامِ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ، وَإِنَّ عِنْدَ نَفْخَةِ الْفَزَعِ يُسَيِّرُ اللَّهُ الْجِبَالَ وَتَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ، تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ، قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ، وَتَكُونُ الْأَرْضُ كَالسَّفِينَةِ تَضْرِبُهَا الْأَمْوَاجُ أَوْ كَالْقِنْدِيلِ الْمُعَلَّقِ تُرَجْرِجُهُ الرِّيَاحُ» .

وَقَالَ مُقَاتِلٌ وَابْنُ زَيْدٍ هَذَا فِي أَوَّلِ يَوْمٍ مِنْ أَيَّامِ الْآخِرَةِ.

وَاعْلَمْ أَنَّهُ لَيْسَ فِي اللَّفْظِ دَلَالَةٌ عَلَىٰ شَيْءٍ مِنْ هَذِهِ الْأَقْسَامِ، لِأَنَّ هَذِهِ الْإِضَافَةَ تَصِحُّ وَإِنْ كَانَتِ الزَّلْزَلَةُ قَبْلَهَا، وَتَكُونُ مِنْ أَمَارَاتِهَا وَأَشْرَاطِهَا، وَتَصِحُّ إِذَا كَانَتْ فِيهَا وَمَعَهَا، كَقَوْلِنَا آيَاتُ السَّاعَةِ وَأَمَارَاتُ السَّاعَةِ.

المسألة الثَّالِثَةُ: رُوِيَ «أَنَّ هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ نَزَلَتَا بِاللَّيْلِ وَالنَّاسُ يَسِيرُونَ فَنَادَىٰ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَاجْتَمَعَ النَّاسُ حَوْلَهُ فَقَرَأَهُمَا عَلَيْهِمْ، فَلَمْ يُرَ بَاكِيًا أَكْثَرَ مِنْ تِلْكَ اللَّيْلَةِ، فَلَمَّا أَصْبَحُوا لَمْ يَحُطُّوا السُّرُجَ وَلَمْ يَضْرِبُوا الْخِيَامَ وَلَمْ يَطْبُخُوا الْقُدُورَ، وَالنَّاسُ بَيْنَ بَاكٍ وَجَالِسٍ حَزِينٍ مُتَفَكِّرٍ. فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «أَتَدْرُونَ أَيَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ هُوَ؟ قَالُوا اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ ذَلِكَ يَوْمٌ يَقُولُ اللَّهُ لِآدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ قُمْ فَابْعَثْ بَعْثَ النَّارِ مِنْ وَلَدِكَ، فَيَقُولُ آدَمُ وَمَا بَعْثُ النَّارِ؟ يَعْنِي مِنْ كَمْ كَمْ؟ فَيَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعُمِائَةٍ وَتِسْعَةٌ وَتِسْعُونَ إِلَىٰ النَّارِ وَوَاحِدٌ إِلَىٰ الْجَنَّةِ، فَعِنْدَ ذَلِكَ يَشِيبُ الصَّغِيرُ، وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا، وَتَرَىٰ النَّاسَ سُكَارَىٰ، فَكَبُرَ ذَلِكَ عَلَىٰ الْمُؤْمِنِينَ وَبَكَوْا، وَقَالُوا فَمَنْ يَنْجُو يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ فَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَبْشِرُوا وَسَدِّدُوا وَقَارِبُوا فَإِنَّ مَعَكُمْ خَلِيقَتَيْنِ مَا كَانَا فِي قَوْمٍ إِلَّا كَثَّرَتَاهُ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ، ثم قال إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ تَكُونُوا رُبُعَ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَكَبَّرُوا، ثم قال إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ تَكُونُوا نِصْفَ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَكَبَّرُوا وَحَمِدُوا اللَّهَ، ثم قال إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ تَكُونُوا ثُلُثَيْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، إِنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ مِائَةٌ وعشرون صفا ثمانون منها أُمَّتِي وَمَا الْمُسْلِمُونَ فِي الْكُفَّارِ إِلَّا كَالشَّامَةِ فِي جَنْبِ الْبَعِيرِ أَوْ كَالشَّعْرَةِ الْبَيْضَاءِ فِي الثَّوْرِ الْأَسْوَدِ، ثم قال وَيَدْخُلُ مِنْ أُمَّتِي سَبْعُونَ أَلْفًا إِلَىٰ الْجَنَّةِ بِغَيْرِ حِسَابٍ، فَقَالَ عُمَرُ سَبْعُونَ أَلْفًا؟ قَالَ نَعَمْ وَمَعَ كُلِّ وَاحِدٍ سَبْعُونَ أَلْفًا، فَقَامَ عُكَّاشَةُ بْنُ مِحْصَنٍ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ادْعُ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ، فَقَالَ أَنْتَ مِنْهُمْ، فَقَامَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ فَقَالَ مِثْلَ قَوْلِهِ، فَقَالَ سَبَقَكَ بِهَا عُكَّاشَةُ» فَخَاضَ النَّاسُ فِي السَّبْعِينَ أَلْفًا فَقَالَ بَعْضُهُمْ هُمُ الَّذِينَ وُلِدُوا عَلَىٰ الْإِسْلَامِ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ هُمُ الَّذِينَ آمَنُوا وَجَاهَدُوا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَخْبَرُوا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِمَا قَالُوا فَقَالَ: «هُمُ الَّذِينَ لَا يَكْتَوُونَ وَلَا يَكْوُونَ وَلَا يَسْتَرْقُونَ وَلَا يَتَطَيَّرُونَ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ» .

المسألة الرَّابِعَةُ: أَنَّهُ سُبْحَانَهُ أَمَرَ النَّاسَ بِالتَّقْوَىٰ ثُمَّ عَلَّلَ وُجُوبَهَا عَلَيْهِمْ بِذِكْرِ السَّاعَةِ وَوَصَفَهَا بِأَهْوَلِ صِفَةٍ، وَالْمَعْنَىٰ أَنَّ التَّقْوَىٰ تَقْتَضِي دَفْعَ مِثْلِ هَذَا الضَّرَرِ الْعَظِيمِ عَنِ النَّفْسِ، وَدَفْعُ الضَّرَرِ عَنِ النَّفْسِ مَعْلُومُ الْوُجُوبِ، فَيَلْزَمُ أَنْ تَكُونَ التَّقْوَىٰ وَاجِبَةً.

المسألة الْخَامِسَةُ: احْتَجَّتِ الْمُعْتَزِلَةُ بِقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: **﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾** وصفها بِأَنَّهَا شَيْءٌ مَعَ أَنَّهَا مَعْدُومَةٌ، وَاحْتَجُّوا أَيْضًا بِقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: **﴿إنَّ اللَّهَ على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾** [البَقَرَة: ٢٠] فَالشَّيْءُ الَّذِي قَدَرَ اللَّه عَلَيْهِ إِمَّا أَنْ يَكُونَ مَوْجُودًا أَوْ مَعْدُومًا، وَالْأَوَّلُ مُحَالٌ وَإِلَّا لَزِمَ كَوْنُ الْقَادِرِ قَادِرًا عَلَىٰ إِيجَادِ الْمَوْجُودِ، وَإِذَا بَطَلَ هَذَا ثَبَتَ أَنَّ الشَّيْءَ الَّذِي قَدَرَ اللَّه عَلَيْهِ مَعْدُومٌ فَالْمَعْدُومُ شَيْءٌ. وَاحْتَجُّوا أَيْضًا بِقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: **﴿وَلا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فاعِلٌ ذلِكَ غَداً﴾** [الكَهْف: ٢٣] أَطْلَقَ اسْمَ الشَّيْءِ فِي الْحَالِ عَلَىٰ مَا يَصِيرُ مَفْعُولًا غَدًا، وَالَّذِي يَصِيرُ مَفْعُولًا غَدًا يَكُونُ مَعْدُومًا فِي الْحَالِ، فَالْمَعْدُومُ شَيْءٌ واللَّه أَعْلَمُ وَالْجَوَابُ: عَنِ الْأَوَّلِ أَنَّ الزَّلْزَلَةَ عِبَارَةٌ عَنِ الْأَجْسَامِ الْمُتَحَرِّكَةِ وَهِيَ جَوَاهِرُ قَامَتْ بِهَا أَعْرَاضٌ وَتَحَقُّقُ ذَلِكَ فِي الْمَعْدُومِ مُحَالٌ، فَالزَّلْزَلَةُ يَسْتَحِيلُ أَنْ تَكُونَ شَيْئًا حَالَ عَدَمِهَا، فَلَا بُدَّ مِنَ التَّأْوِيلِ بِالِاتِّفَاقِ وَيَكُونُ الْمَعْنَىٰ أَنَّهَا إِذَا وُجِدَتْ صَارَتْ شَيْئًا، وَهَذَا هُوَ الْجَوَابُ عَنِ الْبَوَاقِي.

المسألة السَّادِسَةُ: وَصَفَ اللَّه تَعَالَىٰ الزَّلْزَلَةَ بِالْعَظِيمِ وَلَا عَظِيمَ أَعْظَمُ مِمَّا عَظَّمَهُ اللَّه تَعَالَىٰ. أَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: **﴿يَوْمَ تَرَوْنَها﴾**، فَهُوَ مَنْصُوبٌ بِتَذْهَلُ أَيْ تَذْهَلُ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ وَالضَّمِيرُ فِي تَرَوْنَهَا يُحْتَمَلُ أَنْ يَرْجِعَ إِلَىٰ الزَّلْزَلَةِ وَأَنْ يَرْجِعَ إِلَىٰ السَّاعَةِ لِتَقَدُّمِ ذِكْرِهِمَا، وَالْأَقْرَبُ رُجُوعُهُ إِلَىٰ الزَّلْزَلَةِ لِأَنَّ مُشَاهَدَتَهَا هِيَ الَّتِي تُوجِبُ الْخَوْفَ الشَّدِيدَ.

وَاعْلَمْ أَنَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ذَكَرَ مِنْ أَهْوَالِ ذَلِكَ الْيَوْمِ أُمُورًا ثَلَاثَةً:

أَحَدُهَا: قَوْلُهُ: **﴿تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ﴾**، أَيْ: تُذْهِلُهَا الزَّلْزَلَةُ وَالذُّهُولُ الذَّهَابُ عَنِ الْأَمْرِ مَعَ دَهْشَةٍ، فَإِنْ قِيلَ: لِمَ قَالَ مُرْضِعَةٍ دُونَ مُرْضِعٍ؟ قُلْتُ الْمُرْضِعَةُ هِيَ الَّتِي فِي حَالِ الْإِرْضَاعِ وَهِيَ مُلْقِمَةٌ ثَدْيَهَا الصَّبِيَّ وَالْمُرْضِعُ شَأْنُهَا أَنْ تُرْضِعَ، وَإِنْ لَمْ تُبَاشِرِ الْإِرْضَاعَ فِي حَالِ وَصْفِهَا بِهِ، فَقِيلَ مُرْضِعَةٌ لِيَدُلَّ عَلَىٰ أَنَّ ذَلِكَ الْهَوْلَ إِذَا فُوجِئَتْ بِهِ هَذِهِ وَقَدْ أَلْقَمَتِ الرَّضِيعَ ثَدْيَهَا نَزَعَتْهُ مِنْ فِيهِ لِمَا يَلْحَقُهَا مِنَ الدَّهْشَةِ، وَقَوْلُهُ: عَمَّا أَرْضَعَتْ، أَيْ: عَنْ إِرْضَاعِهَا أَوْ عَنِ الَّذِي أَرْضَعَتْهُ وَهُوَ الطِّفْلُ فَتَكُونُ مَا بِمَعْنَى مَنْ» عَلَىٰ هَذَا التَّأْوِيلِ.

وَثَانِيهَا: قَوْلُهُ: وَتَضَعُ كُلُّ ذاتِ حَمْلٍ حَمْلَها، وَالْمَعْنَىٰ أَنَّهَا تُسْقِطُ وَلَدَهَا لِتَمَامٍ أَوْ لِغَيْرِ تَمَامٍ مِنْ هَوْلِ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَهَذَا يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّ هَذِهِ الزَّلْزَلَةَ إِنَّمَا تَكُونُ قَبْلَ الْبَعْثِ، قَالَ الْحَسَنُ: تَذْهَلُ الْمُرْضِعَةُ عَنْ وَلَدِهَا بِغَيْرِ فِطَامٍ وَأَلْقَتِ الْحَوَامِلُ مَا فِي بُطُونِهَا لِغَيْرِ تَمَامٍ، وَقَالَ الْقَفَّالُ: يُحْتَمَلُ أَنْ يُقَالَ مَنْ مَاتَتْ حَامِلًا أَوْ مُرْضِعَةً

تُبْعثُ حامِلًا أَوْ مُرْضِعَةً تَضَعُ حَمْلَهَا مِنَ الْفَزَعِ، وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ مِنْ ذُهُولِ الْمُرْضِعَةِ وَوَضْعِ الْحَمْلِ عَلَىٰ جِهَةِ الْمَثَلِ كَمَا قَدْ تَأَوَّلَ قَوْلُهُ: ﴿**يَوْماً يَجْعَلُ الْوِلْدانَ شِيباً**﴾ [المزمل: ١٧] .

وَثَالِثُهَا: قَوْلُهُ: ﴿**وَتَرَى النَّاسَ سُكارى**﴾ ، وَفِيهِ مَسَائِلُ:

المسألة الْأُولَى: قُرِئَ (وَتُرَىٰ) بِالضَّمِّ تَقُولُ أُرِيتُكَ قَائِمًا أَوْ رَأَيْتُكَ قَائِمًا وَالنَّاسَ بِالنَّصْبِ وَالرَّفْعِ، أَمَّا النَّصْبُ فَظَاهِرٌ، وَأَمَّا الرَّفْعُ فَلِأَنَّهُ جَعَلَ النَّاسَ اسْمَ مَا لَمْ يُسَمَّ فَاعِلُهُ وَأَنَّثَهُ علىٰ تأويل الجماعة، وقرئ (سكرىٰ) و (سكارىٰ) ، وَهُوَ نَظِيرُ جَوْعَىٰ وَعَطْشَىٰ فِي جَوْعَانَ وَعَطْشَانَ، سَكَارَىٰ وَسُكَارَىٰ نَحْوُ كَسَالَىٰ وَعُجَالَىٰ، وَعَنِ الْأَعْمَشِ: سَكْرَىٰ وَسُكْرَىٰ بِالضَّمِّ وَهُوَ غَرِيبٌ.

المسألة الثَّانِيَةُ: الْمَعْنَىٰ وَتَرَاهُمْ سُكَارَىٰ عَلَى التَّشْبِيهِ وَمَا هُمْ بِسُكَارَىٰ عَلَىٰ التَّحْقِيقِ، وَلَكِنْ مَا أَرْهَقَهُمْ مِنْ هَوْلِ عَذَابِ اللَّه تَعَالَىٰ هُوَ الَّذِي أَذْهَبَ عُقُولَهُمْ وَطَيَّرَ تَمْيِيزَهُمْ، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَالْحَسَنُ وَنَرَاهُمْ سُكَارَىٰ مِنَ الْخَوْفِ وَمَا هُمْ بِسُكَارَىٰ مِنَ الشَّرَابِ، فَإِنْ قُلْتَ لِمَ قِيلَ أَوَّلًا (تَرَوْنَ) ثُمَّ قِيلَ (تَرَىٰ) عَلَىٰ الْإِفْرَادِ؟ قُلْنَا لِأَنَّ الرُّؤْيَةَ أَوَّلًا عُلِّقَتْ بِالزَّلْزَلَةِ، فَجُعِلَ النَّاسُ جَمِيعًا رَائِينَ لَهَا، وَهِيَ مُعَلَّقَةٌ آخِرًا بِكَوْنِ النَّاسِ عَلَىٰ حَالٍ مِنَ السُّكْرِ، فَلَا بُدَّ وَأَنْ يُجْعَلَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ رَائِيًا لِسَائِرِهِمْ.

المسألة الثَّالِثَةُ: إِنْ قِيلَ أَتَقُولُونَ إِنَّ شِدَّةَ ذَلِكَ الْيَوْمِ تَحْصُلُ لِكُلِّ أَحَدٍ أَوْ لِأَهْلِ النَّارِ خَاصَّةً؟ قُلْنَا قَالَ قَوْمٌ إِنَّ الْفَزَعَ الْأَكْبَرَ وَغَيْرَهُ يَخْتَصُّ بِأَهْلِ النَّارِ، وَإِنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ يُحْشَرُونَ وَهُمْ آمِنُونَ. وَقِيلَ : بَلْ يَحْصُلُ لِلْكُلِّ لِأَنَّهُ سُبْحَانَهُ لَا اعْتِرَاضَ لِأَحَدٍ عَلَيْهِ فِي شَيْءٍ مِنْ أَفْعَالِهِ، وَلَيْسَ لِأَحَدٍ عَلَيْهِ حق" .

الفَصْلُ الرَّابِعُ

۞۞۞ البَعْثُ وَالمَعَادُ وَالحَشْرُ وَالنَّشْرِ ۞۞۞

البعثُ هو إعادة الله تعالىٰ الإنسان بروحه وجسده إلىٰ الحياة مرَّة أخرىٰ ، وهو المقصود بالمعاد الجسماني عند الإطلاق ، أمَّا النُّشور فيعني قيام النَّاس وانتشارهم من قبورهم إلىٰ الموقف للحساب والجزاء ...

وحاصل الكلام في هذا الفصل ينتظم في جواب الأسئلة التَّالية :

﴿سُؤالٌ﴾: مَا مَعْنَى المَعَادَ لُغَةً وَاصْطِلَاحَاً ؟

الجواب : قال الإمام ابن منظور في " لسان العرب" (٣/ ٣١٧) : " المَعادُ: المَصِيرُ والمَرْجِعُ، وَالْآخِرَةُ: مَعادُ الخلقِ. قَالَ ابْنُ سِيدَهْ: وَالْمَعَادُ الآخرةُ وَالْحَجُّ. وَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ: **﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرادُّكَ إِلى مَعادٍ﴾** ؛ يَعْنِي إِلىٰ مَكَّةَ، عِدَةٌ لِلنَّبِيِّ، صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَن يَفْتَحَهَا لَهُ؛ وَقَالَ الْفَرَّاءُ: إِلىٰ مَعَادٍ حَيْثُ وُلِدْتَ؛ وَقَالَ ثَعْلَبٌ: مَعْنَاهُ يَرُدُّكَ إِلىٰ وَطَنِكَ وَبَلَدِكَ؛ وَذَكَرُوا أَن جِبْرِيلَ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، اشْتَقْتَ إِلىٰ مَوْلِدِكَ وَوَطَنِكَ؟ قَالَ: نَعَمْ، فَقَالَ لَهُ: **﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرادُّكَ إِلى مَعادٍ﴾** ؛ قَالَ: والمَعادُ هَاهُنَا إِلىٰ عادَتِك حَيْثُ وُلِدْتَ وَلَيْسَ مِنَ العَوْدِ، وَقَدْ يَكُونُ أَن يُجْعَلَ قَوْلُهُ : **﴿لَرادُّكَ إِلى مَعادٍ﴾** ، لَمُصَيِّرُكَ إِلىٰ أَن تَعُودَ إِلىٰ مَكَّةَ مَفْتُوحَةً لَكَ، فَيَكُونُ المَعادُ تَعَجُّبًا إِلىٰ معادٍ أَيِّ معادٍ لِمَا وَعَدَهُ مِنْ فَتْحِ مَكَّةَ. وَقَالَ الْحَسَنُ: معادٍ الآخرةُ، وَقَالَ مُجَاهِدٌ: يُحْيِيه يَوْمَ الْبَعْثِ، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: أَي إِلىٰ مَعْدِنِك مِنَ الْجَنَّةِ، وَقَالَ اللَّيْثُ: المَعادَةُ والمَعاد كَقَوْلِكَ لِآلِ فُلَانٍ مَعادَةٌ ، أَي : مُصِيبَةٌ يَغْشَاهُمُ النَّاسُ فِي مَناوِحَ أَو غَيْرِهَا يَتَكَلَّمُ بِهِ النِّسَاءُ؛ يُقَالُ: خَرَجْتُ إِلىٰ المَعادةِ والمَعادِ والمأْتم. والمَعادُ: كُلُّ شَيْءٍ إِليه الْمَصِيرُ. قَالَ: وَالْآخِرَةُ مَعَادٌ لِلنَّاسِ، وأَكثر التَّفْسِيرِ فِي قوله : **﴿لَرادُّكَ إِلى مَعادٍ﴾** ، لَبَاعِثُكَ. وَعَلَىٰ هَذَا كَلَامُ النَّاسِ: اذْكُرِ المَعادَ أَي اذْكُرْ مَبْعَثَكَ فِي الْآخِرَةِ " .

ومعنىٰ المعاد في الشَّرع هو : " الرُّجوع إلىٰ الوجود بعد الفناء، أو رجوع أجزاء البدن إلىٰ الاجتماع بعد التَّفرُّق، وإلىٰ الحياة بعد الموت، والأرواح إلىٰ الأبدان بعد المفارقة" . انظر : شرح المقاصد (٥/ ٨٢) .

وعلىٰ هذا يطلق علىٰ يوم القيامة يوم المعاد ، لأنَّ النَّاس يعودون فيه أحياء . انظر: الجامع لأحكام القرآن (١٣/ ٣٢١)

قال تعالىٰ : **﴿قُلِ اللَّهُ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾** [يونس:٣٤] ،وقال: **﴿كَما بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾** [الأعراف:٢٩] ، " أَيْ : تَعُودُونَ كَمَا بَدَأَكُمْ، أَيْ كَمَا خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ يُعِيدُكُمْ" . انظر : تفسير القرطبي (٧/ ١٨٨) .

وهناك كلمتان مرادفتان للمعاد، هما: البعث والنُّشور. "وحقيقة البعث إثارة الشَّيء عن خفاء وتحريكه عن سكون" . انظر : التَّذكرة بأحوال الموتىٰ وأمور الآخرة (ص٥٤٩) .

وفي الشَّرع: هو إحياء الله تعالىٰ الموتىٰ من القبور عن طريق جمع أجزائهم وإعادة الأرواح إليها، قال تعالىٰ : ﴿**بَلى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ**﴾ [التغابن:٧] ، " أَيْ : لَتُخْرَجُنَّ مِنْ قُبُورِكُمْ أَحْيَاءً " . انظر : الجامع لأحكام القرآن (١٨/ ١٣٥) ، وانظر للاستزادة: بصائر ذوي التمييز (٢/ ٢١٤-٢١٥) ، فتح الباري (١١/ ٣٩٣) .

"وأمَّا النُّشور فهو عبارة عن الإحياء، يقال: قد أنشر الله الموتىٰ فنشروا، أي: أحياهم فحيوا، ومنه قوله : ﴿**وَانْظُرْ إِلَى الْعِظامِ كَيْفَ نُنْشِزُها**﴾ [البقرة:٢٥٩] ، أي: نحييها " . انظر : التذكرة بأحوال الموتىٰ وأمور الآخرة (ص٥٤٩) .

وقال تعالىٰ : ﴿**ثُمَّ إِذا شاءَ أَنْشَرَهُ**﴾ [عبس:٢٢] ، أي : " أَحْيَاهُ بَعْدَ مَوْتِهِ" . انظر : الجامع لأحكام القرآن (١٩/ ٢١٧) ، وانظر للاستزادة: فتح الباري (١١/ ١١٤) .

وقال تعالىٰ : ﴿**وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّياحَ فَتُثِيرُ سَحاباً فَسُقْناهُ إِلى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها كَذلِكَ النُّشُورُ**﴾ [فاطر:٩] ، " أي " كذلك تحيون بعد ما مُتُّمْ" . انظر : الجامع لأحكام القرآن (١٤/ ٣٢٧) .

فتبيَّن ممَّا سبق أنَّ المراد بالمعاد والبعث والنُّشور واحد ألا وهو إحياء الله تعالىٰ الأجسام بعد موتها وفنائها للجزاء والحساب.

ويُطلق لفظ المعاد ويُراد به عدة أُمور تشمل: إفناء هذا العالم، ثمَّ بعث الأموات إلىٰ الحياة مرَّة أخرىٰ، ثمَّ ما يتبع ذلك من حشر، وحساب، وصُحف، ووزن أعمال، وصراط، وحوض، وشفاعة، وجنَّة، ونار.

وهذه الأُمور مجتمعة تسمَّىٰ بـ " اليوم الآخر" .

﴿**سُؤالٌ**﴾ : **يُطْلَقُ عَلَى يَوْمِ القِيَامَةِ يَوْمَ المَعَاد لِأَنَّ النَّاسَ يَعُوْدُوْنَ فِيْهِ أَحْيَاء ، فَمَا هِيَ بَقِيَّةُ أَسْمَائِه ؟**

الجواب : ليوم المعاد أو القيامة أسماء عديدة ، ذكر منها القرطبي ما يزيد علىٰ الأربعين اسماً .

وهي أُمور سمعيَّة، أي : أخبرنا بها الله تعالىٰ في كتابه الكريم، أو علىٰ لسان نبيِّه محمَّد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وأمرنا أن نؤمن بها إيماناً صادقاً جازماً، قال تعالىٰ في وصف المؤمنين : ﴿**وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ**﴾ [البقرة:٤] .

قال الإمام القرطبي في " التَّذكرة بأحوال الموتىٰ وأمور الآخرة" (ص٥٤٣ فما بعدها) في حديثه عن أسماء يوم القيامة : " ... يوم الانشقاق ، ويوم الانفطار ، ويوم التَّكوير ، ويوم الانكدار ، ويوم الانتثار ، ويوم التَّسيير ، قال الله تعالىٰ: ﴿**وَتَسِيرُ الْجِبالُ سَيْراً**﴾ [الطور:١٠] ، ﴿**وَإِذَا الْجِبالُ سُيِّرَتْ**﴾ [التكوير:٣] ، ويوم التَّعطيل ، ويوم التَّسجير ، ويوم التَّفجير ، ويوم الكشط والطَّي ، ويوم المدّ ، لقوله تعالىٰ: ﴿**وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ**﴾ [الانشقاق:٣] ، إلىٰ غير ذلك من أسماء القيامة وهي السَّاعة الموعود أمرها ، ولعظمها أكثر النَّاس

السُّؤال عنها لرسول الله صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حتىٰ أنزل الله عزَّ وجلَّ علىٰ رسوله : **﴿يَسْئَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْساها قُلْ إِنَّما عِلْمُها عِنْدَ رَبِّي لا يُجَلِّيها لِوَقْتِها إِلاَّ هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ لا تَأْتِيكُمْ إِلاَّ بَغْتَةً﴾** [الأعراف:١٨٧] ، وكلُّ ما عظم شأنه تعدَّدت صفاته وكثرت أسماؤه ، وهذا جميع كلام العرب ، ألا ترىٰ أنَّ السَّيف لما عظم عندهم موضعه ، وتأكَّد نفعه لديهم وموقعه ، جمعوا له خمسمائة اسم ، وله نظائر ، فالقيامة لمَّا عظم أمرها، وكثرت أهوالها، سمَّاها الله تعالىٰ في كتابه بأسماء عديدة، ووصفها بأوصاف كثيرة ، منها ما ذكرناه، ممَّا وقع في هذه السُّور الثَّلاث.

وقيل: إنَّ الله تعالىٰ يبعث الأيَّام يوم القيامة علىٰ هيئتها فتوقف بين يدي الله تعالىٰ ، ويوم الجمعة فيها زهراء مضيئة يعرفها الخلائق ، فيوم القيامة يوم يتضمَّن الأيَّام كلَّها فسمِّي بكلِّ حال يوماً ، فقيل: **﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ﴾**[النبأ:١٨] ، ثم قيل: **﴿يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَراشِ الْمَبْثُوثِ﴾**[القارعة:٤] ، ثمَّ قيل: **﴿يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَداهُ﴾**[النبأ:٤٠] ، فهذه حالة أخرىٰ ، ثمَّ قيل: **﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ﴾**[الحاقة:١٨] ، ثمَّ قيل: **﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتاتاً﴾** [الزلزلة:٦] ، فهذه أحوال .

وقد يجري يوم القيامة بطوله علىٰ هذه الأحوال ، كلُّ حال منها كاليوم المتجدِّد ، ولذلك كرِّرت في قوله تعالىٰ: **﴿وَما أَدْراكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ * ثُمَّ مَا أَدْراكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ﴾**[الانفطار:١٧-١٨] .

لأنَّ ذلك اليوم ومن بعده يوم، واليوم العظيم متضمِّن لهذه الأيَّام ، فهو لله يوم وللخلائق أيَّام ، قد عرفت أيَّامهم في يومه وقد بطل الليل والنَّهار ، قاله التِّرمذي الحكيم.

وممَّا قيل في معنىٰ ما ذكرنا من النَّظم قول بعضهم:

مَثِّلْ لِنَفْسِكَ أَيُّهَا المغرورُ ... يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاءُ تَمُورُ
إِذْ كُوِّرَتْ شَمْسُ النَّهَارِ وَأُدْنِيَتْ ... حَتَّىٰ عَلَىٰ رَأْسِ الْعِبَادِ تَسير
وَإِذَا النُّجُومُ تَسَاقَطَتْ وَتَنَاثَرَتْ ... وَتَبَدَّلَتْ بَعْدَ الضِّيَاءِ كُدُورُ
وإذا البحار تفجَّرت من خوفها ... ورأيتها مثل الجحيم تفور
وَإِذَا الْجِبَالُ تَقَلَّعَتْ بِأُصُولِها ... فَرَأَيْتَهَا مِثْلَ السَّحَاب تَسِيرُ
وَإِذَا الْعِشَارُ تَعَطَّلَتْ وتخرَّبت ... خَلَتَ الدِّيَارَ فَمَا بِهَا مَعْمُورُ
وَإِذَا الْوُحُوشُ لَدَىٰ الْقِيَامَةِ أُحْشِرَتْ ... وَتَقُولُ لِلأَمْلاكِ أَيْنَ نَسِيرُ
وإذا تقاة المسلمين تزوَّجت ... من حور عين زانهنَّ شعور
وإذا الموؤدة سئلت عن شأنها ... وبأي ذنب قتلها ميسور

وَإِذَا الْجَلِيلُ طَوَىٰ السَّمَا بِيَمِينِهِ   طَيَّ السِّجِلِ كِتَابَهُ الْمَنْشُورِ
وَإِذَا الصَّحَائِفُ عند ذاك تساقطت   تبدي لنا يوم القصاص أمور
وَإِذَا الصَّحَائِفُ نُشِّرَتْ وَتَطَايَرَتْ   وَتَهَتَّكَتْ لِلْعَالَمِينَ سُتُورْ
وَإِذَا الجَحِيمُ تَسَّعَرَتْ نِيرَانُهَا   وَلَهَا عَلَىٰ أَهْلِ الذُّنُوبِ زَفِيرْ
وَإِذَا الجِنَانُ تَزَخْرَفَتْ وَتَطَيَّبَتْ   لِفَتَىً عَلَىٰ طُولِ الْبَلاءِ صَبُورْ
وَإِذَا الْوَلِيدُ بِأُمِّهِ مُتَعَلِّقٌ   يخْشَىٰ الْقِصَاصَ وَقَلْبُهُ مَذْعُورْ
هَذَا بِلا ذَنْبٍ يَخَـــــافُ جِنَايَةً   كَيْفَ الْمُصِرُّ عَلَىٰ الذُّنُـــوبِ دُهُورْ

وَمِنْهَا السَّاعَةُ : قال الله تعالىٰ : ﴿**وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ ساعَةٍ**﴾[الروم:٥٥] ، وقال : ﴿**وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ**﴾ [الروم:١٢] ، ﴿**وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ**﴾ [الروم:١٤] ، ، وقال : ﴿**وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذابِ**﴾[غافر:٤٦] ، وهو في القرآن كثير، والسَّاعة كلمة يعبَّر بها في العربيَّة عن جزء من الزَّمان غير محدود ، وفي العُرف علىٰ جزء من أربعة وعشرين جزءاً من يوم وليلة ، والذين هما أصل الأزمنة، وتقول العرب : أفعل كذا السَّاعة، وأنا السَّاعة في أمر كذا ، تريد الوقت الذي أنت فيه، والذي يليه تقريباً له ، وحقيقة الإطلاق فيها أنَّ السَّاعة بالألف واللام عبارة في الحقيقة عن الوقت الذي أنت فيه ، وهو المسمَّىٰ بالآن ، وسمِّيت به القيامة إمَّا لقربها ، فإنَّ كلّ آت قريب، وإمَّا أن تكون سمِّيت بها تنبيهاً علىٰ ما فيها من الكائنات العظام التي تصهر الجلود وتكسر العظام ، وقيل: إنَّما سمِّيت بالسَّاعة لأنَّها تأتي بغتة في ساعة، وقيل: إنَّما سمِّيت بالسَّاعة لأنَّ الله تعالىٰ يأمر السَّماء أن تمطر بماء الحيوان حتىٰ تنبت الأجسام في مدافنها ومواضعها حيث كانت من بحر أو برّ ، وتستقل وتتحرَّك بحياتها بماء الحيوان، وليست فيها أرواح ، ثمَّ يدعو الأرواح، فأرواح المؤمنين تتوقَّد نوراً، وأرواح الكافرين تتوهَّج ظلمة، فإذا دعا الأرواح ألقاها في الصُّور ، ثمَّ يأمر إسرافيل أن ينفخ في الصُّور ، فإذا نفخ فيه خرجت من الصُّور ثمَّ أمرت أن تلحق الأجساد فتبعث إلىٰ الأجساد في أسرع من اللمحة، وإنَّما سمِّيت السَّاعة لسعي الأرواح إلىٰ الأجساد في تلك السُّرعة ، فهي سايع وجمعها ساعة كقولك: بائع وباعة ، وصايغ وصاغة ، وكائل وكالة، فتوصف أنَّ سائر أموره في السُّرعة كلمح البصر ، قاله التِّرمذي الحكيم.

وذكر أبو نعيم الحافظ بإسناده عن وهب بن منبِّه ، قَالَ: «إِذَا قَامَتِ السَّاعَةُ صَرَخَتِ الْحِجَارَةُ صُرَاخَ النِّسَاءِ، وَقَطَرَتِ الْعِضَاهُ دَمًا» . انظر : حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٤/ ٦٣) .

وَمِنْهَا : **القِّيَامَةُ** : قال الله تعالىٰ : **﴿لا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيامَةِ﴾** [القيامة:١] ، والقيامة: هي في العربيَّة مصدر قام يقوم ، ودخلها التَّأنيث للمبالغة علىٰ عادة العرب، واختلف في تسميتها بذلك علىٰ أربعة أقوال :

الأَوَّلُ: لوجود هذه الأمور فيها.

الثَّانِي: لقيام الخلق من قبورهم إليها ، قال الله تعالىٰ : **﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْداثِ سِراعاً﴾** [المعارج:٤٣]

.

الثَّالِثُ: لقيام النَّاس لربِّ العالمين ، كما روىٰ مسلم (٤/ ٢١٩٥ برقم ٢٨٦٢) عَنِ ابْنِ عُمَرَ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾** [المطففين: ٦] ، قَالَ: «يَقُومُ أَحَدُهُمْ فِي رَشْحِهِ إِلَىٰ أَنْصَافِ أُذُنَيْهِ . قال ابن عمر رضي الله عنهما : يقومون مائة سنة .

ويروىٰ عن كعب : يقومون ثلاثمائة سنة .

الرَّابِعُ: لقيام الرُّوح والملائكة صفَّاً.

قال الله تعالىٰ : **﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلائِكَةُ صَفًّا﴾** [النبأ:٣٨] .

قال علماؤنا: واعلم أنَّ كلَّ ميِّت مات فقد قامت قيامته، ولكنَّها قيامة صغرىٰ وكبرىٰ، فالصُّغرىٰ هي ما يقوم علىٰ كلِّ إنسان في خاصَّته من خروج روحه ، وفراق أهله ، وانقطاع سعيه ، وحصوله علىٰ عمله ، إن كان خيراً فخير ، وإن كان شرَّاً فشر، والقيامة الكبرىٰ هي التي تعمُّ النَّاس وتأخذهم أخذة واحدة، والدَّليل علىٰ أنَّ كلَّ ميِّت يموت فقد قامت قيامته قول النَّبي صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لقوم من الأعراب وقد سألوه متىٰ القيامة؟ فَنَظَرَ إِلَىٰ أَحْدَثِ إِنْسَانٍ مِنْهُمْ، فَقَالَ: «إِنْ يَعِشْ هَذَا، لَمْ يُدْرِكْهُ الْهَرَمُ، قَامَتْ عَلَيْكُمْ سَاعَتُكُمْ» . أخرجه مسلم (٤/ ٢٢٦٩ برقم ٢٩٥٢) وغيره، وقال الشَّاعر:

خرجت من الدُّنيا وقامت قيامتي ... غداة أقلَّ الحاملون جنازتي
عجَّل أهلي حفر قبري وصيَّروا ... خروجي وتعجيلي إليه كرامتي
كأنَّهم لم يعرفوا قطّ سيرتي ... غداة أتىٰ يومي عليَّ وساعتي

وَمِنْهَا : يوم النَّفخة ، قال الله تعالىٰ : **﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ﴾** [النبأ:١٨] ، وقد مضىٰ القول فيه.

وَمِنْهَا : يَوْمُ الزَّلْزَلَة وَيَوْمُ الرَّجْفَة : قال الله تعالىٰ : **﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ * تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ﴾** [النازعات:٦-٧] ، وقد تقدَّم.

وَمِنْهَا : يوم النَّاقور : كقوله تعالىٰ : **﴿فَإِذا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ﴾** [المدثر:٨] ، وقد تقدَّم القول فيه ، والحمد لله.

وَمِنْهَا : القارعة : سمِّيت بذلك لأنَّها تقرع القلوب بأهوالها ، يقال: قد أصابتهم قوارع الَّدهر ، أي : أهواله وشدائده، قالت الخنساء:

تعرَّفني الدَّهر نهشاً وحزَّاً وأوجعني الدَّهر قرعاً وغمزا

أرادت أنَّ الدَّهر أوجعها بكبريات نوائبه وصغرياتها .

وَمِنْهَا : يوم البعث : وحقيقته إثارة الشَّيء عن خفاء وتحريكة عن سكون، قال عنترة:

وعصابة شمّ الأنوف بعثهم ليلاً وقد مال الكرا بطلاها

وقال امرؤ القيس:

وفتيان صدق قد بعثت بسحرة فقاموا جميعاً بين غات ونسوان

وقد تقدَّم القول فيه وفي صفته والحمد لله.

وَمِنْهَا : يوم النُّشور : وهو عبارة عن الإحياء ، يقال: قد أنشر الله الموتىٰ فنشروا ، أي : أحياهم الله فحييوا ، ومنه قوله تعالىٰ : **﴿وَانْظُرْ إِلَى الْعِظامِ كَيْفَ نُنْشِزُها﴾** [البقرة:٢٥٩] ، أي : نحييها، وقد يكون معناه التَّفريق ، من ذلك قولك : أمرهم نشر.

وَمِنْهَا : يوم الخروج : قال الله تعالىٰ : **﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْداثِ سِراعاً﴾** [المعارج:٤٣] ، فأوَّله الخروج من القبور وآخره خروج المؤمنين من النَّار ثمَّ لا خروج ولا دخول علىٰ ما يأتي.

وَمِنْهَا : يوم الحشر : وهو عبارة عن الجمع، وقد يكون مع الفعل إكراه قال الله تعالىٰ: **﴿وَأَرْسِلْ فِي الْمَدائِنِ حاشِرِينَ﴾** [الأعراف:١١١] ، أي من يسوق السَّحرة كرهاً وقد مضىٰ القول في الحشر مستوفىٰ ، والحمد لله.

وَمِنْهَا : يوم العرض : قال الله تعالىٰ: **﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لا تَخْفى مِنْكُمْ خافِيَةٌ﴾** [الحاقة:١٨] ، وقال: **﴿وَعُرِضُوا عَلى رَبِّكَ صَفًّا﴾** [الكهف:٤٨] ، وحقيقتة إدراك الشَّيء بإحدىٰ الحواس ليعلم حاله ، وغايته السَّمع والبصر ، فلا يزال الخلق قياماً في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ما شاء الله أن يقوموا حتىٰ يلهموا أو يهتموا.

فيقولون: قد كنَّا نستشفع في الدُّنيا ، فهلمَّ فلنسال الشَّفاعة إلىٰ ربِّنا فيقولون: أئتوا آدم الحديث ، وسيأتي.

قال ابن العربي: وفي كيفيَّة العرض أحاديث كثيرة المعوَّل منها على تسعة أحاديث في تسعة أوقات:

الأَوَّلُ: الحديث المشهور الصَّحيح (بخاري ٦/ ٤٤ برقم ٤٥٨١)، (مسلم ١/ ١٦٧ برقم ١٨٣) رواه «أبو هريرة وأبو سعيد الخدري رضي الله عنهما واللفظ له قال: أَنَّ أُنَاسًا فِي زَمَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ هَلْ نَرَى رَبَّنَا يَوْمَ القِيَامَةِ؟ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «نَعَمْ، هَلْ تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ الشَّمْسِ بِالظَّهِيرَةِ ضَوْءٌ لَيْسَ فِيهَا سَحَابٌ»، قَالُوا: لاَ، قَالَ «وَهَلْ تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ القَمَرِ لَيْلَةَ البَدْرِ ضَوْءٌ لَيْسَ فِيهَا سَحَابٌ؟»: قَالُوا: لاَ، قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " مَا تُضَارُونَ فِي رُؤْيَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ يَوْمَ القِيَامَةِ، إِلَّا كَمَا تُضَارُونَ فِي رُؤْيَةِ أَحَدِهِمَا، إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ لِيَتَّبِعْ كُلُّ أُمَّةٍ مَا كَانَتْ تَعْبُدُ، فَلَا يَبْقَى أَحَدٌ كَانَ يَعْبُدُ غَيْرَ اللهِ سُبْحَانَهُ مِنَ الْأَصْنَامِ وَالْأَنْصَابِ إِلَّا يَتَسَاقَطُونَ فِي النَّارِ، حَتَّى إِذَا لَمْ يَبْقَ إِلَّا مَنْ كَانَ يَعْبُدُ اللهَ مِنْ بَرٍّ وَفَاجِرٍ وَغُبَّرِ أَهْلِ الْكِتَابِ، فَيُدْعَى الْيَهُودُ، فَيُقَالُ لَهُمْ: مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ؟ قَالُوا: كُنَّا نَعْبُدُ عُزَيْرَ ابْنَ اللهِ، فَيُقَالُ: كَذَبْتُمْ مَا اتَّخَذَ اللهُ مِنْ صَاحِبَةٍ وَلَا وَلَدٍ، فَمَاذَا تَبْغُونَ؟ قَالُوا: عَطِشْنَا يَا رَبَّنَا، فَاسْقِنَا، فَيُشَارُ إِلَيْهِمْ أَلَا تَرِدُونَ؟ فَيُحْشَرُونَ إِلَى النَّارِ كَأَنَّهَا سَرَابٌ يَحْطِمُ بَعْضُهَا بَعْضًا، فَيَتَسَاقَطُونَ فِي النَّارِ، ثُمَّ يُدْعَى النَّصَارَى، فَيُقَالُ لَهُمْ: مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ؟ قَالُوا: كُنَّا نَعْبُدُ الْمَسِيحَ ابْنَ اللهِ، فَيُقَالُ لَهُمْ، كَذَبْتُمْ مَا اتَّخَذَ اللهُ مِنْ صَاحِبَةٍ وَلَا وَلَدٍ، فَيُقَالُ لَهُمْ: مَاذَا تَبْغُونَ؟ فَيَقُولُونَ: عَطِشْنَا يَا رَبَّنَا، فَاسْقِنَا، قَالَ: فَيُشَارُ إِلَيْهِمْ أَلَا تَرِدُونَ؟ فَيُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ كَأَنَّهَا سَرَابٌ يَحْطِمُ بَعْضُهَا بَعْضًا، فَيَتَسَاقَطُونَ فِي النَّارِ حَتَّى إِذَا لَمْ يَبْقَ إِلَّا مَنْ كَانَ يَعْبُدُ اللهَ تَعَالَى مِنْ بَرٍّ وَفَاجِرٍ أَتَاهُمْ رَبُّ الْعَالَمِينَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي أَدْنَى صُورَةٍ مِنَ الَّتِي رَأَوْهُ فِيهَا قَالَ: فَمَا تَنْتَظِرُونَ؟ تَتْبَعُ كُلُّ أُمَّةٍ مَا كَانَتْ تَعْبُدُ، قَالُوا: يَا رَبَّنَا، فَارَقْنَا النَّاسَ فِي الدُّنْيَا أَفْقَرَ مَا كُنَّا إِلَيْهِمْ، وَلَمْ نُصَاحِبْهُمْ، فَيَقُولُ: أَنَا رَبُّكُمْ، فَيَقُولُونَ: نَعُوذُ بِاللهِ مِنْكَ لَا نُشْرِكُ بِاللهِ شَيْئًا مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا، حَتَّى إِنَّ بَعْضَهُمْ لَيَكَادُ أَنْ يَنْقَلِبَ، فَيَقُولُ: هَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ آيَةٌ فَتَعْرِفُونَهُ بِهَا؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ، فَيُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ فَلَا يَبْقَى مَنْ كَانَ يَسْجُدُ لِلَّهِ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِهِ إِلَّا أَذِنَ اللهُ لَهُ بِالسُّجُودِ، وَلَا يَبْقَى مَنْ كَانَ يَسْجُدُ اتِّقَاءً وَرِيَاءً إِلَّا جَعَلَ اللهُ ظَهْرَهُ طَبَقَةً وَاحِدَةً، كُلَّمَا أَرَادَ أَنْ يَسْجُدَ خَرَّ عَلَى قَفَاهُ، ثُمَّ يَرْفَعُونَ رُءُوسَهُمْ وَقَدْ تَحَوَّلَ فِي صُورَتِهِ الَّتِي رَأَوْهُ فِيهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ، فَقَالَ: أَنَا رَبُّكُمْ، فَيَقُولُونَ: أَنْتَ رَبُّنَا، ثُمَّ يُضْرَبُ الْجِسْرُ عَلَى جَهَنَّمَ، وَتَحِلُّ الشَّفَاعَةُ، وَيَقُولُونَ: اللهُمَّ سَلِّمْ، سَلِّمْ "، وذكر الحديث وسيأتي تمامه إن شاء الله تعالى.

الثَّانِي: صحَّ حديث «عائشة رضي الله عنها أنَّها قالت: سمعت رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «مَنْ نُوقِشَ الحِسَابَ عُذِّبَ» قَالَتْ: قُلْتُ: أَلَيْسَ يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: **﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾** [الانشقاق: ٨] قَالَ: «ذَلِكِ العَرْضُ». أخرجه البخاري (٨/ ١١١ برقم ٦٥٣٦).

الثَّالِثُ: روىٰ الحسن، «عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تعرض النَّاس يوم القيامة ثلاث عرضات» . أخرجه أحمد في المسند (٣٢/ ٤٨٦ برقم ١٩٧١٥) ، قال : حَدَّثَنَا وَكِيعٌ قَالَ: حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ عَلِيِّ بْنِ رِفَاعَةَ، عَنْ الْحَسَنِ، عَنْ أَبِي مُوسَىٰ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "يُعْرَضُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثَلَاثَ عَرَضَاتٍ: فَأَمَّا عَرْضَتَانِ فَجِدَالٌ وَمَعَاذِيرُ، وَأَمَّا الثَّالِثَةُ فَعِنْدَ ذَلِكَ تَطِيرُ الصُّحُفُ فِي الْأَيْدِي فَآخِذٌ بِيَمِينِهِ وَآخِذٌ بِشِمَالِهِ" . قال الأرنؤوط : " إسناده ضعيف لانقطاعه، الحسن البصري لم يسمع من أبي موسىٰ " .

الرَّابِعُ: روي عن «أنس رضي الله عنه أنه قال عن النَّبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "يُجَاءُ بِابْنِ آدَمَ يَوْمَ القِيَامَةِ كَأَنَّهُ بَذَجٌ ..." . الحديث . أخرجه الترمذي (٤/ ١٩٦ برقم ٢٤٢٧) ، وقال : وَقَدْ رَوَىٰ هَذَا الحَدِيثَ غَيْرُ وَاحِدٍ عَنِ الحَسَنِ، قَوْلَهُ وَلَمْ يُسْنِدُوهُ، وَإِسْمَاعِيلُ بْنُ مُسْلِمٍ يُضَعَّفُ فِي الحَدِيثِ مِنْ قِبَلِ حِفْظِهِ " .

الخَامِسُ: ثبت عن «أبي هريرة رضي الله عنه وأبي سعيد الخدري واللفظ له: "يُؤْتَىٰ بِالعَبْدِ يَوْمَ القِيَامَةِ فَيَقُولُ اللَّهُ لَهُ: أَلَمْ أَجْعَلْ لَكَ سَمْعًا وَبَصَرًا وَمَالاً وَوَلَدًا، وَسَخَّرْتُ لَكَ الأَنْعَامَ وَالحَرْثَ، وَتَرَكْتُكَ تَرْأَسُ وَتَرْبَعُ فَكُنْتَ تَظُنُّ أَنَّكَ مُلاَقِي يَوْمَكَ هَذَا؟ فَيَقُولُ: لاَ، فَيَقُولُ لَهُ: اليَوْمَ أَنْسَاكَ كَمَا نَسِيتَنِي " ، وهذا حديث صحيح.

قلت: خرَّجه مسلم والتِّرمذي (٤/ ١٩٧ برقم ٢٤٢٨ ، وقال : هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ غَرِيبٌ. وَمَعْنَىٰ قَوْلِهِ: اليَوْمَ أَنْسَاكَ، يَقُولُ: اليَوْمَ أَتْرُكُكَ فِي العَذَابِ. هَكَذَا فَسَّرُوهُ. وَقَدْ فَسَّرَ بَعْضُ أَهْلِ العِلْمِ هَذِهِ الآيَةَ ﴿فَالْيَوْمَ نَنْسَاهُمْ﴾ قَالُوا: إِنَّمَا مَعْنَاهُ اليَوْمَ نَتْرُكُهُمْ فِي العَذَابِ.) مطوَّلاً.

السَّادِسُ: ثبت من طُرُق صِحاح «أنَّ النَّبي صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: "يَدْنُو الْمُؤْمِنُ مِنْ رَبِّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَأَنَّهُ بَذَجٌ، فَيَضَعُ عَلَيْهِ كَنَفَهُ - أَيْ يَسْتُرُهُ - ثُمَّ يَقُولُ: أَتَعْرِفُ؟ فَيَقُولُ: رَبِّ أَعْرِفُ. ثُمَّ يَقُولُ: أَتَعْرِفُ؟ فَيَقُولُ: رَبِّ أَعْرِفُ، يَعْنِي فَيَقُولُ: أَنَا سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا، وَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ" . أخرجه أحمد في " المسند" (١٠/ ٨٥ برقم ٥٨٢٥) ، قال الأرنؤوط : " إسناده صحيح علىٰ شرط مسلم، رجاله ثقات رجال الشيخين غير عبد الوهاب بن عطاء، فمن رجال مسلم، وهو ثقة في روايته عن سعيد بن أبي عروبة. وأخرجه الطرسوسي في" مسند ابن عمر" (٢٦) ، وأبو نعيم في"الحلية"٢/ ٢١٦ من طريق عبد الوهاب بن عطاء، بهذا الإسناد. وأخرجه ابن ماجه (١٨٣) ، والنسائي في "الكبرىٰ" (١١٢٤٢) ، وابن خزيمة في "التوحيد"١/ ٣٨٦ من طرق، عن سعيد، به. وأخرجه البخاري في" صحيحه" (٤٦٨٥) ، وفي" خلق أفعال العباد" (٣٣٢) ، والطبري في" تفسيره" (٦٤٩٧) و (١٨٠٨٩) ، وابن خزيمة في" التوحيد"، ١/ ٣٨٧، وابن منده في" الإيمان" (٧٩٠) من طرق، عن سعيد وهشام الدَّستوائي ، به. قوله :"في النجوىٰ"، قال السندي: أي: في النجوىٰ الذي يجري بين العبد والمولىٰ. "كأنه بذج" بموحدة وذال معجمة مفتوحتين، آخره جيم، ولد الضأن، المعنىٰ: أنه يصير بما يعتريه من الذل بين يدي المولىٰ كالبذج. والله تعالىٰ أعلم " .

السَّابِعُ: وفي الصَّحيح «عن أبي ذرٍّ رضي الله عنه قال: قال رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " إِنِّي لَأَعْلَمُ آخِرَ أَهْلِ الْجَنَّةِ دُخُولًا، وَآخَرَ أَهْلِ النَّارِ خُرُوجًا مِنْهَا، رَجُلٌ يُؤْتَىٰ بِهِ فَيُقَالُ: اعْرِضُوا عَلَيْهِ صِغَارَ ذُنُوبِهِ وَارْفَعُوا عَنْهُ كِبَارَهَا » وذكر الحديث. أخرجه مسلم (١/ ١٧٧ برقم ١٩٠).

الثَّامن: وفي الصَّحيح «عن أنس رضي الله عنه أنَّ رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: " يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ أَرْبَعَةٌ فَيُعْرَضُونَ عَلَىٰ اللهِ، فَيَلْتَفِتُ أَحَدُهُمْ، فَيَقُولُ: أَيْ رَبِّ، إِذْ أَخْرَجْتَنِي مِنْهَا فَلَا تُعِدْنِي فِيهَا، فَيُنْجِيهِ اللهُ مِنْهَا " . أخرجه مسلم (١/ ١٨٠ برقم ١٩٢).

وروىٰ مسلم (١/ ١٨٦ برقم ١٩٥) : يَجْمَعُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ النَّاسَ، فَيَقُومُ الْمُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ تُزْلَفَ لَهُمُ الْجَنَّةُ، فَيَأْتُونَ آدَمَ، فَيَقُولُونَ: يَا أَبَانَا، اسْتَفْتِحْ لَنَا الْجَنَّةَ، فَيَقُولُ: وَهَلْ أَخْرَجَكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ إِلَّا خَطِيئَةُ أَبِيكُمْ آدَمَ، لَسْتُ بِصَاحِبِ ذَلِكَ" ، وذكر حديث الشَّفاعة قال الله تعالىٰ : ﴿**وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ**﴾ [الأحقاف:٢٠] ، وذلك قوله في الحديث المتقدِّم : " أَلَا تَرِدُونَ؟ فَيُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ كَأَنَّهَا سَرَابٌ يَحْطِمُ بَعْضُهَا بَعْضًا " .

قال القاضي أبو بكر بن العربي: وهذا ممَّا أغفله الأئمَّة في التَّفسير.

التَّاسِعُ: العرض علىٰ الله ولا أعلمه في الحديث إلَّا قوله في النَّصِّ المتقدِّم : " حَتَّىٰ إِذَا لَمْ يَبْقَ إِلَّا مَنْ كَانَ يَعْبُدُ اللَّهَ مِنْ بَرٍّ، أَوْ فَاجِرٍ، أَتَاهُمْ رَبُّ العَالَمِينَ " ، وذكر الحديث.

قلت: إذا تتبَّعت الأحاديث في هذا الباب علىٰ هذا السِّياق كان الحسن والصَّحيح منها أكثر من تسعة.

وقد خرَّج (الترمذي ٤/ ١٩٠ برقم ٢٤١٧ ، وقال : هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ) عن «أبي بردة الأسلمي رضي الله عنه قال: قال رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " لَا تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، حَتَّىٰ يُسْأَلَ عَنْ أَرْبَعٍ " الحديث ، وسيأتي.

وقوله في الحديث الآخر : «إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ، دَعَا اللَّهُ عَبْدًا مِنْ عَبِيدِهِ، فَيُوقَفُ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَيَسْأَلُهُ عَنْ جَاهِهِ، كَمَا يَسْأَلُهُ عَنْ مَالِهِ» . أخرجه الطبراني في الأوسط (١/ ١٤٢ برقم ٤٤٨)، الصغير (١/ ٣٣ برقم ١٨).

وخرَّج مسلم (٢/ ٧٠٣ برقم ١٠١٦) عن «عدي بن حاتم رضي الله عنه قال: قال رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا سَيُكَلِّمُهُ اللهُ، لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ تُرْجُمَانٌ " الحديث وسيأتي.

وخرَّج البخاري (٦/ ٢١ برقم ٤٤٨٧) عن «أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " يُدْعَىٰ نُوحٌ يَوْمَ القِيَامَةِ، فَيَقُولُ: لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ يَا رَبِّ " الحديث وسيأتي.

ويتضمَّن من غير رواية البخاري عرض اللوح المحفوظ ثمَّ إسرافيل ثمَّ جبرائيل ثمَّ الأنبياء نبيَّاً نبيَّاً صلوات الله عليهم أجمعين، وسيأتي.

وخرَّج التِّرمذي (٤/ ٣٢١ برقم ٢٦٣٩، وقال : هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ) وابن ماجه (٢/ ١٤٣٧ برقم ٤٣٠٠) حديث الرَّجُل الذِيْ يُنْشَرُ لَهُ تِسْعَةٌ وَتِسْعُونَ سِجِلًّا ، وسيأتي.

وهذا كلُّه من باب العَرض علىٰ الله ، وإذا تتبَّعت الأحاديث كانت أكثر من هذا في مواطن مختلفة وأشخاص متباينة والله أعلم . وفي بعض الخبر أنَّه يتمنَّىٰ رجال أن يبعث بهم إلىٰ النَّار، ولا تعرض قبائحهم علىٰ الله تعالىٰ، ولا يكشف مساوئهم علىٰ رؤوس الخلائق.

قلت: وأمَّا ما وقع ذكره في الحديث من كشف السَّاق وذكر الصُّورة ، فيأتي إيضاحه ذلك وكشفه إن شاء الله في حديث أبي هريرة رضي الله عنه من هذا الكتاب إن شاء الله تعالىٰ.

وأمَّا ما جاء من طول هذا اليوم ووقوف الخلائق فيه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، فقد جاء من حديث أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ: قِيلَ لِرَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: يَوْمًا كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، مَا أَطْوَلَ هَذَا الْيَوْمَ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ " وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إِنَّهُ لَيُخَفَّفُ عَلَىٰ الْمُؤْمِنِ، حَتَّىٰ يَكُونَ أَخَفَّ عَلَيْهِ مِنْ صَلَاةٍ مَكْتُوبَةٍ يُصَلِّيهَا فِي الدُّنْيَا " ذكره قاسم بن أصبغ وقيل غير هذا .

والحديث أخرجه أحمد في المسند (١٨/ ٢٤٦ برقم ١١٧١٨) ، قال الأرنؤوط : " إسناده ضعيف " .

وَمِنْهَا : يوم الجمع : وحقيقته في العربيَّة ضمّ واحد إلىٰ واحد، فيكون شفعاً أو زوجاً إلىٰ زوج فيكون جمعاً.

قال الله تعالىٰ: **﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ﴾** [التغابن:٩] ، وقال : **﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ لا رَيْبَ فِيهِ﴾** [النساء:٨٧] ، وهو في القرآن كثير.

وَمِنْهَا : يوم التَّفرُّق : قال الله تعالىٰ : **﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ * فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ * وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآياتِنا وَلِقاءِ الْآخِرَةِ فَأُولئِكَ فِي الْعَذابِ مُحْضَرُونَ﴾** [الروم:١٤-١٦] ، وهو معنىٰ قوله تعالىٰ : **﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾** [الشورىٰ:٧] .

وَمِنْهَا : يوم الصَّدع والصَّدر : قال الله تعالىٰ : **﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتاتاً﴾** [الزلزلة:٦] ، وقال : **﴿يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴾** [الروم:٤٣] ، ومعناهما معنىٰ الاسم الذي قبله.

وَمِنْهَا : يوم البعثرة : ومعناه تتبُّع الشَّيء المختلط مع غيره حتىٰ يخلص منه ، فيخلص الله تعالىٰ الأجساد من التُّراب ، والكافرين من المؤمنين والمنافقين، ثمَّ يخلص المؤمنين من المنافقين ، كما في الحديث

الصَّحيح: يَجْمَعُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ " ، خرَّجه مسلم (١/ ١٨٤ برقم ١٩٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وَمِنْهَا : ما روي «أنَّه يخرج عنق من النَّار فيلتقط الكفَّار لقط الطَّائر حبَّ السُّمسم» ، وهو صحيح أيضاً ، وسيأتي.

وقال صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "يؤخذ برجال ذات الشِّمال فأقول : يا ربّ أصحابي ، فيقول : إنَّك لا تدري ما أحدثوا بعدك" .

وَمِنْهَا : **يوم الفزع** : وحقيقته ضعف النَّفس عن حمل المعاني الطَّارئة عليها خلاف العادة، فإن استمرَّ كان جُبناً ، وعند ذلك تتشوَّق النَّفس إلىٰ ما يقوِّيها ، فلأجل ذلك قالوا: فزعت من كذا ، أي : ضعفت عن حمله عند طريانه علىٰ خلاف العادة، وفزعت إلىٰ كذا ، أي : تشوَّقت نفسي عند ذلك إلىٰ ما يقوِّيها علىٰ ما نزل بها ، والآخرة كلُّها خلاف العادة وهي فزع كلُّها وفي التَّنزيل : **﴿لا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ﴾** [الأنبياء:١٠٣] ، وقد اختلف فيه ، فقيل : هو قوله لا بشرىٰ يومئذ للمجرمين ، وقيل، إذا طبقت النَّار علىٰ أهلها ، وذبح الموت بين الجنَّة والنَّار.

وقال الحسن: هو وقت يؤمر بالعباد إلىٰ النَّار ، وعنه أنَّ الفزع الأكبر النَّفخة الآخرة ، وتتلقَّاهم الملائكة بالبشارة حتىٰ يخرجوا من قبورهم.

وَمِنْهَا : **يوم التَّناد** : بتخفيف الدَّال من النِّداء وتشديدها من ندَّ إذا ذهب وهو قال تعالىٰ : **﴿يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ﴾** [غافر:٣٣] ، وهو الذَّهاب في غير قصد.

وروي أيضاً عن أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: يأمر الله إسرافيل فينفخ نفخة الفزع فيفزع أهل السَّموات والأرض» ، وهي التي يقول الله : **﴿وَما يَنْظُرُ هؤُلاءِ إِلاَّ صَيْحَةً واحِدَةً مَا لَها مِنْ فَواقٍ﴾** [] ، فيسيِّر الله الجبال ، وتُرجُّ الأرض بأهلها رجَّاً ، وهي التي يقول الله : **﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ * تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ * قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ واجِفَةٌ * أَبْصارُها خاشِعَةٌ﴾** [النازعات:٦-٩] ، فيميد النَّاس علىٰ ظهرها ، فتذهل المراضع ، وتضع الحوامل ، وتشيب الولدان ، ويولِّي الَّناس مدبرين ، ينادي بعضهم بعضاً ، وهو الذي يقول الله تعالىٰ : **﴿يَوْمَ التَّنادِ * يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ﴾** [غافر:٣٢-٣٣] .

قال ابن العربي: وقد رويت في ذلك آثار كثيرة هذا أمثلها ، فدعوها، فالمعنىٰ الواحد يكفينا منها ومن هولها ، ومن تحقيق المعنىٰ لها.

قلت: قد بيَّنَّا أقوال العلماء في ذلك عند ذكر حديث أبي هريرة رضي الله عنه في باب : أين تكون النَّاس ، فتأمَّله هناك.

وَمِنْهَا : يوم الدُّعاء وهو النِّداء أيضاً : والنِّداء على ثمانية وجوه فيما ذكر ابن العربي:

الأَوَّلُ: نداء أهل الجنَّة أهلَ النَّار بالتَّقريع.

الثَّانِي: نداء أهل النَّار لأهل الجنَّة بالاستغاثة كما أخبر الله عنهم.

الثَّالِثُ: يُدعى كلُّ أُناس بإمامهم وهو قوله : «لتتبع كلُّ أمَّة ما كانت تعبُد» ، قال المؤلِّف: ويقال بكتابهم وقيل: نبيّهم.

قال سري السَّقطي: تُدعى الأمم يوم القيامة بأنبيائها ، فيقال : يا أمَّة موسى يا أمَّة عيسى ، ويا أمَّة محمَّد ، غير المحبِّين لله ، فإنَّهم ينادون يا أولياء الله هلمُّوا إلى الله سبحانه فتكاد قلوبهم تنخلع فرحاً.

الرَّابِعُ: نداء الملك ألا إنَّ فلان بن فلان قد سعد سعادة لا يشقى بعدها أبداً، وإنَّ فلان ابن فلان قد شقي شقاوة لا يسعد بعدها أبداً ، وسيأتي.

الخَامِسُ: النِّداء عند ذبح الموت يا أهل الجنَّة خلود فلا موت، ويا أهل النَّار خلود فلا موت.

السَّادِسُ: نداء أهل النَّار يا حسرتنا ويا ويلنا.

السَّابِعُ: قول الأشهاد هؤلاء الذين كذبوا على ربِّهم ألا لعنة الله على الظَّالمين.

الثَّامِنُ: نداء الله تعالى أهل الجنَّة فيقول: يا أهل الجنَّة هل رضيت؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى وقد أعطيتنا ما لم تعط أحداً من خلقك ، فيقول: أعطيتكم أفضل من ذلك رضائي" .

﴿سُؤالٌ﴾ : مَا هِيَ أَدِلَّةُ المَعَادِ مِنَ الكِتَابِ وَالسُّنَّة ؟

الجواب : دلَّ على وجوب الإيمان بالمعاد إلى العديد من نصوص الكتاب والسُّنَّة، كما دلَّ عليه العقل السَّليم.

أمَّا أدلَّة الكتاب على ذلك فكثيرة منها:

قوله تعالى : **﴿مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾** [البقرة:٦٢] ، وقوله تعالى : **﴿وَلكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتابِ وَالنَّبِيِّينَ﴾** [البقرة:١٧٧] ، قال الإمام القرطبي في " الجامع لأحكام القرآن" (٢/ ٢٤١) : " قَالَ عُلَمَاؤُنَا: هَذِهِ آيَةٌ عَظِيمَةٌ مِنْ أُمَّهَاتِ الْأَحْكَامِ، لِأَنَّهَا تَضَمَّنَتْ سِتَّ عَشْرَةَ قَاعِدَةً: الْإِيمَانَ بِاللَّهِ وَبِأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ- وَقَدْ أَتَيْنَا عَلَيْهَا فِي" الْكِتَابِ الْأَسْنَى"- وَالنَّشْرَ وَالْحَشْرَ وَالْمِيزَانَ وَالصِّرَاطَ وَالْحَوْضَ وَالشَّفَاعَةَ وَالْجَنَّةَ وَالنَّارَ ... " .

وأمَّا أدلَّة السُّنَّة فكثيرة، منها ما رواه مسلم (١/ ٣٦ برقم ٨) بسنده عَنْ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ قَالَ: بَيْنَمَا نَحْنُ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذَاتَ يَوْمٍ، إِذْ طَلَعَ عَلَيْنَا رَجُلٌ شَدِيدُ بَيَاضِ الثِّيَابِ، شَدِيدُ سَوَادِ الشَّعَرِ، لَا يُرَىٰ عَلَيْهِ أَثَرُ السَّفَرِ، وَلَا يَعْرِفُهُ مِنَّا أَحَدٌ، حَتَّىٰ جَلَسَ إِلَىٰ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَسْنَدَ رُكْبَتَيْهِ إِلَىٰ رُكْبَتَيْهِ، وَوَضَعَ كَفَّيْهِ عَلَىٰ فَخِذَيْهِ، وَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ أَخْبِرْنِي عَنِ الْإِسْلَامِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الْإِسْلَامُ أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ، وَتَحُجَّ الْبَيْتَ إِنِ اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلًا»، قَالَ: صَدَقْتَ، قَالَ: فَعَجِبْنَا لَهُ يَسْأَلُهُ، وَيُصَدِّقُهُ، قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ الْإِيمَانِ، قَالَ: «أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ»، قَالَ: صَدَقْتَ ... " .

وروىٰ أحمد في " المسند" (٢/ ١٥٢ برقم ٧٥٨) بسنده عَنْ عَلِيٍّ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: " لَا يُؤْمِنُ عَبْدٌ حَتَّىٰ يُؤْمِنَ بِأَرْبَعٍ: حَتَّىٰ يَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلا اللهُ، وَأَنِّي رَسُولُ اللهِ، بَعَثَنِي بِالْحَقِّ، وَحَتَّىٰ يُؤْمِنَ بِالْبَعْثِ بَعْدَ الْمَوْتِ، وَحَتَّىٰ يُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ " . قال الأرنؤوط : " رجاله ثقات رجال الشيخين، وربعي بن حِراش سمع من علي بن أبي طالب وهو تابعي قديم مخضرم، لكن قال الدارقطني في "العلل" ٣/ ١٩٦ لما سئل عن حديث ربعي هذا: حدث به شريك وورقاء وجرير وعمرو بن أبي قيس عن منصور عن ربعي عن علي، وخالفهم سفيان الثوري وزائدة وأبو الأحوص وسليمان التيمي فرووه عن منصور عن ربعي عن رجل من بني أسد عن علي، وهو الصواب. قلنا: الحديث أخرجه ابن أبي عاصم في "السنة" (٨٨٧) ، والبزار (٩٠٤) من طريق محمد بن جعفر، بهذا الإسناد. وأخرجه الطيالسي (١٠٦) ، ومن طريقه الترمذي (٢١٤٥) عن شعبة، به. وأخرجه الترمذي (٢١٤٥) من طريق النضر بن شميل، عن شعبة، عن منصور، عن ربعي بن حراش، عن رجل، عن علي. قال الترمذي: حديث أبي داود (يعني الطيالسي) عن شعبة عندي أصح من حديث النضر، وهكذا روىٰ غير واحد عن منصور عن ربعي عن علي. قلنا: أما رواية شريك- وهو ابن عبد الله النخعي- التي أشار إليها الدارقطني، فقد أخرجها ابن أبي عاصم (١٣٠) و (٨٨٧) ، وابن ماجه (٨١) ، والخطيب في "تاريخ بغداد" ٣/ ٣٦٦ من طريقه عن منصور بن المعتمر، عن ربعي، عن علي. وأما رواية ورقاء بن عمر اليشكري بإسقاط الرجل المجهول، فلم تقع لنا، لكن أخرجه الطيالسي في "مسنده" (١٠٦) عنه، عن منصور، عن ربعي، عن رجل، عن علي. ورواية جرير بن عبد الحميد أخرجها أبو يعلىٰ (٥٨٣) ، والحاكم ١/ ٣٣ من طريقه عن منصور، عن ربعي، عن علي. وأما رواية عمرو بن أبي قيس فلم نقف عليها في المصادر التي بين أيدينا. وأما رواية سفيان الثوري عن منصور بزيادة الرجل من بني أسد، فستأتي في "المسند" برقم (١١١٢) . ورواية زائدة بن قدامة أخرجها أبو يعلي (٣٥٢) من طريقه عن منصور، به لكن بإسقاط الرجل من بني أسد. ورواية أبي الأحوص- وهو سلام بن سليم الحنفي- أخرجها الطيالسي (١٧٠) عنه عن منصور بإسقاطِ الرجلِ أيضاً، ولفظه عنده: "لا يجد عبدُ طعمَ الإيمان حتىٰ يؤمن بالقدر كله " .

فهذه الآيات والأحاديث تدلُّ علىٰ وجوب الإيمان باليوم الآخر وتبيِّن أهميَّته...

وقد سلك القرآن الكريم في إثبات البعث والمعاد مسالك عقليَّة واضحة وسهلة وملزمة، لا يسع الإنسان حيالها إلَّا أن ينحني إجلالاً لفاطر السَّموات والأرض... ومن الآيات التي أشارت إلىٰ ذلك:

قوله تعالىٰ : **﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّياحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذا أَقَلَّتْ سَحاباً ثِقالاً سُقْناهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنا بِهِ الْماءَ فَأَخْرَجْنا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَراتِ كَذلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾** [الأعراف:٥٧] .

وعن قوله تعالىٰ : كَذلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ، قال الإمام القرطبي في " الجامع لأحكام القرآن " (٧/ ٢٣٠) : " الْكَافُ فِي مَوْضِعِ نَصْبٍ. أَيْ مِثْلَ ذَلِكَ الْإِخْرَاجِ نُحْيِي الْمَوْتَىٰ. وَخَرَّجَ الْبَيْهَقِيُّ وَغَيْرُهُ عَنْ أَبِي رَزِينٍ الْعُقَيْلِيِّ قَالَ: قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ، كَيْفَ يُعِيدُ اللَّهُ الْخَلْقَ، وَمَا آيَةُ ذَلِكَ فِي خَلْقِهِ؟ قَالَ: " أَمَا مَرَرْتَ بِوَادِي قَوْمِكَ جَدْبًا ثُمَّ مَرَرْتَ بِهِ يَهْتَزُّ خَضِرًا) قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: (فَتِلْكَ آيَةُ اللَّهِ فِي خَلْقِهِ" . أخرجه أحمد في " المسند" (٢٦/ ١١٢ برقم ١٦١٩٢) ، قال الأرنؤوط : " إسناده ضعيف لجهالة حال وَكِيعِ بْنِ حُدُسٍ، وقد سلف الكلام عليه والاختلاف في اسم أبيه في الرواية رقم (١٦١٨٢) ، وقوله: "أليس كلكم ينظر إلىٰ القمر مخلياً به". أخرجه عبد الله بن أحمد في "السنة" (٢٦٥) عن أبيه، عن بهز بن أسد العمي، بهذا الإسناد. وقوله: "أما مررت بوادي أهلك محلاً؟ " ... إلخ ، أخرجه البيهقي في "الأسماء والصفات" ص٥٠٧، وفي "الاعتقاد" ص١٤٥ من طريق عفان بن مسلم، عن حماد بن سلمة، به " .

قال الإمام القرطبي في " التَّذكرة بأحوال الموتىٰ وأمور الآخرة " (ص٤٩٣) : "هذا حديث صحيح ، لأنَّه موافق لنصِّ التَّنـزيل والحمد لله."

وقوله تعالىٰ: **﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾** [الروم:٢٧] ، قال الإمام القرطبي في " الجامع لأحكام القرآن" (١٤/ ٢١) : " قَالَ مُجَاهِدٌ وَعِكْرِمَةُ وَالضَّحَّاكُ: إِنَّ الْمَعْنَىٰ أَنَّ الْإِعَادَةَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ- أَيْ عَلَىٰ اللَّهِ- مِنَ الْبِدَايَةِ، أَيْ أَيْسَرُ، وَإِنْ كَانَ جَمِيعُهُ عَلَىٰ اللَّهِ تَعَالَىٰ هَيِّنًا، وَقَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ. وَوَجْهُهُ أَنَّ هَذَا مَثَلٌ ضَرَبَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ لِعِبَادِهِ، يَقُولُ: إِعَادَةُ الشَّيْءِ عَلَىٰ الْخَلَائِقِ أَهْوَنُ مِنِ ابْتِدَائِهِ، فَيَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ الْبَعْثُ لِمَنْ قَدَرَ عَلَىٰ الْبِدَايَةِ عِنْدَكُمْ وَفِيمَا بَيْنَكُمْ أَهْوَنُ عَلَيْهِ مِنَ الْإِنْشَاءِ " .

قال الإمام الرَّازي في " التَّفسير" (١٧/ ١٩٤ فما بعدها) عند تفسيره لقول الله تعالىٰ : **﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً﴾** [يونس:٤] : " اعْلَمْ أَنَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لَمَّا ذَكَرَ الدَّلَائِلَ الدَّالَّةَ عَلَىٰ إِثْبَاتِ الْمَبْدَأِ، أَرْدَفَهُ بِمَا يَدُلُّ عَلَىٰ صِحَّةِ الْقَوْلِ بِالْمَعَادِ. وَفِيهِ مَسَائِلُ:

الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى: فِي بَيَانِ أَنَّ إِنْكَارَ الْحَشْرِ وَالنَّشْرِ لَيْسَ مِنَ الْعُلُومِ الْبَدِيهِيَّةِ، وَيَدُلُّ عَلَيْهِ وُجُوهٌ :

الْأَوَّلُ: أن العقلاء اختلفوا في وُقُوعِهِ وَقَالَ بِإِمْكَانِهِ عَالَمٌ مِنَ النَّاسِ، وَهُمْ جُمْهُورُ أَرْبَابِ الْمِلَلِ وَالْأَدْيَانِ. وَمَا كَانَ مَعْلُومَ الِامْتِنَاعِ بِالْبَدِيهَةِ امْتَنَعَ وُقُوعُ الِاخْتِلَافِ فِيهِ .

الثَّانِي: أَنَّا إِذَا رَجَعْنَا إِلَىٰ عُقُولِنَا السَّلِيمَةِ، وَعَرَضْنَا عَلَيْهَا أَنَّ الْوَاحِدَ ضِعْفُ الِاثْنَيْنِ، وَعَرَضْنَا عَلَيْهَا أَيْضًا هَذِهِ الْقَضِيَّةَ، لَمْ نَجِدْ هَذِهِ الْقَضِيَّةَ فِي قُوَّةِ الِامْتِنَاعِ مِثْلَ الْقَضِيَّةِ الْأُولَىٰ .

الثَّالِثُ: أَنَّا إِمَّا أَنْ نَقُولَ بِثُبُوتِ النَّفْسِ النَّاطِقَةِ أَوْ لَا نَقُولَ بِهِ فَإِنْ قُلْنَا بِهِ فَقَدْ زَالَ الْإِشْكَالُ بِالْكُلِّيَّةِ، فَإِنَّهُ كَمَا لَا يَمْتَنِعُ تَعَلُّقُ هَذِهِ النَّفْسِ بِالْبَدَنِ فِي الْمَرَّةِ الْأُولَىٰ، لَمْ يَمْتَنِعْ تَعَلُّقُهَا بِالْبَدَنِ مَرَّةً أُخْرَىٰ وَإِنْ أَنْكَرْنَا الْقَوْلَ بِالنَّفْسِ فَالِاحْتِمَالُ أَيْضًا قَائِمٌ، لِأَنَّهُ لَا يَبْعُدُ أَنْ يُقَالَ إِنَّهُ سُبْحَانَهُ يُرَكِّبُ تِلْكَ الْأَجْزَاءَ الْمُفَرَّقَةَ تَرْكِيبًا ثَانِيًا، وَيَخْلُقُ الْإِنْسَانَ الْأَوَّلَ مَرَّةً أُخْرَىٰ .

وَالرَّابِعُ: أَنَّهُ سُبْحَانَهُ ذَكَرَ أَمْثِلَةً كَثِيرَةً دَالَّةً عَلَىٰ إِمْكَانِ الْحَشْرِ والنشر ونحن نجمعها هاهنا.

فَالْمِثَالُ الْأَوَّلُ: أَنَّا نَرَىٰ الْأَرْضَ خَاشِعَةً وَقْتَ الْخَرِيفِ، وَنَرَىٰ الْيُبْسَ مُسْتَوْلِيًا عَلَيْهَا بِسَبَبِ شِدَّةِ الْحَرِّ فِي الصَّيْفِ. ثمَّ إِنَّهُ تَعَالَىٰ يُنْزِلُ الْمَطَرَ عَلَيْهَا وَقْتَ الشِّتَاءِ وَالرَّبِيعِ، فَتَصِيرُ بَعْدَ ذَلِكَ مُتَحَلِّيَةً بِالْأَزْهَارِ الْعَجِيبَةِ وَالْأَنْوَارِ الْغَرِيبَةِ كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿**وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّياحَ فَتُثِيرُ سَحاباً فَسُقْناهُ إِلى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها كَذلِكَ النُّشُورُ**﴾ [فَاطِر: ٩] .

وَثَانِيهَا: قوله تعالىٰ: ﴿**تَرَى الْأَرْضَ هامِدَةً فَإِذا أَنْزَلْنا عَلَيْهَا الْماءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ**﴾ إِلَىٰ قَوْلِهِ: ﴿**ذلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِ الْمَوْتى**﴾ [الْحَجّ: ٥- ٦] .

وَثَالِثُهَا: قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿**أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً مُخْتَلِفاً أَلْوانُهُ ثمَّ يَهِيجُ فَتَراهُ مُصْفَرًّا ثمَّ يَجْعَلُهُ حُطاماً إِنَّ فِي ذلِكَ لَذِكْرى لِأُولِي الْأَلْبابِ**﴾[الزُّمَر: ٢١]، وَالْمُرَادُ كَوْنُهُ مُنَبِّهًا عَلَىٰ أَمْرِ الْمَعَادِ.

وَرَابِعُهَا: قَوْلُهُ: ﴿**ثمَّ أَماتَهُ فَأَقْبَرَهُ ثمَّ إِذا شاءَ أَنْشَرَهُ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسانُ إِلى طَعامِهِ**﴾ [عَبَس: ٢١- ٢٤] .

وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «إِذَا رَأَيْتُمُ الرَّبِيعَ فَأَكْثِرُوا ذِكْرَ النُّشُورِ" .

وَلَمْ تَحْصُلِ الْمُشَابَهَةُ بَيْنَ الرَّبِيعِ وَبَيْنَ النُّشُورِ إِلَّا مِنَ الْوَجْهِ الَّذِي ذَكَرْنَاهُ.

الْمِثَالُ الثَّانِي: مَا يَجِدُهُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنَّا مِنْ نَفْسِهِ مِنَ الزِّيَادَةِ وَالنُّمُوِّ بِسَبَبِ السِّمَنِ، وَمِنَ النُّقْصَانِ وَالذُّبُولِ بِسَبَبِ الْهُزَالِ، ثمَّ إِنَّهُ قَدْ يَعُودُ إِلَىٰ حَالَتِهِ الْأُولَىٰ بِالسِّمَنِ.

وَإِذَا ثَبَتَ هَذَا فَنَقُولُ: مَا جَازَ تَكَوُّنُ بَعْضِهِ لَمْ يَمْتَنِعْ أَيْضًا تَكَوُّنُ كُلِّهِ، وَلَمَّا ثَبَتَ ذَلِكَ ظَهَرَ أَنَّ الْإِعَادَةَ غَيْرُ مُمْتَنِعَةٍ، وَإِلَيْهِ الْإِشَارَةُ بِقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿**وَنُنْشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ**﴾ [الْوَاقِعَة: ٦١] يَعْنِي أَنَّهُ سُبْحَانَهُ لَمَّا كَانَ قَادِرًا عَلَىٰ إِنْشَاءِ ذَوَاتِكُمْ أَوَّلًا ثمَّ عَلَىٰ إِنْشَاءِ أَجْزَائِكُمْ حَالَ حَيَاتِكُمْ ثَانِيًا شَيْئًا فَشَيْئًا مِنْ غَيْرِ أَنْ تَكُونُوا

عَالِمِينَ بِوَقْتِ حُدُوثِهِ وَبِوَقْتِ نُقْصَانِهِ فَوَجَبَ الْقَطْعُ أَيْضًا بِأَنَّهُ لَا يَمْتَنِعُ عَلَيْهِ سُبْحَانَهُ إِعَادَتُكُمْ بَعْدَ الْبِلَىٰ فِي الْقُبُورِ لِحَشْرِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ.

الْمِثَالُ الثَّالِثُ: أَنَّهُ تَعَالَىٰ لَمَّا كَانَ قَادِرًا عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَنَا ابْتِدَاءً مِنْ غَيْرِ مِثَالٍ سَبَقَ، فَلأَنْ يَكُونَ قَادِرًا عَلَىٰ إِيجَادِنَا مَرَّةً أُخْرَىٰ مَعَ سَبْقِ الْإِيجَادِ الْأَوَّلِ كَانَ أَوْلَىٰ، وَهَذَا الْكَلَامُ قَرَّرَهُ تَعَالَىٰ فِي آيَاتٍ كَثِيرَةٍ، مِنْهَا فِي هَذِهِ الْآيَةِ وهو قوله: **﴿إِنَّهُ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثمَّ يُعِيدُهُ﴾** .

وَثَانِيهَا: قَوْلُهُ تَعَالَىٰ فِي سُورَةِ يس: **﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَها أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾** [يس: ٧٩] .

وَثَالِثُهَا: قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: **﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولى فَلَوْلا تَذَكَّرُونَ﴾** [الْوَاقِعَةِ: ٦٢] .

وَرَابِعُهَا: قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: **﴿أَفَعَيِينا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾** [ق: ١٥] .

وَخَامِسُهَا: قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: **﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدىً أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنى﴾** [الْقِيَامَةِ: ٣٦- ٣٣] إِلَىٰ قَوْلِهِ: **﴿أَلَيْسَ ذلِكَ بِقادِرٍ على أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتى﴾** [القيامة: ٤٠] .

وَسَادِسُهَا: قوله تعالىٰ: **﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْناكُمْ مِنْ تُرابٍ﴾** [الْحَجِّ: ٥] إِلَىٰ قَوْلِهِ: **﴿ذلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِ الْمَوْتى وَأَنَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيها وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾** [الْحَجِّ: ٦- ٧] ، فَاسْتَشْهَدَ تَعَالَىٰ فِي هَذِهِ الْآيَةِ عَلَىٰ صِحَّةِ الْحَشْرِ بِأُمُورٍ:

الْأَوَّلُ: أَنَّهُ اسْتَدَلَّ بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ عَلَىٰ إِمْكَانِ الْخَلْقِ الثَّانِي وَهُوَ قَوْلُهُ: إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْناكُمْ مِنْ تُرابٍ كَأَنَّهُ تَعَالَىٰ يَقُولُ: لَمَّا حَصَّلَ الْخَلْقُ الْأَوَّلُ بِانْتِقَالِ هَذِهِ الْأَجْسَامِ مِنْ أَحْوَالٍ إِلَىٰ أَحْوَالٍ أُخْرَىٰ فَلِمَ لَا يَجُوزُ أَنْ يَحْصُلَ الْخَلْقُ الثَّانِي بَعْدَ تَغَيُّرَاتٍ كَثِيرَةٍ، وَاخْتِلَافَاتٍ مُتَعَاقِبَةٍ؟

وَالثَّانِي: أَنَّهُ تَعَالَىٰ شَبَّهَهَا بِإِحْيَاءِ الْأَرْضِ الْمَيِّتَةِ .

وَالثَّالِثُ: أَنَّهُ تَعَالَىٰ هُوَ الْحَقُّ وَإِنَّمَا يَكُونُ كَذَلِكَ لَوْ كَانَ كَامِلَ الْقُدْرَةِ تَامَّ الْعِلْمِ وَالْحِكْمَةِ. فَهَذِهِ هِيَ الْوُجُوهُ الْمُسْتَنْبَطَةُ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ عَلَىٰ إِمْكَانِ صِحَّةِ الْحَشْرِ وَالنَّشْرِ.

وَالْآيَةُ السَّابِعَةُ فِي هَذَا الْبَابِ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: **﴿قُلْ كُونُوا حِجارَةً أَوْ حَدِيداً * أَوْ خَلْقاً مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾** [الْإِسْرَاءِ: ٥٠- ٥١] .

الْمِثَالُ الرَّابِعُ: أَنَّهُ تَعَالَىٰ لَمَّا قَدَرَ عَلَىٰ تَخْلِيقِ مَا هُوَ أَعْظَمُ مِنْ أَبْدَانِ النَّاسِ فَكَيْفَ يُقَالُ: إِنَّهُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ إِعَادَتِهَا؟ فَإِنَّ مَنْ كَانَ الْفِعْلُ الْأَصْعَبُ عَلَيْهِ سَهْلًا، فَلَأَنْ يَكُونَ الْفِعْلُ السَّهْلُ الْحَقِيرُ عَلَيْهِ سَهْلًا كَانَ أَوْلَىٰ وَهَذَا الْمَعْنَىٰ مَذْكُورٌ فِي آيَاتٍ كَثِيرَةٍ: مِنْهَا: قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: **﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ بِقادِرٍ عَلى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾** [يس: ٨١] .

وَثَانِيهَا: قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقادِرٍ عَلى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتى﴾ [الأَحْقَافِ: ٣٣] .

وَثَالِثُهَا: ﴿أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمِ السَّماءُ بَناها﴾ [النَّازِعَاتِ: ٢٧] .

الْمِثَالُ الْخَامِسُ: الِاسْتِدْلَالُ بِحُصُولِ الْيَقَظَةِ بَعْدَ النَّوْمِ عَلَىٰ جَوَازِ الْحَشْرِ وَالنَّشْرِ، فَإِنَّ النَّوْمَ أَخُو الْمَوْتِ، وَالْيَقَظَةُ شَبِيهَةٌ بِالْحَيَاةِ بَعْدَ الْمَوْتِ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ ما جَرَحْتُمْ بِالنَّهارِ﴾ [الأَنْعَامِ: ٦٠] ثُمَّ ذَكَرَ عَقِيبَهُ أَمْرَ الْمَوْتِ وَالْبَعْثِ، فَقَالَ: ﴿وَهُوَ الْقاهِرُ فَوْقَ عِبادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّى إِذا جاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنا وَهُمْ لا يُفَرِّطُونَ ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلاهُمُ الْحَقِّ﴾ [الأَنْعَامِ: ٦١- ٦٢] وَقَالَ فِي آيَةٍ أُخْرَىٰ : ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِها وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنامِها﴾ إِلَىٰ قَوْلِهِ: ﴿إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الزمر: ٤٢] وَالْمُرَادُ مِنْهُ الِاسْتِدْلَالُ بِحُصُولِ هَذِهِ الْأَحْوَالِ عَلَىٰ صِحَّةِ الْبَعْثِ وَالْحَشْرِ وَالنَّشْرِ.

الْمِثَالُ السَّادِسُ: أَنَّ الْإِحْيَاءَ بَعْدَ الْمَوْتِ لَا يُسْتَنْكَرُ إِلَّا مِنْ حَيْثُ إِنَّهُ يَحْصُلُ الضِّدُّ بَعْدَ حُصُولِ الضِّدِّ، إِلَّا أَنَّ ذَلِكَ غَيْرُ مُسْتَنْكَرٍ فِي قُدْرَةِ اللَّهِ تَعَالَىٰ، لِأَنَّهُ لَمَّا جَازَ حُصُولُ الْمَوْتِ عَقِيبَ الْحَيَاةِ فَكَيْفَ يُسْتَبْعَدُ حُصُولُ الْحَيَاةِ مَرَّةً أُخْرَىٰ بَعْدَ الْمَوْتِ؟ فَإِنَّ حُكْمَ الضِّدَّيْنِ وَاحِدٌ قَالَ تَعَالَىٰ مُقَرِّرًا لِهَذَا الْمَعْنَىٰ: ﴿نَحْنُ قَدَّرْنا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَما نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ [الْوَاقِعَةِ: ٦٠] وَأَيْضًا نَجِدُ النَّارَ مَعَ حَرِّهَا وَيُبْسِهَا تَتَوَلَّدُ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ مَعَ بَرْدِهِ وَرُطُوبَتِهِ فَقَالَ: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نارًا فَإِذا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ﴾ [يس: ٨٠] فَكَذَا هَاهُنَا، فَهَذَا جُمْلَةُ الْكَلَامِ فِي بَيَانِ أَنَّ الْقَوْلَ بِالْمَعَادِ، وَحُصُولَ الْحَشْرِ وَالنَّشْرِ غَيْرُ مُسْتَبْعَدٍ فِي الْعُقُولِ.

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ: فِي إِقَامَةِ الدَّلَالَةِ عَلَىٰ أَنَّ الْمَعَادَ حَقٌّ وَاجِبٌ.

اعْلَمْ أَنَّ الْأُمَّةَ فَرِيقَانِ مِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ: يَجِبُ عَقْلًا أَنْ يَكُونَ إِلَهُ الْعَالَمِ رَحِيمًا عَادِلًا مُنَزَّهًا عَنِ الْإِيلَامِ وَالْإِضْرَارِ، إِلَّا لِمَنَافِعَ أَجَلَّ وَأَعْظَمَ مِنْهَا، وَمِنْهُمْ مَنْ يُنْكِرُ هَذِهِ الْقَاعِدَةَ وَيَقُولُ: لَا يَجِبُ عَلَىٰ اللَّهِ تَعَالَىٰ شَيْءٌ أَصْلًا، بَلْ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ وَيَحْكُمُ مَا يُرِيدُ. أَمَّا الْفَرِيقُ الْأَوَّلُ: فَقَدِ احْتَجُّوا عَلَىٰ وُجُودِ الْمَعَادِ مِنْ وُجُوهٍ :

الْحُجَّةُ الْأُولَى: أَنَّهُ تَعَالَىٰ خَلَقَ الْخَلْقَ وَأَعْطَاهُمْ عُقُولًا بِهَا يُمَيِّزُونَ بَيْنَ الْحَسَنِ وَالْقَبِيحِ، وَأَعْطَاهُمْ قُدَرًا بِهَا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ وَإِذَا ثَبَتَ هَذَا فَمِنَ الْوَاجِبِ فِي حِكْمَةِ اللَّهِ تَعَالَىٰ وَعَدْلِهِ أَنْ يَمْنَعَ الْخَلْقَ عَنْ شَتْمِ اللَّهِ وَذِكْرِهِ بِالسُّوءِ، وَأَنْ يَمْنَعَهُمْ عَنِ الْجَهْلِ وَالْكَذِبِ وَإِيذَاءِ أَنْبِيَائِهِ وَأَوْلِيَائِهِ، وَالصَّالِحِينَ مِنْ خَلْقِهِ وَمِنَ الْوَاجِبِ فِي حِكْمَتِهِ أَنْ يُرَغِّبَهُمْ فِي الطَّاعَاتِ وَالْخَيْرَاتِ وَالْحَسَنَاتِ، فَإِنَّهُ لَوْ لَمْ يَمْنَعْ عَنْ تِلْكَ الْقَبَائِحِ، وَلَمْ يُرَغِّبْ فِي هَذِهِ الْخَيْرَاتِ، قَدَحَ ذَلِكَ فِي كَوْنِهِ مُحْسِنًا عَادِلًا نَاظِرًا لِعِبَادِهِ وَمِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّ التَّرْغِيبَ فِي

الطَّاعَاتِ لَا يُمْكِنُ إِلَّا بِرَبْطِ الثَّوَابِ بِفِعْلِهَا، وَالزَّجْرِ عَنِ الْقَبَائِحِ لَا يُمْكِنُ إِلَّا بِرَبْطِ الْعِقَابِ بِفِعْلِهَا، وَذَلِكَ الثَّوَابُ الْمُرَغَّبُ فِيهِ، وَالْعِقَابُ الْمُهَدَّدُ بِهِ غَيْرُ حَاصِلٍ فِي دَارِ الدُّنْيَا فَلَا بُدَّ مِنْ دَارٍ أُخْرَىٰ يَحْصُلُ فِيهَا هَذَا الثَّوَابُ، وَهَذَا الْعِقَابُ، وَهُوَ الْمَطْلُوبُ، وَإِلَّا لَزِمَ كَوْنُهُ كَاذِبًا، وَأَنَّهُ بَاطِلٌ وَهَذَا هُوَ الْمُرَادُ مِنَ الْآيَةِ الَّتِي نَحْنُ فِيهَا وَهِيَ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿**لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ بِالْقِسْطِ**﴾ .

فَإِنْ قِيلَ: لِمَ لَا يَجُوزُ أَنْ يُقَالَ: إِنَّهُ يَكْفِي فِي التَّرْغِيبِ فِي فِعْلِ الْخَيْرَاتِ، وَفِي الرَّدْعِ عَنِ الْمُنْكَرَاتِ مَا أَوْدَعَ اللَّهُ فِي الْعُقُولِ مَنْ تَحْسِينِ الْخَيْرَاتِ وَتَقْبِيحِ الْمُنْكَرَاتِ وَلَا حَاجَةَ مَعَ ذَلِكَ إِلَىٰ الْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ؟ سَلَّمْنَا أَنَّهُ لَا بُدَّ مِنَ الْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ، فَلِمَ لَا يَجُوزُ أَنْ يُقَالَ: الْغَرَضُ مِنْهُ مُجَرَّدُ التَّرْغِيبِ وَالتَّرْهِيبِ لِيَحْصُلَ بِهِ نِظَامُ الْعَالَمِ كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿**ذلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبادَهُ يا عِبادِ فَاتَّقُونِ**﴾ [الزُّمَر: ١٦] فَإِمَّا أَنْ يَفْعَلَ تَعَالَىٰ ذَلِكَ فَمَا الدَّلِيلُ عَلَيْهِ؟

قَوْلُهُ لَوْ لَمْ يَفْعَلْ مَا أَخْبَرَ عَنْهُ مِنَ الْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ لَصَارَ كَلَامُهُ كَذِبًا فَنَقُولُ: أَلَسْتُمْ تُخَصِّصُونَ أَكْثَرَ عُمُومَاتِ الْقُرْآنِ لِقِيَامِ الدَّلَالَةِ عَلَىٰ وُجُوبِ ذَلِكَ التَّخْصِيصِ فَإِنْ كَانَ هَذَا كَذِبًا وَجَبَ فِيمَا تَحْكُمُونَ بِهِ مِنْ تِلْكَ التَّخْصِيصَاتِ أَنْ يَكُونَ كَذِبًا؟ سَلَّمْنَا أَنَّهُ لَا بُدَّ وَأَنْ يَفْعَلَ اللَّهُ تَعَالَىٰ ذَلِكَ لَكِنْ لِمَ لَا يَجُوزُ أَنْ يُقَالَ: إِنَّ ذَلِكَ الثَّوَابَ وَالْعِقَابَ عِبَارَةٌ عَمَّا يَصِلُ إِلَىٰ الْإِنْسَانِ مِنْ أَنْوَاعِ الرَّاحَاتِ وَاللَّذَّاتِ وَمِنْ أَنْوَاعِ الْآلَامِ وَالْأَسْقَامِ، وَأَقْسَامِ الْهُمُومِ وَالْغُمُومِ؟

وَالْجَوَابُ عَنِ السُّؤَالِ الْأَوَّلِ: أَنَّ الْعَقْلَ وَإِنْ كَانَ يَدْعُوهُ إِلَىٰ فِعْلِ الْخَيْرِ وَتَرْكِ الشَّرِّ إلا أن الهوىٰ والنفس يدعو إنه إِلَىٰ الانْهِمَاكِ فِي الشَّهَوَاتِ الْجُسْمَانِيَّةِ وَاللَّذَّاتِ الْجَسَدَانِيَّةِ، وَإِذَا حَصَلَ هَذَا التَّعَارُضُ فَلَا بُدَّ مِنْ مُرَجِّحٍ قَوِيٍّ وَمُعَاضِدٍ كَامِلٍ، وَمَا ذَاكَ إِلَّا تَرْتِيبُ الْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ وَالثَّوَابِ وَالْعِقَابِ عَلَىٰ الْفِعْلِ وَالتَّرْكِ.

وَالْجَوَابُ عَنِ السُّؤَالِ الثَّانِي: أَنَّهُ إِذَا جَوَّزَ الْإِنْسَانُ حُصُولَ الْكَذِبِ عَلَىٰ اللَّهِ تَعَالَىٰ فَحِينَئِذٍ لَا يَحْصُلُ مِنَ الْوَعْدِ رَغْبَةٌ، وَلَا مِنَ الْوَعِيدِ رَهْبَةٌ، لِأَنَّ السَّامِعَ يُجَوِّزُ كَوْنَهُ كَذِبًا.

وَالْجَوَابُ عَنِ السُّؤَالِ الثَّالِثِ: أَنَّ الْعَبْدَ مَا دَامَتْ حَيَاتُهُ فِي الدُّنْيَا فَهُوَ كَالْأَجِيرِ الْمُشْتَغِلِ بِالْعَمَلِ وَالْأَجِيرُ حَالَ اشْتِغَالِهِ بِالْعَمَلِ لَا يَجُوزُ دَفْعُ الْأُجْرَةِ بِكَمَالِهَا إِلَيْهِ، لِأَنَّهُ إِذَا أَخَذَهَا فَإِنَّهُ لَا يَجْتَهِدُ فِي الْعَمَلِ وَأَمَّا إِذَا كَانَ مَحَلُّ أَخْذِ الْأُجْرَةِ هُوَ الدَّارَ الْآخِرَةَ كَانَ الِاجْتِهَادُ فِي الْعَمَلِ أَشَدَّ وَأَكْمَلَ، وَأَيْضًا نَرَىٰ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا أَنَّ أَزْهَدَ النَّاسِ وَأَعْلَمَهُمْ مُبْتَلَىٰ بِأَنْوَاعِ الْغُمُومِ وَالْهُمُومِ وَالْأَحْزَانِ، وَأَجْهَلَهُمْ وَأَفْسَقَهُمْ فِي اللَّذَّاتِ وَالْمَسَرَّاتِ، فَعَلِمْنَا أَنَّ دَارَ الْجَزَاءِ يَمْتَنِعُ أَنْ تَكُونَ هَذِهِ الدَّارَ فَلَا بُدَّ مِنْ دَارٍ أُخْرَىٰ، وَمِنْ حَيَاةٍ أُخْرَىٰ، لِيَحْصُلَ فِيهَا الْجَزَاءُ.

الْحُجَّةُ الثَّانِيَةُ: أَنَّ صَرِيحَ الْعَقْلِ يُوجِبُ فِي حِكْمَةِ الْحَكِيمِ أَنْ يُفَرِّقَ بَيْنَ الْمُحْسِنِ وَبَيْنَ الْمُسِيءِ، وَأَنْ لَا يَجْعَلَ مَنْ كَفَرَ بِهِ، أَوْ جَحَدَهُ بِمَنْزِلَةِ مَنْ أَطَاعَهُ، وَلَمَّا وَجَبَ إِظْهَارُ هَذِهِ التَّفْرِقَةِ فَحُصُولُ هَذِهِ التَّفْرِقَةِ إِمَّا أَنْ يَكُونَ فِي دَارِ الدُّنْيَا، أَوْ فِي دَارِ الْآخِرَةِ، وَالْأَوَّلُ بَاطِلٌ لِأَنَّا نَرَىٰ الْكُفَّارَ وَالْفُسَّاقَ فِي الدُّنْيَا فِي أَعْظَمِ الرَّاحَاتِ، وَنَرَىٰ الْعُلَمَاءَ وَالزُّهَّادَ بِالضِّدِّ مِنْهُ، وَلِهَذَا الْمَعْنَىٰ قَالَ تَعَالَىٰ: **﴿وَلَوْلا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً واحِدَةً لَجَعَلْنا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفاً مِنْ فِضَّةٍ﴾** [الزُّخْرُف: ٣٣] فَثَبَتَ أَنَّهُ لَا بُدَّ بَعْدَ هَذِهِ الدَّارِ مِنْ دَارٍ أُخْرَىٰ، وَهُوَ الْمُرَادُ مِنَ الْآيَةِ الَّتِي نَحْنُ فِي تَفْسِيرِهَا وَهِيَ قَوْلُهُ: لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ بِالْقِسْطِ وَهُوَ الْمُرَادُ أَيْضًا بِقَوْلِهِ تَعَالَىٰ فِي سُورَةِ طَهَ: **﴿إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكادُ أُخْفِيها لِتُجْزى كُلُّ نَفْسٍ بِما تَسْعى﴾** [طه: ١٥] وَبِقَوْلِهِ تَعَالَىٰ فِي سُورَةِ ص: **﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾** [ص: ٢٨] .

فَإِنْ قِيلَ: أَمَا أَنْكَرْتُمْ أَنْ يُقَالَ إِنَّهُ تَعَالَىٰ لَا يَفْصِلُ بَيْنَ الْمُحْسِنِ وَبَيْنَ الْمُسِيءِ فِي الثَّوَابِ وَالْعِقَابِ كَمَا لَمْ يَفْصِلْ بَيْنَهُمَا فِي حُسْنِ الصُّورَةِ وَفِي كَثْرَةِ الْمَالِ؟.

وَالْجَوَابُ: أَنَّ هَذَا الَّذِي ذَكَرْتَهُ مِمَّا يُقَوِّي دَلِيلَنَا، فَإِنَّهُ ثَبَتَ فِي صَرِيحِ الْعَقْلِ وُجُوبُ التَّفْرِقَةِ، وَدَلَّ الْحِسُّ عَلَىٰ أَنَّهُ لَمْ تَحْصُلْ هَذِهِ التَّفْرِقَةُ فِي الدُّنْيَا، بَلْ كَانَ الْأَمْرُ عَلَى الضِّدِّ مِنْهُ، فَإِنَّا نَرَىٰ الْعَالِمَ وَالزَّاهِدَ فِي أَشَدِّ الْبَلَاءِ، وَنَرَىٰ الْكَافِرَ وَالْفَاسِقَ فِي أَعْظَمِ النِّعَمِ فَعَلِمْنَا أَنَّهُ لَا بُدَّ مِنْ دَارٍ أُخْرَىٰ يَظْهَرُ فِيهَا هَذَا التَّفَاوُتُ، وَأَيْضًا لَا يَبْعُدُ أَنْ يُقَالَ إِنَّهُ تَعَالَىٰ عَلِمَ أَنَّ هَذَا الزَّاهِدَ الْعَابِدَ لَوْ أَعْطَاهُ مَا دُفِعَ إِلَى الْكَافِرِ الْفَاسِقِ لَطَغَىٰ وَبَغَىٰ وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا، وَأَنَّ ذَلِكَ الْكَافِرَ الْفَاسِقَ لَوْ زَادَ عَلَيْهِ فِي التَّضْيِيقِ لَزَادَ فِي الشَّرِّ وَإِلَيْهِ الْإِشَارَةُ بِقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: **﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ﴾** [الشُّورَىٰ: ٢٧] .

الْحُجَّةُ الثَّالِثَةُ: أَنَّهُ تَعَالَىٰ كَلَّفَ عَبِيدَهُ بِالْعُبُودِيَّةِ فَقَالَ: **﴿وَما خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾** [الذَّارِيَاتِ: ٥٦] وَالْحَكِيمُ إِذَا أَمَرَ عَبْدَهُ بِشَيْءٍ، فلا بد وأن يجعله فارغ الباب مُنْتَظِمَ الْأَحْوَالِ حَتَّىٰ يُمْكِنَهُ الِاشْتِغَالُ بِأَدَاءِ تِلْكَ التَّكَالِيفِ، وَالنَّاسُ جُبِلُوا عَلَىٰ طَلَبِ اللَّذَّاتِ وَتَحْصِيلِ الرَّاحَاتِ لِأَنْفُسِهِمْ، فَلَوْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ زَاجِرٌ مِنْ خَوْفِ الْمَعَادِ لَكَثُرَ الْهَرَجُ وَالْمَرَجُ وَلَعَظُمَتِ الْفِتَنُ، وَحِينَئِذٍ لَا يَتَفَرَّغُ الْمُكَلَّفُ لِلِاشْتِغَالِ بِأَدَاءِ الْعِبَادَاتِ.

فَوَجَبَ الْقَطْعُ بِحُصُولِ دَارِ الثَّوَابِ وَالْعِقَابِ لِتَنْتَظِمَ أَحْوَالُ الْعَالَمِ حَتَّىٰ يَقْدِرَ الْمُكَلَّفُ عَلَى الِاشْتِغَالِ بِأَدَاءِ الْعُبُودِيَّةِ.

فَإِنْ قِيلَ: لِمَ لَا يَجُوزُ أَنْ يُقَالَ إِنَّهُ يَكْفِي فِي بَقَاءِ نِظَامِ الْعَالَمِ مَهَابَةُ الْمُلُوكِ وَسِيَاسَاتُهُمْ؟ وَأَيْضًا فَالْأَوْبَاشُ يَعْلَمُونَ أَنَّهُمْ لَوْ حَكَمُوا بِحُسْنِ الْهَرَجِ وَالْمَرَجِ لَانْقَلَبَ الْأَمْرُ عَلَيْهِمْ وَلَقَدَرَ غَيْرُهُمْ عَلَىٰ قَتْلِهِمْ، وَأَخْذِ أَمْوَالِهِمْ، فَلِهَذَا الْمَعْنَىٰ يَحْتَرِزُونَ عَنْ إِثَارَةِ الْفِتَنِ.

وَالْجَوَابُ: أَنَّ مُجَرَّدَ مَهَابَةِ السَّلَاطِينِ لَا تَكْفِي فِي ذَلِكَ، وَذَلِكَ لِأَنَّ السُّلْطَانَ إِمَّا أَنْ يَكُونَ قَدْ بَلَغَ فِي الْقُدْرَةِ وَالْقُوَّةِ إِلَىٰ حَيْثُ لَا يَخَافُ مِنَ الرَّعِيَّةِ، وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ خَائِفًا مِنْهُمْ، فَإِنْ كَانَ لَا يَخَافُ الرَّعِيَّةَ مَعَ أَنَّهُ لَا خَوْفَ لَهُ مِنَ الْمَعَادِ، فَحِينَئِذٍ يُقْدِمُ عَلَى الظُّلْمِ وَالْإِيذَاءِ عَلَىٰ أَقْبَحِ الْوُجُوهِ، لِأَنَّ الدَّاعِيَةَ النَّفْسَانِيَّةَ قَائِمَةٌ، وَلَا رَادِعَ لَهُ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ، وَأَمَّا إِنْ كَانَ يَخَافُ الرَّعِيَّةَ فَحِينَئِذٍ الرَّعِيَّةُ لَا يَخَافُونَ مِنْهُ خَوْفًا شَدِيدًا، فَلَا يَصِيرُ ذَلِكَ رَادِعًا لَهُمْ عَنِ الْقَبَائِحِ وَالظُّلْمِ فَثَبَتَ أَنَّ نِظَامَ الْعَالَمِ لَا يَتِمُّ وَلَا يَكْمُلُ إِلَّا بِالرَّغْبَةِ فِي الْمَعَادِ وَالرَّهْبَةِ عَنْهُ.

الحُجَّةُ الرَّابِعَةُ: في وجوب الانتصاف للمظلوم الضعيف من الظالم القادر القوي علىٰ السلطان القاهر الرحيم] أَنَّ السُّلْطَانَ الْقَاهِرَ إِذَا كَانَ لَهُ جَمْعٌ مِنَ الْعَبِيدِ، وَكَانَ بَعْضُهُمْ أَقْوِيَاءَ وَبَعْضُهُمْ ضُعَفَاءَ، وَجَبَ عَلَىٰ ذَلِكَ السُّلْطَانِ إِنْ كَانَ رَحِيمًا نَاظِرًا مُشْفِقًا عَلَيْهِمْ أَنْ يَنْتَصِفَ لِلْمَظْلُومِ الضَّعِيفِ مِنَ الظَّالِمِ الْقَادِرِ الْقَوِيِّ، فَإِنْ لَمْ يَفْعَلْ ذَلِكَ كَانَ رَاضِيًا بِذَلِكَ الظُّلْمِ، وَالرِّضَا بِالظُّلْمِ لَا يَلِيقُ بِالرَّحِيمِ النَّاظِرِ الْمُحْسِنِ.

إِذَا ثَبَتَ هَذَا فَنَقُولُ: إِنَّهُ سُبْحَانَهُ سُلْطَانٌ قَاهِرٌ قَادِرٌ حَكِيمٌ مُنَزَّهٌ عَنِ الظُّلْمِ وَالْعَبَثِ فَوَجَبَ أَن يَنْتَصِفَ لِعَبِيدِهِ الْمَظْلُومِينَ مِنْ عَبِيدِهِ الظَّالِمِينَ، وَهَذَا الِانْتِصَافُ لَمْ يَحْصُلْ فِي هَذِهِ الدَّارِ، لِأَنَّ الْمَظْلُومَ قَدْ يَبْقَىٰ فِي غَايَةِ الذِّلَّةِ وَالْمَهَانَةِ، وَالظَّالِمَ يَبْقَىٰ فِي غَايَةِ الْعِزَّةِ وَالْقُدْرَةِ، فَلَا بُدَّ مِنْ دَارٍ أُخْرَىٰ يَظْهَرُ فِيهَا هَذَا الْعَدْلُ وَهَذَا الْإِنْصَافُ، وَهَذِهِ الْحُجَّةُ يَصْلُحُ جَعْلُهَا تَفْسِيرًا لِهَذِهِ الْآيَةِ الَّتِي نَحْنُ فِي تَفْسِيرِهَا.

فَإِنْ قَالُوا: إِنَّهُ تَعَالَىٰ لَمَّا أَقْدَرَ الظَّالِمَ عَلَىٰ الظُّلْمِ فِي هَذِهِ الدَّارِ، وَمَا أَعْجَزَهُ عَنْهُ، دَلَّ عَلَىٰ كَوْنِهِ رَاضِيًا بِذَلِكَ الظُّلْمِ.

قُلْنَا: الْإِقْدَارُ عَلَى الظُّلْمِ عَيْنُ الْإِقْدَارِ عَلَىٰ الْعَدْلِ وَالطَّاعَةِ، فَلَوْ لَمْ يُقْدِرْهُ تَعَالَىٰ عَلَىٰ الظُّلْمِ لَكَانَ قَدْ أَعْجَزَهُ عَنْ فِعْلِ الْخَيْرَاتِ وَالطَّاعَاتِ، وَذَلِكَ لَا يَلِيقُ بِالْحَكِيمِ، فَوَجَبَ فِي الْعَقْلِ إِقْدَارُهُ عَلَىٰ الظُّلْمِ وَالْعَدْلِ، ثمَّ إِنَّهُ تَعَالَىٰ يَنْتَقِمُ لِلْمَظْلُومِ مِنَ الظَّالِمِ.

الْحُجَّةُ الْخَامِسَةُ: أَنَّهُ تَعَالَىٰ خلقَ هَذَا الْعَالَمَ وَخَلَقَ كُلَّ مَنْ فِيهِ مِنَ النَّاسِ فَإِمَّا أَنْ يُقَالَ: إِنَّهُ تَعَالَىٰ خَلَقَهُمْ لَا لِمَنْفَعَةٍ وَلَا لِمَصْلَحَةٍ، أَوْ يُقَالَ: إِنَّهُ تَعَالَىٰ خَلَقَهُمْ لِمَصْلَحَةٍ وَمَنْفَعَةٍ. وَالْأَوَّلُ: يَلِيقُ بِالرَّحِيمِ الْكَرِيمِ. وَالثَّانِي: وَهُوَ أَنْ يُقَالَ: إِنَّهُ خَلَقَهُمْ لِمَقْصُودٍ وَمَصْلَحَةٍ وَخَيْرٍ، فَذَلِكَ الْخَيْرُ وَالْمَصْلَحَةُ إِمَّا أَنْ يَحْصُلَ فِي

هَذِهِ الدُّنْيَا أَوْ فِي دَارٍ أُخْرَىٰ، وَالْأَوَّلُ بَاطِلٌ مِنْ وَجْهَيْنِ: الْأَوَّلُ: أَنَّ لَذَّاتِ هَذَا الْعَالَمِ جُسْمَانِيَّةٌ، وَاللَّذَّاتُ الْجُسْمَانِيَّةُ لَا حَقِيقَةَ لَهَا إِلَّا إِزَالَةُ الْأَلَمِ، وَإِزَالَةُ الْأَلَمِ أَمْرٌ عَدَمِيٌّ، وَهَذَا الْعَدَمُ كَانَ حَاصِلًا حَالَ كَوْنِ كُلِّ وَاحِدٍ مِنَ الْخَلَائِقِ مَعْدُومًا، وَحِينَئِذٍ لَا يَبْقَىٰ لِلتَّخْلِيقِ فَائِدَةٌ. وَالثَّانِي: أَنَّ لَذَّاتِ هَذَا الْعَالَمِ مَمْزُوجَةٌ بِالْآلَامِ وَالْمِحَنِ، بَلِ الدُّنْيَا طَافِحَةٌ بِالشُّرُورِ وَالْآفَاتِ وَالْمِحَنِ وَالْبَلِيَّاتِ، وَاللَّذَّةُ فِيهَا كَالْقَطْرَةِ فِي الْبَحْرِ فَعَلِمْنَا أَنَّ الدَّارَ الَّتِي يَصِلُ فِيهَا الْخَلْقُ إِلَىٰ تِلْكَ الرَّاحَاتِ الْمَقْصُودَةِ دَارٌ أُخْرَىٰ سِوَىٰ دَارِ الدُّنْيَا.

فَإِنْ قَالُوا: أَلَيْسَ أَنَّهُ تَعَالَىٰ يُؤْلِمُ أَهْلَ النَّارِ بِأَشَدِّ الْعَذَابِ لَا لِأَجْلِ مَصْلَحَةٍ وَحِكْمَةٍ؟ فَلِمَ لَا يَجُوزُ أَنْ يُقَالَ: إِنَّهُ تَعَالَىٰ يَخْلُقُ الْخَلْقَ فِي هَذَا الْعَالَمِ لَا لِمَصْلَحَةٍ وَلَا لِحِكْمَةٍ.

قُلْنَا: الْفَرْقُ أَنَّ ذَلِكَ الضَّرَرَ ضَرَرٌ مُسْتَحَقٌّ عَلَىٰ أَعْمَالِهِمُ الْخَبِيثَةِ وَأَمَّا الضَّرَرُ الْحَاصِلُ فِي الدُّنْيَا فَغَيْرُ مُسْتَحَقٍّ، فَوَجَبَ أَنْ يَعْقُبَهُ خَيْرَاتٌ عَظِيمَةٌ وَمَنَافِعُ جَابِرَةٌ لِتِلْكَ الْمَضَارِّ السَّالِفَةِ، وَإِلَّا لَزِمَ أَنْ يَكُونَ الْفَاعِلُ شِرِّيرًا مُؤْذِيًا، وَذَلِكَ يُنَافِي كَوْنَهُ أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ وَأَكْرَمَ الْأَكْرَمِينَ.

الْحُجَّةُ السَّادِسَةُ: لَوْ لَمْ يَحْصُلْ لِلْإِنْسَانِ مَعَادٌ لَكَانَ الْإِنْسَانُ أَخَسَّ مِنْ جَمِيعِ الْحَيَوَانَاتِ فِي الْمَنْزِلَةِ وَالشَّرَفِ وَاللَّازِمُ بَاطِلٌ، فَالْمَلْزُومُ مِثْلُهُ بَيَانُ الْمُلَازَمَةِ أَنَّ مَضَارَّ الْإِنْسَانِ فِي الدُّنْيَا أَكْثَرُ مِنْ مَضَارِّ جَمِيعِ الْحَيَوَانَاتِ، فَإِنَّ سَائِرَ الْحَيَوَانَاتِ قَبْلَ وُقُوعِهَا فِي الْآلَامِ وَالْأَسْقَامِ تَكُونُ فَارِغَةَ الْبَالِ طَيِّبَةَ النَّفْسِ، لِأَنَّهُ لَيْسَ لَهَا فِكْرٌ وَتَأَمُّلٌ أَمَّا الْإِنْسَانُ فَإِنَّهُ بِسَبَبِ مَا يَحْصُلُ لَهُ مِنَ الْعَقْلِ يَتَفَكَّرُ أَبَدًا فِي الْأَحْوَالِ الْمَاضِيَةِ وَالْأَحْوَالِ الْمُسْتَقْبَلَةِ، فَيَحْصُلُ لَهُ بِسَبَبِ أَكْثَرِ الْأَحْوَالِ الْمَاضِيَةِ أَنْوَاعٌ مِنَ الْحُزْنِ وَالْأَسَفِ، وَيَحْصُلُ لَهُ بِسَبَبِ أَكْثَرِ الْأَحْوَالِ الآتية أنواع مِنَ الْخَوْفِ، لِأَنَّهُ لَا يَدْرِي أَنَّهُ كَيْفَ تَحْدُثُ الْأَحْوَالُ فَثَبَتَ أَنَّ حُصُولَ الْعَقْلِ لِلْإِنْسَانِ سَبَبٌ لِحُصُولِ الْمَضَارِّ الْعَظِيمَةِ فِي الدُّنْيَا وَالْآلَامِ النَّفْسَانِيَّةِ الشَّدِيدَةِ الْقَوِيَّةِ. وَأَمَّا اللَّذَّاتُ الْجُسْمَانِيَّةُ فَهِيَ مُشْتَرَكَةٌ بَيْنَ النَّاسِ وَبَيْنَ سَائِرِ الْحَيَوَانَاتِ، لِأَنَّ السِّرْقِينَ فِي مَذَاقِ الْجُعْلِ طَيِّبٌ، كَمَا أَنَّ اللَّوْزِينَجَ فِي مَذَاقِ الْإِنْسَانِ طَيِّبٌ.

إِذَا ثَبَتَ هَذَا فَنَقُولُ: لَوْ لَمْ يَحْصُلْ لِلْإِنْسَانِ مَعَادٌ بِهِ تَكْمُلُ حَالَتُهُ وَتَظْهَرُ سَعَادَتُهُ، لَوَجَبَ أَنْ يَكُونَ كَمَالُ الْعَقْلِ، سَبَبًا لِمَزِيدِ الْهُمُومِ وَالْغُمُومِ وَالْأَحْزَانِ مِنْ غَيْرِ جَابِرٍ يَجْبُرُ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ كُلَّ مَا كَانَ كَذَلِكَ فَإِنَّهُ يَكُونُ سَبَبًا لِمَزِيدِ الْخِسَّةِ وَالدَّنَاءَةِ وَالشَّقَاءِ وَالتَّعَبِ الْخَالِيَةِ عَنِ الْمَنْفَعَةِ فَثَبَتَ أَنَّهُ لَوْلَا حُصُولُ السَّعَادَةِ الْأُخْرَوِيَّةِ لَكَانَ الْإِنْسَانُ أَخَسَّ الْحَيَوَانَاتِ حَتَّىٰ الْخَنَافِسِ وَالدِّيدَانِ، وَلَمَّا كَانَ ذَلِكَ بَاطِلًا قَطْعًا، عَلِمْنَا أَنَّهُ لَا بُدَّ مِنَ الدَّارِ الْآخِرَةِ، وَأَنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ لِلْآخِرَةِ لَا لِلدُّنْيَا، وَأَنَّهُ بِعَقْلِهِ يَكْتَسِبُ مُوجِبَاتِ السَّعَادَاتِ الْأُخْرَوِيَّةِ فَلِهَذَا السَّبَبِ كَانَ الْعَقْلُ شَرِيفًا.

الْحُجَّةُ السَّابِعَةُ: أَنَّهُ تَعَالَىٰ قَادِرٌ عَلَىٰ إِيصَالِ النِّعَمِ إِلَىٰ عَبِيدِهِ عَلَىٰ وَجْهَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: أَنْ تَكُونَ النِّعَمُ مَشُوبَةً بِالْآفَاتِ وَالْأَحْزَانِ.

وَالثَّانِي: أَنْ تَكُونَ خَالِصَةً عَنْهَا، فَلَمَّا أَنْعَمَ اللَّهُ تَعَالَىٰ فِي الدُّنْيَا بِالْمَرْتَبَةِ الْأُولَىٰ وَجَبَ أَنْ يُنْعِمَ عَلَيْنَا بِالْمَرْتَبَةِ الثَّانِيَةِ فِي دَارٍ أُخْرَىٰ، إِظْهَارًا لِكَمَالِ الْقُدْرَةِ وَالرَّحْمَةِ وَالْحِكْمَةِ، فَهُنَاكَ يُنْعِمُ عَلَى الْمُطِيعِينَ وَيَعْفُو عَنِ الْمُذْنِبِينَ، وَيُزِيلُ الْغُمُومَ وَالْهُمُومَ وَالشَّهَوَاتِ وَالشُّبُهَاتِ وَالَّذِي يُقَوِّي ذَلِكَ، وَيُقَرِّرُ هَذَا الْكَلَامَ أَنَّ الْإِنْسَانَ حِينَ كَانَ جَنِينًا فِي بَطْنِ أُمِّهِ، كَانَ فِي أَضْيَقِ الْمَوَاضِعِ وَأَشَدِّهَا عُفُونَةً وَفَسَادًا، ثُمَّ إِذَا خَرَجَ مِنْ بَطْنِ أُمِّهِ كَانَتِ الْحَالَةُ الثَّانِيَةُ أَطْيَبَ وَأَشْرَفَ مِنَ الْحَالَةِ الْأُولَىٰ، ثُمَّ إِنَّهُ عِنْدَ ذَلِكَ يُوضَعُ فِي الْمَهْدِ وَيُشَدُّ شَدًّا وَثِيقًا، ثُمَّ بَعْدَ حِينٍ يَخْرُجُ مِنَ الْمَهْدِ وَيَعْدُو يَمِينًا وَشِمَالًا، وَيَنْتَقِلُ مِنْ تَنَاوُلِ اللَّبَنِ إِلَىٰ تَنَاوُلِ الْأَطْعِمَةِ الطَّيِّبَةِ، وَهَذِهِ الْحَالَةُ الثَّالِثَةُ لَا شَكَّ أَنَّهَا أَطْيَبُ مِنَ الْحَالَةِ الثَّانِيَةِ، ثُمَّ إِنَّهُ بَعْدَ حِينٍ يَصِيرُ أَمِيرًا نَافِذَ الْحُكْمِ عَلَى الْخَلْقِ، أَوْ عَالِمًا مُشْرِفًا عَلَىٰ حَقَائِقِ الْأَشْيَاءِ، وَلَا شَكَّ أَنَّ هَذِهِ الْحَالَةَ الرَّابِعَةَ أَطْيَبُ وَأَشْرَفُ مِنَ الْحَالَةِ الثَّالِثَةِ. وَإِذَا ثَبَتَ هَذَا وَجَبَ بِحُكْمِ هَذَا الِاسْتِقْرَاءِ أَنْ يُقَالَ: الْحَالَةُ الْحَاصِلَةُ بَعْدَ الْمَوْتِ تَكُونُ أَشْرَفَ وَأَعْلَىٰ وَأَبْهَجَ مِنَ اللَّذَّاتِ الْجَسَدَانِيَّةِ وَالْخَيْرَاتِ الْجُسْمَانِيَّةِ.

الْحُجَّةُ الثَّامِنَةُ: طَرِيقَةُ الِاحْتِيَاطِ، فَإِنَّا إِذَا آمَنَّا بِالْمَعَادِ وَتَأَهَّبْنَا لَهُ، فَإِنْ كَانَ هَذَا الْمَذْهَبُ حَقًّا، فَقَدْ نَجَوْنَا وَهَلَكَ الْمُنْكِرُ، وَإِنْ كَانَ بَاطِلًا، لَمْ يَضُرَّنَا هَذَا الِاعْتِقَادُ. غَايَةُ مَا فِي الْبَابِ أَنْ يُقَالَ إِنَّهُ تَفُوتُنَا هَذِهِ اللَّذَّاتُ الْجُسْمَانِيَّةُ إِلَّا أَنَّا نَقُولُ يَجِبُ عَلَى الْعَاقِلِ أَنْ لَا يُبَالِيَ بِفَوْتِهَا لِأَمْرَيْنِ أَحَدُهُمَا: أَنَّهَا فِي غَايَةِ الْخَسَاسَةِ لِأَنَّهَا مُشْتَرَكٌ فِيهَا بَيْنَ الْخَنَافِسِ وَالدِّيدَانِ وَالْكِلَابِ. وَالثَّانِي: أَنَّهَا مُنْقَطِعَةٌ سَرِيعَةُ الزَّوَالِ فَثَبَتَ أَنَّ الِاحْتِيَاطَ لَيْسَ إِلَّا فِي الْإِيمَانِ بِالْمَعَادِ، وَلِهَذَا قَالَ الشَّاعِرُ:

قَالَ الْمُنَجِّمُ وَالطَّبِيبُ كِلَاهُمَا   لَا تُحْشَرُ الْأَمْوَاتُ قُلْتُ إِلَيْكُمَا
إِنْ صح لكما فَلَسْتُ بِخَاسِرٍ   أَوْ صَحَّ قَوْلِي فَالْخَسَارُ عَلَيْكُمَا

الْحُجَّةُ التَّاسِعَةُ: اعْلَمْ أَنَّ الْحَيَوَانَ مَا دَامَ يَكُونُ حَيَوَانًا، فَإِنَّهُ إِنْ قُطِعَ مِنْهُ شَيْءٌ مِثْلُ ظُفْرٍ أَوْ ظِلْفٍ أَوْ شَعْرٍ، فَإِنَّهُ يَعُودُ ذَلِكَ الشَّيْءُ، وَإِنْ جُرِحَ انْدَمَلَ، وَيَكُونُ الدَّمُ جَارِيًا فِي عُرُوقِهِ وَأَعْضَائِهِ جَرَيَانَ الْمَاءِ فِي عُرُوقِ الشَّجَرِ وَأَغْصَانِهِ، ثُمَّ إِذَا مَاتَ انْقَلَبَتْ هَذِهِ الْأَحْوَالُ، فَإِنْ قُطِعَ مِنْهُ شَيْءٌ مِنْ شَعْرِهِ أَوْ ظُفْرِهِ لَمْ يَنْبُتْ، وَإِنْ جُرِحَ لَمْ يَنْدَمِلْ وَلَمْ يَلْتَحِمْ، وَرَأَيْتَ الدَّمَ يَتَجَمَّدُ فِي عُرُوقِهِ، ثُمَّ بِالْآخِرَةِ يَؤُولُ حَالُهُ إِلَى الْفَسَادِ وَالِانْحِلَالِ ثُمَّ إِنَّا لَمَّا نَظَرْنَا إِلَى الْأَرْضِ وَجَدْنَاهَا شَبِيهَةً بِهَذِهِ الصِّفَةِ، فَإِنَّا نَرَاهَا فِي زَمَانِ الرَّبِيعِ تَفُورُ عُيُونُهَا وَتَرْبُو تِلَالُهَا وَيَنْجَذِبُ الْمَاءُ إِلَىٰ أَغْصَانِ الْأَشْجَارِ وَعُرُوقِهَا، وَالْمَاءُ فِي الْأَرْضِ بِمَنْزِلَةِ الدَّمِ الْجَارِي فِي بَدَنِ الْحَيَوَانِ،

ثُمَّ تَخْرُجُ أَزْهَارُهَا وَأَنْوَارُهَا وَثِمَارُهَا كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ [الْحَجِّ: ٥] وَإِنْ جُذَّ مِنْ نَبَاتِهَا شَيْءٌ أَخْلَفَ وَنَبَتَ مَكَانَهُ آخَرُ مِثْلُهُ، وَإِنْ قُطِعَ غُصْنٌ مِنْ أَغْصَانِ الْأَشْجَارِ أَخْلَفَ، وَإِنْ جُرِحَ الْتَأَمَ، وَهَذِهِ الْأَحْوَالُ شَبِيهَةٌ بِالْأَحْوَالِ الَّتِي ذَكَرْنَاهَا لِلْحَيَوَانِ ثُمَّ إِذَا جَاءَ الشِّتَاءُ وَاشْتَدَّ الْبَرْدُ غَارَتْ عُيُونُهَا وَجَفَّتْ رُطُوبَتُهَا وَفَسَدَتْ بُقُولُهَا، وَلَوْ قَطَعْنَا غُصْنًا مِنْ شَجَرَةٍ مَا أَخْلَفَ، فَكَانَتْ هَذِهِ الْأَحْوَالُ شَبِيهَةً بِالْمَوْتِ بَعْدَ الْحَيَاةِ.

ثُمَّ إِنَّا نَرَىٰ الْأَرْضَ فِي الرَّبِيعِ الثَّانِي تَعُودُ إِلَىٰ تِلْكَ الْحَيَاةِ، فَإِذَا عَقَلْنَا هَذِهِ الْمَعَانِيَ فِي إِحْدَىٰ الصُّورَتَيْنِ، فَلِمَ لَا نَعْقِلُ مِثْلَهُ فِي الصُّورَةِ الثَّانِيَةِ، بَلْ نَقُولُ لَا شَكَّ أَنَّ الْإِنْسَانَ أَشْرَفُ مِنْ سَائِرِ الْحَيَوَانَاتِ، وَالْحَيَوَانَ أَشْرَفُ مِنَ النَّبَاتِ، وَهُوَ أَشْرَفُ مِنَ الْجَمَادَاتِ فَإِذَا حَصَلَتْ هَذِهِ الْأَحْوَالُ فِي الْأَرْضِ، فَلِمَ لَا يَجُوزُ حُصُولُهَا فِي الْإِنْسَانِ.

فَإِنْ قَالُوا: إِنْ أَجْسَادَ الْحَيَوَانِ تَتَفَرَّقُ وَتَتَمَزَّقُ بِالْمَوْتِ، وَأَمَّا الْأَرْضُ فَلَيْسَتْ كَذَلِكَ.

فَالْجَوَابُ: أَنَّ الْإِنْسَانَ عِبَارَةٌ عَنِ النَّفْسِ النَّاطِقَةِ، وَهُوَ جَوْهَرٌ بَاقٍ، أَوْ إِنْ لَمْ نَقُلْ بِهَذَا الْمَذْهَبِ فَهُوَ عِبَارَةٌ عَنْ أَجْزَاءٍ أَصْلِيَّةٍ بَاقِيَةٍ مِنْ أَوَّلِ وَقْتِ تَكَوُّنِ الْجَنِينِ إِلَىٰ آخِرِ الْعُمُرِ، وَهِيَ جَارِيَةٌ فِي الْبَدَنِ، وَتِلْكَ الْأَجْزَاءُ بَاقِيَةٌ، فَزَالَ هَذَا السُّؤَالُ.

الْحُجَّةُ الْعَاشِرَةُ: لَا شَكَّ أَنَّ بَدَنَ الْحَيَوَانِ إِنَّمَا تَوَلَّدَ مِنَ النُّطْفَةِ، وَهَذِهِ النُّطْفَةُ إِنَّمَا اجْتَمَعَتْ مِنْ جَمِيعِ الْبَدَنِ، بِدَلِيلِ أَنَّ عِنْدَ انْفِصَالِ النُّطْفَةِ يَحْصُلُ الضَّعْفُ وَالْفُتُورُ فِي جَمِيعِ الْبَدَنِ، ثُمَّ إِنَّ مَادَّةَ تِلْكَ النُّطْفَةِ إِنَّمَا تَوَلَّدَتْ مِنَ الْأَغْذِيَةِ الْمَأْكُولَةِ، وَتِلْكَ الْأَغْذِيَةُ إِنَّمَا تَوَلَّدَتْ مِنَ الْأَجْزَاءِ الْعُنْصُرِيَّةِ وَتِلْكَ الْأَجْزَاءُ كَانَتْ مُتَفَرِّقَةً فِي مَشَارِقِ الْأَرْضِ وَمَغَارِبِهَا، وَاتَّفَقَ لَهَا أَنِ اجْتَمَعَتْ، فَتَوَلَّدَ مِنْهَا حَيَوَانٌ أَوْ نَبَاتٌ فَأَكَلَهُ إِنْسَانٌ، فَتَوَلَّدَ مِنْهُ دَمٌ فَتَوَزَّعَ ذَلِكَ الدَّمُ عَلَىٰ أَعْضَائِهِ، فَتَوَلَّدَ مِنْهَا أَجْزَاءٌ لَطِيفَةٌ ثُمَّ عِنْدَ اسْتِيلَاءِ الشَّهْوَةِ سَالَ مِنْ تِلْكَ الرُّطُوبَاتِ مِقْدَارٌ مُعَيَّنٌ، وَهُوَ النُّطْفَةُ، فَانْصَبَّ إِلَىٰ فَمِ الرَّحِمِ، فَتَوَلَّدَ مِنْهُ هَذَا الْإِنْسَانُ، فَثَبَتَ أَنَّ الْأَجْزَاءَ الَّتِي مِنْهَا تَوَلَّدَ بَدَنُ الْإِنْسَانِ كَانَتْ مُتَفَرِّقَةً فِي الْبِحَارِ وَالْجِبَالِ وَأَوْجِ الْهَوَاءِ، ثُمَّ إِنَّهَا اجْتَمَعَتْ بِالطَّرِيقِ الْمَذْكُورِ، فَتَوَلَّدَ مِنْهَا هَذَا الْبَدَنُ، فَإِذَا مَاتَ تَفَرَّقَتْ تِلْكَ الْأَجْزَاءُ عَلَىٰ مِثَالِ التَّفَرُّقِ الْأَوَّلِ.

وَإِذَا ثَبَتَ هَذَا فَنَقُولُ وَجَبَ الْقَطْعُ أَيْضًا بِأَنَّهُ لَا يَمْتَنِعُ أَنْ يَجْتَمِعَ مَرَّةً أُخْرَىٰ عَلَىٰ مِثَالِ الِاجْتِمَاعِ الْأَوَّلِ، وَأَيْضًا، فَذَلِكَ الْمَنِيُّ لَمَّا وَقَعَ فِي رَحِمِ الْأُمِّ، فَقَدْ كَانَ قَطْرَةً صَغِيرَةً ثُمَّ تَوَلَّدَ مِنْهُ بَدَنُ الْإِنْسَانِ وَتَعَلَّقَتِ الرُّوحُ بِهِ حَالَ مَا كَانَ ذَلِكَ الْبَدَنُ فِي غَايَةِ الصِّغَرِ، ثُمَّ إِنَّ ذَلِكَ الْبَدَنَ لَا شَكَّ أَنَّهُ فِي غَايَةِ الرُّطُوبَةِ، وَلَا شَكَّ أَنَّهُ يَتَحَلَّلُ مِنْهُ أَجْزَاءٌ كَثِيرَةٌ بِسَبَبِ عَمَلِ الْحَرَارَةِ الْغَرِيزِيَّةِ فِيهَا، وَأَيْضًا فَتِلْكَ الْأَجْزَاءُ الْبَدَنِيَّةُ الْبَاقِيَةُ أَبَدًا فِي طُولِ

الْعُمُرِ تَكُونُ فِي التَّحَلُّلِ، وَلَوْلَا ذَلِكَ لَمَا حَصَلَ الْجُوعُ، وَلَمَا حَصَلَتِ الْحَاجَةُ إِلَىٰ الْغِذَاءِ، مَعَ أَنَّا نَقْطَعُ بِأَنَّ هَذَا الْإِنْسَانَ الشَّيْخَ، هُوَ عَيْنُ ذَلِكَ الْإِنْسَانِ الَّذِي كَانَ فِي بَطْنِ أُمِّهِ ثمَّ انْفَصَلَ، وَكَانَ طِفْلًا ثمَّ شَابًّا، فَثَبَتَ أَنَّ الْأَجْزَاءَ الْبَدَنِيَّةَ دَائِمَةُ التَّحَلُّلِ، وَأَنَّ الْإِنْسَانَ هُوَ هُوَ بِعَيْنِهِ فَوَجَبَ الْقَطْعُ بِأَنَّ الْإِنْسَانَ، إِمَّا أَنْ يَكُونَ جَوْهَرًا مُفَارِقًا مُجَرَّدًا، وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ جِسْمًا نُورَانِيًّا لَطِيفًا بَاقِيًا مَعَ تَحَلُّلِ هَذَا الْبَدَنِ، فَإِذَا كَانَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ فَعَلَىٰ التَّقْدِيرَيْنِ لَا يَمْتَنِعُ عَوْدُهُ إِلَىٰ الْجُثَّةِ مَرَّةً أُخْرَىٰ، وَيَكُونُ هَذَا الْإِنْسَانُ الْعَائِدُ عَيْنَ الْإِنْسَانِ الْأَوَّلِ، فَثَبَتَ أن القول بالمعاد صدق.

الحُجَّةُ الحَادِيَةُ عَشَر: مَا ذَكَرَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ فِي قَوْلِهِ: **﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسانُ أَنَّا خَلَقْناهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ﴾**

وَاعْلَمْ أَنَّ قَوْلَهُ سُبْحَانَهُ: **﴿خَلَقْناهُ مِنْ نُطْفَةٍ﴾** [يس: ٧٧] إِشَارَةٌ إِلَىٰ مَا ذَكَرْنَاهُ فِي الْحُجَّةِ الْعَاشِرَةِ مِنْ أَنَّ تِلْكَ الْأَجْزَاءَ كَانَتْ مُتَفَرِّقَةً فِي مَشَارِقِ الْأَرْضِ وَمَغَارِبِهَا، فَجَمَعَهَا اللَّهُ تَعَالَىٰ وَخَلَقَ مِنْ تَرْكِيبِهَا هَذَا الْحَيَوَانَ، وَالَّذِي يُقَوِّيهِ قَوْلُهُ سُبْحَانَهُ: **﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ طِينٍ ثمَّ جَعَلْناهُ نُطْفَةً فِي قَرارٍ مَكِينٍ﴾** [الْمُؤْمِنُونَ: ١٢- ١٣] فإن تفسيره هَذِهِ الْآيَةَ إِنَّمَا يَصِحُّ بِالْوَجْهِ الَّذِي ذَكَرْنَاهُ، وَهُوَ أَنَّ السُّلَالَةَ مِنَ الطِّينِ يَتَكَوَّنُ مِنْهَا نَبَاتٌ، ثمَّ إِنْ ذَلِكَ النَّبَات يَأْكُلُهُ الْإِنْسَانُ فَيَتَوَلَّدُ مِنْهُ الدَّمُ، ثمَّ الدَّمُ يَنْقَلِبُ نُطْفَةً، فبهذا الطريق ينظم ظَاهِرُ هَذِهِ الْآيَةِ. ثمَّ إِنَّهُ سُبْحَانَهُ بَعْدَ أَنْ ذَكَرَ هَذَا الْمَعْنَىٰ حَكَىٰ كَلَامَ الْمُنْكِرِ، وهو قوله تعالىٰ: **﴿قالَ مَنْ يُحْيِ الْعِظامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾** [يس: ٧٨] ثمَّ إِنَّهُ تَعَالَىٰ بَيَّنَ إِمْكَانَ هَذَا الْمَذْهَبِ.

وَاعْلَمْ أَنَّ إِثْبَاتَ إِمْكَانِ الشَّيْءِ لَا يُعْقَلُ إِلَّا بِطَرِيقَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: أَنْ يُقَالَ: إِنَّ مِثْلَهُ مُمْكِنٌ، فَوَجَبَ أَنْ يَكُونَ هَذَا أَيْضًا مُمْكِنًا.

وَالثَّانِي: أَنْ يُقَالَ: إِنَّ مَا هُوَ أَعْظَمُ مِنْهُ وَأَعْلَىٰ حَالًا مِنْهُ، فَهُوَ أَيْضًا مُمْكِنٌ. ثمَّ إِنَّهُ تَعَالَىٰ ذَكَرَ الطَّرِيقَ الْأَوَّلَ أَوَّلًا فَقَالَ: **﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَها أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾** [يس: ٧٩] ثمَّ فِيهِ دَقِيقَةٌ وَهِيَ أَنَّ قَوْلَهُ: قُلْ يُحْيِيهَا إِشَارَةٌ إِلَىٰ كَمَالِ الْقُدْرَةِ، وَقَوْلَهُ: وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ إِشَارَةٌ إِلَىٰ كمال العلم.

ومنكر والحشر وَالنَّشْرِ لَا يُنْكِرُونَهُ إِلَّا لِجَهْلِهِمْ بِهَذَيْنِ الْأَصْلَيْنِ، لِأَنَّهُمْ تَارَةً يَقُولُونَ: إِنَّهُ تَعَالَىٰ مُوجَبٌ بِالذَّاتِ، وَالْمُوجَبُ بِالذَّاتِ لَا يَصِحُّ مِنْهُ الْقَصْدُ إِلَىٰ التَّكْوِينِ، وَتَارَةً يَقُولُونَ إِنَّهُ يَمْتَنِعُ كَوْنُهُ عَالِمًا بِالْجُزْئِيَّاتِ، فَيَمْتَنِعُ مِنْهُ تَمْيِيزُ أَجْزَاءِ بَدَنِ زَيْدٍ عَنْ أَجْزَاءِ بَدَنِ عَمْرٍو، وَلَمَّا كَانَتْ شُبَهُ الْفَلَاسِفَةِ مُسْتَخْرَجَةً مِنْ هَذَيْنِ الْأَصْلَيْنِ، لَا جَرَمَ كُلَّمَا ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَىٰ مَسْأَلَةَ الْمَعَادِ أَرْدَفَهُ بِتَقْرِيرِ هَذَيْنِ الْأَصْلَيْنِ ثمَّ إِنَّهُ تَعَالَىٰ ذَكَرَ بَعْدَهُ الطَّرِيقَ الثَّانِيَ، وَهُوَ الِاسْتِدْلَالُ بِالْأَعْلَىٰ عَلَىٰ الْأَدْنَىٰ، وَتَقْرِيرُهُ مِنْ وَجْهَيْنِ :

الْأَوَّلُ: أَنَّ الْحَيَاةَ لَا تَحْصُلُ إِلَّا بِالْحَرَارَةِ وَالرُّطُوبَةِ، وَالتُّرَابُ بَارِدٌ يَابِسٌ، فَحَصَلَتِ الْمُضَادَّةُ بَيْنَهُمَا إِلَّا أَنَّا نَقُولُ: الْحَرَارَةُ النَّارِيَّةُ أَقْوَىٰ فِي صِفَةِ الْحَرَارَةِ مِنَ الْحَرَارَةِ الْغَرِيزِيَّةِ، فَلَمَّا لَمْ يَمْتَنِعْ تَوَلُّدُ الْحَرَارَةِ النَّارِيَّةِ عَنِ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ مَعَ كَمَالِ مَا بَيْنَهُمَا مِنَ الْمُضَادَّةِ، فَكَيْفَ يَمْتَنِعُ حُدُوثُ الْحَرَارَةِ الْغَرِيزِيَّةِ فِي جِرْمِ التُّرَابِ؟

الثَّانِي: قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: **﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ بِقادِرٍ عَلى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾** [يس: ٨١] بِمَعْنَىٰ أَنَّهُ لَمَّا سَلَّمْتُمْ أَنَّهُ تَعَالَىٰ هُوَ الْخَالِقُ لِأَجْرَامِ الْأَفْلَاكِ والكواكب، فكيف يمكنكم الامتناع عن كَوْنِهِ قَادِرًا عَلَىٰ الْحَشْرِ وَالنَّشْرِ؟ ثمَّ إِنَّهُ تعالىٰ جسم مادة الشبهات بقوله: **﴿إِنَّما أَمْرُهُ إِذا أَرادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾** [يس: ٨٢] وَالْمُرَادُ أَنَّ تَخْلِيقَهُ وَتَكْوِينَهُ لَا يَتَوَقَّفُ عَلَىٰ حُصُولِ الْآلَاتِ وَالْأَدَوَاتِ وَنُطْفَةِ الْأَبِ وَرَحِمِ الْأُمِّ، وَالدَّلِيلُ عَلَيْهِ أَنَّهُ خَلَقَ الْأَبَ الْأَوَّلَ، لَا عَنْ أَبٍ سَابِقٍ عَلَيْهِ، فَدَلَّ ذَلِكَ عَلَىٰ كَوْنِهِ سُبْحَانَهُ غَنِيًّا فِي الْخَلْقِ وَالْإِيجَادِ وَالتَّكْوِينِ عَنِ الْوَسَائِطِ وَالْآلَاتِ. ثمَّ قَالَ سُبْحَانَهُ: **﴿فَسُبْحانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾** [يس: ٨٣] أَيْ سُبْحَانَهُ مِنْ أَنْ لَا يُعِيدَهُمْ وَيُهْمِلَ أَمْرَ الْمَظْلُومِينَ، وَلَا يَنْتَصِفَ لِلْعَاجِزِينَ مِنَ الظَّالِمِينَ، وَهُوَ الْمَعْنَىٰ الْمَذْكُورُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الَّتِي نَحْنُ فِي تَفْسِيرِهَا، وَهِيَ قَوْلُهُ سُبْحَانَهُ: **﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ بِالْقِسْطِ﴾** .

الْحُجَّةُ الثانية عَشَر: دَلَّتِ الدَّلَائِلُ عَلَىٰ أَنَّ الْعَالَمَ مُحْدَثٌ وَلَا بُدَّ لَهُ مِنْ مُحْدِثٍ قَادِرٍ، وَيَجِبُ أَنْ يَكُونَ عَالِمًا، لِأَنَّ الْفِعْلَ الْمُحْكَمَ الْمُتْقَنَ لَا يَصْدُرُ إِلَّا مِنَ الْعَالِمِ، وَيَجِبُ أَنْ يَكُونَ غَنِيًّا عَنْهَا وَإِلَّا لَكَانَ قَدْ خَلَقَهَا فِي الْأَزَلِ وَهُوَ مُحَالٌ، فَثَبَتَ أَنَّ لِهَذَا الْعَالَمِ إِلَهًا قَادِرًا عَالِمًا غَنِيًّا، ثمَّ لَمَّا تَأَمَّلْنَا فَقُلْنَا: هَلْ يَجُوزُ فِي حَقِّ هَذَا الْحَكِيمِ الْغَنِيِّ عَنِ الْكُلِّ أَنْ يُهْمِلَ عَبِيدَهُ وَيَتْرُكَهُمْ سُدًىٰ، وَيُجَوِّزَ لَهُمْ أَنْ يَكْذِبُوا عَلَيْهِ وَيُبِيحَ لَهُمْ أَنْ يَشْتُمُوهُ وَيَجْحَدُوا رُبُوبِيَّتَهُ، وَيَأْكُلُوا نِعْمَتَهُ، وَيَعْبُدُوا الْجِبْتَ وَالطَّاغُوتَ، وَيَجْعَلُوا لَهُ أَنْدَادًا وَيُنْكِرُوا أَمْرَهُ وَنَهْيَهُ وَوَعْدَهُ وَوَعِيدَهُ؟

فههنا حَكَمَتْ بَدِيهَةُ الْعَقْلِ بِأَنَّ هَذِهِ الْمَعَانِيَ لَا تَلِيقُ إِلَّا بِالسَّفِيهِ الْجَاهِلِ الْبَعِيدِ مِنَ الْحِكْمَةِ الْقَرِيبِ مِنَ الْعَبَثِ، فَحَكَمْنَا لِأَجْلِ هَذِهِ الْمُقَدِّمَةِ أَنَّ لَهُ أَمْرًا وَنَهْيًا، ثمَّ تَأَمَّلْنَا فَقُلْنَا: هَلْ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَمْرٌ وَنَهْيٌ مَعَ أَنَّهُ لَا يَكُونُ لَهُ وَعْدٌ وَوَعِيدٌ؟ فَحَكَمَ صَرِيحُ الْعَقْلِ بِأَنَّ ذَلِكَ غَيْرُ جَائِزٍ لِأَنَّهُ إِنْ لَمْ يَقْرِنِ الْأَمْرَ بِالْوَعْدِ بِالثَّوَابِ، وَلَمْ يَقْرِنِ النَّهْيَ بِالْوَعِيدِ بِالْعِقَابِ لَمْ يَتَأَكَّدِ الْأَمْرُ وَالنَّهْيُ، وَلَمْ يَحْصُلِ الْمَقْصُودُ فَثَبَتَ أَنَّهُ لَا بُدَّ مِنْ وَعْدٍ وَوَعِيدٍ، ثمَّ تَأَمَّلْنَا فَقُلْنَا: هَلْ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَعْدٌ وَوَعِيدٌ ثمَّ إِنَّهُ لَا يَفِي بِوَعْدِهِ لِأَهْلِ الثَّوَابِ، وَلَا بِوَعِيدِهِ لِأَهْلِ الْعِقَابِ: فَقُلْنَا: إِنَّ ذَلِكَ لَا يَجُوزُ، لِأَنَّهُ لَوْ جَازَ ذَلِكَ لَمَا حَصَلَ الْوُثُوقُ بِوَعْدِهِ وَلَا بِوَعِيدِهِ، وَهَذَا يُوجِبُ أَنْ لَا يَبْقَىٰ فَائِدَةٌ فِي الْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ، فَعَلِمْنَا أَنَّهُ لَا بُدَّ مِنْ تَحْقِيقِ الثَّوَابِ وَالْعِقَابِ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ ذَلِكَ

لَا يَتِمُّ إِلَّا بِالْحَشْرِ وَالْبَعْثِ، وَمَا لَا يَتِمُّ الْوَاجِبُ إِلَّا بِهِ فَهُوَ وَاجِبٌ فَهَذِهِ مُقَدِّمَاتٌ يَتَعَلَّقُ بَعْضُهَا بِالْبَعْضِ كَالسِّلْسِلَةِ مَتَىٰ صَحَّ بَعْضُهَا صَحَّ كُلُّهَا، وَمَتَىٰ فَسَدَ بَعْضُهَا فَسَدَ كُلُّهَا، فَدَلَّ مُشَاهَدَةُ أَبْصَارِنَا لِهَذِهِ التَّغَيُّرَاتِ عَلَىٰ حُدُوثِ الْعَالَمِ، وَدَلَّ حُدُوثُ الْعَالَمِ عَلَىٰ وُجُودِ الصَّانِعِ الْحَكِيمِ الْغَنِيِّ، وَدَلَّ ذَلِكَ عَلَىٰ وُجُودِ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ، وَدَلَّ ذَلِكَ عَلَىٰ وُجُودِ الثَّوَابِ وَالْعِقَابِ، وَدَلَّ ذَلِكَ عَلَىٰ وُجُوبِ الْحَشْرِ فَإِنْ لَمْ يَثْبُتِ الْحَشْرُ أَدَّىٰ ذَلِكَ إِلَىٰ بُطْلَانِ جَمِيعِ الْمُقَدِّمَاتِ الْمَذْكُورَةِ وَلَزِمَ إِنْكَارُ الْعُلُومِ الْبَدِيهِيَّةِ وَإِنْكَارُ الْعُلُومِ النَّظَرِيَّةِ الْقَطْعِيَّةِ فَثَبَتَ أَنَّهُ لَا بُدَّ لِهَذِهِ الْأَجْسَادِ الْبَالِيَةِ وَالْعِظَامِ النَّخِرَةِ وَالْأَجْزَاءِ الْمُتَفَرِّقَةِ الْمُتَمَزِّقَةِ مِنَ الْبَعْثِ بَعْدَ الْمَوْتِ، لِيَصِلَ الْمُحْسِنُ إِلَىٰ ثَوَابِهِ وَالْمُسِيءُ إِلَىٰ عِقَابِهِ، فَإِنْ لَمْ تَحْصُلْ هَذِهِ الْحَالَةُ لَمْ يَحْصُلِ الْوَعْدُ وَالْوَعِيدُ، وَإِنْ لَمْ يَحْصُلَا لَمْ يَحْصُلِ الْأَمْرُ وَالنَّهْيُ، وَإِنْ لَمْ يَحْصُلَا لَمْ تَحْصُلِ الْإِلَهِيَّةُ، وَإِنْ لَمْ تَحْصُلِ الْإِلَهِيَّةُ لَمْ تَحْصُلْ هَذِهِ التَّغَيُّرَاتُ فِي الْعَالَمِ وَهَذِهِ الْحُجَّةُ هِيَ الْمُرَادُ مِنَ الْآيَةِ الَّتِي نَحْنُ فِي تَفْسِيرِهَا وَهِيَ قَوْلُهُ: لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ هَذَا كُلُّهُ تَقْرِيرُ إِثْبَاتِ الْمَعَادِ بِنَاءً عَلَىٰ أَنَّ لِهَذَا الْعَالَمِ إِلَهًا رَحِيمًا نَاظِرًا مُحْسِنًا إِلَىٰ الْعِبَادِ.

أَمَّا الْفَرِيقُ الثَّانِي: وَهُمُ الَّذِينَ لَا يُعَلِّلُونَ أَفْعَالَ اللَّهِ تَعَالَىٰ بِرِعَايَةِ الْمَصَالِحِ، فَطَرِيقُهُمْ إِلَىٰ إِثْبَاتِ الْمَعَادِ أَنْ قَالُوا: الْمَعَادُ أَمْرٌ جَائِزُ الْوُجُودِ، وَالْأَنْبِيَاءُ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ أَخْبَرُوا عَنْهُ، فَوَجَبَ الْقَطْعُ بِصِحَّتِهِ، أَمَّا إِثْبَاتُ الْإِمْكَانِ فَهُوَ مَبْنِيٌّ عَلَىٰ مُقَدِّمَاتٍ ثَلَاثَةٍ:

الْمُقَدِّمَةُ الْأُولَى: الْبَحْثُ عَنْ حَالِ الْقَابِلِ فَنَقُولُ: الْإِنْسَانُ إِمَّا أَنْ يَكُونَ عِبَارَةً عَنِ النَّفْسِ أَوْ عَنِ الْبَدَنِ، فَإِنْ كَانَ عِبَارَةً عَنِ النَّفْسِ وَهُوَ الْقَوْلُ الْحَقُّ، فَنَقُولُ: لَمَّا كَانَ تَعَلُّقُ النَّفْسِ بِالْبَدَنِ فِي الْمَرَّةِ الْأُولَىٰ، جَائِزًا كَانَ تَعَلُّقُهَا بِالْبَدَنِ فِي الْمَرَّةِ الثَّانِيَةِ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ جَائِزًا وَهَذَا الْكَلَامُ لَا يَخْتَلِفُ، سَوَاءٌ قُلْنَا النَّفْسُ عِبَارَةٌ عَنْ جَوْهَرٍ مُجَرَّدٍ، أَوْ قُلْنَا: إِنَّهُ جِسْمٌ لَطِيفٌ مُشَاكِلٌ لِهَذَا الْبَدَنِ بَاقٍ فِي جَمِيعِ أَحْوَالِ الْبَدَنِ مَصُونٌ عَنِ التَّحَلُّلِ وَالتَّبَدُّلِ، وَأَمَّا إِنْ كَانَ الْإِنْسَانُ عِبَارَةً عَنِ الْبَدَنِ، وَهَذَا الْقَوْلُ أَبْعَدُ الْأَقَاوِيلِ فَنَقُولُ: إِنَّ تَأَلُّفَ تِلْكَ الْأَجْزَاءِ عَلَىٰ الْوَجْهِ الْمَخْصُوصِ فِي الْمَرَّةِ الْأُولَىٰ كَانَ مُمْكِنًا، فَوَجَبَ أَيْضًا أَنْ يَكُونَ فِي الْمَرَّةِ الثَّانِيَةِ مُمْكِنًا، فَثَبَتَ أَنَّ عَوْدَ الْحَيَاةِ إِلَىٰ هَذَا الْبَدَنِ مَرَّةً أُخْرَىٰ أَمْرُهُ مُمْكِنٌ فِي نَفْسِهِ.

وَأَمَّا الْمُقَدِّمَةُ الثَّانِيَةُ: فَهِيَ فِي بَيَانِ أَنَّ إِلَهَ الْعَالَمِ قَادِرٌ مُخْتَارٌ لَا عِلَّةٌ مُوجِبَةٌ، وَأَنَّ هَذَا الْقَادِرَ قَادِرٌ عَلَىٰ كُلِّ الْمُمْكِنَاتِ.

وَأَمَّا الْمُقَدِّمَةُ الثَّالِثَةُ: فَهِيَ فِي بَيَانِ أَنَّ إِلَهَ الْعَالَمِ عَالِمٌ بِجَمِيعِ الْجُزْئِيَّاتِ، فَلَا جَرَمَ أَجْزَاءُ بَدَنِ زَيْدٍ وَإِنِ اخْتَلَطَتْ بِأَجْزَاءِ التُّرَابِ، وَالْبِحَارِ إِلَّا أَنَّهُ تَعَالَىٰ لَمَّا كَانَ عَالِمًا بِالْجُزْئِيَّاتِ أَمْكَنَهُ تَمْيِيزُ بَعْضِهَا عن بعض ومتىٰ ثبتت هذه المقدمات الثلاثة، لَزِمَ الْقَطْعُ بِأَنَّ الْحَشْرَ وَالنَّشْرَ أَمْرٌ مُمْكِنٌ فِي نَفْسِهِ.

وَإِذَا ثَبَتَ هَذَا الْإِمْكَانُ فَنَقُولُ: دَلَّ الدَّلِيلُ عَلَىٰ صِدْقِ الْأَنْبِيَاءِ وَهُمْ قَطَعُوا بِوُقُوعِ هَذَا الْمُمْكِنِ، فَوَجَبَ الْقَطْعُ بِوُقُوعِهِ، وَإِلَّا لَزِمَنَا تَكْذِيبُهُمْ، وَذَلِكَ بَاطِلٌ بِالدَّلَائِلِ الدَّالَّةِ عَلَىٰ صِدْقِهِمْ، فَهَذَا خُلَاصَةُ مَا وَصَلَ إِلَيْهِ عَقْلُنَا فِي تَقْرِيرِ أَمْرِ الْمَعَادِ" .

﴿سُؤالٌ﴾ : مَنْ هُوَ أَوَّلُ مَنْ تَنْشَقُّ عَنْهُ الأَرْض ؟

الجواب : أَوَّل من تنشقُّ عنه الأرض هو النَّبيُّ ، صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، ثمَّ يخرج بعده بقيَّة الخلق ، وفي ذلك روىٰ البخاري (٤/ ١٨٥ برقم ٣٥٣٢) ، مسلم (٤/ ١٨٢٨ برقم ٢٣٥٤) بسندهما عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ، عَنْ أَبِيهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "لِي خَمْسَةُ أَسْمَاءٍ: أَنَا مُحَمَّدٌ، وَأَحْمَدُ وَأَنَا المَاحِي الَّذِي يَمْحُو اللَّهُ بِي الكُفْرَ، وَأَنَا الحَاشِرُ الَّذِي يُحْشَرُ النَّاسُ عَلَىٰ قَدَمِي، وَأَنَا العَاقِبُ" .

قال الحافظ ابن حجر في " فتح الباري" (٦/ ٥٥٧) : " قَوْلُهُ : "وَأَنَا الْحَاشِرُ الَّذِي يُحْشَرُ النَّاسُ عَلَىٰ قَدَمِي " ، أَيْ : عَلَىٰ أَثَرِي ، أَيْ : إِنَّهُ يُحْشَرُ قَبْلَ النَّاسِ ، وَهُوَ مُوَافِقٌ لِقَوْلِهِ فِي الرِّوَايَةِ الْأُخْرَىٰ : " يُحْشَرُ النَّاسُ عَلَىٰ عَقِبِي " ، وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ بِالْقَدَمِ الزَّمَانَ ، أَيْ : وَقْتَ قِيَامِي عَلَىٰ قَدَمِي بِظُهُورِ عَلَامَاتِ الْحَشْرِ إِشَارَةً إِلَىٰ أَنَّهُ لَيْسَ بَعْدَهُ نَبِيٌّ وَلَا شَرِيعَةٌ . وَاسْتُشْكِلَ التَّفْسِيرُ بِأَنَّهُ يَقْضِي بِأَنَّهُ مَحْشُورٌ فَكَيْفَ يُفَسَّرُ بِهِ حَاشِرٌ وَهُوَ اسْمُ فَاعِلٍ ؟ وَأُجِيبَ بِأَنَّ إِسْنَادَ الْفِعْلِ إِلَىٰ الْفَاعِلِ إِضَافَةٌ وَالْإِضَافَةُ تَصِحُّ بِأَدْنَىٰ مُلَابَسَةٍ ، فَلَمَّا كَانَ لَا أُمَّةَ بَعْدَ أُمَّتِهِ لِأَنَّهُ لَا نَبِيَّ بَعْدَهُ نُسِبَ الْحَشْرُ إِلَيْهِ لِأَنَّهُ يَقَعُ عَقِبَهُ ، وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ مَعْنَاهُ : أَنَّهُ أَوَّلُ مَنْ يُحْشَرُ كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ الْآخَرِ : " أَنَا أَوَّلُ مَنْ تَنْشَقُّ عَنْهُ الْأَرْضُ " ، وَقِيلَ: مَعْنَىٰ الْقَدَمِ السَّبَبُ ، وَقِيلَ : الْمُرَادُ عَلَىٰ مُشَاهَدَتِي قَائِمًا لِلَّهِ شَاهِدًا عَلَىٰ الْأُمَمِ . وَوَقَعَ فِي رِوَايَةِ نَافِعِ بْنِ جُبَيْرٍ : " وَأَنَا حَاشِرٌ بُعِثْتُ مَعَ السَّاعَةِ " ، وَهُوَ يُرَجِّحُ الْأَوَّلَ" .

وقال الإمام القاري في " مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح" (٩/ ٣٦٦٩) : " وَأَنَا الْحَاشِرُ "، أَيْ ذُو الْحَشْرِ " الَّذِي يُحْشَرُ" ، أَيْ : يُجْمَعُ "النَّاسُ عَلَىٰ قَدَمَيَّ " بِفَتْحِ الْمِيمِ وَتَشْدِيدِ الْيَاءِ، وَفِي نُسْخَةٍ بِالْكَسْرِ وَالتَّخْفِيفِ أَيْ عَلَىٰ أَثَرِي قَالَ النَّوَوِيُّ: ضَبَطُوهُ بِتَخْفِيفِ الْيَاءِ عَلَىٰ الْإِفْرَادِ وَتَشْدِيدِهَا عَلَىٰ التَّثْنِيَةِ. قَالَ الطِّيبِيُّ. وَالظَّاهِرُ عَلَىٰ قَدَمَيْهِ اعْتِبَارًا لِلْمَوْصُولِ إِلَّا أَنَّهُ يُعْتَبَرُ الْمَعْنَىٰ الْمَدْلُولُ لِلَفْظَةِ أَنَا، وَفِي شَرْحِ السُّنَّةِ أَيْ يُحْشَرُ أَوَّلُ النَّاسِ لِقَوْلِهِ: " «أَنَا أَوَّلُ مَنْ تَنْشَقُّ عَنْهُ الْأَرْضُ» ". وَقَالَ النَّوَوِيُّ أَيْ عَلَىٰ أَثَرِي وَزَمَانِ نُبُوَّتِي،

وَلَيۡسَ بَعۡدِي نَبِيٌّ. قَالَ الطِّيبِيُّ: هُوَ مِنَ الۡإِسۡنَادِ الۡمَجَازِيِّ لِأَنَّهُ سَبَبٌ فِي حَشۡرِ النَّاسِ، لِأَنَّ النَّاسَ لَمۡ يُحۡشَرُوا مَا لَمۡ يُحۡشَرۡ" .

﴿سُؤالٌ﴾ : مَا مَعْنَى الحَشْر لُغَةً وَاصْطِلَاحَاً ؟

الجواب : الحشر هو إخراج الله تعالىٰ للموتىٰ من قبورهم الموتىٰ ، حيث تعود الأرواح إلىٰ أجسادها، وبعد أن تنبت يأمر الله الملك الموكَّل بالنَّفخ في الصُّور فينفخ فيه ، فتعود الأرواح إلىٰ أجسادها ...

قال الإمام الرَّازي في " التَّفسير" (٥/ ٣٤٣) عند تفسيره لقول الله تعالىٰ : **﴿وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾** [البقرة:٢٠٣] : " وَأَمَّا الۡحَشۡرُ فَهُوَ اسۡمٌ يَقَعُ عَلَىٰ ابۡتِدَاءِ خُرُوجِهِمۡ مِنَ الۡأَجۡدَاثِ إِلَىٰ انۡتِهَاءِ الۡمَوۡقِفِ " .

﴿سُؤالٌ﴾ : تَكَلَّمْ لَنَا عَنْ أَدِلَّةِ الْحَشْرِ وَالنَّشْرِ ؟

الجواب : قال الإمام الرَّازي في " التَّفسير" (٢/ ٣٥٣-٣٥٤) : " اعۡلَمۡ أَنَّ مَسۡأَلَةَ الۡحَشۡرِ وَالنَّشۡرِ مِنَ الۡمَسَائِلِ الۡمُعۡتَبَرَةِ فِي صِحَّةِ الدِّينِ وَالۡبَحۡثُ عَنۡ هَذِهِ الۡمَسۡأَلَةِ إِمَّا أَنۡ يَقَعَ عَنۡ إِمۡكَانِهَا أَوۡ عَنۡ وُقُوعِهَا، أَمَّا الۡإِمۡكَانُ فَيَجُوزُ إِثۡبَاتُهُ تَارَةً بِالۡعَقۡلِ، وَبِالنَّقۡلِ أُخۡرَىٰ، وَأَمَّا الۡوُقُوعُ فَلَا سَبِيلَ إِلَيۡهِ إِلَّا بِالنَّقۡلِ، وَأَنَّ اللَّهَ ذَكَرَ هَاتَيۡنِ الۡمَسۡأَلَتَيۡنِ فِي كِتَابِهِ وَبَيَّنَ الۡحَقَّ فِيهِمَا مِنۡ وُجُوهٍ :

الْوَجْهُ الْأَوَّلُ: أَنَّ كَثِيرًا مَا حَكَىٰ عَنِ الۡمُنۡكِرِينَ إِنۡكَارَ الۡحَشۡرِ وَالنَّشۡرِ، ثُمَّ إِنَّهُ تَعَالَىٰ حَكَمَ بِأَنَّهُ وَاقِعٌ كَائِنٌ مِنۡ غَيۡرِ ذِكۡرِ الدَّلِيلِ فِيهِ، وَإِنَّمَا جَازَ ذَلِكَ لِأَنَّ كُلَّ مَا لَا يَتَوَقَّفُ صِحَّةُ نُبُوَّةِ الرَّسُولِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ عَلَيۡهِ أَمۡكَنَ إِثۡبَاتُهُ بِالدَّلِيلِ النَّقۡلِيِّ، وَهَذِهِ الۡمَسۡأَلَةُ كذلك فجاز إثباته بالنقل، مثاله ما حكم هاهنا بِالنَّارِ لِلۡكَفَّارِ، وَالۡجَنَّةِ لِلۡأَبۡرَارِ، وَمَا أَقَامَ عَلَيۡهِ دَلِيلًا بَلِ اكۡتَفَىٰ بِالدَّعۡوَىٰ، وَأَمَّا فِي إِثۡبَاتِ الصَّانِعِ وَإِثۡبَاتِ النُّبُوَّةِ فَلَمۡ يَكۡتَفِ فِيهِ بِالدَّعۡوَىٰ بَلۡ ذَكَرَ فِيهِ الدَّلِيلَ، وَسَبَبُ الۡفَرۡقِ مَا ذَكَرۡنَاهُ وَقَالَ فِي سُورَةِ النَّحۡلِ: **﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ بَلى وَعْداً عَلَيْهِ حَقًّا وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾** [النَّحۡلِ: ٣٨] ، وَقَالَ فِي سُورَةِ التَّغَابُنِ: **﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِما عَمِلْتُمْ﴾** [التَّغَابُنِ: ٧] .

الْوَجْهُ الثَّانِي: أَنَّهُ تَعَالَىٰ أَثۡبَتَ إِمۡكَانَ الۡحَشۡرِ وَالنَّشۡرِ بِنَاءً عَلَىٰ أَنَّهُ تَعَالَىٰ قَادِرٌ عَلَىٰ أُمُورٍ تُشۡبِهُ الۡحَشۡرَ وَالنَّشۡرَ، وَقَدۡ قَرَّرَ اللَّهُ تَعَالَىٰ هَذِهِ الطَّرِيقَةَ عَلَىٰ وُجُوهٍ، فَأَجۡمَعُهَا مَا جَاءَ فِي سُورَةِ الۡوَاقِعَةِ فَإِنَّهُ تَعَالَىٰ ذَكَرَ فِيهَا حِكَايَةً عن أصحاب الشَّمال أنَّهم كانوا يقولون: **﴿أَإِذا مِتْنا وَكُنَّا تُراباً وَعِظاماً أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ * أَوَ آباؤُنَا الْأَوَّلُونَ﴾** فَأَجَابَهُمُ اللَّهُ تَعَالَىٰ بِقَوۡلِهِ: **﴿قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ * لَمَجْمُوعُونَ إِلى مِيقاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ﴾** [الۡوَاقِعَةِ: ٤٧- ٥٠] .

ثُمَّ إِنَّهُ تَعَالَىٰ احۡتَجَّ عَلَىٰ إِمۡكَانِهِ بِأُمُورٍ أَرۡبَعَةٍ:

أَوَّلُهَا: قَوْلُهُ: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخالِقُونَ﴾ [الْوَاقِعَةِ: ٥٨- ٥٩] وَجْهُ الِاسْتِدْلَالِ بِذَلِكَ أَنَّ الْمَنِيَّ إِنَّمَا يَحْصُلُ مِنْ فَضْلَةِ الْهَضْمِ الرَّابِعِ وَهُوَ كَالطَّلِّ الْمُنْبَثِّ فِي آفَاقِ أَطْرَافِ الْأَعْضَاءِ وَلِهَذَا تَشْتَرِكُ الأعضاء في الالتذاذ بالوقوع بِحُصُولِ الِانْحِلَالِ عَنْهَا كُلِّهَا، ثُمَّ إِنَّ اللَّهَ تَعَالَىٰ سَلَّطَ قُوَّةَ الشَّهْوَةِ عَلَىٰ الْبَقِيَّةِ حَتَّىٰ أَنَّهَا تَجْمَعُ تِلْكَ الْأَجْزَاءَ الطَّلِّيَّةَ، فَالْحَاصِلُ أَنَّ تِلْكَ الْأَجْزَاءَ كَانَتْ مُتَفَرِّقَةً جِدًّا، أَوَّلًا فِي أَطْرَافِ الْعَالَمِ، ثُمَّ إِنَّهُ تَعَالَىٰ جَمَعَهَا فِي بَدَنِ ذَلِكَ الْحَيَوَانِ، ثُمَّ إِنَّهَا كَانَتْ مُتَفَرِّقَةً فِي أَطْرَافِ بَدَنِ ذَلِكَ الْحَيَوَانِ فَجَمَعَهَا اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فِي أَوْعِيَةِ الْمَنِيِّ، ثُمَّ إِنَّهُ تَعَالَىٰ أَخْرَجَهَا مَاءً دَافِقًا إِلَىٰ قَرَارِ الرَّحِمِ فَإِذَا كَانَتْ هَذِهِ الْأَجْزَاءُ مُتَفَرِّقَةً فَجَمَعَهَا وَكَوَّنَ مِنْهَا ذَلِكَ الشَّخْصَ، فَإِذَا افْتَرَقَتْ بِالْمَوْتِ مَرَّةً أُخْرَىٰ فَكَيْفَ يَمْتَنِعُ عَلَيْهِ جَمْعُهَا مَرَّةً أُخْرَىٰ؟ فَهَذَا تَقْرِيرُ هَذِهِ الْحُجَّةِ، وَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَىٰ ذكرها فِي مَوَاضِعَ مِنْ كِتَابِهِ، مِنْهَا فِي سُورَةِ الحج: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْناكُمْ مِنْ تُرابٍ﴾ إلىٰ قوله: ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هامِدَةً﴾ ثُمَّ قَالَ: ﴿ذلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتى وَأَنَّهُ على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لا رَيْبَ فِيها وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾ [الْحَجِّ: ٥- ٧] ، وَقَالَ فِي سُورَةِ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ بَعْدَ ذِكْرِ مَرَاتِبِ الْخِلْقَةِ: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذلِكَ لَمَيِّتُونَ * ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ تُبْعَثُونَ﴾ [الْمُؤْمِنُونَ: ١٥- ١٦] ، وَقَالَ فِي سورة لا أقسم: ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنى * ثُمَّ كانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى﴾ [القيامة: ٣٧- ٣٨] ، وَقَالَ فِي سُورَةِ الطَّارِقِ: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسانُ مِمَّ خُلِقَ * خُلِقَ مِنْ ماءٍ دافِقٍ * يَخْرُجُ﴾ إِلَىٰ قَوْلِهِ: ﴿إِنَّهُ عَلى رَجْعِهِ لَقادِرٌ﴾ [الطَّارِقِ: ٥- ٨] .

وَثَانِيهَا: قَوْلُهُ: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ * أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ﴾ إِلَىٰ قَوْلِهِ: ﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾ [الْوَاقِعَةِ: ٦٣- ٦٧] وَجْهُ الاستدلال به أن الحب وأقسامه من مُطَوَّلٌ مَشْقُوقٌ وَغَيْرُ مَشْقُوقٍ، كَالْأُرْزِ وَالشَّعِيرِ، وَمُدَوَّرٌ وَمُثَلَّثٌ وَمُرَبَّعٌ، وَغَيْرُ ذَلِكَ عَلَىٰ اخْتِلَافِ أَشْكَالِهِ إِذَا وَقَعَ فِي الْأَرْضِ النَّدِيَّةِ وَاسْتَوْلَىٰ عَلَيْهِ الْمَاءُ وَالتُّرَابُ، فَالنَّظَرُ الْعَقْلِيُّ يَقْتَضِي أَنْ يَتعَفَّنَ وَيَفْسُدَ، لِأَنَّ أَحَدَهُمَا يَكْفِي فِي حُصُولِ الْعُفُونَةِ، فَفِيهِمَا جَمِيعًا أَوْلَىٰ، ثُمَّ إِنَّهُ لَا يَفْسُدُ بَلْ يَبْقَىٰ مَحْفُوظًا، ثُمَّ إِذَا ازْدَادَتِ الرُّطُوبَةُ تَنْفَلِقُ الْحَبَّةُ فِلْقَتَيْنِ فَيَخْرُجُ مِنْهَا وَرَقَتَانِ، وَأَمَّا الْمُطَوَّلُ فَيَظْهَرُ فِي رَأْسِهِ ثُقْبٌ وَتَظْهَرُ الْوَرَقَةُ الطَّوِيلَةُ كَمَا فِي الزَّرْعِ، وَأَمَّا النَّوَىٰ فَمَا فِيهِ مِنَ الصَّلَابَةِ الْعَظِيمَةِ الَّتِي بِسَبَبِهَا يَعْجِزُ عَنْ فَلْقِهِ أَكْثَرُ النَّاسِ إِذَا وَقَعَ فِي الْأَرْضِ النَّدِيَّةِ يَنْفَلِقُ بِإِذْنِ اللَّهِ، وَنَوَاةُ التَّمْرِ تَنْفَلِقُ مِنْ نُقْرَةٍ عَلَىٰ ظَهْرِهَا وَيَصِيرُ مَجْمُوعُ النَّوَاةِ مِنْ نِصْفَيْنِ يَخْرُجُ مِنْ أَحَدِ النِّصْفَيْنِ الْجُزْءُ الصَّاعِدُ، وَمِنَ الثَّانِي الْجُزْءُ الْهَابِطُ، أَمَّا الصَّاعِدُ فَيَصْعَدُ، وَأَمَّا الْهَابِطُ فَيَغُوصُ فِي أَعْمَاقِ الْأَرْضِ، وَالْحَاصِلُ أَنَّهُ يَخْرُجُ مِنَ النَّوَاةِ الصَّغِيرَةِ شَجَرَتَانِ: إِحْدَاهُمَا: خَفِيفٌ صَاعِدٌ، وَالْأُخْرَىٰ ثَقِيلٌ هَابِطٌ مَعَ اتِّحَادِ الْعُنْصُرِ وَاتِّحَادِ طَبْعِ النَّوَاةِ وَالْمَاءِ وَالْهَوَاءِ وَالتُّرْبَةِ أَفَلَا يَدُلُّ ذَلِكَ عَلَىٰ قُدْرَةٍ كَامِلَةٍ وَحِكْمَةٍ شَامِلَةٍ فَهَذَا الْقَادِرُ كَيْفَ يَعْجِزُ عَنْ جَمْعِ الْأَجْزَاءِ

وَتَرْكِيبِ الْأَعْضَاءِ. وَنَظِيرُهُ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ فِي الْحَجِّ: **﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هامِدَةً فَإِذا أَنْزَلْنا عَلَيْهَا الْماءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾** [الْحَجِّ: ٥].

وَثَالِثُهَا: قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: **﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْماءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ * أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ﴾** [الْوَاقِعَةِ: ٦٨- ٦٩]، وَتَقْدِيرُهُ أَنَّ الْمَاءَ جِسْمٌ ثَقِيلٌ بِالطَّبْعِ، وَإِصْعَادُ الثَّقِيلِ أَمْرٌ عَلَىٰ خِلَافِ الطَّبْعِ، فَلَا بُدَّ مِنْ قَادِرٍ قَاهِرٍ يَقْهَرُ الطَّبْعَ وَيُبْطِلُ الْخَاصِّيَّةَ وَيُصْعِدُ مَا مِنْ شَأْنِهِ الْهُبُوطُ وَالنُّزُولُ.

وَثَانِيهَا: أَنَّ تِلْكَ الذَّرَّاتِ الْمَائِيَّةَ اجْتَمَعَتْ بَعْدَ تَفَرُّقِهَا.

وَثَالِثُهَا: تَسْيِيرُهَا بِالرِّيَاحِ.

وَرَابِعُهَا: إِنْزَالُهَا فِي مَظَانِّ الْحَاجَةِ وَالْأَرْضِ الْجُرُزِ، وَكُلُّ ذَلِكَ يَدُلُّ عَلَىٰ جَوَازِ الْحَشْرِ. أَمَّا صُعُودُ الثَّقِيلِ فَلِأَنَّهُ قَلْبُ الطَّبِيعَةِ، فَإِذَا جَازَ ذَلِكَ فَلِمَ لَا يَجُوزُ أَنْ يُظْهِرَ الْحَيَاةَ وَالرُّطُوبَةَ مِنْ حَسَاوَةِ التُّرَابِ وَالْمَاءِ؟

وَالثَّانِي: لَمَّا قَدَرَ عَلَىٰ جَمْعِ تِلْكَ الذَّرَّاتِ الْمَائِيَّةِ بَعْدَ تَفَرُّقِهَا فَلِمَ لَا يَجُوزُ جَمْعُ الْأَجْزَاءِ التُّرَابِيَّةِ بَعْدَ تَفَرُّقِهَا؟

وَالثَّالِثُ: تَسْيِيرُ الرِّيَاحِ فَإِذَا قَدَرَ عَلَىٰ تَحْرِيكِ الرِّيَاحِ الَّتِي تَضُمُّ بَعْضَ تِلْكَ الْأَجْزَاءِ الْمُتَجَانِسَةِ إِلَىٰ بَعْضٍ فلم لا يجوز هاهنا؟

وَالرَّابِعُ: أَنَّهُ تَعَالَىٰ أَنْشَأَ السَّحَابَ لِحَاجَةِ النَّاسِ إِلَيْهِ فَهَهُنَا الْحَاجَةُ إِلَىٰ إِنْشَاءِ الْمُكَلَّفِينَ مَرَّةً أُخْرَىٰ لِيَصِلُوا إِلَىٰ مَا اسْتَحَقُّوهُ مِنَ الثَّوَابِ وَالْعِقَابِ أَوْلَىٰ وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَىٰ عَبَّرَ عَنْ هَذِهِ الدَّلَالَةِ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ مِنْ كِتَابِهِ فَقَالَ فِي الْأَعْرَافِ لَمَّا ذَكَرَ دَلَالَةَ التوحيد: **﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي إِلَى قَوْلِهِ: قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾** [الْأَعْرَافِ: ٥٦] ثمَّ ذَكَرَ دَلِيلَ الْحَشْرِ فَقَالَ: **﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّياحَ إِلَى قَوْلِهِ: كَذلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾** [الْأَعْرَافِ: ٥٧].

وَرَابِعُهَا: قَوْلُهُ: **﴿أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَها أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِؤُنَ﴾** [الْوَاقِعَةِ: ٧١- ٧٢] وَجْهُ الِاسْتِدْلَالِ أَنَّ النَّارَ صَاعِدَةٌ وَالشَّجَرَةَ هَابِطَةٌ، وَأَيْضًا النَّارُ لَطِيفَةٌ، وَالشَّجَرَةُ كَثِيفَةٌ. وَأَيْضًا النَّارُ نُورَانِيَّةٌ وَالشَّجَرَةُ ظَلْمَانِيَّةٌ، وَالنَّارُ حَارَّةٌ يَابِسَةٌ وَالشَّجَرَةُ بَارِدَةٌ رَطْبَةٌ، فَإِذَا أَمْسَكَ اللَّهُ تَعَالَىٰ فِي دَاخِلِ تِلْكَ الشَّجَرَةِ الْأَجْزَاءَ النُّورَانِيَّةَ النَّارِيَّةَ فَقَدْ جَمَعَ بِقُدْرَتِهِ بَيْنَ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ الْمُتَنَافِرَةِ، فَإِذَا لَمْ يَعْجِزْ عَنْ ذَلِكَ فَكَيْفَ يَعْجِزُ عَنْ تَرْكِيبِ الْحَيَوَانَاتِ وَتَأْلِيفِهَا؟ وَاللَّهُ تَعَالَىٰ ذَكَرَ هَذِهِ الدَّلَالَةَ فِي سُورَةِ يس فَقَالَ: **﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا﴾** [يس: ٨٠].

وَاعْلَمْ أَنَّهُ تَعَالَىٰ ذَكَرَ فِي هَذِهِ السُّورَةِ أَمْرَ الْمَاءِ وَالنَّارِ وَذَكَرَ فِي النَّمْلِ أَمْرَ الْهَوَاءِ بِقَوْلِهِ: **﴿أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُماتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾** إلىٰ قوله: **﴿أَمَّنْ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثمَّ يُعِيدُهُ﴾** [النَّمْلِ: ٦٤] وَذَكَرَ الْأَرْضَ فِي الْحَجِّ فِي قَوْلِهِ: **﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هامِدَةً﴾** [الْحَجِّ: ٥] فَكَأَنَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بَيَّنَ أَنَّ الْعَنَاصِرَ الْأَرْبَعَةَ عَلَىٰ جَمِيعِ أَحْوَالِهَا شَاهِدَةٌ بِإِمْكَانِ الْحَشْرِ وَالنَّشْرِ.

النَّوْعُ الثَّانِي: مِنَ الدَّلَائِلِ الدَّالَّةِ عَلَىٰ إِمْكَانِ الْحَشْرِ: هُوَ أَنَّهُ تَعَالَىٰ يَقُولُ: لَمَّا كُنْتُ قَادِرًا عَلَىٰ الْإِيجَادِ أَوَّلًا فَلَأَنْ أَكُونُ قَادِرًا عَلَىٰ الْإِعَادَةِ أَوْلَىٰ. وَهَذِهِ الدَّلَالَةُ تَقْرِيرُهَا فِي العقل ظاهر، وأنَّه تعالىٰ ذكرها فِي مَوَاضِعَ مِنْ كِتَابِهِ، مِنْهَا فِي الْبَقَرَةِ: **﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْواتاً فَأَحْياكُمْ ثمَّ يُمِيتُكُمْ ثمَّ يُحْيِيكُمْ ثمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾** [الْبَقَرَة: ٢٨]

وَمِنْهَا قوله في سبحان الذي: **﴿وَقالُوا أَإِذا كُنَّا عِظاماً وَرُفاتاً أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً * قُلْ كُونُوا حِجارَةً﴾** إِلَىٰ قَوْلِهِ: **﴿قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾** [الْإِسْرَاءِ: ٤٩-٥١].

وَمِنْهَا فِي الْعَنْكَبُوتِ: **﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثمَّ يُعِيدُهُ﴾** [الْعَنْكَبُوتِ: ١٩].

وَمِنْهَا قوله في الروم: **﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلى﴾** [الرُّومِ: ٢٧]، وَمِنْهَا فِي يس: **﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَها أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾** [يس: ٧٩].

النَّوْعُ الثَّالث: الاستدلال باقتداره علىٰ السَّموات عَلَىٰ اقْتِدَارِهِ عَلَىٰ الْحَشْرِ. وَذَلِكَ فِي آيَاتٍ مِنْهَا فِي سُورَةِ سُبْحَانَ: **﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ قادِرٌ عَلى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾** [الْإِسْرَاءِ: ٩٩]، وَقَالَ فِي يس: **﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ بِقادِرٍ عَلى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾** [يس: ٨١]، وَقَالَ فِي الْأَحْقَافِ: **﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقادِرٍ عَلى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتى بَلى إِنَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾** [الأحقاف: ٣٣].

وَمِنْهَا في سورة ق: **﴿أَإِذا مِتْنا وَكُنَّا تُراباً﴾** إِلَىٰ قَوْلِهِ: **﴿رِزْقاً لِلْعِبادِ وَأَحْيَيْنا بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً كَذلِكَ الْخُرُوجُ﴾** [ق: ١١]. ثمَّ قَالَ: **﴿أَفَعَيِينا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾** [ق: ١٥].

النَّوْعُ الرَّابِعُ: الِاسْتِدْلَالُ عَلَىٰ وُقُوعِ الْحَشْرِ بِأَنَّهُ لَا بُدَّ مِنْ إِثَابَةِ الْمُحْسِنِ وَتَعْذِيبِ الْعَاصِي وَتَمْيِيزِ أَحَدِهِمَا مِنَ الْآخَرِ بِآيَاتٍ، مِنْهَا فِي يُونُسَ: **﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ بِالْقِسْطِ﴾** [يُونُسَ: ٤].

وَمِنْهَا فِي طَهَ: **﴿إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكادُ أُخْفِيها لِتُجْزى كُلُّ نَفْسٍ بِما تَسْعى﴾** [طَهَ: ١٥].

وَمِنْهَا فِي ص: ﴿وَما خَلَقْنَا السَّماءَ وَالْأَرْضَ وَما بَيْنَهُما باطِلًا ذلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ * أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ [ص: ٢٧ - ٢٨] .

النَّوْعُ الْخَامِسُ: الِاسْتِدْلَالُ بِإِحْيَاءِ الْمَوْتَىٰ فِي الدُّنْيَا عَلَىٰ صِحَّةِ الْحَشْرِ وَالنَّشْرِ فَمِنْهَا خَلْقُهُ آدَمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ابْتِدَاءً وَمِنْهَا قِصَّةُ الْبَقَرَةِ وهي قوله: **﴿فَقُلْنا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِها كَذلِكَ يُحْيِ اللَّهُ الْمَوْتى﴾** [الْبَقَرَةِ: ٧٣] . وَمِنْهَا قِصَّةُ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : **﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتى﴾** [الْبَقَرَةِ: ٢٦] .

وَمِنْهَا قَوْلُهُ: **﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلى قَرْيَةٍ وَهِيَ خاوِيَةٌ عَلى عُرُوشِها﴾** [الْبَقَرَةِ: ٢٥٩] .

وَمِنْهَا قِصَّةُ يَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ فَإِنَّهُ تَعَالَىٰ اسْتَدَلَّ عَلَىٰ إِمْكَانِهِمَا بِعَيْنِ مَا اسْتَدَلَّ بِهِ عَلَىٰ جَوَازِ الْحَشْرِ حَيْثُ قَالَ: **﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئاً﴾** [مَرْيَمَ: ٩] .

وَمِنْهَا فِي قِصَّةِ أَصْحَابِ الْكَهْفِ وَلِذَلِكَ قَالَ: **﴿لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لا رَيْبَ فِيها﴾** [الْكَهْفِ: ٢١] .

وَمِنْهَا قِصَّةُ أَيُّوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَهِيَ قَوْلُهُ: **﴿وَآتَيْناهُ أَهْلَهُ﴾** [الْأَنْبِيَاءِ: ٨٤] يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّهُ تَعَالَىٰ أَحْيَاهُمْ بَعْدَ أَنْ مَاتُوا وَمِنْهَا مَا أَظْهَرَ اللَّهُ تَعَالَىٰ عَلَىٰ يَدِ عِيسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْ إِحْيَاءِ الموتىٰ حيث قال: **﴿يُحْيِ الْمَوْتى﴾** [الْحَجِّ: ٦] ، وَقَالَ: **﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيها فَتَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِي﴾** [الْمَائِدَةِ: ١١٠] .

وَمِنْهَا قَوْلُهُ: **﴿أَوَلا يَذْكُرُ الْإِنْسانُ أَنَّا خَلَقْناهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئاً﴾** [مَرْيَمَ: ٦٧] .

﴿سُؤالٌ﴾ : مَا هِيَ أَنْوَاعُ الحَشْرِ ؟

الجواب : قال الإمام القرطبي في " التَّذكرة" (ص٥١٥-٥٢١ باختصار) : " وهو علىٰ أربعة أوجه: حشران في الدُّنيا وحشران في الآخرة.

أمَّا الذي في الدُّنيا : فقوله تعالىٰ : **﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ مِنْ دِيارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ﴾**[الحشر:٢] ، قال الزُّهري: كانوا من سبط لم يصيبهم جلاء، وكان الله عزَّ وجلَّ قد كتب عليهم الجلاء فلولا ذلك لعذَّبهم في الدُّنيا، وكان أوَّل حشر حشروا في الدُّنيا إلىٰ الشَّام.

قال ابن عبَّاس: من شكَّ أنَّ الحشر في الشَّام فليقرأ هذه الآية ، وذلك أنَّ النَّبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال لهم: أخرجوا ، قالوا : أي أين؟ قال: إلىٰ أرض المحشر» قال قتادة: هذا أوَّل الحشر.

الثَّاني: ما رواه مسلم (٤/ ٢١٩٥ برقم ٢٨٦١) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: «يُحْشَرُ النَّاسُ عَلَىٰ ثَلَاثِ طَرَائِقَ، رَاغِبِينَ رَاهِبِينَ، وَاثْنَانِ عَلَىٰ بَعِيرٍ، وَثَلَاثَةٌ عَلَىٰ بَعِيرٍ، وَأَرْبَعَةٌ عَلَىٰ بَعِيرٍ، وَعَشَرَةٌ

عَلَىٰ بَعِيرٍ، وَتَحْشُرُ بَقِيَّتَهُمُ النَّارُ تَبِيتُ مَعَهُمْ، حَيْثُ بَاتُوا وَتَقِيلُ مَعَهُمْ حَيْثُ قَالُوا، وَتُصْبِحُ مَعَهُمْ حَيْثُ أَصْبَحُوا، وَتُمْسِي مَعَهُمْ حَيْثُ أَمْسَوْا» . أخرجه البخاري (٨/ ١٠٩ برقم ٦٥٢٢) أيضاً.

وقال قتادة: الحشر الثَّاني نار تحشرهم من المشرق إلىٰ المغرب تبيت معهم حيث باتوا، وتقيل معهم حيث قالوا، وتأكل منهم من تخلَّف.

قال القاضي عياض: هذا الحشر في الدُّنيا قبل قيام السَّاعة وهو آخر أشراطهما كما ذكره مسلم بعد هذا في آيات السَّاعة.

قال فيه: وآخر ذلك في نار تخرج من قعر عدن تزجر الّناس، وفي رواية تطرد النَّاس إلىٰ محشرهم، وفي حديث آخر: لا تقوم السَّاعة حتىٰ تخرج نار من أرض الحجار ويدلُّ علىٰ أنَّها قبل يوم القيامة.

قوله: فتقيل معهم حيث قالوا، وتمسي معهم حيث أمسوا، وتصبح معهم حيث أصبحوا.

وقال وفي بعض الرِّوايات في غير مسلم : فإذا سمعتم به فاخرجوا إلىٰ الشَّام ، كأنَّه أمر بسبقها إليه قبل إزعاجها لهم.

قال المؤلِّف رحمه الله: وذكر الحليمي في منهاج الدِّين له من حديث ابن عبَّاس وذكر أنَّ ذلك في الآخرة فقال: يحتمل قوله عليه السَّلام: «تحشر النَّاس علىٰ ثلاث طرائق» إشارة إلىٰ الأبرار والمخلطين والكفَّار، فالأبرار هم الرَّاغبون إلىٰ الله تعالىٰ فيما أعدَّ لهم من ثوابه، والرَّاهبون هم الذين بين الخوف والرَّجاء، فأمَّا الأبرار فإنَّسهم يؤتون بالنَّجائب كما في الحديث علىٰ ما يأتي في هذا الباب، وأمَّا المخلطون فهم الذين أرادوا في هذا الحديث، وقيل: إنَّهم يحملون علىٰ الأبعرة، وأمَّا الفجَّار الذين تحشرهم النَّار فإنَّ الله تعالىٰ يبعث إليهم ملائكة فتقيض لهم ناراً تسوقهم ولم يرد في هذا الحديث إلَّا ذكر البعير، فأمَّا أنَّ ذلك من إبل الجنَّة أو من الإبل التي تحيا وتحشر يوم القيامة، فهذا لم يأت بيانه.

والأشبه ألَّا يكون من نجائب الجنَّة ، لأنَّ من خرج من جملة الأبرار فكان مع ذلك من جملة المؤمنين، فإنَّهم بين الخوف والرَّجاء أنَّ من هؤلاء من يغفر الله تعالىٰ ذنوبه فيدخل الجنَّة، ومنهم من يعاقبه بالنَّار، ثمَّ يخرجه منها ويدخله الجنَّة.

وإذا كانوا كذلك لم يلق أن يردوا موقف الحساب علىٰ نجائب الجنَّة، ثمَّ ينزل الله بعضهم إلىٰ النَّار لأنَّ من أكرمه الله بالجنَّة لم يهنه بعد ذلك بالنَّار.

قال: وفي حديث آخر عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: يحشر النَّاس الحديث وفي آخره : أما أنَّهم يتَّقون بوجوههم كلَّ حدب وشوك، فهذا إن ثبت مرفوعاً فالرُّكبان هم المتَّقون السَّابقون الذين يغفر الله

ذنوبهم عند الحساب ولا يعذِّبهم ، إلَّا أَّن المتَّقين يكونون علىٰ نجائب الجنَّة والآخرون علىٰ دوابّ سوىٰ دوابِّ الجنَّة، والصِّنف الثَّاني الذين يعذِّبهم الله بذنوبهم ثمَّ يخرجهم من النَّار إلىٰ الجنَّة وهؤلاء يكونون مشاة علىٰ أقدامهم، وقد يحتمل علىٰ هذا أن يمشوا وقتاً ثمَّ يركبوا أو يكونوا ركباناً فإذا قاربوا المحشر نزلوا فمشوا ليتَّفق الحديثان، والصِّنف الثَّالث المشاة علىٰ وجوههم هم الكفَّار، وقد يحتمل أن يكونوا ثلاثة أصناف: صنف مسلمون وهم ركبان، وصنفان من الكفَّار أحدهما العتاة وأعلام الكفر، فهؤلاء يحشرون علىٰ وجوههم والآخرون الأتباع فهم يمشون علىٰ أقدامهم.

قال المؤلِّف رحمه الله: وإلىٰ هذا القول ذهب أبو حامد في كتاب كشف علم الآخرة في قوله عليه السَّلام كيف تحشر النَّاس يا رسول الله؟ قال: «اثنان علىٰ بعير وخمسة علىٰ بعير وعشرة علىٰ بعير» ومعنىٰ هذا الحديث والله أعلم أنَّ قوماً يأتلفون في الإسلام برحمة الله يخلق الله لهم من أعمالهم بعيراً يركبون عليه، وهذا من ضعف العمل لكونهم يشتركون فيه كقوم خرجوا في سفر بعيد وليس مع واحد، منهم ما يشترىٰ به مطيَّة توصله فاشترك في ثمنها رجلان أو ثلاثة فابتاعوا مطيَّة يتعقَّبون عليها في الطَّريق، ويبلغ بعير مع عشرة فاعمل هداك الله عملاً يكون لك به بعير خالص من الشِّركة، واعلم أَّن ذلك هو المتجر الرَّابح ، فالمتَّقون وافدون كما قال الجليل: ﴿**يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمنِ وَفْداً**﴾ [مريم:٨٥] ...

وقد احتجَّ التِّرمذي (٥/ ١٥٦ برقم ٣١٤٢ ، وقال : هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثَلاَثَةَ أَصْنَافٍ: صِنْفًا مُشَاةً، وَصِنْفًا رُكْبَانًا، وَصِنْفًا عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ، قِيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ، وَكَيْفَ يَمْشُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ؟ قَالَ: إِنَّ الَّذِي أَمْشَاهُمْ عَلَىٰ أَقْدَامِهِمْ قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يُمْشِيَهُمْ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ، أَمَا إِنَّهُمْ يَتَّقُونَ بِوُجُوهِهِمْ كُلَّ حَدَبٍ وَشَوْكٍ" .

يدلُّ علىٰ أنَّه في الدُّنيا إذ ليس في الآخرة ذلك علىٰ ما يأتي من صفة أرض المحشر، والله أعلم.

وخرَّج النَّسائي (٢/ ٤٨٧ برقم ٢٢٢٤/ كبرىٰ) عَنْ أَبِي ذَرٍّ قَالَ: إِنَّ الصَّادِقَ الْمَصْدُوقَ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَدَّثَنِي " أَنَّ النَّاسَ يُحْشَرُونَ ثَلَاثَةَ أَفْوَاجٍ: فَوْجُ رَاكِبِينَ طَاعِمِينَ كَاسِينَ، وَفَوْجٌ تَسْحَبُهُمُ الْمَلَائِكَةُ عَلَىٰ وجُوهِهِمْ وَتَحْشُرُهُمُ النَّارُ، وَفَوْجٌ يَمْشُونَ وَيَسْعَوْنَ يُلْقِي اللهُ الْآفَةَ عَلَىٰ الظَّهْرِ فَلَا يَبْقَىٰ حَتَّىٰ إِنَّ الرَّجُلَ لَتَكُونُ لَهُ الْحَدِيقَةُ الْعَظِيمَةُ يُعْطِيهَا بِذَاتِ الْقَتَبِ لَا يَقْدِرُ عَلَيْهَا " .

وذكر عمر بن شيبة في كتاب المدينة (١/ ٢٧٨) علىٰ ساكنها السَّلام، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : " آخِرُ مَنْ يُحْشَرُ رَجُلَانِ: رَجُلٌ مِنْ جُهَيْنَةَ، وَآخَرُ مِنْ مُزَيْنَةَ، فَيَقُولَانِ: أَيْنَ النَّاسُ؟ فَيَأْتِيَانِ الْمَسْجِدَ فَلَا يَرَيَانِ إِلَّا الثَّعْلَبَ، فَيَنْزِلُ إِلَيْهِمَا مَلَكَانِ فَيَسْحَبَانِهِمَا عَلَىٰ وُجُوهِهِمَا حَتَّىٰ يُلْحِقَاهُمَا بِالنَّاسِ " .

وهذا كلُّه ممَّا يدلُّ على أنَّ ذلك في الدُّنيا كما قال القاضي عياض، وأمَّا الآخرة، فالنَّاس أيضاً مختلفو الحال على ما ذكروه، وسنذكر من ذلك ما فيه كفاية في الباب بعد هذا.

وَالحَشْرُ الثَّالِثُ: حشرهم إلى الموقف ...

قال الله تعالى : **﴿وَحَشَرْناهُمْ فَلَمْ نُغادِرْ مِنْهُمْ أَحَداً﴾** [الكهف:٤٧] .

والرَّابعُ: حشرهم إلى الجنَّة والنَّار.

قال الله تعالى: **﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمنِ وَفْداً﴾** [مريم:٨٥] ، أي ركباناً على النُّجب، وقيل: على الأعمال كما تقدَّم.

وقد وردت أخبار منها ما رواه النُّعمان سعد عن علي رضي الله عنه عن النَّبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في قوله تعالى : **﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمنِ وَفْداً﴾** ، قال: أما إنَّهم ما يحشرون على أقدامهم ولا يساقون سوقاً ولكنَّهم يؤتون بنوق من نوق الجنَّة لم تنظر الخلائق إلى مثلها رحالها الذَّهب، وأزمتها الزّبرجد فيقعدون عليها حتى يقرعوا باب الجنَّة، وسمِّي المتَّقون وفداً لأنَّهم يسبقون النَّاس إلى حيث يدعون إليه فهم لا يتباطئون، لكنَّهم يجدون ويسرعون والملائكة تتلقَّاهم بالبشارات.

قال الله تعالى : **﴿وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ هذا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾** [الأنبياء:١٠٣] ، فيزيدهم ذلك إسراعاً وحُقَّ للمتَّقين أن يسبقوا لسبقهم في الدُّنيا بالطَّاعات : **﴿وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلى جَهَنَّمَ وِرْداً﴾** [مريم:٨٦] ، أي : عطاشاً.

وقال : **﴿وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقاً﴾** [طه:١٠٢] ، وقال : **﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ عَلى وُجُوهِهِمْ عُمْياً وَبُكْماً وَصُمًّا﴾** [الإسراء:٩٧] ، وقال: **﴿الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلى وُجُوهِهِمْ إِلى جَهَنَّمَ أُوْلئِكَ شَرٌّ مَكاناً وَأَضَلُّ سَبِيلاً﴾** [الفرقان:٣٤] .

مسلم (٤/ ٢١٦١ برقم ٢٨٠٦) عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، أَنَّ رَجُلًا قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ كَيْفَ يُحْشَرُ الْكَافِرُ عَلَىٰ وَجْهِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ قَالَ: «أَلَيْسَ الَّذِي أَمْشَاهُ عَلَىٰ رِجْلَيْهِ فِي الدُّنْيَا، قَادِرًا عَلَىٰ أَنْ يُمْشِيَهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟» قَالَ قَتَادَةُ: بَلَىٰ، وَعِزَّةِ رَبِّنَا.

وقال الإمام القرطبي في " الجامع لأحكام القرآن" (١٨/ ٢-٣) : " قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: **﴿لِأَوَّلِ الْحَشْرِ﴾** الْحَشْرُ الْجَمْعُ، وَهُوَ عَلَىٰ أَرْبَعَةِ أَوْجُهٍ: حَشْرَانِ فِي الدُّنْيَا وَحَشْرَانِ فِي الْآخِرَةِ، أَمَّا الَّذِي فِي الدُّنْيَا فَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ: فَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ: **﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ مِنْ دِيارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ﴾** [الحشر:٢] ، قَالَ الزُّهْرِيُّ: كَانُوا مِنْ سَبْطٍ لَمْ يُصِبْهُمْ جَلَاءٌ، وَكَانَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ كَتَبَ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ، فَلَوْلَا ذَلِكَ لَعَذَّبَهُمْ

فِي الدُّنْيَا ، وَكَانَ أَوَّلَ حَشْرٍ حُشِرُوا فِي الدُّنْيَا إِلَىٰ الشَّامِ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَعِكْرِمَةُ: مَنْ شَكَّ أَنَّ الْمَحْشَرَ فِي الشَّامِ فَلْيَقْرَأْ هَذِهِ الْآيَةَ، وَأَنَّ النَّبِيَّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لَهُمْ: (اخْرُجُوا) قَالُوا إِلَىٰ أَيْنَ؟ قَالَ: (إِلَىٰ أَرْضِ الْمَحْشَرِ). قَالَ قَتَادَةُ: هَذَا أَوَّلُ الْمَحْشَرِ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: هُمْ أَوَّلُ مَنْ حُشِرَ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَأُخْرِجَ مِنْ دِيَارِهِ. وَقِيلَ: إِنَّهُمْ أُخْرِجُوا إِلَىٰ خَيْبَرَ، وَأَنَّ مَعْنَىٰ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ إِخْرَاجُهُمْ مِنْ حُصُونِهِمْ إِلَىٰ خَيْبَرَ، وَآخِرُهُ إِخْرَاجُ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إِيَّاهُمْ مِنْ خَيْبَرَ إِلَىٰ نَجْدٍ وَأَذْرِعَاتٍ. وَقِيلَ تَيْمَاءُ وأريحا، وَذَلِكَ بِكُفْرِهِمْ وَنَقْضِ عَهْدِهِمْ.

وَأَمَّا الْحَشْرُ الثَّانِي: فَحَشْرُهُمْ قُرْبَ الْقِيَامَةِ. قَالَ قَتَادَةُ: تَأْتِي نَارٌ تَحْشُرُ النَّاسَ مِنَ الْمَشْرِقِ إِلَىٰ الْمَغْرِبِ، تَبِيتُ مَعَهُمْ حَيْثُ بَاتُوا، وَتَقِيلُ مَعَهُمْ حَيْثُ قَالُوا، وَتَأْكُلُ مِنْهُمْ مَنْ تَخَلَّفَ. وَهَذَا ثَابِتٌ فِي الصَّحِيحِ، وَقَدْ ذَكَرْنَاهُ فِي (كِتَابِ التَّذْكِرَةِ). وَنَحْوَهُ رَوَىٰ ابْنُ وَهْبٍ عَنْ مَالِكٍ قَالَ: قُلْتُ لِمَالِكٍ هُوَ جَلَاؤُهُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ؟ فَقَالَ لِي: الْحَشْرُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَشْرُ الْيَهُودِ. قَالَ: وَأَجْلَىٰ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْيَهُودَ إِلَىٰ خَيْبَرَ حِينَ سُئِلُوا عَنِ الْمَالِ فَكَتَمُوهُ، فَاسْتَحَلَّهُمْ بِذَلِكَ. قَالَ ابْنُ الْعَرَبِيِّ: لِلْحَشْرِ أَوَّلٌ وَوَسَطٌ وَآخِرٌ، فَالْأَوَّلُ إِجْلَاءُ بَنِي النَّضِيرِ، وَالْأَوْسَطُ إِجْلَاءُ خَيْبَرَ، وَالْآخِرُ حَشْرُ يَوْمِ الْقِيَامَةِ. وَعَنِ الْحَسَنِ: هُمْ بَنُو قُرَيْظَةَ. وَخَالَفَهُ بَقِيَّةُ الْمُفَسِّرِينَ وَقَالُوا: بَنُو قُرَيْظَةَ مَا حُشِرُوا وَلَكِنَّهُمْ قُتِلُوا. حَكَاهُ الثَّعْلَبِيُّ. الثَّالِثَةُ- قَالَ الْكِيَا الطَّبَرِيُّ: وَمُصَالَحَةُ أَهْلِ الْحَرْبِ عَلَىٰ الْجَلَاءِ مِنْ دِيَارِهِمْ مِنْ غير شيء لَا يَجُوزُ الْآنَ، وَإِنَّمَا كَانَ ذَلِكَ فِي أَوَّلِ الْإِسْلَامِ ثُمَّ نُسِخَ. وَالْآنَ فَلَا بُدَّ مِنْ قِتَالِهِمْ أَوْ سَبْيِهِمْ أَوْ ضَرْبِ الْجِزْيَةِ عَلَيْهِمْ. قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: **﴿مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا﴾** يُرِيدُ لِعِظَمِ أَمْرِ الْيَهُودِ وَمَنَعَتِهِمْ وَقُوَّتِهِمْ فِي صُدُورِ الْمُسْلِمِينَ، وَاجْتِمَاعِ كَلِمَتِهِمْ . **﴿وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ﴾** قِيلَ: هِيَ الْوَطِيحُ وَالنَّطَاةُ وَالسُّلَالِمُ وَالْكَتِيبَةُ. **﴿مِنَ اللَّهِ﴾** أَيْ مِنْ أَمْرِهِ. وَكَانُوا أَهْلَ حَلْقَةٍ- أَيْ سِلَاحٍ- كَثِيرٍ- وَحُصُونٍ مَنِيعَةٍ، فَلَمْ يمنعهم شيء مِنْهَا. **﴿فَأَتَاهُمُ اللَّهُ﴾** ، أَيْ : أَمْرُهُ وَعَذَابُهُ. **﴿مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا﴾** ، أَيْ : لَمْ يَظُنُّوا. وَقِيلَ: مِنْ حَيْثُ لَمْ يَعْلَمُوا. وَقِيلَ: مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا بِقَتْلِ كَعْبِ بْنِ الْأَشْرَفِ، قَالَهُ ابْنُ جُرَيْجٍ وَالسُّدِّيُّ وَأَبُو صَالِحٍ.

قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: **﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ﴾** بِقَتْلِ سَيِّدِهِمْ كَعْبِ بْنِ الْأَشْرَفِ، وَكَانَ الَّذِي قَتَلَهُ هُوَ مُحَمَّدُ بْنُ مَسْلَمَةَ وَأَبُو نَائِلَةَ سِلْكَانُ بْنُ سَلَامَةَ بن وقش- وكان أخا كعب ابن الْأَشْرَفِ مِنَ الرَّضَاعَةِ- وَعَبَّادُ بْنُ بِشْرِ بْنِ وَقْشٍ، وَالْحَارِثُ بْنُ أَوْسِ بْنِ مُعَاذٍ، وَأَبُو عَبْسِ بْنُ جَبْرٍ. وَخَبَرُهُ مَشْهُورٌ فِي السِّيرَةِ. وَفِي الصَّحِيحِ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: (نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ بَيْنَ يَدَيْ مَسِيرَةِ شَهْرٍ) .

فَكَيْفَ لَا يُنْصَرُ بِهِ مَسِيرَةَ مِيلٍ مِنَ الْمَدِينَةِ إِلَىٰ مَحَلَّةِ بَنِي النَّضِيرِ. وَهَذِهِ خِصِّيصَىٰ لِمُحَمَّدٍ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دُونَ غيره" .

﴿سُؤالٌ﴾ : مَتَى يَبْدَأُ الحَشَر ؟

الجواب : يبدأ الحشر بقيام جميع الخلق من الإنس والجنِّ والحيوان والطَّير من قبورهم والأماكن التي ضمَّت رفاتهم إلىٰ أرض المحشر استعداداً للحساب، حيث يقيمون مقاماً طويلاً يُقدَّرُ بخمسين ألف ... يحشرون فيه حفاة عراة غرلاً ، فقد روىٰ البخاري (٦/ ٩٧ برقم ٤٧٤٠) ، مسلم (٤/ ٢١٩٤ برقم ٢٨٦٠) بسندهما عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: خَطَبَ النَّبِيُّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: " إِنَّكُمْ مَحْشُورُونَ إِلَىٰ اللَّهِ حُفَاةً عُرَاةً غُرْلًا، **﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ، وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾** [الأنبياء: ١٠٤] ، ثُمَّ إِنَّ أَوَّلَ مَنْ يُكْسَىٰ يَوْمَ القِيَامَةِ إِبْرَاهِيمُ، أَلاَ إِنَّهُ يُجَاءُ بِرِجَالٍ مِنْ أُمَّتِي، فَيُؤْخَذُ بِهِمْ ذَاتَ الشِّمَالِ، فَأَقُولُ: يَا رَبِّ أُصَيْحَابِي، فَيُقَالُ: لاَ تَدْرِي مَا أَحْدَثُوا بَعْدَكَ، فَأَقُولُ كَمَا قَالَ العَبْدُ الصَّالِحُ: **﴿وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا، مَا دُمْتُ فِيهِمْ﴾** [المائدة: ١١٧] إِلَىٰ قَوْلِهِ **﴿شَهِيدٌ﴾** [المائدة: ١١٧] فَيُقَالُ: إِنَّ هَؤُلاَءِ لَمْ يَزَالُوا مُرْتَدِّينَ عَلَىٰ أَعْقَابِهِمْ مُنْذُ فَارَقْتَهُمْ " .

وروىٰ الحاكم في " المستدرك علىٰ الصَّحيحين " (٢/ ٥٥٩ برقم ٣٨٩٨ ، وقال : هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ عَلَىٰ شَرْطِ مُسْلِمٍ وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ بِهَذَا اللَّفْظِ ، ووافقه الذهبي) بسنده عَنْ سَوْدَةَ، زَوْجِ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يُبْعَثُ النَّاسُ حُفَاةً عُرَاةً غُرْلًا يُلْجِمُهُمُ الْعَرَقُ، وَيَبْلُغُ شَحْمَةَ الْأُذُنِ» قَالَتْ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَاسَوْءَتَاهُ يَنْظُرُ بَعْضُنَا إِلَىٰ بَعْضٍ، قَالَ: «شُغِلَ النَّاسُ عَنْ ذَلِكَ» وَتَلَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾** [عبس: ٣٥] .

﴿سُؤالٌ﴾ : هَلِ النَّاسُ مُتَفَاوِتُوْنَ فِي العَرَقِ الحَاصِلِ فِيْ المَحْشَر ؟

الجواب : روىٰ البخاري (٨/ ١١١ برقم ٦٥٣١) ، مسلم (٤/ ٢١٩٥ برقم ٢٨٦٢) بسندهما عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ العَالَمِينَ﴾** [المطففين: ٦] قَالَ: «يَقُومُ أَحَدُهُمْ فِي رَشْحِهِ إِلَىٰ أَنْصَافِ أُذُنَيْهِ» .

قال الحافظ ابن حجر في " فتح الباري" (١١/ ٣٩٣-٣٩٥) : " وَهَذَا ظَاهِرٌ فِي أَنَّ الْعَرَقَ يَحْصُلُ لِكُلِّ شَخْصٍ مِنْ نَفْسِهِ ، وَفِيهِ تَعَقُّبٌ عَلَىٰ مَنْ جَوَّزَ أَنْ يَكُونَ مِنْ عَرَقِهِ فَقَطْ أَوْ مِنْ عَرَقِهِ وَعَرَقِ غَيْرِهِ . وَقَالَ عِيَاضٌ : يَحْتَمِلُ أَنْ يُرِيدَ عَرَقَ الْإِنْسَانِ نَفْسِهِ بِقَدْرِ خَوْفِهِ مِمَّا يُشَاهِدُهُ مِنَ الْأَهْوَالِ ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يُرِيدَ عَرَقَهُ وَعَرَقَ غَيْرِهِ ، فَيُشَدَّدُ عَلَىٰ بَعْضٍ وَيُخَفَّفُ عَلَىٰ بَعْضٍ . وَهَذَا كُلُّهُ بِتَزَاحُمِ النَّاسِ وَانْضِمَامِ بَعْضِهِمْ إِلَىٰ بَعْضٍ حَتَّىٰ

صَارَ الْعَرَقُ يَجْرِي سَائِحًا فِي وَجْهِ الْأَرْضِ كَالْمَاءِ فِي الْوَادِي بَعْدَ أَنْ شَرِبَتْ مِنْهُ الْأَرْضُ وَغَاصَ فِيهَا سَبْعِينَ ذِرَاعًا .

قُلْتُ : وَاسْتُشْكِلَ بِأَنَّ الْجَمَاعَةَ إِذَا وَقَفُوا فِي الْمَاءِ الَّذِي عَلَىٰ أَرْضٍ مُعْتَدِلَةٍ كَانَتْ تَغْطِيَةُ الْمَاءِ لَهُمْ عَلَىٰ السَّوَاءِ لَكِنَّهُمْ إِذَا اخْتَلَفُوا فِي الطُّولِ وَالْقِصَرِ تَفَاوَتُوا ، فَكَيْفَ يَكُونُ الْكُلُّ إِلَىٰ الْأُذُنِ .

وَالْجَوَابُ : أَنَّ ذَلِكَ مِنَ الْخَوَارِقِ الْوَاقِعَةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَالْأَوْلَىٰ أَنْ تَكُونَ الْإِشَارَةُ بِمَنْ يَصِلُ الْمَاءُ إِلَىٰ أُذُنَيْهِ إِلَىٰ غَايَةِ مَا يَصِلُ الْمَاءُ ، وَلَا يَنْفِي أَنْ يَصِلَ الْمَاءُ لِبَعْضِهِمْ إِلَىٰ دُونِ ذَلِكَ ، فَقَدْ أَخْرَجَ الْحَاكِمُ (٤/ ٦١٥ برقم ٨٧٠٤ ، وقال : هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحُ الْإِسْنَادِ وَلَمْ يُخْرِجَاهُ ، ووافقه الذهبي) مِنْ حَدِيثِ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ رَفَعَهُ تَدْنُو الشَّمْسُ مِنَ الْأَرْضِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيَعْرَقُ النَّاسُ ، فَمِنْهُمْ مَنْ يَبْلُغُ عَرَقُهُ عَقِبَهُ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَبْلُغُ نِصْفَ سَاقِهِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَبْلُغُ رُكْبَتَهُ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَبْلُغُ فَخِذَهُ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَبْلُغُ خَاصِرَتَهُ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَبْلُغُ مَنْكِبَهُ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَبْلُغُ فَاهُ ، وَأَشَارَ بِيَدِهِ فَأَلْجَمَهَا فَاهُ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُغَطِّيهِ عَرَقُهُ وَضَرَبَ بِيَدِهِ عَلَىٰ رَأْسِهِ" .

وَلَهُ شَاهِدٌ عِنْدَ مُسْلِمٍ (٤/ ٢١٩٦ برقم ٢٨٦٤) مِنْ حَدِيثِ الْمِقْدَادِ بْنِ الْأَسْوَدِ وَلَيْسَ بِتَمَامِهِ ، وَفِيهِ : " تُدْنَىٰ الشَّمْسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْخَلْقِ حَتَّىٰ تَكُونَ مِنْهُم كمقدار ميل ، فتكون النَّاسُ عَلَىٰ مِقْدَارِ أَعْمَالِهِمْ فِي الْعَرَقِ " الْحَدِيثَ ، فَإِنَّهُ ظَاهِرٌ فِي أَنَّهُمْ يَسْتَوُونَ فِي وُصُولِ الْعَرَقِ إِلَيْهِمْ وَيَتَفَاوَتُونَ فِي حُصُولِهِ فِيهِمْ .

وَأَخْرَجَ أَبُو يعلىٰ (١٠/ ٤١٥ برقم ٦٠٢٥) وَصَححهُ بن حِبَّانَ (١٦/ ٣٢٨ برقم ٧٣٣٣) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : " **﴿يَوْمَ يَقُوْمُ النَّاس لِرَبِّ الْعَالَمِين﴾** ، قَالَ : مِقْدَارُ نِصْفِ يَوْمٍ مِنْ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ، فَيَهُونُ ذَلِكَ عَلَىٰ الْمُؤْمِنِ كَتَدَلِّي الشَّمْسِ إِلَىٰ أَن تغرب" . وَأخرجه أحمد وبن حِبَّانَ نَحْوَهُ مِنْ حَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ وَالْبَيْهَقِيِّ فِي الْبَعْثِ مِنْ طَرِيقِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْحَارِثِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ :" يُحْشَرُ النَّاسُ قِيَامًا أَرْبَعِينَ سَنَةً شَاخِصَةً أَبْصَارُهُمْ إِلَىٰ السَّمَاءِ فَيُلْجِمُهُمُ الْعَرَقُ مِنْ شِدَّةِ الْكَرْبِ" ...

قَوْلُهُ : " يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّىٰ يَذْهَبَ عَرَقُهُمْ فِي الْأَرْضِ سَبْعِينَ ذِرَاعًا وَيُلْجِمُهُمُ الْعَرَقُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ آذَانَهُمْ " فِي رِوَايَة الْإِسْمَاعِيلِيّ من طَرِيق بن وهب عَن سُلَيْمَان بن بلان سَبْعِينَ بَاعًا ، وَفِي رِوَايَةِ مُسْلِمٍ (٤/ ٢١٩٦ برقم ٢٨٦٣) مِنْ طَرِيقِ الدَّرَاوَرْدِيِّ عَنْ ثَوْرٍ " وَإِنَّهُ لَيَبْلُغُ إِلَىٰ أَفْوَاهِ النَّاسِ أَوْ إِلَىٰ آذَانِهِمْ " شَكَّ ثَوْرٌ .

وَجَاءَ عَنْ عَبدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ " إِنَّ الَّذِي يُلْجِمُهُ الْعَرَقُ الْكَافِرُ " أَخْرَجَهُ الْبَيْهَقِيُّ فِي الْبَعْثِ بِسَنَدٍ حَسَنٍ عَنْهُ ، قَالَ : يَشْتَدُّ كَرْبُ ذَلِكَ الْيَوْمِ حَتَّىٰ يُلْجِمَ الْكَافِرَ الْعَرَقُ ، قِيلَ لَهُ : فَأَيْنَ الْمُؤْمِنُونَ ؟ قَالَ : عَلَىٰ الْكَرَاسِيِّ مِنْ ذَهَبٍ ، وَيُظَلِّلُ عَلَيْهِمُ الْغَمَامُ " ، وَبِسَنَدٍ قَوِيٍّ عَن أبي مُوسَىٰ قَالَ : " الشَّمْس فَوق رُؤُوس النَّاس يَوْم الْقِيَامَة ، وأعمالهم تظلّهم " .

وَأخرج بن الْمُبَارك فِي الزّهد (٢/ ١٠٠) وبن أَبِي شَيْبَةَ فِي الْمُصَنَّفِ (١٣/ ٣٤٠ برقم ٣٥٨٢٥) وَاللَّفْظُ لَهُ بِسَنَدٍ جَيِّدٍ عَنْ سَلْمَانَ قَالَ : " تُعْطَى الشَّمْسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَرَّ عَشْرِ سِنِينَ ثُمَّ تُدْنَى مِنْ جَمَاجِمِ النَّاسِ حَتَّى تكُونَ قَابَ قَوْسَيْنِ ، فَيَعْرَقُونَ حَتَّى يَرْشَحَ الْعَرَقُ فِي الْأَرْضِ قَامَةً ثُمَّ تَرْتَفع حَتَّى يُغَرْغر الرَّجل " زَاد بن الْمُبَارَكِ فِي رِوَايَتِهِ : " وَلَا يَضُرُّ حَرُّهَا يَوْمَئِذٍ مُؤْمِنًا وَلَا مُؤْمِنَةً " .

قَالَ الْقُرْطُبِيُّ : الْمُرَادُ مَنْ يَكُونُ كَامِلَ الْإِيمَانِ لِمَا يَدُلُّ عَلَيْهِ حَدِيثُ الْمِقْدَادِ وَغَيْرِهِ أَنَّهُمْ يَتَفَاوَتُونَ فِي ذَلِكَ بِحَسَبِ اعمالهم . وَفِي حَدِيث بن مَسْعُودٍ عِنْدَ الطَّبَرَانِيِّ (المعجم الكبير ٩/ ١٥٤ برقم ٨٧٧١) وَالْبَيْهَقِيِّ : " إِنَّ الرَّجُلَ لَيُفِيضُ عَرَقًا حَتَّى يَسِيحَ فِي الْأَرْضِ قَامَةً ثُمَّ يَرْتَفِعُ حَتَّى يَبْلُغَ أَنْفَهُ" ، وَفِي رِوَايَةٍ عَنْهُ عِنْد أبي يعلى (٨/ ٣٩٨ برقم ٤٩٨٢) وصحَّحها بن حبَّان (١٦/ ٣٣٠ برقم ٧٣٣٥) : " إِنَّ الكافر ليلجمه الْعرق يَوْم الْقِيَامَة حَتَّى يَقُولَ : يَا رَبِّ أَرِحْنِي ، وَلَوْ إِلَى النَّارِ" . وَلِلْحَاكِمِ (المستدرك ٤/ ٦١٥ برقم ٨٧٠٥ ، وقال : هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحُ الْإِسْنَادِ وَلَمْ يُخْرِجَاهُ ، ووافقه الذهبي) وَالْبَزَّارِ مِنْ حَدِيثِ جَابِرٍ نَحْوَهُ ، وَهُوَ كَالصَّرِيحِ فِي أَنَّ ذَلِكَ كُلَّهُ فِي الْمَوْقِفِ .

وَقَدْ وَرَدَ أَنَّ التَّفْصِيلَ الَّذِي فِي حَدِيثِ عُقْبَةَ وَالْمِقْدَادِ يَقَعُ مِثْلُهُ لِمَنْ يَدْخُلُ النَّارَ ، فَأَخْرَجَ مُسْلِمٌ (٤/ ٢١٨٥ برقم ٢٨٤٥) أَيْضًا مِنْ حَدِيثِ سَمُرَةَ رَفَعَهُ : " إِنَّ مِنْهُمْ مَنْ تَأْخُذُهُ النَّارُ إِلَى رُكْبَتَيْهِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ تَأْخُذُهُ إِلَى حُجْزَتِهِ " ، وَفِي رِوَايَةٍ : " إِلَى حِقْوَيْهِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ تَأْخُذُهُ إِلَى عُنُقِهِ " ، وَهَذَا يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ النَّارُ فِيهِ مجَازًا عَن شدَّة الكرب النَّاشيء عَنِ الْعَرَقِ ، فَيَتَّحِدُ الْمَوْرِدَانِ ، وَيُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ وَرَدَ فِي حَقِّ مَنْ يَدْخُلُ النَّارَ مِنَ الْمُوَحِّدِينَ ، فَإِنَّ أَحْوَالَهُمْ فِي التَّعْذِيبِ تَخْتَلِفُ بِحَسَبِ أَعْمَالِهِمْ ، وَأَمَّا الْكُفَّارُ فَإِنَّهُمْ فِي الْغَمَرَاتِ .

قَالَ الشَّيْخُ أَبُو مُحَمَّدِ بْنُ أَبِي جَمْرَةَ : ظَاهِرُ الْحَدِيثِ تَعْمِيمُ النَّاسِ بِذَلِكَ ، وَلَكِنْ دَلَّتِ الْأَحَادِيثُ الْأُخْرَى عَلَى أَنَّهُ مَخْصُوصٌ بِالْبَعْضِ وَهُمُ الْأَكْثَرُ ، وَيُسْتَثْنَى الْأَنْبِيَاءُ وَالشُّهَدَاءُ وَمَنْ شَاءَ اللَّهُ ، فَأَشَدُّهُمْ فِي الْعَرَقِ الْكُفَّارُ ثُمَّ أَصْحَابُ الْكَبَائِرِ ثُمَّ مَنْ بَعْدَهُمْ ، وَالْمُسْلِمُونَ مِنْهُمْ قَلِيلٌ بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْكُفَّارِ كَمَا تَقَدَّمَ تَقْرِيرُهُ فِي حَدِيثِ : "بَعْثِ النَّارِ " . قَالَ : وَالظَّاهِرُ أَنَّ الْمُرَادَ بِالذِّرَاعِ فِي الْحَدِيثِ الْمُتَعَارَفِ ، وَقِيلَ هُوَ الذِّرَاعُ الْمَلَكِيُّ .

وَمَنْ تَأَمَّلَ الْحَالَةَ الْمَذْكُورَةَ عَرَفَ عِظَمَ الْهَوْلِ فِيهَا ، وَذَلِكَ أَنَّ النَّارَ تَحُفُّ بِأَرْضِ الْمَوْقِفِ ، وَتُدْنَى الشَّمْسُ مِنَ الرُّءُوسِ قَدْرَ مِيلٍ ، فَكَيْفَ تَكُونُ حَرَارَةُ تِلْكَ الْأَرْضِ ، وَمَاذَا يَرْوِيهَا مِنَ الْعَرَقِ حَتَّى يَبْلُغَ مِنْهَا سَبْعِينَ ذِرَاعًا مَعَ أَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ لَا يَجِدُ إِلَّا قَدْرَ مَوْضِعِ قَدَمِهِ ، فَكَيْفَ تَكُونُ حَالَةُ هَؤُلَاءِ فِي عَرَقِهِمْ مَعَ تَنَوُّعِهِمْ فِيهِ ؟!! إِنَّ هَذَا لَمِمَّا يَبْهَرُ الْعُقُولَ ، وَيَدُلُّ عَلَى عَظِيمِ الْقُدْرَةِ ، وَيَقْتَضِي الْإِيمَانَ بِأُمُورِ الْآخِرَةِ أَنْ لَيْسَ لِلْعَقْلِ

فِيهَا مَجَالٌ ، وَلَا يُعْتَرَضُ عَلَيْهَا بِعَقْلٍ وَلَا قِيَاس ولا عادة ، وَإِنَّمَا يُؤْخَذُ بِالْقَبُولِ ، وَيَدْخُلُ تَحْتَ الْإِيمَانِ بِالْغَيْبِ ، وَمَنْ تَوَقَّفَ فِي ذَلِكَ دَلَّ عَلَىٰ خُسْرَانِهِ وَحِرْمَانِهِ .

وَفَائِدَةُ الْإِخْبَارِ بِذَلِكَ أَنْ يَتَنَبَّهَ السَّامِعُ فَيَأْخُذَ فِي الْأَسْبَابِ الَّتِي تُخَلِّصُهُ مِنْ تِلْكَ الْأَهْوَالِ ، وَيُبَادِرَ إِلَىٰ التَّوْبَةِ مِنَ التَّبِعَاتِ ، وَيَلْجَأَ إِلَىٰ الْكَرِيمِ الْوَهَّابِ فِي عَوْنِهِ عَلَىٰ أَسْبَابِ السَّلَامَةِ ، وَيَتَضَرَّعُ إِلَيْهِ فِي سَلَامَتِهِ مِنْ دَارِ الهوان وادخاله دَار الْكَرَامَة بمنِّه وَكَرمه " .

﴿سُؤالٌ﴾ : مَنْ هُوَ أَوَّلُ مَنْ يُكْسَى يَوْم القِيَامَة ؟

الجواب : روىٰ البخاري (٦/ ٥٥ برقم ٤٦٢٥) ، مسلم (٤/ ٢١٩٤ برقم ٢٨٦٠) بسندهما عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: خَطَبَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّكُمْ مَحْشُورُونَ إِلَىٰ اللَّهِ حُفَاةً عُرَاةً غُرْلًا» ، ثُمَّ قَالَ: **﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ، وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾** [الأنبياء: ١٠٤] إِلَىٰ آخِرِ الآيَةِ، ثُمَّ قَالَ: " أَلاَ وَإِنَّ أَوَّلَ الخَلاَئِقِ يُكْسَىٰ يَوْمَ القِيَامَةِ إِبْرَاهِيمُ، أَلاَ وَإِنَّهُ يُجَاءُ بِرِجَالٍ مِنْ أُمَّتِي فَيُؤْخَذُ بِهِمْ ذَاتَ الشِّمَالِ، فَأَقُولُ: يَا رَبِّ أُصَيْحَابِي، فَيُقَالُ: إِنَّكَ لاَ تَدْرِي مَا أَحْدَثُوا بَعْدَكَ، فَأَقُولُ كَمَا قَالَ العَبْدُ الصَّالِحُ: **﴿وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ، فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾** [المائدة: ١١٧] فَيُقَالُ: إِنَّ هَؤُلاَءِ لَمْ يَزَالُوا مُرْتَدِّينَ عَلَىٰ أَعْقَابِهِمْ مُنْذُ فَارَقْتَهُمْ" .

قال الحافظ ابن حجر العسقلاني في " فتح الباري" (٦/ ٣٩٠) : " إِنَّ الْحِكْمَةَ فِي خُصُوصِيَّةِ إِبْرَاهِيمَ بِذَلِكَ لِكَوْنِهِ أُلْقِيَ فِي النَّارِ عُرْيَانًا ، وَقِيلَ : لِأَنَّهُ أَوَّلُ مَنْ لَبِسَ السَّرَاوِيلَ ، وَلَا يَلْزَمُ مِنْ خُصُوصِيَّتِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِذَلِكَ تَفْضِيلُهُ عَلَىٰ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، لِأَنَّ الْمَفْضُولَ قَدْ يَمْتَازُ بِشَيْءٍ يُخَصُّ بِهِ وَلَا يَلْزَمُ مِنْهُ الْفَضِيلَةُ الْمُطْلَقَةُ ، وَيُمْكِنُ أَنْ يُقَالَ لَا يَدْخُلُ النَّبِيُّ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي ذَلِكَ عَلَىٰ الْقَوْلِ بِأَنَّ الْمُتَكَلِّمَ لَا يَدْخُلُ فِي عُمُومِ خِطَابِهِ " .

﴿سُؤالٌ﴾ : مَا هُوَ مَكَانُ الحَشْر ؟

الجواب : قال تعالىٰ : **﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّماواتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْواحِدِ الْقَهَّارِ﴾** [إبراهيم:٤٨]

.

قال الإمام الرَّازي في " التَّفسير" (١٩/ ١١١-١١٢) : " اعْلَمْ أَنَّ التَّبْدِيلَ يَحْتَمِلُ وَجْهَيْنِ :

أَحَدُهُمَا: أَنْ تَكُونَ الذَّاتُ بَاقِيَةً وَتَتَبَدَّلَ صِفَتُهَا بِصِفَةٍ أُخْرَىٰ .

وَالثَّانِي: أَنْ تَفْنَىٰ الذَّاتُ الْأُولَىٰ وَتَحْدُثَ ذَاتٌ أُخْرَىٰ، وَالدَّلِيلُ عَلَىٰ أَنَّ ذِكْرَ لَفْظِ التَّبَدُّلِ لِإِرَادَةِ التَّغَيُّرِ فِي الصِّفَةِ جَائِزٌ، أَنَّهُ يُقَالُ بَدَّلْتُ الْحَلْقَةَ خَاتَمًا إِذَا أَذَبْتَهَا وَسَوَّيْتَهَا خَاتَمًا فَنَقَلْتَهَا مِنْ شَكْلٍ إِلَىٰ شَكْلٍ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ

تَعَالَىٰ ﴿ :فَأُوْلئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنات﴾ [الْفُرْقَانِ: ٧٠] ، وَيُقَالُ: بَدَّلْتُ قَمِيصِي جُبَّةً ، أَيْ : نَقَلْتُ الْعَيْنَ مِنْ صِفَةٍ إِلَىٰ صِفَةٍ أُخْرَىٰ، وَيُقَالُ: تَبَدَّلَ زَيْدٌ إِذَا تَغَيَّرَتْ أَحْوَالُهُ، وَأَمَّا ذِكْرُ لَفْظِ التَّبْدِيلِ عِنْدَ وُقُوعِ التَّبَدُّلِ فِي الذَّوَاتِ فَكَقَوْلِكَ بَدَّلْتُ الدَّرَاهِمَ دَنَانِيرَ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ: ﴿بَدَّلْناهُمْ جُلُوداً غَيْرَها﴾ [النساء: ٥٦] ، وقوله: ﴿بَدَّلْناهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ﴾ [سَبَأٍ: ١٦] إِذَا عَرَفْتَ أَنَّ اللَّفْظَ مُحْتَمِلٌ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْ هَذَيْنِ الْمَفْهُومَيْنِ فَفِي الْآيَةِ قَوْلَانِ:

الْقَوْلُ الْأَوَّلُ: أَنَّ الْمُرَادَ تَبْدِيلُ الصِّفَةِ لَا تَبْدِيلُ الذَّاتِ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: هِيَ تِلْكَ الْأَرْضُ إِلَّا أَنَّهَا تَغَيَّرَتْ فِي صِفَاتِهَا، فَتَسِيرُ عَنِ الْأَرْضِ جِبَالُهَا وَتُفَجَّرُ بِحَارُهَا وَتُسَوَّىٰ، فَلَا يُرَىٰ فِيهَا عِوَجٌ وَلَا أَمْتٌ.

وَرَوَىٰ أَبُو هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: «يُبَدِّلُ اللَّهُ الْأَرْضَ غَيْرَ الأرض فيبسطها ويمدها مد الأديم العاكظي فَلَا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا" .

وَقَوْلُهُ: ﴿وَالسَّماواتُ﴾ ، أي : تبدَّل السَّموات غير السَّموات، وَهُوَ كَقَوْلِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «لَا يُقْتَلُ مُؤْمِنٌ بِكَافِرٍ وَلَا ذُو عَهْدٍ فِي عَهْدِهِ" .

وَالْمَعْنَىٰ: وَلَا ذُو عَهْدٍ فِي عَهْدِهِ بِكَافِرٍ، وَتَبْدِيلُ السَّموات بِانْتِثَارِ كَوَاكِبِهَا وَانْفِطَارِهَا، وَتَكْوِيرِ شَمْسِهَا، وَخُسُوفِ قَمَرِهَا، وَكَوْنِهَا أَبْوَابًا، وَأَنَّهَا تَارَةً تَكُونُ كَالْمُهْلِ وَتَارَةً تَكُونُ كَالدِّهَانِ.

وَالْقَوْلُ الثَّانِي: أَنَّ الْمُرَادَ تَبْدِيلُ الذَّاتِ. قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ: تُبَدَّلُ بِأَرْضٍ كَالْفِضَّةِ الْبَيْضَاءِ النَّقِيَّةِ لَمْ يُسْفَكْ عَلَيْهَا دَمٌ وَلَمْ تُعْمَلْ عَلَيْهَا خَطِيئَةٌ، فَهَذَا شَرْحُ هَذَيْنِ الْقَوْلَيْنِ، وَمِنَ النَّاسِ مَنْ رَجَّحَ الْقَوْلَ الْأَوَّلَ قَالَ لِأَنَّ قَوْلَهُ: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ﴾ الْمُرَادُ هَذِهِ الْأَرْضُ، وَالتَّبَدُّلُ صِفَةٌ مُضَافَةٌ إِلَيْهَا، وَعِنْدَ حُصُولِ الصِّفَةِ لَا بُدَّ وَأَنْ يَكُونَ الْمَوْصُوفُ مَوْجُودًا، فَلَمَّا كَانَ الْمَوْصُوفُ بِالتَّبَدُّلِ هُوَ هَذِهِ الْأَرْضَ وَجَبَ كَوْنُ هَذِهِ الْأَرْضِ بَاقِيَةً عِنْدَ حُصُولِ ذَلِكَ التَّبَدُّلِ، وَلَا يُمْكِنُ أَنْ تَكُونَ هَذِهِ الْأَرْض بَاقِيَةً مَعَ صِفَاتِهَا عِنْدَ حُصُولِ ذَلِكَ التَّبَدُّلِ، وَإِلَّا لَامْتَنَعَ حُصُولُ التَّبَدُّلِ، فَوَجَبَ أَنْ يَكُونَ الْبَاقِي هُوَ الذَّاتَ. فَثَبَتَ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ تَقْتَضِي كَوْنَ الذَّاتِ بَاقِيَةً، وَالْقَائِلُونَ بِهَذَا الْقَوْلِ هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ: إِنَّ عِنْدَ قِيَامِ الْقِيَامَةِ لَا يُعْدِمُ اللَّهُ الذَّوَاتِ وَالْأَجْسَامَ، وَإِنَّمَا يُعْدِمُ صِفَاتِهَا وَأَحْوَالَهَا.

وَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا يَبْعُدُ أن يقال: المراد من تبديل الأرض والسَّموات هُوَ أَنَّهُ تَعَالَىٰ يَجْعَلُ الْأَرْضَ جَهَنَّمَ، وَيَجْعَلُ السموات الْجَنَّةَ، وَالدَّلِيلُ عَلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿كَلَّا إِنَّ كِتابَ الْأَبْرارِ لَفِي عِلِّيِّينَ﴾ [الْمُطَفِّفِينَ: ١٨] ، وَقَوْلُهُ: ﴿كَلَّا إِنَّ كِتابَ الفُجّارِ لَفِي سِجِّينٍ﴾ [الْمُطَفِّفِينَ: ٧] ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ " .

وقال الإمام القرطبي في " الجامع لأحكام القرآن" (٩/ ٣٨٢-٣٨٤) : " قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: **﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ﴾** ، أَيِ : اذْكُرْ يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ، فَتَكُونُ مُتَعَلِّقَةً بِمَا قَبْلَهُ. وَقِيلَ: هُوَ صِفَةٌ لِقَوْلِهِ: **﴿يَوْمَ يَقُومُ الْحِسابُ﴾** [إبراهيم: ٤١] .

واختلف في كيفية تبديل الْأَرْضِ، فَقَالَ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ: إِنَّ تَبدُّلَ الْأَرْضِ عِبَارَةٌ عَنْ تَغَيُّرِ صِفَاتِهَا، وَتَسْوِيَةِ آكَامِهَا، وَنَسْفِ جِبَالِهَا، وَمَدِّ أَرْضِهَا، وَرَوَاهُ ابْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، خَرَّجَهُ ابْنُ مَاجَهْ فِي سُنَنِهِ ، وَذَكَرَهُ ابْنُ الْمُبَارَكِ (٢/ ١٠١ زهد) مِنْ حَدِيثِ شَهْرِ بْنِ حَوْشَبٍ، قَالَ حَدَّثَنِي ابْنُ عَبَّاسٍ قَالَ: إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ مُدَّتِ الْأَرْضُ مَدَّ الْأَدِيمِ وَزِيدَ فِي سَعَتِهَا كَذَا وَكَذَا، وَذَكَرَ الْحَدِيثَ .

وَرُوِيَ مَرْفُوعًا مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال:" تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ فَيَبْسُطُهَا وَيَمُدُّهَا مَدَّ الأديم العكاظي لا ترىٰ فيها عوجا وأمتا ثُمَّ يَزْجُرُ اللَّهُ الْخَلْقَ زَجْرَةً فَإِذَا هُمْ فِي الثَّانِيَةِ فِي مِثْلِ مَوَاضِعِهِمْ مِنَ الْأُولَىٰ مَنْ كَانَ فِي بَطْنِهَا فَفِي بَطْنِهَا وَمَنْ كَانَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا كَانَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا" ذَكَرَهُ الْغَزْنَوِيُّ. وَتَبْدِيلُ السَّمَاءِ تَكْوِيرُ شَمْسِهَا وَقَمَرِهَا، وَتَنَاثُرُ نجومها، قاله ابْنُ عَبَّاسٍ. وَقِيلَ: اخْتِلَافُ أَحْوَالِهَا، فَمَرَّةً كَالْمُهْلِ وَمَرَّةً كَالدِّهَانِ ، حَكَاهُ ابْنُ الْأَنْبَارِيِّ، وَقَدْ ذَكَرْنَا هَذَا الْبَابَ مُبَيَّنًا فِي كِتَابِ" التَّذْكِرَةِ" وَذَكَرْنَا مَا لِلْعُلَمَاءِ فِي ذَلِكَ، وَأَنَّ الصَّحِيحَ إِزَالَةُ هَذِهِ الْأَرْضِ حَسَبَ مَا ثَبَتَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

رَوَىٰ مُسْلِمٌ (١/ ٢٥٢ برقم ٣١٥) عَنْ ثَوْبَانَ مَوْلَىٰ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: كُنْتُ قَائِمًا عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَجَاءَهُ حَبْرٌ مِنْ أَحْبَارِ الْيَهُودِ فَقَالَ: السَّلَامُ عَلَيْكَ، وَذَكَرَ الْحَدِيثَ، وَفِيهِ، فَقَالَ الْيَهُودِيُّ أَيْنَ يَكُونُ النَّاسُ يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الأرض والسَّموات؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:" فِي الظُّلْمَةِ دُونَ الْجِسْرِ". وَذَكَرَ الْحَدِيثَ .

وَخَرَّجَ (٤/ ٢١٥٠ برقم ٢٧٩١) عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: سُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ قَوْلِهِ:" يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ" فَأَيْنَ يَكُونُ النَّاسُ يَوْمَئِذٍ؟ قَالَ" عَلَىٰ الصِّرَاطِ". خَرَّجَهُ ابْنُ مَاجَهْ (٢/ ١٤٣٠ برقم ٤٢٧٩) بِإِسْنَادِ مُسْلِمٍ سَوَاءً، وَخَرَّجَهُ التِّرْمِذِيُّ (٥/ ١٤٧ برقم ٣١٢١) عَنْ عَائِشَةَ وَأَنَّهَا هِيَ السَّائِلَةُ، قَالَ: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صحيح، فهذه الأحاديث تنص علىٰ أن السموات وَالْأَرْض تُبَدَّلُ وَتُزَالُ، وَيَخْلُقُ اللَّهُ أَرْضًا أُخْرَىٰ يَكُونُ النَّاسُ عَلَيْهَا بَعْدَ كَوْنِهِمْ عَلَىٰ الْجِسْرِ .

وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ (٤/ ٢١٥٠ برقم ٢٧٩٠) عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:" يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ أَرْضٍ بَيْضَاءَ عَفْرَاءَ كَقُرْصَةِ النَّقِيِّ لَيْسَ فِيهَا عَلَمٌ لِأَحَدٍ ."

وَقَالَ جَابِرٌ: سَأَلْتُ أَبَا جَعْفَرٍ مُحَمَّدَ بْنَ عَلِيٍّ عَنْ قَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿**يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ**﴾ ، قَالَ تُبَدَّلُ خُبْزَةً يَأْكُلُ مِنْهَا الْخَلْقُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿**وما جَعَلْناهُمْ جَسَداً لا يَأْكُلُونَ الطَّعامَ**﴾ .

وَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ: إِنَّهَا تُبَدَّلُ بِأَرْضٍ غَيْرِهَا بيضاء لَمْ يُعْمَلْ عَلَيْهَا خَطِيئَةٌ .

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: بِأَرْضٍ مِنْ فِضَّةٍ بَيْضَاءَ .

وَقَالَ عَلِيٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: تُبَدَّلُ الْأَرْضُ يَوْمَئِذٍ مِنْ فِضَّةٍ وَالسَّمَاءُ مِنْ ذَهَبٍ وَهَذَا تَبْدِيلٌ لِلْعَيْنِ، وَحَسْبُكَ" .

وروى البخاري (٨/ ١٠٩ برقم ٦٥٢١) ، مسلم (٤/ ٢١٥٠ برقم ٢٧٩٠) بسندهما عَنْ سَمِعْتُ سَهْلَ بْنَ سَعْدٍ، قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ القِيَامَةِ عَلَى أَرْضٍ بَيْضَاءَ عَفْرَاءَ، كَقُرْصَةِ نَقِيٍّ» قَالَ سَهْلٌ أَوْ غَيْرُهُ: «لَيْسَ فِيهَا مَعْلَمٌ لِأَحَدٍ» .

وروى الحاكم في " المستدرك على الصَّحيحين" (٤/ ٦١٤ برقم ٨٧٠٠ ، وقال : " هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحُ الْإِسْنَادَيْنِ جَمِيعًا عَلَى شَرْطِ الشَّيْخَيْنِ وَلَمْ يُخْرِجَاهُ " ، ووافقه الذَّهبي) بسنده عَنْ عَبْدِ اللَّهِ، فِي قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿**يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ**﴾ [إبراهيم: ٤٨] قَالَ: «أَرْضٌ بَيْضَاءُ نَقِيَّةٌ لَمْ يُسْفَكْ فِيهَا دَمٌ وَلَمْ يُعْمَلْ فِيهَا بِخَطِيئَةٍ يَسْمَعُهُمُ الدَّاعِي وَيَنْفُذُهُمُ الْبَصَرُ حُفَاةٌ عُرَاةٌ كَمَا خُلِقُوا حَتَّى يُلْجِمَهُمُ الْعَرَقُ» .

﴿سُؤالٌ﴾ : مَاذَا عَنْ سَوْقِ المَلَائِكَةِ النَّاسَ إِلَى المَحْشَرِ ؟

الجواب : قال الله تعالى : ﴿**وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيد**﴾ [ق: ٢١] ، قال الإمام البغوي في " التَّفسير " (٤/ ٢٧٣) : " وجاءَتْ، ذَلِكَ الْيَوْمَ، كُلُّ نَفْسٍ مَعَها سائِقٌ، يَسُوقُهَا إِلَى الْمَحْشَرِ، وَشَهِيدٌ، يَشْهَدُ عَلَيْهَا بِمَا عَمِلَتْ، وهو عمله، قَالَ الضَّحَّاكُ: السَّائِقُ مِنَ المَلَائِكَة والشاهد من أنفسهم الأيد والأرجل، وهي رواية الْعَوْفِيِّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ. وَقَالَ الْآخَرُونَ: هُمَا جَمِيعًا مِنَ الْمَلَائِكَةِ" .

﴿سُؤالٌ﴾ : مَا مَعْنَى قَوْلِ اللهِ تَعَالَى : ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمنِ وَفْداً﴾ ؟

الجواب : قال الإمام القرطبي في " الجامع لأحكام القرآن" (١١/ ١٥٢-١٥١٠) : " قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿**يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمنِ وَفْداً**﴾ فِي الْكَلَامِ حَذْفٌ أَيْ إِلَى جَنَّةِ الرَّحْمَنِ، وَدَارِ كَرَامَتِهِ. كَقَوْلِهِ: ﴿**إِنِّي ذاهِبٌ إِلى رَبِّي سَيَهْدِينِ**﴾ [الصافات: ٩٩] ، وَكَمَا فِي الْخَبَرِ : "مَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ فَهِجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ" . وَالْوَفْدُ اسْمٌ لِلْوَافِدِينَ كَمَا يُقَالُ: صَوْمٌ وَفِطْرٌ وَزَوْرٌ فَهُوَ جَمْعُ الْوَافِدِ مِثْلُ رَكْبٍ وَرَاكِبٍ وَصَحْبٍ وَصَاحِبٍ وَهُوَ مِنْ وَفَدَ يَفِدُ وَفْدًا وَوُفُودًا وَوِفَادَةً إِذَا خَرَجَ إِلَى مَلِكٍ فِي فَتْحٍ أَوْ أَمْرٍ خَطِيرٍ. الْجَوْهَرِيُّ: يُقَالُ

وَفَدَ فُلَانٌ عَلَىٰ الْأَمِيرِ أَيْ وَرَدَ رَسُولًا فَهُوَ وَافِدٌ، وَالْجَمْعُ وَفْدٌ مِثْلُ صَاحِبٍ وَصَحْبٍ وَجَمْعُ الْوَفْدِ وِفَادٌ وَوُفُودٌ وَالِاسْمُ الْوِفَادَةُ وَأَوْفَدْتُهُ أَنَا إِلَىٰ الْأَمِيرِ أَيْ أَرْسَلْتُهُ.

وَفِي التَّفْسِيرِ:" وَفْداً" أَيْ رُكْبَانًا عَلَىٰ نَجَائِبِ طَاعَتِهِمْ. وَهَذَا لِأَنَّ الْوَافِدَ فِي الْغَالِبِ يَكُونُ رَاكِبًا وَالْوَفْدُ الرُّكْبَانُ وَوُحِّدَ لِأَنَّهُ مَصْدَرٌ. ابْنُ جُرَيْجٍ: وَفْدًا عَلَى النَّجَائِبِ. وَقَالَ عَمْرُو بْنُ قَيْسٍ الْمُلَائِيُّ: إِنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا خَرَجَ مِنْ قَبْرِهِ اسْتَقْبَلَهُ عَمَلُهُ فِي أَحْسَنِ صُورَةٍ وَأَطْيَبِ رِيحٍ فَيَقُولُ هَلْ تَعْرِفُنِي؟ فَيَقُولُ لَا- إِلَّا أَنَّ اللَّهَ قَدْ طَيَّبَ رِيحَكَ وَحَسَّنَ صُورَتَكَ. فَيَقُولُ: كَذَلِكَ كُنْتُ فِي الدُّنْيَا أَنَا عَمَلُكَ الصَّالِحُ طَالَمَا رَكِبْتُكَ فِي الدُّنْيَا ارْكَبْنِي الْيَوْمَ وَتَلَا **﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمنِ وَفْداً﴾**، وَإِنَّ الْكَافِرَ يَسْتَقْبِلُهُ عَمَلُهُ فِي أَقْبَحِ صُورَةٍ وَأَنْتَنِ رِيحٍ فَيَقُولُ: هَلْ تعرفني؟ فيقول: لا- إِلَّا أن الله قد قَبَّحَ صُورَتَكَ وَأَنْتَنَ رِيحَكَ. فَيَقُولُ كَذَلِكَ كُنْتُ فِي الدُّنْيَا أَنَا عَمَلُكَ السَّيِّئُ طَالَمَا رَكِبْتَنِي فِي الدُّنْيَا وَأَنَا الْيَوْمَ أَرْكَبُكَ. وَتَلَا **﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزارَهُمْ عَلى ظُهُورِهِمْ﴾** [الانعام: ٣١] . وَلَا يَصِحُّ مِنْ قِبَلِ إِسْنَادِهِ. قَالَهُ ابْنُ الْعَرَبِيِّ فِي" سِرَاجِ الْمُرِيدِينَ".

وَذَكَرَ هَذَا الْخَبَرَ في تفسيره أبو نصر عبد الرحيم ابن عَبْدِ الْكَرِيمِ الْقُشَيْرِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ بِلَفْظِهِ وَمَعْنَاهُ. وَقَالَ أَيْضًا عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: مَنْ كان يحبُّ ركوب الْخَيْلَ وَفَدَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَىٰ عَلَى خَيْلٍ لَا تَرُوثُ وَلَا تَبُولُ لُجُمُهَا مِنَ الْيَاقُوتِ الْأَحْمَرِ وَمِنَ الزَّبَرْجَدِ الْأَخْضَرِ وَمِنَ الدُّرِّ الْأَبْيَضِ وَسُرُوجُهَا مِنَ السُّنْدُسِ وَالْإِسْتَبْرَقِ وَمَنْ كَانَ يُحِبُّ رُكُوبَ الْإِبِلِ فَعَلَىٰ نَجَائِبَ لَا تَبْعَرُ وَلَا تَبُولُ أَزِمَّتُهَا مِنَ الْيَاقُوتِ وَالزَّبَرْجَدِ وَمَنْ كَانَ يحب ركوب السفن فعلىٰ سفن من زبرجد و يَاقُوتٍ قَدْ أَمِنُوا الْغَرَقَ وَأَمِنُوا الْأَهْوَالَ. وَقَالَ أَيْضًا عَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وَلَمَّا نَزَلَتِ الْآيَةُ قَالَ عَلِيٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: يا رسول الله! إِنِّي قَدْ رَأَيْتُ الْمُلُوكَ وَوُفُودَهُمْ فَلَمْ أَرَ وَفْدًا إِلَّا رُكْبَانًا فَمَا وَفْدُ اللَّهِ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " أما إِنَّهُمْ لَا يُحْشَرُونَ عَلَىٰ أَقْدَامِهِمْ وَلَا يُسَاقُونَ سَوْقًا وَلَكِنَّهُمْ يُؤْتَوْنَ بِنُوقٍ مِنْ نُوقِ الْجَنَّةِ لَمْ يَنْظُرِ الْخَلَائِقُ إِلَىٰ مِثْلِهَا رِحَالُهَا الذَّهَبُ وَزِمَامُهَا الزَّبَرْجَدُ فَيَرْكَبُونَهَا حَتَّىٰ يَقْرَعُوا بَابَ الْجَنَّةِ (. وَلَفْظُ الثَّعْلَبِيِّ فِي هَذَا الْخَبَرِ عَنْ عَلِيٍّ أَبْيَنُ. وَقَالَ عَلِيٌّ لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! إِنِّي رَأَيْتُ الْمُلُوكَ وَوُفُودَهُمْ فَلَمْ أَرَ وَفْدًا إِلَّا رُكْبَانًا. قَالَ: يَا عَلِيُّ إِذَا كَانَ الْمُنْصَرَفُ مِنْ بَيْنِ يَدَيِ اللَّهِ تَعَالَىٰ تَلَقَّتِ الْمَلَائِكَةُ الْمُؤْمِنِينَ بِنُوقٍ بِيضٍ رِحَالُهَا وَأَزِمَّتُهَا الذَّهَبُ عَلَىٰ كُلِّ مَرْكَبٍ حُلَّةٌ لَا تُسَاوِيهَا الدُّنْيَا فَيَلْبَسُ كُلُّ مُؤْمِنٍ حُلَّةً ثُمَّ تَسِيرُ بِهِمْ مَرَاكِبُهُمْ فَتَهْوِي بِهِمُ النُّوقُ حَتَّىٰ تَنْتَهِيَ بِهِمْ إِلَىٰ الْجَنَّةِ فَتَتَلَقَّاهُمُ الملائكة **﴿سَلامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوها خالِدِينَ﴾** [الزمر: ٧٣] .

قُلْتُ: وَهَذَا الْخَبَرُ يَنُصُّ عَلَىٰ أَنَّهُمْ لَا يَرْكَبُونَ وَلَا يَلْبَسُونَ إِلَّا مِنَ الْمَوْقِفِ وَأَمَّا إِذَا خَرَجُوا مِنَ الْقُبُورِ فَمُشَاةٌ حُفَاةٌ عُرَاةٌ غُرْلًا إِلَىٰ الْمَوْقِفِ بِدَلِيلِ حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ قَامَ فِينَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

بِمَوْعِظَةٍ فَقَالَ: " يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّكُمْ تُحْشَرُونَ إِلَى اللَّهِ- تَعَالَى- حُفَاةً عُرَاةً غُرْلًا" الْحَدِيثَ. خَرَّجَهُ الْبُخَارِيُّ (٤/ ١٣٩ برقم ٣٣٤٩) وَمُسْلِمٌ (٤/ ٢١٩٤ برقم ٢٨٦٠) ، وَسَيَأْتِي بِكَمَالِهِ فِي سُورَةِ" الْمُؤْمِنِينَ" إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى. وَتَقَدَّمَ فِي" آلِ عِمْرَانَ" مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أُنَيْسٍ بِمَعْنَاهُ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَعَالَى. وَلَا يَبْعُدُ أَنْ تَحْصُلَ الْحَالَتَانِ لِلسُّعَدَاءِ فَيَكُونُ حَدِيثُ ابْنِ عَبَّاسٍ مَخْصُوصًا! وَاللَّهُ أَعْلَمُ. وَقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: ﴿وَفْداً﴾ عَلَى الْإِبِلِ. ابْنُ عَبَّاسٍ: رُكْبَانًا يُؤْتَوْنَ بِنُوقٍ مِنَ الْجَنَّةِ عَلَيْهَا رَحَائِلُ مِنَ الذَّهَبِ وَسُرُوجُهَا وَأَزِمَّتُهَا مِنَ الزَّبَرْجَدِ فَيُحْشَرُونَ عَلَيْهَا وَقَالَ عَلِيٌّ: مَا يُحْشَرُونَ وَاللَّهِ عَلَى أرجلهم ولكن على نوق رحالها مِنْ ذَهَبٍ وَنُجُبٍ سُرُوجُهَا يَوَاقِيتُ إِنْ هَمُّوا بِهَا سَارَتْ وَإِنْ حَرَّكُوهَا طَارَتْ. وَقِيلَ: يَفِدُونَ عَلَى مَا يُحِبُّونَ مِنْ إِبِلٍ أَوْ خَيْلٍ أَوْ سُفُنٍ عَلَى مَا تَقَدَّمَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ. وَاللَّهُ أَعْلَمُ. وَقِيلَ إِنَّمَا قَالَ: ﴿وَفْداً﴾ لِأَنَّ مِنْ شَأْنِ الْوُفُودِ عِنْدَ الْعَرَبِ أَنْ يَقْدُمُوا بِالْبِشَارَاتِ وَيَنْتَظِرُونَ الْجَوَائِزَ فَالْمُتَّقُونَ يَنْتَظِرُونَ الْعَطَاءَ وَالثَّوَابَ " .

﴿سُؤالٌ﴾ : كَيْفَ سَيُحْشَرُ مَنْ احْتَرَقَ أَوْ أَكَلَتْهُ السِّبَاعُ وَالهَوَامُ وَالطَّيْر ؟

الجواب : روى البخاري (٩/ ١٤٥ برقم ٧٥٠٦) ، مسلم (٤/ ٢١٠٩ برقم ٢٧٥٦) بسندهما عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: " قَالَ رَجُلٌ لَمْ يَعْمَلْ خَيْرًا قَطُّ: فَإِذَا مَاتَ فَحَرِّقُوهُ وَاذْرُوا نِصْفَهُ فِي البَرِّ، وَنِصْفَهُ فِي البَحْرِ، فَوَاللَّهِ لَئِنْ قَدَرَ اللَّهُ عَلَيْهِ لَيُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا لاَ يُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ العَالَمِينَ، فَأَمَرَ اللَّهُ البَحْرَ فَجَمَعَ مَا فِيهِ، وَأَمَرَ البَرَّ فَجَمَعَ مَا فِيهِ، ثُمَّ قَالَ: لِمَ فَعَلْتَ؟ قَالَ: مِنْ خَشْيَتِكَ وَأَنْتَ أَعْلَمُ، فَغَفَرَ لَهُ " .

وفي الحديث دليلٌ على أنَّ الله تعالى سيحشر المحترقين الذين تحوَّلوا إلى رماد، وكذا من أكلتهم الأسماك والحيتان ، ومن أكلتهم السِّباع وجوارح الطَّير ...

وروى الحاكم في " المستدرك على الصَّحيحين " (٣/ ٢١٦ برقم ٤٨٨٧ ، وقال : صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ مُسْلِمٍ، وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ»، وقال الذهبي : على شرط مسلم) بسنده عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَرَّ بِحَمْزَةَ يَوْمَ أُحُدٍ وَقَدْ جُدِعَ وَمُثِّلَ بِهِ وَقَالَ: «لَوْلَا أَنَّ صَفِيَّةَ تَجِدُ لَتَرَكْتُهُ حَتَّى يَحْشُرَهُ اللَّهُ مِنْ بُطُونِ الطَّيْرِ وَالسِّبَاعِ» فَكَفَّنَهُ فِي نَمِرَةٍ."

وروى الحاكم في " المستدرك على الصَّحيحين " (٢/ ٣٤٥ برقم ٣٢٣١ ، وقال : جَعْفَرٌ الْجِذْرِيُّ هَذَا هُوَ ابْنُ بُرْقَانَ، قَدِ احْتَجَّ بِهِ مُسْلِمٌ وَهُوَ صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِهِ وَلَمْ يُخْرِجَاهُ ، ووافقه الذهبي) بسنده عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، فِي قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ **﴿أَمَمٌ أَمْثَالُكُمْ﴾** [الأنعام: ٣٨] قَالَ: " يُحْشَرُ الْخَلْقُ كُلُّهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ الْبَهَائِمُ، وَالدَّوَابُّ، وَالطَّيْرُ، وَكُلُّ شَيْءٍ فَيَبْلُغُ مِنْ عَدْلِ اللَّهِ أَنْ يَأْخُذَ لِلْجَمَّاءِ مِنَ الْقَرْنَاءِ، ثُمَّ يَقُولُ: كُونِي تُرَابًا فَذَلِكَ **﴿يَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا﴾** [النبأ: ٤٠] .

﴿سُؤالٌ﴾ : هَلْ سَتُحْشَرُ البَهَائِم ؟

الجواب : قال تعالىٰ: **﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾** [الأنعام: ٣٨] .

وقال تعالىٰ : **﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ﴾** [الشورىٰ: ٢٩] .

وقال تعالىٰ : **﴿وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾** [التكوير: ٥] .

وروىٰ مسلم (١٩٩٧/٤ برقم ٢٥٨٢) بسنده عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: «لَتُؤَدُّنَّ الْحُقُوقَ إِلَىٰ أَهْلِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، حَتَّىٰ يُقَادَ لِلشَّاةِ الْجَلْحَاءِ، مِنَ الشَّاةِ الْقَرْنَاءِ" .

وقال الإمام القاضي عياض في " شَرْحُ صَحِيح مُسْلِمِ لِلقَاضِىٰ عِيَاض المُسَمَّىٰ إِكمَالُ المُعْلِمِ بفَوَائِدِ مُسْلِمٍ " (٨/ ٥١-٥٢) : " وقوله: " لتؤدنَّ الحقوق إلىٰ أهلها يوم القيامة، حتَّىٰ يقاد للشَّاة الجلحاء من الشَّاة القرناء "، قال الإمام: اضطرب العلماء في إعادة البهائم، ووقف الشَّيخ أبو الحسن الأشعري في ذلك، وجوَّز أن يُعاد المجانين ومن لم يبلغه الدَّعوة وجواز أن يعادوا ولم يرد عنده قطع في ذلك. والمسألة موقوفة علىٰ السَّمع.

وأقوىٰ ما يتعلَّق به من يقطع بإعادة البهائم قوله عزَّ وجلَّ: **﴿وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾** . ومن لم يقطع علىٰ الإعادة يقول: معنىٰ **﴿حُشِرَتْ﴾** : أي ماتت، والأحاديث الواردة في ذلك عنده من أخبار الآحاد إنَّما توجب الظَّن، والمراد من المسألة القطع.

وقد قال بعض شيوخنا في قوله: " تقاد الشَّاة الجلحاء من الشَّاة القرناء ": أنَّ المراد به ضرب مثل؛ ليشعر الباري سبحانه الخليقة أنَّها دار قصاص ومجازاة، وأنَّه لا يبقىٰ لأحد عند أحد حق، فضرب المثل بالبهائم التي ليست مكلَّفة حتَّىٰ يستحقّ فيها القصاص، ليفهم منه أنَّ بني آدم المكلَّفين أحقُّ وأولىٰ بالقصاص منهم.

ويصحُّ عندي أن يخلق الباري سبحانه هذه الحركة في البهائم في الآخرة ليشعر أهل المحشر بما هم صائرون إليه من العدل بينهم.

وسمَّىٰ ذلك قصاصًا لا علىٰ معنىٰ قصاص التَّكليف، ولكن علىٰ معنىٰ قصاص المجازاة.

والقطع في هذا لا سبيل إليه، وإجراء الكلام علىٰ ظاهره إذا لم يمنع منه عقل ولا سمع أولىٰ وأوجب.

والجلحاء: هي الجماء التي لا قرن لها، ويقال: قرية جلحاء لا حصن لها. والأجلح من النَّاس: الذىٰ انحسر الشَّعر عن جانبي رأسه، وسطح أجلح: الذىٰ لم يحجب بجدار ولا غيره، ومنه حديث أبي أَيُّوب: " مَنْ بات علىٰ سطح أجلح فلا دية له "، وهودج أجلح: الذىٰ لا رأس له.

قال القاضي: توقَّف مَنْ توقَّف من الأئمَّة في إعادتها، إنَّما هو علىٰ القطع بذلك علىٰ الله، كما يقطع بإعادة أهل الثَّواب والعقاب ومن يجازىٰ، ولم تكن الظَّواهر الواردة في ذلك نصًّا ولا أخبارًا متواترة، ولا هي ممَّا تحتها عمل، فيجب العمل بها ، كما يجب بالظَّواهر وأخبار الآحاد، والمسألة علميَّة مجرَّدة، والأظهر حشر المخلوقات كلّها مجموع ظواهر الآيات والأحاديث، وإنَّه ليس من شرط الإعادة المجازاة والعقاب والثَّواب، فقد وقع الإجماع علىٰ أنَّ أولاد الأنبياء في الجنَّة ولا مجازاة علىٰ الأطفال" .

وقال الإمام النَّووي في " المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجَّاج " (١٦/١٣٦-١٣٧) : " هَذَا تَصْرِيحٌ بِحَشْرِ الْبَهَائِمِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَإِعَادَتِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، كَمَا يُعَادُ أَهْلُ التَّكْلِيفِ مِنَ الْآدَمِيِّينَ ، وَكَمَا يُعَادُ الْأَطْفَالُ وَالْمَجَانِينُ وَمَنْ لَمْ تَبْلُغْهُ دَعْوَةٌ ، وَعَلَىٰ هَذَا تَظَاهَرَتْ دَلَائِلُ الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَىٰ : وَإِذَا الْوُحُوشُ حشرت ، وَإِذَا وَرَدَ لَفْظُ الشَّرْعِ وَلَمْ يَمْنَعْ مِنْ إِجْرَائِهِ عَلَىٰ ظَاهِرِهِ عَقْلٌ وَلَا شَرْعٌ وَجَبَ حَمْلُهُ عَلَىٰ ظَاهِرِهِ ، قَالَ الْعُلَمَاءُ : وَلَيْسَ مِنْ شَرْطِ الْحَشْرِ وَالْإِعَادَةِ فِي الْقِيَامَةِ الْمُجَازَاةُ وَالْعِقَابُ وَالثَّوَابُ ، وَأَمَّا الْقِصَاصُ مِنَ الْقَرْنَاءِ لِلْجَلْحَاءِ فَلَيْسَ هُوَ مِنْ قِصَاصِ التكليف إذلا تَكْلِيفَ عَلَيْهَا بَلْ هُوَ قِصَاصُ مُقَابَلَةٍ وَالْجَلْحَاءُ بِالْمَدِّ هِيَ الْجَمَّاءُ الَّتِي لَا قَرْنَ لَهَا وَاللَّهُ أَعْلَمُ " .

وقال الإمام القاري في " مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح " (٨/٣٢٠٣) : " قَوْلُهُ: (حَتَّىٰ يُقَادَ لِلشَّاةِ الْجَلْحَاءِ مِنَ الشَّاةِ الْقَرْنَاءِ) : غَايَةً بِحَسَبِ التَّغْلِيبِ كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: **﴿جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ﴾** [الشورىٰ: ١١] فَالضَّمِيرُ فِي يَذْرَؤُكُمْ رَاجِعٌ إِلَىٰ الْأَنَاسِيِّ وَالْأَنْعَامِ عَلَىٰ التَّغْلِيبِ اهـ.

وَالْمَعْنَىٰ يُكَثِّرُكُمْ مِنَ الذَّرْءِ وَهُوَ الْبَثُّ، وَقَوْلُهُ: (فِيهِ) أَيْ: فِي هَذَا التَّدْبِيرِ وَهُوَ جَعْلُ النَّاسِ وَالْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَكُونُ بَيْنَهُمْ تَوَالُدٌ، فَإِنَّهُ كَانَ كَالْمَنْبَعِ لِلْبَثِّ وَالتَّكْثِيرِ ذَكَرَهُ الْبَيْضَاوِيُّ، وَجَعَلَ فِي لِلظَّرْفِيَّةِ الْمَعْنَوِيَّةِ وَشَبَّهَ التَّدْبِيرَ بِالْمَنْبَعِ، وَفِي الْإِتْقَانِ أَنَّ فِي بِمَعْنَىٰ الْبَاءِ أَيْ: بِسَبَبِهِ، وَهُوَ ظَاهِرٌ جِدًّا، وَهَذَا إِذَا أُرِيدَ بِالْجَلْحَاءِ وَالْقَرْنَاءِ الشَّاتَانِ الْمَعْرُوفَتَانِ، وَأَمَّا إِذَا أُرِيدَ بِالْجَلْحَاءِ الْفَقِيرُ أَوِ الْمَظْلُومُ وَبِالْقَرْنَاءِ الْغَنِيُّ أَوِ الظَّالِمُ عَلَىٰ مَا قِيلَ فَلَا يَحْتَاجُ إِلَىٰ ارْتِكَابِ التَّغْلِيبِ وَالْأَمْرُ قَرِيبٌ، ثُمَّ الْجَلْحَاءُ بِجِيمٍ فَلَامٍ فَحَاءٍ مُهْمَلَةٍ ... وَفِي كَوْنِهِ قَصَاصَ مُقَابَلَةٍ نَظَرٌ لَا يَخْفَىٰ، مَعَ أَنَّ قَصَاصَ الْمُقَابَلَةِ نَحْنُ مُكَلَّفُونَ بِهِ أَيْضًا.

قَالَ ابْنُ الْمَلَكِ أَيْ: لَوْ نَطَحَ شَاةٌ قَرْنَاءُ شَاةً جَلْحَاءَ فِي الدُّنْيَا، فَإِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ يُؤْخَذُ الْقَرْنُ مِنَ الْقَرْنَاءِ وَيُعْطَى الْجَلْحَاءَ حَتَّى تَقْتَصَّ لِنَفْسِهَا مِنَ الشَّاةِ الْقَرْنَاءِ، فَإِنْ قِيلَ: الشَّاةُ غَيْرُ مُكَلَّفَةٍ، فَكَيْفَ يُقْتَصُّ مِنْهَا؟ قُلْنَا: إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى فَعَالٌ لِمَا يُرِيدُ وَلَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ، وَالْغَرَضُ مِنْهُ إِعْلَامُ الْعِبَادِ بِأَنَّ الْحُقُوقَ لَا تَضِيعُ، بَلْ يُقْتَصُّ حَقُّ الْمَظْلُومِ مِنَ الْمَظَالِمِ اهـ. وَهُوَ وَجْهٌ حَسَنٌ وَتَوْجِيهٌ مُسْتَحْسَنٌ إِلَّا أَنَّ التَّعْبِيرَ عَنِ الْحِكْمَةِ بِالْغَرَضِ وَقَعَ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ، وَجُمْلَةُ الْأَمْرِ أَنَّ الْقَضِيَّةَ دَالَّةٌ بِطَرِيقِ الْمُبَالَغَةِ عَلَى كَمَالِ الْعَدَالَةِ بَيْنَ كَافَّةِ الْمُكَلَّفِينَ، فَإِنَّهُ إِذَا كَانَ هَذَا حَالُ الْحَيَوَانَاتِ الْخَارِجَةِ عَنِ التَّكْلِيفِ، فَكَيْفَ بِذَوِي الْعُقُولِ مِنَ الْوَضِيعِ وَالشَّرِيفِ وَالْقَوِيِّ وَالضَّعِيفِ."

وروى أحمد في " المسند" (٣٥/ ٣٤٥ برقم ٢١٤٣٨) بسنده عَنْ أَبِي ذَرٍّ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وَأَبُو مُعَاوِيَةَ، حَدَّثَنَا الْأَعْمَشُ، عَنْ مُنْذِرِ بْنِ يَعْلَى أَبِي يَعْلَى، عَنْ أَشْيَاخٍ لَهُ، عَنْ أَبِي ذَرٍّ، فَذَكَرَ مَعْنَاهُ،: أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَأَى شَاتَيْنِ تَنْتَطِحَانِ، فَقَالَ: "يَا أَبَا ذَرٍّ هَلْ تَدْرِي فِيمَ تَنْتَطِحَانِ؟ " قَالَ: لَا. قَالَ: "لَكِنَّ اللهَ يَدْرِي، وَسَيَقْضِي بَيْنَهُمَا " . قال الأرنؤوط : " حديث حسن، وهذا إسناد ضعيف لجهالة أشياخ منذر الثوري، لكن روي الحديث بنحوه من طريق آخر سيأتي برقم (٢١٥١١) وفي إسناده ضعفٌ أيضاً. سليمان: هو ابن مِهران الأعمش. وأخرجه الطيالسي (٤٨٠) عن شعبة، بهذا الإسناد. وأخرجه ابن أبي شيبة، وأبو يعلى في "مسنديهما" كما في "إتحاف الخيرة" (٣٥٤) و (٣٥٥) من طريق أبي معاوية، به. وفي الباب عن عثمان بن عفان أن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: "إن الجمَّاء لتُقَصُّ من القَرْناءِ يوم القيامة" سلف برقم (٥٢٠) ، وسنده ضعيف" .

وروى أحمد في " المسند " (١٢/ ١٣٧ برقم ٧٢٠٤) بسنده عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " لَتُؤَدُّنَّ الْحُقُوقَ إِلَى أَهْلِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، حَتَّى يُقْتَصَّ لِلشَّاةِ الْجَمَّاءِ مِنَ الشَّاةِ الْقَرْنَاءِ نَطَحَتْهَا " وَقَالَ ابْنُ جَعْفَرٍ – يَعْنِي فِي حَدِيثِهِ –: " يُقَادَ لِلشَّاةِ الْجَلْحَاءِ ". قال الأرنؤوط : " إسناده صحيح على شرط مسلم. وأخرجه ابن حبان (٧٣٦٣) من طريق ابن أبي عدي، بهذا الإسناد. وأخرجه الترمذي (٢٤٢٠) من طريق عبد العزيز بن محمد، عن العلاء بن عبد الرحمن، به. وقال: حسن صحيح. وأخرج البخاري في "الأدب المفرد" (١٨٥) من طريق زرارة بن أوفى، و (١٨٦) من طريق عبد الله بن شقيق، كلاهما عن أبي هريرة، عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال: "من ضرب ضربا ظلما، اقتص منه يوم القيامة" . وفي الباب عن عثمان بن عفان، سلف برقم (٥٢٠) ، وهو من زيادات عبد الله على "المسند " . قوله: "لتؤدن"، قال السندي: على بناء المفعول، بيان لعدله تعالى، وفيه حث على ترك الظلم وأداء الحقوق إلى أهلها في الدنيا. والجماء، قال: بفتح فتشديد، التي لا قرن لها. قال النووي في "شرح مسلم" ١٦/ ١٣٧ : القصاص من القرناء للجلحاء ليس هو من قصاص التكليف، إذ لا تكليف عليها، بل هو قصاص مقابلة ".

﴿سُؤالٌ﴾ : مَاذَا يَحْدُثُ أَوَّلَا فِي الحَشْرِ ؟

الجواب : بعد أن تجتمع الخلائق في أرض المحشر تأتي شفاعة الرَّسول صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وهي الشَّفاعة العظمىٰ ، وهي المقام المحمود الذي وعده الله الحبيب المصطفىٰ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في قوله تعالىٰ: **﴿وَمِنْ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا﴾** [] .

وهذه الشَّفاعة تقوم علىٰ شفاعة الرَّسول صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لجميع الخلق ببدء الحساب ، وذلك أنَّه بعد خروج النَّاس من قبورهم يطول بهم الانتظار ، ويشتدُّ بهم الكرب ، فيقولون: من يشفع لنا إلىٰ ربِّنا حتَّىٰ يفصل بين العباد، فيأتون إلىٰ آدم مروراً بجميع الأنبياء والمرسلين ، وكلٌّ منهم يبدي اعتذاره حتَّىٰ يأتوا إلىٰ سيِّد الأنبياء والمرسلين سيِّدنا محمَّد صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فيقول: " أنا لها، أنا لها". فيشفع لهم في فصل القضاء ، فهذه هي الشَّفاعة العظمىٰ ، وهي خاصَّة بسيِّدنا محمَّد صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

وفي ذلك روىٰ البخاري (٦/ ٨٦ برقم ٤٧١٨) بسنده عَنْ آدَمَ بْنِ عَلِيٍّ، قَالَ: سَمِعْتُ ابْنَ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، يَقُولُ: " إِنَّ النَّاسَ يَصِيرُونَ يَوْمَ القِيَامَةِ جُثًا، كُلُّ أُمَّةٍ تَتْبَعُ نَبِيَّهَا يَقُولُونَ: يَا فُلاَنُ اشْفَعْ، يَا فُلاَنُ اشْفَعْ، حَتَّىٰ تَنْتَهِيَ الشَّفَاعَةُ إِلَىٰ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَذَلِكَ يَوْمَ يَبْعَثُهُ اللَّهُ المَقَامَ المَحْمُودَ " .

وروىٰ البخاري (٩/ ١٤٦ برقم ٧٥١٠) ، مسلم (١/ ١٨٠ برقم ١٩٣) بسندهما مَعْبَدُ بْنُ هِلاَلٍ العَنَزِيُّ، قَالَ: اجْتَمَعْنَا نَاسٌ مِنْ أَهْلِ البَصْرَةِ فَذَهَبْنَا إِلَى أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، وَذَهَبْنَا مَعَنَا بِثَابِتٍ البُنَانِيِّ إِلَيْهِ يَسْأَلُهُ لَنَا عَنْ حَدِيثِ الشَّفَاعَةِ، فَإِذَا هُوَ فِي قَصْرِهِ فَوَافَقْنَاهُ يُصَلِّي الضُّحَىٰ، فَاسْتَأْذَنَّا، فَأَذِنَ لَنَا وَهُوَ قَاعِدٌ عَلَىٰ فِرَاشِهِ، فَقُلْنَا لِثَابِتٍ: لاَ تَسْأَلْهُ عَنْ شَيْءٍ أَوَّلَ مِنْ حَدِيثِ الشَّفَاعَةِ، فَقَالَ: يَا أَبَا حَمْزَةَ هَؤُلاَءِ إِخْوَانُكَ مِنْ أَهْلِ البَصْرَةِ جَاءُوكَ يَسْأَلُونَكَ عَنْ حَدِيثِ الشَّفَاعَةِ، فَقَالَ: حَدَّثَنَا مُحَمَّدٌ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: " إِذَا كَانَ يَوْمُ القِيَامَةِ مَاجَ النَّاسُ بَعْضُهُمْ فِي بَعْضٍ، فَيَأْتُونَ آدَمَ، فَيَقُولُونَ: اشْفَعْ لَنَا إِلَىٰ رَبِّكَ، فَيَقُولُ: لَسْتُ لَهَا، وَلَكِنْ عَلَيْكُمْ بِإِبْرَاهِيمَ فَإِنَّهُ خَلِيلُ الرَّحْمَنِ، فَيَأْتُونَ إِبْرَاهِيمَ، فَيَقُولُ: لَسْتُ لَهَا، وَلَكِنْ عَلَيْكُمْ بِمُوسَىٰ فَإِنَّهُ كَلِيمُ اللَّهِ، فَيَأْتُونَ مُوسَىٰ فَيَقُولُ: لَسْتُ لَهَا، وَلَكِنْ عَلَيْكُمْ بِعِيسَىٰ فَإِنَّهُ رُوحُ اللَّهِ، وَكَلِمَتُهُ، فَيَأْتُونَ عِيسَىٰ، فَيَقُولُ: لَسْتُ لَهَا، وَلَكِنْ عَلَيْكُمْ بِمُحَمَّدٍ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَيَأْتُونِي، فَأَقُولُ: أَنَا لَهَا، فَأَسْتَأْذِنُ عَلَىٰ رَبِّي، فَيُؤْذَنُ لِي، وَيُلْهِمُنِي مَحَامِدَ أَحْمَدُهُ بِهَا لاَ تَحْضُرُنِي الآنَ، فَأَحْمَدُهُ بِتِلْكَ المَحَامِدِ، وَأَخِرُّ لَهُ سَاجِدًا، فَيَقُولُ: يَا مُحَمَّدُ ارْفَعْ رَأْسَكَ، وَقُلْ يُسْمَعْ لَكَ، وَسَلْ تُعْطَ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ، فَأَقُولُ: يَا رَبِّ، أُمَّتِي أُمَّتِي، فَيَقُولُ: انْطَلِقْ فَأَخْرِجْ مِنْهَا مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ شَعِيرَةٍ مِنْ إِيمَانٍ، فَأَنْطَلِقُ فَأَفْعَلُ، ثُمَّ أَعُودُ، فَأَحْمَدُهُ بِتِلْكَ المَحَامِدِ، ثُمَّ أَخِرُّ لَهُ سَاجِدًا، فَيُقَالُ: يَا مُحَمَّدُ ارْفَعْ رَأْسَكَ، وَقُلْ يُسْمَعْ لَكَ، وَسَلْ تُعْطَ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ، فَأَقُولُ: يَا رَبِّ، أُمَّتِي أُمَّتِي، فَيَقُولُ: انْطَلِقْ فَأَخْرِجْ مِنْهَا مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ - أَوْ خَرْدَلَةٍ - مِنْ إِيمَانٍ فَأَخْرِجْهُ، فَأَنْطَلِقُ،

فَأَفْعَلُ، ثُمَّ أَعُودُ فَأَحْمَدُهُ بِتِلْكَ المَحَامِدِ، ثُمَّ أَخِرُّ لَهُ سَاجِدًا، فَيَقُولُ: يَا مُحَمَّدُ ارْفَعْ رَأْسَكَ، وَقُلْ يُسْمَعْ لَكَ، وَسَلْ تُعْطَ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ، فَأَقُولُ: يَا رَبِّ أُمَّتِي أُمَّتِي، فَيَقُولُ: انْطَلِقْ فَأَخْرِجْ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ أَدْنَى أَدْنَى أَدْنَى مِثْقَالِ حَبَّةِ خَرْدَلٍ مِنْ إِيمَانٍ، فَأَخْرِجْهُ مِنَ النَّارِ، فَأَنْطَلِقُ فَأَفْعَلُ " فَلَمَّا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِ أَنَسٍ قُلْتُ لِبَعْضِ أَصْحَابِنَا: لَوْ مَرَرْنَا بِالحَسَنِ وَهُوَ مُتَوَارٍ فِي مَنْزِلِ أَبِي خَلِيفَةَ فَحَدَّثْنَاهُ بِمَا حَدَّثَنَا أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ، فَأَتَيْنَاهُ فَسَلَّمْنَا عَلَيْهِ، فَأَذِنَ لَنَا فَقُلْنَا لَهُ: يَا أَبَا سَعِيدٍ، جِئْنَاكَ مِنْ عِنْدِ أَخِيكَ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، فَلَمْ نَرَ مِثْلَ مَا حَدَّثَنَا فِي الشَّفَاعَةِ، فَقَالَ: هِيهْ فَحَدَّثْنَاهُ بِالحَدِيثِ، فَانْتَهَى إِلَى هَذَا المَوْضِعِ، فَقَالَ: هِيهْ، فَقُلْنَا لَمْ يَزِدْ لَنَا عَلَى هَذَا، فَقَالَ: لَقَدْ حَدَّثَنِي وَهُوَ جَمِيعٌ مُنْذُ عِشْرِينَ سَنَةً فَلاَ أَدْرِي أَنَسِيَ أَمْ كَرِهَ أَنْ تَتَّكِلُوا، قُلْنَا: يَا أَبَا سَعِيدٍ فَحَدِّثْنَا فَضَحِكَ، وَقَالَ: خُلِقَ الإِنْسَانُ عَجُولًا مَا ذَكَرْتُهُ إِلَّا وَأَنَا أُرِيدُ أَنْ أُحَدِّثَكُمْ حَدَّثَنِي كَمَا حَدَّثَكُمْ بِهِ، قَالَ: " ثُمَّ أَعُودُ الرَّابِعَةَ فَأَحْمَدُهُ بِتِلْكَ المَحَامِدِ، ثُمَّ أَخِرُّ لَهُ سَاجِدًا، فَيُقَالُ: يَا مُحَمَّدُ ارْفَعْ رَأْسَكَ، وَقُلْ يُسْمَعْ، وَسَلْ تُعْطَهْ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ، فَأَقُولُ: يَا رَبِّ ائْذَنْ لِي فِيمَنْ قَالَ: لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَيَقُولُ: وَعِزَّتِي وَجَلاَلِي، وَكِبْرِيَائِي وَعَظَمَتِي لَأُخْرِجَنَّ مِنْهَا مَنْ قَالَ لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ" .

وروى البخاري (٩/ ١٣١ برقم ٧٤٤٠) بسنده عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: "يُحْبَسُ المُؤْمِنُونَ يَوْمَ القِيَامَةِ حَتَّى يُهِمُّوا بِذَلِكَ، فَيَقُولُونَ: لَوِ اسْتَشْفَعْنَا إِلَى رَبِّنَا فَيُرِيحُنَا مِنْ مَكَانِنَا، فَيَأْتُونَ آدَمَ، فَيَقُولُونَ: أَنْتَ آدَمُ أَبُو النَّاسِ، خَلَقَكَ اللَّهُ بِيَدِهِ، وَأَسْكَنَكَ جَنَّتَهُ، وَأَسْجَدَ لَكَ مَلاَئِكَتَهُ، وَعَلَّمَكَ أَسْمَاءَ كُلِّ شَيْءٍ، لِتَشْفَعْ لَنَا عِنْدَ رَبِّكَ حَتَّى يُرِيحَنَا مِنْ مَكَانِنَا هَذَا، قَالَ: فَيَقُولُ: لَسْتُ هُنَاكُمْ، قَالَ: وَيَذْكُرُ خَطِيئَتَهُ الَّتِي أَصَابَ: أَكْلَهُ مِنَ الشَّجَرَةِ، وَقَدْ نُهِيَ عَنْهَا، وَلَكِنِ ائْتُوا نُوحًا أَوَّلَ نَبِيٍّ بَعَثَهُ اللَّهُ إِلَى أَهْلِ الأَرْضِ، فَيَأْتُونَ نُوحًا فَيَقُولُ: لَسْتُ هُنَاكُمْ، وَيَذْكُرُ خَطِيئَتَهُ الَّتِي أَصَابَ: سُؤَالَهُ رَبَّهُ بِغَيْرِ عِلْمٍ، وَلَكِنِ ائْتُوا إِبْرَاهِيمَ خَلِيلَ الرَّحْمَنِ، قَالَ: فَيَأْتُونَ إِبْرَاهِيمَ فَيَقُولُ: إِنِّي لَسْتُ هُنَاكُمْ، وَيَذْكُرُ ثَلاَثَ كَلِمَاتٍ كَذَبَهُنَّ، وَلَكِنِ ائْتُوا مُوسَى: عَبْدًا آتَاهُ اللَّهُ التَّوْرَاةَ، وَكَلَّمَهُ، وَقَرَّبَهُ نَجِيًّا، قَالَ: فَيَأْتُونَ مُوسَى، فَيَقُولُ: إِنِّي لَسْتُ هُنَاكُمْ، وَيَذْكُرُ خَطِيئَتَهُ الَّتِي أَصَابَ قَتْلَهُ النَّفْسَ، وَلَكِنِ ائْتُوا عِيسَى عَبْدَ اللَّهِ وَرَسُولَهُ وَرُوحَ اللَّهِ وَكَلِمَتَهُ، قَالَ: فَيَأْتُونَ عِيسَى، فَيَقُولُ: لَسْتُ هُنَاكُمْ، وَلَكِنِ ائْتُوا مُحَمَّدًا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، عَبْدًا غَفَرَ اللَّهُ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ، فَيَأْتُونِي، فَأَسْتَأْذِنُ عَلَى رَبِّي فِي دَارِهِ فَيُؤْذَنُ لِي عَلَيْهِ، فَإِذَا رَأَيْتُهُ وَقَعْتُ سَاجِدًا، فَيَدَعُنِي مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَدَعَنِي، فَيَقُولُ: ارْفَعْ مُحَمَّدُ، وَقُلْ يُسْمَعْ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ، وَسَلْ تُعْطَ، قَالَ: فَأَرْفَعُ رَأْسِي، فَأُثْنِي عَلَى رَبِّي بِثَنَاءٍ وَتَحْمِيدٍ يُعَلِّمُنِيهِ، ثُمَّ أَشْفَعُ فَيَحُدُّ لِي حَدًّا، فَأَخْرُجُ فَأُدْخِلُهُمُ الجَنَّةَ، - قَالَ قَتَادَةُ: وَسَمِعْتُهُ أَيْضًا يَقُولُ: فَأَخْرُجُ فَأُخْرِجُهُمْ مِنَ النَّارِ، وَأُدْخِلُهُمُ الجَنَّةَ - ثُمَّ أَعُودُ الثَّانِيَةَ: فَأَسْتَأْذِنُ عَلَى رَبِّي فِي دَارِهِ، فَيُؤْذَنُ لِي عَلَيْهِ،

فَإِذَا رَأَيْتُهُ وَقَعْتُ سَاجِدًا، فَيَدَعُنِي مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَدَعَنِي، ثُمَّ يَقُولُ: ارْفَعْ مُحَمَّدُ، وَقُلْ يُسْمَعْ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ، وَسَلْ تُعْطَ، قَالَ: فَأَرْفَعُ رَأْسِي، فَأُثْنِي عَلَى رَبِّي بِثَنَاءٍ وَتَحْمِيدٍ يُعَلِّمُنِيهِ، قَالَ: ثُمَّ أَشْفَعُ فَيَحُدُّ لِي حَدًّا، فَأَخْرُجُ، فَأُدْخِلُهُمُ الجَنَّةَ، - قَالَ قَتَادَةُ، وَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: فَأَخْرُجُ فَأُخْرِجُهُمْ مِنَ النَّارِ وَأُدْخِلُهُمُ الجَنَّةَ - ثُمَّ أَعُودُ الثَّالِثَةَ: فَأَسْتَأْذِنُ عَلَى رَبِّي فِي دَارِهِ، فَيُؤْذَنُ لِي عَلَيْهِ، فَإِذَا رَأَيْتُهُ وَقَعْتُ سَاجِدًا، فَيَدَعُنِي مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَدَعَنِي، ثُمَّ يَقُولُ ارْفَعْ مُحَمَّدُ، وَقُلْ يُسْمَعْ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ، وَسَلْ تُعْطَهْ، قَالَ: فَأَرْفَعُ رَأْسِي، فَأُثْنِي عَلَى رَبِّي بِثَنَاءٍ وَتَحْمِيدٍ يُعَلِّمُنِيهِ، قَالَ: ثُمَّ أَشْفَعُ فَيَحُدُّ لِي حَدًّا، فَأَخْرُجُ فَأُدْخِلُهُمُ الجَنَّةَ، - قَالَ قَتَادَةُ وَقَدْ سَمِعْتُهُ يَقُولُ: فَأَخْرُجُ فَأُخْرِجُهُمْ مِنَ النَّارِ، وَأُدْخِلُهُمُ الجَنَّةَ - حَتَّى مَا يَبْقَى فِي النَّارِ إِلَّا مَنْ حَبَسَهُ القُرْآنُ "، أَيْ وَجَبَ عَلَيْهِ الخُلُودُ، قَالَ: ثُمَّ تَلاَ هَذِهِ الآيَةَ: **﴿عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا﴾** [الإسراء: ٧٩] قَالَ: «وَهَذَا المَقَامُ المَحْمُودُ الَّذِي وُعِدَهُ نَبِيُّكُمْ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ» .

ومن الجدير بالذِّكر هنا أنَّ البعض تشبَّث ببعض الرِّوايات التي تصبُّ في مصبِّ التَّجسيم البحت ، حيث ذهبوا إلى أنَّ المقصود بقول الله تعالى : **﴿عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا﴾** هو : أن يُجْلِسَ اللهُ الرَّسُوْلَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى جواره على العرش معه ... وتركوا روايات الصَّحيحين التي أثبتت أنَّ المقصود بقوله تعالى : **﴿عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا﴾** هو الشَّفاعة الكبرى ...

فقد روى الخلال في كتاب " السُّنَّة" العديد من الرِّوايات في عقيدة إجلاس الله تعالى للرَّسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى جواره على العرش معه ، والعديد منها حكم بكفر الإمام التِّرمذي لرفضة هذه العقيدة الباطلة المنكرة ... وممَّا ذكره الخلَّال في كتابه "السُّنَّة" :

"قَالَ أَبُو بَكْرِ بْنُ إِسْحَاقَ الصَّاغَانِيُّ: لَا أَعْلَمُ أَحَدًا مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ مِمَّنْ تَقَدَّمَ، وَلَا فِي عَصْرِنَا هَذَا إِلَّا وَهُوَ مُنْكِرٌ لِمَا أَحْدَثَ التِّرْمِذِيُّ مِنْ رَدِّ حَدِيثِ مُحَمَّدِ بْنِ فُضَيْلٍ، عَنْ لَيْثٍ، عَنْ مُجَاهِدٍ فِي قَوْلِهِ **﴿عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا﴾** [الإسراء: ٧٩] قَالَ: «يُقْعِدُهُ عَلَى الْعَرْشِ» ، فَهُوَ عِنْدَنَا جَهْمِيٌّ، يُهْجَرُ وَنَحْذِرُ عَنْهُ، فَقَدْ حَدَّثَنَا بِهِ هَارُونُ بْنُ مَعْرُوفٍ، قَال : حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ فُضَيْلٍ، عَنْ لَيْثٍ، عَنْ مُجَاهِدٍ فِي قَوْلِهِ **﴿عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا﴾** [الإسراء: ٧٩] قَالَ: «يُقْعِدُهُ عَلَى الْعَرْشِ» وَقَدْ رُوِيَ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَلَامٍ، قَالَ: «يُقْعِدُهُ عَلَى كُرْسِيِّ الرَّبِّ جَلَّ وَعَزَّ» ، فَقِيلَ لِلْجُرَيْرِيِّ: إِذَا كَانَ عَلَى كُرْسِيِّ الرَّبِّ فَهُوَ مَعَهُ، قَالَ: وَيْحَكُمْ، هَذَا أَقَرُّ لِعَيْنِي فِي الدُّنْيَا، وَقَدْ أَتَى عَلَيَّ نَيِّفٌ وَثَمَانُونَ سَنَةً مَا عَلِمْتُ أَنَّ أَحَدًا رَدَّ حَدِيثَ مُجَاهِدٍ إِلَّا جَهْمِيٌّ، وَقَدْ جَاءَتْ بِهِ الْأَئِمَّةُ فِي الْأَمْصَارِ، وَتَلَقَّتْهُ الْعُلَمَاءُ بِالْقَبُولِ مُنْذُ نَيِّفٍ وَخَمْسِينَ وَمِائَةِ سَنَةٍ، وَبَعْدُ فَإِنِّي لَا أَعْرِفُ هَذَا التِّرْمِذِيَّ، وَلَا أَعْلَمُ أَنِّي رَأَيْتُهُ عِنْدَ مُحَدِّثٍ، فَعَلَيْكُمْ رَحِمَكُمُ اللَّهُ بِالتَّمَسُّكِ بِالسُّنَّةِ وَالِاتِّبَاعِ وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ

يَحْيَىٰ بْنُ أَبِي طَالِبٍ: «لَا أَعْرِفُ هَذَا الْجَهْمِيَّ الْعَجَمِيَّ، لَا نَعْرِفُهُ عِنْدَ مُحَدِّثٍ، وَلَا عِنْدَ أَحَدٍ مِنْ إِخْوَانِنَا، وَلَا عَلِمْتُ أَحَدًا رَدَّ حَدِيثِ مُجَاهِدٍ» يُقْعِدُ مُحَمَّدًا صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَىٰ الْعَرْشِ "، رَوَاهُ الْخَلْقُ عَنِ ابْنِ فُضَيْلٍ عَنْ لَيْثٍ عَنْ مُجَاهِدٍ، وَاحْتَمَلَهُ الْمُحَدِّثُونَ الثِّقَاتُ، وَحَدَّثُوا بِهِ عَلَىٰ رُءُوسِ الْأَشْهَادِ، لَا يَدْفَعُونَ ذَلِكَ، يَتَلَقَّوْنَهُ بِالْقَبُولِ وَالسُّرُورِ بِذَلِكَ، وَأَنَا فِيمَا أَرَىٰ أَنِّي أَعْقِلُ مُنْذُ سَبْعِينَ سَنَةً، وَاللَّهِ مَا أَعْرِفُ أَحَدًا رَدَّهُ، وَلَا يَرُدُّهُ إِلَّا كُلُّ جَهْمِيٍّ مُبْتَدِعٍ خَبِيثٍ، يَدْعُو إِلَىٰ خِلَافِ مَا كَانَ عَلَيْهِ أَشْيَاخُنَا وَأَئِمَّتُنَا، عَجَّلَ اللَّهُ لَهُ الْعُقُوبَةَ، وَأَخْرَجَهُ مِنْ جِوَارِنَا، فَإِنَّهُ بَلِيَّةٌ عَلَىٰ مَنِ ابْتُلِيَ بِهِ، فَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي عَدَلَ عَنَّا مَا ابْتَلَاهُ بِهِ وَالَّذِي عِنْدَنَا، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ أَنَّا نُؤْمِنُ بِحَدِيثِ مُجَاهِدٍ وَنَقُولُ بِهِ عَلَىٰ مَا جَاءَ، وَنُسْلِمُ الْحَدِيثَ وَغَيْرَهُ مِمَّا يُخَالِفُ فِيهِ الْجَهْمِيَّةَ مِنَ الرُّؤْيَةِ وَالصِّفَاتِ، وَقُرْبِ مُحَمَّدٍ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْهُ، وَقَدْ كَانَ كَتَبَ إِلَيَّ هَذَا الْعَجَمِيُّ التِّرْمِذِيُّ كِتَابًا بِخَطِّهِ، وَدَفَعْتُهُ إِلَىٰ أَبِي بَكْرٍ الْمَرُّوذِيِّ، وَفِيهِ: أَنَّ مَنْ قَالَ بِحَدِيثِ مُجَاهِدٍ فَهُوَ جَهْمِيٌّ ثَنَوِيٌّ، وَكَذَبَ الْكَذَّابُ الْمُخَالِفُ لِلْإِسْلَامِ، فَحَذَرُوا عَنْهُ، وَأَخْبِرُوا عَنِّي أَنَّهُ مَنْ قَالَ بِخِلَافِ مَا كَتَبْتُ بِهِ فَهُوَ جَهْمِيٌّ، فَلَوْ أَمْكَنَنِي لَأَقَمْتُهُ لِلنَّاسِ، وَنَادَيْتُ عَلَيْهِ حَتَّىٰ أُشْهِرَهُ لِيَحْذَرَ النَّاسَ مَا قَدْ أَحْدَثَ فِي الْإِسْلَامِ، فَهَذَا دِينِي الَّذِي أَدِينُ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ بِهِ، أَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يُمِيتَنَا وَيُحْيِينَا عَلَيْهِ وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ دَاوُدَ الْقَنْطَرِيُّ: " أَمَّا بَعْدُ: فَعَلَيْكُمْ بِالتَّمَسُّكِ بِهَدْيِ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ أَحْمَدَ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ حَنْبَلٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَإِنَّهُ إِمَامُ الْمُتَّقِينَ لِمَنْ بَعْدَهُ، وَطَعْنٌ لِمَنْ خَالَفَهُ، وَأَنَّ هَذَا التِّرْمِذِيَّ الَّذِي طَعَنَ عَلَىٰ مُجَاهِدٍ بِرَدِّهِ فَضِيلَةَ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُبْتَدِعٌ، وَلَا يَرُدُّ حَدِيثَ مُحَمَّدِ بْنِ فُضَيْلٍ، عَنْ لَيْثٍ عَنْ مُجَاهِدٍ **﴿عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا﴾** [الإسراء: ٧٩] قَالَ: يُقْعِدُهُ مَعَهُ عَلَىٰ الْعَرْشِ «إِلَّا جَهْمِيٌّ يُهْجَرُ، وَلَا يُكَلَّمُ وَيُحَذَّرُ عَنْهُ، وَعَنْ كُلِّ مَنْ رَدَّ هَذِهِ الْفَضِيلَةَ وَأَنَا أَشْهَدُ عَلَىٰ هَذَا التِّرْمِذِيِّ أَنَّهُ جَهْمِيٌّ خَبِيثٌ، لَقَدْ أَتَىٰ عَلَىٰ أَرْبَعٍ وَثَمَانُونَ سَنَةً، مَا رَأَيْتُ أَحَدًا رَدَّ هَذِهِ الْفَضِيلَةَ إِلَّا جَهْمِيٌّ، وَمَا أَعْرِفُ هَذَا وَلَا رَأَيْتُهُ عِنْدَ مُحَدِّثٍ قَطُّ، وَأَنَا مُنْكِرٌ لِمَا أَتَىٰ بِهِ مِنَ الطَّعْنِ عَلَىٰ مُجَاهِدٍ، وَرَدَّ فَضِيلَةَ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُقْعِدُ مُحَمَّدًا صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَىٰ الْعَرْشِ، وَأَنَّهُ مَنْ قَالَ بِحَدِيثِ مُجَاهِدٍ، فَهُوَ جَهْمِيٌّ ثَنَوِيٌّ، لَا يُدْفَنُ فِي مَقَابِرِ الْمُسْلِمِينَ، وَكَذَبَ عَدُوُّ اللَّهِ وَكُلُّ مَنْ قَالَ بِقَوْلِهِ، فَهُوَ عِنْدَنَا جَهْمِيٌّ يُهْجَرُ وَلَا يُكَلَّمُ، وَيُحَذَّرُ عَنْهُ» ، وَقَدْ حَدَّثَنِي آدَمُ بْنُ أَبِي إِيَاسٍ، عَنْ شُعْبَةَ بْنِ الْحَجَّاجِ عَنْ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ عِمْرَانَ أَنَّهُ قَالَ: سَمِعْتُ مُجَاهِدًا يَقُولُ: «صَحِبْتُ ابنَ عُمَرَ لِأَخْدُمَهُ، فَكَانَ هُوَ يَخْدُمُنِي» فَمِثْلُ هَذَا يَرُدُّ حَدِيثَهُ؟ وَقَدْ قَالَ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِيَ الَّذِي بُعِثْتُ فِيهِمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ» ، فَقَدْ سَبَقَتْ شَهَادَةُ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِمُجَاهِدٍ رَحِمَهُ اللَّهُ وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ الْحَرْبِيُّ: الَّذِي نَعْرِفُ وَنَقُولُ بِهِ وَنَذْهَبُ إِلَيْهِ: أَنَّ مَا سَبِيلُ مَنْ طَعَنَ عَلَىٰ مُجَاهِدٍ وَخَطَّأَهُ إِلَّا الْأَدَبُ وَالْحَبْسُ .

حَدَّثَنَا هَارُونُ بْنُ مَعْرُوفٍ، عَنِ ابْنِ فُضَيْلٍ، عَنْ لَيْثٍ، عَنْ مُجَاهِدٍ **﴿عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا﴾** [الإسراء: ٧٩] قَالَ: يُقْعِدُهُ عَلَى الْعَرْشِ " وَإِنِّي لَأَرْجُو أَنْ تَكُونَ مَنْزِلَتُهُ عِنْدَ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَكْثَرَ مِنْ هَذَا، وَمَنْ رَدَّ عَلَى مُجَاهِدٍ مَا قَالَهُ مِنْ قُعُودِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى الْعَرْشِ وَغَيْرَهُ، فَقَدْ كَذَبَ، وَلَا أَعْلَمُ أَنِّي رَأَيْتُ هَذَا التِّرْمِذِيَّ الَّذِي يُنْكِرُ حَدِيثَ مُجَاهِدٍ قَطُّ فِي حَدِيثٍ وَلَا غَيْرِ حَدِيثٍ. وَقَالَ أَبُو دَاوُدَ السِّجِسْتَانِيُّ: أَرَى أَنْ يُجَانَبَ كُلُّ مَنْ رَدَّ حَدِيثَ لَيْثٍ، عَنْ مُجَاهِدٍ: يُقْعِدُهُ عَلَى الْعَرْشِ "، وَيُحَذَّرُ عَنْهُ، حَتَّى يُرَاجِعَ الْحَقَّ، مَا ظَنَنْتُ أَنَّ أَحَدًا يُذَكَّرُ بِالسُّنَّةِ يَتَكَلَّمُ فِي هَذَا الْحَدِيثِ إِلَّا إِنَّا عَلِمْنَا أَنَّ الْجَهْمِيَّةَ تُنْكِرُهُ مِنْ جِهَةِ إِثْبَاتِ الْعَرْشِ، فَإِنَّهُمْ يُنْكِرُونَ أَمْرَ الْعَرْشِ، وَيَقُولُونَ: الْعَرْشُ عَظَمَةٌ، مَعَ أَنَّهُمْ لَمْ يُنْكِرُوا مِنْهُ فَضِيلَةَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَأَنَّ هَذَا التِّرْمِذِيَّ رَجُلٌ لَا أَعْرِفُهُ وَرَأَيْتُ مَنْ عِنْدِي مِنْ أَصْحَابِنَا، يَذْكُرُونَ أَنَّهُمْ لَا يَعْرِفُونَهُ فِي الطَّلَبِ، وَلَا عَرَفْتُهُ أَنَا، وَمُجَاهِدٌ كَانَتْ لَهُ جَلَالَةٌ عِنْدَ أَصْحَابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عِنْدَ ابْنِ عَبَّاسٍ وَابْنِ عُمَرَ، يَأْخُذُ لَهُ بِالرِّكَابِ، أَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يَمُنَّ عَلَيْنَا، وَعَلَيْكُمْ بِلُزُومِ السُّنَّةِ، وَالِاقْتِدَاءِ بِالسَّلَفِ الصَّالِحِ، بِأَبِي عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَإِنَّهُ أَوْضَحَ مِنْ هَذِهِ الْأُمُورِ الْمُحْدَثَاتِ مَا هُوَ كِفَايَةٌ لِمَنِ اقْتَدَى بِهِ. قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ السُّلَمِيُّ: كُلُّ مَنْ ظَنَّ أَوْ تَوَهَّمَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمْ يَسْتَوْجِبْ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ هَذِهِ الْمَنْزِلَةَ فِي حَدِيثِ مُجَاهِدٍ فَهُوَ عِنْدَنَا جَهْمِيٌّ، وَإِنَّ هَذِهِ الْمُصِيبَةَ عَلَى أَهْلِ الْإِسْلَامِ أَنْ يَذْكُرَ أَحَدٌ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَلَا يَقْدُمُوا عَلَيْهِ بِأَجْمَعِهِمْ، وَلَوْلَا أَنَّ أَبَا بَكْرٍ الْمَرْوَذِيَّ رَحِمَهُ اللَّهُ اجْتَهَدَ فِي هَذَا لَخِفْتُ أَنْ يَنْزِلَ بِنَا وَبِمَنْ يَقْصُرُ عَنْ هَذَا الضَّالِّ الْمُضِلِّ عُقُوبَةٌ، فَإِنَّهُ مِنْ شَرِّ الْجَهْمِيَّةِ مَا يُبَالِي مَا تَكَلَّمَ بِهِ، قَالَ: لَيْسَ هَذَا عَرْشَ رَبِّ الْعَالَمِينَ، إِنَّمَا هُوَ مِثْلُ عَرْشِ بِلْقِيسَ، وَعَرْشٌ مِنَ الْعُرُوشِ شَبَّهَ عَرْشَ الْآدَمِيِّينَ بِعَرْشِ الرَّحْمَنِ عَزَّ وَجَلَّ، لَا يَرْعَوِي عَنْ دَفْعِ فَضِيلَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَكَيْفَ بِمَنْ بَعْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لَا شَكَّ فِي تَجَهُّمِهِ، وَلَا نَقْدِرُ عَلَى أَكْثَرَ مِنَ الدُّعَاءِ وَالتَّحْذِيرِ وَتَبْيِينِ أَمْرِهِ، وَنُعَادِي مَنْ يَنْصُرُهُ، أَوْ يَمِيلُ إِلَى مَنْ يَنْصُرُهُ بِتَكْفِيرِ مُجَاهِدٍ، وَمَنْ قَالَ بِقَوْلِ مُجَاهِدٍ فِي **﴿عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا﴾** [الإسراء: ٧٩] فَإِنَّهُ يُقْعِدُهُ عَلَى الْعَرْشِ، فَقَالَ: هَذَا كُفْرٌ، وَمَنْ قَالَ: بِهِ فَهُوَ كَافِرٌ، سَمِعْتُهُ يَقُولُ ذَلِكَ وَقَالَ أَبُو الْعَبَّاسِ هَارُونُ بْنُ الْعَبَّاسِ الْهَاشِمِيُّ: مَنْ رَدَّ حَدِيثَ مُجَاهِدٍ فَهُوَ عِنْدِي جَهْمِيٌّ، وَمَنْ رَدَّ فَضْلَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَهُوَ عِنْدِي زِنْدِيقٌ لَا يُسْتَتَابُ، وَيُقْتَلُ، لِأَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ فَضَّلَهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، وَقَدْ رُوِيَ عَنِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، قَالَ: «لَا أُذْكَرُ إِلَّا ذُكِرْتَ مَعِي» وَيُرْوَى فِي قَوْلِهِ **﴿لَعَمْرُكَ﴾** [الحجر: ٧٢] قَالَ: بِحَيَاتِكَ، وَيُرْوَى أَنَّهُ قَالَ: «يَا مُحَمَّدُ، لَوْلَاكَ مَا خَلَقْتُ آدَمَ» ، فَاحْذَرُوا مِنْ رَدِّ حَدِيثِ مُجَاهِدٍ، وَقَدْ بَلَغَنِي عَنْهُ أَخْزَاهُ اللَّهُ أَنَّهُ يُنْكِرُ أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَنْزِلُ، فَمَنْ رَدَّ هَذَا

وَحَدِيثَ مُجَاهِدٍ فَلَا يُكَلَّمُ، وَلَا يُصَلَّىٰ عَلَيْهِ. وَقَالَ أَبُو عَلِيٍّ إِسْمَاعِيلُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ الْهَاشِمِيُّ: أَنَّ هَذَا الْمَعْرُوفَ بِالتِّرْمِذِيِّ عِنْدَنَا مُبْتَدِعٌ جَهْمِيٌّ، وَمَنْ رَدَّ حَدِيثَ مُجَاهِدٍ، فَقَدْ دَفَعَ فَضْلَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَمَنْ رَدَّ فَضِيلَةَ الرَّسُولِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَهُوَ عِنْدَنَا كَافِرٌ مُرْتَدٌّ عَنِ الْإِسْلَامِ، وَقَدْ كَانَ وَرَدَ عَلَيَّ كِتَابٌ مِنْهُ فِيهِ: أَنَّ الْعَرْشَ سَرِيرٌ مِثْلُ عَرْشِ بِلْقِيسَ، وَعَرْشِ سَبَأٍ، وَعَرْشِ يُوسُفَ، وَعَرْشِ إِبْلِيسَ، فَأَنْكَرْتُ هَذَا وَغَيْرَهُ مِنْ قَوْلِهِ، وَأَنْكَرَهُ أَهْلُ الْعِلْمِ وَالْإِسْلَامِ إِنْكَارًا شَدِيدًا، وَالَّذِي نَدِينُ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ بِهِ حَدِيثُ مُجَاهِدٍ: يُقْعِدُهُ عَلَىٰ الْعَرْشِ، فَمَنْ رَدَّ هَذَا فَهُوَ عِنْدَنَا جَهْمِيٌّ كَافِرٌ، وَبَلَغَنِي أَنَّهُ قَالَ: الْهَاشِمِيُّونَ مَعِي عَلَىٰ مِثْلِ قَوْلِي، وَكَذَبَ، أَخْزَاهُ اللَّهُ، مَا هَاشِمِيٌّ يَدْفَعُ فَضِيلَةً لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذْ كَانَ ذَلِكَ فَخْرَةٌ لَهُ، وَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ مِنَ الْهَاشِمِيِّينَ فَيَجِبُ التَّفْتِيشُ عَنْهُ وَالنَّظَرُ فِي أَمْرِهِ، وَلَا أَعْرِفُهُ، وَلَا رَأَيْتُهُ قَطُّ مِنْ حَيْثُ أَعْرِفُهُ، وَلَقَدْ كَانَ عِنْدَ صَالِحِ بْنِ عَلِيٍّ الْهَاشِمِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بِالْمَدِينَةِ، فَقَرَّبَهُ وَأَدْنَاهُ، ثُمَّ إِنَّهُ ظَهَرَ مِنْهُ الْعَدَاءُ لِلَّهِ عَلَىٰ مَا حَبَسَهُ عَلَيْهِ، وَأَطَالَ حَبْسَهُ مِنْ دَفْعِهِ هَذَا الْحَدِيثَ وَغَيْرَهُ، مِمَّا أَطْلَقَ بِهِ لِسَانَهُ، وَوَضَعَ فِيهِ الْكُتُبَ، وَذَكَرَ أَنَّ بَيْعَةَ أَبِي مُسْلِمٍ أَصَحُّ مِنْ بَيْعَةِ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَوَضَعَ لِآلِ أَبِي طَالِبٍ كِتَابًا يَذْكُرُ فِيهِ أَنَّ الْعَلَوِيَّةَ أَحَقُّ بِالدَّوْلَةِ مِنْ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ، يَتَقَرَّبُ بِذَلِكَ إِلَيْهِمْ، وَقَدْ أَرَادَ صَالِحُ بْنُ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حِينَ حَبَسَهُ أَرَادَ أَنْ يَقْدَمَ عَلَيْهِ حَتَّىٰ أَخْرَجَهُ ابْنِي فِي جَوْفِ اللَّيْلِ، فَسَمِعْتُ صَالِحَ بْنَ عَلِيٍّ يَذْكُرُ ذَلِكَ كُلَّهُ عَنْهُ وَيَضَعُهُ، فَيَنْبَغِي لِسَامِعِ ذِكْرِهِ أَنْ يَتَّقِيَ اللَّهَ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَيُحَذِّرَ عَنْهُ النَّاسَ، وَيَتَبَيَّنُ عَلَيْهِ مَا هُوَ فِيهِ. وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ عِمْرَانَ الْفَارِسِيُّ الزَّاهِدُ: مَا ظَنَنْتُ أَنَّهُ يَكُونُ فِي الْمُسْلِمِينَ، وَلَا فِي الْمُؤْمِنِينَ الصَّادِقِينَ، وَلَا فِي الْعُلَمَاءِ الْمُتَفَقِّهِينَ، وَلَا فِي الْعَارِفِينَ الْعَابِدِينَ، وَلَا فِي الضُّلَّالِ الْمُبْتَدِعِينَ أَحَدٌ يَسْتَحِلُّ فِي عَقْدِ دِيَانَتِهِ أَوْ بِدْعَتِهِ الطَّعْنَ عَلَىٰ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَرَدَّ فَضِيلَةً فَضَّلَهُ اللَّهُ بِهَا، وَخَصَّهُ بِهَا، كَمَا خُصَّ بِالزِّيَارَةِ إِلَيْهِ حَيًّا قَبْلَ أَنْ يَمُوتَ، وَنَادَىٰ بِذَلِكَ فِي أَسْمَاعِ الْخَلَائِقِ، فَقَالَ: ﴿**سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ**﴾ [الإسراء: ١] ثُمَّ سَارَ بِهِ الْمَلَكُ حَتَّىٰ انْتَهَىٰ بِهِ إِلَىٰ مُنْتَهَىٰ مُنْقَطِعِ عِلْمِ أَهْلِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، فَقَالَ: ﴿**وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى**﴾ [النجم: ١٤] فَانْتَهَىٰ الْعِلْمُ إِلَيْهِمَا مِنْ قِبَلِ الْمَلَائِكَةِ خَاصَّةً دُونَ وَلَدِ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ لِأَنَّ بَنِي آدَمَ قَدْ شَغَلَهُمُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِأَنْفُسِهِمْ عَنِ النَّظَرِ فِي مَلَكُوتِ الْأَعْلَىٰ، فَقَالَ: ﴿**وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ**﴾ [الذاريات: ٢١] وَقَدْ حَدَّثَنِي هَارُونُ بْنُ مَعْرُوفٍ، قَالَ: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ فُضَيْلٍ، عَنْ لَيْثٍ، عَنْ مُجَاهِدٍ فِي قَوْلِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿**عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا**﴾ [الإسراء: ٧٩] ، قَالَ: «يُجْلِسُهُ عَلَىٰ الْعَرْشِ» . فَبَلَغَنِي أَنَّ مَسْلُوبًا مِنَ الْجُهَّالِ أَنْكَرَ ذَلِكَ، فَنَظَرْتُ فِي إِنْكَارِهِ، فَإِنْ كَانَ قَصَدَ مُجَاهِدًا، فَابْنَ عَبَّاسٍ قَصَدَ،

وَإِنْ كَانَ لِابْنِ عَبَّاسٍ قَصَدَ، فَعَلَىٰ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَدَّ، وَإِنْ كَانَ عَلَىٰ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَدَّ، فَبِاللَّهِ كَفَرَ، وَإِنِّي أَسْأَلُ اللَّهَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَهُ مَنْ أَنْكَرَ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَقًّا، أَوْ جَحَدَ لَهُ فَضْلًا، أَوْ غَاضَهُ شَيْءٌ مِنْ فَضْلِهِ، أَنْ لَا يُنِيلَهُ شَفَاعَتَهُ، وَأَنْ لَا يَحْشُرَهُ فِي زُمْرَتِهِ، وَأَنْ يَحْتَجِبَ عَنْهُ كَمَا وَعَدَ الْجَهْمِيَّةَ فِي كِتَابِهِ مِنَ الِاحْتِجَابِ عَنْهُمْ، فَإِنَّهُ قَالَ: ﴿**كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُو الْجَحِيمِ ثُمَّ يُقَالُ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ**﴾ [المطففين: ١٦] " .

وتحت عنوان : " فِي المقام المحمود لنبيِّنا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ " جاء في إبطال التَّأويلات " للقاضي أبي يعلىٰ العديد من الرِّوايات في عقيدة الإجلاس المزعومة الباطلة المنكرة ... من ذلك:

ناه أَبُو الْقَاسِمِ قَالَ: نا أَبُو الْفَتْحِ بْنُ أَبِي الْقَوَارِيرِ، نا مُحَمَّدُ بْنُ جَعْفَرٍ أَبُو الطَّيِّبِ الْكَاتِبُ، نا يَزِيدُ بْنُ مُحَمَّدٍ الْبَادَا قَالَ: نا أَبُو عُثْمَانَ سَعِيدٌ أَخُو إِبْرَاهِيمَ الْقَارِئِ قَالَ: نا إِسْمَاعِيلُ بْنُ أَبِي مَسْعُودٍ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ إِدْرِيسَ، عَنْ عُبَيْدِ اللَّهِ، عَنْ نَافِعٍ، عَنِ ابْنِ عُمَرَ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿**عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا**﴾ قَالَ: يُجْلِسُهُ مَعَهُ عَلَىٰ السَّرِيرِ!!!

وَناهُ أَبُو الْقَاسِمِ قَالَ: عَلِيُّ بْنُ عُمَرَ بْنِ عَلِيٍّ التَّمَّارُ قَالَ: أَبُو بَكْرٍ عُمَرُ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ أَبِي مَعْمَرٍ، نا يُوسُفُ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ حَرْبِ بْنِ الْحَكَمِ الأَشْعَرِيُّ الْبَصْرِيُّ قَالَ: حَدَّثَنِي أَبِي أَحْمَدُ بْنُ حَرْبٍ، عَنْ هِشَامِ بْنِ عُرْوَةَ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنِ الْمَقَامِ الْمَحْمُودِ فَقَالَ: " وَعَدَنِي رَبِّيَ الْقُعُودَ عَلَىٰ الْعَرْشِ" .

ونا أَبُو الْقَاسِمِ، عَلِيُّ بْنُ عُمَرَ، نا عُمَرُ بْنُ أَحْمَدَ، نا يُوسُفُ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ حَرْبٍ، نا مُوسَىٰ بْنُ إِسْمَاعِيلَ أَبُو سَلَمَةَ الْمِنْقَرِيُّ، نا حَمَّادُ بْنُ سَلَمَةَ، عَنْ ثَابِتٍ، عَنْ أَنَسٍ قَالَ: سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنِ الْمَقَامِ الْمَحْمُودِ فَقَالَ لِي: " الْقُعُودُ عَلَىٰ الْعَرْشِ" .

ونا أَبُو الْقَاسِمِ، نا عَلِيٌّ، نا عُمَرُ، نا يُوسُفُ، نا أَزْهَرُ بْنُ سَعْدٍ السَّمَّانُ، قَالَ: ابْنُ عَوْنٍ، عَنْ نَافِعٍ، عَنِ ابْنِ عُمَرَ قَالَ: قَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ: سَأَلْتُ النَّبِيَّ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَمَّا أَوْعَدَهُ رَبُّهُ جَلَّ اسْمُهُ فَقَالَ: " أَوْعَدَنِي الْمَقَامَ الْمَحْمُودَ وَهُوَ الْقُعُودُ عَلَىٰ الْعَرْشِ" .

ونا أَبُو الْقَاسِمِ قَالَ: نا إِبْرَاهِيمُ بْنُ مُحَمَّدٍ، نا أَبُو دَاوُدَ، نا ابْنُ أَبِي صَفْوَانَ الثَّقَفِيُّ، وَحَجَّاجُ بْنُ أَبِي يَعْقُوبَ قَالا: نا يَحْيَىٰ بْنُ أَبِي كَثِيرٍ، نا سَلْمُ بْنُ جَعْفَرٍ، نا سَعِيدٌ الْجُرَيْرِيُّ، نا سَيْفٌ السَّدُوسِيُّ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَلامٍ قَالَ: " إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ جِيءَ بِنَبِيِّكُمْ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأُقْعِدَ بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ تَعَالَىٰ عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ " قَالَ: فَقُلْتُ: يَا أَبَا مَسْعُودٍ إِذَا كَانَ عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ أَلَيْسَ هُوَ مَعَهُ؟ قَالَ: وَيْلَكُمْ هَذَا أَقَرُّ حَدِيثٍ فِي الدُّنْيَا لِعَيْنِي " قَالَ

حَجَّاجٌ فِي حَدِيثِهِ: " إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ نَزَلَ الْجَبَّارُ جَلَّ اسْمُهُ عَلَىٰ عَرْشِهِ، وَقَدَمَاهُ عَلَىٰ الْكُرْسِيِّ، وَيُؤْتِي بِنَبِيِّكُمْ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَيَقْعُدُ بَيْنَ يَدَيْهِ عَلَىٰ الْكُرْسِيِّ " فَقَالُوا لِلْحَسَنِ: إِذَا كَانَ عَلَىٰ الْكُرْسِيِّ هُوَ مَعَهُ؟ قَالَ: نَعَمْ، وَيْلَكُمْ هُوَ مَعَهُ هُوَ مَعَهُ اعْلَمْ أَنَّهُ غَيْرُ مُمْتَنِعٍ حَمْلُ هَذَا الْخَبَرِ عَلَىٰ ظَاهِرِهِ، وَأَنَّهُ يُجْلِسُهُ مَعَهُ عَلَىٰ عَرْشِهِ وَسَرِيرِهِ بِمَعْنَىٰ يُدْنِيهِ مِنْ ذَاتِهِ وَيُقَرِّبُهُ مِنْهَا .

وقد قَالَ أَبُو بكر الخلال: ذكر عبد اللَّه بْن أحمد، أَنَّهُ سمع حديث فضيل، عَن ليث، عَن مجاهد: **﴿عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا﴾** فذاكرت أَبِي ، فَقَالَ: مَا وقع إلي بعلو، وجعل كأَنَّه يتلهّف يَعْنِي إذ لَمْ يقع إِلَيْهِ بعلو.

وَذَكَرَ أَبُو بكر المروذي فِي مختصر كتاب الرَّد عَلَىٰ من ردَّ حديث مجاهد، سألت أَبَا عبد اللَّه عَن الأحاديث الَّتِي تردّها الجهميَّة فِي الصِّفات والرُّؤية والإسراء وقصَّة العرش، فصححها أَبُو عبد اللَّه وَقَالَ: قد تلقَّتها الأمَّة بالقبول تمرُّ الأخبار كَمَا جاءت.

ونظر أَبُو عبد اللَّه فِي كتاب التِّرمذي، وقد طعن عَلَىٰ حديث مجاهد فِي قوله: **﴿عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا﴾** فَقَالَ: لَمْ هَذَا عَن مجاهد وحده هَذَا عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، وقد خرجت أحاديثاً فِي هَذَا، وكتبها بخطِّه وقرأها.

وَقَالَ ابن عمير: سمعت أحمد بْن حنبل سئل عَن حديث مجاهد يقعد محمَّداً عَلَىٰ العرش فَقَالَ: قد تلقَّته العلماء بالقبول، نسلم الخبر كَمَا جاء وظاهر هَذَا أَنَّهُ أخذ بظاهر الحديث، إذ ليس فِي حمله عَلَىٰ ظاهره مَا يحيل صفاته لأنَّا لا نقول أَنَّهُ فِي جهة محدودة، بل نطلق هَذِهِ الصِّفة كَمَا جاز وصفه بأنَّه عَلَىٰ العرش، لا فِي جهة محدودة، كذلك جاز أن يقرب من ذاته لا فِي جهة محدودة، ويشهد لَهُ قوله تَعَالَىٰ: **﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ﴾** ...

ونظرت فِي جزء عتيق من كتب أَبِي الفضل التَّميمي ترجمته مختصر الرَّد عَلَىٰ من ردَّ حديث مجاهد وغيره فِي المقام المحمود جمع أَبِي بكر المروذي فروىٰ بِإِسْنَادِهِ عَن ابن مسعود قَالَ: قَالَ رَسُول اللَّهِ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " لو كنت متخذا خليلا، لاتخذت ابن أَبِي قحافة خليلا، ولكن خلة الإسلام أفضل " ثُمَّ قرأ: **﴿عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا﴾** ، قَالَ: يجلسه عَلَىٰ العرش.

وبإسناده عَن مجاهد عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قوله عَزَّ وَجَلَّ: **﴿عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا﴾** قَالَ: يقعده عَلَىٰ العرش.

وبإسناده عَن مجاهد فِي قوله: ﴿عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا﴾ قَالَ: يجلسه عَلَىٰ العرش، وهذه فضيلة للنَّبي صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فهو كافر من ردَّها.

ولقد قَالَ سعيد بْن عبد الرَّحْمَنِ بْن أبزىٰ: قلت لأبي: لو رأيت رجلاً سب أَبَا بكر مَا كنت صانعا به؟ قَالَ: أقتله، قلت: فعمر؟ قَالَ: أقتله فهذا لأبي بكر وعمر فكيف بمن ردَّ فضيلة النَّبي صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

.

وبإسناده عَن غالب بْن عبيد اللَّه العقيلي قَالَ: حَدَّثَنِي المكيون: أن اللَّه تبارك وتعالىٰ يغضب يوم القيامة غضبا لَمْ يغضب مثله، قَالَ: فيقوم نبينا صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيثني عَلَىٰ اللَّه بما هُوَ أهله قَالَ: فيقول اللَّه لَهُ: إدنه، قَالَ: ثُمَّ يغضب تبارك وتعالىٰ غضبا لَمْ يغضب مثله فيقوم نبيُّنا فيثني عَلَىٰ اللَّه بما هُوَ أهله، فيقول اللَّه لَهُ: إدنه، فلا يزال يقول لَهُ إدنه حتىٰ يجلسه معه عَلَىٰ العرش ، قَالَ رَسُول اللَّهِ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " فأنظر إِلَىٰ جبريل قائماً فأقول: يَا ربّ إِنَّ هَذَا - يَعْنِي جبريل - جاءني منك برسالات فيقول اللَّه عَزَّ وَجَلَّ: صدق" .

وَذَكَرَ أَبُو عبد اللَّه بْن بطة فِي كتاب الإبانة، قَالَ أَبُو بكر أحمد بْن سلمان النّجاد: لو أَنَّ حالفاً حلف بالطَّلاق ثلاثاً أن اللَّه تَعَالَىٰ: يقعد محمَّداً صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ معه عَلَىٰ العرش واستفتاني فِي يمينه لقلت لَهُ: صدقت فِي قولك وبررت فِي يمينك، وامرأتك عَلَىٰ حالها، فهذا مذهبنا وديننا واعتقادنا، وعليه نشأنا، ونحن عَلَيْهِ إِلَىٰ أن نموت إن شاء اللَّه فلزمنا الإنكار عَلَىٰ من ردَّ هَذِهِ الفضيلة الَّتِي قالتها العلماء وتلقّوها بالقبول، فمن ردَّها فهو من الفرق الهالكة.

وَذَكَرَ أَبُو بكر الخلال فِي كتاب السنة قَالَ: أخبرني الحسن بْن صالح العطَّار، عَن محمَّد بْن علي السِّراج قَالَ: رأيت النَّبي صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأبو بكر عَن يمينه، وعمر عَن يساره، فتقدَّمت إِلَىٰ النَّبي صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقمت عَن يسار عمر، فقلت: يَا رَسُول اللَّهِ إني أريد أن أقول شيئا فأقبل علي فَقَالَ: قل، فقلت : إِنَّ التِّرمذي يقول: إِنَّ اللَّه عَزَّ وَجَلَّ لا يقعدك معه عَلَىٰ العرش، ونحن نقول يقعدك معه عَلَىٰ العرش، فكيف تقول يَا رَسُول اللَّهِ؟ فأقبل عليّ شبه المغضب وَهُوَ يشير بيده اليمنىٰ عاقدا بها أربعين وَهُوَ يقول: بلىٰ والله بلىٰ والله بلىٰ والله، يقعدني معه، ثُمَّ انتبهت.

قَالَ: وسمعت أَبَا بكر بْن صدقة يقول: حَدَّثَنِي أَبُو القسم بْن الجبلي، عَنْ عَبْدِ اللَّه بْن إسماعيل صاحب النرسي قَالَ: ثُمَّ لقيت عبد اللَّه بْن إسماعيل فحدَّثني قَالَ: رأيت النَّبي صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي النَّوم فَقَالَ لي: هَذَا التِّرمذي ينكر فضليتي.

فإن قِيلَ: فقد رَوَىٰ أَنَّهُ لما نزل قوله: ﴿**عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا**﴾ قالوا: يَا رَسُول اللَّهِ وما المقام المحمود؟ قَالَ: " هُوَ الشَّفاعة " .

قيل: الرِّواية المشهور فِي تفسير هَذَا أَنَّهُ الجلوس عَلَىٰ العرش، رَوَاهُ ابن عمر وابن عباس وابن مسعود وعائشة، وقد تقدَّم أسانيد هَذِهِ الأحاديث، والمشهور فِي الرِّواية أولىٰ ممَّا شذ منها، وعلىٰ أَنَّهُ لا يمتنع أَنْ يَكُونَ المقام المحمود: الشفاعة والقعود عَلَىٰ العرش، لأَنَّ القصد من ذلك علو المنزلة

فإن قِيلَ: فتفسيره النبي صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أولىٰ من قول مجاهد قيل: لَمْ نعول فِي هَذَا عَلَىٰ قول مجاهد وحده، وقد روينا ذلك مفسرا عَنِ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي حديث ابن عمر وعائشة وابن مسعود وابن عباس وقول مجاهد فِي ذلك رجحان فإن قِيلَ: قد قَالَ اللَّه: ﴿**لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لابْتَغَوْا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلا**﴾ فأخبر أن العرش لا يصل إِلَيْهِ أحد بالبدن، وإنَّما يصل إِلَيْهِ بالأعمال قيل: ذكر ابن سلام عَن قتادة معناه: إِذَا يعرفوا لَهُ فضله عليهم ولابتغوا إِلَيْهِ مَا يقِّربهم إِلَيْهِ وَقَالَ غيره معناه: لطلبوا إِلَيْهِ الوسيلة والقربة، وَهَذَا يدلُّ عَلَىٰ أن المقصود بالآية غير مَا أرادوه من أَنَّهُ لا يصل إِلَيْهِ أحد، وإنَّما المراد به المعنىٰ آخر وَهُوَ التَّقرُّب إِلَيْهِ بالطَّاعات فإن قِيلَ: فقوله: " يقعده عَلَىٰ العرش " من أين لكم أَنَّهُ عرش الرَّحْمَنِ؟ وَقَدْ ذَكَرَ اللَّه تَعَالَىٰ عرش بلقيس.

قيل: هَذَا لا يصحُّ، لأَنَّ فِي خبر ابن عمر: " يجلسه معه عَلَىٰ السَّرير " وَفِي حديث ابن مسعود: " يقعده عَلَىٰ كرسيه " فقيل لَهُ: إِذَا كان عَلَىٰ كرسيه أليس هُوَ معه؟ فقال: " ويلكم هَذَا أقرّ حديث لعيني " وعلىٰ أَنَّهُ ذكر العرش بالألف واللام، وهناك عرش معهود، وَهُوَ عرش الرَّحْمَنِ بقوله تَعَالَىٰ: {وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ} وقوله: ﴿**الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى**﴾ ، والألف واللام ينصرفان إِلَىٰ المعهود فلم يصح هَذَا التَّأويل فإن قِيلَ: قوله: " يقعده " معناه يرفعه أرفع المقاعد عنده، وَهُوَ معه بالنُّصرة والمعونة والمقاعد المقرّبة من اللَّه تَعَالَىٰ كَمَا قَالَ: ﴿**لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا**﴾ ، وَكَمَا قَالَ: ﴿**إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ**﴾ عَلَىٰ مَعْنَىٰ: النصرة والمعونة قيل: هَذَا غلط لوجوه :

أَحَدُهَا: أنَّ الخبر أفاد رفعه عَلَىٰ صفة وَهُوَ القعود عَلَىٰ العرش والكرسي.

وَالثَّانِي : أَنَّهُ قَالَ: " يقعده معه " ولفظة " مع " فِي اللغة للمقاربة.

الثَّالِث: أَنَّهُ لَمْ يزل ناصراً لَهُ ومعيناً ورافعاً، فوجب حمل هَذِهِ الفضيلة عَلَىٰ فائدة مجدَّدة تختصُّ بذلك اليوم.

الرَّابع: أن هَذَا يسقط فائدة التَّخصيص بالنَّبي صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ لأَنَّهُ قد نصر مُوسَىٰ ورفعه وغيره من الأنبياء، فأمَّا قوله: **﴿لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾** ، وقوله: **﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾** ، فإنَّ المراد بذلك النُّصرة، لأَنَّ هناك دلالة حال، وَهُوَ طلب المشركين وخوفهم منهم فبيَّن أَنَّني ناصر لكم عليهم وَهَذَا معدوم ها هنا ، فإن قِيلَ: أليس قد حكىٰ أَبُو محمد بۡن بشار، عَنۡ عَبۡدِ اللَّه بۡن أحمد، عَن أبيه أَنَّهُ كان يعرض عَلَيۡهِ الحديث فيقول فِيهِ: هَذَا رَوَاهُ كذا وكذا رجل يسمِّيهم، فإذا عرض عَلَيۡهِ حديث ضعيف قَالَ لَهُ: اضرب عَلَيۡهِ، فعرض عَلَيۡهِ حديث مجاهد فضعفه فَقَالَ: يَا أبه أضرب عَلَيۡهِ؟ فَقَالَ: لا، هَذَا حديث فِيهِ فضيلة فأجره عَلَىٰ مَا جرىٰ وَلا تضرب عَلَيۡهِ، وظاهر هَذَا أَنَّهُ ضعفه قيل: هَذِهِ حكاية لا يرد بها مَا نص عَلَيۡهِ فِي مواضع.

فإن قِيلَ: فقد ذكر أَبُو بكر النّجاد فيما كتب به إلي أَبُو الحسن بۡن جداء العكبري فِي جزء خرج فِيهِ أحاديث: ومن الفرق الهالكة من أنكر أن اللَّه وعد يَعۡنِي نبيه – أن يقعده المقعد المقرب عنده عَلَىٰ العرش، وَهُوَ المقام المحمود، وَذَكَرَ حديث ابن عباس: " يقعده عَلَىٰ العرش " وحديث عبد اللَّه بۡن سلام وحديث مجاهد، ثُمَّ قَالَ أَبُو بكر: سألت أَبَا محمَّد بۡن صاعد، عَن عبيد اللَّه بۡن عبد اللَّه بۡن عمر، عَن نافع، عَن ابن عمر، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ فِي قوله: **﴿عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا﴾** ، قَالَ: " يقعدني عَلَىٰ العرش " قَالَ: هَذَا حديث موضوع لا أصل لَهُ، وأما حديث يزيد بۡن هارون عَنِ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ فِي قوله: **﴿عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا﴾** ، قَالَ: " يقعدني معه عَلَىٰ العرش " فحديث موضوع لا أصل لَهُ، وأمَّا حديث عاصم، عَن زر، عَن ابن مسعود قَالَ: " إن اللَّه تَعَالَىٰ اتخذ إبراهيم خليلا، وإن صاحبكم خليل اللَّه عَزَّ وَجَلَّ، وإن محمد سيد ولد آدم يوم القيامة، ثُمَّ قرأ : **﴿عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا﴾** فمن زاد غير هَذَا فقد أبطل.

وَقَالَ أَبُو بكر النّجاد: سألت أَبَا بكر الباغندي فَقَالَ: كل هَذِهِ الأحاديث باطلة ليست بمحفوظة، غير حديث مجاهد، وسألت أَبَا إسحاق بۡن جابر، وأبا العبَّاس بۡن سريج، وأبا علي بۡن خيران، وأبا جعفر بۡن الوكيل، وأبا الطيِّب بۡن سلمة وكلّ كتب بيده: إنَّ هَذِهِ الأحاديث لا أصل لَهَا إلا مَا رَوَاهُ ابن فضيل، عَن ليث عَن مجاهد.

قَالَ أَبُو بكر النّجاد: وسمعت ابن صاعد يقول: كتب السُّلطان يسألني عَن من رَوَىٰ هَذِهِ الأحاديث حتىٰ يضربهم بالسِّياط.

قَالَ أَبُو بكر النّجاد: وكتب إلي أَبِي محمَّد بۡن عبدان، وإلىٰ أَبِي يعلىٰ، وإلىٰ أَبِي زكريا بۡن يَحۡيَىٰ السَّاجي، وإلىٰ أحمد بۡن محمد بۡن مكرم، وإلىٰ سهل بۡن نوح البصري، وإلىٰ أَبِي أحمد بۡن محمد المروزي، وإلىٰ

أَبِي العبَّاس بْن السراج، وإلىٰ محمَّد بْن إسحاق بْن خزيمة، وكتبهم عَلَىٰ ألفاظ وجميعها واحد، أنَّ من حدَّث بهذه الأحاديث يستغفر اللَّه عَزَّ وَجَلَّ، فهي باطلة لا أصل لَهَا، إِلَّا مَا حدَّث محمد بْن فضيل، عَن ليث، عَن مجاهد، إِلَّا أَنَّ محمَّد بْن إسحاق بْن خزيمة قَالَ: من رَوَىٰ عَن ابن مسعود، وعن عبد اللَّه بْن عمر فقد رَوَىٰ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الكذب والأباطيل، ومن تعمد رواية الكذب عَنِ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان داخلا فِي وعيد النَّبي صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " من كذب علينا متعمِّداً فليتبوَّأ مقعده من النَّار " وَلا يسع الإمام العادل أن يدع من يروي مثل هَذَا الكذب عَنِ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صراحاً أن يقيم ببلد الإسلام.

قَالَ أَبُو بكر النّجاد: وكلُّ من كتب إلي من المحدِّثين عَلَىٰ هَذَا الشَّرح قَالَ: والذي أقول فيمن رَوَىٰ هَذِهِ الأحاديث: إن كان لا يعلم مصدرها، كان عَلَيْهِ أن يسأل أهل العلم فإذا عرفوه ووقفوه عَلَىٰ مَا ينبغي أن يقول فيها لزمه إنكارها، فمن حدث بها بعد إنكار العلماء دخل فِي قول النَّبي صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " من كذب عليَّ متعمِّداً فليتبوَّأ مقعده من النَّار " قيل: من طعن عَلَىٰ هَذِهِ الأحاديث وأنكرها لا يلزم قبول قوله حتىٰ يبين وجه الطَّعن، وقد روِّينا طرقها وأسانيدها، وقد قَالَ أحمد: لَمْ يرو هَذَا عَن مجاهد وحده عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، وخرج فِي ذلك أحاديث وقرأها عَلَىٰ أصحابه وَهُوَ أعرف بصحَّة الحديث ممَّن تقدَّم ذكره ممن أنكرها، ولأنَّا قد بينَّا أنَّ معناها القُرب من اللَّه تَعَالَىٰ، والقرآن والسُّنَّة يشهدان لذلك بقوله تَعَالَىٰ: {ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ} وحديث الإسراء وأنه " وضع يده بين كفَّيه " وقوله: " عرج بي فلما ظهر لي المستوىٰ أقامني فِي موضع أسمع فِيهِ صريف الأقلام بي يدي الرَّحْمَنِ " فليس فِي روايتها مَا يخالف الأصول...

قَالَ أَبُو إِسْحَاقَ: حَدَّثَنِي عَلِيُّ بْنُ عَبْدِ الصَّمَدِ، وَعَلِيُّ بْنُ الْحَسَنِ، وَمُحَمَّدُ بْنُ الْخَضِرِ مَوْلَىٰ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ، عَنْ عَلِيِّ بْنِ عَبْدِ الصَّمَدِ قَالَ: نا عَلِيُّ بْنُ مُحَمَّدٍ الْفَارِسِيُّ قَالَ: نا يَزِيدُ بْنُ هَارُونَ: قَالَ: أنا يَحْيَىٰ بْنُ سَعِيدٍ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيِّبِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: سُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ قَوْلِ اللَّهِ: **﴿عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا﴾** ، قَالَ: " نَعَمْ، إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ نَادَىٰ مُنَادٍ: أَيْنَ حَبِيبُ اللَّهِ؟ فَأَتَخَطَّىٰ صُفُوفَ الْمَلائِكَةِ حَتَّىٰ أَصِيرَ إِلَىٰ جَانِبِ الْعَرْشِ، ثُمَّ يَمُدُّ يَدَهُ فَيَأْخُذُ بِيَدِي فَيُقْعِدُنِي عَلَىٰ الْعَرْشِ " .

قَالَ: وَحَدَّثَنِي أَبُو بَكْرٍ قَالَ: نا مُحَمَّدُ بْنُ بِشْرِ بْنِ سُوَيْدٍ قَالَ: نا مُحَمَّدُ بْنُ عُقْبَةَ الشَّيْبَانِيُّ، وَأَحْمَدُ بْنُ الْفَرَجِ الطَّائِيُّ قَالا: نا عَبَّادُ بْنُ أَبِي رَوْقٍ قَالَ: سَمِعْتُ أَبِي يُحَدِّثُ، عَنِ الضَّحَّاكِ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: **﴿عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا﴾** ، قَالَ: " يُقْعِدُهُ عَلَى الْعَرْشِ " .

وقال الإمام ابن تيمية في "مجموع الفتاوى" (٤/ ٣٧٤) : " ... إِذَا تَبَيَّنَ هَذَا فَقَدْ حَدَّثَ الْعُلَمَاءُ الْمَرْضِيُّونَ وَأَوْلِيَاؤُهُ الْمَقْبُولُونَ : أَنَّ مُحَمَّداً رَسُولَ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُجْلِسُهُ رَبُّهُ عَلَى الْعَرْشِ مَعَهُ . رَوَى ذَلِكَ محمَّد بْنُ فَضِيلٍ عَنْ لَيْثٍ عَنْ مُجَاهِدٍ ؛ فِي تَفْسِيرِ : **﴿عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا﴾** [الإسراء: ٧٩] .

فمن لم يؤمن بعقيدة إجلاس الرَّسول على العرش مع الله تعالى ... فهو زنديق كما جاء في رواية الخلَّال ، والعياذ بالله تعالى...

وأنا أقول للإمام ابن تيمية ولمن يؤمن بعقيدة الإجلاس على العرش : لا ، لم يُحدِّث العلماءُ المرضيُّون ولا أولياؤه المقبولون بأنَّ محمَّداً صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُجلسه ربُّه على العرش معه ، بل استنكروه واستعظموه ، ورجَّحوا ما جاء في الصَّحيح من تفسير المقام المحمود بالشَّفاعة العظمى ، وهأنذا أسردُ عليك بعضاً من أقوالهم في استنكاره :

قال الإمام أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمَّد بن عبد البر بن عاصم النِّمري القرطبي في " التَّمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد" (١٩/ ٦٤) " ... عَلَى هَذَا أَهْلُ الْعِلْمِ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ : **﴿عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا﴾** [الإسراء: ٧٩] ، أَنَّه الشَّفَاعَةُ ، وَقَدْ رُوِيَ عَنْ مُجَاهِدٍ : أَنَّ الْمَقَامَ الْمَحْمُودَ أَنْ يُقْعِدَهُ مَعَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى الْعَرْشِ ، وَهَذَا عِنْدَهُمْ مُنْكَرٌ !!! فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ ، وَالَّذِي عَلَيْهِ جَمَاعَةُ الْعُلَمَاءِ مِنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ وَمَنْ بَعْدَهُمْ مِنَ الْخَالِفِينَ : أَنَّ الْمَقَامَ الْمَحْمُودَ هُوَ الْمُقَامُ الَّذِي يَشْفَعُ فِيهِ لِأُمَّتِهِ ، وَقَدْ رُوِيَ عَنْ مُجَاهِدٍ مِثْلُ مَا عَلَيْهِ الْجَمَاعَةُ مِنْ ذَلِكَ ، فَصَارَ إِجْمَاعاً فِي تَأْوِيلِ الْآيَةِ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ بِالْكِتَابِ والسُّنَّة . ذَكَرَ ابْنُ أَبِي شَيْبَةَ عَنْ شَبَابَةَ عَنْ وَرْقَاءُ عَنِ ابْنِ أَبِي نَجِيحٍ عَنْ مُجَاهِدٍ في قوله : **﴿عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا﴾** [الإسراء: ٧٩] ، قَالَ : شَفَاعَةُ محمَّد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

وعقيدة الإقعاد أو الإجلاس على العرش عقيدة باطلة ، قال الإمام شمس الدِّين أبو عبد الله محمَّد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذَّهبي : " فأمَّا قضيَّة قعود نبيِّنا على العرش ، فلم يثبت في ذلك نصٌّ !!! بل في الباب حديث واه " . انظر : مختصر العلو للعلي العظيم (ص١٨٣).

ومجسِّمة الحنابلة هم من قالوا بعقيدة الإقعاد على العرش ، وهي عقيدة مزدكيَّة ، قال الإمام الكوثري : " ومن معتقد المزدقيَّة منهم – الثَّنويَّة – أنَّ المعبود قاعد على كرسيِّه في العالم الأعلى على هيئة قعود خسرو (الملك) في العالم الأسفل " . انظر : مقدِّمات الإمام الكوثري (ص٣٨).

ولأجلها أراق مجسِّمةُ الحنابلةِ دماءَ الموحِّدين الرَّافضين لها ، وكفَّروا من لا يؤمن بها ، كما صنعوا مع الإمام التِّرمذي ، الذي أنكر عليهم هذه العقيدة التَّجسيميَّة التَّكفيرية ، فكفَّروه في غير ما مناسبة ، كما تجد ذلك في " كتاب السُّنَّة " للخلَّال ، والعياذ بالله تعالى...

قال الإمام شهاب الدِّين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرُّومي الحموي في ترجمة الإمام الطَّبري : " ... وقصده الحنابلة فسألوه عن أحمد بن حنبل في الجامع يوم الجمعة ، وعن حديث الجلوس على العرش ، فقال أبو جعفر : أمَّا أحمد بن حنبل فلا يعدُّ خلافه ، فقالوا له : فقد ذكره العلماء في الاختلاف ، فقال : ما رأيته روي عنه ، ولا رأيت له أصحاباً يعوّل عليهم ، وأمَّا حديث الجلوس على العرش فمُحال ، ثمَّ أنشد:

سبحان من ليس له أنيس ولا له في عرشه جليس

فلمَّا سمع ذلك الحنابلة منه وأصحاب الحديث ، وثبوا ورموه بمحابرهم ... " . انظر : معجم الأدباء (إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب) (٦/ ٢٤٥٠) .

وقال الإمام ابن الأثير في " الكامل " أحداث سنة : " وَفِيهَا وَقَعَتْ فِتْنَةٌ عَظِيمَةٌ بِبَغْدَاذَ بَيْنَ أَصْحَابِ أَبِي بَكْرٍ الْمَرْوَزِيِّ الْحَنْبَلِيِّ (٢٧٥هـ) وَبَيْنَ غَيْرِهِمْ مِنَ الْعَامَّةِ ، وَدَخَلَ كَثِيرٌ مِنَ الْجُنْدِ فِيهَا ، وَسَبَبُ ذَلِكَ أَنَّ أَصْحَابَ الْمَرْوَزِيِّ قَالُوا فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿**عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا**﴾ [الإسراء: ٧٩] ، هُوَ أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ يُقْعِدُ النَّبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَعَهُ عَلَى الْعَرْشِ ، وَقَالَتِ الطَّائِفَةُ الْأُخْرَى : إنَّما هُوَ الشَّفَاعَةُ ، فَوَقَعَتِ الْفِتْنَةُ وَاقْتَتَلُوا ، فَقُتِلَ بَيْنَهُمْ قَتْلَى كَثِيرَةٌ " . انظر : الكامل في التاريخ (٦/ ٧٤٦) .

ولم ينتبه غوغائيُّو الحنابلة إلى أنَّ عقيدة الإقعاد على العرش عقيدة تجسيميَّة بحتة ، خالفوا فيها جمهور الأمَّة الذي ذهب إلى نفيها واستنكارها ، قال الإمام أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثمَّ الدِّمشقي في حوادث سنة : " وَفِيهَا وَقَعَتْ فِتْنَةٌ بِبَغْدَادَ بَيْنَ أَصْحَابِ أَبِي بكر المروذي الْحَنْبَلِيِّ ، وَبَيْنَ طَائِفَةٍ مِنَ الْعَامَّةِ ، اخْتَلَفُوا فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿**عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا**﴾ [الإسراء: ٧٩] ، فَقَالَتِ الْحَنَابِلَةُ : يُجْلِسُهُ مَعَهُ عَلَى الْعَرْشِ . وَقَالَ الْآخَرُونَ : الْمُرَادُ بِذَلِكَ الشَّفَاعَةُ الْعُظْمَى ، فَاقْتَتَلُوا بِسَبَبِ ذلك ، وقتل بينهم قتلى ، فإنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ راجِعُونَ . وَقَدْ ثَبَتَ فِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ : أَنَّ الْمُرَادَ بِذَلِكَ : مَقَامُ

الشَّفَاعَةِ العظمىٰ ، وهي الشَّفاعة في فصل القضاء بين العباد ، وَهُوَ الْمَقَامُ الَّذِي يَرْغَبُ إِلَيْهِ فِيهِ الْخَلْقُ كُلُّهُمْ ، حَتَّىٰ إبراهيم ، وَيَغْبِطُهُ بِهِ الْأَوَّلُونَ وَالْآخَرُونَ " . انظر : البداية والنهاية (١١/ ١٦٢) .

وقال الإمام أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشَّافعي في "فتح الباري شرح صحيح البخاري" (١١/ ٤٢٦) : " قَالَ بن بَطَّالٍ أَنْكَرَتِ الْمُعْتَزِلَةُ وَالْخَوَارِجُ الشَّفَاعَةَ فِي إِخْرَاجِ مَنْ أُدْخِلَ النَّار مِنَ الْمُذْنِبِينَ وَتَمَسَّكُوا بِقَوْلِهِ تَعَالَىٰ : ﴿فَمَا تَنْفَعهُم شَفَاعَة الشَّافِعِيْن﴾ [المدثر: ٤٨] ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ وَأَجَابَ أَهْلُ السُّنَّة بِأَنَّهَا فِي الْكُفَّارِ ، وَجَاءَتِ الْأَحَادِيثُ فِي إِثْبَاتِ الشَّفَاعَةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ مُتَوَاتِرَةً ، وَدَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا﴾ [الإسراء: ٧٧٩] ، وَالْجُمْهُورُ عَلَىٰ أَنَّ الْمُرَادَ بِهِ الشَّفَاعَةُ ، وَبَالَغَ الْوَاحِدِيُّ فَنَقَلَ فِيهِ الْإِجْمَاعَ ، وَلَكِنَّهُ أَشَارَ إِلَىٰ مَا جَاءَ عَنْ مُجَاهِدٍ وَزَيَّفَهُ !!! وَقَالَ الطَّبَرِيُّ : قَالَ أَكْثَرُ أَهْلِ التَّأْوِيل : الْمَقَامُ الْمَحْمُودُ هُوَ الَّذِي يَقُومُهُ النَّبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِيُرِيحَهُمْ مِنْ كَرْبِ الْمَوْقِفِ ، ثُمَّ أَخْرَجَ عِدَّةَ أَحَادِيث فِي بَعْضُهَا التَّصْرِيحُ بِذَلِكَ وَفِي بَعْضِهَا مُطْلَقُ الشَّفَاعَةِ ".

وقال الشَّيْخ محمَّد ناصر الدِّين الألباني في مقدِّمة العلو : " لو أنَّ المؤلِّف رحمه الله وقف عند ما ذكرنا لأحسن ، ولكنَّه لم يقنع بذلك ، بل سوَّد أكثر من صفحة كبيرة في نقل أقوال من أفتىٰ بالتَّسليم بأثر مجاهد في تفسير قَوْلِهِ تَعَالَىٰ : ﴿عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا﴾ [الإسراء: ٧٩] ، قال : يُجلسه أو يُقعده علىٰ العرش . بل قال بعضهم : أنا منكرٌ علىٰ كل من ردَّ هذا الحديث ، وهو عندي رجل سوء متَّهم ... بل ذكر عن الإمام أحمد أنَّه قال : هذا تلقَّته العلماء بقبول إلىٰ غير ذلك من الأقوال التي تراها في الأصل ، ولا حاجة بنا إلىٰ استيعابها في هذه المقدِّمة . وذكر في " مختصره " المسمَّىٰ بـ " الذَّهبيَّة " أسماء جمع آخرين من المحدِّثين سلَّموا بهذا الأثر ، ولم يتعقَّبهم بشيء هناك . وأمَّا هنا فموقفه مضطربٌ أشدّ الاضطراب !!! فبينما تراه يقول في آخر ترجمة محمَّد بن مصعب العابد عقب قول من تلك الأقوال (ص١٢٦) : فأبصر – حفظك الله من الهوىٰ – كيف آل الفكر بهذا المحدِّث إلىٰ وجوب الأخذ بأثر منكر " ... فأنت إذا أمعنت النَّظر في قوله هذا ، ظننت أنَّه ينكر هذا الأثر ولا يعتقده ، ويلزمه ذلك ولا يتردَّد فيه ، ولكنك ستفاجأ بقوله (ص١٤٣) بعد أن أشار إلىٰ هذا الأثر عقب ترجمة حرب الكرماني : وغضب العلماء لإنكار هذه المنقبة العظيمة التي انفرد بها سيِّد البشر ، ويبعد أن يقول مجاهد ذلك إلا بتوقيف ... " . ثمَّ ذكر أشخاصاً آخرين ممَّن سلَّموا بهذا الأثر غير من تقدَّم ، فإذا أنت فرغت من قراءة هذا ، قلت : لقد رجع الشَّيْخ من إنكاره إلىٰ التَّسليم به ، لأنَّه قال : أنَّه لا يقال إلا بتوقيف ! ولكن سرعان ما تراه يستدرك علىٰ ذلك بقوله بعد سطور : ولكن ثبت في "الصِّحاح " أنَّ المقام المحمود هو الشَّفاعة العامَّة الخاصَّة بنبيِّنا

صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ " . قلت : وهذا هو الحقُّ في تفسير المقام المحمود دون شكٍّ ولا ريب ، للأحاديث التي أشار إليها المصنِّف رحمه الله تعالىٰ ، وهو الذي صحَّحه الإمام ابن جرير في " تفسيره (١٥/ ٩٩) ثمَّ القرطبي (١٠/ ٣٠٩) وهو الذي لم يذكر الحافظ ابن كثير غيره ، وساق الأحاديث المشار إليها . بل هو الثَّابت عند مجاهد نفسه من طريقين عنه عند ابن جرير . وذاك الأثر عنه ليس له طريق معتبر ، فقد ذكر المؤلِّف (ص١٢٥) أنَّه روي عَنْ لَيْثِ بْنِ أَبِي سُلَيْمٍ ، وعطاء بن السَّائب ، وأبي يحيىٰ القتَّات ، وجابر بن يزيد " . قلت : والأولان مختلطان ، والآخران ضعيفان ، بل الأخير متروكٌ متَّهم " . انظر : مقدمة مختصر العلو للعلي العظيم (ص١٥-١٦).

قلت : وفي كتابه : " السُّنَّة " أورد الخلَّالُ عشرات الرِّوايات حولَ هذه المسألة ، حمل بعضُها الإغلاظ علىٰ من أنكرها ، وحكمت بعض الرِّوايات بكفر من ردَّها وأنكرها ، بعد أن اعتبروها فضيلة للرَّسول صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، مع أنَّها روايات باطلة مُنْكرة ... انظر في هذه المسألة : السُّنَّة (١/ ٢١٢-٢٥٩) .

وقال القاضي أبو يعلىٰ ، محمَّد بن الحسين بن محمَّد بن خلف ابن الفرَّاء : " وَذَكَرَ أَبُو عبد اللَّه بْن بطَّة فِي كتاب الإبانة ، قَالَ أَبُو بكر أحمد بْن سلمان النِّجاد : لو أنَّ حالفاً حلف بالطَّلاق ثلاثاً : أنَّ اللَّه تَعَالَىٰ : يُقْعدُ محمَّداً صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ معه عَلَىٰ العرش واستفتاني فِي يمينه لقلت لَهُ : صدقت فِي قولك ، وبررت فِي يمينك ، وامرأتك عَلَىٰ حالها ، فهذا مذهبنا وديننا واعتقادنا !!! وعليه نشأنا !!! ونحن عَلَيْهِ إِلَىٰ أن نموت إن شاء اللَّه !!! فلزمنا الإنكار عَلَىٰ من ردَّ هَذِهِ الفضيلة الَّتِي قالتها العلماء وتلقُّوها بالقبول ، فمن ردَّها فهو من الفرق الهـــالكة !!! " . انظر : إبطال التأويلات لأخبار الصفات (١/ ٤٨٥) .

وجاء في " طبقات الحنابلة " (٢/ ١٠-١١) : " قَالَ النَّجَّادُ: وَحَدَّثَنَا مُعَاذُ بْنُ الْمُثَنَّي حَدَّثَنَا خَلادُ بْنُ أَسْلَمَ قَالَ حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ فَضْلٍ عَنْ لَيْثٍ عَنْ مُجَاهِدٍ كُلُّهُمْ قَالَ فِي قَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿**عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مقاماً محموداً**﴾ ، قَالَ: " يُجْلِسُهُ مَعَهُ عَلَىٰ " .

قَالَ النّجاد: وسألت أبا يحيي النَّاقد ويعقوب المطوعي وعبد اللَّه بْن أَحْمَد بْن حنبل وجماعة من شيوخنا فحدَّثوني بحديث مُحَمَّد بْن فضيل عن ليث عن مجاهد وسألت أبا الحسن العطَّار عن ذَلِكَ؟ فحدَّثني بحديث مجاهد ثُمَّ قَالَ: سمعت مُحَمَّد بْن مصعب العابد يقول هَذَا حتَّىٰ ترىٰ الخلائق منزلته صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عند ربِّه تبارك وتعالىٰ وكرامته لديه ثُمَّ ينصرف محمَّد صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلىٰ غرفه وجنَّاته وأزواجه ثُمَّ ينفرد عزَّ وجلَّ بربوبيَّته.

قَالَ النّجاد: ثُمَّ نظرت فِي كتاب أَحْمَد بْن الحجَّاج المروزي وهو إمامنا وقدوتنا والحجَّة لنا فِي ذَلِكَ فوجدت فِيهِ ما قد ذكره من ردَّ حديث عبد اللَّه بْن سلام ومجاهد وذكر أسماء الشُّيوخ الَّذِينَ أنكروا عَلَىٰ من ردَّ ذَلِكَ أو عارضه.

قَالَ النّجاد: فالذي ندين اللَّه تعالىٰ به ونعتقده: ما قد رسمناه وبينَّاه من معاني الأحاديث المسندة عن رسول اللَّهِ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وما قاله عبد اللَّه بْن العبَّاس ومن بعده من أهل العلم وأخذوا به كابراً عن كابر وجيلاً عن جيل إلىٰ وقت شيوخنا فِي تفسير قوله تعالىٰ : عسىٰ أن يبعثك مقاماً محموداً ، أنَّ المقام المحمود: هُوَ قعوده صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَعَ ربه عَلَىٰ العرش وَكَانَ من جحد ذَلِكَ وتكلَّم فِيهِ بالمعارضة: إنَّما يريد بكلامه فِي ذَلِكَ: كلام الجهميَّة يجانب ويباين ويحذر عَنْهُ وكذلك أَخْبَرَنِي أَبُو بكر الكاتب عن أَبِي داود السِّجستاني أنَّه قَالَ: من ردَّ حديث مجاهد فهو جهمي.

وَحَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن صهيب وجماعة من شيوخنا عن مُحَمَّد بْن عبد الملك الدّقيقي قَالَ: سمعت هَذَا الحديث منذ خمسين سنة ما سمعت أحداً ينكره إنما يكاذبه الزَّنادقة والجهميَّة.

قَالَ النّجاد: وذكر لنا أَبُو إسماعيل السّلمي أمر التِّرمذي الَّذِي ردَّ فضيلة النَّبي صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وصغر أمره وَقَالَ: لا يؤمن بيوم الحساب.

قَالَ النّجاد: وعلىٰ ذَلِكَ من أدركت من شيوخنا أصحاب أَبِي عبد اللَّه أحمد بن محمَّد بن حنبل فإنهم منكرون عَلَىٰ من ردَّ هذه الفضيلة ولقد بين اللَّه ذَلِكَ عَلَىٰ ألسنة أهل العلم عَلَىٰ تقادم الأيام فتلقاه النَّاس بالقبول فلا أحد ينكر ذَلِكَ ولا ينازع فِيهِ.

قَالَ النّجاد: فبذلك أقول: ولو أنَّ حالفا حلف بالطَّلاق ثلاثاً أنَّ الله يقعد محمَّداً صلىٰ اللَّه عَلَيْهِ وسلم معه عَلَىٰ العرش واستفتاني فِي يمينه لقلت لَهُ: صدقت فِي قولك وبررت فِي يمينك وامرأتك عَلَىٰ حالها فهذا مذهبُنا وديننا واعتقادنا وعليه نشأنا ونحن عَلَيْهِ إلىٰ أن نموت إن شاء اللَّه فلزمنا الإنكار عَلَىٰ من ردَّ هَذِهِ الفضيلة الَّتِي قالها العلماء وتلقّوها بالقبول فمن ردَّها فهو من الفرق الهالكة" .

فلا حول ولا قوَّة إلَّا بالله ، ونعوذ بالله من الخذلان ...

﴿سُؤالٌ﴾ : مَا هِيَ شُبُهَاتِ الْمُنْكِرِينَ لِلْحَشْرِ وَالنَّشْرِ ؟

الجواب : قال الإمام الرَّازي في " التَّفسير" (١٧/ ٢٠٣-٢٠٤) : " فِي الْجَوَابِ عَنْ شُبُهَاتِ الْمُنْكِرِينَ لِلْحَشْرِ وَالنَّشْرِ.

الشُّبْهَةُ الْأُولَى: قَالُوا: لَوْ بُدِّلَتْ هَذِهِ الدَّارُ بِدَارٍ أُخْرَىٰ لَكَانَتْ تِلْكَ الدَّارُ إِمَّا أَنْ تَكُونَ مِثْلَ هَذِهِ الدَّارِ أَوْ شَرًّا مِنْهَا أَوْ خَيْرًا مِنْهَا، فَإِنْ كَانَ الْأَوَّلَ كَانَ التَّبْدِيلُ عَبَثًا، وَإِنْ كَانَ شَرًّا مِنْهَا كَانَ هَذَا التَّبْدِيلُ سَفَهًا، وَإِنْ كَانَ خَيْرًا مِنْهَا فَفِي أَوَّلِ الْأَمْرِ هَلْ كَانَ قَادِرًا عَلَىٰ خَلْقِ ذَلِكَ الْأَجْوَدِ أَوْ مَا كَانَ قَادِرًا عَلَيْهِ؟ فَإِنْ قَدَرَ عَلَيْهِ ثُمَّ تَرَكَهُ وَفَعَلَ الْأَرْدَأَ كَانَ ذَلِكَ سَفَهًا، وَإِنْ قُلْنَا: إِنَّهُ مَا كَانَ قَادِرًا ثُمَّ صَارَ قَادِرًا عَلَيْهِ فَقَدِ انْتَقَلَ مِنَ الْعَجْزِ إِلَىٰ الْقُدْرَةِ، أَوْ مِنَ الْجَهْلِ إِلَىٰ الْحِكْمَةِ، وَأَنَّ ذَلِكَ عَلَىٰ خَالِقِ الْعَالَمِ مُحَالٌ.

وَالْجَوَابُ: لِمَ لَا يَجُوزُ أَنْ يُقَالَ تَقْدِيمُ هَذِهِ الدَّارِ عَلَىٰ تِلْكَ الدَّارِ هُوَ الْمَصْلَحَةُ، لِأَنَّ الْكِمَالَاتِ النَّفْسَانِيَّةَ الْمُوجِبَةَ لِلسَّعَادَةِ الْأُخْرَوِيَّةِ لَا يُمْكِنُ تَحْصِيلُهَا إِلَّا فِي هَذِهِ الدَّارِ، ثُمَّ عِنْدَ حُصُولِ هَذِهِ الْكَمَالَاتِ كَانَ الْبَقَاءُ فِي هَذِهِ الدَّارِ سَبَبًا لِلْفَسَادِ وَالْحِرْمَانِ عَنِ الْخَيْرَاتِ.

الشُّبْهَةُ الثَّانِيَةُ: قَالُوا: حَرَكَاتُ الْأَفْلَاكِ مُسْتَدِيرَةٌ، وَالْمُسْتَدِيرُ لَا ضِدَّ لَهُ، وَمَا لَا ضِدَّ لَهُ لَا يَقْبَلُ الْفَسَادَ.

وَالْجَوَابُ: أَنَّا أَبْطَلْنَا هَذِهِ الشُّبْهَةَ فِي الْكُتُبِ الْفَلْسَفِيَّةِ، فَلَا حَاجَةَ إِلَىٰ الْإِعَادَةِ. وَالْأَصْلُ فِي إِبْطَالِ أَمْثَالِ هَذِهِ الشُّبُهَاتِ أَنْ نُقِيمَ الدَّلِيلَ عَلَىٰ أَنَّ أَجْرَامَ الْأَفْلَاكِ مَخْلُوقَةٌ، وَمَتَىٰ ثَبَتَ ذَلِكَ ثَبَتَ كَوْنُهَا قَابِلَةً لِلْعَدَمِ وَالتَّفَرُّقِ وَالتَّمَزُّقِ وَلِهَذَا السِّرِّ، فَإِنَّهُ تَعَالَىٰ فِي هَذِهِ السُّورَةِ بَدَأَ بِالدَّلَائِلِ الدَّالَّةِ عَلَىٰ حُدُوثِ الْأَفْلَاكِ، ثُمَّ أَرْدَفَهَا بِمَا يَدُلُّ عَلَىٰ صِحَّةِ الْقَوْلِ بِالْمَعَادِ.

الشُّبْهَةُ الثَّالِثَةُ: الْإِنْسَانُ عِبَارَةٌ عَنْ هَذَا الْبَدَنِ، وَهُوَ لَيْسَ عِبَارَةً عَنْ هَذِهِ الْأَجْزَاءِ كَيْفَ كَانَتْ، لِأَنَّ هَذِهِ الْأَجْزَاءَ كَانَتْ مَوْجُودَةً قَبْلَ حُدُوثِ هَذَا الْإِنْسَانِ، مَعَ أَنَّا نَعْلَمُ بِالضَّرُورَةِ أَنَّ هَذَا الْإِنْسَانَ مَا كَانَ مَوْجُودًا، وَأَيْضًا أَنَّهُ إِذَا أُحْرِقَ هَذَا الْجَسَدُ، فَإِنَّهُ تَبْقَىٰ تِلْكَ الْأَجْزَاءُ الْبَسِيطَةُ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ مَجْمُوعَ تِلْكَ الْأَجْزَاءِ الْبَسِيطَةِ مِنَ الْأَرْضِ وَالْمَاءِ وَالْهَوَاءِ وَالنَّارِ، مَا كَانَ عِبَارَةً عَنْ هَذَا الْإِنْسَانِ الْعَاقِلِ النَّاطِقِ، فَثَبَتَ أَنَّ تِلْكَ الْأَجْزَاءَ إِنَّمَا تُكَوِّنُ هَذَا الْإِنْسَانَ بِشَرْطِ وُقُوعِهَا عَلَىٰ تَأْلِيفٍ مَخْصُوصٍ، وَمِزَاجٍ مَخْصُوصٍ، وَصُورَةٍ مَخْصُوصَةٍ، فَإِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ وَتَفَرَّقَتْ أَجْزَاؤُهُ فَقَدْ عُدِمَتْ تِلْكَ الصُّوَرُ وَالْأَعْرَاضُ، وَعَوْدُ الْمَعْدُومِ مُحَالٌ وَعَلَىٰ هَذَا التَّقْدِيرِ فَإِنَّهُ يَمْتَنِعُ عَوْدُ بَعْضِ الْأَجْزَاءِ الْمُعْتَبَرَةِ فِي حُصُولِ هَذَا الْإِنْسَانِ فَوَجَبَ أَنْ يَمْتَنِعَ عَوْدُهُ بِعَيْنِهِ مَرَّةً أُخْرَىٰ.

وَالْجَوَابُ: لَا نُسَلِّمُ أَنَّ هَذَا الْإِنْسَانَ الْمُعَيَّنَ عِبَارَةٌ عَنْ هَذَا الْجَسَدِ الْمُشَاهَدِ، بَلْ هُوَ عِبَارَةٌ عَنِ النَّفْسِ سَوَاءً فَسَّرْنَا النَّفْسَ بِأَنَّهُ جوهر مفارق مجرد، أول قُلْنَا إِنَّهُ جِسْمٌ لَطِيفٌ مَخْصُوصٌ مُشَاكِلٌ لِهَذَا الْجَسَدِ مَصُونٌ عَنِ التَّغَيُّرِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِهِ.

الشُّبْهَةُ الرَّابِعَةُ: إِذَا قُتِلَ إِنْسَانٌ وَاغْتَذَىٰ بِهِ إِنْسَانٌ آخَرُ فَيَلْزَمُ أَنْ يُقَالَ تِلْكَ الْأَجْزَاءُ فِي بَدَنِ كُلِّ وَاحِدٍ مِنَ الشَّخْصَيْنِ وَذَلِكَ مُحَالٌ.

وَالْجَوَابُ: هَذِهِ الشُّبْهَةُ أَيْضًا مَبْنِيَّةٌ عَلَى أَنَّ الْإِنْسَانَ الْمُعَيَّنَ عِبَارَةٌ عَنْ مَجْمُوعِ هَذَا الْبَدَنِ، وَقَدْ بَيَّنَّا أَنَّهُ بَاطِلٌ بَلِ الْحَقُّ أَنَّهُ عِبَارَةٌ عَنِ النَّفْسِ سَوَاءٌ.

قُلْنَا: النَّفْسُ جَوْهَرٌ مُجَرَّدٌ وَأَجْسَامٌ لَطِيفَةٌ بَاقِيَةٌ مُشَاكِلَةٌ لِلْجَسَدِ، وَهِيَ الَّتِي سَمَّتْهَا الْمُتَكَلِّمُونَ بِالْأَجْزَاءِ الْأَصْلِيَّةِ. وَهَذَا آخِرُ الْبَحْثِ الْعَقْلِيِّ عَنْ مَسْأَلَةِ الْمَعَادِ" .

﴿سُؤالٌ﴾ : مَا حُكْمُ مَنْ أَنْكَرَ الحَشْرَ وَالنَّشْر ؟

الجواب : قال الإمام الرَّازي في " التَّفسير" (٢/ ٣٥٦) : " مُنْكِرَ الْحَشْرِ وَالنَّشْرِ كَافِرٌ، وَالدَّلِيلُ عَلَيْهِ قَوْلُهُ : **﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظالِمٌ لِنَفْسِهِ قالَ ما أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هذِهِ أَبَداً * وَما أَظُنُّ السَّاعَةَ قائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْراً مِنْها مُنْقَلَباً * قالَ لَهُ صاحِبُهُ وَهُوَ يُحاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرابٍ﴾** [الْكَهْفِ: ٣٥- ٣٧] ، وَوَجْهُ إِلْزَامِ الْكُفْرِ أَنَّ دُخُولَ هَذَا الشَّيْءِ فِي الْوُجُودِ مُمْكِنُ الْوُجُودِ فِي نَفْسِهِ، إِذْ لَوْ كَانَ مُمْتَنِعَ الْوُجُودِ لَمَا وُجِدَ فِي الْمَرَّةِ الْأُولَىٰ فَحَيْثُ وُجِدَ فِي الْمَرَّةِ الْأُولَىٰ عَلِمْنَا أَنَّهُ مُمْكِنُ الْوُجُودِ فِي ذَاتِهِ، فَلَوْ لَمْ يَصِحَّ ذَلِكَ مِنَ اللَّهِ تَعَالَىٰ لَدَلَّ ذَلِكَ إِمَّا عَلَىٰ عَجْزِهِ حَيْثُ لَمْ يَقْدِرْ عَلَىٰ إِيجَادِ مَا هُوَ جَائِزُ الْوُجُودِ فِي نَفْسِهِ، أَوْ عَلَىٰ جَهْلِهِ حَيْثُ تَعَذَّرَ عَلَيْهِ تَمْيِيزُ أَجْزَاءِ بَدَنِ كُلِّ وَاحِدٍ مِنَ الْمُكَلَّفِينَ عَنْ أَجْزَاءِ بَدَنِ الْمُكَلَّفِ الْآخَرِ، وَمَعَ الْقَوْلِ بِالْعَجْزِ وَالْجَهْلِ لَا يَصِحُّ إِثْبَاتُ النُّبُوَّةِ فَكَانَ ذَلِكَ مُوجِبًا لِلْكُفْرِ قَطْعًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ" .

فالإيمان بالحشر والنَّشر واجب ، وعلىٰ ذلك أجمع المسلمون ، قال الإمام عبد القاهر البغدادي في " الفرق بين الفرق وبيان الفرقة النَّاجية " (ص٢٠) : " أهل الحَدِيث مِنْهُم كلُّهم متَّفقون علىٰ مقَالَة وَاحِدَة فِي تَوْحِيد الصَّانِع وَصِفَاته وعدله وحكمته وَفِي أسمائه وَصِفَاته ، وفي أبواب النُّبُوَّة والإمامة ، وفي أحكام العُقبىٰ ، وفي سَائِر أُصول الدِّين ، وإنَّما يَخْتَلِفُونَ فِي الْحَلَال وَالْحرَام من فروع الأحكام ، وَلَيْسَ بَينهم فِيمَا اخْتلفُوا فِيهِ مِنْهَا تضليل وَلَا تفسيق ، وهم الْفرْقَة النَّاجِية ، ويجمعها الإقرار بتوحيد الصَّانِع ، وَقِدَمِهِ وَقِدَمِ صِفَاته الأزليَّة ، وإجازة رُؤْيَته من غير تَشْبِيه وَلَا تَعْطِيل ، مَعَ الإقرار بكُتُب الله وَرُسُله ، وبتأييد شَرِيعَة الإسلام ، وإباحة مَا أَبَاحَهُ الْقُرْآن ، وَتَحْرِيم مَا حرَّمه الْقُرْآن ، مَعَ قيود مَا صَحَّ من سُنَّة رَسُول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، واعتقاد الْحَشْر والنَّشر ، وسؤال الْملكَيْنِ فِي الْقَبْر ، والإقرار بالحوض وَالْمِيزَان ، فَمن قَالَ بِهَذِهِ الْجِهَة الَّتِي ذكرنَاهَا وَلم يخلط إيمانه بهَا بِشَيْء من بدع الْخَوَارِج وَالرَّوَافِض والقدريَّة وَسَائِر أهل

الأهواء ، فَهُوَ من جملَة الْفِرْقَة النَّاجِية إن خَتَم الله لَهُ بهَا ، وَقد دخل فِي هَذِه الْجُمْلَة جُمْهُور ألامَّة وسوادها الْأَعْظَم من أصحاب مَالك وَالشَّافِعِيّ وأبي حنيفَة والأوزاعي والثوري وَأهل الظَّاهِر " .

﴿سُؤالٌ﴾ : مَا المَقْصُوْدُ بِمَجِيْءِ اللهِ تَعَالَى لِفَصْلِ القَضَاء ؟

الجواب : من المعلوم أنَّ جمهور العلماء ذهبوا إلىٰ أنَّ جميع الألفاظ الموهمة للحركة لا يجوز أن تُحمل علىٰ ظاهرها المتبادر إلىٰ الأذهان البتَّة ، لأنَّ الحمل علىٰ الظَّاهر يتعارض مع العديد من المسلَّمات العقديَّة ، وكذا اللغويَّة ، بالإضافة إلىٰ الاصطدام المباشر مع آيات التَّنزيه ، التي منها :

١ . قوله تعالىٰ : **﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلى﴾** [النحل : ٦٠] ، فلا يوصف سبحانه بأيِّ وصفٍ يُشبه وصف غيره من صفات المخلوقين ، من التَّغيُّر والتَّبدُّل والحلول في الأماكن والتَّحيُّز فيها ، فهو تعالىٰ واحدٌ في ذاته وصفاته وأفعاله ، وتجب له جَمِيعُ صِفَاتِ الْجَلَال والجمال وَالْكَمَال ، ولذلك لا يجوز أن تُضرب لله الأمثال التي توجب الاشتباه ، قال تعالىٰ : **﴿فَلا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثالَ﴾** [النحل : ٧٤] .

٢ .وقوله تعالىٰ : **﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾** [مريم : ٦٥] ، أي : هل تعلم من الآلهة التي عُبدت من دونه من اسمه الله ؟!! ، فلا يوجد أبداً من تسمَّىٰ من المعبودات الباطلة باسم " الله " ، فالله تعالىٰ لا مِثل له ، ولا عدل ، ولا شبيه ، ولا مثيل في كلِّ شيء حتىٰ في اسمه تعالىٰ ، فمن وصفه بمعنىٰ من معاني المحدثات ، كالنزول الحقيقي ، والقيام ، والقعود ، والجلوس علىٰ العرش والاستقرار فيه ، فقد شبَّه الله تعالىٰ بخلقه ، والعياذ بالله....

٣ .وقوله تعالىٰ : **﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾** [الشورىٰ:١١] ، فالله تعالىٰ لا يشبه شيئاً من خلقه بأيِّ وجهٍ من الوجوه ، والآية نصٌّ محكمٌ صريحٌ في نفي المشابهة والمماثلة بين الله تعالىٰ وبين سائر المحدثات ، فلا هو يشبهها في أيِّ شكل من الأشكال ، ولا هو في حاجةٍ إلىٰ شيءٍ ممَّا خلق...

٤ـ وقوله تعاليو : **﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ﴾** [الإخلاص : ٤] ، أي : لا نظير له ، ولا قسيم له ، ولا شبيه له ، ولا صاحبة ، ولا شريك ، فينازعه في ربوبيته وملكه بوجه من الوجوه ، وقد فسَّرتها آية الشورىٰ : **﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾** [الشورىٰ:١١] .

وبناءً علىٰ ما يجب لله تعالىٰ من التنزيه ، يجب أن لا يُحمل حديث النزول علىٰ ظاهِره ، لأنَّ النزول الذي هو انتقال مِن مكان إلىٰ مكان ، يفتقِر إلىٰ : مكانٍ عالٍ ، ومكانٍ سافلٍ ، وجسمٍ ينتقل بين المكانين ، وهذا لا يجوز علىٰ الله تعالىٰ البتة ، لأنه سبحانه ليس متمكِّناً في مكان ، وليس جسماً ، والجسم هو الذي يتحيَّز في المكان ، ولا ينفكُّ عن الحركة والسكون والاجتماع والافتراق ، وهي أعراضٌ ملازمةٌ للأجسام

، ولا تقوم إلا بها ، وهي حادثةٌ لتغيرُّها وتبدُّلها ، وما لا ينفكُّ عن الحوادث فهو حادث ، والله تعالىٰ واجب الوجود لذاته ، فلا يجوز أن يكون جسماً أو عَرَضاً ، فلو كان جسماً أو عَرَضاً لاحتاج للمحل ، وافتقر إليه ، وبالحاجة للمكان يصبح الواجب مفتقراً للغير فيكون ممكناً ، واللازم باطل فالملزوم مثله ، وبالتالي لا يجوز عليه ما يجوز علىٰ المحدثات من الحركة والسكون والانتقال وسائر الأعراض الملازمة للمحدثات ، والله تعالىٰ ليس محلاً للحوادث ، فلا هو يحلُّ بها ، ولا هي تحلُّ فيه سبحانه وتعالىٰ...

كما أنّ نزول الانتقال فيه تغيّر للحال ، والتغيّر مُستحيل علىٰ الله تعالىٰ ، لأنه مِن صفات المخلوقات ، فمن الغباوة أن يُقاس نزوله بنزولنا ، فنزوله تعالىٰ لا يكيَّف ، لأنه سبحانه لا كيف له ، وصفاته سبحانه لا تشبه صفاتنا بشيء ، جلَّ وتعالىٰ ربُّنا عن النظير ، والمثيل ، والشبيه ، والند ، والكفء ...

ولذلك وقف جمهور السلف الصالح أمام المتشابهات من غير أن ينبسُّوا ببنت شفه ، وقالوا : نؤمن بها ، ونصدِّق بها ، وَلاَ نتوهَّم ، ولا كيف ، ولا معنىٰ ، ولا نردُّ منها شيئاً ، ونعلم أنَّ ما جاء به الرسول صلىٰ الله عليه وسلم حقٌّ إذا ثبت وصحَّ الحديث عنه ، ولا نردُّ علىٰ الله تعالىٰ قوله ، ولا نصف الله بأكثر ممَّا وصف به نفسه ، بلا حدٍّ ولا غاية ، **﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾** [الشورىٰ : ١١] . فأجروها علىٰ ظاهر اللفظ لا علىٰ ظاهر المعنىٰ ، لأنَّ المعنىٰ لا سبيل إلىٰ درْكه ، ولذلك وَكَلُوا علمه إلىٰ الله تعالىٰ ، وكان لسان حالهم يقول كما قال الإمام ابن الجوزي : " نُقِرُّ ونُمِرُّ ، وَأَرْبَابُ الْبَحْثِ فِي خَسَارٍ ، هَذَا سَيْفُ السُّنَّةِ فَتَنَاوَلْهُ بِالْيَمِينِ لا بِالْيَسَارِ ، وَاضْرِبْ بِهِ كَفَّ " كَيْفَ " وَرَأْسَ " لَمْ " وَعُنُقَ " ثُمَّ " وَخُذْ لِلتَّنْزِيهِ من التشبيه بالثار ، قال تعالىٰ : **﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيانَهُ عَلى تَقْوى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيانَهُ عَلى شَفا جُرُفٍ هارٍ﴾** [التوبة: ١٠٩] . انظر : التبصرة ، ابن الجوزي (٢/ ٢٨٧) .

فالله تعالىٰ لا كيف له ، إذ الكيف من لوازم الأجسام ، والله يتنزَّه عن ذلك كله...

وقد استدلَّ إبراهيم عليه السَّلام بأفول الكوكب والشَّمس والقمر ، وتحريكها من مكان إلىٰ مكان ، علىٰ أنَّ ربَّه عزَّ وجلَّ لا يجوز عليه شيء من ذلك ، وأنَّ من جاز عليه الأفول والانتقال من مكان إلىٰ مكان فليس بإله ، قال تعالىٰ : **﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنا آتَيْناها إِبْراهِيمَ عَلى قَوْمِهِ﴾** [الأنعام : ٨٣] ، وقد امتدحه الله سبحانه علىٰ ذلك...

ومن المعلوم أَنَّه لَيْسَ كلّ نزُول وإنزال نقل وحركة وتحويل ، بل ذَلِك لفظ مُشْتَرك الْمَعْنىٰ ، قد يكون نقلاً وحركة وتحويلاً ، وَيكون علىٰ غير هَذَا الْوَجْه أَيْضاً ، علىٰ الْمُتَعَارف والمعهود بَين أهل اللُّغَة ، وَإِذا كَانَ اللَّفْظ مُشْتَرك الْمَعْنىٰ وَجب التَّرْتِيب وَإِضَافَة مَا يَلِيق فِي الْمَذْكُور والمضاف إِلَيْهِ علىٰ حسب مَا يَلِيق

بِهِ ، أَلا ترىٰ أَنه إِذا أضيف إِلَىٰ السكينَة لم يكن حَرَكَة وَلَا نقلة ، وَإِذا أضيف إِلَىٰ الْكَلَام لم يكن أَيْضاً تَفْرِيغ مَكَان وشغل مَكَان ، وَإِذا أُرِيد بِهِ الحكم وَتغَيُّر الْمرتبَة فَكَذَلِك ، ولمَّا كان الله منزَّهاً عن الشبيه والنظير والمثيل ، فمن الغباوة أن نشبِّه نزوله بنزول الحوادث ، فيجب أن يكون معنىٰ النزول مناسباً لتنزيهه تعالىٰ عن مشابهة الحوادث ، ولذلك فإنَّ نزوله تعالىٰ ليس بانتقال من مكان إلىٰ مكان ، لأنَّ الحركة من لوازم الأجسام التي يتنزَّه الله تعالىٰ عنها ، لأنه سبحانه ليس جسماً ، وصفاته ليست أجساماً ، قال الإمام الطَّحاوي في عقيدته : " وَتَعَالَىٰ عَنِ الْحُدُودِ وَالْغَايَاتِ ، وَالْأَرْكَانِ وَالْأَعْضَاءِ وَالْأَدَوَاتِ ، لَا تَحْوِيهِ الْجِهَاتُ السِّتُّ كَسَائِرِ الْمُبْتَدَعَاتِ " ، " وحكوا عن الشافعي رضي الله عنه أنه قال : من انتهض لطلب مدبِّره فانتهىٰ إلىٰ موجود ينتهي إليه فكرهُ فهو مشبِّه ، وإن اطمأن إلىٰ العدم الصرف فهو معطِّل ، وإن اطمأن إلىٰ موجود واعترف بالعجز عن إدراكه فهو موحِّد " . انظر : تشنيف المسامع بجمع الجوامع لتاج الدين السبكي (٤/ ٦٤٣) .

وهذا كلام نفيس من الإمام الشافعي ، يدلُّ دلالة واضحة بيِّنة علىٰ أنَّ السلف الصالح رضوان الله عليهم كانوا علىٰ قلب رجل واحد في تنزيه الله تعالىٰ عن الجسميَّة ولوازمها من التحيُّز ، والجلوس علىٰ العرش ، والحركة ، والنزول ، والمجيء ، والإتيان ، وأنَّ ما خطر بالبال فالله بخلافه ﭽ ﭡ ﭢ ﭣ ﭤ ﭥ ﭦ ﭧ ﭨ ﭩ ﭪ ﭫ ﭼ الشورىٰ : ١١ ... وقال الشافعي رضي الله عنه – أيضاً – لما سُئل عن ذلك : " آمنت بلا تشبيه ، وصدَّقت بلا تمثيل ، واتهمت نفسي في الإدراك ، وأمسكت عن الخوض فيه كلَّ الإمساك " . انظر : البرهان المؤيد (ص١٨) .

ولذلك وجدنا جمهور الخلف وبعض السلف يؤولون النزول والمجيء والإتيان والهرولة ... علىٰ ما يليق بها بحسب مواطِنِها ... فمن تأويلاتهم : ما رُوي عن مالك بن أنس وغيره – كما سترىٰ – أنه أوَّل النزول بنزول رحمته وأمره ، كَمَا يُقَال : ضرب الْأَمِير اللص ، ونادىٰ الْأَمِير فِي الْبَلَد الْيَوْم ، وَإِنَّمَا أَمر بذلك فيضاف إِلَيْهِ علىٰ معنىٰ أَنه عَن أمره ظهر ، وبأمره حصل ، وَإِذا كَانَ ذَلِك مُحْتملاً فِي اللُّغَة لم يُنكر أَن يكون لله عزَّ وَجلَّ مَلَائِكَة يَأْمُرهُم بالنزول إِلَىٰ السَّمَاء الدُّنْيَا بِهَذَا النداء وَالدُّعَاء ، في الوقت الذي يحدث فيه النزول .

ومن تأويلاتهم للنزول : أنه علىٰ الاستعارة ، ومعناهُ : الإقبال علىٰ العباد الداعين والمستغفرين بالإجابة واللطف والرَّحْمَةِ والمغفرة والاستعطاف بالتذكير والتنبيه الَّذِي يُلقىٰ فِي قُلُوب أهل الْخَيْر مِنْهُم ، من أسعده بتوفيقه لطاعته حَتَّىٰ يزعجهم إِلَىٰ الْجد والانكماش فِي التَّوْبَة والإنابة والإقبال علىٰ الطَّاعَة .

ولذلك خصَّ الله عزَّ وَجلَّ بالمدح المستغفرين بالأسحار ، فقال سبحانه : ﭽﭡ ﭢ ﭼ[آل عمران : ١٧] ، وَقَالَ سبحانه فِي وَصفهم أَيْضاً : ﭽ ﮉ ﮊ ﮋ ﮌ ﮍ ﮎ ﮏ ﮐ ﮑ ﮒ ﮓ ﮔ ﮕ ﭼ[الذاريات : ١٧-١٨] ، فَيُحْتَمل أَن يكون ذَلِك هُوَ المُرَاد بِهِ ، وَهُوَ الْإِخْبَار عَمَّا يظْهر من ألطافه ومعونته وتأييده لأَهل ولَايَته فِي مثل هَذَا الْوَقْت بالزواجر الَّتِي يقيمها فِي نُفُوسهم والمواعظ الَّتِي تنبههم بِقُوَّة التَّرْغِيب والترهيب.

وَمِنْهَا : يَنْزِلُ نُزُولاً يَلِيقُ بِالرُّبُوبِيَّةِ بِلَا كَيْفٍ ، إذ في الكيف مشابهة ، وهو تعالىٰ منزَّهٌ عن الكيف ، والكيف كما قال صاحب التعريفات : " هيئة قارة في الشيء لا يقتضي قسمة ولا نسبة لذاته ، فقوله : " هيئة " يشمل الأعراض كلها . وقوله : " قارة في الشيء" احتراز عن الهيئة الغير القارة ، كالحركة والزمان والفعل والانفعال ...

وَقد روىٰ بعض أهل النَّقْل حديث النزول عَن النَّبِي صلىٰ الله عَلَيْهِ وَسلم بِمَا يُؤَيّد هَذَا الْبَاب ، وَهُوَ بِضَم الْيَاء من " ينزل " وَذكر أَنه قد ضَبطه عَمَّن سَمعه عَنهُ من الثِّقَات الضابطين . وَإِذا كَانَ ذَلِك مَحْفُوظاً مضبوطاً كَمَا قَالَ ، فوجهه ظَاهر ، وَلما ذكره العلماء من التأويلات مؤيد وشَاهد.

كما جاء في رواية أُخرىٰ : " إنّ الله يُمهِلُ حتىٰ يمضي شطر الليل الأول ثم يأمُرُ مُنادياً يُنادي : هل مِن داعٍ فَيُستجاب له ؟ وهل مِن مستغفر فَيُغفر له ؟ وهل مِن سائل فَيُعطىٰ ؟ " . قال الشيخ شعيب الأرنؤوط : " إسناده صحيح علىٰ شرط مسلم ، الأغر من رجاله ، وباقي رجاله رجال الشيخين . أبو عوانة : هو الوضاح بن عبد الله اليشكري ، وأبو إسحاق : هو عمرو بن عبد الله بن عبيد السبيعىٰ . وأخرجه الدارقطني في " النزول " ص ١٣٤ و١٣٤-١٣٥ من طريق مُسَددٍ ، عن أبي عوانة ، بهذا الإسناد . وأخرجه ابن خزيمة في " التوحيد " ١/ ٢٩٣-٢٩٤ ، والآجري في " الشريعة " ص ٣١٠ من طريقين عن إسرائيل بن يونس بن أبي إسحاق ، عن جده ، به . وأخرجه مسلم (٧٥٨) (١٧٢) ، وابن أبي عاصم في " السنة " (٥٠٠) و (٥٠١) ، والنسائي في " عمل اليوم والليلة " (٤٨١) و (٤٨٢) ، وأبو يعلىٰ (١١٨٠) و(٥٩٣٦) ، وابن خزيمة ١/ ٢٩٣-٢٩٤ و٢٩٤ ، وأبو عوانة ٢/ ٢٨٨-٢٨٩ ، وابن حبان (٩٢١) ، والآجري ص ٣٠٩ و٣١٠ ، والدارقطني ص ١٣١ و١٣٢ و١٣٣ و١٣٥ و١٣٥-١٣٦ و١٣٦-١٣٧ من طرق عن أبي إسحاق السبيعي ، به . وأخرجه ابن أبي عاصم (٥٠٢) ، وابن خزيمة ١/ ٢٩٥ و٢٩٦ و٣٠٨ ، وأبو عوانة ٢/ ٢٨٨ ، والدارقطني ص ١٣٧-١٣٨ و١٣٨-١٣٩ من طريق سليمان الأعمش ، عن أبي إسحاق السبيعي ، عن الأغر أبي مسلم ، عن أبي هريرة وحده . وأخرجه ابن أبي عاصم (٥٠٠) و (٥٠١) ، والدارقطني ١٣٨-١٣٩ من طريق حبيب بن أبي ثابت ، عن الأغر ، عنهما . وأخرجه ابن أبي عاصم (٥٠٢) ، وابن خزيمة ١/ ٢٩٥-٢٩٦ و٣٠٨ ، والآجري (ص ٣٠٩) ، والدارقطني (ص ١٣٧-١٣٨) من طريق حبيب بن أبي ثابت ، عن الأغر ، عن أبي هريرة وحده " انظر : هامش مسند أحمد ، (١٤/ ٥٢٩ حديث رقم٨٩٧٥) .

والحديث واضحٌ وصريحٌ ومحكمٌ ، ومؤيِّدٌ للتأويل الحق ، وأنَّ الله تعالىٰ يأمر مَلَكاً بالنزول إِلَىٰ السَّمَاء ، يُنادي فيقول : هل مِن داعٍ فَيُستجاب له ؟ وهل مِن مستغفر فَيُغفر له ؟ وهل مِن سائل فَيُعطىٰ ؟...

ولا مجال البتة لإنكار النُّزُولِ ، فقَدْ ثَبَتَ عَنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ وُجُوهٍ صَحِيحَةٍ ، وَوَرَدَ فِي التَّنْزِيلِ مَا يُصَدِّقُهُ ، وَهُوَ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : **﴿وَجاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾** [الفجر : ٢٢] ، لكن لا يجوز البتة أن يفسَّر النزولُ بأيِّ معنىٰ من معاني البشر ، فالنُّزُولُ وَالْمَجِيءُ صِفتَانِ مَنْفِيَّتَانِ عَنِ اللهِ تَعَالَىٰ مِنْ طَرِيقِ الْحَرَكَةِ وَالِانْتِقَالِ مِنْ حَالٍ إِلَىٰ حَالٍ ، بَلْ هُمَا صِفتَانِ مِنْ صِفَاتِ اللهِ تَعَالَىٰ بِلَا تَشْبِيهٍ ، جَلَّ اللهُ تَعَالَىٰ عَمَّا تَقُولُ الْمُعَطِّلَةُ لِصِفَاتِهِ ، وَالْمُشَبِّهَةُ بِهَا عُلُوّاً كَبِيراً...

وأخيراً ، فإنَّ من يقولون بالنزول علىٰ معنىٰ النقلة والحركة من مكان إلىٰ مكان ، هم من قاسوا الغائب علىٰ الشاهد ، فقد قاسوا الْأُمُورَ فِي ذَلِكَ بِمَا يُشَاهِدُونهُ مِنَ النُّزُولِ الَّذِي هُوَ نَزْلَةٌ مِنْ أَعْلَىٰ إِلَىٰ أَسْفَلَ ، وَانْتِقَالٌ مِنْ فَوْقٍ إِلَىٰ تَحْتٍ ، وَهَذَا صِفَةُ الْأَجْسَامِ وَالْأَشْبَاحِ ، فَأَمَّا نُزُولُ مَنْ تنزَّه عن الجسميَّة ، فَإِنَّ هَذِهِ الْمَعَانِي غَيْرُ مُتَوَهَّمَةٍ فِيهِ ، وَإِنَّمَا هُوَ خَبَرٌ عَنْ قُدْرَتِهِ وَرَأْفَتِهِ بِعِبَادِهِ ، وَعَطْفِهِ عَلَيْهِمْ ، وَاسْتِجَابَتِهِ دُعَائِهِمْ ، وَمَغْفِرَتِهِ لَهُمْ ، يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ، لَا يَتَوَجَّهُ عَلَىٰ صِفَاتِهِ كَيْفِيَّةٌ ، وَلَا عَلَىٰ أَفْعَالِهِ كِمِّيَّةٌ ، سُبْحَانَهُ ، **﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾** [الشورىٰ:١١] .

وعلىٰ ضوء ما سبق بيانه وتقريره ، فإنَّ القائلين بالنزول علىٰ معنىٰ الحركة والنقلة ، قومٌ حادوا عن طريق الحقِّ حِينَ رَوَوا حَدِيثَ النُّزُولِ ، ثُمَّ أَقْبَلَوا عَلَىٰ أنفسهم ، فَقَالَوا : إِنْ قَالَ قَائِلٌ : كَيْفَ يَنْزِلُ رَبُّنَا إِلَىٰ السَّمَاءِ ؟ قِيلَ لَهُ : يَنْزِلُ كَيْفَ يَشَاءُ . فَإِنْ قَالَ : هَلْ يَتَحَرَّكُ إِذَا نَزَلَ ؟ فقَيل له : إِنْ شَاءَ يَتَحَرَّكُ وَإِنْ شَاءَ لَمْ يَتَحَرَّكْ !!! . وَهَذَا خَطَأٌ فَاحِشٌ عَظِيمٌ ، وَاللَّهُ تَعَالَىٰ لَا يُوصَفُ بِالْحَرَكَةِ ، لِأَنَّ الْحَرَكَةَ وَالسُّكُونَ يَتَعَاقَبَانِ فِي مَحِلٍّ وَاحِدٍ ، وَإِنَّمَا يَجُوزُ أَنْ يُوصَفَ بِالْحَرَكَةِ مَنْ يَجُوزُ أَنْ يُوصَفَ بِالسُّكُونِ ، وَكِلَاهُمَا مِنْ أَعْرَاضِ الْحَدَثِ ، وَأَوْصَافِ الْمَخْلُوقِينَ ، وَاللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ مُتَعَالٍ عَنْهُمَا **﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾** [الشورىٰ:١١] .

ومن المعلوم أنَّ الإمام ابن تيمية – غفر الله له – كان من أهمِّ المنافحين والمدافعين عن مثل هذه العقائد التي أوجدت فرقة وتفريقاً للصفِّ بين الأُمَّة ، وقد أخذها عن بعض من اتُّهم بالتَّجسيم ، كأمثال عثمان بن سعيد الدَّارمي ، حيث كان ابن تيمية يوصي بقراءة كتبه ، ويقول بأنَّ فيها منْ تَقْرِيرِ التَّوْحِيد ما ليسَ في غيرها ، قال الإمام ابن قيِّم الجوزية ، تلميذ ابن تيمية : " وَكَانَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ رَحِمَهُ اللَّهُ يُوصِي بِهَذَيْنَ الْكِتَابَيْنِ – أي : كتابي عثمان بن سعيد الدارمي : الردِّ علىٰ الجهميَّة ، وكتاب الرد علىٰ بشر المريسي – أَشَدَّ الْوَصِيَّةِ وَيُعَظِّمُهُمَا جَدّاً ، وَفِيهِمَا مِنْ تَقْرِيرِ التَّوْحِيدِ وَالْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ بِالْعَقْلِ وَالنَّقْلِ مَا لَيْسَ فِي غَيْرِهِمَا " . انظر : اجتماع الجيوش الإسلامية ، ابن قيم الجوزية (٢/ ٢٣١) .

وعثمان الدَّارمي هذا هو القائل : " ... لِأَنَّ الْحَيَّ الْقَيُّومَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ، وَيَتَحَرَّكُ إِذَا شَاءَ ، ويهبط ويرتفع إِذا شَاءَ ، وينقبض ، وَيَبْسُطُ ، وَيَقُومُ ، وَيَجْلِسُ إِذَا شَاءَ ؛ لِأَنَّ أَمَارَةُ مَا بَيْنَ الْحَيِّ وَالْمَيِّتِ التَّحَرُّكَ ، كُلُّ حَيٍّ مُتَحَرِّكٌ لَا مَحَالَةَ ، وَكُلُّ مَيِّتٍ غَيْرُ مُتَحَرِّكٍ لَا مَحَالَةَ " . انظر : نقض الإمام أبي سعيد عثمان بن سعيد على المريسي الجهمي العنيد فيما افترى على الله عز وجل من التوحيد ، أبو سعيد عثمان بن سعيد بن خالد بن سعيد الدارمي السجستاني ، (١/ ٢١٥) .

وهذا كلام صريحٌ في التجسيم الذي اشتهر به عثمان الدَّارمي ، فالنُّزول والمجيء والإتيان صفات منفيَّة عن الله تعالى من طريق الحركة والانتقال التي هي انتقال من مكان إلى مكان ، لأنَّ الحركة لا تتم إلا من خلال جسم ينتقل من مكان إلى آخر ، والله تعالى ليس جسماً ، وغير حالٍّ في مكان ... كما أنَّ كلامه يحمل تصريحاً قبيحاً بحلول الحوادث في الله تعالى ، والعياذ بالله...

وأبو سعيد عثمان بن سعيد بن خالد بن سعيد الدَّارمي السِّجستاني ، هو غير الدَّارمي صاحب السُّنن المشهور الذي هو أبو محمَّد عبد الله بن عبد الرَّحمن بن الفضل بن بَهرام بن عبد الصَّمد الدَّارمي ، التَّميمي السَّمرقندي (٢٥٥هـ).

وقال عثمان الدارمي أيضاً : " وَادَّعَى الْمُعَارِضُ أَيْضاً أَنَّهُ لَيْسَ لِلَّهِ حَدٌّ !!! وَلَا غَايَةٌ وَلَا نِهَايَةٌ !!! ، وَهَذَا هُوَ الْأَصْلُ الَّذِي بنى عَلَيْهِ جهم ضَلَالَاتِهِ ، وَاشْتَقَّ مِنْهَا أُغْلُوطَاتِهِ ، وَهِيَ كَلِمَةٌ لَمْ يَبْلُغْنَا أَنَّهُ سَبَقَ جَهْماً إِلَيْهَا أَحَدٌ مِنَ الْعَالَمِينَ " . والتحديد هو عين التجسيم ولبُّه ، والعياذ بالله تعالى...

وقال عثمان الدارمي أيضاً : " ... بَلْ هُوَ بَائِنٌ مِنْ خَلْقِهِ فَوْقَ عَرْشِهِ بِفُرْجَةٍ بَيِّنَةٍ !!! ، وَالسَّمَوَاتُ السَّبْعُ فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ خَلْقِهِ فِي الْأَرْضِ " . مع أنَّ السلف الصالح لم يعرفوا مصطلح " بائن من خلقه " البتة ، وقد اعترف الألباني بذلك – كما سيأتي –

وقال عثمان الدارمي أيضاً : " وَقَدْ بَلَغَنَا أَنَّهُمْ حِينَ حَمَلُوا الْعَرْشَ وَفَوْقَهُ الْجَبَّارُ !!! فِي عِزَّتِهِ ، وَبَهَائِهِ ضَعُفُوا عَنْ حَمْلِهِ وَاسْتَكَانُوا !!! وَجَثَوْا عَلَى رُكَبِهِمْ ، حَتَّى لُقِّنُوا : " لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ " فَاسْتَقَلُّوا بِهِ بِقُدْرَةِ اللَّهِ وَإِرَادَتِهِ ، لَوْلَا ذَلِكَ مَا اسْتَقَلَّ بِهِ الْعَرْشُ ، وَلَا الْحَمَلَةُ ، وَلَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَلَا مَنْ فِيهِنَّ ، وَلَوْ قَدْ شَاءَ لَاسْتَقَرَّ عَلَى ظَهْرِ بَعُوضَةٍ !!! فَاسْتَقَلَّتْ بِهِ بِقُدْرَتِهِ وَلُطْفِ رُبُوبِيَّتِهِ ، فَكَيْفَ عَلَى عَرْشٍ عَظِيمٍ أَكْبَرَ مِنَ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَالْأَرَضِينَ السَّبْعِ ؟ وَكَيْفَ يُنْكِرُ أَيُّهَا النفاج أَنَّ عَرْشه يقلّهُ " !!! فلا حول ولا قوة إلا بالله ، وعياذاً بالله من هذا الكلام الشنيع الفضيع الذي لا يصدر إلا من إنسان لا يعرف ما يجب لله وما يجوز ويستحيل عليه ...

وقال عثمان الدَّارمي أيضاً : " مَنْ أَنبَأَكَ أَنَّ رَأْسَ الْجَبَلِ لَيْسَ بِأَقْرَبَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَىٰ مِنْ أَسْفَلِهِ ؟!!! ؛ لِأَنَّهُ مَنْ آمَنَ بِأَنَّ اللَّهَ فَوْقَ عَرْشِهِ فَوْقَ سَمَوَاتِهِ عَلِمَ يَقِيناً أَنَّ رَأْسَ الْجَبَلِ أَقْرَبُ إِلَىٰ اللَّهِ مِنْ أَسْفَلِهِ !!! وَأَنَّ السَّمَاءَ السَّابِعَةَ أَقْرَبُ إِلَىٰ عَرْشِ اللَّهِ تَعَالَىٰ مِنَ السَّادِسَةِ ، وَالسَّادِسَةَ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنَ الْخَامِسَةِ ، ثُمَّ كَذَلِكَ إِلَىٰ الْأَرْضِ . كَذَلِكَ رَوَىٰ إِسْحَاقُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ الْحَنْظَلِيُّ ، عَنِ ابْنِ الْمُبَارَكِ أَنَّهُ قَالَ : " رَأْسُ الْمَنَارَةِ أَقْرَبُ إِلَىٰ اللَّهِ مِنْ أَسْفَلِهِ وَصَدَقَ ابْنُ الْمُبَارَكِ ؛ لِأَنَّ كُلَّ مَا كَانَ إِلَىٰ السَّمَاءِ أَقْرَبُ كَانَ إِلَىٰ اللَّهِ أَقْرَبَ " ... انظر : نقض الإمام أبي سعيد عثمان بن سعيد على المريسي الجهمي العنيد فيما افترىٰ على الله عز وجل من التوحيد ، أبو سعيد عثمان بن سعيد بن خالد بن سعيد الدارمي السجستاني ، (١/ ٢٢٣) ، (١/ ٤٤١) ، (١/ ٤٥٨) ، (١/ ٥٠٤) بالترتيب .

تضافرت أقوال أهل العلم في الكلام علىٰ قوله تعالىٰ : **﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾** [الفجر : ٢٢] ، وبرهنوا في كلامهم علىٰ عدم دلالتها علىٰ ما يدَّعيه مدَّعو السَّلفيَّة من إضافة الحركة والنُّقلة إلىٰ الله تعالىٰ ، وأكَّدوا علىٰ ضرورة تنزيه الله تعالىٰ عن الحركة ، والتَّحوُّل ، والمجيء ، والإتيان ، والهرولة ، والانتقال من مكان إلىٰ مكان ، وأنَّه سبحانه وتعالىٰ لا يحويه مكان ، ولا يؤثر فيه الزَّمان والمكان ، إذ هما خلق من خلقه تعالىٰ ، وأنَّه سبحـــانه وتعالىٰ : **﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾** [الشورىٰ: ١١] .

وها أنذا موردٌ بعضاً !!! من أقوال فحول العلماء في تفسير قوله سبحانه وتعالىٰ : **﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾** [الفجر : ٢٢] .

قال حَبْرُ الأمَّة وتُرجمان القرآن : عبد الله بن عبَّاس ، رضي الله عنهما ، في تفسير المجيء الوارد في قوله تعالىٰ : **﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾** [الفجر : ٢٢] ، قال : أمرُه وقضاؤه "...انظر : الوسيط في تفسير القرآن المجيد (٤/ ٤٨٤ ، ٤٨٥) ، غرائب التفسير وعجائب التَّأويل (٢/ ١٣٣٨) ، الجامع الصَّحيح مسند الإمام الربيع بن حبيب (ص٣٣١ برقم ٨٦٨) .

وقال الإمام الرَّبيع بن حبيب بن عمر الأزدي البصري في " الجامع الصَّحيح مسند الإمام الربيع بن حبيب" (١/ ٣٣١) : " ... وكذلك قوله : **﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾** [الفجر : ٢٢] ، يعني : بأمره وقضائه ، قال ابن عبَّاس ، والحسن ، وأبو صالح ، وعمرو : ومعنىٰ : **﴿وَجَاءَ رَبُّكَ﴾** [الفجر : ٢٢] ، أي : وجاء أمرُ ربِّك ، أي : قضاؤه " .

فالإمام الرَّبيع بن حبيب نقل عن حبر الأمَّة وترجمان القرآن تأويله للمجيء المضاف إلىٰ الله تعالىٰ بمجيء أمره وقضائه سبحانه ، وكذا نقل عن غيره من سلف الأمَّة ، فأين من يدَّعون السَّلفيَّة من هذا التَّأويل وغيره...

يضاف لذلك أنَّ الباحث لو استوعب تأويلات السَّلف المبثوثة في بطون الكتب لصنع سفراً عظيماً ، وقد انتهيت بحمد الله تعالىٰ من تصنيف كتاب بعنوان : " إعلامُ الخلف بتأويلات السَّلف..."

فمن تأويلات حبر الأمَّة وترجمان القرآن:

١ -تأويله للكرسي الوارد في قوله تعالىٰ : ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ﴾ [البقرة : ٢٥٥]: فقد جاء في تفسير الطَّبري عند تفسيره لآية الكرسي ما نصّه : " اختلف أهل التَّأويل في معنىٰ الكرسي الذي أخبر الله تعالىٰ ذكره في هذه الآية أنَّه وسع السَّموات والأرض ، فقال بعضهم : هو علم الله تعالىٰ ذكره.... وأمَّا الذي يدُلُّ علىٰ ظاهر القرآن فقول ابن عبَّاس الذي رواه جعفر بن أبي المغيرة عن سعيد بن جبير أنَّه قال : هو علمه... " اهـ ... انظر : جامع البيان في تأويل القرآن (٥/ ٣٩٨) ، تفسير مقاتل بن سليمان (٥/ ١٠٦) ، تفسير القرآن العظيم ، ابن أبي حاتم (٢/ ٤٩٠) ، بحر العلوم (١/ ١٩٤) ، تفسير الماوردي (النكت والعيون) (١/ ٣٢٦) ، الوسيط في تفسير القرآن المجيد (١/ ٣٦٨) ، تفسير القرآن العظيم ، ابن كثير (٢/ ٤٤١) ، التحرير والتنوير (٣/ ٢٣) .

قلت : وقد تعمَّدت أن أنقل أغلب تأويلات ابن عبَّاس من تفسير الطَّبري ، لأنَّ من المعلوم أنَّ الإمام ابن تيمية زكَّىٰ وامتدح تفسير الإمام الطَّبري ، وذكر أنَّ النَّقل فيه محرَّر ، وأنَّه ينْقل فِيهِ كَلَام السَّلف بِالْإِسْنَادِ . راجع : دقائق التفسير الجامع لتفسير ابن تيمية (٢/ ٤٧٩) .

٢ -تأويله للنُّور الوارد في قوله تعالىٰ : ﴿الله نُورُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ﴾ [النور : ٣٥] ، قال الطَّبري : حَدَّثَنِي عَلِيُّ ، قَالَ : ثنا عَبْدُ اللَّهِ ، قَالَ : ثني مُعَاوِيَةُ ، عَنْ عَلِيٍّ ، عَنِ ابْنِ عبَّاس ، قَوْلُه : ﴿الله نُورُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ﴾ [النور : ٣٥] ، يَقُولُ : الله سُبْحَانَهُ هَادِي أَهْلِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ " ...انظر : تفسير الطَّبري (جامع البيان عن تأويل آي القرآن) (١٧/ ٢٩٥) ، تفسير القرآن العظيم ، ابن أبي حاتم (٨/ ٢٥٩٣) ، تفسير الماوردي (النكت والعيون) (٤/ ١٠٢) ، الوسيط في تفسير القرآن المجيد (٣/ ٣٢٠) ، تفسير القرآن ، أبو المظفرالسمعاني (٣/ ٥٢٩) ، معالم التنزيل في تفسير القرآن (تفسير البغوي) (٦/ ٤٥) ، التسهيل لعلوم التنزيل (٢/ ٧٠) ، تفسير الخازن المسمىٰ لباب التَّأويل في معاني التنزيل (٥/ ٧٦) ، تفسير القرآن العظيم ، ابن كثير (٦/ ٥٧) .

٣ -تأويله للأعين الواردة في قوله تعالىٰ : ﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ﴾ [هود : ٣٧] ، قال الإمام البغوي : ﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ﴾ [هود : ٣٧] ، قَالَ ابْنُ عبَّاس : بِمَرْأَىٰ مِنَّا " . انظر : معالم التنزيل في تفسير القرآن (تفسير البغوي) (٢/ ٤٤٧) ، زاد المسير في علم التفسير (٢/ ٣٧١) ، الجامع لأحكام القرآن (٩/ ٣٠) ، تفسير الخازن المسمىٰ لباب التَّأويل في معاني التنزيل (٣/ ٢٢٩) .

٤ -تأويله للأَيد الواردة في قوله تعالىٰ : ﴿وَالسَّماءَ بَنَيْناها بِأَيْدٍ﴾ [الذاريات : ٤٧] ، قال الطَّبري : حدثني عليّ ، قال : ثنا أبو صالح ، قال : ثني معاوية ، عن عليّ ، عن ابن عبَّاس ، قوله : " وَالسَّماءَ بَنَيْناها بِأَيْدٍ "

[الذاريات : ٤٧] ، يقول : بقوة " ...انظر : جامع البيان في تأويل القرآن (٢٢/ ٤٣٨) ، تفسير القرآن العظيم ، ابن أبي حاتم (١٠/ ٣٣١٣) ، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (٥/ ١٨١) ، زاد المسير في علم التفسير (٨/ ٣٨) ، الجامع لأحكام القرآن (١٧/ ٥٢) ، تفسير الخازن المسمىٰ لباب التَّأويل في معاني التنزيل ، تفسير القرآن العظيم ، ابن كثير (٧/ ٥٧) ، الدر المنثور (٧/ ٦٢٣) ، فتحُ البيان في مقاصد القرآن (١٣/ ٢٠٨) .

٥ -تأويله للسَّاق الوارد في قوله تعالىٰ : **﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ ساقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلا يَسْتَطِيعُونَ﴾** [القلم : ٤٢] : قال الطَّبري : " حدَّثني محمَّد بن عبيد المحاربيّ ، قال : ثنا عبد الله بن المبارك ، عن أُسامة بن زيد ، عن عكرمة ، عن ابن عبَّاس **﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ ساقٍ﴾** [القلم : ٤٢] ، قال : هو يوم حرب وشدَّة.

حدَّثنا ابن حميد ، قال : ثنا مهران ، عن سفيان ، عن المغيرة ، عن إبراهيم ، عن ابن عبَّاس **﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ ساقٍ﴾** [القلم : ٤٢] ، قال : عن أمر عظيم ، كقول الشَّاعر : وقامَتِ الحَرْبُ بنا علىٰ ساقٍ " . انظر : جامع البيان في تأويل القرآن (٢٣/ ٥٥٤) ، تفسير مقاتل بن سليمان (٤/ ٤٠٩) ، تفسير القرآن العظيم ، ابن أبي حاتم (١٠/ ٣٣٦٦) ، بحر العلوم (٣/ ٤٦٣) (١٠/ ١٨) ، الهداية إلىٰ بلوغ النهاية في علم معاني القرآن (١٢/ ٧٦٤٤) ، تفسير الماوردي (النكت والعيون) (٦/ ٧٠) ، الوسيط في تفسير القرآن المجيد (٤/ ٣٣٩) ، تفسير القرآن ، أبو المظفر السمعاني (٦/ ٢٨) ، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (٥/ ٣٧٨) ، زاد المسير في علم التفسير (٤/ ٣٢٥) ، الجامع لأحكام القرآن (١٨/ ٢٤٨) ، تفسير القرآن العظيم ، ابن كثير (٨/ ١٩٩) ، الجواهر الحسان في تفسير القرآن (٥/ ٤٧٠) ، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير (٥/ ٢٧٨) .

٦ -تأويله لمجيء الرَّبِّ الوارد في قوله تعالىٰ : **﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾** [الفجر : ٢٢] . قال الإمام النسفي في " مدارك التَّنزيل وحقائق التَّأويل" (٣/ ٦٤١) : **﴿وَجَاءَ رَبُّكَ﴾** [الفجر : ٢٢] ، تمثيل لظهور آيات اقتداره ، وتبيين آثار قهره وسلطانه ، فإنَّ واحداً من الملوك إذا حضر بنفسه ظهر بحضوره من آثار الهيبة ما لا يظهر بحضور عساكره وخواصِّه ، وعن ابن عبَّاس : أمره وقضاؤه " .

فهذه باقة من تأويلات حبر الأمَّة وترجمان القرآن : ابن عبَّاس رضي الله عنهما ، الصَّحابي الجليل الذي دعـا له رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بقوله : " اللهمَّ فَقِّهْهُ فِي الدِّين ، وَعَلِّمْهُ التَّأويل " . قال الشَّيخ شعيب الأرنؤوط : " إسناده قوي علىٰ شرط مسلم ، رجاله ثقات رجال الشيخين غير عبد الله بن عثمان بن خثيم ، فمن رجال مسلم ، وهو صدوق ... وأخرجه يعقوب بن سفيان في " المعرفة والتاريخ " ١/ ٤٩٤ من طريقين عن زهير أبي خيثمة، بهذا الإسناد ، وأخرجه الطبراني (١٠٦١٤) من طريق داود بن أبي هند ، عن سعيد بن جبير ، به . قوله : " وعلمه التَّأويل " ، قال السندي : المراد بالتأويل : تأويل القرآن ، فكان يُسمىٰ بحراً ، وترجمان القرآن ، والله تعالىٰ أعلم . انظر هامش مسند الإمام أحمد بن حنبل (٤/ ٢٢٥) .

والجدير بالذِّكر هنا أنَّ ما ذهب إليه جمهور الأشاعرة والماتريديَّة – والذين يشكِّلون السَّواد الأعظم من كيان الأمَّة – ومن وافقهم ، في النُّصوص المضافة إلىٰ الله تعالىٰ ، هو عينُ ما نُقل عن ابن عبَّاس وغيره

من السَّلف والخلف في التَّأويل ، ولذلك فإنَّ اتِّهامهم بالتَّعطيل والابتداع والتَّجهُّم ، هو اتِّهام للسَّلف والخلف ، الذين نقلنا عنهم تأويلاتهم لنصوص المتشابه ، على حدٍّ سواء ، ومن ضمنها : تأويلهم للنُّزول والإتيان والمجيء المضاف إلى الله تعالى ...

وقال الإمام أبو بكر عبد الله بن محمَّد بن عبيد بن سفيان بن قيس البغدادي الأموي القرشي المعروف بابن أبي الدُّنيا في " الأهوال " (ص١٢٥) : " دثنا يُوسُفُ ، دثنا أَبُو أُسَامَةَ ، دثنا الْأَجْلَحُ ، عَنِ الضَّحَّاكِ ، قَالَ : إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ أَمَرَ الله السَّمَاوَاتِ فَتَشَقَّقَتْ بِأَهْلِهَا ، وَنَزَلَ مَنْ فِيهَا مِنَ الْمَلَائِكَةِ ، فَأَحَاطُوا بِالْأَرْضِ ، ثمَّ الثَّانِيَةَ ، ثمَّ الثَّالِثَةَ ، حَتَّى عَدَّ سَبْعاً صَفًّا دُونَ صَفٍّ ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ : **﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾** [الفجر : ٢٢] .

وقال الإمام أبو الحسن الأشعري في " رسالة إلى أهل الثغر بباب الأبواب" (ص١٢٨ ، ١٢٩) : " وأجمعوا على أنَّه عزَّ وجلَّ يجيء يوم القيامة والملك صفاً صفاً ، لعرض الأمم وحسابها وعقابها وثوابها ، فيغفر لمن يشاء من المذنبين ، ويعذِّب منهم من يشاء كما قال ، وليس مجيئه حركة ولا زوالاً ، وإنَّما يكون المجيء حركة وزوالاً إذا كان الجائي جسماً أو جوهراً ، فإذا ثبت أنَّه عزَّ وجلَّ ليس بجسم ولا جوهر ، لم يجب أن يكون مجيئه نقلة أو حركة ..." .

فالإمام الأشعري السَّلفي ينزِّه الله تعالى عن الحركة والنُّقلة التي يصف الله تعالى بها من يدَّعون السَّلفيَّة ، فيقول : وليس مجيئه حركة ولا زوالاً ، وإنَّما يكون المجيء حركة وزوالاً إذا كان الجائي جسماً أو جوهراً ، فإذا ثبت أنَّه عزَّ وجلَّ ليس بجسم ولا جوهر ، لم يجب أن يكون مجيئه نقلة أو حركة ، وهذا هو ما أجمعت عليه الأمَّة ... فقد أجمعوا على نفي الحركة والسُّكون عنه سبحانه ولم يشذ عن ذلك إلَّا رعاع تمسَّحوا بالسَّلف وجعلوهم شمَّاعة يعلِّقون عليها أفكارهم التي عارضها علماء الأمَّة عبر الأزمنة المتعاقبة ...

ولنا مع قول الإمام الأشعري : " وإنَّما يكون المجيء حركة وزوالاً إذا كان الجائي جسماً " وِقفة ، ذلك أنَّ الحركة والنُّقلة لا تليق إلَّا بالأجسام ، ولذلك لا يتورَّع مدَّعو السَّلفيَّة عن وصف الله تعالى بالجسم ... وقد ذكرنا طرفاً من أقوالهم في ذلك فيما تقدَّم ... حيث نصَّ شيخهم ابن تيمية على أنَّ اسم المُشبِّهة ليس لهم ذكر بذمٍّ في الكتاب والسُّنَّة...

وهذا كلام غريب عجيب من الإمام ابن تيمية ، فهل المشبِّهة لا ذكر لهم بذمٍّ في الكتاب ولا في السُّنَّة ؟!! مع أنَّ تشبيههم يصطدم مع القواطع النَّقليَّة والعقليَّة ، وإذا كان أمر المشبِّهة عنده هكذا ، فلا يصحُّ في

الأذهان شيء إذا احتاج النَّهار إلىٰ دليل . قال الإمام ابن جماعة في " إيضاح الدَّليل في قطع حجج أهل التَّعطيل" (ص٩٣) : " وَمن انتحل قَول السَّلف وَقَالَ بتشبيه أَو تكييف أَو حمل اللَّفْظ علىٰ ظَاهره مِمَّا يتعالىٰ الله عَنهُ من صِفَات الْمُحدثين فَهُوَ كَاذِب فِي انتحاله ، بَرِيء من قَول السَّلف واعتداله ."

وقال الإمام العز بن عبد السَّلام في "طبقات الشَّافعيَّة الكبرىٰ" (٨/ ٢٢٢-٢٢٣) فيما نقله عنه الإمام تاج الدِّين السُّبكي في طبقاته : " والحشويَّة المشبِّهة الَّذين يشبِّهون الله بخلقه ضَرْبَان : أَحدهمَا لَا يتحاشىٰ من إِظْهَار الحشو ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلى شَيْءٍ﴾ [المجادلة : ١٨] ، وَالْآخر يتستَّر بِمذهب السَّلف ، لسحتٍ يَأْكُلـــهُ أَو حطام يَأْخُذهُ.

أظهرُوا للنَّاس نسكاً وعَلىٰ المنقوش داروا

﴿يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ﴾ [النساء : ٩١] ، وَمذهب السَّلف إِنَّما هُوَ التَّوْحِيد والتَّنزيه دون التَّجسيم والتَّشبيه ، وَلذَلِك جَمِيع المبتدعة يَزْعمُونَ أَنَّهم علىٰ مَذْهَب السَّلف ، فهم كَمَا قَالَ الْقَائِل:

وكلٌّ يدعونَ وصال ليلىٰ وليلىٰ لَا تقر لَهُم بذاكا

وَكَيف يدَّعي علىٰ السَّلف أَنَّهم يَعْتَقِدُونَ التَّجسيم والتَّشبيه أَو يسكتون عِنْد ظُهُور الْبدع ، ويخالفون قَوْله تَعَالَىٰ : ﴿وَلا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة : ٤٢] ، وَقَوله : ﴿وَإِذْ أَخَذَ الله مِيثاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلا تَكْتُمُونَهُ﴾ [آل عمران : ١٨٧] ، وَقَوله : ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل : ٤٤] .

فكلُّ هذا وغيره هو الذي دفع شيخ الإسلام تقي الدِّين السُّبكي إلىٰ أن يقول : " وأمَّا الحشويَّة فهي طائفة رذيلة جهَّال ينتسبون إلىٰ أحمد ، وأحمد مبرَّأ منهم ، وسبب نسبتهم إليه أنَّه قام في دفع المعتزلة ، وثبت في المحنة رضي الله عنه ، ونُقلت عنه كليمات ما فهمها هؤلاء الجهَّال ، فاعتقدوا هذا الاعتقاد السيّء ، وصار المتأخِّر منهم يتبع المتقدِّم إلَّا من عصمه الله ، وما زالوا من حين نبغوا مستذلّين ، ليس لهم رأس ولا من يناظر ، وإنَّما كانت لهم في كلِّ وقت ثورات ، ويتعلَّقون ببعض أتباع الدُّول !!! ويكفي الله شرَّهم . وما تعلَّقوا بأحد إلَّا كانت عاقبته إلىٰ سوء !!! ... ثمَّ جاء في أواخر المائة السَّابعة رجلٌ له فضلُ ذكاء واطّلاع ، ولم يجد شيخاً يهديه ، وهو علىٰ مذهبهم ، وهو جسورٌ ، متجرِّدٌ لتقرير مذهبه ، ويجد أُموراً بعيدة فبجسارته يلتزمها ، فقال بقيام الحوادث بذات الرَّبِّ سبحانه وتعالىٰ ، وأنَّ الله سبحانه ما زال فاعلاً ، وأنَّ التَّسلسل ليس بمحال في ما مضىٰ ، كما هو في ما سيأتي ، وشقَّ العصا ، وشوَّش عقائد المسلمين

، وأغرىٰ بينهم ، ولم يقتصر ضرره علىٰ العقائد في علم الكلام ، حتّىٰ تعدَّىٰ ، وقال : إنَّ السَّفر لزيارة النَّبيّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ معصية " . انظر : السيف الصقيل في الردّ علىٰ ابن زفيل (ص١٦-١٨ ببعض الاختصار).

وفتوىٰ ابن تيمية في اعتبار السَّفر لزيارة قبر الرَّسول صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ معصية لا تُقصر فيها الصَّلاة موجودة بصريح العبارة في كتبه ... قال الإمام ابن تيمية : " بَلْ نَفْسُ السَّفَرِ لِزِيَارَةِ قَبْرٍ مِنْ الْقُبُورِ – قَبْرُ نَبِيٍّ أَوْ غَيْرِهِ – مَنْهِيٌّ عَنْهُ عِنْدَ جُمْهُورِ الْعُلَمَاءِ حَتَّىٰ أَنَّهم لَا يُجَوِّزُونَ قَصْدَ الصَّلاة فِيهِ بِنَاءً عَلَىٰ أَنَّه سَفَرُ مَعْصِيَةٍ " . وقال أيضاً " ... لأنَّ السَّفر إلىٰ زيارة قبور الأنبياء والصَّالحين بدعة لم يفعلها أحد من الصَّحابة ولا التَّابعين ، ولا أمر بها رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، ولا استحبَّ ذلك أحد من أئمَّة المسلمين ، فمن اعتقد ذلك عبادة وفعلها فهو مخالف للسُّنَّة ولإجماع الأئمَّة . انظر : مجموع الفتاوىٰ (٤/ ٥٢٠) ، (٢٧/ ١٨٧) بالترتيب.

وقال في " الإخنائيَّة " (أو الرَّد علىٰ الإخنائي) (ص١١٣) : " وإذا سافر لاعتقاده أنَّ ذلك طاعة كان ذلك محرَّماً بالإجماع " .

ولا حول ولا قوَّة إلَّا بالله ... وللعبد الفقير كتاب مستقل في الرَّدِّ عليه في هذه المسألة التي أثارت عليه أهل العلم في القديم والحديث ، ولأجلها وغيرها دخل السَّجن عدَّة مرَّات ، ومات فيه...

وقال الإمام محمَّد بن محمَّد بن محمود، أبو منصور الماتريدي في " تفسير الماتريدي (تأويلات أهل السُّنَّة) (١٠/ ٥٢٣-٥٢٥) : " وقوله : ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر : ٢٢] ، يحتمل أوجهاً:

أحدها : أن يكون معناه : وجاء ربُّك بالملك ؛ إذ يجوز أن تستعمل الواو مكان الباء ؛ ألا ترىٰ إلىٰ قوله – تعالىٰ – : ﴿قالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَنْ نَدْخُلَها أَبَداً ما دامُوا فِيها فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقاتِلا إِنَّا هاهُنا قاعِدُونَ﴾ [المائدة : ٢٤] ، ومعناه : بربك ، وإذا حمل علىٰ هذا ارتفعت الشُّبهة ، واتضح الأمر ؛ لأنَّه لو كان قال : وجاء ربُّك بالملك ، لكان لا ينصرف وهْمُ أحد إلىٰ الانتقال من مكان إلىٰ مكان ، وقال تعالىٰ : ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ أَنْ يَأْتِيَهُمُ الله فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمامِ﴾ [البقرة : ٢١٠] ، ومعناه – واللَّه أعلم – : بظلل من الغمام ؛ لأنَّه قال في موضع آخر : ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّماءُ بِالْغَمَامِ﴾ [الفرقان : ٢٥] ؛ فثبت أنَّ معنــــاه ما ذكرنا ، وإذا ثبت هذا ارتفع الرَّيب والإشكال .

ومنهم من ذكر أنَّ معنىٰ قوله : ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر : ٢٢] ، وقوله : ﴿إِلاَّ أَنْ يَأْتِيَهُمُ الله﴾ [البقرة : ٢١٠] ، أي : أمر اللَّه ؛ دليله ما ذكر في سورة النَّحل قوله : ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ [النحل : ٣٣] ، فذكر مكان قوله : ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ﴾ [الفجر : ٢٢] : ﴿أَمْرُ رَبِّكَ﴾ [النحل : ٣٣] .

ويحتمل أن يكون قوله : ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ﴾ [الفجر: ٢٢] ، أي : جاء وعدُه ووعيدُه ، فنسب المجيء إلىٰ اللَّه تعالىٰ ، وإن لم يكن ذلك وصفاً له ؛ لأَنَّه يجوز أن تُنسب آثار الأفعال إلىٰ اللَّه – تعالىٰ – نسبة حقيقة الفعل وإن لم يوصف به ، كما قال اللَّه تعالىٰ : ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ﴾ [التحريم : ١٢] ، فأضيف النَّفخ إليه وإن لم يوصف بأنَّه نافخ !!! وقال : ﴿وَكَتَبْنا عَلَيْهِمْ فِيها أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ﴾ [المائدة : ٤٥] ، فأضيفت الكتابة إليه وإن لم يوصف بأنَّه كاتب !!! لما أنَّ ما ظهر من آثار فعله ، ويقال : المطر رحمة اللَّه ؛ أي : من آثار رحمته ، لا أن يكون المطر صفة له ، ويقال . الصَّلاة أمر الله ، والزَّكاة أمر الله ، أي : بأمر الله نصلِّي ، وبأمره نزكِّي ، لا أن يكونا وصفين له.

ووجه آخر : أن يكون معنىٰ قوله تعالىٰ : ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ﴾ [الفجر : ٢٢] ، أي : جاء الوقت الذي به صار إنشاء هذا العالم حكمة ؛ إذ لولا البعث للجزاء ، لكان إنشاء هذا العالم ثمَّ الإهلاك خارجاً مخرج العبث ؛ لما وصفناه من قبل ؛ لقوله : ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّما خَلَقْناكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنا لا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون : ١١٥] ؛ فثبت أنَّ خلقه إنَّما صار حكمة بالبعث ، وقال اللَّه تعالىٰ : ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْواحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر : ١٦] ، وقد كان الملك له قبل ذلك اليوم ، ولكن ملكه لكلِّ أحد يتبيَّن في ذلك الوقت ، وقال : ﴿وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعاً﴾ [إبراهيم : ٢١] ، وقد كان كلُّ شيء له بارزًا، ولكـــن معناه : أنَّه أتىٰ الوقت الذي له برز الخلائق.

ثمَّ الأصل في كلِّ ما أُضيف إلىٰ اللَّه تعالىٰ أن ينظر إلىٰ ما يليق أن يوصل بالمضاف إليه ، فتصله به وتجعله مضمراً فيه ، قال اللَّه تعالىٰ : ﴿مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوى ثَلاثَةٍ إِلاَّ هُوَ رابِعُهُمْ﴾ [المجادلة : ٧] ، ولم يفهم إثبات الحضور ، وكان معناه : أنَّ علمه محيط بهم ، وهو مطَّلع عليهم.

وقال : ﴿فَأَتاهُمُ الله مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا﴾ [الحشر : ٢] ، ولم يفهم به الانتقال ؛ بل كان معناه : أنَّه جاءهم بأسه ، وجاء لأوليائه نصره.

وقال : ﴿قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَى الله بُنْيانَهُمْ مِنَ الْقَواعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتاهُمُ الْعَذابُ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ﴾ [النحل : ٢٦] ، ولم يفهم بهذا الإتيان ما فهم من الإتيان الذي يضاف إلىٰ الخلق . وقال اللَّه تعالىٰ : ﴿إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدامَكُمْ﴾ [محمَّد : ٧] ، وكان معناه : إن تنصروا دين اللَّه ؛ لا أنَّ اللَّه تعالىٰ يلحقه ضعف يحتاج إلىٰ من يقوِّيه .

وقال اللَّه تعالىٰ : ﴿وَقُلْ جاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْباطِلُ﴾ [آل عمران : ٢٨] ، وكان معناه : أنَّه يحذِّركم عذابه ؛ لا أن أريد به تحقيق النَّفس.

ومثل هذا في القرآن أكثر من أن يحصىٰ ؛ فثبت أنَّ محل الإضافات ما ذكرنا ؛ فلذلك حمل علىٰ الوعد والوعيد ، أو علىٰ الوقت الذي به صار خلق العالم حكمة ، أو علىٰ ما صلح فيه من الإضمار.

وممَّا يدلُّ علىٰ أنَّه لا يُفهم بالمجيء معنىٰ واحد ، بل يقتضي معاني : أنَّ المجيء إذا أضيف إلىٰ الأعراض ، فُهِم به غير الذي يفهم به إذا أضيف إلىٰ الأجسام ؛ فإنه إذا أضيف إلىٰ الأعراض أُريد به الظُّهور ؛ قال اللَّه تعالىٰ : ﴿إِذا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ [النصر : ١] ، ومعناه : إذا ظهر نصره ، ولم يرد به الانتقال ، ولو كان مضافاً إلىٰ الجسم ، فهم منه الانتقال من موضع إلىٰ موضع.

وقال اللَّه تعالىٰ : ﴿وَقُلْ جاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْباطِلُ﴾ [الإسراء : ٨١] ، ومعناه : ظهر الحق ، واضمحل الباطل ، لا أن يكون الحقّ في مكان ، فنقل عنه إلىٰ غيره ؛ فثبت أنَّ المجيء إذا أضيف إلىٰ شيء وجب أن يوصل به ما يليق به ؛ لا أن يُفهم به كله معنىٰ واحد " .

وقال الإمام الطَّبَرَانِيُّ في " التفسير الكبير" (٦/ ٤٩٩) : ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر : ٢٢] ، أي : وجاء أمرُ ربِّك بالمجازاة والمحاسبة ، والملائكة صفوف صفّاً بعد صفٍّ عند حساب النَّاس ، يشاهدون ما يجري عليهم ، ويقال : إنَّ الملائكة يصفُّون صفّاً حول الجنِّ والإنس يحيطون بهم " .

وقال الإمام الجصَّاص الحنفي في " الفصول في الأصول" (١/ ١٤٠) : " وقَوْله تَعَالَىٰ : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ [الأحزاب : ٥٧] ، بِمَنْزِلِهِ : إنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ ، ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ﴾ [الفجر : ٢٢] ، كَقَوْلِهِ : ﴿جَاءَ أَمْرُ رَبِّك﴾ . فَتَصِيرُ الدَّلَائِلُ الْمُوجِبَةُ لِكَوْنِ اللَّفْظِ مَجَازاً هِيَ الْمُوجِبَةَ أَنْ يَكُونَ حَقِيقَةً " .

وقال الإمام أبو بكر أحمد بن علي الرَّازي الحنفي في " شرح بدء الأمالي" (ص٢٠٣) : " وأمَّا المراد بالإتيان مثل قوله : ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ﴾ [الفجر : ٢٢] ، قال بعض المفسِّرين : أي : وجاء أمرُ ربِّك" .

وقال الإمام أبو الليث السَّمرقندي في " بحر العلوم (٣/ ٥٨٠) : ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ﴾ [الفجر : ٢٢] ، قال بعضهم : هذا من المكتوم الذي لا يفسَّر ، وقال أهل السُّنَّة وجاء ربُّك بلا كيف ، وقال بعضهم : معناه : وجاء أمرُ ربِّك بالحساب " .

وقال الإمام علي بن عيسىٰ بن علي بن عبد الله ، أبو الحسن الرمَّاني المعتزلي في " النُّكت في إعجاز القرآن " (مطبوع ضمن : ثلاث رسائل في إعجاز القرآن) (ص١٠٤-١٠٥) في كلامه علىٰ ضروب المبالغة : " الضّرب الثَّالث : إخراج الكلام مخرج الإخبار عن الأعظم الأكبر للمبالغة ، كقول القائل : جاء الملك ، إذا جاء جيش عظيم له ، ومنه قوله عزَّ وجلَّ : ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ﴾ [الفجر : ٢٢] ، فجعل مجيء دلائل الآيات

مجيئاً له على المبالغة في الكلام ، ومنه : ﴿فَأَتَى الله بُنْيانَهُمْ مِنَ الْقَواعِدِ﴾ [النحل : ٢٦] ، أي : أتاهم بعظيم بأسه ، فجعل ذلك إتياناً له على المبالغة " .

وقال الإمام أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران العسكري في " معجم الفروق اللغويَّة" (ص١٣٤) : " وحمل قوله سبحانه : ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ﴾ [الفجر : ٢٢] ، على أنَّ المراد والمجيء أمرُ الرَّبِّ أو جنوده وملائكته الفعالة لقيام الأدلَّة القاطعة على امتناع ... المجيء ، والذَّهاب ، وأمثالهما عليه سبحانه" .

وقال الإمام محمَّد بن الطيِّب بن محمَّد بن جعفر بن القاسم ، القاضي أبو بكر الباقلَّاني المالكي في " الانتصار للقرآن" (ص٧٣٦) : " ... أنَّه يجيء ويأتي بغير زوالٍ ولا انتقالٍ ولا تكييف ، بل يجبُ تسليمُ ذلك على ما رُوي وجاء به القرآن.

والجواب الآخر : أنَّه يَفْعل معنىً يُسمِّيه مجيئاً وإتياناً ، فيقال : جاء الله بمعنى أنَّه فعلَ فعلاً كأنّه جائياً ، كما يقال : أحسنَ الله ، وأنعم وتفضلَ على معنى أنَّه فعل فعلاً استوجبَ به هذه الأشياء.

ويمكن أن يكون أراد بذلك إتيان أمْرِه وحُكمِه والأهوالِ الشَّديدةِ التي توعدَّهم بها وحذَّرهم من نزولها ، ويكون ذلك نظيراً لقوله عزَّ وجلَّ : ﴿وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتاهُمُ الله مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ﴾ [الحشر : ٢] ، ولا خلافَ في أنَّ معنى هذه الآية : أنَّ أمْره وحُكْمَه إياهم وعقوبته ونكالَه ، وكذلك قوله : ﴿فَأَتَى الله بُنْيانَهُمْ مِنَ الْقَواعِدِ﴾ [النحل : ٢٦] .

وقال الإمام ابن فورك الأنصاري الأصبهاني في " تفسير ابن فورك" (٣/٢١٨) : ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ﴾ [الفجر : ٢٢] ، أي : جاء بجلائل آياته ، فحصل عن جلائل الآيات مجيئاً له تفخيماً لشأنه ، ويجوز : جاء ظهر بضرورة المعرفة ، كما يوصف به ما تقوم مقام الرُّؤية " .

وقال الإمام ابن فورك في " مشكل الحديث وبيانه" (ص٢٠٨) : " وأمَّا قَوْله تَعَالَىٰ : ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر : ٢٢] ، فَمنهمْ من قَالَ : إِنَّ مَعْنَاهُ : جَاءَ رَبك بِالْملكِ صفاً ، وَزعم أَنَّ الْوَاو هُنَا بِمَعْنى الْبَاء .

وَمِنْهُم من : قَالَ : ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ﴾ [الفجر: ٢٢] ، أَمر رَبك وَحكمه ، يُرِيد أَمر الْقِيَامَة ، وَمَا يخْتَصُّ بِهِ ذَلِك الْوَقْت من أمره الْمَخْصُوص وَحكمه الَّذِي لَا يَقع الشّركَة فِيهِ بِالدُّعَاءِ والنداء.

وَقد بَينَّا فِيمَا قبل أَنَّه لَا تدافع بَين أهل اللُّغَة فِي قَوْلهم : ضرب الْأَمِير اللصَّ ، ونادى الْأَمِير فِي الْبَلَد بِكَذَا ، وإنَّما يُرَاد بذلك : أَنَّ ذَلِك الْفِعْل وَقع بأَمْره ، وَعَن حكمه ، فيضاف الْفِعْل إِلَيْهِ بِاللَّفْظِ الَّذِي يُضَاف

إِلَىٰ من فعله وتولاه ، وَنَظِير ذَلِك قَوْله عزَّ وَجلَّ فِي قصَّة قوم لوط : ﴿فَطَمَسْنا أَعْيُنَهُمْ﴾ [القمر : ٣٧] ، وَكَانَ الطَّمس للأعين من الْمَلَائِكَة بِأَمْر الله عزَّ وَجلَّ.

وَإِذا كَانَ مثله مُتَعَارَف فِي اللُّغَة ، وإِنَّما ورد الْخطاب فِي الْقُرْآن علىٰ الْمُتَعَارف فِي اللُّغَة ، والمعهود فِيمَا بَين أَهلهَا ، لم يُنكر أَن يُحمل علىٰ ذَلِك قَوْله تَعَالَىٰ : ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر : ٢٢] .

وقال الإمام السلمي في " تفسير السلمي وهو حقائق التفسير" (٢/ ٣٩٤) : ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ﴾ [الفجر : ٢٢] . قال الواسطي رحمه الله : ظهرت قدرة ربِّك وقد استوت الأمور . وقال بعضهم : الحقُّ ليس له تحوُّل من مكان إلىٰ مكان وكيف له التَّحوُّل والتَّنقل ، ولا مكان له ولا أوان له ، ولا يجري عليه وقت ، لأنَّ في جريان الوقت علىٰ الشَّيء فوت الأوقات ، ومن فاته شيء فهو عاجز ، والحقُّ متنزِّه أن تحوىٰ صفاته الطَّبائع أو تحيط به الصُّدور " .

وقال الإمام أحمد بن محمَّد بن إبراهيم الثَّعلبي في " الكشف والبيان عن تفسير القرآن" (١٠/ ٢٠١) : " ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ﴾ [الفجر : ٢٢] ، قال الحسن : أمره وقضاؤه ، وقال أهل الإشارة : ظهر قدرة ربِّك وقد استوت الأمور ، وأنَّ الحقَّ لا يوصف بتحوَّل من مكان إلىٰ مكان ، وأنَّىٰ له التَّحوُّل والتَّنقّل ، ولا مكان له ولا أوان ، ولا يجري عليه وقت وزمان ، لأنَّ في جريان الوقت علىٰ الشَّيء فوت الأوقات ، ومن فاته شيء فهو عاجز ، والحقُّ ينزَّه أن تحوي صفاته الطَّبائع أو تحيط به الصُّدور" .

والمطالع للنُّصوص السَّابقة يجد أنَّها متقاربة في المعنىٰ الذي ذكره العلماء للمجيء المضاف إلىٰ الله تعالىٰ ، لأنَّها نصَّت علىٰ:

(١) اتِّفاق الجميع علىٰ وجوب تنزيه الله تعالىٰ عن الحركة والانتقال من مكان إلىٰ آخر ، لأنَّه تعالىٰ ليس في مكان ، وأنّىٰ له التَّحوُّل والتَّنقُّل ، وليس هوفي مكان ، لأنَّه خالق المكان ، وهو سبحانه كان ولا مكان ... ولا يجري عليه وقت ولا زمان ، لأنَّ في جريان الوقت علىٰ الشَّيء فوت الأوقات ، ومن فاته شيء فهو عاجز ، والحقُّ ينزَّه أن تحوي صفاته الطَّبائع أو تحيط به الصُّدور...

(٢) أنَّ البعض نقل عقيدة جمهور السَّلف في المتشابه ، وأنَّ المجيء المضاف إلىٰ الله تعالىٰ هو من المكتوم الذي لا يفسَّر ، وبعضهم نقل عن الحسن البصري أنَّه قال في المجيء : مجيء أمره وقضائه ، لأنَّ الثَّابت أنَّ بعض السَّلف قال بالتَّأويل...

(٣) وأخيراً اشتملت النُّصوص السَّابقة علىٰ العديد من التَّأويلات الصَّحيحة لمجيء الربِّ تعالىٰ ، منها : أنَّ المراد بالمجيء : مجيءأمرُ الرَّبِّ أو جنوده وملائكته ...أو أنَّه يَفْعل معنىً يُسمِّيه مجيئاً وإتياناً ،

ويمكن أن يكون أراد بذلك إتيان أمْرِه وحُكمِه والأهوالِ الشَّديدةِ التي توعدَّهم بها وحذَّرهم من نزولها ، وقال بعضهم : أي : جاء بجلائل آياته ، فحصل عن جلائل الآيات مجيئاً له تفخيماً لشأنه...

وقال الإمام ابن بطَّال أبو الحسن علي بن خلف بن عبد الملك في "شرح صحيح البخاري" (١٠/ ٥٢٧) في كلامه على قوله تعالى : ﴿فَإِذا قَرَأْناهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾ [القيامة : ١٨] : " ففيه بيان لما يشكل من كلِّ فعل ينسب إلى الله تعالى ، ممَّا لا يليق به فعله من الإتيان ، والنُّزول ، والمجيء ، أنَّ ذلك الفعل إنَّما هو منتسب إلى الملك المرسل به ، كقوله : ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر : ٢٢] ، والمجيء مستحيل عليه لاستحالة الحركة ، وإنَّما معناه : وجاء أمرُ ربِّك ورسولُ ربِّك ، فكما استحالت عليه الحركة والانتقال ، كذلك استحالت عليه القراءة المعلومة منَّا لأنَّها محاولة حركة أعضاء وآلات ، والله يتعالى عن ذلك " .

وقال الإمام ابن بطَّال في " شرح صحيح البخاري" (٣/ ١٣٧) : " ولا فرق بين الإتيان والمجيء والنُّزول إذا أضيف جميع ذلك إلى الأجسام التي يجوز عليها الحركة والنُّقلة التي هي تفريغ مكان وشغل غيره ، فإذا أضيف ذلك إلى من لا يليق به الانتقال والحركة ، كان تأويل ذلك على حسب ما يليق بنعته وصفته عزَّ وجلَّ " .

وحاصل كلام ابن بطَّال في النَّصَّين السَّابقين : أنَّ المجيء مستحيل عليه سبحانه وتعالى ، لاستحالة الحركة والنُّقلة عليه ، فالحركة تستدعي جسماً يتحرَّك ومكان منتقل منه وآخر منتقل إليه ، والله تعالى يتنزَّه عن ذلك كلِّه ، لأنَّه سبحانه وتعالى ليس جسماً ولا هو في مكان ... ولا فرق في ذلك بين الإتيان والمجيء والنُّزول إذا أضيف جميع ذلك إلى الأجسام التي يجوز عليها الحركة والنُّقلة ، فإذا أضيف ذلك إلى من لا يليق به الانتقال والحركة ، كان تأويل ذلك على حسب ما يليق بنعته وصفته عزَّ وجلَّ ، ومعناه : وجاء أمرُ ربِّك ورسول ربِّك...

وقال الإمام ابن حزم الأندلسي في " الفصل في الملل والأهواء والنحل" (٢/ ١٣٢) : " ... وَقد حمد الله إِبْرَاهِيم خَلِيله وَرَسُوله وَعَبده صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذْ بَيَّن لِقَوْمِهِ بنقلة الْقَمَر أَنَّه لَيْس رَبًّا ، فَقَالَ : ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأى كَوْكَباً قالَ هَذا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قالَ لا أُحِبُّ الْآفِلِينَ﴾ [الأنعام : ٧٦] ، وكلُّ منتقل عَن مَكَان فَهُوَ آفل عَنهُ ، تَعَالَى الله عَن هَذَا ، وَكَذَلِكَ القَوْل فِي قَوْله تَعَالَى : ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر : ٢٢] ، وَقَوله تَعَالَى : ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ أَنْ يَأْتِيَهُمُ الله فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمامِ وَالْمَلائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ﴾ [البقرة : ٢١٠] ، فَهَذَا كُلُّه على مَا بَينَّا من أَنَّ الْمَجِيء والإتيان يَوْم الْقِيَامَة فعلٌ يَفْعَله الله تَعَالَى فِي ذَلِك الْيَوْم يُسمَّى

ذَلِك الْفِعْل : مجيئاً وإتياناً . وَقد روِّينَا عَن أَحْمد بن حَنْبَل رَحمَه الله أَنَّه قَالَ : **﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾** [الفجر : ٢٢] ، إِنَّما مَعْنَاهُ : وَجَاء أَمر رَبِّك " .

فالإمام ابن حزم يرىٰ أنَّ المجيء فعلٌ يَفْعَله الله تَعَالَىٰ فِي ذَلِك الْيَوْم يُسمِّيه مجيئاً وإتياناً ، وأكَّد ما ذكرناه غير مرَّة عن أحمد بن حنبل أنَّه أوَّل المجيء الوارد في قوله تعالىٰ : **﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾** [الفجر : ٢٢] ، بمجيء أمره تعالىٰ...

وقال الإمام أبو سعد المحسن بن محمَّد الجشمي البيهقي ، المشهور بالحاكم الجشمي كما جاء في " الحاكم الجشمي ومنهجه في التفسير" (ص٢٩٤) : " قوله تعالىٰ : **﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾** [الفجر : ٢٢] ، قيل : أمره وقضاؤه ومحاسبته ، عن الحسن وأبي علي ، وقيل : جلائل آياته ، فجعل مجيئها مجيئه تفخيماً لها ، وقيل : جاء أمره الذي لا أمر لغيره معه ، قال أبو مسلم : وذلك يكون يوم القيامة بخلاف حال الدُّنيا . قال الحاكم : ولا يجوز حمله علىٰ مجيء ذاته ، لأنَّه ليس بجسم ، فلا يجوز عليه المجيء والذَّهاب" .

وقال الإمام ابن عبد البر القرطبي في " التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد" (٧/ ١٣٧) : " وَقَدْ قَالَ الله عَزَّ وَجَلَّ : **﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾** [الفجر : ٢٢] ، وَلَيْسَ مَجِيئُهُ حَرَكَةً ، وَلَا زَوَالاً ، وَلَا انْتِقَالاً ، لِأَنَّ ذَلِكَ إِنَّما يَكُونُ إِذَا كَانَ الْجَائِي جِسْماً أَوْ جَوْهراً ، فَلَمَّا ثَبَتَ أَنَّه لَيْسَ بِجِسْمٍ وَلَا جَوْهَرٍ ، لَمْ يَجِبْ أَنْ يَكُونَ مَجِيئُهُ حَرَكَةً وَلَا نَقْلَةً ، وَلَوِ اعْتَبَرْتَ ذَلِكَ بِقَوْلِهِمْ : جَاءَتْ فُلَاناً قِيَامَتُهُ ، وَجَاءَهُ الْمَوْتُ ، وَجَاءَهُ الْمَرَضُ ، وَشِبْهُ ذَلِكَ مِمَّا هُوَ مَوْجُودٌ نَازِلٌ بِهِ وَلَا مَجِيءَ لَبَانَ لَكَ ، وَبِاللَّهِ الْعِصْمَةُ وَالتَّوْفِيقُ " .

فالنَّاظر يجد أنَّ جمهور العلماء ركَّز وهو يفسِّر آيات المتشابه علىٰ ضرورة تنزيه الله تعالىٰ عن الجسميَّة ولوازمها ... مع أنَّ آيات القرآن ناطقة بذلك ، كقوله تعالىٰ : **﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾** [الشورىٰ: ١١] ، والآية نصٌّ محكمٌ ، يفيد أنَّ الله تعالىٰ لا يشبه شيئاً من خلقه بأيِّ وجه من الوجوه...

وقوله تعالىٰ : **﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى﴾** [النحل : ٦٠] ، أي : لله الوصف الذي لا يشبه وصف غيره .

وقوله تعالىٰ : **﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾** [مريم : ٦٥] ، قَالَ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ الله عَنْهُمَا : هل تعلم للرَّبِّ مِثْلًا أو شبهاً " . انظر : تفسير القرآن العظيم ، ابن أبي حاتم (٧/ ٢٤١٤) .

وقوله تعالىٰ : **﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ﴾** [الإخلاص : ٤] . أي : ليس له سبحانه : نظير ، ولا مثيل ، ولا شبيه ، ولا شريك ، ولا ضدَّ له ولا ندّ...

وفي كتابة : " حلية الأولياء وطبقات الأصفياء " (١/ ٧٢-٧٣) ، أورد الإمام الأصبهاني جواب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب على سؤال وُجِّه إليه عن الله ، فقال : " إِنَّ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ هُوَ الْأَوَّلُ لَمْ يَبْدُ مِمَّا ، وَلَا مُمَازَجُ مَعِمّاً ، ولا حَالٌّ وَهْمًا، وَلَا شَبَحٌ يُتَقَصَّىٰ ، وَلَا مَحْجُوبٌ فَيُحْوَىٰ ، وَلَا كَانَ بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُنْ فَيُقَالُ: حَادِثٌ ، بَلْ جَلَّ أَنْ يُكَيِّفَ الْمُكَيِّفَ لِلْأَشْيَاءِ كَيْفَ كَانَ ، بَلْ لَمْ يَزَلْ وَلَا يَزُولُ لِاخْتِلَافِ الْأَزْمَانِ ، وَلَا لِتَقَلُّبِ شَانٍ بَعْدَ شَانٍ ، وَكَيْفَ يُوصَفُ بِالْأَشْبَاحِ ، وَكَيْفَ يُنْعَتُ بِالْأَلْسُنِ الْفِصَاحِ ، مَنْ لَمْ يَكُنْ فِي الْأَشْيَاءِ فَيُقَالُ : بَائِنٌ ، وَلَمْ يَبِنْ عَنْهَا فَيُقَالُ : كَائِنٌ ، بَلْ هُوَ بِلَا كَيْفِيَّةٍ ، وَهُوَ أَقْرَبُ مِنْ حَبَلِ الْوَرِيدِ ، وَأَبْعَدُ فِي الشَّبَهِ مِنْ كُلِّ بَعِيدٍ ، لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ مِنْ عِبَادِهِ شُخُوصُ لَحْظَةٍ ، وَلَا كُرُورُ لَفْظَةٍ ، وَلَا ازْدِلَافُ رَبْوَةٍ ، وَلَا انْبِسَاطُ خُطْوَةٍ ، فِي غَسَقِ لَيْلٍ دَاجٍ ، وَلَا إِدْلَاجٍ لَا يَتَغَشَّىٰ عَلَيْهِ الْقَمَرُ الْمُنِيرُ ، وَلَا انْبِسَاطُ الشَّمْسِ ذَاتِ النُّورِ ، بِضَوْئِهَا فِي الْكُرُورِ ، وَلَا إِقْبَالُ لَيْلٍ مُقْبِلٍ ، وَلَا إِدْبَارُ نَهَارٍ مُدْبِرٍ ، إِلَّا وَهُوَ مُحِيطٌ بِمَا يُرِيدُ مِنْ تَكْوِينِهِ ، فَهُوَ الْعَالِمُ بِكُلِّ مَكَانٍ ، وَكُلِّ حِينٍ وَأَوَانٍ ، وَكُلِّ نَهَايَةٍ وَمُدَّةٍ ، وَالْأَمَدُ إِلَى الْخَلْقِ مَضْرُوبٌ ، وَالْحَدُّ إِلَىٰ غَيْرِهِ مَنْسُوبٌ ، لَمْ يَخْلُقِ الْأَشْيَاءَ مِنْ أُصُولٍ أَوَّلِيَّةٍ ، وَلَا بِأَوَائِلَ كَانَتْ قَبْلَهُ بَدِيَّةً ، بَلْ خَلَقَ مَا خَلَقَ فَأَقَامَ خَلْقَهُ ، وَصَوَّرَ مَا صَوَّرَ فَأَحْسَنَ صُورَتَهُ ، تَوَحَّدَ فِي عُلُوِّهِ ، فَلَيْسَ لِشَيْءٍ مِنْهُ امْتِنَاعٌ ، وَلَا لَهُ بِطَاعَةِ شَيْءٍ مِنْ خَلْقِهِ انْتِفَاعٌ ، إِجَابَتُهُ لِلدَّاعِينَ سَرِيعَةٌ ، وَالْمَلَائِكَةُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرَضِينَ لَهُ مُطِيعَةٌ ، عِلْمُهُ بِالْأَمْوَاتِ الْبَائِدِينَ كَعِلْمِهِ بِالْأَحْيَاءِ الْمُتَقَلِّبِينَ ، وَعِلْمُهُ بِمَا فِي السَّمَوَاتِ الْعُلَىٰ كَعِلْمِهِ بِمَا فِي الْأَرْضِ السُّفْلَىٰ ، وَعِلْمُهُ بِكُلِّ شَيْءٍ ، لَا تُحَيِّرُهُ الْأَصْوَاتُ ، وَلَا تَشْغَلُهُ اللُّغَاتُ ، سَمِيعٌ لِلْأَصْوَاتِ الْمُخْتَلِفَةِ ، بِلَا جَوَارِحٍ لَهُ مُؤْتَلِفَةٍ ، مُدَبِّرٌ بَصِيرٌ عَالِمٌ بِالْأُمُورِ ، حَيٌّ قَيُّومٌ . سُبْحَانَهُ كَلَّمَ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا بِلَا جَوَارِحٍ وَلَا أَدَوَاتٍ، وَلَا شَفَةٍ وَلَا لَهَوَاتٍ ، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَنْ تَكْيِيفِ الصِّفات ، مَنْ زَعَمَ أَنَّ إِلَهَنَا مَحْدُودٌ ، فَقَدْ جَهِلَ الْخَالِقَ الْمَعْبُودَ ، وَمَنْ ذَكَرَ أَنَّ الْأَمَاكِنَ بِهِ تُحِيطُ ، لَزِمَتْهُ الْحِيرَةُ وَالتَّخْلِيطُ ، بَلْ هُوَ الْمُحِيطُ بِكُلِّ مَكَانٍ ، فَإِنْ كُنْتَ صَادِقاً أَيُّهَا الْمُتَكَلِّفُ لِوَصْفِ الرَّحمن ، بِخِلَافِ التَّنْزِيلِ وَالْبُرْهَانِ ، فَصِفْ لِي جِبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ وَإِسْرَافِيلَ هَيْهَاتَ أَتَعْجَزُ عَنْ صِفَةِ مَخْلُوقٍ مِثْلِكَ ، وَتَصِفُ الْخَالِقَ الْمَعْبُودَ ، وَأَنْتَ تُدْرِكُ صِفَةَ رَبِّ الْهَيْئَةِ وَالْأَدَوَاتِ ، فَكَيْفَ مَنْ لَمْ تَأْخُذْهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ، لَهُ مَا فِي الْأَرَضِينَ وَالسَّمَوَاتِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ " .

وقال الإمام عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك القُشيري في " لطائف الإشارات" (تفسير القشيري) (٣/ ٧٢٧) : ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر: ٢٢] ، أي : الملائكة بأمره . ويقال : يفعل فعلاً فيسمِّيه مجيئاً " .

وقال الإمام أبو الحسن علي بن أحمد بن محمَّد بن علي الواحدي، النَّيسابوري، الشَّافعي في " التَّفْسِيرُ البَسِيْط" (٢٣/٥١٧-٥١٩) : " وقوله : ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر : ٢٢]، معنىٰ هذا كمعنىٰ قوله : ﴿إِلاَّ أَنْ يَأْتِيَهُمُ الله فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمامِ﴾ [البقرة : ٢١٠]، وقد مرَّ، علىٰ أنَّ الحسن قد قال في هذه الآية : جاء أمرُ ربِّك وقضاء ربِّك، فيكون هذا من باب حذف المضاف، ونحو هذا روي عن الكلبي : وجاء أمرُ ربِّك.

وذكر أهلُ المعاني في هذا قولين:

أحدهما : أنَّ المعنىٰ : وجاء جلائل آياته، لأنَّ هذا يكون يوم القيامة، وفي ذلك اليوم تظهر العظائم، وجلائلُ الآيات، فجعل مجيئها مجيئاً له تفخيماً لشأنها.

الثَّاني : أنَّ المعنىٰ : وجاء ظهوره بضرورة المعرفة، وضرورة المعرفة التي تقوم مقام ظهوره ورؤيته، ولمَّا صارت المعارف في ذلك اليوم بالله تعالىٰ ضرورة، صار ذلك كظهوره، وتجلِّيه للخلق، فقيل : وجاء ربُّك، أي : زالت الشُّبهة، وارتفعت الشُّكوك، كما ترتفع عند مجيء الشَّيء الذي كان يشكّ فيه، وهذه أوجه في هذه الآية صحيحة " .

وقال الإمام أبو الحسن علي بن أحمد بن محمَّد بن علي الواحدي، النَّيسابوري، الشَّافعي في " الوسيط في تفسير القرآن المجيد" (٤/ ٤٨٤-٤٨٥) : ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر: ٢٢]. قال ابن عبَّاس في رواية الكلبي، والحسن : وجاء أمرُ ربِّك، وقضاء ربِّك، لأنَّ في يوم القيامة تجيء جلائل آيات الله، وتظهر العظائم.

وقال أهل المعاني : ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر : ٢٢]، أي : وجاء ظهوره بضرورة المعرفة، وضرورة المعرفة بالشَّيء تقوم مقام ظهوره ورؤيته، ولمَّا صارت هذه المعارف بالله في ذلك اليوم ضرورة، صار ذلك كظهوره، وتجليه للخلق فقيل : ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ﴾ [الفجر : ٢٢]، أي : زالت الشُّبهة، وارتفعت الشُّكوك، كما ترتفع عند مجيء الشَّيء الذي كان يشكُّ فيه " .

فالإمام النَّيسابوري نقل عن الحسن البصري في هذه الآية، قال : جاء أمرُ ربِّك وقضاء ربِّك، وذكر عدَّة تأويلات صحيحة للمجيء ... فماذا يقول مدَّعو السَّلفيَّة الين لا زالوا يصرُّون علىٰ أنَّ السَّلف ما طرقوا بباب التأويل ؟ !!!

وقال الإمام أبو سعيد عبد الرَّحمن بن محمَّد المأمون المتولِّي الشَّافعي في " الغنية في أصول الدِّين" (ص١١٥) : " ... ومنه قوله تعالىٰ : ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ﴾ [الفجر : ٢٢]، وقوله تعالىٰ : ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ أَنْ تَأْتِيَهُمُ

الْمَلائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آياتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آياتِ رَبِّكَ﴾ [الأنعام : ١٥٨] ، والمراد به : جاء أمرُ ربِّك ، ويأتيهم أمرُ الله تعالىٰ.

والدَّليل عليه : أنَّ الله تعالىٰ ذكر في سورة الأنعام إخباراً عن إبراهيم أنَّه استدلَّ بأفول الشَّمس والقمر والكواكب علىٰ أنَّها ليست بآلهة وتبرَّأ منها ، ولو كان الباري يجوز عليه الإتيان والمجيء لبطلت الدّلالة ".

وقال الإمام علي بن فَضَّال بن علي بن غالب المُجَاشِعِي القيرواني في " النكت في القرآن الكريم" (في معاني القرآن الكريم وإعرابه) (ص٥٥٥) : " قال الحسن : المعنىٰ : وجاء أمر ربِّك وقضاء ربك ، وقال المتكلِّمون : يفعل الله فعلاً يسمِّيه مجيئاً ، ومثل هذا قول النَّبي – صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – : " ينزل ربُّنا في كلِّ ليلة إلىٰ السَّماء الدُّنيا " ، أي : أمره ، وهذا كما تقول : ضرب الأمير فلاناً ، أي : ضربه صاحبه بأمره ، ولا يجوز أن يكون المجيء انتقالاً ؛ لأنَّ الانتقال لا يصحُّ علىٰ القديم تعالىٰ" .

وقال الإمام أبو المظفَّر ، منصور بن محمَّد بن عبد الجبار ابن أحمد المروزي السَّمعاني التَّميمي الحنفي ثمَّ الشَّافعي في : تفسير القرآن " (٦/ ٢٢٢) : " وَقَوله : **﴿وَجَاءَ رَبُّكَ﴾** [الفجر : ٢٢] ، وَهُوَ من الْمُتَشَابه الَّذِي يُؤمن بِهِ وَلَا يُفَسَّر ، وَقد أَوَّل بَعضهم : وَجَاء أَمرُ رَبك ، وَالصَّحِيح مَا ذكرنَا " .

وقال الإمام أبو القاسم الحسين بن محمَّد المعروف بالراغب الأصفهاني في " المفردات في غريب القرآن" (ص٢١٢) : **﴿وَجَاءَ رَبُّكَ﴾** [الفجر : ٢٢] ، فهذا بالأمر لا بالذَّات ، وهو قول ابن عبَّاس رضي الله عنه ".

وقال الإمام محمود بن حمزة بن نصر ، أبو القاسم برهان الدِّين الكرماني في " غرائب التفسير وعجائب التَّأويل ، غرائب التفسير وعجائب التَّأويل" (٢/ ١٣٣٨) ، ويعرف بتاج القرَّاء : " قوله : **﴿وَجَاءَ رَبُّكَ﴾** [الفجر : ٢٢] ، أي : ظهر بضرورة المعرفة . وقيل : جاء بلا كيف . ابن عبَّاس : أمرُ ربِّك" .

وقال الإمام محيي السُّنَّة ، أبو محمَّد الحسين بن مسعود بن محمَّد بن الفرَّاء البغوي الشَّافعي في " معالم التَّنزيل في تفسير القرآن" (تفسير البغوي) (٥/ ٢٥٢) : **﴿وَجَاءَ رَبُّكَ﴾** [الفجر : ٢٢] ، قَالَ الْحَسَنُ : جَاءَ أَمْرُهُ وَقَضَاؤُهُ . وَقَالَ الْكَلْبِيُّ : يَنْزِلُ حكمه " .

قلت : وقد قال ابن قيِّم الجوزيَّة في الإمام البغوي : " مُحْيِي السُّنَّة الَّذِي اجْتَمَعَتِ الأمَّة عَلَىٰ تَلَقِّي تَفْسِيرِهِ بِالْقَبُولِ وَقِرَاءَتِهِ عَلَىٰ رُءُوسِ الْأَشْهَادِ مِنْ غَيْرِ نَكِيرٍ " . انظر : اجتماع الجيوش الإسلامية (٢/ ٢٦٢).

ومن المعلوم أنَّ الإمام البغوي لم يذكر في المجيء إلَّا ما ذكرناه ، أعني : مجيء أمره وقضائه ونزول حكمه ... ولذا فإنَّنا نقول لأتباعه ومن يسير على منهجه من مدَّعي السَّلفيَّة : هذا كلام إمامكم ابن القيِّم ينصُّ على أنَّ الأمَّة تلقَّت تفسير الإمام البغوي بالقبول ومن غير نكير ، فمن خالفه ، فقد خالف الأمَّة ... فهلَّا التزمتم واعتقدتم ما جاء فيه ممَّا التزمته الأمَّة من غير نكير ؟!!

وقال الإمام أبو الوفاء ، علي بن عقيل بن محمَّد بن عقيل البغدادي الظّفري في " الوَاضِح في أصُولِ الفِقه" (٤/ ٢٠-٢١) : " وإذا وردَ في القرآن : **﴿وَجَاءَ رَبُّكَ﴾** [الفجر : ٢٢] ، **﴿يَوْمَ يَأْتِ لا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إلاَّ بِإِذْنِهِ﴾** [هود : ١٠٥] ، فأوهم أنَّه يزولُ وينتقلُ ، أزالَ هذا التَّوهُّمَ عن المجيء المضافِ إليه ، والإتيانِ الواقعِ عليه : قولُه سبحانه : **﴿وَكَذلِكَ نُرِي إِبْراهِيمَ مَلَكُوتَ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ * فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأى كَوْكَباً قالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قالَ لا أُحِبُّ الْآفِلِينَ﴾** [الأنعام :٧٥- ٧٦] ، فأبان عن الأفُولِ ، وهو الغروبُ بعد الطُّلوع : أنَّه يخرجُ عن صفةِ القِدَمِ والإلهية ، وقامَ دليلُ العقلِ : أنَّ من يتحرَّكُ وينتقلُ ، وخارجٌ من حالٍ إلى حال ، محدَثٌ " .

وقال الإمام إسماعيل بن محمَّد بن الفضل بن علي القرشي الطّليحي التَّيمي الأصبهاني ، أبو القاسم ، الملقب بقوام السُّنَّة في " إعراب القرآن "(ص٥٢١) : " قال الحسن : المعنى : وجاء أمرُ ربِّك ، وقضاءُ ربِّك ، وقال المتكلمون : يفعلُ الله فعلاً يسمِّيه مجيئاً" .

وقال الإمام أبو القاسم محمود بن عمر الزَّمخشري الخوارزمي في " الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التَّأويل" (٤/ ٧٥٤-٧٥٥) : " فإن قلت : ما معنى إسناد المجيء إلى الله ، والحركة والانتقال إنَّما يجوزان على من كان في جهة ؟ قلت : هو تمثيل لظهور آيات اقتداره وتبين آثار قهره وسلطانه : مثِّلت حاله في ذلك بحال الملك إذا حضر بنفسه ، ظهر بحضوره من آثار الهيبة والسِّياسة ما لا يظهر بحضور عساكره كلها ووزرائه وخواصِّه عن بكرة أبيهم" .

وقال الإمام ابن عطيَّة الأندلسي المحاربي في" المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز" (٥/ ٤٥٢) : " وقوله تعالى : **﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾** [الفجر : ٢٢] ، معناه : وجاء قدرُه وسلطانُه وقضاؤه ، قال منذر بن سعيد : معناه : ظهوره للخلق هنالك ، ليس مجيء نقلة " .

وقال الإمام القاضي محمَّد بن عبد الله أبو بكر بن العربي المعافري الاشبيلي المالكي في " المسالِك في شرح مُوَطَّأ مالك" (٣/ ٤٥٦) : " قولُه : **﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾** [الفجر : ٢٢] الآية ، اعْلَم أنَّه لم يُرِدْ به مجيءَ الانتقالِ والاتيانِ.

وقال بعض العلماء : إنّ الواو هاهنا بمعنىٰ الباء.

ومنهم من قال : جاءَ أَمْرُ ربِّكَ وحُكْمُه ، يريدُ أمرُ الله في القيامة وما يختصُّ به ذلك.

وقال آخر : يحتمل : وجاءَ ربُّك بالملائكة ، فيكون المجيءُ للملائكة.

وتحقيقُ القولِ في هذا : أنّ كلَّ فِعْلٍ يضافُ إلىٰ اللهِ تعالىٰ ممّا يتعلَّقُ بأبداننا ، يتعالىٰ الله عنه ، وإنَّما المرادُ به مخلوقاته ، وذلك جائزٌ من وجهين:

إمَّا بأنْ يفعلَ فِعْلًا فيسمىٰ إتياناً.

وإمَّا أنّ تأتي الملائكة بأمْرِهِ ، كما قال الله تعالىٰ : **﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ أَنْ يَأْتِيَهُمُ الله فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمامِ وَالْمَلائِكَةُ﴾** [البقرة : ٢١٠] ، بخَفْضِ الهاء وبرفعها ، فَبِرَفْعِها يكونُ الفعْلُ المسمَّىٰ إثباتاً مخصوصاً بالظُّلَلِ ، وبكسرها يكون الفعلُ المسمَّىٰ إثباتاً عامّاً فيه " .

وقال الإمام الشَّهرستاني في " الملل والنِّحل" (١/ ٩٢-٩٣) : " اعلم أنَّ جماعة كثيرة من السَّلف كانوا يثبتون الله تعالىٰ صفاته أزليَّة من العلم ، والقدرة ، والحياة ، والإرادة ، والسَّمع ، والبصر ، والكلام ، والجلال ، والإكرام ، والجود ، والإنعام ، والعزة ، والعظمة ، ولا يفرِّقون بين صفات الذَّات وصفات الفعل ، بل يسوقون الكلام سوقاً واحداً ، وكذلك يثبتون صفات خبريَّة ، مثل : اليدين ، والوجه ، ولا يؤوِّلون ذلك ، إلَّا أنَّهم يقولون : هذه الصِّفات قد وردت في الشَّرع ، فنسمِّيها صفات خبريَّة . ولما كانت المعتزلة ينفون الصِّفات والسَّلف يثبتون ، سُمي السَّلف صفاتيَّة ، والمعتزلة معطِّلة.

فبالغ بعض السَّلف في إثبات الصِّفات إلىٰ حدِّ التَّشبيه بصفات المحدثات ، واقتصر بعضهم علىٰ صفات دلَّت الأفعال عليها وما ورد به الخبر ؛ فافترقوا فرقتين : فمنهم من أوَّله علىٰ وجه يحتمل اللفظ ذلك ، ومنهم من توقف في التَّأويل ، وقال : عرفنا بمقتضىٰ العقل أنَّ الله تعالىٰ ليس كمثله شيء ، فلا يشبه شيئاً من المخلوقات ، ولا يشبهه شيءٌ منها ، وقطعنا بذلك ؛ إلَّا أنا لا نعرف معنىٰ اللفظ الوارد فيه ، مثل قوله تعالىٰ : **﴿الرَّحْمنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوى﴾** [طه : ٥] ، ومثل قوله : **﴿خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾** [ص : ٧٥] ، ومثل قوله : **﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾** [الفجر : ٢٢] ، إلىٰ غير ذلك. ولسنا مكلَّفين بمعرفة تفسير هذه الآيات وتأويلها ، بل التَّكليف قد ورد بالاعتقاد بأنَّه لا شريك له ، وليس كمثله شيء ، وذلك قد أثبتناه يقيناً.

ثمَّ إنَّ جماعة من المتأخِّرين زادوا على ما قاله السَّلف ؛ فقالوا : لا بدَّ من إجرائها على ظاهرها ، فوقعوا في التَّشبيه الصّرف ، وذلك على خلاف ما اعتقده السَّلف . ولقد كان التَّشبيه صرفاً خالصاً في اليهود ، لا في كلّهم بل في القرَّائين منهم ، إذ وجدوا في التَّوراة ألفاظاً كثيرة تدلُّ على ذلك.

ثمَّ الشيعة في هذه الشَّريعة وقعوا في غلوٍّ وتقصير ، أمَّا الغلو فتشبيه بعض أئمَّتهم بالإله تعالى وتقدَّس ، وأمَّا التَّقصير فتشبيه الإله بواحد من الخلق . ولمَّا ظهرت المعتزلة والمتكلِّمون من السَّلف رجعت بعض الرَّوافض عن الغلو والتَّقصير ، ووقعت في الاعتزال ، وتخطَّت جمــــاعة من السَّلف إلى التَّفسير الظَّاهر فوقعت في التَّشبيه.

وأمَّا السَّلف الذين لم يتعرَّضوا للتأويل ، ولا تهدَّفوا للتَّشبيه ، فمنهم : مالك بن أنس رضي الله عنهما ؛ إذ قال : الاستواء معلوم ، والكيفيَّة مجهولة ، والإيمان به واجب ، والسُّؤال عنه بدعة . ومثل أحمد بن حنبل رحمه الله ، وسفيان الثَّـوري ، وداود بن علي الأصفهــاني ، ومن تابعهم ... " .

وقال الإمام محمود بن أبي الحسن بن الحسين النَّيسابوري في " إيجاز البيان عن معاني القرآن" (٢/ ٨٧٦) : ﴿**وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا**﴾ [الفجر : ٢٢] : أمرُهُ وقضاؤه" .

وقال الإمام أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله المعروف بابن عساكر في " تاريخ دمشق" (٧١/ ٢٣٩) : " قال الحاكم : سمعت أبا محمَّد المزني ، يقول : حديث النُّزول قد ثبت عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من وجوه صحيحة . وورد في التنزيل ما يصدّقه وهو قوله عزَّ وجلَّ : ﴿**وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا**﴾ [الفجر : ٢٢] ، والنُّزول والمجيء صفتان منفيَّتان من صفات الله عزَّ وجلَّ من طريق الحركة والانتقال من حال إلى حال ، بل هما صفتان من صفات الله عزَّ وجلَّ بلا تشبيه ، جلَّ الله عمَّا تقول المعطِّلة بصفاته والمشبِّهة بها علوَّاً كبيراً " .

وقال الإمام جمال الدِّين أبو الفرج عبد الرَّحمن بن علي بن محمَّد الجوزي في " دفع شبه التشبيه بأكف التنزيه" (ص١١٠) : ﴿**وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا**﴾ [الفجر: ٢٢] ، أي : جاء أمرُه" .

وقال الإمام الرَّازي خطيب الري في " مفاتيح الغيب" (التفسير الكبير) (٢١/ ١٥٩) : " وَاعْلَمْ أَنَّه ثَبَتَ بالدَّليل الْعَقْلِيِّ أَنَّ الْحَرَكَةَ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى مُحَالٌ ، لِأَنَّ كُلَّ مَا كَانَ كَذَلِكَ كَانَ جِسْماً ، وَالْجِسْمُ يَسْتَحِيلُ أَنْ يَكُونَ أَزَلِيّاً ، فَلَا بُدَّ فِيهِ مِنَ التَّأويل ، وَهُوَ أَنَّ هَذَا مِنْ بَابِ حَذْفِ الْمُضَافِ وَإِقَامَةِ الْمُضَافِ إِلَيْهِ مَقَامَهُ ، ثمَّ ذَلِكَ الْمُضَافُ مَا هُوَ ؟ فِيهِ وُجُوهٌ:

أَحَدُهَا : وَجَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ بِالْمُحَاسَبَةِ وَالْمُجَازَاةِ.

وَثَانِيهَا : وَجَاءَ قَهْرُ رَبِّكَ ، كَمَا يُقَالُ : جَاءَتْنَا بَنُو أُمَيَّةَ ، أَيْ : قَهْرُهُمْ.

وَثَالِثُهَا : وَجَاءَ جَلَائِلُ آيَاتِ رَبِّكَ ، لِأَنَّ هَذَا يَكُونُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَفِي ذَلِكَ الْيَوْمِ تَظْهَرُ الْعَظَائِمُ وَجَلَائِلُ الْآيَاتِ ، فَجُعِلَ مَجِيئُهَا مَجِيئاً لَهُ تَفْخِيماً لِشَأْنِ تِلْكَ الْآيَاتِ.

وَرَابِعُهَا : وَجَاءَ ظُهُورُ رَبِّكَ ، وَذَلِكَ لِأَنَّ مَعْرِفَةَ اللَّهِ تَصِيرُ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ ضَرُورِيَّةً ، فَصَارَ ذَلِكَ كَظُهُورِهِ وَتَجَلِّيهِ لِلْخَلْقِ ، فَقِيلَ : **﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾** [الفجر : ٢٢] ، أَيْ : زَالَتِ الشُّبْهَةُ وَارْتَفَعَتِ الشُّكُوكُ

وخَامِسُهَا : أَنَّ هَذَا تَمْثِيلٌ لِظُهُورِ آيَاتِ اللَّهِ وَتَبْيِينِ آثَارِ قَهْرِهِ وَسُلْطَانِهِ ، مُثِّلَتْ حَالُهُ فِي ذَلِكَ بِحَالِ الْمَلِكِ إِذَا حَضَرَ بِنَفْسِهِ ، فَإِنَّهُ يَظْهَرُ بِمُجَرَّدِ حُضُورِهِ مِنْ آثَارِ الْهَيْبَةِ وَالسِّيَاسَةِ مَا لَا يَظْهَرُ بِحُضُورِ عَسَاكِرِهِ كُلِّهَا.

وَسَادِسُهَا : أَنَّ الرَّبَّ هُوَ الْمُرَبِّي ، وَلَعَلَّ مَلَكاً هُوَ أَعْظَمُ الْمَلَائِكَةِ هُوَ مُرَبِّي لِلنَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جَاءَ فَكَانَ هُوَ الْمُرَادُ مِنْ قَوْلِهِ : **﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾** [الفجر : ٢٢] .

وقال الإمام الرَّازي في " المحصول" (١/ ٣٣٣) : " المسألة السَّابعة : في جواز دخول المجاز في خطاب الله تعالىٰ وخطاب رسوله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : الأكثرون جوَّزوا ذلك ، خلافاً لأبي بكر بن داود الأصفهاني . لنا قوله تعالىٰ : **﴿فَوَجَدا فِيها جِداراً يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ﴾** [الكهف : ٧٧] ، **﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾** [الفجر : ٢٢] ، وقد ثبت بالدَّليل أنَّه لا يجوز أن يكون المراد منها ظواهرها ، فوجب صرفُها إلىٰ غير ظواهرها ، وهو المجاز . واحتجَّ المخالفُ بأمور ، أحدها : لو خاطب الله بالمجاز لجاز وصفه بأنَّه متجوِّز ومستعير . وثانيها : أنَّ المجاز لا ينبئ بنفسه عن معناه ، فورود القرآن به يقتضي الالتباس . وثالثها : أنَّ العدول عن الحقيقة إلىٰ المجاز يقتضي العجز عن الحقيقة ، وهو علىٰ الله تعالىٰ مُحال . ورابعها : أنَّ كلام الله تعالىٰ كلّه حقّ ، وكلّ حقٍّ فله حقيقة ، وكلّ ما كان حقيقة فإنَّه لا يكون مجازاً.

والجواب عن الأوَّل : أنَّ أسامي الله تعالىٰ توقيفيَّة ، وبتقدير كونها اصطلاحيَّة ، لكن لفظ المتجوِّز يوهم كونه تعالىٰ فاعلاً ما لا ينبغي فعله ، وهو في حقِّ الله تعالىٰ مُحال . وعن الثَّاني : أنَّه لا التباس مع القرينة الدالَّة علىٰ المراد . وعن الثَّالث : أنَّ العدول عن الحقيقة إلىٰ المجاز لأغراض سنذكرها إن شاء الله تعالىٰ . وعن الرَّابع : أنَّ كلام الله تعالىٰ كلّه حقيقة بمعنىٰ أنَّه صدق لا بمعنىٰ كون ألفاظه بأسرها مستعملة في موضوعاتها الأصلية ، والله أعلم " .

وقال الإمام يوسف بن أبي بكر بن محمَّد بن علي السكَّاكي الخوارزمي في " مفتاح العلوم" (ص٣٩٢) : " من فصول المجاز في المجاز اللغوي الرَّاجع علىٰ حكم الكلمة في الكلام : هو عند السَّلف رحمهم الله أن تكون الكلمة منقولة عن حكم لها أصلي علىٰ غيره ، كما في قوله علت كلمته : **﴿وَجَاءَ رَبُّكَ**

وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر : ٢٢] ، فالأصل : وجـــاء أمرُ ربِّك ، فالحكم الأصلي في الكلام لقولــــه : **﴿رَبُّكَ﴾** هو الجر ، وأمَّا الرفع فمجاز " .

وقال الإمام أبو الحسن علي بن محمَّد بن سالم المعروف بسيف الدِّين الآمدي في " أبكار الأفكار في أصول الدِّين" (١/ ٤٧٩) : " ... وقوله تعالىٰ : **﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾** [الفجر : ٢٢] ، وليس المراد به الحركة والانتقال ، بل المراد : مجيء أمر الرَّبِّ تعالىٰ لفصل القضاء يوم الدِّين بطريق حذف المضاف ، إقامة المضاف إليه مقامه ، وذلك كما في قوله تعالىٰ : **﴿فَأَتَى الله بُنْيانَهُمْ مِنَ الْقَواعِدِ﴾** [النحل : ٢٦] ، أي : أمرُه ، بالاتِّفاق منَّا ، ومن الخصوم " .

وقال الإمام الحَرَالِّيُّ أَبُو الحَسَنِ عَلِيُّ بنُ أَحْمَدَ بنِ حَسَنٍ التُّجِيْبِيُّ الأَنْدَلُسِيُّ كما جاء في "تراث أبي الحسن الْحَرَالِّي المراكشي في التَّفسير" (١/ ٨٢-٨٦ باختصار) في أثناء حديثه عن المتشابه : " ... وأمَّا الرُّتبة الثَّانية فمتشابه الخطاب المفصل ، المشتمل علىٰ إخبار الله عن نفسه وتنزُّلات أمره ، ورتَّب إقامات خلقه بإبداع كلمته ، وتصيير حكمته ، وباطن ملكوته ، وعزيز جبروته ، وأحوال أيامه.

وأوَّل ذلك في ترتيب القرآن : إخباره عن استوائه في قوله تعالىٰ : **﴿ثُمَّ اسْتَوى إِلَى السَّماءِ وَهِيَ دُخانٌ﴾** ، إلىٰ قوله : **﴿فَأَيْنَما تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾** ، إلىٰ سائر ما أخبر عنه من عظيم شأنه ، في جملة آيات متعدِّدات كقوله تعالىٰ ... **﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾** [الفجر : ٢٢] ، إلىٰ سائر ما أخبر فيه عن تنزُّلات أمره وتسوية خلقه ، وما أخبر عنه حبيبه محمَّد ، – صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –، من محفوظ الأحاديث التي عرف بها أمَّته ، ما يحملهم في عبادتهم علىٰ الانكماش والجدّ والخشية والوجل والاشفاق ، وسائر الأحوال المشار إليها في حرف المحكم ، من نحو حديث النُّزول ، والنَّعلين ، والصُّورة ، والضَّحك ، والكفّ ، والأنامل ، وحديث التَّقرُّب بالنَّوافل ، وغير ذلك من الأحاديث التي ورد بعضها في الصَّحيحين ، واعتنىٰ بجمعها الحافظ المتفنِّن أبو الحسين الدَّارقطني رحمه الله ، ودون بعض المتكلِّمين جملة منها لمقصد التَّأويل.

وشدَّد النَّكير في ذلك أيمَّة المحدِّثين ، يؤثر عن الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه ، أنَّه قال : آيات الصِّفات ، وأحاديث الصِّفات صناديق مقفلة ، مفاتيحها بيد الله ، تأويلها تلاوتها ، وعلىٰ ذلك أئمَّة الفقهاء وفتياهم لعامَّة المؤمنين.

والذي أجمعت عليه الصَّحابة ، ولقنته العرب كلّها : أنَّ ورود ذلك من الله ، ومن رسوله ، ومن الأئمَّة ، إنَّما لمقصد الإفهام ، لا لقصد الإعلام ، فلذلك لم تستشكل الصَّحابة منه شيئاً قط ، بل كلَّما كان وارده

عليهم أكثر ، كانوا به أفرح ، وللخطاب به أفهم ، حتىٰ قال بعضهم ، لمَّا ذكر النَّبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " أنَّ الله يضحك من عبده " ، لا نعدم الخير من ربٍّ يضحك ، وهم وسائر العلماء بعدهم صنفان:

إمَّا متوقِّف عنه في حدِّ الإيمان ، قانع بما أفاد من الإفهام.

وإمَّا مفتوح عليه بما هو في صفاء الإيقان ، وذلك أنَّ الله ، سبحانه ، تعرَّف لعباده في الأفعال والآثار في الآفاق ، وفي أنفسهم تعليماً ، وتعرَّف للخاصَّة منهم بالأوصاف العليا والأسماء الحسنىٰ ، ممّا يمكنهم اعتباره تعجيزاً ، فجاوزوا حدود التَّعلُّم بالإعلام إلىٰ عجز الإدراك ، فعرفوا أن لا معرفة لهم ، وذلك هو حدُّ العرفان ، وإحكام قراءة هذا الحرف المتشابه في منزل القرآن ، وتحقَّقوا أن : ﴿**لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ**﴾ [الشورىٰ: ١١] ، ﴿**وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ**﴾ [الإخلاص : ٤] ، فتهدَّفوا بذلك لما يفتحه الله علىٰ من يحبُّه من صفاء الإيقان ، والله يحبُّ المحسنين " .

وقال الإمام عبد العظيم بن الواحد بن ظافر ابن أبي الإصبع العدواني ، البغدادي ثمَّ المصري في " تحرير التَّحبير في صناعة الشِّعر والنَّثر وبيان إعجاز القرآن " (ص١٥١) : " ... والضّرب الثَّالث من المبالغة إخراج الكلام مخرج الإخبار عن الأعظم الأكبر للمبالغة ، والإخبار عنه مجاز ، كقول من رأىٰ موكباً عظيماً أو جيشاً خضمَّاً : جاء الملك نفسه وهو يعلم حقيقة أن ما جاء جيشه ، وقد جاء من ذلك في الكتاب العزيز قوله تعالىٰ : ﴿**وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا**﴾ [الفجر : ٢٢] ، فجعل مجيء جلائل آياته مجيئاً له سبحانه " .

وقال الإمام زين الدِّين أبو عبد الله محمَّد بن أبي بكر بن عبد القادر الحنفي الرَّازي في " أنموذج جليل في أسئلة وأجوبة عن غرائب آي التَّنزيل" (ص٥٧١) : " ... فإن قيل : كيف قال الله تعالىٰ : ﴿**وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا**﴾ [الفجر : ٢٢] ، الانتقال والحركة علىٰ الله محالان لأنَّهما من خواص الكائن في جهة ؟

قلنا : قال ابن عبَّاس ، رضي الله عنهما ، وجاء أمرُ ربِّك ، لأنَّ في القيامة تظهر جلائل آيات الله تعالىٰ ، ونظيره قوله تعالىٰ : ﴿**هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ**﴾ [الأنعام : ١٥٨] ، وقيل : معناه : وجاء ظهورُ ربِّك ، لضرورة معرفته يوم القيامة ، ومعرفة الشَّيء بالضَّرورة تقوم مقام ظهوره ورؤيته ، فمعناه : زالت الشُّكوك وارتفعت الشُّبهة ، كما ترتفع عند مجيء الشَّيء الذي كان يشكُّ فيه" .

وقال الإمام القرطبي في " الجامع لأحكام القرآن" (٢٠/ ٥٥) : " قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿**وَجاءَ رَبُّكَ**﴾ [الفجر : ٢٢] ، أَيْ : أَمْرُهُ وَقَضَاؤُهُ، قَالَهُ الْحَسَنُ. وَهُوَ مِنْ بَابِ حَذْفِ الْمُضَافِ. وَقِيلَ: أَيْ جَاءَهُمُ الرَّبُّ بِالْآيَاتِ الْعَظِيمَةِ، وَهُوَ كَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿**إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمامِ**﴾ [البقرة: ٢١٠] ، أَيْ بِظُلَلٍ. وَقِيلَ: جَعَلَ مَجِيءَ

الْآيَاتِ مَجِيئًا لَهُ، تَفْخِيمًا لِشَأْنِ تِلْكَ الْآيَاتِ. وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ فِي الْحَدِيثِ: "يَا بْنَ آدَمَ، مَرِضْتُ فَلَمْ تَعُدْنِي، وَاسْتَسْقَيْتُكَ فَلَمْ تَسْقِنِي، وَاسْتَطْعَمْتُكَ فَلَمْ تُطْعِمْنِي " . وَقِيلَ: وَجاءَ رَبُّكَ أَيْ زَالَتِ الشُّبَهُ ذَلِكَ الْيَوْمَ، وَصَارَتِ الْمَعَارِفُ ضَرُورِيَّةً، كَمَا تَزُولُ الشُّبَهُ وَالشَّكُّ عِنْدَ مَجِيءِ الشَّيْءِ الَّذِي كَانَ يُشَكُّ فِيهِ. قَالَ أَهْلُ الْإِشَارَةِ: ظَهَرَتْ قُدْرَتُهُ وَاسْتَوْلَتْ ، وَاللَّهُ جَلَّ ثَنَاؤُهُ لَا يُوصَفُ بِالتَّحَوُّلِ مِنْ مَكَانٍ إِلَىٰ مَكَانٍ، وَأَنَّىٰ لَهُ التَّحَوُّلُ وَالِانْتِقَالُ، وَلَا مَكَانَ لَهُ وَلَا أَوَانَ، وَلَا يَجْرِي عَلَيْهِ وَقْتٌ وَلَا زَمَانٌ، لِأَنَّ فِي جَرَيَانِ الْوَقْتِ عَلَىٰ الشَّيْءِ فَوْتُ الْأَوْقَاتِ، وَمَنْ فاته شيء فَهُوَ عَاجِزٌ" .

وقال الإمام القرافي في " نفائس الأصول في شرح المحصول" (٢/ ٨٦٤) : **﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾** [الفجر : ٢٢] . وقد ثبت بالدَّليل أنَّه لا يجوز أن يكون المراد منها ظواهرها ؛ فوجب صرف إلىٰ غير ظواهرها، وهو المجاز" .

وقال الإمام شهاب الدِّين أحمد بن إدريس القرافي في " نفائس الأصول في شرح المحصول" (٢/ ٩٢١) : **﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾** [الفجر : ٢٢] ، من باب الحذف ، أي : أمرُ ربِّك أو جند ربِّك ، ونحو ذلك ، فهو من مجاز التَّركيب ، والأوَّل من مجاز الإفراد " .

وقال الإمام البيضاوي في " أنوار التَّنزيل وأسرار التَّأويل" (٥/ ٣١١) : **﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾** [الفجر : ٢٢] ، أي : ظهرت آياتُ قدرته وآثارُ قهره ، مثَّل ذلك بما يظهر عند حضور السُّلطان من آثار هيبته وسياسته " .

وقال الإمام أبو البركات عبد الله بن أحمد بن محمود حافظ الدِّين النَّسفي في " مدارك التَّنزيل وحقائق التأويل" (٣/ ٦٤١) : **﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾** [الفجر : ٢٢] ، تمثيل لظهور آيات اقتداره ، وتبيين آثار قهره وسلطانه ، فإنَّه واحداً من الملوك إذا حضر بنفسه ظهر بحضوره من آثار الهيبة ما لا يظهر بحضور عساكره وخواصّه ، وعن ابن عبَّاس : أمرُه وقضاؤه".

وقال الإمام علاء الدِّين علي بن محمَّد بن إبراهيم البغدادي الشَّهير بالخازن في " لباب التَّأويل في معاني التَّنزيل" (٧/ ٢٤٦) : **﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾** [الفجر : ٢٢] ، اعلم أنَّ هذه الآية من آيات الصِّفات التي سكت عنها وعن مثلها عامَّة السَّلف وبعض الخلف ، فلم يتكلَّموا فيها وأجروها كما جاءت من غير تكييف ولا تشبيه ولا تأويل ، وقالوا يلزمنا الإيمان بها وأجراؤها علىٰ ظاهرها ، وتأولها بعض المتأخِّرين ، وغالب المتكلِّمين فقالوا ثبت بالدَّليل العقلي ، أنَّ الحركة علىٰ الله محالٌ ، فلا بدَّ من تأويل الآية.

فقيل في تأويلها : وجاء أمرُ ربك بالمحاسبة والجزاء.

وقيل : جاء أمرُ ربِّك وقضاؤه.

وقيل : وجاء دلائل آيات ربِّك ، فجعل مجيئها مجيئاً له تفخيماً لتلك الآيات " .

وقال الإمام ابن الحاج في " المدخل" (١٤٨/٢) : " ... كَمَا يُصْنَعُ بِمَا جَاءَ فِي الْقُرْآنِ مِمَّا يَقْتَضِي ظَاهِرُهُ التَّشْبِيهَ ، وَهُوَ كَثِيرٌ كَالْإِتْيَانِ فِي قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ : **﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ أَنْ يَأْتِيَهُمُ الله فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمامِ وَالْمَلائِكَةُ﴾** [البقرة : ٢١٠] ، وَالْمَجِيءِ فِي قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ : **﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾** [الفجر: ٢٢] ، انْتَهَى.

وَذَلِكَ يَحْتَمِلُ وَجْهَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ بِقَوْلِهِ : **﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ أَنْ يَأْتِيَهُمُ الله﴾** [البقرة : ٢١٠] ، أَيْ : عَذَابُهُ ، وَنِقْمَتُهُ لِمَنْ كَفَرَ بِهِ ، وَأَلْحَدَ فِي آيَاتِـــهِ ، وَكَذَلِكَ الْمَعْنَى فِي قَوْلِهِ : **﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾** [الفجر : ٢٢] .

الْوَجْهُ الثَّاني : أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ الظُّهُور إِذْ لَا فَرْقَ بَيْنَ الدُّنيا ، وَالْآخِرَةِ بِالنِّسْبَةِ إِلَيْهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ، وإِنَّما الْحِجَابُ مِنَّا ، فَإِذَا كَشَفَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الْحِجَابَ عَنَّا ظَهَرَ لَنَا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مِنْ غَيْرِ حَدٍّ ، وَلَا تَكْيِيفٍ جَلَّ جَلَالُهُ عَنْ الصُّورَةِ، وَالْكَيْفِيَّةِ " .

وقال الإمام أحمد بن علي بن عبد الكافي السُّبكي في " عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح" (١/ ٦٠٢) ، (٢/ ٢٠٣) : **﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾** [الفجر : ٢٢] ، أي : أمره أو عذابه" .

وقال الإمام محمَّد بن عبد الرَّحمن بن عمر ، أبو المعالي، جلال الدِّين القزويني الشَّافعي في " الإيضاح في علوم البلاغة" (٣/ ١٩٥) : " ... وأدلَّة الحذف كثيرة ... وَمِنْهَا : أن يدلَّ العقل على الحذف والتَّعيين ، كقوله : **﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾** [الفجر : ٢٢] ، أي : أمرُ ربِّك أو عذابُه أو بأسُه ، وقوله : **﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ أَنْ يَأْتِيَهُمُ الله﴾** [البقرة: ٢١٠] ، أي : عذابُ الله أو أمره " .

وقال الإمام أبو القاسم ، محمَّد بن أحمد بن محمَّد بن عبد الله ، ابن جزي الكلبي الغرناطي في " التَّسهيل لعلوم التَّنزيل" (٢/ ٤٨١) : **﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾** [الفجر : ٢٢] ، تأويله عند المتأوِّلين : جاء أمره وسلطانه . وقال المنذر بن سعيد : معناه : ظهوره للخلق هنالك . وهذه الآية وأمثالها من المشكلات التي يجب الإيمان بها من غير تكييف ولا تمثيل " .

وقال الإمام شرف الدِّين الحسين بن عبد الله الطِّيبي في " شرح الطِّيبي على مشكاة المصابيح المسمَّىٰ بـ (الكاشف عن حقائق السنن) (٣/ ٥٤٣) : " واعلم أنَّ للنَّاس فيما جاء من صفات الله ما يشبه صفات المخلوقين تفصيلاً ، وذلك أنَّ المتشابه قسمان : قسم يقبل التَّأويل ، وقسم لا يقبله ، بل علمه مختصٌّ بالله تعالىٰ ، ويقفون عند قوله : **﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ الله﴾** [آل عمران : ٧] ، كالنَّفس في قوله تعالىٰ : **﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾** [المائدة : ١١٦] ، والمجيء في قوله : **﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾** [الفجر : ٢٢] ، وتأويل فواتح السُّور ، مثل : **﴿حَم﴾** [غافر : ١] و **﴿الم﴾** [البقرة : ١] ، من هذا القبيل" .

وقال الإمام يحيىٰ بن حمزة بن علي بن إبراهيم ، الحسيني العلويّ الطَّالبي الملقَّب بالمؤيَّد باللَّه في " الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز" (١/ ٥١) : " ... وذلك أن ندرك من الكلام ما يوقفنا علىٰ أمور تشعرنا بالتَّفرقة بينهما ، وذلك من أوجه أربعة : ... " وثالثها " : أنَّهم إذا علّقوا الكلمة بما يستحيل عقلاً تعلّقها به ، علم أنَّها في أصل اللغة غير موضوعة لها فيعلم كونها مجازاً فيها ، وهذا كقوله تعالىٰ في النُّقصان : **﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾** [الفجر : ٢٢] ، فإنَّه يستحيل عقلاً تعلّق المجيء بالذَّات ، لاستحالته عليها ، فيعلم أن استعمالها مجاز بالنُّقصان ، وأنَّ الأصل وجاء أمرُ ربِّك ."

وقال الإمام أبو حيان الأندلسي في " البحر المحيط في التَّفسير" (١٠/ ٤٧٥) : **﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾** [الفجر : ٢٢] ، قَالَ الْقَاضِي مُنْذِرُ بْنُ سَعِيدٍ : مَعْنَاهُ : ظُهُورُهُ لِلْخَلْقِ هُنَالِكَ ، وَلَيْسَ بِمَجِيءِ نُقْلَةٍ ، وَكَذَلِكَ مَجِيءُ الطَّامَّةِ وَالصَّاخَّةِ . وَقِيلَ : وَجَاءَ قُدْرَتُهُ وَسُلْطَانُهُ . وَقَالَ الزَّمَخْشَرِيُّ : هُوَ تَمْثِيلٌ لِظُهُورِ آيَاتِ اقْتِدَارِهِ وَتَبْيِينِ آثَارِ قُدْرَتِهِ وَسُلْطَانِهِ ، مُثِّلَتْ حَالُهُ فِي ذَلِكَ بِحَالِ الْمَلِكِ إِذَا حَضَرَ بِنَفْسِهِ ظَهَرَ بِحُضُورِهِ مِنْ آثَارِ الْهَيْبَةِ وَالسِّيَاسَةِ مَا لَا يَظْهَرُ بِحُضُورِ عَسَاكِرِهِ كُلِّهَا وَوُزَرَائِهِ وَخَوَاصِّهِ " .

وقال الإمام الذَّهبي في " سير أعلام النُّبلاء" (٢٠/ ٣٣١) : " وَمَسْأَلَةُ النُّزول فَالإِيْمَانُ بِهِ وَاجِبٌ ، وَتَرْكُ الخوضِ فِي لوازِمِهِ أَوْلَىٰ ، وَهُوَ سَبِيْلُ السَّلف ، فَمَا قَالَ هَذَا : نُزُوْلُهُ بِذَاتِهِ ، إِلَّا إِرغَاماً لِمَنْ تَأَوَّلَهُ ، وَقَالَ : نُزولُهُ إِلَىٰ السَّماء بِالعِلْم فَقَطْ ، نَعُوذُ بِاللهِ مِنَ المِرَاءِ فِي الدِّين.

وَكَذَا قَوْلُهُ : **﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾** [الفجر : ٢٢] ، وَنَحْوُهُ ، فَنَقُوْلُ : جَاءَ ، وَيَنْزِلُ ، وَنَنْهَىٰ عَنِ القَوْلِ : يَنْزِلُ بِذَاتِهِ ، كَمَا لاَ نَقُوْلُ : يَنْزِلُ بِعِلْمِهِ ، بَلْ نَسكتُ وَلاَ نَتفَاصَحُ عَلَىٰ الرَّسول – صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – بعبارات مبتدعة ، والله أعلم" .

وقال الإمام عضد الدِّين الإيجي في " كتاب المواقف" (٣/ ٣٨) : **﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾** [الفجر : ٢٢] ، أي : أمره " .

وقال الإمام ابن هشام في " شرح شذور الذَّهب في معرفة كلام العرب" (ص٥٥١) : " قَوْله تَعَالَىٰ : ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر: ٢٢] ، أَي : أمره " .

وقال الإمام ابن هشام في "مغني اللبيب عن كتب الأعاريب" (ص٨١١) : ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر: ٢٢] ، ﴿فَأَتَى الله بُنْيانَهُمْ مِنَ الْقَواعِدِ﴾ [النحل : ٢٦] ، أَي : أمرُه ، لِاسْتِحَالَة الْحَقِيقِيّ " .

وقال الإمام ابن هشام في " أوضح المسالك إلىٰ ألفيَّة ابن مالك" (٣/ ١٤٤) : ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر : ٢٢] ، أي : أمر ربِّك ."

وقال الإمام ابن عقيل في " شرح ابن عقيل علىٰ ألفية ابن مالك" (٣/ ٧٦) : " يحذف المضاف لقيام قرينة تدلُّ عليه ويقام المضاف إليه مقامه فيعرب بإعرابه ، كقوله تعالىٰ : ﴿وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ﴾ [البقرة : ٩٣] ، أي : حبَّ العجل ، وكقوله تعالىٰ : ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر : ٢٢] ، أي : أمرُ ربِّك ... ".

وقال الإمام تاج الدِّين السُّبكي في " طبقات الشَّافعيَّة الكبرىٰ" (٩/ ٦٧-٧١) ناقلاً عن ابن جهبل في ردِّه علىٰ ابن تيمية : " ... وورد قوله تعالىٰ : ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [ق : ١٦] ، وذلك يقتضي أن يكون الله داخل الزردمة ، فلم لا بينه الله ولا رسوله ولا سلف الأمَّة . وقال تعالىٰ : ﴿كَلَّا لا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾ [العلق : ١٩] ، ومعلوم أنَّ التقرُّب في الجهة ليس إلَّا بالمسافة ، فلم لا بينه الله تعالىٰ ، ولا رسوله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، ولا سلف الأمَّة . وقال تعالىٰ : ﴿فَأَيْنَما تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ [البقرة : ١١٥] ، وقال تعالىٰ : ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر : ٢٢] ، وقال تعالىٰ : ﴿فَأَتَى الله بُنْيانَهُمْ مِنَ الْقَواعِدِ﴾ [النحل : ٢٦] ، وقال تعالىٰ : ﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ﴾ [الأنبياء : ٢] ، ... وكلّ هذه هل تأمن من المجسِّم أن يقول لك : ظواهر هذه كثرة تفوت الحصر أضعاف أحاديث الجهة ، فإن كان الأمر كما يقول في نفي الجسمية مع أنَّه لم يأت في شيء من هذه ما يبيِّن خلاف ظواهرها لا عن الله تعالىٰ ، ولا عن رسوله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، ولا عن سلف الأمَّة ، فحينئذ يكيل لك المجسِّم بصاعك ، ويقول لك : لو كان الأمر كما قلت ، لكان ترك النَّاس بلا كتاب ولا سنَّة أهدىٰ لهم . وإن قلت : إنَّ العمومات قد بيَّنت خلاف ظواهر هذه لم نجد منها نافياً للجسميَّة إلَّا وهو ناف للجهة ... ثمَّ حاصل كلامك أنَّ مقالة الشَّافعية ، والحنفيَّة ، والمالكيَّة ، يلزمها أن يكون ترك النَّاس بلا كتاب ولا سنَّة أهدىٰ لهم ، أفتراهم يكفِّرونك بذلك أم لا ؟!! ثمَّ جعلت أنَّ مقتضىٰ كلام المتكلِّمين : أنَّ الله تعالىٰ ورسوله وسلف الأمَّة تركوا العقيدة حتىٰ بيَّنها هؤلاء ، فقل لنا : إنَّ الله ورسوله وسلف الأمَّة بيَّنوها ، ثمَّ انقل عنهم أنَّهم قالوا كما تقول : إنَّ

الله تعالىٰ في جهة العلو ، لا في جهة السُّفل ، وإنَّ الإشارة الحسيَّة جائزة إليه ، فإذا لم تجد ذلك في كتاب الله تعالىٰ ، ولا كلام رسوله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، ولا كلام أحد من العشرة ، ولا كلام أحد من السَّابقين الأوَّلين من المهاجرين والأنصار ، رضي الله عنهم ، فعُد على نفسك باللائمة ، وقل : لقد ألزمت القوم بما لا يلزمهم ، ولو لزمهم لكان عليك اللوم.

ثمَّ قلت عن المتكلِّمين : أنَّهم يقولون ما يكون على وفق قياس العقول فقولوه وإلَّا فانفوه . والقوم لم يقولوا ذلك ، بل قالوا : صفة الكمال يجب ثبوتها لله ، وصفة النَّقص يجب نفيها عنه ، كما قاله الإمام أحمد ، رضي الله عنه ، قالوا : وما ورد من الله تعالىٰ ومن رسوله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فليعرض على لغة العرب ، التي أرسل الله تعالىٰ محمَّداً بلغتها ، كما قال تعالىٰ : **﴿وَمَا أَرْسَلْنا مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ بِلِسانِ قَوْمِهِ﴾** [إبراهيم : ٤] ، فما فهمت العرب فافهمه ، ومن جاءك بما يخالفه فانبذ كلامه نبذ الحذاء المرقَّع ، واضرب بقوله حائط الحشّ.

ثمَّ نعقد فصلاً إن شاء الله تعالىٰ بعد إفساد ما نزغ به في سبب ورود هذه الآيات على هذا الوجه ، فإنه إنَّما تلقف ما نزغ به في مخالفة الجماعة ، وأساء القول على الملَّة من حثالة الملاحدة الطَّاعنين في القرآن .

وسنبيِّن إن شاء الله تعالىٰ ضلالهم ، ويعلم إذ ذاك من هو من فراخ الفلاسفة والهنود ، ثمَّ لو استحيى الغافل لعرف مقدار علماء الأمَّة رحمهم الله تعالىٰ ، ثمَّ هل رأىٰ من ردَّ على الفلاسفة والهنود والرُّوم والفرس غير هؤلاء الذين جعلهم فراخهم ، وهل اتَّكلوا في الرَّدِّ على هذه الطَّوائف على قوم لا عقل لهم ولا بصيرة ولا إدراك ثمَّ يذرونهم يستدلُّون على إثبات الله تعالىٰ في الحجاج على منكره بالنَّقل وعلى منكري النُّبوَّة بالنَّقل حتىٰ يصير مضغة للماضغ ، وضحكة للمستهزئ ، وشماتة للعدو وفرحاً للحسود ، وفي قصَّة الحسن بن زياد اللؤلؤي عبرة للمعتبر.

ثمَّ أخذ بعد هذا في أنَّ الأمور العامَّة إذا نفيت عنها إنَّما يكون دلالتها على سبيل الإلغاز . قلنا وكذلك المجسِّم يقول لك دلالة الأمور العامَّة على نفي الجسميَّة إلغاز.

ثمَّ قال بعد هذا : يا سبحان الله كيف لم يقل الرَّسول صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يوماً ما الدهر ولا أحد من سلف الأمَّة هذه الآيات والأحاديث لا تعتقدوا ما دلت عليه فيقال له ما الذي دلت عليه حتىٰ يقولوا أنَّه لا يعتقد هذا تشنيع بحت.

ثمَّ يقول لك المجسِّم : يا سبحان الله ، لِمَ لمْ يقل رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولا أحد من سلف الأمَّة : إنَّ الله تعالىٰ ليس بجسم ، ولا قالوا : لا تعتقدوا من الأحاديث الموهمة للجسميَّة ظواهرها ، ثمَّ استدلَّ بقوله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في صفة الفرقة النَّاجية : " هو من كان علىٰ مثل ما أنا عليه اليوم وأصحابي " قال المدعي : فهلَّا قال : من تمسَّك بظاهر القرآن في آيات الاعتقاد فهو ضال ، وإنَّما الهدىٰ رجوعكم إلىٰ مقاييس عقولكم.

فليعلم النَّاظر أنَّه هاهنا باهت وزخرف وتشبَّع بما لم يعطه ، فإنه قد ثبت أنَّ طريق رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه ، رضي الله عنهم : الكفّ عن ذلك ، فما نحن الآمرون به ، وأنَّه هو ليس بساكت ، بل طريقه الكلام ، وأمر الدهماء بوصف الله تعالىٰ بجهة العلو ، وتجويز الإشارة الحسيَّة إليه ، فليت شعري ، من الموافق رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه !! ولكن صدق القائل : رمتني بدائها وانسلَّت.

ثمَّ المجسِّم يقول له ، حذو النَّعل بالنَّعل ما قاله لنا ، ونقول له : لم لا قال رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : النَّاجية من قال : إنَّ الله في جهة العلو ، وإنَّ الإشارة الحسيَّة إليه جائزة ، فإن قال : هذه طريقة السَّلف ، وطريقة الصَّحابة ، قلنا : من أين لك هذا ؟ !! ثمَّ لا تأمن من كلِّ مبتدع أن يدعي ذلك ." ...

هذا بعضٌ ممَّا قاله الإمام أحمد بن يحيىٰ بن إسماعيل بن طاهر بن نصر بن جهبل الحلبي ثمَّ الدِّمشقي الشَّافعي في ردِّه علىٰ ابن تيمية في مسألة العلو ، وقد ردَّ عليه في هذه المسألة أساطين العلم في زمانه وبعد زمانه ، ومناسبة كلامه لمسألة النُّزول : أنَّ من قال بالنُّزول الحقيقي لله تعالىٰ ، قال بالعلو الحقيقي لله تعالىٰ ، والنُّزول لا يكون إلَّا من علو إلىٰ سفل ... وقد أشبعت المسألة في كتاب سمَّيته : " العلو للعليِّ الغفَّار علوّ مكانة لا علوّ مكان " ، كما قمت بحمد الله تعالىٰ ومنِّه بشرح رسالة ابن جهبل في ردِّه علىٰ ابن تيمية بكتاب سميته : " الفهم الأكمل في شرح رسالة ابن جهبل " ، فالحمد لله الذي بحمده تتمُّ الصَّالحات...

والجدير بالذِّكر هنا أنَّ العلماء اجتمعت كلمتهم علىٰ الثَّناء علىٰ ابن جهبل صاحب الرَّدِّ علىٰ ابن تيمية ، ومن كلام العلماء في ذلك:

قال الإمام ابن كثير في " البداية والنِّهاية" (١٤/ ١٨٩) : " الشَّيخ ، الْإِمَامُ ، الفاضل ، مُفْتِي الْمُسْلِمِينَ ، شِهَابُ الدِّين أَبُو العبَّاس أَحْمَدُ بْنُ مُحْيِي الدِّين يَحْيَىٰ بْنِ تَاجِ الدِّين إِسْمَاعِيلَ بْنِ طَاهِرِ بْنِ نَصْرِ اللَّهِ بْنِ جَهْبَلٍ الْحَلَبِيُّ الْأَصْلِ ثمَّ الدِّمَشْقِيُّ الشَّافِعِيُّ ، كَانَ مِنْ أَعْيَانِ الْفُقَهَاءِ ، وُلِدَ سَنَةَ سَبْعِينَ وَسِتِّمِائَةٍ ، واشتغل

بالعلم ، ولزم المشايخ ، ولزم الشَّيخ الصَّدْرَ بْنَ الْوَكِيلِ ، وَدَرَّسَ بِالصَّلَاحِيَّةِ بِالْقُدْسِ ، ثمَّ تركها إِلَى دِمَشْقَ ، فَبَاشَرَ مَشْيَخَةَ دَارِ الْحَدِيثِ الظَّاهِرِيَّةِ مُدَّةً ، ثمَّ وَلِيَ مَشْيَخَةَ الْبَادَرَائِيَّةِ ، فَتَرَكَ الظَّاهِرِيَّةَ ، وأقام بتدريس الْبَادَرَائِيَّةِ إِلَىٰ أَنْ مَاتَ ، وَلَمْ يَأْخُذْ مَعْلُوماً مِنْ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا ، تُوُفِّيَ يَوْمَ الْخَمِيسِ بَعْدَ الْعَصْرِ تَاسِعَ جُمَادَىٰ الْآخِرَةِ وَصُلِّيَ عَلَيْهِ بَعْدَ الصَّلاة وَدُفِنَ بِالصُّوفِيَّةِ ، وَكَانَتْ جَنَازَتُهُ حَافِلَةً" .

ومن المعلوم أنَّ الإمام ابن كثير من تلاميذ الإمام ابن تيمية ، فقد أثنىٰ علىٰ الإمام ابن جهبل مع أنَّه من المشنِّعين عليه ... فالحقّ دائماً أحقُّ أن يُتَّبع...

وقال الإمام أبو الفضل أحمد بن علي بن محمَّد بن أحمد بن حجر العسقلاني في " الدُّرر الكامنة في أعيان المائة الثَّامنة" (١/ ٣٨٩-٣٩٠) في ترجمة ابن جهبل : " أَحْمد بن يحيىٰ بن إِسْمَاعِيل بن طَاهِر بن نصر بن جهبل الْحلَبِي ثمَّ الدِّمَشْقِي الشَّافِعِي ولد سنة (٦٧٠هـ) ، وتفقه علىٰ الْمَقْدِسِي وَابْن الْوَكِيل وَابْن النَّقِيب ، وَسمع الحَدِيث من الْفَخر والفاروتي ، وَغَيرهمَا ، وَولىٰ تدريس الصلاحيَّة بالقدس مُدَّة ، ثمَّ تركهَا وَسكن دمشق ، ودرس بالبادرائيَّة بِدِمَشْق بعد الشَّيخ برهَان الدِّين ، وولّي مشيخة الحَدِيث بالظاهريَّة ، ثمَّ تَركهَا ، فَأَخذهَا الذَّهبي . قَالَ ابْن كثير : كَانَ من أَعْيَان الْفُقَهَاء ، وَلم يَأْخُذ مَعْلُوماً من البادرائيَّة ، وَلَا من الظَّاهِرِيَّة . وَقَالَ الذَّهبي : كَانَ فِيهِ خير وَتعبُّد ، وَله محَاسِن ، وفضائل ، وفطنة ، وَتقدم فِي الْعلم بالفروع . وَقَالَ ابْن الكتبي : كَانَ عَالماً ورعاً ، وَلمَّا مرض تصدّق كثيراً حَتَّىٰ بثيابه ، وَمَات فِي جُمَادَىٰ الْآخِرَة سنة (٧٣٣ هـ) . قلت : حدَّثنا عَنهُ بِالسَّمَاعِ شَيخنَا الْبُرْهَان الشَّامي" .

فهذا هو ابن جهبل الذي ردَّ علىٰ ابن تيمية في مسألة العلو ، تلكُمُ المسألة التي اعتمدها مدَّعو السَّلفيَّة في تكفيرهم لعموم الأمَّة المحمَّديَّة ... والعياذ بالله تعالىٰ...

وقال الإمام ابن كثير في " البداية والنِّهاية" (١٠/ ٣٦١) : " وَرَوَىٰ الْبَيْهَقِيُّ ، عَنِ الْحَاكِمِ ، عَنْ أَبِي عَمْرِو بْنِ السَّمَّاكِ ، عَنْ حَنْبَلٍ أَنَّ أَحْمَدَ بْنَ حَنْبَلٍ تَأَوَّلَ قَوْلَ اللَّهِ تَعَالَىٰ : **﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾** [الفجر : ٢٢] ، أنَّه جَاءَ ثَوَابُهُ . ثمَّ قَالَ الْبَيْهَقِيُّ : وَهَذَا إِسْنَادٌ لَا غُبَارَ عَلَيْهِ " .

وقال الإمام ابن عادل الحنبلي في "اللباب في علوم الكتاب" (٢٠/ ٣٣١) : " قوله : **﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾** [الفجر: ٢٢] ، أي : جاء أمره وقضاؤه ، قاله الحسن ، وهو من باب حذف المضاف .

وقيل : جاءهم الرَّبُّ بالآيات ، كقوله تعالىٰ : **﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَنْ يَأْتِيَهُمُ الله فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ﴾** [البقرة : ٢١٠] ، أي : بظلل .

وقيل : جعل مجيء الآيات مجيئاً له ، تفخيماً لشأن تلك الآيات ، كقوله تعالىٰ في الحديث : " يَا ابْنَ آدم مَرضتُ فلمْ تعُدنِي ، واسْتسْقَيتُكَ فَلَمْ تَسقِنِي ، واسْتطعَمْتُكَ فَلَمْ تُطْعمْنِي."

وقيل : زالت الشُّبه ، وارتفعت الشُّكوك ، وصارت المعارف ضرورية ، كما تزول الشُّبه والشُّكوك عند مجيء الشَّيء الذي كان يشك فيه ، وقيل : وجاء قهر ربِّك ، كما تقــول : جاءتنا بنو أميَّة ، أي : قهرُهم.

قال أهل الإشارة : ظهرت قدرته واستوت ، والله – سبحانه وتعالىٰ – لم يوصف بالتَّحوُّل من مكان إلىٰ مكان ، وأنَّىٰ له التَّحوُّل والانتقال ، ولا مكان ولا أوان ، ولا يجري عليه وقت ولا زمان ؛ لأنَّ في جريان الوقت علىٰ الشَّيء فوات الأوقات ، ومن فاته الشَّيء ، فهو عاجز " .

وقال الإمام سعد الدِّين التَّفتازاني في " مختصر المعاني" (ص١٦٥) : " ... وَمِنْهَا أن يدلَّ العقل عليهما " أي : علىٰ الحذف وتعيين المحذوف ، نحو : ﴿**وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا**﴾ [الفجر : ٢٢] ، فالعقل يدلُّ علىٰ امتناع مجيء الرَّبِّ تعالىٰ وتقدَّس ، ويدلُّ علىٰ تعيين المراد أيضاً ، أي : أمرُه أو عذابُه ، فالأمر المعيَّن الذي دلَّ عليه العقل هو أحد الأمرين ، لا أحدهما علىٰ التَّعيين " .

وقال الإمام سعد الدِّين التَّفتازاني في " مختصر المعاني" (ص٢٤١) : " فصل في بيان معنىٰ آخر يطلق عليه لفظ المجاز علىٰ سبيل الاشتراك أو التَّشابه : وقد يطلق المجاز علىٰ كلمة تغيّر حكم إعرابها ، أي : حكمها الذي هو الإعراب علىٰ أنَّ الإضافة للبيان ، أي : تغير إعرابها من نوع إلىٰ نوع آخر ، بحذف لفظ أو زيادة لفظ ، فالأول كقوله تعالىٰ : ﴿**وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا**﴾ [الفجر : ٢٢] ، وقوله تعالىٰ : ﴿**وَسْئَلِ الْقَرْيَةَ**﴾ [يوسف : ٨٢] ، والثَّاني مثل قوله تعالىٰ : ﴿**لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ**﴾ [الشورىٰ: ١١] ، أي : جاء أمرُ ربِّك ، لاستحالة المجيء علىٰ الله تعالىٰ " .

وقال الإمام سعد الدِّين مسعود بن عمر بن عبد الله التَّفتازاني في " شرح المقاصد في علم الكلام " (٢/ ٦٦-٦٧) : " وأمَّا القائلون بحقيقة الجسميَّة والحيِّز والجهة ، فقد بنوا مذهبهم علىٰ قضايا وهميَّة كاذبة تستلزمها ، وعلىٰ ظواهر آيات وأحاديث تشعر بها ، أمَّا الأوَّل فكقولهم ... وأمَّا الثَّاني فكقوله تعالىٰ : ﴿**وَجَاءَ رَبُّكَ**﴾ [الفجر : ٢٢] ، ﴿**هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ أَنْ يَأْتِيَهُمُ الله**﴾ [البقرة : ٢١٠] ... إلىٰ غير ذلك ، وكقوله عليه السَّلام للجارية الخرساء : " أين الله " ؟ فأشارت إلىٰ السَّماء " ، فلم ينكر عليها ، وحكم بإسلامها ، كقوله عليه السَّلام : " إنَّ الله تعالىٰ ينزلُ إلىٰ سماء الدُّنيا " الحديث ، ... والجواب : أنَّها ظنِّيَّات سمعيَّة في معارضة قطعيَّات عقليَّة ، فيقطع بأنَّها ليست علىٰ ظواهرها ، ويفوَّض العلم بمعانيها إلىٰ الله تعالىٰ ، مع اعتقاد حقيقتها جرياً علىٰ الطَّريق الأسلم الموافق للوقف علىٰ : ﴿**إلاَّ الله**﴾ في قوله تعالىٰ : ﴿**وَما يَعْلَمُ**

تَأْوِيلَهُ إِلاَّ الله﴾ [آل عمران : ٧] ، أو تأوّل تأويلات مناسبة موافقة لما عليه الأدلَّة العقليَّة على ما ذكر في كتب التَّفاسير وشروح الأحاديث سلوكاً للطَّريق الأحكم الموافق للعطف في **﴿إِلَّا الله﴾** [آل عمران : ٧] ... " .

وبمناسبة تطرُّق الإمام التَّفتازاني للحديث عن حديث الجارية ... فللعبد الفقير كتاب ضخم حول الموضوع زادت صفحاته بحمد الله تعالى على (٥٠٠) صفحة ، ذكرنا فيه ما قاله علماء الأمَّة حول حديث الجارية...

وقال الإمام أبو عبد الله بدر الدِّين محمَّد بن عبد الله بن بهادر الزّركشي في " البرهان في علوم القرآن" (٢/ ٨٣-٨٤) : " قَوْلُهُ تَعَالَى : **﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾** [الفجر : ٢٢] ، قِيلَ : اسْتِعَارَةُ الْوَاوِ مَوْضِعَ الْبَاءِ لِمُنَاسَبَةٍ بَيْنَهُمَا فِي مَعْنَى الْجَمْعِ ، إِذِ الْبَاءُ مَوْضُوعَةٌ لِلْإِلْصَاقِ ، وَهُوَ جَمْعٌ ، وَالْوَاوُ مَوْضُوعَةٌ لِلْجَمْعِ ، وَالْحُرُوفُ يَنُوبُ بَعْضُهَا عَنْ بَعْضٍ ، وَتَقُولُ عُرْفاً : جَاءَ الْأَمِيرُ بِالْجَيْشِ ، إِذَا كَانَ مَجِيئُهُمْ مُضَافاً إِلَيْهِ بِتَسْلِيطِهِ أَوْ بِأَمْرِهِ ، وَلَا شَكَّ أَنَّ الْمَلَكَ إِنَّما يَجِيءُ بِأَمْرِهِ عَلَى مَا قَالَ تَعَالَى : **﴿وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾** [الأنبياء : ٢٧] ، فَصَارَ كَمَا لَوْ صَرَّحَ بِهِ ، وَقَالَ : جَاءَ الملك بأمرِ ربِّك ، وهو كقوله : **﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ﴾** [المائدة : ٢٤] ، أَي : اذْهَبْ أَنْتَ بِرَبِّكَ ، أَيْ : بِتَوْفِيقِ رَبِّكَ وَقُوَّتِهِ ، إِذْ مَعْلُومٌ أَنَّه إِنَّما يُقَاتِلُ بِذَلِكَ مِنْ حَيْثُ صَرْفُ الْكَلَامِ إِلَى الْمَفْهُومِ فِي الْعُرْفِ " .

وقال الإمام الزّركشي في " البرهان في علوم القرآن" (٣/ ٥٣) : " وَقَدْ يَخْرُجُ الْكَلَامُ مَخْرَجَ الْإِخْبَارِ عَنِ الْأَعْظَمِ الأكبر للمبالغة ، وَهُوَ مَجَازٌ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : **﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾** [الفجر : ٢٢] ، فَجَعَلَ مَجِيءَ جَلَائِلِ آيَاتِهِ مَجِيئًا لَهُ سُبْحَانَهُ عَلَى الْمُبَالَغَةِ " .

وقال الإمام الزّركشي في """" البرهان في علوم القرآن" (٣/ ١٠٩) : " ... وَمِنْهَا : أَنْ يَدُلَّ الْعَقْلُ عَلَيْهِمَا ، أَيْ : عَلَى الْحَذْفِ وَالتَّعْيِينِ كَقَوْلِهِ تعالى : **﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾** [الفجر : ٢٢] ، أَيْ : أَمْرُهُ أَوْ عَذَابُهُ أَوْ مَلَائِكَتُهُ ، لِأَنَّ الْعَقْلَ دَلَّ عَلَى أَصْلِ الْحَذْفِ ، وَلِاسْتِحَالَةِ مَجِيءِ الباريء عَقْلاً ، لِأَنَّ الْمَجِيءَ مِنْ سِمَاتِ الْحُدُوثِ ، وَدَلَّ الْعَقْلُ أَيْضاً عَلَى التَّعْيِينِ ، وَهُوَ الْأَمْرُ ، وَنَحْوُهُ وَكَلَامُ الزَّمَخْشَرِيِّ يَقْتَضِي أَنَّه لَا حَذْفَ أَلْبَتَّةَ ، فَإِنَّهُ قَالَ : هَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ تَمْثِيلٌ ، مَثَّلَتْ حَالَهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي ذَلِكَ بِحَالِ الْمَلِكِ إِذَا حَضَرَ بِنَفْسِهِ " .

وقال الإمام الزّركشي البرهان في علوم القرآن (٣/ ١٤٨) : **﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾** [الفجر : ٢٢] ، أَيْ : أَمْرُ رَبِّكَ " .

وقال الإمام الزّركشي في " البحر المحيط في أصول الفقه" (٤٣/٥) : " ... وَقَدْ نَقَلَ ابْنُ الْجَوْزِيِّ فِي كِتَابِ " مِنْهَاجِ الْوُصُولِ " عَنْ أَحْمَدَ أَنَّه قَالَ فِي قَوْله تَعَالَىٰ : ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر : ٢٢] ، أَيْ : أَمْرُ رَبِّك " .

وقال الإمام الزّركشي في " تشنيف المسامع بجمع الجوامع لتاج الدِّين السُّبكي" (٤/ ٦٧٦-٦٧٧) : " ... أنَّ كل ما ورد في الكتاب والسُّنَّة الصَّحيحة من الصِّفات اللائقة بجلاله ، نعتقد ظاهر المعنىٰ ، وما ورد فيهما من المشكل ممَّا ظاهره الاتصاف بالحدوث والتَّغيُّر كقوله تعالىٰ : ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر : ٢٢] ، وقوله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " ينزلُ ربُّنا كلّ ليلة " ، فإنَّا ننزِّه عند سماعه عمَّا لا يليق به .

وللعلماء فيه مذهبان مشهوران :

فمنهم : من يفوِّض علمه إلىٰ الله تعالىٰ ، ويسكت عن التَّأويل ، بشرط الجزم بالتَّنزيه والتَّقديس واعتقاد عدم إرادة الظَّواهر المفضية للحدوث والتَّشبيه ، وهذا مذهب السَّلف رحمهم الله تعالىٰ ، ولهذا يقفون علىٰ قوله تعالىٰ : ﴿وَما يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ الله﴾ [آل عمران : ٧] ، ثمَّ يبتدئون ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ﴾ [آل عمران : ٧] ، وقالوا : أمرُّوها كما جاءت بلا كيف . فقولهم : " كما جاءت " ، ردٌّ علىٰ المعطلة ، وقولهم : " بلا كيف " ، ردٌّ علىٰ المشبِّهة .

ومنهم : من يقول بالتَّأويل ، وهو مذهب الخلف ، وشرطوا كون التَّأويل لإيفاء بجلال الله تعالىٰ ، وكون المؤول متَّسعاً في لغة العرب ... " .

وقال الإمام ابن رجب الحنبلي في " فتح الباري شرح صحيح البخاري" (٧/ ٢٢٨-٢٣٠) : " ... وقال : ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر : ٢٢] ، ولم يتأوَّل الصَّحابة ولا التَّابعون شيئاً من ذلك ، ولا أخرجوه عن مدلوله ، بل روي عنهم ؛ ما يدلُّ علىٰ تقريره والإيمان به وامراره كما جاء ؟

وقد روي عن الإمام أحمد ، أنَّه قال في مجيئه : هو مجيء أمره ، وهذا ممَّا تفرَّد به حنبل عنه.

فمن أصحابنا من قال : وهم حنبل فيما روىٰ ، وهو خلاف مذهبه المعروف المتواتر عنه ، وكان أبو بكر الخلَّال وصاحبه لا يثبتان بما تفرَّد به حنبل ، عن أحمد رواية.

ومن متأخِّريهم من قال : هو رواية عنه ، بتأويل كل ما كان من جنس المجيء والإتيان ونحوهما.

ومنهم من قال : إنَّما قال ذلك إلزاماً لمن ناظره في القرآن ، فإنهم استدلُّوا علىٰ خلقه بمجيء القرآن ، فقال: إنَّما يجيء ثوابه ، كقوله : ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر : ٢٢] ، أي : كما تقولون أنتم في مجيء الله أنَّه مجيء أمره ، وهذا أصحّ المسالك في هذا المروي .

وأصحابنا في هذا على ثلاث فرق:

فمنهم من يثبت المجيء والإتيان ، ويصرِّح بلوازم ذلك في المخلوقات ، وربما ذكروه عن أحمد من وجوه لا تصحُّ أسانيدها عنه.

ومنهم من يتأوَّل ذلك على مجيء أمره.

ومنهم من يقرُّ ذلك ، ويمرُّه كما جاء ، ولا يفسِّره ، ويقول : هو مجيء وإتيان يليق بجلال الله وعظمته سبحانه ، وهذا هو الصَّحيح عن أحمد ، ومن قبله من السَّلف ، وهو قول إسحاق وغيره من الأئمة . ( )"

ولنا هنا وقفة قصيرة مع ما جاء في كلام الإمام ابن رجب من قوله : " وكان أبو بكر الخلَّال وصاحبه لا يثبتان بما تفرَّد به حنبل ، عن أحمد رواية " . فأقول : موقف الإمام الخلَّال القاضي بعدم إثبات شيء ممَّا تفرَّد به حنبل عن أحمد لا يقدِّم ولا يؤخِّر ، لأنَّ ردَّ الرِّواية في حالة الانفراد لا يكون على الإطلاق ... فإذا صدر التفرُّد عن متَّهم أو ضعيف جاز الرَّدُّ ، وهذ لا ينطبق على حنبل ، لأنَّه كان ثقة ثبتاً ، كما قال عنه الإمام الخطيب البغدادي . انظر : تاريخ بغداد (٩/ ٢١٧) .

وقال الإمام ابن الجوزي في " المنتظم في تاريخ الأمم والملوك" (١٢/ ٢٥٦) في ترجمة حنبل : " وكان ثقة ثبتاً صدوقاً " . يضاف لذلك أنَّ الإمام ابن كثير روى ما قاله أحمد وهو من رواية حنبل ، ولم يعقِّب عليه ...

قال الإمام ابن كثير في " البداية والنهاية" (١٤/ ٣٨٦) : " وَرَوَى الْبَيْهَقِيُّ ، عَنِ الْحَاكِمِ ، عَنْ أَبِي عَمْرِو بْنِ السَّمَّاكِ ، عَنْ حَنْبَلٍ ، أَنَّ أَحْمَدَ بْنَ حَنْبَلٍ تَأَوَّلَ قَوْلَ اللَّهِ تَعَالَى : **﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾** [الفجر : ٢٢] ، أنَّه جَاءَ ثَوَابُهُ . ثمَّ قَالَ الْبَيْهَقِيُّ : وَهَذَا إِسْنَادٌ لَا غُبَارَ عَلَيْهِ" .

إنَّ الخلَّال على المشرب الذي ينتسب للإمام أحمد ، فهو ممَّن يصحِّح مسألة إقعاد الله لرسوله إلى جواره على العرش ، وقد روى عشرات الرِّوايات في كتابه " السُّنَّة " في تكفير الإمام التِّرمذي ، لأنَّه أنكر مسألة الإقعاد التي اعتبرها الخلَّال فضيلة للرَّسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ... كما أنَّ حنبلاً ليس ببعيد من الإمام أحمد ، فهو ابن عمِّه ، وهو أحد ثلاثة استمعوا المسند من أحمد ، وهم : عبدالله وصالح ابنا أحمد ، وحنبل ، ثمَّ إنَّ مضمون الرِّواية يتوافق مع العقيدة التي كان عليها الإمام أحمد ، فقد نقل الإمام أبو الفضل التَّميمي الحنبلي عن الإمام أحمد أنَّه قال في " اعتقاد الإمام أحمد" (ص ٣٨-٣٩) : " والله تعالى لا يلحقه تغيُّر ولا تبدُّل ، ولا تلحقه الحدود قبل خلق العرش ولا بعد خلق العرش " .

وقال الإمام ابن الجوزي في " دفع شُبه التَّشبيه بأكفِّ التَّنزيه" (ص١٣٥) : " وكان أحمد لا يقول بالجهة للباري " .

وقال الإمام ابن حجر الهيتمي في " الفتاوىٰ الحديثيَّة" (ص٢٧٠-٢٧١) : " عقيدة إِمَام السُّنَّة أَحْمد بن حَنْبَل رَضِي الله عَنهُ وأرضاه ، وَجعل جنان المعارف متقلَّبه ومأواه ، وأفاض علينا وَعَلِيهِ من سوابغ امتنانه ، وبوأه الفردوس الْأَعْلَىٰ من جنانه ، مُوَافقَة لعقيدة أهل السُّنَّة وَالْجَمَاعَة من الْمُبَالغَة التَّامَّة فِي تَنْزِيه الله تَعَالَىٰ عَمَّا يَقُول الظَّالِمُونَ والجاحدون علواً كَبِيراً ، من الْجِهَة ، والجسميَّة ، وَغَيرهمَا من سَائِر سمات النَّقْص ، بل وَعَن كل وَصْف لَيْسَ فِيهِ كَمَال مُطلق ، وَمَا اشْتهر بَين جهلة المنسوبين إِلَىٰ هَذَا الإِمَام الْأَعْظَم الْمُجْتَهد من أَنَّه قَائِل بِشَيْء من الْجِهَة أَو نَحْوهَا فكذب وبُهتان وافتراء عَلَيْهِ" .

وأخيراً فإنَّ الرِّواية احتجَّ بها من الحنابلة : ابن عقيل ، والقاضي أبو يعلىٰ ، وابن الزَّاغوني ، وابن الجوزي ، وابن حمدان ، وغيرهم ، ... وقد نقل ابن تيمية ذلك عن أحمد في مجموع الفتاوىٰ ، (٥/ ٤٠٠) ، وردَّها كعادته.

وقال الإمام ابن رجب الحنبلي في " فتح الباري شرح صحيح البخاري" (٧/ ٢٣٦) : " ومن جملة صفات الله التي نؤمن بها ، وتُمرُّ كما جاءت عندهم : قوله تعالىٰ : ﴿**وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا**﴾ [الفجر : ٢٢] ، ونحو ذلك ممَّا دلَّ علىٰ إتيانه ومجيئه يوم القيامة ، وقد نصَّ علىٰ ذلك أحمد ، وإسحاق ، وغيرهما .

وعندهما : أنَّ ذلك من أفعال الله الاختياريَّة التي يفعلها بمشيئته واختياره . وكذلك قاله الفُضَيل بن عياض وغيره من مشايخ الصَّوفيَّة أهل المعرفة.

وقد ذكر حرب الكرماني أنَّه أدرك علىٰ هذا القول كلَّ من أخذ عنه العلم في البلدان ، سمَّىٰ منهم : أحمد ، وإسحاق ، والحميدي ، وسعيد بن منصور .

وكذلك ذكره أبو الحسن الأشعري في كتابه المسمَّىٰ بـ" الإبانة " ، وهو من أجلِّ كتبه ، وعليه يعتمد العلماء وينقلون منه ، كالبيهقي ، وأبي عثمان الصَّابوني ، وأبي القاسم ابن عساكر ، وغيرهم ، وقد شرحه القاضي أبو بكر ابن الباقلَّاني ... " .

وقال الإمام ابن رجب الحنبلي في " روائع التفسير (الجامع لتفسير الإمام ابن رجب الحنبلي) (٢/ ٥٧٤-٥٧٥) : " ... وقال : ﴿**وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا**﴾ [الفجر : ٢٢] ، ولم يتأوَّل الصَّحابة ولا التَّابعونَ شيئاً من ذلك ، ولا أخرجُوه عن مدلوله . بل رُوي عنهم ما يدلُّ علىٰ تقريرِه والإيمانِ به وإمرارِه كما جاء . وقد رُوي عن الإمامِ أحمدَ ، أنَّه قال في مجيئِهِ : هو مجيءُ أمرِهِ ، وهذا مما تفرَّدَ به حنبلٌ عنه .

فمن أصحَابنا من قال : وهِمَ حنبلٌ فيما رَوىٰ ، وهو خلافُ مذهبه المعروفِ المتواتر عنه . وكان أبو بكر الخلاَّلُ وصاحبُه لا يثبتان بما تفرد به حنبلٌ ، عن أحمدَ روايةً . ومن متأخِّريهم من قال : هو روايةٌ عنه ، بتأويلِ كلِّ ما كان من جنسِ المجيءِ والإتيانِ ونحوهِما . ومنهم من قال : إنَّما قال ذلك إلزاماً لمن ناظرَهُ في القرآن ، فإنهم استدلُّوا علىٰ خلقِهِ بمجيءِ القرآنِ ، فقال: إنَّما يجيءُ ثوابُهُ ، كقولِهِ : **﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾** [الفجر : ٢٢] ، أي : كما تقولون أنتم في مجيءِ اللَّه أنَّه مجيءُ أمر ، وهذا أصحُّ المسالكِ في هذا المرويِّ .

وأصحابُنا في هذا علىٰ ثلاثِ فرقٍ:

فمنهم من يثبتُ المجيءَ والإتيانَ ، ويصرِّحُ بلوازمِ ذلك في المخلوقاتِ . وربَّما ذكروه عن أحمدَ من وجوهٍ لا تصحُّ أسانيدُها عنه.

ومنهم من يتأوَّل ذلك علىٰ مجيء أمره.

ومنهم من يقرُّ ذلك ، ويُمِرُّه كما جاء ، ولا يفسِّره ، ويقولُ : هو مجيءٌ وإتيانٌ يليقُ بجلالِ اللَّه وعظمتِهِ سبحانه . وهذا هو الصَّحيح عن أحمدَ ، ومن قبلَه منَ السَّلف ، وهو قولُ إسحاقَ وغيرِه من الأئمَّةِ " .

وقال الإمام الفيروزآبادي في " بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز" (٢/ ٤١١-٤١٣) : " بصيرة في المجيء والجيئة : وقد ورد في القرآن علىٰ خمسة عشر وجهاً :

الأوّل : جَيْئة الهَيْبة من الملِك والملَك ، **﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾** [الفجر : ٢٢] ، الثَّاني : جَيْئة السَّيَّارة ، **﴿وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ﴾** [يوسف : ١٩] ، الثَّالث : جيئة الخَجَالة ، **﴿وَجاؤُ أَباهُمْ عِشاءً يَبْكُونَ﴾** [يوسف : ١٦] ، الرّابع : جَيْئة الصّيانة ، **﴿فَجاءَتْهُ إِحْداهُما تَمْشِي عَلَى اسْتِحْياءٍ﴾** [القصص : ٢٥] ، الخامس : جَيْئة النَّصيحة من حزقيل لموسىٰ ، **﴿وَجاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعى﴾** [القصص : ٢٠] ، السَّادس : جَيْئة الدّعوة من حبيب النَّجار لأَصحاب ياسين ، **﴿وَجاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعى﴾** [يس : ٢٠] ، السَّابع : جَيئة الرِّسالة من المصطفىٰ ، **﴿لَقَدْ جاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾** [التوبة : ١٢٨] ، الثَّامن : جيئة المَعْذِرة ، **﴿وَإِذا جاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآياتِنا﴾** [الأنعام : ٥٤] ، التَّاسع : جَيْئة النَّصيحة من المنافقين ، **﴿إِذَا جاءَكَ الْمُنافِقُونَ﴾** [المنافقون : ١] ، العاشر : جيئة الغَمْز والنَّميمة ، **﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جاءَكُمْ فاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا﴾** [الحجرات : ٦] ، الحادي عشر : جيئة أَهل الطَّاعة والمعصية إلىٰ جهنَّم والجنَّة ، **﴿حَتَّى إِذا جاؤُها فُتِحَتْ أَبْوابُها﴾** [الزمر : ٧١] ، الثَّاني عشر : جيئة الحَسْرة والنَّدامة علىٰ قُرناءِ السّوءِ بالصُّحبة ، **﴿حَتَّى إِذا جاءَنا قالَ يا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ﴾** [الزخرف : ٣٨] ، الثَّالث عشر : جَيْئة المكر والحِيلة من الكَفَرة لبنىِّ الأمَّة ، **﴿إِذْ جاؤُكُمْ مِنْ**

فَوْقِكُمْ﴾ [الأحزاب : ١٠] ، الرَّابع عشر : جيئة النَّصرة من ربّ المغفرة لنبيّ المَلْحَمة ، **﴿إِذا جاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾** [النصر : ١] ، الخامس عشر : جيئة المناجاة والقُرْبة ، **﴿وَلَمَّا جاءَ مُوسى لِمِيقاتِنا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ﴾** [الأعراف : ١٤٣] .

والجَيْئة والمجيء بمعنىٰ الإتيان لكن المجيء أَعمّ ؛ لأَنَّ الإتيان مجيء بسهولة ، والإِتيان قد يقال باعتبار القصد ، وإِن لم يكن منه الحصولُ ، والمجيء يقال اعتباراً بالحصول.

وقد يقال : جاءَ في الأَعيان والمعاني ، وربّما يكون مجيئهُ بذاته وبأَمره ، ولمن قصد مكاناً أَو عملاً أَو زماناً ، قال تعالىٰ : **﴿وَلَقَدْ جاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ﴾** [غافر : ٣٤] ، **﴿فَإِذا جاءَ الْخَوْفُ﴾** [الأحزاب : ١٩] ، **﴿فَقَدْ جَاؤُ ظُلْماً وَزُوراً﴾** [الفرقان : ٤] ، أَي : قصدوا الكلام وتعمَّدوهُ ، فاستعمل فيه المجيء كما استعمل فيه القصد ، وقوله تعالىٰ : **﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾** [الفجر : ٢٢] ، فهذا بالأَمر لا بالذَّات ، وهو قول ابن عبَّاس ، ويقال : جاء بكذا وأَجاءَه ، قال تعالىٰ : **﴿فَأَجاءَهَا الْمَخاضُ إِلى جِذْعِ النَّخْلَةِ﴾** [مريم : ٢٣] ، قيل : ألجأَها ... " .

وقال الإمام ولي الدِّين أبي زرعة أحمد بن عبد الرَّحيم العراقي في " الغيث الهامع شرح جمع الجوامع " (ص٧٤١-٧٤٣) : " لاَ تَنْحَصِرُ صِفَاتُ اللَّهِ العَلِيَّةِ فِي الثّمَانيةِ المُتَقَدِّمِ ذِكرُهَا ، بَلْ نقولُ بِكُلِّ مَا وَرَدَ فِي الكتَابِ أَو السُّنَّة الصّحيحةِ ، ثمَّ إِنْ كَانَ ظَاهِرُ المَعْنَىٰ لاَ إِشكَالَ فِيهِ اعتقدناه كَمَا وَرَدَ . وإِنْ كَانَ مُشْكِل المَعْنَىٰ يُوهِمُ ظَاهِرُه الحُدُوثَ أَو التّغيُّر ، كَقَوْلِهِ تعَالَىٰ : **﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾** [الفجر: ٢٢] ، وقولِهِ عَلَيْهِ الصَّلاة وَالسَّلاَمُ : " يَنْزِلُ رَبُّنَا فِي كُلّ لَيْلَةٍ إِلَىٰ سَمَاءِ الدُّنيا " فإِنَا نُنَزِّهُ اللَّهَ تعَالَىٰ عِنْدَ سمَاعِه عَمَّا لاَ يَلِيقُ بِهِ ، ولأَئمتِنَا فِيهِ مَذْهَبَانِ مشهورَانِ :

أَحَدُهُمَا : تفويضُ المُرَادِ مِنْهُ إِلَىٰ اللَّهِ تعَالَىٰ ، وَالسكُوتُ عَنِ التَّأويل ، مَعَ الجَزْمِ بِأَنّ الظّواهرَ المُؤَدِّيَة إِلَىٰ الحدوثِ أَو التّشبيهِ غَيْرُ مُرَادَةٍ ، وهو مذهبُ السَّلف ، وسُئِلَ مَالكٌ - رَحِمَهُ الله - عَنْ قَوْلِهِ تعَالَىٰ : **﴿الرَّحْمنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوى﴾** [طه : ٥] ، فقَالَ : الاستوَاءُ معلومٌ ، وَالكَيْفُ مجهولٌ ، وَالإِيمَانُ بِهِ وَاجبٌ ، وَالسؤَالُ عَنْهُ بِدْعَةٌ . وقَالَ التِّرمِذِيُّ فِي الكلاَمِ علَىٰ حديثِ الرّؤْيَةِ : المذهبُ فِي هذَا عِنْدَ أَهْلِ العِلْمِ مِنَ الأَئمةِ مِثْلُ : سُفْيَانَ الثّوْرِيِّ ، ومَالِكِ بْنِ أَنَسٍ ، وَابْنِ المُبَارَكِ ، وسُفْيَانَ بْنِ عُيَيْنَةَ ، وَوَكِيعٍ ، وَغَيْرِهم : أَنَّهم قَالُوا : تُرْوَىٰ هذه الأَحَاديثُ كَمَا جَاءَتْ ، ونُؤْمِنُ بِهَا ، ولاَ يُقَالَ : كيفَ ؟ ولاَ نُفَسِّرُ ولاَ نَتَوَهَّمُ ، وهو الذي اختَارَه أَهْلُ الحديثِ.

ثَانيهُمَا : أَنَّا نُؤَوِّلُهَا علَىٰ مَا يَلِيقُ بِجلاَلِ اللَّهِ تعَالَىٰ ، بِشَرْطِ كَوْنِ المُتَأَوِّلِ مُتَّسِعًا فِي لُغَةِ العربِ.

وَقَدْ قِيلَ : مَذْهَبُ السَّلف فِي هذَا أَسْلَمُ ، ومذهبُ الخَلَفِ أَحْكَمُ لِزَعْمِ قَائِلِه : أَنَّه وَقَفَ علَى المُرَادِ وَاهتدَىٰ إِلَيْهِ بالدَّليل ، أَوْ أُعْلِمَ لِتوَقُّفِهِ علَى زِيَادةِ عِلْمٍ وَاتسَاعٍ فِيهِ.

وكَانَ إِمَامُ الحَرَمَيْنِ يَذْهَبُ إِلَىٰ التَّأويل أَوَّلاً ثمَّ رَجعَ عَنْهُ ، فَقَالَ فِي الرِّسَالةِ النِّظَامِيَّةِ : وَالذي نَرْتَضِيهِ رَأياً ونَدِينُ اللَّهَ بِهِ عَقْدًا اتبَاعُ سَلَفِ الأمَّة ؛ فَإِنَّهُمْ دَرَجُوا عَلَىٰ تَرْكِ التّعَرُّضِ لمعَانِيهَا.

وقَالَ الشَّيخ عِزُّ الدِّين بْنُ عبدِ السّلاَمِ : طريقةُ التَّأويل بِشرطِه أَقربُهَا إِلَىٰ الحَقِّ.

وتَوَسَّطَ الشَّيخ تَقِيُّ الدِّين بْنُ دَقِيقِ الْعِيدِ ، فقَالَ : إِذَا كَانَ التَّأويل قريبًا علَىٰ مَا يقتضِيه لِسَانُ العربِ لَمْ يُنْكَرْ ، وإِنْ كَانَ بَعِيدًا تَوَقَّفْنَا عَنْهُ ، وآمَنَّا بِمَعْنَاه علَىٰ الوَجْهِ الذي أُرِيدَ بِهِ مَعَ التّنزيهِ.

قَدْ : ومَا كَانَ معنَاه مِنْ هذه الأَلفَاظِ ظاهراً مفهوما مِنْ تَخَاطُبِ العربِ قُلْنَا بِهِ وأَوَّلْنَاهُ مِنْ غَيْرِ تَوْقِيفٍ ... " .

وقال الإمام تقي الدِّين الحصني الدِّمشقي في " دفع شبه من شبَّه وتمرَّد ونسي ذلك إلىٰ السيِّد الجليل الإمام أحمد" (ص٥) : " ... ومن ذلك : قوله تعالىٰ : ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر: ٢٢] ، قال الإمام أحمد : معناه : جاء أمر ربك . قال القاضي أبو يعلىٰ : قال الإمام أحمد : المراد به قدرته وأمره ، وقد بيَّنه في قوله تعالىٰ : ﴿أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ [النحل : ٣٣] ، يُشير إلىٰ حمل المطلق علىٰ المقيَّد ، وهو كثير في القرآن والسُّنَّة والإجماع وفي كلام علماء الأمَّة ، لأنه لا يجوز عليه الانتقال سبحانه وتعالىٰ . ومثله حديث النُّزول ، وممَّن صرَّح بذلك الإمام الأوزاعي ، والإمام مالك ، لأنَّ الانتقال والحركة من صفات الحدث ، والله عزَّ وجلَّ قد نزَّه نفسه عن ذلك " .

وقال الإمام ابن الوزير في " العواصم والقواصم في الذب عن سنة أبي القاسم" (٥/ ٢٢٦، ٥/ ٢٣١) : " ... وقال تعالىٰ : ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر : ٢٢] ، أي : أمرُ ربِّك " .

وقال الإمام النَّيسابوري في " غرائب القرآن ورغائب الفرقان" (٦/ ٤٩٨-٤٩٩) : " قوله : ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر : ٢٢] ، أي : أمرُه بالجزاء والحساب ، أو قهره ، أو دلائل قدرته . ويجوز أن يكون تمثيلاً لهول ذلك اليوم ، كما إذا حضر الملك بنفسه وجنوده كان أهيب" .

وقال الإمام كمال الدِّين محمَّد بن عبد الواحد السِّيواسي المعروف بابن الهمام في " فتح القدير "(٩/ ١٥٧) : " قَوْله تَعَالَىٰ : ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر : ٢٢] ، أَيْ : أَمْرُ رَبِّك " .

وقال الإمامان : جلال الدِّين المحلي ، وجلال الدِّين السُّيوطي في " تفسير الجلالين" (ص٨٠٧) : ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر : ٢٢] ، أَيْ : أَمْرُه " .

وقال الإمام الثَّعالبي في " الجواهر الحسان في تفسير القرآن" (٥/ ٥٨٨) : " وقوله تعالىٰ : **﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾** [الفجر : ٢٢] ، معناه : جَاءَ أَمرُهُ وقضاؤه ، وقال منذرُ بنُ سعيد : معناه : ظهورُه للخَلْقِ ، هنالك ليس مجيءَ نَقَلةٍ وكذلك مجيءُ الصَّاخَّةِ ، ومجِيءُ الطَّامَّة " .

وقال الإمام القُرافي في " الفروق" (أنوار البروق في أنواء الفروق) (٤/ ٢٤٦-٢٤٧) ، (٤/ ٢٧٢) : " فَفِي الْقُرْآنِ : **﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾** [الفجر : ٢٢] ، فَعَبَّرَ – تَعَالَىٰ – عَنْ أَمْرِهِ الْوَارِدِ مِنْ قِبَلِهِ بِاللَّفْظِ الْخَاصِّ بِالرُّبُوبِيَّةِ عَلَىٰ وَجْهِ الْمَجَازِ ، مِنْ بَابِ إطْلَاقِ لَفْظِ السَّبَبِ عَلَىٰ الْمُسَبَّبِ ، وَلَفْظِ الْمُؤَثِّرِ عَلَىٰ الْأَثَرِ ، وَهُوَ مَجَازٌ مَشْهُورٌ فِي لِسَانِ الْعَرَبِ ، وَمَسْطُورٌ فِي كُتُبِ الْمَجَازِ وَالْحَقِيقَةِ ، وَفِي التَّوْرَاةِ : جَاءَ الله مِنْ سَيْنَاءَ ، وَأَشْرَقَ مِنْ سَاغَيْنِ ، وَاسْتَعْلَنَ مِنْ جِبَالِ فَارَانَ ، إشَارَةً إلَىٰ التَّوْرَاةِ النَّازِلَةِ بِطُورِ سَيْنَاءَ ، وَالْإِنْجِيلِ النَّازِلِ بِسَاغَيْنِ ، مَوْضِعٌ بِالشَّامِ ، وَالْقُرْآنِ النَّازِلِ بِمَكَّةَ ، وَاسْمُهَا فَارَانُ ، فَيَكُونُ مَعْنَاهُ : أَنَّ الْحَقَّ جَاءَ مِنْ سَيْنَاءَ ، وَهُوَ التَّوْرَاةُ وَكَثُرَ ظُهُورُهُ وَعَلَنُهُ بِتَقْوِيَةِ الْإِنْجِيلِ لَهُ ، فَإِنَّ عِيسَىٰ – عَلَيْهِ السَّلَامُ – بُعِثَ لِنُصْرَةِ التَّوْرَاةِ وَتَقْوِيَتِهَا وَإِرَادَةِ الْعَلَانِيَةِ وَالظُّهُورِ ، وَاسْتُكْمِلَ الْحَقُّ وَاسْتُوْفِيَتْ الْمَصَالِحُ وَوَصَلَ الْبَيَانُ وَالْكَمَالُ فِي الشَّرْعِ إلَىٰ أَقْصَىٰ غَايَاتِهِ بِالْقُرْآنِ الْكَرِيمِ وَالشَّرِيعَةِ الْمحمَّدِيَّةِ ، وَسُمِّيَتْ هَذِهِ الْكُتُبُ بِاسْمِ اللَّهِ – تَعَالَىٰ ؛ لِأَنَّهَا مِنْ جِهَتِهِ وَقِبَلِهِ عَلَىٰ الْمَجَازِ ، كَمَا تَقَدَّمَ ... " .

وقال الإمام البقاعي في " نظم الدُّرر في تناسب الآيات والسُّور" (٨/ ٤٢١) : **﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾** [الفجر : ٢٢] ، أي : أمرُ المحسن إليك ، بإظهار رفعتك العظمىٰ في ذلك اليوم الأعظم ، لفصل القضاء بين العباد بشفاعتك **﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾** [الفجر : ٢٢] **﴿وَالمَلَكُ﴾** ، أي : هذا النَّوع حال كون الملائكة مصطفِّين **﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾** [الفجر : ٢٢] ، أي : موزعاً اصطفافهم علىٰ أصنافهم كلّ صنف صف علىٰ حدة ، ويحيط أهل السَّماء الدُّنيا بالجن والإنس ، وأهل كلّ سماء كذلك ، وهم علىٰ الضَّعف ممَّن أحاطوا به حتىٰ يحيطوا أهل السَّماء السَّابعة بالكل ، وهم علىٰ الضعف من جميع من أحاطوا به من الخلائق ، ومعنىٰ مجيئه سبحانه وتعالىٰ ، بعد أن ننفي عنه أن يشبه مجيء شيء من الخلق ، لأنه سبحانه وتعالىٰ ليس كمثله شيء في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله ، فإذا صحَّحنا العقد في ذلك في كل ما كان من المتشابه ، قلنا في هذا : أنَّه مثَّل أمره سبحانه وتعالىٰ في ظهور آيات اقتداره ، وتبيين آثار قدرته وقهره وسلطانه ، بحال الملك إذا حضر بنفسه ، فظهر بحضوره من آثار الهيبة والسِّياسة ما لا يظهر بظهور عساكره كلّها خالية عنه ، فمجيئه عبارة عن حكمه وإظهار عظمته وبطشه ، وكلّ ما يظهره الملوك إذا جاؤوا إلىٰ مكان ، وهو سبحانه وتعالىٰ شأنه حاضر مع المحكوم بينهم بعلمه وقدرته ، لم يوصف بغيبة

أصلاً أزلاً ولا أبداً ، فحضوره في ذلك الحال وبعده كما كان قبل ذلك من غير فرق أصلاً ولم يتجدد شيء غير تعليق قدرته على حسب إرادته بالفصل بين الخلق ، ولو غاب في وقت أو أمكنت غيبته بحيث يحتاج إلى المجيء لكان محتاجاً ، ولو كان محتاجاً لكان عاجزاً ، ولو عجز أو أمكن عجزه في حال من الأحوال لم يصلح للإلهيَّة - تعالى الله عما يقول الظَّالمون والجاحدون علوّاً كبيراً " .

وقال الإمام عبد الرَّحمن بن عبد السَّلام الصَّفُّوري في " نزهة المجالس ومنتخب النَّفائس" (٧/١) : " قال تعالى : ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر : ٢٢] ، أي : أمرُ ربِّك " .

وقال الإمام محمَّد بن عبد الرَّحمن بن محمَّد بن عبد الله الحسني الحسيني الإِيجي الشَّافعيّ في " تفسير الإيجي جامع البيان في تفسير القرآن" (٤/٤٨٧-٤٨٨) : ﴿وَجاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر : ٢٢] : لفصل القضاء ، جيئة تليق بقدسه من غير حركة ونقلة " .

وقال الإمام خالد بن عبد الله بن أبي بكر بن محمَّد الجرجاويّ الأزهري ، زين الدِّين المصري ، وكان يعرف بالوقاد في " شرح التَّصريح على التوضيح أو التَّصريح بمضمون التَّوضيح في النَّحو" (١/٧٢٧) : ﴿وَجاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر : ٢٢] ، أي : أمرُ ربِّك " .

وقال الإمام السُّيوطي في " الإتقان في علوم القرآن" (٢/٣٦٥) : " وأمَّا : ﴿وَجاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر : ٢٢] ، أَيْ : أَمْرُهُ ، فَإِنَّ الْمُرَادَ بِهِ أَهْوَالُ الْقِيَامَةِ الْمُشَاهَدَةُ " .

وقال الإمام السُّيوطي في "معترك الأقران في إعجاز القرآن" ، ويُسمَّى (إعجاز القرآن ومعترك الأقران) (١/١١٥) : " ... ومن ذلك صفة المجيء في قوله : ﴿وَجاءَ رَبُّكَ﴾ [الفجر : ٢٢] ، ﴿أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ﴾ [الأنعام : ١٥٨] ، أي : أمرُه ، لأنَّ الملك مجيء بأمره أو بتسليطه ، كما قال تعالى : ﴿وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنبياء : ٢٧] ، فصار كما لو صرَّح به ، وكذا قوله : ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقاتِلا إِنَّا هاهُنا قاعِدُونَ﴾ [المائدة : ٢٤] ، أي : اذهب بربك ، أي : بتوفيقه وقربه " .

وقال الإمام السُّيوطي في "معترك الأقران في إعجاز القرآن" ، ويُسمَّى (إعجاز القرآن ومعترك الأقران) (١/٢٣٥-٢٣٦) : ﴿وَجاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر : ٢٢] " ... ، أي : أمره ، بمعنى عذابه ، لأنَّ العقل دلَّ على استحالة مجيء الباري ، لأنَّه من سمات الحادث ، وعلى أنَّ الجائي أمره " .

وقال الإمام السُّيوطي في "معترك الأقران في إعجاز القرآن" ، ويُسمَّى (إعجاز القرآن ومعترك الأقران) (٣/٤٨٦) : " ... ﴿وَجاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر : ٢٢] ، أي : أمرُه ، فإنَّ المراد به أهوال القيامة والمشاهدة " .

وقال الإمام أبو الحسن علي بن محمَّد بن خلف المنوفي المصري الشَّاذلي في " كفاية الطَّالب الربَّاني لرسالة أبي زيد القيرواني" (١/ ١١٠-١١١) : " ... قال تعالىٰ : **﴿وَجاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾** [الفجر : ٢٢] ، وعدل عن لفظ الآية وعبَّر بالمستقبل قصد بذلك تفسيرها ، لأنَّ العرب تعبِّر بالماضي عن المستقبل إذا تحقق وقوعه . وإسناد المجيء إليه تعالىٰ مصروف عن ظاهره إجماعاً ، إذ يستحيل عليه الجهات والأمكنة والتحوُّل ، فالسَّلف الصَّالح قالوا : هذا من السرِّ المكتوم الذي لا يفسَّر ، وكان مالك وغيره يقول في هذه الآية وأمثالها : اقرؤوها كما جاءت بلا كيف ، وجمهور المتكلِّمين أوَّلها .

فمنهم : من قال : معنىٰ مجيئه تعالىٰ : ظهوره ، لأنَّ الظهور في العادة لا يكون إلَّا بمجيء وانتقال ، فعبَّر عن المسَّبب باسم السَّبب.

ومنهم : من قال : جاء أمره ونهيه ، فهو من باب حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه ، وأول يوم القيامة من النَّفخة الثَّانية إلىٰ استقرار الخلق في الدَّارين الجنَّة والنَّار ، والألف واللام في الملك للجنس ، وهو معطوف علىٰ ربِّك ، وفيه الجمع بين الحقيقة والمجاز ، بناء علىٰ أنَّ الفعل ينصب علىٰ المعطوف والمعطوف عليه انصبابة واحدة ، لأنَّ مجيء الله تعالىٰ مغاير لمجيء الملك في الحقيقة" .

وقال الإمام شهاب الدِّين أحمد بن حمزة الأنصاري الرَّملي الشَّافعي في " فتاوىٰ الرَّملي" (٤/ ٢٧٩) : **﴿وَجاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾** [الفجر : ٢٢] ، " أَيْ : أَمْرُهُ " .

وقال الإمام الخطيب الشَّربيني الشَّافعي في " السِّراج المنير في الإعانة علىٰ معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير" (٤/ ٥٣٥) : **﴿وَجاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾** [الفجر : ٢٢] ، قال الحسن : أمرُه وقضاؤه " .

وقال الإمام أبو السُّعود في " تفسير أبي السُّعود " (إرشاد العقل السَّليم إلىٰ مزايا الكتاب الكريم) (٩/ ١٥٧) : **﴿وَجاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾** [الفجر : ٢٢] ، أي : ظهرتْ آياتُ قُدرتِه وآثارُ قهرِه ، مثَل ذلكَ بما يظهرُ عندَ حضورِ السُّلطانِ من أحكامِ هيبتِه وسياستِه . وقيلَ : جاءَ أمرُهُ تعالَىٰ وقضاؤُه علىٰ حذفِ المضافِ للتَّهويلِ " .

وقال الإمام مرعي بن يوسف الكرمي الحنبلي في " أقاويل الثِّقات في تأويل الأسماء والصِّفات والآيات المحكمات والمشتبهات" (ص١٦١-١٦٢) : " ... وَقَالَ الطَّيِّبِيّ : اعْلَم أَنَّ للنَّاس فِيمَا جَاءَ من صِفَات الله فِيمَا يشبه صِفَات المخلوقين تَفْصِيلاً ، وَذَلِكَ أَنَّ الْمُتَشَابه قِسْمَانِ : قسم يقبل التَّأويل ، وَقسم لَا يقبله ، بل علمه مُخْتَصّ بِاللَّه تَعَالَىٰ ، ويقفون عِنْد قَوْله تَعَالَىٰ : **﴿وما يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إلاَّ الله﴾** [آل عمران : ٧]

، كالنَّفس فِي قَوْله : ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾ [المائدة : ١١٦] ، والمجيء فِي قَوْله : ﴿وَجاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر : ٢٢] ، وَتَأْويل فواتح السُّور مثل : ﴿الم﴾ [البقرة : ١] ، و ﴿حم﴾ [غافر : ١] ، من هَذَا الْقَبِيل .

وَذكر الشَّيخ السَّهروردي فِي كتاب العقائد : أخبر الله تَعَالَىٰ أَنَّه اسْتَوَىٰ علىٰ الْعَرْش ، وَأخْبر رَسُوله بالنُّزول ، وَغير ذَلِك مِمَّا جَاءَ فِي : الْيَد ، والقدم ، والتَّعجُّب ، فَكل مَا ورد من هَذَا الْقَبِيل دَلَائِل التَّوْحِيد ، فَلَا يتَصَرَّف فِيهِ بتشبيه وَلَا تَعْطِيل ، فلولا إِخْبَار الله تَعَالَىٰ وإخبار رَسُوله مَا تجاسر عقل أَن يحوم حول ذَلِك الْحمىٰ وتلاشىٰ دونه عقل الْعُقَلَاء ولبِّ الألباء.

قَالَ الطَّيِّبِيّ : هَذَا الْمَذْهَب هُوَ الْمُعْتَمد عَلَيْهِ ، وَبِه يَقُول السَّلف الصَّالح ، وَمن ذهب إِلَىٰ التَّأويل شَرط فِيهِ أَن يكون مِمَّا يُؤَدِّي إِلَىٰ تَعْظِيم الله تَعَالَىٰ وجلاله وتنزيهه وكبريائه ، وَمَا لَا تَعْظِيم فِيهِ فَلَا يجوز الْخَوْض فِيهِ ، فَكيف بِمَا يُؤَدِّي إِلَىٰ التَّجسيم والتَّشبيه ، انْتهىٰ.

وَهُوَ كَلَام فِي غَايَة التَّحْقِيق ، إِلَّا أَن ترك التَّأويل مُطلقاً ، وتفويض الْعلم إِلَىٰ الله أسلم " .

وقال الإمام مرعي بن يوسف الكرمي في " أقاويل الثقات في تأويل الأسماء والصِّفات والآيات المحكمات والمشتبهات" (ص١٩٧-١٩٨) : " وَمن الْمُتَشَابه : الْمَجِيء فِي قَوْله تَعَالَىٰ : ﴿وَجاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر : ٢٢] ، وَقَوله : ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ أَنْ يَأْتِيَهُمُ الله﴾ [البقرة : ٢١٠] .

فمذهب السَّلف فِي هَذَا وَأَمْثَاله : السُّكُوت عَن الْخَوْض فِي مَعْنَاهُ ، وتفويض علمه إِلَىٰ الله تَعَالَىٰ ، كَمَا مرَّت الْإِشَارَة إِلَيْهِ أول الْكتاب ، وَمذهب أهل التَّأويل ، قَالُوا : ﴿إِلاَّ أَنْ يَأْتِيَهُمُ الله﴾ [البقرة : ٢١٠] ، أَي : أمرُه وبأسه ، وَجعل ذَلِك مجيئاً لَهُ تَعَالَىٰ ، علىٰ سَبِيل التَّفخيم والتَّهويل ، لِأَنَّ الْإِتْيَان حَقِيقَة هُوَ الانتقال من حيِّز إِلَىٰ حيِّز ، وَذَلِكَ مُسْتَحِيل عَلَيْهِ تَعَالَىٰ عِنْد الْجُمْهُور ، أَو المُرَاد : إِلَّا أَن يَأْتِيهم الله بِأَمْره وبأسه ، فَحذف المأتي بِهِ لدلَالَة الْحَال عَلَيْهِ إيهاماً عَلَيْهِم ، لِأَنَّهُ أبلغ فِي الْوَعيد ، لانقسام خواطرهم وَذَهَاب فكرهم فِي كلِّ وَجه ، أَو المأتي بِهِ مَذْكُور ، وَهُوَ قَوْله : ﴿فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمام﴾ [البقرة : ٢١٠] ، وَ " فِي " بِمَعْنىٰ " الْبَاء " ، وَقيل ، المُرَاد بذلك : غَايَة الهيبة وَنِهَايَة الْفَزع ، لشدَّة مَا يكون يَوْم الْقِيَامَة ، والالتفات إِلَىٰ الْغَيْبَة بعد قَوْله : ﴿فَاعْلَمُوا﴾ [البقرة : ٢٠٩] ، للإيذان بِأَنَّ سوء صنيعهم مُوجب للإعراض عَنْهُم ، وَترك الْخطاب مَعَهم ، وإيراد الانتظار للإشعار بِأَنَّهُم لانهماكهم فِيمَا هم فِيهِ من مُوجبَات الْعقُوبَة ، كَأَنَّهُمْ طالبون لَهَا مترقِّبون لوقوعها.

وَقَالَ مسلمة بن الْقَاسِم فِي كتاب : "غرائب الْأُصُول " ، حَدِيث تجلِّي الله يَوْم الْقِيَامَة ومجيئه فِي الظُّلل مَحْمُول على أَنَّه تَعَالَى يُغيِّر أبصار خلقه حَتَّى يروه كَذَلِك وَهُوَ على عَرْشه غير متغيِّر عَن عَظمته ، وَلَا متنقِّل عَن ملكه ، كَذَلِك جَاءَ مَعْنَاهُ عَن عبد الْعَزِيز الْمَاجشون ، قَالَ : فَكلُّ حَدِيث جَاءَ فِي التنقُّل والرؤية فِي الْمَحْشَر ، فَمَعْنَاه : أَنَّه تَعَالَى يُغيِّر أبصار خلقه فيرونه نازلاً ومتجلياً ، ويناجي خلقه ويخاطبهم ، وَهُوَ غير متغيِّر عَن عَظمته ، وَلَا متنقِّل عَن مُلكه ؟ انْتهى . وَهُوَ تَأْوِيلٌ حسنٌ يطَّرد فِي كثير من الْمَوَاضِع " .

وقال الإمام الكفوي في " الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية" (ص٥٤٩) : **﴿وَجاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾** [الفجر : ٢٢] ، أَي : أمرُه " .

وقال الإمام علي بن أحمد بن محمَّد معصوم الحسيني المعروف بـ ابن معصوم المدني في " الطراز الأول والكناز لما عليه من لغة العرب المعول" (١/ ٥٤) : **﴿وَجاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾** [الفجر : ٢٢] ، أي : أمرُه بالجزاءِ ونحوِه ، أو صارت معرفتُه ضروريّةً فكانت كحضورِه وزالَ الشَّكُّ " .

وقال الإمام المظهري ، محمَّد ثناء الله في " التَّفسير المظهري" (١٠/ ٢٥٩) : **﴿وَجاءَ رَبُّكَ﴾** [الفجر: ٢٢] ، عطف على دكَّت وهي من المتشابهات وقد ذكرنا ما فيها من القول السَّلف والخلف واصحاب القلوب في سورة البقرة في قوله تعالى : **﴿أَنْ يَأْتِيَهُمُ الله فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمامِ﴾** [البقرة : ٢١٠] .

وقال الإمام إسماعيل حقي الإستانبولي الخلوتي في " تفسير روح البيان" (١٠/ ٣٣٢) : **﴿وَجاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾** [الفجر : ٢٢] ، أي : ظهرت آيات قدرته وآثار قهره مثل ذلك بما يظهر عند حضور السُّلطان بنفسه من أحكام هيبته وسياسته ، فإنَّه عند حضوره ظهر ما لا يظهر بحضور وزرائه وسائر خواصه وعساكره ، وقال الامام أحمد : جاء أمرُه وقضاؤه على حذف المضاف للتَّهويل .

وفي " التَّأويلات النَّجميَّة " : تجلَّى في المظهر الجلالي القهري " .

وقال الإمام محمَّد بن محمَّد بن مصطفى بن عثمان، أبو سعيد الخادمي الحنفي في " بريقة محمودية في شرح طريقة محمَّدية وشريعة نبوية في سيرة أحمدية" (١/ ١٥٩) : " وأَمَّا النُّصُوصُ الظَّوَاهِرُ فِي التَّجَسُّمِ الْمُسْتَلْزِمِ لِلْمَكَانِ نَحْوَ قَوْله تَعَالَى : **﴿الرَّحْمنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوى﴾** [طه : ٥] ، **﴿وَجاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾** [الفجر : ٢٢] ، **﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾** [فاطر : ١٠] .

قَالَ صَاحِبُ الْمَوَاقِفِ : أَنَّها ظَوَاهِرُ ظَنِّيَّةٌ لَا تُعَارِضُ الْيَقِينِيَّاتِ الدَّالَّةِ عَلَى نَفْيِ الْمَكَانِ ، فَلَزِمَ أَنَّها مُتَشَابِهَاتٌ ، فَنُفَوِّضُ عِلْمَهَا إلَى اللَّهِ تَعَالَى ، كَمَا هُوَ مَذْهَبُ السَّلف ، أَوْ نُؤَوِّلُهَا بِنَحْوِ الِاسْتِيلَاءِ عَلَى الْعَرْشِ ، **﴿وَجاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾** [الفجر : ٢٢] ، أَيْ : أَمْرُ رَبِّك ، وَ **﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾** [فاطر : ١٠]

، أَيْ : يَرْتَضِيهِ ، (وَلَا يُجْرَىٰ عَلَيْهِ زَمَانٌ) ، لِأَنَّ الزَّمَانَ مُتَجَدِّدٌ يُقَدَّرُ بِهِ مُتَجَدِّدٌ آخَرُ ، كَمَا هُوَ عِنْدَ الْمُتَكَلِّمِينَ أَوْ مِقْدَارُ الْحَرَكَةِ ، وَاللَّهُ مُنَزَّهٌ عَنْهُمَا ، لِأَنَّ التَّجَدُّدَ لَا يُتَصَوَّرُ فِي الْقَدِيمِ ، وَكَذَا الْمِقْدَارُ ، (وَلَيْسَ لَهُ جِهَةٌ مِنْ الْجِهَاتِ السِّتِّ وَلَا هُوَ فِي جِهَةٍ مِنْهَا) ، وَهِيَ فَوْقُ تَحْتُ وَيَمِينُ وَيَسَارُ وَقُدَّامُ وَخَلْفُ ، وَالْجِهَةُ عِنْدَ الْمُتَكَلِّمِينَ :نَفْسُ الْمَكَانِ بِإِضَافَةِ جِسْمٍ آخَرَ إِلَيْهِ ، فَإِذَا انْتَفَتْ الْجِسْمِيَّةُ وَالْمَكَانِيَّةُ تَنْتَفِي الْجِهَةُ ، لِأَنَّهَا مِنْ خَوَاصِّ الْأَجْسَامِ ، وَلِأَنَّهُ تَعَالَىٰ لَوْ كَانَ فِي جِهَةٍ أَوْ زَمَانٍ لَزِمَ قِدَمُ الْمَكَانِ أَوْ الزَّمَانِ ، وَلِأَنَّهُ أَمَارَةُ الْإِمْكَانِ لِلِافْتِقَارِ إِلَيْهِ ... " .

وقال الإمام التَّهانوي في " موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم" (١/ ٦٣٧) : **﴿وَجاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾** [الفجر : ٢٢] ، أي : أمرُ ربِّك ، بمعنىٰ عذابه ، لأنَّ العقل دلَّ علىٰ استحالة مجيء الرَّبِّ تعالىٰ ، وعلىٰ أنَّ الجائي أمرُه " .

وقال الإمام الجمل في " الفتوحات الإلهيَّة بتوضيح تفسير الجلالين للدَّقائق الخفيَّة" (٨/ ٣١٩) : قوله : (أي : أمرُه) ، أي : حصل تجلِّيه علىٰ الخلائق ، وظهر سلطان قهره ، وظهرت أهوال يوم الموقف ، وغير ذلك ممَّا لا يكاد يحصر . وقال البيضاوي : **﴿وَجاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾** [الفجر : ٢٢] ، أي : ظهرت آياتُ قدرته وآثار قهره ، مثّل ذلك بما يظهر عند ظهور السَّلطان من آثار هيبته وسياسته " .

وقال الإمام أبو العرفان محمَّد بن علي الصبَّان الشَّافعي في " حاشية الصبان علىٰ شرح الأشمونىٰ لألفية ابن مالك" (٢/ ٤١٠) : **﴿وَجاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾** [الفجر : ٢٢] ، أي : أمرُ ربِّك " .

وقال الإمام ابن عجيبة الحسني الأنجري الفاسي الصُّوفي في " البحر المديد في تفسير القرآن المجيد" (٧/ ٣٠٢) : **﴿وَجاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾** [الفجر : ٢٢] ، أي : تجلَّىٰ لفصل قضائه بين عباده ، وعن ابن عبَّاس : أمرُه وقضاؤه " .

وقال الإمام أحمد بن محمَّد الصَّاوي المصري الخلوتي المالكي في "حاشية الصاوي علىٰ تفسير الجلالين" (٦/ ٢٧٩) : " قوله : (أي : أمرُه) : دفع بذلك ما يقال : إنَّ المجيء يقتضي الانتقال ، وهو علىٰ الله محال . فأجاب : بأنَّ الكلام علىٰ حذف مضاف ، أي : حصل أمره وظهر سلطانه وقهره وتجلِّيه علىٰ عباده " .

وقال الإمام الشَّوكاني في " فتح القدير " (٥/ ٥٣٥): **﴿وَجاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾** [الفجر : ٢٢] ، أَيْ : جَاءَ أَمْرُهُ وَقَضَاؤُهُ وَظَهَرَتْ آيَاتُهُ ، وَقِيلَ : الْمَعْنَىٰ : أَنَّهَا زَالَتِ الشُّبَهُ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ ، وَظَهَرَتِ المعارف ،

وصارت ضروريَّة ، كما يزول الشَّكُّ عند مَجِيءِ الشَّيءِ الَّذِي كَانَ يُشَكُّ فِيهِ ، وَقِيلَ : جاء قهرُ ربّك وسلطانه وانفراده وَالتَّدْبِيرِ ، مِنْ دُونِ أَنْ يَجْعَلَ إِلَى أَحَدٍ مِنْ عِبَادِهِ شَيْئاً مِنْ ذَلِكَ " .

وقال الإمام الألوسي في " روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسَّبع المثاني" (١٥/ ٣٤٢-٣٤٣) : **﴿وَجاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾** [الفجر : ٢٢] ، قال منذر بن سعيد : معناه : ظهر سبحانه للخلق هنالك ، وليس ذلك بمجيء نقلة ، وكذلك مجيء الطَّامَّة والصَّاخَّة . وقيل : الكلام على حذف المضاف للتَّهويل ، أي : وجاء أمرُ ربِّك وقضاؤه سبحانه . واختار جمعٌ أنَّه تمثيل لظهور آيات اقتداره تعالى ، وتبين آثار قدرته عزَّ وجلَّ ، وسلطانه عزَّ سلطانه ، مثلت حاله سبحانه في ذلك بحال الملك إذا حضر بنفسه ظهر لمحضوره من آثار الهيبة والسِّياسة ما لا يظهر بحضور عساكره ووزرائه وخواصّه عن بكرة أبيهم ، وأنت تعلم ما للسَّلف في المتشابه من الكلام ... " .

وقال الإمام أبو الطيِّب محمَّد صديق خان القِنَّوجي في "فتحُ البيان في مقاصد القرآن" (١٥/ ٢٣٠) : **﴿وَجاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾** [الفجر : ٢٢] ، أي : جاء أمرُه وقضاؤه ، وظهرت آياته ، وقيل : المعنى : أنَّها زالت الشُّبه في ذلك اليوم ، وظهرت المعارف ، وصارت ضروريَّة ، كما يزولُ الشكُّ عند مجيء الشَّيء الذي كان يشكُّ فيه ، وقيل : جاء قهر ربك وسلطانه وانفراده بالأمر والتدبير من دون أن يجعل إلى أحد من عباده شيئاً من ذلك ، وقيل : تمثيل لظهور آيات اقتداره وتبين آثار قهره وسلطانه ، وقيل : جاء أمر ربك بالمحاسبة والجزاء ، وقيل غير ذلك .

والحقُّ أنَّ هذه الآية من آيات الصِّفات التي سكت عنها وعن مثلها عامَّة سلف الأمَّة ، وأئمَّتها ، وبعض الخلف ، فلم يتكلموا فيها ، بل أجروها كما جاءت من غير تكييف ، ولا تشبيه ، ولا تأويل ، ولا تحريف ، ولا تعطيل ، وقالوا : يلزمنا الإيمان بها وإجراؤها على ظاهرها ، والتَّأويل ديدن المتكلِّمين ودين المتأخرين ، وهو خلاف ما عليه جمهور السَّلف الصَّالحين " .

وقال الإمام محمَّد بن عمر نووي الجاوي البنتني في " مراح لبيد لكشف معنى القرآن المجيد " (٢/ ٦٣١) : **﴿وَجاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾** [الفجر : ٢٢] ، أي : جاء ظهوره وقهره ، أي : حصل تجلِّيه تعالى على الخلائق ، أي : زالت الشُّبهة ، وارتفعت الشُّكوك وظهر سلطان قهره " .

وقال الإمام حسن بن عمر بن عبد الله السّيناوني المالكي في " الأصل الجامع لإيضاح الدُّرر المنظومة في سلك جمع الجوامع" (١/ ٨٥) : " ... فلذا قال الخطيب في تلخيص المفتاح : وقد يُطلق المجاز على كلمة تغيَّر حكم إعرابها بحذف لفظ أو زيادة لفظ ، كقوله تعالى : **﴿وَجاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾** [الفجر

: ٢٢] ، ﴿وَسْئَلِ الْقَرْيَةَ﴾ [يوسف : ٨٢] ، وقوله تعالىٰ : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورىٰ: ١١] ، أي : أمرُ ربِّك ، وأهل القرية ، وليس مثله شيء " .

وقال الأستاذ جميل صدقي بن محمَّد فيضي بن الملا أحمد بابان الزَّهاوي في " الفجر الصَّادق في الَّردِّ علىٰ المارق" (ص٣٠) : " وقوله : ﴿وَجاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر : ٢٢] ، أي : جاء أمرُه " .

وقال الإمام محمَّد عبد العظيم الزُّرْقاني في " مناهل العرفان في علوم القرآن" (٢/ ٢٩١) : " ... والمجيء في قوله : ﴿وَجاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر : ٢٢] ، بمجيء أمرِه " .

وقال الإمام المراغي في " علوم البلاغة " البيان ، المعاني ، البديع " (ص١٨٧) : " وأدلَّة الحذف كثيرة ، منها : ... ب- العقل الدالُّ عليهما معاً ، كقوله تعالىٰ : ﴿وَجاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر : ٢٢] ، أي : أمرُه ، أو عذابه .

ويرىٰ صاحب " الكشَّاف " أنَّ هذا ليس من باب الحذف ، وإنَّما هو تمثيل لظهور قدرته وتبيين لسلطانه وقهره ، فمثِّلت حاله في ذلك بحال الملك إذا حضر بنفسه ظهر بحضوره من آثار الهيبة والسِّياسة ما لا يظهر بحضور عساكره ووزرائه وخواصِّه علىٰ بكرة أبيهم " .

وقال الإمام المراغي في " علوم البلاغة " البيان ، المعاني ، البديع " (ص٢٩٠) : " ... في المجاز بالحذف أو الزِّيادة . كما توصف الكلمة بالمجاز لنقلها عن معناها الأصلي ، كما تقدَّم ، كذلك توصف بالمجاز بطريق الاشتراك اللفظي إذا تغيَّر حكم إعرابها الأصلي بواسطة حذف لفظ أو زيادته . فالحذف كقوله تعالىٰ : ﴿وَسْئَلِ الْقَرْيَةَ﴾ [يوسف : ٨٢] ، إذ الأصل أهل القرية ، فالحكم الذي يجب للقرية في الأصل هو الجر ، فحذف المضاف وأعطىٰ المضـــاف إليه إعرابه ، ونظيره : ﴿وَجاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر : ٢٢] ، أي : أمرُ ربِّك " .

وقال الإمام المراغي في " تفسير المراغي" (٣٠/ ١٥٢) : ﴿وَجاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر : ٢٢] ، أي : وتجلَّت لأهل الموقف السَّطوة الإلهيَّة ، كما تتجلَّىٰ أبَّهة الملك للأعين إذا جاء الملك في جيوشه ومواكبه ، ولله المثل الأعلىٰ " .

وقال الإمام محمود بن عبد الرَّحيم صافي في " الجدول في إعراب القرآن الكريم" (٣٠/ ٣٢٦-٣٢٧) : " وجملة : ﴿وَجاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر : ٢٢] ، أي : أمره ، في محلّ جرّ معطوفة علىٰ جملة دكّت ... وورد ذلك في الآية التي نحن بصددها ﴿وَجاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًا صَفًّا﴾ [الفجر: ٢٢] ، أي : أمرُ ربِّك " .

وقال الشَّهيد سيِّد قطب إبراهيم حسين الشَّاربي في " في ظلال القرآن" (٦/ ٣٩٠٦) : " ... فأمَّا مجيء ربِّك والملائكة صفَّاً صفَّاً ، فهو أمرٌ غيبيٌّ لا ندرك طبيعته ونحن في هذه الأرض . ولكنَّا نحسُّ وراء التَّعبير بالجلال والهول " .

وقال الإمام عبد الكريم يونس الخطيب في " التفسير القرآني للقرآن" (١٦/ ١٥٦١) : " وقوله تعالىٰ : ﴿وَجاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر : ٢٢] ، أي : جاء أمرُ الله وسلطانه ، ونصبت موازين الحساب ، ووقف الملائكة في المحشر جنداً حراساً ، ينفِّذون أمرَ الله ، ويسوقون أهل الضَّلال إلىٰ النَّار ، وأهل الإيمان إلىٰ الجنَّة " .

وقال الإمام عبد المتعال الصَّعيدي في " بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة" (٢/ ٣٤٣-٣٤٤) : " وأدلَّة الحذف كثيرة ، منها : ... وَمِنْهَا : أن يدلَّ العقل علىٰ الحذف والتَّعيين ؛ كقوله : ﴿وَجاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر : ٢٢] ، أي : أمرُ ربِّك أو عذابُه أو بأسُه ، وقوله : ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ أَنْ يَأْتِيَهُمُ الله فِي ظُلَلٍ﴾ [البقرة: ٢١٠] ، أي : عذابُ الله أو أمره" .

وقال الإمام عبد المتعال الصَّعيدي في " بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة" (٣/ ٥٣٤) : " فصل : المجاز بالحذف والزِّيادة : واعلم أنَّ الكلمة كما توصف بالمجاز لنقلها عن معناها الأصلي كما مضىٰ ؛ تُوصَف به أيضاً لنقلها عن إعرابها الأصلي إلىٰ غيره لحذف لفظ أو زيادة لفظ ؛ أمَّا الحذف فكقوله تعالىٰ : ﴿وَسْئَلِ الْقَرْيَةَ﴾ [يوسف : ٨٢] ، أي : أهل القرية ؛ فإعراب القرية في الأصل هو الجرّ ، فحذف المضاف وأعطي المضاف إليه إعرابه ، ونحوه قوله تعالىٰ : ﴿وَجاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر : ٢٢] ، أي : أمرُ ربِّك " .

وقال الإمام عبد الرَّحمن بن محمَّد بن قاسم العاصمي القحطاني الحنبلي النَّجدي في " حاشية مقدِّمة التَّفسير " (١/ ٨٣) : " قوله تعالىٰ : ﴿وَجاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر : ٢٢] ، هو من مجاز اللغة ، تقديره : وجاء أمرُ ربِّك " .

وقال الإمام محمَّد الطَّاهر عاشور التُّونسي في " التَّحرير والتَّنوير " (٣٠/ ٣٣٧) : " وَإِسْنَادُ الْمَجِيءِ إِلَىٰ اللَّهِ إِمَّا مَجَازٌ عَقْلِيٌّ ، أَيْ : جَاءَ قَضَاؤُهُ ، وإِمَّا اسْتِعَارَةٌ بِتَشْبِيهِ ابْتِدَاءِ حِسَابِهِ بِالْمَجِيءِ ... " .

وقال الإمام محمَّد الأمين بن محمَّد المختار الجكني الشَّنقيطي في " أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن" (٨/ ٥٢٧) : " وَتَقَدَّمَ لِلشَّيْخِ – رَحْمَةُ اللَّهِ تَعَالَىٰ عَلَيْنَا وَعَلَيْهِ – الْإِحَالَةُ عَلَىٰ مَا يُفَسِّرُهَا فِي سُورَةِ

«الرَّحْمَنِ» عَلَىٰ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [] . وَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر:٢٢] ، «وَجَاءَ رَبُّكَ» : مِنْ آيَاتِ الصِّفَاتِ.

مَوَاضِعُ الْبَحْثِ وَالنَّظَرِ.

وَتَقَدَّمَ لِلشَّيْخِ - رَحْمَةُ اللَّهِ تَعَالَىٰ عَلَيْنَا وَعَلَيْهِ - مِرَارًا فِي الْأَضْوَاءِ فِي عِدَّةِ مَحَلَّاتٍ ؛ وَلْيُعْلَمْ أَنَّهَا وَالِاسْتِوَاءُ وَحَدِيثُ النُّزُولِ وَالْإِتْيَانُ الْمَذْكُورُ في قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ [البقرة : ٢١٠] .

وَقَدْ أَوْرَدَ الشَّيْخُ - رَحْمَةُ اللَّهِ تَعَالَىٰ عَلَيْنَا وَعَلَيْهِ - مَبْحَثَ آيَاتِ الصِّفَاتِ كَامِلَةً فِي مُحَاضَرَةٍ أَسْمَاهَا: «آيَاتُ الصِّفَاتِ» ، وَطُبِعَتْ مُسْتَقِلَّةً.

وَقَدْ أَوْرَدَ الشَّيْخُ - رَحْمَةُ اللَّهِ تَعَالَىٰ عَلَيْنَا وَعَلَيْهِ - مَبْحَثَ آيَاتِ الصِّفَاتِ كَامِلَةً فِي مُحَاضَرَةٍ أَسْمَاهَا: «آيَاتُ الصِّفَاتِ» ، وَطُبِعَتْ مُسْتَقِلَّةً.

كَمَا تَقَدَّمَ لَهُ - رَحْمَةُ اللَّهِ تَعَالَىٰ عَلَيْنَا وَعَلَيْهِ - فِي سُورَةِ «الْأَعْرَافِ» عِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ﴾ [الأعراف:٥٤] ، وَإِنْ كَانَ لَمْ يَتَعَرَّضْ لِصِفَةِ الْمَجِيءِ بِذَاتِهَا، إِلَّا أَنَّهُ قَالَ: إِنَّ جَمِيعَ الصِّفَاتِ مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ، أَيْ: أَنَّهَا ثَابِتَةٌ لِلَّهِ تَعَالَىٰ عَلَىٰ مَبْدَأِ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١] ، عَلَىٰ غَيْرِ مِثَالٍ لِلْمَخْلُوقِ، فَثَبَتَ اسْتِوَاءٌ يَلِيقُ بِجَلَالِهِ عَلَىٰ غَيْرِ مِثَالٍ لِلْمَخْلُوقِ.

وَكَذَلِكَ هُنَا كَمَا ثَبَتَ اسْتِوَاءٌ ثَبَتَ مَجِيءٌ، وَكَمَا ثَبَتَ مَجِيءٌ ثَبَتَ نُزُولٌ.

وَالْكُلُّ مِنْ بَابِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ، أَيْ: عَلَىٰ مَا قَالَ الشَّافِعِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ -: نَحْنُ كُلِّفْنَا بِالْإِيمَانِ، فَعَلَيْنَا أَنْ نُؤْمِنَ بِصِفَاتِ اللَّهِ عَلَىٰ مَا يَلِيقُ بِاللَّهِ عَلَىٰ مُرَادِ اللَّهِ، وَلَيْسَ عَلَيْنَا أَنْ نُكَيِّفَ، إِذِ الْكَيْفُ مَمْنُوعٌ عَلَىٰ اللَّهِ سُبْحَانَهُ" .

وقال الإمام عبد القادر بن ملّا حويش السيِّد محمود آل غازي العاني في " بيان المعاني" (١/١٤٩-١٥٠) : ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر : ٢٢] ، جلَّت عظمته ، وهذا تمثيل لظهور آيات اقتداره ، وتبيين لآثار قهره وسلطانه ، لأنَّ الملك إذا حضر بنفسه ظهر بحضوره من أمارات الهيبة وعلامات العزَّة وإشارات العظمة ، ما لا يحضر بحضور غيره من خواصّه ... وهذه من آيات الصِّفات التي سكت عن تفسيرها السَّلف الصَّالح وبعض الخلف ، وأجروها على حالها ، كما جاءت من غير تأويل ولا تشبيه ولا تكييف ، والتزموا فيها الإيمان بظاهرها ، وتأوَّلها المتكلِّمون وبعض المتأخِّرين ، فقالوا : جاء أمره ، أو

قضاؤه ، أو دلائل آياته ، وجعلوا مجيئها مجيئاً له تفخيماً وإجلالاً ، لأنَّ الحركة والسُّكون محالٌ عليه جلَّ شأنه ، ولكل وجهة ، واجراؤها علىٰ ما هي عليه أولىٰ " .

وقال الإمام محمَّد محمَّد عبد اللطيف بن الخطيب في "أوضح التفاسير" (ص٧٤٩) : **﴿وَجاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾** [الفجر : ٢٢] ، أي : جاء أمرُه وقضاؤه ، وظهرت آيات عظمته وقدرته " .

وقال الإمام صبحي الصَّالح في " مباحث في علوم القرآن" (ص٢٨٥) : " ... فالسَّلف ينزِّهون الله عن هذه الظَّواهر المستحيلة عليه ، ويؤمنون بها بالغيب ، كما ذكرها الله ، ويفوِّضون علم حقائقها إليه ، أمَّا الخلف فيحملون الاستواء علىٰ العلوِّ المعنوي بالتَّدبير من غير معاناة ، ومجيء الله علىٰ مجيء أمره ... " .

وقال الإمام محمَّد بن علي بن آدم بن موسىٰ الإثيوبي الوَلَّوِي في " شرح سنن النسائي المسمَّىٰ " ذخيرة العقبىٰ في شرح المجتبىٰ " (١٤/ ٢٧٧) : " ... وقد قال الله –عَزَّ وَجَلَّ– : **﴿وَجاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾** [الفجر : ٢٢] ، وليس مجيئه حركة ، ولا زوالاً ، ولا انتقالاً ، لأنَّ ذلك إنَّما يكون إذا كان الجائي جسماً ، أو جوهراً ، فلمّا ثبت أنَّه ليس بجسم ولا جوهر ، لم يجب أن يكون مجيئه حركة ، ولا نقلة ، ولو اعتبرت ذلك بقولهم : جاءت فلاناً قيامته ، وجاءه الموت ، وجاءه المرض ، وشبه ذلك مما هو موجود نازل به ، ولا مجيء ، لبان لك . وبالله العصمة والتَّوفيق " .

وقال الإمام محمَّد بن علي بن آدم بن موسىٰ الإثيوبي الوَلَّوِي في " شرح سنن النَّسائي المسمىٰ " ذخيرة العقبىٰ في شرح المجتبىٰ " (١٤/ ٢٨٢) : " ... ومثل قوله : **﴿وَجاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾** [الفجر : ٢٢] ، كلُّهم يقول : ينزل ، ويتجلَّىٰ ، ويجيء بلا كيف ، لا يقولون : كيف يجيء ؟ ، وكيف يتجلّىٰ ؟ ، وكيف ينزل ؟ ، ولا من أين جاء ؟ ، ولا من أين تجلَّىٰ ؟ ، ولا من أين ينزل ؟ ، لأنَّه ليس كشيء من خلقه ، وتعالىٰ عن الأشياء، ولا شريك له " .

وقال الإمام محمَّد بن علي الإثيوبي الوَلَّوِي في " شرح سنن النَّسائي المسمىٰ " ذخيرة العقبىٰ في شرح المجتبىٰ " (٢٢/ ٣٤١) نقلاً عن البيهقي : " قوله تعالىٰ : **﴿وَجاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾** [الفجر : ٢٢] ، والنُّزول ، والمجيء صفتان منفيّتان عن اللَّه تعالىٰ من طريق الحركة ، والانتقال من حال إلىٰ حال ، بل هما صفتان من صفات اللَّه تعالىٰ ، بلا تشبيه ، جلَّ اللَّه تعالىٰ عمَّا تقول المعطّلة لصفاته ، والمشبّهة بها علوّاً كبيراً " .

وقال الأستاذ أبو الطيِّب نايف بن صلاح بن علي المنصوري في " الرَّوض الباسم في تراجم شيوخ الحاكم" (١/ ٢٣٦-٢٣٧) : " ... سمعت أبا محمَّد المُزَنِي يقول : حديث النُّزول قد ثبت عن رسول الله – صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – من وجوه صحيحة ، وورد في التنزيل ما يصدقه ، وهو قوله عزَّ وجلَّ : ﴿وَجاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر : ٢٢] ، والنُّزول والمجيء صفتان منفيَّتان من صفات الله –عزَّ وجلَّ – من طريق الحركة والانتقال من حال إلىٰ حال ، بل هما صفتان من صفات الله –عزَّ وجلَّ– بلا تشبيه ، جلَّ الله عمَّا تقول المعطِّلة بصفاته والمشبِّهة بها علوّاً كبيراً " .

وقال الأستاذ أبو عاصم ، نبيل بن هاشم بن عبد الله بن أحمد بن عبد الله بن أحمد بن محمَّد الغمري في "فتح المنان شرح وتحقيق كتاب الدارمي أبي محمَّد عبد الله بن عبد الرَّحمن المسمّىٰ بـ: المسند الجامع" (٦/ ٥٧٥-٥٧٦) : " وقوله : ﴿وَجاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر : ٢٢] ، والقول في جميع ذلك عند علماء السَّلف هو ما قلناه ، قال : وإنَّما ينكر هذا وما أشبهه من الحديث من يقيس الأمور في ذلك بما يشاهده من النُّزول الذي هو نزلة من أعلىٰ إلىٰ أسفل ، وانتقال من فوق إلىٰ تحت ، وهذا صفة الأجسام والأشباح ، فأما نزول من لا يستولي عليه صفات الأجسام ، فإنَّ هذه المعاني غير متوهَّمة فيه ، وإنَّما هو خبر عن قدرته ورأفته بعباده ، وعطفه عليهم واستجابته دعاءهم ومغفرته لهم ، يفعل ما يشاء ، لا يتوجَّه علىٰ صفاته كيفيَّة ، ولا أفعاله كميَّة ، سبحانه ليس كمثله شيء وهو السَّميع البصير " .

وقال الأستاذ أبو عاصم الغمري " فتح المنان شرح وتحقيق كتاب الدارمي أبي محمَّد عبد الله بن عبد الرَّحمن المسمّىٰ بـ: المسند الجامع" (٩/ ٧٠٦-٧٠٧) : " وقوله تعالىٰ : ﴿وَجاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر : ٢٢] ، يقال : هنا من غير تكييف ، ولا تمثيل ، ولا تشبيه .

قال الإمام العارف بالله أبو سليمان الخطَّابي رحمه الله وأعاد علينا من بركاته : هذا موضع يحتاج الكلام فيه إلىٰ تأويل وتخريج ، وليس ذلك من أجل أننا ننكر رؤية الله سبحانه ، بل نثبتها ، ولا من أجل أنا ندفع ما جاء في الكتاب وفي أخبار رسول الله – صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – من ذلك المجيء والإتيان ، غير أنا لا نكيِّف ذلك ، ولا نجعله حركة وانتقالاً ، كمجيء الأشخاص وإتيانها ، فإنَّ غير ذلك من نعوت الحدث ، وتعالىٰ الله عن ذلك علوّاً كبيراً " .

وجاء في " التَّفسير الوسيط للقرآن الكريم " (١٠/ ١٩٠٥) : ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر : ٢٢] ، أَي : وجاءَ أَمرُ ربِّك وقضاؤُه بحذف المضاف للتَّهويل ، واختار جماعة أنَّه تمثيل لظهور آيات اقتداره ،

ووضوح آثار قدرته وسلطانه – عزَّ وجلَّ – ورأي السَّلف – رضي الله عنهم – أنَّه مجيء من غير تكييف ، ولا تمثيل ، نؤمن به ولا نطلب معناه " .

وقال الشَّيخ خليل ياسين في " أضواء على متشابهات القرآن" (٢/ ٣١٧) :

س –٨– الحركة والانتقال لا يجوزان عليه سبحانه ، فكيف أسند المجيء إليه ؟

ج– هذا على حذف مضاف تقديره : وجاء أمرُ ربِّك ، تمثيلاً لظهور آيات اقتداره ، وتبييناً لآثار قهره وسلطانه ، وتشبيهاً بحال الملك إذا حضر ، فإنَّه يظهر بحضوره من آثار الهيبة والعظمة ، ما لا يظهر بحضور جنده كلّه " .

وقال الأستاذ محمَّد إبراهيم الحفناوي : " دخول المجاز في خطاب الله تعالى : اختلف العلماء في وجود المجاز في القرآن الكريم على مذهبين:

المذهب الأوَّل: أنّ الله عزَّ وجلَّ قد خاطبنا في القرآن بالمجاز ، وهذا مذهب الجمهور الذى يرى أنَّ دخول المجاز في القرآن أمر حسن ، لأنَّ الله عزَّ وجلَّ أنزل القرآن بلغة العرب وإنزاله جلَّ شأنه القرآن بلغتهم يقتضى حسن خطابه إيَّاها فيه بلغتها ما لم يكن فيه تنفير كالكلام السَّخيف المنسوب قائله إلى الغيّ ، ولا شكَّ أنَّ أكثر الفصاحة تظهر بالمجاز والاستعارة.

وقد استدلَّ الجمهور على الوقوع بما يلى:

١ –قال تعالى : **﴿فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذا أَتَيا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَما أَهْلَها فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُما فَوَجَدا فِيها جِداراً يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ فَأَقامَهُ﴾** [الكهف : ٧٧] . قال البيضاوي رحمه الله تفسيراً لقوله تعالى : **﴿يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ فَأَقامَهُ﴾** [الكهف : ٧٧] . يريد أن يسقط فاستعيرت الإرادة للمشارفة كما استعير لها الهم والعزم . وقال القرطبي رحمه الله : قوله تعالى : **﴿يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ﴾** [الكهف : ٧٧] ، أي : قرب أن يسقط وهذا مجاز وتوسع ... وجميع الأفعال التي حقها أن تكون للحيّ النَّاطق متى أسندت إلى جماد أو بهيمة فإنَّما هي استعارة ، أي : لو كان مكانهما إنسان لكان ممتثلاً لذلك الفعل.

٢ –قال تعالى : **﴿وَجاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾** [الفجر : ٢٢] ، أي : أمرُه وقضاؤه ، وهو من باب حذف المضاف ، وقيل : جاءهم الرَّبُّ بالآيات العظيمة ، وقيل : جعل مجيء الآيات مجيئاً له تفخيماً لشأن تلك الآيات .

وقال أهل الإشارة : ظهرت قدرته واستولت ، والله جلَّ شأنه لا يوصف بالتَّحوُّل من مكان إلىٰ مكان ، وأنّىٰ له التَّحوُّل والانتقال ولا مكان له ولا أوان ، ولا يجرىٰ عليه وقت ولا زمان ، لأنَّ في جريان الوقت علىٰ الشَّيء فوت الأوقات ، ومن فاته شيء فهو عاجز ". انظر : دراسات أصولية في القرآن الكريم (ص٢٣١).

وقال الدكتور أحمد مطلوب أحمد النَّاصري الصيَّادي الرِّفاعي في " أساليب بلاغيَّة ، الفصاحة – البلاغة – المعاني" (ص٢١٣) في كلامه علىٰ أدلَّة الحذف : " أن يدلّ العقل علىٰ الحذف والتَّعيين ، كقوله تعالىٰ: ﴿**وَجاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا**﴾ [الفجر: ٢٢] ، أي : أمر ربِّك أو عذابه أو بأسه " .

وقال الأستاذ محمَّد عبد العزيز النجَّار في " ضياء السَّالك إلىٰ أوضح المسالك" (٢/٣٦٨-٣٦٩) : " فصل : يجوز أن يحذف ما علم من مضاف ومضاف إليه . فإن كان المحذوف المضاف ؛ فالغالب أن يخلفه في إعرابه المضاف إليه ؛ نحو : ﴿**وَجاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا**﴾ [الفجر : ٢٢] ، أي : أمرُ ربِّك ، ونحو : ﴿**وَسْئَلِ الْقَرْيَةَ**﴾ [يوسف : ٨٢] ؛ أي : أهل القرية " .

ونختم هذا الفصل ببعض الآيات القرآنيَّة التي اشتملت علىٰ لفظ المجيء الذي لا يقصد منه الحركة والانتقال من مكان إلىٰ آخر ... ومن تلك الآيات:

قوله تعالىٰ : ﴿**وَجاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ**﴾ [ق : ١٩] ، والمعنىٰ : جاءت شدَّته وغمرته ، ولا يقصد بها النُّقلة والحركة ...

وقوله تعالىٰ : ﴿**فَإِذا جاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرى**﴾ [النازعات : ٣٤] ، والمعنىٰ : صيحة القيامة ...

وقوله تعالىٰ : ﴿**فَإِذا جاءَتِ الصَّاخَّةُ**﴾ [عبس : ٣٣] ، والمعنىٰ : صيحة القيامة ...

وقوله تعالىٰ : ﴿**إِذْ جاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ**﴾ [الصافات : ٨٤] ، والمعنىٰ : لقي الله تعالىٰ بقلب مخلص سليم من الشِّرك وأمراض القلوب ...

وقوله تعالىٰ : ﴿**لَمَّا جاءَ أَمْرُ رَبِّكَ**﴾ [هود : ١٠١] ، والمعنىٰ : جاء عذاب ربِّك أو قضاؤه ...

والآيات في هذا الباب كثيرة ...

﴿سُؤالٌ﴾ : مَا المَقْصُوْدُ بِالإِتْيَانِ المُضَافِ إِلَى اللهِ تَعَالَى ؟

الجواب : إنَّ النَّاظر في كلام فحول وأساطين العلم وجهابيذه من السَّلف الذين تكلَّموا علىٰ آيات الإتيان المُضاف إل الله تعالىٰ ، يجد أنَّهم في تفسيرهم للآيات الكريمات نزَّهوا الله تعالىٰ عن جميع لوازم المحدثات ، كالحركة ، والسُّكون ، والانتقال من مكان إلىٰ آخر ، وكذا التَّحيُّز في العرش ، وقالوا عن جميع النُّصوص المشكلة والمتشابهة : أمرُّوها من غير تفسير ، وقراءتها تفسيرها ، ولم يزيدوا علىٰ

ذلك ، بمعنىٰ أنَّهم لم يتعرَّضوا لبيان معناها ، حيث لم تدع الحاجة لذلك ، ففوَّضوا الكيف والمعنىٰ معاً ، أمَّا جمهور الخلف فقد ألجأتهم الظُّروف للكلام في معاني تلك النُّصوص ، فبيَّنوها بناء علىٰ المسلَّمات العقديَّة وقواعد اللغة العربيَّة التي اشتملت علىٰ الحقيقة والمجاز ... وردُّوا علىٰ المشبِّهة الذين استدلُّوا علىٰ نسبة الإتيان والانتقال والحركة والنُّزول المادي الحسِّي لله تعالىٰ ، فوصفوا الله تعالىٰ بالإتيان والحركة ، والانتقال ... وبيَّنوا في ردِّهم عليهم أنَّ الإتيان والحركة ، والانتقال ، والسُّكون من صفات المحدثات ولوازمها ، والله سبحانه لا يوصف بالإتيان ... بمعنىٰ الانتقال من مكان إلىٰ آخر ... لأنَّ الإتيان ، والحركة ، والانتقال ، والسُّكون ، من أعراض الحدَث وأوصاف المحدثات ، والله عزَّ وجلَّ مُتعالٍ عن ذلك كلّه ﴿**لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ**﴾ [الشورىٰ: ١١] ...

ففي كلامهم علىٰ إتيان الربِّ الوارد في قوله تعالىٰ : ﴿**هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ أَنْ يَأْتِيَهُمُ الله فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ**﴾ [البقرة : ٢١٠] ، وقوله تعالىٰ : ﴿**هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آياتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آياتِ رَبِّكَ لا يَنْفَعُ نَفْساً إِيمانُها لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمانِها خَيْراً قُلِ انْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ**﴾ [الأنعام : ١٥٨] ، ذهب جمهور السَّلف – كما هو معلوم – إلىٰ السُّكوت عن تفسير ذلك ، وتفويض العلم فيه إلىٰ الله تعالىٰ ، وقالوا : قراءتها تفسيرها ...بينما ذهب جمهور الخلف – كما هو معلوم – إلىٰ أنَّ الإتيان المضاف إلىٰ الله تعالىٰ مجاز ، والمراد به : إتيان عذابه العظيم ، فهو لعظيم هوله جعل إتيانه مسنداً إلىٰ الآمر به أمراً جازماً ، ليعرف مقدار عظمته بحسب عظيم قدرة فاعله وآمره ، فالإسناد مجازي من باب : بنىٰ الأمير المدينة ، وضرب الوالي اللصَّ ، وهذا مجاز وارد مثله في القرآن ، كقوله تعالىٰ : ﴿**فَأَتاهُمُ الله مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا**﴾ [الحشر : ٢] ، ويجوز أن يكون المراد بإتيانه تعالىٰ : إتيان أمره كما قال سبحانه : ﴿**هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ**﴾ [النحل : ٣٣] ، والمعنىٰ : إتيان أمره بحساب النَّاس يوم القيامة ...

وإليك أخي القارئ طرفاً يسيراً من أقوال علماء الأمَّة في تفسير آيتي الإتيان السَّابقتين...

قال الإمام السَّلفي الرَّبيع بن حبيب البصري في " الجامع الصَّحيح مسند الإمام الرَّبيع بن حبيب" (١/ ٣٣١) : " وأمَّا قوله : ﴿**هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ أَنْ يَأْتِيَهُمُ الله فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلائِكَةُ**﴾ [البقرة : ٢١٠] ، فإنَّ الكلبي روىٰ عن أبي صالح ، قال : يأتيهم بأمره وقضائه ، فيفصل بينهم ، وهو قول الحسن ، ومجاهد " .

فإتيان الله تعالىٰ علىٰ ما قاله الحسن ومجاهد هو مجيء أمره وقضائه ، وهو كقوله تعالىٰ : ﴿**أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ**﴾ [النحل : ٣٣] ، أي : عذابُه ...

وقال الإمام السَّلفي الأخفش الأوسط في " معانئ القرآن " (١/ ١٨٣) : " وقوله : ﴿**أَنْ يَأْتِيَهُمُ الله**﴾ [البقرة : ٢١٠] ، يعني : أمرهُ ، لأَنَّ اللهَ تبارك وتعالىٰ لا يزُولُ ، كما تقول : " قَدْ خَشِينا أَنْ تَأْتِينَا بنُو أُمَيَّة ". وإنَّما تعني حكمهم " .

فهذا عَالمٌ آخر من السَّلف الصَّالح يؤوِّل إتيان الله تعالىٰ بإتيان أمره ، وينزِّه الله سبحانه عن النُّزول والحركة والانتقال...

وقال الإمام السَّلفي الطَّبري في " جامع البيان في تأويل القرآن" (٤/ ٢٦٣-٢٦٤) : " ثمَّ اختلف في صفة إتيان الربِّ تبارك وتعالىٰ الذي ذكره في قوله : ﴿**هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ أَنْ يَأْتِيَهُمُ الله فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمامِ وَالْمَلائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ**﴾ [البقرة : ٢١٠] ، فقال بعضهم : لا صفة لذلك غير الذي وصَف به نفسه عزَّ وجلَّ من المجيء ، والإتيان ، والنُّزول ، وغيرُ جائز تكلُّف القول في ذلك لأحد إلَّا بخبر من الله جلَّ جلاله ، أو من رسول مرسل . فأمَّا القول في صفات الله وأسمائه ، فغيرُ جائز لأحد من جهة الاستخراج إلَّا بما ذكرنا .

وقال آخرون : إتيانه عزَّ وجلَّ ، نظيرُ ما يعرف من مجيء الجائي من موضع إلىٰ موضع ، وانتقاله من مكان إلىٰ مكان.

وقال آخرون : معنىٰ قوله : ﴿**هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ أَنْ يَأْتِيَهُمُ الله**﴾ [البقرة : ٢١٠] ، يعني به : هل ينظرون إلَّا أن يأتيهم أمرُ الله ، كما يقال : " قد خشينا أن يأتينا بنو أميَّة " ، يُراد به : حُكمهم .

وقال آخرون : بل معنىٰ ذلك : هل ينظرون إلَّا أن يأتيهم ثوابه وحسابه وعذابه ، كما قال عزَّ وجلَّ : ﴿**بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهارِ**﴾ [سبأ : ٣٣] ، وكما يقالَ : " قطع الوالي اللصَّ أو ضَربه " ، وإنَّما قطعه أعوانُه " .

فالإمام الطَّبري السَّلفي نقل جميع الأقوال الواردة في الإتيان ... وأنَّ بعضم ذهب إلىٰ التَّأويل الإجمالي ، وذهب البعض إلىٰ التَّفويض التَّفصيل ، فقال : هل ينظرون إلَّا أن يأتيهم أمرُ الله ، كما يقال : قد خشينا أن يأتينا بنو أميَّة ، يراد به : حُكمهم . والبعض الآخر ذهب إلىٰ تفسير الإتيان بالإتيان المعهود من البشر ، وهؤلاء هم المشبِّهة ، الذين كانت له معهم قصَّة مشهورة ، ذكرها الإمام ياقوت الحموي في " معجم الأدباء" (إرشاد الأريب إلىٰ معرفة الأديب) (٦/ ٢٤٥٠) ، قال : " ... وقَصَدَهُ الحنابلة ، فسألوه عن أحمد بن حنبل في الجامع يوم الجمعة ، وعن حديث الجلوس علىٰ العرش ، فقال أبو جعفر : أمَّا أحمد بن حنبل فلا يعدّ خلافه ، فقالوا له : فقد ذكره العلماء في الاختلاف ، فقال : ما رأيته روي عنه ، ولا رأيت له أصحاباً يعوَّل عليهم ، وأمَّا حديث الجلوس علىٰ العرش فمحالٌ ، ثمَّ أنشد:

سبحان من ليس له أنيس   ولا له في عرشه جليس

فلمَّا سمع ذلك الحنابلة منه وأصحاب الحديث وثبوا ورموه بمحابرهم ، وقيل : كانت ألوفاً ، فقام أبو جعفر بنفسه ودخل داره ، فرموا داره بالحجارة حتىٰ صار علىٰ بابه كالتلّ العظيم ، وركب نازوك صاحب الشُّرطة في عشرات ألوف من الجند يمنع عنه العامَّة !!! ووقف علىٰ بابه يوماً إلىٰ الليل ، وأمر برفع الحجارة عنه ، وكان قد كتب علىٰ بابه : سبحان من ليس له أنيس ولا له في عرشه جليس " .

والغريب في هذه المسألة أنَّ ابن قيِّم الجوزية افترىٰ علىٰ الإمام الطَّبري أنَّه يعتقد بعقيدة الإقعاد علىٰ العرش ، فقال : " وهو قول ابن جرير الطَّبري ... " . انظر : بدائع الفوائد (٤/ ٣٩) .

مع أنَّ الإمام الطَّبري قال في تفسير قول الله تعالىٰ : ﴿عَسى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقاماً مَحْمُوداً﴾ [الإسراء : ٧٩] : " فقال أكثر أهل العلم : ذلك هو المقام الذي هو يقومه صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يوم القيامة للشَّفاعة للنَّاس ليريحهم ربهم من عظيم ما هم فيه من شدَّة ذلك اليوم " . انظر : جامع البيان في تأويل القرآن (١٧/ ٥٢٦) .

ثمَّ قال الطَّبري بعدما ذكر ما روي عن مجاهد من الإقعاد علىٰ العرش : " وأولىٰ القولين في ذلك بالصَّواب ما صحّ به الخبر عن رسول الله ". انظر : جامع البيان في تأويل القرآن (١٧/ ٥٢٩) .

فهل عرفتم الآن مدىٰ كذب القوم وافترائهم علىٰ علماء الأمَّة ، وتقويلهم ما لم يقولوا ؟!! إنَّها كذبة متمسلفيَّة بامتياز ... فهل يطمئنُّ المرء بعد هذا الكذب وغيره الكثير لنقلهم ولأقوالهم التي طالما ألصقوها بالسَّلف الصَّالح ظلماً وزُوْراً وبُهتاناً وعُدواناً ؟!!

وعقيدة الإقعاد علىٰ العرش هي ما يعتقده من يدَّعون السَّلفيَّة ، بل وصل بهم الأمر إلىٰ تكفير من لا يعتقد بها ، ورواياتهم في التَّكفير في هذه المسألة تجدها في كتاب " السُّنَّة " للخلَّال ، و " اعتقاد أهل السُّنَّة والجماعة " للالكائي ، وغيرها من كتبهم المعتبرة عندهم....

وقال الإمام السَّلفي أبو إسحاق الزَّجَّاج في " معاني القرآن وإعرابه" (٢/ ٣٠٧) : ﴿أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ﴾ [الأنعام : ١٥٨] ، أو يأتي إهْلاَكُ رَبِّك إيَّاهم وانْتِقامُهُ مِنْهُم ، إمَّا بعذَاب عاجل أو بالقيامة . وهذا كقولنا : قَدْ نَزَلَ فُلانٌ ببَلَد كَذا وكَذَا ، وقد أتَاهُمْ فُلانٌ ، أي : قَدْ أوْقَع بِهِمْ " .

فأهل اللغة الذين يفهمون اللغة العربيَّة بحقيقتها ومجازها – علىٰ ما قاله الإمام الزَّجَّاج السَّلفي اللغوي – لا يتردَّدون في تأويل الإتيان المضاف إلىٰ الله تعالىٰ ، أمَّا من أنكروا جوهر اللغة وجمالها المتمثِّل بالمجاز الذي نعتوه بالطَّاغوت ، فلم يعجبهم إلَّا أن يعاندوا المسلَّمات اللغويَّة والعقديَّة ، ويفتروا علىٰ سلف الأمَّة بحجَّة المتابعة الزَّائفة ، والتَّشدُّق ، والتَّنطُّع ...

ومن تأويلات أهل اللغة التي ذكرها الإمام الزَّجَّاج : أن يأتيهم اللَّه بما وعدهم من العذاب ، والحساب ، أو انتقامه منهم في الدُّنيا أو الآخرة...

وقال الإمام الماتريدي في " تفسير الماتريدي" (تأويلات أهل السنة) (٢/ ١٠٤-١٠٥) : " قيل : **﴿أَنْ يَأْتِيَهُمُ الله﴾** [البقرة : ٢١٠] ، بأمره . وهو قول الحسن . وقيل : **﴿يَأْتِيَهُمُ الله﴾** [البقرة : ٢١٠] ، أي أمر اللَّه ؛ وهو كقوله : **﴿أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾** [النحل : ٣٣] ، وكقوله : **﴿أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ﴾** [الأنعام : ١٥٨] ، **﴿أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آياتِ رَبِّكَ﴾** علىٰ إضمار الأمر فيه .

وقيل : قوله : **﴿فِي ظُلَلٍ﴾** [البقرة : ٢١٠] ، في بمعنىٰ (الباء) ، وكأنَّه قال : يأتيهم اللَّه بظلل من الغمام ، وذلك جائز - استعمال (في) مكان (الباء) ؛ لأنَّهما جميعًا من حروف الخفض ، والعرب تفعل ذلك ولا تأبىٰ.

والأصل في هذا ونحوه : أنَّ إضافة هذه الأشياء إلىٰ اللَّه عَزَّ وَجَلَّ لا توجب حقيقة وجود تلك الأشياء منه علىٰ ما يوجد من الأجسام ، إذ لا يجوز إضافته إلىٰ ما لا يوجد منه تحقيق ذلك ، نحو ما يقال : جاء إليَّ أمرٌ فظيعٌ ، وجاء الحقُّ وزهق الباطل ، وجاء فلان بأمر كذا ، وجاءكم رسول . فذكر المجيء والإتيان لا علىٰ تحقيق وجود ذلك منه ، فعلىٰ ذلك يخرج ما أضاف عَزَّ وَجَلَّ إلىٰ نفسه من المجيء والإتيان والاستواء ، أليس علىٰ تحقيق المجيء والإتيان والاستواء ، ليس علىٰ تحقيق الإتيان والمجيء والاستواء منه علىٰ ما يكون من الأجسام.

وفي الشَّاهد أنَّ ملوك الأرض يضيفون إلىٰ أنفسهم ما عُمِلَ بأمرهم من غير أن يتولُّوها بأنفسهم . كذلك أضاف جلَّ ذكره أمر القيامة إلىٰ نفسه لفضل ذلك الأمر.

ثمَّ الأصل : أنَّ الإتيان والانتقال والزَّوال في الشَّاهد إنَّما يكون لخلَّتين : إمَّا لحاجة بدت فيحتاج إلىٰ الانتقال من حال إلىٰ حال ، والزَّوال من مكان إلىٰ مكان ليقضيها ، أو لسآمة ووحشة يأخذه ، فينتقل من مكان إلىٰ مكان لينفي عن نفسه ذلك . وهذان الوجهان في ذي المكان ، واللَّه - تعالىٰ - يتعالىٰ عن المكان ، كان ولا مكان فهو علىٰ ما كان.

فاللَّه تعالىٰ يتعالىٰ عزَّ أن يمسّه حاجة أو يأخذه سآمة . فبطل الوصف بالإتيان والمجيء والانتقال من حال إلىٰ حال أو من مكان إلىٰ مكان... .

وقيل : أنَّ النَّصَّ قد ورد بالاستواء والمجيء ، وأورد الخبر بالنُّزول، والرُّؤية ، ثمَّ قد ورد السَّمع بأن **﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾** [الشورى: ١١] ، لزم نفي التَّشبيه فيما ورد عن ذاته ، ولزم الإقرار بما جاء من عنده من غير طلب الكيفيَّة له والتَّفسير ، فالسَّبيل فيه الإيمان بالتَّنزيل ، والكفّ عن التَّفسير.

وفي الشَّاهد الإتيان في العرض : ظهوره ، وفي الجسم : نقله من مكان إلىٰ مكان ، وهو - جلَّ ذكره - جلَّ أن يُوصف بجسم أو عَرَض . كذلك إتيانه لا يُشبه إتيان الأجسام والأعراض ، ويكون إتيان لا يعرف كيفيَّته ، وكما جاز أن يكون هو مثبتًا بدليل لا يشبهه عَرَضٌ ولا جسمٌ ، واللَّه أعلم."

وقال الإمام الماتريدي في " تفسير الماتريدي" (تأويلات أهل السُّنَّة) (٤/ ٣٢٦) : "وقوله عَزَّ وَجَلَّ : **﴿أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ﴾** [الأنعام : ١٥٨] ، علىٰ إضمار الأمر ؛ كأنَّه قال : أو يأتي أمر ربِّك ؛ علىٰ ما ذكر في سورة النَّحل : **﴿أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾** [النحل : ٣٣] .

ثمَّ الأمر فيه عذاب اللَّه ؛ كقوله تعالىٰ : **﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنا﴾** [هود : ٦٦] ، يعني : عذابنا ؛ فعلىٰ ذلك في هذا : أمر اللَّه عذاب اللَّه ، والأصل فيما أضيف إلىٰ اللَّه في موضع الوعيد لا يراد به الذَّات ، ولكن يُراد به نقمتهُ وعذابهُ وعقوبتهُ ؛ كقوله : **﴿وَيُحَذِّرُكُمُ الله نَفْسَهُ﴾** [آل عمران : ٢٨] ، لا يُريد به ذاته ، ولكن يُريد به نقمتهُ ، وعذابهُ وقوَّتهُ ، كقولهِ : **﴿وَيُحَذِّرُكُمُ الله نَفْسَهُ﴾** [آل عمران: ٢٨] ؛ كقوله : **﴿مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقاءَ الله﴾** [العنكبوت: ٥] ، لا يريد به لقاء ذاته ؛ وكذلك قوله : **﴿وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾** [آل عمران: ٢٨] ، **﴿وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾** [البقرة : ٢١٠] ، وغيرها من الآيات ، لا يراد به ذاته ، ولكن يراد به عذابه ونقمته .

أو نقول : إنَّ كلّ شيء يراد به تعظيمه ، يضاف إلىٰ اللَّه - تعالىٰ - فيراد به تعظيم ذلك الشَّيء ، أو تعظيم عذابه ونقمته " .

وقال الإمام النَّحَّاس في " معاني القرآن " (١/ ١٥٥) : **﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ أَنْ يَأْتِيَهُمُ الله فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمامِ﴾** [البقرة : ٢١٠] ، قال مجاهد : إنَّ الله يأتي يوم القيامة في ظُلل من الغمام ، وقيل : هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله بما وعدهم من الحسنات والعذاب ، **﴿فَأَتاهُمُ الله مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا﴾** [الحشر : ٢] ، أي : بخذلانه إيَّاهم ، وهذا قول أبي إسحق ، وقال الأخفش سعيد : **﴿يَأْتِيَهُمُ اللهُ﴾** [البقرة : ٢١٠] ، يعني : أمرُه ، لأنَّ الله تعالىٰ لا يزول ، كما تقول : خشينا أن تأتينا بنو أميَّة ، وإنَّما تعني : حكمهم " .

فالإمام النحَّاس ذكر في معرض كلامه طائفة من تأويلات السَّلف لقوله تعالىٰ : **﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ أَنْ يَأْتِيَهُمُ الله فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمامِ﴾** [البقرة : ٢١٠] ، منها : هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله بما وعدهم من الحسنات والعذاب ، وَمِنْهَا : **﴿يَأْتِيَهُمُ اللهُ﴾** [البقرة : ٢١٠] ، يعني : أمره ، لأنَّ الله تعالىٰ منزَّه عن الزَّوال والانتقال ...

وقال الإمام الطَّبراني في " التفسير الكبير " (١/٣٥٨-٣٥٩) : " افترق النَّاس في تفسير هذه الآية على أربعة أقوال : فرقةٌ منهم يتأوَّلونها على ظاهرها ، ويصفون الله بالإيتاء الذي هو زوال من مكان إلى مكان . وهذا القول غير مُرْضٍ ، تعالى الله عنه.

وفرقةٌ يفسِّرون الإتيان تفسيراً مجملاً لا يعدون ظاهر اللفظ ، يقولون : يأتي كيف يشاء بلا كيف . وهذا غير مُرْضٍ أيضاً.

وأمَّا الفرقتان الأخريان من أهل السُّنَّة ، فإحداهما لا يفسِّرون هذه الآية ، ويقولون : نؤمن بظاهرها ، ونسكت عن الخوض في معناها ، لما فيه من الاشتباه والتَّشبيه . وقال الكلبي : هذا من المكتوم الذي لا يفسَّر ، وقال ابن عبَّاس : نؤمن بها ولا نفسِّرها ، كما قال تعالى في المتشابهات : **﴿وَما يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ الله﴾** [آل عمران : ٧] .

وأمَّا الفرقة الرَّابعة ، فيفسِّرونها ، ويردُّون هذه المتشابهات إلى الآيات المحكمات ، ويقولون : معناها : ما ينظر الكفَّار بعد قيام الحجَّة عليهم ، إلَّا أن يأتيهم أمر الله ، وهو الحساب ، أو أن يأتيهم عذاب الله ، لأنَّ الإتيان لفظ مشتبه يحتمل حقيقة الإتيان ، ويحتمل إتيان الأمر ، وقد قامت الدّلالة على أنَّ الله تعالى لا يجوز عليه الإتيان والمجيء والانتقال والمزاولة ، لأنَّ ذلك من صفات الأجسام والمحْدَثين ، والله تعالى منزَّه عن ذلك ، قال عليٌّ رضي الله عنه : " من زعم أنَّ الله في شيء أو من شيء أو على شيء ، فقد ألحد ، لأنَّه لو كان من شيء لكان محدثاً ، ولو كان في شيء لكان محصوراً ، ولو كان على شيء لكان محمولاً ."

وإذا كان لفظ الإتيان مشتبهاً ، وجب ردُّه إلى المحكم ، نحو قوله في سورة النَّحل : **﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آياتِ رَبِّكَ﴾** [الأنعام : ١٥٨] .

وقال بعضهم : معناه : هل ينظرون إلَّا أن يأتيهم الله بظلل من الغمام وبالملائكة أو مع الملائكة ، فتكون " في " في معنى الباء ، فعلى هذا التَّأويل زال الإشكال وسهل الأمر . وأمَّا ذكر الظلَّة في الآية ، فإنَّ الهول إذا جاء من الظلّة المظلمة من السَّحاب ، كان أعظم وأشدّ ، يدلُّ عليه قوله تعالى في قصَّة شُعيب : **﴿فَأَخَذَهُمْ عَذابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ﴾** [الشعراء : ١٨٩] .

فقد ذكر الإمام الطَّبراني أنَّ النَّاس افترقوا في تفسير الإتيان الوارد في الآية ، فذكر ما عليه جمهور السَّلف وبعض الخلف الذين قالوا : نؤمن بظاهرها ، ونسكت عن الخوض في معناها ، لما فيه من الاشتباه والتَّشبيه ، وذكر أيضاً ما عليه جمهور الخلف وبعض السَّلف الذين فسَّروا الآية بردِّ المتشابه إلى المحكم

، وقالوا في تفسيرها : ما ينظر الكفَّار بعد قيام الحجَّة عليهم ، إلَّا أن يأتيهم أمر الله وحسابه أو عذابه ... وقد قامت الدّلالة على أنَّ الله تعالى لا يجوز عليه ما يجوز على المُحدثات المخلوقات من النُّزول والحركة والنُّقلة من مكان إلى آخر ، لأنَّ ذلك من صفات الأجسام والمحْدَثين ، والله تعالى منزَّه عن ذلك.

وذكر ما عليه المشبِّهة والمجسِّمة الذين آمنوا بظاهر اللفظ والمعنى ، فوصفوا الله تعالى بالإيتاء الذي هو زوال وانتقال من مكان إلى مكان ، وهوأمرٌ مرفوضٌ مُخالفٌ لما ذهب إليه جمهور أهل العلم ، فقد أجمعت على نفي الحركة والسُّكون عنه سبحانه **﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾** [الشورى: ١١] ، وقد قال الإمام الطَّحاوي في عقيدته التي تلقَّتها الأمَّة بالقبول – على ما نقله السُّبكي – : " ومن وصف الله بمعنى من معاني البشر فقد كفر " ، ومن المعلوم أنَّ الحركة والسَّكون من معاني البشر ...

وقال الإمام الجصَّاص في " أحكام القرآن" (١/ ٣٩٧-٣٩٨) : " وقَوْله تَعَالَى : **﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إلاَّ أَنْ يَأْتِيَهُمُ الله فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمامِ وَالْمَلائِكَةُ﴾** [البقرة : ٢١٠] ، هَذَا مِنْ الْمُتَشَابِهِ الَّذِي أَمَرَنَا الله بِرَدِّهِ إلَى الْمُحْكَمِ فِي قَوْلِهِ : **﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتابَ مِنْهُ آياتٌ مُحْكَماتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتابِ وَأُخَرُ مُتَشابِهاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشابَهَ مِنْهُ﴾** [آل عمران : ٧] .

وإنَّما كَانَ مُتَشَابِهاً لِاحْتِمَالِهِ حَقِيقَةَ اللَّفْظِ ، وَإِتْيَانُ اللَّهِ وَاحْتِمَالُهُ أَنْ يُرِيدَ : أَمْرَ اللَّهِ ، وَدَلِيلَ آيَاتِهِ كَقَوْلِهِ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ : **﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إلاَّ أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آياتِ رَبِّكَ﴾**[الأنعام : ١٥٨] ، فَجَمِيعُ هَذِهِ الْآيَاتِ الْمُتَشَابِهَةِ مَحْمُولَةٌ عَلَى مَا بيَّنه في قوله : **﴿أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ﴾** [الأنعام : ١٥٨] ، لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَا يَجُوزُ عَلَيْهِ الْإِتْيَانُ ، وَلَا الْمَجِيءُ ، وَلَا الِانْتِقَالُ ، وَلَا الزَّوَالُ ، لِأَنَّ ذَلِكَ مِنْ صِفَاتِ الْأَجْسَامِ ، وَدَلَالَاتِ الْحَدَثِ ، وَقَالَ تَعَالَى فِي آيَةٍ مُحْكَمَةٍ : **﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾** [الشورى: ١١] ، وَجَعَلَ إبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ مَا شَهِدَهُ مِنْ حركات النجوم وانتقالها دليلاً على حدثها ، وَاحْتَجَّ بِهِ عَلَى قَوْمِهِ فَقَالَ الله عَزَّ وَجَلَّ : **﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنا آتَيْناها إِبْراهِيمَ عَلى قَوْمِهِ﴾** [الأنعام : ٨٣] ، يَعْنِي : فِي حَدَثِ الْكَوَاكِبِ وَالْأَجْسَامِ ، تَعَالَى الله عَنْ قَوْلِ الْمُشَبِّهَةِ عُلُوّاً كَبِيراً . فَإِنْ قِيلَ : فَهَلْ يَجُوزُ أَنْ يُقَالَ : **﴿وَجاءَ رَبُّكَ﴾** [الفجر : ٢٢] ، بِمَعْنَى : جَاءَ كِتَابُهُ ، أَوْ جَاءَ رَسُولُهُ ، أَوْ مَا جَرَى مَجْرَى ذَلِكَ ؟ قِيلَ لَهُ : هَذَا مَجَازٌ ، وَالْمَجَازُ لَا يُسْتَعْمَلُ إلَّا فِي مَوْضِعٍ يَقُومُ الدَّليل عليه ، وقد قال تعالى : **﴿وَسْئَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيها﴾** [يوسف : ٨٢] ، وَهُوَ يُرِيدُ : أَهْلَ الْقَرْيَةِ ، وَقَالَ : **﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾** [الأحزاب : ٥٧] ، وَهُوَ يَعْنِي : أَوْلِيَاءَ اللَّهِ ، وَالْمَجَازُ إنَّما يُسْتَعْمَلُ فِي الْمَوْضِعِ الَّذِي يَقُومُ الدَّلِيلُ عَلَى اسْتِعْمَالِهِ فِيهِ أَوْ فِيمَا لَا يَشْتَبِهُ مَعْنَاهُ عَلَى السَّامِعِ " .

وكلام الإمام الجصَّاص يتلخَّص بأنَّ لفظ الإتيان من الْمُتَشَابِهِ الَّذِي أَمَرَنَا الله بِرَدِّهِ إِلَىٰ الْمُحْكَمِ ، فإتيان الله تعالىٰ عبارة عن إتيان أمره ، وهو سبحانه وتعالىٰ لا يجوز عليه ما يجوز علىٰ المخلوقات من التَّحوُّل والانتقال والحركة والهرولة وسائر صفات المخلوقات ...لأنَّها صفات ملازمة للمحدثات ، أمَّا هو سبحانه فـ **﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾** [الشورىٰ: ١١] ...

وقال الإمام أبو بكر أحمد بن علي الرَّازي الحنفي في " شرح بدء الأمالي" (ص٢٠٣) : " وأمَّا المراد بالإتيان مثل قوله : **﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ﴾** [الأنعام: ١٥٨] ، أي : يأتيهم أمر الله ".

وقال الإمام الأزهري في " تهذيب اللغة" (٣/ ١٥٦-١٥٧) : **﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ أَنْ يَأْتِيَهُمُ الله فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمامِ﴾** [البقرة: ٢١٠] ، فالغمام مَعْرُوف فِي كَلَام الْعَرَب ، إِلَّا أَنا لَا نَدْرِي كَيفَ الْغَمَام الَّذِي يَأْتِي الله جلّ وعزّ يَوْم الْقِيَامَة فِي ظُلَل مِنْهُ ، فَنحْن نؤمن بِهِ ، وَلَا نكيِّف صفته . وَكَذَلِكَ سَائِر صِفَات الله جلّ وعزّ " .

وهنا يذهب الإمام أبو منصور الهروي مذهب التَّأويل الإجمالي من غير خوض في المعنىٰ ، وهذا مذهب جمهور السَّلف وبعض الخلف...

وقال الإمام السَّمرقندي في " بحر العلوم" (١/ ١٦٥) : **﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ أَنْ يَأْتِيَهُمُ الله فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمامِ وَالْمَلائِكَةُ﴾** [البقرة: ٢١٠] ، أي : ما ينظرون . وقال ابن عبَّاس في رواية أبي صالح : هذا من المكتوم الذي لا يفسَّر ... وروىٰ عبد الرزَّاق ، عن سفيان الثَّوري ، قال : قال ابن عبَّاس : تفسير القرآن علىٰ أربعة أوجه : تفسير يعلمه العلماء ، وتفسير تعرفه العرب ، وتفسير لا يقدر أحد عليه لجهالته ، وتفسير لا يعلمه إلَّا الله عزَّ وجلَّ ، ومن ادَّعىٰ علمه فهو كاذب . وهذا موافق لقوله تعالىٰ : **﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ الله﴾** [آل عمران: ٧] ، وكذلك هذه الآية سكت بعضهم عن تأويلها ، وقالوا : لا يعلم تأويلها إلَّا الله . وبعضهم تأوَّلها فقال : هذا وعيدٌ للكفار ، فقال : **﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ أَنْ يَأْتِيَهُمُ الله فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمامِ وَالْمَلائِكَةُ﴾** [البقرة: ٢١٠] ، أي : ما ينتظرون ولا يؤمنون **﴿إِلاَّ أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللهُ﴾** [البقرة: ٢١٠] ، يعني : أمرُ الله تعالىٰ ، كما قال في موضع آخر : **﴿فَأَتَاهُمُ اللهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا﴾** [الحشر: ٢] ، يعني : أمرُ الله . وقال بعضهم : **﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ أَنْ يَأْتِيَهُمُ الله فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمامِ وَالْمَلائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾** [البقرة: ٢١٠] ، يعني : بما وعد من العذاب " .

فالإمام السَّمرقندي ذكر أقوال العلماء في الإتيان ، وأنَّ جمهور السَّلف ذهبوا إلىٰ التَّفويض المُطلق الإجمالي ، أي : تفويض المعنىٰ والكيْف ، وأنَّ الإتيان من المكتوم الذي لا يفسَّر والذي لا يعلمه إلَّا الله

تعالىٰ ... بينما ذهب جمهور الخلف إلىٰ بيان معناها وبما ينسجم مع تنزيه الله تعالىٰ ... وأنَّ المقصود وعيدٌ للكفار ، أو بما توعَّدهم مِنٌ العذاب...

وقال الإمام السَّمرقندي في " بحر العلوم" (١/ ٥١٤) : ﴿أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ﴾ [الأنعام : ١٥٨] ، يعني : يأتي أمرُ ربِّك بما وعد لهم ، كقوله : ﴿فَأَتَاهُمُ الله ُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا﴾ [الحشر : ٢] ، ويقال : أن تأتي عقوبة ربِّك وعذابه . وقد ذكر المضاف إليه ويُراد به المضاف . كقوله تعالىٰ : ﴿وَسْئَلِ الْقَرْيَةَ﴾ [يوسف : ٨٢] ، يعني : أهل القرية . وكقوله : ﴿وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ﴾ [البقرة : ٩٣] ، يعني : حبَّ العجل . كذلك هاهنا يأتي أمرُ ربك ، يعني : عقوبة ربِّك وعذاب ربِّك . ويقال : هذا من المتشابه الذي لا يعلم تأويله إلَّا الله " .

فالإمام السَّمرقندي هنا يؤوِّل الإتيان بإتيان أَمْرِ الربِّ جلَّ وعلا بما وعد لهم ، أو أن تأتي عقوبة ربِّك وعذابه...

وقال الإمام الكلاباذي البخاري الحنفي في " التعرُّف لمذهب أهل التصوُّف" (ص٣٧) : " وَاخْتلفُوا فِي الْإِتْيَان والمجيء والنُّزول ، فَقَالَ الْجُمْهُور مِنْهُم : أَنَّها صِفَات لَهُ كَمَا يَلِيق بِهِ ، وَلَا يعبَّر عَنْهَا بِأَكْثَرَ من التِّلَاوَة وَالرِّوَايَة ، وَيجب الْإِيمَان بهَا وَلَا يجب الْبَحْث عَنْهَا.

وَقَالَ محمَّد بن مُوسَىٰ الوَاسِطِيّ : كَمَا أَنَّ ذَاته غير معلولة ، كَذَلِك صِفَاته غير معلولة ، وَإِظْهَار الصَّمديَّة إِيَاس عَن المطالعة علىٰ شيء من حقائق الصِّفات أَو لطائف الذَّات.

وأوَّلها بَعضهم ، فَقَالَ : معنىٰ الْإِتْيَان مِنْهُ إيصاله مَا يُرِيد إِلَيْهِ ، ونزوله إِلَىٰ الشَّيء إقباله عَلَيْهِ ، وقربه كرامته ، وَبُعده إهانته ، وعَلىٰ هَذَا جَمِيع هَذِه الصِّفات المتشابهة " .

فالإمام أبو بكر الكلاباذي البخاري الحنفي ذهب إلىٰ أنَّ جمهور السَّلف وبعض الخلف قالوا : أَنَّها صِفَات لَهُ تعالىٰ كَمَا يَلِيق بِهِ ، وَلَا يعبَّر عَنْهَا بِأَكْثَرَ من التِّلَاوَة وَالرِّوَايَة ، وَيجب الْإِيمَان بهَا وَلَا يجب الْبَحْث عَنْهَا ، وهذا هو التَّأويل الإجمالي...

وأوَّلها جمهور الخلف وبعض السَّلف ، فَقَالوا : معنىٰ الْإِتْيَان مِنْهُ : إيصاله مَا يُرِيد إِلَيْهِ ، ونزوله إِلَىٰ الشَّيء : إقباله عَلَيْهِ ، وقربه كرامته ، وَبُعده إهانته ، وهذا هو التَّأويل التَّفصيلي...

وقال الإمام الخطَّابي في " معالم السُّنن" (٤/ ٣٣١-٣٣٢) : " قلت : مذهب علماء السَّلف وأئمَّة الفقهاء أن يُجروا مثل هذه الأحاديث علىٰ ظاهرها ، وأن لا يريغوا لها المعاني ، ولا يتأوَّلوها ، لعلمهم بقصور علمهم عن دركها.

حدَّثنا الزَّعفراني ، حدَّثنا ابن أبي خيثمة ، حدَّثنا عبد الوهَّاب بن نجدة الحوطي ، حدَّثنا بقيَّة ، عن الأوزاعي ، قال : كان مكحول ، والزُّهري يقولان : أمرِّوا الأحــاديث كما جاءت.

قلت : وهذا من العلم الذي أُمرنا أن نؤمن بظاهره ، وأن لا نكشف عن باطنه ، وهو من جملة المتشابه الذي ذكره الله عزَّ وجلَّ في كتابه ، فقال : **﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتابَ مِنْهُ آياتٌ مُحْكَماتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتابِ وَأُخَرُ مُتَشابِهاتٌ﴾** [آل عمران : ٧] الآية ؛ فالمُحكم منه يقع به العلم الحقيقي والعمل ، والمتشابه يقع به الإيمان والعلم بالظَّاهر ، ونُوكل باطنه إلىٰ الله سبحانه ؛ وهو معنىٰ قوله : **﴿وَما يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا الله﴾** [آل عمران : ٧] ، وإنَّما حظُّ الرَّاسخين في العلم أن يقولوا : **﴿آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنا﴾** [آل عمران : ٧] ، وكذلك كلّ ما جاء من هذا الباب في القرآن ، كقوله : **﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ أَنْ يَأْتِيَهُمُ الله فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمامِ وَالْمَلائِكَةُ﴾** [البقرة : ٢١٠] ، وقوله : **﴿وَجاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾** [الفجر : ٢٢] ، والقول في جميع ذلك عند علماء السَّلف : هو ما قلنا ، وقد رُوي مثل ذلك عن جماعة من الصَّحابة . وقد زلَّ بعض شيوخ أهل الحديث ممن يرجع إلىٰ معرفته بالحديث والرِّجال ، فحاد عن هذه الطَّريقة ، حين روىٰ حديث النُّزول ، ثمَّ أقبل يسأل نفسه عليه ، فقال : إن قال قائل : كيف ينزلُ ربُّنا إلىٰ السَّماء ؟ قيل له : ينزلُ كيف شاء ، فإن قال : هل يتحرَّك إذا نزل أم لا ؟ فقال : إن شاء تحرَّك ، وإن شاء لم يتحرَّك.

قلت : وهذا خطأ فاحش ، والله سبحانه لا يوصف بالحركة ، لأنَّ الحركة والسُّكون يتعاقبان في محلّ واحد ، وإنَّما يجوز أن يوصف بالحركة مَنْ يجوز أن يوصف بالسُّكون ، وكلاهما من أعراض الحدث ، وأوصاف المخلوقين ، والله جلَّ وعزَّ متعال عنهما ، ليس كمثله شيء ، فلو جرىٰ هذا الشَّيخ – عفا الله عنا وعنه – علىٰ طريقة السَّلف الصَّالح ، ولم يُدخل نفسه فيما لا يعنيه ، لم يكن يخرج به القول إلىٰ مثل هذا الخطأ الفاحش ، وإنَّما ذكرت هذا لكي يتوقَّىٰ الكلام فيما كان من هذا النَّوع ، فإنَّه لا يثمر خيراً ، ولا يفيد رشداً ، ونسأل الله العصمة من الضَّلال ، والقول بما لا يجوز من الفاسد المحال " .

وفي كلام الإمام الخطَّابي نجد :

(١) التَّأكيد علىٰ أنَّ مذهب علماء السَّلف وأئمَّة الفقهاء أن يُجروا مثل هذه الأحاديث علىٰ ظاهرها ، وأن لا يريغوا لها المعاني ، ولا يتأوَّلوها ... وهذا ردٌّ علىٰ من يدَّعون السَّلفيَّة ، الذين يقولون بتفويض الكيْف دون المعنىٰ ...

(٢) ردَّ الإمام الخطابي علىٰ من جعلوا السَّلف شمَّاعة وضعوا عليها خزعبلاتهم وترَّهاتهم ، أولئك النَّفر الذين قالوا بأنَّ الله يتحرَّك ويسكُن ...

وقال الإمام الباقلَّاني المالكي في " الانتصار للقرآن" (٢/ ٧٣٦-٧٣٧) : " ... قالوا : والمجيء ، والإتيان ، حركة وزوال ، وذلك عندهم مُحال في صفته ، فالجواب عن ذلك عند بعض الأمَّة : أنَّه يجيء ويأتي بغير زوالٍ ، ولا انتقالٍ ، ولا تكييف ، بل يجبُ تسليمُ ذلك على ما رُوي وجاء به القرآن.

والجواب الآخر : أنَّه يَفْعل معنىً يُسميه مجيئاً وإتياناً ، فيقال : جاء الله ، بمعنى أنَّه فعلَ فعلاً كأنَّه جائياً ، كما يُقال : أحسنَ الله ، وأنعم ، وتفضَّلَ ، على معنى : أنَّه فعل فعلاً استوجبَ به هذه الأشياء.

ويمكن أن يكون أراد بذلك : إتيان أمْرِه وحُكمِه ، والأهوالِ الشديدةِ التي توعَّدهم بها ، وحذرهم من نزولها ، ويكون ذلك نظيراً لقوله عزَّ وجلَّ : **﴿وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتاهُمُ الله مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا﴾** [الحشر : ٢] ، ولا خلافَ في أنَّ معنى هذه الآية : أنَّ أمْره وحُكْمَه إيَّاهم وعقوبته ونكالَه ، وكذلك قوله : **﴿فَأَتَى الله بُنْيانَهُمْ مِنَ الْقَواعِدِ﴾** [النحل : ٢٦] ...

وقال الإمام ابن فورك الأنصاري الأصبهاني في " مشكل الحديث وبيانه" (ص٢٠١-٢٠٥ باختصار) : " ... **﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ أَنْ يَأْتِيَهُمُ الله فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمامِ وَالْمَلائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾** [البقرة : ٢١٠] ، وَقَوله : **﴿وَجاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾** [الفجر : ٢٢] .

وَاعْلَم أَنَّه لَا فرق بَين الْإِتْيَان والمجيء والنُّزول إِذا أضيف جَمِيع ذَلِك إِلَىٰ الْأَجْسَام الَّتِي تتحرَّك وتنتقل وتحازي مَكَاناً ، إِنَّ جَمِيع ذَلِك يعقل من ظَاهرهَا ، وَالْمعْنَىٰ الَّذِي هُوَ : الْحَرَكَة ، والنُّقلة الَّتِي هِيَ : تَفْرِيغ مَكَان وشغل مَكَان ، وَإِذا أضيف إِلَىٰ مَا لَا يَلِيق بِهِ الانتقال من مَكَان إِلَىٰ مَكَان لاستحالة وَصفه ، كَانَ معنى مَا يُضَاف إِلَيْهِ من الْإِتْيَان والمجيء على حسب مَا يَلِيق بنعمته وَصفته إِذا ورد بِهِ الْكتاب ، وَكَذَلِكَ إِذا أضيف النُّزول إِلَيْهِ وَورد بِهِ الْخَبَر الصَّحِيح الموثق بروايته وَنَقله وَصِحَّته فِي بَاب ، أَنَّه يحمل على نَحْو مَا حمل عَلَيْهِ معنى الْمَجِيء والإتيان إِذا ذكرا فِي أَوْصَافه فِي الْكتاب . وَإِذا كَانَ كَذَلِك ، تأمَّلنا معنى مَا ورد فِي هَذَا الْخَبَر من لفظ النُّزول ، ونزلناه على الْوَجْه الَّذِي يَلِيق بوصفه ، وعَلى الْمَعْنى الَّذِي لَا يُنكر اسْتِعْمَال مثله فِي اللِّسَان فِي مثل مَعْنَاهُ ، وَلَا أَن يرد الْخَبَر بِمثلِهِ ..." .

وقال الإمام ابن فورك في " مشكل الحديث وبيانه" (ص٢٠٧-٢٠٩) : " فَإِن قَالَ قَائِل : فَإِذا حملتم مَا رُوِيَ من النُّزول فِي الْخَبَر على مَا ذكرْتُمْ ، فعلام تحملون قَوْله : **﴿فَأَتَى الله بُنْيانَهُمْ مِنَ الْقَواعِدِ﴾** [النحل : ٢٦] ، وَقَوله سُبْحَانَهُ : **﴿وَجاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾**[الفجر : ٢٢] ، وَقَوله : **﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ أَنْ يَأْتِيَهُمُ الله فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمامِ وَالْمَلائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾** [البقرة : ٢١٠] ، قيل : هَذَا تَأْوِيل أهل الْعلم هَذِه الْآي فِي وُجُوه كَثِيرَة ، فَمن ذَلِك : أَنَّهم تأوَّلوا قَوْله عزَّ وَجلَّ : **﴿فَأَتَى الله بُنْيانَهُمْ مِنَ الْقَواعِدِ﴾**

[النحل : ٢٦] ، أَنَّ مَعْنَاهُ : الإستئصال فِي الْهَلَاك والدَّمار ، بإرسال الْعَذَاب ، كَمَا يَقُول النَّاس : أَتى السُّلْطَان بلد كَذَا فقلبه ظهراً لبطن ، أَي : استأصله ، وَلَيْسَ يُرِيدُونَ حُضُوره الْبَلَد بِنَفسِهِ ، وَلَا شُهُوده ، بل يُرِيدُونَ الْهَلَاك والتَّدمير.

وَقَالَ بَعضهم : إِنَّما أَرَادَ بذلك ظُهُور فعل من جِهَته فِي الْبُنيان ، سَمَّاهُ : إتياناً ، وَللَّه أَن يُسَمِّي أَفعاله بِمَا شَاءَ ، وَأَن يصف نَفسه من ذَلِك بِمَا أَرَادَ ، وأمَّا قَوْله تَعَالَى : **﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾** [الفجر : ٢٢] ، فَمنهمْ من قَالَ : إِنَّ مَعْنَاهُ : جَاءَ رَبُّك بِالْملكِ صفاً ، وَزعم أَنَّ الْوَاو هُنَا بِمَعْنى الْبَاء .

وَمِنْهُم من قَالَ : **﴿وَجَاءَ رَبُّكَ﴾** [الفجر : ٢٢] : أَمرُ رَبِّك وَحكمه ، يُرِيد : أَمرُ الْقِيَامَة ، وَمَا يخْتَص بِهِ ذَلِك الْوَقْت من أمره الْمَخْصُوص ، وَحكمه الَّذِي لَا يَقع الشّركَة فِيهِ بِالدُّعَاءِ والنداء .

وَقد بَيَّنَّا فِيمَا قبل أَنَّه لَا تدافع بَين أهل اللُّغَة فِي قَوْلهم : ضربَ الْأَمِيرُ اللصَّ ، ونادى الْأَمِيرُ فِي الْبَلَد بِكَذَا ، وإِنَّما يُرَاد بذلك : أَنَّ ذَلِك الْفِعْل وَقع بِأَمْرِه وَعَن حكمه ، فيضاف الْفِعْل إِلَيْهِ بِاللَّفْظِ الَّذِي يُضَاف إِلَى من فعله وتولاه ، وَنَظِير ذَلِك قَوْله عزَّ وَجلَّ فِي قصَّة قوم لوط : **﴿فَطَمَسْنا أَعْيُنَهُمْ﴾** [القمر : ٣٧] ، وَكَانَ الطمس للأعين من الْمَلَائِكَة بِأَمْر الله عزَّ وَجلَّ .

وَإِذا كَانَ مثله مُتَعَارَف فِي اللُّغَة وإِنَّما ورد الْخطاب فِي الْقُرْآن على الْمُتَعَارف فِي اللُّغَة والمعهود فِيمَا بَين أَهلهَا ، لم يُنكر أَن يحمل على ذَلِك قَوْله تَعَالَى : **﴿وَجَاءَ رَبُّكَ﴾** [الفجر : ٢٢] ، وأمَّا قَوْله سُبْحَانَهُ : **﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ أَنْ يَأْتِيَهُمُ الله فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمامِ وَالْمَلائِكَةُ﴾** [البقرة : ٢١٠] ، فقد قَالَ بعض أهل التَّفْسِير : إِنَّ مَعْنَاهُ : هَل ينظرُونَ إِلَّا أَن يَأْتِيهم الله بِالْعَذَابِ فِي ظلل من الْغَمَام ، وَهَذَا سَائِغ فِي اللُّغَة أَن يعبّر عَن الشَّيْء بِفِعْلِهِ إِذا وَقع عَن أمره وتدبيره ، كَقَوْلِهِم : أَتَى الْأَمِير بلد فلَان : إِذا وصل إِلَيْهِ جَيْشه ، وَدخل السُّلْطَانُ بلد كَذَا : إِذا نفذ فِيهِ أمرُه وَحُكمه " .

وقال الإمام ابن فورك في " مشكل الحديث وبيانه" (ص٢١٠-٢١١) : " وروى ابْن أبي نجيح عِنْد مُجَاهِد فِي قَوْله تَعَالَى : **﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ أَنْ يَأْتِيَهُمُ الله فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمامِ وَالْمَلائِكَةُ﴾** [البقرة : ٢١٠] ، قَالَ : يَأْتِيهم بوعده ووعيده ، وَأَنَّ الله عزَّ وَجلَّ يكْشف لَهُم يَوْم الْقِيَامَة عَن أُمُور كَانَت مستورة عَنْهُم ، وَقد رُوِيَ مثل قَول ابْن عبَّاس عَن الْحسن .

وَاعْلَم أَنَّه إِذا كَانَ مَا حملناه عَلَيْهِ تَأْوِيل الْخَبَر وَالْآيَة مَنْقُولاً عَن الصَّحَابَة وَالتَّابِعِينَ ، كَانَ ذَلِك مِمَّا يُؤَيّد مَا قُلْنَاهُ ، وَيُؤْنس المستعلم التَّأْوِيل مَا ذكرنَا ، ويكشف للنَّاظِر أَنَّ الْأَلْفَاظ الْوَارِدَة فِي الْأَخْبَار ، كتأويل الْأَلْفَاظ الْوَارِدَة فِي الْقُرْآن ، وَأَنَّ طَرِيق التَّخْرِيج فِيهَا وَاحِد ، إِذاً وَجب أَن يُحمل مَا ورد فِي الْكتاب من

أَلْفَاظ الْمَجِيء والإتيان علىٰ غير معنىٰ النُّزول والانتقال الَّذِي هُوَ صفة الْجِسْم الْمَحْدُود ، والمتحرِّك المتنقِّل المتمكِّن فِي مَكَان بعد مَكَان ، بل هُوَ علىٰ معنىٰ مَا ورد بِهِ الْكتاب من الْإِتْيَان والمجيء ، وَلَا فرق بَين أَن يرد ذَلِك من طَرِيق صَحِيح من جِهَة الْأَثر والسُّنَّة ، وَبَين أَن يرد ذَلِك فِي الْكتاب فِي بَاب مَا يُحمل عَلَيْهِ من التَّأويل علىٰ الْوَجْه الَّذِي يَلِيق بِاللَّه تَعَالَىٰ ، فعلىٰ هَذَا تَرْتِيب الْبَاب ، فَاعْلَم " .

وقال الإمام ابن فورك الأنصاري الأصبهاني ، أبو بكر في " مشكل الحديث وبيانه" (ص٤١٤-٤١٥) : " فَأَمَّا معنىٰ قَوْله فِي الْخَبَر الآخر : " فيأتيهم الله فِي صورته الَّتِي يعْرفُونَ فَيَقُولُونَ : أَنْت رَبنَا " ، فقد تقدَّم تَأْوِيل ذَلِك ، وَبينَّا أَنَّه نَظِير مَا فِي الْآيَة من قَوْله جلَّ ذكره : ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ أَنْ يَأْتِيَهُمُ الله فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمامِ وَالْمَلائِكَةُ﴾ [البقرة: ٢١٠] ، فَروِيَ عَن ابْن عبَّاس فِي تَأْوِيله أَنَّ مَعْنَاهُ : بظلل من الْغَمَام ، وَأَنَّ " فِي " بِمَعْنىٰ " الْبَاء " ، وَكَذَلِكَ قَوْله : " فيأتيهم فِي غير صورته " ، بِمَعْنىٰ : بِغَيْر صورته ، وَإِضَافَة الصُّورَة إِلَيْهِ من طَرِيق الْملك . وَقيل أَيْضاً : أَنَّ الْآتِي فِي غير صورته غير الله جلَّ ذكره ، بِدلَالَة قَوْله : " أَنَّهم يَقُولُونَ : نَعُوذ بِاللَّه مِنْك "، وَلَو كَانَ الْآتِي هُوَ الله لَكَانَ قَوْلهم : " نَعُوذ بك " وَلم يَقُولُونَ : " نَعُوذ بِاللَّه مِنْك حَتَّىٰ يأتينا رَبُّنَا هَذَا مَكَاننَا " .

وأَمَّا قَوْله : " وَيَقُولُونَ : فَإِذا جَاءَ رَبُّنَا عَرفْنَاهُ " ، فَتَأْوِيل مَجِيء الرَّبِّ علىٰ مَا تقدَّم ذكره فِي تَأْوِيل الْآيَة من قَوْله : ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ﴾ [الفجر: ٢٢] ، وَأَنَّ ذَلِكب ظُهُــــور فعل لَا بتحويل من مَكَان إِلَىٰ مَكَان ..." .

وقال الإمام السلمي في " تفسير السلمي وهو حقائق التفسير" (١/ ٧٢) : " قوله تعالىٰ : ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ أَنْ يَأْتِيَهُمُ الله فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمامِ وَالْمَلائِكَةُ﴾ [البقرة: ٢١٠] . قال جعفر : هل ينظرون إلَّا إقبال الله عليهم بالعصمة والتَّوفيق ، فيكشف عنهم أستار الغفلة ، فيشهدون برَّه ولطفه ، بل ويشاهدون البارَّ الرَّحيم اللطيف " .

وقال الإمام القَاضِي عَبْدُ الجَبَّارِ الهَمَذَانِيُّ في " متشابه القرآن" (ص١٢١) : " مسألة : قالوا : ثمَّ ذكر تعالىٰ ما يدلُّ علىٰ أنَّه جسم يجوز عليه المجيء والذَّهاب ، فقال : ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ أَنْ يَأْتِيَهُمُ الله فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمامِ وَالْمَلائِكَةُ﴾ [البقرة: ٢١٠] .

والجواب عن ذلك : أنَّ ظاهر الكلام لا يصحّ أن يقول به قوم ، لأنَّه يوجب أنَّه تعالىٰ يأتيهم في ظلل من الغمام ، بمعنىٰ أنَّه مكان له وظرف ، وهذا يوجب أنَّه أصغر من الظُّللِ والظُّلُلُ أعظم ، ويوجبُ أن تكون الملائكة معه في الظُّلل ، لمكان العطف . وذلك يوجب اجتماعه والملائكة في الظُّلل ، وليس ذلك

ممَّا يقوله القوم ، ومتىٰ تأوَّلوه علىٰ وجه فقد زالوا عن الظَّاهر . ومَن حمل ذلك علىٰ حقيقته فلا بدَّ من أن يعترف فيه تعالىٰ بأنَّه جسم مؤلَّف مصوَّر ، وذلك يوجب فيه الحدوث ، علىٰ ما قدَّمناه من قبل .

والمراد بذلك عندنا : أنَّ متحمِّلي أمره يأتون علىٰ هذا الوجه ، وقد بيَّن ذلك في سورة النَّحل ، فقال : **﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾** [النحل: ٣٣] ، ونبَّه بذلك علىٰ أنَّه ذكر نفسه في هذا الموضع وأراد أمره ، ولو صحَّ حمل ذلك علىٰ ظاهره لوجب مثله في قوله تعالىٰ : **﴿فَأَتَى الله بُنْيانَهُمْ مِنَ الْقَواعِدِ﴾** [النحل : ٢٦] ، وفيما شاكله من آي التَّشبيه " .

فقد ردَّ الإمام عَبْدُ الجَبَّارِ علىٰ المشبِّهة الذين قالوا : إنَّ ظاهر قوله تعالىٰ : **﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ أَنْ يَأْتِيَهُمُ الله فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمامِ وَالْمَلائِكَةُ﴾** [البقرة : ٢١٠] ، يدلُّ علىٰ أنَّه جسم ، وبالتَّالي يجوز عليه المجيء والذَّهاب ، ولذا فظاهر الكلام لا يصحُّ ولا يجوز أن يقول به قومٌ ... فالمراد من الآية : أنَّ متحمِّلي أمره يأتون علىٰ هذا الوجه ...

وقال الإمام أبو علىٰ أحمد بن محمَّد بن الحسن المرزوقي الأصفهاني في " الأزمنة والأمكنة" (ص٥٦) : " ... قوله تعالىٰ : **﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ أَنْ يَأْتِيَهُمُ الله فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمامِ وَالْمَلائِكَةُ﴾** [البقرة : ٢١٠] ، لأنَّ المعنىٰ : يأتيهم أمرُ الله " .

وقال الإمام الثَّعلبي في " الكشف والبيان عن تفسير القرآن" (٢/ ١٢٩-١٣٠) : " ... واختلف النَّاس في ذلك ، فقال بعضهم : " في " بمعنىٰ الباء ، وتعاقب حروف الصِّفات شائع مشهور في كلام العرب ، تقدير الآية : إلّا أن يأتيهم الله بظلل من الغمام وبالملائكة أو مع الملائكة ، وبهذا التَّأويل زال الإشكال ، وسهل الأمر وأجرىٰ الباقون للآية فهي ظاهرة. ثمَّ اختلفوا في تأويلها : ففسَّره قوم علىٰ الإتيان الذي هو الانتقال من مكان إلىٰ مكان ، وأدخلوا فيه : بلا كيف يدلُّ عليه ظواهر أخبار وردت لم يعرفوا تأويلها ، وهذا غير مرضيّ من القول ، لأنَّه إثبات المكان لله سبحانه ، وإذا كان متمكِّناً ، وجب أن يكون محدوداً متناهياً ومحتاجاً وفقيراً ، وتعالىٰ الله عن ذلك علوّاً كبيراً.

وقال بعض المحقِّقين الموفَّقين ، أظنُّه علي بن أبي طالب عليه السَّلام : من زعم أنَّ الله تعالىٰ من شيء أو في شيء أو علىٰ شيء فقد ألحد ، لأنَّه لو كان من شيء لكان محدثاً ، ولو كان في شيء لكان محصوراً ، ولو كان علىٰ شيء لكان محمولاً.

وسكت قوم عن الخوض في معنىٰ الإتيان ، فقالوا : نؤمن بظاهره ونقف عن تفسيره ، لأنّا قد نُهينا أن نقول في كتاب الله تعالىٰ ما لا نعلم ، ولم ينبّهنا الله تعالىٰ ولا رسوله علىٰ حقيقة معناه.

قال يحيىٰ : هذه من المكتوم الذي لا يفسَّر ، وكان مالك ، والأوزاعي ، ومحمَّد ، وإسحاق ، وجماعة من المشايخ ، يقولون فيه وفي أمثاله : أمرّوها كما جاءت بلا كيف.

وزعم قوم أنَّ في الآية إضماراً أو اختصاراً تقديرها : إلَّا أن يأتيهم أمرُ الله ، وهو الحساب والعذاب ، دلَّ عليه قوله : **﴿وَقُضِيَ الْأَمْرُ﴾** [البقرة : ٢١٠] ، وجب العذاب وفرغ من الحساب ، قالوا هذا كقوله : **﴿وَسْئَلِ الْقَرْيَةَ﴾** [يوسف : ٨٢] ، ويقول العرب : قطع الوالي اللصَّ ، يعني : يده ، وإنَّما فعل ذلك آخر ، لأنَّه بأمره .

ويقال: خطبتان مأتينا بنو أمية أي حكمهم.

وعلىٰ هذا يحمل قوله: **﴿وَلكِنَّ اللَّهَ رَمى﴾** [] ، لأنَّ الله تعالىٰ قال ذلك، وهذا معنىٰ قول الحسن البصري.

وقالت طائفة من أهل الحقائق : إنَّ الله يُحدث فعلاً يسمِّيه إتياناً ، كما سمعت ، فهلّا سمّاه نزولاً ، وأفعاله بلا آلة ولا علَّة.

قال الثَّعلبي : قلت : ويحتمل أن يكون معنىٰ الإتيان هاهنا راجعاً إلىٰ الجزاء ، فسمَّىٰ الجزاء إتياناً ، كما سمَّىٰ التَّخويف والتَّعذيب في قصَّة نمرود إتياناً ، فقال عزَّ من قائل : **﴿فَأَتَى الله بُنْيانَهُمْ مِنَ الْقَواعِدِ﴾** [النحل : ٢٦] .

وقال في قصَّة بني النَّضير : **﴿فَأَتاهُمُ الله مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا﴾** [الحشر : ٢] ، **﴿وَإِنْ كانَ مِثْقالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنا بِها وَكَفى بِنا حاسِبِينَ﴾** [الأنبياء : ٤٧] ، وإنَّما احتمل الإتيان هذه المعاني ، لأنَّ أصل الإتيان عند أهل اللسان هو : القصد إلىٰ المشي في للآية فهل ينظرون إلَّا أن يظهر الله خلاف أفعاله مع خلق من خلقه ، فيقصد إلىٰ مجازاتهم ، ويقضي في لعنهم ما هو قاض ومجازيهم علىٰ فعل ، ويمضي فيهم ما أراد " .

فالإمام الثَّعلبي ذكر ما كان عليه جمهور السَّلف وبعض الخلف من التَّأويل الإجمالي ، مع تنزيه الله تعالىٰ عن مشابهة الحوادث ، وكذا ما كان عليه جمهور الخلف وبعض السَّلف من التَّأويل التَّفصيلي...

وقال الإمام الثَّعلبي في " الكشف والبيان عن تفسير القرآن" (٤/ ٢٠٧) : **﴿أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ﴾** [الأنعام : ١٥٨] ، بلا كيف لفصل القضاء من خلقه في موقف القيامة ، وقال الضَّحَّاك : يأتي أمرُه وقضاؤه" .

وقال الإمام ابن بطَّال في " شرح صحيح البخاري " (٣/ ١٣٧-١٣٩) في شرحه لحديث النُّزول : " قال ابن فورك : ... حجَّة أهل البدع هذا الحديث وشبهه ، وقالوا : لا يمكن حمل شيء منه علىٰ تأويل صحيح من غير أن يكون فيه تشبيه ، أو تحديد ، أو وصف للرَّبِّ تعالىٰ بما لا يليق به ، وقد ورد التَّنزيل ، بمعنىٰ هذا الحديث وهو قوله : **﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾** [الفجر : ٢٢] ، **﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ أَنْ يَأْتِيَهُمُ الله**

﴿فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمامِ وَالْمَلائِكَةُ﴾ [البقرة : ٢١٠] ، و ﴿فَأَتَى الله بُنْيانَهُمْ مِنَ الْقَواعِدِ﴾ [النحل : ٢٦] . ولا فرق بين الإتيان والمجيء والنُّزول إذا أضيف جميع ذلك إلىٰ الأجسام التي يجوز عليها الحركة والنُّقلة التي هي تفريغ مكان وشغل غيره ، فإذا أضيف ذلك إلىٰ من لا يليق به الانتقال والحركة ، كان تأويل ذلك علىٰ حسب ما يليق بنعته وصفته عزَّ وجلَّ . فمن ذلك : أنَّا وجدنا لفظة النُّزول في اللغة مستعملة علىٰ معانٍ مختلفة ، فمنها : النُّزول بمعنىٰ الانتقال والتَّحويل كقو : ﴿وَأَنْزَلْنا مِنَ السَّماءِ مَاءً طَهُوراً﴾ [الفرقان : ٤٨] ، وَمِنْهَا : النُّزول بمعنىٰ الإعلام كقوله : ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾ [الشعراء : ١٩٣] ، أي : أعلم به الرُّوحُ الأمين محمَّداً ، صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . وَمِنْهَا : النُّزول بمعنىٰ القول في قوله تعالىٰ : ﴿سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللهُ﴾ [الأنعام : ٩٣] ، أي : سأقول مثل ما قال ، وَمِنْهَا : النُّزول بمعنىٰ الإقبال علىٰ الشَّيء ، وذلك هو المستعمل في كلامهم الجاري في عرفهم ، وهو أنَّهم يقولون : نزل فلان من مكارم الأخلاق إلىٰ دنيّها ، أي : أقبل إلىٰ دنيِّها ، ونزل قدر فلان عند فلان ، أي : انخفض . وَمِنْهَا : النُّزول بمعنىٰ نُزول الحكم ، من ذلك قولهم : كنا في خير وعدل حتىٰ نزل بنا بنو فلان ، أي : حكمهم ، وكلُّ ذلك متعارف عند أهل اللغة ، وإذا كانت هذه اللفظة مشتركة المعنىٰ فينبغي حمل ما وصف به الرَّبّ تعالىٰ من النُّزول علىٰ ما يليق به من بعض هذه المعاني . إمَّا أن يراد به إقباله علىٰ أهل الأرض بالرَّحمة ، والتَّنبيه الذىٰ يلقىٰ في قلوب أهل الخير منهم ، والزَّواجر التي تزعجهم إلىٰ الإقبال علىٰ الطَّاعة ، ويحتمل أن يكون ذلك فعلاً يظهر بأمره ، فيضاف إليه ، كما يقال : ضرب الأمير اللصَّ ، ونادىٰ الأميرُ في البلد ، وإنَّما أمر بذلك ، فيُضاف إليه الفعل علىٰ معنىٰ أنَّه عن أمره ظهر ، وإذا احتمل ذلك في اللغة لم ينكر أن يكون لله ملائكة يأمرهم بالنُّزول إلىٰ السَّماء الدُّنيا بهذا النِّداء والدُّعاء ، فيضاف إلىٰ الله . وقد روي هذا التَّأويل في بعض طرق هذا الحديث ، روىٰ النَّسائي ، قال : حدَّثنا إبراهيم ابن يعقوب ، حدَّثنا عمر بن حفص بن غياث ، حدَّثنا أبي ، عن الأعمش ، حدَّثنا أبو إسحاق ، حدَّثنا أبو مسلم ، عن الأغرّ ، قال : سمعت أبا هريرة ، وأبا سعيد الخدري ، يقولان : قال رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " إنَّ الله يُمهل حتىٰ يمضىٰ شطر الليل الأوَّل ، ثمَّ يأمر منادياً ينادىٰ ، يقول : هل من داعٍ يُستجاب له ، هل من مستغفر يُغفر له ، هل من سائل يُعطىٰ " . وقد سُئل الأوزاعي عن معنىٰ هذا الحديث ، فقال : يفعل الله ما يشاء . وهذه إشارة منه إلىٰ أنَّ ذلك فعلٌ يظهر منه تعالىٰ ، وقد روىٰ حبيب ، عن مالك ، أنَّه قال في هذا الحديث : ينزل أمرُه ورحمته ، وقد رواه غير حبيب عنه ، روىٰ محمَّد بن علىٰ البجلي بالقيروان ، قال : حدَّثنا جامع بن سوادة ، قال : حدَّثنا مطرف ، عن مالك بن أنس ، أنَّه سئل عن هذا الحديث ، فقال : ذلك تنزُّل أمره .

وقد سئل بعض العلماء عن حديث النُّزول ، فقال : تفسيره قول إبراهيم حين أفل النَّجم : ﴿لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ﴾ [الأنعام : ٧٦] ، فطلب ربّاً لا يجوز عليه الانتقال والحركات ، ولا يتعاقب عليه النُّزول ، وقد مدحه الله بذلك وأثنىٰ عليه في كتابه ، فقال : ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْراهِيمَ مَلَكُوتَ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾ [الأنعام : ٧٥] ، فوصفه لأنَّه بقوله هذا ، موقن " .

وقال الإمام ابن بطَّال في " شرح صحيح البخاري " (١٠/٥٢٦-٥٢٧) : " ... وقيل معنىٰ قوله تعالىٰ : ﴿فَإِذا قَرَأْناهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾ [القيامة : ١٨] ، أي : اعمل بما فيه ، فأمَّا إضافته فعل القراءة إليه بقوله : ﴿فَإِذا قَرَأْناهُ﴾ [القيامة : ١٨] ، والقارئ لكلامه تعالىٰ علىٰ محمَّد صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وهو جبريل ، دونه تعالىٰ ، فهذه إضافة فعل فعله في غيره ، كما تقول : قتل الأميرُ اللصَّ وصلبه ، وهو لم يلِ ذلك بنفسه ، إنَّما أمر من فعله . ففيه بيان لما يُشكل من كلِّ فعل ينسب إلىٰ الله تعالىٰ ، ممَّا لا يليق به فعله من الإتيان ، والنُّزول ، والمجيء ، أنَّ ذلك الفعل إنَّما هو منتسب إلىٰ الملك المرسل به ، كقوله : ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر : ٢٢] ، والمجيء مستحيل عليه لاستحالة الحركة ، وإنَّما معناه : وجاء أمرُ ربِّك ، ورسول ربِّك ، فكما استحالت عليه الحركة والانتقال ، كذلك استحالت عليه القراءة المعلومة منَّا ، لأنَّها محاولة حركة أعضاء وآلات ، والله يتعالىٰ عن ذلك ، وعن شبه الخليقة في قول أو عمل " .

وما ذكره الإمام ابن بطَّال في كلامه السَّابق يؤيِّد ويدعمُ ما عليه أهل الحقّ في مثل هذه المسألة ، وهي محصورة بين تأويل السَّلف الإجمالي وتأويل الخلف التَّفصيلي...

وقال الإمام الماوردي في " "تفسير الماوردي" (النُّكت والعيون) (٢/ ١٩٠) : ﴿أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ﴾ [الأنعام : ١٥٨] ، فيه وجهان : أحدهما : أمرُ ربِّك بالعذاب ، قاله الحسن . والثَّاني : قضاءُ ربِّك في القيامة ، قاله مجاهد " .

فالماوردي يذكر هنا تأويلين لعلمين من أعلام السَّلف : الحسن البصري ، ومجاهد ، فالحسن أوَّل الإتيان بإتيان أمر ربِّك بالعذاب ، وأوَّله مجاهد بإتيان قضاء ربِّك في القيامة ... فماذا يقول من يزعمون بأنَّ السَّلف لا يؤولون ؟ تبّاً للجهل والتَّنطُّع ما أرذله وأسفله ...

وقال الإمام ابن حزم في " الفصل في الملل والأهواء والنحل" (١/ ١٢٤) : "... وَلَا كَقَوْلِه تَعَالَىٰ : ﴿إِلاَّ أَنْ يَأْتِيَهُمُ الله فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمامِ وَالْمَلائِكَةُ﴾ [البقرة : ٢١٠] ، وَلَا كَقَوْل رَسُول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " ينزل الله تبَارك وَتَعَالَىٰ كلّ لَيْلَة فِي ثلث اللَّيْل الْبَاقِي إِلَىٰ سَمَاء الدُّنيا " ، لِأَنَّ هَذَا كُله علىٰ ظَاهره بِلَا تكلّف تَأْوِيل إنَّما هِيَ أَفعَال يَفْعَلهَا الله عزَّ وَجلَّ تُسمَّىٰ مجيئاً ، وإتياناً ، وتنزُّلاً ... ".

وقال الإمام ابن حزم الأندلسي في " الفصل في الملل والأهواء والنحل" (٢/ ١٣٢) : " وَكَذَلِكَ القَوْل فِي قَوْله تَعَالَىٰ : ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر : ٢٢] ، وَقَوله تَعَالَىٰ : ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ أَنْ يَأْتِيَهُمُ الله فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمامِ وَالْمَلائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ﴾ [البقرة : ٢١٠] ، فَهَذَا كُله علىٰ مَا بَينًّا من أَنَّ الْمَجِيء والإتيان يَوْم الْقِيَامَة : فعلٌ يَفْعَله الله تَعَالَىٰ فِي ذَلِك الْيَوْم يُسمّىٰ ذَلِك الْفِعْل مجيئاً ، وإتياناً ، وَقد روِّينَا عَن أَحْمد بن حَنْبَل رَحمَه الله أَنَّه قَـــالَ : ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر : ٢٢] ، إِنَّما مَعْنَاهُ : وَجَاء أَمرُ رَبِّك" .

فالإمام ابن حزم يؤوِّل الإتيان ، والمجيء ، والنُّزول ، بأنها أَفعَال يَفْعَلهَا الله عزَّ وَجلَّ ، تُسمَّىٰ : مجيئاً ، وإتياناً ، وتنزلاً...

وقال الإمام البيهقي في " الاعتقاد والهداية إلىٰ سبيل الرشاد علىٰ مذهب السَّلف وأصحاب الحديث" (ص١١٧-١١٨) : " وفي الجملة : يجب أن يعلم أنَّ استواء الله سبحانه وتعالىٰ ليس باستواء اعتدال عن اعوجاج ، ولا استقرار في مكان ، ولا مماسَّة لشيء من خلقه ، لكنَّه مستو علىٰ عرشه ، كما أخبر ، بلا كيف ، بلا أين ، بائن من جميع خلقه ، وأنَّ إتيانه ليس بإتيانٍ من مكان إلىٰ مكان ، وأنَّ مجيئه ليس بحركة ، وأنَّ نزوله ليس بنقلة ، وأنَّ نفسه ليس بجسم ، وأنَّ وجهه ليس بصورة ، وأنَّ يده ليست بجارحة ، وأنَّ عينه ليست بحدقة ، وإنَّما هذه أوصاف جاء بها التَّوقيف ، فقُلنا بها ، ونفينا عنها التَّكييف ، فقد قال : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورىٰ: ١١] ، وقال : ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ﴾ [الإخلاص : ٤] ، وقال : ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ [مريم : ٦٥] .

وقال الإمام البيهقي في " الأسماء والصِّفات" (٢/ ٣٧٠-٣٧٨): " مَا جَاءَ فِي قَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ أَنْ يَأْتِيَهُمُ الله فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمامِ وَالْمَلائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ [البقرة : ٢١٠] ، وَقَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ : ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر : ٢٢] .

أَخْبَرَنَا أَبُو عَبْدِ اللَّهِ الْحَافِظُ ، وَأَبُو سَعِيدِ بْنُ أَبِي عَمْرٍو ، قَالَا : ثنا أَبُو العبَّاس محمَّد بْنُ يَعْقُوبَ ، ثنا أَحْمَدُ بْنُ الْفَضْلِ الصَّائِغُ ، ثنا آدَمُ بْنُ أَبِي إِيَاسَ ، ثنا أَبُو جَعْفَرٍ الرَّازِيُّ، عَنِ الرَّبِيعِ ، عَنْ أَبِي الْعَالِيَةِ ، فِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ : ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ أَنْ يَأْتِيَهُمُ الله فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمامِ وَالْمَلائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ [البقرة : ٢١٠] ، يَقُولُ : الْمَلَائِكَةُ يَجِيئُونَ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ ، وَاللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ يَجِيءُ فِيمَا يَشَاءُ ، وَهِيَ فِي بَعْضِ الْقِرَاءَةِ : ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللهُ وَالْمَلَائِكَةِ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ﴾ ، وَهِيَ كَقَوْلِهِ : ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّماءُ بِالْغَمامِ وَنُزِّلَ الْمَلائِكَةُ تَنْزِيلًا﴾ [الفرقان : ٢٥] . قُلْتُ : فَصَحَّ بِهَذَا التَّفْسِيرِ أَنَّ الْغَمَامَ إِنَّما هُوَ مَكَانُ

الْمَلَائِكَةِ وَمَرْكَبُهُمْ ، وَأَنَّ اللَّهَ تَعَالَىٰ لَا مَكَانَ لَهُ وَلَا مَرْكَبَ ، وأَمَّا الْإِتْيَانُ وَالْمَجِيءُ ، فَعَلَىٰ قَوْلِ أَبِي الْحَسَنِ الْأَشْعَرِيِّ ، رَضِيَ الله عَنْهُ ، يُحْدِثُ الله تَعَالَىٰ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِعْلاً يُسَمِّيهِ إِتْيَاناً وَمَجِيئاً ، لَا بِأَنْ يَتَحَرَّكَ أَوْ يَنْتَقِلَ ، فَإِنَّ الْحَرَكَةَ وَالسُّكُونَ وَالِاسْتِقْرَارَ مِنْ صِفَاتِ الْأَجْسَامِ ، وَاللَّهُ تَعَالَىٰ أَحَدٌ صَمَدٌ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ . وَهَذَا كَقَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿**قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَى الله بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُون**﴾[النحل : ٢٦] ، وَلَمْ يُرِدْ بِهِ إِتْيَاناً مِنْ حَيْثُ النُّقلة ، إِنَّما أَرَادَ إِحْدَاثَ الْفِعْلِ الَّذِي بِهِ خَرِبَ بُنْيَانُهُمْ وَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ ، فَسَمَّىٰ ذَلِكَ الْفِعْلَ إِتْيَاناً ، وَهَكَذَا قَالَ فِي أَخْبَارِ النُّزول : إِنَّ الْمُرَادَ بِهِ فِعْلٌ يُحْدِثُهُ الله عَزَّ وَجَلَّ فِي سَمَاءِ الدُّنيا كُلَّ لَيْلَةٍ يُسَمِّيهِ نُزُولاً بِلَا حَرَكَةٍ وَلَا نُقْلَةٍ ، تعَالَىٰ الله عَنْ صِفَاتِ الْمَخْلُوقِينَ.

أَخْبَرَنَا أَبُو الْحُسَيْنِ بْنُ بِشْرَانَ ، ثنا أَحْمَدُ بْنُ سَلْمَانَ النَّجَادُ ، قَالَ : قُرِئَ عَلَىٰ سُلَيْمَانَ بْنِ الْأَشْعَثِ الْأَشْجَعِيِّ وَأَنَا أَسْمَعُ ، ثنا الْقَعْنَبِيُّ ، عَنْ مَالِكٍ ، عَنِ ابْنِ شِهَابٍ ، عَنْ أَبِي سَلَمَةَ بْنِ عَبْدِ الرَّحمن ، وَعَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ الْأَغَرِّ ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ، رَضِيَ الله عَنْهُ قَالَ : إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، قَالَ : " يَنْزِلُ الله عَزَّ وَجَلَّ كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَىٰ سَمَاءِ الدُّنيا حِينَ يَبْقَىٰ ثُلُثُ اللَّيْلِ الْآخِرُ ، فَيَقُولُ : مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ ؟ مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ ؟ مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ ؟

وَأَخْبَرَنَا أَبُو عَبْدِ اللَّهِ الْحَافِظُ ، ثنا أَبُو عَبْدِ اللَّهِ محمَّد بْنُ يَعْقُوبَ ، ثنا جَعْفَرُ بْنُ محمَّد بْنِ الْحُسَيْنِ ، ثنا يَحْيَىٰ بْنُ يَحْيَىٰ ، قَالَ : قَرَأْتُ عَلَىٰ مَالِكٍ فَذَكَرَ بِمَعْنَاهُ . رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ فِي الصَّحيح عَنِ الْقَعْنَبِيِّ ، وَرَوَاهُ مُسْلِمٌ ، عَنْ يَحْيَىٰ بْنِ يَحْيَىٰ ، وَرَوَاهُ أَيْضاً يَحْيَىٰ بْنُ أَبِي كَثِيرٍ وَمحمَّد بْنُ عَمْرٍو عَنْ أَبِي سَلَمَةَ ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ الله عَنْهُمَا ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

أَخْبَرَنَا أَبُو عَبْدِ اللَّهِ الْحَافِظُ ، ثنا أَبُو العبَّاس محمَّد بْنُ يَعْقُوبَ ، ثنا محمَّد بْنُ إِسْحَاقَ الصَّاغَانِيُّ ، وَالْعَبَّاسُ بْنُ محمَّد الدُّورِيُّ ، قَالَا : ثنا مُحَاضِرُ بْنُ الْمُوَرِّعِ ، ثنا سَعْدُ بْنُ سَعِيدٍ ، أنا سَعِيدُ بْنُ مَرْجَانَةَ ، قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا هُرَيْرَةَ ، رَضِيَ الله عَنْهُ ، يَقُولُ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " يَنْزِلُ الله إِلَىٰ السَّماء الدُّنيا لِشَطْرِ اللَّيْلِ ـ أَوْ لِثُلُثِ اللَّيْلِ ـ الْآخِرِ فَيَقُولُ : مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ ؟ أَوْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ ؟ ثمَّ يَقُولُ : مَنْ يُقْرِضُ غَيْرَ عَدُومٍ وَلَا ظَلُومٍ ؟ " رَوَاهُ مُسْلِمٌ فِي الصَّحيح عَنْ حَجَّاجِ بْنِ الشَّاعِرِ ، عَنْ مُحَاضِرِ بْنِ الْمُوَرِّعِ ، وَأَخْرَجَهُ أَيْضاً مِنْ حَدِيثِ أَبِي صَالِحٍ ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ الله عَنْهُ ، وَرَوَاهُ أَيْضاً أَبُو جَعْفَرٍ محمَّد بْنُ عَلِيٍّ فِي آخَرِينَ ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ الله عَنْهُ.

أَخْبَرَنَا أَبُو بَكْرٍ محمَّد بْنُ الْحَسَنِ بْنِ فُورَكٍ ، أنا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ جَعْفَرٍ ، ثنا يُونُسُ بْنُ حَبِيبٍ ، ثنا أَبُو دَاوُدَ ، ثنا شُعْبَةُ ، أنا أَبُو إِسْحَاقَ ، قَالَ : سَمِعْتُ الْأَغَرَّ ، يَقُولُ : أَشْهَدُ عَلَىٰ أَبِي سَعِيدٍ وَأَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ الله عَنْهُمَا أَنَّهُمَا شَهِدَا عَلَىٰ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنَّه قَالَ : " إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يُمْهِلُ حَتَّىٰ يَمْضِيَ ثُلُثَا اللَّيْلِ ثمَّ يَهْبِطُ فَيَقُولُ : هَلْ مِنْ سَائِلٍ ؟ هَلْ مِنْ تَائِبٍ ؟ هَلْ مِنْ مُسْتَغْفِرٍ مِنْ ذَنْبٍ ؟ " فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ : حَتَّىٰ يَطْلُعَ الْفَجْرُ ؟ فَقَالَ : نَعَمْ . أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ فِي الصَّحِيحِ مِنْ حَدِيثِ غُنْدَرٍ عَنْ شُعْبَةَ ، وَقَالَ : فَيَنْزِلُ ، بَدَلَ قَوْلِهِ : ثمَّ يَهْبِطُ . وَبِمَعْنَاهُ قَالَهُ مَنْصُورٌ عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ عَنِ الْأَغَرِّ أَبِي مُسْلِمٍ : يَنْزِلُ إِلَىٰ السَّماء الدُّنيا.

أَخْبَرَنَا أَبُو سَعِيدٍ عَبْدُ الرَّحمن بْنُ محمَّد بْنِ شَبَانَةَ الشَّاهِدُ بِهَمَذَانَ ، ثنا عَبْدُ الرَّحمن بْنُ الْحَسَنِ الْقَاضِي ، ثنا محمَّد بْنُ أَيُّوبَ ، أنا أَبُو الْوَلِيدِ الطَّيَالِسِيُّ ، ح. وَأَخْبَرَنَا أَبُو زَكَرِيَّا بْنُ أَبِي إِسْحَاقَ ، ثنا أَحْمَدُ بْنُ سَلْمَانَ الْفَقِيهُ ، ثنا محمَّد بْنُ عِيسَىٰ الْوَاسِطِيُّ ، ثنا هِشَامُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ الطَّيَالِسِيُّ ، ثنا حَمَّادُ بْنُ سَلَمَةَ ، عَنْ عَمْرِو بْنِ دِينَارٍ ، عَنْ نَافِعِ بْنِ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ ، عَنْ أَبِيهِ ، رَضِيَ الله عَنْهُ ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، قَالَ : " يَنْزِلُ الله عَزَّ وَجَلَّ إِلَىٰ سَمَاءِ الدُّنيا فِي ثُلُثِ اللَّيْلِ فَيَقُولُ : هَلْ مِنْ تَائِبٍ فَأَتُوبَ عَلَيْهِ ؟ هَلْ مِنْ دَاعٍ فَأَسْتَجِيبَ لَهُ ؟ هَلْ مِنْ مُسْتَغْفِرٍ فَأَغْفِرَ لَهُ ؟ قَالَ : وَذَلِكَ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ " . لَفْظُ حَدِيثِ الْوَاسِطِيِّ وَهُوَ أَتَمُّ . وَقَدْ رُوِيَ فِي مَعْنَىٰ هَذَا الْحَدِيثِ عَنْ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ ، وَعَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ ، وَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ ، وَعُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ ، وَرِفَاعَةَ بْنِ عَرَابَةَ ، وَجَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ ، وَعُثْمَانَ بْنِ أَبِي الْعَاصِ ، وَأَبِي الدَّرْدَاءِ ، وَأَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ، وَعَمْرِو بْنِ عَبَسَةَ ، وَأَبِي مُوسَىٰ الْأَشْعَرِيِّ وَغَيْرِهِمْ رَضِيَ الله عَنْهُمْ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَرُوِيَ فِيهِ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عبَّاس وَأُمِّ سَلَمَةَ وَغَيْرِهِمَا رَضِيَ الله عَنْهُمْ.

أَخْبَرَنَا أَبُو عَبْدِ اللَّهِ الْحَافِظُ، وَأَبُو سَعِيدِ بْنُ أَبِي عَمْرٍو ، قَالَا : ثنا أَبُو العبَّاس محمَّد بْنُ يَعْقُوبَ ، ثنا محمَّد بْنُ إِسْحَاقَ الصَّاغَانِيُّ ، أنا سَلْمُ بْنُ قَادِمٍ ، ثنا مُوسَىٰ بْنُ دَاوُدَ ، قَالَ : قَالَ لِي عَبَّادُ بْنُ الْعَوَّام : قَدِمَ عَلَيْنَا شَرِيكُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ مُنْذُ نَحْوٍ مِنْ خَمْسِينَ سَنَةً ، قَالَ : فَقُلْتُ لَهُ : يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ ، إِنَّ عِنْدَنَا قَوْمًا مِنَ الْمُعْتَزِلَةِ يُنْكِرُونَ هَذِهِ الْأَحَادِيثَ . قَالَ : فَحَدَّثَنِي بِنَحْوٍ مِنْ عَشَرَةِ أَحَادِيثَ فِي هَذَا ، وَقَالَ : أَمَّا نَحْنُ فَقَدْ أَخَذْنَا دِينَنَا هَذَا عَنِ التَّابِعِينَ عَنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَهُمْ عَمَّنْ أَخَذُوا ؟

أَخْبَرَنَا أَبُو عَبْدِ اللَّهِ الْحَافِظُ، قَالَ : سَمِعْتُ أَبَا زَكَرِيَّا الْعَنْبَرِيَّ ، يَقُولُ : سَمِعْتُ أَبَا العبَّاس محمَّد بْنَ إِسْحَاقَ الثَّقَفِيَّ ، يَقُولُ : سَمِعْتُ الْحَسَنَ بْنَ عَبْدِ الْعَزِيزِ الْجَرْوِيَّ ، يَقُولُ : سَمِعْتُ قَاضِيَ فَارِسٍ ، يَقُولُ : قَالَ إِسْحَاقُ بْنُ رَاهَوَيْهِ : دَخَلْتُ يَوْمًا عَلَىٰ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ طَاهِرٍ ، فَقَالَ لِي : يَا أَبَا يَعْقُوبَ ، تَقُولُ إِنَّ اللَّهَ يَنْزِلُ كُلَّ لَيْلَةٍ ؟ فَقُلْتُ لَهُ : وَيَقْدِرُ . فَسَكَتَ عَبْدُ اللَّهِ . قَالَ أَبُو العبَّاس : أَخْبَرَنِي الثِّقَةُ مِنْ أَصْحَابِنَا قَالَ : سَمِعْتُ

إِسْحَاقَ بْنَ رَاهَوَيْهِ ، يَقُولُ : دَخَلْتُ عَلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ طَاهِرٍ ، فَقَالَ لِي : يَا أَبَا يَعْقُوبَ ، تَقُولُ إِنَّ اللَّهَ يَنْزِلُ كُلَّ لَيْلَةٍ ؟ فَقُلْتُ : أَيُّهَا الْأَمِيرُ إِنَّ اللَّهَ تَعَالَىٰ بَعَثَ إِلَيْنَا نَبِيًّا ، نُقِلَ إِلَيْنَا عَنْهُ أَخْبَارٌ بِهَا نُحَلِّلُ الدِّمَاءَ ، وَبِهَا نُحَرِّمُ ، وَبِهَا نُحَلِّلُ الْفُرُوجَ ، وَبِهَا نُحَرِّمُ ، وَبِهَا نُبِيحُ الْأَمْوَالَ وَبِهَا نُحَرِّمُ ، فَإِنْ صَحَّ ذَا صَحَّ ذَاكَ ، وَإِنْ بَطَلَ ذَا بَطَلَ ذَاكَ . قَالَ : فَأَمْسَكَ عَبْدُ اللَّهِ.

وَأَخْبَرَنَا أَبُو عَبْدِ اللَّهِ الْحَافِظُ ، قَالَ : سَمِعْتُ أَبَا جَعْفَرٍ محمَّد بْنُ صَالِحِ بْنِ هَانِئٍ ، يَقُولُ : سَمِعْتُ أَحْمَدَ بْنَ سَلَمَةَ ، يَقُولُ : سَمِعْتُ إِسْحَاقَ بْنَ إِبْرَاهِيمَ الْحَنْظَلِيَّ ، يَقُولُ : جَمَعَنِي وَهَذَا الْمُبْتَدِعُ ـ يَعْنِي إِبْرَاهِيمَ بْنَ أَبِي صَالِحٍ ـ مَجْلِسُ الْأَمِيرِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ طَاهِرٍ فَسَأَلَنِي الْأَمِيرُ عَنْ أَخْبَارِ النُّزول فَسَرَدْتُهَا ، فَقَالَ إِبْرَاهِيمُ : كَفَرْتُ بِرَبٍّ يَنْزِلُ مِنْ سَمَاءٍ إِلَىٰ سَمَاءٍ . فَقُلْتُ : آمَنْتُ بِرَبٍّ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ . قَالَ فَرَضِيَ عَبْدُ اللَّهِ كَلَامِي وَأَنْكَرَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ. هَذَا مَعْنَىٰ الْحِكَايَةِ.

وَأَخْبَرَنَا أَبُو عَبْدِ اللَّهِ الْحَافِظُ ، قَالَ : سَمِعْتُ أَبَا زَكَرِيَّا الْعَنْبَرِيَّ ، يَقُولُ : سَمِعْتُ أَبَا العبَّاس ، يَقُولُ : سَمِعْتُ إِسْحَاقَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ ، يَقُولُ : دَخَلْتُ يَوْمًا عَلَىٰ طَاهِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ طَاهِرٍ ، وَعِنْدَهُ مَنْصُورُ بْنُ طَلْحَةَ ، فَقَالَ لِي : يَا أَبَا يَعْقُوبَ ، إِنَّ اللَّهَ يَنْزِلُ كُلَّ لَيْلَةٍ؟ فَقُلْتُ لَهُ : تُؤْمِنُ بِهِ ؟ فَقَالَ طَاهِرٌ : أَلَمْ أَنْهَكَ عَنْ هَذَا الشَّيخ ، مَا دَعَاكَ إِلَىٰ أَنْ تَسْأَلَهُ عَنْ مِثْلِ هَذَا ؟ قَالَ إِسْحَاقُ: فَقُلْتُ لَهُ : إِذَا أَنْتَ لَمْ تُؤْمِنْ أَنَّ لَكَ رَبًّا يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ، لَسْتَ تَحْتَاجُ أَنْ تَسْأَلَنِي . قُلْتُ : فَقَدْ بَيَّنَ إِسْحَاقُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ الْحَنْظَلِيُّ فِي هَذِهِ الْحِكَايَةِ أَنَّ النُّزول عِنْدَهُ مِنْ صِفَاتِ الْفِعْلِ ، ثمَّ أَنَّه كَانَ يَجْعَلُهُ نُزُولاً بِلَا كَيْفٍ ، وَفِي ذَلِكَ دَلَالَةٌ عَلَىٰ أَنَّه كَانَ لَا يَعْتَقِدُ فِيهِ الِانْتِقَالَ وَالزَّوَالَ.

أَخْبَرَنَا أَبُو بَكْرِ بْنُ الْحَارِثِ الْفَقِيهُ ، أنا أَبُو محمَّد بْنُ حَيَّانَ أَبُو الشَّيخ الْأَصْبَهَانِيُّ ، قَالَ : وَفِيمَا أَجَازَنِي جَدِّي يَعْنِي مَحْمُودَ بْنَ الْفَرَحِ ، قَالَ : قَالَ إِسْحَاقُ بْنُ رَاهَوَيْهِ : سَأَلَنِي ابْنُ طَاهِرٍ عَنْ حَدِيثِ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ يَعْنِي فِي النُّزول ـ فَقُلْتُ لَهُ : النُّزول بِلَا كَيْفٍ . قَالَ أَبُو سُلَيْمَانَ الْخَطَّابِيُّ : هَذَا الْحَدِيثُ وَمَا أَشْبَهَهُ مِنَ الْأَحَادِيثِ فِي الصِّفات كَانَ مَذْهَبُ السَّلف فِيهَا الْإِيمَانَ بِهَا ، وَإِجْرَاءَهَا عَلَىٰ ظَاهِرِهَا وَنَفْيَ الْكَيْفِيَّةِ عَنْهَا . وَذَكَرَ الْحِكَايَةَ الَّتِي:

أَخْبَرَنَا أَبُو بَكْرِ بْنُ الْحَارِثِ الْفَقِيهُ ، أنا أَبُو محمَّد بْنُ حَيَّانَ ، ثنا الْحَسَنُ بْنُ محمَّد الدَّارَكِيُّ ، ثنا أَبُو زُرْعَةَ ، ثنا ابْنُ مُصَفَّىٰ ، ثنا بَقِيَّةُ ، ثنا الْأَوْزَاعِيُّ ، عَنِ الزُّهري ، وَمَكْحُولٍ ، قَالَا : امْضُوا الْأَحَادِيثَ عَلَىٰ مَا جَاءَتْ .

وَأَخْبَرَنَا أَبُو عَبْدِ اللَّهِ الْحَافِظُ ، ثنا أَبُو بَكْرٍ محمَّد بْنُ أَحْمَدَ بْنِ بَالَوَيْهِ ، ثنا محمَّد بْنُ بِشْرِ بْنِ مَطَرٍ ، ثنا الْهَيْثَمُ بْنُ خَارِجَةَ ، ثنا الْوَلِيدُ بْنُ مُسْلِمٍ ، قَالَ : سُئِلَ الْأَوْزَاعِيُّ ، وَمَالِكٌ ، وَسُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ ، وَاللَّيْثُ بْنُ سَعْدٍ عَنْ هَذِهِ الْأَحَادِيثِ الَّتِي جَاءَتْ فِي التَّشْبِيهِ فَقَالُوا : أَمِرُّوهَا كَمَا جَاءَتْ بِلَا كَيْفِيَّةٍ.

أَخْبَرَنَا أَبُو عُثْمَانَ ، ثنا أَبُو يَعْقُوبَ إِسْحَاقُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ الْعَدْلُ ، ثنا مَحْبُوبُ بْنُ عَبْدِ الرَّحمن الْقَاضِي ، ثنا جَدِّي أَبُو بَكْرٍ محمَّد بْنُ أَحْمَدَ بْنِ مَحْبُوبٍ ، ثنا أَحْمَدُ بْنُ حَيَوَيْهِ ، حدَّثنا أَبُو عَبْدِ الرَّحمن الْعَتَكِيُّ ، ثنا محمَّد بْنُ سَلَّامٍ ، قَالَ : سَأَلْتُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ الْمُبَارَكِ . فَذَكَرَ حِكَايَةً قَالَ فِيهَا : فَقَالَ الرَّجُلُ يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحمن ، كَيْفَ يَنْزِلُ ؟ فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنِ الْمُبَارَكِ : «كدخاي كارخويش كن» يَنْزِلُ كَيْفَ يَشَاءُ قَالَ أَبُو سُلَيْمَانَ رَحِمَهُ الله : وإِنَّما يَنْكِرُ هَذَا وَمَا أَشْبَهَهُ مِنَ الْحَدِيثِ مَنْ يَقِيسُ الْأُمُورَ فِي ذَلِكَ بِمَا يُشَاهِدُهُ مِنَ النُّزول الَّذِي هُوَ نَزْلَةٌ مِنْ أَعْلَىٰ إِلَىٰ أَسْفَلَ ، وَانْتِقَالٌ مِنْ فَوْقٍ إِلَىٰ تَحْتٍ ، وَهَذَا صِفَةُ الْأَجْسَامِ وَالْأَشْبَاحِ ، فَأَمَّا نُزُولُ مَنْ لَا يَسْتَوْلِي عَلَيْهِ صِفَاتُ الْأَجْسَامِ ، فَإِنَّ هَذِهِ الْمَعَانِي غَيْرُ مُتَوَهَّمَةٍ فِيهِ ، وإِنَّما هُوَ خَبَرٌ عَنْ قُدْرَتِهِ وَرَأْفَتِهِ بِعِبَادِهِ ، وَعَطْفِهِ عَلَيْهِمْ وَاسْتِجَابَتِهِ دُعَائِهِمْ وَمَغْفِرَتِهِ لَهُمْ ، يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ، لَا يَتَوَجَّهُ عَلَىٰ صِفَاتِهِ كَيْفِيَّةٌ ، وَلَا عَلَىٰ أَفْعَالِهِ كِمِّيَّةٌ ، سُبْحَانَهُ **﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾** [الشورى: ١١] .

وَقَالَ أَبُو سُلَيْمَانَ رَحِمَهُ الله فِي مَعَالِمِ السُّنَنِ : وَهَذَا مِنَ الْعِلْمِ الَّذِي أُمِرْنَا أَنْ نُؤْمِنَ بظَاهِرِهِ ، وَأَنْ لَا نَكْشِفَ عَنْ بَاطِنِهِ ، وَهُوَ مِنْ جُمْلَةِ الْمُتَشَابِهِ الَّذِي ذَكَرَهُ الله تَعَالَىٰ فِي كِتَابِهِ ، فَقَالَ : **﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتابَ مِنْهُ آياتٌ مُحْكَماتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتابِ وَأُخَرُ مُتَشابِهاتٌ﴾** [آل عمران : ٧] ، الْآيَةَ فَالْمُحْكَمُ مِنْهُ يَقَعُ بِهِ الْعِلْمُ الْحَقِيقِيُّ وَالْعَمَلُ ، وَالْمُتَشَابِهُ يَقَعُ بِهِ الْإِيمَانُ وَالْعِلْمُ الظَّاهِرُ ، وَيُوكَلُ بَاطِنُهُ إِلَىٰ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ، وَهُوَ مَعْنَىٰ قَوْلِهِ : **﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا الله﴾** [آل عمران : ٧] ، وإِنَّما حَظُّ الرَّاسِخِينَ أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا . وَكَذَلِكَ مَا جَاءَ مِنْ هَذَا الْبَابِ فِي الْقُرْآنِ كَقَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ **﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ الله فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ﴾** [البقرة : ٢١٠] ، وَقَوْلِهِ : **﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾** [الفجر: ٢٢] ، وَالْقَوْلُ فِي جَمِيعِ ذَلِكَ عِنْدَ عُلَمَاءِ السَّلف هُوَ مَا قُلْنَاهُ ، وَرُوِيَ مِثْلُ ذَلِكَ عَنْ جَمَاعَةٍ مِنَ الصَّحَابَةِ رَضِيَ الله عَنْهُمْ . وَقَدْ زَلَّ بَعْضُ شُيُوخِ أَهْلِ الْحَدِيثِ مِمَّنْ يُرْجَعُ إِلَىٰ مَعْرِفَتِهِ بِالْحَدِيثِ وَالرِّجَالِ ، فَحَادَ عَنْ هَذِهِ الطَّرِيقَةِ حِينَ رَوَىٰ حَدِيثَ النُّزول ، ثمَّ أَقْبَلَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ، فَقَالَ : إِنْ قَالَ قَائِلٌ : كَيْفَ يَنْزِلُ رَبُّنَا إِلَىٰ السَّماء ؟ قِيلَ لَهُ : يَنْزِلُ كَيْفَ يَشَاءُ . فَإِنْ قَالَ : هَلْ يَتَحَرَّكُ إِذَا نَزَلَ ؟ فَقَالَ : إِنْ شَاءَ يَتَحَرَّكُ وَإِنْ شَاءَ لَمْ يَتَحَرَّكْ . وَهَذَا خَطَأٌ فَاحِشٌ عَظِيمٌ ، وَاللَّهُ تَعَالَىٰ لَا يُوصَفُ بِالْحَرَكَةِ ، لِأَنَّ الْحَرَكَةَ وَالسُّكُونَ يَتَعَاقَبَانِ فِي مَحِلٍّ وَاحِدٍ ، وإِنَّما يَجُوزُ أَنْ يُوصَفَ بِالْحَرَكَةِ مَنْ يَجُوزُ أَنْ يُوصَفَ بِالسُّكُونِ ، وَكِلَاهُمَا مِنْ أَعْرَاضِ الْحَدَثِ ، وَأَوْصَافِ الْمَخْلُوقِينَ ،

وَاللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ مُتَعَالٍ عَنْهُمَا ، لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ . فَلَوْ جَرَىٰ هَذَا الشَّيخ عَلَىٰ طَرِيقَةِ السَّلف الصَّالح وَلَمْ يُدْخِلْ نَفْسَهُ فِيمَا لَا يَعْنِيهِ لَمْ يَكُنْ يَخْرُجُ بِهِ الْقَوْلُ إِلَىٰ مِثْلِ هَذَا الْخَطَأِ الْفَاحِشِ . قَالَ : وإنَّما ذَكَرْتُ هَذَا لِكَيْ يُتَوَقَّىٰ الْكَلَامُ فِيمَا كَانَ مِنْ هَذَا النَّوْعِ ، فَإِنَّهُ لَا يُثْمِرُ خَيْرًا وَلَا يُفِيدُ رُشْداً ، وَنَسْأَلُ اللَّهَ الْعِصْمَةَ مِنَ الضَّلَالِ ، وَالْقَوْلِ بِمَا لَا يَجُوزُ مِنَ الْفَاسِدِ وَالْمُحَالِ.

وَقَالَ الْقُتَيْبِيُّ : قَدْ يَكُونُ النُّزول بِمَعْنَىٰ إِقْبَالٍ عَلَىٰ الشَّيء بِالْإِرَادَةِ وَالنِّيَّةِ ، وَكَذَلِكَ الْهُبُوطُ وَالإِرْتِفَاعُ وَالْبُلوغُ وَالْمَصِيرُ ، وَأَشْبَاهُ هَذَا الْكَلَامِ ، وَذَكَرَ مِنْ كَلَامِ الْعَرَبِ مَا يَدُلُّ عَلَىٰ ذَلِكَ . قَالَ : وَلَا يُرَادُ فِي شَيْءٍ مِنْ هَذَا انْتِقَالٌ يَعْنِي بالذَّات ، وإنَّما يُرَادُ بِهِ الْقَصْدُ إِلَىٰ الشَّيء بِالْإِرَادَةِ وَالْعَزْمِ وَالنِّيَّةِ . قُلْتُ : وَفِيمَا قَالَهُ أَبُو سُلَيْمَانَ رَحِمَهُ الله كِفَايَةٌ ، وَقَدْ أَشَارَ إِلَىٰ مَعْنَاهُ الْقُتَيْبِيُّ فِي كَلَامِهِ ، فَقَالَ : لَا نُحَتِّمُ عَلَىٰ النُّزول مِنْهُ بِشَيْءٍ ، وَلَكِنَّا نُبَيِّنُ كَيْفَ هُوَ فِي اللُّغَةِ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا أَرَادَ . وَقَرَأْتُ بِخَطِّ الْأُسْتَاذِ أَبِي عُثْمَانَ رَحِمَهُ الله فِي كِتَابِ الدَّعَوَاتِ عَقِيبَ حَدِيثِ النُّزول : قَالَ الْأُسْتَاذُ أَبُو مَنْصُورٍ يَعْنِي الْحَمْشَاذِيَّ عَلَىٰ إِثْرِ الْخَبَرِ : وَقَدِ اخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِي قَوْلِهِ : " يَنْزِلُ الله " فَسُئِلَ أَبُو حَنِيفَةَ عَنْهُ فَقَالَ : يَنْزِلُ بِلَا كَيْفٍ . وَقَالَ حَمَّادُ بْنُ زَيْدٍ : نُزُولُهُ إِقْبَالُهُ . وَقَالَ بَعْضُهُمْ : يَنْزِلُ نُزُولاً يَلِيقُ بِالرُّبُوبِيَّةِ بِلَا كَيْفٍ ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَكُونَ نُزُولُهُ مِثْلَ نُزُولِ الْخَلْقِ بِالتَّجَلِّي وَالتَّمَلِّي ، لِأَنَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ مُنَزَّهٌ عَنْ أَنْ تَكُونَ صِفَاتُهُ مِثْلَ صِفَاتِ الْخَلْقِ ، كَمَا كَانَ مُنَزَّهاً عَنْ أَنْ تَكُونَ ذَاتُهُ مِثْلَ ذَاتِ الْغِيرِ ، فَمَجِيئُهُ وَإِتْيَانُهُ وَنُزُولُهُ عَلَىٰ حَسْبِ مَا يَلِيقُ بِصِفَاتِهِ مِنْ غَيْرِ تَشْبِيهٍ وَكَيْفِيَّةٍ . ثُمَّ رَوَىٰ الْإِمَامُ رَحِمَهُ الله عُقَيْبَ حِكَايَةِ ابْنِ الْمُبَارَكِ حِينَ سُئِلَ عَنْ كَيْفِيَّةِ نُزُولِهِ ، فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ : " كد خداي كارخويش كن " يَنْزِلُ كَيْفَ يَشَاءُ . وَقَدْ سَبَقَتْ مِنْهُ هَذِهِ الْحِكَايَةُ بِإِسْنَادِهِ وَكَتَبْتُهَا حَيْثُ ذَكَرَهَا أَبُو سُلَيْمَانَ رَحِمَهُ الله" .

وقال الإمام القُشيري في " لطائف الإشارات" (تفسير القشيري) (١/ ١٧٢) : **﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ الله فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾** [البقرة : ٢١٠] ، استبطأ القوم قيام السَّاعة فأخبروا عن شدَّة الأمر إذا قامت السَّاعة بتفصيل ما ذكر .

وتلك أفعال في معنىٰ الأحوال ، يظهرها الله سبحانه بما يزيل عنهم الإشكال في علوِّ شأنه سبحانه وتعالىٰ ، ونفاذ قدرته فيما يريد **﴿ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾** [البقرة : ٢١٠] ، أي : انهتك ستر الغيب عن صريح التَّقدير السَّابق . ولقد استغنت قلوب الموحدين لما فيها من أنوار البصائر عن طلب التَّأويل لهذه الآية وأمثالها إذ الحق سبحانه منزَّه عن كلِّ انتقال وزوال ، واختصاص بمكان أو زمان ، تقدَّس عن كلِّ حركة وإتيان " .

فالإمام القُشيري يؤوِّل الإتيان المضاف إلىٰ الله تعالىٰ بأنَّه فعلٌ يُظهره الله تعالىٰ ، وأنَّه تعالىٰ منزَّه عن الانتقال والزَّوال ، والاختصاص بالمكان أو بالزَّمان ، تقدَّس عن كلِّ حركة وإتيان...

وقال الإمام الواحدي النَّيسابوري في " الوسيط في تفسير القرآن المجيد" (١/ ٣١٣) : " ... وهو قوله : ﴿إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللهُ﴾ [البقرة : ٢١٠] ، أي : يأتيهم عذابُ الله ، أو أمرُ الله ، فحذف المضاف ، ومثل هذا قوله : ﴿فَأَتَاهُمُ الله مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا﴾ [الحشر : ٢] ، أي : عذابُ الله " .

وقال الإمام الواحدي النَّيسابوري في " الوسيط في تفسير القرآن المجيد" (٢/ ٣٤٠) : ﴿أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ﴾ [الأنعام : ١٥٨] ، قال ابن عبَّاس : يتنزَّل أمرُ ربِّك فيهم بالقتل . وقال الزجَّاج : المعنىٰ : أو يأتي إهلاك ربِّك إياهم بعذاب عاجل أو بالقيامة " .

فالإمام الواحدي نقل في تفسيره عن الصَّحابي الجليل ، تُرجمان القرآن : عبد الله بن عبَّاس ، أنَّه أوَّل إتيان الرَّبِّ تعالىٰ بتنزُّل أمره سبحانه فيهم بالقتل . وقال الزَّجَّاج السَّلفي : المعنىٰ : أو يأتي إهلاك ربِّك إياهم بعذاب عاجل أو بالقيامة ... فأين من يدَّعون السَّلفيَّة من هذا التَّأويل السَّلفي وغيره الكثير ؟!!! فقاتل الله الجهلَ ما أرذله...

وقال الإمام الواحدي النَّيسابوري في " الوجيز في تفسير الكتاب العزيز " (١/ ٣٨٣) : ﴿أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ﴾ [الأنعام : ١٥٨] ، أَيْ : أمرُه فيهم بالقتل " .

فالإمام الواحدي بعد أن نقل في النَّصِّ السَّابق بعضاً من تأويلات السَّلف ، ذهب إلىٰ أنَّ معنىٰ الإتيان إنَّما هو إتيان أمره فيهم بالقتل ، أو أن يأتيهم عذاب الله ، أو أمر الله ، فحذف المضاف ، كما في النصِّ الأوَّل ، وهو تأويل متوائم مع ما قاله السَّلف ... فالسَّلف مؤوِّلة ، وسيتبيَّن لك ذلك واضحاً عند اطِّلاعك يا قارئي علىٰ كتابنا الخاصّ بتأويلات السَّلف ... وهو بعنوان : " إعلامُ الخَلَفِ بتأويلات السَّلف..."

وقال الإمام الجُرْجَانِيُّ في " أسرار البلاغة" (ص٢٨٧-٢٨٩) : ومن قدح في المجاز وهمَّ أن يصفه بغير الصِّدق فقد خبط خبطًا عظيماً ، وتهدَّف لما لا يخفىٰ . ولو لم يجب البحث عن حقيقة المجاز والعناية به حتىٰ تُحصل ضروبه ، وتُضبط أقسامه ، إلَّا للسَّلامة من مثل هذه المقالة ، والخلاص ممَّا نحا نحو هذه الشُّبهة ، لكان من حقِّ العاقل أن يتوفَّر عليه ، ويصرف العناية إليه ، فكيف وبطالب الدِّين حاجة ماسَّة إليه من جهات يطول عدُّها ، وللشَّيطان من جانب الجهل به مداخل خفيَّة يأتيهم منها ، فيسرق دينهم من حيث لا يشعرون ، ويُلقيهم في الضَّلالة من حيث ظنُّوا أنَّهم يهتدون ؟ وقد اقتسمهم البلاء فيه من جانبي الإفراط والتَّفريط ، فمن مغرور مُغْرًىٰ بنفيه دَفْعة ، والبراءة منه جملة ، يشمئز من ذكره ، وينبو عن اسمه ، يرىٰ أنَّ

لزوم الظَّواهر فرض لازم ، وضربَ الخيام حولها حتمٌ واجب ، وآخر يغلو فيه ويفرط ، ويتجاوز حدَّه ويخبط ، فيعدل عن الظَّاهر والمعنىٰ عليه ، ويسوم نفسه التَّعمُّق في التَّأويل ولا سبب يدعو إليه.

أمَّا التَّفريط ، فما تجد عليه قوماً في نحو قوله تعالىٰ : **﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ الله﴾** [البقرة : ٢١٠] ، وقوله : **﴿وَجَاءَ رَبُّكَ﴾** [الفجر : ٢٢] ، **﴿الرَّحْمنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوى﴾** [طه : ٥] ، وأشباه ذلك من النُّبوِّ عن أقوال أهل التحقيق . فإذا قيل لهم : إنَّ الإتيان والمجيء ، انتقال من مكان إلىٰ مكان ، وصفة من صفات الأجسام ، وأنَّ الاستواء إنْ حُمل علىٰ ظاهره لم يصح إلَّا في جسم يشغل حَيِّزاً ويأخذ مكاناً ، والله عزَّ وجلَّ خالق الأماكن والأزمنة ، ومنشئ كلّ ما تصحُّ عليه الحركة والنُّقلة والتَّمكُّن والسُّكون ، والانفصال والاتِّصال ، والمماسَّة والمحاذاة ، وأنَّ المعنىٰ علىٰ : **﴿إلَّا أن يأتيهم أمرُ الله﴾** ، و **﴿جاءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾** [هود : ٧٦] ، وأنَّ حقَّه أن يعبّر بقوله تعالىٰ : **﴿فَأَتاهُمُ الْعَذابُ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ﴾** [الزمر : ٢٥] ، وقول الرجل : آتيك من حيث لا تشعر ، يريد : أُنزِل بك المكروهَ ، وأفعلُ ما يكون جزاءً لسوء صنيعك ، في حال غفلة منك ، ومن حيث تأمن حلوله بك . وعلىٰ ذلك قوله :

أتيناهُمُ مِن أيمنِ الشِّقِّ عندهمْ ويأتي الشَّقيَّ الحَيْن من حيث لا يدري

نعم ، إذا قلت ذلك للواحد منهم ، رأيته إن أعطاك الوفاق بلسانه ، فبين جنبيه قلبٌ يتردَّد في الحيْرة ويتقلَّب ، ونفس تَفِرُّ من الصَّواب وتهرُب ، وفكر واقف لا يجيء ولا يذهب ، يُحضره الطَّبيب بما يبرئه من دائه ، ويريه المرشد وجه الخلاص من عنائه ، ويأبىٰ إلَّا نِفارًا عن العقل ، ورجوعاً إلىٰ الجهل . لا يحضره التَّوفيق بقدر ما يعلم به أنَّه إذا كان لا يجري في قوله تعالىٰ : **﴿وَسْئَلِ الْقَرْيَةَ﴾** [يوسف : ٨٢] ، علىٰ الظَّاهر لأجل علمه أنَّ الجماد لا يُسأل ، مع أنَّه لو تجاهل متجاهل فادَّعىٰ أنَّ الله تعالىٰ خلق الحياة في تلك القرية حتىٰ عقلت السُّؤال ، وأجابت عنه ونطقت ، لم يكن قال قولاً يكفر به ، ولم يزد علىٰ شيء يعلم كذبه فيه ، فمن حقِّه أن لا يجثم ها هنا علىٰ الظَّاهر ، ولا يضرب الحجاب دون سمعه وبصره حتىٰ لا يعي ولا يراعىٰ، مع ما فيه ، إذا أخذ علىٰ ظاهره ، من التَّعرُّض للهلاك والوقوع في الشِّرك " .

ومن المؤسف حقَّاً أن يقوم مدَّعو السَّلفيَّة بالعبث بكتاب " أسرار البلاغة " التي لا يجيدون فنَّها ، ولم يعرفوا جماها وأفيائها ... فيشطبون هذه الفقرة برمَّتها من " أسرار البلاغة " للجرجاني ، والسَّبب أنَّها لا تتوائم ولا تتوافق مع ما ذهبوا إليه من إنكار المجاز ، فقد قام المشرفون علىٰ المكتبة الشَّاملة (الإصدار السَّادس) بشطب هذه الفقرة من " أسرار البلاغة " ، وهذه خيانة علميَّة توارثوها جيلاً بعد جيل ، فقد سبق لأسلافهم العبث بكتب أهل العلم ، بل تعدُّوه إلىٰ كتابة كتب نسبوها للعديد من أساطين العلم لنصرة

مذهبهم وباطلهم ... وقد تتبَّعت بحمد الله تعالىٰ جرائمهم العبثيَّة بكتب أهل العلم ، وكذا سرقاتهم لكتب وأفكار العلماء ... وقد صدر من هذه المجموعة الكتاب الأوَّل وهو بعنوان : " كَشْفُ الخَفَا عَنْ عَبَثِ الوَهَّابيَّةِ بِكُتُبِ العُلَمَا " ، والمجموعة الأُخرىٰ الآن في طريقها للنَّشر ، بإذن الله تعالىٰ...

وقال الإمام أبو عبد الله الحسين بن محمَّد الدّامغاني في " قاموس القرآن أو إصلاح الوجوه والنظائر في القرآن الكريم" (ص١٤) : **﴿أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ﴾** [الأنعام : ١٥٨] ، أي : يُهلك ربُّك " .

وقال الإمام أبو سعيد عبد الرَّحمن بن محمَّد المأمون المتولِّي الشَّافعي في " المغني " (ص٣٣) : **﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾** [البقرة : ٢١٠] ... والمراد به : جاء أمرُ ربِّك ... ويأتيهم أمرُ الله . والدَّليل عليه أنَّ الله تعالىٰ ذكر في سورة الأنعام إخباراً عن إبراهيم : أنَّه استدلَّ بأفول الشَّمس والقمر والكواكب علىٰ أنَّها ليست بآلهة ، وتبرَّأ منها ، ولو كان البارئ يجوز عليه الإتيان والمجيء لبطلت الدّلالة ".

وقال الإمام السَّمعاني في " تفسير القرآن "(١/ ٢١٠) : " قَوْله تَعَالَىٰ : **﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ﴾** [البقرة : ٢١٠] ، وَالْآيَة من الْمُتَشَابهات " .

فالإمام أبو المظفَّر السَّمعاني يرىٰ كغيره من علماء الأمَّة أنَّ الآية من المتشابه ، وبما أنَّها من المتشابه ، إذاً فالموقف حيالها : إمَّا بالتَّأويل الإجمالي ، بلا كيْف ولا معنىٰ ، كما ذهب جمهور السَّلف وبعض الخلف ، وإمَّا بالتَّأويل التَّفصيلي ، كما ذهب جمهور الخلف وبعض السَّلف ، مع تنزيه الله تعالىٰ عن مشابهة الحوادث المفهوم من قول الله تعالىٰ : **﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾** [الشورىٰ: ١١] .

وقال الإمام الرَّاغب الأصفهاني في " المفردات في غريب القرآن" (ص٦٠) : " ... الإتيان: مجيء بسهولة ، ومنه قيل للسَّيل المارِّ علىٰ وجهه : أَتِيّ وأَتَاوِيّ ، وبه شبّه الغريب فقيل : أتاويّ.

والإتيان يقال للمجيء بالذَّات وبالأمر وبالتَّدبير ، ويقال في الخير وفي الشَّرِّ ، وفي الأعيان والأعراض ، نحو قوله تعالىٰ : **﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتاكُمْ عَذابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ﴾** [الأنعام : ٤٠] ، وقوله تعالىٰ : **﴿أَتى أَمْرُ اللَّهِ﴾** [النحل : ١] ، وقوله : **﴿فَأَتَى الله بُنْيانَهُمْ مِنَ الْقَواعِدِ﴾** [النحل : ٢٦] ، أي : بالأمر والتَّدبير ، نحو : **﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾** [الفجر : ٢٢] ، وعلىٰ هذا النَّحو قول الشَّاعر: أتيت المروءة من بابها ، **﴿فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لا قِبَلَ لَهُمْ بِها﴾** [النمل : ٣٧] .

وقال الإمام الرَّاغب الأصفهاني في " المفردات في غريب القرآن" (ص٣١٤) : **﴿أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ﴾** [البقرة : ٢١٠] ، أي : عذابُه يأتيهم " .

وقال الإمام الرَّاغب الأصفهاني في " تفسير الرَّاغب الأصفهاني " (١/ ٤٣٤-٤٣٥) : " ... قد تصوَّر بعضُ النَّاس ما لا يليق بصفات الله تعالىٰ في لفظ المجيء والإتيان الذي وصف الله – عزَّ وجلَّ به بنفسه في هذه الآية ، وفي قوله : **﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللهُ﴾** [البقرة : ٢١٠] ، وقوله : **﴿فَأَتاهُمُ الله مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا﴾** [الحشر : ٢] ، وقوله : **﴿فَأَتَى الله بُنْيانَهُمْ مِنَ الْقَواعِدِ﴾** [النحل : ٢٦] ، وقوله : **﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾** [الفجر : ٢٢] ، وذلك لأمرين :

أحدهما : لقصورهم عن معرفة البارئ عزَّ وجلَّ.

والثَّاني : لضيق مجالهم في مجاري الألفاظ ومجازها ، وليس يقال الإتيان والمجيء لانتقال الحي المتحرِّك من مكان إلىٰ مكان فقط ، بل قد يقال لقصد القاصد بعنايته أمراً يستصلحه ، كقوله : أتيت المروة من بابها ، ويقال أيضاً لاستيفاء فعل يتولَّاه ، كقولك : أتيت علىٰ ما في الكتاب ، وقد يقال أيضاً لفعل يفعله علىٰ يد من يستكفيه ، كقولك : إنَّ الأمير ناحية كذا بجيش عظيم ، ومنه : **﴿فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لا قِبَلَ لَهُمْ بِها﴾** [النمل : ٣٧] ، ولما جرت العادة أنَّ الرَّئيس يتولَّىٰ الأمير بمن يستكفيه تارة وبنفسه تارة ، وأن لا يتولَّىٰ بنفسه إلَّا ما كان أكبر وأعظم ، فلمَّا أراد الله تعالىٰ أن يبيِّن العذاب الذي لا غاية وراءه ، جعله منسوباً إلىٰ نفسه وإتياناً له ، وعلىٰ هذا النَّحو جعل كلَّ ما يستعظمه فعلاً له نحو خلق أدم بيده ، وعلىٰ هذا قوله : **﴿وَقَدِمْنا إِلى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْناهُ هَباءً مَنْثُوراً ﴾** [الفرقان : ٢٣] ، ووجه آخر ، قد أشير إليه في صدر الكتاب ، وهو أنَّ الفعل كما يُنسب إلىٰ المباشر له ، ينسب إلىٰ ما هو سببه ومسهله ، نحو أن يقال : **﴿الرَّحْمنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾** [الرَّحمن : ١-٢] ، وإنَّما علمنا من علَّمه النَّبي ، وعلم النَّبيَّ جبريلُ ، وجبريل علَّمه الله عزَّ وجلَّ ، فصحَّ أن يُنسب إليه ، ولهذا قد يُنسب فعل واحد تارة إلىٰ الله عزَّ وجلَّ ، وتارة إلىٰ غيره ، نحو : **﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ﴾** [السجدة : ١١] ، وقال تعالىٰ : **﴿الله يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِها﴾** [الزمر : ٤٢] .

وقال الإمام البغوي في " معالم التَّنزيل في تفسير القرآن " (١/ ٢٦٩) في تفسيره لآية الإتيان : " ... وَالْأَوْلَىٰ فِي هَذِهِ الْآيَةِ وَمَا شَاكَلَهَا : أَنْ يُؤْمِنَ الْإِنْسَانُ بِظَاهِرِهَا وَيَكِلَ عِلْمَهَا إِلَىٰ اللَّهِ تَعَالَىٰ ، وَيَعْتَقِدَ أَنَّ اللَّهَ عَزَّ اسمه منزَّه عن سمات الحدوث ، عَلَىٰ ذَلِكَ مَضَتْ أَئِمَّةُ السَّلف وَعُلَمَاءُ السُّنَّة ، قَالَ الْكَلْبِيُّ : هَذَا من العلم المكتوم الذي لا يفسَّر ، والله أعلم بمراده منه ، وَكَانَ مَكْحُولٌ ، والزُّهري ، وَالْأَوْزَاعِيُّ ، وَمَالِكٌ ، وَابْنُ الْمُبَارَكِ ، وَسُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ ، وَاللَّيْثُ بْنُ سَعْدٍ ، وَأَحْمَدُ ، وَإِسْحَاقُ ، يَقُولُونَ فيه وفي أمثاله : أَمِرُّوهَا

كَمَا جَاءَتْ بِلَا كَيْفٍ ، قَالَ سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ : كُلُّ مَا وَصَفَ الله بِهِ نَفْسَهُ فِي كِتَابِهِ فَتَفْسِيرُهُ : قِرَاءَتُهُ وَالسُّكُوتُ عنه ، لَيْسَ لِأَحَدٍ أَنْ يُفَسِّرَهُ إِلَّا الله تَعَالَىٰ وَرَسُولُهُ" .

وقال الإمام البغوي في " معالم التَّنزيل في تفسير القرآن " (٣/ ٢٠٧) : ﴿أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ﴾ [الأنعام : ١٥٨] ، بِلَا كَيْفٍ ، لِفَصْلِ الْقَضَاءِ بَيْنَ خَلْقِهِ فِي مَوْقِفِ الْقِيَامَةِ " .

وعلىٰ ضوء ما تقدم فإنَّ عقيدة السَّلف الحقَّة كانت كما يقول البغوي : أَنْ يُؤْمِنَ الْإِنْسَانُ بِظَاهِرِ لفظها ، وَيَكِلَ العِلْمَ بمعناها إِلَىٰ اللَّهِ تَعَالَىٰ ، وَيَعْتَقِدَ أَنَّ اللَّهَ عَزَّ اسمه منزَّه عن سمات الحدوث ...ومن المعلوم أنَّ ابن تيمية امتدح تفسير الإمام البغوي ، وحكم بأنَّه من أسلم التَّفاسير من البدعة ...

فقد سئل ابن تيمية : " أَيُّ : التَّفَاسِيرِ أَقْرَبُ إِلَىٰ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ: الزَّمَخْشَرِيُّ ، أَمْ الْقُرْطُبِيُّ ، أَمْ الْبَغَوِيّ ، أَوْ غَيْرُ هَؤُلَاءِ ... وأَمَّا التَّفَاسِيرُ الثَّلَاثَةُ الْمَسْئُولُ عَنْهَا ، فَأَسْلَمُهَا مِنْ الْبِدْعَةِ وَالْأَحَادِيثِ الضَّعِيفَةِ : الْبَغَوِيّ ، لَكِنَّهُ مُخْتَصَرٌ فِي تَفْسِيرِ الثَّعْلَبِيِّ ، وَحَذَفَ مِنْهُ الْأَحَادِيثَ الْمَوْضُوعَةَ ، وَالْبِدَعَ الَّتِي فِيهِ ، وَحَذَفَ أَشْيَاءَ غَيْرَ ذَلِكَ " . انظر : الفتاوىٰ الكبرىٰ ، ابن تيمية الحراني (٥/ ٨٤) ، دار الكتب العلمية .

وقال الإمام ابن عقيل البغدادي في " الوَاضِح في أُصُولِ الفِقه"(٤/ ٧) : ﴿أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ﴾ [الأنعام : ١٥٨] ، وأنَّه ليس بالانتقال المشاكلِ لأُفولِ النُّجومِ ... " .

فالإمام ، العَلاَّمَةُ ، البَحْرُ ، شَيْخُ الحنابلَة !!! أَبُو الوَفَاءِ بنِ عَقِيلِ بنِ عَبْدِ اللهِ البَغْدَادِيّ ، الحَنْبَلِيّ ، المُتَكَلِّم ، ينصُّ علىٰ وجوب تنزيه الله تعالىٰ عن الحركة والانتقال ... فما رأي من يدَّعون السَّلفيَّة ؟!!

وقال الإمام ابن رشد القرطبي في " البيان والتَّحصيل والشَّرح والتَّوجيه والتَّعليل لمسائل المستخرجة" (١٨/ ٥٠٦-٥٠٧) : " ... ونحو ذلك من الأحاديث التي يقتضي ظاهرها التَّشبيه ، مخافة أن يُتحدَّث بها ، فيكثر التَّحدُّث بها ، وتشيع في النَّاس ، فيسمعها الجهَّال الذين لا يعرفون تأويلها ، فيسبق إلىٰ ظنونهم التَّشبيه بها . وسبيلها- إذا صحَّت الرِّوايات بها- أن تتأوَّل علىٰ ما يصحُّ ممَّا ينتفي به التَّشبيه عن الله عزَّ وجلَّ بشيء من خلقه ، كما يصنع بما جاء في القرآن ممَّا يقتضي ظاهره التَّشبيه ، وهو كثير ، كالإتيان في قوله عزَّ وجلَّ : ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ﴾ [البقرة : ٢١٠] ، والمجيء في قوله عزَّ وجلَّ : ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر : ٢٢] ، والاستواء في قوله : ﴿ثُمَّ اسْتَوى عَلَى الْعَرْشِ﴾ [الأعراف : ٥٤] . وكما يفعل أيضاً بما جاء من ذلك في السُّنن المتواترة ، كالضَّحك ، والتَّنزيل ، وشبه ذلك ممَّا لم يكره روايتها لتواتر الآثار بها ، لأنَّ سبيلها كلّها في اقتضاء ظاهرها التَّشبيه وإمكان

تأويلها على ما ينتفي به تشبيه الله عزَّ وجلَّ بشيء من خلقه سواء . وأبعدها كلّها من التَّشبيه ما جاء من أنَّ عرش الرَّحمن اهتزَّ لموت سعد بن معاذ ، لأنَّ العرش مخلوقٌ خلق من خلق الله عزَّ وجلَّ ، فلا يستحيل عليه الحركة والاهتزاز ، وإضافته إلى الله تعالى إنَّما هي بمعنى التَّشريف له ، كما يقال : بيت الله وحرمه ، لا بمعنى أنَّه يحلُّ فيه وموضع لاستقراره ، إذ ليس في مكان ولا مستقرّاً بمكان ، فقد كان قبل أن يخلق المكان ، فلا يلحقه عزَّ وجلَّ باهتزاز عرشه ما يلحق من اهتز عرشه من المخلوقين وهو جالس عليه من تحرُّكه بحركته ، تعالى الله عن ذلك علوّاً كبيراً . ويُحتمل أن يكون الكلام مجازاً فيكون المراد بتحرُّك العرش : تحرُّك حَمَلَتُهُ استبْشاراً وفرحاً بقدوم روحه ، وهذا جائز في كلام العرب أن يقال : اهتزَّ المجلس لقدوم فلان عليه ، أي : اهتز أهله لقدومه ، كقوله عزَّ وجلَّ : ﴿وَسْئَلِ الْقَرْيَةَ﴾ [يوسف : ٨٢] ، يريد أهلها ، ومثل قول النَّبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: " هذا جبل يحبُّنا ونحبّه " ، أي : يحبُّنا أهلُه ونحبُّ أهله . وقد قيل : إنَّ المراد باهتزاز العرش : سريره الذي حُمل عليه ؛ وهذا يردُّه النَّص الذي في بعض الآثار من إضافة العرش الذي اهتزَّ بموته إلى الرَّحمن عزَّ وجلَّ " . وحديث : " هذا جبل يحبُّنا ونحبّه" . أخرجه ابن حبان في الصحيح (٩/ ٤٢ برقم ٣٧٢٥) ، قال الأرنؤوط : " إسناده صحيح على شرط الشيخين، والقواريري: اسمه عبيد الله بن عمر وأخرجه مسلم ١٣٩٣ في الحج: باب أحد جبل يحبنا ونحبه، وأبو يعلى ٣١٣٩ عن عبيد الله بن عمر بهذا الإسناد. وأخرجه أحمد ٣/ ١٤٠، وابن شبة في تاريخ المدينة ١/ ٨١، والبخاري ٤٠٨٣ في المغازي: باب أحد جبل يحبنا ونحبه، ومسلم ١٣٩٣ من طرق عن قرة بن خالد به. وأخرجه مطولاً ومختصراً: مالك ٢/ ٨٨٩ في الجامع: باب ما جاء في تحريم المدينة، وعبد الرزاق ١٧١٧٠، وأحمد ٣/ ١٤٩ و ٢٤٠ و ٢٤٢- ٢٤٣، وابن شبة في تاريخ المدينة ١/ ٨١، والبخاري ٢٨٨٩ في الجهاد: باب فضل الخدمة في الجهاد، و ٢٨٩٣ باب من غزا بصبي للخدمة، و ٣٣٦٧، و ٣٣٦٧ في الأنبياء: باب رقم ١٠، و ٤٠٨٤، و ٥٤٢٥ في الأطعمة: باب الحيس، و ٦٣٦٣ في الدعوات: باب التعوذ من غلبة الرجال، و ٧٣٣٣ في الاعتصام: باب ما ذكر النبي صلى الله عليه وسلم وحض على اتفاق أهل العلم، والترمذي ٣٩٢٢ في المناقب: باب ما جاء في فضل المدينة، من طرق عن عمرو مولى المطلب، عن أنس. وأخرجه ابن ماجه ٣١١٥ في المناسك: باب فضل المدينة، عن هناد بن السريّ، عن عبدة، عن محمد بن إسحاق، عن عبد الله بن مِكْنَف، عن أنس، وزاد فيه: "وهو على تُرعة من ترع الجنة، وعَير على ترعة من ترع النار" . وفي الباب عن أبي حميد الساعدي عند مسلم ١٣٩٢، وابن شبة ١/ ٨٢. وعن أبي هريرة عند أحمد ٢/ ٣٣٧، ٣٨٧، وابن شبة ١/ ٨٢، وعن عروة مرسلاً عند مالك ٢/ ٢٩٣، وعبد الرزاق ١٧١٦٩، وابن شبة ١/ ٨٢. وانظر "تاريخ المدينة المنورة" لابن شبة ١/ ٧٩-٨٦ " .

وكلام الإمام ابن رشد القرطبي هذا يرشد إلى:

-١أنَّ سبيل النصوص الموهمة لتشبيه الله تعالى بخلقه كالإتيان والنُّزول : أن تتأوَّل على ما يصحُّ ممَّا ينتفي به التَّشبيه عن الله عزَّ وجلَّ بشيء من خلقه...

٢-أنَّ إضافة العرش إلىٰ الله تعالىٰ إنَّما هي بمعنىٰ التَّشريف له ، كما يقال : ناقة الله وبيت الله ، لا بمعنىٰ أنَّه يحلُّ فيه وموضع لاستقراره ، فالعرش مخلوق من مخلوقات الله تعالىٰ ، والله تعالىٰ كان ولا مكان ، وهو علىٰ ما كان ، لا يحتاج إلىٰ شيء من خلقة...

وقال الإمام ابن العربي المالكي في العواصم من القواصم" (النَّصُّ الكامل) (ص٢٠٨-٢١١) :

" قاصمة:

وقد بينَّا في غير موضع أنَّ الكائدين للإسلام كثير ، والمقصِّرون فيه كثير ، وأولياؤه المشتغلون به قليل ، فممَّن كاده : الباطنيَّة ، وقد بينَّا جملة أحوالهم . وممَّن كاده : الظَّاهريَّة ، وهم طائفتان:

إحداهما : المتَّبعون للظَّاهر في العقائد والأصول.

الثَّانية : المتَّبعون للظَّاهر في الأصول.

وكلا الطَّائفتين في الأصل خبيثة ، وما تفرَّع عنهما خبيث مثلهما ، فالولد من غير نكاح لغية ، والحيَّة لا تلد إلَّا حيَّة.

وهذه الطَّائفة الآخذة بالظَّاهر في العقائد هي في طرف التَّشبيه ، كالأولىٰ في التَّعطيل ، وقد بُليتُ بهم في رحلتي وتعرَّضوا لي كثيراً دون بُغيتي ، وأكثر ما شاهدتهم بمصرَ والشَّام وبغداد .

يقولون : إنَّ الله تعالىٰ أعلم بنفسه وصفاته ومخلوقاته منَّا ، وهو معلِّمنا ، فإذا أخبرنا بأمره آمنَّا به كما أخبر ، واعتقدناه كما أمر.

وقالوا حين سمعوا : ﴿**هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ** ﴾ [البقرة : ٢١٠] ، و ﴿**وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا**﴾ [الفجر : ٢٢] ، و ﴿**فَأَتَى الله بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ**﴾ [النحل : ٢٦] ، و " ينزلُ ربُّنا كلَّ ليلة إلىٰ السَّماء الدُّنيا " : أنَّه يتحرَّك ، وينتقل ، ويجيء ، ويذهب من موضع إلىٰ موضع .

ولمَّا سمعوا قوله : ﴿**الرَّحْمنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوى**﴾ [طه : ٥] ، قالوا : أنَّه جالسٌ عليه ، متَّصل به ، وأنَّه أكبر بأربع أصابع ، إذ لا يصحُّ أن يكون أصغر منه ، لأنَّه العظيم ، ولا يكون مثله لأنَّه ﴿**لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ**﴾ [الشورىٰ: ١١] ، فهو أكبر من العرش بأربع أصابع .

ولقد أخبرني جماعة من أهل السُّنَّة بمدينة السَّلام أنَّه ورد بها الأستاذ أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن القُشيري الصُّوفي من نيسابور ، فعقد مجلساً للذِّكر ، وحضر فيه كافَّة الخلق ، وقرأ القارئ ﴿**الرَّحْمنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوى**﴾ [طه : ٥] ، قال لي أخصّهم : فرأيت – يعني الحنابلة – يقومون في أثناء المجلس ، ويقولون : قاعدٌ قاعدٌ بأرفع صوتٍ وأبعده مدىٰ ، وثار إليهم أهل السُّنَّة من أصحاب القُشيري ومن أهل الحضرة ،

وتثاور الفئتان ، وغلبت العامَّة ، فأجحروهم المدرسة النِّظاميَّة ، وحصروهم فيها ، فرموهم بالنشَّاب ، فمات منهم قوم ، وركب زعيم الكفاة ، وبعض الدِّارية ، فسكَّنوا ثورتهم ، وأطفوا نورتهم.

وقالوا : أنَّه يتكلَّم بحرف وصوت ، وعزوه إلىٰ أحمد بن حنبل ، وتعدَّىٰ بهم الباطل إلىٰ أن يقولوا : إنَّ الحروف قديمة!!

وقالوا : أنَّه ذو يد ، وأصابع ، وساعد ، وذراع ، وخاصرة ، وساق ، ورجل يطأ بها حيث شاء ، وأنَّه يضحك ، ويمشي ، ويهرول.

وأخبرني من أثق به من مشيختي أنَّ أبا يعلىٰ محمَّد بن الحسين الفرَّاء - رئيس الحنابلة ببغداد — كان يقول إذا ذكر الله تعالىٰ وما ورد من هذه الظَّواهر في صفاته ، يقول : ألزموني ما شئتم فإنِّي ألتزمه إلَّا اللحْيَة والعورة!!

وانتهىٰ بهم القول إلىٰ أن يقولوا : إن أراد أحد أن يعلم الله فلينظر إلىٰ نفسه فإنَّه الله بعينه ، إلَّا أنَّ الله منزَّه عن الآفات قديم لا أوَّل له دائم لا يفنىٰ ، لقول النَّبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " إنَّ الله خلق آدم علىٰ صورته " ، وفي رواية : " علىٰ صورة الرَّحمن " ، وهي صحيحة . فلله الوجه بعينه لا ننفيه ولا نتأوَّله ، إلىٰ محالات لا يرضىٰ بها ذو نهىٰ.

وكان رأس هذه الطَّائفة بالشَّام أبو الفرج الحنبلي بدمشق ، وابن الرّميلي المحدِّث ببيت المقدس ، والقطرواني بنواحي نابلس ، والفاخوري بديار مصر ، ولحقت منهم ببغداد أبا الحسين بن أبي يعلىٰ الفرَّاء ، وكلّ منهم ذو أتباع من العوام !!! ، جمعاً غفيراً ، وعصبة عصيَّة عن الحقِّ ، وعصبيَّة علىٰ الخلق.

ولو كانت لهم أفهام ورزقوا معرفة بدين الإسلام ، لكان لهم من أنفسهم وازع ، لظهور التَّهافت علىٰ مقالاتهم ، وعموم البطلان لكلماتهم . ولكن الفدامة - ضعف الفهم وعدم امتلاك الحجّة - استولت عليهم ، فليس لهم قلوب يعقلون بها ، ولا أعين يبصرون بها ، ولا آذان يسمعون بها ، أولئك كالأنعام بل هم أضلّ . ولقد أخبرني غير واحد عن أبي حامد أحمد بن أبي طاهر الاسفراييني أنَّه خرج يوماً علىٰ أصحابه مسروراً فسألوه ، فقال : ناظرت اليوم عاميَّاً فظهرت عليه . فقيل له : وأنت تظهر علىٰ الأيمَّة ، فكيف تفرح بالظُّهور علىٰ العوام ؟ فقال : العالم يردُّه علمه وعقله ودينه ، والعامِّي لا يردُّه فهمٌ ولا يردعه دين ، فغلبته نهزة ونادرة.

قال القاضي أبو بكر رضي الله عنه : وأنبئكم بغريبة ، أنِّي ما لقيت طائفة إلَّا وكانت لي معهم وقفة في مقالاتهم - عصمني الله بالنَّظر بتوفيقه منها — إلَّا الباطنيَّة والمشبِّهة ، فإنَّها زعنفة تحقَّقت أنَّه ليس وراءها

معرفة . فقذفتْ نفسي كلامها من أوَّل مرَّة ، وسائر الطَّوائف لا بدَّ أن يقف الفكر عقلاً وشرعاً من أي وجه طلبت الدَّليل حتىٰ يرشده العقل والشَّرع إلىٰ مأخذ النَّجاة ."

وقال الإمام ابن العربي المالكي في " العواصم من القواصم " (النَّصُّ الكامل) (ص٢١٣-٢١٤) أيضاً في كامه علىٰ المُشبِّهة المُجسِّمة من المتمسلفة : " عاصمة:

قال القاضي أبو بكر رضي الله عنه : وقبل وبعد ، فينبغي أنَّ تعلموا أنَّ هذه الطَّائفة في حفظ ظاهر هذه الأخبار ، لا يقال : أنَّها بنت قصراً ، أو هدمت مصراً ، بل هدمت الكعبة ، واستوطنت البيعة ، وحذار أن تنشؤوا معهم دليلاً ، ولا تستأنفوا معهم من الكلام نقيراً ولا فتيلاً ، فليسوا لذلك أهلاً ، ولا ينجع فيهم أن ينشر ذلك معهم ، إلَّا أن تدخل إليهم من بابهم ، وهو أيسر طريق إليهم في الكشف لضلالهم ، ولا تلتزم معهم مذهباً إلَّا أن تبطل رأيهم ، ولا يظهر لك اعتقاد إلَّا ردّ الكلام إلىٰ القرآن والسُّنَّة ، وما أجمعت عليه هذه الأمَّة ، وهم قد خالفوا الكلَّ ، فالمهم إفساد مقالتهم ، وبيان ضلالتهم ، فيقال لهم : ما لكم أصحاب إلَّا اليهود ، فإنَّها ألفت في التَّوارة : حين خلق الله السَّموات والأرض ، ذكر فيه أنَّه خلقها في ستَّة أيام ، واستراح يوم السَّبت ، فكذَّبهم الله في قوله فقال : **﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَما بَيْنَهُما فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَما مَسَّنا مِنْ لُغُوبٍ﴾** [ق : ٣٨] ، فأخذوا لفظ الرَّاحة بظاهره ، وهو إعفاء النَّفس من كدِّ التَّعب ، بعد تسخيرها فيه ، واعتقدته بحاله فكفَّرهم الله ، وكذبهم . ثمَّ نعطف عنان القول ، فنقول : قوله : **﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ﴾** [البقرة : ٢١٠] ، وأنتم قد قلتم : أنَّه أكبر من العرش مقداراً ، كيف يشتمل عليه ظلّ الغمام ؟ وكيف يأتي الحقّ مع الخلق يوم الفصل أو يأتي البنيان وهو أكبر من العرش ، والعرش أكبر من السَّموات والأرض ؟ وقوله : **﴿الرَّحْمنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوى﴾** [طه:٥] ، يقال لهم : قال الله : **﴿الرَّحْمنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوى﴾** [طه: ٥] ، ما العرش ؟ وما معنىٰ استوىٰ ؟ وينبغي أن تعلموا كلّكم أنتم وهم قبل وبعد أن بناء " ظ هـ ر" مفيد في العربيَّة لكلِّ شيء خرج عن حدِّ الخفاء والجهل إلَّا العلم ، كان من المحسوس يخفىٰ علىٰ البصر والسَّمع وسائر الحواس ، أو من المعاني يخفىٰ علىٰ العقل . فاحذروا من يأخذ الظَّاهر فيجعله في حدِّ الباطن بتأويله له ، أو يحكم بظاهر علىٰ معنىٰ هو خفي ، فلما قال : **﴿الرَّحْمنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوى﴾** [طه : ٥] ، كان معناها هنا في المطلوب ثلاثة معان : معنىٰ الرَّحمن ، ومعنىٰ استوىٰ ، ومعنىٰ العرش ، فأمَّا الرَّحمن فمعلوم لا خلاف فيه ولا كلام . وأمَّا العرش فهو في العربيَّة لمعان فأيّها تريدون ، وكذا استوىٰ عليه ، يحتمل خمسة عشر معنىٰ في اللغة ، فأيّها تريدون ؟ أو أيّها تدّعون ظاهراً منها ؟ ولم قلتم : إنَّ العرش ها هنا المراد به مخلوق مخصوص ؟ فادَّعيتموه علىٰ العربيَّة

والشَّريعة ، ولمَ قلتم : إنَّ معنىٰ استوىٰ ، قعد أو جلس ؟ فتحكمون باتِّصاله به ، ثمَّ تقولون أنَّه أكبر منه من غير ظاهر ، ولم يكن عظيماً بقدر جسمي حتىٰ تقولوا : أنَّه أكثر أجزاء منه . ثمَّ تحكمكم بأنَّه أكبر منه بأربع أصـــــابع ، تحكُّم لا معنىٰ له " .

فكلام الإمام ابن العربي حمل تحذيراً لعموم الأمَّة من فتن المشبِّهة والمجسِّمة ، أولئك النَّفر الذين أخذوا بظاهر معنىٰ الألفاظ الموهمة للتَّشبيه ، وفسَّروا بها جميع الألفاظ المضافة إلىٰ الله تعالىٰ في الكتاب والسُّنَّة ، وبيَّن ضررهم وخطرهم ... وممَّا يؤسف له : أن يقوم محب الدِّين الخطيب – غفر الله له – بتلخيص كتاب : " العواصم من القواصم " للإمام ابن العربي ، فيهدم بتلخيصه وتبخيسه هذا الكتاب الرَّائع ، الذي شوَّهه ببتر جواهره التي لا تستقيم معها عقائد من يدَّعون السَّلفيَّة ... وهذا هو صنيعهم مع الكُتب التي تُعارض فكرهم من أساسه ، فتارة يشوِّهونها بالتَّلخيص أو ما يسمُّونه بالتَّهذيب ، وتارة بدعوىٰ التَّحقيق الذي غدا بسبب التَّشويه المتعمَّد تلفيقاً لا تحقيقاً ، فإلىٰ الله وحده المشتكىٰ ، ولذلك يجب الحذر عند شراء أو قراءة أي كتاب حقَّقوه أو حكَّكوه ... وكذلك فعل الشَّيخ الألباني بـ " كتاب العلو للعليِّ الغفَّار " للذَّهبي ...فحذف منه ما يُضحك الثَّكلىٰ ... ولو اطَّلع القارئ العاديّ علىٰ النُّصوص المحذوفة لاندهش من حشوه بتلك النُّصوص التي كان بوضعها في كتابه كحاطب ليل ... وهذا هو صنيعهم في كلِّ كتاب حقَّقوه !!! أو طبعوه !!! أو لخَّصوه...

وقال الإمام ابن عطيَّة الأندلسي المحاربي في " المحرَّر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز" (١/ ٢٨٣) : " وقوله تعالىٰ : ﴿**هَلْ يَنْظُرُونَ**﴾ [البقرة : ٢١٠] الآية ، الخطاب للنَّبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وهَلْ من حروف الابتداء كأما ، ويَنْظُرُونَ معناه ينتظرون . والمراد هؤلاء الذين يزلون ، والظُّلل جمع ظُلَّة وهي ما أظلَّ من فوق ، وقرأ قتادة ، والضَّحَّاك " في ظلال " ، وكذلك روىٰ هارون بن حاتم ، عن أبي بكر ، عن عاصم هنا ، وفي الحرفين في الزُّمر . وقال عكرمة: ﴿**ظُلَلٍ**﴾ طاقات ، وقرأ الحسن ، ويزيد بن القعقاع ، وأبو حيوة " والملائكة " بالخفض عطفاً علىٰ الْغَمامِ ، وقرأ جمهور النَّاس بالرَّفع عطفا علىٰ الله ، والمعنىٰ : يأتيهم حُكم الله وأمرُه ونهيهُ وعقابهُ إيَّاهم ، وذهب ابن جريج وغيره إلىٰ أنَّ هذا التَّوعُّد هو بما يقع في الدُّنيا .

وقال قومٌ : بل هو توعُّد بيوم القيامة ، وقال قومٌ : قوله : ﴿**إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللهُ**﴾ [البقرة : ٢١٠] ، وعيد بيوم القيامة " .

وقال الإمام ابن عطيَّة الأندلسي في "المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز" (٢/ ٤٣٠) : " وقوله : ﴿**أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ**﴾ [الأنعام : ١٥٨] ، قال الطَّبري : لموقف الحساب يوم القيامة ، وأسند ذلك إلىٰ قتادة ، وجماعة

من المتأوِّلين . ويحكي الزَّجَّاج : أنَّ المراد بقوله : ﴿أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ﴾ [الأنعام : ١٥٨] ، أي : العذاب الذي يسلطه الله في الدُّنيـــا علىٰ من يشاء من عباده ، كالصَّيحات ، والرَّجفات والخسف ، ونحوه .

قال القاضي أبو محمَّد : وهذا الكلام علىٰ كلِّ تأويل ، فإنما هو بحذف مضاف ، تقديره : أمرُ ربِّك ، أو بطشُ ربِّك ، أو حسابُ ربِّك ، وإلَّا ، فالإتيان المفهوم من اللغة مستحيل في حقِّ الله تعالىٰ.

ألا ترىٰ أنَّ الله تعالىٰ يقول : ﴿فَأَتَاهُمُ الله مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا﴾ [الحشر : ٢] ، فهذا إتيان قد وقع ، وهو علىٰ المجاز وحذف المضاف " .

وقال الإمام محمود بن أبي الحسن بن الحسين النَّيسابوري أبو القاسم ، نجم الدِّين في " إيجاز البيان عن معاني القرآن" (١٤٨/١) : ﴿يَأْتِيَهُمُ اللهُ﴾ [البقرة : ٢١٠] ، أي : آياته ، أو أمرُه ، كقوله : ﴿أْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ " .

﴿وقال الإمام محمود بن أبىٰ الحسن النَّيسابوري " إيجاز البيان عن معاني القرآن" (٣١٦/١) : ﴿أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ﴾ [الأنعام : ١٥٨] ، يصير الأمر كلُّه لله " .

وقال الإمام ابن الجوزي في " زاد المسير في علم التَّفسير" (٩٥/٢) : " قوله تعالىٰ : ﴿أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ﴾ [الأنعام : ١٥٨] ، قال الحسن : أو يأتي أمْرُ ربِّك . وقال الزَّجَّاج: أو يأتيَ إهلاكه وانتقامه ، إمَّا بعذاب عاجل ، أو بالقيامة " .

وقال الإمام ابن الجوزي الحنبلي في " دفع شبه التشبيه بأكف التنزيه" (ص١٤١) : " قوله تعالىٰ : ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللهُ فِي ظُلَلٍ﴾ [البقرة : ٢١٠] ، أي : بظلل ، وكذلك قوله تعالىٰ : ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر : ٢٢] .

قلت : قال القاضي أبو يعلىٰ عن أحمد بن حنبل أنَّه قال في قوله تعالىٰ : ﴿يَأْتِيَهُمُ﴾ [البقرة : ٢١٠] ، قال : المراد به قدرته وأمره ، قال : وقد بيَّنه في قوله تعالىٰ : ﴿أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ [النحل : ٣٣] ، ومثل هذا في القرآن : ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر : ٢٢] ، قال : إنَّما هو قدرته " .

وقال الإمام ابن الجوزي الحنبلي في " دفع شُبه التَّشبيه بأكفِّ التَّنزيه " (ص٢٤٣) : " قال ابن حامد يأتي يوم القيامة إلىٰ المحشر ، لقوله تعالىٰ : ﴿يَأْتِيَ رَبُّكَ﴾ [الأنعام : ١٥٨] ، وقت نزوله إلىٰ السَّماء . وقال القاضي أبو يعلىٰ : الآية تشهد لحديث عمر ، وهي قوله تعالىٰ : ﴿يَأْتِيَهُمُ اللهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ﴾ [البقرة : ٢١٠] .

قلت – ابن الجوزي – : ولا يدري أنَّ المعنىٰ : يأتيهم الله بظلل.

قال أبو حـــامد : ولا يمتنع إمراره علىٰ ظاهره ، لأنَّه لا بدَّ من مشيه وإنتهائه إلىٰ مجلسه لا عن انتقال .

قلت : من يقول : يُحمل هذا على ظاهره ، كيف يقول بلا انتقال ؟ وإنَّما يقول هذا إرضاء للجهَّال ، وهل المشي إلَّا انتقال ؟!! " .

وقال الإمام ابن الجوزي في "زاد المسير في علم التفسير" (١/ ١٧٤-١٧٥) : " قوله تعالى : ﴿إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللهُ﴾ [البقرة : ٢١٠] ، كان جماعة من السَّلف يُمسكون عن الكلام في مثل هذا . وقد ذكر القاضي أبو يعلى عن أحمد أنَّه قال : المراد به : قدرته وأمرُه . قال : وقد بيَّنه في قوله تعالى : ﴿أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ [النحل : ٣٣] .

قوله تعالى : ﴿فِي ظُلَلٍ﴾ [البقرة : ٢١٠] ، أي : بظلل . والظُّلل : جمع ظلَّة ، ﴿الْغَمَامِ﴾ [البقرة: ٢١٠] : السَّحاب الذي لا ماء فيه . قال الضَّحَّاك : في قطع من السَّحاب . ومتى يكون مجيء الملائكة ؟ فيه قولان : أحدهما : أنَّه يوم القيامة أيضاً ، وهو قول الجمهور . والثَّاني : أنَّه عند الموت ، قاله قتادة " .

وكلام ابن الجوزي السَّابق يدور حول المنهجين الصَّحيحين لعلماء الأمَّة في مسألة المتشابه ، فقد ذكرنا منهج جمهور السَّلف القائم على الإمساك عن الخوض في المتشابه ، ومنهج جمهور الخلف القائم على تفسيرها بمعنى يتوائم ويتلائم مع جلال الله تعالى وعظمته ، مع البعد عن كلِّ ما من شأنه أن يوهم التَّشبيه بأي وجه من الوجوه ... فقد:

(١) نقل عن الإمام الحسن البصري السَّلفي تأويله لقول الله تعالى : ﴿أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ﴾ [الأنعام : ١٥٨] ، قال : يأتي أَمْرُ ربِّك . ونقل عن أحمد بن حنبل أنَّه قال في قوله تعالى : ﴿يَأْتِيَهُمُ﴾ [البقرة : ٢١٠] ، قال : المراد به قدرته وأمره ، وقال الزجَّاج : أو يأتيَ إهلاكه وانتقامه ، إمَّا بعذاب عاجل ، أو بالقيامة ، وهذا مذهب جمهور الخلف وبعض السَّلف ، وهو التَّفويض التَّفصيلي . كما ذكر أنَّ جماعة من السَّلف كانوا يُمسكون عن الكلام في مثل هذا ، وهو التَّفويض الإجمالي ، وهو ما عليه جمهور السَّلف وبعض الخلف...

(٢) فسَّر قول الله تعالى : ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللهُ فِي ظُلَلٍ﴾ [البقرة : ٢١٠] ، أي : بظلل ، فتكون " في " في معنى " الباء " ، وبهذا يزول الإشكال ...

(٣) ردَّ الإمام ابن الجوزي على مجسِّمة الحنابلة كابن حامد الذي قال : ولا يمتنع إمراره على ظاهره ، لأنَّه لا بدَّ من مشيه وانتهائه إلى مجلسه لا عن انتقال ... وهذا منه مراوغة وسبيلٌ لإرضاء الجهَّال الغوغائيين من أتباعه ... لأنَّ الإمرار على ظاهر المعنى لا يكون إلَّا بانتقال...

وقال الإمام الرَّازي في " مفاتيح الغيب" (التفسير الكبير) (٥/ ٣٥٦-٣٦٠) : " أَجْمَعَ الْمُعْتَبِرُونَ مِنَ الْعُقَلَاءِ عَلَى أَنَّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مُنَزَّهٌ عَنِ الْمَجِيءِ وَالذَّهَابِ ، وَيَدُلُّ عَلَيْهِ وُجُوهٌ:

أَحَدُهَا : مَا ثَبَتَ فِي عِلْمِ الْأُصُولِ : أَنَّ كُلَّ مَا يَصِحُّ عَلَيْهِ الْمَجِيءُ وَالذَّهَابُ لَا يَنْفَكُّ عَنِ الْحَرَكَةِ وَالسُّكُونِ ، وَهُمَا مُحْدَثَانِ ، وَمَا لَا يَنْفَكُّ عَنِ الْمُحْدَثِ فَهُوَ مُحْدَثٌ ، فَيَلْزَمُ أَنَّ كُلَّ مَا يَصِحُّ عَلَيْهِ الْمَجِيءُ وَالذَّهَابُ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ مُحْدَثاً مَخْلُوقاً ، وَالْإِلَهُ الْقَدِيمُ يَسْتَحِيلُ أَنْ يَكُونَ كَذَلِكَ .

وَثَانِيهَا : أَنَّ كُلَّ مَا يَصِحُّ عَلَيْهِ الِانْتِقَالُ مِنْ مَكَانٍ إِلَىٰ مَكَانٍ ، فَإِمَّا أَنْ يَكُونَ فِي الصِّغَرِ وَالْحَقَارَةِ كَالْجُزْءِ الَّذِي لَا يَتَجَزَّأُ ، وَذَلِكَ بَاطِلٌ بِاتِّفَاقِ الْعُقَلَاءِ ، وإِمَّا أَنْ لَا يَكُونَ كَذَلِكَ بَلْ يَكُونُ شَيْئاً كَبِيراً ، فَيَكُونُ أَحَدُ جَانِبَيْهِ مُغَايِراً لِلْآخَرِ ، فَيَكُونُ مُرَكَّباً مِنَ الْأَجْزَاءِ وَالْأَبْعَاضِ ، وَكُلُّ مَا كَانَ مُرَكَّباً ، فَإِنَّ ذَلِكَ الْمُرَكَّبَ يَكُونُ مُفْتَقِراً فِي تَحَقُّقِهِ إِلَىٰ تَحَقُّقِ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْ أَجْزَائِهِ ، وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنْ أَجْزَائِهِ غَيْرُهُ ، فَكُلُّ مُرَكَّبٍ هُوَ مُفْتَقِرٌ إِلَىٰ غَيْرِهِ ، وَكُلُّ مُفْتَقِرٍ إِلَىٰ غَيْرِهِ فَهُوَ مُمْكِنٌ لِذَاتِهِ ، وَكُلُّ مُمْكِنٍ لِذَاتِهِ فَهُوَ مُحْتَاجٌ فِي وُجُودِهِ إِلَىٰ الْمُرَجِّحِ وَالْمُوجِدِ ، فَكُلُّ مَا كَانَ كَذَلِكَ فَهُوَ مُحْدَثٌ مَخْلُوقٌ مَسْبُوقٌ بِالْعَدَمِ ، وَالْإِلَهُ الْقَدِيمُ يَمْتَنِعُ أَنْ يَكُونَ كَذَلِكَ .

وَثَالِثُهَا : أَنَّ كُلَّ مَا يَصِحُّ عَلَيْهِ الِانْتِقَالُ مِنْ مَكَانٍ إِلَىٰ مَكَانٍ ، فَهُوَ مَحْدُودٌ وَمُتَنَاهٍ ،فَيَكُونُ مُخْتَصّاً بِمِقْدَارٍ مُعَيَّنٍ ، مَعَ أَنَّه كَانَ يَجُوزُ فِي الْعَقْلِ وُقُوعُهُ عَلَىٰ مِقْدَارٍ أَزْيَدَ مِنْهُ أَوْ أَنْقَصَ ، فَاخْتِصَاصُهُ بِذَلِكَ الْقَدْرِ الْمُعَيَّنِ لَا بُدَّ وَأَنْ يَكُونَ لِتَرْجِيحِ مُرَجِّحٍ ، وَتَخْصِيصِ مُخَصِّصٍ ، وَكُلُّ مَا كَانَ كَذَلِكَ كَانَ فِعْلاً لِفَاعِلٍ مُخْتَارٍ ، وَكُلُّ مَا كَانَ كَذَلِكَ فَهُوَ مُحْدَثٌ مَخْلُوقٌ ، فَالْإِلَهُ الْقَدِيمُ الْأَزَلِيُّ يَمْتَنِعُ أَنْ يَكُونَ كَذَلِكَ.

وَرَابِعُهَا : أَنَّا مَتَىٰ جَوَّزْنَا فِي الشَّيءِ الَّذِي يَصِحُّ عَلَيْهِ الْمَجِيءُ وَالذَّهَابُ أَنْ يَكُونَ إِلَهاً قَدِيماً أَزَلِيّاً ، فَحِينَئِذٍ لَا يُمْكِنُنَا أَنْ نَحْكُمَ بِنَفْيِ الْإِلَهِيَّةِ عَنِ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ ، وَكَانَ بَعْضُ الْأَذْكِيَاءِ مِنْ أَصْحَابِنَا ، يَقُولُ : الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا عَيْبَ فِيهِمَا يَمْنَعُ مِنَ القول بإلهيتهما سوىٰ أنّهم جِسْمٌ يَجُوزُ عَلَيْهِ الْغَيْبَةُ وَالْحُضُورُ ، فَمَنْ جَوَّزَ الْمَجِيءَ وَالذَّهَابَ عَلَىٰ اللَّهِ تَعَالَىٰ ، فَلِمَ لَا يَحْكُمُ بِإِلَهِيَّةِ الشَّمْسِ ، وَمَا الَّذِي أَوْجَبَ عَلَيْهِ الْحُكْمَ بِإِثْبَاتِ مَوْجُودٍ آخَرَ يَزْعُمُ أَنَّه إِلَهٌ .

وَخَامِسُهَا : أَنَّ اللَّهَ تَعَالَىٰ حَكَىٰ عَنِ الْخَلِيلِ عَلَيْهِ الصَّلاة وَالسَّلَامُ أَنَّه طَعَنَ فِي إِلَهِيَّةِ الْكَوَاكِبِ وَالْقَمَرِ وَالشَّمْسِ بِقَوْلِهِ : ﴿**قَالَ لا أُحِبُّ الْآفِلِينَ**﴾ [الأنعام : ٧٦] ، وَلَا مَعْنَىٰ لِلْأُفُولِ إِلَّا الْغَيْبَةُ وَالْحُضُورُ ، فَمَنْ جَوَّزَ الْغَيْبَةَ وَالْحُضُورَ عَلَىٰ اللَّهِ تَعَالَىٰ ، فَقَدْ طَعَنَ فِي دَلِيلِ الْخَلِيلِ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَكَذَّبَ اللَّهَ فِي تَصْدِيقِ الْخَلِيلِ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي ذَلِكَ .

سَادِسُهَا : أَنَّ فِرْعَوْنَ لَعْنَةُ اللَّهِ تَعَالَىٰ عَلَيْهِ لَمَّا سَأَلَ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، فَقَالَ : ﴿**وَمَا رَبُّ الْعالَمِينَ**﴾ [الشعراء : ٢٣] ، وَطَلَبَ مِنْهُ الْمَاهِيَّةَ وَالْجِنْسَ وَالْجَوْهَرَ ، فَلَوْ كَانَ تَعَالَىٰ جِسْماً مَوْصُوفاً بِالْأَشْكَالِ وَالْمَقَادِيرِ

لَكَانَ الْجَوَابُ عَنْ هَذَا السُّؤَالِ لَيْسَ إِلَّا بِذِكْرِ الصُّورَةِ وَالشَّكْلِ وَالْقَدْرِ : فَكَانَ جَوَابُ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِقَوْلِهِ : ﴿رَبُّ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ﴾ [مريم : ٦٥] ، ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبائِكُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الدخان : ٨] ، ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾ [المزمل : ٩] ، خطأً وَباطِلاً ، وَهَذَا يَقْتَضِي تَخْطِئَةَ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِيمَا ذَكَرَ مِنَ الْجَوَابِ ، وَتَصْوِيبَ فِرْعَوْنَ فِي قَوْلِهِ : ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ [الشعراء : ٢٧] ، وَلَمَّا كَانَ كُلُّ ذَلِكَ بَاطِلاً ، عَلِمْنَا أَنَّه تَعَالَىٰ مُنَزَّهٌ عَنْ أَنْ يَكُونَ جِسْماً ، وَأَنْ يَكُونَ فِي مَكَانٍ ، وَمُنَزَّهٌ عَنْ أَنْ يَصِحَّ عَلَيْهِ الْمَجِيءُ وَالذَّهَابُ .

وَسَابِعُهَا : أَنَّه تَعَالَىٰ قَالَ : ﴿قُلْ هُوَ الله أَحَدٌ﴾ [الإخلاص : ١] ، وَالْأَحَدُ هُوَ الْكَامِلُ فِي الْوَحْدَانِيَّةِ ، وَكُلُّ جِسْمٍ فَهُوَ مُنْقَسِمٌ بِحَسَبِ الْغَرَضِ وَالْإِشَارَةِ إِلَىٰ جُزْأَيْنِ، فَلَمَّا كَانَ تَعَالَىٰ أَحَدًا امْتَنَعَ أَنْ يَكُونَ جِسْماً أَوْ مُتَحَيِّزاً ، فَلَمَّا لَمْ يَكُنْ جِسْماً وَلَا مُتَحَيِّزاً ، امْتَنَعَ عَلَيْهِ الْمَجِيءُ وَالذَّهَابُ ، وَأَيْضاً قَالَ تَعَالَىٰ : ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ [مريم : ٦٥] ، أَيْ : شَبِيهاً ، وَلَوْ كَانَ جِسْماً مُتَحَيِّزاً ، لَكَانَ مُشَابِهاً لِلْأَجْسَامِ فِي الْجِسْمِيَّةِ ، إِنَّما الِاخْتِلَافُ يَحْصُلُ فِيمَا وَرَاءَ الْجِسْمِيَّةِ ، وَذَلِكَ إِمَّا بِالْعِظَمِ أَوْ بِالصِّفَاتِ وَالْكَيْفِيَّاتِ ، وَذَلِكَ لَا يَقْدَحُ فِي حُصُولِ الْمُشَابَهَةِ فِي الذَّات ، وَأَيْضاً قَالَ تَعَالَىٰ : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورىٰ: ١١] ، وَلَوْ كَانَ جِسْماً لَكَانَ مَثَلًا لِلْأَجْسَامِ .

وَثَامِنُهَا : لَوْ كَانَ جِسْماً مُتَحَيِّزاً لَكَانَ مُشَارِكاً لِسَائِرِ الْأَجْسَامِ فِي عُمُومِ الْجِسْمِيَّةِ ، فَعِنْدَ ذَلِكَ لَا يَخْلُو إِمَّا أَنْ يَكُونَ مُخَالِفاً فِي خُصُوصِ ذَاتِهِ الْمَخْصُوصَةِ ، وإِمَّا أن لَا يَكُونُ ، فَإِنْ كَانَ الْأَوَّلَ فَمَا بِهِ الْمُشَارَكَةُ غَيْرُ مَا بِهِ الْمُمَايَزَةُ ، فَعُمُومُ كَوْنِهِ جِسْماً مُغَايِرٌ لِخُصُوصِ ذَاتِهِ الْمَخْصُوصَةِ ، وَهَذَا مُحَالٌ لِأَنَّا إِذَا وَصَفْنَا تِلْكَ الذَّات الْمَخْصُوصَةَ بِالْمَفْهُومِ مِنْ كَوْنِهِ جِسْماً كُنَّا قَدْ جَعَلْنَا الْجِسْمَ صِفَةً ، وَهَذَا مُحَالٌ لِأَنَّ الْجِسْمَ ذَاتُ الصِّفَةِ ، وَإِنْ قُلْنَا بِأَنَّ تِلْكَ الذَّات الْمَخْصُوصَةَ الَّتِي هِيَ مُغَايِرَةٌ لِلْمَفْهُومِ مِنْ كَوْنِهِ جِسْماً وَغَيْرَ مَوْصُوفٍ بِكَوْنِهِ جِسْماً ، فَحِينَئِذٍ تَكُونُ ذَاتُ اللَّهِ تَعَالَىٰ شَيْئاً مُغَايِراً لِلْمَفْهُومِ مِنَ الْجِسْمِ ، وَغَيْرَ مَوْصُوفٍ بِهِ وَذَلِكَ يَنْفِي كَوْنَهُ تَعَالَىٰ جِسْماً ، وأَمَّا إِنْ قِيلَ : إِنَّ ذَاتَهُ تَعَالَىٰ بَعْدَ أَنْ كَانَتْ جِسْماً لَا يُخَالِفُ سَائِرَ الْأَجْسَامِ فِي خُصُوصِيَّةٍ ، فَحِينَئِذٍ يَكُونُ مَثَلاً لَهَا مُطْلَقاً ، وَكُلُّ مَا صَحَّ عَلَيْهَا فَقَدْ صَحَّ عَلَيْهِ ، فَإِذَا كَانَتْ هَذِهِ الْأَجْسَامُ مُحْدَثَةً وَجَبَ فِي ذَاتِهِ أَنْ تَكُونَ كَذَلِكَ ، وَكُلُّ ذَلِكَ مُحَالٌ ، فَثَبَتَ أَنَّه تَعَالَىٰ لَيْسَ بِجِسْمٍ ، وَلَا بِمُتَحَيِّزٍ ، وَأَنَّهُ لَا يَصِحُّ الْمَجِيءُ وَالذَّهَابُ عَلَيْهِ.

إِذَا عَرَفْتَ هَذَا فَنَقُولُ : اخْتَلَفَ أَهْلُ الْكَلَامِ فِي قَوْلِهِ : ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللهُ﴾ [البقرة: ٢١٠] ، وَذَكَرُوا فِيهِ وُجُوهاً .

الْوَجْهُ الْأَوَّلُ : وَهُوَ مَذْهَبُ السَّلف الصَّالح أنَّه لَمَّا ثَبَتَ بِالدَّلَائِلِ الْقَاطِعَةِ أَنَّ الْمَجِيءَ وَالذَّهَابَ عَلَىٰ اللَّهِ تَعَالَىٰ مُحَالٌ ، عَلِمْنَا قَطْعاً أنَّه لَيْسَ مُرَادُ اللَّهِ تَعَالَىٰ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ هُوَ الْمَجِيءَ وَالذَّهَابَ ، وَأَنَّ مُرَادَهُ بَعْدَ ذَلِكَ شَيْءٌ آخَرُ فَإِنْ عَيَّنَّا ذَلِكَ الْمُرَادَ لَمْ نَأْمَنِ الْخَطَأَ ، فَالْأَوْلَى السُّكُوتُ عَنِ التَّأْويل ، وَتَفْوِيضُ مَعْنَى الْآيَةِ عَلَىٰ سَبِيلِ التَّفْصِيلِ إِلَىٰ اللَّهِ تَعَالَىٰ ، وَهَذَا هُوَ الْمُرَادُ بِمَا رُوِيَ عَنِ ابْنِ عبَّاس أنَّه قَالَ : نَزَلَ الْقُرْآنُ عَلَىٰ أَرْبَعَةِ أَوْجُهٍ : وَجْهٌ لَا يَعْرِفُهُ أَحَدٌ لِجَهَالَتِهِ ، وَوَجْهٌ يَعْرِفُهُ الْعُلَمَاءُ وَيُفَسِّرُونَهُ ، وَوَجْهٌ نَعْرِفُهُ مِنْ قِبَلِ الْعَرَبِيَّةِ فَقَطْ ، وَوَجْهٌ لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا الله ، وَهَذَا الْقَوْلُ قَدِ اسْتَقْصَيْنَا الْقَوْلَ فِيهِ فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ : ﴿**الم**﴾ [البقرة : ١] .

الْوَجْهُ الثَّالِثُ : وَهُوَ قَوْلُ جُمْهُورِ الْمُتَكَلِّمِينَ : أَنَّه لَا بُدَّ مِنَ التَّأْويل علىٰ سبيل التَّفصيل ثمَّ ذَكَرُوا فِيهِ وُجُوهاً:

الْأَوَّلُ : الْمُرَادُ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ الله ، أَيْ : آيَاتُ اللَّهِ ، فَجَعَلَ مَجِيءَ الْآيَاتِ مَجِيئاً لَهُ عَلَىٰ التَّفْخِيمِ لِشَأْنِ الْآيَاتِ ، كَمَا يُقَالُ : جَاءَ الْمَلِكُ ، إِذَا جَاءَ جَيْشٌ عَظِيمٌ مِنْ جِهَتِهِ ، وَالَّذِي يَدُلُّ عَلَىٰ صِحَّةِ هَذَا التَّأْويل أَنَّه تَعَالَىٰ قَالَ فِي الْآيَةِ الْمُتَقَدِّمَةِ : ﴿**فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جاءَتْكُمُ الْبَيِّناتُ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ**﴾ [البقرة : ٢٠٩] ، فَذَكَرَ ذَلِكَ فِي مَعْرِضِ الزَّجْرِ وَالتَّهْدِيدِ ، ثمَّ أنَّه تَعَالَىٰ أَكَّدَ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ : ﴿**هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللهُ**﴾ [البقرة : ٢١٠] ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ التَّقْدِيرَ أَنْ يَصِحَّ الْمَجِيءُ عَلَىٰ اللَّهِ لَمْ يَكُنْ مُجَرَّدُ حُضُورِهِ سَبَباً لِلتَّهْدِيدِ وَالزَّجْرِ ، لِأَنَّهُ عِنْدَ الْحُضُورِ كَمَا يَزْجُرُ الْكُفَّارَ وَيُعَاقِبُهُمْ ، فَهُوَ يُثِيبُ الْمُؤْمِنِينَ وَيَخُصُّهُمْ بِالتَّقْرِيبِ ، فَثَبَتَ أَنَّ مُجَرَّدَ الْحُضُورِ لَا يَكُونُ سَبَباً لِلتَّهْدِيدِ وَالْوَعِيدِ ، فَلَمَّا كَانَ الْمَقْصُودُ مِنَ الْآيَةِ إنَّما هُوَ الْوَعِيدُ وَالتَّهْدِيدُ ، وَجَبَ أَنْ يُضْمَرَ فِي الْآيَةِ مَجِيءُ الْهَيْبَةِ وَالْقَهْرِ وَالتَّهْدِيدِ ، وَمَتَىٰ أَضْمَرْنَا ذَلِكَ زَالَتِ الشُّبْهَةُ بِالْكُلِّيَّةِ ، وَهَذَا تَأْوِيلٌ حَسَنٌ مُوَافِقٌ لِنَظْمِ الْآيَةِ .

وَالْوَجْهُ الثَّاني : فِي التَّأْويل أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ الله ، أَيْ : أَمْرُ اللَّهِ ، وَمَدَارُ الْكَلَامِ فِي هَذَا الْبَابِ أَنَّه تَعَالَىٰ إِذَا ذَكَرَ فِعْلًا وَأَضَافَهُ إِلَىٰ شَيْءٍ ، فَإِنْ كَانَ ذَلِكَ مُحَالاً ، فَالْوَاجِبُ صَرْفُهُ إِلَىٰ التَّأْويل ، كَمَا قَالَهُ الْعُلَمَاءُ فِي قَوْلِهِ : الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ ، والمراد : يحاربون أولياءه ، وقال : ﴿**وَسْئَلِ الْقَرْيَةَ**﴾ [يوسف : ٨٢] ، وَالْمُرَادُ : وَاسْأَلْ أَهْلَ الْقَرْيَةِ ، فَكَذَا قَوْلُهُ : ﴿**يَأْتِيَهُمُ اللهُ**﴾ الْمُرَادُ بِهِ : يَأْتِيهِمْ أَمْرُ اللَّهِ ، وَقَوْلُهُ : ﴿**وَجاءَ رَبُّكَ**﴾ [الفجر : ٢٢] ، الْمُرَادُ : جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ ، وَلَيْسَ فِيهِ إِلَّا حَذْفُ الْمُضَافِ ، وَإِقَامَةُ الْمُضَافِ إِلَيْهِ مُقَامَهُ ، وَهُوَ مَجَازٌ مَشْهُورٌ ، يُقَالُ : ضَرَبَ الْأَمِيرُ فُلَانا ، وَصَلَبَهُ ، وَأَعْطَاهُ ، وَالْمُرَادُ أنَّه أَمَرَ بِذَلِكَ ، لا أنَّه تَوَلَّىٰ ذَلِكَ الْعَمَلَ بِنَفْسِهِ ، ثمَّ الَّذِي يُؤَكِّدُ الْقَوْلَ بِصِحَّةِ هذا التَّأويل وجهان :

الأوَّل : أنَّ قوله هاهنا : **﴿يَأْتِيَهُمُ اللهُ﴾** [البقرة : ١١٠] ، وَقَوْلَهُ : **﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾** [الفجر : ٢٢] ، إِخْبَارٌ عَنْ حَالِ الْقِيَامَةِ ، ثمَّ ذَكَرَ هَذِهِ الْوَاقِعَةَ بِعَيْنِهَا في سورة النَّحل ، فقال : **﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾** [النحل : ٣٣] ، فَصَارَ هَذَا الْحُكْمُ مُفَسِّراً لِذَلِكَ الْمُتَشَابِهِ ، لِأَنَّ كُلَّ هَذِهِ الْآيَاتِ لَمَّا وَرَدَتْ فِي وَاقِعَةٍ وَاحِدَةٍ لَمْ يَبْعُدْ حَمْلُ بَعْضِهَا عَلَى الْبَعْضِ .

والثَّاني : أنَّه تَعَالَى قَالَ بعده : **﴿وَقُضِيَ الْأَمْرُ ﴾** [البقرة : ٢١٠] ، وَلَا شَكَّ أَنَّ الْأَلِفَ وَاللَّامَ لِلْمَعْهُودِ السَّابِقِ ، فَلَا بُدَّ وَأَنْ يَكُونَ قَدْ جَرَى ذِكْرُ أَمْرٍ قَبْلَ ذَلِكَ حَتَّى تَكُونَ الْأَلِفُ وَاللَّامُ إِشَارَةً إِلَيْهِ ، وَمَا ذَاكَ إِلَّا الَّذِي أَضْمَرْنَاهُ مِنْ أَنَّ قَوْلَهُ : **﴿يَأْتِيَهُمُ اللهُ﴾** [البقرة : ٢١٠] ، أَيْ : يَأْتِيهِمْ أمر الله ، فَإِنْ قِيلَ : أَمْرُ اللَّهِ عِنْدَكُمْ صِفَةٌ قَدِيمَةٌ ، فَالْإِتْيَانُ عَلَيْهَا مُحَالٌ ، وَعِنْدَ الْمُعْتَزِلَةِ أَنَّه أَصْوَاتٌ فَتَكُـــونُ أَعْرَاضاً ، فَالْإِتْيَانُ عَلَيْهَا أَيْضًا مُحَالٌ .

قُلْنَا : الْأَمْرُ فِي اللُّغَةِ لَهُ مَعْنَيَانِ ، أَحَدُهُمَا الْفِعْلُ وَالشَّأْنُ وَالطَّرِيقُ ، قَالَ الله تَعَالَى : **﴿وَما أَمْرُنا إِلاَّ واحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾** [القمر : ٥٠] ، **﴿وَما أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾** [هود : ٩٧] ، وَفِي الْمَثَلِ : لِأَمْرٍ مَا جَدَعَ قَصِيرٌ أَنْفَهُ ، لِأَمْرٍ مَا يَسُودُ مَنْ يسود فيحمل الأمر هاهنا عَلَى الْفِعْلِ ، وَهُوَ مَا يَلِيقُ بِتِلْكَ الْمَوَاقِفِ مِنَ الْأَهْوَالِ وَإِظْهَارِ الْآيَاتِ الْمُبَيِّنَةِ ، وَهَذَا هُوَ التَّأويل الأول الذي ذكرناه ، وأمَّا إن حَمَلْنَا الْأَمْرَ عَلَى الْأَمْرِ الَّذِي هُوَ ضِدُّ النَّهْيِ ، فَفِيهِ وَجْهَانِ :

أَحَدُهُمَا : أَنْ يَكُونَ التَّقْدِيرُ أَنَّ مُنَادِياً يُنَادِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ : أَلَا إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ بِكَذَا وَكَذَا ، فَذَاكَ هُوَ إِتْيَانُ الْأَمْرِ ، وَقَوْلُهُ : **﴿فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمامِ﴾** ، أَيْ : مَعَ ظُلَلٍ ، وَالتَّقْدِيرُ : إِنَّ سَمَاعَ ذَلِكَ النِّدَاءِ وَوُصُولَ تِلْكَ الظُّلَلِ يَكُونُ فِي زَمَانٍ وَاحِدٍ .

والثَّاني : أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ مِنْ إِتْيَانِ أَمْرِ اللَّهِ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ حُصُولَ أَصْوَاتٍ مُقَطَّعَةٍ مَخْصُوصَةٍ فِي تِلْكَ الْغَمَامَاتِ تَدُلُّ عَلَى حُكْمِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى كُلِّ أَحَدٍ بِمَا يَلِيقُ بِهِ مِنَ السَّعَادَةِ وَالشَّقَاوَةِ ، أَوْ يَكُونَ الْمُرَادُ أَنَّه تَعَالَى خَلَقَ نُقُوشًا مَنْظُومَةً فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ لِشِدَّةِ بَيَاضِهَا وَسَوَادُ تِلْكَ الْكِتَابَةِ يُعْرَفُ بِهَا حَالُ أَهْلِ الْمَوْقِفِ فِي الْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ وَغَيْرِهِمَا وَتَكُونُ فَائِدَةُ الظُّلَلِ مِنَ الْغَمَامِ أَنَّه تَعَالَى جَعَلَهُ أَمَارَةً لِمَا يُرِيدُ إِنْزَالَهُ بِالْقَوْمِ فَعِنْدَهُ يَعْلَمُونَ أَنَّ الْأَمْرَ قَدْ حَضَرَ وَقَرُبَ.

الْوَجْهُ الثَّالِثُ : فِي التَّأويل أَنَّ الْمَعْنَى : هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ الله بِمَا وَعَدَ مِنَ الْعَذَابِ وَالْحِسَابِ ، فَحَذَفَ مَا يَأْتِي بِهِ تَهْوِيلاً عَلَيْهِمْ ، إِذْ لَوْ ذَكَرَ مَا يَأْتِي بِهِ كَانَ أَسْهَلَ عَلَيْهِمْ فِي بَابِ الْوَعِيدِ ، وَإِذَا لَمْ يَذْكُرْ كَانَ أَبْلَغَ لِانْقِسَامِ خَوَاطِرِهِمْ ، وَذَهَابِ فِكْرِهِمْ فِي كُلِّ وَجْهٍ ، ومثله قَوْلِهِ تَعَالَى : **﴿فَأَتاهُمُ الله مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ﴾** [الحشر : ٢] ، وَالْمَعْنَى : أَتَاهُمُ

الله بِخِذْلَانِهِ إِيَّاهُمْ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا ، وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿فَأَتَى الله بُنْيانَهُمْ مِنَ الْقَواعِدِ﴾ [النحل : ٢٦] ، فقوله : ﴿وَأَتاهُمُ الْعَذابُ﴾ [النحل: ٢٦] ، كَالتَّفْسِيرِ لِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿فَأَتَى الله بُنْيانَهُمْ مِنَ الْقَواعِدِ﴾ [النحل : ٢٦] ، وَيُقَالُ فِي الْعُرْفِ الظَّاهِرِ إِذَا سُمِعَ بِوِلَايَةِ جَائِرٍ : قَدْ جَاءَنَا فُلَانٌ بِجَوْرِهِ وَظُلْمِهِ ، وَلَا شَكَّ أَنَّ هَذَا مَجَازٌ مَشْهُورٌ .

الْوَجْهُ الرَّابِعُ : فِي التَّأويل أَنْ يَكُونَ فِي بِمَعْنَى الْبَاءِ ، وَحُرُوفُ الْجَرِّ يُقَامُ بَعْضُهَا مُقَامَ الْبَعْضِ ، وَتَقْدِيرُهُ : هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ الله بِظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ ، وَالْمُرَادُ الْعَذَابُ الَّذِي يَأْتِيهِمْ فِي الْغَمَامِ مَعَ الْمَلَائِكَةِ.

الْوَجْهُ الْخَامِسُ : أَنَّ الْمَقْصُودَ مِنَ الْآيَةِ تَصْوِيرُ عَظَمَةِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهَوْلِهَا وَشِدَّتِهَا ، وَذَلِكَ لِأَنَّ جَمِيعَ الْمُذْنِبِينَ إِذَا حَضَرُوا لِلْقَضَاءِ وَالْخُصُومَةِ ، وَكَانَ الْقَاضِي فِي تِلْكَ الْخُصُومَةِ أَعْظَمَ السَّلَاطِينِ قَهْرًا وَأَكْبَرَهُمْ هَيْبَةً ، فَهَؤُلَاءِ الْمُذْنِبُونَ لَا وَقْتَ عَلَيْهِمْ أَشَدُّ مَنْ وَقْتِ حُضُورِهِ لِفَصْلِ تِلْكَ الْخُصُومَةِ، فَيَكُونُ الْغَرَضُ مِنْ ذِكْرِ إِتْيَانِ اللَّهِ تَصْوِيرَ غَايَةِ الْهَيْبَةِ وَنِهَايَةِ الْفَزَعِ ، وَنَظِيرُهُ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿وَما قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَالسَّماواتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾ [الزمر : ٦٧] ، مِنْ غَيْرِ تَصْوِيرِ قَبْضَةٍ وَطَيٍّ وَيَمِينٍ ، وإِنَّما هُوَ تَصْوِيرٌ لِعَظَمَةِ شَأْنِهِ لِتَمْثِيلِ الْخَفِيِّ بالجلي ، فكذا هاهنا وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

الْوَجْهُ السَّادِسُ : وَهُوَ أَوْضَحُ عِنْدِي مِنْ كُلِّ مَا سَلَفَ : أَنَّا ذَكَرْنَا أَنَّ قوله تعالى : ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً﴾ [البقرة : ٢٠٨] ، إِنَّما نَزَلَتْ فِي حَقِّ الْيَهُودِ ، وَعَلَى هَذَا التَّقْدِيرِ ، فَقَوْلُهُ : ﴿فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جاءَتْكُمُ الْبَيِّناتُ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة : ٢٠٩] ، يَكُونُ خِطَاباً مَعَ الْيَهُودِ ، وَحِينَئِذٍ يَكُونُ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمامِ وَالْمَلائِكَةِ﴾ [البقرة : ٢١٠] ، حِكَايَةً عَنِ الْيَهُودِ ، وَالْمَعْنَى : أَنَّهم لَا يَقْبَلُونَ دِينَكَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ الله فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ ، أَلَا تَرَى أَنَّهم فَعَلُوا مَعَ مُوسَى مِثْلَ ذَلِكَ ، فَقَالُوا : ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ [البقرة : ٥٥] ، وَإِذَا كَانَ هَذَا حِكَايَةً عَنْ حَالِ الْيَهُودِ ، وَلَمْ يَمْنَعْ إِجْرَاءَ الْآيَةِ عَلَى ظَاهِرِهَا ، وَذَلِكَ لِأَنَّ الْيَهُودَ كَانُوا عَلَى مَذْهَبِ التَّشْبِيهِ ، وَكَانُوا يُجَوِّزُونَ عَلَى اللَّهِ الْمَجِيءَ وَالذَّهَابَ ، وَكَانُوا يَقُولُونَ : أَنَّه تَعَالَى تَجَلَّى لِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَى الطُّورِ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ ، وَطَلَبُوا مِثْلَ ذَلِكَ فِي زَمَانِ محمَّد عَلَيْهِ الصَّلاة وَالسَّلَامُ ، وَعَلَى هَذَا التَّقْدِيرِ يَكُونُ هَذَا الْكَلَامُ حِكَايَةً عَنْ مُعْتَقَدِ الْيَهُودِ الْقَائِلِينَ بِالتَّشْبِيهِ ، فَلَا يُحْتَاجُ حِينَئِذٍ إِلَى التَّأويل ، وَلَا إِلَى حَمْلِ اللَّفْظِ عَلَى الْمَجَازِ ، وَبِالْجُمْلَةِ فَالْآيَةُ تَدُلُّ عَلَى أَنَّ قَوْماً يَنْتَظِرُونَ أَنْ يَأْتِيَهُمُ الله

، وَلَيْسَ فِي الْآيَةِ دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّهم مُحِقُّونَ فِي ذَلِكَ الِانْتِظَارِ أَوْ مُبْطِلُونَ ، وَعَلَى هَذَا التَّقْدِيرِ يَسْقُطُ الْإِشْكَالُ " .

وقال الإمام الرَّازي في "مفاتيح الغيب" (التفسير الكبير) (١٤/ ١٨٨) : " فَإِنْ قِيلَ : قَوْلُهُ : **﴿أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ﴾** [الأنعام : ١٥٨] ، هَل يَدُلُّ عَلَى جَوَازِ الْمَجِيءِ وَالْغَيْبَةِ عَلَى اللَّهِ ؟

قُلْنَا : الْجَوَابُ عَنْهُ مِنْ وُجُوهٍ :

الْأَوَّلُ : أَنَّ هَذَا حِكَايَةٌ عَنْهُمْ ، وَهُمْ كَانُوا كُفَّاراً ، وَاعْتِقَادُ الْكَافِرِ لَيْسَ بِحُجَّةٍ .

والثَّاني : إِنَّ هَذَا مَجَازٌ . وَنَظِيرُهُ قَوْلُهُ تَعَالَى : **﴿فَأَتَى الله بُنْيانَهُمْ﴾** [النحل : ٢٦] ، وَقَوْلُهُ : **﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ﴾** [الأحزاب:٥٧] .

وَالثَّالِثُ : قِيَامُ الدَّلَائِلِ الْقَاطِعَةِ عَلَى أَنَّ الْمَجِيءَ وَالْغَيْبَةَ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى مُحَالٌ ، وَأَقْرَبُهَا قَوْلُ الْخَلِيلِ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ فِي الرَّدِّ عَلَى عَبَدَةِ الكواكب : **﴿لا أُحِبُّ الْآفِلِينَ ﴾** [الأنعام : ٧٦] .

فَإِنْ قِيلَ : قَوْلُهُ : **﴿أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ﴾** [الأنعام : ١٥٨] ، لَا يُمْكِنُ حَمْلُهُ عَلَى إِثْبَاتِ أَثَرٍ مِنْ آثَارِ قُدْرَتِهِ ، لِأَنَّ عَلَى هَذَا التَّقْدِيرِ : يَصِيرُ هَذَا عين قوله : **﴿أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آياتِ رَبِّكَ﴾** [الأنعام : ١٥٨] ، فَوَجَبَ حَمْلُهُ عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ مِنْهُ إِتْيَانُ الرَّبِّ .

قُلْنَا : الْجَوَابُ الْمُعْتَمَدُ : أَنَّ هَذَا حِكَايَةُ مَذْهَبِ الْكُفَّارِ ، فَلَا يَكُونُ حُجَّةً ، وَقِيلَ : يَأْتِي رَبُّكَ بِالْعَذَابِ أَوْ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ ، وَهُوَ الْمُعْجِزَاتُ الْقَاهِرَةُ " .

وقال الإمام الرَّازي في " أساس التقديس" (ص١٩٥-٢٠٤) : " الفصل التَّاسع : في المجيء والنُّزول : احتجُّوا بقوله تعالى : **﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ﴾** [البقرة : ٢١٠] ، وبقوله تعالى : **﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾** [الفجر : ٢٢] ، واحتجُّوا بالأخبار ، فمنها : ما رواه صاحب شرح السُّنَّة رحمه الله في باب : " إحياء آخر الليل وفضله " ، عن أبي هريرة ، وأبي سعيد الخدري ، رضي الله عنهما ، عن النَّبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنَّه قال : " " مَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ يَذْكُرُونَ اللهَ، إِلَّا حَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ، وَتَغَشَّتْهُمُ الرَّحْمَةُ، وَنَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ، وَذَكَرَهُمُ اللهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ " .

وَقَالَ: " إِنَّ اللهَ يُمْهِلُ حَتَّى إِذَا كَانَ ثُلُثُ اللَّيْلِ الْآخِرُ، نَزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَى هَذِهِ السَّمَاءِ، فَنَادَى هَلْ مِنْ مُذْنِبٍ يَتُوبُ؟ هَلْ مِنْ مُسْتَغْفِرٍ؟ هَلْ مِنْ دَاعٍ؟ هَلْ مِنْ سَائِلٍ؟ إِلَى الْفَجْرِ " . أخرجه أحمد في المسند (١٨/ ٣٨٩ برقم ١١٨٩٢) ، قال الأرنؤوط : " حديث صحيح، ومعمر: وهو ابن راشد الأزدي -وإن لم يتحرر لنا أسمع من أبي إسحاق: وهو السبيعي قبل الاختلاط أم بعده- متابع، وبقية رجاله ثقات رجال الشيخين غير الأغر أبي مسلم: وهو المديني، نزيل الكوفة، فمن رجال مسلم. وهو مطولاً في "مصنف" عبد الرزاق (٢٠٥٥٧) ، ومن طريقه أخرجه عبد بن حميد في "المنتخب" (٨٦١) ، والبغوي في "شرح

السنة" (٩٤٧) ، ولكن في رواية المصنف: حتىٰ إذا ذهب ثلث الليل الأول. وقوله: "إن الله يمهل... " هو كذلك في "مصنف" عبد الرزاق (١٩٦٥٤) ، ومن طريقه أخرجه الطبراني في "الدعاء" (١٤١) ، والآجري في "الشريعة" ص٣١٠. وأخرجه ابن أبي شيبة ١٠/ ٣٤٠-٣٤١، ومسلم (٧٥٨) (١٧٢) ، والنسائي في "عمل اليوم والليلة" (٤٨١) ، وابن أبي عاصم في "السنة" (٥٠٢) ، وأبو عوانة ٢/ ٢٨٨-٢٨٩، وابن حبان (٩٢١) ، والطبراني في "الدعاء" (١٤٣) و (١٤٤) و (١٤٥) و (١٤٦) و (١٤٧) ، والآجري في "الشريعة" ص٣٠٩، ٣١٠، من طرق عن أبي إسحاق، به. وكلهم: حتىٰ إذا ذهب ثلث الليل الأول غير أبي عوانة فعنده: حتىٰ ذهب ثلث الليل الأوسط. وقوله: "حتىٰ إذا كان ثلث الليل الآخر" له شاهد من حديث أبي هريرة عند البخاري (١١٤٥) ، ومسلم (٧٥٨) (١٦٨) ، وقد سلف في مسنده برقم (٨٩٧٤) من طريق أبي عوانة، عن أبي إسحاق، عن الأغر، به. وآخر من حديث عبد الله بن مسعود، سلف برقم (٣٦٧٣) ذكر الحافظ في "الفتح" ٣/ ٣١ الاختلاف في تعيين الوقت، ونقل عن الترمذي قوله: رواية أبي هريرة أصح الروايات في ذلك، ويقوي ذلك أن الروايات المخالفة اختلف فيها علىٰ رواتها، ثم قال: وسلك بعضهم طريق الجمع ... فيجمع بذلك بين الروايات بأن فىٰ ذلك يقع بحسب اختلاف الأحوال، لكون أوقات الليل تختلف في الزمان وفي الآفاق باختلاف تقدم الليل عند قوم، وتأخره عند آخرين، وقال بعضهم: يحتمل أن يكون النزول يقع في الثلث الأول، والقول يقع في النصف وفي الثلث الثاني. وقيل: يحمل علىٰ أن ذلك يقع في جميع الأوقات التي وردت بها الأخبار، ويحمل علىٰ أن النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أعلم بأحد الأمور في وقت، فأخبر به، ثم أعلم به في وقت آخر، فأخبر به، فنقل الصحابة فىٰ ذلك عنه، والله أعلم" .

قال صاحب هذا الكتاب : هذا حديث متَّفق علىٰ صحَّته.

وفي هذا الباب أيضاً عن أبي هريرة أنَّ النَّبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، قال : " ينزل ربُّنا كلّ ليلة إلىٰ سماء الدُّنيا ، حين يبقىٰ ثلث الليل الأخير ، فيقول : من يدعوني فأستجب له ؟ من يسألني فأعطيه ؟ من يستغفرني فأغفر له ؟ " ثمَّ قال : هذا حديث متَّفق علىٰ صحَّته.

ورویٰ مسلم (١/ ٥٢٢ برقم ٧٥٨) بسنده عن أبي هريرة ، عن رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الحديث المذكور ، وزاد فيه : " ثمَّ يبسط يديه تبارك وتعالىٰ ، فيقول : من يقرض غير عديم ولا مظلوم " .

ورویٰ صاحب هذا الكتاب في باب ليلة النِّصف من شعبان ، عن عروة ، عن عائشة رضي الله عنها ، قالت : فقدت رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليلة ، فخرجت ، فإذا هو بالبقيع ، فقال : أكنت تخافين أن يحيف الله ورسوله ؟ فقلت : يا رسول الله ظننت أنَّك أتيت نسائك . فقال : " إنَّ الله ينزل ليلة النِّصف من شعبان ، فيغفر لأكثر من عدد شعر غنم كلب " ، والبخاري ضعَّف هذا الحديث.

واعلم : أنَّ الكلام في قوله : ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ﴾ [البقرة : ٢١٠] ، من وجهين :

الأوَّل : أن نبيِّن بالدَّلائل القاهرة أنَّ الله سبحانه وتعالىٰ منزَّه عن المجيء والذَّهاب .

والثَّاني : أن نذكر التَّأويلات في هذه الآيات.

أمَّا النَّوع الأوَّل : فنقول : الذي يدلُّ على امتناع المجيء والذَّهاب على الله تعالى وجوه :

الأوَّل : ما ثبت في علم الأصول : أنَّ كلَّ ما يصحُّ عليه المجيء والذَّهاب ، فإنَّه لا ينفكُّ عن المحدث ، وما لا ينفكّ عن المحدث فهو محدث ، فيلزم أنَّ كلَّ ما يصحُّ عليه المجيء والذَّهاب وجب أن يكون محدثاً مخلوقاً ، فالإله القديم يستحيل أن يكون كذلك.

والثَّاني : أنَّ كل ما يصحُّ عليه الانتقال والمجيء من مكان إلى مكان ، فهو محدود متناه ، فيكون مختصَّاً بمقدار معيَّن ، مع أنَّه كان يجوز في العقل وقوعه على مقدار أزيد منه أو أنقص منه ، فحينئذ يكون اختصاصه بذلك المقدار ، لأجل تخصيص مخصِّص ، وترجيح مرجِّح ، وذلك على الإله القديم محال .

والثَّالث : وهو أنَّا لو جوَّزنا ، فيما يصحُّ عليه المجيء والذَّهاب ، أن يكون إلهاً قديماً أزليَّاً ، فحينئذ لا يمكننا أن نحكم بنفي إلهيَّة الشَّمس والقمر.

الرَّابع : أنَّه تعالى حكى عن الخليل عليه السَّلام : أنَّه طعن في إلهيَّة الكواكب والقمر والشَّمس ، بقوله : **﴿لا أُحِبُّ الْآفِلِينَ﴾** [الأنعام : ٧٦] ، ولا معنى للأفول إلَّا الغيبة والحضور . فمن جوَّز الغيبة والحضور على الإله تعالى ، فقد طعن في دليل الخليل ، وكذَّب الله في تصديق الخليل في ذلك . حيث قال : **﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنا آتَيْناها إِبْراهِيمَ عَلى قَوْمِهِ﴾** [الأنعام : ٨٣] .

وأمَّا النَّوع الثَّاني وهو في بيان التَّأويلات المذكورة في هذه الآية ، فنقول فيه وجوه : الأوَّل : المراد : هل ينظرون إلَّا أن تأتيهم آيات الله ، فجعل مجيء آيات الله مجيئاً له ، على التَّفخيم لشأن الآيات . كما يقال : جاء الملك ، إذا جاء جيش عظيم من جهته ، والذي يدلُّ على صحَّة هذا التَّأويل : أنَّه تعالى قال في الآية المتقدِّمة : **﴿فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جاءَتْكُمُ الْبَيِّناتُ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾** [البقرة : ٢٠٩] ، فذكر ذلك في معرض الزَّجر والتَّهديد . ثمَّ أنَّه تعالى أكَّد ذلك بقوله : **﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللهُ﴾** [البقرة : ٢١٠] ، ومن المعلوم : أنَّ بتقدير أن يصح المجيء والذَّهاب على الله تعالى ، لم يكن مجرَّد حضوره سبباً للزَّجر والتَّهديد ، لأنَّه عند الحضور كما يزجر قوماً ويعاقبهم ، فقد يثيب قوماً ويكرمهم . فثبت أنَّ مجرَّد الحضور ، لا يكون سبباً للزَّجر والتَّهديد والوعيد . فلمَّا كان المقصود من الآية ، إنَّما هو التَّهديد ، وجب أن يضمر في الآية مجيء الهيبة والقهر والتَّهديد . ومتى أضمرنا ذلك ، زالت الشُّبهة بالكليَّة ، وهذا تأويل حسنٌ موافقٌ لنظم الآية.

الوجه الثَّاني : أن يكون المراد : هل ينظرون إلَّا يأتيهم أمر الله ، ومدار الكلام في هذا الباب : أنَّه تعالىٰ إذا أضاف فعلاً إلىٰ شيء ، فإن كان ظاهر تلك الإضافة ممتنعاً ، فالواجب صرف ذلك الظَّاهر إلىٰ التَّأويل . كما قال العلماء في قوله تعالىٰ : **﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ يعني يعادون الله وَرَسُولَهُ أُولئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ﴾** [المجادلة : ٢٠] ، والمراد : يحادُّون أولياءه .

وقد قال تعالىٰ : **﴿وَسْئَلِ الْقَرْيَةَ﴾** [يوسف : ٨٢] ، والمراد : أهل القرية . فكذا قوله تعالىٰ : **﴿يَأْتِيَهُمُ الله﴾** [البقرة : ٢١٠] ، أي : يأتيهم أمر الله ، وليس فيه إلَّا حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه ، وذلك مجازٌ مشهور . يقال : ضربَ الأميرُ فلاناً ، وأعطاه ، والمراد : أنَّه أمر بذلك .

والذي يؤكِّد صحَّة هذا التَّأويل وجهان:

الأوَّل : أنَّ قوله تعالىٰ : **﴿يَأْتِيَهُمُ اللهُ ﴾** [البقرة : ٢١٠] ، وقوله : **﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾** [الفجر : ٢٢] ، إخبار عن حال القيامة . ثمَّ إنَّ الله تعالىٰ ذكر هذه الواقعة بعينها في سورة النَّحل ، فقال : **﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إلاَّ أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾** [النحل : ٣٣] ، فصار هذا مفسِّراً لذلك المتشابه ، لأنَّ كلَّ هذه الآيات لمَّا وردت في واقعة واحدة ، لم يبعد حملُ بعضها علىٰ البعض .

والثَّاني : أنَّه تعالىٰ قال بعد هذه الآية : **﴿وَقُضِيَ الْأَمْرُ ﴾** [البقرة : ٢١٠] ، ولا شكَّ أنَّ الألف واللام للمعهود السَّابق . وهذا يستدعي أن يكون قد جرىٰ ذكره من قبل ذلك حتىٰ تكون الألف واللام إشارة إليه ، وما ذاك إلَّا الذي أضمرناه من أنَّ قوله : **﴿يَأْتِيَهُمُ اللهُ﴾** [البقرة : ٢١٠] ، أي : يأتيهم أمرُ الله

فإن قيل : أمرُ الله عندكم صفة قديمة . فالإتيان عليها : محالٌ . قلنا : الأمر في اللغة له معنيان : أحدهما : الفعْل . والثَّاني : الطَّريق . قال تعالىٰ : **﴿كَلَمْحِ الْبَصَرِ﴾** [القمر : ٥٠] ، وقال : **﴿وَما أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾** [هود : ٩٧] ، فيحمل الأمر في هذه الآية علىٰ الفعل ، وهو ما يليق بتلك المواقف من الأهوال ، وإظهار الآيات المهيبة ، وهذا هو التَّأويل الأوَّل الذي ذكرناه .

وأمَّا إن حملنا الأمر ، علىٰ الأمر الذي هو ضدُّ النَّهي . ففيه وجهان:

الأوَّل : أن يكون التَّقدير هو أنَّ منادياً ينادي يوم القيامة : ألا إنَّ الله يأمركم بكذا وكذا ، ويكون إتيان الأمر : هو وصول ذلك النِّداء إليهم . وقوله في : **﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾** [البقرة : ٢١٠] ، أي : مع ظلل . والتَّقدير : أنَّ سماع ذلك النِّداء ، ووصول تلك الظُّلل في زمان واحد .

الثَّاني : أن يكون المراد من إتيان أمر الله تعالىٰ في ظلل : حصول أصوات مقطَّعة مخصوصة في تلك الغمامات ، دالة علىٰ حكم الله تعالىٰ علىٰ كلِّ واحد ، ممَّا يليق به من السَّعادة والشَّقاوة . أو يكون المراد : أنَّه تعالىٰ خلق نقوشاً منظومة في ظلل من الغمام ، وتكون النُّقوش جليَّة ظاهرة ، لأجل شدَّة بياض ذلك الغمام ، وسواد تلك الكتابة . وهي دالَّة علىٰ أحوال أهل الموقف في الوعد والوعيد وغيرهما ، وتكون فائدة الظُّلل من الغمام : أنَّه تعالىٰ جعلها أمارة لما يريد إنزاله بالقوم ، فيعلمون : أنَّ الأمر قد قَرُب وحضر .

الوجه الثَّالث في التَّأويل : أن يكون المعنىٰ : هل ينظرون إلَّا أن يأتيهم الله بما وعد من العذاب والحساب ؟ فحذف ما يأتي به تعويلاً علىٰ الفهم . إذ لو ذكر ذلك العذاب الذي يأتيهم به ، كان ذلك أسهل عليهم في باب الوعيد.

وأمَّا إذا لم يذكره كان أبلغ في التَّهويل ، لأنَّه حينئذ تنقسم خواطرهم ، وتذهب أفكارهم في كلِّ وجه . ومثله قوله تعالىٰ : **﴿فَأَتاهُمُ الله مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يا أُولِي الْأَبْصارِ﴾** [الحشر : ٢] ، والمعنىٰ : وأتاهم الله بخذلانه من حيث لم يحتسبوا ، وكذا قوله تعالىٰ : **﴿فَأَتَى الله بُنْيانَهُمْ مِنَ الْقَواعِدِ﴾** [النحل : ٢٦] ، ويقال في الكلام المتعارف المشهور ، إذا سمع بولاية رجل : جاءنا فلان بجوره وظلمه . ولا شكّ أنَّه مجاز مشهور .

الوجه الرَّابع في التَّأويل : أن تكون " في " بمعنىٰ " الباء " ، وحروف الجر يُقام بعضها مقام البعض ، وتقديره : هل ينظرون أن يأتيهم الله بظلل من الغمام والملائكة ، والمراد : أنَّه يأتيهم الله بالغمام مع الملائكة.

الوجه الخامس : وهو أقوىٰ من كلِّ ما سبق أنَّا ذكرنا في " التَّفسير الكبير " أنَّ قوله تعالىٰ : **﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً﴾** [البقرة : ٢٠٨] ، إنَّما نزله في حقِّ اليهود . وعلىٰ هذا التَّقدير يكون قوله تعالىٰ : **﴿فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جاءَتْكُمُ الْبَيِّناتُ﴾** [البقرة : ٢٠٩] ، خطاباً مع اليهود ، فيكون قوله : **﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ﴾** [البقرة : ٢١٠] ، حكاية عنهم . والمعنىٰ : أنَّهم لا يقبلون دينكم ، إلَّا لأنَّهم ينظرون أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام !!! وممَّا يدلُّ علىٰ أنَّ المراد ذلك : أنَّهم فعلوا ذلك مع موسىٰ عليه السَّلام ، فقالوا : **﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾** [البقرة : ٥٥] ، وإذا ثبت أنَّ هذه الآية حكاية عن حال اليهود واعتقادهم ، لم يمتنع إجراء الآية علىٰ ظاهرها . وذلك لأنَّ اليهود كانوا علىٰ دين التَّشبيه ، وكانوا يجوِّزون المجيء والذَّهاب علىٰ الله تعالىٰ ، وكانوا يقولون : أنَّه تعالىٰ تجلَّىٰ لموسىٰ

عليه السَّلام علىٰ الطُّور في ظُلل من الغمام ، فظنُّوا مثل ذلك في زمان محمَّد عليه السَّلام . ومعلوم : أنَّ مذهبهم ليس بحجَّة .

وبالجملة : فإنَّه يدلُّ علىٰ أنَّ قوماً ينتظرون أن يأتيهم الله . وليس في الآية دلالة علىٰ أنَّ أولئك الأقوام محقُّون أو مبطلون . وعلىٰ هذا التَّقدير زال الإشكال . وهذا هو الجواب المعتمد عن تمسُّكهم بالآية المذكورة في سورة الأنعام.

فإن قيل : هذا التَّأويل كيف يتعلَّق بهذه الآية ؟ وأنَّه قال في آخرها : **﴿وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾** [البقرة : ٢١٠] . قلنا : أنَّه تعالىٰ حكىٰ عنادهم ، وتوقيفهم قبول الدِّين الحق ، علىٰ الشَّرط الفاسد . ثمَّ ذكر بعده ما يجري مجرىٰ التَّهديد لهم ، فقال : **﴿وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾** [البقرة : ٢١٠] .

وأمَّا قوله تعالىٰ : **﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾** [الفجر: ٢٢] ، فالكلام فيه أيضاً علىٰ وجهين :

الأوَّل : أن تُحمل هذه الآية علىٰ باب المضاف ، وعلىٰ هذا الوجه ، ففي الآية وجوه :

أحدها : وجاء أمر ربِّك بالمحاسبة والمجازاة.

وثانيها : وجاء قهر ربِّك ، كما يقال : جاءنا الملك القاهر . إذا جاء عسكره.

وثالثها : وجاء ظهور معرفة الله تعالىٰ بالضّرورة في ذلك اليوم ، فصار ذلك جارياً مجرىٰ مجيئه وظهوره.

الوجه الثَّاني : أنَّا لا نحمل هذه الآية علىٰ حذف المضاف ، ثمَّ فيه وجهان:

الأوَّل : أن يكون المراد من هذه الآية : التَّمسُّك بظهور آيات الله تعالىٰ ، وسر آثار قدرته وقهره وسلطانه . والمقصود : تمثيل تلك الحالة بحال الملك إذا حضر ، فإنَّه يظهر بمجرد حضوره من آثار الهيبة والسِّياسة ، ما لا يظهر بظهور عساكره كلها.

الثَّاني : أنَّ الربَّ هو المربِّي فلعلَّ مَلكاً عظيماً هو أعظم الملائكة ، كان مربيَّاً للنَّبي ، صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وكان هو المراد من قوله : **﴿وَجَاءَ رَبُّكَ﴾** [الفجر : ٢٢] .

فقد أجاد الإمام الرَّازي وأفاد في جميع المسائل التي ذكرها ، وهي مسائل طالما زلَّت بها أقلامٌ وتعثَّرت بها أقدامٌ ، وبيَّن وجه الحقّ فيها ، وأنّ العقلاء أجمعوا عَلَىٰ أنَّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مُنَزَّهٌ عَنِ الْمَجِيءِ وَالذَّهَابِ ، المقتضي للحركة والنُّقلة ، ودلَّل علىٰ ذلك بالنَّقل والعقل ... وبيَّن أنَّ التفسير المختار لتفسير الآية هو أنَّ قَوْلَهُ تَعَالَىٰ : **﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ﴾** [البقرة : ٢١٠] ، كَنايَةً عَنِ الْيَهُودِ ، وَالْمَعْنَىٰ : أَنَّهم لَا يَقْبَلُونَ دِينَكَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ الله فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ ، أَلَا تَرَىٰ أَنَّهم

فَعَلُوا مَعَ مُوسَىٰ مِثْلَ ذَلِكَ ، فَقَالُوا : ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾ [البقرة : ٥٥] ، وَإِذَا كَانَ هَذَا حِكَايَةً عَنْ حَالِ الْيَهُودِ ، وَلَمْ يَمْنَعْ إِجْرَاءَ الْآيَةِ عَلَىٰ ظَاهِرِهَا ، وَذَلِكَ لِأَنَّ الْيَهُودَ كَانُوا عَلَىٰ مَذْهَبِ التَّشْبِيهِ ، وَكَانُوا يُجَوِّزُونَ عَلَىٰ اللَّهِ الْمَجِيءَ وَالذَّهَابَ ، وَكَانُوا يَقُولُونَ : أَنَّه تَعَالَىٰ تَجَلَّىٰ لِمُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَىٰ الطُّورِ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ ...

قلت : والدَّليل على أنَّ الخطاب مع اليهود : قوله تعالى بعد الآية المذكورة : ﴿سَلْ بَنِي إِسْرائِيلَ كَمْ آتَيْناهُمْ مِنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ وَمَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ ما جاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقابِ﴾ [البقرة:٢١١] .

ومن المعلوم يقيناً أنَّ العديد من عقائد المجسِّمة مأخوذة عن عقائد اليهود الذين ينسبون لله الجلوس على العرش ، والجسم ، والجوارح ، والأعضاء ، وغير ذلك ... ومع ذلك نسبوا أنفسهم زوراً وبُهتاناً للسَّلف الصَّالح ، والعياذ بالله تعالى...

ونواصل الكلام عمَّا قاله علماء الإسلام عن الإتيان المُضاف إلى الله تعالى...

قال الإمام ابن الأثير في " جامع الأصول في أحاديث الرَّسول" (١٦/٤) : " قوله تعالى : ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ﴾ [البقرة : ٢١٠] ، أي : أمرُ الله" .

وقال الإمام ابن القطَّان في " الإقناع في مسائل الإجماع" (١/ ٤٤) : " وأجمعوا أنَّه تعالى يجيء يوم القيامة والملك صفَّاً صفَّاً ، لعرض الأمم ، وحسابها ، وعقابها ، وثوابها ، فيغفر لمن يشاء من المؤمنين ، ويعذِّب منهم من يشاء كما قال ، وليس مجيئه بحركة ولا انتقال " .

فالإمام ابن القطَّان يؤكِّد على أنَّ نزول الله تعالى ومجيئه لا يكون بحركة ولا انتقال ، وهذا هو معتقد ودين الأمَّة سلفاً وخلفاً في هذه المسألة...

وقال الإمام الآمدي في " أبكار الأفكار في أصول الدِّين" (١/ ٤٨٠) : " ... وقوله تعالى : ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ﴾ [البقرة : ٢١٠] ، أي : عذابُ الله في ظُلل من الغمام ، بطريق حذف المضاف ، وإقامة المضاف إليه مقامه . وإنَّما خصَّصه بالظُّلل من الغمام ، لأنَّ أكثر العقوبات كانت يتقدَّمها ظُلل من الغمام ، كما نقل " .

وقال الإمام الحَرَالِّيُّ أَبُو الحَسَنِ عَلِيُّ بنُ أَحْمَدَ بنِ حَسَنٍ التُّجِيْبِيُّ الأَنْدَلُسِيُّ في "تراث أبي الحسن الْحَرَالِّي المراكشي في التفسير" (١/ ٣٧٧) : ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ﴾ [البقرة : ٢١٠] ، وإتيان الله في محل الايمان أمرٌ مُبهم لا يناله علم العالمين ، ويقف دونه إيمان المؤمنين ، لا يأخذونه بكيْف ، ولا يتوهَّمونه بوهم ، وإتيان الله في أوائل فهم الفاهمين ، بدوُّ أمره ... " .

وقـال الإمـام القرطبي في " الجـامع لأحكـام القرآن" (٣/ ٢٥-٢٦) : " قـال أبو العالية والرَّبيع : تأتيهم الملائكـة في ظُلـل من الغمام ، ويأتيهم الله فيما شــاء . وقال الزَّجَّاج : التَّقدير في ظُلل من الغمام ومن الملائكـة . وقيـل : ليس الكلام على ظـاهره في حقِّه سـبحانه ، وإنَّما المعنى : يأتيهم أمرُ الله وحكمه . وقيـل : أي : بما وعدهم من الحســاب والعذاب في ظُلل ، مثل : ﴿فَأَتاهُمُ الله مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِـبُوا﴾ [الحشر : ٢] ، أي : بخذلانه إيَّاهم ، هذا قول الزَّجَّاج ، والأوَّل قول الأخفش سعيد . وقد يُحتمل أن يكون معنى الإتيان راجعاً إلى الجزاء ، فسـمَّى الجزاء إتياناً كما سمَّى التَّخويف والتَّعذيب في قصَّة نمروذ إتياناً ، فقال : ﴿فَأَتَى الله بُنْيانَهُمْ مِنَ الْقَواعِدِ﴾ [النحل : ٢٦] . وقال في قصَّــة النَّضـير ﴿فَأَتاهُمُ الله مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِـبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحشر : ٢] ، وقال : ﴿وَإِنْ كانَ مِثْقالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنا بِها وَكَفى بِنا حاسِبِينَ﴾ [الأنبياء : ٤٧] . وإنَّما احتمل الإتيان هذه المعاني لأنَّ أصل الإتيان عند أهل اللغة هو القصد إلى الشَّيء ، فمعنى الآية : هل ينظرون إلَّا أن يظهر الله تعالى فعلاً من الأفعال مع خلق من خلقه يقصـد إلى مجازاتهم ، ويقضـي في أمرهم ما هو قاض ، وكما أنَّه سبحانه أحدث فعلاً سـمَّاه نزولاً واسـتواء ، كذلك يحدث فعلاً يُسـمِّيه إتياناً ، وأفعاله بلا آلة ولا علَّة ، سبحانه ! وقال ابن عبَّاس في رواية أبي صـالح : هذا من المكتوم الذي لا يُفسَّـر . وقد سكت بعضهم عن تأويلها ، وتـأوَّلها بعضــهم كما ذكرنا . وقيل : الفاء بمعنى الباء ، أي : يأتيهم بظلل ، ومنه الحديث : " يأتيهم الله في صـورة " ، أي : بصورة ، امتحاناً لهم ، ولا يجوز أن يُحمل هذا وما أشبهه ممَّا جاء في القرآن والخبر على وجه الانتقال والحركة والزَّوال ، لأنَّ ذلك من صفات الأجرام والأجسام ، تعالى الله الكبير المتعال ، ذو الجلال والإكرام عن مماثلة الأجسام عُلوَّاً كبيراً " .

وقـال الإمام القرطبي في " الجامع لأحكام القرآن" (٢٠/ ٥٥) : " قوله تعالى : ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ﴾ [الأنعام : ١٥٨] ، معنـاه : أقمت عليهم الحجَّة ، وأنزلت عليهم الكتاب فلم يؤمنوا ، فماذا ينتظرون ؟ ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ أَنْ تَـأْتِيَهُمُ الْمَلائِكَةُ﴾ [الأنعام : ١٥٨] ، أي : عند الموت لقبض أرواحهم ﴿أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ﴾ [الأنعام : ١٥٨] ، قال ابن عبَّاس ، والضَّحَّاك : أمرُ ربِّك فيهم بالقتل أو غيره ، وقد يذكر المضاف إليه والمراد به المضاف ؛ كقوله تعالى : ﴿وَسْـئَلِ الْقَرْيَةَ﴾ [يوسف : ٨٢] ، يعني : أهل القرية . وقول : ﴿وَأُشْـرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ﴾ [البقرة : ٩٣] ، أي : حـبَّ العجـل . كـذلك هنا : يأتي أمرُ ربِّك ، أي : عقوبة ربِّك ، وعذاب ربِّك . ويقال : هذا من المتشابه الذي لا يعلم تأويله إلَّا الله . وقد تقدَّم القول في مثله " البقرة " وغيرها " .

وقال الإمام القرطبي في " الجامع لأحكام القرآن" (٧/ ١٤٤) : " ... وَاللَّهُ جَلَّ ثَنَاؤُهُ لَا يُوصَفُ بِالتَّحَوُّلِ مِنْ مَكَـانٍ إِلَىٰ مَكَانٍ ، وَأَنَّىٰ لَهُ التَّحَوُّلُ وَالِانْتِقَالُ ، وَلَا مَكَانَ لَهُ وَلَا أَوَانَ ، وَلَا يَجْرِي عَلَيْهِ وَقْتٌ وَلَا زَمَانٌ ، لِأَنَّ فِي جَرَيَانِ الْوَقْتِ عَلَىٰ الشَّيْءِ فَوْتُ الْأَوْقَاتِ ، وَمَنْ فاته شيء ، فَهُوَ عَاجِزٌ " .

وقال الإمام القُرافي في " الفروق" (أنوار البروق في أنواء الفروق) (٤/ ٢٩٥) : ﴿**هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ**﴾ [البقرة : ٢١٠] ، وَالْمَجِيءِ فِي قَوْله تَعَالَىٰ : ﴿**وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا**﴾ [الفجر : ٢٢] ، وَالْوَجْهِ فِي قَوْله تَعَالَىٰ : ﴿**وَيَبْقى وَجْهُ رَبِّكَ**﴾ [الرَّحمن : ٢٧] ، وَالْيَدِ فِي قَوْله تَعَالَىٰ : ﴿**يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ**﴾ [الفتح : ١٠] ، والنُّزول فِي حَدِيثِ الصَّحِيحَيْنِ " يَنْزِلُ رَبُّنَا فِي كُلِّ لَيْلَةٍ إِلَىٰ سَمَاءِ الدُّنيا " وَالصُّورَةِ فِي حَدِيثِهِمَا أَيْضاً " إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ آدَمَ عَلَىٰ صُورَتِهِ " ، فَهَذَا يَجُوزُ إِطْلَاقُهُ عَلَىٰ اللَّهِ تَعَالَىٰ ، لَكِنْ إِمَّا مَعَ التَّأويل التَّفْصِيلِيِّ ، كَمَا هُوَ طَرِيقَةُ الْخَلَفِ ، بِأَنْ يُقَالَ : الْمُرَادُ بِالِاسْتِوَاءِ : الِاسْتِيلَاءُ وَالْمُلْكُ ، كَمَا قَالَ:

قَدْ اسْتَوَىٰ بِشْرٌ عَلَىٰ الْعِرَاقِ   مِنْ غَيْرِ سَيْفٍ وَدَمٍ مِهْرَاقِ

وَبِالْفَوْقِيَّةِ : التَّعَالِي فِي الْعَظَمَةِ دُونَ الْمَكَانِ ، وَبِالْإِتْيَانِ : إِتْيَانُ رَسُولِ عَذَابِهِ أَوْ رَحْمَتِهِ وَثَوَابِهِ ، وَكَذَا النُّزول ، وَبِالْوَجْهِ : الذَّات أَوْ الْوُجُودُ ، وَبِالْيَدِ : الْقُدْرَةُ ، وَيَرْجِعُ ضَمِيرٌ عَلَىٰ صُورَتِهِ إِلَىٰ الْأَخِ الْمُصَرَّحِ فِي الطَّرِيقِ الْأُخْرَىٰ الَّتِي رَوَاهَا مُسْلِمٌ بِلَفْظِ : " إذَا قَاتَلَ أَحَدُكُمْ أَخَاهُ فَلْيَتَجَنَّبْ الْوَجْهَ ، فَإِنَّ اللَّهَ خَلَقَ آدَمَ عَلَىٰ صُورَتِهِ " ، وَالْمُرَادُ بِالصُّورَةِ : الصِّفَةُ . وإِمَّا مَعَ التَّأويل الْإِجْمَالِيِّ ، وَيُفَوَّضُ عِلْمُ الْمَعْنَىٰ الْمُرَادَ مِنْ ذَلِكَ النَّصِّ تَفْصِيلاً إِلَيْهِ تَعَالَىٰ ، كَمَا هُوَ طَرِيقُ السَّلف ، كَمَا قَالَ الْإِمَامُ مَالِكٌ : لَمَّا سُئِلَ عَنْ قَوْله تَعَالَىٰ : ﴿**الرَّحْمنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوى**﴾ [طه : ٥] : الِاسْتِوَاءُ مَعْلُومٌ ، وَالْكَيْفُ مَجْهُولٌ ، وَالسُّؤَالُ عَنْهُ بِدْعَةٌ . الحق أنَّ ما ينسبه الكثيرون للإمام مالك (١٧٩هـ) في مسألة الاستواء : الاستواء معلوم ، والكيف مجهول ... منحول موضوع على مالك ، وهو مرويٌّ كذلك عن ربيعة بن عبد الرَّحمن ، وأمِّ سلمة ، رضي الله عنها ، وهو كلام لم يثبت عنهم ، فقد قال أستاذنا الأستاذ المحقِّق المدقِّق حسَّان عبد المنان – حفظه الله – : " ليس لهذا إسناد يثبتُ وإليك تفصيله : رواه اللالكائي في " شرح أصول الاعتقاد " (٦٦٤) ، وإسماعيل بن عبد الرَّحمن الصابوني في " عقيدة السَّلف " (١/ ١١٠-١١١) " من الرسائل المنيرية " ، وأبو نعيم في " الحلية " (٦/ ٣٢٥-٣٢٦) من طريق سلمة بن شبيب ، عن مهدي بن جعفر عن جعفر بن عبد الله ، عن مالك بن أنس (١٧٩هـ) . وتابعه الدارمي في " الرد على الجهمية " (ص٢٨٠) ، فقال : عن مهدي بن جعفر ، عن جعفر بن عبد الله ، عن رجلٍ قد سمّاه لي ، قال : جاء رجل إلى مالك بن أنس (١٧٩هـ) ... وفي هذا الإسناد ثلاث عِلَلٍ : رواية الدارمي المخالفة لرواية سلمة بن شبيب ، فزاد فيها رجلاً مجهولاً ، وجهالة جعفر بن عبد الله فإني لم أتبيَّنه ، وما عند الدَّارمي في روايته من توثيقه لا يُحسِّنُ أمرَه وحالَه ، وأمَّا مهدي بن جعفر ـ وهو الرَّملي ـ ففيه نظر ، إذ نقلوا أنَّ ابن عدي قال : يروي عن الثِّقات أشياء لا يُتابعُه عليها أحدٌ ، وهذا يُشعر بنكارة حديثه ، وهو ما حكم به البخاري ، فقال : حديثُه منكر . " التَّهذيب " .ورواه ابن عبد البر في " التَّمهيد " (٧/ ١٥١) من طريق بقي بن مخلد ، حدَّثنا بكَّار بن عبد الله القرشي ، حدَّثنا مهدي بن جعفر ، عن مالك بن أنس ، به . وفي هذه الرِّواية وهمٌ وتدليس ، كأنَّه من بكَّر بن عبد الله ، فقد أسقطَ مَنْ بينَ

مهدي بن جعفر ومالك ، وقد بيَّنا ذلك في الرِّواية السَّابقة . ورواه إسماعيل بن عبد الرَّحمن الصَّابوني (١/ ١١٠) ، عن أبي الحسن بن إسحاق المدني ، حدَّثنا أحمد بن الخضر أبو الحسن الشَّافعي ، حدَّثنا شاذان ، حدَّثنا ابن مخلد بن يزيد القهستاني ، حدَّثنا جعفر بن ميمون ، قال : سُئل مالك بن أنس ... وهذا إسنادٌ لا يصحُّ أيضاً ، فجعفر بن ميمون هو الأنماطي ، وهو ضعيف ، وشاذان وشيخُه لم أعثر لهما علىٰ ترجمة !! ورواه البيهقي (٤٥٨هـ) في " الأسماء والصِّفات " (ص٤٠٨) ، عن أبي عبد الله ، أخبرني أحمد بن محمَّد بن إسماعيل بن مهران ، حدَّثنا أبي ، حدَّثنا أبو الربيع ابن أخي رشدين بن سعد ، قال : سمعتُ عبد الله بن وهب ، يقول : كُنَّا عند مالك بن أنس .. فذكره . وهذا إسنادٌ لا يصحُّ أيضاً ـ وإن جوَّد إسناده ابن حجر في " الفتح " (١٣ـ٤٠٧) ، فأبو الرَّبيع لم أعرفه ، وأحمد : لم أعثر له علىٰ ترجمة ، وأبوه مترجم في " اللسان " (٥/ ٨١–٨٢) ، وفيه نظرٌ وضعف في آخر ست سنوات من عمره. ورواه البيهقي (ص٤٠٨) ، عن أبي بكر أحمد بن محمَّد بن الحارث الفقيه الأصفهاني ، أخبرنا أبو محمَّد عبد الله بن محمَّد بن جعفر بن حيَّان المعروف بأبي الشَّيخ ، حدَّثنا أبو جعفر بن زيرك البزي ، سمعتُ محمَّد بن عمرو بن النَّضر النَّيسابوري ، يقول : سمعتُ يحيىٰ بن يحيىٰ ، يقول : كُنَّا عند مالك بن أنس فجاء رجل ... فذكره. وهذا إسنادٌ لا يصحُّ أيضاً ، فابنُ زيرك لم أجد له ترجمة ، ومحمَّد بن عمرو بن النَّضر ذكره ابن حجر في " نزهة الألباب " (٢/ ٩٢) ، ولم يذكر فيه جرحاً ولا تعديلاً ، وانظر " سير أعلام النُّبلاء " (٨/ ١٠٠–١٠١) . ورواه ابن عبد البر في " التَّمهيد " (٧/ ١٥١) ، عن محمَّد بن مالك ، قال : حدَّثنا عبد الله بن يونس ، قال : حدَّثنا بقي بن مخلد ، قال : حدَّثنا أيُّوب بن صلاح المخزومي بالرَّملة ، قال : كُنَّا عند مالك إذ جاءَه عراقي ، فقال له ... فذكره . كذا في المطبوع : " أيُّوب بن صلاح " ، وهو تحريف ، إنَّما هو أيُّوب بن صالح بن سلمة الحرَّاني المخزومي ، وهو ضعيف ، ضعَّفه ابن معين وغيرُه . انظر ترجمته في " اللسان " (١/ ٤٨٣–٤٨٤) .

وبهذا يتبيَّن لك خطأ الحافظ الذَّهبي في قوله في " العلو " (ص١٤١مختصره) : هذا ثابت عن مالك " !! ومن ثمَّ خطأ كُلّ مَن سَلَّمَ بما نُسِبَ إلىٰ الإمام مالك رحمه الله ، لأنَّ أسانيده لا تَقُومُ لذلك . وقد يَرِدُ علينا أنَّ ذلك بمجموع هذه الطُّرق والأسانيد يصحُّ . فنقولُ : إنَّ مثلَ هذه الأسانيد لا تتقوَّىٰ ، وليس عجيباً أن تتكثَّرَ ، لأنَّ الفتنة في هذه المسألة قد انتشرت في ذاك الحين ، ونُسِبَ زوراً هذا القول إلىٰ مالك وغيره ، فتناقلَه مجاهيلُ من النَّاس لا يُعرفون بصحيح علمٍ ، ولا توثيق ، فانتشرت لشائعاتها ، وإلاَّ فقُل لي بربِّكَ ـ : أين الثِّقات من تلامذة الإمام مالك ، وتلامذتهم عن مثل هذه الحادثة وهذا القول ؟ !

وفي الباب ممَّا رُوِيَ بنحوِه :

١-قول أُم سلمة : رواه اللالكائي (٦٦٣) ، والصَّابوني في " عقيدة السَّلف " (١/ ١١٠) ، وابن قدامة في " العلو " (٨٢) ، وفي إسنادِه : محمَّد بن أشرس ، وهو متَّهم في الحديث ، وقد تركه غير واحد ، وقال شيخ الإسلام في " الفتاوىٰ " (٥/ ٣٦٥) : وقد رُوِيَ هذا الجواب عن أُمِّ سلمة رضي الله عنها موقوفاً ومرفوعاً ، ولكن ليس إسناده ممَّا يُعتمد عليه .

٢-قول ربيعة شيخ الإمام مالك : رواه اللالكائي(٦٦٥) ، والبيهقي (ص٤٠٨–٤٠٩) ، وابن قدامة في " العلو " (٩٠) .. بأسانيد لا تصحُّ . وعلىٰ أيٍّ فالقضية تبقىٰ رأياً من عالم ، غير ملزمٍ للنَّاس ، ولا قاطع للجدل والفهمِ ، ولا محدِّدٍ لفهمٍ واحدٍ ، بل لكُلٍّ مُتَّسع فيما يرىٰ ... والله أعلم " اهـ . انظر : مجموعة رسائل محمَّد نسيب الرفاعي (ص٢٨–٢٩).

فالكلام المنسوب لمالك ليس دقيقاً ولا صحيحاً ، لأنَّه اقتضىٰ أنَّ لله تعالىٰ كيفيَّة مجهولة ، وهو قول بالتَّجسيم ، قال الإمام المناوي : " الكيْف هيئة قارَّة في الشَّيء ، لا تقتضي قسمة ولا نسبة لذاته ، وقال أبو

البقاء : الكيفيَّة منسوبة إلىٰ كيف ، وهي معرفة الحال ، لأنَّ كيف سؤال عن الحال ، كيف كلمة مدلولها استفهام عن عموم الأحوال التي شأنها أن تُدرك بالحواس " . انظر : التوقيف علىٰ مهمات التعاريف (ص٦١٤).

كَمَا فِي شَرْحِ عَبْدِ السَّلَامِ عَلَىٰ جَوْهَرَةِ التَّوْحِيدِ.

وَالْقِسْمُ الثَّاني : مَا وَرَدَ نَظِيرُهُ فِي كِتَابٍ أَوْ سُنَّةٍ صَحِيحَةٍ ، وَإِلَىٰ مِثَالِهِ وَحُكْمِهِ أَشَارَ الْعَلَّامَةُ الْأَمِيرُ فِي حَاشِيَتِهِ عَلَىٰ شَرْحِ الشَّيخ عَبْدِ السَّلَامِ عَلَىٰ جَوْهَرَةِ التَّوْحِيدِ ، بِقَوْلِهِ : وَاعْلَمْ أَنَّ مَنْ قَالَ جِسْمٌ كَالْأَجْسَامِ ، فَاسِقٌ ، وَلَا يُعَوَّلُ عَلَىٰ اسْتِظْهَارِ بَعْضِ أَشْيَاخِنَا كُفْرَهُ كَيْفَ ، وَقَدْ صَحَّ : وَجْهٌ لَا كَالْوُجُوهِ ، وَيَدٌ لَا كَالْأَيْدِي ، نَعَمْ لَمْ تَرِدْ عِبَارَةُ جِسْمٍ فَلْيُتَأَمَّلْ اهـ بِلَفْظِهَا.

قُلْت : وَمِنْ هَذَا الْقِسْمِ قَوْلُ الْقَائِلِ : أَنَّه تَعَالَىٰ فِي مَكَان لَيْسَ كَمَكَانِ الْحَوَادِثِ ، لِأَنَّهُ قَدْ صَحَّ اسْتِوَاءٌ عَلَىٰ الْعَرْشِ لَا كَالِاسْتِوَاءِ عَلَىٰ السَّرِيرِ ، نَعَمْ لَمْ تَرِدْ عِبَارَةُ مَكَان ، بَلْ قَالَ إِمَامُ الْحَرَمَيْنِ : حَدِيثُ " لَا تُفَضِّلُونِي عَلَىٰ يُونُسَ " يُفِيدُ أَنَّه تَعَالَىٰ مُنَزَّهٌ عَنْ الْمَكَانِ أَزَلاً ، إِذْ لَوْلَا تَنَزُّهُهُ عَنْ الْجِهَةِ لَكَانَ محمَّد – صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – فِي مِعْرَاجِهِ أَقْرَبَ مِنْ يُونُسَ فِي نُزُولِ الْحُوتِ بِهِ لِقَاعِ الْبَحْرِ ،كَمَا أَفَادَهُ الْأَمِيرُ فِي الْحَاشِيَةِ الْمَذْكُورَةِ ... " .

فالإمام القرافي حكىٰ طريق جمهور السَّلف وطريق جمهور الخلف في المتشابه ، وذكر أنَّ المراد بالإتيان – علىٰ طريق الخلف – إِتْيَانُ رَسُولِ عَذَابِهِ أَوْ رَحْمَتِهِ وَثَوَابِهِ ، وَكَذَا النُّزول...

وقال الإمام البيضاوي في " أنوار التَّنزيل وأسرار التَّأويل" (١/ ١٣٤) : ﴿**هَلْ يَنْظُرُونَ**﴾ [البقرة : ٢١٠] ، استفهام في معنىٰ النَّفي ، ولذلك جاء بعده : ﴿**إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللهُ**﴾ [البقرة : ٢١٠] ، أي : يأتيهم أمرُه أو بأسه ، كقوله تعالىٰ : ﴿**أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ**﴾ [النحل : ٣٣] ، ﴿**فَجاءَها بَأْسُنا**﴾ [الأعراف : ٤] ، أو يأتيهم الله ببأسه ، فحذف المأتي به للدّلالة عليه بقوله تعالىٰ : ﴿**أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ**﴾ [البقرة : ٢٠٩] .

وقال الإمام البيضاوي في " أنوار التَّنزيل وأسرار التَّأويل" (٢/ ١٩٠) : ﴿**أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ**﴾ [الأنعام : ١٥٨] ، أي : أمرُه بالعذاب ، أو كلّ آية يعني آيات القيامة والهلاك الكلّي " .

وقال الإمام النَّسفي في " التَّفسير " (١/ ١١٤) : ﴿**إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللهُ**﴾ [البقرة : ٢١٠] ، أي : أمر الله وبأسه ، كقوله : ﴿**أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ**﴾ [النحل : ٣٣] ، ﴿**فَجاءَها بَأْسُنا**﴾ [الأعراف : ٤] ، أو المأتي به محذوف بمعنىٰ : أن يأتيهم الله ببأسه للدّلالة عليه بقوله : ﴿**فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ**﴾ [البقرة : ٢٠٩] .

وقال الإمام النَّسفي في " التَّفسير " (٢/ ٣٩) : ﴿**أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ**﴾ [الأنعام : ١٥٨] ، أي : أمرُ ربِّك وهو العذاب أو القيامة ، وهذا لأنَّ الإتيان متشابه ، وإتيان أمره منصوص عليه محكم، فيردّ إليه " .

وقال الإمام ابن منظور في " لسان العرب"(٣١١٨/٤) : " قولُه تعالىٰ : ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ﴾ [البقرة : ٢١٠] ، والغَمام معروفٌ في كلام العرب ، إِلَّا أَنَّا لا ندْري كيف الغَمامُ الذي يأْتي الله عزَّ وجلَّ يومَ القيامة في ظُلَلٍ منه ، فنحن نُؤْمن به ، ولا نُكَيِّفُ صِفَتَه ، وكذلك سائرُ صِفاتِ الله عزَّ وجلَّ " .

وقال الإمام الخازن في " المسمَّىٰ لباب التَّأويل في معاني التَّنزيل" (١٩٧/١-١٩٨) : " قوله عزَّ وجلَّ : ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ﴾ [البقرة : ٢١٠] ، أي : ينتظرون التَّاركون الدُّخول في السّلم والمتَّبعون خطوات الشَّيطان إلَّا أن يأتيهم الله في ظُلل ، جمع ظلَّة ، من الغمام ، يعني : السَّحاب الأبيض الرَّقيق ، سمِّي غماماً لأَنَّهم يغم ويستر ، وقيل : هو شيء غير السَّحاب ، ولم يكن إلَّا لبني إسرائيل في تيههم ، وهو كهيئة الضَّباب الأبيض والملائكة ، أي : وتأتيهم الملائكة ...

واعلم أنَّ هذه الآية من آيات الصِّفات ، للعلماء في آيات الصِّفات وأحاديث الصِّفات مذهبان:

أحدهما : وهو مذهب سلف هذه الأمَّة وأعلام أهل السُّنَّة : الإيمان والتَّسليم لما جاء في آيات الصِّفات وأحاديث الصِّفات ، وأنَّه يجب علينا الإيمان بظاهرها ، ونؤمن بها كما جاءت ، ونكِل علمها إلىٰ الله تعالىٰ وإلىٰ رسوله ، صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، مع الإيمان ، والاعتقاد بأنَّ الله تعالىٰ منزَّه عن سمات الحدوث ، وعن الحركة والسُّكون.

قال الكلبي : هذا من الذي لا يُفسَّر ، وقال سفيان بن عيينة : كلُّ ما وصف الله به نفسه في كتابه ، فتفسيره : قراءته ، والسُّكوت عليه ، ليس لأحدٍ أن يفسِّره إلَّا الله ورسوله.

وكان الزُّهري ، والأوزاعي ، ومالك ، وابن المبارك ، وسفيان الثوري ، والليث بن سعد ، وأحمد بن حنبل ، وإسحاق بن راهويه ، يقولون في هذه الآية وأمثالها : اقرؤوها كما جاءت ، بلا كيف ، ولا تشبيه ، ولا تأويل ، هذا مذهب أهل السُّنَّة ، ومعتقد سلف الأمَّة ، وأنشد بعضهم في المعنىٰ:

عقيدتنا أن ليس مثل صفاته ... لا ذاته شيء عقيدة صائب
نسلم آيات الصِّفات بأسرها ... وأخبارها للظَّاهر المتقارب
ونؤيس عنها كُنه فهم عقولنا ... وتأويلنا فعل اللبيب المغالب
ونركب للتَّسليم سفناً فإنَّها ... لتسليم دين المرء خير المراكب

المذهب الثَّاني : وهو قول جمهور علماء المتكلِّمين ، وذلك أنَّه أجمع جميع المتكلِّمين من العقلاء والمعتبرين من أصحاب النَّظر علىٰ أنَّه تعالىٰ منزَّه عن المجيء والذَّهاب ، ويدلُّ علىٰ ذلك أنَّ كلّ ما يصحُّ عليه المجيء والذَّهاب ، لا ينفكُّ عن الحركة والسُّكون ، وهما محدثان ، وما لا ينفكُّ عن المحدث فهو محدث ، والله تعالىٰ منزَّه عن ذلك ، فيستحيل ذلك في حقِّه تعالىٰ ، فثبت بذلك أنَّ ظاهر الآية ليس مراداً ، فلا بدَّ من التَّأويل علىٰ سبيل التَّفصيل ، فعلىٰ هذا قيل في معنىٰ الآية : **﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللهُ﴾** [البقرة :٢١٠] ، فيكون مجيء الآيات مجيئاً لله تعالىٰ علىٰ سبيل التَّفخيم لشأن الآيات ، وقيل معناه : إلَّا أن يأتيهم أمر الله ، ووجه هذا التَّأويل أنَّ الله تعالىٰ فسَّره في آية أخرىٰ ، فقال : **﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾** [النحل : ٣٣] ، فصار هذا الحكم مفسِّراً لهذا المجمل في هذه الآية .

وقيل : معناه يأتيهم الله بما أوعد من الحساب والعقاب ، فحذف ما يأتي به تهويلاً عليهم ، إذ لو ذكر ما يأتي به كان أسهل عليهم في باب الوعيد ، وإذا لم يذكر كان أبلغ . وقيل : يحتمل أن تكون الفاء بمعنىٰ الباء ، لأنَّ بعض الحروف يقوم مقام بعض ، فيكون المعنىٰ : هل ينظرون إلَّا أن يأتيهم الله بظلل من الغمام والملائكة ، والمراد : العذاب الذي يأتي من الغمام مع الملائكة . وقيل : معناه : ما ينظرون إلَّا أن يأتيهم قهر الله وعذابُه في ظُلل من الغمام ."

وقال الإمام الخازن في " لباب التَّأويل في معاني التَّنزيل" (٢/ ٢٠٢) : **﴿أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ﴾** [الأنعام : ١٥٨] ، يعني : للحكم وفصل القضاء بين الخلق يوم القيامة ، وقد تقدَّم الكلام في معنىٰ الآية في سورة البقرة عند قوله : **﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ﴾** [البقرة : ٢١٠] ، بما فيه كفاية ، وإنَّ المجيء والذَّهاب علىٰ الله مُحالٌ ، فيجب إمرارها بلا تكييف ".

وما ذكره الإمام الخازن في تفسير الإتيان المضاف إلىٰ الله تعالىٰ هو عَيْن ما ذكره مَنْ ذكرنا قوله سابقاً وما سنذكره لاحقاً من أهل العلم الذين يمثِّلون السَّواد الأعظم من علماء الأمَّة الذين ذكروا ما ذهب إليه جمهور السَّلف من السُّكوت وعدم الكلام فيها ، لأنَّها من المكتوم الذي لا يفسَّر ، وتفسيرها قراءتها ، وكذا ما ذهب إليه جمهور الخلف من بيان معـــانيها التي لا تتصادم مع مطلق التَّنزيه وقواعد اللغة العربيَّة …

وقال الإمام عبد العزيز بن أحمد بن محمَّد البخاري الحنفي في " كشف الأسرار شرح أصول البزدوي" (٤/ ٣٣٨) : " وَإِثْبَاتُ الْأَغْيَارِ فِي الْأَزَلِ مُنَافٍ لِلتَّوْحِيدِ . وَمُجَوِّزُ الْحُدُوثِ فِي الصِّفات تَعَلَّقَ بِنَحْوِ قَوْله تَعَالَىٰ : **﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾** [الفجر: ٢٢] ، **﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ**

﴾ [البقرة : ٢١٠] ، ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ﴾ [الأنعام : ١٥٨] ، وَالْبَاغِي احْتَجَّ بِقَوْلِهِ تَعَالَىٰ : ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ﴾ [الأنعام : ٥٧] ، ﴿وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خالِداً فِيها ﴾ [النساء : ١٤] ، ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً فَجَزاؤُهُ جَهَنَّمُ خالِداً فِيها﴾ [النساء : ٩٣] ، فَكَانَ هَذَا الْجَهْلُ دُونَ الْجَهْلِ الْأَوَّلِ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ ، وَإِنْ كَانَ لَا يَصْلُحُ عُذْراً فِي الْآخِرَةِ ، وَلَكِنَّهُ ، أَيْ : هَذَا الْجَاهِلُ ، وَهُوَ الْبَاغِي ، وَصَاحِبُ الْهَوَىٰ ، لَمَّا كَانَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ؛ لِأَنَّهُ بِالْبَغْيِ لَمْ يَخْرُجْ عَنْ الْإِسْلَامِ وَكَذَلِكَ بِالْهَوَىٰ إِذَا لَمْ يَغْلُ فِيهِ ، أَوْ مِمَّنْ يَنْتَحِلُ الْإِسْلَامَ ، يَعْنِي : إِذَا غَلَا فِي هَوَاهُ حَتَّىٰ كَفَرَ ، وَلَكِنَّهُ يَنْتَسِبُ إِلَىٰ الْإِسْلَامِ مَعَ ذَلِكَ كَغُلَاةِ الرَّوَافِضِ وَالْمُجَسِّمَةِ . لَزِمَنَا مُنَاظَرَتُهُ وَإِلْزَامُهُ قَبُولَ الْحَقِّ بالدَّليل فَلَمْ نَعْمَلْ بِتَأْوِيلِهِ الْفَـــاسِدِ " .

وقال الإمام ابن جماعة في " إيضاح الدَّليل في قطع حجج أهل التَّعطيل" (ص١١٧-١١٩) : " اعْلَم أَنَّ الْمَجِيء والذهاب والإتيان بالذَّات على الله تَعَالَىٰ مُحَالٌ ، لِأَنَّهُ من صِفَات الْحَوَادِث المحدودة للانتقال من حيّز إِلَىٰ حيّز ، وَلذَلِك اسْتدلَّ الْخَلِيل عَلَيْهِ السَّلَام على نفي إلهيَّة الْكَوَاكِب بأفولهنَّ ، وَصدقه الله تَعَالَىٰ فِي استدلاله ، وَصَحَّحهُ بقوله : ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنا آتَيْناها إِبْراهِيمَ عَلى قَوْمِهِ﴾ [الأنعام : ٨٣] ، إِذا ثَبت هَذَا تعيَّن تَأْوِيل ذَلِك وتأويله من وُجُوه :

الأوَّل : وَهُوَ أظهر ، أَنَّ فِي الْكَلَام مُضَافاً مُقدراً ، تَقْدِيره : إِلَّا أَن يَأْتِيهم أَمرُ الله ، وَهُوَ مجَاز كثير مُسْتَعْمل ، وَمِنْه : ﴿إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ﴾ [محمَّد : ٧] ، أَي : دين الله ، أَو نَبِي الله ، أَو أَوْلِيَاء الله ، وَمِنْه : ﴿يُخادِعُونَ اللَّهَ﴾ [البقرة : ٩] و ﴿يُحَادُّونَ اللَّهَ﴾ [المجادلة : ٥] ، ﴿وَسْئَلِ الْقَرْيَةَ﴾ [يوسف : ٨٢] ، وَهُوَ كثير ، فَيدلُّ على مَا أوَّلناه .

قَوْله تَعَالَىٰ فِي الْآيَة الْأُخْرَىٰ : ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ [النحل : ٣٣] ، فَتكون هَذِه الْآيَة مفسِّرة لِلْآيَةِ الْأُخْرَىٰ ، وَيُؤَيِّدهُ أَيْضاً قَوْله بعد هَذَا : ﴿وَقُضِيَ الْأَمْرُ ﴾ [البقرة : ٢١٠] ، وَلَيْسَ مَعنا أَمر مَعْهُود إِلَّا الْمُقدر الَّذِي ذكره ، فَيكون حرف التَّعْرِيف لَهُ ، وَكَذَلِكَ قَوْله : ﴿وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴾ [البقرة : ٢١٠] .

الْوَجْه الثَّانِي : أَنَّ الْآيَة سيقت للتَّنديد ، وَلَو أُرِيد حَقِيقَة الذَّات لم يكن للتَّنديد معنىٰ ، لأنَّ إِتْيَانه يكون رَحْمَة ونعمة ، فَقَوله أولاً : ﴿فَإِنْ زَلَلْتُمْ﴾ [البقرة : ٢٠٩] إِلَىٰ آخِره ، دَلِيل على التَّنديد ، فَيكون الْمُقدَّر : أَمرُ الله تَعَالَىٰ ، أَو عَذَابُه ، أَو قَضَاؤُهُ . قَالَ الإِمَام أَحْمد بن حَنْبَل رَحمَه الله تَعَالَىٰ وَغَيره من الْأَئِمَّة : الْمُرَاد : قُدرتهُ وَأمرُهُ " .

فتفسير الإمام ابن جماعة للإتيان المضاف إلى الله تعالى ينتظم في أَنَّ الْمَجِيء والذَّهاب والإتيان بالذَّات على الله تَعَالَى مُحَالٌ ، لِأَنَّهُ من صِفَات الْحَوَادِث التي تتَّصف بالانتقال من حيِّز إِلَى حيِّز ...وأَنَّ فِي الْكَلَام مُضَافاً مُقَدَّراً ، تَقْدِيره : إِلَّا أَن يَأْتِيهم أَمرُ الله ... وآية الإتيان سيقت للتَّنديد ، وَلَو أُرِيد حَقِيقَة الذَّات لم يكن للتَّنديد معنى...

وقال الإمام ابن الحاج في " المدخل" (١٤٨/٢) : " ... وإنَّما نهى مالك رحمه الله أن يتحدَّث بهذين الحديثين وبالحديث الذي جاء : أنَّ الله " خلق آدم على صورته " ، ونحوه من الأحاديث ، لأنَّ ظاهرها يقتضي التَّشبيه ، وسبيلها إذا صحَّت الرِّوايات بها أنَّ تتأوَّل على ما يصحُّ ممَّا ينتفي به التَّشبيه عن الله عزَّ وجلَّ بشيء من خلقه ، كما يصنع بما جاء في القرآن مما يقتضي ظاهره التشبيه ، وهو كثير ، كالإتيان في قوله عزَّ وجلَّ : **﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ﴾** [البقرة : ٢١٠] ، والمجيء في قوله عزَّ وجلَّ : **﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾** [الفجر : ٢٢] ، وذلك يحتمل وجهين :

أحدهما : أن يكون المراد بقوله : **﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللهُ﴾** [البقرة : ٢١٠] ، أي : عذابه ونقمته لمن كفر به وألحد في آياته ، وكذلك المعنى في قوله : **﴿وَجَاءَ رَبُّكَ﴾** [الفجر:٢٢] .

الوجه الثَّاني : أن يكون المراد : الظُّهور ، إذ لا فرق بين الدُّنيا والآخرة بالنِّسبة إليه سبحانه وتعالى " .

فقد ذكر الإمام ابن الحاج أنَّ الإمام مالك رحمه الله نهى أن يتحدَّث بكلِّ ما يقتضي ظاهره التَّشبيه ، وأنَّه متى صحَّت الرِّواية صِيِّرَ إلى تأويلها ، كما يصنع بما جاء في القرآن ممَّا يقتضي ظاهره التَّشبيه ، كالإتيان والمجيء ، وأنَّ المقصود بالإتيان الوارد في الآية : عذابه ونقمته لمن كفر به وألحد في آياته...

وقال الإمام ابن جزّي الكلبي الغرناطي في " التَّسهيل لعلوم التَّنزيل" (١١٧/١) : **﴿هَلْ يَنْظُرُونَ﴾** [البقرة : ٢١٠] ، أي : ينتظرون ، **﴿يَأْتِيَهُمُ اللهُ﴾** [البقرة : ٢١٠] ، تأويله عند المتأوّلين : يأتيهم عذابُ الله في الآخرة ، أو أمرُه في الدُّنيا ، وهي عند السَّلف الصَّالح من المتشابه ، يجب الإيمان بها من غير تكييف ، ويحتمل أن لا تكون من المتشابه ، لأنَّ قوله : **﴿يَنْظُرُونَ﴾** [البقرة : ٢١٠] ، بمعنى : يطلبون بجهلهم ، كقولهم : **﴿لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللهُ﴾** [البقرة : ١١٨] ، **﴿فِي ظُلَلٍ﴾** ، جمع ظلَّة ، وهي ما علاك من فوق ، فإن كان ذلك لأمر الله فلا إشكال فيه ، وإن كان لله فهو من المتشابه ... " .

فقوله : " وإن كان لله فهو من المتشابه " ، يعني : أنَّ الأسلم عدم الخوض في معناه ، كما هو منهج جمهور السَّلف وبعض الخلف...

وقال الإمام أبو حيَّان الأندلسي في " البحر المحيط في التَّفسير " (٢/٣٤٣-٣٤٤) : " وَالْإِتْيَانُ حَقِيقَةٌ فِي الِانْتِقَالِ مِنْ حَيِّزٍ إِلَىٰ حَيِّزٍ ، وَذَلِكَ مُسْتَحِيلٌ بِالنِّسْبَةِ إِلَىٰ اللَّهِ تَعَالَىٰ ، فَرَوَىٰ أَبُو صَالِحٍ عَنِ ابْنِ عبَّاس : إِنَّ هَذَا مِنَ الْمَكْتُومِ الَّذِي لَا يُفَسَّرُ ، وَلَمْ يَزَلِ السَّلف فِي هَذَا وَأَمْثَالِهِ يُؤْمِنُونَ ، وَيَكِلُونَ فَهْمَ مَعْنَاهُ إِلَىٰ عِلْمِ الْمُتكَلِّمِ بِهِ ، وَهُوَ الله تَعَالَىٰ.

وَالْمُتَأَخِّرُونَ تَأَوَّلُوا الْإِتْيَانَ وَإِسْنَادَهُ عَلَىٰ وُجُوهٍ:

أَحَدُهَا : أَنَّه إِتْيَانٌ عَلَىٰ مَا يَلِيقُ بِاللَّهِ تَعَالَىٰ مِنْ غَيْرِ انْتِقَالٍ.

الثَّاني : أَنَّه عبَّر به عن المجازات لَهُمْ ، وَالِانْتِقَامِ ، كَمَا قَالَ : **﴿فَأَتَى الله بُنْيانَهُمْ مِنَ الْقَواعِدِ﴾** [النحل : ٢٦] ، **﴿فَأَتاهُمُ الله مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا﴾** [الحشر : ٢] .

الثَّالِثُ : أَنْ يَكُونَ مُتَعَلِّقُ الْإِتْيَانِ مَحْذُوفًا ، أَيْ : أَنْ يَأْتِيَهُمُ الله بِمَا وَعَدَهُمْ مِنَ الثَّواب ، وَالْعِقَابِ ، قَالَهُ الزَّجَّاجُ.

الرَّابِعُ : أَنَّه عَلَىٰ حَذْفِ مُضَافٍ ، التَّقْدِيرُ : أَمْرُ اللَّهِ ، بِمَعْنَى : مَا يَفْعَلُهُ الله بِهِمْ ، لَا الْأَمْرُ الَّذِي مُقَابِلُهُ النَّهْيُ ، وَيُبَيِّنُهُ قَوْلُهُ بَعْدُ : وَقُضِيَ الْأَمْرُ.

الْخَامِسُ : قُدْرَتُهُ ، ذَكَرَهُ الْقَاضِي أَبُو يَعْلَىٰ عَنْ أَحْمَدَ.

السَّادِسُ : أَنَّ **﴿ فِي ظُلَلٍ﴾** ، بِمَعْنَىٰ بِظُلَلٍ ، فَيَكُونُ : فِي ، بِمَعْنَىٰ : الْبَاءِ ، كما قال : خَبِيرُونَ فِي طَعْنِ الْأَبَاهِرِ وَالْكُلَىٰ ، أَيْ : بِطَعْنٍ ، لِأَنَّ خَبِيراً لَا يَتَعَدَّىٰ إِلَّا بِالْبَاءِ ، كَمَا قَالَ :

خَبِيرٌ بِأَدْوَاءِ النِّسَاءِ طَبِيبُ ، قَالَ الزَّجَّاجُ وَغَيْرُهُ.

وَالْأَوْلَىٰ أَنْ يَكُونَ الْمَعْنَىٰ : أَمْرُ اللَّهِ ، إِذْ قَدْ صَرَّحَ بِهِ فِي قَوْلِهِ : **﴿أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾** [النحل : ٣٣] ، وَتَكُونُ عِبَارَةً عَنْ بَأْسِهِ وَعَذَابِهِ ، لِأَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ إِنَّما جاءَتْ مَجِيءَ التَّهْدِيدِ وَالْوَعِيدِ ، وَقِيلَ : الْمَحْذُوفُ : آيَاتُ اللَّهِ ، فَجَعَلَ مَجِيءَ آيَاتِهِ مَجِيئًا لَهُ عَلَىٰ التَّفْخِيمِ لِشَأْنِهَا ، قَالَهُ فِي (الْمُنْتَخَبِ) . وَنُقِلَ عَنِ ابْنِ جَرِيرٍ أَنَّه قَالَ : يَأْتِيَهُمْ بِمُحَاسَبَتِهِمْ عَلَىٰ الْغَمَامِ عَلَىٰ عَرْشِهِ تَحْمِلُهُ ثَمَانِيَةٌ مِنَ الْمَلَائِكَةِ ، وَقِيلَ : الْخِطَابُ مَعَ الْيَهُودِ ، وَهُمْ مُشَبِّهَةٌ ، وَيَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّه مع اليهود قول بَعْدُ : سَلْ بَنِي إِسْرائِيلَ ، وَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ ، فَالْمَعْنَىٰ : أَنَّهم لَا يَقْبَلُونَ ذَلِكَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ الله ، فَالْآيَةُ عَلَىٰ ظَاهِرِهَا ، إِذِ الْمَعْنَىٰ : أَنَّ قَوْماً يَنْتَظِرُونَ إِتْيَانَ اللَّهِ ، وَلَا يَدُلُّ ذَلِكَ عَلَىٰ أَنَّهم مُحِقُّونَ وَلَا مُبْطِلُونَ " .

وقال الإمام أبو حيَّان الأندلسي في " البحر المحيط في التفسير" (٤/٦٩٨) : **﴿أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾** [النحل : ٣٣] ، فِيهِمْ بِالْقَتْلِ أَوْ غَيْرِهِ ، قَالَهُ ابْنُ عبَّاس. وَقَالَ مُجَاهِدٌ : أَوْ يَأْتِي رَبُّكَ بِعِلْمِهِ وَقُدْرَتِهِ ، بِلَا أَيْنَ ، وَلَا كَيْفَ

، لِفَصْلِ الْقَضَاءِ بَيْنَ خَلْقِهِ فِي الْمَوْقِفِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ . وَقَالَ الزَّجَّاجُ : أَوْ يَأْتِيَ إِهْلَاكُ رَبِّكَ إِيَّاهُمْ . قَالَ ابْنُ عَطِيَّةَ : وَعَلَىٰ كُلِّ تَأْوِيلٍ فَإِنَّمَا هُوَ بِحَذْفِ مُضَافٍ تَقْدِيرُهُ أَمْرُ رَبِّكَ وَبَطْشُ وَحِسَابُ رَبِّكَ ، وَإِلَّا فَالْإِتْيَانُ الْمَفْهُومُ مِنَ اللُّغَةِ مُسْتَحِيلٌ فِي حَقِّ اللَّهِ تَعَالَىٰ أَلَا تَرَىٰ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَىٰ ، يَقُولُ : **﴿فَأَتَاهُمُ الله مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا﴾** [الحشر : ٢] ، فَهَذَا إِتْيَانٌ قَدْ وَقَعَ وَهُوَ عَلَىٰ الْمَجَازِ وَحُذِفَ الْمُضَافُ . وَقَالَ الزَّمَخْشَرِيُّ : أَوْ يَأْتِيَ كُلُّ آيَاتِ رَبِّكَ بِدَلِيلِ قَوْلِهِ : **﴿أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آياتِ رَبِّكَ﴾** [الأنعام : ١٥٨] ، يُرِيدُ : آيَاتِ الْقِيَامَةِ وَالْهَلَاكَ الْكُلِّيَّ"
.

فقد وضَّح وبيَّن وأكَّد الحافظ أبو حيَّان علىٰ أنَّ حقيقة الْإِتْيَانُ هي الاِنْتِقَالِ مِنْ حَيِّزٍ إِلَىٰ حَيِّزٍ ، وَذَلِكَ مُسْتَحِيلٌ بِالنِّسْبَةِ إِلَىٰ اللَّهِ تَعَالَىٰ ، ولذلك فوَّض جمهور السَّلف الكيْف والمعنىٰ ... بينما ذهب جمهور الخلف إلىٰ التَّأويل بما يتناسب مع المسلَّمات والقواطع والعقديَّة وكذا قواعد اللغة العربيَّة...

وقال الإمام الذَّهبي في " العلو للعلي الغفار في إيضاح صحيح الأخبار وسقيمها" (ص٢٠٧-٢٠٨) : " قَالَ الإِمَام أَبُو الْقَاسِم سعد بن عَليّ الزنجاني سَأَلت أيدك الله بَيَان مَا صَحَّ لديَّ من مَذْهَب السَّلف وَصَالح الْخلف فِي الصِّفات ، فاستخرت الله تَعَالَىٰ ، وأجبت بِجَوَاب الْفَقِيه أبي العبَّاس أَحْمد بن عمر بن سُرَيج ، وَقد سُئِلَ عَن هَذَا ، ذكره أَبُو سعيد عبد الْوَاحِد بن محمَّد الْفَقِيه ، قَالَ : سَمِعت بعض شُيُوخنَا ، يَقُول : سُئِلَ ابْن سُرَيج رَحمَه الله عَن صِفَات الله تَعَالَىٰ ، فَقَالَ : حرَام علىٰ الْعُقُول أَن تمثِّل الله ، وعَلىٰ الأوهام أَن تحدَّه !!! وعَلىٰ الْأَلْبَاب أَن تصف إِلَّا مَا وصف بِهِ نَفسه فِي كِتَابه أَو علىٰ لِسَان رَسُوله ، وَقد صَحَّ عَن جَمِيع أهل الدّيانَة والسُّنَّة إِلَىٰ زَمَاننَا أَنَّ جَمِيع الْآي وَالْأَخْبَار الصادقة عَن رَسُول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، يجب علىٰ الْمُسلمين الْإِيمَان بِكُلِّ وَاحِد مِنْهُ كَمَا ورد ، وَأَن السُّؤَال عَن مَعَانِيهَا بِدعَة ، وَالْجَوَاب كفرٌ وزندقة ، مثل قَوْله : **﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ﴾** [البقرة : ٢١٠] ، وَقَوله : **﴿الرَّحْمنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوى﴾** [طه : ٥] ، و**﴿وَجاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾** [الفجر : ٢٢] ، ونظائرها مِمَّا نطق بِهِ الْقُرْآن كالفوقيَّة ... والنُّزول إِلَىٰ أَن قَالَ : اعتقادنا فِيهِ وَفِي الْآي الْمُتَشَابه فِي الْقُرْآن : أَن نقبلها ، وَلَا نردّها ، وَلَا نتأوَّلها بِتَأْوِيل الْمُخَالفين ، وَلَا نحملها علىٰ تَشْبِيه المشبِّهين ، وَلَا نترجم عَن صِفَاته بلغَة غير الْعَرَبيَّة ، ونسلِّم الْخَبَر الظَّاهِر وَالْآيَة الظَّاهِر تنزيلها" .

فالإمام الذَّهبي ينقل عن الإمام ابن سريج السَّلفي المتوفَّىٰ سنة (٣٠٦هـ) أَنَّ السُّؤَال عَن مَعَانِي المتشابهة كالإتيان ، والمجيء ، والنُّزول بِدعَة ، وَالْجَوَاب كفر وزندقة ، وهذا لون من ألوان التَّغليظ والتَّشديد علىٰ

كلِّ من تسوِّل له نفسه الولوج في خضمِّ هذا البحر الهائج المائج الذي لا ينجو من الغرق فيه إلَّا من اتقن فنون السِّباحة ...ألا فليهنأ مدَّعو السَّلفيَّة بما قاله تلميذ ابن تيمية : الذَّهبي ، من غير تعليق ولا تعقيب...

وقال الإمام ابن عادل الحنبلي في " اللباب في علوم الكتاب" (٣/ ٤٨٢-٤٨٣) : " قوله : ﴿**إِلاَّ أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللهُ**﴾ [البقرة : ٢١٠] ، هذا مفعول ﴿**يَنْظُرُونَ**﴾ وهو استثناءٌ مفرَّغٌ ، أي : ما ينظرون إلَّا إتيان الله .

والمعنىٰ : ما ينظرون ، يعني التَّاركون الدُّخول في السِّلم.

قوله تعالىٰ : ﴿**فِي ظُلَلٍ**﴾ [البقرة : ٢١٠] ، فيه أربعة أوجهٍ :

أحدها : أن يتعلَّق بيأتيهم ، والمعنىٰ : يأتيهم أمرُه أو قدرته ، أو عقابه ، أو نحو ذلك ، أو يكون كنايةً عن الانتقام ، إذ الإتيان يمتنع إسناده إلىٰ الله تعالىٰ حقيقةً.

والثَّاني : أن يتعلَّق بمحذوف علىٰ أنَّه حال ، وفي صاحبها وجهان:

أحدهما : هو مفعول يأتيهم ، أي : في حال كونهم مستقرِّين في ظلل ، وهذا حقيقة.

والثَّاني : أنَّه الله تعالىٰ بالمجاز المتقدِّم ، أي : أمر الله في حال كونه مستقرَّاً في ظلل.

الثَّالث : أن تكون " في " بمعنىٰ الباء ، وهو متعلِّقٌ بالإتيان ، أي : إلَّا أن يأتيهم بظلل ؛ ومن مجيء " في " بمعنىٰ الباء قوله : خَبِيرُونَ في طَعْنِ الكُلَىٰ وَالأَبَاهِرِ – بواطن الذراعين – ، لأنَّ " خَبِيرِينَ " إنَّما يتعدَّىٰ بالباء ؛ كقوله :

فَإنَّني ... خَبِيرٌ بأَدْوَاءِ النِّسَاءِ طَبِيبُ

الفصل : أن يكون حالاً من﴿ **المَلاَئِكَةِ**﴾ مقدَّماً عليها ويحكىٰ عن أُبيّ ، والأصل : إلَّا أن يأتيهم الله والملائكة في ظُللٍ ، ويؤيِّد هذا قراءة عبد الله إيَّاه كذلك ، وبهذا – أيضاً – يقلُّ المجاز ، فإنَّه – والحالة هذه – لم يسند إلىٰ الله تعالىٰ إلَّا الإتيان فقط بالمجاز المتقدِّم.

وقرأ أُبيّ وقتادة ، والضَّحَّاك : في ظلالٍ ، وفيها وجهان:

أحدهما : أنَّها جمع ظلّ ؛ نحو : صلّ وصلال.

والثَّاني : أنَّها جمع ظلَّة ؛ كقلَّة وقلال ، وخلَّة وخلال ، إلَّا أنَّ فعالاً لا ينقاس في فُعلة.

قوله تعالىٰ : ﴿**مِنَ الغَمَامِ**﴾ [البقرة : ٢١٠] ، فيه وجهان :

أحدهما : أنَّه متعلِّق بمحذوف ؛ لأنه صفةٌ لـ ﴿**فِي ظُلَلٍ**﴾ [البقرة : ٢١٠] ، التَّقدير : ظُلَلٍ كائنةٍ من الغمام . و ﴿مِنْ﴾ علىٰ هذا للتَّبعيض.

والثَّاني : أنَّه متعلِّق بـ﴿ **يَأْتِيَهُمُ**﴾ [البقرة : ٢١٠] ، وهي علىٰ هذا لابتداء الغاية ، أي : من ناحية الغمام

والجمهور على رفع " المَلاَئِكَةُ " ؛ عطفاً على اسم " الله."

وقرأ الحسن وأبو جعفر : بجرِّ﴿ الملائكةِ﴾ وفيه وجهان:

أحدهما: العطف على﴿ ظُلَلٍ﴾ [البقرة : ٢١٠] ، أي : إلَّا أن يأتيهم في ظُلَلٍ ، وفي الملائكة.

والثَّاني : العطف على﴿الغَمَامِ﴾ ، أي : من الغمام ومن الملائكة ، فتوصِف الملائكة بكونها ظُللاً على التَّشبيه، وعلى الحقيقة ، فيكون المعنى يأتيهم أمر الله وآياته ، والملائكة يأتون ليقومون بما أُمروا به من الآيات والتَّعذيب ، أو غيرهما من أحكام يوم القيامة " .

وقال الإمام ابن عادل الحنبلي في " اللباب في علوم الكتاب" (٨/ ٥٢٥-٥٢٦) : " فإن قيل : ﴿أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ﴾ [الأنعام : ١٥٨] ، هل يَدلُّ على جوازِ المجيء والغيبة على الله تعالى ؟ فالجواب من وُجُوه :

الأوَّل : أنَّ هذا حكاية عن الكُفَار ، واعتِقَاد الكَافِرِ ليس بِحُجَّة.

والثَّاني : أنَّ هذا مَجَاوزٌ ، ونظيرُه قولهُ تعالى : ﴿فَأَتَى الله بُنْيانَهُمْ مِنَ الْقَواعِدِ﴾ [النحل : ٢٦] .

والثَّالث : قيام الدَّلائل القاطِعَة على أنَّ المَجيء والغَيْبَة على اللَّه مُحَال ، وأقْرَبُها قول إبراهيم – عَلَيْهِ الصَّلاة وَالسَّلاَمُ – في الرَّدِّ على عَبدَة الكواكب : ﴿قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ﴾ [الأنعام : ٧٦] .

فإن قيل: قوله تعالى : ﴿أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ﴾ [الأنعام : ١٥٨] ، لا يمكن حَمْلُه على إثْبَاتِ أثر من آثار قُدْرَته ؛ لأنَّ على هذا التَّقْدِير يَصِيرُ هذا عَيْن قوله : ﴿أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آياتِ رَبِّكَ﴾ [الأنعام : ١٥٨] ، مكرَّراً ؛ فوجب حَمْلُه على أنَّ المُرادَ مِنْه : إتْيَان الرَّبِّ .

قلنا : الجوابُ المُعْتَمد : أنَّ هذا حكاية مَذْهب الكُفَّار ؛ فلا يَكُون حُجَّةً.

وقيل : يأتي ربُّك بلا كَيْف ؛ لِفَصْل القضاء يوْم القِيَامة ؛ لقوله سبحانه وتعالى : ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ﴾ [الفجر : ٢٢] .

وقال ابن عبَّاس رَضِيَ الله عَنْهما : يَأتي أمْر ربِّك فيهم بالقَتْل أو غَيْره ، وقيل : يَأتِي ربُّك بالعَذَابِ.

وقيل : هذا من المُتَشَابه الَّذِي لا يَعْلَمُ تَأوِيله إلَّا اللَّه " .

فالإمام ابن عادل الحنبلي لم يجنح إلى ما جنح إليه مجسِّمة الحنابلة ، بل فسَّر الإتيان المضاف إلى الله تعالى كما فسَّره جهابيذ العلم من السَّلف والخلف ... فالمعنى على هذا حكاية مَذْهب اليهود المجسِّمة ؛ فلا يَكُون حُجَّةً ... أو أن يكون المعنى : يأتيهم أمرُه أو قدرته ، أو عقابه ، أو نحو ذلك ...

وقال الإمام الكرماني في " الكواكب الدراري في شرح صحيح البخاري" (٢٥/ ١٤٢) : " قوله : **﴿يَأْتِيَهُمُ اللهُ﴾** [البقرة: ٢١٠] ، إسناد الإتيان إليه مجاز عن التجلِّي لهم ، وقيل : عن رؤيتهم إيَّاه ، لأنَّ الإتيان إلىٰ الشخص مستلزم لرؤيته له . القاضي عياض : أي : يأتيهم بعض ملائكته " .

وقال الإمام أبو عبد الله بدر الدِّين محمَّد بن عبد الله بن بهادر الزّركشي في " البرهان في علوم القرآن" (٣/ ١١٤) : " قَوْلِهِ : **﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ﴾** [الأنعام : ١٥٨] ، أَيْ : أَمْرُهُ بِدَلِيلِ قَوْلِهِ : **﴿أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾** [النحل : ٣٣] .

وقال الإمام ابن رجب الحنبلي في "فتح الباري شرح صحيح البخاري" (٧/ ٢٢٨-٢٣٢) : " ... كقوله : **﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ﴾** [البقرة : ٢١٠] . وقال : **﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آياتِ رَبِّكَ﴾** [الأنعام : ١٥٨] ... ولم يتأوَّل الصَّحابة ولا التَّابعون شيئاً من ذلك ، ولا أخرجوه عن مدلوله ، بل روي عنهم ما يدلَّ علىٰ تقريره والإيمـــان به وإمراره كما جاء ... " .

وقال الإمام ابن الملقِّن في " التوضيح لشرح الجامع الصَّحيح" (٩/ ١٠٠-١٠٥) : " ولا فرق بين الإتيان والمجيء والنُّزول إذا أضيف إلىٰ جسم يجوز عليه الحركة والنُّقلة التي هي تفريغ مكان وشغل غيره ، فإذا أضيف ذلك إلىٰ من لا يليق به الانتقال والحركة كان تأويل ذلك علىٰ حسب ما يليق بنعته وصفته تعالىٰ ، فالنُّزول لغة يستعمل لمعان خمسة مختلفة : بمعنىٰ الانتقال : **﴿وَأَنْزَلْنا مِنَ السَّماءِ مَاءً طَهُوراً﴾** [الفرقان : ٤٨] ، والإعلام : **﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾** [الشعراء : ١٩٣] ، أي : أعلم به الرُّوح الأمين محمَّداً صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وبمعنىٰ القول : **﴿سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ الله﴾** [الأنعام : ٩٣] ، أي : سأقول مثل ما قال . والإقبال علىٰ الشَّيء ، وذلك مستعمل في كلامهم جار في عرفهم ، يقولون : نزل من مكارم الأخلاق إلىٰ دنيّها . أي : أقبل إلىٰ دنيِّها ونزل قدّر فلان عند فلان إذا انخفض ، وبمعنىٰ نزول الحكم ، من ذلك قولهم : كنَّا في خير وعدل حَتَّىٰ نزل بنا بنو فلان ، أي : حكمهم ، وذلك كلُّه متعارف عند أهل اللغة .

وإذا كانت مشتركة المعنىٰ وجب حمل ما وصف به الرَّب جل جلاله من النُّزول علىٰ ما يليق به من بعض هذِه المعاني التي لا تقتضي له ما لا يليق بنعته من إيجاب حدث يحدث في ذاته ، وهو إقباله علىٰ أهل الأرض بالرَّحمة والاستعطاف بالتَّذكير والتَّشبه الذي يلقىٰ في قلوب أهل الخير منهم ، والزَّواجر التي تزعجهم إلىٰ الإقبال علىٰ الطَّاعة ، ووجدناه تعالىٰ خصَّ بالمدح المستغفرين بالأسحار ، ويحتمل أن يكون ذلك فعلًا يظهر بأمره فيُضاف إليه كما يقال: ضربَ الأميرُ اللصَّ ، ونادىٰ الأمير في البلد ، وإنَّما

أمر بذلك فيضاف إليه الفعل كما مضىٰ أنَّه عن أمره ظهر ، إذا احتمل ذلك في اللغة لم ينكر أن يكون لله ملائكة يأمرهم بالنُّزول إلىٰ السَّماء الدُّنيا بهذا الدُّعاء والنِّداء فيضاف ذلك إلىٰ الله.

وحديث النَّسائي السَّالف يعضده ، وقد سئل الأوزاعي عن معنىٰ هذا الحديث ، فقال : يفعل الله ما يشاء ، وهذِه إشارة منه إلىٰ أن ذلك فعل يظهر منه عزَّ وجلَّ ، وذكر حديث كاتب مالك عنه أنَّه قَالَ في هذا الخبر : ينزل أمره ورحمته ، وقد رواه مطرف عنه أيضاً ، وأنكر بعض المتأخِّرين هذا اللفظ ، فقال : كيف يفارقه أمره ؟ وهذا كلام من اعتقد أنَّه ينزلُ أمرهُ القديم ، وليس كذلك ، وإنَّما المراد ما أشرنا إليه ، وهو ما يحدث عن أمره ، قَالَ الإمام أبو بكر محمَّد بن فورك : روىٰ لنا بعض أهل النَّقل هذا الخبر عن رسول الله – صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – بما يؤيد هذا التَّأويل ، وهو بضم الياء من ينزل ، وقد تقدَّم نقل ذلك عنه ، فإذا كان ذلك محفوظًا فوجهه ظاهر ، وقد سئل بعض العلماء عن حديث التَّنزيل ، فقال : تفسيره قول إبراهيم حين أفَلَ النَّجم : **﴿قالَ لا أُحِبُّ الْآفِلِينَ﴾** [الأنعام : ٧٦] ، فَطَلَبَ رَبّاً لا يجوز عليه الانتقال والحركات ، ولا يتعاقب عليه النُّزول ، وقد مدحه الله تعالىٰ بذلك وأثنىٰ عليه في كتابه بقوله : **﴿وَكَذلِكَ نُرِي إِبْراهِيمَ مَلَكُوتَ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾** [الأنعام : ٧٥] ، فوصفه باليقين ، وحُكي عن بعض السَّلف في هذا الحديث وشبهه : الإيمــان بها وإجراؤها علىٰ ظاهرها ، ونفي الكيفيَّة عنها .

وكان مكحول ، والزُّهري يقولان : أمرُّوا الأحاديث . وقال أبو عبد الله : نحن نروي هذِه الأحاديث ولا نرفع بها المعاني . وإلىٰ نحو هذا نحىٰ مالكٌ في سؤال الاستواء علىٰ العرش.

وحمل الدَّاودي مذهبه في هذا الحديث علىٰ نحو من ذلك ، وقال فيما تقدَّم عنه : نقله حبيب ، وليس حبيب بالقوي . وضعَّفه غيره أيضاً لكنَّا أسلفنا أنَّه لم ينفرد به.

فصارت مذاهب العلماء في هذا الحديث وشبهه ثلاثة:

فرقة قائلة بالتَّأويل كما سلف ، محتجين بالحديث الآخر : " إذا تقرَّب إليَّ ذراعاً تقرَّبت منه باعاً ، وإذا أتاني يمشي أتيته هرولة " . وفرقة قالت بالوقف عن جميعها . وفرقة قالت بالتَّأويل في بعضها.

سئل مالك في " العتبية "– وتسمَّىٰ أيضاً بـ " المستخرجة ... كتاب لمؤلِّفه محمَّد العتبي بن أحمد بن عبد العزيز الأموي – عن الحديث الذي جاء في جنازة سعد بن معاذ في العرش : قال : لا يتحدَّث به ، وما يدعو الإنسان إلىٰ أن يتحدَّث به ، وهو يرىٰ ما فيه من التَّغرير ؟ ! " .

وقال الإمام ابن الملقِّن في " التوضيح لشرح الجامع الصَّحيح" (٩/ ١٠٠) : " قَالَ تعالىٰ : **﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾** [الفجر : ٢٢] ، و **﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ﴾** [البقرة : ٢١٠] ،

وقوله : ﴿فَأَتَى الله بُنْيانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ﴾ [النحل : ٢٦] ، وأهل البدع يحملونها إذا وردت في القرآن علىٰ التَّأويل الصَّحيح ، ويأتون من جمل الأخبار علىٰ مثل ذلك جحدًا منهم لسنَّة المصطفىٰ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، واستخفافًا بذوي النّهىٰ النَّاقلين ، ﴿وَيَأْبَى الله إِلاَّ أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ﴾ [التوبة : ٣٢] .

ولا فرق بين الإتيان والمجيء والنُّزول إذا أضيف إلىٰ جسم يجوز عليه الحركة والنُّقلة التي هي تفريغ مكان وشغل غيره ، فإذا أضيف ذلك إلىٰ من لا يليق به الانتقال والحركة كان تأويل ذلك علىٰ حسب ما يليق بنعته وصفته تعالىٰ ." ...

وقال الإمام ابن الملقِّن في "التوضيح لشرح الجامع الصَّحيح" (٣٣/ ٣٣٠) : " والحاصل : أنَّ الإتيان هنا مثل قوله : ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ﴾ [الفجر : ٢٢] . وأنَّ ذلك بظهور فعل لا بتحرُّك ذاته ، أو أنَّه فعل من أفعال ملائكته ، فيضاف إليه من طريق أنَّه تابع أمره ، أو أنَّه عبارة عن رؤيتهم الله تعالىٰ ؛ لأنَّ العادة جارية أنَّ من نحا لا يتوصل إلىٰ رؤيته إلَّا بمجيء ، فعبَّر عن رؤيتـــه بالمجيء جوازاً " .

وقال الإمام الفيروزآبادىٰ في "بصائر ذوي التَّمييز في لطائف الكتاب العزيز" (٣/ ٥٣٩) : " وقوله : ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ﴾ [البقرة : ٢١٠] ، أَي : يأتيهم عذابُه " .

وقال الإمام النيسابوري في "غرائب القرآن ورغائب الفرقان" (٤/ ٥١) : ﴿أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ﴾ [الأنعام : ١٥٨] ، أي : أمرُه أو حكمه ، دليله : قراءة من قرأ وما يؤخّره بالياء ، وقوله : بِإِذْنِهِ . وقيل : المراد الشَّيء المهيب الهائل المستعظم ، فحذف ذكره بتعيينه ، ليكون أقوىٰ في التَّخويف . وقيل : فاعله ضمير اليوم ، والمراد : إتيان هوله وشدائده ، كيلا يصير اليوم ظرفاً لإتيان اليوم " .

وقال الإمامان : جلال الدِّين المحلِّي ، وجلال الدِّين السُّيوطي في "تفسير الجلالين" (ص٤٤) : ﴿إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللهُ﴾ [البقرة : ٢١٠] ، أَيْ : أَمْرُهُ ، كَقَوْلِهِ : ﴿أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ﴾ [الأنعام : ١٥٨] ، أَيْ : عَذَابه " .

وقال الإمامان : جلال الدِّين المحلي ، وجلال الدِّين السُّيوطي في " تفسير الجلالي" (ص١٩١) : ﴿أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ﴾ [الأنعام : ١٥٨] ، أَيْ : أَمْرهُ ، بِمَعْنَىٰ عَذَابه " .

وقال الإمام الثَّعالبي في " الجواهر الحسان في تفسير القرآ"ن (١/ ٤٢٨) : " وقوله تعالىٰ : ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ﴾ [البقرة : ٢١٠] ، أيْ : ينتظرون ، والمراد : هؤلاء الذين يزلُّون ، والظُّلَلُ : جمع ظُلَّة ، وهي ما أظَلَّ من فوق ، والمعنىٰ : يأتيهم حكم اللَّه ، وأمره ، ونهيه ، وعقابه إيَّاهم .

وذهب ابن جُرَيْج وغيره إلىٰ أنَّ هذا التوعُّد هو مما يقع في الدُّنيا ، وقال قومٌ : بل هو توعُّد بيوم القيامة ، وقال قوم : إلَّا أن يأتيهم الله وعيدٌ بيوم القيامة " .

وقال الإمام الثَّعالبي في "الجواهر الحسان في تفسير القرآن" (٢/ ٥٣٢) : " وقوله تعالىٰ : **﴿أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ﴾** [الأنعام : ١٥٨] ، قال الطَّبري : لموقف الحساب يَوْمَ القيامة ، وأسند ذلك إلىٰ قتادة ، وجماعةٍ من المتأوِّلين ، وقال الزَّجَّاج : إنَّ المراد : أو يأتي عذابُ رِّبك .

قال ... وعلىٰ كلِّ تأويل فإنما هو بحذفِ مضافٍ ، تقديره : أمرُ ربِّك ، أو بَطْش رَبِّك ، أو حسابُ ربك ، وإلَّا فالإتيانُ المفهومُ من اللغة مستحيلٌ علىٰ اللَّه تعالىٰ ، ألا ترىٰ أنَّ اللَّه عزَّ وجلَّ يقول : **﴿فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا﴾** [الحشر : ٢] ، فهذا إتيان قد وقع ، وهو علىٰ المجازِ ، وحذفِ المضافِ.

قال الفَخْر : والجواب المعتمَدُ عليه هنا أنَّ هذا حكايةُ مذهب الكفَّار ، واعتقادِهم ، فلا يفتقر إلىٰ تأويله ، وأجمعوا علىٰ أنَّ المراد بهذه الآيات علاماتُ القيامةِ " .

وقال الإمام البقاعي في " نظم الدُّرر في تناسب الآيات والسُّور" (٣/ ١٨٣-١٨٤) : **﴿إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللهُ﴾** [البقرة : ٢١٠] ، أي : مجد الذي لا يحتمل شيء تجلِّي عظمته وظهور جلاله ، كائناً مجده **﴿فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ﴾** [البقرة : ٢١٠] ، ظلَّة في داخل ظلة ، وهي ما يستر من الشَّمس ، فهي في غاية الإظلام والهول والمهابة لما لها من الكثافة التي تغم علىٰ الرَّائي ما فيها وتدمِّر ما أتت عليه – إلىٰ غير ذلك من أنواع المجد الذي لا يقدِّره حقَّ قدره إلا الله " .

وقال الإمام البقاعي في " نظم الدُّرر في تناسب الآيات والسُّور " (٧/ ٣٣٢) : **﴿أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ﴾** [الأنعام : ١٥٨] ، أي : ظهور أمر المحسن إليك أتم ظهور بجميع الآيات التي تحملها العقول ، وذلك يوم الجزاء " .

وقال الإمام الإِيجي في" تفسير الإيجي "(١/ ١٤٤) : **﴿إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللهُ﴾** [البقرة : ٢١٠] ، مذهب السَّلف : الإيمان بمثل ذلك ووكول علمه إلىٰ الله تعالىٰ ، أو تقديره : يأتيهم بأسُهُ " .

وقال الإمام جلال الدِّين السُّيوطي في "الإتقان في علوم القرآن" (٣/ ١٩٦) : **﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللهُ﴾** [البقرة : ٢١٠] ، أَيْ : أَمْرُهُ ، بِدَلِيلِ : **﴿أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ﴾** [الأنعام : ١٥٨] .

وقال الإمام السُّيوطي في " الإتقان في علوم القرآن" (٣/ ٢٢) : " ... وَمِنْ ذَلِكَ صِفَةُ الْمَجِيءِ فِي قَوْلِهِ : **﴿وَجَاءَ رَبُّكَ﴾** [الفجر : ٢٢] ، **﴿أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ﴾** [الأنعام: ١٥٨] ، أَيْ : أَمْرُهُ ، لِأَنَّ الْمَلَكَ إِنَّما يَأْتِي بِأَمْرِهِ أَوْ بِتَسْلِيطِهِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ : **﴿وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾** [الأنبياء : ٢٧] ، فَصَارَ كَمَا لَوْ صَرَّحَ بِهِ ، وَكَذَا قَوْلُهُ : **﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا﴾** [المائدة : ٢٤] ، أَيْ : اذْهَبْ بِرَبِّكَ ، أَيْ : بِتَوْفِيقِهِ وَقُوَّتِهِ " .

وقال الإمام نعمة الله بن محمود النّخجواني ، ويعرف بالشَّيخ علوان في " الفواتح الإلهيَّة والمفاتح الغيبيَّة الموضحة للكلم القرآنيَّة والحكم الفرقانيَّة" (١/ ٧٢) : ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ﴾ [البقرة : ٢١٠] ، أي : ما ينتظر المزلَّون عن طريق الحقّ سيَّما بعد الوضوح والتَّبيين ﴿إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللهُ﴾ [البقرة : ٢١٠] ، بعذابه المدرج المكنون ﴿فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ﴾ [البقرة: ٢١٠] ، السَّحاب الأبيض المظل لهم صورة يتوقَّعون منه الرَّاحة والرَّحمة ﴿وَقُضِيَ الْأَمْرُ﴾ [البقرة : ٢١٠] ، الموكَّلون بجرِّ سُحُب العذاب إليهم ، فأنزل عليهم العذاب واستأصلهم بالمرَّة ﴿وَقُضِيَ الْأَمْرُ﴾ [البقرة : ٢١٠] ، المحكم والحكم المبرم المقضي عليهم من عنده سبحانه لانتقامهم كالأمم الماضية ، وَبالجملة إِلَى اللَّهِ لا إلىٰ غيره من الوسائل والأسباب العادية تُرْجَعُ الْأُمُورُ ".

وقال الإمام النّخجواني في " الفواتح الإلهيَّة والمفاتح الغيبيَّة الموضحة للكلم القرآنيَّة والحكم الفرقانيَّة" (١/ ٢٤٠) : " ... وبالجملة هَلْ يَنْظُرُونَ يعني أهل مكَّة وما ينتظرون وما يستوفون الايمان والإطاعة إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلائِكَةُ ، أي : ملائكة العذاب ، كما أتوا للأمم الهالكة ، فيلجئهم إلىٰ الإيمان ، مع أنَّه لا ينفعهم حينئذ إيمانهم ﴿ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ﴾ [الأنعام : ١٥٨] ، أي : يطلبون إتيان ربك يا أكمل الرُّسل معاينة ، كما طلب اليهود من موسىٰ صلوات الله عليه حيث قالوا : ﴿أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً﴾ [النساء: ١٥٣] .

فالإتيان المتضمِّن في الآية حكاية عن الكُفَار الذين طلبوا إتيان الربِّ ليعاينوه معاينة ، واعتِقَاد الكَافِر ليس بِحُجَّة...

وقال الإمام أحمد شهاب الدِّين بن حجر الهيتمي المكِّي في " الفتاوىٰ الحديثيَّة" (ص٦٢١) : " قوله تعالىٰ : ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ﴾ [البقرة : ٢١٠] ، أي : أمرُ الله " .

وقال الإمام الخطيب الشَّربيني الشَّافعي في " السِّراج المنير في الإعانة علىٰ معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير" (١/ ١٣٦) : " قوله تعالىٰ : ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ﴾[البقرة : ٢١٠] ، استفهام في معنىٰ النَّفي ، أي : ما ينظرون ﴿إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللهُ﴾ [البقرة : ٢١٠] ، أي : أمره أو بأسه ، كقوله تعالىٰ : ﴿أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ [النحل : ٣٣] ، أي : عذابه ، ﴿جَاءَهُمْ بَأْسُنَ﴾ [الأنعام : ٤٣] ، أو يأتيهم الله ببأسه ، فحذف المأتيّ به للدّلالة عليه بقوله تعالىٰ : ﴿عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة : ٢٠٩] .

وقال الإمام الخطيب الشَّربيني الشَّافعي في " السِّراج المنير في الإعانة علىٰ معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبي" (١/ ٤٦٠) : ﴿أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ﴾ [الأنعام : ١٥٨] ، أي : أمرُه بالعذاب " .

وقال الإمام أبو السُّعود العمادي محمَّد بن محمَّد بن مصطفىٰ في " إرشاد العقل السليم إلىٰ مزايا الكتاب الكريم" (١/ ٢١٢) : **﴿إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللهُ﴾** [البقرة : ٢١٠] ، أي : أمرُه وبأسُه أو يأتيَهم الله بأمره وبأسِه ، فحُذف المأتيُّ به لدِلالة الحال عليه والالتفاتُ إلىٰ الغَيبة للإيذانِ بأن سوءَ صنيعهم موجبٌ للإعراض عنهم ، وحكايةُ جنايتهم لمن عداهم من أهل الإنصاف علىٰ طريقة المباثة ، وإيرادُ الانتظارِ للإشعــار بأنَّهم لانهماكهم فيمَا هُم فيهِ من موجبات العقوبة " .

وقال الإمام أبو السُّعود العمادي في " إرشاد العقل السَّليم إلىٰ مزايا الكتاب الكريم" (٣/ ٢٠٣) : **﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ﴾** [الأنعام : ١٥٨] ، حسبما اقترحوا بقولهم : **﴿لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلائِكَةُ أَوْ نَرى رَبَّنا﴾** [الفرقان: ٢١] ، وبقولهم : **﴿أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلاً﴾** [الإسراء : ٩٢] ، وبقولهم : **﴿لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾** [الأنعام : ٨] ، ونحو ذلك أو إلَّا أن تأتيهم ملائكةُ العذاب أو يأتيَ أمرُ ربِّك بالعذاب ، والانتظارُ محمولٌ علىٰ التَّمثيل ... " .

وقال الإمام مرعي بن يوسف الكرمىٰ الحنبلي في " أقاويل الثقات في تأويل الأسماء والصِّفات والآيات المحكمات والمشتبهات" (ص٦١-٦٣) : " ... وَذكرتُ فِي كتابي " الْبُرْهَان فِي تَفْسِير الْقُرْآن " عِنْد قَوْله تَعَالَىٰ : **﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ﴾** [البقرة : ٢١٠] ، وَبعد أَن ذكرت مَذَاهِب المتأوِّلين أَنَّ مَذْهَب السَّلف هُوَ عدم الْخَوْض فِي مثل هَذَا ، وَالسُّكُوت عَنهُ ، وتفويض علمه إِلَىٰ الله تَعَالَىٰ ، قَالَ ابْن عبَّاس : هَذَا من المكتوم الَّذِي لَا يُفَسَّر ، فَالْأَولىٰ فِي هَذِه الْآيَة وَمَا شاكلها أَن يُؤمن الْإِنْسَان بظاهرها ، ويكِل علمهَا إِلَىٰ الله تَعَالَىٰ ، وعَلىٰ ذَلِك مَضَت أَئِمَّة السَّلف .

وَكَانَ الزُّهري ، وَمَالك ، وَالْأَوْزَاعِيّ ، وسُفْيَان الثَّوْريّ ، وَاللَّيْث بن سعد ، وَابْن الْمُبَارك ، وَأحمد بن حَنْبَل ، وَإِسْحَاق ، يَقُولُونَ فِي هَذِه الْآيَة وأمثالها : أمروها كَمَا جَاءَت.

وَقَالَ سُفْيَان بن عُيَيْنَة ، وناهيك بِهِ : كلّ مَا وصف الله بِهِ نَفسه فِي كِتَابه فتفسيره قِرَاءَته وَالسُّكُوت عَنهُ ، لَيْسَ لأحد أَن يفسِّره إِلَّا الله وَرَسُوله.

وَسُئِلَ الإِمام ابْن خُزَيْمَة عَن الْكَلَام فِي الْأَسْمَاء والصِّفات ، فَقَالَ : وَلم يكن أَئِمَّة الْمُسلمين وأرباب الْمذَاهب أَئِمَّة الدِّين ، مثل : مَالك ، وسُفْيَان ، وَالْأَوْزَاعِيّ ، وَالشَّافِعِيّ ، وَأحمد ، وَإِسْحَاق ، وَيحيىٰ بن يحيىٰ ، وَابْن الْمُبَارك ، وَأبي حنيفَة ، وَمحمَّد بن الْحسن ، وَأبي يُوسُف ، يَتَكَلَّمُونَ فِي ذَلِك ، وَينْهَوْنَ أَصْحَابهم عَن الْخَوْض فِيهِ ، ويدلُّونهم علىٰ الْكتاب والسُّنَّة.

وَسمع الإِمَام أَحْمد شخصاً يروي حَدِيث النُّزول ، وَيَقُول : ينزل بِغَيْر حَرَكَة وَلَا انْتِقَال ، وَلَا تغيُّر حَال ، فَأنْكر أَحْمد ذَلِك ، وَقَالَ : قل كَمَــا قَالَ رَسُول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَهُوَ كَانَ أغير علىٰ ربِّه مِنْك .

وَقَالَ الْأَوْزَاعِيّ لمَّا سُئِلَ عَن حَدِيث النُّزول : يفعل الله مَا يَشَاء.

وَقَالَ الفضيل بن عِيَاض : إِذا قَالَ لَك الجهمي : أَنا أكفر بِرَبّ يَزُول عَن مَكَانَهُ ، فَقل : أَنا أُؤْمِن بِرَبّ يفعل مَا يَشَاء.

وَاعْلَم أن الْمَشْهُور عِنْد أَصْحَاب الإِمَام أَحْمد أَنَّهم لَا يتأوَّلون الصِّفات الَّتِي من جنس الْحَرَكَة ، كالمجيء ، والإتيان فِي الظلل ، والنُّزول ، كَمَا لَا يتأولون غيرهَا مُتَابعَة للسَّلف " .

وقال الإمام مرعي بن يوسف الكرمىٰ في " أقاويل الثقات في تأويل الأسماء والصِّفات والآيات المحكمات والمشتبهات" (ص١٩٧-١٩٨) : " وَقَوله : **﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللهُ﴾** [البقرة : ٢١٠] ، فمذهب السَّلف فِي هَذَا وَأَمْثَاله : السُّكُوت عَن الْخَوْض فِي مَعْنَاهُ ، وتفويض علمه إِلَىٰ الله تَعَالَىٰ ، كَمَا مرت الْإِشَارَة إِلَيْهِ أول الْكتاب .

وَمذهب أهل التَّأويل ، قَالُوا : **﴿إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللهُ﴾** [البقرة : ٢١٠] ، أَي : أمرُه وبأسُه ، وَجعل ذَلِك مجيئاً لَهُ تَعَالَىٰ ، علىٰ سَبِيل التَّفخيم والتهويل ، لِأَنَّ الْإِتْيَان حَقِيقَة هُوَ الانتقال من حيّز إِلَىٰ حيّز ، وَذَلِكَ مُسْتَحِيل عَلَيْهِ تَعَالَىٰ عِنْد الْجُمْهُور ، أَو المُرَاد : إِلَّا أَن يَأْتِيهم الله بِأَمْره وبأسه ، فَحذف المأتي بِهِ لدلَالَة الْحَال عَلَيْهِ إيهاماً عَلَيْهِم ، لِأَنَّهُ أبلغ فِي الْوَعيد ، لانقسام خواطرهم وَذَهَاب فكرهم فِي كلِّ وَجه أَو المأتي بِهِ مَذْكُور ، وَهُوَ قَوْله : **﴿فِي ظُلَلٍ﴾** [البقرة : ٢١٠] ، وَ **﴿فِي﴾** بِمَعْنىٰ الْبَاء ، وَقيل : المُرَاد بذلك غَايَة الهيبة وَنِهَايَة الْفَزع لشدَّة مَا يكون يَوْم الْقِيَامَة والالتفات إِلَىٰ الْغَيْبَة " .

فالإمام الكرمي الحنبلي وضَّح منهج السَّلف في المتشابه ، وأنَّ مَذْهَبَهم هُوَ عدم الْخَوْض فِي مثل هَذَا ، وَالسُّكُوت عَنهُ ، وتفويض علمه إِلَىٰ الله تَعَالَىٰ ...

ثمَّ ذكر منهج الخلف القائم علىٰ التَّأويل ... ولم يعقِّب بشيء...

وقال الإمام شهاب الدِّين أحمد بن محمَّد بن عمر الخفَّاجي المصري الحنفي في " حَاشِيةُ الشِّهَابِ عَلَىٰ تفْسيرِ البَيضَاوِي ، الْمُسَمَّاة : عِنَايةُ القَاضِي وكِفَايةُ الرَّاضِي عَلَىٰ تفْسيرِ البَيضَاوي " (٢/٢٩٦) : " قوله : **﴿هَلْ يَنْظُرُونَ﴾** [البقرة : ٢١٠] ، الخ : نظر هنا بمعنىٰ انتظر ، والاستفهام إنكاريّ ، وهو نفي في المعنىٰ ، فلذا وقع بعده الاستثناء المفرغ ، ولمَّا كان الإتيان لا يسند حقيقة إليه أوَّل بأنَّ المراد يأتي حكمه وأمره أو

المراد يأتيهم الله ببأسه ، أي : يوصله إليهم ، لأنَّ أتىٰ قد يتعدَّىٰ للثَّاني بالباء ، فالمأتي محذوف لدلالة ما قبله عليه من التَّلويح للانتقام " .

وقال الإمام إسماعيل حقّي بن مصطفىٰ الإستانبولي في " روح البيان" (١/ ٣٢٥-٣٢٦) : **﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللهُ﴾** [البقرة : ٢١٠] ، أي : إلَّا إتيان الله ، أي : عذابُه علىٰ حذف المضاف ، لأنَّ الله تعالىٰ منزَّه عن المجيء والذَّهاب المستلزمين للحركة والسُّكون ، لأنَّ كلّ ذلك محدث ، فيكون كلّ ما يصحّ عليه المجيء والذَّهاب محدثاً مخلوقاً له ، والإله القديم يستحيل أن يكون كذلك . وسئل عليٌّ رضي الله عنه : أين كان تعالىٰ قبل خلق السَّموات والأرض ؟ قال : أين سؤال عن المكان ، وكان الله تعالىٰ ولا مكان ، وهو اليوم علىٰ ما كان .

ومذهب المتقدِّمين في هذه الآية وما شاكلها : أن يؤمن الإنسان بظاهرها ، ويَكِل علمها إلىٰ الله ، لأنَّه لا يأمن في تعيين مراد الله تعالىٰ من الخطأ ، فالأولىٰ السُّكوت ، ومذهب جمهور المتكلِّمين أن لا بدَّ من التَّأويل علىٰ سبيل التَّفصيل " .

وقال الإمام إسماعيل حقِّي الإستانبولي في " روح البيان" (١/ ٣٢٧) : **﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ﴾** [البقرة : ٢١٠] ، إلَّا أن يتجلَّىٰ الله في ظلِّ صفات قهرية من جملة تجليَّات الصِّفات السَّاترة لشمس الذَّات ، وهو ملائكة القوىٰ السَّماويَّة ، وَقُضِيَ في اللوح الْأَمْرُ أمر إهلاكهم ، وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ بالفناء ، كذا في التَّأويلات النَّجميَّة " .

وقال الإمام إسماعيل حقي الإستانبولي في " روح البيان" (١٠/ ٣٠٠) : " ... قوله تعالىٰ : **﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللهُ﴾** [البقرة : ٢١٠] ، أي : أمرُه وبأسُه في ظُلل من الغمام والملائكة " .

وقال الإمام إسماعيل حقي الإستانبولي في " روح البيان" (٣/ ٩٤) : **﴿أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ﴾** [الأنعام : ١٥٨] ، أي : أمره بالعذاب والانتقام ، وقال البغوي : **﴿أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ﴾** بلا كيف لفصل القضاء بين موقف القيامة . أو المراد بإتيان الربِّ : إتيان كلّ آية يعني آيات القيامة والهلاك الكلِّي ... " .

وقال الإمام المظهري في " التَّفسير المظهري" (١/ ١٥) : " ... **﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ﴾** [البقرة : ٢١٠] ، – ونحو ذلك ممَّا يستحيل حملها علىٰ ظواهرها التي تتبَّعها الذين في قلوبهم زيغٌ من المجسِّمة – فإنَّ كلاً منها تدلُّ علىٰ صفة من صفات الله تعالىٰ بحيث فهمها رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وبعض الكُمَّل من أتباعه – وتوضيح ذلك : أنَّ لله تعالىٰ صفاتاً غير متناهية ، حيث قال الله تعالىٰ **﴿قُلْ لَوْ كانَ الْبَحْرُ مِداداً لِكَلِماتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِماتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنا بِمِثْلِهِ مَدَداً﴾**

[الكهف: ١٠٩] ، وقال عزَّ من قائل : ﴿وَلَوْ أَنَّما فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِماتُ اللَّهِ﴾ [لقمان : ٢٧] ، ولا شكَّ أنَّ الألفاظ الموضوعة بإزاء المعاني متناهية ، والعقول قاصرة عن درك كُنْه ذات الله تعالىٰ وكنه صفاته ، وإنَّما يتصوَّر دَرْكه بنوعٍ من المعيَّة الذَّاتيَّة أو الصِّفاتيَّة الغير المتكيِّفة ، هيهات هيهات عن فهم العوام بل الخواصّ مع دركهم لا يُدركون ذلك الدَّرك في مرتبة الذَّات ، حيث قال رئيس الصدِّيقين – أبو بَكر الصّدِّيق – شعراً : العجز عن درْك الإدراك إدراك ، والبحث عن سرِّ الذَّات اشراك . غير أنَّ بعض صفاته تعالىٰ لمَّا شارك صفات الممكنات في الغايات أو بعض وجوه المشاكلات عبَّر عنها بالأسماء التي تدلُّ علىٰ صفات في المخلوقات ، كالحياة ، والعلم ، والسَّمع ، والبصر ، والإرادة ، والرَّحمة ، والقهر ، وغيرها ، فزعم البشر أنَّه فهمها ، وفي الحقيقة لم يفهم إلَّا بعض وجوهها ، وبعضها ليست بهذا المثابة ، فمنها : ما استأثر الله تعالىٰ بعلمه ، وَمِنْهَا : ما أفهمه الخواصّ من خلقه " .

وقال الإمام المظهري في " التَّفسير المظهري" (١/ ٢٤٩-٢٥٠) : " أجمع علماء أهل السُّنَّة من السَّلف والخلف أنَّ الله سبحانه منزَّه عن صفات الأجسام وسمات الحدوث ، فلهم في هذه الآية سبيلان:

أحدهما : الإيمان به وتفويض علمه إلىٰ الله تعالىٰ والتحاشي عن البحث فيه وهو مسلك السَّلف ، قال الكلبي : هذا من المكتوم الذي لا يفسَّر ، وكان مكحول ، والزُّهري ، والأوزاعي ، ومالك ، وابن المبارك ، وسفيان الثَّوري ، والليث ، وأحمد ، وإسحاق ، رحمهم الله تعالىٰ ، يقولون فيه وفي أمثاله : أمرّوها كما جاءت بلا كيف . قال سفيان بن عيينة : كلّ ما وصف الله تعالىٰ به نفسه في كتابه فتفسيره قراءته والسُّكوت عنه ، ليس لأحد أن يفسِّره إلَّا الله ورسوله ، وبه قال أبو حنيفة رحمه الله ، حيث قال : في المتشابهات : ما يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا الله بالوقف عليه .

ثانيهما : تأويله بما يليق به بناء علىٰ ما قيل : ما يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا الله وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ بالعطف . قال البيضاوي وغيره : ﴿إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللهُ﴾ [البقرة : ٢١٠] ، أي : أمرُه أو بأسُه ، بحذف المضاف ، فهو كقوله تعالىٰ : ﴿أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ [النحل : ٣٣] ، ﴿جاءَهُمْ بَأْسُنا﴾ [الأنعام : ٤٣] ، أو المعنىٰ : أن يأتيهم الله ببأسه ، فحذف المأتي به للدلالة عليه بقوله : ﴿أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة : ٢٠٩] .

وقال الإمام الصَّنعاني في " التَّحبير لإيضاح مَعَاني التَّيسير" (٣/ ٦٧١) : " قوله : ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ﴾ [البقرة : ٢١٠] ، أي : أمرُ الله" .

وقال الإمام محمَّد بن محمَّد بن عبد الرزّاق الحسيني ، أبو الفيض ، الملقّب بمرتضىٰ ، الزَّبيدي في ": تاج العروس من جواهر القاموس" (٢٩/ ٤٠٩) : " قولُهُ تعَالَىٰ : **﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ﴾** [البقرة : ٢١٠] ، أَي : يَأْتِيَهُم عَذابُهُ " .

وقال الإمام ابن عجيبة الحسني في " : البحر المديد في تفسير القرآن المجيد" (١/ ٢٣٦): **﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾** [البقرة : ٢١٠] ... يقول الحقُّ جلَّ جلاله : ما ينتظر هؤلاء الممتنعون من الدُّخول في شرائع الإسلام ، إلَّا أن تقوم السَّاعة ، ويأتيهم الله للفصل بين عباده فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمامِ ، بأن يتجلَّىٰ لعباده علىٰ ما يليق بجلاله إذ تجلِّيات الحقّ لا تنحصر . وتأتيهم الْمَلائِكَةُ تحيط بهم وَقُضِيَ الْأَمْرُ بعذابهم ، وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ كلّها ، فهو المتصرف وحده " .

وقال الإمام ابن عجيبة في " البحر المديد في تفسير القرآن المجيد" (٢/ ١٨٩): **﴿أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ﴾** [الأنعام : ١٥٨] ، أي : أمرُه بالعذاب " .

وقال الإمام أحمد بن محمَّد الصَّاوي المصري الخلوتي المالكي في " حاشية الصَّاوي علىٰ تفسير الجلالين" (١/ ١٢٧) : " قوله : **﴿هَلْ يَنْظُرُونَ﴾** [البقرة : ٢١٠] ، الاستفهام هنا إنكاري توبيخي . قوله : (الدُّخول فيه) ، أي : في جميع أحكامه . قوله : **﴿إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللهُ﴾** [البقرة : ٢١٠] ، استثناء مُفَرَّغ ، والمعنىٰ : لا ينتظرون شيئاً إلَّا إتيان الله في ظلل . قوله : (أي : أمره) ، دفع بذلك ما يقال : إنَّ الإتيان بمعنىٰ الانتقال من صفات الحوادث ، وهي مستحيلة علىٰ الله تعالىٰ . قوله : **﴿فِي ظُلَلٍ﴾** [البقرة:٢١٠] ، ظرف للإتيان المذكور ، والمعنىٰ أنَّ الله يرسل عليهم العذاب في صورة الرَّحمة ، وذلك لأنَّ شأن السَّحاب الرَّقيق أن تأتي بالأمطار التي يكون فيها منافع لهم ، وذلك مكر عظيم من الله بهم " .

وقال الإمام الشَّوكاني في " فتح القدير الجامع بين فني الرِّواية والدِّراية من علم التَّفسير" (٢/ ١٨١) : **﴿أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ﴾** [الأنعام : ١٥٨] ، يا محمَّد كما اقترحوه بقولهم : **﴿لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلائِكَةُ أَوْ نَرى رَبَّنا﴾** [الفرقان : ٢١] ، وقيل : معناه : أو يأتي أمرُ ربِّك بإهلاكهم ، وقيل : المعنىٰ : أو يأتي كلُّ آيات ربك ، بدليل قوله : **﴿أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آياتِ رَبِّكَ﴾** [الأنعام : ١٥٨] ، وقيل : هو من المتشابه الذىٰ لا يعلم تأويله إلَّا الله . وقد جاء في القرآن حذف المضاف كثيراً ، كقوله : **﴿وَسْئَلِ الْقَرْيَةَ﴾** [يوسف : ٨٢] ، وقوله : **﴿وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ﴾** [البقرة : ٩٣] ، أي : حبَّ العجل ، وقيل : إتيان الله : مجيئه يوم القيامة لفصل القضاء بين خلقه ، كقوله : **﴿وَجاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾** [الفجر : ٢٢] .

وقال الإمام الشَّوكاني في " فتح القدير الجامع بين فني الرِّواية والدِّراية من علم التَّفسير (١/ ٢١٠-٢١١) : ﴿**هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ**﴾ ... والمعنىٰ هل ينتظرون إلَّا أن يأتيهم الله بما وعدهم من الحساب والعذاب في ظلل من الغمام والملائكة ، قال الأخفش : وقد يحتمل أن يكون معنىٰ الإتيان راجعاً إلىٰ الجزاء ، فسمَّىٰ الجزاء إتياناً كما سمَّىٰ التَّخويف والتَّعذيب في قصَّة ثمود إتياناً ، فقال : ﴿**فَأَتَى الله بُنْيانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ**﴾ [النحل : ٢٦] ، وقال في قصَّة النَّضير : ﴿**فَأَتَاهُمُ الله مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا**﴾ [الحشر : ٢] ، وإنَّما احتمل الإتيان هذا لأنَّ أصله عند أهل اللغة : القصد إلىٰ الشَّيء ، فمعنىٰ الآية : هل ينظرون إلَّا أن يُظهر الله فعلاً من الأفعال مع خلق من خلقه يقصد إلىٰ محاربتهم ، وقيل : أنَّ المعنىٰ : يأتيهم أمرُ الله وحكمُه ، وقيل : أنَّ قوله : ﴿**فِي ظُلَلٍ**﴾[البقرة : ٢١٠] ، بمعنىٰ بظلل ، وقيل : المعنىٰ : يأتيهم ببأسه في ظلل " .

وقال الإمام الألوسي في " روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسَّبع المثاني " (١/ ٤٩٣) : " ... ﴿**إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللهُ** ﴾ [البقرة : ٢١٠] بالمعنىٰ اللائق به جلَّ شؤونه ً عن مشابهة المحدثات والتَّقيد بصفات الممكنات ... ومن النَّاس من قدر في أمثال هذه المتشابهات محذوفاً ، فقال : في الآية الإسناد مجازي ، والمراد : يأتيهم أمر الله تعالىٰ وبأسه أو حقيقي ، والمفعول محذوف ، أي : يأتيهم الله تعالىٰ ببأسه ، وحذف المأتي به للدّلالة عليه بقوله سبحانه : ﴿**أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ**﴾ [البقرة : ٢٠٩] ، فإنَّ العزّة والحكمة تدلُّ علىٰ الانتقام بحق ، وهو البأس والعذاب ، وذكر الملائكة لأنَّهم الواسطة في إتيان أمره أو الآتون علىٰ الحقيقة ، ويكون ذكر الله تعالىٰ حينئذ تمهيداً لذكرهم ، كما في قوله سبحانه : ﴿يُخادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ [البقرة : ٩] ، علىٰ وجه ، وخصَّ الغمام بمحليَّة العذاب ، لأنَّه مظنَّة الرَّحمة ، فإذا جاء منه العذاب كان أفظع ، لأنَّ الشر إذا جاء من حيث لا يحتسب كان أصعب ، فكيف إذا جاء من حيث يحتسب الخير ، ولا يخفىٰ أنَّ من علم أنَّ الله تعالىٰ أن يظهر بما شاء ، وكيف شاء ، ومتىٰ شاء ، وأنه في حال ظهوره باق علىٰ إطلاقه حتىٰ عن قيد الإطلاق ، منزَّه عن التقيد ، مبرَّأ عن التَّعدُّد ، كما ذهب إليه سلف الأمَّة وأرباب القلوب من ساداتنا الصُّوفيَّة !!! قدَّس الله تعالىٰ أسرارهم ، لم يحتجْ إلىٰ هذه الكلفات ، ولم يَحُمْ حول هذه التَّأويلات " .

وقال الإمام الألوسي في " روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسَّبع المثاني (٤/ ٣٠٤-٣٠٥) : " ... وعن الحسن : إتيان الربِّ علىٰ معنىٰ إتيان أمره بالعذاب . وعن ابن عبَّاس : المراد : يأتي أمر ربِّك فيهم بالقتل ، وقيل : المراد يأتي كلّ آياته يعني آيات القيامة والهلاك الكلِّي لقوله سبحانه : ﴿**أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آياتِ**

رَبِّكَ﴾ [الأنعام : ١٥٨] ، وأنت تعلم أنَّ المشهور من مذهب السَّلف عدم تأويل مثل ذلك بتقدير مضاف ونحوه ، بل تفويض المراد منه إلىٰ اللطيف الخبير مع الجزم بعدم إرادة الظَّاهر . ومنهم من يبقيه علىٰ الظَّاهر إلَّا أنَّه يدَّعي أنَّ الإتيان الذي ينسب إليه تعالىٰ ليس الإتيان الذي يتَّصف به الحادث ، وحاصل ذلك أنَّه يقول بالظَّواهر وينفي اللوازم ويدَّعي أنَّها لوازم في الشَّاهد ، وأين التُّراب من ربِّ الأرباب .

وجوَّز بعض المحقِّقين حمل الكلام علىٰ الظَّاهر المتعارف عند النَّاس ، والمقصود منه حكاية مذهب الكفَّار واعتقادهم ، وعلىٰ ذلك اعتمد الإمام ، وهو بعيدٌ أو باطل ."

وقال الإمام الألوسي في " روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسَّبع المثاني " (٩/١٠) : " ونقل عن بعض السَّلف أنَّه لا يؤوِّل في قوله تعالىٰ : ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ﴾ [الفجر : ٢٢] ، وقوله سبحانه : ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ﴾ [البقرة : ٢١٠] ، علىٰ ما هو عادتهم في الصِّفات المتشابهة " .

فقد وضَّح الإمام الآلوسي أنَّ المشهور من مذهب السَّلف عدم تأويل مثل ذلك بتقدير مضاف ونحوه ، بل تفويض المراد منه إلىٰ اللطيف الخبير مع الجزم بعدم إرادة الظَّاهر ، وذكر أنَّ بعض السَّلف أوَّل ، فعن الحسن : إتيان الربِّ علىٰ معنىٰ إتيان أمره بالعذاب . وعن ابن عبَّاس : المراد : يأتي أمرُ ربِّك فيهم بالقتل ، ثم تكلَّم علىٰ ما ذهب إليه الخلف من التَّأويل...

أمَّا عن قوله : " ونقل عن بعض السَّلف أنَّه لا يؤوِّل " فهو باطل بدليل ما ذكرناه قبلُ من تأويلات عديدة للسَّلف الصَّالح ... وكذا بما أودعناه كتابنا : " إعلامُ الخلف بتأويلات السَّلف " ...

ومن الجدير بالذِّكر هنا : أنَّ الأيدي الآثمة قد عبثت بكتاب الآلوسي : " روح البيان " ، فقد كتب الأستاذ محمَّد بن عبد الله آل رشيد في صحيفة الجزيرة بتاريخ ٢٧ من هذا الشَّهر يوم الأحد مقالاً عن تفسير " روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسَّبع المثاني " لأبي الثناء الألوسي ، وذكر أنَّ أوَّل من طبعه هو نجله نعمان الألوسي ... وكان الشَّيخ محمَّد زاهد الكوثري قد نبَّه علىٰ أمر مهم يتعلَّق بطبع نعمان لهذا التَّفسير ، حيث جاء في حاشية (مقالاته) (ص٣٤٤) : (وهو ليس بأمين علىٰ طبع تفسير والده ، ولو قابله أحدهم بالنُّسخة المحفوظة اليوم بمكتبة راغب باشا باسطنبول ، وهي النُّسخة التي كان المؤلِّف أهداها إلىٰ السُّلطان عبدالمجيد خان لوجد ما يطمئن إليه) ... وفي حجِّ العام المنصرم سنة (١٤٢٦هـ) ، التقيت بالأستاذ الباحث أحمد بن عبدالكريم العاني ، فأفادني بفائدة عزيزة ، حلَّت الإشكال المتقدِّم ، حيث إنَّ كليَّة الإمام الأعظم في مدينة بغداد كلَّفت ثلاثين طالباً في مرحلة الماجستير بتحقيق تفسير الألوسي (روح المعاني) ، وكان الأستاذ أحمد العاني أحد هؤلاء الطَّلبة الذين قاموا بتحقيق هذا الكتاب

، وكان القسم الذي قام بتحقيقه يبدأ من الآية خمس وعشرين من سورة آل عمران إلىٰ الآية أربع وتسعين ، وكان اعتمادهم علىٰ النُّسخة التي أشار إليها الشَّيخ الكوثري ، فحدَّثني أنَّ النُّسخة المطبوعة مليئة بالتَّصحيف والتَّحريف والإخلال والنَّقص في كثير من المواضع ، ممَّا يؤكِّد كلام الشَّيخ الكوثري ، بأنَّ النَّسخة المتداولة من هذا التَّفسير فيها تحريف ونقص ، وقد وعدني أحد المشايخ الأفاضل بنسخة من التَّفسير المخطوط ."

قلت : وممَّا لا شكَّ فيه أنَّ التَّحريف طال أغلب المسائل لا تتوافق مع مشرب من يدَّعون السَّلفيَّة ... وقد قمت بالاتِّصال مع بعض الإخوة العراقيين الذين اشتركوا في تحقيق كتاب " روح المعاني " للإمام الألوسي ، فأكَّدوا لي ما قاله الإمام الكوثري ، وأنَّ الأيدي الآثمة المجرمة قد عبثت بهذا الكتاب النَّفيس وعن سبق الإصرار والتَّرصُّد ، فذهبت ببريقه ونوره ... وكم نتمنىٰ علىٰ اللجنة المحقِّقة لهذا الكتاب النَّفيس أن يُبادروا لنشره بصورة القشيبة التي صنعها الإمام الألوسي ، كي يتسنَّىٰ للجميع الاطِّلاع علىٰ المزيد والمزيد من عبث هذه الشِّرذمة بكتب أهل العلم...

وقال الإمام أبو الطيِّب محمَّد صديق خان القِنَّوجي في " فتحُ البيان في مقاصد القرآن" (١/ ٤٢١) : **﴿إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللهُ﴾** [البقرة : ٢١٠] ، بما وعدهم من الحساب والعذاب ، استثناء مفرغ من مقدر ، أي : ليس لهم شيء ينتظرونه إلَّا إتيان العذاب ، وهذا مبالغة في توبيخهم ، " في ظلل " جمع ظلة وهي ما يظلّك ، وقال الأخفش : وقد يحتمل أن يكون معنىٰ الإتيان راجعاً إلىٰ الجزاء فسمَّىٰ الجزاء إتياناً ، كما سمَّىٰ التَّخويف والتَّعذيب في قصَّة ثمود إتياناً ، فقال : **﴿فَأَتَى الله بُنْيانَهُمْ مِنَ الْقَواعِدِ﴾** [النحل : ٢٦] ، وقال في قصَّة النَّضير : **﴿فَأَتاهُمُ الله مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا﴾** [الحشر: ٢] . وإنَّما احتمل الإتيان هذا لأنَّ أصله عند أهل اللغة القصد إلىٰ الشَّيء ، فمعنىٰ الآية : فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقيل : أنَّ المعنىٰ يأتيهم أمر الله وحكمه ، وقيل : أنَّ قوله : **﴿فِي ظُلَلٍ﴾** [البقرة : ٢١٠] ، بمعنىٰ : بظلل ، وقيل : المعنىٰ يأتيهم ببأسه في ظلل " .

وقال الإمام أبو الطيِّب محمَّد صديق خان القِنَّوجي في " فتحُ البيان في مقاصد القرآن" (٤/ ٢٨٣) : **﴿أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ﴾** [الأنعام : ١٥٨] ، يا محمَّد كما اقترحوه بقولهم : **﴿لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلائِكَةُ أَوْ نَرى رَبَّنا﴾** [الفرقان : ٢١] ، وقيل : معناه : يأتي أمر ربِّك بإهلاكهم ، وقد جاء في القرآن حذف المضاف كثيراً ، كقوله : **﴿وَسْئَلِ الْقَرْيَةَ﴾** [يوسف : ٨٢] ، وقوله : **﴿وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ﴾** [البقرة : ٩] ، أي : حبَّ العجل ، وقيل : إتيان الله مجيئه يوم القيامة لفصل القضاء بين خلقه ، كقوله : **﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾** [الفجر :

٢٢] ، قاله ابن مسعود ، وقتادة ، ومقاتل ، وقال : يأتي في ظلل من الغمام ، وقيل : كيفية الإتيان من التَّشابه الذي لا يعلم تأويله إلَّا الله فيجب إمرارها بلا تكييف ولا تعطيل " .

وقال الأستاذ جميل صدقي بن محمَّد فيضي بن الملا أحمد بابان الزَّهاوي في " الفجر الصَّادق في الرَّدِّ على المارق" (ص٣١) : " وقوله سبحانه : **﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ﴾** [البقرة : ٢١٠] ، أي : يأتي عذابه " .

وقال الإمام محمَّد بن عمر نووي الجاوي البنتني في " تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي" (٨/ ٣٥٧) : **﴿أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ﴾** [الأنعام:١٥٨] ، أي : بحسب ما اقترحوا بقولهم : **﴿لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلائِكَةُ أَوْ نَرى رَبَّنا﴾** [الفرقان : ٢١] . وهم كانوا كفَّاراً ، واعتقاد الكافر ليس بحجَّة . وقيل : المراد بالملائكة : ملائكة الموت لقبض أرواحهم ، وبإتيان الله تعالى : إتيان كلّ آياته بمعنى آيات القيامة كلّها . وقيل : أو يأتي ربُّك يوم القيـــامة بلا كيف ".

وقال الإمام أبو العلا محمَّد عبد الرَّحمن بن عبد الرَّحيم المباركفوري : " ... أَيْ : أَمْرُهُ بِمَعْنَى عَذَابُهُ " .

وقال الإمام محمَّد رشيد رضا القلموني الحسيني في " تفسير القرآن الحكيم" (تفسير المنار) (٨/ ١٨٤) : " قِيلَ : إِنَّ إِتْيَانَ الرَّبِّ تَعَالَى عِبَارَةٌ عَنْ إِتْيَانِ مَا وَعَدَ بِهِ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ النَّصْرِ ، وَأَوْعَدَ بِهِ أَعْدَاءَهُ مِنْ عَذَابِهِ إِيَّاهُمْ فِي الدُّنيا ، كَمَا قَالَ فِي الَّذِينَ ظَنُّوا أَنَّهم مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللهِ : **﴿فَأَتاهُمُ الله مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا﴾** [الحشر : ٢] الْآيَةَ ، وَقِيلَ : إِتْيَانُ أَمْرِهِ بِالْعَذَابِ أَوِ الْجَزَاءِ مُطْلَقًا ، فَهَاهُنَا مُقَدَّرٌ دَلَّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ فِي سُورَةِ النَّحْلِ الَّتِي تُشَابِهُ هَذِهِ السُّورَةَ فِي أَكْثَرِ مَسَائِلِهَا : **﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ كَذلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَما ظَلَمَهُمُ الله وَلكِنْ كانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾** [النحل : ٣٣] ، وَقِيلَ : بَلِ الْمُرَادُ : إِتْيَانُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِذَاتِهِ فِي الْآخِرَةِ بِغَيْرِ كَيْفٍ وَلَا شَبَهٍ وَلَا نَظِيرٍ ، وَتَعَرُّفُهُ إِلَى عِبَادِهِ وَمَعْرِفَةُ أَهْلِ الْإِيمَانِ الصَّحيح إِيَّاهُ " .

وقال الإمام أحمد المراغي في " تفسير المراغي" (٨/ ٨٠-٨١) : " والمراد بإتيان الله : إتيان ما وعد به من النَّصر لأحبابه وأوعد به أعداءه من العذاب في الدُّنيا كما جاء في قوله : **﴿فَأَتاهُمُ الله مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا ﴾** [الحشر: ٢] الآية . وإتيان أمره هو : جزاؤهم على نحو ما جاء في قوله : **﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ كَذلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَما ظَلَمَهُمُ الله وَلكِنْ كانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾** [النحل : ٣٣] .

والخلاصة : أنَّهم لا ينتظرون إلَّا أحد أمور ثلاثة : مجيء الملائكة ، أو مجيء ربِّك بحسب ما اقترحوا بقولهم : **﴿لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلائِكَةُ أَوْ نَرى رَبَّنا﴾** [الفرقان : ٢١] ، وقولهم : **﴿أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلاً﴾** [الإسراء : ٩٢] ، وقولهم : أو مجيء بعض آيات ربِّك غير ما ذكر كما اقترحوا بقولهم : **﴿أَوْ تُسْقِطَ السَّماءَ كَما زَعَمْتَ عَلَيْنا كِسَفاً﴾** [الإسراء : ٩٢] ، ونحو ذلك من الآيات العظام التي علَّقوا بها إيمانهم .

وفي الآية إيماء إلىٰ تماديهم في تكذيب آيات الله ، وعدم اعتدادهم بها ، وأنَّه لا أمل في إيمانهم البتَّة ".

وقال الإمام محمود بن عبد الرَّحيم صافي في " الجدول في إعراب القرآن الكريم" (٢/ ٤٣٠): " ... وفي الكلام حذف مضاف ، أي : يأتي أمرُ الله أو عذابُه ."

وقال الإمام عبد الكريم يونس الخطيب في " التَّفسير القرآني للقرآن" (٤/ ٣٥٢-٣٥٣): " بعد أن أعذر الله للمشركين من قريش ومن حولهم ، بما بعث فيهم من رسول منهم ، وبما أنزل إليهم من كتاب كانوا يتمنَّونه من قبل ليكونوا أهل كتاب كاليهود والنَّصارىٰ ، وبعد أن كان منهم هذا الذي استقبلوا به الكتاب والنَّبيّ الذي حمل إليهم الكتاب ، من مشاقّة وعناد ، وتكذيب – بعد هذا كله لم يكن لهم أن ينتظروا إلَّا أن يصيروا إلىٰ هذا المصير الذي يقودهم إليه كفرهم وضلالهم ، إذ لا هدىٰ لهم بعد هذا الهدىٰ ، ولا كتاب بعد هذا الكتاب.. ولهذا جاء قوله تعالىٰ : **﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آياتِ رَبِّك﴾** [الأنعام : ١٥٨] ، لينكر عليهم هذا العناد الذي هم فيه ، وليدخل اليأس عليهم من أن ينتظروا جديداً ، يطلع في أفقهم بدعوة تدعوهم إلىٰ الله ، إذ ليس هناك دعوة أبلغ ولا أبين من هذه الدَّعوة التي بين أيديهم...

وأنَّهم إن كانوا ينتظرون أن تأتيهم الملائكة ، أو يأتيهم الله ، أو تأتيهم بعض آيات الله... فلينتظروا...

أمَّا الملائكة فلن يأتوا أبداً... والله سبحانه وتعالىٰ يقول : **﴿قُلْ لَوْ كانَ فِي الْأَرْضِ مَلائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّماءِ مَلَكاً رَسُولاً﴾** [الإسراء : ٩٥] .

وأمَّا الله سبحانه وتعالىٰ ، فهو معهم أينما كانوا ، ولكنَّهم لن يروه عياناً ، لأنَّه سبحانه منزَّه عن أن يحدّ ، ولو رؤي لكان محدوداً...

وأمَّا بعض آيات الله ، وهي نُذُر الهلاك المرسل إليهم ، أو علامات السَّاعة التي تكون بين يديها ، فإنَّها إذا جاءت لم تكن من تلك المعجزات التي تكشف للنَّاس طريق الإيمان إلىٰ الله ، وإنَّما هي آيات تطلع عليهم بالمهلكات ، حيث لا فائدة للإيمان بعدها ، ولا أثر له في حياة صاحبها ، لأنَّها تأتىٰ لتنهىٰ حياة

النَّاس ، لا لتجدّد لهم حياة طيِّبة في الحياة... وهذا ما يشير إليه قوله تعالىٰ : **﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آياتِ رَبِّكَ لا يَنْفَعُ نَفْساً إِيمانُها لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ﴾** [الأنعام: ١٥٨] ، فالإيمان عند استقبال الموت لا ينفع صاحبه ، فهو كإيمان فرعون حين أدركه الغرق " .

وقال الإمام عبد المتعال الصَّعيدي في " بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة" (٢/ ٣٤٤) : " قوله : **﴿وَجَاءَ رَبُّكَ ﴾** [الفجر : ٢٢] ، أي : أمرُ ربِّك أو عذابه أو بأسه ، وقوله : **﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ﴾** [البقرة : ٢١٠] ، أي : عذابُ الله أو أمره " .

وقال الإمام محمَّد الطَّاهر بن عاشور في " التحرير والتنوير " (٨/ ١٨٥) : " وَالْإِتْيَانُ بِالنِّسْبَةِ إِلَىٰ الْمَلَائِكَةِ حَقِيقَةٌ ، وَالْمُرَادُ بِهِمْ : مَلَائِكَةُ الْعَذَابِ ، مِثْلَ الَّذِينَ نَزَلُوا يَوْمَ بَدْرٍ : **﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنانٍ﴾** [الأنفال : ١٢] . وأَمَّا الْمُسْنَدُ إِلَىٰ الرَّبِّ فَهُوَ مَجَازٌ ، وَالْمُرَادُ بِهِ : إِتْيَانُ عَذَابِهِ الْعَظِيم ، فَهُوَ لعظم هَوْلِهِ جَعَلَ إِتْيَانَهُ مُسْنَداً إِلَىٰ الْآمِرِ بِهِ أَمْراً جَازِماً لِيُعْرَفَ مِقْدَارُ عَظَمَتِهِ ، بِحَسَبِ عَظِيمِ قُدْرَةِ فَاعِلِهِ وَآمِرِهِ ، فَالْإِسْنَادُ مَجَازِيٌّ مِنْ بَابِ : بَنَىٰ الْأَمِيرُ الْمَدِينَةَ ، وَهَذَا مَجَازٌ وَارِدٌ مِثْلُهُ فِي الْقُرْآنِ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ : **﴿فَأَتاهُمُ الله مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا﴾** [الحشر : ٢] ، وَقَوْلِهِ : **﴿وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسابَهُ﴾** [النور : ٣٩] . وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ بِقَوْلِهِ : **﴿أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ﴾** [الأنعام : ١٥٨] ، إِتْيَانُ أَمْرِهِ بِحِسَابِ النَّاس يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، كَقَوْلِهِ : **﴿وَجاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾** [الفجر : ٢٢] ، أَيْ : لَا يَنْتَظِرُونَ إِلَّا عَذَابَ الدُّنيا أَوْ عَذَابَ الْآخِرَةِ " .

وقال الإمام محمَّد الأمين بن محمَّد المختار بن عبد القادر الجكني الشَّنقيطي في " أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن" (١/ ٥٤٩) : " ... ذَكَرَ تَعَالَىٰ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ إِتْيَانَ اللَّهِ جَلَّ وَعَلَا وَمَلَائِكَتِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَذَكَرَ ذَلِكَ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ ، وَزَادَ فِيهِ أَنَّ الْمَلَائِكَةَ يَجِيئُونَ صُفُوفاً ، وَهُوَ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : **﴿وَجاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾** [الفجر: ٢٢] ، وَذَكَرَهُ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ ، وَزَادَ فِيهِ أَنَّه جَلَّ وَعَلَا يَأْتِي فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ ، وَهُوَ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : **﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ﴾** [البقرة : ٢١٠] ، وَمِثْلُ هَذَا مِنْ صِفَاتِ اللَّهِ تَعَالَىٰ الَّتِي وَصَفَ بِهَا نَفْسَهُ ، يُمَرُّ كَمَا جَاءَ وَيُؤْمِنُ بِهَا ، وَيَعْتَقِدُ أَنَّه حَقٌّ ، وَأَنَّهُ لَا يُشْبِهُ شَيْئاً مِنْ صِفَاتِ الْمَخْلُوقِينَ ، فَسُبْحَانَ مَنْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً : **﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَما خَلْفَهُمْ وَلا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً﴾** [طه : ١١٠] .

وقال الإمام محمَّد بن أحمد أبي زهرة في " زهرة التَّفاسير" (٥/ ٢٧٥٢) : **﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آياتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آياتِ رَبِّكَ ﴾** [الأنعام : ١٥٨] . أكثر المفسِّرين

علىٰ أنَّ ذلك عندما يحين حين هذه الدُّنيا ، والاستفهام إنكاري توبيخي ، لَا ينتظرون بعد هذا التَّكذيب إلَّا أن تأتيهم الملائكة تقبض أرواحهم ، أو يأتيهم ربُّك ، أي : أمر ربِّك ، فهي من قبيل حذف المضاف والاكتفاء بذكر الله تعالىٰ ، وأمر الله شديد لَا قبل لكم باحتماله ، إذ يتغيَّر الكون ، وينفخ في الصُّور " .

وقال الإمام صبحي الصَّالح في " مباحث في علوم القرآن " (ص٢٨٥) ، نقلاً عن البرهان (٢/ ٧٩) : " وقد حكىٰ ابن الجوزي عن القاضي أبي يعلىٰ تأويل أحمد في قوله تعالىٰ : ﴿أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ ﴾ [الأنعام : ١٥٨] ، قال : وهل هو إلَّا أمره ؟! بدليل قوله : ﴿أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ ﴾ [النحل : ٣٣] .

وقال الإمام محمَّد الغزالي في " نحو تفسير موضوعي" (١/ ١٠٣) : ﴿أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ﴾ [الأنعام : ١٥٨] ، أمرُه ووعيدُه " .

وقال الإمام محمَّد متولي الشَّعراوي في " التَّفسير " (٧/ ٤٠١٢-٤٠١٣) : " ووقف العلماء عند هذا القول الكريم ، لأنَّهم أرادوا أن يفسِّروا الإتيان من الرَّبِّ علىٰ ضوء الإتيان منا ، والإتيان منَّا يقتضي انخلاعاً من مكان كان الإنسان فيه إلىٰ مكان يكون فيه ، وهذا الأمر لا يصلحُ مع الله ، ونقول : أفسَّرت كلّ مجيء علىٰ ضوء المجيء بالنِّسبة لك ؟ بالله قل لي : ما رأيك في قوله تعالىٰ : ﴿وَجاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ﴾ [ق : ١٩] . كيف جاءت سكرة الموت وهي المخلوقة لله ؟!! إنَّنا لا نعرف كيف يجيء الموت ، وهو مخلوق ؟ فكيف تريدون أن نعرف كيف يجيء الله ؟ عليكم أن تفسِّروا كلَّ شيء بالنِّسبة لله بما يليق بذات الله في إطار ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ [الشورىٰ: ١١] ، ولنتأدَّب ونعط العقول مقدارها من الفهم ، ولنجعل كلَّ شيء منسوباً لله بما يناسب ذات الله ؛ لأنَّ المجيء يختلف بأقدار الجائين ، فمجيء الطِّفل غير مجيء الشَّاب ، غير مجيء الرَّجل العجوز ، غير مجيء الفارس ، فما بالنا بمجيء الله سبحانه ؟!! إيَّاك – إذن – أن تفهم المجيء علىٰ ضوء مجيء البشر . وأكرِّرها دائماً : عليك أن تأخذ كلّ شيء بالنِّسبة له سبحانه لا بقانونك أنت ، ولكن بقانون الذَّات الأعلىٰ ، واجعل كلّ ما يخصّه في إطار ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ [الشورىٰ: ١١] ، ولذلك قل : له سمْعٌ ليس كسمعنا ، وبصرٌ ليس كبصرنا ، ويدٌ ليست كأيدينا ، في إطار ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ [الشورىٰ: ١١] . وإيَّاكم أن تسمعوا مناقشة في قوله : ﴿يَأْتِيَ رَبُّكَ﴾ [الأنعام : ١٥٨] . وقل إنَّ إتيان الله ومجيئه ليس كفعل البشر ، بل سبحانه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ [الشورىٰ: ١١] .

وقال الإمام محمَّد سيِّد طنطاوي في " التَّفسير الوسيط للقرآن الكريم" (٥/ ٢٢٦) : " وقوله : **﴿أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ﴾** [الأنعام : ١٥٨] ، أي : إتياناً يناسب ذاته الكريمة بدون كيْف أو تشبيه للقضاء بين الخلق يوم القيامة ، وقيل: المراد بإتيان الرَّبِّ ، إتيان ما وعد به من النَّصر للمؤمنين والعذاب للكافرين " .

وقال الدُّكتور وهبة بن مصطفىٰ الزّحيلي في " التَّفسير المنير في العقيدة والشَّريعة والمنهج " (٨/ ١١٢): **﴿أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ﴾** [الأنعام : ١٥٨] ، أي : أمرُه ، بمعنىٰ عذابه " .

وجاء في " التَّفسير الوسيط للقرآن الكريم " (٣/ ١٣٦٣) : **﴿أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ﴾** [الأنعام : ١٥٨] : أَو أَن يأتي ربُّك إليهم ، داعياً إيَّاهم إلىٰ الهدىٰ ، كما اقترحوا ذلك ، في قوله تعالىٰ : **﴿لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلائِكَةُ أَوْ نَرى رَبَّنا﴾** [الفرقان : ٢١] ، أَو المراد : إتيان أمره بالعذاب " .

وأخيراً ، فإنَّ الإتيان ورد في كتاب الله تعالىٰ غير مرَّة مضافاً إلىٰ الله تعالىٰ ، وكذا إلىٰ أشياء عديدة ، وبمعنىٰ لا يفيد الحركة والانتقال من مكان إلىٰ آخر ، ومن ذلك:

قوله تعالىٰ : **﴿أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾** [النحل : ١] ، أي سيأتي ، أو قد دنا ، وكلُّ ما هو آتٍ قريب ، وأَمْرُ اللَّهِ تعالىٰ هو العذاب الذي توعَّدهم الله به جزاء علىٰ كفرهم ... ، والعذاب لا يتحرَّك ولا ينتقل من مكان إلىٰ آخر بنفسه ، فالذي يأتي به الله تعالىٰ ، كما قال سبحانه : **﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ﴾** فالله تعالىٰ هو صاحب الأمر ، وأمر بالعذاب قد مضىٰ وانتهىٰ ، ووقوعه لا يكون إلَّا في زمانه المُقدَّر له منه سبحانه ، وكذلك قوله سبحانه وتعالىٰ : **﴿أَتاها أَمْرُنا لَيْلاً أَوْ نَهاراً فَجَعَلْناها حَصِيداً﴾** [يونس : ٢٤] ...

وقوله تعالىٰ : **﴿قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَى الله بُنْيانَهُمْ مِنَ الْقَواعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتاهُمُ الْعَذابُ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ﴾** [النحل : ٢٦] ، والمعنىٰ : أنَّ الله تعالىٰ أهلك بنيانهم الذي بنوا ، فدمَّره وقوَّضه وخرَّبه واقتلعه من أساسه ، حتىٰ خرَّ عليهم السَّقف من فوقهم ...

وقوله تعالىٰ : **﴿أَفَلا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُها مِنْ أَطْرافِها﴾** [الأنبياء : ٤٤] ، وهذه استعارة . وقد اختلف النَّاس في المراد بها ، فقال قوم : معنىٰ ذلك نقصان أرض المشركين ، بفتحها علىٰ المسلمين . وقال آخرون : المراد بنقصانها : موت أهلها ، وقيل موت علمائها " . انظر : تلخيص البيان في مجازات القرآن (٢/ ١٧٨) .

وقوله تعالىٰ : **﴿أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آياتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آياتِ رَبِّكَ﴾** [الأنعام: ١٥٨] ، والمقصود بالآيات هنا – كما قال جمهور المفسِّرين – : طلوع الشَّمس من مغربها ...

وقوله تعالىٰ : ﴿وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكانٍ وَما هُوَ بِمَيِّتٍ﴾ [إبراهيم : ١٧] ، أي : تأتيه جميع أسباب الموت ، ولا يموت ، لأنَّ الله تعالىٰ قضىٰ عليهم بعدم الموت .

وقوله تعالىٰ : ﴿إِلاَّ أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذابُ قُبُلاً﴾ [الكهف : ٥٥] ، وسنَّة الأولين هي ما أوقعه الله تعالىٰ بالعصاة والكفرة والمجرمين من العذاب في الأُمَمَ السَّالِفَةَ ...

وكما جاء الإتيان مضافاً إلىٰ الله تعالىٰ في القرآن الكريم ، جاء مضافاً إلىٰ الله في الحديث الشَّريف ، ولم يختلف كلام العلماء في تفسير الإتيان الوارد في الحديث عن كلامهم في تفسير الإتيان الوارد في القرآن ، فقد أكَّدوا علىٰ ضرورة تنزيه الله تعالىٰ عن مشـــــابهة الحوادث ، وَمِنْهَا : تنزيهه سبحانه عن الحركة والنُّقلة...

روىٰ البخاري (٩/ ١٢٨ برقم٧٤٣٧) ، مسلم (١/ ١٦٧ برقم ١٨٣) بسندهما عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ : أَنَّ النَّاس قَالُوا : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، هَلْ نَرَىٰ رَبَّنَا يَوْمَ القِيَامَةِ ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " هَلْ تُضَارُّونَ فِي القَمَرِ لَيْلَةَ البَدْرِ ؟ ، قَالُوا : لاَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ، قَالَ : فَهَلْ تُضَارُّونَ فِي الشَّمْسِ ، لَيْسَ دُونَهَا سَحَابٌ ؟ ، قَالُوا : لاَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ، قَالَ : فَإِنَّكُمْ تَرَوْنَهُ كَذَلِكَ ، يَجْمَعُ الله النَّاس يَوْمَ القِيَامَةِ ، فَيَقُولُ : مَنْ كَانَ يَعْبُدُ شَيْئاً فَلْيَتْبَعْهُ ، فَيَتْبَعُ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ الشَّمْسَ الشَّمْسَ ، وَيَتْبَعُ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ القَمَرَ القَمَرَ ، وَيَتْبَعُ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ الطَّوَاغِيت الطَّوَاغِيتَ ، وَتَبْقَىٰ هَذِهِ الأمَّة فِيهَا شَافِعُوهَا أَوْ مُنَافِقُوهَا – شَكَّ إِبْرَاهِيمُ – ، فَيَأْتِيهِمُ الله فَيَقُولُ : أَنَا رَبُّكُمْ، فَيَقُولُونَ : هَذَا مَكَانُنَا حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا رَبُّنَا ، فَإِذَا جَاءَنَا رَبُّنَا عَرَفْنَاهُ ، فَيَأْتِيهِمُ الله فِي صُورَتِهِ الَّتِي يَعْرِفُونَ ، فَيَقُولُ : أَنَا رَبُّكُمْ ، فَيَقُولُونَ : أَنْتَ رَبُّنَا فَيَتْبَعُونَهُ... " .

ومن كلام العلمـــــاء في تفسير الإتيان الوارد في الحديث:

قال الإمام محمَّد بن الحسن بن فورك الأنصاري الأصبهاني في " مشكل الحديث وبيانه" (٨٧-٩١) : " ... وأمَّا الْإِتْيَان بِهِ فعلىٰ معنىٰ ظُهُور فعله لَهَا مِنْهُ وَهُوَ معنىٰ قَوْله تَعَالَىٰ : ﴿فَأَتَى الله بُنْيانَهُمْ مِنَ الْقَواعِدِ﴾ [النحل : ٢٦] ، وَقَوله تَعَالَىٰ : ﴿وَجاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر : ٢٢] ، وَقَوله: ﴿الرَّحْمنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوى﴾ [طه : ٥] ، علىٰ أحد التَّأْوِيل ، أمَّا قَوْله : " غير الصُّورَة الَّتِي يعرفونها " ، فَيحْتَمل أَن يكون الْمَعْنىٰ فِي ذَلِك أَنَّه يَأْتِيهم يَوْم الْقِيَامَة بِصُورَة علىٰ خلاف ذَلِك الشَّكل وَتلك الْهَيْئَة الَّتِي كَانَت الصُّورَة عَلَيْهَا فِي الدُّنيا مَا لم يعرفوه وَلم يعهدوه لَيْسَ ذَلِك مُنْكرا لِأَن عادات أهل الْقِيَامَة وَمَا يظْهر لَهُم من الْأَهْوَال وعجائب الْخلق من صُورَة الْمَلَائِكَة وزبانية الْعَذَاب وخزنة الْجنان مِمَّا لم يعهدوا علىٰ شكلها وهيئتها فِي الدُّنْيَا.

وأَمَّا قَوْله : فَيَقُول : " أَنا ربُّكُم " ، فقد قَالَ بعض أهل الْعلم : إِنَّ هَذَا آخر محنة الْمُؤمن ، وَأَنه يظْهر هَذَا الْقَوْل فعلاً من الله عزَّ وَجلَّ فِي بعض هَذِه الصُّور ، محنة للمكلَّفين فِي الدُّنيا من أهل الْإِيمَان ، فَيظْهر مِنْهُم عَن صدق توحيدهم وَصِحَّة إِيمَانهم مَا يكون إنكاراً لذَلِك ، وَتَكون الْفَائِدَة فِيهِ يعرفنا تأييد الله تَعَالَىٰ لأهل الْإِيمَان بِهِ فِي الدُّنيا وَالْآخِرَة وتثبيته لَهُم ، كَمَا قَالَ عزَّ وَجلَّ : **﴿يُثَبِّتُ الله الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيا وَفِي الْآخِرَةِ ﴾** [إبراهيم : ٢٧] ، أَي : يثبتهم فِي الدُّنيا علىٰ الْحق عِنْد ظُهُور الْقَوْل والمحن ، ويثبتهم فِي العقبىٰ أَيْضاً فِي مَوَاضِع المحن .

وإِنَّما قيل للدُّنيا : دَار محنة وتكليف مُطلقاً ، وَإِن كَانَ من نوعها قد يَقع مِنْهَا فِي العقبىٰ ، فَلَا يُطلق عَلَيْهَا أَنَّها دَار تَكْلِيف ومحنة ، بل يُقَال : أَنَّها دَار جَزَاء ، لِأَنَّ الْغَالِب ذَلِك عَلَيْهَا ، وَهَذَا كَمَال يقال فِي الدُّنيا جَزَاء وَلَا يُضَاف إِلَيْهَا ، لِأَنَّهُ لَا يغلب عَلَيْهَا إِذا لم يكن بِهِ.

وأَمَّا قَوْله : " أَنَّهم يَقُولُونَ : إِذا جَاءَ رَبنَا عَرفْنَاهُ " ، فَيحْتَمل أَن يكون مَعْنَاهُ : مجيئاً بِإِظْهَار فعل يبديه فِي قُلُوبهم من زَوَائِد يَقِين وَعلم وبصر عِنْدَمَا يحدث لَهُم من إِدْرَاكه ومعانيه ، لِأَنَّ سَائِر مَا أضيف إِلَىٰ الله تَعَالَىٰ من إِتْيَان ومجيء ، فَهُوَ لظُهُور نوع من تَدْبيره فِي فضل أَو عدل " .

وقال الإمام ابن فورك في " مشكل الحديث وبيانه" (ص٤١٤-٤١٥) : " فَأَما معنىٰ قَوْله فِي الْخَبَر الآخر : " فيأتيهم الله فِي صورته الَّتِي يعْرفُونَ فَيَقُولُونَ : أَنْت رَبنَا " ، فقد تقدَّم تَأْوِيل ذَلِك ، وَبينَّا أَنَّه نَظِير مَا فِي الْآيَة من قَوْله جلَّ ذكره : **﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ أَنْ يَأْتِيَهُمُ الله فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمامِ ﴾** [البقرة : ٢١٠] ، فَروِيَ عَن ابْن عبَّاس فِي تَأْوِيله أَنَّ مَعْنَاهُ : بظلل من الْغَمَام ، وَأَنَّ " فِي " بِمَعْنىٰ " الْبَاء " ، وَكَذَلِكَ قَوْله : " فيأتيهم فِي غير صورته " ، بِمَعْنىٰ : بِغَيْر صورته ، وَإِضَافَة الصُّورَة إِلَيْهِ من طَرِيق الْملك . وَقيل أَيْضاً : أَنَّ الْآتِي فِي غير صورته غير الله جلَّ ذكره ، بِدلَالَة قَوْله : " أَنَّهم يَقُولُونَ : نَعُوذ بِاللَّه مِنْك "، وَلَو كَانَ الْآتِي هُوَ الله لَكَانَ قَوْلهم : " نَعُوذ بك " وَلم يَقُولُونَ : " نَعُوذ بِاللَّه مِنْك حَتَّىٰ يأتينا رَبُّنَا هَذَا مَكَاننَا" .

وأَمَّا قَوْله : " وَيَقُولُونَ : فَإِذا جَاءَ رَبُّنَا عَرفْنَاهُ " ، فَتَأْوِيل مَجِيء الربِّ علىٰ مَا تقدَّم ذكره فِي تَأْوِيل الْآيَة من قَوْله : **﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴾** [الفجر : ٢٢] ، وَأَنَّ ذَلِك بِظُهُور فعل لَا بتحويل من مَكَان إِلَىٰ مَكَان ..." .

وقال الإمام ابن فورك الأصبهاني في " مشكل الحديث وبيانه" (ص٤٧٢) : " ... وأَمَّا اللَّفْظ الآخر الَّذِي ذكره فِي الْخَبَر ، وَهُوَ قَوْله : فَيَجِيء الله تبَارك وَتَعَالَىٰ فيهم ، فتأويله علىٰ نَحْو قَوْله تَعَالَىٰ : **﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾** [الفجر : ٢٢] :

أَحَدُهُمَا : أَن يكون المُرَاد بِهِ إِظْهَار فعل يُسمَّىٰ مجيئاً.

وَالثَّانِي : أَن يكون يَجِيء فيهم ، أَي : يَجِيء بهم ، وَهَذَا نَحْو مَا رُوِيَ عَن ابْن عبَّاس فِي تَأْوِيل قَوْله تَعَالَىٰ : ﴿**فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمامِ**﴾ [البقرة : ٢١٠] ، أَنَّ مَعْنَاهُ : بظلل ، وَمَا ذكرنَا فِي تَأْوِيل النُّزول والمجيء ، فَهُوَ تَأْوِيل الهبوط ، وَأَنَّ ذَلِك أَيْضاً لَيْسَ هُوَ بِمَعْنىٰ التَّحْوِيل من مَكَان إِلَىٰ مَكَان " .

وقال الإمام ابن بطَّال في " شرح صحيح البخاري" (٢/ ٤٢٣) : " وقوله : " فيأتيهم الله " ، الإتيان هاهنا إنَّما هو كشف الحجب التي بين أبصارنا وبين رؤية الله ؛ لأنَّ الحركة والانتقال لا تجوز علىٰ الله ؛ لأنَّها صفات الأجسام المتناهية ، والله تعالىٰ لا يوصف بشيء من ذلك ، فلم يبق من معنىٰ الإتيان إلَّا ظهوره تعالىٰ إلىٰ أبصار لم تكن تراه ولا تدركه" .

وقال الإمام ابن بطَّال في " شرح صحيح البخاري " (٣/ ١٣٧-١٣٩) : " قال ابن فورك : حجَّة أهل البدع هذا الحديث وشبهه ، وقالوا : لا يمكن حمل شيء منه علىٰ تأويل صحيح من غير أن يكون فيه تشبيه ، أو تحديد ، أو وصف للرب تعالىٰ بما لا يليق به ، وقد ورد التَّنزيل ، بمعنىٰ هذا الحديث وهو قوله : ﴿**وَجاءَ رَبُّك**﴾ [الفجر : ٢٢] ، و﴿ **هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ أَنْ يَأْتِيَهُمُ الله فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمامِ وَالْمَلائِكَةُ**﴾ [البقرة : ٢١٠] ، و ﴿**فَأَتَى الله بُنْيانَهُمْ مِنَ الْقَواعِدِ**﴾ [النحل: ٢٦] . ولا فرق بين الإتيان والمجيء والنُّزول إذا أضيف جميع ذلك إلىٰ الأجسام التي يجوز عليها الحركة والنُّقلة التي هي تفريغ مكان وشغل غيره ، فإذا أضيف ذلك إلىٰ من لا يليق به الانتقال والحركة كان تأويل ذلك علىٰ حسب ما يليق بنعته وصفته عزَّ وجلَّ ...

وقال الإمام ابن رشد القرطبي في " البيان والتَّحصيل والشرح والتَّوجيه والتَّعليل لمسائل المستخرجة" (١٧/ ٦١٣-٦١٤) في شرحه لحديث : " ... قالوا يا رسول الله : هل نرىٰ ربَّنا يوم القيامة ؟ قال: هل تمارون ..." : " وهذا الحديث من مشكل الحديث ، فقوله أولاً فيه : " يأتيهم الله فيقول : أنا ربُّكم " معناه : فيأتيهم خلقٌ من خلق الله ، فحذف المضاف وأقام المضاف إليه مقامَه ، خرج مخرج " واسْأَل القَرْيَةَ " : أي : أهلها ، ويحتمل أن يكون معناه :فيأتيهم الله بخلقٍ من خلقه فيقول ، ومعلوم أيضاً أنَّه جائز في اللسان العربي أن تقول ضرب السُّلطان ، وكتب ، ونادىٰ في النَّاس ، وإن لم يفعل هو بنفسه شيئاً من ذلك ، وقد قال بعض العُلماء : إنَّ هذه آخر محنة الله يمتحن بها عباده ، ، فيثبِّت المؤمنين منهم بالقول الثَّابت.

ومعنىٰ قوله : " أنَّهم يقولون : إذا جاء ربُّنا عرفناه " ، أي : إذا تجلَّىٰ لنا ربُّنا بإنعامه علينا بخلقه فينا إدراك رؤيته عرفناه، وهذا معنىٰ قوله : فيأتيهم الله ، لأنَّ الإتيان الذي هو الانتقال من موضع إلىٰ موضع مستحيل في صفة الله تعالىٰ ."

وقال الإمام ابن الجوزي في " دفع شبه التَّشبيه بأكف التَّنزيه" (ص١٥٩-١٦١) في كلامه على حديث الشَّفاعة الطَّويل : " قال أبو سليمان الخطَّابي : معنى : " فيأتيهم الله " ، أي : يكشف الحجاب لهم حتى يرونه عياناً ، كما كانوا عرفوه في الدُّنيا استدلالاً ، فرؤيته بعد أن لم يكونوا رأوه بمنزلة إتيان الآتي ، ولم يكن شوهد من قبل . وأمَّا الصُّورة فتتأوَّل على وجهين :

أَحَدُهُمَا : أنَّها بمعنى الصِّفة ، يقال صورة الأمر كذا.

وَالثَّانِي : أنَّ المذكورات من المعبودات في أوَّل الحديث صور يخرج الكلام على نوعين من المطابقة . وقوله : " في غير الصُّورة التي رأوه فيها " ، دليل على أنَّ المراد بالصُّورة الصِّفة ، لأنَّهم ما رأوه قبلها ، فعلم أنَّ المراد الصِّفة التي عرفوه فيها.

وقال غيره من العلماء : يأتيهم بأهوال القيامة ، وصور الملائكة ، ممَّا لم يعهدوا مثله في الدُّنيا فيستعيذون من تلك الحال ، ويقولون : " إذا جاء ربُّنا عرفناه " ، أي : أتى بما يعرفونه من لطفه ، وهي الصُّورة التي يعرفون ..." .

وقال الإمام ابن الجوزي في " كشف المشكل من حديث الصَّحيحين" (٣/ ٨٤) : " ... وَقَوله : ثمَّ يأتينا رَبنَا . قد قَالَ أَحْمد فِي قَوْله : ﴿**أَنْ يَأْتِيَهُمُ الله**﴾ [البقرة : ٢١٠] : يَأْتِي أمره" .

وقال الإمام النَّووي في " المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجَّاج (٣/ ١٩-٢٠) : " اعْلَمْ أَنَّ لِأَهْلِ الْعِلْمِ فِي أَحَادِيثِ الصِّفات وَآيَاتِ الصِّفات ، قَوْلَيْنِ:

أَحَدُهُمَا : وَهُوَ مَذْهَبُ مُعْظَمِ السَّلف أَوْ كُلِّهِمْ : أَنَّه لَا يُتَكَلَّمُ فِي مَعْنَاهَا ، بَلْ يَقُولُونَ : يَجِبُ عَلَيْنَا أَنْ نُؤْمِنَ بِهَا ، وَنَعْتَقِدَ لَهَا مَعْنًى يَلِيقُ بِجَلَالِ اللَّهِ تَعَالَى وَعَظَمَتِهِ ، مَعَ اعْتِقَادِنَا الْجَازِمِ : أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ، وَأَنَّهُ مُنَزَّهٌ عَنِ التَّجَسُّمِ وَالِانْتِقَالِ وَالتَّحَيُّزِ فِي جِهَةٍ ، وَعَنْ سَائِرِ صِفَاتِ الْمَخْلُوقِ ، وَهَذَا الْقَوْلُ هُوَ مَذْهَبُ جَمَاعَةٍ مِنَ الْمُتَكَلِّمِينَ ، وَاخْتَارَهُ جَمَاعَةٌ مِنْ مُحَقِّقِيهِمْ ، وَهُوَ أَسْلَمُ.

وَالْقَوْلُ الثَّاني : وَهُوَ مَذْهَبُ مُعْظَمِ الْمُتَكَلِّمِينَ : أَنَّها تتأول على ما يليق بِهَا عَلَى حَسَبِ مَوَاقِعِهَا ، وإِنَّما يَسُوغُ تَأْوِيلُهَا لِمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِهِ ، بِأَنْ يَكُونَ عَارِفاً بِلِسَانِ الْعَرَبِ ، وَقَوَاعِدِ الْأُصُولِ وَالْفُرُوعِ ، ذَا رِيَاضَةٍ فِي الْعِلْمِ ، فَعَلَى هَذَا الْمَذْهَبِ ، يُقَالُ فِي قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " فيأتيهم الله " ، أَنَّ الْإِتْيَانَ عِبَارَةٌ عَنْ رُؤْيَتِهِمْ إِيَّاهُ ، لِأَنَّ الْعَادَةَ أَنَّ مَنْ غَابَ عَنْ غَيْرِهِ لَا يمكنه رؤيته إلا بالإتيان ، فعبَّر بالإتيان والمجيء هُنَا عَنِ الرُّؤْيَةِ مَجَازاً ، وَقِيلَ : الْإِتْيَانُ فِعْلٌ مِنْ أَفْعَالِ اللَّهِ تَعَالَى ، سَمَّاهُ إِتْيَاناً ، وَقِيلَ : المراد بيأتيهم الله ، أَيْ : يَأْتِيهِمْ بَعْضُ مَلَائِكَةِ اللَّهِ . قَالَ الْقَاضِي عِيَاضٌ رَحِمَهُ الله : هَذَا الْوَجْهُ أَشْبَهُ عِنْدِي بِالْحَدِيثِ ، قَالَ : وَيَكُونُ

هَذَا الْمَلَكُ الَّذِي جَاءَهُمْ فِي الصُّورَةِ الَّتِي أَنْكَرُوهَا مِنْ سِمَاتِ الْحَدَثِ الظَّاهِرَةِ عَلَى الْمَلَكِ وَالْمَخْلُوقِ ، قَالَ : أَوْ يَكُونُ مَعْنَاهُ : يَأْتِيهِمُ الله فِي صُورَةٍ ، أَيْ : يَأْتِيهِمْ بِصُورَةٍ وَيُظْهِرُ لَهُمْ مِنْ صُوَرِ مَلَائِكَتِهِ وَمَخْلُوقَاتِهِ الَّتِي لَا تُشْبِهُ صِفَاتِ الْإِلَهِ لِيَخْتَبِرَهُمْ ، وَهَذَا آخِرُ امْتِحَانِ الْمُؤْمِنِينَ ، فَإِذَا قَالَ لَهُمْ هَذَا الْمَلَكُ أَوْ هَذِهِ الصُّورَةُ : أَنَا رَبُّكُمْ ، رَأَوْا عَلَيْهِ مِنْ عَلَامَاتِ الْمَخْلُوقِ مَا يُنْكِرُونَهُ ، وَيَعْلَمُونَ أَنَّه لَيْسَ رَبَّهُمْ ، وَيَسْتَعِيذُونَ بِاللَّهِ مِنْهُ ... " .

وقال الإمام الكرماني في " الكواكب الدَّراري في شرح صحيح البخاري" (٥/ ١٦١) : " قوله : " فيأتيهم الله " ، فإن قلت : ما معنىٰ إتيان الله ، وهو سبحانه وتعالىٰ منزَّه عن الحركة ؟ قلت : إسناد الإتيان إليه مجاز عن الظُّهور ، لأنَّ الإتيان مستلزم للظهور وعلىٰ المأتي إليه . فإن قلت : فلم كرَّر لفظ فيأتيهم الله ؟ قلت : لا تكرار ، إذ المراد من الأوَّل : ظهور غير واضح لبقاء بعض الحجب مثلاً ، ومن الثَّاني : ظهور واضح في الغاية أو يقلل أبهمه أولاً ثمَّ فسَّره ثانياً بزيادة بيان قولهم وذكر المكان ودعوتهم إلىٰ دار الإسلام ، أو يراد بالأوَّل إتيان الملك ، ففيه إضمار" .

وقال الإمام الكرماني في " الكواكب الدَّراري في شرح صحيح البخاري" (٢٥/ ١٤٢) : " قوله : " يأتيهم الله " إسنادُ الإتيان إليه مجاز عن التَّجلِّي لهم ، وقيل : عن رؤيتهم إيَّاه ، لأنَّ الإتيان إلىٰ الشَّخص مستلزم لرؤيته له . القاضي عياض : أي : يأتيهم بعض ملائكته أو يأتيهم الله في صورة الملك ، وهذا آخر امتحان المؤمنين ، فإذا قال لهم هذا الملك أو هذه الصُّورة : أنا ربُّكم ، رأوا عليه من علامة الحدوث ما يعلمون به أنَّه ليس ربّهم " .

وقال الإمام ابن الملقِّن في "التَّوضيح لشرح الجامع الصَّحيح" (١/ ٢١٠) : " قوله : " فيأتيهم الله " الإتيان هنا إنَّما هو كشف الحجب التي بين أبصارنا وبين رؤية الله – عزَّ وجلَّ – ، لأنَّ الحركة والانتقال لا تجوز عَلَىٰ الله تعالىٰ ؛ لأنَّها صفات الأجسام المتناهية ، والله تعالىٰ لا يوصف بشيء من ذَلِكَ ، فلم يبق من معنىٰ الإتيان إلَّا ظهوره – عزَّ وجلَّ – إلىٰ الأبصار ، لم تكن تراه ولا تدركه ، والعادة أنَّ من غاب عن غيره لا يمكنه رؤيته إلَّا بالإتيان ، فعبَّر به عن الرُّؤية مجازاً ، ولا شكَّ أنَّ ما كان عليه السَّلف من التَّسليم أسلم ، لكن مع القطع بأنَّ الظَّواهر المذكورة يستحيل حملها علىٰ ظواهرها لما يعارضها من ظواهر أخر ، والمتأوِّل أوَّلها عَلَىٰ ما يليق بها عَلَىٰ حسب مواقعها ، وإنَّما يسوغ تأويلها لمن كان عارفا بلسان العرب ، وقواعد الأصول " .

وقال الإمام ابن الملقِّن في " التَّوضيح لشرح الجامع الصَّحيح" (٧/ ١٩٥-١٩٩) : " قوله : " فيأتيهم الله " الإتيان هنا إنَّما هو كشف الحجب التي بين أبصارنا وبين رؤية الله – عزَّ وجلَّ – ، لأنَّ الحركة والانتقال لا تجوز عَلَىٰ الله تعالىٰ ؛ لأنَّها صفات الأجسام المتناهية ، والله تعالىٰ لا يوصف بشيء من ذَلِكَ ، فلم يبق من معنىٰ الإتيان إلَّا ظهوره – عزَّ وجلَّ – إلىٰ الأبصار ، لم تكن تراه ولا تدركه ، والعادة أنَّ من غاب عن غيره لا يمكنه رؤيته إلَّا بالإتيان ، فعبَّر به عن الرُّؤية مجازاً ، ولا شك أنَّ ما كان عليه السَّلف من التَّسليم أسلم ، لكن مع القطع بأنَّ الظَّواهر المذكورة يستحيل حملها علىٰ ظواهرها لما يعارضها من ظواهر أخر، والمتأوِّل أولها عَلَىٰ ما يليق بها عَلَىٰ حسب مواقعها ، وإنَّما يسوغ تأويلها لمن كان عارفاً بلسان العرب ، وقواعد الأصول والفروع وزعم القاضي عياض أنَّ الإتيان فعل من أفعال الله تعالىٰ سماه إتياناً . قَالَ : والأشبه أنَّ المراد يأتيهم بعض الملائكة ، ويكون هذا الملك الذي جاءهم في الصُّورة التي أنكروها من سمات الحدث الظَّاهرة عليه ، أو يكون معناه : يأتيهم في صورة لا تشبه صفات الإلهية ؛ ليختبرهم وهو آخر امتحان المؤمنين ، فإذا قَالَ لهم هذا الملك أو هذِه الصورة : أنا ربكم . رأوا عليه من علامات المخلوق ما ينكرونه ويعلمون أنَّه ليس ربّهم فيستعيذون بالله منه.

وقال القرطبي : هذا مقام هائل يمتحن الله فيه عباده ؛ ليميز المُحِقّ من المُبطل ، وذلك أنَّه لمَّا بقي المنافقون والمراءون متلبسين بالمؤمنين المخلصين زاعمين أنَّهم منهم، امتحنهم الله بأن أتاهم بصورة هائلة قالت للجميع : أنا ربكم . فأجاب المؤمنون بإنكار ذَلِكَ لما سبق لهم من المعرفة به تعالىٰ، وأنَّه منزَّه عن صفات هذِه الصُّورة ؛ إذ سماتها سمات الحدث ؛ فلذلك قالوا في حديث أبي سعيد : نعوذ بالله منك، لا نشرك باللهِ شيئاً . مرتين أو ثلاثاً ، حتَّىٰ أنَّ بعضهم ليكاد أن ينقلب ، وهذا البعض الذي هم بالانقلاب لم يكن لهم رسوخ العلماء ولا ثبوت العارفين ، ولعلَّ هذِه الطَّائفة هي التي اعتقدت الحقّ من غير بصيرة ، فلذلك كان اعتقادهم قابلاً للانقلاب . ثمَّ يقال بعد هذا للمؤمنين : هل بينكم وبينه آية تعرفونها ؟ فيقولون : نعم . فيكشف عن ساق ، أي : يوضح الحقّ ويتجلَّىٰ لهم الأمر ، فيروه حقيقة معاينة – وكشف السَّاق مثل يستعمله العرب في الأمر إذَا حقّ ووضح – وعند هذا يسجد الجميع ، فمن كان مخلصًا في الدُّنيا صحَّ لَهُ سجوده عَلَىٰ نهايته وكماله ، ومن كان منافقاً أو مرائياً عاد ظهره طبقة واحدة كلَّما رام السُّجود خرَّ عَلَىٰ قفاه ، فعلىٰ هذا تكون الصُّورة التي لا يعرفونها مخلوقة ، والفاء التي دخلت عليها بمعنىٰ الباء ، ويكون معنىٰ الكلام : أنَّ الله تعالىٰ يجيئهم بصورة . كما في قوله تعالىٰ : ﴿**هَلْ يَنْظُرُونَ إلاَّ أَنْ يَأْتِيَهُمُ الله فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمامِ**﴾ [البقرة : ٢١٠] ، ويكون معنىٰ الإتيان هنا : يحضر لهم تلك الصُّورة .

وأمَّا الصُّورة الثَّانية التي يعرفون عندما يتجلىٰ لهم الحقّ فهي صفته تعالىٰ التي لا يشاركه فيها شيء من الموجودات ، وهذا الوصف الذي كانوا قد عرفوه في الدُّنيا ، وهو المعبَّر عنه بقوله : ﴿**لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ**﴾ [الشورىٰ: ١١] ، ولهذا قالوا : إِذَا جاء ربنا عرفناه . فقيل لهم في الحديث : وكيف تعرفونه ؟ قالوا : أنَّه لا شبيه له ولا نظير ، وقد جاء مرفوعاً في كتاب : " التَّصديق بالنَّظر إلىٰ الله تعالىٰ " للآجري (ص٥٥ برقم ٣٩) من حديث أبي موسىٰ كذلك ، ولا يستبعد إطلاق الصُّورة بمعنىٰ الصِّفة والمجيء والإتيان المضاف إلىٰ الرَّب جلَّ جلاله.

ثانياً : هو عبارة عن تجلِّيه لهم ، فكأنَّه كان بعيداً فقرب أو غائباً فحضر ، وكلّ ذَلِكَ خطاب عَلَىٰ وجه الاستعارة ، جار عَلَىٰ المتعارف من توسّعات العرب ، فإنَّهم يسمّون الشَّيء باسم الشَّيء إِذَا جاوره أو قاربه ، والتَّحوُّل المنسوب إليه تعالىٰ في رواية أخرىٰ في الصَّحيح عبارة عن إزالة تلك الصُّورة الأولىٰ المتعوّذ منها ، فيكون قوله : " تحول " حالاً متقدِّمة قبل سجودهم ؛ بمعنىٰ : وقد كان تحوّل . أي : حول تلك الصُّورة وأزالها وتجلَّىٰ هو بنفسه ، فيكون المراد بهذا الكلام : أنَّه تعالىٰ لمَّا تجلَّىٰ لعباده المؤمنين أوَّل مرَّة رأوه فيها ، لم يزل كذلك ، لكنَّهم انصرفوا عن رؤيته عند سجودهم ، ثمَّ لما فرغوا منه عادوا إلىٰ رؤيته مرةً ثانية.

والخطَّابي قَالَ : الإتيان هنا : كشف الحجاب لهم وقد مر.ّ

والصُّورة إمَّا بمعنىٰ: الصِّفة ، كقولنا : صورة هذا الأمر كذا وكذا . إذ المذكور من المعبودات صور فخرج الكلام عَلَىٰ نوع من المطابقة.

وقوله : " في أدنىٰ صورة " يدلُّ عَلَىٰ أنَّ المراد بالصُّورة: الصِّفة كما مر؛ لأنَّهم ما رأوه قبلها، فعلم أنَّ المراد الصِّفة التي عرفوه بها " .

وقال الإمام ابن حجر العسقلاني في " فتح الباري شرح صحيح البخاري" (١١/ ٤٥٠-٤٥١) : " وأمَّا نِسْبَةُ الْإِتْيَانِ إِلَىٰ اللَّهِ تَعَالَىٰ ، فَقِيلَ : هُوَ عِبَارَةٌ عَنْ رُؤْيَتِهِمْ إِيَّاهُ ، لِأَنَّ الْعَادَةَ أَنَّ كُلَّ مَنْ غَابَ عَنْ غَيْرِهِ لَا يُمْكِنُ رُؤْيَتُهُ إِلَّا بِالْمَجِيءِ إِلَيْهِ ، فَعَبَّرَ عَنِ الرُّؤْيَةِ بِالْإِتْيَانِ مَجَازاً ، وَقِيلَ : الْإِتْيَانُ فِعْلٌ مِنْ أَفْعَالِ اللَّهِ تَعَالَىٰ ، يَجِبُ الْإِيمَانُ بِهِ مَعَ تَنْزِيهِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَنْ سِمَاتِ الْحُدُوثِ ، وَقِيلَ : فِيهِ حَذْفٌ ، تَقْدِيرُهُ : يَأْتِيهِمْ بَعْضُ مَلَائِكَةِ اللَّهِ ، وَرَجَّحَهُ عِيَاضٌ ، قَالَ : وَلَعَلَّ هَذَا الْمَلَكَ جَاءَهُمْ فِي صُورَةٍ أَنْكَرُوهَا لَمَّا رَأَوْا فِيهَا مِنْ سِمَةِ الْحُدُوثِ الظَّاهِرَةِ عَلَىٰ الْمَلَكِ ، لِأَنَّهُ مَخْلُوقٌ . قَالَ : وَيَحْتَمِلُ وَجْهاً رَابِعاً ، وَهُوَ : أَنَّ الْمَعْنَىٰ : يَأْتِيهِمُ الله بِصُورَةٍ ، أَيْ : بِصِفَةٍ تَظْهَرُ لَهُمْ مِنَ الصُّوَرِ الْمَخْلُوقَةِ الَّتِي لَا تُشْبِهُ صِفَةَ الْإِلَهِ لِيَخْتَبِرَهُمْ بِذَلِكَ ، فَإِذَا قَالَ لَهُمْ

هَذَا الْمَلَكُ : أَنَا رَبُّكُمْ ، وَرَأَوْا عَلَيْهِ مِنْ عَلَامَةِ الْمَخْلُوقِينَ مَا يَعْلَمُونَ بِهِ أَنَّه لَيْسَ رَبَّهُمْ اسْتَعَاذُوا مِنْهُ لِذَلِكَ ، انْتَهَى . وَقَدْ وَقَعَ فِي رِوَايَةِ الْعَلَاءِ بْنِ عَبْدِ الرَّحمن الْمُشَارِ إِلَيْهَا : " فَيَطَّلِعُ عَلَيْهِمْ رَبُّ الْعَالَمِينَ " ، وَهُوَ يُقَوِّي الاِحْتِمَالَ الْأَوَّلَ ، قَالَ : وأَمَّا قَوْلُهُ بَعْدَ ذَلِكَ : " فَيَأْتِيهِمُ الله فِي صُورَتِهِ الَّتِي يَعْرِفُونَهَا " ، فَالْمُرَادُ بِذَلِكَ : الصِّفَةُ ، وَالْمَعْنَى : فَيَتَجَلَّى الله لَهُمْ بِالصِّفَةِ الَّتِي يَعْلَمُونَهُ بِهَا ، وإِنَّما عَرَفُوهُ بِالصِّفَةِ ، وَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَقَدَّمَتْ لَهُمْ رُؤْيَتُهُ ، لأَنَّهم يَرَوْنَ حِينَئِذٍ شَيْئاً لَا يُشْبِهُ الْمَخْلُوقِينَ ، وَقَدْ عَلِمُوا أَنَّه لَا يُشْبِهُ شَيْئاً مِنْ مَخْلُوقَاتِهِ ، فَيَعْلَمُونَ أَنَّه رَبُّهُمْ ، فَيَقُولُونَ : أَنْتَ رَبُّنَا ، وَعَبَّرَ عَنِ الصِّفَةِ بِالصُّورَةِ لِمُجَانَسَةِ الْكَلَامِ لِتَقَدُّمِ ذِكْرِ الصُّورَةِ ، قَالَ : وأَمَّا قَوْلُهُ : " نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْكَ " ، فَقَالَ الْخَطَّابِيُّ : يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ هَذَا الْكَلَامُ صَدَرَ مِنَ الْمُنَافِقِينَ قَالَ الْقَاضِي عِيَاضٌ : وَهَذَا لَا يَصِحُّ وَلَا يَسْتَقِيمُ الْكَلَامُ بِهِ وَقَالَ النَّووي : الَّذِي قَالَهُ الْقَاضِي صَحِيحٌ ، وَلَفْظُ الْحَدِيثِ مُصَرِّحٌ بِهِ أَوْ ظَاهِرٌ فِيهِ ، انْتَهَى . وَرَجَّحَهُ الْقُرْطُبِيُّ فِي التَّذْكِرَةِ ، وَقَالَ : أَنَّه مِنَ الاِمْتِحَانِ الثَّاني يَتَحَقَّقُ ذَلِكَ ، فَقَدْ جَاءَ فِي حَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ : "حَتَّى ان بَعضهم ليكاد يَنْقَلِب " .

وَقَالَ ابن الْعَرَبِيِّ : إِنَّما اسْتَعَاذُوا مِنْهُ أَوَّلًا لأَنَّهم اعْتَقَدُوا أَنَّ ذَلِكَ الْكَلَامَ اسْتِدْرَاجٌ ، لِأَنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ ، وَمِنَ الْفَحْشَاءِ اتِّبَاعُ الْبَاطِلِ وَأَهْلِهِ ، وَلِهَذَا وَقَعَ فِي الصَّحيح : " فَيَأْتِيهِمُ الله فِي صُورَةٍ " ، أَيْ : بِصُورَةٍ لَا يَعْرِفُونَهَا ، وَهِيَ الْأَمْرُ بِاتِّبَاعِ أَهْلِ الْبَاطِلِ ، فَلِذَلِكَ يَقُولُونَ : " إِذَا جَاءَ رَبُّنَا عَرَفْنَاهُ " ، أَيْ : إِذَا جَاءَنَا بِمَا عَهِدْنَاهُ مِنْهُ مِنْ قَوْلِ الْحَقِّ . وَقَالَ بن الْجَوْزِيِّ : مَعْنَى الْخَبَرِ يَأْتِيهِمُ الله بِأَهْوَالِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، وَمِنْ صُوَرِ الْمَلَائِكَةِ بِمَا لَمْ يَعْهَدُوا مِثْلَهُ فِي الدُّنيا فَيَسْتَعِيذُونَ مِنْ تِلْكَ الْحَالِ ، وَيَقُولُونَ : إِذَا جَاءَ رَبُّنَا عَرَفْنَاهُ ، أَيْ : إِذَا أَتَانَا بِمَا نَعْرِفُهُ مِنْ لُطْفِهِ ، وَهِيَ الصُّورَةُ الَّتِي عَبَّر عَنْهَا بِقَوْلِهِ : " يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ" ، أَيْ : عَنْ شِدَّةٍ . وَقَالَ الْقُرْطُبِيُّ : هُوَ مَقَامٌ هَائِلٌ يَمْتَحِنُ الله بِهِ عِبَادَهُ لِيُمَيِّزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ ، وَذَلِكَ أَنَّه لَمَّا بَقِيَ الْمُنَافِقُونَ مُخْتَلِطِينَ بِالْمُؤْمِنِينَ زَاعِمِينَ أَنَّهم مِنْهُمْ ظَانِّينَ أَنَّ ذَلِكَ يَجُوزُ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ ، كَمَا جَازَ فِي الدُّنيا ، امْتَحَنَهُمُ الله بِأَنْ أَتَاهُمْ بِصُورَةٍ هَائِلَةٍ قَالَتْ لِلْجَمِيعِ : أَنَا رَبُّكُمْ ، فَأَجَابَهُ الْمُؤْمِنُونَ بِإِنْكَارِ ذَلِكَ ، لِمَا سَبَقَ لَهُمْ مِنْ مَعْرِفَتِهِ سُبْحَانَهُ ، وَأَنَّهُ مُنَزَّهٌ عَنْ صِفَاتِ هَذِهِ الصُّورَةِ ، فَلِهَذَا قَالُوا : نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْكَ ، لَا نُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئاً ، حَتَّى إِنَّ بَعْضَهُمْ لَيَكَادُ يَنْقَلِبُ ، أَيْ : يَزِلُّ فَيُوَافِقُ الْمُنَافِقِينَ ، قَالَ : وَهَؤُلَاءِ طَائِفَةٌ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ رُسُوخٌ بَيْنَ الْعُلَمَاءِ ، وَلَعَلَّهُمُ الَّذِينَ اعْتَقَدُوا الْحَقَّ وَحَوَّمُوا عَلَيْهِ مِنْ غَيْرِ بَصِيرَةٍ" .

وقال الإمام ابن حجر العسقلاني في " فتح الباري شرح صحيح البخاري" (١٣/٤٢٧-٤٢٨) : " وَقَوْلُهُ فِيهِ : " فَيَأْتِيهِمُ الله فِي صُورَة " ، اسْتدلَّ بن قُتَيْبَةَ بِذِكْرِ الصُّورَةِ عَلَى أَنَّ لِلَّهِ صُورَةً لَا كَالصُّوَرِ ، كَمَا ثَبَتَ أَنَّه شَيْءٌ لَا كالأشياء ، وتعقبوه ، وَقَالَ بن بَطَّالٍ : تَمَسَّكَ بِهِ الْمُجَسِّمَةُ ، فَأَثْبَتُوا لِلَّهِ صُورَةً ، وَلَا حُجَّةَ لَهُمْ فِيهِ ،

لِاحْتِمَالِ أَنْ يَكُونَ بِمَعْنَىٰ الْعَلَامَةِ ، وَضَعَهَا الله لَهُمْ دَلِيلاً عَلَىٰ مَعْرِفَتِهِ ، كَمَا يُسَمَّىٰ الدَّلِيل وَالْعَلَامَةُ صُورَةً ، وَكَمَا تَقُولُ : صُورَةُ حَدِيثِكَ كَذَا ، وَصُورَةُ الْأَمْرِ كَذَا ، وَالْحَدِيثُ وَالْأَمْرُ لَا صُورَةَ لَهُمَا حَقِيقَةً ، وَأَجَازَ غَيْرُهُ : أَنَّ الْمُرَادَ بِالصُّورَةِ الصِّفَةُ ، وَإِلَيْهِ مَيْلُ الْبَيْهَقِيّ ، وَنقل بن التِّينِ أَنَّ مَعْنَاهُ : صُورَةُ الِاعْتِقَادِ ، وَأَجَازَ الْخَطَّابِيُّ أَنْ يَكُونَ الْكَلَامُ خَرَجَ عَلَىٰ وَجْهِ الْمُشَاكَلَةِ ، لِمَا تَقَدَّمَ مِنْ ذِكْرِ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ وَالطَّوَاغِيتِ ، وَقَدْ تَقَدَّمَ بَسْطُ هَذَا هُنَاكَ ، وَكَذَا قَوْلُهُ : " نَعُوذُ بِكَ " ، وَقَالَ غَيْرُهُ فِي قَوْلِهِ : " فِي الصُّورَةِ الَّتِي يَعْرِفُونَهَا " ، يَحْتَمِلُ أَنْ يُشِيرَ بِذَلِكَ إِلَىٰ مَا عَرَفُوهُ حِينَ أَخْرَجَ ذُرِّيَّةَ آدَمَ مِنْ صُلْبِهِ ثُمَّ أَنْسَاهُمْ ذَلِكَ فِي الدُّنيا ثمَّ يُذَكِّرُهُمْ بِهَا فِي الْآخِرَةِ ، وَقَوْلُهُ : " فَإِذَا رَأَيْنَا رَبَّنَا عَرَفْنَاهُ " ، قَالَ بن بَطَّالٍ عَنِ الْمُهَلَّبِ : إِنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ لَهُمْ مَلَكاً لِيَخْتَبِرَهُمْ فِي اعْتِقَادِ صِفَاتِ رَبِّهِمُ الَّذِي لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ، فَإِذَا قَالَ لَهُمْ : " أَنَا رَبُّكُمْ " ، رَدُّوا عَلَيْهِ ، لِمَا رَأَوْا عَلَيْهِ مِنْ صِفَةِ الْمَخْلُوقِ ، فَقَوْلُهُ : " فَإِذَا جَاءَ رَبُّنَا عَرَفْنَاهُ " ، أَيْ : إِذَا ظَهَرَ لَنَا فِي مُلْكٍ لَا يَنْبَغِي لِغَيْرِهِ وَعَظَمَةٍ لَا تُشْبِهُ شَيْئاً مِنْ مَخْلُوقَاتِهِ ، فَحِينَئِذٍ يَقُولُونَ : أَنْتَ رَبُّنَا" .

وقال الإمام العيني في "عمدة القاري شرح صحيح البخاري" (٦/ ٨٤) : " قَوْله : " فيأتيهم الله عزَّ وَجلَّ " . وَفِي رِوَايَة أُخْرَىٰ : " فيأتيهم فِي غير الصُّورَة الَّتِي يعْرفُونَ ، فَيَقُولُونَ : نَعُوذ بِاللَّه مِنْك " . الْإِتْيَان هُنَا إنَّما هُوَ كشف الْحجب الَّتِي بَين أبصارنا وَبَين رُؤْيَة الله عزَّ وَجلَّ ، لِأَنَّ الْحَرَكَة والانتقال لَا تجوز علىٰ الله تَعَالَىٰ ، لِأَنَّهَا صِفَات الْأَجْسَام المتناهية ، وَالله تَعَالَىٰ لَا يُوصف بِشَيْء من ذَلِك ، فَلم يكن معنىٰ الْإِتْيَان إِلَّا ظُهُوره عزَّ وَجلَّ إِلَىٰ أبصار لم تكن ترَاهُ وَلَا تُدْرِكهُ ، وَالْعَادَة أَن من غَابَ عَن غَيره لَا يُمكنهُ رُؤْيَته إِلَّا بالإتيان ، فَعبَّر بِهِ عَن الرُّؤْيَة مجازاً ، لِأَن الْإِتْيَان مُسْتَلْزم للظهور علىٰ المأتي إِلَيْهِ . وَقَالَ الْقُرْطُبِيّ : التَّسْلِيم الَّذِي كَانَ عَلَيْهِ السَّلف أسلم . وَقَالَ عِيَاض : إِن الْإِتْيَان فعل من أَفعَال الله تَعَالَىٰ ، سَمَّاهُ إتياناً ، وَقيل : يَأْتِيهم بعض مَلَائكَته . قَالَ القَاضِي : وَهَذَا الْوَجْه عِنْدِي أشبه بِالْحَدِيثِ ، قَالَ : وَيكون هَذَا الْملك الَّذِي جَاءَهُم فِي الصُّورَة الَّتِي أنكروها من سمات الْحُدُوث الظَّاهِرَة عَلَيْهِ" ...

وقال الإمام العيني في " عمدة القاري شرح صحيح البخاري" (٢٥/ ١٢٥) : " قَوْله : " فيأتيهم الله " ، إِسْنَاد الْإِتْيَان إِلَىٰ الله تَعَالَىٰ مجَاز عَن التَّجلِّي لَهُم ، وَقيل : عَن رُؤْيَتهمْ إِيَّاه ، لِأَنَّ الْإِتْيَان إِلَىٰ الشَّخْص مُسْتَلْزم لرُؤْيَته ، وَقَالَ عِيَاض : أَي : يَأْتِيهم بعض مَلَائكَته" .

وقال الإمام القسطلاني في " إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري" (٢/ ١١٥) : " " فيأتيهم الله عزَّ وجلَّ " ، أي : يظهر لهم في غير صورته ، أي : في غير صفته التي يعرفونها من الصِّفات التي تبعدهم بها عن الدُّنيا امتحاناً منه ، ليقع التَّمييز بينهم وبين غيرهم ممَّن يعبد غيره تعالىٰ ، " فيقول : أنا ربُّكم " ،

فيستعيذون بالله منه ، لم يظهر لهم بالصِّفات التي يعرفونها ، بل بما استأثر بعلمه تعالىٰ ، لأنَّ معهم منافقين لا يستحقون الرُّؤية ، وهم من ربِّهم محجوبون ، " فيقولون : هذا مكاننا " بالرَّفع خبر المبتدأ الذي هو اسم الإشارة " حتىٰ يأتينا " يظهر لنا " ربُّنا ، فإذا جاء " ظهر " ربُّنا عرفناه ، فيأتيهم الله " عزَّ وجلَّ ، أي : يظهر متجلِّياً بصفاته المعروفة عندهم ، وقد تميَّز المؤمن من المنافق " فيقول : أنا ربُّكم " فإذا رأوا ذلك عرفوه به تعالىٰ " فيقولون : أنت ربُّنا" . ويحتمل أن يكون الأوَّل قول المنافقين ، والثَّاني قول المؤمنين.

وقيل : الآتي في الأوَّل ملك ، ورجَّحه عياض ، أي : يأتيهم ملك الله ، حذف المضاف ، وأقيم المضاف إليه مقامه ."

وقال الإمام القسطلاني في " إرشاد السَّاري لشرح صحيح البخاري" (١٠/ ٤٠٠) : " فيأتيهم الله " عزَّ وجلَّ إتياناً ، لا يكيَّف عارياً عن الحركة والانتقال أو هو محمول علىٰ الإتيان المعروف عندنا ، لكن علىٰ معنىٰ : أنَّ الله تعالىٰ يخلقهُ لملَك من ملائكتهِ ، فأضافه إلىٰ نفسه علىٰ جهة الإسناد المجازي مثل قطع الأميرُ اللصَّ " .

وقال الإمام أمالي محمَّد أنور شاه بن معظم شاه الكشميري الهندي ثمَّ الدّيوبندي في " فيض الباري علىٰ صحيح البخاري" (٢/ ٣٨١) : " قوله : " فيأتيهم الله " ، وقد مرَّ مني : أنَّ الأفعال اللازمة المُسْتَعْمَلة في الحضرة الإلهيَّة يُرَاد بها : تَعَلُّق تلك الصِّفة بالمحلّ ، والمتعدِّية منها يُرَاد بها : إحداث هذا المحلّ وإيجاده . فالإتيان والنُّزول والاستواء كلّها أفعال لازمة ، فَيُرَاد بها : تَعَلُّق هذه الصِّفات بالمحلّ ، وهذه كلُّها تجلِّيات للرَّب جلَّ مجده " ...

﴿ الفَصْلُ الخَامِسُ ﴾

۞۞۞ المِيْزَانُ وَمَا يَتَعَلَّقُ بِهِ مِنْ مَسَائِل ۞۞۞

الإيمان بالميزان واجب، وهو مظهر من مظاهر عدل الله تعالىٰ ، وهو ميزان لا يعلم حقيقته إلَّا الله تعالىٰ ، وقد ثبت وجوده بالكتاب والسنة والإجماع، توزن به أعمال العباد.. والآيات القرآنيَّة والأحاديث النَّبويَّة الصَّحيحة في ذلك كثيرة ...

وحاصل ما تضمَّنه هذا الفصل ينتظم في أجوبة الأسئلة التَّالية :

﴿سُؤالٌ﴾ : مَا مَعْنَى المِيْزَانِ لُغَةً وَاصْطِلَاحَاً ؟

الجواب :

أَوَّلَاً : مَعْنَى المِيْزَانِ لُغَةً : قال الإمام ابن فارس في " معجم مقاييس اللغة" (٦/ ١٠٧) : " الْوَاوُ وَالزَّاءُ وَالنُّونُ: بِنَاءٌ يَدُلُّ عَلَى تَعْدِيلٍ وَاسْتِقَامَةٍ: وَوَزَنْتُ الشَّيْءَ وَزْنًا. وَالزِّنَةُ قَدْرُ وَزْنِ الشَّيْءِ ؛ وَالْأَصْلُ وَزْنَةٌ. وَيُقَالُ: قَامَ مِيزَانُ النَّهَارِ، إِذَا انْتَصَفَ النَّهَارُ. وَهَذَا يُوَازِنُ ذَلِكَ، أَيْ هُوَ مُحَاذِيهِ. وَوَزِينُ الرَّأْيِ: مُعْتَدِلُهُ. وَهُوَ رَاجِحُ الْوَزْنِ، إِذَا نَسَبُوهُ إِلَى رَجَاحَةِ الرَّأْيِ وَشِدَّةِ الْعَقْلِ" .

وقال الإمام الجوهري في " تهذيب اللغة" (١٣/ ١٧٥-١٧٦) : " قَالَ أَبُو العبّاس: قَالَ ابْن الأعرابيّ: العَرَب تَقول: مَا لِفلان عندنَا وَزْن، أَي: قَدْرٌ لخِسّته. وَقَالَ غيرُه: مَعْنَاهُ: خِفّة موازِينهم من الحَسنات. وَيُقَال: وَزَن فلانٌ الدراهمَ وَزْناً بالمِيزان، وَإِذا كالَ فقد وَزَنه أَيْضا. وَيُقَال: وزنَ الشيءَ إِذا قَدَّره ... وَقَالَ بعضُهم: المِيزان: العدلُ، وَذهب إِلَى قَوْلهم، هَذَا فِي وزن هَذَا، وَإِن لم يكن مِمَّا يُوزن، وتأويله أَنه قد قَامَ فِي النَّفس مُسَاوِيا لغيره؛ كَمَا يقوم الْوَزْن فِي مرْآة الْعين. قَالَ بَعضهم: الْمِيزَان: الكتابُ الّذي فِيهِ أعمالُ الخَلْق. هَذَا كلُّه فِي بَاب اللُّغَة، والاحتجاجُ سائغٌ " .

وقال الإمام الرَّاغب في " المفردات في غريب القرآن" (ص٥٢٢) :" الوزن معرفة قدر الشَّيء ، يقا :ل وزنته وزناً وزنة ، والمتعارف في الوزن عند العامَّة ما يقدَّر بالقسط والقبَّان . وقوله : **﴿وَزِنُوا بِالْقِسْطاسِ الْمُسْتَقِيمِ﴾** [الشعراء:٣٥] ، **﴿وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ﴾** [الرحمن:٩] ، إشارة إلىٰ مراعاة المعدلة في جميع ما يتحرَّاه الإنسان من الأفعال والأقوال . وقوله : **﴿وَأَنْبَتْنا فِيها مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ﴾** [الحجر:١٩] ، فقد قيل : هو المعادن كالفضَّة والذَّهب ، وقيل بل ذلك إشارة إلىٰ كلِّ ما أوجده الله تعالىٰ ، وأنَّه خلقه باعتدال كما قال : **﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْناهُ بِقَدَرٍ﴾** [القمر:٤٩] ، وقوله : **﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ﴾** [الأعراف:٨] ، فإشارة إلىٰ العدل في محاسبة النَّاس كما قال : **﴿وَنَضَعُ الْمَوازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيامَةِ﴾** [الأنبياء:٤٧] ، وذكر في مواضع الميزان بلفظ الواحد اعتباراً بالمحاسب ، وفي مواضع بالجمع اعتباراً بالمحاسبين ، ويقال : وزنت لفلان ووزنته كذا ، قال : **﴿وَإِذا كالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾** [المطففين:٣] .

فالميزان في اللغة هو ما تقدَّر به الأشياء خفَّة، وثقلًا...

ثَانِيَاً : مَعْنَى المِيْزَانِ اصْطِلَاحَاً : هو خلق من خلق الله تعالىٰ توزن به أعمال المكلَّفين ، وقد ذهب البعض إلىٰ أنَّه ميزان حقيقي له لسان وكفتان ، والحقّ أنَّه لا يعلم حقيقته إلَّا الله تعالىٰ...

﴿سُؤالٌ﴾ : مَا الدَّلِيْلُ عَلَى وُجُوْدِ المِيْزَان ؟

الجواب : ورد الميزان في القرآن العظيم والسُّنَّة المطهَّرة ...فمن أدلَّة القرآن:

قوله تعالىٰ : **﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوازِينُهُ فَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَمَنْ خَفَّتْ مَوازِينُهُ فَأُولئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِما كانُوا بِآياتِنا يَظْلِمُونَ﴾** [الأعراف:٨-٩] .

قوله تعالىٰ : **﴿أُولئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآياتِ رَبِّهِمْ وَلِقائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمالُهُمْ فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَزْناً﴾** [الكهف:١٠٥] .

وقوله تعالىٰ : **﴿وَنَضَعُ الْمَوازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِنْ كانَ مِثْقالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنا بِها وَكَفى بِنا حاسِبِينَ﴾** [الأنبياء: ٤٧] .

وقوله تعالىٰ : **﴿فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوازِينُهُ فَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَمَنْ خَفَّتْ مَوازِينُهُ فَأُولئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خالِدُونَ﴾** [المؤمنون:١٠٢-١٠٣] .

وقوله تعالىٰ : **﴿فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوازِينُهُ * فَهُوَ فِي عِيشَةٍ راضِيَةٍ * وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوازِينُهُ * فَأُمُّهُ هاوِيَةٌ * وَما أَدْراكَ ما هِيَهْ * نارٌ حامِيَةٌ﴾** [القارعة:٦-١١] .

ومن أدلَّة السُّنَّة المطهَّرة:

روىٰ البخاري (٨/ ١٣٩ برقم ٦٦٨٢) ، مسلم (٤/ ٢٠٧٢ برقم ٢٦٩٤) بسندهما عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «كَلِمَتَانِ خَفِيفَتَانِ عَلَىٰ اللِّسَانِ، ثَقِيلَتَانِ فِي المِيزَانِ، حَبِيبَتَانِ إِلَىٰ الرَّحْمَنِ، سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ، سُبْحَانَ اللَّهِ العَظِيمِ " .

وروىٰ مسلم (١/ ٢٠٣ برقم ٢٢٣) بسنده عَنْ أَبِي مَالِكٍ الْأَشْعَرِيِّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الطُّهُورُ شَطْرُ الْإِيمَانِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلَأُ الْمِيزَانَ، وَسُبْحَانَ اللهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلَآنِ - أَوْ تَمْلَأُ - مَا بَيْنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَالصَّلَاةُ نُورٌ، وَالصَّدَقَةُ بُرْهَانٌ وَالصَّبْرُ ضِيَاءٌ، وَالْقُرْآنُ حُجَّةٌ لَكَ أَوْ عَلَيْكَ، كُلُّ النَّاسِ يَغْدُو فَبَايِعٌ نَفْسَهُ فَمُعْتِقُهَا أَوْ مُوبِقُهَا» . والأحاديث في هذا المعنىٰ كثيرة ...

قال الإمام السَّفاريني في " لوائح الأنوار السّنيَّة ولواقح الأفكار السنيَّة شرح قصيدة ابن أبي داود الحائيَّة في عقيدة أهل الآثار السَّلفيَّة " (٢/ ١٧٨-١٧٩) : " ولا تنكرن جهلًا وعنادًا الميزان الذي توزن به الحسنات والسَّيِّئات لأنَّه حقٌّ ثابت بالكتاب والسُّنَّة وإجماع أهل الحقّ .

وأمَّا السُّنَّة فبلغت مبلغ التَّواتر...

وأمَّا الإجماع فأجمع أكابر محققِّي هذه الأمَّة من أهل السُّنَّة بأنَّ الإيمان بثبوت الوزن والميزان حقّ واجب وفرض لازب لثبوته بالسَّماع وعدم استحالة ذلك عقلًا . وهو من مراتب المعاد الواجب اعتقادها على جميع العباد وهي البعث والنُّشور ثمَّ القيام لربِّ العالمين ثمَّ العرض ثمَّ تطاير الصُّحف وأخذها باليمين والشِّمال ثمَّ السُّؤال والحساب ثمَّ الميزان" .

﴿سُؤالٌ﴾ : مَا حُكْمُ الإِيْمَانِ بِالمِيْزَان ؟

الجواب : قال الحافظ ابن حجر في " فتح الباري" (١٣/٥٣٨) : " قَالَ أَبُو إِسْحَاقَ الزَّجَّاجُ : أَجْمَعَ أَهْلُ السُّنَّةِ عَلَى الْإِيمَانِ بِالْمِيزَانِ."

وقال الإمام السَّفاريني في " فَقَدْ دَلَّتِ الْآثَارُ عَلَى أَنَّهُ مِيزَانٌ حَقِيقِيٌّ ذُو كِفَّتَيْنِ وَلِسَانٍ كَمَا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَالْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ، وَصَرَّحَ بِذَلِكَ عُلَمَاؤُنَا وَالْأَشْعَرِيَّةُ وَغَيْرُهُمْ، وَقَدْ بَلَغَتْ أَحَادِيثُهُ مَبْلَغَ التَّوَاتُرِ، وَانْعَقَدَ إِجْمَاعُ أَهْلِ الْحَقِّ مِنَ الْمُسْلِمِينَ عَلَيْهِ " (٢/ ١٨٥) : " فَقَدْ دَلَّتِ الْآثَارُ عَلَى أَنَّهُ مِيزَانٌ حَقِيقِيٌّ ذُو كِفَّتَيْنِ وَلِسَانٍ كَمَا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَالْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ، وَصَرَّحَ بِذَلِكَ عُلَمَاؤُنَا وَالْأَشْعَرِيَّةُ وَغَيْرُهُمْ، وَقَدْ بَلَغَتْ أَحَادِيثُهُ مَبْلَغَ التَّوَاتُرِ، وَانْعَقَدَ إِجْمَاعُ أَهْلِ الْحَقِّ مِنَ الْمُسْلِمِينَ عَلَيْهِ" .

﴿سُؤالٌ﴾ : مَنْ هُمُ الذِيْنَ أَنْكَرُوا المِيْزَان ؟

الجواب : قال الحافظ ابن حجر في " فتح الباري" (١٣/٥٣٨) : " أَنْكَرَتِ الْمُعْتَزِلَةُ الْمِيزَانَ وَقَالُوا هُوَ عِبَارَةٌ عَنِ الْعَدْلِ فَخَالَفُوا الْكِتَابَ وَالسُّنَّةَ لِأَنَّ اللَّهَ أَخْبَرَ أَنَّهُ يَضَعُ الْمَوَازِينَ لِوَزْنِ الْأَعْمَالِ لِيَرَى الْعِبَادُ أَعْمَالَهُمْ مُمَثَّلَةً لِيَكُونُوا على أنفسهم شَاهِدين وَقَالَ بن فَوْرَكٍ أَنْكَرَتِ الْمُعْتَزِلَةُ الْمِيزَانَ بِنَاءً مِنْهُمْ عَلَى أَنَّ الْأَعْرَاضَ يَسْتَحِيلُ وَزْنُهَا إِذْ لَا تَقُومُ بِأَنْفُسِهَا قَالَ وَقَدْ رَوَى بَعْضُ الْمُتَكَلِّمِينَ عَنِ بن عَبَّاسٍ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقْلِبُ الْأَعْرَاضَ أَجْسَامًا فَيَزِنُهَا ، انْتَهَى" .

قلت : وهذا كلام غريب عجيب من الحافظ ابن حجر ، فالمعتزلة لم ينكروا ، ولم يقولوا بأنَّ المقصود من الميزان : العدل ... قال القاضي عبد الجبار في " شرح الأصول الخمسة" (ص٧٣٥) : " أمَّا وضع الموازين ، فقد صرَّح الله تعالى في محكم كتابه ، قال الله تعالى : **﴿وَنَضَعُ الْمَوازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيامَةِ﴾** [الأنبياء:٤٧] ، وقوله : **﴿فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوازِينُهُ فَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾** [المؤمنون:١٠٢] ، إلى غير ذلك من الآيات التي تتضمَّن هذا المعنى ، ولم يرد الله تعالى بالميزان إلَّا المعقول منه المتعارف فيما بيننا دون العدل وغيره على ما يقوله بعض النَّاس ، لأنَّ الميزان وإن ورد بمعنى العدل في قوله : **﴿وَأَنْزَلْنا مَعَهُمُ الْكِتابَ**

وَالْمِيزانَ﴾ [الحديد:٢٥] ، فذلك على طريق التَّوسُّع والمجاز ، وكلام الله تعالى مهما أمكن حمله على الحقيقة لا يجوز أن يعدل به عنه إلى المجاز.

يبيِّن ذلك ويوضِّحه أنَّه لو كان الميزان هو العدل، لكان لا يثبت للثِّقل والخفَّة فيه معنى ، فدلَّ على أنَّ الميزان المعروف الذي يشتمل على ما تشتمل عليه الموازين فيما بيننا."

قال الإمام ابن أبي العز في " شرح الطَّحاويَّة"(١/ ٤١٩) : " فَعَلَيْنَا الْإِيمَانُ بِالْغَيْبِ، كَمَا أَخْبَرَنَا الصَّادِقُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، مِنْ غَيْرِ زِيَادَةٍ وَلَا نُقْصَانٍ.

وَيَا خَيْبَةَ مَنْ يَنْفِي وَضْعَ الْمَوَازِينِ الْقِسْطِ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ كَمَا أَخْبَرَ الشَّارِعُ، لِخَفَاءِ الْحِكْمَةِ عَلَيْهِ، وَيَقْدَحُ فِي النُّصُوصِ بِقَوْلِهِ: لَا يَحْتَاجُ إِلَى الْمِيزَانِ إِلَّا الْبَقَّالُ وَالْفَوَّالُ!! وَمَا أَحْرَاهُ بِأَنْ يَكُونَ مِنَ الَّذِينَ لَا يُقِيمُ اللَّهُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا. وَلَوْ لَمْ يَكُنْ مِنَ الْحِكْمَةِ فِي وَزْنِ الْأَعْمَالِ إِلَّا ظُهُورُ عدله سبحانه لجميع عباده، فإنه لا أَحَدَ أَحَبُّ إِلَيْهِ الْعُذْرُ مِنَ اللَّهِ، مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ أَرْسَلَ الرُّسُلَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ. فَكَيْفَ وَوَرَاءَ ذَلِكَ مِنَ الْحِكَمِ مَا لَا اطِّلَاعَ لَنَا عَلَيْهِ" .

﴿سُؤالٌ﴾ : هَلْ هُوَ مِيْزَانٌ وَاحِدٌ أَمْ مَوَازِيْن ؟

الجواب : قال تعالى : **﴿وَنَضَعُ الْمَوازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِنْ كانَ مِثْقالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنا بِها وَكَفى بِنا حاسِبِينَ﴾** [الأنبياء:٤٧] .

﴿سُؤالٌ﴾ :هَلْ المِيْزَانُ حَقِيْقِيٌّ أَمْ أَنَّهُ كِنَايَةٌ عَنِ العَدْل ؟

الجواب : قال الحافظ ابن حجر في " فتح الباري" (١٣/ ٥٣٨) :" وَقَدْ ذَهَبَ بَعْضُ السَّلَفِ إِلَى أَنَّ الْمِيزَانَ بِمَعْنَى الْعَدْلِ وَالْقَضَاء فأسند الطَّبَرِيّ من طَرِيق بن أَبِي نَجِيحٍ عَنْ مُجَاهِدٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى وَنَضَع الموازين الْقسْط ليَوْم الْقِيَامَة قَالَ إِنَّمَا هُوَ مَثَلٌ كَمَا يَجُوزُ وَزْنُ الْأَعْمَالِ كَذَلِكَ يَجُوزُ الْحَطُّ وَمِنْ طَرِيقِ لَيْثِ بْنِ أَبِي سُلَيْمٍ عَنْ مُجَاهِدٍ قَالَ الْمَوَازِينُ الْعَدْلُ وَالرَّاجِحُ مَا ذَهَبَ إِلَيْهِ الْجُمْهُورُ " .

﴿سُؤال﴾ : مَا كَيْفِيَّةُ الوَزْن ؟

الجواب : قال الإمام السَّفاريني في " لوامع الأنوار البهيَّة" (٢/ ١٨٨-١٨٩) : " ظَوَاهِرُ الْآثَارِ وَأَقْوَالُ الْعُلَمَاءِ أَنَّ كَيْفِيَّةَ الْوَزْنِ فِي الْآخِرَةِ خِفَّةً وَثِقَلًا مِثْلُ كَيْفِيَّتِهِ فِي الدُّنْيَا، مَا ثَقُلَ نَزَلَ إِلَى أَسْفَلَ ثُمَّ يُرْفَعُ إِلَى عِلِّيِّينَ، وَمَا خَفَّ طَاشَ إِلَى أَعْلَى ثُمَّ نَزَلَ إِلَى سِجِّينٍ، وَبِهِ صَرَّحَ جُمُوعٌ مِنْهُمُ الْقُرْطُبِيُّ.

وَقَالَ بَعْضُ الْمُتَأَخِّرِينَ: بَلِ الصِّفَةُ مُخْتَلِفَةٌ، وَإِنَّ عَمَلَ الْمُؤْمِنِ إِذَا رَجَحَ صَعِدَ وَسَفُلَتْ سَيِّئَتُهُ، وَالْكَافِرُ تَسْفُلُ كِفَّتُهُ لِخُلُوِّ الْأُخْرَى عَنِ الْحَسَنَاتِ، ثُمَّ تَلَا قَوْلَهُ تَعَالَى: **﴿وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾** [فاطر: ١٠] .

وَذَكَرَ بَعْضُهُمْ فِي صِفَةِ الْوَزْنِ أَنْ تُجْعَلَ جَمِيعُ أَعْمَالِ الْعِبَادِ فِي الْمِيزَانِ فِي مَرَّةٍ وَاحِدَةٍ ... وَيَخْلُقُ اللَّهُ لِكُلِّ إِنْسَانٍ عِلْمًا ضَرُورِيًّا يُدْرِكُ بِهِ خِفَّةَ أَعْمَالِهِ وَثِقَلَهَا " .

﴿سُؤَالٌ﴾ : مَا الذِيْ سَيُوْزَن ؟

الجواب : اختلف العلماء في حقيقة الموزون على ثلاثة أقوال:

الأَوَّلُ : صحائف أعمال العباد ، قال الإمام القرطبي في " الجامع لأحكام القرآن" (٧/ ١٦٤-١٦٥) : " وَالْمُرَادُ بِالْوَزْنِ وَزْنُ أعمال العباد بِالْمِيزَانِ. قَالَ ابْنُ عُمَرَ: تُوزَنُ صَحَائِفُ أَعْمَالِ الْعِبَادِ ، وَهَذَا هُوَ الصَّحِيحُ، وَهُوَ الَّذِي وَرَدَ بِهِ الْخَبَرُ ... وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ (٤/ ٢١٢٠ برقم ٢٧٦٨) عَنْ صَفْوَانَ بْنِ مُحْرِزٍ قَالَ : قَالَ رَجُلٌ لِابْنِ عُمَرَ: كَيْفَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي النَّجْوَى ؟ قَالَ سَمِعْتُهُ يَقُولُ: " يُدْنَى الْمُؤْمِنُ مِنْ رَبِّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يَضَعَ عَلَيْهِ كَنَفَهُ فَيُقَرِّرُهُ بِذُنُوبِهِ فَيَقُولُ : هَلْ تَعْرِفُ ؟ فَيَقُولُ : أَيْ رَبِّ أَعْرِفُ ،قَالَ : فَإِنِّي قَدْ سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا وَإِنِّي أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ ، فَيُعْطَى صَحِيفَةَ حَسَنَاتِهِ ، وَأَمَّا الْكُفَّارُ وَالْمُنَافِقُونَ فَيُنَادَى بِهِمْ عَلَى رُءُوسِ الْخَلَائِقِ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا على الله . فقوله: : فَيُعْطَى صَحِيفَةَ حَسَنَاتِهِ " دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْأَعْمَالَ تُكْتَبُ فِي الصُّحُفِ وَتُوزَنُ" .

وممَّا يدلُّ على أنَّ صحائف الأعمال هي التي توزن ما رواه أحمد في " المسند" (١١/ ٥٧٠ برقم ٦٩٩٤) بسنده عَنْ أَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْحُبُلِيِّ، قَالَ: سَمِعْتُ عَبْدَ اللهِ بْنَ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ، يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يَسْتَخْلِصُ رَجُلًا مِنْ أُمَّتِي عَلَى رُءُوسِ الْخَلَائِقِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيَنْشُرُ عَلَيْهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ سِجِلًّا، كُلُّ سِجِلٍّ مَدَّ الْبَصَرِ، ثمَّ يَقُولُ لَهُ : أَتُنْكِرُ مِنْ هَذَا شَيْئًا؟ أَظَلَمَتْكَ كَتَبَتِي الْحَافِظُونَ؟ قَالَ: لَا، يَا رَبِّ، فَيَقُولُ: أَلَكَ عُذْرٌ، أَوْ حَسَنَةٌ؟ فَيُبْهَتُ الرَّجُلُ، فَيَقُولُ: لَا، يَا رَبِّ، فَيَقُولُ: بَلَى، إِنَّ لَكَ عِنْدَنَا حَسَنَةً وَاحِدَةً، لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ، فَتُخْرَجُ لَهُ بِطَاقَةٌ، فِيهَا: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ، فَيَقُولُ: أَحْضِرُوهُ، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ، مَا هَذِهِ الْبِطَاقَةُ مَعَ هَذِهِ السِّجِلَّاتِ؟ فَيُقَالُ: إِنَّكَ لَا تُظْلَمُ "، قَالَ: " فَتُوضَعُ السِّجِلَّاتُ فِي كِفَّةٍ "، قَالَ: " فَطَاشَتِ السِّجِلَّاتُ، وَثَقُلَتِ الْبِطَاقَةُ، وَلَا يَثْقُلُ شَيْءٌ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ " قال الأرنؤوط : "إسناده قوي، رجاله ثقات رجال الصحيح غير إبراهيم بن إسحاق الطالقاني، فقد روى له مسلم في المقدمة، ووثقه ابن معين ويعقوب بن شيبة، وقال أبو حاتم: صدوق، وذكره ابن حبان في "الثقات"، ثمَّ هو متابع، أبو عبد الرحمن الحُبلي: هو عبد الله بن يزيد المعافري. وهو عند ابن المبارك في "زوائد الزهد" (٣٧١) ، وفيه يستخص بدل يستخلص، وسقط من المطبوع لفظ: أبي، من: "أبي عبد الرحمن الحبلي". وأخرجه الترمذي (٢٦٣٩) عن سويد بن نصر، وابن حبان (٢٢٥) من طريق عبد الوارث بن عبيد الله، والبغوي (٤٣٢١) من طريق إبراهيم بن عبد الله الخلال، ثلاثتهم عن ابن المبارك، بهذا الإسناد. قال الترمذي:

هذا حديث حسن غريب. وأخرجه أبن ماجه (٤٣٠٠) من طريق ابن أبي مريم، والحاكم ١/ ٦، وعنه البيهقي في "الشعب" (٢٨٣) من طريق يونس بن محمد (وهو المؤدب)، و١/ ٥٢٩ من طريق يحيى بن عبد الله بن بكير، ثلاثتهم عن الليث بن سعد، به وصححه الحاكم في الموضع الأول على شرط مسلم، ووافقه الذهبي، وقال في الموضع الثاني: صحيح الإسناد، ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي ".

الثَّانِي: العامل صاحب العمل، بدليل حديث البطاقة الذي رواه الإمام أحمد في المسند (١١/ ٦٣٧ برقم ٧٠٦٦) بسنده عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِي، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " تُوضَعُ الْمَوَازِينُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيُؤْتَى بِالرَّجُلِ، فَيُوضَعُ فِي كِفَّةٍ، فَيُوضَعُ مَا أُحْصِيَ عَلَيْهِ، فَتَمَايَلَ بِهِ الْمِيزَانُ "، قَالَ: " فَيُبْعَثُ بِهِ إِلَى النَّارِ، فَإِذَا أُدْبِرَ بِهِ إِذَا صَائِحٌ يَصِيحُ مِنْ عِنْدِ الرَّحْمَنِ، يَقُولُ: لَا تَعْجَلُوا، لَا تَعْجَلُوا، فَإِنَّهُ قَدْ بَقِيَ لَهُ، فَيُؤْتَى بِبِطَاقَةٍ فِيهَا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، فَتُوضَعُ مَعَ الرَّجُلِ فِي كِفَّةٍ، حَتَّى يَمِيلَ بِهِ الْمِيزَانُ".

ومِمَّا يدُّ على أنَّ هو الذي يوضع في الميزان فيوزن ما رواه البخاري (٦/ ٩٣ برقم ٤٧٢٩)، مسلم (٤/ ٢١٤٧ برقم ٢٧٨٥) بسندهما عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: " إِنَّهُ لَيَأْتِي الرَّجُلُ العَظِيمُ السَّمِينُ يَوْمَ القِيَامَةِ، لاَ يَزِنُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ، وَقَالَ: اقْرَءُوا، **﴿فَلاَ نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ وَزْنًا﴾** [الكهف: ١٠٥].

وروى أحمد في " المسند" (٧/ ٩٨ برقم ٣٩٩١) سنده عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ، أَنَّهُ كَانَ يَجْتَنِي سِوَاكًا مِنَ الْأَرَاكِ، وَكَانَ دَقِيقَ السَّاقَيْنِ، فَجَعَلَتِ الرِّيحُ تَكْفَؤُهُ، فَضَحِكَ الْقَوْمُ مِنْهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " مِمَّ تَضْحَكُونَ؟ " قَالُوا: يَا نَبِيَّ اللهِ، مِنْ دِقَّةِ سَاقَيْهِ، فَقَالَ: " وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَهُمَا أَثْقَلُ فِي الْمِيزَانِ مِنْ أُحُدٍ ". قال الأرنؤوط: "صحيح لغيره، وهذا إسناد حسن من أجل عاصم، وهو ابن أبي النجود، وبقية رجاله ثقات رجال الشيخين غير حماد - وهو ابن سلمة - فمن رجال مسلم. عبد الصمد: هو ابن عبد الوارث. وأخرجه الطيالسي (٣٥٥)، وابن سعد ٣/ ١٥٥، والبزار (٢٦٧٨) "زوائد"، وأبو يعلى (٥٣١٠) و(٥٣٦٥)، والشاشي (٦٦١)، والطبراني في "الكبير" (٨٤٥٢)، وأبو نعيم في "الحلية" ١/ ١٢٧، من طرق عن حماد بن سلمة، بهذا الإسناد. وأخرجه ابن أبي شيبة ١٢/ ١١٣ من طريق زائدة بن قدامة، عن عاصم، به. وأخرجه بنحوه الطبراني في "الكبير" (٨٤٥٣) من طريق جعفر بن عون، عن المعلى بن عرفان، عن أبي وائل، عن ابن مسعود، به، مرفوعاً. وأخرجه ابن سعد ٣/ ١٥٥، والشاشي (٩٠٤) من طريق العوام بن حوشب، عن إبراهيم التيمي، مرسلًا. وأخرجه بنحوه الطبراني في "الكبير" (٨٤٥٤) من طريق جعفر بن مسافر، عن ابن أبي فديك، عن موسى بن يعقوب، عن ابن أبي حرملة مولى حويطب أن سارة بنت عبد الله بن مسعود، عن عبد الله بن مسعود، به.وأورده الهيثمي في "المجمع " ٩/ ٢٨٩، وقال: رواه أحمد وأبو يعلى والبزار والطبراني من طرق ... وأمثل طرقها فيه عاصم بن أبي النجود، وهو حسن الحديث على ضعفه، وبقية رجال أحمد وأبي يعلى رجال الصحيح. وله شاهد من حديث علي تقدم برقم (٩٢٠) بإسناد حسن. وآخر من حديث قرة بن إياس عند البزار (٢٦٧٧) "زوائد"، والطبراني في " الكبير" ١٩/ (٥٩)، والفسوي ٢/ ٥٤٦، وصححه الحاكم ٢/ ٣١٧، ووافقه الذهبي، وأورده الهيثمي في "المجمع " ٩/ ٢٨٩، وقال: رواه البزار والطبراني، ورجالهما رجال الصحيح"

الثَّالِثُ : أعمال العامل ، بدليل ما رواه البخاري (٨/ ١٣٩برقم ٦٦٨٢) ، مسلم (٤/ ٢٠٧٢ برقم ٢٦٩٤) بسندهما عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «كَلِمَتَانِ خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ، ثَقِيلَتَانِ فِي المِيزَانِ، حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحْمَنِ، سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ، سُبْحَانَ اللَّهِ العَظِيمِ " .

وروى مسلم (١/ ٢٠٣ برقم ٢٢٣) بسنده عَنْ أَبِي مَالِكٍ الْأَشْعَرِيِّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الطُّهُورُ شَطْرُ الْإِيمَانِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلَأُ الْمِيزَانَ، وَسُبْحَانَ اللهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلَآنِ - أَوْ تَمْلَأُ - مَا بَيْنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَالصَّلَاةُ نُورٌ، وَالصَّدَقَةُ بُرْهَانٌ وَالصَّبْرُ ضِيَاءٌ، وَالْقُرْآنُ حُجَّةٌ لَكَ أَوْ عَلَيْكَ، كُلُّ النَّاسِ يَغْدُو فَبَايِعٌ نَفْسَهُ فَمُعْتِقُهَا أَوْ مُوبِقُهَا" .

وروى أحمد في " المسند" (٤٥/ ٤٨٧ برقم ٢٧٤٩٦) عَنْ خَالِهِ عَطَاءِ بْنِ نَافِعٍ، أَنَّهُمْ دَخَلُوا عَلَى أُمِّ الدَّرْدَاءِ، فَأَخْبَرَتْهُمْ أَنَّهَا، سَمِعَتْ أَبَا الدَّرْدَاءِ يَقُولُ:" قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " إِنَّ أَفْضَلَ شَيْءٍ فِي الْمِيزَانِ، قَالَ: ابْنُ أَبِي بُكَيْرٍ أَثْقَلَ شَيْءٍ فِي الْمِيزَانِ، يَوْمَ الْقِيَامَةِ الْخُلُقُ الْحَسَنُ " . قال الأرنؤوط : " إسناده صحيح، رجاله ثقات رجال الشيخين غير عطاء " .

وأخرج أبو نعيم الأصبهاني في " حلية الأولياء وطبقات الأصفياء" (٦/ ٦٨) بسنده عَنْ مُغِيثٍ ، قَالَ: تَعَبَّدَ رَاهِبٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي صَوْمَعَةٍ سِتِّينَ سَنَةً قَالَ: فَنَظَرَ يَوْمًا فِي غِبِّ السَّمَاءِ فَأَعْجَبَتْهُ الْأَرْضُ فَقَالَ: لَوْ نَزَلْتُ فَمَشَيْتُ فِي الْأَرْضِ وَنَظَرْتُ فِيهَا قَالَ: فَنَزَلَ وَنَزَلَ مَعَهُ بِرَغِيفٍ فَعَرَضَتْ لَهُ امْرَأَةٌ فَتَكَشَّفَتْ لَهُ فَلَمْ يَمْلِكْ نَفْسَهُ أَنْ وَقَعَ عَلَيْهَا فَأَدْرَكَهُ الْمَوْتُ وَهُوَ عَلَى تِلْكَ الْحَالِ، قَالَ: وَجَاءَ سَائِلٌ فَأَعْطَاهُ الرَّغِيفَ وَمَاتَ فَجِيءَ بِعَمَلِ سِتِّينَ سَنَةً فَوُضِعَ فِي كِفَّةٍ قَالَ: وَجِيءَ بِخَطِيئَتِهِ فَوُضِعَتْ فِي كِفَّةٍ فَرَجَحَتْ بِعَمَلِهِ حَتَّى جِيءَ بِالرَّغِيفِ فَوُضِعَ مَعَ عَمَلِهِ قَالَ: فَرَجَحَ بِخَطِيئَتِهِ" .

وأخرج أبو بكر أحمد بن مروان الدِّينوري المالكي في " المجالسة وجواهر العلم" (٥/ ٣٤٦ برقم ٢٢١٦) بسنده عَارِمُ أَبُو النُّعْمَانِ؛ قَالَ: سَمِعْتُ مُعْتَمِرَ بْنَ سُلَيْمَانَ التَّيْمِيَّ يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبِي يَقُولُ: ثنا أَبُو عُثْمَانَ، عَنْ أَبِي بُرْدَةَ يُحَدِّثُ عَنْ أَبِيهِ عَبْدِ اللهِ بْنِ قَيْسٍ أَبِي مُوسَى الأَشْعَرِيِّ؛ أَنَّهُ قَالَ حِينَ حَضَرَهُ الْمَوْتُ لِبَنِيهِ: أَيْ بَنِيَّ! اذْكُرُوا صَاحِبَ الرَّغِيفِ. ثمَّ قَالَ: كَانَ رَجُلٌ فِي صَوْمَعَةٍ لَهُ يَتَعَبَّدُ - أُرَاهُ ذَكَرَ سَبْعِينَ سَنَةً، قَالَ عَفَّانُ: حَدَّثَنَا حَمَّادُ بْنُ سَلَمَةَ، عَنْ عَاصِمٍ؛ قَالَ: سِتِّينَ سَنَةً - لا يَنْزِلُ إِلَّا يَوْمًا وَاحِدًا فَإِنَّهُ نَزَلَ يَوْمًا وَاحِدًا. قَالَ: فَشَبَّ الشَّيْطَانُ فِي عَيْنِهِ امْرَأَةً أَوْ شَبَّةً، وَكَانَ مَعَ الْمَرْأَةِ سَبْعَ لَيَالٍ - أَوْ قَالَ: سَبْعَةَ أَيَّامٍ -، ثمَّ كُشِفَ عَنِ الرَّجُلِ غِطَاؤُهُ، فَانْطَلَقَ تَائِبًا، فَجَعَلَ كُلَّمَا خَطَا خُطْوَةً سَجَدَ وَصَلَّى، فَآوَاهُ اللَّيْلُ إِلَى دُكَّانٍ عَلَيْهِ اثْنَا عَشَرَ مِسْكِينًا مُنْضَجِعِينَ، فَأَدْرَكَهُ الْعَيَاءُ، فَأَلْقَى نَفْسَهُ بَيْنَ رَجُلَيْنِ مِنْهُمْ، وَكَانَ ثمَّ رَاهِبٌ يَتَصَدَّقُ عَلَيْهِمْ كُلَّ لَيْلَةٍ، عَلَى كُلِّ

مِسْكِينٍ بِرَغِيفٍ، فَجَاءَ الَّذِي يُعْطِيهِمْ، فَأَعْطَى كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ رَغِيفًا، فَمَرَّ عَلَى الَّذِي أَلْقَى نَفْسَهُ بَيْنَ أَظْهُرِهِمْ فَأَعْطَاهُ رَغِيفًا، فَتَرَكَ أَحَدَهُمْ وَهُوَ لا يَشْعُرُ، فَقَالَ الْمَتْرُوكُ: مَا شَأْنُكَ لَمْ تُعْطِنِي؟ قَالَ: هَلْ أَعْطَيْتُ أَحَدًا مِنْكُمْ رَغِيفَيْنِ؟ قَالُوا: لا وَاللهِ. فَقَالَ: وَاللهِ! لَا أُعْطِيكَ اللَّيْلَةَ شَيْئًا - أَوْ كَمَا قَالَ -. فَذَكَرَ الرَّجُلَ فأعطاه الآخَرُ الرَّغِيفَ؛ فَأَصْبَحَ الرَّجُلُ مَيِّتًا، فَوُزِنَتِ السَّبْعُ لَيَالٍ بِالسَّبْعِينَ سَنَةً؛ فَرَجَحَتِ السَّبْعُ لَيَالٍ، ثمَّ وُزِنَ الرَّغِيفُ بِالسَّبْعِ لَيَالٍ؛ فَرَجَحَ الرَّغِيفُ عَلَى السَّبْعِ لَيَالٍ. قَالَ أَبُو مُوسَى: فَأَيْ بَنِيَّ! أُذَكِّرُكُمْ صَاحِبَ الرَّغِيفِ"

.

قال الحافظ ابن حجر في " فتح الباري" (١٣/ ٥٣٩) : " قَالَ الطِّيبِيُّ : قِيلَ إِنَّمَا تُوزَنُ الصُّحُفُ وَأَمَّا الْأَعْمَالُ فَإِنَّهَا أَعْرَاضٌ فَلَا تُوصَفُ بِثِقَلٍ وَلَا خِفَّةٍ . وَالْحَقُّ عِنْدَ أَهْلِ السُّنَّةِ أَنَّ الْأَعْمَالَ حِينَئِذٍ تُجَسَّدُ أَوْ تُجْعَلُ فِي أَجْسَامٍ فَتَصِيرُ أَعْمَالُ الطَّائِعِينَ فِي صُورَةٍ حَسَنَةٍ وَأَعْمَالُ الْمُسِيئِينَ فِي صُورَةٍ قَبِيحَةٍ ثمَّ تُوزَنُ ، وَرَجَّحَ الْقُرْطُبِيُّ أَنَّ الَّذِي يُوزَنُ الصَّحَائِفُ الَّتِي تُكْتَبُ فِيهَا الْأَعْمَال ، ونقل عَن بن عُمَرَ قَالَ : تُوزَنُ صَحَائِفُ الْأَعْمَالِ ، قَالَ : فَإِذَا ثَبَتَ هَذَا فَالصُّحُفُ أَجْسَامٌ فَيَرْتَفِعُ الْإِشْكَالُ وَيُقَوِّيهِ حَدِيثُ الْبِطَاقَةِ الَّذِي أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ وَحَسَّنَهُ وَالْحَاكِمُ وَصَحَّحَهُ ، وَفِيهِ : " فَتُوضَعُ السِّجِلَّاتُ فِي كِفَّةٍ وَالْبِطَاقَةُ فِي كِفَّةٍ " انْتَهَى.

وَالصَّحِيحُ أَنَّ الْأَعْمَالَ هِيَ الَّتِي تُوزَنُ ، وَقَدْ أَخْرَجَ أَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ وَصَححهُ بن حِبَّانَ عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : مَا يُوضَعُ فِي الْمِيزَانِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَثْقَلُ مِنْ خُلُقٍ حَسَنٍ " ، وَفِي حَدِيثِ جَابِرٍ رَفَعَهُ : " تُوضَعُ الْمَوَازِينُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَتُوزَنُ الْحَسَنَاتُ وَالسَّيِّئَاتُ ، فَمَنْ رَجَحَتْ حَسَنَاتُهُ عَلَى سَيِّئَاتِهِ مِثْقَالَ حَبَّةٍ دَخَلَ الْجَنَّةَ ، وَمَنْ رَجَحَتْ سَيِّئَاتُهُ عَلَى حَسَنَاتِهِ مِثْقَالَ حَبَّةٍ دَخَلَ النَّارَ ، قِيلَ : فَمَنِ اسْتَوَتْ حَسَنَاتُهُ وَسَيِّئَاتُهُ ، قَالَ : أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ" .

وقد لخَّص الإمام ابن كثير في " التَّفسير" (٣/ ٣٨٩-٣٩٠) المسألة برمَّتها ، وأجاب عنها جواباً جامعاً مانعاً ، فقال " وَالَّذِي يُوضَعُ فِي الْمِيزَانِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، قِيلَ: الْأَعْمَالُ وَإِنْ كَانَتْ أَعْرَاضًا، إِلَّا أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقْلِبُهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَجْسَامًا.

قَالَ الْبَغَوِيُّ: يُرْوَى هَذَا عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ كَمَا جَاءَ فِي الصَّحِيحِ مِنْ أَنَّ "الْبَقَرَةَ" وَ "آلَ عِمْرَانَ" يَأْتِيَانِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَأَنَّهُمَا غَمَامَتَانِ -أَوْ: غيايتان -أَوْ فِرْقَان مِنْ طَيْرٍ صَوَافّ. مِنْ ذَلِكَ فِي الصَّحِيحِ قِصَّةُ الْقُرْآنِ وَأَنَّهُ يَأْتِي صَاحِبَهُ فِي صُورَةِ شَابٍّ شَاحِبِ اللَّوْن، فَيَقُولُ: مَنْ أَنْتَ؟ فَيَقُولُ: أَنَا الْقُرْآنُ الَّذِي أَسْهَرْتُ لَيْلَكَ وَأَظْمَأْتُ نَهَارَكَ وَفِي حَدِيثِ الْبَرَاءِ، فِي قِصَّةِ سُؤَالِ الْقَبْرِ: "فَيَأْتِي الْمُؤْمِنَ شابٌّ حَسَنُ اللَّوْنِ طَيِّبُ الرِّيحِ، فَيَقُولُ: مَنْ أَنْتَ؟ فَيَقُولُ: أَنَا عَمَلُكَ الصَّالِحُ" ، وَذَكَرَ عَكْسَهُ فِي شَأْنِ الْكَافِرِ وَالْمُنَافِقِ.

وَقِيلَ: يُوزَنُ كِتَابُ الْأَعْمَالِ، كَمَا جَاءَ فِي حَدِيثِ الْبِطَاقَةِ...

وَقِيلَ: يُوزَنُ صَاحِبُ الْعَمَلِ، كَمَا فِي الْحَدِيثِ: "يُؤتَىٰ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِالرَّجُلِ السَّمِين، فَلَا يَزِن عِنْدَ اللَّهِ جَنَاح بَعُوضَة" ثُمَّ قَرَأَ: **﴿فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾** [الْكَهْفِ: ١٠٥] .

وَفِي مَنَاقِبِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّىٰ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: "أَتَعْجَبُونَ مِنْ دِقَّة ساقَيْهِ، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَهُمَا فِي الْمِيزَانِ أَثْقَلُ مِنْ أُحُد " .

وَقَدْ يُمْكِنُ الْجَمْعُ بَيْنَ هَذِهِ الْآثَارِ بِأَنْ يَكُونَ ذَلِكَ كُلُّهُ صَحِيحًا، فَتَارَةً تُوزَنُ الْأَعْمَالُ، وَتَارَةً تُوزَنُ مَحَالُّهَا، وَتَارَةً يُوزَنُ فَاعِلُهَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ " .

﴿سُؤالٌ﴾ : هَلِ النَّاسُ مُتَفَاوِتُوْنَ فِي وَزْنِ الأَعْمَال ؟

الجواب : نعم ، وقد دلَّت الأدلَّة علىٰ أنَّهم ثلاثة أصناف : روىٰ الطَّبري في " التَّفسير" (١٠/ ٢١٣) بسنده عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ، قَالَ: "يُحَاسَبُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَمَنْ كَانَتْ حَسَنَاتُهُ أَكْثَرَ مِنْ سَيِّئَاتِهِ بِوَاحِدَةٍ دَخَلَ الْجَنَّةَ، وَمَنْ كَانَتْ سَيِّئَاتُهُ أَكْثَرَ مِنْ حَسَنَاتِهِ بِوَاحِدَةٍ دَخَلَ النَّارَ. ثمَّ قَرَأَ قَوْلَ اللَّهِ: **﴿فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ وَمَنْ خَفَّتْ مَوازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾** [الأعراف: ٩] ، ثمَّ قَالَ: إِنَّ الْمِيزَانَ يَخِفُّ بِمِثْقَالِ حَبَّةٍ وَيَرْجَحُ، قَالَ: فَمَنِ اسْتَوَتْ حَسَنَاتُهُ وَسَيِّئَاتُهُ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْأَعْرَافِ " . فبناء علىٰ ما قاله ابن مسعود فإنَّ الأصناف ثلاثة:

الصِّنفُ الأوَّلُ : وهم الذين رجحت كفَّة حسناتهم علىٰ كفَّة سيِّئاتهم ، قال تعالىٰ : **﴿فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوازِينُهُ * فَهُوَ فِي عِيشَةٍ راضِيَةٍ﴾** [القارعة:٦-٧] ، " يعني: رجحت حسناته علىٰ سيِّئاته ، ويقال : ثقلت موازينه بالعمل الصَّالح بالصَّلاة والزَّكاة وغيرها من العبادات ، **﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ راضِيَةٍ﴾** ، يعني: في عيش مرضي يعني: في الجنَّة لا موت فيها ولا فقر ولا مرض ولا خوف ولا جنون ، يعني: أَمِنَ من كلِّ خوف وفقر" . انظر : بحر العلوم(٣/ ٦١١) .

الصَّنفُ الثَّانِي : وهم الذين رجحت كفَّة سيِّئاتهم علىٰ كفَّة حسناتهم ، قال تعالىٰ : **﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوازِينُهُ * فَأُمُّهُ هاوِيَة * وَما أَدْراكَ ما هِيَهْ * نارٌ حامِيَة﴾** [القارعة:٨-١١] ، " أَيْ قَلَّتْ حَسَنَاتُهُ فَرَجَحَتِ السَّيِّئَاتُ عَلَىٰ الْحَسَنَاتِ قَالَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إِنَّمَا ثَقُلَتْ مَوَازِينُ مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ بِاتِّبَاعِهِمُ الْحَقَّ فِي الدُّنْيَا وَثِقَلِهِ عَلَيْهِمْ، وَحُقَّ لِمِيزَانٍ لَا يُوضَعُ فِيهِ إِلَّا الْحَقُّ أَنْ يَكُونَ ثَقِيلًا، وَإِنَّمَا خَفَّتْ مَوَازِينُ مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ بِاتِّبَاعِهِمُ الْبَاطِلَ فِي الدُّنْيَا وَخِفَّتِهِ عَلَيْهِمْ، وَحُقَّ لِمِيزَانٍ يُوضَعُ فِيهِ الْبَاطِلُ أَنْ يَكُونَ خَفِيفًا، وَقَالَ مُقَاتِلٌ: إِنَّمَا كَانَ كذلك لأن الحق ثقيل والباطل خفيف" . انظر : تفسير الرازي (٣٢/ ٢٦٨) .

الصِّنْفُ الثَّالِثُ : وهم الذي تساوت كفَّتا حسناتهم وسيِّآتهم ، وهم أهل الأعراف...

﴿سُؤالٌ﴾ : هَلِ الْمُرَادُ أَنَّ لِكُلِّ شَخْصٍ مِيزَانًا أَوْ لِكُلِّ عَمَلٍ مِيزَانٌ فَيَكُونُ الْجَمْعُ حَقِيقَةً أَوْ لَيْسَ هُنَاكَ إِلَّا مِيزَانٌ وَاحِدٌ ؟

الجواب : قال الحافظ ابن حجر في " فتح الباري" (١٣/ ٥٣٧) : " وَالْمَوَازِينُ جَمْعُ مِيزَانٍ ، وَأَصْلُهُ مِوْزَانٌ فَقُلِبَتِ الْوَاوُ يَاءً لِكِسْرَةِ مَا قَبْلَهَا . وَاخْتُلِفَ فِي ذِكْرِهِ هُنَا بِلَفْظِ الْجَمْعِ : هَلِ الْمُرَادُ أَنَّ لِكُلِّ شَخْصٍ مِيزَانًا أَوْ لِكُلِّ عَمَلٍ مِيزَانٌ ، فَيَكُونُ الْجَمْعُ حَقِيقَةً أَوْ لَيْسَ هُنَاكَ إِلَّا مِيزَانٌ وَاحِدٌ وَالْجَمْعُ بِاعْتِبَارِ تَعَدُّدِ الْأَعْمَالِ أَوِ الْأَشْخَاصِ ، وَيَدُلُّ عَلَى تَعَدُّدِ الْأَعْمَالِ قَوْلُهُ تَعَالَى : (وَمَنْ خفت مَوَازِينه) ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الْجَمْعُ لِلتَّفْخِيمِ ، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : (كَذَّبَتْ قَوْمُ نوح الْمُرْسلين) مَعَ أَنَّهُ لَمْ يُرْسَلْ إِلَيْهِمْ إِلَّا وَاحِدٌ ، وَالَّذِي يَتَرَجَّحُ أَنَّهُ مِيزَانٌ وَاحِدٌ ، وَلَا يُشْكِلُ بِكَثْرَةِ مَنْ يُوزَنُ عَمَلُهُ لِأَنَّ أَحْوَالَ الْقِيَامَةِ لَا تُكَيَّفُ بِأَحْوَالِ الدُّنْيَا " .

﴿سُؤالٌ﴾ : مَا المَقْصُوْدُ بِالمَوَازِيْنِ فِيْ قَوْلِهِ تَعَالَى : فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ موازِينُه ؟

الجواب : قال الإمام الرَّازيُّ في " التَّفسير" (٣٢/ ٢٦٧ -٢٦٨) : " اعْلَمْ أَنَّ فِي الموازين قولين: أَنَّهُ جَمْعُ مَوْزُونٍ وَهُوَ الْعَمَلُ الَّذِي لَهُ وَزْنٌ وَخَطَرٌ عِنْدَ اللَّهِ، وَهَذَا قَوْلُ الْفَرَّاءِ قَالَ: وَنَظِيرُهُ يُقَالُ: عِنْدِي دِرْهَمٌ بِمِيزَانِ دِرْهَمِكَ وَوَزْنِ دِرْهَمِكَ وَدَارِي بِمِيزَانِ دَارِكَ وَوَزْنِ دَارِكَ أَيْ بِحِذَائِهَا وَالثَّانِي: أَنَّهُ جَمْعُ مِيزَانٍ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: الْمِيزَانُ لَهُ لِسَانٌ وَكِفَّتَانِ لَا يُوزَنُ فِيهِ إِلَّا الْأَعْمَالُ فَيُؤْتَى بِحَسَنَاتِ الْمُطِيعِ فِي أَحْسَنِ صُورَةٍ، فَإِذَا رَجَحَ فَالْجَنَّةُ لَهُ وَيُؤْتَى بِسَيِّئَاتِ الْكَافِرِ فِي أَقْبَحِ صُورَةٍ فَيَخِفُّ وَزْنُهُ فَيَدْخُلُ النَّارَ. وَقَالَ الْحَسَنُ: فِي الْمِيزَانِ لَهُ كِفَّتَانِ وَلَا يُوصَفُ، قَالَ الْمُتَكَلِّمُونَ: إِنَّ نفس الحسنات والسيئات لا يصح وزنهما، خصوصا وقد نقضيا، بَلِ الْمُرَادُ أَنَّ الصُّحُفَ الْمَكْتُوبَ فِيهَا الْحَسَنَاتُ وَالسَّيِّئَاتُ تُوزَنُ، أَوْ يُجْعَلُ النُّورُ عَلَامَةَ الْحَسَنَاتِ وَالظُّلْمَةُ عَلَامَةَ السَّيِّئَاتِ، أَوْ تُصَوَّرُ صَحِيفَةُ الْحَسَنَاتِ بِالصُّورَةِ الْحَسَنَةِ وَصَحِيفَةُ السَّيِّئَاتِ بِالصُّورَةِ الْقَبِيحَةِ فَيَظْهَرُ بِذَلِكَ الثِّقَلُ وَالْخِفَّةُ، وَتَكُونُ الْفَائِدَةُ فِي ذَلِكَ ظُهُورَ حَالِ صَاحِبِ الْحَسَنَاتِ فِي الْجَمْعِ الْعَظِيمِ فَيَزْدَادُ سُرُورًا، وَظُهُورَ حَالِ صَاحِبِ السَّيِّئَاتِ فَيَكُونُ ذَلِكَ كَالْفَضِيحَةِ لَهُ عِنْدَ الْخَلَائِقِ" .

﴿سُؤالٌ﴾ : هَلْ سَتُوْزَنُ أَعْمَالُ الكَافِرِ ؟

الجواب : قال الإمام القرطبي في " التَّذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة" (ص٦٢٠-٧٢٢) : "فإن قيل: أمَّا وزن أعمال المؤمنين فظاهر وجهه ، فتُقابل الحسنات بالسيِّئات فتوجد حقيقة الوزن ، والكافر لا يكون له حسنات، فما الذي يُقابل بكفره وسيِّئاته وأنَّى يتحقَّق في أعماله الوزن؟.

فالجواب: إنَّ هذا على وجهين.

أَحَدُهُمَا: أنَّ الكافر يحضر له ميزان فيوضع كفره أو كفره وسيِّئاته في إحدىٰ كفَّتيه، ثمَّ يُقال له: هل لك من طاعة تضعها في الكفَّة الأخرىٰ؟ فلا يجدها فيشال الميزان فترتفع الكفَّة الفارغة وتقع الكفَّة المشغولة، فذلك خِفَّة ميزانه وهذا ظاهر الآية، لأنَّ الله تعالىٰ وصف الميزان بالخفَّة لا الموزون، وإذا كان فارغاً فهو خفيف.

وَالْوَجْهُ الآخَر: أنَّ الكافر يكون منه صلة الأرحام ، ومؤاساة النَّاس ، وعتق المملوك ، ونحوهما ممَّا لو كانت من المسلم لكانت قُربَة وطاعة، فمن كان له مثل هذه الخيرات من الكفَّار فإنَّها تُجمع وتُوضع في ميزانه، غير أنَّ الكفر إذا قابلها رجح بها ولم يخل أن يكون الجانب الذي فيه الخيرات من ميزانه خفيفاً ، ولو لم يكن له إلَّا خير واحد أو حسنة واحدة لأُحضرت ووزنت كما ذكرنا.

فإن قيل: لو احتسبت خيراته حتىٰ يوزن لجوزي بها جزاء مثلها وليس له منها جزاء، لأنَّ رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سُئل عن عبد الله ابن جدعان وقيل له: إنَّه كان يُقْرِي الضَّيف ، ويصل الرَّحِم ، ويُعين في النَّوائب، فهل ينفعه ذلك؟ فقال: «لَا لأَنَّه لَم يَقُل يَوْمَاً رَبِّ اغْفِرْ لِي خَطِيْئَتِي يَوْمَ الدِّيْن» أخرجه مسلم (١/ ١٩٦ برقم ٢١٤) .

وسأله عدي بن حاتم عن أبيه مثل ذلك، فقال: «إنَّ أَبَاكَ طَلَبَ أَمْرَاً فَأَدْرَكَه» أخرجه أحمد في المسند (٣٢/ ١٢٩ برقم ١٩٣٨٦) ، قال الأرنؤوط : " حديث حسن" .

يعني : الذِّكر ، فدلَّ أنَّ الخيرات من الكافر ليست بخيرات ، وأنَّ وجودها وعدمها بمنزلة واحدة سواء.

والجواب: أنَّ الله تعالىٰ قال: ﴿**وَنَضَعُ الْمَوازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً**﴾ [الأنبياء:٤٧] ، ولم يفصل بين نفس ونفس، فخيرات الكافر تُوزن ويُجزىٰ بها، إلَّا أنَّ الله تعالىٰ حرَّم عليه الجنَّة ، فجزاؤه أن يخفَّف عند بدليل حديث أبي طالب ، فإنَّه قيل له: يا رسول الله إنَّ أبا طالب كان يحوطك وينصرك فهل نفعه ذلك؟ فقال : «نعم وجدته في غمرات من النَّار فأخرجته إلىٰ ضحضاح ، ولولا أنا لكان في الدَّرك الأسفل من النَّار» . أخرجه مسلم (١/ ١٩٥ برقم ٢٠٩) .

وما قاله عليه السَّلام في ابن جدعان وحاتم إنَّما هو في أنَّهما لا يدخلان الجنَّة ، ولا يتنعَّمان بشيء من نعيمها ، والله أعلم" .

﴿سُؤالٌ﴾ : مَتَى يَكُوْنُ وَزْنُ الأَعْمَال ؟

الجواب : الظَّاهر أنَّ وزن الأعمال سيكون بعد الحساب والموقف ، حيث تُنصب الموازين لوزن الأعمال ، قال الإمام القرطبي في " التَّذكرة بأحوال الموتىٰ وأمور الآخرة " (١/ ٧١٥) : " قال العلماء: وإذا

انقضى الحساب كان بعد وزن الأعمال ، لأنَّ الوزن للجزاء فينبغي أن يكون بعد المحاسبة ، فإنَّ المحاسبة لتقدير الأعمال والوزن لإظهار مقاديرها ليكون الجزاء بحسبها " .

﴿سُؤالٌ﴾ : مَا حَقِيْقَة مِيْزَانِ القِيَامَة ؟

الجواب : الظاهر أنَّ الميزان له كفَّتان ، فقد روى أحمد في المسند (١١/ ٥٧١ برقم ٦٩٩٤) بسنده عَنْ أَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْحُبُلِيِّ، قَالَ: سَمِعْتُ عَبْدَ اللهِ بْنَ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ، يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يَسْتَخْلِصُ رَجُلًا مِنْ أُمَّتِي عَلَى رُءُوسِ الْخَلَائِقِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيَنْشُرُ عَلَيْهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ سِجِلًّا، كُلُّ سِجِلٍّ مَدَّ الْبَصَرِ، ثمَّ يَقُولُ لَهُ: أَتُنْكِرُ مِنْ هَذَا شَيْئًا؟ أَظَلَمَتْكَ كَتَبَتِي الْحَافِظُونَ؟ قَالَ: لَا، يَا رَبِّ، فَيَقُولُ: أَلَكَ عُذْرٌ، أَوْ حَسَنَةٌ؟ فَيُبْهَتُ الرَّجُلُ، فَيَقُولُ: لَا، يَا رَبِّ، فَيَقُولُ: بَلَى، إِنَّ لَكَ عِنْدَنَا حَسَنَةً وَاحِدَةً، لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ، فَتُخْرَجُ لَهُ بِطَاقَةٌ، فِيهَا: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، فَيَقُولُ: أَحْضِرُوهُ، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ، مَا هَذِهِ الْبِطَاقَةُ مَعَ هَذِهِ السِّجِلَّاتِ؟ فَيُقَالُ: إِنَّكَ لَا تُظْلَمُ "، قَالَ: " فَتُوضَعُ السِّجِلَّاتُ فِي كِفَّةٍ "، قَالَ: " فَطَاشَتِ السِّجِلَّاتُ، وَثَقُلَتِ الْبِطَاقَةُ، وَلَا يَثْقُلُ شَيْءٌ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ " . قال الأرنؤوط : " إسناده قوي، رجاله ثقات رجال الصحيح غير إبراهيم بن إسحاق الطالقاني، فقد روى له مسلم في المقدمة، ووثقه ابن معين ويعقوب بن شيبة، وقال أبو حاتم: صدوق، وذكره ابن حبان في "الثقات"، ثمَّ هو متابع، أبو عبد الرحمن الحُبلي: هو عبد الله بن يزيد المعافري. وهو عند ابن المبارك في "زوائد الزهد" (٣٧١) ، وفيه يستخص بدل يستخلص، وسقط من المطبوع لفظ: أبي، من: "أبي عبد الرحمن الحبلي". وأخرجه الترمذي (٢٦٣٩) عن سويد بن نصر، وابن حبان (٢٢٥) من طريق عبد الوارث بن عبيد الله، والبغوي (٤٣٢١) من طريق إبراهيم بن عبد الله الخلال، ثلاثتهم عن ابن المبارك، بهذا الإسناد. قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب. وأخرجه أبن ماجه (٤٣٠٠) من طريق ابن أبي مريم، والحاكم ١/ ٦، وعنه البيهقي في "الشعب" (٢٨٣) من طريق يونس بن محمد (وهو المؤدب) ، و١/ ٥٢٩ من طريق يحيى بن عبد الله بن بكير، ثلاثتهم عن الليث بن سعد، به وصححه الحاكم في الموضع الأول على شرط مسلم، ووافقه الذهبي، وقال في الموضع الثاني: صحيح الإسناد، ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي " .

وروى اللالكائي في " : شرح أصول اعتقاد أهل السُّنَّة والجماعة" (٦/ ١٢٤٤ برقم ٢٢٠٨) بسنده عَنْ سَلْمَانَ، قَالَ: " يُوضَعُ الْمِيزَانُ وَلَهُ كِفَّتَانِ، لَوْ وُضِعَ فِي أَحَدِهِمَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ لَوَسِعَهُ، فَتَقُولُ الْمَلَائِكَةُ: مَنْ يَزِنُ هَذَا؟ فَيَقُولُ: مَنْ شِئْتُ مِنْ خَلْقِي: قَالَ فَتَقُولُ الْمَلَائِكَةُ: مَا عَبَدْنَاكَ حَقَّ عِبَادَتِكَ " .

وميزان القيامة لا يعلمه على حقيقته إلَّا الله وحده ، فالخلق على ضعفهم ابتكروا واخترعوا موازين عديدة ، فهناك ميزان لقياس ضغط الدَّم ، وميزانٌ لقياس الحرارة ، وميزان لقياس الكتلة ، وميزان لقياس

درجة ميل الأسطح ...ولذلك فالأولىٰ أن نؤمن بالميزان ، ونكِل ونفوِّض العلم بحقيقته إلىٰ الله تعالىٰ وحده...

قال الإمام محمَّد رشيد رضا في " تفسير المنار" (٨/ ٢٨٦-٢٨٧) : " وَإِذَا لَمْ يَكُنْ فِي الصَّحِيحَيْنِ وَلَا فِي كُتُبِ السُّنَنِ الْمُعْتَمِدَةِ حَدِيثٌ صَحِيحٌ مَرْفُوعٌ فِي صِفَةِ الْمِيزَانِ وَلَا فِي أَنَّ لَهُ كِفَّتَيْنِ وَلِسَانًا فَلَا نَغْتَرُّ بِقَوْلِ الزَّجَّاجِ. إِنَّ هَذَا مِمَّا أَجْمَعَ عَلَيْهِ أَهْلُ السُّنَّةِ. فَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْمُصَنِّفِينَ يَتَسَاهَلُونَ بِإِطْلَاقِ كَلِمَةِ الْإِجْمَاعِ وَلَا سِيَّمَا غَيْرُ الْحُفَّاظِ الْمُتْقِنِينَ، وَالزَّجَّاجُ لَيْسَ مِنْهُمْ، وَيَتَسَاهَلُونَ فِي عَزْوِ كُلِّ مَا يُوجَدُ فِي كُتُبِ أَهْلِ السُّنَّةِ إِلَىٰ جَمَاعَتِهِمْ، وَإِنْ لَمْ يُعْرَفْ لَهُ أَصْلٌ مِنَ السَّلَفِ، وَلَا اتَّفَقَ عَلَيْهِ الْخَلَفُ مِنْهُمْ، وَهَذِهِ الْمَسْأَلَةُ مِمَّا اخْتَلَفَ فِيهِ السَّلَفُ وَالْخَلَفُ كَمَا عَلِمْتُ ... وَالْأَصْلُ الَّذِي عَلَيْهِ سَلَفُ الْأُمَّةِ فِي الْإِيمَانِ بِعَالَمِ الْغَيْبِ أَنَّ كُلَّ مَا ثَبَتَ مِنْ أَخْبَارِهِ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ فَهُوَ حَقٌّ لَا رَيْبَ فِيهِ، نُؤْمِنُ بِهِ وَلَا نُحَكِّمُ رَأْيَنَا فِي صِفَتِهِ وَكَيْفِيَّتِهِ. فَنُؤْمِنُ إِذًا بِأَنَّ فِي الْآخِرَةِ وَزْنًا لِلْأَعْمَالِ قَطْعًا، وَنُرَجِّحُ أَنَّهُ بِمِيزَانٍ يَلِيقُ بِذَلِكَ الْعَالَمِ يُوزَنُ بِهِ الْإِيمَانُ وَالْأَخْلَاقُ وَالْأَعْمَالُ، لَا نَبْحَثُ عَنْ صُورَتِهِ وَكَيْفِيَّتِهِ وَلَا عَنْ كِفَّتَيْهِ إِنْ صَحَّ الْحَدِيثُ فِيهِمَا كَمَا صَوَّرَهُ الشَّعْرَانِيُّ فِي مِيزَانِهِ " .

﴿سُؤالٌ﴾ : مَا هِيَ الحِكْمَةُ فِي وَزْنِ الْأَعْمَالِ ؟

الجواب: ، قال الإمام البغوي في " معالم التنزيل في تفسير القرآن " (٢/ ١٨١) : " وَالْحِكْمَةُ فِي وَزْنِ الْأَعْمَالِ امْتِحَانُ اللَّهِ عِبَادَهُ بِالْإِيمَانِ فِي الدُّنْيَا وَإِقَامَةُ الْحُجَّةِ عَلَيْهِمْ فِي الْعُقْبَىٰ " .

وقال الإمام القرطبي في " التَّذكرة بأحوال الموتىٰ وأمور الآخرة "(ص٧٢٧) : " وإنَّما تُوزن أعمال المؤمن المتَّقي لإظهار فضله، كما توزن أعمال الكافر لخزيه وذلِّه، فإن أعماله توزن تبكيتاً له علىٰ فراغه وخلُّوه عن كلِّ خير " .

وقال الإمام السَّفاريني في " لوامع الأنوار البهية" (٢/ ١٨٨) : " فَإِنْ قِيلَ : مَا الْحِكْمَةُ فِي الْوَزْنِ مَعَ أَنَّ اللَّهَ عَالِمٌ بِكُلِّ شَيْءٍ فَيَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ؟ أَجَابَ الثَّعْلَبِيُّ بِأَنَّ الْحِكْمَةَ فِي ذَلِكَ تَعْرِيفُ اللَّهِ عَبِيدَهُ مَا لَهُمْ عِنْدَهُ مِنَ الْجَزَاءِ مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ.

وَقَالَ الْعَلَّامَةُ الشَّيْخُ مَرْعِيٌّ: بَلِ الْحِكْمَةُ فِيهِ إِظْهَارُ الْعَدْلِ وَبَيَانُ الْفَضْلِ حَيْثُ أَنَّهُ يَزِنُ مِثْقَالَ الذَّرَّةِ مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ **﴿وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾** [النساء: ٤٠] .

وقال القاضي عبد الجبَّار في " شرح الأصول الخمسة" (ص٧٣٦) : " وأمَّا فائدته: فهو تعجيل مسرَّة المؤمن وغمِّ الكافر، هذا في القيامة .

وفيه فائدة أخرىٰ تتعلَّق بالتَّكليف: وهي أنَّ المرء مع علمه أنَّ أعماله توزن علىٰ الملأ ، كان عند ذلك أقرب إلىٰ أداء الواجبات واجتناب المقبحات، وهذه فائدة عظيمة."

قال الإمام محمَّد رشيد رضا في "تفسير المنار " (٨/ ٢٨٧-٢٨٨) : " وَتَقَدَّمَ أَنَّ حِكْمَةَ وَزْنِ الْأَعْمَالِ بَعْدَ الْحِسَابِ أَنَّهُ يَكُونُ أَعْظَمُ مَظْهَرٍ لِعَدْلِ الرَّبِّ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، أَيْ لِعِلْمِهِ وَحِكْمَتِهِ وَعَظَمَتِهِ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ الْعَظِيمِ، إِذْ يَرَىٰ فِيهِ عِبَادُهُ أَفْرَادًا وَشُعُوبًا وَأُمَمًا ذَلِكَ بِأَعْيُنِهِمْ، وَيَعْرِفُونَهُ مَعْرِفَةَ إِدْرَاكٍ وَوِجْدَانٍ فِي أَنْفُسِهِمْ، فَإِنَّ أَعْمَالَهُمْ تَتَجَلَّىٰ لَهُمْ فِيهَا أَوَّلًا، ثمَّ تَتَجَلَّىٰ لَهُمْ وَلِسَائِرِ الْخَلْقِ فِي خَارِجِهَا ثَانِيًا، فَيَا لَهُ مِنْ مَنْظَرٍ مَهِيبٍ، وَيَا لَهُ مِنْ مَظْهَرٍ رَهِيبٍ، وَمَا أَشَدَّ غَفْلَةَ مَنْ قَالَ إِنَّهُ لَا حَاجَةَ إِلَيْهِ، لِلِاسْتِغْنَاءِ بِعِلْمِ اللهِ عَنْهُ" .

﴿ الفَصْلُ السَّادِسُ ﴾

۞۞۞ تَطَايُرُ الصُّحُف ۞۞۞

بعد صدور النَّاس من الحوض يوقفون ليأخذوا صُحفهم التي سجِّلت فيها أعمالهم في دار الدُّنيا، قال تعالىٰ : **﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُهُمْ بِما عَمِلُوا أَحْصاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾** [المجادلة: ٦] .

ففي ذلك الموقف العظيم تتطاير الصُّحف ، وعندها يكون النَّاس بين آخذ كتابه باليمين، وآخذ كتابه بشماله من وراء ظهره؛ قال تعالىٰ : **﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هاؤُمُ اقْرَؤُا كِتابِيَهْ * إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلاقٍ حِسابِيَهْ * فَهُوَ فِي عِيشَةٍ راضِيَةٍ * فِي جَنَّةٍ عالِيَةٍ * قُطُوفُها دانِيَةٌ *كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِما أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخالِيَةِ * وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتابَهُ بِشِمالِهِ فَيَقُولُ يا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتابِيَهْ * وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسابِيَهْ * يا لَيْتَها كانَتِ الْقاضِيَةَ * مَا أَغْنى عَنِّي مالِيَهْ * هَلَكَ عَنِّي سُلْطانِيَهْ﴾** [الحاقة:١٩-٢٩] .

وفي تلك الصُّحف يجد الإنسان ما عمل في دنياه من خير وشر ، قال تعالىٰ : **﴿وَوُضِعَ الْكِتابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنا مالِ هذَا الْكِتابِ لا يُغادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصاها وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حاضِراً وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً﴾** [الكهف: ٤٩] .

وحاصل ما تضمَّنه هذا الفصل ينتظم في أجوبة الأسئلة التَّالية :

﴿سُؤالٌ﴾ : مَاذَا عَنْ تَطَايُرِ الصُّحُف ؟

الجواب : قال تعالىٰ : **﴿وَكُلَّ إِنسانٍ أَلْزَمْناهُ طائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ كِتاباً يَلْقاهُ مَنْشُوراً * اقْرَأْ كِتابَكَ كَفى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً﴾** [الإسراء:١٣-١٤] .

قال الإمام الواحدي في " الوسيط في تفسير القرآن المجيد " (٣/ ٩٩-١٠٠) : " قوله: **﴿وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ﴾** [الإسراء: ١٣] قال مجاهد: عمله من خير وشر.

قال السدِّي: ما كتب له من خير وشر.

وقال الحسن، وقتادة: سعادته وشقاوته بعمله.

وقال مجاهد فِي رواية الحكم: مكتوب فِي ورقة معلَّقة فِي عنقه شقي أم سعيد.

ومعنىٰ الطَّائر ما طار له من خير أو شر، أي: صار له عند قسمته، من قولهم: أمرت المال وطيرته من القوم فطار له سهمه، ذكرنا ذلك عند قوله: **﴿أَلا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ﴾** [الأعراف: ١٣١] قال الأزهري: والأصل فِي هذا أنَّ الله تعالىٰ لـمَّا خلق آدم، علم المطيع من ذريته والعاصي، فكتب ما علم منهم أجمعين،

وقضى سعادة من علمه مطيعاً، وشقاوة من علمه عاصياً، فصار لكلٍّ منهم ما هو صائر إليه عند خلقه وإنشائه، فذلك قوله: ﴿وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ﴾ [الإسراء: ١٣] ، أي: ما طار له فِي علم الله بدءا، و ﴿فِي عُنُقِهِ﴾ [الإسراء: ١٣] عبارة عن اللزوم كلزوم القلادة العنق من بين ما يلبس.

وقد روي فِي هذه الآية حديث مشروح، وهو ما:

أَخْبَرَنَا أَحْمَدُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ أَحْمَدَ التَّمِيمِيُّ، أنا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مُحَمَّدٍ الْحَافِظُ، أنا مُحَمَّدُ بْنُ الصَّبَّاحِ، نا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ، نا مُحَمَّدُ بْنُ مُعَلًّى، نا عَمْرُو بْنُ صُبْحٍ، عَنْ مُقَاتِلِ بْنِ حَيَّانَ، عَنْ أَبِي الزُّبَيْرِ، عَنْ أَبِي الطُّفَيْلِ، سَمِعْتُ حُذَيْفَةَ بْنَ أَسِيدٍ، يَقُولُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَقُولُ: " إِنَّ النُّطْفَةَ الَّتِي تُخْلَقُ مِنْهَا النَّسَمَةُ، تَصِيرُ فِي الْمَرْأَةِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا وَأَرْبَعِينَ لَيْلَةً، وَلا يَبْقَى مِنْهَا شَعْرٌ وَلا بَشَرٌ وَلا عِرْقٌ وَلا عَصَبٌ إِلا دَخَلَتْ فِيهِ، حَتَّى إِنَّهَا لَتَدْخُلُ بَيْنَ الظُّفْرِ وَاللَّحْمِ، فَإِذَا مَضَى لَهَا أَرْبَعُونَ يَوْمًا، وَأَرْبَعُونَ لَيْلَةً، أَهْبَطَهَا اللَّهُ إِلَى الرَّحِمِ، فَكَانَتْ عَلَقَةً أَرْبَعِينَ يَوْمًا وَأَرْبَعِينَ لَيْلَةً، ثُمَّ تَكُونُ مُضْغَةً أَرْبَعِينَ يَوْمًا وَأَرْبَعِينَ لَيْلَةً، فَإِذَا تَمَّتْ لَهَا أَرْبَعُونَ، بَعَثَ اللَّهُ إِلَيْهَا مَلَكُ الأَرْحَامِ، فَيَخْلُقُ عَلَى يَدِهِ لَحْمَهَا وَدَمَهَا وَشَعْرَهَا وَبَشَرَهَا، ثُمَّ يَقُولُ: صَوِّرْ، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ، مَا أُصَوِّرُ؟ أَذَكَرٌ أَمْ أُنْثَى؟ أَجَمِيلٌ أَمْ دَمِيمٌ؟ أَجَعْدٌ أَمْ سَبْطٌ؟ أَقَصِيرٌ أَمْ طَوِيلٌ؟ أَبْيَضُ أَمْ آدَمُ؟ زَائِدٌ أَمْ نَاقِصٌ؟ أَسَوِيٌّ أَمْ غَيْرُ سَوِيٍّ؟ فَيَكْتُبُ مِنْ ذَلِكَ مَا يَأْمُره اللَّهُ بِهِ، ثُمَّ يَقُولُ: أَيْ رَبِّ، أَشَقِيٌّ أَمْ سَعِيدٌ؟ فَإِنْ كَانَ سَعِيدًا نَفَخَ فِيهِ بِالسَّعَادَةِ فِي آخِرِ أَجَلِهِ، وَإِنْ كَانَ شَقِيًّا نَفَخَ فِيهِ بِالشَّقَاوَةِ فِي آخِرِ أَجَلِهِ، ثُمَّ يَقُولُ: اكْتُبْ أَثَرَهَا وَرِزْقَهَا وَمُصِيبَتَهَا وَعَمَلَهَا بِالطَّاعَةِ وَالْمَعْصِيَةِ، فَسَيَكْتُبُ مِنْ ذَلِكَ مَا يَأْمُرُ اللَّهُ بِهِ، ثُمَّ يَقُولُ الْمَلَكُ: يَا رَبِّ، مَا أَصْنَعُ بِهَذَا الْكِتَابِ؟ فَيَقُولُ: عَلِّقْهُ فِي عُنُقِهِ إِلَى قَضَائِي عَلَيْهِ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ، عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ الآيَةَ، وَإِلَى هَذَا ذَهَبَ مُجَاهِدٌ كَمَا ذَكَرْنَا عَنْهُ، فَإِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ أُظْهِرَ لَهُ ذَلِكَ الْكِتَابُ، فَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ ، وَقَالَ الْحَسَنُ: يَابْنَ آدَمَ، بَسَطْتُ لَكَ صَحِيفَةً وَوُكِّلَ بِكَ مَلَكَانِ، فَهُمَا عَنْ يَمِينِكَ وَعَنْ شِمَالِكَ؛ فَأَمَّا الَّذِي عَنْ يَمِينِكَ فَيَحْفَظُ حَسَنَاتِكَ، وَأَمَّا الَّذِي عَنْ شِمَالِكَ فَيَحْفَظُ سَيِّئَاتِكَ، حَتَّى إِذَا مِتَّ طُوِيَتْ صَحِيفَتُكَ وَجُعِلَتْ مَعَكَ فِي قَبْرِكَ حَتَّى تَخْرُجَ لَكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وهو قوله: ﴿كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا﴾ [الإسراء: ١٣] كقوله: ﴿وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ﴾ [التكوير: ١٠] وقرأ ابن عامر يلقاه من قولهم: لقيت فلانا، أي استقبلته به، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا﴾ [الإنسان: ١١] .

قوله: اقرأ كتابك أي يقال له: اقرأ، والقول ههنا مضمر، قال الحسن: يقرأه أمياً كان أو غير أمّي.

وقال قتادة: سيقرأ يومئذ من لم يكن قارئاً.

﴿كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: ١٤] الحسيب المحاسب كالشَّريك والجليس، قال الحسن: عدل والله عليك من جعلك حسيب نفسك.

والمعنىٰ أنَّ الإنسان يفوِّض إليه حسابه ليعلم عدل الله بين العباد، ويرىٰ وجوب حجَّة الله عليه، واستحقاقه العقوبة، ثمَّ إن كان مؤمناً دخل الجنَّة بفضل الله لا بعلمه، وإن كان كافراً استوجب النَّار بكفره"

وقال الإمام البغوي في " معالم التَّنزيل في تفسير القرآن " (٣/ ١٢٤) : " قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَكُلَّ إِنسانٍ أَلْزَمْناهُ طائِرَهُ فِي عُنُقِهِ﴾ ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: عَمَلُهُ وَمَا قُدِّرَ عَلَيْهِ فَهُوَ مُلَازِمُهُ أَيْنَمَا كَانَ. وَقَالَ الْكَلْبِيُّ وَمُقَاتِلٌ: خَيْرُهُ وَشَرُّهُ معه لا يفارقه حتىٰ يحاسب بِهِ. وَقَالَ الْحَسَنُ: يُمْنُهُ وَشُؤْمُهُ. وَعَنْ مُجَاهِدٍ: مَا مِنْ مَوْلُودٍ إلا وفي عُنُقِهِ وَرَقَةٌ مَكْتُوبٌ فِيهَا شَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ.

وَقَالَ أَهْلُ الْمَعَانِي: أَرَادَ بِالطَّائِرِ مَا قَضَىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ أَنَّهُ عَامِلُهُ وَمَا هُوَ صَائِرٌ إِلَيْهِ مِنْ سَعَادَةٍ أَوْ شقاوة وسمي طائر عَلَىٰ عَادَةِ الْعَرَبِ فِيمَا كَانَتْ تَتَفَاءَلُ وَتَتَشَاءَمُ بِهِ مِنْ سَوَانِحِ الطَّيْرِ وَبَوَارِحِهَا " .

وَقَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ وَالْقُتَيْبِيُّ: أَرَادَ بِالطَّائِرِ حَظَّهُ مِنَ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ مِنْ قَوْلِهِمْ طَارَ سهم فلان بكذا وكذا، وَخُصَّ الْعُنُقُ مِنْ بَيْنِ سَائِرِ الْأَعْضَاءِ لِأَنَّهُ مَوْضِعُ الْقَلَائِدِ وَالْأَطْوَاقِ وَغَيْرِهِمَا مِمَّا يَزِينُ أَوْ يَشِينُ، فَجَرَىٰ كَلَامُ الْعَرَبِ بِتَشْبِيهِ الْأَشْيَاءِ اللَّازِمَةِ إِلَىٰ الْأَعْنَاقِ، وَنُخْرِجُ لَهُ، يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَىٰ وَنَحْنُ نُخْرِجُ له، يَوْمَ الْقِيامَةِ كِتاباً، وَقَرَأَ الْحَسَنُ وَمُجَاهِدٌ وَيَعْقُوبُ وَيَخْرُجُ لَهُ بِفَتْحِ الْيَاءِ وَضَمِّ الرَّاءِ، مَعْنَاهُ: وَيَخْرُجُ لَهُ الطَّائِرُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا. وَقَرَأَ أَبُو جَعْفَرٍ يُخْرَجُ بِالْيَاءِ وَضَمِّهَا وَفَتْحِ الرَّاءِ، يَلْقاهُ، قَرَأَ ابْنُ عَامِرٍ وَأَبُو جَعْفَرٍ يَلْقاهُ بِضَمِّ الْيَاءِ وَفَتْحِ اللَّامِ وَتَشْدِيدِ الْقَافِ، يَعْنِي: يَلْقَىٰ الْإِنْسَانُ ذَلِكَ الْكِتَابَ، أَيْ: يُؤْتَاهُ. وَقَرَأَ الْبَاقُونَ بفتح الياء وتخفيف القاف ، أَيْ : يَرَاهُ مَنْشُوراً، وَفِي الْآثَارِ: إِنَّ اللَّهَ تَعَالَىٰ يَأْمُرُ الْمَلَكَ بِطَيِّ الصَّحِيفَةِ إِذَا تَمَّ عُمْرُ العبد فلا تنشر إلا في يَوْمِ الْقِيَامَةِ.

﴿اقْرَأْ كِتابَكَ﴾ ، أَيْ: يُقَالُ لَهُ اقْرَأْ كِتَابَكَ، قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿كَفى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً﴾ ، مُحَاسِبًا. قَالَ الْحَسَنُ: لَقَدْ عَدَلَ عَلَيْكَ مَنْ جَعَلَكَ حَسِيبَ نَفْسِكَ. قَالَ قَتَادَةُ: سَيَقْرَأُ يَوْمَئِذٍ مَنْ لَمْ يَكُنْ قَارِئًا فِي الدُّنْيَا" .

وقال الإمام الرَّازي في " التَّفسير" (٢٠/ ٣٠٨-٣١١) : " اعْلَمْ أَنَّ فِي الْآيَةِ مَسَائِلَ:

الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى: فِي كَيْفِيَّةِ النَّظْمِ وُجُوهٌ:

الْوَجْهُ الْأَوَّلُ: أَنَّهُ تَعَالَىٰ لَمَّا قَالَ: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْناهُ تَفْصِيلًا﴾ كَانَ مَعْنَاهُ أَنَّ كُلَّ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ مِنْ دَلَائِلِ التَّوْحِيدِ وَالنُّبُوَّةِ وَالْمَعَادِ ، فَقَدْ صَارَ مَذْكُورًا وَكُلَّ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ مِنْ شَرْحِ أَحْوَالِ الْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ وَالتَّرْغِيبِ

وَالتَّرْهِيبِ، فَقَدْ صَارَ مَذْكُورًا وَإِذَا كَانَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ فَقَدْ أُزِيحَتِ الْأَعْذَارُ، وَأُزِيلَتِ الْعِلَلُ فَلَا جَرَمَ كُلُّ مَنْ وَرَدَ عَرْصَةَ الْقِيَامَةِ فَقَدْ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنَقُولُ لَهُ: **﴿اقْرَأْ كِتابَكَ كَفى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً﴾** .

الْوَجْهُ الثَّانِي: أَنَّهُ تَعَالَى لَمَّا بَيَّنَ أَنَّهُ أَوْصَلَ إِلَى الْخَلْقِ أَصْنَافَ الْأَشْيَاءِ النَّافِعَةِ لَهُمْ فِي الدِّينِ وَالدُّنْيَا، مِثْلَ آيَتَيِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَغَيْرِهِمَا كَانَ مُنْعِمًا عَلَيْهِمْ بِأَعْظَمِ وُجُوهِ النِّعَمِ وَذَلِكَ يَقْتَضِي وُجُوبَ اشْتِغَالِهِمْ بِخِدْمَتِهِ وَطَاعَتِهِ فَلَا جَرَمَ كُلُّ مَنْ وَرَدَ عَرْصَةَ القيامة فإنه يكون مسؤولا عَنْ أَعْمَالِهِ وَأَقْوَالِهِ.

الْوَجْهُ الثَّالِثُ: فِي تَقْرِيرِ النَّظْمِ أَنَّهُ تَعَالَى لَمَّا بَيَّنَ أَنَّهُ مَا خَلَقَ الْخَلْقَ إِلَّا لِيَشْتَغِلُوا بِعِبَادَتِهِ كَمَا قَالَ: **﴿وَما خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾** [الذَّارِيَاتِ: ٥٦] فَلَمَّا شَرَحَ أَحْوَالَ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ وَاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، كَانَ الْمَعْنَى: إِنِّي إِنَّمَا خَلَقْتُ هَذِهِ الْأَشْيَاءَ لِتَنْتَفِعُوا بِهَا فَتَصِيرُوا مُتَمَكِّنِينَ مِنَ الِاشْتِغَالِ بِطَاعَتِي وَخِدْمَتِي، وَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ فَكُلُّ مَنْ وَرَدَ عَرْصَةَ الْقِيَامَةِ سَأَلْتُهُ أَنَّهُ هَلْ أَتَى بِتِلْكَ الْخِدْمَةِ وَالطَّاعَةِ، أَوْ تَمَرَّدَ وَعَصَى وَبَغَى، فَهَذَا هُوَ الْوَجْهُ فِي تَقْرِيرِ النَّظْمِ.

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ: فِي تَفْسِيرِ لَفْظِ الطَّائِرِ، قَوْلَانِ:

الْقَوْلُ الْأَوَّلُ: أَنَّ الْعَرَبَ إِذَا أَرَادُوا الْإِقْدَامَ عَلَى عَمَلٍ مِنَ الْأَعْمَالِ وَأَرَادُوا أَنْ يَعْرِفُوا أَنَّ ذَلِكَ الْعَمَلَ يَسُوقُهُمْ إِلَى خَيْرٍ أَوْ إِلَى شَرٍّ اعْتَبَرُوا أَحْوَالَ الطَّيْرِ وَهُوَ أَنَّهُ يَطِيرُ بِنَفْسِهِ، أَوْ يَحْتَاجُ إِلَى إِزْعَاجِهِ، وَإِذَا طَارَ فَهَلْ يَطِيرُ مُتَيَامِنًا أَوْ مُتَيَاسِرًا أَوْ صَاعِدًا إِلَى الْجَوِّ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْأَحْوَالِ الَّتِي كَانُوا يَعْتَبِرُونَهَا وَيَسْتَدِلُّونَ بِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهَا عَلَى أَحْوَالِ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ وَالسَّعَادَةِ وَالنُّحُوسَةِ، فَلَمَّا كَثُرَ ذَلِكَ مِنْهُمْ سُمِّيَ الْخَيْرُ وَالشَّرُّ بِالطَّائِرِ تَسْمِيَةً لِلشَّيْءِ بِاسْمِ لَازِمِهِ وَنَظِيرُهُ قَوْلُهُ تَعَالَى فِي سُورَةِ يس: **﴿قالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنا بِكُمْ﴾** [يس: ١٨] إِلَى قَوْلِهِ: **﴿قالُوا طائِرُكُمْ مَعَكُمْ﴾** [يس: ١٩] فَقَوْلُهُ: **﴿وَكُلَّ إِنسانٍ أَلْزَمْناهُ طائِرَهُ فِي عُنُقِهِ﴾** ، أَيْ كُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ عَمَلَهُ فِي عُنُقِهِ. وَتَدُلُّ عَلَى صِحَّةِ هَذَا الْوَجْهِ قِرَاءَةُ الْحَسَنِ وَمُجَاهِدٍ: أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ.

الْقَوْلُ الثَّانِي: قَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ: الطَّائِرُ عِنْدَ الْعَرَبِ الْحَظُّ وَهُوَ الَّذِي تُسَمِّيهِ الْفُرْسُ الْبَخْتَ، وَعَلَى هَذَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مَعْنَى الطَّائِرِ مَا طَارَ لَهُ مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ، وَالتَّحْقِيقُ فِي هَذَا الْبَابِ أَنَّهُ تَعَالَى خَلَقَ الْخَلْقَ وَخَصَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ بِمِقْدَارٍ مَخْصُوصٍ مِنَ الْعَقْلِ وَالْعِلْمِ، وَالْعُمْرِ وَالرِّزْقِ، وَالسَّعَادَةِ وَالشَّقَاوَةِ. وَالْإِنْسَانُ لَا يُمْكِنُهُ أَنْ يَتَجَاوَزَ ذَلِكَ الْقَدْرَ وَأَنْ يَنْحَرِفَ عَنْهُ، بَلْ لَا بُدَّ وَأَنْ يَصِلَ إِلَى ذَلِكَ الْقَدْرِ بِحَسَبِ الْكَمِّيَّةِ وَالْكَيْفِيَّةِ، فَتِلْكَ الْأَشْيَاءُ الْمَقْدُورَةُ كَأَنَّهَا تَطِيرُ إِلَيْهِ وَتَصِيرُ إِلَيْهِ، فَبِهَذَا الْمَعْنَى لَا يَبْعُدُ أَنْ يُعَبَّرَ عَنْ تِلْكَ الْأَحْوَالِ الْمُقَدَّرَةِ بِلَفْظِ الطَّائِرِ، فقوله: وَكُلَّ إِنسانٍ أَلْزَمْناهُ طائِرَهُ فِي عُنُقِهِ كِنَايَةٌ عَنْ أَنَّ كُلَّ مَا قَدَّرَهُ اللَّهُ تَعَالَى وَمَضَى فِي عِلْمِهِ حُصُولُهُ، فَهُوَ لَازِمٌ لَهُ وَاصِلٌ إِلَيْهِ غَيْرُ مُنْحَرِفٍ عَنْهُ.

وَاعْلَمْ أَنَّ هَذَا مِنْ أَدَلِّ الدَّلَائِلِ عَلَىٰ أَنَّ كُلَّ مَا قَدَّرَهُ اللَّهُ تَعَالَى لِلْإِنْسَانِ وَحَكَمَ عَلَيْهِ بِهِ فِي سَابِقِ عِلْمِهِ فَهُوَ وَاجِبُ الْوُقُوعِ مُمْتَنِعُ الْعَدَمِ، وَتَقْرِيرُهُ مِنْ وَجْهَيْنِ:

الْوَجْهُ الْأَوَّلُ: أَنَّ تَقْدِيرَ الْآيَةِ: وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ عَمَلَهُ فِي عُنُقِهِ، فَبَيَّنَ تَعَالَىٰ أَنَّ ذَلِكَ الْعَمَلَ لَازِمٌ لَهُ، وَمَا كَانَ لَازِمًا لِلشَّيْءِ كَانَ مُمْتَنِعَ الزَّوَالِ عَنْهُ وَاجِبَ الْحُصُولِ لَهُ وَهُوَ الْمَقْصُودُ.

وَالْوَجْهُ الثَّانِي: أَنَّهُ تَعَالَىٰ أَضَافَ ذَلِكَ الْإِلْزَامَ إِلَىٰ نَفْسِهِ، لِأَنَّ قَوْلَهُ: **﴿أَلْزَمْنَاهُ﴾** تَصْرِيحٌ بِأَنَّ ذَلِكَ الْإِلْزَامَ إِنَّمَا صَدَرَ مِنْهُ، وَنَظِيرُهُ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: **﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوى﴾** [الْفَتْح: ٢٦] وَهَذِهِ الْآيَةُ دَالَّةٌ عَلَىٰ أَنَّهُ لَا يَظْهَرُ فِي الْأَبَدِ إِلَّا مَا حَكَمَ اللَّهُ بِهِ فِي الْأَزَلِ، وَإِلَيْهِ الْإِشَارَةُ بِقَوْلِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «جَفَّ الْقَلَمُ بِمَا هُوَ كَائِنٌ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ"، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ: قَوْلُهُ: **﴿فِي عُنُقِهِ﴾** كِنَايَةٌ عَنِ اللُّزُومِ كَمَا يُقَالُ: جَعَلْتُ هَذَا فِي عُنُقِكِ أَيْ قَلَّدْتُكَ هَذَا الْعَمَلَ وَأَلْزَمْتُكَ الِاحْتِفَاظَ بِهِ، وَيُقَالُ: قَلَّدْتُكَ كَذَا وَطَوَّقْتُكَ كَذَا، أَيْ صَرَفْتُهُ إِلَيْكَ وَأَلْزَمْتُهُ إِيَّاكَ، وَمِنْهُ قَلَّدَهُ السُّلْطَانُ كَذَا أَيْ صَارَتِ الْوِلَايَةُ فِي لُزُومِهَا لَهُ فِي مَوْضِعِ الْقِلَادَةِ وَمَكَانِ الطَّوْقِ، وَمِنْهُ يُقَالُ: فُلَانٌ يُقَلِّدُ فُلَانًا أَيْ جَعَلَ ذَلِكَ الِاعْتِقَادَ كَالْقِلَادَةِ الْمَرْبُوطَةِ عَلَىٰ عُنُقِهِ. قَالَ أَهْلُ الْمَعَانِي: وَإِنَّمَا خَصَّ الْعُنُقَ مِنْ بَيْنِ سَائِرِ الْأَعْضَاءِ بِهَذَا الْمَعْنَىٰ لِأَنَّ الَّذِي يَكُونُ عَلَيْهِ إِمَّا أَنْ يَكُونَ خَيْرًا يَزِينُهُ أَوْ شَرًّا يَشِينُهُ، وَمَا يَزِينُ يَكُونُ كَالطَّوْقِ وَالْحُلِيِّ، وَالَّذِي يَشِينُ فَهُوَ كَالْغُلِّ، فَهَهُنَا عَمَلُهُ إِنْ كَانَ مِنَ الْخَيْرَاتِ كَانَ زِينَةً لَهُ، وَإِنْ كَانَ مِنَ الْمَعَاصِي كَانَ كَالْغُلِّ عَلَىٰ رَقَبَتِهِ.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَىٰ: **﴿وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ كِتاباً يَلْقاهُ مَنْشُوراً﴾** ، قَالَ الْحَسَنُ: يَا ابْنَ آدَمَ بَسَطْنَا لَكَ صَحِيفَةً وَوُكِّلَ بِكَ مَلَكَانِ فَهُمَا عَنْ يَمِينِكَ وَشِمَالِكَ فَأَمَّا الَّذِي عَنْ يَمِينِكَ فَيَحْفَظُ حَسَنَاتِكَ، وَأَمَّا الَّذِي عَنْ شِمَالِكَ فَيَحْفَظُ سَيِّئَاتِكَ، حَتَّىٰ إِذَا مِتَّ طُوِيَتْ صَحِيفَتُكَ وَجُعِلَتْ مَعَكَ فِي قَبْرِكَ حَتَّىٰ تَخْرُجَ لَكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ. قَوْلُهُ: وَنُخْرِجُ لَهُ أَيْ مِنْ قَبْرِهِ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مَعْنَاهُ: نُخْرِجُ لَهُ ذَلِكَ لِأَنَّهُ لَمْ يَرَ كِتَابَهُ فِي الدُّنْيَا فَإِذَا بُعِثَ أُظْهِرَ لَهُ ذَلِكَ وَأُخْرِجَ مِنَ السِّتْرِ، وَقَرَأَ يَعْقُوبُ: (وَيَخْرُجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا) أَيْ يَخْرُجُ لَهُ الطَّائِرُ أَيْ عَمَلُهُ كِتَابًا مَنْشُورًا، كَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: **﴿وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ﴾** [التكوير: ١٠] وقرأ ابن عامر: (يُلَقَّاهُ) مِنْ قَوْلِهِمْ: لَقَّيْتُ فُلَانًا الشَّيْءَ أَيِ اسْتَقْبَلْتُهُ بِهِ قَالَ تَعَالَىٰ: **﴿وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُوراً﴾** [الْإِنْسَان: ١١] وَهُوَ مَنْقُولٌ بِالتَّشْدِيدِ مِنْ لَقِيتُ الشَّيْءَ وَلَقَّانِيهِ زَيْدٌ.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَىٰ: **﴿اقْرَأْ كِتابَكَ﴾** ، وَالتَّقْدِيرُ يُقَالُ لَهُ: وَهَذَا الْقَائِلُ هُوَ اللَّهُ تَعَالَىٰ عَلَىٰ أَلْسِنَةِ الْمَلَائِكَةِ اقْرَأْ كِتَابَكَ قَالَ الْحَسَنُ: يَقْرَؤُهُ أُمِّيًّا كَانَ أَوْ غَيْرَ أُمِّيٍّ.

وَقَالَ بَكْرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ: يُؤْتَىٰ بِالْمُؤْمِنِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَحِيفَتِهِ وَهُوَ يَقْرَؤُهَا وَحَسَنَاتُهُ فِي ظَهْرِهَا يَغْبِطُهُ النَّاسُ عَلَيْهَا، وَسَيِّئَاتُهُ فِي جَوْفِ صَحِيفَتِهِ وَهُوَ يَقْرَؤُهَا، حَتَّىٰ إِذَا ظَنَّ أَنَّهَا أَوْبَقَتْهُ قَالَ اللَّهُ تَعَالَىٰ: «اذْهَبْ فَقَدْ غَفَرْتُهَا لَكَ فِيمَا بَيْنِي وَبَيْنَكَ» فَيَعْظُمُ سُرُورُهُ، وَيَصِيرُ مِنَ الَّذِينَ قَالَ فِي حَقِّهِمْ: **﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ * ضاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ﴾** [عَبَس: ٣٨، ٣٩] ثُمَّ يَقُولُ: **﴿هَاؤُمُ اقْرَؤُا كِتابِيَهْ﴾** [الْحَاقَّة: ١٩] .

وَأَمَّا قَوْلُهُ: **﴿كَفى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً﴾** ، أَيْ : مُحَاسِبًا. قَالَ الْحَسَنُ: عَدَلَ وَاللَّهِ فِي حَقِّكَ مَنْ جَعَلَكَ حَسِيبَ نَفْسِكَ. قَالَ السُّدِّيُّ: يَقُولُ الْكَافِرُ يَوْمَئِذٍ إِنَّكَ قَضَيْتَ أَنَّكَ لَسْتَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ، فَاجْعَلْنِي أُحَاسِبُ نَفْسِي فَيُقَالُ لَهُ: اقْرَأْ كِتابَكَ كَفىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الْمَسْأَلَةُ الرَّابِعَةُ: قَالَ حُكَمَاءُ الْإِسْلَامِ: هَذِهِ الْآيَةُ فِي غَايَةِ الشَّرَفِ، وَفِيهَا أَسْرَارٌ عَجِيبَةٌ فِي أَبْحَاثٍ:

الْبَحْثُ الْأَوَّلُ: أَنَّهُ تَعَالَىٰ جَعَلَ فِعْلَ الْعَبْدِ كَالطَّيْرِ الَّذِي يَطِيرُ إِلَيْهِ، وَذَلِكَ لِأَنَّهُ تَعَالَىٰ قَدَّرَ لِكُلِّ أَحَدٍ فِي الْأَزَلِ مِقْدَارًا مِنَ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ، فَذَلِكَ الْحُكْمُ الَّذِي سَبَقَ فِي عِلْمِهِ الْأَزَلِيِّ وَحُكْمِهِ الْأَزَلِيِّ لَا بُدَّ وَأَنْ يَصِلَ إِلَيْهِ، فَذَلِكَ الْحُكْمُ كَأَنَّهُ طَائِرٌ يَطِيرُ إِلَيْهِ مِنَ الْأَزَلِ إِلَىٰ ذَلِكَ الْوَقْتِ، فَإِذَا حَضَرَ ذَلِكَ الْوَقْتُ وَصَلَ إِلَيْهِ ذَلِكَ الطَّائِرُ وَصُولًا لَا خَلَاصَ لَهُ الْبَتَّةَ وَلَا انْحِرَافَ عَنْهُ الْبَتَّةَ. وَإِذَا عَلِمَ الْإِنْسَانُ فِي كُلِّ قَوْلٍ وَفِعْلٍ وَلَمْحَةٍ وَفِكْرَةٍ أَنَّهُ كَانَ ذَلِكَ بِمَنْزِلَةِ طَائِرٍ طَيَّرَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ عَلَىٰ مَنْهَجٍ مُعَيَّنٍ وَطَرِيقٍ مُعَيَّنٍ، وَأَنَّهُ لَا بُدَّ وَأَنْ يَصِلَ إِلَيْهِ ذَلِكَ الطَّائِرُ، فَعِنْدَ ذَلِكَ عَرَفَ أَنَّ الْكِفَايَةَ الْأَبَدِيَّةَ لَا تَتِمُّ إِلَّا بِالْعِنَايَةِ الْأَزَلِيَّةِ.

وَالْبَحْثُ الثَّانِي: أَنَّ هَذِهِ التَّقْدِيرَاتِ إِنَّمَا تَقَدَّرَتْ بِإِلْزَامِ اللَّهِ تَعَالَىٰ وَذَلِكَ بِاعْتِبَارِ أَنَّهُ تَعَالَىٰ جَعَلَ لِكُلِّ حَادِثٍ حَادِثًا مُتَقَدِّمًا عَلَيْهِ لِحُصُولِ الْحَادِثِ الْمُتَأَخِّرِ، فَلَمَّا كَانَ وَضْعُ هَذِهِ السِّلْسِلَةِ مِنَ اللَّهِ لَا جَرَمَ كَانَ الْكُلُّ مِنَ اللَّهِ، وَعِنْدَ هَذَا يَتَخَيَّلُ الْإِنْسَانُ طُيُورًا لَا نِهَايَةَ لَهَا وَلَا غَايَةَ لِأَعْدَادِهَا، فَإِنَّهُ تَعَالَىٰ طَيَّرَهَا مِنْ وَكْرِ الْأَزَلِ وَظُلُمَاتِ عَالَمِ الْغَيْبِ، وَأَنَّهَا صَارَتْ وَطَارَتْ طَيَرَانًا لَا بِدَايَةَ لَهُ وَلَا غَايَةَ لَهُ، وَكَانَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهَا مُتَوَجِّهًا إِلَىٰ ذَلِكَ الْإِنْسَانِ الْمُعَيَّنِ فِي الْوَقْتِ الْمُعَيَّنِ بِالصِّفَةِ الْمُعَيَّنَةِ، وَهَذَا هُوَ الْمُرَادُ مِنْ قَوْلِهِ: أَلْزَمْناهُ طائِرَهُ فِي عُنُقِهِ.

الْبَحْثُ الثَّالِثُ: أَنَّ التَّجْرِبَةَ تَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّ تَكْرَارَ الْأَعْمَالِ الِاخْتِيَارِيَّةِ تُفِيدُ حُدُوثَ الْمَلَكَةِ النَّفْسَانِيَّةِ الرَّاسِخَةِ فِي جَوْهَرِ النَّفْسِ، أَلَا تَرَىٰ أَنَّ مَنْ وَاظَبَ عَلَىٰ تَكْرَارِ قِرَاءَةِ دَرْسٍ وَاحِدٍ صَارَ ذَلِكَ الدَّرْسُ مَحْفُوظًا، وَمَنْ وَاظَبَ عَلَىٰ عَمَلٍ وَاحِدٍ مُدَّةً مَدِيدَةً صَارَ ذَلِكَ الْعَمَلُ مَلَكَةً لَهُ.

إِذَا عَرَفْتَ هَذَا فَنَقُولُ: لَمَّا كَانَ التَّكْرَارُ الْكَثِيرُ يُوجِبُ حُصُولَ الْمَلَكَةِ الرَّاسِخَةِ وَجَبَ أَنْ يَحْصُلَ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْ تِلْكَ الْأَعْمَالِ أَثَرٌ مَا فِي جَوْهَرِ النَّفْسِ، فَإِنَّا لَمَّا رَأَيْنَا أَنَّ عِنْدَ تَوَالِي الْقَطَرَاتِ الْكَثِيرَةِ مِنَ الْمَاءِ عَلَىٰ

الْحَجَرِ حَصَلَتِ الثُّقْبَةُ فِي الْحَجَرِ، عَلِمْنَا أَنَّ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْ تِلْكَ الْقَطَرَاتِ أَثَرًا مَا فِي حُصُولِ ذَلِكَ الثُّقْبِ وَإِنْ كَانَ ضَعِيفًا قَلِيلًا، وَإِنْ كَانَتِ الْكِتَابَةُ أَيْضًا فِي عُرْفِ النَّاسِ عِبَارَةً عَنْ نُقُوشٍ مَخْصُوصَةٍ اصْطَلَحَ النَّاسُ عَلَى جَعْلِهَا مُعَرِّفَاتٍ لِأَلْفَاظٍ مَخْصُوصَةٍ، فَعَلَى هَذَا، دَلَالَةُ تِلْكَ النُّقُوشِ عَلَى تِلْكَ الْمَعَانِي الْمَخْصُوصَةِ دَلَالَةٌ كَائِنَةٌ جَوْهَرِيَّةٌ وَاجِبَةُ الثُّبُوتِ، مُمْتَنِعَةُ الزَّوَالِ، كَانَ الْكِتَابُ الْمُشْتَمِلُ عَلَى تِلْكَ النُّقُوشِ أَوْلَى بِاسْمِ الْكِتَابِ مِنَ الصَّحِيفَةِ الْمُشْتَمِلَةِ عَلَى النُّقُوشِ الدَّالَّةِ بِالْوَضْعِ وَالِاصْطِلَاحِ.

وَإِذَا عَرَفْتَ هَاتَيْنِ الْمُقَدِّمَتَيْنِ فَنَقُولُ: إِنَّ كُلَّ عَمَلٍ يَصْدُرُ مِنَ الْإِنْسَانِ كَثِيرًا كَانَ أَوْ قَلِيلًا قَوِيًّا كَانَ أَوْ ضَعِيفًا، فَإِنَّهُ يَحْصُلُ مِنْهُ لَا مَحَالَةَ فِي جَوْهَرِ النَّفْسِ الْإِنْسَانِيَّةِ أَثَرٌ مَخْصُوصٌ، فَإِنْ كَانَ ذَلِكَ الْأَثَرُ أَثَرًا لِجَذْبِ جَوْهَرِ الرُّوحِ مِنَ الْخَلْقِ إِلَى حَضْرَةِ الْحَقِّ كَانَ ذَلِكَ مِنْ مُوجِبَاتِ السَّعَادَاتِ وَالْكَرَامَاتِ وَإِنْ كَانَ ذَلِكَ الْأَثَرُ أَثَرًا لِجَذْبِ الرُّوحِ مِنْ حَضْرَةِ الْحَقِّ إِلَى الِاشْتِغَالِ بِالْخَلْقِ كَانَ ذَلِكَ مِنْ مُوجِبَاتِ الشَّقَاوَةِ وَالْخِذْلَانِ إِلَّا أَنَّ تِلْكَ الْآثَارَ تَخْفَى مَا دَامَ الرُّوحُ مُتَعَلِّقًا بِالْبَدَنِ، لِأَنَّ اشْتِغَالَ الرُّوحِ بِتَدْبِيرِ الْبَدَنِ يَمْنَعُ مِنَ انْكِشَافِ هَذِهِ الْأَحْوَالِ وَتَجَلِّيهَا وَظُهُورِهَا، فَإِذَا انْقَطَعَ تَعَلُّقُ الرُّوحِ عَنْ تَدْبِيرِ الْبَدَنِ فَهُنَاكَ تَحْصُلُ الْقِيَامَةُ لِقَوْلِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «مَنْ مَاتَ فَقَدْ قَامَتْ قِيَامَتُه" .

وَمَعْنَى كَوْنِ هَذِهِ الْحَالَةِ قِيَامَةً أَنَّ النَّفْسَ النَّاطِقَةَ كَأَنَّهَا كَانَتْ سَاكِنَةً مُسْتَقِرَّةً فِي هَذَا الْجَسَدِ السُّفْلِيِّ، فَإِذَا انْقَطَعَ ذَلِكَ التَّعَلُّقُ، قَامَتِ النَّفْسُ وَتَوَجَّهَتْ نَحْوَ الصُّعُودِ إِلَى الْعَالَمِ الْعُلْوِيِّ، فَهَذَا هُوَ الْمُرَادُ مِنْ كَوْنِ هَذِهِ الْحَالَةِ قِيَامَةً، ثُمَّ عِنْدَ حُصُولِ الْقِيَامَةِ بِهَذَا الْمَعْنَى زَالَ الْغِطَاءُ وَانْكَشَفَ الْوِطَاءُ، وَقِيلَ لَهُ: **﴿فَكَشَفْنا عَنْكَ غِطاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾** [ق: ٢٢] وَقَوْلُهُ: **﴿وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ كِتاباً يَلْقاهُ مَنْشُوراً﴾** مَعْنَاهُ: وَنُخْرِجُ لَهُ عِنْدَ حُصُولِ هَذِهِ الْقِيَامَةِ مِنْ عُمْقِ الْبَدَنِ الْمُظْلِمِ كِتَابًا مُشْتَمِلًا عَلَى جَمِيعِ تِلْكَ الْآثَارِ الْحَاصِلَةِ بِسَبَبِ الْأَحْوَالِ الدُّنْيَوِيَّةِ، وَيَكُونُ هَذَا الْكِتَابُ فِي هَذَا الْوَقْتِ مَنْشُورًا، لِأَنَّ الرُّوحَ حِينَ كَانَتْ فِي الْبَدَنِ كَانَتْ هَذِهِ الْأَحْوَالُ فِيهِ مَخْفِيَّةً فَكَانَتْ كَالْمَطْوِيَّةِ أَمَّا بَعْدَ انْقِطَاعِ التَّعَلُّقِ الْجَسَدَانِيِّ ظَهَرَتْ هَذِهِ الْأَحْوَالُ وَجَلَتْ وَانْكَشَفَتْ فَصَارَتْ كَأَنَّهَا مَكْشُوفَةٌ مَنْشُورَةٌ بَعْدَ أَنْ كَانَتْ مَطْوِيَّةً، وَظَاهِرَةٌ بَعْدَ أَنْ كَانَتْ مَخْفِيَّةً، وَعِنْدَ ذَلِكَ تُشَاهِدُ الْقُوَّةُ الْعَقْلِيَّةُ جَمِيعَ تِلْكَ الْآثَارِ مَكْتُوبَةً بِالْكِتَابَةِ الذَّاتِيَّةِ فِي جَوْهَرِ الرُّوحِ فَيُقَالُ لَهُ فِي تِلْكَ الْحَالَةِ: اقْرَأْ كِتابَكَ ثُمَّ يُقَالُ لَهُ: كَفى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً فَإِنَّ تِلْكَ الْآثَارَ إِنْ كَانَتْ مِنْ مُوجِبَاتِ السَّعَادَةِ حَصَلَتِ السَّعَادَةُ لَا مَحَالَةَ، وَإِنْ كَانَتْ مِنْ مُوجِبَاتِ الشَّقَاوَةِ حَصَلَتِ الشَّقَاوَةُ لَا مَحَالَةَ، فَهَذَا تَفْسِيرُ هَذِهِ الْآيَةِ بِحَسَبِ الْأَحْوَالِ الرُّوحَانِيَّةِ.

وَاعْلَمْ أَنَّ الْحَقَّ أَنَّ الْأَحْوَالَ الظَّاهِرَةَ الَّتِي وَرَدَتْ فِيهَا الرِّوَايَاتُ حَقٌّ وَصِدْقٌ لَا مِرْيَةَ فِيهَا، وَاحْتِمَالُ الْآيَةِ لِهَذِهِ الْمَعَانِي الرُّوحَانِيَّةِ ظَاهِرٌ أَيْضًا، وَالْمَنْهَجُ الْقَوِيمُ وَالصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ هُوَ الْإِقْرَارُ بِالْكُلِّ وَاللَّهُ أعلم بحقائق الأمور " .

ففي القيامة يومٌ تتطاير فيه صحف أعمال العباد ودواوينها، وسيجد كلُّ مكلَّفٍ في كتابه جميع ما عمل في دار الدُّنيا مستنسخًا مكتوباً ، قال تعالىٰ : **﴿هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾** [الجاثية:٢٩] .

قال الإمام الشَّريف الرضي في " تلخيص البيان في مجازات القرآن " (٢/ ٣٠٥) : " وقوله سبحانه : هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ . وهذه استعارة. وقد مضت الإشارة إلىٰ نظيرها فيما تقدَّم. والمعنىٰ أنَّ الكتاب ناطقٌ من جهة البيان ، كما يكون النَّاطق من جهة اللّسان. وشهادة الكتاب ببيانه ، أقوىٰ من شهادة الإنسان بلسانه" .

وقال الإمام القرطبي في " التَّذكرة بأحوال الموتىٰ وأمور الآخرة" (ص٦١٢ فما بعدها باختصار) : " باب ما جاء في تطاير الصُّحف عند العرض والحساب وإعطاء الكتب باليمين والشِّمال ومن أوَّل من يأخذ كتابه بيمينه من هذه الأمَّة، وفي كيفيَّة وقوفهم للحساب وما يقبل منهم من الأعمال، وفي دعائهم بأسماء آبائهم وبيان قوله : **﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِم﴾** ، وفي تعظيم خلق الإنسان الذي يدخل النَّاس به النَّار أو الجنان وذكر القاضي العدل ومن نُوقش عذِّب.

قال التِّرمذي (٤/ ٢١٩) : وروي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال عَنْ عُمَرَ بْنِ الخَطَّابِ، قَالَ: حَاسِبُوا أَنْفُسَكُمْ قَبْلَ أَنْ تُحَاسَبُوا، وَتَزَيَّنُوا لِلْعَرْضِ الأَكْبَرِ، وَإِنَّمَا يَخِفُّ الحِسَابُ يَوْمَ القِيَامَةِ عَلَىٰ مَنْ حَاسَبَ نَفْسَهُ فِي الدُّنْيَا .

البخاري (٨/ ١١١ برقم ٦٥٣٦) عَنْ عَائِشَةَ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «مَنْ نُوقِشَ الحِسَابَ عُذِّبَ ، قَالَتْ: قُلْتُ: أَلَيْسَ يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَىٰ: **﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾** [الانشقاق: ٨] قَالَ: «ذَلِكِ العَرْضُ» أخرجه مسلم (٤/ ٢٢٠٤ برقم ٢٨٧٦) ، والتِّرمذي (٤/ ١٩٥ برقم ٢٤٢٦) ، وقال: حديث حسن صحيح.

أبو داود الطَّيالسي (٣/ ١٣٢ برقم١٦٥٠) قال: حَدَّثَنَا عُمَرُ بْنُ الْعَلَاءِ الْيَشْكُرِيُّ، قَالَ: حَدَّثَنِي صَالِحُ بْنُ سَرْجٍ مِنْ عَبْدِ الْقَيْسِ، عَنْ عِمْرَانَ بْنِ حِطَّانَ، قَالَ: سَمِعْتُ عَائِشَةَ، تَقُولُ: وَذُكِرَ عِنْدَهَا الْقُضَاةُ، فَقَالَتْ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: يُؤْتَىٰ بِالْقَاضِي الْعَدْلِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيَلْقَىٰ مِنْ شِدَّةِ الْحِسَابِ مَا يَتَمَنَّىٰ أَنَّهُ لَمْ يَقْضِ بَيْنَ اثْنَيْنِ فِي تَمْرَةٍ قَطُّ.

التِّرمذي (٤/ ١٩٥ برقم ٢٤٢٥) عن الحسن، عَنِ الحَسَنِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: يُعْرَضُ النَّاسُ يَوْمَ القِيَامَةِ ثَلاَثَ عَرَضَاتٍ، فَأَمَّا عَرْضَتَانِ فَجِدَالٌ وَمَعَاذِيرُ، وَأَمَّا العَرْضَةُ الثَّالِثَةُ، فَعِنْدَ ذَلِكَ تَطِيرُ الصُّحُفُ فِي الأَيْدِي، فَآخِذٌ بِيَمِينِهِ وَآخِذٌ بِشِمَالِهِ.

وَلاَ يَصِحُّ هَذَا الحَدِيثُ مِنْ قِبَلِ أَنَّ الحَسَنَ لَمْ يَسْمَعْ مِنْ أَبِي هُرَيْرَةَ وَقَدْ رَوَاهُ بَعْضُهُمْ عَنْ عَلِيِّ بْنِ عَلِيٍّ وَهُوَ الرِّفَاعِيُّ، عَنِ الْحَسَنِ، عَنْ أَبِي مُوسَىٰ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَلاَ يَصِحُّ هَذَا الحَدِيثُ مِنْ قِبَلِ أَنَّ الحَسَنَ لَمْ يَسْمَعْ مِنْ أَبِي مُوسَىٰ.

قلت: قوله وقد رواه بعضهم هو وكيع بن الجراح. ذكره ابن ماجه (٢/ ١٤٣٠ برقم ٤٢٧٧) ، قَالَ : حَدَّثَنَا أَبُو بَكْرٍ، قَالَ: حَدَّثَنَا وَكِيعٌ، عَنْ عَلِيِّ بْنِ عَلِيٍّ ، فَذَكَرَه .

قال الترمذي (١/ ٣٢٤) : وتكلَّم يحيىٰ بن سعيد القطَّان في علي بن علي، وخرجه أبو بكر البزار (٨/ ٧٦ برقم ٣٠٧٣) أيضاً عَنْ أَبِي مُوسَىٰ، رَفَعَهُ قَالَ: «إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ، يُعْرَضُ النَّاسُ ثَلَاثَ عَرَضَاتٍ، فَأَمَّا عَرَضَتَانِ، فَجِدَالٌ وَمَعَارِيضُ، وَأَمَّا الثَّالِثَةُ فَتَطَايُرُ الْكُتُبِ يَمِينًا وَشِمَالًا» .

وذكره التِّرمذي الحكيم في الأصل السَّادس والثَّمانين (١/ ٤١٧-٤١٨ نوادر) قال: رُوِيَ عَن رَسُول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنه قَالَ النَّاس يعرضون ثَلَاث عرضات يَوْم الْقِيَامَة ، فَأَما عرضتان فجدال ومعاذير وَأما فِي العرضة الثَّالِثَة تطاير الصُّحُف فالجدال للأعداء لأَنَّهم لَا يعْرفُونَ رَّبهم فيظنُّون أَنَّهم إِذا جادلوه نَجوا وَقَامَت حججهم والمعاذير لله الْكَرِيم يعْتَذر الىٰ أنبيائه عَلَيْهِم السَّلَام وَيُقِيم حجَّته عِنْدهم علىٰ الْأَعْدَاء ثمَّ يَبْعَثهُم الىٰ النَّار ، قَالَ عَلَيْهِ السَّلَام : " لَا أحد أحبّ إِلَيْهِ الْمَدْح من الله تَعَالَىٰ ، وَلَا أحد أحبّ إِلَيْهِ الْعذر من الله تَعَالَىٰ ، والعرضة الثَّالِثَة للْمُؤْمنين وَهُوَ الْعرض الْأَكْبَر وهم علىٰ ضَرْبَيْنِ مِنْهُم من نبهه فِي الْحَيَاة الدُّنْيَا فكاد يَمُوت حَيَاء وفرقا فَأعْطىٰ الْأمان غَدا من ذَلِك ، فَإِنَّهُ لن يجمع ذَلِك علىٰ العَبْد فِي موطنين قَالَ عَلَيْهِ السَّلَام : قَالَ ربُّكُم : وَعِزَّتِي وَجَلَالِي لَا أجمع علىٰ عَبدِي خوفين ، وَلَا أجمع لَهُ أمنين ، فَمن خافني فِي الدُّنْيَا أمنته فِي الْآخِرَة ، وَمن أمنني فِي الدُّنْيَا أخفته فِي الْآخِرَة" .

وذكر أبو جعفر العقيلي «من حديث نعيم بن سالم، عن أنس بن مالك رضي الله عنه عن النَّبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: الكتب كلُّها تحت العرش ، فإذا كان يوم الموقف بعث الله ريحاً فتطيرها بالإيمان والشَّمائل أَّول خطّ فيها: ﴿**اقْرَأْ كِتابَكَ كَفى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً**﴾ [الإسراء:١٤] . انظر : الفردوس بمأثور الخطاب (٣/ ٣١٢)

أبو داود (٤/ ٢٤٠ برقم ٤٧٥٥) عَنْ عَائِشَةَ، أَنَّهَا ذَكَرَتِ النَّارَ فَبَكَتْ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَا يُبْكِيكِ؟» قَالَتْ: ذَكَرْتُ النَّارَ فَبَكَيْتُ، فَهَلْ تَذْكُرُونَ أَهْلِيكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " أَمَّا فِي ثَلَاثَةِ مَوَاطِنَ فَلَا يَذْكُرُ أَحَدٌ أَحَدًا: عِنْدَ الْمِيزَانِ حَتَّى يَعْلَمَ أَيَخِفُّ مِيزَانُهُ أَوْ يَثْقُلُ، وَعِنْدَ الْكِتَابِ حِينَ يُقَالُ ﴿هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ﴾ حَتَّى يَعْلَمَ أَيْنَ يَقَعُ كِتَابُهُ أَفِي يَمِينِهِ أَمْ فِي شِمَالِهِ أَمْ مِنْ وَرَاءِ ظَهْرِهِ، وَعِنْدَ الصِّرَاطِ إِذَا وُضِعَ بَيْنَ ظَهْرَيْ جَهَنَّمَ " .

وذكر أبو بكر أحمد بن ثابت الخطيب (تاريخ بغداد ١٣/ ٣٦) عَنْ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " أَوَّلُ مَنْ يُعْطَى كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ مِنْ هَذِهِ الأُمَّةِ، عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ، وَلَهُ شُعَاعٌ كَشُعَاعِ الشَّمْسِ "، قِيلَ: فَأَيْنَ أَبُو بَكْرٍ؟، قَالَ: " تَزُفُّهُ الْمَلائِكَةُ إِلَى الْجِنَانِ " ...

وأسند شِمْرِ بْنِ عَطِيَّةَ ، قَالَ: " يُؤْتَى بِالرَّجُلِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِلْحِسَابِ ، وَفِي صَحِيفَتِهِ أَمْثَالُ الْجِبَالِ مِنَ الْحَسَنَاتِ ، فَيَقُولُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: صَلَّيْتَ يَوْمَ كَذَا وَكَذَا لِيُقَالَ: صَلَّى فُلَانٌ ، أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا ، لِيَ الدِّينُ الْخَالِصُ ، صُمْتَ يَوْمَ كَذَا وَكَذَا لِيُقَالَ: صَامَ فُلَانٌ ، أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا ، لِيَ الدِّينُ الْخَالِصُ ، تَصَدَّقْتَ يَوْمَ كَذَا وَكَذَا ، لِيُقَالَ تَصَدَّقَ فُلَانٌ ، أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا ، لِيَ الدِّينُ الْخَالِصُ ، فَمَا يَزَالُ يُمْحَى شَيْءٌ بَعْدَ شَيْءٍ حَتَّى تَبْقَى صَحِيفَتُهُ مَا فِيهَا شَيْءٌ ، فَيَقُولُ مَلَكَاهُ: يَا فُلَانُ ، أَلِغَيْرِ اللَّهِ كُنْتَ تَعْمَلُ؟ . انظر : تهذيب الآثار للطبري (٢/ ٨٠١ برقم ١١٣١) .

قلت: ومثل هذا لا يقال من جهة الرأي فهو مرفوع، وقد رفع معناه الدَّارقطني في سننه (١/ ٧٦ برقم ١٣٢) من حديث أَنَسٍ ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " يُجَاءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصُحُفٍ مُخْتَمَةٍ فَتُنْصَبُ بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ، فَيَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لِمَلَائِكَتِهِ: أَلْقُوا هَذَا وَاقْبَلُوا هَذَا ، فَتَقُولُ الْمَلَائِكَةُ: وَعِزَّتِكَ مَا رَأَيْنَا إِلَّا خَيْرًا ، فَيَقُولُ وَهُوَ أَعْلَمُ: «إِنَّ هَذَا كَانَ لِغَيْرِي، وَلَا أَقْبَلُ الْيَوْمَ مِنَ الْعَمَلِ إِلَّا مَا كَانَ ابْتُغِيَ بِهِ وَجْهِي» .

خرَّجه مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه بمعناه على ما يأتي بيانه إن شاء الله تعالى.

التِّرْمِذِيُّ (٥/ ١٥٣ برقم ٣١٣٦) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي قَوْلِ اللهِ: ﴿يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ﴾ ، قَالَ: يُدْعَى أَحَدُهُمْ فَيُعْطَى كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ، وَيُمَدُّ لَهُ فِي جِسْمِهِ سِتُّونَ ذِرَاعًا، وَيُبَيَّضُ وَجْهُهُ، وَيُجْعَلُ عَلَى رَأْسِهِ تَاجٌ مِنْ لُؤْلُؤٍ يَتَلَأْلَأُ، فَيَنْطَلِقُ إِلَى أَصْحَابِهِ فَيَرَوْنَهُ مِنْ بُعْدٍ فَيَقُولُونَ: اللَّهُمَّ ائْتِنَا بِهَذَا وَبَارِكْ لَنَا فِي هَذَا، حَتَّى يَأْتِيَهُمْ فَيَقُولُ لَهُمْ: أَبْشِرُوا لِكُلِّ رَجُلٍ مِنْكُمْ مِثْلُ هَذَا، قَالَ: وَأَمَّا الكَافِرُ فَيُسَوَّدُ وَجْهُهُ وَيُمَدُّ لَهُ فِي جِسْمِهِ سِتُّونَ ذِرَاعًا عَلَى صُورَةِ آدَمَ فَيُلْبَسُ تَاجًا، فَيَرَاهُ أَصْحَابُهُ فَيَقُولُونَ: نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شَرِّ هَذَا،

اللَّهُمَّ لاَ تَأْتِنَا بِهَذَا، قَالَ: فَيَأْتِيهِمْ فَيَقُولُونَ: اللَّهُمَّ أَخْزِهِ، فَيَقُولُ: أَبْعَدَكُمُ اللَّهُ فَإِنَّ لِكُلِّ رَجُلٍ مِنْكُمْ مِثْلَ هَذَا. وقال : هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ...

فصل: قال الله تعالىٰ : ﴿وَكُلَّ إِنسانٍ أَلْزَمْناهُ طائِرَهُ فِي عُنُقِهِ﴾ [الإسراء:١٣] ، قال الزَّجَّاج: ذكر العنق عبارة عن اللزوم كلزوم القلادة للعنق.

وقال إبراهيم بن أدهم : كلّ آدمي في عنقه قلادة يكتب فيها نسخة عمله ، فإذا مات طُويت ، وإذا بعث نشرت ، وقيل له : ﴿اقْرَأْ كِتابَكَ كَفى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً﴾ [الإسراء:١٤] ، وقال ابن عبَّاس رضي الله عنه: طائره عمله : ﴿وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ كِتاباً يَلْقاهُ مَنْشُوراً * اقْرَأْ كِتابَكَ كَفى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً﴾ ، قال الحسن: يقرأ الإنسان كتابه أميَّاً كان أو غير أمِّي.

وقال أبو السّوار العدوي: وقرأ هذه الآية : ﴿وَكُلَّ إِنسانٍ أَلْزَمْناهُ طائِرَهُ فِي عُنُقِهِ﴾ ، قال: هما نشرتان وطيَّة ، أما ما حييت يا ابن آدم فصحيفتك المنشورة فأملِ فيها ما شئت ، فإذا متّ طُويت، حتىٰ إذا بعثت نشرت ﴿اقْرَأْ كِتابَكَ كَفى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً﴾ ، فإذا وقف النَّاس علىٰ أعمالهم من الصُّحف التي يؤتونها بعد البعث حوسبوا بها.

قال الله تعالىٰ : ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتابَهُ بِيَمِينِهِ (٧) فَسَوْفَ يُحاسَبُ حِساباً يَسِيراً﴾ [الانشقاق:٧-٨] .

فدلَّ علىٰ أنَّ المحاسبة تكون عند إتيان الكتب، لأنَّ النَّاس إذا بعثوا لا يكون ذاكرين لأعمالهم.

قال الله تعالىٰ : ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُهُمْ بِما عَمِلُوا أَحْصاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ﴾ [المجادلة:٦] .

وقد تقدَّم القول في محاسبة الله تعالىٰ لخلقه في يوم الحساب من أسماء القيامة ، فإذا بعثوا من قبورهم إلىٰ الموقف وقاموا فيه ما شاء تعالىٰ علىٰ ما تقدَّم حفاة عراة وجاء وقت الحساب يريد الله أن يحاسبهم فيه أمر بالكتب التي كتبها الكرام الكاتبون بذكر أعمال النَّاس فأوتوها، فمنهم من يؤتىٰ كتابه بيمينه فأولئك هم السُّعداء، ومنهم من يؤتىٰ كتابه بشماله أو من وراء ظهره وهم الأشقياء، فعند ذلك يقرأ كلٌّ كتابه وأنشدوا :

مثِّل وقوفك يوم العَرض عرياناً ... مستوحشاً قلق الأحشاء حيرانا
والنَّار تلهب من غيظ ومن حنق ... علىٰ العصاة وربُّ العرش غضبانا
اقرأ كتابك يا عبدي علىٰ مهل ... لمَّا قرات ولم تُنكر قراءته
فهل ترىٰ فيه حرفاً غير ما كانا

نادىٰ الجليل خذوه يا ملائكتي إقرار من عرف الأشياء عرفاناً
المشركون غداً في النَّـــار يلتهبوا وامضوا بعبد عصىٰ للنَّار عطشانا
والمؤمنون بدار الخلــــد سكَّانا

فتوهَّم نفسك يا أخي إذا تطايرت الكُتب ، ونصبت الموازين ، وقد نوديت باسمك علىٰ رؤوس الخلائق : أين فلان ابن فلان ؟ هلمَّ إلىٰ العرض علىٰ الله تعالىٰ ، وقد وكلت الملائكة بأخذك ، فقرَّبتك إلىٰ الله لا يمنعها اشتباه الأسماء باسمك واسم أبيك ، إذ عرفت أنَّك المراد بالدُّعاء إذ قرع النِّداء قلبك، فعلمت أنَّك المطلوب، فارتعدت فرائصك، واضطربت جوارحك، وتغيَّر لونك، وطار قلبك.

تحظىٰ بك الصفوف إلىٰ ربك للعرض عليه والوقوف بين يديه، وقد رفع الخلائق إليك أبصارهم وأنت في أيديهم وقد طار قلبك واشتد رعبك لعلمك أين يراد بك.

فتوهم نفسك وأنت بين يدي ربك في يدك صحيفة مخبرة بعملك لا تغادر بلية كتمتها ولا مخبأة أسررتها، وأنت تقرأ ما قيها بلسان كليل وقلب منكسر والأهوال محدقة بك من بين يديك ومن خلفك، فكم من بلية قد كنت نسيتها ذكرتها، وكم من شيئة قد كنت أخفيتها قد أظهرها وأبداها، وكم من عمل ظننت أنَّه سلم لك وخلص فردَّه عليك في ذلك الموقف وأحبطه بعد أن كان أملك فيه عظيماً، فيا حسرة قلبك ويا أسفك علىٰ ما فرَّطت فيه من طاعة ربِّك **﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتابَهُ بِيَمِينِهِ﴾** [الحاقة:١٩] ، فعلم أنه من أهل الجنَّة **﴿فَيَقُولُ هاؤُمُ اقْرَؤُا كِتابِيَهْ﴾** [الحاقة:١٩] ، وذلك حين يأذن الله فيقرأ كتابه.

فإذا كان الرَّجل رأساً في الخير يدعوا إليه ويأمر به ويكثر تبعه عليه دعي باسمه واسم أبيه فيتقدَّم، حتَّىٰ إذا دنا أخرج له كتاب أبيض بخط أبيض في باطنه السيِّئات وفي ظاهره الحسنات، فيبدأ بالسيِّئات فيقرؤها فيشفق ويصفر وجهه ويتغيَّر لونه، فإذا بلغ آخر الكتاب وجد فيه هذه سِّيئاتك وقد غفرت لك، فيفرحُ عند ذلك فرحاً شديداً، ثمَّ يقلب كتابه فيقرأ حسناته فلا يزداد إلَّا فرحاً، حَّتىٰ إذا بلغ آخر الكتاب وجد فيه هذه حسناتك قد ضوعفت لك فيبيض وجهه، ويؤتىٰ بتاج فيوضع علىٰ رأسه ويُكسىٰ حلَّتين ويحلىٰ كلّ مفصل فيه وبطول ستين ذراعاً وهي قامة آدم ويقال له: انطلق إلىٰ أصحابك فبشرهم وأخبرهم أنَّ لكلِّ إنسان منهم مثل هذا فإذا أدبر قال : **﴿هاؤُمُ اقْرَؤُا كِتابِيَهْ * إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلاقٍ حِسابِيَهْ﴾** ، قال الله تعالىٰ : **﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ راضِيَةٍ﴾** ، أي : مرضيَّة قد رضيها **﴿فِي جَنَّةٍ عالِيَةٍ﴾** في السَّماء **﴿قُطُوفُها﴾** ثمارها وعناقيدها **﴿دانِيَةٌ﴾** أُدنيت منهم فيقول لأصحابه هل تعرفوني؟ فيقولون قد غمرتك كرامة الله من أنت ؟ فيقول : أنا فلان ابن

فلان ليبشِّر كلّ رجل منكم بمثل هذا ﴿**كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِما أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخالِيَةِ**﴾ ، أي : قدَّمتم في أيَّام الدُّنيا.

وإذا كان الرَّجل رأساً في الشَّرِّ يدعو إليه ويأمره به فيكثر تبعه عليه ، ونودي باسمه واسم أبيه، فيتقدَّم إلىٰ حسابه فيخرج له كتاب أسود بخط أسود في باطنه الحسنات وفي ظاهره السيِّئات، فيبدأ بالحسنات فيقرؤها ويظن أنَّه سينجو، فإذا بلغ آخر الكتاب وجد فيه: هذه حسناتك وقد ردَّت عليك، فيسودُّ وجهه ويعلوه الحزن ويقنط من الخير ثمَّ يقلب كتابه فيقرأ سيِّئاته فلا يزداد إلَّا حزناً ولا يزداد وجهه إلَّا سواداً، فإذا بلغ آخر الكتاب وجد فيه: هذه سيِّئاتك وقد ضوعفت عليك ، أي : يضاعف عليه العذاب ليس المعنىٰ أنَّه يزاد عليه ما لم يعمل. قال: فينظر إلىٰ النَّار وتزرقّ عيناه ، ويسودّ وجهه ، ويكسىٰ سرابيل القطران، ويقال له: انطلق إلىٰ أصحابك فأخبرهم أنَّ لكلِّ إنسان منهم مثل هذا فينطلق وهو يقول: ﴿**يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتابِيَهْ * وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسابِيَهْ * يَا لَيْتَها كانَتِ الْقاضِيَةَ**﴾ يعني : الموت ﴿**هَلَكَ عَنِّي سُلْطانِيَهْ**﴾ تفسير ابن عبَّاس رضي الله عنهما : هلكت عنِّي حجَّتي.

قال تعالىٰ : ﴿**خُذُوهُ فَغُلُّوهُ * ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ**﴾ ، أي : اجعلوه يصلىٰ الجحيم ﴿ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُها سَبْعُونَ ذِراعاً فَاسْلُكُوهُ﴾ ، والله أعلم بأي ذراع. قال الحسن : وقال ابن عبَّاس رضي الله عنهما: سبعون ذراعاً بذراع الملك. وسيأتي في كتاب النَّار لهذه السِّلسلة مزيد بيان.

﴿**فَاسْلُكُوهُ**﴾ فيها ، أي : تدخل من فيه حتىٰ تخرج من دبره ، قاله الكلبي، وقيل: بالعكس.

وقيل: يدخل عنقه فيها ثمَّ يجرّ بها ولو أن حلقة منها وضعت علىٰ جبل لأذابته ، فينادي أصحابه فيقول : هل تعرفونني فيقولون ؟ لا ، ولكن قد نرىٰ ما بك من الخزي ، فمن أنت ؟ فيقول : أنا فلان ابن فلان ، لكلِّ إنسان منكم مثل هذا.

﴿**وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتابَهُ وَراءَ ظَهْرِهِ**﴾ فتخلع كتفه اليسرىٰ فتجعل يده خلفه فيأخذ بها كتابه، وقال مجاهد: يحول مجاهد وجهه في موضع قفاه فيقرأ كتابه كذلك.

فتوهَّم نفسك إن كنت من السُّعداء وقد خرجت علىٰ الخلائق مسرور الوجه ، قد حلَّ لك الكمال والحسن والجمال ، كتابك في يمينك ، آخذ بضبعيك ملك ينادي علىٰ رؤوس الخلائق : هذا فلان ابن فلان ، سعد سعادة لا يشقىٰ بعدها أبداً.

أَمَّا إن كنت من أهل الشَّقاوة فيسودُّ وجهك وتتخطى الخلائق ، كتابك في شمالك أو من وراء ظهرك ، تنادي بالويل والثُّبور ، وملك آخذ بضبعيك ينادي على رؤوس الخلائق : ألا إنَّ فلان ابن فلان شقي شقاوة لا يسعد بعدها أبداً.

قلت: قوله ألا إنَّ فلان ابن فلان دليل على أنَّ الإنسان يُدعى في الآخرة باسمه واسم أبيه، وقد جاء صريحاً من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه قال: قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " إنَّكم تدعون يوم القيامة بأسمائكم وأسماء آبائكم فأحسنوا أسماءكم" . خرجه أبو نعيم الحافظ ، قال حدَّثنا أبو عمر بن حمدان ، قال :حدَّثنا الحسن بن سفيان ، قال: حدَّثنا زكريا بن يحي قال: حدثنا هشيم عن داود بن عمر عن عبد الله بن أبي زكريا عن أبي الدَّرداء ، فذكره" .

﴿ الفَصْلُ السَّابِعُ ﴾

۞۞۞ الحَوْضُ وَمَا يَتَعَلَّقُ بِهِ مِنْ مَسَائِل ۞۞۞

الإيمان بالحوض واجب، وهو مظهر من مظاهر رحمة الله تعالى الكثيرة ،ذلك أنَّ النَّاس يخرجون من قبورهم عطشى ، يطلبون الماء ، وعندها تأتي رحمة الله تعالى بالمؤمنين ، فيكرمهم بأحواض الأنبياء يشربون منها فيرتوون ، وفي ذلك روى التِّرمذي (٤/ ٢٠٨ برقم ٢٤٤٣ ، وقال : هَذَا حَدِيثٌ غَرِيبٌ وَقَدْ رَوَى الأَشْعَثُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ، هَذَا الحَدِيثَ عَنِ الحَسَنِ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُرْسَلاً وَلَمْ يَذْكُرْ فِيهِ عَنْ سَمُرَةَ وَهُوَ أَصَحُّ) بسنده عَنْ سَمُرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنَّ لِكُلِّ نَبِيٍّ حَوْضًا وَإِنَّهُمْ يَتَبَاهَوْنَ أَيُّهُمْ أَكْثَرُ وَارِدَةً، وَإِنِّي أَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ وَارِدَةً" . قال الحافظ ابن حجر في " فتح الباري" (١١/ ٤٦٧) : " أَخْرَجَ التِّرمِذِيُّ مِنْ حَدِيثِ سَمُرَةَ رَفَعَهُ إِنَّ لِكُلِّ نَبِيٍّ حَوْضًا وَأَشَارَ إِلَى أَنَّهُ اخْتُلِفَ فِي وَصْلِهِ وَإِرْسَالِهِ وَأَنَّ الْمُرْسَلَ أَصَحُّ " .

وحاصل ما تضمَّنه هذا الفصل ينتظم في أجوبة الأسئلة التَّالية :

﴿سُؤالٌ﴾ : مَا المَقْصُوْدُ بِالحَوْضِ ؟

الجواب : قال ابن فارس في " معجم مقاييس اللغة" (٢/ ١٢٠) : " الْحَاءُ وَالْوَاوُ وَالضَّادُ كَلِمَةٌ وَاحِدَةٌ، وَهُوَ الْهَزْمُ فِي الْأَرْضِ. فَالْحَوْضُ حَوْضُ الْمَاءِ. وَاسْتَحْوَضَ الْمَاءَ: اتَّخَذَ لِنَفْسِهِ حَوْضًا. وَالْمُحَوَّضُ، كَالْحَوْضِ يُجْعَلُ لِلنَّخْلَةِ تَشْرَبُ مِنْهُ" .

والحوض مجمعٌ للماء عظيم يردُهُ المؤمنون في عرصات القيامة قبل الميزان وبعد الموقف وقبل دخول الجنَّة ... وقد ثبت في الأحاديث الصَّحيحة أنَّ لكلِّ نبيٍّ حوضًا يشرب هو وأمَّته منه ، كما ثبت أنَّ حوض

نبيِّنا وحبيبنا صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم هو أعظمها وأهمّها، ماؤه أبيض من اللبن، وأحلىٰ من العسل، وأطيب من المسك، من شرب منه شربة لا يظمأ بعدها أبدًا ...

﴿سُؤالٌ﴾ : أُذْكُرْ لَنَا بَعْضَ الأَحَادِيْثِ الوَارِدَةِ فِيْ حَوْضِ الرَّسُوْلِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؟

الجواب : وردت في الحوض أحاديث كثيرة ، منها:

رویٰ البخاري (٨/ ١١٩ برقم ٦٥٧٩) ، مسلم (٤/ ١٧٩٣ برقم ٢٢٩٢) بسندهما عَنِ ابْنِ أَبِي مُلَيْكَةَ، قَالَ: قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرٍو: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «حَوْضِي مَسِيرَةُ شَهْرٍ، مَاؤُهُ أَبْيَضُ مِنَ اللَّبَنِ، وَرِيحُهُ أَطْيَبُ مِنَ المِسْكِ، وَكِيزَانُهُ كَنُجُومِ السَّمَاءِ، مَنْ شَرِبَ مِنْهَا فَلاَ يَظْمَأُ أَبَدًا" .

رویٰ مسلم (٤/ ١٧٩٨ برقم ٢٣٠٠) بسنده عَنْ أَبِي ذَرٍّ، قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ مَا آنِيَةُ الْحَوْضِ قَالَ: «وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَآنِيَتُهُ أَكْثَرُ مِنْ عَدَدِ نُجُومِ السَّمَاءِ وَكَوَاكِبِهَا، أَلَا فِي اللَّيْلَةِ الْمُظْلِمَةِ الْمُصْحِيَةِ، آنِيَةُ الْجَنَّةِ مَنْ شَرِبَ مِنْهَا لَمْ يَظْمَأْ آخِرَ مَا عَلَيْهِ، يَشْخَبُ فِيهِ مِيزَابَانِ مِنَ الْجَنَّةِ، مَنْ شَرِبَ مِنْهُ لَمْ يَظْمَأْ، عَرْضُهُ مِثْلُ طُولِهِ، مَا بَيْنَ عَمَّانَ إِلَىٰ أَيْلَةَ، مَاؤُهُ أَشَدُّ بَيَاضًا مِنَ اللَّبَنِ، وَأَحْلَىٰ مِنَ الْعَسَلِ" .

وروىٰ مسلم (٤/ ١٧٩٩ برقم ٢٣٠١) بسنده عَنْ ثَوْبَانَ، أَنَّ نَبِيَّ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِنِّي لَبِعُقْرِ حَوْضِي أَذُودُ النَّاسَ لِأَهْلِ الْيَمَنِ أَضْرِبُ بِعَصَايَ حَتَّىٰ يَرْفَضَّ عَلَيْهِمْ». فَسُئِلَ عَنْ عَرْضِهِ فَقَالَ: «مِنْ مَقَامِي إِلَىٰ عَمَّانَ» وَسُئِلَ عَنْ شَرَابِهِ فَقَالَ: «أَشَدُّ بَيَاضًا مِنَ اللَّبَنِ، وَأَحْلَىٰ مِنَ الْعَسَلِ، يَغُتُّ فِيهِ مِيزَابَانِ يَمُدَّانِهِ مِنَ الْجَنَّةِ، أَحَدُهُمَا مِنْ ذَهَبٍ، وَالْآخَرُ مِنْ وَرِقٍ... " .

﴿سُؤالٌ﴾ : سَمِعْنَا البَعْضَ يَقُوْلُ بِأَنَّ أَحَادِيْثَ الحَوْضِ مُضْطَرِبَة فِيْ صِفَتِهِ وَطُوْلِهِ وَعَرْضِهِ ، فَمَا رَأْيُكُم ؟

الجواب : جاء في صفة الحوض وطوله وعرضه أحاديث كثيرة ، ظهر من خلالها الاختلاف في تقدير طول الحوض وعرضه ، حيث نصَّت بعض الأحاديث علىٰ أنَّ مسافته كما بين أذرح والجربا ، وبعضها أنَّه مُسيرة شهر ، وبعضها كما بين أيلة وصنعاء من اليمن ، وبعضها كما بين المدينة ... الأمر الذي أدَّىٰ إلىٰ أن يحكم البعض علىٰ ضوئه علىٰ أحاديث الحوض بالاضطراب.

وقد نبَّه الإمام القرطبي علىٰ هذا الأمر ، وأجاب عنه في " التَّذكرة بأحوال الموتىٰ وأمور الآخرة" (ص٧٠٦) فقال : " ظنَّ بعض النَّاس أنَّ هذه التَّحديدات في أحاديث الحوض اضطراب واختلاف وليس كذلك، وإنَّما تحدَّث النَّبيُّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بحديث الحوض مرَّات عديدة ، وذكر فيها تلك الألفاظ المختلفة مخاطباً لكلِّ طائفة بما كانت تعرف من مسافات مواضعها، فيقول لأهل الشَّام ما بين أذرح وجرباً، ولأهل اليمن من صنعاء إلىٰ عد، ، وهكذا ، وتارة أخرىٰ يقدِّر بالزَّمان فيقول: مسيرة شهر،

والمعنى المقصود أنَّه حوضٌ كبيرٌ متَّسع الجوانب والزَّوايا ، فكان ذلك بحسب من حضره ممَّن يعرف تلك الجهات ، فخاطب كلَّ قوم بالجهة التي يعرفونها."

﴿سُؤالٌ﴾ : مَا حُكْمُ الإِيْمَانِ بِالحَوْض ؟

الجواب : الإيمانُ بالحوض الذي أُعطيه الرَّسول صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ واجب علىٰ كلِّ مسلم ، وقد صرَّح العديد من أهل العلم بأنَّ الأحاديث الواردة في حوضه صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بلغت حدَّ التَّواتر...

قال الإمام ابن عبد البر في " التَّمهيد لما في الموطَّأ من المعاني والأسانيد " (٢/ ٢٩١) : " الْأَحَادِيثُ فِي حَوْضِهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُتَوَاتِرَةٌ صَحِيحَةٌ ثَابِتَةٌ كَثِيرَةٌ وَالْإِيمَانُ بِالْحَوْضِ عِنْدَ جماعة علماء المسلمين واجب والإقرار به عند الجماعة لَازِمٌ " .

وقال الحافظ ابن حجر في " فتح الباري" (١١/ ٤٦٧) : " قَالَ الْقُرْطُبِيُّ فِي الْمُفْهِمِ تَبَعًا لِلْقَاضِي عِيَاضٍ فِي غَالِبِهِ : مِمَّا يَجِبُ عَلَىٰ كُلِّ مُكَلَّفٍ أَنْ يَعْلَمَهُ وَيُصَدِّقَ بِهِ : أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قَدْ خَصَّ نَبِيَّهُ مُحَمَّدًا صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالْحَوْضِ الْمُصَرَّحِ بِاسْمِهِ وَصِفَتِهِ وَشَرَابِهِ فِي الْأَحَادِيثِ الصَّحِيحَةِ الشَّهِيرَةِ الَّتِي يَحْصُلُ بِمَجْمُوعِهَا الْعِلْمُ الْقَطْعِيُّ ، إِذْ رَوَىٰ ذَلِكَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ الصَّحَابَةِ نَيِّفٌ عَلَىٰ الثَّلَاثِينَ مِنْهُمْ فِي الصَّحِيحَيْنِ مَا يُنِيفُ عَلَىٰ الْعِشْرِينَ وَفِي غَيْرِهِمَا بَقِيَّةُ ذَلِكَ مِمَّا صَحَّ نَقْلُهُ وَاشْتُهِرَتْ رُوَاتُهُ ، ثُمَّ رَوَاهُ عَنِ الصَّحَابَةِ الْمَذْكُورِينَ مِنَ التَّابِعِينَ أَمْثَالُهُمْ ، وَمَنْ بَعْدَهُمْ أَضْعَافُ أَضْعَافِهِمْ وَهَلُمَّ جَرًّا ، وَأَجْمَعَ عَلَىٰ إِثْبَاتِهِ السَّلَفُ وَأَهْلُ السُّنَّةِ مِنَ الْخَلَفِ ، وَأَنْكَرَتْ ذَلِكَ طَائِفَةٌ مِنَ الْمُبْتَدِعَةِ وَأَحَالُوهُ عَلَىٰ ظَاهِرِهِ وَغَلَوْا فِي تَأْوِيلِهِ مِنْ غَيْرِ اسْتِحَالَةٍ عَقْلِيَّةٍ وَلَا عَادِيَّةٍ تَلْزَمُ مِنْ حَمْلِهِ عَلَىٰ ظَاهِرِهِ وَحَقِيقَتِهِ وَلَا حَاجَةَ تَدْعُو إِلَىٰ تَأْوِيلِهِ فَخَرَقَ مَنْ حَرَّفَهُ إِجْمَاعَ السَّلَفِ وَفَارَقَ مَذْهَبَ أَئِمَّةِ الْخَلَفِ" .

قال الإمام القرطبي في " الجامع لأحكام القرآن" (٢٠/ ٢١٨) : " وَسَمِعَ أَنَسٌ قَوْمًا يَتَذَاكَرُونَ الْحَوْضَ فَقَالَ: مَا كُنْتُ أَرَىٰ أَنْ أَعِيشَ حَتَّىٰ أَرَىٰ أَمْثَالَكُمْ يَتَمَارَوْنَ فِي الْحَوْضِ، لَقَدْ تَرَكْتُ عَجَائِزَ خَلْفِي، مَا تُصَلِّي امْرَأَةٌ مِنْهُنَّ إِلَّا سَأَلَتِ اللَّهَ أَنْ يَسْقِيَهَا مِنْ حَوْضِ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ " .

﴿سُؤالٌ﴾ : مَا مَوْضِعُ الحَوْضِ ، أَهُوَ قَبْلَ الصِّرَاطِ أَمْ بَعْدَه ؟

الجواب : اختلف العلماء في تحديد موضع الحوض : أهو قبل الصِّراط أم بعده ؟ وقد تعرَّض الإمام القرطبي لهذه المسألة في " التَّذكرة بأحوال الموتىٰ وأمور الآخرة " (ص٧٠٣) ، فقال : " والصَّحيح أنَّ الحوض قبل.

قلت: والمعنى يقتضيه ، فإنَّ النَّاس يخرجون عطاشاً من قبورهم كما تقدَّم، فيقدَّم قبل الصِّراط والميزان ، والله أعلم، وقال أبو حامد في كتاب " كشف علوم الآخرة" : وحكى بعضُ السَّلف من أهل التَّصنيف: أنَّ الحوض يُورِدُ بعد الصِّراط وهو غلط من قائله ، قال المؤلِّف: هو كما قال.

وقد روى البخاري (٨/ ١٢١ برقم ٦٥٨٧) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: " بَيْنَا أَنَا قَائِمٌ إِذَا زُمْرَةٌ، حَتَّى إِذَا عَرَفْتُهُمْ خَرَجَ رَجُلٌ مِنْ بَيْنِي وَبَيْنِهِمْ، فَقَالَ: هَلُمَّ، فَقُلْتُ: أَيْنَ؟ قَالَ: إِلَى النَّارِ وَاللَّهِ، قُلْتُ: وَمَا شَأْنُهُمْ؟ قَالَ: إِنَّهُمُ ارْتَدُّوا بَعْدَكَ عَلَى أَدْبَارِهِمُ القَهْقَرَى. ثُمَّ إِذَا زُمْرَةٌ، حَتَّى إِذَا عَرَفْتُهُمْ خَرَجَ رَجُلٌ مِنْ بَيْنِي وَبَيْنِهِمْ، فَقَالَ: هَلُمَّ، قُلْتُ أَيْنَ؟ قَالَ: إِلَى النَّارِ وَاللَّهِ، قُلْتُ: مَا شَأْنُهُمْ؟ قَالَ: إِنَّهُمُ ارْتَدُّوا بَعْدَكَ عَلَى أَدْبَارِهِمُ القَهْقَرَى، فَلاَ أُرَاهُ يَخْلُصُ مِنْهُمْ إِلَّا مِثْلُ هَمَلِ النَّعَمِ" .

قلت: فهذا الحديث مع صحَّته أدلُّ دليل على أنَّ الحوض يكون في الموقف قبل الصِّراط " .

﴿سُؤالٌ﴾ : مَا صِلَةُ الحَوْضِ بِالكَوْثَر ؟

الجواب : جاء في الكتاب العزيز قوله تعالى : **﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾** [الكوثر : ١] ، وثبت في الصَّحيح عن النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنَّ هذا الكوثر نهر في الجنَّة .

فقد روى البخاري (٨/ ١٢٠ برقم ٦٥٨١) بسنده أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: " بَيْنَمَا أَنَا أَسِيرُ فِي الجَنَّةِ، إِذَا أَنَا بِنَهَرٍ، حَافَتَاهُ قِبَابُ الدُّرِّ المُجَوَّفِ، قُلْتُ: مَا هَذَا يَا جِبْرِيلُ؟ قَالَ: هَذَا الكَوْثَرُ، الَّذِي أَعْطَاكَ رَبُّكَ، فَإِذَا طِينُهُ - أَوْ طِيبُهُ - مِسْكٌ أَذْفَرُ " .

وروى مسلم (١/ ٣٠٠ برقم ٤٠٠) بسنده عَنْ أَنَسٍ، قَالَ: بَيْنَا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذَاتَ يَوْمٍ بَيْنَ أَظْهُرِنَا إِذْ أَغْفَى إِغْفَاءَةً ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ مُتَبَسِّمًا، فَقُلْنَا: مَا أَضْحَكَكَ يَا رَسُولَ اللهِ قَالَ: «أُنْزِلَتْ عَلَيَّ آنِفًا سُورَةٌ» فَقَرَأَ: بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ **﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ * فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ * إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾** [الكوثر: ٢] ثُمَّ قَالَ: «أَتَدْرُونَ مَا الْكَوْثَرُ؟» فَقُلْنَا اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: " فَإِنَّهُ نَهْرٌ وَعَدَنِيهِ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ، عَلَيْهِ خَيْرٌ كَثِيرٌ، هُوَ حَوْضٌ تَرِدُ عَلَيْهِ أُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ، آنِيَتُهُ عَدَدُ النُّجُومِ، فَيُخْتَلَجُ الْعَبْدُ مِنْهُمْ، فَأَقُولُ: رَبِّ، إِنَّهُ مِنْ أُمَّتِي فَيَقُولُ: مَا تَدْرِي مَا أَحْدَثَتْ بَعْدَكَ " زَادَ ابْنُ حُجْرٍ، فِي حَدِيثِهِ: بَيْنَ أَظْهُرِنَا فِي الْمَسْجِدِ. وَقَالَ: «مَا أَحْدَثَ بَعْدَكَ" .

ومع هذا فقد نقل الإمام القرطبي عن العلماء في " الجامع لأحكام القرآن" (٢٠/ ٢١٨) في تفسير الكوثر خمسة عشر قولاً ، قال في آخرها : " أَصَحُّ هَذِهِ الْأَقْوَالِ الْأَوَّلُ وَالثَّانِي، لِأَنَّهُ ثَابِتٌ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَصّ فِي الْكَوْثَرِ " .

قلت : والمقصود بِالْأَوَّلُ: أَنَّهُ نَهرٌ فِي الْجَنَّةِ ، الثَّانِي : أَنَّهُ حَوْضُ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْمَوْقِفِ .

ولمَّا كان ظاهر الحديث يُوحي بالاضطراب ، ذلك أنَّ الحديث فسَّر الكوثر بالنَّهر الذي وُعده الرَّسول صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وكذا بالحوض الذي تَرِدُ عليه أُمَّته يوم القيامة ... فقد حقَّق الحافظ ابن حجر في " فتح الباري" (١١/ ٤٦٦) هذه المسألة ، وبيَّن " أَنَّ الْكَوْثَرَ نَهَرٌ دَاخِلَ الْجَنَّةِ كَمَا تَقَدَّمَ وَيَأْتِي وَمَاؤُهُ يُصَبُّ فِي الْحَوْضِ وَيُطْلَقُ عَلَىٰ الْحَوْضِ كَوْثَرٌ لِكَوْنِهِ يُمَدُّ مِنْهُ" .

﴿سُؤالٌ﴾ : مَا صِلَةُ الحَوْضِ بِالكَوْثَر ؟

الجواب : ذكرنا أنَّ الكوثر نهر في الجنَّة، أمَّا الحوض فهو في أرض المحشر، والكوثر يصبُّ في الحوض من خلال ميزابان يصبَّان فيه ، وقد روىٰ مسلم (١/ ٣٠٠ برقم ٤٠٠) بسنده عَنْ مُخْتَارِ بْنِ فُلْفُلٍ، قَالَ: سَمِعْتُ أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ، يَقُولُ: أَغْفَى رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِغْفَاءَةً، بِنَحْوِ حَدِيثِ ابْنِ مُسْهِرٍ غَيْرَ أَنَّهُ قَالَ: «نَهْرٌ وَعَدَنِيهِ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ فِي الْجَنَّةِ عَلَيْهِ حَوْضٌ" .

﴿سُؤالٌ﴾ : مَنْ هُمُ الذِيْنَ يُطْرَدُوْنَ عَنِ الحَوْض ؟

الجواب : روىٰ البخاري (٨/ ١٢٠ برقم ٦٥٨٢) بسنده عَنْ أَنَسٍ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: " لَيَرِدَنَّ عَلَيَّ نَاسٌ مِنْ أَصْحَابِي الحَوْضَ، حَتَّىٰ عَرَفْتُهُمْ اخْتُلِجُوا دُونِي، فَأَقُولُ: أَصْحَابِي، فَيَقُولُ: لاَ تَدْرِي مَا أَحْدَثُوا بَعْدَكَ " .

وروىٰ البخاري (٨/ ١٢٠ برقم ٦٥٨٥) بسنده عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ: أَنَّهُ كَانَ يُحَدِّثُ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: " يَرِدُ عَلَيَّ يَوْمَ القِيَامَةِ رَهْطٌ مِنْ أَصْحَابِي، فَيُحَلَّئُونَ عَنِ الحَوْضِ، فَأَقُولُ: يَا رَبِّ أَصْحَابِي، فَيَقُولُ: إِنَّكَ لاَ عِلْمَ لَكَ بِمَا أَحْدَثُوا بَعْدَكَ، إِنَّهُمْ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ القَهْقَرَىٰ" .

وروىٰ البخاري (٨/ ١٢١ برقم ٦٥٩٣) بسنده عَنْ أَسْمَاءَ بِنْتِ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَتْ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " إِنِّي عَلَىٰ الحَوْضِ حَتَّىٰ أَنْظُرَ مَنْ يَرِدُ عَلَيَّ مِنْكُمْ، وَسَيُؤْخَذُ نَاسٌ دُونِي، فَأَقُولُ: يَا رَبِّ مِنِّي وَمِنْ أُمَّتِي، فَيُقَالُ: هَلْ شَعَرْتَ مَا عَمِلُوا بَعْدَكَ، وَاللَّهِ مَا بَرِحُوا يَرْجِعُونَ عَلَىٰ أَعْقَابِهِمْ " فَكَانَ ابْنُ أَبِي مُلَيْكَةَ، يَقُولُ: «اللَّهُمَّ إِنَّا نَعُوذُ بِكَ أَنْ نَرْجِعَ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا، أَوْ نُفْتَنَ عَنْ دِينِنَا» **﴿أَعْقَابِكُمْ تَنْكِصُونَ﴾** [المؤمنون: ٦٦] : «تَرْجِعُونَ عَلَىٰ العَقِبِ" .

قال الإمام النَّووي في " المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجَّاج " (٣/ ١٣٧) : " قَالَ الْإِمَامُ الْحَافِظُ أَبُو عَمْرِو بْنُ عَبْدِ الْبَرِّ كُلُّ مَنْ أَحْدَثَ فِي الدِّينِ فَهُوَ مِنَ الْمَطْرُودِينَ عَنِ الْحَوْضِ كَالْخَوَارِجِ وَالرَّوَافِضِ وَسَائِرِ

أَصْحَابِ الْأَهْوَاءِ قَالَ وَكَذَلِكَ الظَّلَمَةُ الْمُسْرِفُونَ فِي الْجَوْرِ وَطَمْسِ الْحَقِّ وَالْمُعْلِنُونَ بِالْكَبَائِرِ قَالَ وَكُلُّ هَؤُلَاءِ يُخَافُ عَلَيْهِمْ أَنْ يَكُونُوا مِمَّنْ عَنُوا بِهَذَا الْخَبَرِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ " .

وقال الإمام القرطبي في " التَّذكرة بأحوال الموتىٰ وأمور الآخرة "(ص٧١٠-٧١١) : " قال علماؤنا رحمة الله عليهم أجمعين: فكلُّ من ارتدَّ عن دين الله أو أحدث فيه ما لا يرضاه الله ولم يأذن به الله، فهو من المطرودين عن الحوض المُبعدين عنه، وأشدّهم طرداً من خالف جماعة المسلمين وفارق سبيلهم كالخوارج علىٰ اختلاف فرقها، والرَّوافض علىٰ تباين ضلالها، والمعتزلة علىٰ أصناف أهوائها ، فهؤلاء كلُّهم مبدِّلون، وكذلك الظَّلمة المسرفون في الجوْر والظُّلم وتطميس الحقّ، وقتل أهله وإذلالهم، والمعلنون بالكبائر المستخفُّون بالمعاصي ، وجماعة أهل الزَّيغ والأهواء والبدع . ثمَّ البعد قد يكون في حال ويقربون بعد المغفرة إن كان التَّبديل في الأعمال ولم يكن في العقائد " .

﴿سُؤالٌ﴾ : هَلِ اخْتصَّ نَبيُّنَا مُحَمَّدٌ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالْحَوْض ؟

الجواب : روىٰ التِّرمذيُّ (٤/ ٢٠٨ برقم ٢٤٤٣ ، وقال : هَذَا حَدِيثٌ غَرِيبٌ وَقَدْ رَوَىٰ الأَشْعَثُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ، هَذَا الحَدِيثَ عَنِ الحَسَنِ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُرْسَلاً وَلَمْ يَذْكُرْ فِيهِ عَنْ سَمُرَةَ وَهُوَ أَصَحُّ) ، ابن أبي عاصم في " السُّنَّة (٢/ ٣٤١ برقم ٧٣٤) ، الطَّبراني في "المعجم الكبير"(٧/ ٢١٢ برقم ٦٨٨١) ، مسند الشَّاميِّين (٤/ ٣٠ برقم ٢٦٤٧) بسندهم عَنْ سَمُرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنَّ لِكُلِّ نَبِيٍّ حَوْضًا وَإِنَّهُمْ يَتَبَاهَوْنَ أَيُّهُمْ أَكْثَرُ وَارِدَةً، وَإِنِّي أَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ وَارِدَةً.

وروىٰ ابن المبارك في " الزُّهد" (٢/ ١٢١) بسنده عَنِ الْحَسَنِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " إِنَّ لِكُلِّ نَبِيٍّ حَوْضًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّهُمْ لَيَتَبَاهَوْنَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَيُّهُمْ أَكْثَرُ وَارِدًا، فَيَدْعُو كُلُّ نَبِيٍّ إِلَيْهِ مَنْ يَعْرِفُ مِنْ أُمَّتِهِ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ وَارِدًا، فَإِنَّ لِي حَوْضًا مَا بَيْنَ طَرَفَيْهِ كَمَا بَيْنَ أَيْلَةَ إِلَىٰ مَكَّةَ، أَوْ عَمَّانَ وَصَنْعَاءَ، تُرَىٰ فِيهِ أَبَارِيقُ الذَّهَبِ، وَالْفِضَّةِ كَعَدَدِ نُجُومِ السَّمَاءِ، يَغُتُّ فِيهِ مِيزَابَانِ مِنَ الْجَنَّةِ، أَحَدُهُمَا مِنْ وَرِقٍ، وَالْآخَرُ مِنْ ذَهَبٍ، شَرَابُهُ أَشَدُّ بَيَاضًا مِنَ اللَّبَنِ، وَأَحْلَىٰ مِنَ الْعَسَلِ، مَنْ شَرِبَ مِنْهُ لَمْ يَظْمَأْ بَعْدَهُ أَبَدًا، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَيُرْفَعَنَّ إِلَيَّ أَقْوَامٌ مِمَّنْ صَحِبَنِي، حَتَّىٰ إِذَا رَأَيْتُهُمْ وَعَرَفْتُهُمُ اخْتُلِجُوا دُونِي، فَأَقُولُ: أَيْ رَبِّ، أَصْحَابِي أَصْحَابِي، فَيُقَالُ: إِنَّكَ لَا تَدْرِي مَا أَحْدَثُوا بَعْدَكَ" .

وقد ذكر الحافظ ابن حجر في " فتح الباري" (١١/ ٤٦٧) أَخْرَجَ التِّرْمِذِيُّ مِنْ حَدِيثِ سَمُرَةَ رَفَعَهُ إِنَّ لِكُلِّ نَبِيٍّ حَوْضًا وَأَشَارَ إِلَىٰ أَنَّهُ اخْتُلِفَ فِي وَصْلِهِ وَإِرْسَالِهِ وَأَنَّ الْمُرْسَلَ أَصَحُّ قلت والمرسل أخرجه بن أَبِي الدُّنْيَا بِسَنَدٍ صَحِيحٍ عَنِ الْحَسَنِ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " إِنَّ لِكُلِّ نَبِيٍّ حَوْضًا ، وَهُوَ

قَائِمٌ عَلَىٰ حَوْضِهِ بِيَدِهِ عَصًا يَدْعُو مَنْ عَرَفَ مِنْ أُمَّتِهِ ، إِلَّا أَنَّهُمْ يَتَبَاهَوْنَ أَيُّهُمْ أَكْثَرُ تَبَعًا ، وَإِنِّي لَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَبَعًا " ، وَأَخْرَجَهُ الطَّبَرَانِيُّ مِنْ وَجْهٍ آخَرَ عَنْ سَمُرَةَ مَوْصُولًا مَرْفُوعا مثله ، وَفِي سَنَده لين . وأخرج بن أَبِي الدُّنْيَا أَيْضًا مِنْ حَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ رَفَعَهُ : " وَكُلُّ نَبِيٍّ يَدْعُو أُمَّتَهُ ، وَلِكُلِّ نَبِيٍّ حَوْضٌ ، فَمِنْهُمْ مَنْ يَأْتِيهِ الْفِئَامُ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَأْتِيهِ الْعُصْبَةُ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَأْتِيهِ الْوَاحِدُ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَأْتِيهِ الِاثْنَانِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يَأْتِيهِ أَحَدٌ ، وَإِنِّي لَأَكْثَرُ الْأَنْبِيَاءِ تَبَعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ " ، وَفِي إِسْنَادِهِ لِينٌ ، وَإِنْ ثَبَتَ فَالْمُخْتَصُّ بِنَبِيِّنَا صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْكَوْثَرُ الَّذِي يُصَبُّ مِنْ مَائِهِ فِي حَوْضِهِ ، فَإِنَّهُ لَمْ يُنْقَلْ نَظِيرُهُ لِغَيْرِهِ ، وَوَقَعَ الِامْتِنَانُ عَلَيْهِ بِهِ فِي السُّورَةِ الْمَذْكُورة" .

﴿سُؤالٌ﴾ : مَا صِفَةُ الحَوْض ؟

الجواب : من خلال ما جاء في الأحاديث الصَّحيحة ، تبيَّن لنا أنَّ من صفات حوض الرَّسول صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنَّ : ماءه أبيض من اللبن ، وأنَّ ريحه أطيب من المسك ، وأنَّ طعمه أحلىٰ من العسل ، وأنَّ كيزانه – جمع كوز – كنجوم السَّماء ، كثرة وضياء ولمعاناً ، وأنَّه يصب فيه: ميزابان من الكوثر الجنَّة أحدهما: من ذهب، والآخر من فضة ، وأنَّ مَنْ يشرب منه شربة لا يظمأ بعدها أبداً...

﴿سُؤالٌ﴾ : هَلِ الحَوْضُ مَوْجُوْدٌ الآن ؟

الجواب : نعم ، الحوض موجود الآن، بدليل ما رواه البخاري (٢/ ٩١ برقم ١٣٤٤) ، مسلم (٤/ ١٧٩٥ برقم ٢٢٩٦) بسندهما عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ: أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَرَجَ يَوْمًا، فَصَلَّىٰ عَلَىٰ أَهْلِ أُحُدٍ صَلاَتَهُ عَلَىٰ المَيِّتِ، ثمَّ انْصَرَفَ إِلَىٰ المِنْبَرِ، فَقَالَ: «إِنِّي فَرَطٌ لَكُمْ، وَأَنَا شَهِيدٌ عَلَيْكُمْ، وَإِنِّي وَاللَّهِ لَأَنْظُرُ إِلَىٰ حَوْضِي الآنَ، وَإِنِّي أُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ خَزَائِنِ الأَرْضِ – أَوْ مَفَاتِيحَ الأَرْضِ – وَإِنِّي وَاللَّهِ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ أَنْ تُشْرِكُوا بَعْدِي، وَلَكِنْ أَخَافُ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنَافَسُوا فِيهَا" .

قال الحافظ ابن حجر في " فتح الباري" (١١/ ٤٧٥) : " قَوْلُهُ : " وَاللَّهِ إِنِّي لَأَنْظُرُ إِلَىٰ حَوْضِي الْآنَ " يَحْتَمِلُ أَنَّهُ كُشِفَ لَهُ عَنْهُ لَمَّا خَطَبَ ، وَهَذَا هُوَ الظَّاهِرُ ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يُرِيدُ رُؤْيَةَ الْقَلْبِ " .

﴿ الفَصْلُ الثَّامِنُ ﴾

۞۞۞ الصِّرَاط وَالقُنْطَرَةِ الخَاصَّةِ بِمَنْ جَازَ الصِّرَاطَ مِنَ المُؤمِنِيْن ۞۞۞

بعد الحوض يمرُّ النَّاس على الصِّراط، وهو جسرٌ منصوب فوق جهنَّم يعبر المسلمون عليه إلى الجنَّة ، ويكون النَّبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على الصِّراط يدعو فيَقُولُ: رَبِّ سَلِّمْ سَلِّمْ ، فقد روى مسلم (١/ ١٨٦ برقم ١٩٥) بسنده عَنْ أَبِي حَازِمٍ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، وَأَبُو مَالِكٍ، عَنْ رِبْعِيٍّ، عَنْ حُذَيْفَةَ، قَالَا: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " يَجْمَعُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى النَّاسَ، فَيَقُومُ الْمُؤْمِنُونَ حَتَّى تُزْلَفَ لَهُمُ الْجَنَّةُ، فَيَأْتُونَ آدَمَ، فَيَقُولُونَ: يَا أَبَانَا، اسْتَفْتِحْ لَنَا الْجَنَّةَ، فَيَقُولُ: وَهَلْ أَخْرَجَكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ إِلَّا خَطِيئَةُ أَبِيكُمْ آدَمَ، لَسْتُ بِصَاحِبِ ذَلِكَ، اذْهَبُوا إِلَى ابْنِي إِبْرَاهِيمَ خَلِيلِ اللهِ "، قَالَ: " فَيَقُولُ إِبْرَاهِيمُ: لَسْتُ بِصَاحِبِ ذَلِكَ، إِنَّمَا كُنْتُ خَلِيلًا مِنْ وَرَاءَ وَرَاءَ، اعْمِدُوا إِلَى مُوسَى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الَّذِي كَلَّمَهُ اللهُ تَكْلِيمًا، فَيَأْتُونَ مُوسَى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَيَقُولُ: لَسْتُ بِصَاحِبِ ذَلِكَ، اذْهَبُوا إِلَى عِيسَى كَلِمَةِ اللهِ وَرُوحِهِ، فَيَقُولُ عِيسَى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لَسْتُ بِصَاحِبِ ذَلِكَ، فَيَأْتُونَ مُحَمَّدًا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَيَقُومُ فَيُؤْذَنُ لَهُ، وَتُرْسَلُ الْأَمَانَةُ وَالرَّحِمُ، فَتَقُومَانِ جَنَبَتَيِ الصِّرَاطِ يَمِينًا وَشِمَالًا ، فَيَمُرُّ أَوَّلُكُمْ كَالْبَرْقِ " قَالَ: قُلْتُ: بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي أَيُّ شَيْءٍ كَمَرِّ الْبَرْقِ؟ قَالَ: " أَلَمْ تَرَوْا إِلَى الْبَرْقِ كَيْفَ يَمُرُّ وَيَرْجِعُ فِي طَرْفَةِ عَيْنٍ؟ ثُمَّ كَمَرِّ الرِّيحِ، ثُمَّ كَمَرِّ الطَّيْرِ، وَشَدِّ الرِّجَالِ، تَجْرِي بِهِمْ أَعْمَالُهُمْ وَنَبِيُّكُمْ قَائِمٌ عَلَى الصِّرَاطِ يَقُولُ: رَبِّ سَلِّمْ سَلِّمْ، حَتَّى تَعْجِزَ أَعْمَالُ الْعِبَادِ، حَتَّى يَجِيءَ الرَّجُلُ فَلَا يَسْتَطِيعُ السَّيْرَ إِلَّا زَحْفًا " .

وبعد اجتياز المؤمنين للصِّراط يقفون على قنطرة بين الجنَّة والنَّار ليُقتصّ لبعضهم من بعض ، فقد روى البخاري (٨/ ١١١ برقم ٦٥٣٥) بسنده عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يَخْلُصُ المُؤْمِنُونَ مِنَ النَّارِ، فَيُحْبَسُونَ عَلَى قَنْطَرَةٍ بَيْنَ الجَنَّةِ وَالنَّارِ، فَيُقَصُّ لِبَعْضِهِمْ مِنْ بَعْضٍ مَظَالِمُ كَانَتْ بَيْنَهُمْ فِي الدُّنْيَا، حَتَّى إِذَا هُذِّبُوا وَنُقُّوا أُذِنَ لَهُمْ فِي دُخُولِ الجَنَّةِ، فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَأَحَدُهُمْ أَهْدَى بِمَنْزِلِهِ فِي الجَنَّةِ مِنْهُ بِمَنْزِلِهِ كَانَ فِي الدُّنْيَا" .

ثمَّ يبدأؤون بدخول الجنَّة ، وأوَّل الخلق دخولاً هو الحبيب المصطفى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما رواه مسلم (١/ ١٨٨ برقم ١٩٧) بسنده عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " آتِي بَابَ الْجَنَّةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَسْتَفْتِحُ، فَيَقُولُ الْخَازِنُ: مَنْ أَنْتَ؟ فَأَقُولُ: مُحَمَّدٌ، فَيَقُولُ: بِكَ أُمِرْتُ لَا أَفْتَحُ لِأَحَدٍ قَبْلَكَ ... "

وحاصل ما تضمَّنه هذا الفصل ينتظم في أجوبة الأسئلة التَّالية :

﴿سُؤالٌ﴾ : مَا مَعْنَى الصِّرَاطَ لُغَةً وَاصْطِلَاحَاً ؟

الجواب : قال الإمام في " التَّصاريف لتفسير القرآن ممَّا اشتبهت أسمائه وتصرَّفت معانيه" (ص٣٣٠) : " تفسير الصِّراط على وجهين :

الوَجْهُ الأَوَّلُ: الصِّراط يعني الطَّريق ، وذلك قوله في سورة الأَعراف: **﴿وَلاَ تَقْعُدُواْ بِكُلِّ صِرَاطٍ﴾** ، يعني : بكل طريق **﴿تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ﴾** [الأعراف:٨٦] . وقال في سورة الصَّافَّات: **﴿مِنْ دُوْنِ اللهِ فَاهْدُوْهُم إلى صِرَاطِ﴾** ، يعني إلى طريق **﴿الجَحِيْم﴾** [الصافات:٢٣] ، وهي النَّار.

الوَجْهُ الثَّانِي: الصِّراط يعني الدِّين ، وذلك قوله: **﴿اهْدِنَا الصِّراطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾** [الفاتحة:٦] ، يعني الدِّين المستقيم. وقال في سورة الأَنعام: **﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً﴾** [الأنعام:١٥٣] ، يعني ديني مستقيماً. وقال أيضاً: **﴿وَهَذَا صِرَاطُ رَبِّكَ﴾** يعني دين ربِّك، **﴿مُسْتَقِيماً﴾** [الأنعام:١٢٦] ، ونحوه كثير" .

وقال الإمام ابن فارس في " معجم مقاييس اللغة " (٣/ ٣٤٩) : " الصَّادُ وَالرَّاءُ وَالطَّاءُ ، وَهُوَ مِنْ بَابِ الْإِبْدَالِ، وَقَدْ ذُكِرَ فِي السِّينِ، وَهُوَ الطَّرِيقُ. قَالَ:

أَكُرُّ عَلَى الْحَرُورِيِّينَ مُهْرِي ... وَأَحْمِلُهُمْ عَلَى وَضَحِ الصِّرَاطِ

وقال الإمام ابن منظور في " " (٧/ ٣٤٠) : " الْجَوْهَرِيُّ: الصراطُ والسّراطُ والزّراطُ الطَّرِيقُ؛ قَالَ الشَّاعِرُ:

أَكُرُّ عَلَى الحَرُورِيِّينَ مُهْرِي ... وأَحْمِلُهم عَلَى وَضَحِ الصِّراطِ."

وقال الإمام ابن منظور في "لسان العرب " (٧/ ٣١٤) : " الصِّرَاطَ وَالسِّرَاطَ، قَالَ: وَهِيَ بِالصَّادِ لُغَةُ قُرَيْشٍ الأَوّلين الَّتِي جَاءَ بِهَا الْكِتَابُ، قَالَ: وَعَامَّةُ الْعَرَبِ تَجْعَلُهَا سِينًا، وَقِيلَ: إنما قِيلَ لِلطَّرِيقِ الْوَاضِحِ سِرَاطٌ لأَنه كأَنه يَسْتَرِطُ المارّة لكثرة سلوكهم لاحِبَه" .

وقال الإمام الزَّبيدي في " تاج العروس من جواهر القاموس" (١٩/ ٣٤٥) : " والسِّرَاطُ، بالكَسْرِ: السَّبيلُ الواضحُ، وَبِه فُسِّر قَوْله تَعَالَىٰ اهْدِنا السِّراطَ المُسْتَقيم أَي ثَبِّتْنا عَلَى المِنْهاجِ الواضِحِ، كَمَا قالَهُ الأَزْهَرِيّ، وإِنَّما سُمِّي بِهِ لأَنَّ الذَّاهِبَ فِيهِ يَغيبُ غَيْبَةَ الطَّعامِ المُسْتَرَط. وقِيل: لأَنَّه كانَ يَسْتَرِطُ المارَّة لكثْرَة سُلُوكِهم لاحِبَهُ. قُلْتُ: فعلىٰ الأَوَّل كأَنَّه يبتلِعُ السَّالِكَ فِيهِ، وعَلىٰ الثَّاني يَبْتَلِعُه السَّالِكُ" .

والصِّراط اصطلاحاً : جسرٌ يُنصب يوم القيامة علىٰ جهنَّم ، كي يجتاز عليه المكلَّفون في طريقهم إلىٰ الجنَّة أو النَّار ، فمنهم من يمرَّ كطرف العين، ومنهم من يمرُّ عليه كالبرق، ومنهم كالرِّيح، ومنهم كالطَّير، ومنهم كأجاويد الخيل والرّكاب، ومنهم من تنزلق قدمه فيهوي في النَّار...

﴿سُؤالٌ﴾ : مَا صِفَةُ الصِّرَاط ؟

الجواب : جاء في السُّنَّة العديد من صفات الصِّراط ، وهي:

أَوَّلاً : أَنَّه زَلق : فقد جاء في رواية البخاري (٩/ ١٢٩ برقم ٧٤٣٩) : " ... ثُمَّ يُؤْتَىٰ بِالْجَسْرِ فَيُجْعَلُ بَيْنَ ظَهْرَيْ جَهَنَّمَ "، قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَا الجَسْرُ؟ قَالَ: " مَدْحَضَةٌ مَزِلَّةٌ " .

قال الإمام ابن بطَّال في " شرح صحيح البخاري " (١٠/ ٤٧٠) : " وقوله: الجسر "مَدْحَضَةٌ مَزِلَّةٌ" . يقال دحضت رِجله دحضًا زلفت، والدَّحض ما يكون عنه الزَّلق، ودحضت الشَّمس عن كبد السَّماء: زالت، ودحضت حجَّته: بطلت، والمزلَّة: موضع الزلَّل، فزلَّت القدم: سقطت."

وقال الحافظ ابن حجر في " فتح الباري" (١٣/ ٤٢٩) : " وَقَوْلُهُ : قَالَ مَدْحَضَةٌ مَزِلَّةٌ بِفَتْحِ الْمِيمِ وَكَسْرِ الزَّايِ وَيَجُوزُ فَتْحُهَا وَتَشْدِيدُ اللَّامِ ، قَالَ : أَيْ مَوْضِعُ الزَّلَلِ ، وَيُقَالُ بِالْكَسْرِ فِي الْمَكَانِ وَبِالْفَتْحِ فِي الْمَقَالِ ، وَوَقَعَ فِي رِوَايَةِ أَبِي ذَرٍّ عَنِ الْكُشْمِيهَنِيِّ هُنَا الدَّحْضُ الزَّلَقُ لِيَدْحَضُوا لِيَزْلَقُوا زَلَقًا لَا يَثْبُتُ فِيهِ قَدَمٌ" .

وقال الإمام العيني في " عمدة القاري شرح صحيح البخاري " (٢٥/ ١٢٩) : " قَوْله: مدحضة من دحضت رِجله دحضاً زلقت، ودحضت الشَّمْس عَن كبد السَّمَاء زَالَت، ودحضت حجَّته بطلت. قَوْله: مزلَّة من زلَّت الْأَقْدَام سَقَطت. وَقَالَ الْكرْمَانِي: مزلَّة بِكَسْر الزَّاي وَفتحهَا بِمَعْنىٰ المزلقة، أَي: مَوضِع تزلق فِيهِ الْأَقْدَام، ومدحضة أَي: مَحل ميل الشَّخْص، وهما بِفَتْح الْمِيم ومعناهما متقاربان " .

ثَانِيَاً : أَنَّهُ لَهُ جَنْبَتَان ، أَيْ : حَافَّتَان : فقد روىٰ أحمد في " المسند" (٣٤/ ٩٠ برقم ٢٠٤٤٠) بسنده عَنْ أَبِي بَكْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: " يُحْمَلُ النَّاسُ عَلَىٰ الصِّرَاطِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَتَقَادَعُ بِهِمْ جَنَبَتَا الصِّرَاطِ تَقَادُعَ الْفَرَاشِ فِي النَّارِ "، قَالَ: " فَيُنْجِي اللهُ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ "، قَالَ: " ثُمَّ يُؤْذَنُ لِلْمَلَائِكَةِ وَالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ أَنْ يَشْفَعُوا فَيَشْفَعُونَ، وَيُخْرِجُونَ وَيَشْفَعُونَ، وَيُخْرِجُونَ وَيَشْفَعُونَ، وَيُخْرِجُونَ " . قال الأرنؤوط :

" إسناده حسن، أبو سليمان العَصَري ذكره البخاري في "الكنىٰ" ص ٣٧، وابن أبي حاتم في "الجرح والتعديل" ٩/ ٣٨٠، وسمي في بعض روايات الحديث: كعب بن شبيب، وكذا سماه الدولابي في "الكنىٰ"، والسمعاني في "الأنساب"، وقد روىٰ عنه سعيد بن زيد، ولا يُعرف له راوٍ غيره، ووثقه ابن معين كما روىٰ ابن أبي حاتم في "الجرح والتعديل". قلنا: ولم يذكره الحافظان الحسيني وابن حجر في "الإكمال" و"التعجيل"، مع أنه من شرطهما. وسعيد بن زيد: هو ابن درهم أخو حماد بن زيد، وهو صدوق حسن الحديث، ومحمد بن أبان شيخ عبد الله بن أحمد في إسناده المذكور في آخر الحديث: هو الواسطي كما صرح به عند ابن أبي عاصم في "السنة" (٨٣٧) ، وهو صدوق لا بأس به، وقد تابعه عفان في إسناد أحمد، وباقي رجاله ثقات رجال الشيخين. وأخرجه ابن أبي شيبة ١٣/ ١٧٧-١٧٨، والبزار (٣٦٧١) ، وابن أبي عاصم في "السنة" (٨٣٨) ، والطبراني في "الصغير" (٩٢٩) من طريق عفان بن مسلم، بهذا الإسناد. وأخرجه ابن أبي عاصم في "السنة" (٨٣٧) من طريق محمد بن أبان الواسطي، به. وأخرجه البخاري في "الكنىٰ" ص ٣٧ عن موسىٰ بن إسماعيل التبوذكي، والبزار (٣٦٩٧) ، والدولابي في "الكنىٰ" ١/ ١٩٥ من طريق معاذ بن هانئ، كلاهما عن سعيد بن زيد، به. وسمي أبو سليمان العصري في رواية معاذ بن هانئ كعب بن شبيب. وفي الباب عن أبي بكر، سلف برقم (١٥) . وعن أبي هريرة، سلف برقم (٧٧١٧) . وفي باب تقادع الناس عن الصراط عن أبي هريرة وحذيفة بن اليمان عند مسلم (١٩٥) . وعن ابن مسعود عند الترمذي (٣١٥٩) . قوله: "تَقادعُ" مخفف من "تتقادعُ"، قال ابن الأثير في "النهاية"، أي: تُسقِطُهم فيها بعضهم فوق بعض، وتقادَعَ القوم: إذا مات بعضهم إثر بعض.وأصل القدع: الكف والمنع " .

ثَالِثَاً : عَلَىٰ جَانِبَيْهِ خَطَاطِيفُ وَكَلَالِيبُ : فقد جاء في رواية البخاري (٩/ ١٢٩ برقم ٧٤٣٩) : " عَلَيْهِ خَطَاطِيفُ وَكَلاَلِيبُ، وَحَسَكَةٌ مُفَلْطَحَةٌ لَهَا شَوْكَةٌ عُقَيْفَاءُ، تَكُونُ بِنَجْدٍ، يُقَالُ لَهَا: السَّعْدَانُ " .

قال الإمام النَّووي في " المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجَّاج " (٣/ ٢٩) : " أَمَّا الْخَطَاطِيفُ فَجَمْعُ خُطَّافٍ بِضَمِّ الْخَاءِ فِي الْمُفْرَدِ وَالْكَلَالِيبُ بِمَعْنَاهُ وَقَدْ تَقَدَّمَ بَيَانُهُمَا وَأَمَّا الْحَسَكُ فَبِفَتْحِ الْحَاءِ وَالسِّينِ الْمُهْمَلَتَيْنِ وَهُوَ شَوْكٌ صُلْبٌ مِنْ حَدِيدٍ" .

وقال الحافظ ابن حجر في " فتح الباري" (١١/ ٤٥٣) : " قَالَ الزَّيْنُ بْنُ الْمُنِيرِ : تَشْبِيهُ الْكَلَالِيبِ بِشَوْكِ السَّعْدَانِ خَاصٌّ بِسُرْعَةِ اخْتِطَافِهَا وَكَثْرَةِ الِانْتِشَابِ فِيهَا مَعَ التَّحَرُّزِ وَالتَّصَوُّنِ ، تَمْثِيلًا لَهُمْ بِمَا عَرَفُوهُ فِي الدُّنْيَا وَأَلِفُوهُ بِالْمُبَاشَرَةِ" .

وقال الإمام العيني في " عمدة القاري شرح صحيح البخاري " (٢٣/ ١٣٤) : " قَوْله: (وَبِهِ كَلَالِيب) جمع كَلوب كتنور وَالضَّمِير فِي: بِهِ، يرجع إِلَىٰ الجسر، وَفِي رِوَايَة شُعَيْب: وَفِي جَهَنَّم كَلَالِيب، وَفِي رِوَايَة

حُذَيْفَة وَأبي هُرَيْرَة مَعًا: وَفِي حافتي الصِّرَاط كَلالِيْب معلَّقَة مأمورة تَأْخُذ من أمرت بِهِ. قَوْله: (مثْل شَوْكِ السَّعْدَان) بِلَفْظ التَّثْنِيَة وَهُوَ جمـــع سعدانة وَهُوَ نبت ذُو شوك يضْرب بِهِ الْمثل فِي طيب مرعاه، قَالُوا: مرعىٰ وَلَا كالسَّعدان".

﴿سُؤالٌ﴾ : هَلْ صَحِيْحٌ أَنَّ الصِّرَاطَ أَدَقُّ مِنَ الشَّعْرِ وَأَحَدُّ مِنَ السَّيْف ؟

الجواب : هذا الوصف للصِّراط لم تثبُت صحَّته ، ولم يأت في حديث صحيح ... وقد ناقش الفكرة الحافظ ابن حجر في "فتح الباري" (١١/ ٤٥٤)، فقال : "وَقَعَ عِنْدَ مُسْلِمٍ ، قَالَ أَبُو سَعِيدٍ : بَلَغَنِي أَنَّ الصِّرَاطَ أَحَدُّ مِنَ السَّيْفِ وَأَدَقُّ مِنَ الشَّعْرَةِ ، وَوَقَعَ فِي رِوَايَةِ بن مَنْدَهْ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ ، قَالَ سَعِيدُ بْنُ أَبِي هِلَالٍ : بَلَغَنِي ، وَوَصَلَهُ الْبَيْهَقِيُّ عَنْ أَنَسٍ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَجْزُومًا بِهِ ، وَفِي سَنَدِهِ لِينٌ، وَلِابْنِ الْمُبَارَكِ عَنْ مُرْسَلِ عُبَيْدِ بْنِ عُمَيْرٍ : إِنَّ الصِّرَاطَ مِثْلُ السَّيْفِ وَبِجَنْبَتَيْهِ كَلَالِيبُ ، إِنَّهُ لَيُؤْخَذُ بِالْكَلُّوبِ الْوَاحِدِ أكثر من ربيعَة ومُضر ، وَأخرجه بن أَبِي الدُّنْيَا مِنْ هَذَا الْوَجْهِ ، وَفِيهِ : وَالْمَلَائِكَةُ عَلَىٰ جَنْبَتَيْهِ يَقُولُونَ : رَبِّ سَلِّمْ سَلِّمْ .

وَجَاءَ عَنِ الْفُضَيْلِ بْنِ عِيَاضٍ ، قَالَ : بَلَغَنَا أَنَّ الصِّرَاطَ مَسِيرَةُ خَمْسَةَ عَشَرَ أَلْفَ سَنَةٍ ، خَمْسَةُ آلَافٍ صُعُودٌ ، وَخَمْسَةُ آلَافٍ هُبُوطٌ ، وَخَمْسَةُ آلَافٍ مُسْتَوىٰ ، أَدَقُّ مِنَ الشَّعْرَةِ وَأَحَدُّ مِنَ السَّيْفِ ، عَلَىٰ مَتْنِ جَهَنَّمَ ، لَا يَجُوزُ عَلَيْهِ إِلَّا ضامر مهزول من خشيَة الله . أخرجه بن عَسَاكِرَ فِي تَرْجَمَتِهِ ، وَهَذَا مُعْضَلٌ لَا يَثْبُتُ ، وَعَنْ سَعِيدِ بْنِ أَبِي هِلَالٍ ، قَالَ : بَلَغَنَا أَنَّ الصِّرَاطَ أَدَقُّ مِنَ الشَّعْرِ عَلَىٰ بَعْضِ النَّاسِ ، وَلِبَعْضِ النَّاسِ مِثْلُ الْوَادِي الْوَاسِعِ . أَخْرَجَهُ بن الْمُبَارك وبن أَبِي الدُّنْيَا ، وَهُوَ مُرْسَلٌ أَوْ مُعْضَلٌ . وَأَخْرَجَ الطَّبَرِيُّ مِنْ طَرِيقِ غُنَيْمِ بْنِ قَيْسٍ أَحَدِ التَّابِعِينَ ، قَالَ : تُمَثَّلُ النَّارُ لِلنَّاسِ ثمَّ يُنَادِيهَا مُنَادٍ : أَمْسِكِي أَصْحَابَكِ وَدَعِي أَصْحَابِي ، فَتَخْسِفُ بِكُلِّ وَلِيٍّ لَهَا ، فَهِيَ أَعْلَمُ بِهِمْ مِنَ الرَّجُلِ بِوَلَدِهِ ، وَيَخْرُجُ الْمُؤْمِنُونَ نَدِيَّةً ثِيَابُهُمْ ، وَرِجَالُهُ ثِقَاتٌ مَعَ كَوْنِهِ مَقْطُوعًا" .

وقال الإمام البيهقي في "شعب الإيمان" (١/ ٥٦٥) : "قَالَ الْحَلِيمِيُّ رَحِمَهُ اللهُ: "قَوْلُهُ فِي الصِّرَاطِ أَنَّهُ أَدَقُّ مِنَ الشَّعْرَةِ مَعْنَاهُ، أَنَّ أَمْرَ الصِّرَاطِ، وَالْجَوَازِ عَلَيْهِ أَدَقُّ مِنَ الشَّعْرِ ، أَيْ : يَكُونُ يُسْرُهُ وَعُسْرُهُ عَلَىٰ قَدْرِ الطَّاعَاتِ وَالْمَعَاصِي، وَلَا يَعْلَمُ حُدُودَ ذَلِكَ إِلَّا اللهُ عَزَّ وَجَلَّ لِخَفَائِهَا وَغُمُوضِهَا ، وَقَدْ جَرَتِ الْعَادَةُ بِتَسْمِيَةِ الغامِضِ الْخَفِيِّ دَقِيقًا، وَضَرَبَ الْمَثَلَ لَهُ بِدِقَّةِ الشَّعْرَةِ، وَقَوْلُهُ: "إِنَّهُ أَحَدُّ مِنَ السَّيْفِ" ، فَقَدْ يَكُونُ مَعْنَاهُ، وَاللهُ أَعْلَمُ أَنَّ الْأَمْرَ الدَّقِيقَ الَّذِي يَصْدُرُ مِنْ عِنْدِ اللهِ إِلَىٰ الْمَلَائِكَةِ فِي إِجَازَةِ النَّاسِ عَلَىٰ الصِّرَاطِ يَكُونُ فِي نَفَاذِ حَدِّ السَّيْفِ وَمُضِيِّهِ اسراعا مِنْهُمْ إِلَىٰ طَاعَتِهِ، وَامْتِثَالِهِ وَلَا يَكُونُ لَهُ مَرَدٌّ كَمَا أَنَّ السَّيْفَ إِذَا نفذ بِحَدِّهِ

وَقُوَّةِ ضَارِبِهِ فِي شَيْءٍ لَمْ يَكُنْ لَهُ بَعْدَ ذَلِكَ مَرَدٌّ " . قَـالَ الْبَيْهَقِيُّ رَحِمَهُ اللهُ: " وَهَذَا اللَّفْظُ مِنَ الْحَدِيثِ لَمْ أَجِدْهُ فِي الرِّوَايَاتِ الصَّحِيحَةِ " .

وقال الإمام القرطبي في " التَّذكرة بأحوال الموتىٰ وأمور الآخرة " (ص٧٥٨) : " ذهب بعض من تكلَّم علىٰ أحاديث هذا الباب في وصف الصِّراط بأنَّه أدقُّ من الشَّعر وأحدُّ من السَّيف أنَّ ذلك راجعٌ إلىٰ يُسره وعُسره علىٰ قدر الطَّاعات والمعاصي.

ولا يعلم حدود ذلك إلَّا الله تعالىٰ لخفائها وغموضها .وقد جرت العادة بتسمية الغامض الخفي: دقيق ، فضرب المثل له بدقة الشَّعر ، فهذا والله أعلم من هذا الباب.

ومعنىٰ قوله: «وَأَحَدُّ مِنَ السَّيْفِ» : أنَّ الأمر الدَّقيق الذي يصعد من عند الله تعالىٰ إلىٰ الملائكة في إجازة النَّاس علىٰ الصِّراط يكون في نفاذ حدِّ السَّيف ومضيه إسراعاً منهم إلىٰ طاعته وامتثاله.

ولا يكون له مردّ ، كما أنَّ السَّيف إذا نفذ بحدِّه وقوَّة ضاربة في شيء لم يكن له بعد ذلك مرد.

وإمَّا أن يقال: إنَّ الصِّراط نفسه أحّد من السَّيف وأدقّ من الشَّعر، فذلك مدفوع بما وصف من أنَّ الملائكة يقومون بجنبيه ، وأنَّ فيه كلاليب وحسكاً ، أي : أنَّ من يمرّ عليه يقع علىٰ بطنه، ومنهم من يزل ثمَّ يقوم.

وفيه أنَّ من الذين يمرُّون عليه من يُعطىٰ النُّور بقدْر موضع قدميه.

وفي ذلك إشارة إلىٰ أنَّ للمارِّين عليه موطئ الأقدام ، ومعلوم أنَّ دقَّة الشَّعر لا يحتمل هذا كلّه.

وقال بعض الحفَّاظ: إنَّ هذه اللفظة ليست ثابتة " .

﴿سُؤالٌ﴾ : مَا هِيَ أَدِلَّةُ الصِّرَاط ؟

الجواب : روىٰ البخاري (٩/ ١٢٩ برقم ٧٤٣٩) بسنده عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ، قَالَ: قُلْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ هَلْ نَرَىٰ رَبَّنَا يَوْمَ القِيَامَةِ؟ قَالَ: «هَلْ تُضَارُونَ فِي رُؤْيَةِ الشَّمْسِ وَالقَمَرِ إِذَا كَانَتْ صَحْوًا؟» ، قُلْنَا: لاَ، قَالَ: «فَإِنَّكُمْ لاَ تُضَارُونَ فِي رُؤْيَةِ رَبِّكُمْ يَوْمَئِذٍ، إِلَّا كَمَا تُضَارُونَ فِي رُؤْيَتِهِمَا» ثُمَّ قَالَ: " يُنَادِي مُنَادٍ: لِيَذْهَبْ كُلُّ قَوْمٍ إِلَىٰ مَا كَانُوا يَعْبُدُونَ، فَيَذْهَبُ أَصْحَابُ الصَّلِيبِ مَعَ صَلِيبِهِمْ، وَأَصْحَابُ الأَوْثَانِ مَعَ أَوْثَانِهِمْ، وَأَصْحَابُ كُلِّ آلِهَةٍ مَعَ آلِهَتِهِمْ، حَتَّىٰ يَبْقَى مَنْ كَانَ يَعْبُدُ اللَّهَ، مِنْ بَرٍّ أَوْ فَاجِرٍ، وَغُبَّرَاتٌ مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ، ثُمَّ يُؤْتَىٰ بِجَهَنَّمَ تُعْرَضُ كَأَنَّهَا سَرَابٌ، فَيُقَالُ لِلْيَهُودِ: مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ؟ قَالُوا: كُنَّا نَعْبُدُ عُزَيْرَ ابْنَ اللَّهِ، فَيُقَالُ: كَذَبْتُمْ ، لَمْ يَكُنْ لِلَّهِ صَاحِبَةٌ وَلاَ وَلَدٌ، فَمَا تُرِيدُونَ؟ قَالُوا: نُرِيدُ أَنْ تَسْقِيَنَا، فَيُقَالُ: اشْرَبُوا، فَيَتَسَاقَطُونَ فِي جَهَنَّمَ، ثُمَّ يُقَالُ لِلنَّصَارَىٰ: مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ؟ فَيَقُولُونَ: كُنَّا نَعْبُدُ المَسِيحَ ابْنَ اللَّهِ، فَيُقَالُ: كَذَبْتُمْ، لَمْ يَكُنْ لِلَّهِ

صَاحِبَةٌ، وَلاَ وَلَدٌ، فَمَا تُرِيدُونَ؟ فَيَقُولُونَ: نُرِيدُ أَنْ تَسْقِيَنَا، فَيُقَالُ: اشْرَبُوا فَيَتَسَاقَطُونَ فِي جَهَنَّمَ، حَتَّى يَبْقَى مَنْ كَانَ يَعْبُدُ اللَّهَ مِنْ بَرٍّ أَوْ فَاجِرٍ، فَيُقَالُ لَهُمْ: مَا يَحْبِسُكُمْ وَقَدْ ذَهَبَ النَّاسُ؟ فَيَقُولُونَ: فَارَقْنَاهُمْ، وَنَحْنُ أَحْوَجُ مِنَّا إِلَيْهِ اليَوْمَ، وَإِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي: لِيَلْحَقْ كُلُّ قَوْمٍ بِمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ، وَإِنَّمَا نَنْتَظِرُ رَبَّنَا، قَالَ: فَيَأْتِيهِمُ الجَبَّارُ فِي صُورَةٍ غَيْرِ صُورَتِهِ الَّتِي رَأَوْهُ فِيهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ، فَيَقُولُ: أَنَا رَبُّكُمْ، فَيَقُولُونَ: أَنْتَ رَبُّنَا، فَلاَ يُكَلِّمُهُ إِلَّا الأَنْبِيَاءُ، فَيَقُولُ: هَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ آيَةٌ تَعْرِفُونَهُ؟ فَيَقُولُونَ: السَّاقُ، فَيَكْشِفُ عَنْ سَاقِهِ، فَيَسْجُدُ لَهُ كُلُّ مُؤْمِنٍ، وَيَبْقَى مَنْ كَانَ يَسْجُدُ لِلَّهِ رِيَاءً وَسُمْعَةً، فَيَذْهَبُ كَيْمَا يَسْجُدَ، فَيَعُودُ ظَهْرُهُ طَبَقًا وَاحِدًا، ثُمَّ يُؤْتَى بِالْجَسْرِ فَيُجْعَلُ بَيْنَ ظَهْرَيْ جَهَنَّمَ "، قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَا الجَسْرُ؟ قَالَ: " مَدْحَضَةٌ مَزِلَّةٌ، عَلَيْهِ خَطَاطِيفُ وَكَلاَلِيبُ، وَحَسَكَةٌ مُفَلْطَحَةٌ لَهَا شَوْكَةٌ عُقَيْفَاءُ، تَكُونُ بِنَجْدٍ، يُقَالُ لَهَا: السَّعْدَانُ، المُؤْمِنُ عَلَيْهَا كَالطَّرْفِ وَكَالْبَرْقِ وَكَالرِّيحِ، وَكَأَجَاوِيدِ الخَيْلِ وَالرِّكَابِ، فَنَاجٍ مُسَلَّمٌ، وَنَاجٍ مَخْدُوشٌ، وَمَكْدُوسٌ فِي نَارِ جَهَنَّمَ، حَتَّى يَمُرَّ آخِرُهُمْ يُسْحَبُ سَحْبًا، فَمَا أَنْتُمْ بِأَشَدَّ لِي مُنَاشَدَةً فِي الحَقِّ، قَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنَ المُؤْمِنِ يَوْمَئِذٍ لِلْجَبَّارِ، وَإِذَا رَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ نَجَوْا، فِي إِخْوَانِهِمْ، يَقُولُونَ: رَبَّنَا إِخْوَانُنَا، كَانُوا يُصَلُّونَ مَعَنَا، وَيَصُومُونَ مَعَنَا، وَيَعْمَلُونَ مَعَنَا، فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: اذْهَبُوا، فَمَنْ وَجَدْتُمْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالَ دِينَارٍ مِنْ إِيمَانٍ فَأَخْرِجُوهُ، وَيُحَرِّمُ اللَّهُ صُوَرَهُمْ عَلَى النَّارِ، فَيَأْتُونَهُمْ وَبَعْضُهُمْ قَدْ غَابَ فِي النَّارِ إِلَى قَدَمِهِ، وَإِلَى أَنْصَافِ سَاقَيْهِ، فَيُخْرِجُونَ مَنْ عَرَفُوا، ثُمَّ يَعُودُونَ، فَيَقُولُ: اذْهَبُوا فَمَنْ وَجَدْتُمْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالَ نِصْفِ دِينَارٍ فَأَخْرِجُوهُ، فَيُخْرِجُونَ مَنْ عَرَفُوا، ثُمَّ يَعُودُونَ، فَيَقُولُ: اذْهَبُوا فَمَنْ وَجَدْتُمْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ مِنْ إِيمَانٍ فَأَخْرِجُوهُ، فَيُخْرِجُونَ مَنْ عَرَفُوا " قَالَ أَبُو سَعِيدٍ: فَإِنْ لَمْ تُصَدِّقُونِي فَاقْرَءُوا: **﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا﴾** [النساء: ٤٠] ،" فَيَشْفَعُ النَّبِيُّونَ وَالمَلاَئِكَةُ وَالمُؤْمِنُونَ، فَيَقُولُ الجَبَّارُ: بَقِيَتْ شَفَاعَتِي، فَيَقْبِضُ قَبْضَةً مِنَ النَّارِ، فَيُخْرِجُ أَقْوَامًا قَدِ امْتُحِشُوا، فَيُلْقَوْنَ فِي نَهَرٍ بِأَفْوَاهِ الجَنَّةِ، يُقَالُ لَهُ: مَاءُ الحَيَاةِ، فَيَنْبُتُونَ فِي حَافَتَيْهِ كَمَا تَنْبُتُ الحِبَّةُ فِي حَمِيلِ السَّيْلِ، قَدْ رَأَيْتُمُوهَا إِلَى جَانِبِ الصَّخْرَةِ، وَإِلَى جَانِبِ الشَّجَرَةِ، فَمَا كَانَ إِلَى الشَّمْسِ مِنْهَا كَانَ أَخْضَرَ، وَمَا كَانَ مِنْهَا إِلَى الظِّلِّ كَانَ أَبْيَضَ، فَيَخْرُجُونَ كَأَنَّهُمُ اللُّؤْلُؤُ، فَيُجْعَلُ فِي رِقَابِهِمُ الخَوَاتِيمُ، فَيَدْخُلُونَ الجَنَّةَ، فَيَقُولُ أَهْلُ الجَنَّةِ: هَؤُلاَءِ عُتَقَاءُ الرَّحْمَنِ، أَدْخَلَهُمُ الجَنَّةَ بِغَيْرِ عَمَلٍ عَمِلُوهُ، وَلاَ خَيْرٍ قَدَّمُوهُ، فَيُقَالُ لَهُمْ: لَكُمْ مَا رَأَيْتُمْ وَمِثْلَهُ مَعَهُ" .

والحديث رواه مسلم (١/ ١٦٧ برقم ١٨٣) بسنده عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ، أَنَّ نَاسًا فِي زَمَنِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، هَلْ نَرَى رَبَّنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «نَعَمْ» قَالَ: «هَلْ تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ الشَّمْسِ بِالظَّهِيرَةِ صَحْوًا لَيْسَ مَعَهَا سَحَابٌ؟ وَهَلْ تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ الْقَمَرِ

لَيْلَةَ الْبَدْرِ صَحْوًا لَيْسَ فِيهَا سَحَابٌ؟» قَالُوا: لَا يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: " مَا تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَّا كَمَا تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ أَحَدِهِمَا، إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ لِيَتَّبِعْ كُلُّ أُمَّةٍ مَا كَانَتْ تَعْبُدُ، فَلَا يَبْقَىٰ أَحَدٌ كَانَ يَعْبُدُ غَيْرَ اللهِ سُبْحَانَهُ مِنَ الْأَصْنَامِ وَالْأَنْصَابِ إِلَّا يَتَسَاقَطُونَ فِي النَّارِ، حَتَّىٰ إِذَا لَمْ يَبْقَ إِلَّا مَنْ كَانَ يَعْبُدُ اللهَ مِنْ بَرٍّ وَفَاجِرٍ وَغُبَّرِ أَهْلِ الْكِتَابِ، فَيُدْعَىٰ الْيَهُودُ، فَيُقَالُ لَهُمْ: مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ؟ قَالُوا: كُنَّا نَعْبُدُ عُزَيْرَ ابْنَ اللهِ، فَيُقَالُ: كَذَبْتُمْ مَا اتَّخَذَ اللهُ مِنْ صَاحِبَةٍ وَلَا وَلَدٍ، فَمَاذَا تَبْغُونَ؟ قَالُوا: عَطِشْنَا يَا رَبَّنَا، فَاسْقِنَا، فَيُشَارُ إِلَيْهِمْ أَلَا تَرِدُونَ؟ فَيُحْشَرُونَ إِلَىٰ النَّارِ كَأَنَّهَا سَرَابٌ يَحْطِمُ بَعْضُهَا بَعْضًا، فَيَتَسَاقَطُونَ فِي النَّارِ، ثُمَّ يُدْعَىٰ النَّصَارَىٰ، فَيُقَالُ لَهُمْ: مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ؟ قَالُوا: كُنَّا نَعْبُدُ الْمَسِيحَ ابْنَ اللهِ، فَيُقَالُ لَهُمْ، كَذَبْتُمْ مَا اتَّخَذَ اللهُ مِنْ صَاحِبَةٍ وَلَا وَلَدٍ، فَيُقَالُ لَهُمْ: مَاذَا تَبْغُونَ؟ فَيَقُولُونَ: عَطِشْنَا يَا رَبَّنَا، فَاسْقِنَا، قَالَ: فَيُشَارُ إِلَيْهِمْ أَلَا تَرِدُونَ؟ فَيُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ كَأَنَّهَا سَرَابٌ يَحْطِمُ بَعْضُهَا بَعْضًا، فَيَتَسَاقَطُونَ فِي النَّارِ حَتَّىٰ إِذَا لَمْ يَبْقَ إِلَّا مَنْ كَانَ يَعْبُدُ اللهَ تَعَالَىٰ مِنْ بَرٍّ وَفَاجِرٍ أَتَاهُمْ رَبُّ الْعَالَمِينَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فِي أَدْنَىٰ صُورَةٍ مِنَ الَّتِي رَأَوْهُ فِيهَا قَالَ: فَمَا تَنْتَظِرُونَ؟ تَتْبَعُ كُلُّ أُمَّةٍ مَا كَانَتْ تَعْبُدُ، قَالُوا: يَا رَبَّنَا، فَارَقْنَا النَّاسَ فِي الدُّنْيَا أَفْقَرَ مَا كُنَّا إِلَيْهِمْ، وَلَمْ نُصَاحِبْهُمْ، فَيَقُولُ: أَنَا رَبُّكُمْ، فَيَقُولُونَ: نَعُوذُ بِاللهِ مِنْكَ لَا نُشْرِكُ بِاللهِ شَيْئًا مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا، حَتَّىٰ إِنَّ بَعْضَهُمْ لَيَكَادُ أَنْ يَنْقَلِبَ، فَيَقُولُ: هَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ آيَةٌ فَتَعْرِفُونَهُ بِهَا؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ، فَيُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ فَلَا يَبْقَىٰ مَنْ كَانَ يَسْجُدُ لِلَّهِ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِهِ إِلَّا أَذِنَ اللهُ لَهُ بِالسُّجُودِ، وَلَا يَبْقَىٰ مَنْ كَانَ يَسْجُدُ اتِّقَاءً وَرِيَاءً إِلَّا جَعَلَ اللهُ ظَهْرَهُ طَبَقَةً وَاحِدَةً، كُلَّمَا أَرَادَ أَنْ يَسْجُدَ خَرَّ عَلَىٰ قَفَاهُ، ثُمَّ يَرْفَعُونَ رُءُوسَهُمْ وَقَدْ تَحَوَّلَ فِي صُورَتِهِ الَّتِي رَأَوْهُ فِيهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ، فَقَالَ: أَنَا رَبُّكُمْ، فَيَقُولُونَ: أَنْتَ رَبُّنَا، ثُمَّ يُضْرَبُ الْجِسْرُ عَلَىٰ جَهَنَّمَ، وَتَحِلُّ الشَّفَاعَةُ، وَيَقُولُونَ: اللهُمَّ سَلِّمْ، سَلِّمْ " قِيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ، وَمَا الْجِسْرُ؟ قَالَ: " دَحْضٌ مَزِلَّةٌ، فِيهِ خَطَاطِيفُ وَكَلَالِيبُ وَحَسَكٌ تَكُونُ بِنَجْدٍ فِيهَا شُوَيْكَةٌ يُقَالُ لَهَا السَّعْدَانُ، فَيَمُرُّ الْمُؤْمِنُونَ كَطَرْفِ الْعَيْنِ، وَكَالْبَرْقِ، وَكَالرِّيحِ، وَكَالطَّيْرِ، وَكَأَجَاوِيدِ الْخَيْلِ وَالرِّكَابِ، فَنَاجٍ مُسَلَّمٌ، وَمَخْدُوشٌ مُرْسَلٌ، وَمَكْدُوسٌ فِي نَارِ جَهَنَّمَ ..." . قَالَ أَبُو سَعِيدٍ: بَلَغَنِي أَنَّ الْجِسْرَ أَدَقُّ مِنَ الشَّعْرَةِ، وَأَحَدُّ مِنَ السَّيْفِ، وَلَيْسَ فِي حَدِيثِ اللَّيْثِ، فَيَقُولُونَ: رَبَّنَا أَعْطَيْتَنَا مَا لَمْ تُعْطِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ وَمَا بَعْدَهُ "، فَأَقَرَّ بِهِ عِيسَىٰ بْنُ حَمَّادٍ " .

وروىٰ البخاري (١/ ١٦٠ برقم ٨٠٦) بسنده عَنِ الزُّهْرِيِّ، قَالَ: أَخْبَرَنِي سَعِيدُ بْنُ المُسَيِّبِ، وَعَطَاءُ بْنُ يَزِيدَ اللَّيْثِيُّ، أَنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ، أَخْبَرَهُمَا: أَنَّ النَّاسَ قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ هَلْ نَرَىٰ رَبَّنَا يَوْمَ القِيَامَةِ؟ قَالَ: «هَلْ تُمَارُونَ فِي القَمَرِ لَيْلَةَ البَدْرِ لَيْسَ دُونَهُ سَحَابٌ» قَالُوا: لاَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: «فَهَلْ تُمَارُونَ فِي الشَّمْسِ لَيْسَ دُونَهَا سَحَابٌ» قَالُوا: لاَ، قَالَ: " فَإِنَّكُمْ تَرَوْنَهُ كَذَلِكَ، يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ القِيَامَةِ، فَيَقُولُ: مَنْ كَانَ يَعْبُدُ شَيْئًا فَلْيَتَّبِعْ،

فَمِنْهُمْ مَنْ يَتَّبِعُ الشَّمْسَ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَتَّبِعُ القَمَرَ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَتَّبِعُ الطَّوَاغِيتَ، وَتَبْقَى هَذِهِ الأُمَّةُ فِيهَا مُنَافِقُوهَا، فَيَأْتِيهِمُ اللَّهُ فَيَقُولُ: أَنَا رَبُّكُمْ، فَيَقُولُونَ هَذَا مَكَانُنَا حَتَّى يَأْتِيَنَا رَبُّنَا، فَإِذَا جَاءَ رَبُّنَا عَرَفْنَاهُ، فَيَأْتِيهِمُ اللَّهُ فَيَقُولُ: أَنَا رَبُّكُمْ، فَيَقُولُونَ: أَنْتَ رَبُّنَا، فَيَدْعُوهُمْ فَيُضْرَبُ الصِّرَاطُ بَيْنَ ظَهْرَانَيْ جَهَنَّمَ، فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يَجُوزُ مِنَ الرُّسُلِ بِأُمَّتِهِ ، وَلاَ يَتَكَلَّمُ يَوْمَئِذٍ أَحَدٌ إِلَّا الرُّسُلُ، وَكَلاَمُ الرُّسُلِ يَوْمَئِذٍ: اللَّهُمَّ سَلِّمْ سَلِّمْ، وَفِي جَهَنَّمَ كَلاَلِيبُ مِثْلُ شَوْكِ السَّعْدَانِ، هَلْ رَأَيْتُمْ شَوْكَ السَّعْدَانِ؟ " قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ: " فَإِنَّهَا مِثْلُ شَوْكِ السَّعْدَانِ غَيْرَ أَنَّهُ لاَ يَعْلَمُ قَدْرَ عِظَمِهَا إِلَّا اللَّهُ، تَخْطَفُ النَّاسَ بِأَعْمَالِهِمْ، فَمِنْهُمْ مَنْ يُوبَقُ بِعَمَلِهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُخَرْدَلُ ثُمَّ يَنْجُو، حَتَّى إِذَا أَرَادَ اللَّهُ رَحْمَةَ مَنْ أَرَادَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، أَمَرَ اللَّهُ المَلاَئِكَةَ: أَنْ يُخْرِجُوا مَنْ كَانَ يَعْبُدُ اللَّهَ، فَيُخْرِجُونَهُمْ وَيَعْرِفُونَهُمْ بِآثَارِ السُّجُودِ، وَحَرَّمَ اللَّهُ عَلَى النَّارِ أَنْ تَأْكُلَ أَثَرَ السُّجُودِ، فَيَخْرُجُونَ مِنَ النَّارِ، فَكُلُّ ابْنِ آدَمَ تَأْكُلُهُ النَّارُ إِلَّا أَثَرَ السُّجُودِ، فَيَخْرُجُونَ مِنَ النَّارِ، قَدْ امْتَحَشُوا فَيُصَبُّ عَلَيْهِمْ مَاءُ الحَيَاةِ، فَيَنْبُتُونَ كَمَا تَنْبُتُ الحِبَّةُ فِي حَمِيلِ السَّيْلِ، ثُمَّ يَفْرُغُ اللَّهُ مِنَ القَضَاءِ بَيْنَ العِبَادِ وَيَبْقَى رَجُلٌ بَيْنَ الجَنَّةِ وَالنَّارِ وَهُوَ آخِرُ أَهْلِ النَّارِ دُخُولًا الجَنَّةَ مُقْبِلٌ بِوَجْهِهِ قِبَلَ النَّارِ، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ اصْرِفْ وَجْهِي عَنِ النَّارِ، قَدْ قَشَبَنِي رِيحُهَا وَأَحْرَقَنِي ذَكَاؤُهَا، فَيَقُولُ: هَلْ عَسَيْتَ إِنْ فُعِلَ ذَلِكَ بِكَ أَنْ تَسْأَلَ غَيْرَ ذَلِكَ؟ فَيَقُولُ: لاَ وَعِزَّتِكَ، فَيُعْطِي اللَّهَ مَا يَشَاءُ مِنْ عَهْدٍ وَمِيثَاقٍ، فَيَصْرِفُ اللَّهُ وَجْهَهُ عَنِ النَّارِ، فَإِذَا أَقْبَلَ بِهِ عَلَى الجَنَّةِ، رَأَى بَهْجَتَهَا سَكَتَ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَسْكُتَ، ثُمَّ قَالَ: يَا رَبِّ قَدِّمْنِي عِنْدَ بَابِ الجَنَّةِ، فَيَقُولُ اللَّهُ لَهُ: أَلَيْسَ قَدْ أَعْطَيْتَ العُهُودَ وَالمِيثَاقَ، أَنْ لاَ تَسْأَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنْتَ سَأَلْتَ؟ فَيَقُولُ: يَا رَبِّ لاَ أَكُونُ أَشْقَى خَلْقِكَ، فَيَقُولُ: فَمَا عَسَيْتَ إِنْ أُعْطِيتَ ذَلِكَ أَنْ لاَ تَسْأَلَ غَيْرَهُ؟ فَيَقُولُ: لاَ وَعِزَّتِكَ، لاَ أَسْأَلُ غَيْرَ ذَلِكَ، فَيُعْطِي رَبَّهُ مَا شَاءَ مِنْ عَهْدٍ وَمِيثَاقٍ، فَيُقَدِّمُهُ إِلَى بَابِ الجَنَّةِ، فَإِذَا بَلَغَ بَابَهَا، فَرَأَى زَهْرَتَهَا، وَمَا فِيهَا مِنَ النَّضْرَةِ وَالسُّرُورِ، فَيَسْكُتُ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَسْكُتَ، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ أَدْخِلْنِي الجَنَّةَ، فَيَقُولُ اللَّهُ: وَيْحَكَ يَا ابْنَ آدَمَ، مَا أَغْدَرَكَ، أَلَيْسَ قَدْ أَعْطَيْتَ العُهُودَ وَالمِيثَاقَ، أَنْ لاَ تَسْأَلَ غَيْرَ الَّذِي أُعْطِيتَ؟ فَيَقُولُ: يَا رَبِّ لاَ تَجْعَلْنِي أَشْقَى خَلْقِكَ، فَيَضْحَكُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مِنْهُ، ثُمَّ يَأْذَنُ لَهُ فِي دُخُولِ الجَنَّةِ، فَيَقُولُ: تَمَنَّ، فَيَتَمَنَّى حَتَّى إِذَا انْقَطَعَ أُمْنِيَّتُهُ، قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: مِنْ كَذَا وَكَذَا، أَقْبَلَ يُذَكِّرُهُ رَبُّهُ، حَتَّى إِذَا انْتَهَتْ بِهِ الأَمَانِيُّ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: لَكَ ذَلِكَ وَمِثْلُهُ مَعَهُ " قَالَ أَبُو سَعِيدٍ الخُدْرِيُّ لِأَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: " قَالَ اللَّهُ: لَكَ ذَلِكَ وَعَشَرَةُ أَمْثَالِهِ "، قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: لَمْ أَحْفَظْ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَّا قَوْلَهُ: «لَكَ ذَلِكَ وَمِثْلُهُ مَعَهُ» قَالَ أَبُو سَعِيدٍ: إِنِّي سَمِعْتُهُ يَقُولُ: «ذَلِكَ لَكَ وَعَشَرَةُ أَمْثَالِهِ" .

وقد أجمع علماء أهل السُّنَّة والجماعة على الإيمان بالصِّراط ، قال الإمام الأشعري في " رسالة إلى أهل الثغر " (ص٢٨٦) : " وأجمعوا على أنَّ الصِّراط جسر ممدود على جهنَّم ، يجوز عليه العباد بقدر أعمالهم ، وأنَّهم يتفاوتون في السُّرعة والإبطاء على قدْر ذلك" .

وقال الإمام ابن عساكر في " تبيين كذب المفتري فيما نُسب إلى الإمام أبي الحسن الأشعري " (ص٣٠٥) : " وَأَن يُؤمن بِأَن الصِّرَاط حق وَهُوَ جسر مَمْدُود على متن جَهَنَّم ... تزلُّ عَلَيْهِ أَقْدَام الْكَافرين بِحكم اللَّه تَعَالَى فَيهْوِي بههم إِلَى النَّار وَيثبت عَلَيْهِ أَقْدَام الْمُؤمنِينَ فيساقون إِلَى دَار الْقَرار" .

وقال لإمام ابن تيمية في " مجموع الفتاوى " (١١/ ٣٤٠) : " إِنَّ أَدَاءَ الْأَمَانَةِ فِي الْوَحْيِ أَعْظَمُ وَالْوَحْيُ الَّذِي أَوْجَبَ اللَّهُ طَاعَتَهُ هُوَ الْوَحْيُ بِحُكْمِهِ وَقَسْمِهِ.

وَقَدْ يُنْكِرُ هَؤُلَاءِ كَثِيرًا مِنْ السُّنَنِ طَعْنًا فِي الْعَقْلِ لَا رَدًّا لِلْمَنْقُولِ كَمَا يُنْكِرُ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْبِدَعِ السُّنَنَ الْمُتَوَاتِرَةَ عِنْدَ أَهْلِ الْعِلْمِ كَالشَّفَاعَةِ وَالْحَوْضِ وَالصِّرَاطِ وَالْقَدَرِ وَغَيْرِ ذَلِكَ" .

وقال الإمام الإيجي في " كتاب المواقف " (٣/ ٥٢٣) : " واعلم أنَّ الصِّراط جسرٌ ممدودٌ على ظهر جهنَّم ، يعبرُ عليه المؤمن وغير المؤمن ، وأنكره أكثر المعتزلة" .

وقال الإمام السَّفاريني في " لوامع الأنوار البهيَّة وسواطع الأسرار الأثريَّة لشرح الدُّرَّة المضيَّة في عقد الفرقة المرضيَّة " (٢/ ١٩٢-١٩٣) : " اتَّفَقَتِ الْكَلِمَةُ عَلَى إِثْبَاتِ الصِّرَاطِ فِي الْجُمْلَةِ، لَكِنَّ أَهْلَ الْحَقِّ يُثْبِتُونَهُ عَلَى ظَاهِرِهِ مِنْ كَوْنِهِ جِسْرًا مَمْدُودًا عَلَى مَتْنِ جَهَنَّمَ ... وَأَنْكَرَ هَذَا الظَّاهِرَ الْقَاضِي عَبْدُ الْجَبَّارِ الْمُعْتَزِلِيُّ، وَكَثِيرٌ مِنْ أَتْبَاعِهِ زَعْمًا مِنْهُمْ أَنَّهُ لَا يُمْكِنُ عُبُورُهُ، وَإِنْ أَمْكَنَ فَفِيهِ تَعْذِيبٌ، وَلَا عَذَابَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالصُّلَحَاءِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَإِنَّمَا الْمُرَادُ طَرِيقُ الْجَنَّةِ الْمُشَارُ إِلَيْهِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: **﴿سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ﴾** [محمد: ٥] ، وَطَرِيقُ النَّارِ الْمُشَارُ إِلَيْهِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: **﴿فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ﴾** [الصافات: ٢٣] .

وَمِنْهُمْ مَنْ حَمَلَهُ عَلَى الْأَدِلَّةِ الْوَاضِحَةِ وَالْمُبَاحَاتِ وَالْأَعْمَالِ الرَّدِيئَةِ لِيُسْأَلَ عَنْهَا وَيُؤَاخَذَ بِهَا.

وَكُلُّ هَذَا بَاطِلٌ وَخُرَافَاتٌ؛ لِوُجُودِ رَدِّ النُّصُوصِ عَلَى حَقَائِقِهَا، وَلَيْسَ الْعُبُورُ عَلَى الصِّرَاطِ بِأَعْجَبَ مِنَ الْمَشْيِ عَلَى الْمَاءِ أَوِ الطَّيَرَانِ فِي الْهَوَاءِ، وَالْوُقُوفِ فِيهِ.

وَقَدْ أَجَابَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ سُؤَالِ حَشْرِ الْكَافِرِ عَلَى وَجْهِهِ بِأَنَّ الْقُدْرَةَ صَالِحَةٌ لِذَلِكَ " .

﴿سُؤَالٌ﴾ : هَلِ الْمُرُوْرُ عَلَى الصِّرَاطِ خَاصٌّ بِالْمُؤْمِنِيْن ؟

الجواب : المرود على الصِّراط خاصٌّ بالمؤمنين الطَّائعين والعاصين ، وأمَّا الكفَّار والمنافقون ، وسائر الطَّوائف من المشركين وغيرهم من غير المؤمنين ، فيُذهب بهم إلى النَّار مُباشرة...

قال الإمام ابن رجب في " التَّخويف من النَّار والتَّعريف بحال دار البوار" (١/ ٢٣٥-٢٣٧) : " واعلم أنَّ النَّاس منقسمون إلىٰ مؤمن يعبد الله وحده لا يُشرك به شيئاً، ومشرك يعبد مع الله غيره، فأمَّا المشركون فإنَّهم لا يمُرون علىٰ الصِّراط ، إنَّما يقعون في النَّار قبل وضع الصِّراط، ويدلُّ علىٰ ذلك ما في الصَّحيحين عن أبي هريرة، عن النَّبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، قال: " يَجْمَعُ اللَّهُ النَّاسَ، فَيَقُولُ: مَنْ كَانَ يَعْبُدُ شَيْئًا فَلْيَتَّبِعْهُ، فَيَتْبَعُ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ الشَّمْسَ، وَيَتْبَعُ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ القَمَرَ، وَيَتْبَعُ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ الطَّوَاغِيتَ، وَتَبْقَىٰ هَذِهِ الأُمَّةُ فِيهَا مُنَافِقُوهَا " فذكر الحديث إلىٰ أن قال: " وَيُضْرَبُ جِسْرُ جَهَنَّمَ فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يُجِيزُ". انظر: صحيح البخاري(٨/ ١١٧ برقم ٦٥٧٣) .

وفيهما أيضاً، «عن أبي سعيد الخدري، عن النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، قال: إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ لِيَتَّبِعْ كُلُّ أُمَّةٍ مَا كَانَتْ تَعْبُدُ، فَلَا يَبْقَىٰ أَحَدٌ كَانَ يَعْبُدُ غَيْرَ اللهِ سُبْحَانَهُ مِنَ الْأَصْنَامِ وَالْأَنْصَابِ إِلَّا يَتَسَاقَطُونَ فِي النَّارِ، حَتَّىٰ إِذَا لَمْ يَبْقَ إِلَّا مَنْ كَانَ يَعْبُدُ اللهَ مِنْ بَرٍّ وَفَاجِرٍ وَغُبَّرِ أَهْلِ الْكِتَابِ، فَيُدْعَىٰ الْيَهُودُ، فَيُقَالُ لَهُمْ: مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ؟ قَالُوا: كُنَّا نَعْبُدُ عُزَيْرَ ابْنَ اللهِ، فَيُقَالُ: كَذَبْتُمْ مَا اتَّخَذَ اللهُ مِنْ صَاحِبَةٍ وَلَا وَلَدٍ، فَمَاذَا تَبْغُونَ؟ قَالُوا: عَطِشْنَا يَا رَبَّنَا، فَاسْقِنَا، فَيُشَارُ إِلَيْهِمْ أَلَا تَرِدُونَ؟ فَيُحْشَرُونَ إِلَىٰ النَّارِ كَأَنَّهَا سَرَابٌ يَحْطِمُ بَعْضُهَا بَعْضًا، فَيَتَسَاقَطُونَ فِي النَّارِ، ثُمَّ يُدْعَىٰ النَّصَارَىٰ، فَيُقَالُ لَهُمْ: مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ؟ قَالُوا: كُنَّا نَعْبُدُ الْمَسِيحَ ابْنَ اللهِ، فَيُقَالُ لَهُمْ، كَذَبْتُمْ مَا اتَّخَذَ اللهُ مِنْ صَاحِبَةٍ وَلَا وَلَدٍ، فَيُقَالُ لَهُمْ: مَاذَا تَبْغُونَ؟ فَيَقُولُونَ: عَطِشْنَا يَا رَبَّنَا، فَاسْقِنَا، قَالَ: فَيُشَارُ إِلَيْهِمْ أَلَا تَرِدُونَ؟ فَيُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ كَأَنَّهَا سَرَابٌ يَحْطِمُ بَعْضُهَا بَعْضًا، فَيَتَسَاقَطُونَ فِي النَّارِ حَتَّىٰ إِذَا لَمْ يَبْقَ إِلَّا مَنْ كَانَ يَعْبُدُ اللهَ تَعَالَىٰ مِنْ بَرٍّ وَفَاجِرٍ أَتَاهُمْ رَبُّ الْعَالَمِينَ " ، فذكر الحديث إلىٰ أن قال: " فَيُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ فَلَا يَبْقَىٰ مَنْ كَانَ يَسْجُدُ لِلَّهِ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِهِ إِلَّا أَذِنَ اللهُ لَهُ بِالسُّجُودِ، وَلَا يَبْقَىٰ مَنْ كَانَ يَسْجُدُ اتِّقَاءً وَرِيَاءً إِلَّا جَعَلَ اللهُ ظَهْرَهُ طَبَقَةً وَاحِدَةً، كُلَّمَا أَرَادَ أَنْ يَسْجُدَ خَرَّ عَلَىٰ قَفَاهُ، ثُمَّ يَرْفَعُونَ رُءُوسَهُمْ وَقَدْ تَحَوَّلَ فِي صُورَتِهِ الَّتِي رَأَوْهُ فِيهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ، فَقَالَ: أَنَا رَبُّكُمْ، فَيَقُولُونَ: أَنْتَ رَبُّنَا، ثُمَّ يُضْرَبُ الْجِسْرُ عَلَىٰ جَهَنَّمَ ... " . انظر: صحيح مسلم (١/ ١٦٧ برقم ١٨٣).

وعند البخاري (٩/ ١٢٩ برقم ٧٤٣٩) في رواية : ثُمَّ يُؤْتَىٰ بِجَهَنَّمَ تُعْرَضُ كَأَنَّهَا سَرَابٌ، فَيُقَالُ لِلْيَهُودِ: مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ؟ " ، وذكر الباقي بمعناه.

فهذا الحديث صريح في أنَّ كل من أظهر عبادة شيء سوىٰ الله، كالمسيح وعزير من أهل الكتاب، فإنَّه يلحق بالمشركين في الوقوع في النَّار قبل نصب الصِّراط، إلَّا أَنَّ عُبَّاد الأصنام والشَّمس والقمر وغير ذلك من المشركين تتبع كلُّ فرقة منهم ما كانت تعبد في الدُّنيا، فترد النَّار مع معبودها أوَّلاً، وقد دلَّ القرآن علىٰ

هذا المعنىٰ، في قوله تعالىٰ في شأن فرعون: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ﴾ [هود:٩٨] . وأمَّا من عبد المسيح والعزير من أهل الكتاب، فإنَّهم يتخلَّفون مع أهل الملل المنتسبين إلىٰ الأنبياء، ثمَّ يردون في النَّار بعد ذلك" .

﴿سُؤالٌ﴾ : مَنْ هُوَ أَوَّلُ مَنْ يَجُوْزُ الصِّرَاط ؟

الجواب : أَوَّلُ مَنْ يعبر الصِّرط هو سيِّدُ الخلق محمَّد صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وأوَّل الأمم عبوراً له هي أُمَّته عليه الصَّلاة والسَّلام...

روىٰ البخاري (٨/ ١١٧ برقم ٦٥٧٣) ، مسلم (١/ ١٦٣ برقم ١٨٢ ، واللفظ له) بسندهما عَنْ عَطَاءِ بْنِ يَزِيدَ اللَّيْثِيِّ، أَنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ، أَخْبَرَهُ أَنَّ نَاسًا قَالُوا لِرَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: يَا رَسُولَ اللهِ، هَلْ نَرَىٰ رَبَّنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «هَلْ تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ؟» قَالُوا: لَا يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: «هَلْ تُضَارُّونَ فِي الشَّمْسِ لَيْسَ دُونَهَا سَحَابٌ؟» قَالُوا: لَا يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: " فَإِنَّكُمْ تَرَوْنَهُ، كَذَلِكَ يَجْمَعُ اللهُ النَّاسَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيَقُولُ: مَنْ كَانَ يَعْبُدُ شَيْئًا فَلْيَتَّبِعْهُ، فَيَتَّبِعُ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ الشَّمْسَ الشَّمْسَ، وَيَتَّبِعُ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ الْقَمَرَ الْقَمَرَ، وَيَتَّبِعُ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ الطَّوَاغِيتَ الطَّوَاغِيتَ، وَتَبْقَىٰ هَذِهِ الْأُمَّةُ فِيهَا مُنَافِقُوهَا، فَيَأْتِيهِمُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ فِي صُورَةٍ غَيْرِ صُورَتِهِ الَّتِي يَعْرِفُونَ، فَيَقُولُ: أَنَا رَبُّكُمْ، فَيَقُولُونَ: نَعُوذُ بِاللهِ مِنْكَ، هَذَا مَكَانُنَا حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا رَبُّنَا، فَإِذَا جَاءَ رَبُّنَا عَرَفْنَاهُ، فَيَأْتِيهِمُ اللهُ تَعَالَىٰ فِي صُورَتِهِ الَّتِي يَعْرِفُونَ، فَيَقُولُ: أَنَا رَبُّكُمْ، فَيَقُولُونَ: أَنْتَ رَبُّنَا فَيَتَّبِعُونَهُ ، وَيُضْرَبُ الصِّرَاطُ بَيْنَ ظَهْرَيْ جَهَنَّمَ، فَأَكُونُ أَنَا وَأُمَّتِي أَوَّلَ مَنْ يُجِيزُ، وَلَا يَتَكَلَّمُ يَوْمَئِذٍ إِلَّا الرُّسُلُ، وَدَعْوَىٰ الرُّسُلِ يَوْمَئِذٍ: اللهُمَّ سَلِّمْ، سَلِّمْ، وَفِي جَهَنَّمَ كَلَالِيبُ مِثْلُ شَوْكِ السَّعْدَانِ، هَلْ رَأَيْتُمُ السَّعْدَانَ؟ " قَالُوا: نَعَمْ يَا رَسُولَ اللهِ قَالَ: " فَإِنَّهَا مِثْلُ شَوْكِ السَّعْدَانِ غَيْرَ أَنَّهُ لَا يَعْلَمُ مَا قَدْرُ عِظَمِهَا إِلَّا اللهُ، تَخْطَفُ النَّاسَ بِأَعْمَالِهِمْ، فَمِنْهُمُ الْمُؤْمِنُ بَقِيَ بِعَمَلِهِ، وَمِنْهُمُ الْمُجَازَىٰ حَتَّىٰ يُنَجَّىٰ ... " .

﴿سُؤالٌ﴾ : مَنْ هُمْ أَوَّلُ مَنْ يَعْبُرُ الصِّرَاطَ مِنْ هَذِه الأُمَّة ؟

الجواب : أوَّل النَّاس عبوراً الصِّراط من هذه الأمَّة همُ المهاجرون ...فقد روىٰ مسلم (١/ ٢٥٢ برقم ٣١٥) بسنده عَنْ ثَوْبَانَ مَوْلَىٰ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، قَالَ: كُنْتُ قَائِمًا عِنْدَ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَجَاءَ حِبْرٌ مِنْ أَحْبَارِ الْيَهُودِ فَقَالَ: السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا مُحَمَّدُ فَدَفَعْتُهُ دَفْعَةً كَادَ يُصْرَعُ مِنْهَا فَقَالَ: لِمَ تَدْفَعُنِي؟ فَقُلْتُ: أَلَا تَقُولُ يَا رَسُولَ اللهِ، فَقَالَ الْيَهُودِيُّ: إِنَّمَا نَدْعُوهُ بِاسْمِهِ الَّذِي سَمَّاهُ بِهِ أَهْلُهُ. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ اسْمِي مُحَمَّدٌ الَّذِي سَمَّانِي بِهِ أَهْلِي»، فَقَالَ الْيَهُودِيُّ: جِئْتُ أَسْأَلُكَ، فَقَالَ

لَهُ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَيَنْفَعُكَ شَيْءٌ إِنْ حَدَّثْتُكَ؟» قَالَ: أَسْمَعُ بِأُذُنَيَّ، فَنكَتَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِعُودٍ مَعَهُ، فَقَالَ: «سَلْ» فَقَالَ الْيَهُودِيُّ: أَيْنَ يَكُونُ النَّاسُ يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «هُمْ فِي الظُّلْمَةِ دُونَ الْجِسْرِ» قَالَ: فَمَنْ أَوَّلُ النَّاسِ إِجَازَةً؟ قَالَ: «فُقَرَاءُ الْمُهَاجِرِينَ" ... " .

﴿سُؤالٌ﴾ : مَا هُوَ شِعَارُ المُؤمِنِيْنَ عَلَى الصِّرَاط ؟

الجواب : لا أحد يتكلَّم أثناء المرور علىٰ الصِّراط إلَّا الرُّسل عليهم الصَّلاة والسَّلام ، وشعارهم أثناء المرور : " اللهُمَّ سَلِّمْ، سَلِّمْ " . فقد روىٰ البخاري (٨/ ١١٧ برقم ٦٥٧٣) ، مسلم (١/ ١٦٣ برقم ١٨٢ ، واللفظ له) بسندهما عَنْ عَطَاءِ بْنِ يَزِيدَ اللَّيْثِيِّ، أَنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ، أَخْبَرَهُ أَنَّ نَاسًا قَالُوا لِرَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: يَا رَسُولَ اللهِ، هَلْ نَرَىٰ رَبَّنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وفيه : " ... وَيُضْرَبُ الصِّرَاطُ بَيْنَ ظَهْرَيْ جَهَنَّمَ، فَأَكُونُ أَنَا وَأُمَّتِي أَوَّلَ مَنْ يُجِيزُ، وَلَا يَتَكَلَّمُ يَوْمَئِذٍ إِلَّا الرُّسُلُ، وَدَعْوَىٰ الرُّسُلِ يَوْمَئِذٍ: اللهُمَّ سَلِّمْ، سَلِّمْ" .

﴿سُؤالٌ﴾ : مَا المَقْصُوْدُ بِالوُرُوْدِ الوَارِدِ فِيْ قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلاَّ وارِدُها كانَ عَلى رَبِّكَ حَتْماً مَقْضِيًّ﴾ [مريم:٧١] ؟

الجواب : اختلف العلماء في معنىٰ الورود الوارد في الآية الكريمة ... فقد ذكر الإمام القرطبي في " الجامع لأحكام القرآن" (١١/ ١٣٦ فما بعدها) : أنَّ العلماء اختلفوا فيه علىٰ ستَّة أقوال:

الأَوَّلُ : " الْوُرُودُ الدُّخُولُ ، رُوِيَ عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: "الْوُرُودُ الدُّخُولُ ، لَا يَبْقَىٰ بَرٌّ وَلَا فَاجِرٌ إِلَّا دَخَلَهَا ، فَتَكُونُ عَلَىٰ الْمُؤْمِنِينَ بَرْدًا وَسَلَامًا ، كَمَا كَانَتْ عَلَىٰ إِبْرَاهِيم **﴿ ثمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيها جِثِيًّا﴾** أَسْنَدَهُ أَبُو عُمَرَ فِي كِتَابِ" التَّمْهِيدِ". وَهُوَ قَوْلُ ابْنِ عَبَّاسٍ وَخَالِدِ بْنِ مَعْدَانَ وَابْنِ جُرَيْجٍ ، وَغَيْرِهِمْ.

وَرُوِيَ عن يونس عن الحسين أَنَّهُ كَانَ يَقْرَأُ: **﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وارِدُها﴾** الْوُرُودُ الدُّخُولُ ، عَلَىٰ التَّفْسِيرِ لِلْوُرُودِ ، فَغَلِطَ فِيهِ بعض الرُّواة فألحقه بالقرآن. وفي مسند الدَّارِمِيِّ (٣/ ١٨٥٣ برقم ٢٨٥٢) عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ، قَالَ رَسُولُ الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " يَرِدُ النَّاسُ النَّارَ ثمَّ يَصْدُرُونَ مِنْهَا بِأَعْمَالِهِمْ فأولهم كلمح البرق ثمَّ كَالرِّيحِ ثمَّ كَحُضْرِ الْفَرَسِ ثمَّ كَالرَّاكِبِ الْمُجِدِّ فِي رَحْلِهِ ثمَّ كَشَدِّ الرَّجُلِ فِي مِشْيَتِهِ .

وَرُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ قَالَ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ لِنَافِعِ بْنِ الْأَزْرَقِ الْخَارِجِيِّ: أَمَّا أَنَا وَأَنْتَ فَلَا بُدَّ أَنْ نَرِدَهَا ، أَمَّا أَنَا فَيُنْجِينِي اللَّهُ مِنْهَا ، وَأَمَّا أَنْتَ فَمَا أَظُنُّهُ يُنْجِيكَ لِتَكْذِيبِكَ. وَقَدْ أَشْفَقَ كَثِيرٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ مِنْ تَحَقُّقِ الْوُرُودِ وَالْجَهْلِ بِالصَّدْرِ " .

الثَّانِي : " الْوُرُودُ الْمَمَرُّ عَلَىٰ الصِّرَاطِ. وَرُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَابْنِ مَسْعُودٍ وَكَعْبِ الْأَحْبَارِ وَالسُّدِّيِّ ، وَرَوَاهُ السُّدِّيُّ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَقَالَهُ الْحَسَنُ أَيْضًا ، قَالَ: لَيْسَ الْوُرُودُ الدُّخُولَ إِنَّمَا تَقُولُ: وَرَدْتُ الْبَصْرَةَ وَلَمْ أَدْخُلْهَا. قَالَ: فَالْوُرُودُ أَنْ يَمُرُّوا عَلَىٰ الصِّرَاطِ. قَالَ أَبُو بَكْرٍ الْأَنْبَارِيُّ: وَقَدْ بَنَىٰ عَلَىٰ مَذْهَبِ الْحَسَنِ قَوْمٌ مِنْ أَهْلِ اللُّغَةِ ، وَاحْتَجُّوا بِقَوْلِ اللَّهُ تَعَالَىٰ: **﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنى أُولئِكَ عَنْها مُبْعَدُونَ﴾** .

قَالُوا: فَلَا يَدْخُلُ النَّارَ مَنْ ضَمِنَ اللَّهُ أَنْ يُبْعِدَهُ مِنْهَا. وَكَانَ هَؤُلَاءِ يَقْرَءُونَ" ثَمَّ" بِفَتْحِ الثَّاءِ" نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا". وَاحْتَجَّ عَلَيْهِمُ الْآخَرُونَ أَهْلُ الْمَقَالَةِ الْأُولَىٰ بِأَنَّ مَعْنَىٰ قَوْلِهِ: **﴿أُولئِكَ عَنْها مُبْعَدُونَ﴾** عَنِ الْعَذَابِ فِيهَا وَالْإِحْرَاقِ بِهَا. قَالُوا: فَمَنْ دَخَلَهَا وَهُوَ لَا يَشْعُرُ بِهَا وَلَا يُحِسُّ مِنْهَا وَجَعًا وَلَا أَلَمًا فَهُوَ مُبْعَدٌ عَنْهَا فِي الْحَقِيقَةِ. وَيَسْتَدِلُّونَ بِقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: **﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾** بِضَمِّ الثَّاءِ فَـ" ثُمَّ" تَدُلُّ عَلَىٰ نَجَاءٍ بَعْدَ الدُّخُولِ.

قُلْتُ: وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ (١/ ١٦٧ برقم ١٨٣) : " ثُمَّ يُضْرَبُ الْجِسْرُ عَلَىٰ جَهَنَّمَ وَتَحِلُّ الشَّفَاعَةُ فيقولون اللَّهُمَّ سَلِّمْ سَلِّمْ" قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا الْجِسْرُ؟ قَالَ: "دَحْضٌ مَزِلَّةٌ ، فِيهِ خَطَاطِيفُ وَكَلَالِيبُ وَحَسَكٌ ، تَكُونُ بِنَجْدٍ فِيهَا شُوَيْكَةٌ يُقَالُ لَهَا السَّعْدَانُ ، فَيَمُرُّ الْمُؤْمِنُونَ كَطَرْفِ الْعَيْنِ ، وَكَالْبَرْقِ ، وَكَالرِّيحِ ، وَكَالطَّيْرِ ، وَكَأَجَاوِيدِ الْخَيْلِ وَالرِّكَابِ ، فَنَاجٍ مُسَلَّمٌ ، وَمَخْدُوشٌ مُرْسَلٌ ، وَمَكْدُوسٌ فِي نَارِ جَهَنَّمَ" الْحَدِيثَ. وَبِهِ احْتَجَّ مَنْ قَالَ إِنَّ الْجَوَازَ عَلَىٰ الصِّرَاطِ هُوَ الْوُرُودُ الَّذِي تَضَمَّنَتْهُ هَذِهِ الْآيَةُ لَا الدُّخُولُ فِيهَا" .

الثَّالِثُ : " قَالَتْ فِرْقَةٌ: بَلْ هُوَ وُرُودُ إِشْرَافٍ واطِّلاع وقرب. وذلك أنَّهم يَحْضُرُونَ مَوْضِعَ الْحِسَابِ، وَهُوَ بِقُرْبِ جَهَنَّمَ فَيَرَوْنَهَا ، وَيَنْظُرُونَ إِلَيْهَا فِي حَالَةِ الْحِسَابِ ثمَّ يُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا مِمَّا نَظَرُوا إِلَيْهِ وَيُصَارُ بِهِمْ إِلَىٰ الْجَنَّةِ **﴿وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ﴾** ، أَيْ : يُؤْمَرُ بِهِمْ إِلَىٰ النَّارِ قَالَ اللَّهُ تَعَالَىٰ : **﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ﴾** ، أَي : أَشْرَفَ عَلَيْهِ لَا أَنَّهُ دَخَلَهُ. وَقَالَ زُهَيْرٌ:

فَلَمَّا وَرَدْنَ الْمَاءَ زُرْقًا جِمَامُهُ وَضَعْنَ عِصِيَّ الْحَاضِرِ الْمُتَخَيِّمِ

وَرَوَتْ حَفْصَةُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : "لَا يَدْخُلُ النَّارَ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ بَدْرٍ وَالْحُدَيْبِيَةِ" قَالَتْ : فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَأَيْنَ قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَىٰ" وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وارِدُها" فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "فَمَهْ" **﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيها جِثِيًّا﴾** . أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ (١/ ٩٣ برقم ٩١) مِنْ حَدِيثِ أُمِّ مُبَشِّرٍ قَالَتْ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ عند حفصة ، الْحَدِيثَ. وَرَجَّحَ الزَّجَّاجُ هَذَا الْقَوْلَ بِقَوْلِهِ تَعَالَىٰ : **﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنى أُولئِكَ عَنْها مُبْعَدُونَ﴾** .

الرَّابِعُ : قَالَ مُجَاهِدٌ: وُرُودُ الْمُؤْمِنِينَ النَّارَ هُوَ الْحُمَّى الَّتِي تُصِيبُ الْمُؤْمِنَ فِي دَارِ الدُّنْيَا، وَهِيَ حَظُّ الْمُؤْمِنِ مِنَ النَّارِ فَلَا يَرِدُهَا. رَوَىٰ أَبُو هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَادَ مَرِيضًا مِنْ وَعَكٍ بِهِ فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "أَبْشِرْ فَإِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ يَقُولُ:" هِيَ نَارِي أُسَلِّطُهَا عَلَىٰ عَبْدِي الْمُؤْمِنِ لِتَكُونَ حَظَّهُ مِنَ النَّارِ" . أخرجه أحمد في المسند (١٥/ ٤٢٢ برقم ٩٦٧٦) ، قال الأرنؤوط : " إسناده جيد، أبو صالح الأشعري لا يعرف اسمه، روىٰ عنه جمع، وقال أبو حاتم: لا بأس به، ووثقه الذهبي، وباقي رجال الإسناد ثقات رجال الشيخين. وأخرجه ابن أبي شيبة ١/ ٣٤٥، والترمذي (٢٠٨٨) ، وابن ماجه (٣٤٧٠) ، والحاكم ١/ ٣٤٥، والبيهقي في "الشعب" (٩٨٤٤) من طريق أبي أسامة، بهذا الإسناد " .

أَسْنَدَهُ أَبُو عُمَرَ قَالَ: حَدَّثَنَا عَبْدُ الْوَارِثِ بْنُ سُفْيَانَ قَالَ حَدَّثَنَا قَاسِمُ بْنُ أَصْبَغَ قَالَ حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ الصَّائِغُ قَالَ حَدَّثَنَا أَبُو أُسَامَةَ قَالَ حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ يَزِيدَ بْنِ جَابِرٍ عَنْ إِسْمَاعِيلَ بْنِ عُبَيْدِ اللَّهِ عَنْ أَبِي صَالِحٍ الْأَشْعَرِيِّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَادَ مَرِيضًا فَذَكَرَهُ. وَفِي الْحَدِيثِ : " الْحُمَّىٰ حَظُّ الْمُؤْمِنِ مِنَ النَّارِ" . أخرجه الطَّبراني في المعجم الأوسط (٧/ ٢٩٥ برقم ٧٥٤٠) .

الخَامِسُ : قَالَتْ فِرْقَةٌ: الْوُرُودُ النَّظَرُ إِلَيْهَا فِي الْقَبْرِ فَيُنَجَّىٰ مِنْهَا الْفَائِزُ وَيَصْلَاهَا مَنْ قُدِّرَ عَلَيْهِ دُخُولُهَا، ثمَّ يَخْرُجُ مِنْهَا بِالشَّفَاعَةِ أَوْ بِغَيْرِهَا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ تَعَالَىٰ. وَاحْتَجُّوا بِحَدِيثِ ابْنِ عُمَرَ: "إِذَا مَاتَ أَحَدُكُمْ عُرِضَ عَلَيْهِ مَقْعَدُهُ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ" الْحَدِيثَ. أخرجه أحمد في المسند (١٠/ ١٥٤ برقم ٥٩٢٦) ، قال الأرنؤوط : " إسناده صحيح علىٰ شرط مسلم كسابقه. وهو في"الموطا"١/ ٢٣٩ ومن طريق مالك أخرجه البخاري (١٣٧٩) ، ومسلم (٢٨٦٦) ، والنسائي في "الكبرىٰ" (٢١٩٩) ، وفي"المجتبىٰ"٤/ ١٠٧، وابن حبان (٣١٣٠) ، والآجري في "الشريعة"ص ٣٩١، والبيهقي في"إثبات عذاب القبر" (٤٨) ، وفي"البعث" (١٦٥) ، والبغوي في"شرح السنة" (١٥٢٤) .

وَرَوَىٰ وَكِيعٌ عَنْ شُعْبَةَ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ السَّائِبِ عَنْ رَجُلٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ قَالَ فِي قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَىٰ: **﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وارِدُها﴾** ، قَالَ: هَذَا خِطَابٌ لِلْكُفَّارِ. وَرُوِيَ عَنْهُ أَنَّهُ كَانَ يَقْرَأُ:" وَإِنْ مِنْهُمْ" رَدًّا عَلَىٰ الْآيَاتِ الَّتِي قَبْلَهَا في الكفَّار: قوله : **﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّياطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ * ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمنِ عِتِيًّا * لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلى بِها صِلِيًّا﴾** [مريم:٨٦-٧٠] ، وإن منهم ، وكذلك قرأ عكرمة وجماعة وعليها فلا شغب فِي هَذِهِ الْقِرَاءَةِ" .

السَّادِسُ : "قَالَتْ فِرْقَةٌ: الْمُرَادُ بِـ ﴿مِنكُمْ﴾ الْكَفَرَةُ وَالْمَعْنَىٰ: قُلْ لَهُمْ يَا مُحَمَّدُ. وَهَذَا التَّأْوِيلُ أَيْضًا سَهْلُ التَّنَاوُلِ وَالْكَافُ فِي ﴿مِنكُمْ﴾ رَاجِعَةٌ إِلَىٰ الْهَاءِ فِي **﴿لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّياطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا﴾** فَلَا يُنْكَرُ رُجُوعُ الْكَافِ إِلَىٰ الْهَاءِ، فَقَدْ عُرِفَ ذَلِكَ فِي قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ : **﴿وَسَقاهُمْ رَبُّهُمْ شَراباً طَهُوراً * إِنَّ هَذَا كانَ لَكُمْ جَزاءً وَكانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُوراً﴾** [الإنسان: ٢١ - ٢٢] مَعْنَاهُ كَانَ لَهُمْ فَرَجَعَتِ الْكَافُ إِلَىٰ الْهَاءِ ،

وَقَالَ الْأَكْثَرُ: الْمُخَاطَبُ الْعَالَمُ كُلُّهُ وَلَا بُدَّ من ورود الجميع وعليه نشأ الْخِلَافُ فِي الْوُرُودِ. وَقَدْ بَيَّنَّا أَقْوَالَ الْعُلَمَاءِ فِيهِ. وَظَاهِرُ الْوُرُودِ الدُّخُولُ لِقَوْلِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: "فَتَمَسُّهُ النَّارُ" لِأَنَّ الْمَسِيسَ حَقِيقَتُهُ فِي اللُّغَةِ الْمُمَاسَّةُ إِلَّا أَنَّهَا تَكُونُ بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَيَنْجُونَ مِنْهَا سَالِمِينَ. قَالَ خَالِدُ بْنُ مَعْدَانَ: إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ قَالُوا أَلَمْ يَقُلْ رَبُّنَا: إِنَّا نَرِدُ النَّارَ؟ فيقال لقد وردتموها فألفيتموها رماداً.

قلت: وهذا القول يجمع شتات الأقـــوال ، فَإِنَّ مَنْ وَرَدَهَا وَلَمْ تُؤْذِهِ بِلَهَبِهَا وَحَرِّهَا فَقَدْ أُبْعِدَ عَنْهَا وَنُجِّيَ مِنْهَا" .

﴿سُؤالٌ﴾ : هَلِ المُرُوْرُ عَلَى الصِّرَاطِ هُوَ أَحَدُ المَوَاطِنِ الثَّلَاثَةِ التِيْ لَا يَذْكُرُ فِيْهَا أَحَدٌ أَحَداً ؟

الجواب : نعم ... المرور على الصِّراط هو أحد المواطن التي لا يذكر فيها أحدٌ أحداً ... فقد روىٰ أبو داود (٤/ ٢٤٠ برقم ٤٧٥٥) ، الآجري في " الشَّريعة" (٣/ ١٣٣٦ برقم ٩٠٦) ، البيهقي في " الاعتقاد" (ص٢١٠) بسندهم عَنِ الْحَسَنِ، عَنْ عَائِشَةَ، أَنَّهَا ذَكَرَتِ النَّارَ فَبَكَتْ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَا يُبْكِيكِ؟» قَالَتْ: ذَكَرْتُ النَّارَ فَبَكَيْتُ، فَهَلْ تَذْكُرُونَ أَهْلِيكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " أَمَّا فِي ثَلَاثَةِ مَوَاطِنَ فَلَا يَذْكُرُ أَحَدٌ أَحَدًا: عِنْدَ الْمِيزَانِ حَتَّىٰ يَعْلَمَ أَيَخِفُّ مِيزَانُهُ أَوْ يَثْقُلُ، وَعِنْدَ الْكِتَابِ حِينَ يُقَالُ : **﴿هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ﴾** حَتَّىٰ يَعْلَمَ أَيْنَ يَقَعُ كِتَابُهُ أَفِي يَمِينِهِ أَمْ فِي شِمَالِهِ أَمْ مِنْ وَرَاءِ ظَهْرِهِ، وَعِنْدَ الصِّرَاطِ إِذَا وُضِعَ بَيْنَ ظَهْرَيْ جَهَنَّمَ " . قال الشَّيخ عبد القادر الأرنؤوط في تخريج " جامع الأصول في أحاديث الرَّسول " (١٠/ ٤٧٤ برقم ٨٠٠٨) : " وهو حديث حسن يشهد له الذي قبله " .

﴿سُؤالٌ﴾ : هَلِ المُرُوْرُ عَلَى الصِّرَاطِ هُوَ أَحَدُ المَوَاطِنِ الثَّلَاثَةِ التِيْ يُطْلَبُ فِيْهَا الرَّسُوْلُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؟

الجواب : نعم ، وفي ذلك روىٰ أحمد في " المسند" (٢٠/ ٢١٠ برقم ١٢٨٢٥) بسنده عَنْ أَنَسٍ قَالَ: سَأَلْتُ نَبِيَّ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَنْ يَشْفَعَ لِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ، قَالَ: قَالَ: " أَنَا فَاعِلٌ " قَالَ: فَأَيْنَ أَطْلُبُكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَا نَبِيَّ اللهِ؟ قَالَ: " اطْلُبْنِي أَوَّلَ مَا تَطْلُبُنِي عَلَىٰ الصِّرَاطِ " قَالَ: قُلْتُ: فَإِذَا لَمْ أَلْقَكَ عَلَىٰ الصِّرَاطِ؟ قَالَ: " فَأَنَا عِنْدَ الْمِيزَانِ " قَالَ: قُلْتُ: فَإِنْ لَمْ أَلْقَكَ عِنْدَ الْمِيزَانِ؟ قَالَ: " فَأَنَا عِنْدَ الْحَوْضِ، لَا أُخْطِئُ هَذِهِ الثَّلَاثَ مَوَاطِنَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ " . قال الأرنؤوط : " رجاله رجال الصحيح، ومتنه غريب. وأخرجه الترمذي (٢٤٣٣) عن عبد الله بن الصباح، عن بدل بن المحبَّر، عن حرب بن ميمون، بهذا الإسناد. وقال: حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه " .

﴿سُؤالٌ﴾ : مَاذَا عَنْ شَهَادَةِ الأَعْضَاءِ عَلَى الإِنْسَان ؟

الجواب : صرَّحت آيات القرآن العظيم بأنَّ أعضاء الإنسان ستشهد عليه يوم القيام بجميع ما عمل من خير أو شرّ ... والإيمان بذلك واجب ، قال تعالىٰ : **﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِما كانُوا يَعْمَلُونَ﴾** [النور:٢٤] .

قال الإمام ابن كثير في " التَّفسير" (٦/ ٣٣-٣٤) : " قَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: حَدَّثَنَا أَبُو سَعِيدٍ الأشَجّ، حَدَّثَنَا أَبُو يَحْيَىٰ الرَّازِيُّ، عَنْ عَمْرِو بْنِ أَبِي قَيْسٍ، عَنْ مُطَرِّف، عَنِ المِنْهَال، عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: إِنَّهُمْ -يَعْنِي: الْمُشْرِكِينَ -إِذَا رَأوا أَنَّهُ لَا يدخلُ الجنةَ إِلَّا أَهْلُ الصَّلَاةِ، قَالُوا: تَعَالَوْا حَتَّىٰ نَجْحَدَ. فَيَجْحَدُونَ فَيَخْتِمُ اللَّهُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ، وَتَشْهَدُ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ، وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا.

وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ، وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ أَيْضًا: حَدَّثَنَا يُونُسُ بْنُ عَبْدِ الْأَعْلَىٰ، حَدَّثَنَا ابْنُ وَهْبٍ، أَخْبَرَنِي عَمْرُو بْنُ الْحَارِثِ، عَنْ دَرَّاج، عَنْ أَبِي الْهَيْثَم، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ، عَنْ رسول الله صلىٰ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:"إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ، عُرف الْكَافِرُ بعَمَلِهِ، فَيَجْحَدُ وَيُخَاصِمُ، فَيُقَالُ لَهُ: هَؤُلَاءِ جِيرَانُكَ يَشْهَدُونَ عَلَيْكَ. فَيَقُولُ: كَذَبُوا. فَيَقُولُ: أَهْلُكَ وَعَشِيرَتُكَ. فَيَقُولُ: كَذَبُوا، فَيَقُولُ: احْلِفُوا. فَيَحْلِفُونَ، ثُمَّ يُصمِتهم اللَّهُ، فَتَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَيْدِيهِمْ وَأَلْسِنَتُهُمْ، ثُمَّ يُدْخِلُهُمُ النَّارَ" . تفسير الطبري (١٨/ ١٠٥) ورواه أبو يعلىٰ في مسنده برقم (١٣٩٢) من طريق ابْنِ لَهِيعَةَ، عَنْ دَرَّاجٍ عَنْ أَبِي الْهَيْثَم به، ودراج عن أبي الهيثم ضعيف

وَقَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ أَيْضًا: حَدَّثَنَا أَبُو شَيْبَةَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بن أبي شيبة الكوفي، حدثنا مِنْجَاب بْنُ الْحَارِثِ التَّمِيمِيُّ حَدَّثَنَا أَبُو عَامِرٍ الأسَدِيَ، حَدَّثَنَا سُفْيَانُ، عَنْ عُبَيْدٍ الْمُكْتب، عَنْ فُضَيل بْنِ عَمْرٍو الفُقَيمي، عَنِ الشَّعْبِيِّ، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: كُنَّا عِنْدَ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَضْحِكَ حَتَّىٰ بَدَتْ نَوَاجذُه، ثُمَّ قَالَ: "أَتَدْرُونَ مِمَّ أَضْحَكُ؟ " قُلْنَا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: "مِنْ مُجَادَلَةِ الْعَبْدِ رَبَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، يَقُولُ: يَا رَبِّ، أَلَمْ تُجِرْني مِنَ الظُّلْم؟ فَيَقُولُ: بَلَىٰ. فَيَقُولُ: لَا أُجِيزُ عليَّ شَاهِدًا إِلَّا مِنْ نَفْسِي. فَيَقُولُ: كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ شَهِيدًا، وَبِالْكِرَامِ عَلَيْكَ شُهُودًا فَيُخْتَمُ عَلَىٰ فِيهِ، وَيُقَالُ لِأَرْكَانِهِ: انْطِقِي فَتَنْطِقُ بِعَمَلِهِ، ثُمَّ يُخَلِّي بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْكَلَامِ، فَيَقُولُ: بُعدًا لَكُنّ وسُحْقًا، فعنكُنَّ كنتُ أُنَاضِلُ" .

وَقَدْ رَوَاهُ مُسْلِمٌ (٢٩٦٩) وَالنَّسَائِيُّ جَمِيعًا، عَنْ أَبِي بكرِ بنِ أَبِي النَّضْرِ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ عُبيد اللَّهِ الْأَشْجَعِيِّ، عَنْ سُفْيَانَ الثَّوْرِيِّ، بِهِ ثُمَّ قَالَ النَّسَائِيُّ: لَا أَعْلَمُ أَحَدًا رَوَىٰ هَذَا الْحَدِيثَ عَنْ سُفْيَانَ الثَّوْرِيِّ غَيْرَ الْأَشْجَعِيِّ، وَهُوَ حَدِيثٌ غَرِيبٌ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ. هَكَذَا قَالَ .

وَقَالَ قَتَادَةُ: ابْنَ آدَمَ، وَاللَّهِ إِنَّ عَلَيْكَ لَشُهودًا غيرَ مُتَّهَمَةٍ مِنْ بَدَنِكَ، فَرَاقِبْهُمْ وَاتَّقِ اللَّهَ فِي سِرِّكَ وَعَلَانِيَتِكَ، فَإِنَّهُ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ خَافِيَةٌ، وَالظُّلْمَةُ عِنْدَهُ ضَوْءٌ وَالسِّرُّ عِنْدَهُ عَلَانِيَةٌ، فَمَنِ اسْتَطَاعَ أَنْ يَمُوتَ وَهُوَ بِاللَّهِ حَسَنُ الظَّنِّ، فَلْيَفْعَلْ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ" .

وقالَ الإمام أبو السُّعود في " إرشاد العقل السَّليم إلىٰ مزايا الكتاب الكريم" (٦/ ١٦٦) : " وقولُه تعالىٰ : **﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ﴾** الخ إمَّا متصلٌ بما قبلَه مسوقٌ لتقريرِ العذابِ المذكورِ بتعيينِ وقتِ حلولِه وتهويلِه ببيان ظهور جناياتهم الموجبةِ له مع سائرِ جناياتِهم المستتبعةِ لعقوباتِها عَلَىٰ كيفيَّةٍ هائلةٍ وهيئةٍ خارقةٍ للعاداتِ، فيومَ ظرفٌ لما في الجارِّ والمجرورِ المتقدِّمِ من معنىٰ الاستقرارِ لا لعذاب وإن أغضبنا عن وصفِه لإخلالِه بجزالةِ المعنىٰ ، وإمَّا منقطعٌ عنه مسوق لتهويل اليوم ما يحويهِ علىٰ أنَّه ظرفٌ لفعلٍ مؤخَّرٍ قد ضُرب عنه الذِّكرُ صَفْحاً للإيذانِ بقصورِ العبارةِ عن تفصيل ما يقع فيهِ من الطَّامَّةِ التَّامَّةِ والدَّاهية العامَّة ، كأنَّه قيل : يوم تشهد عليهم **﴿أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾** يكونُ من الأحوال والأهوال مالا يحيطُ به حيطةَ المقالُ علىٰ أنَّ الموصولَ المذكورَ عبارةٌ عن جميعِ أعمالِهم السَّيِّئةِ وجناياتِهم القبيحةِ لا عن جناياتهم المعهودةِ فَقَطْ ، ومعنىٰ شهادةِ الجوارحِ المذكورةِ بها أنَّه تعالىٰ يُنطقها بقدرته فتخبر كلُّ جارحةٍ منها بما صدرَ عنها من أفاعيل صاحبِها لا أنَّ كلاًّ منها يخبر بجناياتهم المعهودة فحسب ، والموصول والمحذوف عبارةٌ عنها وعن فنونِ العُقوباتِ المترتبةِ عليها كافَّة لا عنْ إحداهما خاصَّة ، ففيهِ من ضروبِ التَّهويلِ وبالإجمال والتَّفصيلِ ما لا مزيدَ عليه ، وجعلُ الموصولِ المذكورِ عبارة عن خصوص جناياتهم المعهودةِ وحملُ شهادةِ الجوارحِ علىٰ إخبارِ الكلِّ بها فَقَط تحجيرٌ للواسعِ وتهوينُ لأمر الوازعِ ، والجمعُ بين صيغتي الماضِي والمستقبلِ للدِّلالةِ علىٰ استمرارِهم عليها في الدُّنيا ، وتقديمُ **﴿عَلَيْهِم﴾** علىٰ الفاعل للمسارعة إلىٰ بيان كون الشَّهادةَ ضارةٌ لهم مع ما فيه من التَّشويق إلىٰ المؤخرِ كما مرَّ مِراراً " .

وقال تعالىٰ : **﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلى أَفْواهِهِمْ وَتُكَلِّمُنا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِما كانُوا يَكْسِبُونَ﴾** [يس:٦٥] .

قال الإمام الرَّازي في " التَّفسير" (٢٦/ ٣٠٢-٣٠٣) : " فِي التَّرْتِيبِ وُجُوهٌ :

الْأَوَّلُ: أَنَّهُمْ حِينَ يَسْمَعُونَ قَوْلَهُ تَعَالَىٰ: **﴿بِما كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾** [يس: ٦٤] يُرِيدُونَ أَنْ يُنْكِرُوا كُفْرَهُمْ كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ عَنْهُمْ مَا أَشْرَكْنَا وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ فَيَخْتِمُ اللَّهُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ فَلَا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ الْإِنْكَارِ وَيُنْطِقُ اللَّهُ غَيْرَ لِسَانِهِمْ مِنَ الْجَوَارِحِ فَيَعْتَرِفُونَ بِذُنُوبِهِمْ .

الثَّانِي: لَمَّا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى لَهُمْ: ﴿**أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ**﴾ [يس: ٦٠] لَمْ يَكُنْ لَهُمْ جَوَابٌ فَسَكَتُوا وَخَرِسُوا وَتَكَلَّمَتْ أَعْضَاؤُهُمْ غَيْرَ اللِّسَانِ، وَفِي الْخَتْمِ عَلَى الْأَفْوَاهِ وُجُوهٌ:

أَقْوَاهَا، أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُسْكِتُ أَلْسِنَتَهُمْ فَلَا يَنْطِقُونَ بِهَا وَيُنْطِقُ جَوَارِحَهُمْ فَتَشْهَدُ عَلَيْهِمْ، وَإِنَّهُ فِي قُدْرَةِ اللَّهِ يَسِيرٌ، أَمَّا الْإِسْكَاتُ فَلَا خَفَاءَ فِيهِ، وَأَمَّا الْإِنْطَاقُ فَلِأَنَّ اللِّسَانَ عُضْوٌ مُتَحَرِّكٌ بِحَرَكَةٍ مَخْصُوصَةٍ فَكَمَا جَازَ تَحَرُّكُهُ بِهَا جَازَ تَحَرُّكُ غَيْرِهِ بِمِثْلِهَا وَاللَّهُ قَادِرٌ عَلَى الْمُمْكِنَاتِ وَالْوَجْهُ الْآخَرُ أَنَّهُمْ لَا يَتَكَلَّمُونَ بِشَيْءٍ لِانْقِطَاعِ أَعْذَارِهِمْ وَانْتِهَاكِ أَسْتَارِهِمْ فَيَقِفُونَ نَاكِسِي الرُّءوس وقوف القنوط اليؤوس لَا يَجِدُ عُذْرًا فَيَعْتَذِرُ وَلَا مَجَالَ تَوْبَةٍ فَيَسْتَغْفِرُ، وَتَكَلُّمُ الْأَيْدِي ظُهُورُ الْأُمُورِ بِحَيْثُ لَا يَسَعُ مَعَهُ الْإِنْكَارُ حَتَّى تَنْطِقَ بِهِ الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارُ، كَمَا يَقُولُ الْقَائِلُ: الْحِيطَانُ تَبْكِي عَلَى صَاحِبِ الدَّارِ، إِشَارَةً إِلَى ظُهُورِ الْحُزْنِ، وَالْأَوَّلُ الصَّحِيحُ وَفِيهِ لَطَائِفُ لَفْظِيَّةٌ وَمَعْنَوِيَّةٌ.

أَمَّا اللَّفْظِيَّةُ فَالْأُولَى مِنْهَا: هِيَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَسْنَدَ فِعْلَ الْخَتْمِ إِلَى نَفْسِهِ وَقَالَ: نَخْتِمُ وَأَسْنَدَ الْكَلَامَ وَالشَّهَادَةَ إِلَى الْأَيْدِي وَالْأَرْجُلِ، لِأَنَّهُ لَوْ قَالَ تَعَالَى: نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتَنْطِقُ أَيْدِيهِمْ يَكُونُ فِيهِ احْتِمَالُ أَنَّ ذَلِكَ مِنْهُمْ كَانَ جَبْرًا وَقَهْرًا وَالْإِقْرَارُ بِالْإِجْبَارِ غَيْرُ مَقْبُولٍ فَقَالَ تَعَالَى: وَتُكَلِّمُنا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ أَيْ بِاخْتِيَارِهَا بعد ما يُقْدِرُهَا اللَّهُ تَعَالَى عَلَى الْكَلَامِ لِيَكُونَ أَدَلَّ عَلَى صُدُورِ الذَّنْبِ مِنْهُمْ الثَّانِيَةُ: مِنْهَا هِيَ أن الله تعالى قال:

تُكَلِّمُنا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ جَعَلَ الشَّهَادَةَ لِلْأَرْجُلِ وَالْكَلَامَ لِلْأَيْدِي لِأَنَّ الْأَفْعَالَ تُسْنَدُ إِلَى الْأَيْدِي قَالَ تَعَالَى: ﴿**وَما عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ**﴾ [يس: ٣٥] ، أَيْ مَا عَمِلُوهُ وَقَالَ: ﴿**وَلا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ**﴾ [الْبَقَرَةِ: ١٩٥] ، أَيْ : وَلَا تُلْقُوا بِأَنْفُسِكُمْ فَإِذًا الْأَيْدِي كَالْعَامِلَةِ، وَالشَّاهِدُ عَلَى الْعَامِلِ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ غَيْرَهُ فَجَعَلَ الْأَرْجُلَ وَالْجُلُودَ مِنْ جُمْلَةِ الشُّهُودِ لِبُعْدِ إِضَافَةِ الْأَفْعَالِ إِلَيْهَا .

وَأَمَّا الْمَعْنَوِيَّةُ فَالْأُولَى مِنْهَا : أَنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَنْ تُقْبَلُ شَهَادَتُهُ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ وَالصِّدِّيقِينَ كُلُّهُمْ أَعْدَاءٌ لِلْمُجْرِمِينَ وَشَهَادَةُ الْعَدُوِّ عَلَى الْعَدُوِّ غَيْرُ مَقْبُولَةٍ، وَإِنْ كَانَ مِنَ الشُّهُودِ الْعُدُولِ وَغَيْرِ الصِّدِّيقِينَ مِنَ الْكُفَّارِ وَالْفُسَّاقِ غَيْرَ مَقْبُولِ الشَّهَادَةِ فَجَعَلَ اللَّهُ الشَّاهِدَ عَلَيْهِمْ مِنْهُمْ، لَا يُقَالُ الْأَيْدِي وَالْأَرْجُلُ أَيْضًا صَدَرَتِ الذُّنُوبُ مِنْهَا فَهِيَ فَسَقَةٌ فَيَنْبَغِي أَنْ لَا تُقْبَلَ شَهَادَتُهَا، لِأَنَّا نَقُولُ فِي رَدِّ شَهَادَتِهَا قَبُولُ شهادتها، لأنَّها إِنْ كَذَبَتْ فِي مِثْلِ ذَلِكَ الْيَوْمِ فَقَدْ صَدَرَ الذَّنْبُ مِنْهَا فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ، وَالْمُذْنِبُ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ مَعَ ظُهُورِ الْأُمُورِ، لَا بُدَّ مِنْ أَنْ يَكُونَ مُذْنِبًا فِي الدُّنْيَا، وَإِنْ صَدَقَتْ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ فَقَدْ صَدَرَ مِنْهَا الذَّنْبُ فِي الدُّنْيَا، وَهَذَا كَمَنْ قَالَ لِفَاسِقٍ: إِنْ كَذَبْتَ فِي نَهَارِ هَذَا الْيَوْمِ فَعَبْدِي حُرٌّ، فَقَالَ الْفَاسِقُ: كَذَبْتُ فِي نَهَارِ هَذَا الْيَوْمِ عتَقَ الْعَبْدُ،

لِأَنَّهُ إِنْ صَدَقَ فِي قَوْلِهِ كَذَبْتُ فِي نَهَارِ هَذَا الْيَوْمِ فَقَدْ وُجِدَ الشَّرْطُ وَوَجَبَ الْجَزَاءُ، وَإِنْ كَذَبَ فِي قَوْلِهِ كَذَبْتُ فَقَدْ كَذَبَ فِي نَهَارِ ذَلِكَ الْيَوْمِ، فَوُجِدَ الشَّرْطُ أَيْضًا بِخِلَافِ مَا لَوْ قَالَ فِي الْيَوْمِ الثَّانِي كَذَبْتُ فِي نَهَارِ الْيَوْمِ الَّذِي عَلَّقْتَ عِتْقَ عَبْدِكَ عَلَىٰ كَذِبِي فِيهِ.

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ: الْخَتْمُ لَازِمٌ الْكُفَّارَ فِي الدُّنْيَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَفِي الْآخِرَةِ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ، فَفِي الْوَقْتِ الَّذِي كَانَ الْخَتْمُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ كَانَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿**ذلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْواهِهِمْ**﴾ [التَّوْبَة: ٣٠] فَلَمَّا خُتِمَ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ أَيْضًا لَزِمَ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُمْ بِأَعْضَائِهِمْ، لِأَنَّ الْإِنْسَانَ لَا يَمْلِكُ غَيْرَ الْقَلْبِ وَاللِّسَانِ وَالْأَعْضَاءِ، فَإِذَا لَمْ يَبْقَ الْقَلْبُ وَالْفَمُ تَعَيَّنَ الجوارح والأركان" .

وقال الإمام القرطبي في " الجامع لأحكام القرآن" (١٥/٤٨-٤٩) : "قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿**الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلى أَفْواهِهِمْ وَتُكَلِّمُنا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِما كانُوا يَكْسِبُونَ**﴾ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَضَحِكَ فَقَالَ: (هَلْ تَدْرُونَ مِمَّ أَضْحَكُ؟ - قُلْنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ قَالَ- مِنْ مُخَاطَبَةِ الْعَبْدِ رَبَّهُ، يَقُولُ يَا رَبِّ أَلَمْ تُجِرْنِي مِنَ الظُّلْمِ قَالَ: يَقُولُ بَلَىٰ فَيَقُولُ فَإِنِّي لَا أُجِيزُ عَلَىٰ نَفْسِي إِلَّا شَاهِدًا مِنِّي قَالَ فَيَقُولُ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ شَهِيدًا وَبِالْكِرَامِ الْكَاتِبِينَ شُهُودًا قَالَ فَيَخْتِمُ عَلَىٰ فِيهِ فَيُقَالُ لِأَرْكَانِهِ انْطِقِي قَالَ فَتَنْطِقُ بِأَعْمَالِهِ قَالَ: ثُمَّ يُخَلَّىٰ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْكَلَامِ فَيَقُولُ بُعْدًا لَكُنَّ وَسُحْقًا فَعَنْكُنَّ كُنْتُ أُنَاضِلُ" خَرَّجَهُ أَيْضًا مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ. وَفِيهِ:" ثُمَّ يُقَالُ لَهُ الْآنَ نَبْعَثُ شَاهِدَنَا عَلَيْكَ وَيَتَفَكَّرُ فِي نَفْسِهِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْهَدُ عَلَيَّ فَيُخْتَمُ عَلَىٰ فِيهِ وَيُقَالُ لِفَخِذِهِ (وَلَحْمِهِ وَعِظَامِهِ) انْطِقِي فَتَنْطِقُ فَخِذُهُ وَلَحْمُهُ وَعِظَامُهُ بِعَمَلِهِ وَذَلِكَ لِيُعْذَرَ مِنْ نَفْسِهِ ، وَذَلِكَ الْمُنَافِقُ وَذَلِكَ الَّذِي يَسْخَطُ اللَّهُ عَلَيْهِ". وَخَرَّجَ التِّرْمِذِيُّ عَنْ مُعَاوِيَةَ بْنِ حَيْدَةَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي حَدِيثٍ ذَكَرَهُ قال: وأشاره بِيَدِهِ إِلَىٰ الشَّامِ فَقَالَ" مِنْ هَاهُنَا إِلَىٰ ها هنا تُحْشَرُونَ رُكْبَانًا وَمُشَاةً وَتُجَرُّونَ عَلَىٰ وُجُوهِكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ أَفْوَاهِكُمُ الْفِدَامُ تُوفُونَ سَبْعِينَ أُمَّةً أَنْتُمْ خَيْرُهُمْ وَأَكْرَمُهُمْ عَلَىٰ اللَّهِ وَإِنَّ أَوَّلَ مَا يُعْرِبُ عَنْ أَحَدِكُمْ فَخِذُهُ" فِي رِوَايَةٍ أُخْرَىٰ:" فَخِذُهُ وَكَفُّهُ" الْفِدَامُ مِصْفَاةُ الْكُوزِ وَالْإِبْرِيقِ، قال اللَّيْثُ. قَالَ أَبُو عُبَيْدٍ: يَعْنِي أَنَّهُمْ مُنِعُوا الْكَلَامَ حَتَّىٰ تَكَلَّمَ أَفْخَاذُهُمْ فَشَبَّهَ ذَلِكَ بِالْفِدَامِ الَّذِي يُجْعَلُ عَلَىٰ الْإِبْرِيقِ. ثُمَّ قِيلَ فِي سَبَبِ الْخَتْمِ أَرْبَعَةُ أَوْجُهٍ :

أَحَدُهَا: لِأَنَّهُمْ قَالُوا : ﴿**وَاللَّهِ رَبِّنا ما كُنَّا مُشْرِكِينَ**﴾ [الأنعام: ٢٣] فَخَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ حَتَّىٰ نَطَقَتْ جَوَارِحُهُمْ، قَالَهُ أَبُو مُوسَىٰ الْأَشْعَرِيُّ.

الثَّانِي: لِيَعْرِفَهُمْ أَهْلُ الْمَوْقِفِ فَيَتَمَيَّزُونَ مِنْهُمْ، قَالَهُ ابْنُ زِيَادٍ .

الثَّالِثُ: لِأَنَّ إِقْرَارَ غَيْرِ النَّاطِقِ أَبْلَغُ فِي الْحُجَّةِ مِنْ إِقْرَارِ النَّاطِقِ لِخُرُوجِهِ مَخْرَجَ الْإِعْجَازِ، إِنْ كَانَ يَوْمًا لَا يَحْتَاجُ إِلَىٰ إِعْجَازٍ .

الرَّابِعُ: لِيَعْلَمَ أَنَّ أَعْضَاءَهُ الَّتِي كَانَتْ أَعْوَانًا فِي حَقِّ نَفْسِهِ صَارَتْ عَلَيْهِ شُهُودًا فِي حَقِّ رَبِّهِ. فَإِنْ قِيلَ: لِمَ قَالَ : ﴿**وَتُكَلِّمُنا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ**﴾ فَجَعَلَ مَا كَانَ مِنَ الْيَدِ كَلَامًا، وَمَا كَانَ مِنَ الرِّجْلِ شَهَادَةً؟ قِيلَ: إِنَّ الْيَدَ مُبَاشِرَةٌ لِعَمَلِهِ وَالرِّجْلِ حَاضِرَةٌ، وَقَوْلُ الْحَاضِرِ عَلَىٰ غَيْرِهِ شَهَادَةٌ، وَقَوْلُ الْفَاعِلِ عَلَىٰ نَفْسِهِ إِقْرَارٌ بِمَا قَالَ أَوْ فَعَلَ، فَلِذَلِكَ عَبَّرَ عَمَّا صَدَرَ مِنَ الْأَيْدِي بِالْقَوْلِ وَعَمَّا صَدَرَ مِنَ الْأَرْجُلِ بِالشَّهَادَةِ. وَقَدْ رُوِيَ عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ:" أَوَّلُ عَظْمٍ مِنَ الْإِنْسَانِ يَتَكَلَّمُ يَوْمَ يُخْتَمُ عَلَىٰ الْأَفْوَاهِ فَخِذُهُ مِنَ الرِّجْلِ الْيُسْرَىٰ" ذَكَرَهُ الْمَاوَرْدِيُّ وَالْمَهْدَوِيُّ. وَقَالَ أَبُو مُوسَىٰ الْأَشْعَرِيُّ: إِنِي لَأَحْسَبُ أَنَّ أَوَّلَ مَا يَنْطِقُ مِنْهُ فَخِذُهُ الْيُمْنَىٰ، ذَكَرَهُ الْمَهْدَوِيُّ أَيْضًا. قَالَ الْمَاوَرْدِيُّ: فَاحْتَمَلَ أَنْ يَكُونَ تَقَدُّمَ الْفَخِذِ بِالْكَلَامِ عَلَىٰ سَائِرِ الْأَعْضَاءِ، لِأَنَّ لَذَّةَ مَعَاصِيهِ يُدْرِكُهَا بِحَوَاسِّهِ الَّتِي هِيَ فِي الشَّطْرِ الْأَسْفَلِ مِنْهَا الْفَخِذُ، فَجَازَ لِقُرْبِهِ مِنْهَا أَنْ يَتَقَدَّمَ فِي الشَّهَادَةِ عَلَيْهَا. قَالَ: وَتَقَدَّمَتِ الْيُسْرَىٰ، لِأَنَّ الشَّهْوَةَ فِي مَيَامِنِ الْأَعْضَاءِ أَقْوَىٰ مِنْهَا فِي مَيَاسِرِهَا، فَلِذَلِكَ تَقَدَّمَتِ الْيُسْرَىٰ عَلَىٰ الْيُمْنَىٰ لِقِلَّةِ شَهْوَتِهَا. قُلْتُ: أَوْ بِالْعَكْسِ لِغَلَبَةِ الشَّهْوَةِ، أَوْ كِلَاهُمَا مَعًا وَالْكَفُّ، فَإِنَّ بِمَجْمُوعِ ذَلِكَ يَكُونُ تَمَامُ الشَّهْوَةِ وَاللَّذَّةِ. وَاللَّهُ أَعْلَمُ" .

وقال تعالىٰ : ﴿**وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْداءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ * حَتَّى إِذا مَا جاؤُها شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِما كانُوا يَعْمَلُونَ * وَقالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنا قالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ * وَما كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلا أَبْصارُكُمْ وَلا جُلُودُكُمْ وَلكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لا يَعْلَمُ كَثِيراً مِمَّا تَعْمَلُونَ * وَذلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْداكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخاسِرِينَ**﴾ [الصف:١٩-٢٣] .

قال الإمام السَّمرقندي في " بحر العلوم" (٣/ ٢٢٣-٢٢٤) : " قال عزَّ وجلَّ: ﴿**وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْداءُ اللَّهِ**﴾ يعني: يساق أعداء الله، وهم الكفَّار والمنافقون، ﴿**إِلَى النَّارِ**﴾ . قرأ نافع: وَيَوْمَ نَحْشُرُ بالنُّون، أعداء: بالنَّصب، علىٰ معنىٰ الإضافة إلىٰ نفسه. وقرأ الباقون: بالياء والضَّم. ﴿**يُحْشَرُ أَعْداءُ اللَّهِ**﴾ علىٰ معنىٰ فعل ما لم يسم فاعله، ويوم صار نصباً لإضمار فيه. يعني: واذكر يَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ الله إِلَىٰ النَّارِ، ﴿**فَهُمْ يُوزَعُونَ**﴾ ، يعني: يحبس أولهم: ليلحق بهم آخرهم. وأصله من وزعته أي: كففته.

﴿**حَتَّى إِذا مَا جاؤُها**﴾ يعني: إذا جاءوها، ما صلة في الكلام. يعني: جاءوا النَّار، وعاينوها. قيل لهم: ﴿**أَيْنَ شُرَكاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ**﴾ [الأنعام: ٢٢] فقالوا عند ذلك : ﴿**وَالله رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ**﴾ فيختم

علىٰ أفواههم، وتستنطق جوارحهم، فتنطق بما كتمت الألسن، فذلك قوله: **﴿شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ﴾** يعني: آذانهم بما سمعت، **﴿وَأَبْصارُهُمْ﴾**، يعني: أعينهم بما نظرت، ورأت، **﴿وَجُلُودُهُمْ﴾**، يعني: فروجهم، **﴿بِمَا كانُوا يَعْمَلُونَ﴾**، يعني: بجميع أعمالهم.

قوله تعالىٰ: **﴿وَقالُوا لِجُلُودِهِمْ﴾**، يعني: لجوارحهم. وقال القتبي: الجلود كناية عن الفروج، **﴿لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنا قالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾**، يعني: أنطق الدَّواب، وغيرهم، **﴿وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾**، يعني: أنطقكم في الدُّنيا، **﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾** في الآخرة.

يقول الله تعالىٰ: **﴿وَما كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ﴾**، يعني: ما كنتم تمتنعون. ويقال: ما كنتم تحسبون، وتستيقنون، **﴿أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلا أَبْصارُكُمْ وَلا جُلُودُكُمْ وَلكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لاَ يَعْلَمُ كَثِيراً مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾** من الخير، والشَّر، **﴿وَذلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْداكُمْ﴾**، يعني: ذلك الظَّن الذي أهلككم. ويقال: **﴿أَرْداكُمْ﴾**، يعني: أغواكم. ويقال: أهلككم سوء الظَّن. وروىٰ الأعمش عن أبي صالح، عن أبي هريرة، عن رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «يقول الله تعالىٰ: «أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بي وَأَنَا مَعَهُ حَيْثُ يَذْكُرُنِي» . وقال الحسن: إنَّ المؤمن أحسن الظَّنَّ بربِّه، فأحسن العمل. وإنَّ المنافق أساء الظَّنَّ بربِّه، فأساء العمل. **﴿فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخاسِرِينَ﴾** يعني: صرتم من المغبونين" .

وقال الإمام الرَّازي في " التَّفسير" (٢٧/ ٥٥٥-٥٥٧) : " اعْلَمْ أَنَّهُ تَعَالَىٰ لَمَّا بَيَّنَ كَيْفِيَّةَ عُقُوبَةِ أُولَئِكَ الْكُفَّارِ فِي الدُّنْيَا أَرْدَفَهُ بِكَيْفِيَّةِ عُقُوبَتِهِمْ فِي الْآخِرَةِ، لِيَحْصُلَ مِنْهُ تَمَامُ الِاعْتِبَارِ فِي الزَّجْرِ وَالتَّحْذِيرِ، وَقَرَأَ نَافِعٌ نَحْشُرُ بِالنُّونِ أَعْدَاءَ بِالنَّصْبِ أَضَافَ الْحَشْرَ إِلَىٰ نَفْسِهِ، وَالتَّقْدِيرُ يَحْشُرُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَعْدَاءَهُ الْكُفَّارَ مِنَ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ وَحُجَّتُهُ أَنَّهُ مَعْطُوفٌ عَلَىٰ قَوْلِهِ **﴿وَنَجَّيْنا﴾** [فُصِّلَتْ: ١٨] فَيَحْسُنُ أَنْ يَكُونَ عَلَىٰ وَفْقِهِ فِي اللفظ، ويقويه قوله : **﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ﴾** [مريم: ٨٥] ، **﴿وَحَشَرْناهُمْ﴾** [الكهف: ٤٧] ، وَأَمَّا الْبَاقُونَ فَقَرَءُوا عَلَىٰ فِعْلِ مَا لَمْ يُسَمَّ فَاعِلُهُ لِأَنَّ قِصَّةَ ثَمُودَ قَدْ تَمَّتْ وَقَوْلُهُ وَيَوْمَ يُحْشَرُ ابْتِدَاءُ كَلَامٍ آخَرَ، وَأَيْضًا الْحَاشِرُونَ لَهُمْ هُمُ الْمَأْمُورُونَ بِقَوْلِهِ : **﴿احْشُرُوا﴾** [الصَّافَّاتِ: ٢٢] ، وَهُمُ الْمَلَائِكَةُ، وَأَيْضًا إِنَّ هَذِهِ الْقِرَاءَةَ مُوَافِقَةٌ لقوله : **﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾** [فصلت: ١٩] ، وَأَيْضًا فَتَقْدِيرُ الْقِرَاءَةِ الْأُولَىٰ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَىٰ قَالَ: وَيَوْمَ نَحْشُرُ أَعْدَاءَ اللَّهِ إِلَىٰ النَّارِ فَكَانَ الْأَوْلَىٰ عَلَىٰ هَذَا التَّقْدِيرِ أَنْ يُقَالَ وَيَوْمَ نَحْشُرُ أَعْدَاءَنَا إِلَىٰ النَّارِ.

وَاعْلَمْ أَنَّهُ تَعَالَىٰ لَمَّا ذَكَرَ أَنَّ أَعْدَاءَ اللَّهِ يُحْشَرُونَ إِلَىٰ النَّارِ قَالَ: **﴿فَهُمْ يُوزَعُون﴾**، أَيْ يُحْبَسُ أَوَّلُهُمْ عَلَىٰ آخِرِهِمْ، أَيْ : يُوقَفُ سَوَابِقُهُمْ حَتَّىٰ يَصِلَ إِلَيْهِمْ تَوَالِيهِمْ، وَالْمَقْصُودُ بَيَانُ أَنَّهُمْ إِذَا اجْتَمَعُوا سَأَلُوا عَنْ أَعْمَالِهِمْ.

ثُمَّ قَالَ: ﴿حَتَّى إِذا ما جاؤُها شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ﴾، وَفِيهِ مَسَائِلُ:

المَسْأَلَةُ الأُوْلَى: التَّقدير حتى إذا جاؤها شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ، وَعَلَىٰ هَذَا التَّقْدِيرِ فَكَلِمَةُ مَا صِلَةٌ، وَقِيلَ فِيهَا فَائِدَةٌ زَائِدَةٌ وَهِيَ تَأْكِيدُ أَنَّ عِنْدَ مَجِيئِهِمْ لَا بُدَّ وَأَنْ تَحْصُلَ هَذِهِ الشَّهَادَةُ كَقَوْلِهِ: ﴿أَثُمَّ إِذا مَا وَقَعَ آمَنْتُمْ بِهِ﴾ [يُونُس: ٥١]، أَيْ: لَا بُدَّ لِوَقْتِ وُقُوعِهِ مِنْ أَنْ يَكُونَ وَقْتَ إِيمَانِهِمْ بِهِ.

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ: رُوِيَ أَنَّ الْعَبْدَ يَقُولُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: يَا رَبَّ الْعِزَّةِ أَلَسْتَ قَدْ وَعَدْتَنِي أَنْ لَا تَظْلِمَنِي، فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَىٰ فَإِنَّ لَكَ ذَلِكَ، فَيَقُولُ الْعَبْدُ إِنِّي لَا أَقْبَلُ عَلَىٰ نَفْسِي شَاهِدًا إِلَّا مِنْ نَفْسِي، فَيَخْتِمُ اللَّهُ عَلَىٰ فِيهِ وَيُنْطِقُ أَعْضَاءَهُ بِالْأَعْمَالِ الَّتِي صَدَرَتْ مِنْهُ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ﴾، وَاخْتَلَفَ النَّاسُ فِي كَيْفِيَّةِ الشَّهَادَةِ وَفِيهِ ثَلَاثَةُ أَقْوَالٍ:

أَحَدُهَا: أَنَّهُ تَعَالَىٰ يَخْلُقُ الْفَهْمَ وَالْقُدْرَةَ وَالنُّطْقَ فِيهَا فَتَشْهَدُ كَمَا يَشْهَدُ الرَّجُلُ عَلَىٰ مَا يَعْرِفُهُ.

وَالثَّانِي: أَنَّهُ تَعَالَىٰ يَخْلُقُ فِي تِلْكَ الْأَعْضَاءِ الْأَصْوَاتَ وَالْحُرُوفَ الدَّالَّةَ عَلَىٰ تِلْكَ الْمَعَانِي كَمَا خَلَقَ الْكَلَامَ فِي الشَّجَرَةِ.

وَالثَّالِثُ: أَنْ يُظْهِرَ تِلْكَ الْأَعْضَاءُ أَحْوَالًا تَدُلُّ عَلَىٰ صُدُورِ تِلْكَ الْأَعْمَالِ مِنْ ذَلِكَ الْإِنْسَانِ، وَتِلْكَ الْأَمَارَاتُ تُسَمَّىٰ شَهَادَاتٍ، كَمَا يُقَالُ يَشْهَدُ هَذَا الْعَالَمُ بِتَغَيُّرَاتِ أَحْوَالِهِ عَلَىٰ حُدُوثِهِ، وَاعْلَمْ أَنَّ هَذِهِ الْمَسْأَلَةَ صَعْبَةٌ عَلَىٰ الْمُعْتَزِلَةِ.

أَمَّا الْقَوْلُ الْأَوَّلُ: فَهُوَ صَعْبٌ عَلَىٰ مَذْهَبِهِمْ لِأَنَّ الْبِنْيَةَ عِنْدَهُمْ شَرْطٌ لِحُصُولِ الْعَقْلِ وَالْقُدْرَةِ فَاللِّسَانُ مَعَ كَوْنِهِ لِسَانًا يَمْتَنِعُ أَنْ يَكُونَ مَحَلًّا لِلْعِلْمِ وَالْعَقْلِ، فَإِنْ غَيَّرَ اللَّهُ تَعَالَىٰ تِلْكَ الْبِنْيَةَ وَالصُّورَةَ خَرَجَ عَنْ كَوْنِهِ لِسَانًا وَجِلْدًا، وَظَاهِرُ الْآيَةِ يَدُلُّ عَلَىٰ إِضَافَةِ تِلْكَ الشَّهَادَةِ إِلَىٰ السَّمْعِ وَالْبَصَرِ وَالْجُلُودِ، فَإِنْ قُلْنَا إِنَّ اللَّهَ تَعَالَىٰ مَا غَيَّرَ بِنْيَةَ هَذِهِ الْأَعْضَاءِ فَحِينَئِذٍ يَمْتَنِعُ عَلَيْهَا كونها عاقلة نَاطِقَةً فَاهِمَةً.

وَأَمَّا الْقَوْلُ الثَّانِي: وَهُوَ أَنْ يُقَالَ إِنَّ اللَّهَ تَعَالَىٰ خَلَقَ هَذِهِ الْأَصْوَاتَ وَالْحُرُوفَ فِي هَذِهِ الْأَعْضَاءِ، وَهَذَا أَيْضًا بَاطِلٌ عَلَىٰ أُصُولِ الْمُعْتَزِلَةِ لِأَنَّ مَذْهَبَهُمْ أَنَّ الْمُتَكَلِّمَ هُوَ الَّذِي فَعَلَ الْكَلَامَ، لَا مَا كَانَ مَوْصُوفًا بِالْكَلَامِ، فَإِنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّ اللَّهَ تَعَالَىٰ خَلَقَ الْكَلَامَ فِي الشَّجَرَةِ وَكَانَ الْمُتَكَلِّمُ بِذَلِكَ الْكَلَامِ هُوَ اللَّهُ تَعَالَىٰ لَا الشَّجَرَةُ، فَهَهُنَا لَوْ قُلْنَا إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ الْأَصْوَاتَ وَالْحُرُوفَ فِي تِلْكَ الْأَعْضَاءِ لَزِمَ أَنْ يَكُونَ الشَّاهِدُ هُوَ اللَّهُ تَعَالَىٰ لَا تِلْكَ، وَلَزِمَ أَنْ يَكُونَ الْمُتَكَلِّمُ بِذَلِكَ الْكَلَامِ هُوَ اللَّهُ لَا تِلْكَ الْأَعْضَاءُ، وَظَاهِرُ الْقُرْآنِ يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّ تِلْكَ الشَّهَادَةَ شَهَادَةٌ صَدَرَتْ مِنْ تِلْكَ الْأَعْضَاءِ لَا مِنَ اللَّهِ تَعَالَىٰ لِأَنَّهُ تَعَالَىٰ قَالَ: شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ وَأَيْضًا أَنَّهُمْ قَالُوا لِتِلْكَ الْأَعْضَاءِ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا فَقَالَتِ الْأَعْضَاءُ أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ

شَيْءٍ وَكُلُّ هَذِهِ الْآيَاتِ دَالَّةٌ عَلَىٰ أَنَّ الْمُتَكَلِّمَ بِتِلْكَ الْكَلِمَاتِ هِيَ تِلْكَ الْأَعْضَاءُ، وَأَنَّ تِلْكَ الْكَلِمَاتِ لَيْسَتْ كَلَامَ اللَّهِ تَعَالَىٰ، فَهَذَا تَوْجِيهُ الْإِشْكَالِ عَلَىٰ هَذَيْنِ الْقَوْلَيْنِ.

وَأَمَّا الْقَوْلُ الثَّالِثُ: وَهُوَ تَفْسِيرُ هَذِهِ الشَّهَادَةِ بِظُهُورِ أَمَارَاتٍ مَخْصُوصَةٍ عَلَىٰ هَذِهِ الْأَعْضَاءِ دَالَّةٍ عَلَىٰ صُدُورِ تِلْكَ الْأَعْمَالِ مِنْهُمْ، فَهَذَا عُدُولٌ عَنِ الْحَقِيقَةِ إِلَىٰ الْمَجَازِ وَالْأَصْلُ عَدَمُهُ، فَهَذَا مُنْتَهَىٰ الْكَلَامِ فِي هَذَا الْبَحْثِ، أَمَّا عَلَىٰ مَذْهَبِ أَصْحَابِنَا فَهَذَا الْإِشْكَالُ غَيْرُ لَازِمٍ، لِأَنَّ عِنْدَنَا الْبِنْيَةَ لَيْسَتْ شَرْطًا لِلْحَيَاةِ وَلَا لِلْعِلْمِ وَلَا لِلْقُدْرَةِ، فَاللَّهُ تَعَالَىٰ قَادِرٌ عَلَىٰ خَلْقِ الْعَقْلِ وَالْقُدْرَةِ وَالنُّطْقِ فِي كُلِّ جُزْءٍ مِنْ أَجْزَاءِ هَذِهِ الْأَعْضَاءِ، وَعَلَىٰ هَذَا التَّقْدِيرِ فَالْإِشْكَالُ زَائِلٌ وَهَذِهِ الْآيَةِ يَحْسُنُ التَّمَسُّكُ بِهَا فِي بَيَانِ أَنَّ الْبِنْيَةَ لَيْسَتْ شَرْطًا لِلْحَيَاةِ وَلَا لِشَيْءٍ مِنَ الصِّفَاتِ الْمَشْرُوطَةِ بِالْحَيَاةِ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ: مَا رَأَيْتُ لِلْمُفَسِّرِينَ فِي تَخْصِيصِ هَذِهِ الْأَعْضَاءِ الثَّلَاثَةِ بِالذِّكْرِ سَبَبًا وَفَائِدَةً، وَأَقُولُ : لَا شَكَّ أَنَّ الْحَوَاسَّ خَمْسَةٌ السَّمْعُ وَالْبَصَرُ وَالشَّمُّ وَالذَّوْقُ وَاللَّمْسُ، وَلَا شَكَّ أَنَّ آلَةَ اللمس هي الجلد، فالله تعالىٰ ذكر هاهنا مِنَ الْحَوَاسِّ وَهِيَ السَّمْعُ وَالْبَصَرُ وَاللَّمْسُ، وَأَهْمَلَ ذِكْرَ نَوْعَيْنِ وَهُمَا الذَّوْقُ وَالشَّمُّ، لِأَنَّ الذَّوْقَ دَاخِلٌ فِي اللَّمْسِ مِنْ بَعْضِ الْوُجُوهِ، لِأَنَّ إِدْرَاكَ الذَّوْقِ إِنَّمَا يَتَأَتَّىٰ بِأَنْ تَصِيرَ جِلْدَةُ اللِّسَانِ وَالْحَنَكِ مُمَاسَّةً لِجِرْمِ الطَّعَامِ، فَكَانَ هَذَا دَاخِلًا فِيهِ فَبَقِيَ حِسُّ الشَّمِّ وَهُوَ حِسٌّ ضَعِيفٌ فِي الْإِنْسَانِ، وَلَيْسَ لِلَّهِ فِيهِ تَكْلِيفٌ وَلَا أَمْرٌ وَلَا نَهْيٌ، إِذَا عَرَفْتَ هَذَا فَنَقُولُ نُقِلَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ قَالَ الْمُرَادُ مِنْ شَهَادَةِ الْجُلُودِ شَهَادَةُ الْفُرُوجِ قَالَ وَهَذَا مِنْ بَابِ الْكِنَايَاتِ كَمَا قَالَ: **﴿وَلَكِنْ لَا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا﴾** [الْبَقَرَة: ٢٣٥] ، وَأَرَادَ النِّكَاحَ وَقَالَ: **﴿أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ﴾** [النِّسَاء: ٤٣] ، وَالْمُرَادُ قَضَاءُ الْحَاجَةِ .

وَعَنِ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: «أَوَّلُ مَا يَتَكَلَّمُ مِنَ الْآدَمِيِّ فَخِذُهُ وَكَفُّهُ" .

وَعَلَىٰ هَذَا التَّقْدِيرِ فَتَكُونُ هَذِهِ الْآيَةُ وَعِيدًا شَدِيدًا فِي الْإِتْيَانِ بِالزِّنَا، لِأَنَّ مُقَدِّمَةَ الزِّنَا إِنَّمَا تَحْصُلُ بِالْكَفِّ، وَنِهَايَةُ الْأَمْرِ فِيهَا إِنَّمَا تَحْصُلُ بِالْفَخِذِ.

ثُمَّ حكىٰ الله تعالىٰ عنهم أَنَّهُمْ يَقُولُونَ لِتِلْكَ الْأَعْضَاءِ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ وَمَعْنَاهُ أَنَّ الْقَادِرَ عَلَىٰ خَلْقِكُمْ وَإِنْطَاقِكُمْ فِي الْمَرَّةِ الْأُولَىٰ حَالَمَا كُنْتُمْ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ عَلَىٰ خَلْقِكُمْ وَإِنْطَاقِكُمْ فِي الْمَرَّةِ الثَّانِيَةِ ، وَهِيَ حَالُ القيامة والبعث كيف يُسْتَبْعَدُ مِنْهُ إِنْطَاقُ الْجَوَارِحِ وَالْأَعْضَاءِ؟

ثُمَّ قَالَ تَعَالَىٰ: **﴿وَما كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلا أَبْصارُكُمْ وَلا جُلُودُكُمْ﴾** ، وَالْمَعْنَىٰ : إِثْبَاتُ أَنَّهُمْ كَانُوا يَسْتَتِرُونَ عِنْدَ الْإِقْدَامِ عَلَىٰ الْأَعْمَالِ الْقَبِيحَةِ، إِلَّا أَنَّ اسْتِتَارَهُمْ مَا كَانَ لِأَجْلِ خَوْفِهِمْ مِنْ أَنْ

يَشْهَدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ وَذَلِكَ لِأَنَّهُمْ كَانُوا مُنْكِرِينَ لِلْبَعْثِ وَالْقِيَامَةِ، وَلَكِنَّ ذَلِكَ الِاسْتِتَارَ لِأَجْلِ أَنَّهُمْ كَانُوا يَظُنُّونَ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ الْأَعْمَالَ الَّتِي يُقْدِمُونَ عَلَيْهَا عَلَى سَبِيلِ الْخُفْيَةِ وَالِاسْتِتَارِ.

عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: كُنْتُ مُسْتَتِرًا بِأَسْتَارِ الْكَعْبَةِ فَدَخَلَ ثَلَاثَةُ نَفَرٍ عَلَيَّ ثَقَفِيَّانِ وَقُرَشِيٌّ فَقَالَ أَحَدُهُمْ: أَتَرَوْنَ اللَّهَ يَسْمَعُ مَا تَقُولُونَ؟ فَقَالَ الرَّجُلَانِ إِذَا سَمِعْنَا أَصْوَاتَنَا سَمِعَ وَإِلَّا لَمْ يَسْمَعْ. فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَنَزَلَ وَما كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: **﴿وَذلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْداكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخاسِرِينَ﴾**، وَهَذَا نَصٌّ صَرِيحٌ فِي أَنَّ مَنْ ظَنَّ بِاللَّهِ تَعَالَى أَنَّهُ يَخْرُجُ شَيْءٌ مِنَ الْمَعْلُومَاتِ عَنْ عِلْمِهِ فَإِنَّهُ يَكُونُ مِنَ الْهَالِكِينَ الْخَاسِرِينَ، قَالَ أَهْلُ التَّحْقِيقِ الظَّنُّ قِسْمَانِ ظَنٌّ حَسَنٌ بِاللَّهِ تَعَالَى وَظَنٌّ فَاسِدٌ، أَمَّا الظَّنُّ الْحَسَنُ فَهُوَ أَنْ يَظُنَّ بِهِ الرَّحْمَةَ وَالْفَضْلَ، قَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِكَايَةً عَنِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: «أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي" .

وَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا يَمُوتَنَّ أَحَدُكُمْ إِلَّا وَهُوَ يُحْسِنُ الظَّنَّ بِاللَّهِ " ، وَالظَّنُّ الْقَبِيحُ فاسد وهو أن يظن بالله تعالى أَنَّهُ يَعْزُبُ عَنْ عِلْمِهِ بَعْضُ هَذِهِ الْأَحْوَالِ، وَقَالَ قَتَادَةُ: الظَّنُّ نَوْعَانِ ظَنٌّ مُنْجٍ وَظَنٌّ مرد، فالمنج قَوْلُهُ : **﴿إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلاقٍ حِسابِيَهْ﴾** [الْحَاقَّةِ: ٢٠] ، وقوله : **﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاقُوا رَبِّهِمْ﴾** [الْبَقَرَةِ: ٤٦] ، وَأَمَّا الظَّنُّ الْمُرْدِي فَهُوَ قَوْلُهُ وَذلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْداكُمْ قَالَ صَاحِبُ «الْكَشَّافِ» وَذلِكُمْ رُفِعَ بِالِابْتِدَاءِ وظَنُّكُمْ وأَرْداكُمْ خَبَرَانِ وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ ظَنُّكُمْ بَدَلًا مِنْ ذلكم وَأَرْداكُمُ الْخَبَرَ" .

وقال الإمام القرطبي في " الجامع لأحكام القرآن" (١٥/ ٣٥٢-٣٥٣) : " قَوْلُهُ تَعَالَى: **﴿وَما كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ﴾** ، يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ هَذَا مِنْ قَوْلِ الْجَوَارِحِ لَهُمْ: وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مِنْ قَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ أَوِ الْمَلَائِكَةِ. وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: اجْتَمَعَ عِنْدَ الْبَيْتِ ثَلَاثَةُ نَفَرٍ، قُرَشِيَّانِ وَثَقَفِيٌّ أَوْ ثَقَفِيَّانِ وَقُرَشِيٌّ، قَلِيلٌ فِقْهُ قُلُوبِهِمْ، كَثِيرٌ شَحْمُ بُطُونِهِمْ: فَقَالَ أَحَدُهُمْ: أَتَرَوْنَ اللَّهَ يَسْمَعُ مَا نَقُولُ؟ فَقَالَ الْآخَرُ: يَسْمَعُ إِنْ جَهَرْنَا وَلَا يَسْمَعُ إِنْ أَخْفَيْنَا، وَقَالَ الْآخَرُ: إِنْ كَانَ يَسْمَعُ إِذَا جَهَرْنَا فَهُوَ يَسْمَعُ إِذَا أَخْفَيْنَا، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: **﴿وَما كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلا أَبْصارُكُمْ﴾** الْآيَةَ، خَرَّجَهُ التِّرْمِذِيُّ فَقَالَ: اخْتَصَمَ عِنْدَ الْبَيْتِ ثَلَاثَةُ نَفَرٌ. ثُمَّ ذَكَرَهُ بِلَفْظِهِ حَرْفًا حَرْفًا ، وَقَالَ: حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ، حَدَّثَنَا هَنَّادٌ قَالَ حَدَّثَنَا أَبُو مُعَاوِيَةَ عَنِ الْأَعْمَشِ عَنْ عمارة ابن عُمَيْرٍ عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ يَزِيدَ قَالَ : قَالَ عَبْدُ اللَّهِ: كُنْتُ مُسْتَتِرًا بِأَسْتَارِ الْكَعْبَةِ فجاء ثلاثة نفر كَثِيرٌ شَحْمِ بُطُونِهِمْ قَلِيلٌ فِقْهُ قُلُوبِهِمْ قُرَشِيٌّ وَخَتَنَاهُ ثَقَفِيَّانِ أَوْ ثَقَفِيٌّ وَخَتَنَاهُ قُرَشِيَّانِ فَتَكَلَّمُوا بِكَلَامٍ لَمْ أَفْهَمْهُ فَقَالَ أَحَدُهُمْ: أَتَرَوْنَ أَنَّ اللَّهَ يَسْمَعُ كَلَامَنَا هَذَا، فَقَالَ الْآخَرُ: إِنَّا إِذَا رَفَعْنَا أَصْوَاتَنَا سَمِعَهُ: وَإِذَا لَمْ نَرْفَعْ أَصْوَاتَنَا لَمْ يَسْمَعْهُ، فَقَالَ الْآخَرُ: إِنْ سَمِعَ مِنْهُ شَيْئًا سَمِعَهُ كُلَّهُ، فَقَالَ عَبْدُ

اللَّهِ: فَذَكَرَتْ ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَىٰ: **﴿وما كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلا أَبْصارُكُمْ وَلا جُلُودُكُمْ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخاسِرِينَ﴾** ، قَالَ: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ. قَالَ الثَّعْلَبِيُّ: وَالثَّقَفِيُّ عَبْدُ يَالِيلَ، وَخَتَنَاهُ رَبِيعَةُ وَصَفْوَانُ بْنُ أُمَيَّةَ. وَمَعْنَىٰ **﴿تَسْتَتِرُونَ﴾** تَسْتَخْفُونَ فِي قَوْلِ أَكْثَرِ الْعُلَمَاءِ، أَيْ : مَا كُنْتُمْ تَسْتَخْفُونَ مِنْ أَنْفُسِكُمْ حَذَرًا مِنْ شَهَادَةِ الْجَوَارِحِ عَلَيْكُمْ، لِأَنَّ الْإِنْسَانَ لَا يُمْكِنُهُ أَنْ يُخْفِيَ مِنْ نَفْسِهِ عَمَلَهُ، فَيَكُونُ الِاسْتِخْفَاءُ بِمَعْنَىٰ تَرْكِ الْمَعْصِيَةِ. وَقِيلَ: الِاسْتِتَارُ بِمَعْنَىٰ الِاتِّقَاءِ، أَيْ : مَا كُنْتُمْ تَتَّقُونَ فِي الدُّنْيَا أَنْ تَشْهَدَ عَلَيْكُمْ جَوَارِحُكُمْ فِي الْآخِرَةِ فَتَتْرُكُوا الْمَعَاصِي خَوْفًا مِنْ هَذِهِ الشَّهَادَةِ. وَقَالَ مَعْنَاهُ مُجَاهِدٌ. وَقَالَ قَتَادَةُ: **﴿وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ﴾** ، أَيْ : تَظُنُّونَ **﴿أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ﴾** بِأَنْ يَقُولَ سَمِعْتُ الْحَقَّ وَمَا وَعَيْتُ وَسَمِعْتُ مَا لَا يَجُوزُ مِنَ الْمَعَاصِي **﴿وَلا أَبْصارُكُمْ﴾** فَتَقُولُ : رَأَيْتُ آيَاتِ اللَّهِ وَمَا اعْتَبَرْتُ وَنَظَرْتُ فِيمَا لَا يَجُوزُ **﴿وَلا جُلُودُكُمْ﴾** تَقَدَّمَ. **﴿وَلكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لا يَعْلَمُ كَثِيراً مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾** مِنْ أَعْمَالِكُمْ فَجَادَلْتُمْ عَلَىٰ ذَلِكَ حَتَّىٰ شَهِدَتْ عَلَيْكُمْ جَوَارِحُكُمْ بِأَعْمَالِكُمْ. رَوَىٰ بَهْزُ بْنُ حَكِيمٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي قَوْلِهِ: **﴿أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلا أَبْصارُكُمْ وَلا جُلُودُكُمْ﴾** ، قَالَ:" إِنَّكُمْ تُدْعَوْنَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مُفَدَّمَةٌ أَفْوَاهُكُمْ بِفِدَامٍ فَأَوَّلُ مَا يُبَيِّنُ عَنِ الْإِنْسَانِ فَخِذُهُ وَكَفُّهُ" قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبْدِ الْأَعْلَىٰ الشَّامِيُّ فَأَحْسَنَ.

الْعُمْرُ ينقص والذُّنوب تزيد ... وَتقال عَثَرَاتُ الْفَتَىٰ فَيَعُودُ
هَلْ يَسْتَطِيعُ جُحُودَ ذَنْبٍ وَاحِدٍ ... رَجُلٌ جَوَارِحُهُ عَلَيْهِ شُهُودُ
وَالْمَرْءُ يَسْأَلُ عَنْ سِنِيهِ فَيَشْتَهِي ... تَقْلِيلَهَا وَعَنِ الْمَمَاتِ يَحِيدُ

وَعَنْ مَعْقِلِ بْنِ يَسَارٍ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:" لَيْسَ مِنْ يَوْمٍ يَأْتِي عَلَىٰ ابْنِ آدَمَ إِلَّا يُنَادَىٰ فِيهِ يَا ابْنَ آدَمَ أَنَا خَلْقٌ جَدِيدٌ وَأَنَا فِيمَا تَعْمَلُ غَدًا عَلَيْكَ شَهِيدٌ فَاعْمَلْ فِيَّ خَيْرًا أَشْهَدْ لَكَ بِهِ غَدًا فَإِنِّي لَوْ قَدْ مَضَيْتُ لَمْ تَرَنِي أَبَدًا وَيَقُولُ اللَّيْلُ مِثْلَ ذَلِكَ" ذَكَرَهُ أَبُو نُعَيْمٍ الْحَافِظُ وَقَدْ ذَكَرْنَاهُ فِي كِتَابِ التَّذْكِرَةِ فِي بَابِ شَهَادَةِ الْأَرْضِ وَاللَّيَالِي وَالْأَيَّامِ وَالْمَالِ. وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ بَشِيرٍ فَأَحْسَنَ:

مَضَىٰ أَمْسُكَ الْأَدْنَىٰ شَهِيدًا مُعَدَّلَا ... وَيَوْمُكَ هَذَا بِالْفِعَالِ شَهِيدُ
فَإِنْ تَكُ بِالْأَمْسِ اقْتَرَفْتَ إِسَاءَةً ... فَثَنِّ بِإِحْسَانٍ وَأَنْتَ حَمِيدُ
وَلَا تُرْجِ فِعْلَ الْخَيْرِ مِنْكَ إِلَىٰ غَدٍ ... لَعَلَّ غَدًا يَأْتِي وَأَنْتَ فَقِيدُ

قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَذلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْداكُمْ﴾ ، أَيْ : أَهْلَكَكُمْ فَأَوْرَدَكُمُ النَّارَ. قَالَ قَتَادَةُ: الظَّنُّ هُنَا بِمَعْنَىٰ الْعِلْمِ. وَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:" لَا يَمُوتَنَّ أَحَدُكُمْ إِلَّا وَهُوَ يُحْسِنُ الظَّنَّ بِاللَّهِ فَإِنَّ قَوْمًا أَسَاءُوا الظَّنَّ بِرَبِّهِمْ فَأَهْلَكَهُمْ" فَذَلِكَ قَوْلُهُ: **﴿وَذلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْداكُمْ﴾** . وَقَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: إِنَّ قَوْمًا أَلْهَتْهُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ خَرَجُوا مِنَ الدُّنْيَا وَمَا لَهُمْ حَسَنَةٌ، وَيَقُولُ أَحَدُهُمْ: إِنِّي أُحْسِنُ الظَّنَّ بِرَبِّي وَكَذَبَ، وَلَوْ أَحْسَنَ الظَّنَّ لَأَحْسَنَ الْعَمَلَ، وَتَلَا قَوْلَ اللَّهِ تَعَالَىٰ: **﴿وَذلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْداكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخاسِرِينَ﴾** . وَقَالَ قَتَادَةُ: مَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ أَنْ يَمُوتَ وَهُوَ حَسَنُ الظَّنِّ بِرَبِّهِ فَلْيَفْعَلْ، فَإِنَّ الظَّنَّ اثْنَانِ ظَنٌّ يُنْجِي وَظَنٌّ يُرْدِي. وَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: هَؤُلَاءِ قَوْمٌ كَانُوا يُدْمِنُونَ الْمَعَاصِي وَلَا يَتُوبُونَ مِنْهَا وَيَتَكَلَّمُونَ عَلَىٰ الْمَغْفِرَةِ، حَتَّىٰ خَرَجُوا مِنَ الدُّنْيَا مَفَالِيسَ، ثُمَّ قَرَأَ: **﴿وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾** " .

﴿سُؤالٌ﴾ : مَاذَا عَنِ القُنْطَرَةِ الخَاصَّةِ بِمَنْ جَازَ الصِّرَاطَ مِنَ المُؤمِنِيْن ؟

الجواب : مَنْ يجوز الصِّراط من المؤمنين ، يذهبون بعده إلىٰ قنطرة بين الجنَّة والنَّار، وفي تلك القنطرة يتقاصُّون مظالم كانت بينهم في الحياة الدُّنيا ... حتَّىٰ إذا هُذِّبوا ونُقُّوا جاء الإذن لهم بدخول الجنَّة ...

فقد روىٰ البخاري (٣/ ١٢٨ برقم ٢٤٤٠) بسنده عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: " إِذَا خَلَصَ المُؤْمِنُونَ مِنَ النَّارِ حُبِسُوا بِقَنْطَرَةٍ بَيْنَ الجَنَّةِ وَالنَّارِ، فَيَتَقَاصُّونَ مَظَالِمَ كَانَتْ بَيْنَهُمْ فِي الدُّنْيَا حَتَّىٰ إِذَا نُقُّوا وَهُذِّبُوا، أُذِنَ لَهُمْ بِدُخُولِ الجَنَّةِ، فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَأَحَدُهُمْ بِمَسْكَنِهِ فِي الجَنَّةِ أَدَلُّ بِمَنْزِلِهِ كَانَ فِي الدُّنْيَا " .

قال الإمام القرطبي في " التَّذكرة بأحوال الموتىٰ وأمور الآخرة " (ص٧٦٧-٧٦٨) : " باب ذكر الصِّراط الثَّاني وهو القنطرة التي بين الجنَّة والنَّار : اعلم رحمك الله أنَّ في الآخرة صراطين: أحدهما مجاز لأهل المحشر كّلهم ثقيلهم وخفيفهم إلَّا من دخل الجنَّة بغير حساب أو من يلتقطه عُنُق النَّار ، فإذا خلص من هذا الصِّراط الأكبر الذي ذكرناه ولا يخلص منه إلَّا المؤمنون الذين علم الله منهم أَّن القصاص لا يستنفذ حسناتهم ، حبسوا علىٰ صراط آخر خاص لهم، ولا يرجع إلىٰ النَّار من هؤلاء أحد إن شاء الله ، لأنَّهم قد عبروا الصِّراط الأَّول المضروب علىٰ متن جهنَّم الذي يسقط فيها من أوبقه ذنبه ، وأربىٰ علىٰ الحسنات بالقصاص جرمه " .

قلت : ولعلَّ هذه القنطرة هي نهاية الصِّراط ، حيث خلص المؤمنون ، وهوىٰ الكفرة والمجرمون ، قال الحافظ ابن حجر في " فتح الباري" (٥/ ٩٦) عند تعليقه علىٰ الحديث السَّابق : " الَّذِي يَظْهَرُ أَنَّهَا طَرَفُ الصِّرَاطِ مِمَّا يَلِي الْجَنَّةَ ، وَيُحْتَمَلُ أَنْ تَكُونَ مِنْ غَيْرِهِ بَيْنَ الصِّرَاطِ وَالْجَنَّةِ " .

﴿سُؤالٌ﴾ : هَلْ وَرَدَ أَنَّ بَعْضَ أَهْلِ العِلْمِ قالُوا بِأَنَّ أَهْلَ الأَعْرَافِ هُمْ مِنَ المَلَائِكَة ؟

الجواب : نعم ، ذكر بعضُ أهل العلم أنَّ أهل الأعراف أنَّهم من المَلَائِكَة وليسوا من بني آدم . قال الإمام القرطبي في " الجامع لأحكام القرآن " (٧/ ٢١٢) : " وَقِيلَ: هُمْ مَلَائِكَةٌ مُوَكَّلُونَ بِهَذَا السُّورِ، يُمَيِّزُونَ الْكَافِرِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ قَبْلَ إِدْخَالِهِمُ الْجَنَّةَ وَالنَّارَ، ذَكَرَهُ أَبُو مِجْلَزٍ. فَقِيلَ لَهُ: لَا يُقَالُ لِلْمَلَائِكَةِ رِجَالٌ؟ فَقَالَ: إِنَّهُمْ ذُكُورٌ وَلَيْسُوا بِإِنَاثٍ، فَلَا يَبْعُدُ إِيقَاعُ لَفْظِ الرِّجَالِ عَلَيْهِمْ، كَمَا أُوقِعَ عَلَىٰ الْجِنِّ في قَوْلِهِ: **﴿وَأَنَّهُ كانَ رِجالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجالٍ مِنَ الْجِنِّ﴾** [الجن:٦] ، فَهَؤُلَاءِ المَلَائِكَة يَعْرِفُونَ المؤمنين بعلاماتهم والكفار بعلاماتهم، فيبشرون المؤمنين فبدخولهم الْجَنَّةَ وَهُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا بَعْدُ فَيَطْمَعُونَ فِيهَا. وَإِذَا رَأَوْا أَهْلَ النَّارِ دَعَوْا لِأَنْفُسِهِمْ بِالسَّلَامَةِ مِنَ الْعَذَابِ " .

وقال الإمام الألوسي في " روح المعاني " (٤/ ٣٦٣) : " وعن أبي مسلم : أنَّهم ملائكة ويُرون في صورة الرِّجال لا أنَّهم رجال حقيقة ، لأنَّ المَلَائِكَة لا يُوصفون بذكورة ولا أُنوثة " .

وقد أورد الإمام الطَّبري في " التَّفسير " (١٠/ ٢١٩ فما بعدها) العديد من الرِّوايات في ذلك ، منها:

حَدَّثَنِي يَعْقُوبُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ، قَالَ: ثنا ابْنُ عُلَيَّةَ، عَنْ أَبِي مِجْلَزٍ، قَوْلُهُ: **﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ﴾** [الأعراف: ٤٦] ، قَالَ: " هُمْ رِجَالٌ مِنَ المَلَائِكَة يَعْرِفُونَ أَهْلَ الْجَنَّةِ وَأَهْلَ النَّارِ. قَالَ **﴿ :وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾** [الأعراف: ٤٦] إِلَىٰ قَوْلِهِ: **﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾** [الأعراف: ٤٧] ، قَالَ: فَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا فِي النَّارِ يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ: **﴿مَا أَغْنَى عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ﴾** [الأعراف: ٤٩] ، قَالَ: فَهَذَا حِينَ دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ، **﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾** [الأعراف: ٤٩] .

حَدَّثَنَا ابْنُ عَبْدِ الْأَعْلَىٰ، قَالَ: ثنا الْمُعْتَمِرُ، قَالَ: سَمِعْتُ عِمْرَانَ، قَالَ: قُلْتُ لِأَبِي مِجْلَزٍ: يَقُولُ اللَّهُ: **﴿وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ﴾** [الأعراف: ٤٦] ، وَتَزْعُمُ أَنْتَ أَنَّهُمُ الْمَلَائِكَةُ؟ قَالَ: فَقَالَ: «إِنَّهُمْ ذُكُورٌ وَلَيْسُوا بِإِنَاثٍ» .

حَدَّثَنَا ابْنُ وَكِيعٍ، قَالَ: ثنا جَرِيرٌ، عَنْ سُلَيْمَانَ التَّيْمِيِّ، عَنْ أَبِي مِجْلَزٍ: **﴿وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ﴾** [الأعراف: ٤٦] ، قَالَ: «رِجَالٌ مِنَ المَلَائِكَة يَعْرِفُونَ الْفَرِيقَيْنِ جَمِيعًا بِسِيمَاهُمْ، أَهْلَ النَّارِ وَأَهْلَ الْجَنَّةِ، وَهَذَا قَبْلَ أَنْ

يَدْخُلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ» حَدَّثَنَا ابْنُ وَكِيعٍ قَالَ: ثنا مُحَمَّدُ بْنُ أَبِي عَدِيٍّ، عَنِ التَّيْمِيِّ، عَنْ أَبِي مِجْلَزٍ، بِنَحْوِهِ .

وَقَالَ: حَدَّثَنَا يَحْيَىٰ بْنُ يَمَانٍ، عَنْ سُفْيَانَ، عَنِ التَّيْمِيِّ، عَنْ أَبِي مِجْلَزٍ، قَالَ: «أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ الْمَلَائِكَةُ" .

حَدَّثَنِي الْمُثَنَّىٰ، قَالَ: ثنا يَعْلَىٰ بْنُ أَسَدٍ، قَالَ: ثنا خَالِدٌ، قَالَ: أَخْبَرَنَا التَّيْمِيُّ، عَنْ أَبِي مِجْلَزٍ: **﴿وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ﴾** [الأعراف: ٤٦] ، قَالَ: «هُمُ الْمَلَائِكَةُ».

حَدَّثَنَا ابْنُ وَكِيعٍ قَالَ: ثنا أَبِي، عَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُدَيْرٍ، عَنْ أَبِي مِجْلَزٍ: **﴿وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ ﴾** [الأعراف: ٤٦] ، قَالَ: " هُمُ الْمَلَائِكَةُ. قُلْتُ: يَا أَبَا مِجْلَزٍ، يَقُولُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ رِجَالٌ، وَأَنْتَ تَقُولُ مَلَائِكَةٌ؟ قَالَ: إِنَّهُمْ ذُكْرَانٌ لَيْسُوا بِإِنَاثٍ" .

حَدَّثَنِي الْمُثَنَّىٰ قَالَ: ثنا الْحَجَّاجُ قَالَ: ثنا حَمَّادٌ، عَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُدَيْرٍ، عَنْ أَبِي مِجْلَزٍ، فِي قَوْلِهِ: **﴿وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ﴾** [الأعراف: ٤٦] ، قَالَ: " الْمَلَائِكَةُ، قَالَ: قُلْتُ: يَقُولُ اللَّهُ رِجَالٌ؟ قَالَ: المَلَائِكَة ذُكُورٌ " .

والحقّ أنَّ القول بأنَّ أهل الأعراف ملائكة ، باطل من القول ، لأنَّ نصَّ الآية صريح في كونهم رجال ، قال تعالىٰ : **﴿وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ﴾** [الأعراف:٤٦] ، والرَّجل مختصٌّ بالذَّكَر من النَّاس ، ويُقال للمرأة المتشبِّهة بالرَّجل : رَجُلَة .

ثم إنَّ المَلَائِكَة لا يوصفون بذكورة ولا بأنوثة ، ولذلك نعىٰ الله تعالىٰ علىٰ المشركين الذين كانوا يزعمون أنَّ المَلَائِكَة إناثاً ، قال تعالىٰ : **﴿فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ * أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَة إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ * أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ * وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ * أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ *أَفَلَا تَذَكَّرُونَ * أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُبِينٌ﴾** [الصافات: ١٤٩ – ١٥٦] .

وقال سبحانه في آية أخرىٰ : **﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَة الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ ﴾** [الزخرف:١٩] .

فالملائكة لا يوصفون بذكورة ولا بأنوثة ، وبالتَّالي فهم لا يتناكحون ، ولا يتزاوجون ، ولا يتناسلون ، فهم ليسوا بحاجة إلىٰ وصفهم بالذُّكورة ولا بالأنوثة.

ثمَّ إنَّ الرِّوايات التي ساقها الطَّبري كلُّها تنسب الكلام لأبي مجلز ، واسمه لاحق بن حميد ، وقد ضعَّفه يحيىٰ بن معين ، فقال : مضطرب الحديث . انظر: الكامل في الضُّعفاء (٤/ ٣٧٢، ترجمة رقم ١٩٨٢) .

ومع أنَّ الجمهور علىٰ توثيقه ، إلَّا أنَّ كلامه هنا لا دليل ولا برهان عليه ، ولا يُعرف له وجه ، وهو كما رأينا مخالف لما هو مقرَّر في عقيدتنا بالملائكة : أنَّهم لا يوصفون بذكورة ولا بأنوثة ، وبالتَّالي فهم لا يتناكحون ولا يتناسلون...

ولذلك رأينا الإمام ابن كثير يعلِّق في " التَّفسير " (٣/ ٤٢١) علىٰ الرِّواية الأولىٰ التي ساقها الطَّبري ، وينبِّه إلىٰ غرابتها فيقول : " وَهَذَا صَحِيحٌ إِلَىٰ أَبِي مِجْلَزٍ لَاحِقِ بْنِ حُمَيْدٍ أَحَدِ التَّابِعِينَ، وَهُوَ غَرِيبٌ مِنْ قَوْلِهِ وَخِلَافُ الظَّاهِرِ مِنَ السِّيَاقِ: وَقَوْلُ الْجُمْهُورِ مُقَدَّمٌ عَلَىٰ قَوْلِهِ، بِدَلَالَةِ الْآيَةِ عَلَىٰ مَا ذَهَبُوا إِلَيْهِ" .

وعلق الإمام الطَّبري (١٠/ ٢٢١) علىٰ الرِّوايات التي ساقها عن أبي مجلز ، فقال : " قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ: وَالصَّوَابُ مِنَ الْقَوْلِ فِي أَصْحَابِ الْأَعْرَافِ أَنْ يُقَالَ كَمَا قَالَ اللَّهُ جَلَّ ثَنَاؤُهُ فِيهِمْ: هُمْ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَأَهْلِ النَّارِ بِسِيمَاهُمْ، وَلَا خَبَرَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَصِحُّ سَنَدُهُ وَلَا أَنَّهُ مُتَّفَقٌ عَلَىٰ تَأْوِيلِهَا، وَلَا إِجْمَاعٌ مِنَ الْأُمَّةِ عَلَىٰ أَنَّهُمْ مَلَائِكَةٌ. فَإِذْ كَانَ ذَلِكَ كَذَلِكَ، وَكَانَ ذَلِكَ لَا يُدْرَكُ قِيَاسًا، وَكَانَ الْمُتَعَارَفُ بَيْنَ أَهْلِ لِسَانِ الْعَرَبِ أَنَّ الرِّجَالَ اسْمٌ يَجْمَعُ ذُكُورَ بَنِي آدَمَ دُونَ إِنَاثِهِمْ وَدُونَ سَائِرِ الْخَلْقِ غَيْرِهِمْ، كَانَ بَيِّنًا أَنَّ مَا قَالَهُ أَبُو مِجْلَزٍ مِنْ أَنَّهُمْ مَلَائِكَةٌ قَوْلٌ لَا مَعْنَىٰ لَهُ، وَأَنَّ الصَّحِيحَ مِنَ الْقَوْلِ فِي ذَلِكَ مَا قَالَهُ سَائِرُ أَهْلِ التَّأْوِيلِ غَيْرَهُ"

وذكر الطَّبرانيُّ في تفسيره (٣/ ١٤٣) أنَّ مجاهداً بلغه مقالة أبي مجلز ، فقال : كذبَ أبو مجلز ، يقول الله تعالىٰ : ﴿**وَعَلَى الأَعْرَافِ رِجَالٌ**﴾ [الأعراف:٤٦] فبلغ ذلك أبا مجلز ، فقال : هم المَلَائِكَة ، والملائكة ذكور وليسوا بإناث ، صورهم صور الرِّجال " .

﴿سُؤالٌ ﴾ : هَلْ لِلْمَلَائِكَةِ شَفَاعَةٌ ؟

الجواب : نعم المَلَائِكَة يشفعون ، دلَّ علىٰ ذلك آيات الكتاب العزيز وأحاديث الرَّسول صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، من ذلك : قوله تعالىٰ : ﴿**وَقالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمنُ وَلَداً سُبْحانَهُ بَلْ عِبادٌ مُكْرَمُونَ * لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ * يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَما خَلْفَهُمْ وَلا يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ**﴾ [الأنبياء:٢٦-٢٨] ، قال الإمام القرطبي في " الجامع لأحكام القرآن " (١١/ ٢٨١) : " ﴿**وَلا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضى**﴾ ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: هُمْ أَهْلُ شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: هُمْ كُلُّ مَنْ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَالْمَلَائِكَةُ يَشْفَعُونَ غَدًا فِي الْآخِرَةِ كَمَا فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ وَغَيْرِهِ، وَفِي الدُّنْيَا أَيْضًا، فَإِنَّهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلِمَنْ فِي الْأَرْضِ، كَمَا نَصَّ عَلَيْهِ التَّنْزِيلُ " .

قلت : واستغفار المَلَائِكَة للمؤمنين ثابت في القرآن العظيم ، قال تعالىٰ : **﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْماً فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذابَ الْجَحِيمِ * رَبَّنا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبائِهِمْ وَأَزْواجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * وَقِهِمُ السَّيِّئاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾**[غافر:٧-٩] . والآية نصٌّ محكم واضح في التَّدليل علىٰ دعاء المَلَائِكَة واستغفارهم واستشفاعهم للمؤمنين ولأولادهم وزوجاتهم أن يدخلهم الله الجنَّة ... قال الإمام الطَّاهر بن عاشور في " التَّحرير والتَّنوير " (٢٤/ ٨٩-٩٠) عند تفسيره للآية : " وَخَصَّ فِي هَذِهِ الْآيَةِ طَائِفَةً مِنَ المَلَائِكَة مَوْصُوفَةً بِأَوْصَافٍ تَقْتَضِي رِفْعَةَ شَأْنِهِمْ تَدَرُّعًا مِنْ ذَلِكَ إِلَىٰ التَّنْوِيهِ بِشَأْنِ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ تَسْتَغْفِرُ لَهُمْ هَذِهِ الطَّائِفَةُ الشَّرِيفَةُ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، وَإِلَّا فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ أَسْنَدَ مِثْلَ هَذَا الِاسْتِغْفَارِ لِعُمُومِ المَلَائِكَة فِي قَوْلِهِ فِي سُورَةِ الشُّورَىٰ : **﴿وَالْمَلائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾** ، أَيْ : مِنَ الْمُؤْمِنِينَ بِقَرِينَةِ قَوْلِهِ فِيهَا بَعْدَهُ: **﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِياءَ اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ﴾** [الشورىٰ: ٦] .

والَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ هُمُ الْمُوَكَّلُونَ بِرَفْعِ الْعَرْشِ الْمُحِيطِ بِالسَّمَاوَاتِ وَهُوَ أَعْظَمُ السَّمَاوَاتِ، وَلِذَلِكَ أُضِيفَ إِلَىٰ اللَّهِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: **﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمانِيَةٌ﴾** [الحاقة: ١٧] .

ومَنْ حَوْلَهُ طَائِفَةٌ مِنَ المَلَائِكَة تَحُفُّ بِالْعَرْشِ تَحْقِيقًا لِعَظَمَتِهِ قَالَ تَعَالَىٰ: **﴿وَتَرَى المَلائِكَة حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾** [الزمر: ٧٥] ، وَلَا حَاجَةَ إِلَىٰ الْخَوْضِ فِي عَدَدِهِمْ **﴿وَما يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾** [المدثر: ٣١] .

وَالْإِخْبَارُ عَنْ صِنْفَي المَلَائِكَة بِأَنَّهُمْ يُسَبِّحُونَ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ تَوْطِئَةٌ وَتَمْهِيدٌ لِلْإِخْبَارِ عَنْهُمْ بِأَنَّهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينِ آمَنُوا فَذَلِكَ هُوَ الْمَقْصُودُ مِنَ الْخَبَرِ، فَقَدَّمَ لَهُ مَا فِيهِ تَحْقِيقُ اسْتِجَابَةِ اسْتِغْفَارِهِمْ لِصُدُورِهِ مِمَّنْ دَأْبُهُمُ التَّسْبِيحُ وَصِفَتُهُمُ الْإِيمَانُ.

وَصِيغَةُ الْمُضَارِعِ فِي **﴿يُسَبِّحُونَ﴾** و **﴿يُؤْمِنُونَ﴾** و**﴿يَسْتَغْفِرُونَ﴾** مُفِيدَةٌ لِتَجَدُّدِ ذَلِكَ وَتَكَرُّرِهِ، وَذَلِكَ مُشْعِرٌ بِأَنَّ الْمُرَادَ أَنَّهُمْ يَفْعَلُونَ ذَلِكَ فِي الدُّنْيَا كَمَا هُوَ الْمُلَائِمُ لِقَوْلِهِ: **﴿فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تابُوا﴾** ، وَقَوْلِهِ: **﴿وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ﴾** [غَافِر: ٨] ، وَقَوْلِهِ: **﴿وَمَنْ تَقِ السَّيِّئاتِ﴾** [غَافِر: ٩] إِلَخْ وَقَدْ قَالَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَىٰ **﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾** [الشورىٰ: ٥] ، أَيْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ كَمَا تَقَدَّمَ" .

وقال الإمام الرَّزي في : " التَّفسير " (٢٧/ ٤٨٩- ٤٩٠) : " احْتَجَّ الْكَعْبِيُّ بِهَذِهِ الْآيَةِ عَلَىٰ أَنَّ تَأْثِيرَ الشَّفَاعَةِ فِي حُصُولِ زِيَادَةِ الثَّوَابِ لِلْمُؤْمِنِينَ لَا فِي إِسْقَاطِ الْعِقَابِ عَنِ الْمُذْنِبِينَ، قَالَ وَذَلِكَ لِأَنَّ المَلَائِكَة قَالُوا فَاغْفِرْ

لِلَّذِينَ تابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ قَالَ وَلَيْسَ الْمُرَادُ فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا مِنَ الْكُفْرِ سَوَاءٌ كَانَ مُصِرًّا عَلَىٰ الْفِسْقِ أَوْ لَمْ يَكُنْ كَذَلِكَ، لِأَنَّ مَنْ هَذَا حَالُهُ لَا يُوصَفُ بِكَوْنِهِ مُتَّبِعًا سَبِيلَ رَبِّهِ وَلَا يُطْلَقُ ذَلِكَ فِيهِ، وَأَيْضًا إِنَّ المَلَائِكَة يَقُولُونَ وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَهَذَا لَا يَلِيقُ بِالْفَاسِقِينَ، لِأَنَّ خُصُومَنَا لَا يَقْطَعُونَ عَلَىٰ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَىٰ وَعَدَهُمُ الْجَنَّةَ وَإِنَّمَا يُجَوِّزُونَ ذَلِكَ، فَثَبَتَ أَنَّ شَفَاعَةَ المَلَائِكَة لا يتناول إِلَّا أَهْلَ الطَّاعَةِ، فَوَجَبَ أَنْ تَكُونَ شَفَاعَةُ الْأَنْبِيَاءِ كَذَلِكَ، ضَرُورَةَ أَنَّهُ لَا قَائِلَ بِالْفَرْقِ وَالْجَوَابُ أَنْ نَقُولَ هَذِهِ الْآيَةُ تَدُلُّ عَلَىٰ حصول الشَّفاعة من المَلَائِكَة المذنبين، فَنُبَيِّنُ هَذَا ثُمَّ نُجِيبُ عَمَّا ذَكَرَهُ الْكَعْبِيُّ، أَمَّا بَيَانُ دَلَالَةِ هَذِهِ الْآيَةِ عَلَىٰ مَا قُلْنَاهُ فَمِنْ وُجُوهٍ:

الْأَوَّلُ: قَوْلُهُ: **﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِين آمَنُوا﴾**، وَالِاسْتِغْفَارُ طَلَبُ الْمَغْفِرَةِ، وَالْمَغْفِرَةُ لَا تُذْكَرُ إِلَّا فِي إِسْقَاطِ الْعِقَابِ. أَمَّا طَلَبُ النَّفْعِ الزَّائِدِ فَإِنَّهُ لَا يُسَمَّىٰ اسْتِغْفَارًا.

الثَّانِي: قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: **﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾**، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ لِكُلِّ أَهْلِ الْإِيمَانِ، فَإِذَا دَلَّلْنَا عَلَىٰ أَنَّ صَاحِبَ الْكَبِيرَةِ مُؤْمِنٌ وَجَبَ دُخُولُهُ تَحْتَ هَذِهِ الشَّفَاعَةِ.

الثَّالِثُ: قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: **﴿فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تابُوا﴾** طَلَبُ الْمَغْفِرَةِ لِلَّذِينِ تَابُوا، وَلَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ إِسْقَاطَ عُقُوبَةِ الْكَبِيرَةِ بَعْدَ التَّوْبَةِ، لِأَنَّ ذَلِكَ وَاجِبٌ عَلَىٰ اللَّهِ عِنْدَ الْخَصْمِ، وَمَا كَانَ فِعْلُهُ وَاجِبًا كَانَ طَلَبُهُ بِالدُّعَاءِ قَبِيحًا، وَلَا يَجُوزُ أَيْضاً أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ إِسْقَاطَ عُقُوبَةِ الصَّغَائِرِ، لِأَنَّ ذَلِكَ أَيْضًا وَاجِبٌ فَلَا يَحْسُنُ طَلَبُهُ بِالدُّعَاءِ، وَلَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ طَلَبَ زِيَادَةِ مَنْفَعَةٍ عَلَىٰ الثَّوَابِ، لِأَنَّ ذَلِكَ لَا يُسَمَّىٰ مَغْفِرَةً، فَثَبَتَ أَنَّهُ لَا يُمْكِنُ حَمْلُ قَوْلِهِ فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تابُوا إِلَّا عَلَىٰ إِسْقَاطِ عِقَابِ الْكَبِيرَةِ قَبْلَ التَّوْبَةِ، وَإِذَا ثَبَتَ هَذَا فِي حَقِّ المَلَائِكَة فَكَذَلِكَ فِي حَقِّ الْأَنْبِيَاءِ لِانْعِقَادِ الْإِجْمَاعِ عَلَىٰ أَنَّهُ لَا فَرْقَ، أَمَّا الَّذِي يَتَمَسَّكُ بِهِ الْكَعْبِيُّ وَهُوَ أَنَّهُمْ طَلَبُوا الْمَغْفِرَةَ لِلَّذِينِ تَابُوا، فَنَقُولُ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ مِنْهُ الَّذِينَ تَابُوا عَنِ الْكُفْرِ وَاتَّبَعُوا سَبِيلَ الْإِيمَانِ، وَقَوْلُهُ إِنَّ التَّائِبَ عَنِ الْكُفْرِ الْمُصِرَّ عَلَىٰ الْفِسْقِ لَا يُسَمَّىٰ تَائِبًا وَلَا مُتَّبِعًا سَبِيلَ اللَّهِ، قُلْنَا لَا نُسَلِّمُ قَوْلَهُ، بَلْ يُقَالُ إِنَّهُ تَائِبٌ عَنِ الْكُفْرِ وَتَابِعٌ سَبِيلَ اللَّهِ فِي الدِّينِ وَالشَّرِيعَةِ، وَإِذَا ثَبَتَ أَنَّهُ تَائِبٌ عَنِ الْكُفْرِ ثَبَتَ أَنَّهُ تَائِبٌ، أَلَا تَرَىٰ أَنَّهُ يَكْفِي فِي صِدْقِ وَصْفِهِ بِكَوْنِهِ ضَارِبًا وَضَاحِكًا صُدُورُ الضَّرْبِ وَالضَّحِكِ عَنْهُ مَرَّةً وَاحِدَةً، وَلَا يَتَوَقَّفُ ذَلِكَ عَلَىٰ صُدُورِ كُلِّ أَنْوَاعِ الضَّرْبِ وَالضَّحِكِ عَنْهُ فَكَذَا هَاهُنَا.

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ: قَالَ أَهْلُ التَّحْقِيقِ: إِنَّ هَذِهِ الشَّفَاعَةَ الصَّادِرَةَ عَنِ المَلَائِكَة فِي حَقِّ الْبَشَرِ تَجْرِي مجرىٰ اعتذار عن ذلة سَبَقَتْ، وَذَلِكَ لِأَنَّهُمْ قَالُوا فِي أَوَّلِ تَخْلِيقِ الْبَشَرِ **﴿أَتَجْعَلُ فِيها مَنْ يُفْسِدُ فِيها وَيَسْفِكُ الدِّمَاء﴾** [الْبَقَرَةِ: ٣٠] فَلَمَّا سَبَقَ مِنْهُمْ هَذَا الْكَلَامُ تَدَارَكُوا فِي آخِرِ الْأَمْرِ بِأَنْ قَالُوا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ

وَقِهِمْ عذابَ الْجَحِيمِ ، وَهَذَا كَالتَّنْبِيهِ عَلَىٰ أَنَّ مَنْ آذَىٰ غَيْرَهُ، فَالْأَوْلَىٰ أَنْ يَجْبُرَ ذَلِكَ الْإِيذَاءَ بِإِيصَالِ نَفْعٍ عَلَيْهِ" .

ومن الآيات التي دلَّت علىٰ إثبات شَّفاعة المائكة للمؤمنين : قوله تعالىٰ : ﴿**وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّماواتِ لا تُغْنِي شَفاعَتُهُمْ شَيْئاً إِلاَّ مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشاءُ وَيَرْضى**﴾ [النَّجم:٢٦] .

وروىٰ مسلم (١/ ١٦٧ برقم ١٨٣) بسنده عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ، أَنَّ نَاسًا فِي زَمَنِ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، هَلْ نَرَىٰ رَبَّنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ ... وفيه : " فَيَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: شَفَعَتِ الْمَلَائِكَةُ، وَشَفَعَ النَّبِيُّونَ، وَشَفَعَ الْمُؤْمِنُونَ، وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ " ...

﴿سُؤالٌ﴾ : هَلْ سُتُخْرِجُ المَلَائِكَة العُصَاةَ مِنَ المُكلَّفِيْنَ مِنْ النَّارِ يَوْمَ القِيَامَةِ بِأَمْرِ رَبِّهِم ؟

الجواب : روىٰ البخاري (٩/ ١٢٨ برقم ٧٤٣٧ ، واللفظ له) ، ومسلم (١/ ١٦٣ برقم ١٨٢) بسندهما عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ: أَنَّ النَّاسَ قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَلْ نَرَىٰ رَبَّنَا يَوْمَ القِيَامَةِ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «هَلْ تُضَارُّونَ فِي القَمَرِ لَيْلَةَ البَدْرِ؟» ، قَالُوا: لاَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: «فَهَلْ تُضَارُّونَ فِي الشَّمْسِ، لَيْسَ دُونَهَا سَحَابٌ؟» ، قَالُوا: لاَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: «فَإِنَّكُمْ تَرَوْنَهُ كَذَلِكَ» ، يَجْمَعُ اللَّهُ النَّاسَ يَوْمَ القِيَامَةِ، فَيَقُولُ: مَنْ كَانَ يَعْبُدُ شَيْئًا فَلْيَتْبَعْهُ، فَيَتْبَعُ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ الشَّمْسَ الشَّمْسَ، وَيَتْبَعُ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ القَمَرَ القَمَرَ، وَيَتْبَعُ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ الطَّوَاغِيتَ الطَّوَاغِيتَ، وَتَبْقَىٰ هَذِهِ الأُمَّةُ فِيهَا شَافِعُوهَا أَوْ مُنَافِقُوهَا - شَكَّ إِبْرَاهِيمُ -، فَيَأْتِيهِمُ اللَّهُ فَيَقُولُ: أَنَا رَبُّكُمْ، فَيَقُولُونَ: هَذَا مَكَانُنَا حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا رَبُّنَا، فَإِذَا جَاءَنَا رَبُّنَا عَرَفْنَاهُ، فَيَأْتِيهِمُ اللَّهُ فِي صُورَتِهِ الَّتِي يَعْرِفُونَ، فَيَقُولُ: أَنَا رَبُّكُمْ، فَيَقُولُونَ: أَنْتَ رَبُّنَا فَيَتْبَعُونَهُ، وَيُضْرَبُ الصِّرَاطُ بَيْنَ ظَهْرَيْ جَهَنَّمَ، فَأَكُونُ أَنَا وَأُمَّتِي أَوَّلَ مَنْ يُجِيزُهَا، وَلاَ يَتَكَلَّمُ يَوْمَئِذٍ إِلَّا الرُّسُلُ، وَدَعْوَىٰ الرُّسُلِ يَوْمَئِذٍ: اللَّهُمَّ سَلِّمْ سَلِّمْ، وَفِي جَهَنَّمَ كَلاَلِيبُ مِثْلُ شَوْكِ السَّعْدَانِ، هَلْ رَأَيْتُم السَّعْدَانَ؟ "، قَالُوا: نَعَمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: " فَإِنَّهَا مِثْلُ شَوْكِ السَّعْدَانِ، غَيْرَ أَنَّهُ لاَ يَعْلَمُ مَا قَدْرُ عِظَمِهَا إِلَّا اللَّهُ، تَخْطَفُ النَّاسَ بِأَعْمَالِهِمْ، فَمِنْهُمُ المُوبَقُ بَقِيَ بِعَمَلِهِ - أَوِ المُوثَقُ بِعَمَلِهِ -، وَمِنْهُمُ المُخَرْدَلُ، أَوِ المُجَازَىٰ، أَوْ نَحْوُهُ، ثمَّ يَتَجَلَّىٰ، حَتَّىٰ إِذَا فَرَغَ اللَّهُ مِنَ القَضَاءِ بَيْنَ العِبَادِ، وَأَرَادَ أَنْ يُخْرِجَ بِرَحْمَتِهِ مَنْ أَرَادَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، أَمَرَ المَلاَئِكَة أَنْ يُخْرِجُوا مِنَ النَّارِ، مَنْ كَانَ لاَ يُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا، مِمَّنْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَرْحَمَهُ، مِمَّنْ يَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَيَعْرِفُونَهُمْ فِي النَّارِ بِأَثَرِ السُّجُودِ، تَأْكُلُ النَّارُ ابْنَ آدَمَ إِلَّا أَثَرَ السُّجُودِ، حَرَّمَ اللَّهُ عَلَىٰ النَّارِ أَنْ تَأْكُلَ أَثَرَ السُّجُودِ، فَيَخْرُجُونَ مِنَ النَّارِ، قَدْ امْتُحِشُوا، فَيُصَبُّ عَلَيْهِمْ مَاءُ الحَيَاةِ، فَيَنْبُتُونَ تَحْتَهُ كَمَا تَنْبُتُ الحِبَّةُ فِي حَمِيلِ السَّيْلِ، ثمَّ يَفْرُغُ اللَّهُ مِنَ القَضَاءِ بَيْنَ العِبَادِ، وَيَبْقَىٰ رَجُلٌ مِنْهُمْ مُقْبِلٌ بِوَجْهِهِ عَلَىٰ النَّارِ، هُوَ آخِرُ أَهْلِ النَّارِ دُخُولًا الجَنَّةَ ... " .

وَالحَمْدُ لِلهِ رَبِّ العَالَمِيْن